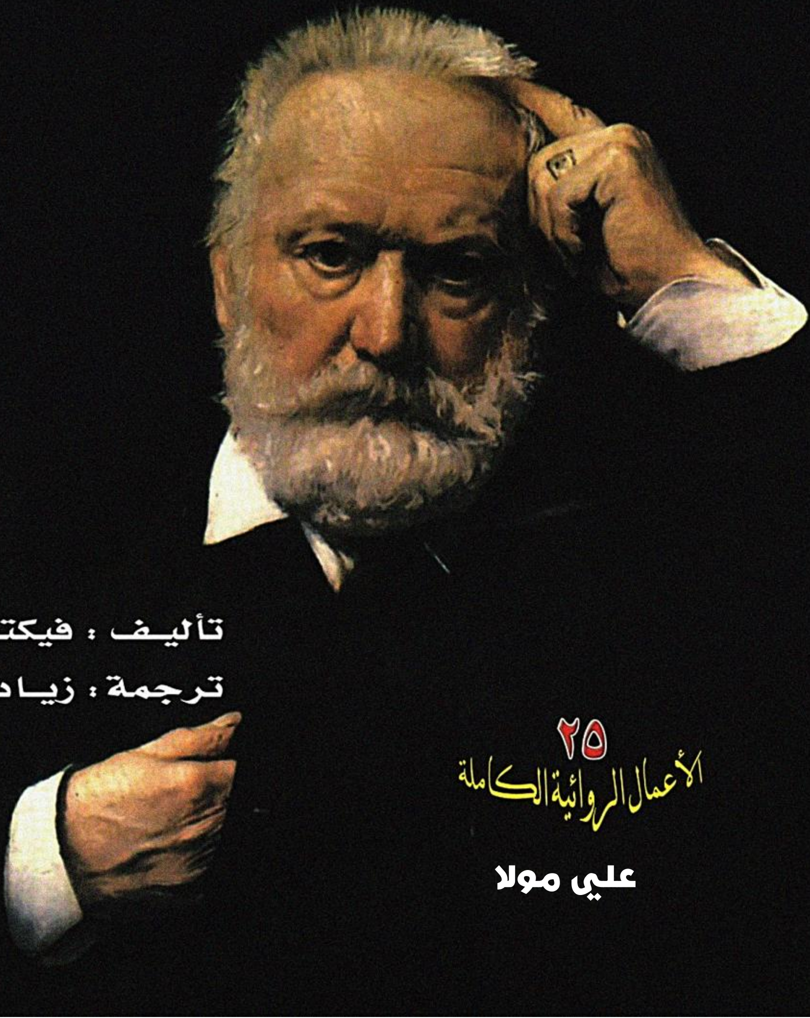
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الرجل الضاحك



تأليف : فيكتور هوغو
ترجمة : زياد العودة

٢٥
الأعمال الروائية الكاملة

علي مولا

الرجل الضاحك

تصميم الغلاف

أحمد إسماعيل

الرجل الضاحك

- ٥ -

الأعمال الروائية الكاملة

تقديم: بيير ألبوي

طبعة أعدّها وعلّق عليها

روجيه بوردري

تأليف : فيكتور هوغو

ترجمة: زيـاد العـودة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

عنوان الكتاب الأصلي :

Victor Hugo

L'Homme qui Rit

Introduction de pierre Albouy

Edition établie et annotée

Par Roger Borderie

الرجل الضاحك: الأعمال الروائية الكاملة / تأليف فيكتور هوغـــو؛ ترجمة زياد العودة؛ تقديم بيير أليوي .- دمشق: الهيئة العامة السورية، ٢٠١٢م .- ٩٤٤ ص؛ ٢٤ سم.

الأعمال الكاملة؛ ٢٥)

١٠ ٨٣٤ ف هـ ي غ ر ٢- العنوان ٣- هيغو

٤- العودة ٤- السلسلة

مكتب الأسد

الأعمال الكاملة

«٢٥»

مدخل

الضّحك ثورةٌ

بين روايات فيكتور هيغو التي لم تشتهر شهرةً واسعة، بقيت روايةُ 'الرّجل الضّاحك' لزمنٍ طويل هي الرّواية الأكثر تعرّضاً للتجاهل؛ ففيها تبلغ 'عيوبُ' هيغو ذروتها: مبالغةٌ وزيف في صورة الأرستقراطية الإنكليزية في عهد الملكة آن، وعدم واقعية في طباع الشخصيات وفي الحدث الرّوائي، وهذيان كلاميّ، ومعرفةٌ متبحرةٌ في المقاطع المسهبة التي يتلوها المشعوذ، الفيلسوف أورسوس.... إن غنيمةً كهذه مقدّمة إلى النقّد، وفداحةَ 'العيوب'، وجلاءَها الذي قد يعدُّ مستفزاً، قد تجعل المرء يفترض أن أولئك الذين ينساقون إلى الفخّ، فخّ نقدٍ عنيفٍ مفرطٍ في سهولته بحيث لا يمكن أن يكون مقنعاً، لم يُحسنوا قراءةَ هذه الرّواية كما يتطلّب الأمرُ أن تُقرأ. إن إعادةَ الاعتبار لها جارية، في حقيقة الأمر. والأمر نفسه الذي يجعلها لا تُطاق بالنسبة للذّوق 'التقليديّ'، يجعلها عذبةً بالنسبة لذوق مختلف. وهكذا فإن مارسيل ريمون قد راق له أن يكتشف فيها رواية باروكيّة[1] ثم إن ج - ب باريّر قد أحسّ جيّداً 'بالطّابع الحلميّ الذي يغمر المؤلّف بكامله، وقام بتحليله؛

(١) أسلوب فنّي تميّز بالزّخارف والحركيّة والحريّة في الشكل، خصوصاً في القرن السابع عشر (م: ز.ع).

وتردُ صفة سيرياليّ حتى على قلمه، وتُقارَن رؤى الرواية بالأحلام "المرعبة أو الشهّوانيّة" التي يحلم بها هيغو، ويدوّنها باهتمامٍ بالغ في الكرّاسات المعاصرة لصياغة الرجّل الضّاحك[1]. هل كان بول كلوديل إذن على حقّ حين رأى في هذا "الألبوم، ألبومَ الصوّر الحجريّة الملحميّة والباعثة على الذعر [.....] رائعة الشاعر الكبير الفنية"؟ إن أحكام كلوديل على هيغو، الملأى بكاملها بالتحيّز، والضلالات والحماقات لا تفتقر قطّ إلى الذكاء والصّدق. ويمكن بحذر أن نثق بهذا الشاّعر. ومع ذلك، فلن نوصي إطلاقاً بالرجل الضاحك، باعتبارها روايةً شعرية أو ذات طابع حلْميّ، وباعتبارها احتفالاً للذاكرة، فهذه الرّواية، إن لم تكن كما يقول كلوديل بشيء من الخداع، رائعة هيغو، فهي إحدى روائعه الأهم بالأحرى، إنّها في قلب العالم الهيغوليّ، مؤلّفٌ هام.

إن الهدف الذي يسعى إليه هيغو، حين كان يكتب هذه الرّواية من العام ١٨٦٦ وحتى ١٨٦٨[٢]، هدفٌ مزدوج. إن مشروع مقدّمه "ممكنة" يؤول

(١) فانتازيا فيكتور هيغو. المجلد الثاني، الصفحات ٤١٢ - ٤١٤.

(٢) منذ نشر "عمال البحر" وفي ١٢ آذار العام ١٨٦٨، كان هيغو يفكرّ بثلاثيةٍ روائية بعنوان: دراسات اجتماعية، تبدأ بالرّجل الضّاحك، أو انكلترا بعد عام ١٦٨٨، وتتبعها: فرنسا قبل عام ١٧٨٩، وتنتهي ب "عام ٩٣". وبعد انتهاء مراجعة مسرحيّته: جائزة ألف فرنك، يكتب ملهاة: التدخل، ثم يذهب إلى بروكسيل حيث يبدأ بصياغة: الرّجل الضّاحك، في ١٢ تموز. ويعلّق العمل في ٦ تشرين الأول، عند الفصل: تأثير الثلج (١،٢،٣). ويعود إلى العمل فيها في غير نيزيه، في ٦ تشرين الثاني. ويتركه مجدداً في ٢٤ من الشهر نفسه ليكتب: باريس - الدّليل والتي سوف يقرؤها لعائلته، في ٢٢ شباط ١٨٦٧. ولن يعود إلى هذه الرواية إلا بعد أن ينتهي من: هل سيأكلون؟ واعتباراً من الأول من أيار وحتى ١١ تموز، يتابع صياغتها في تلك الفترة حتى الفصل الثامن من الكتاب الثالث في القسم الثاني. ثم يذهب إلى بروكسيل من أجل معمودية حفيده جورج، ويسافر إلى ايرلندا، وحين يعودُ إلى غيرنيزيه، يعود إلى روايته التي يتواصل تنفيذها إلى الصّيف التالي. وحين يذهبُ مجدّداً إلى بروكسيل،

إلى التصريح التالي: "شعرتُ بالحاجة إلى تأكيد الرّوح" وتردّد مشاريعُ أخرى "أن هدفَ الفنّ هو تأكيد النفس البشريّة"؛ فهذا الكتاب هو دراما (مأساة) النفس". وغوينبلين الذي يتعرض لإغراء جوزيان، التي هي الجسد، سوف يُستبقى لعرسٍ، فيما وراء الموت، مع ديا، التي هي الرّوح. ما من شكّ في أن هيغو قد أراد أن يعارض "الماديّة" و"الارتيابية" اللتين تبدوان أنهما قد أحرزتا الظفر، في تلك السّنوات، في ميدان الفكر (الوضعيّة)، وفي الفنّ (الواقعيّة)، وفي السّياسة، مع ما يُسمى بالاشتراكيّة المعويّة" والتي شهّر بها، في عام ١٨٦٠ في المقدّمة الفلسفية. والحال، فإن هذا النصّ الأخير يبيّن ذلك بشكل ساطع. فالمعركة من أجل الرّوح لا تنفصل عن المعركة من أجل الدّيمقراطية: وما من جمهوريةٍ بلا مثلٍ أعلى.... كما أن القصد الثاني للرّواية

وفي ٢٧ تموز للعام ١٨٦٨، لم يكن قد بقي عليه أن يكتب إلاّ الخاتمة. وفي ٢٤ نيسان، يموت حفيده. وفي الأول من آب، يفتح هيغو مجدداً مخطوطته، وفي السادس عشر منه، وعلى هامش الأغنية الإسبانية التي تنادي بها ديا غوينبلين في فصل: الجنة= = المستعادة على الأرض، يسجّل ولادة حفيده الثاني المسمى جورج أيضاً: "اليوم وقد فرغتُ من كتابة نداء لغائب، رجع جورج الصّغير. وفي السّاعة الرابعة وخمس دقائق بعد الظهر، ولدته أليس" إن هذه الأسرار، أسرار الموت والولادة. وحياة النفوس فيما وراء الوجود الأرضي، وحوله، تلقي ضوءاً على الخاتمة التي تنتهي صياغتها في ٢٣ آب. صعوباتُ إخفاقٍ في مسار التقدّم، إضافة إلى هزيمة غاريبالدي في ٣ تشرين الثاني للعام ١٨٦٧ في مانتانا التي أوحت إلى هيغو بقصيدة: صوت غيرنيزيه، وولادة طفل وموته، وولادة حفيد جديد هو بلا شك شبح عائد، أسرار خفية قائمة وفرحة معاً لقانون تكوّنِ التقدم وحياة النفوس وتصدر: "الرّجل الضّاحك" أخيراً، كنتاجٍ دراميٍّ، في ذلك السّنواتِ التي يهيمن فيها المسرح الحرّ" من ١٩ نيسان إلى ٨ أيار ١٨٦٩، بقليل من النجاح. ومن الأوّل من أيار إلى ٢١ حزيران، يكتب هيغو: "تور كيمادا التي هي. كما يبين شارل بودوان بصورةٍ ساطعة، مبنيةٍ على العقد نفسها" التي بنيت عليها الرجل الضاحك (عقد التشويه والتدمير الصفحات: ٨٧- ٨٩) من تحليل فيكتور هيغو، ويشير بودوان أيضاً إلى أن غوينبلين كان قد تعرّض للتشويه لصالح أخيه، اللورد ديفيد، لابن غير شرعي لوالده. ويتفق أن يشترك سبب التشويه مع عقدة أوديب: لنضف أنه ينضمّ إلى ثنائي الأخوين العدوّين ثنائيُّ الأختين العدوّتين، الملكة آن التي لها الأب نفسه الذي للدّوقة جوزيان، الابنة غير الشرعية أيضاً.

ينبع من القصد الأوّل: فنحو نهاية تلك الإمبراطورية التي تدوم بشكل مؤكد، والتي نستسلم أحياناً للظنّ بأنها راسخة إلى الأبد أو لزمنٍ طويل جدّاً، فإن 'الرّجل الضّاحك' كإثباتٍ للروح تشكلّ، فضلاً عن ذلك تنبؤاً ديمقراطيّاً[1]. إن غوينبلين يعلن على اللّوردات الضّاحكين والغاضبين الثّورةَ الآتيةَ وتحرير الشعّوب. وكما كان هيغو يكتب إلى فاكري، في كانون الثاني ١٨٦٩، فقد كان يقصد تقديم الدّليل، على الثورة، بفضل هذه الثلاثية، ثلاثية الأرستقراطية (أو الرّجل الضاحك)، والنظام الملكيّ، وعام ثلاثة وتسعين، من خلال تصوير جرائم وعناد الأرستقراطية والنظام الملكي[2]. وقد يسوّغ استخدام العنف إبان الثورة. وهكذا، فإن الرّجل الضّاحك ترتبط بقصيدة الثورة[3]. وتشكل، مثلها، أسطورة جبّارة. بينما تبدو، باعتبارها ملحمة الرّوح، وكأنها رواية مساريّة.

---

(١) وعندما يعارض هيغو، في مقطعٍ كهذا، بنو تر دام باريس، وبالبؤساء، وبعمّال البحر، وهي ثلاثية القدر ananke، الرّجل الضاحك، والحكمَ الملكي، وعام ثلاثة وتسعين، وهي ثلاثية الرّجاء، والحريّة والتقدّم، فهو يفكرّ بالتأكيد بذلك المأخذ الذي كان يوجّهه إليه بعضُ الديمقراطيين والذي مفاده أنه قد كان ضدّ الإيمان بالتقدّم، وأنه كان روائيّ القدر وكاتبه المسرحيّ (انظر: تقديمنا لكتاب: وليم شكسبير، في النادي الفرنسي للكتاب في الصفحة: ١٣٠ من المجلد الثاني عشر). ولنسجّل أخيراً بأن الرّجل الضاحك، رواية الروح التي تمجدّ الرّجاء ضدّ القدر، ليست على الإطلاق، كما يرى ج. ب باريّر، وم. ميلنر 'مؤلف فيكتور هيغو (الأكثر تشاؤماً) والذي تتعارض فيه 'الشيطانية المأسوية' مع 'رسالة البؤساء السّاطعة'. ولسوف نبرهن على العكس في موضع أبعد بقليل، حين نتكلّم على الموت المتألّق لغوينبلين، في نهاية الروّاية.

(٢) لم تكتب رواية 'الحكم الملكيّ' قطّ؛ وكان يمكن أن يكون لها استخدامٌ مزدوج مع 'الرّجل الضاحك' ويكون كافياً، لإثبات مسؤولية النظام القديم، نظام الماضي، في الإرهاب الثوري.

(٣) نادي الكتاب الفرنسي، المجلد العاشر، الصفحات: ٢١٧ – ٢٤٧. انظر أيضاً ملاحظاتنا على الصفحة ٢٥٣: فهذا 'التسويغ' لعام ٩٣ والذي يأخذ هنا مداه كلّه، كان قد صدر اعتباراً من عام ١٨٥٢، في ديوان: القصاص – ومع NOX = الليل (القسم الثامن).

ويعود الفضل إلى ليون سيلييه في إبراز هذا البناء، بناء "الرّجل الضّاحك[1]": إن غوينبلين، من خلال المحن والتجارب، يبلغ الخلاص. إن قسمي الرواية يمثّلان تدرُّبيّ البطل؛ فالطفلُ غوينبلين، الذي يتركه، أوّلاً، الكومبرا شيكوس[*] يعبر متاهةً ثلاثيةً؛ متاهة بورتلاند، ومتاهة فيموت، ومتاهة ميلكومب - ريجيس، فيلتقي الموت، من خلال المشنوق الذي تتلاعبُ به الرياحُ على شبه جزيرة بورتلاند، ثم الموت المدفون تحت الثلج؛ فينقذُ الطفلة التي كانت الميتة تضمُّها إلى صدرها، وهي ابنةٌ صغيرة سيصبح اسمُها ديا، ويجدُ حينذاك ملجأ في الكوخ المتنقل، كوخِ أورسوس. ولسوف يوجز فيما بعد، في خطابه الذي يلقيه في مجلس اللوردات، هذا التدرُّب الأول: "ذات ليلة، وفي ليلةٍ عاصفة، وكنتُ صغيراً جدًّا، ومتروكاً، ويتيماً، دخلتُ إلى تلك الظلمة التي تسمّونها المجتمع. وأول شيء رأيته هو القانون تحت شكل مشنقة، والشكل الثاني هو غناكم، تحت شكل امرأةٍ ميتة من البرد والجوع، والثالث هو المستقبل، تحت شكل طفلةٍ محتضرة، والرّابع هو الطيّب والحقيقي والعادل، تحت شكل متشرّدٍ ليس له رفيقٌ وصديق إلاّ ذئب". إن هذا التفسير، والحقّ يقال، يحيل إلى الإيديولوجيا السّياسية التي توضحها الرّواية، ومن هذه الزاوية، فإن مغامرات غوينبلين قد تدخل نطاق رواية التدريب، نطاق الـ Bil dungs rom an (رواية التعليم، بالألمانية: م. ز.ع). أكثر مما تدخل في رواية المسارّة.

ولكن، إذا كنّا لا نزدري هذه الرّمزيّة السياسيّة والاجتماعية، فنحن نرى أنّ ليون سيلييه على حقّ في أن يُظهر هذه البنية المساريّة للرّواية: فالمسارُ الصعبُ، بالإضافة إلى صورة المتاهة، والمحنة، تحت شكل موت - مفضٍ إلى

---

(١) "العماء المهزوم، فيكتور هيغو والرواية المساريّة" في: تحية إلى فيكتور هيغو، ستراسبور، ١٩٦٢.

(*) الكومبرا شيكوس هم قبائل غجرية مترحّلة تخطف الأطفال (م: ز.ع).

الولادة[1]، يبلّغ عنها، أو على نحوٍ أدق، الصّورةُ الأولى لمصير البطل وهي: الوفاء لخلاص المنكود أو المنكودين، والإحسان والمحبّة. ومن المناسب حتّى إيضاحُ المسار الصعب بصورة أكبر. في ذلك القسم الأوّل. وقد أولى هيغو في الحقيقة أهميّة خاصّة جداً لتحديد مسار بطله. إن الطفل غوينبلين، على مدى هذا القسم بكامله، لا يفعل شيئاً آخر سوى أن يسير: وحين يتركه الكومبرا شيكوس على ساحل البحر، وتحت شاطئ صخري، يتعيّن عليه، أولاً، أن يتسلّقه، ويشدّد هيغو على كلّ هذه الصعوبات الخاصة بالصّعود. ثم أن الطفل حين يصل إلى القمّة، يزحف على شبه جزيرة بورتلاند، مجتازاً ثلاث هضابٍ تفصلها تصدّعاتٌ أرضيّة. أما مظهرُ شبه الجزيرةِ "الذي هو على صورة مسنمٍ رملي وعائق صخري"، فيجعل الطفل مهدّداً "بالتّدحرجِ إلى أسفل الانحدار" وفي مرحلةٍ ثالثة، وحين يغادر شبه الجزيرة، يتوغل في البرزخ الذي يربطها بالأرض، وعلى "طمي طوفانيّ" يسمّونها Chess – Hill (جبل العشب)، يصادف خطراً جديداً، وهو خطر "السّقوط في فجوات" "وبعد أن واجه الهوّة، كان عليه أن يواجه المنقوع" منقع الماء، ومنقع الثلج والمنقع الأكثر إثارة للخوف من كلّ المناقع، وهو منقع الرمل. وحين يسير أخيراً على الأرض الصّلبة، يحمل بين ذراعيه البنت الصّغيرة التي التقطها من فوقِ الميتة، ويكون عنوان الفصل هو: "كلُّ طريقٍ مؤلمةٍ يزيدُها العبءُ الثقيل تعقيداً".

إذْ يتابع ليون سيلييه هذه المماثلةً مع المسيح، فهو يتحدّث عن "الحياة الخفيّة" حياة غوينبلين خلال خمسة عشر عاماً: "فالحياة العامّة" تشغل القسم الثاني، وتشكل، بعد التدرُّب الصغير الذي فرغنا من وصفه منذ قليل، التدرُّب الكبير. وهنا أيضاً، ثمة ثلاث متاهات. الأولى هي ساوثويرك "وتنتمي إلى قدريّة الشرائع" ويخرج غوينبلين منها ليشهد ولادةً جديدة، حين يصبح اللورد كلانشارلي، غير أنه يكابد حينذاك إغراء الكبرياء. وفي قصر كورليون –

---

(١) سوف نعثر على موضوع الولادة الثانية، الأساسي في هذه الرواية؛ ويتضاعف هنا بديا التي يلتقطها غوينبلين، ويخرجها من باطن الأرض، حين يحفر مرتفع الثلج الذي تدفن تحته الميتة، ثم حين يتمّ التقاط الطفلين وإنقاذهما على يد أورسوس، انظر شارل بودوان، (المرجع المذكور، الصفحات: ١٧١- ١٧٤).

لودج، الذي يصفه هيغو بوضوح بالمتاهة، يُجابه إغراءَ الجسد، حين يوضع أمام جوزيان العارية تقريباً، وأخيراً، المتاهة الثالثة، وهي مجلس اللوردات الذي يراه مكافحاً ضدّ القدريّة الاجتماعية، وأفعوان مجلس النوّاب. ويخفق غوينبلين في هذا الصّراع. ويرجع إلى ديا، وإلى المركب الذي يحمل الشابين، ومع أورسوس والذئب أومو، إنه "الفردوس المستعاد على الأرض". ويردّ الفصل التالي: "لا. في الأعالي". وتموت ديا، وغوينبلين الذي يلمحها، في كبد السّماء، نجمةً مرئية في عينيه وحدهما، يسير إلى لقائها، ويسقط في البحر. والحال، فإن هذا الانتحار الذي ينضمّ غوينبلين من خلاله إلى روحه يكون حقّاً، كما يريده سيلييه، "سراً خفيّاً سعيداً" عندما يسير غوينبلين، في المرحلة الأخيرة من مساره، إلى لقاء ديا – النجمة، من خلال البحر والموت، ويبتسم للمرّة الأولى. وهذه الابتسامة التي هي الابتسامة التي ارتسمت على وجه ديا وهي تموت، تحلّ محلّ الضحك الشّيطاني الذي كان النّاس قد نحتوه على وجه المهرّج المعذّب. ويصل غوينبلين إلى الخلاص.

لنعاين الآن عن كثب بنية هذه الرّواية المساريّة في جملتها، إن الظاهر للعيان هو أن القسم الأوّل والخاتمة يتقابلان، فأحدهما والأخرى قد حملا العنوان نفسه: "البحر والليل" وفي القسم الأوّل، عند الغسق، في جون بورتلاند، يبحر الكومبرا شيكوس على الهوركة[*] البيسكيّة، تاركين الطفل غوينبلين، على السّاحل الرملي. وفي حين ينظر الطفل إلى الهوركة وهي تبتعد، والتي تستحضر اسمها ماتوتينا الستيلا ماتوتينا، نجمةُ صبحِ طلبات العذراء[1]، ها هي فوانيس السفينة التي تضاء، في الليل الداهم "فتلك النقطة المضيئة، التي هي تلألؤ يُلمح من بعيد، تلتصق بصورة كئيبة بشكلها العالي الطويل الأسود. حتى لكأنها كفنٌ منتصب، وسائرٌ في وسط البحر، وتحته يجول شخصٌ ما ويحمل نجمة بيده" إن الهوركة تغرق في الأفق، "والنجمة

(*) الهوركة: مركبة هولنديّ قديم، سيء البناء، منفتح من الأمام ومستدير من الخلف (م: ن. ع).

(١) يرجع بودوان هذا الاسم إلى مؤثر الفجر، المرتبط بموضوع الولادة الثانية.

الصّغيرة التي كانت تسحبها في العتمة، تشحب' وتختفي (آ، ٣، ٢). إن الموت (الكفن) قد انتصر على النّور (ضوء السفينة). إنها نجمةٌ على البحر، لا يمكن بلوغها على وجهين، بسبب الامتداد الذي تبتعد إلى أعماقه، والعتمة التي 'اندمجت' بها والتي ينتهي بها الأمر إلى ابتلاعها. إن النجمة تتبدّى هنا تحت تهديد البحر والليل. إلاّ أن موقف غوينبلين هو موقفُ المستبصر هيغو نفسه في قصيدة 'ستيلاّ' في مجموعة القصاص. ففي الليل، وقريباً من الشاطئ الرّملي، يتأمّل المستبصر 'نجمة الصّبح' - ستيلاّ ماتوتينا... 'في أعماق السّماء البعيدة'؛ والحال، فإن النجمة التي هي نقطة ضائعة في العتمة الهائلة، تبشّر بانتصار 'عملاق النوّر' في حين أنّ الامتداد (السّماويّ والمحيطيّ) يمتلئ 'بمحبّة لا توصف' وإذن، فهذا يقينٌ مماثل سوف يبرز من المشهد النهّائي الذي يموت فيه ديا وغوينبلين لكي يبعثا من جديد. وإننا نجد في الخاتمة، في حقيقة الأمر، النجمة والبحر والليل. عندما يتأمل غوينبلين الذي يصعد هذه المرّة إلى السّفينة، وفوق جوف سفينة هولندا[1]، يتأمل، كما كان الأمر حين مكث متروكاً على جون بورتلاند، نقطةً مضيئةً في أعماق الأفق. وهذه النجمة هي ديا الميتة. إنها غيرُ منظورة من الجميع، ويلحّ هيغو على تلك الظلّمة الكليّة التي تتوازى مع الظلمة التي تهيمن في القسم الأوّل: 'غياب النّور على الأرض، كما في السّماء؛ فما من مصباح على الأرض، وما من كوكبٍ في الأعالي'. هكذا نقرأ في الفصل المعنون بـــ 'عزلة' (١، ١، ٣). وفي الفصل الذي عنوانه (الفردوس المستعاد في هذه الدّنيا' يُحدَّد فعلاً 'أنّ بضع نجوم ضخمة لا تكاد ترى، كانت تتلاشى واحدة بعد الأخرى، وبعد مضيّ بعض الوقت، لم يعد هناك منها شيء إطلاقاً.' غير أن هيغو هذه

(١) ثمة توازٍ جليّ أيضاً: ففي القسم الأول، يحاول غوينبلين أن يصعد إلى القارب، فيُدفع ويرمى إلى الأرض، حينذاك، إذا أمكن القول، تكون ولادته الثانية الجسمانية، ويبدأ يعمل، ويكتسب حياةً في الرواية، ويولد في العالم. وحين يصعد إلى السفينة، في الخاتمة، يموت في هذا العالم (انظر، الفصل ٢، ٩، ٢) ويمضي حينذاك راجعاً إلى الحضن الأموميّ (البحر) ويولد من جديد، وهذه المرّة، بحياة الرّوح.

المرآة، يضيف: "وكانت السّماء كلها سوداء، ولا متناهية، ورقيقة" وفي موضع أبعد بقليل يتحدّث عن "صفاء الامتداد المعتم" إننا نجد إذن العناصر نفسها الموجودة في القسم الأوّل: النجمة، والبحر والليل؛ ولكن، هذه المرّة، إذا كانت النجمةُ غيرَ مرئية بعيون الجسد، فإن الظّلمة والامتداد يتحوّلان من عدائيّين إلي خيّرين. إن "الليل الهائل الاتساع" والذي هو حتى صورةٌ للانهائيّ، هو ما يتيح للمتدرب على الأسرار أن يرى: "أن السّماء كانت سوداء تماماً، ولم يعدْ فيها نجوم، غير أنه كان بالطبع يرى واحدة منها" في القسم الأوّل، ينغلق الفضاء مجدّداً، كما يُشارٍ في نهاية الفصل الأول، ١، ٥: "إنه انغلاق هائلٌ" في اللاّنهائي نفسه، وكلُّ شيء "لا يمكن بلوغه" و"ممنوع". ومسوّر، بصورة هائلة في اتساعها. وفي الفصل الثاني من الخاتمة، في آخر سطور الرّواية تماماً، ندخل إلى المحيط إلى عرض البحر الكبير، عرضِ فضائه المفتوح، في حين أن سقوط غوينبلين في البحر قد تحوّل إلى صعود أسمى؛ فلقد استُعيد الفردوس "في الأعالي". وحين يتسلّق الصبيّ المتروك في الجون، وكأنما "في أعماق بئر"، الصّخرةَ العموديّة" للشاطئ الصخري، يرى، فوق رأسه انفتاح "أعماق الأعلى" (١، ١، ٣). وفي الخاتمة، يمدّ غوينبلين الواقف على سقف السّفينة، يمدّ ذراعيه نحو "أعماق الأعلى"، ويقول: "أنا آتٍ". ويتواصل تسلّقُ الشاطئ الصّخريّ بسيرٍ أفقيّ على شبه الجزيرة، ويتواصل السّيرُ على سطح الجوف الهولنديّ، ثم السقوط في البحر، الذي هو في آن امتدادٌ أفقيٌ وعمق من الأسفل، يتواصلُ بالصّعود نحو النجمة الملتمعة في السّماء. زدّ على ذلك أن هذا التعبير، تعبير "العمق الأعلى" جديرٌ جداً بالملاحظة لأنّه يتضمن التشابه بين السّماء والبحر، والتضاد فيما بينهما. وهكذا فإن حقيقةَ أننا نلتقيه في المشهد الأول والمشهد الأخير من الرواية تدعونا أيضاً إلى مطابقة البداية والنهاية، لكي نتبيّن منها التماثل والتّضاد. وهذه المرّة، يُضيء الظلّ، والابتعاد يُقرّب. إن هذا الانقلاب المستمرُّ للموتِ إلى ولادة، والولادة إلى موت، والصّعود إلى سقوط، والسقوط إلى صعود يشكّل بلا شك البنية الأساسيّة للرّجل الضّاحك. ولسوف نتبيّن ذلك بتعميق الموضوع الأساسيّ

قليلاً والذي يتبدّى لنا لتوّه، في بداية، ونهاية الرّواية والذي يعتبرها بكاملها، في حقيقة الأمر، بموضوعاتِ النجمة والمحيط، والامتداد. لئن تحولّت ديا الميتةِ إلى نجمة حيّة، في عينيِّ من يحسن الرؤية. وبما أنها عمياء ومضيئة، على وجه التحديد، فقد أصبحت نجمة في الليل: 'وكان في عينيها. الكبيرتين والصّافيتين هذا الشيءُ الغريب، فمع أنهما مطفأتان بالنسبة إليها، فقد كانتا تلتمعان بالنسبة للآخرين [...] إن أسيرة الظلّمات هذه كانت تبيّض الوسط المعدم الذي كانت فيه. ومن أعماق عتمتها التي لا شفاءَ منها [...] كانت تطلق إشعاعاً [...] كانت هي الليل. ومن تلِك الظلمة التي يتعذر علاجها والمندمجة بها، كان تخرج كوكباً.'(٢، ٢، ٢)؛ وعلى العكس من ذلك في الفصل ١، ١، ٣، فإن الهوركة التي 'أخذت تندمج شيئاً فشيئاً بالليل' تختفي وتنطفئ أضواؤها). إن هيغو لا يفوته أن يذكر بتلك الطّبيعة الكوكبّية للفتاة العمياء. وغوينبلين الذي تحبّه. 'كان يحسّ أنه تحت تأثيرِ تأمّلِ نجمة' (٢، ٢، ٢. إن ديا التي لا ترى يمكنُها أن تتأمّل). إنه 'الأفعوان الذي تعشقُه نجمة' وهي 'نجمة عمياء' (٢، ٢، ٧)، إن غناء ديا، في العماء المهزوم، يوصف بأنه 'كوكبيّ' ويعلن أورسوس لغوينبلين: 'أنت في كهفٍ قُبضَ فيه على نجمة'. وكنورٍ في الظلّمة، فالعمياء نجمةٌ تهدّئ الأمواج. وهي ستيلاّ التي يغرم بها 'الأسد المحيط'، ونجمة البحر كما تقول التسّبيحات للعذراء. إن البطاقة التي ترسلها جوزيان إلى الرجل الضاحك 'أنا أرغب فيك' تهيّج 'الإغراء' في نفس 'القدّيس' غوينبلين، شأن عاصفة في البحر(1). والحال، ففي حين أن الشابّ يقع فريسة هذا الاضطراب' تتبدّى ديا في انفراج الباب، وحينذاك، وتحت نظرة النجمة، يغدو المحيط العاصف محيط 'ستيلاّ: النجمة' المليء بالحبّ: 'وفجأة، يحسُّ في أبعد أعماق كيانه تلاشي العاصفة الذي يتعذرّ تحديده [...]؛ إن معجزة النظرة الآتية من فوق قد فعلت فعلها. والعمياء الرقيقة المضيئة [...] قد بددّت كل العتمة في نفسه [...] كانا صامتين كلاهما،

---

(١) انظر: الرّجل الضاحك، ص ٦٢١ (في النص الفرنسي).

هي الضياء وهو الهوّة [...] وفوق قلب غوينبلين المتلاطم، كانت ديا تتألق بتأثيرٍ يتعذرّ بيانه، تأثير نجمة البحر الذي لا ندري ما هو.' وفي النهاية، عند الجوف الهولنديّ، وحين تقعد ديا على فراشها، وقد اقتربت من الموت، يضيئها مصباحٌ من الأسفل وهي ترتدي فستاناً طويلاً أبيض، وغدت شاحبةً إلى أقصى حدّ: ' كان في حدقيتها نارٌ وظلمة [...] وكانت تتماوج بكليّتها بارتعاشِ شعلة. وفي الوقت نفسه، كان المرءُ يحسّ بأنها قد بدأت تصبح ظلاً ولا شيء غير ذلك. كانت عيناها المفتوحتان على ملئهما، تلتمعان. وكأن ذلك خروجٌ من قبر، وكأنّها روحٌ واقفة في فجر' هل ستكون النجمة التي يتهيأ الظلامُ لابتلاعها، أم النجمة التي ستضيء العتمة؟ ونعلم أنها سوف تنطفئ وتتألقّ في آن، إذ أن 'الفردوس' لا يمكن بلوغُه إلاّ من خلال العتمة وهذا ما تعنيه نظرةُ ديا العمياء والمضيئة، 'عيناها المليئتان بالظلّمات والأشعّة' وبينما تموت تبدّى على وجهها الشّاحب ضياءُ كوكب'.

أما منافسة ديا، جوزيان، التي هي الجسدُ مثلما ديا هي الرّوح، فهي أيضاً من طبيعةٍ كوكبية: وهي تتبدّى لغوينبلين، في كورليون – لودج 'هائلةً و'عارية' مثل عنكبوتٍ في قلب نسيجها؛ والحال، فنحن نتصوّر أننا قد بيّنا أن العنكبوت والنسيج مرتبطان، في الموضوعات الرئيسيّة الهيغوليّة؛ فالعنكبوت نسيج أسود وشرّير[1]. فضلاً عن هذا فبما أن إحدى عينيّ جوزيان زرقاء، والأخرى سوداء، فهما تُشبّهان بكوكب ألديباران المزدوج. 'وفيهما شيءٌ مريبٌ، وكوكبيٌ لا ندري ما هو': إن جوزيان هي 'كوكبٌ' مجبولٌ 'بالوحل' (٢، ٧، ٤). ولئن كانت 'ستيلاّ' في مجموعة القصاص، ضوء الهوركة البيسكيّة، في القسم الأول من الرّجل الضّاحك، ونجمة ديا الميتة، وروحها – النجمة في الخاتمة، لئن كانت نقاطاً مضيئةً، في أعماق الامتداد، ومخصّصةً

---

(١) الإبداع الميثولوجي عند فيكتور هيغو، الصفحات: ١٦٩ – ١٧١ انظر أيضاً: تحليل ف هيغو النفسي، الصفحات: ١٣٧ – ١٤٦ الذي يذكرّ فيه بودوان بأن العنكبوت رمز للقدر والأمّ الرهيبة.

لإنارة، المدى بكامله، كما سيفعل "العملاق النّور" في مجموعة القصاص أو أن تُبتّلع فيه كالنجمة الجنائزيّة إذا صحّ القول، والتي تحملها الهوركة البيسكيّة وكأنها في حضيض كفن، أو أن تجتذب إليها، وفيما وراء العتمة الروحَ المحبّة، كما ستفعل النجمة ديا لغوينبلين، في الرّحلة الخيرة للخلاص، فإن الدّوقة جوزيان، بدورها ستلفي نفسها مركّزةً لصورة النقطة المضيئة هذه في أعماق المدى[1]. ويشبّهها هيغو "بنجمة في أعماق الفضاءات": غير أن جوزيان ليست نجمة، إنها "المذنّبُ"، و"محرقة السماء الهائلة" ولن تجتذب غوينبلين إليها بل ستذهب إليه "النجم يسير، ويكبر، ويهزّ شعراً أرجوانياً، ويغدو هائلاً." إنه يتجه من ناحيتك. يا للرّعب، إنه يأتي إليك! [...] إنه اقترابٌ سماويٌ مرعب [...] ومعجزةٌ الأعماق المفترسة. إنه يملأ السماء [...] إنه العقيق الأحمر الآتي من أعماق اللانهائي، الماسُ عن بعد، والأتون عن قرب، وأنت في لهيبه." وهكذا، فإن غوينبلين يشهد بالتعاقب أفعالَ النقطة المضيئة الثلاثة في العتمة: اختفاءَها، وسيرَها المجتاح، والمدمّر هنا، وأخيراً، الجاذبيّة التي هي قانون الحبّ.

إن موضوع النجمة لا ينفصل عن موضوع المحيط والذي هو الأهمّ في هذه الرّواية. إنه يؤمّن، في الحقيقة، وحدة العالمين، عالم الشرّ وعالم الخير. وقد تبيّنا ذلك من قبل. قارنّا بين دور البحر المشؤوم والليل في القسم الأوّل، ودورهما الخيّر في الخاتمة[2] فالمحيط، كما في مجموعة القصاص هو صورةُ الشرّ الكونيّ، واستمرارُ البلبلة على كوكبنا، وصورة اللانهائي في عالمنا والذي هو: مدىً يقع فريسة جنون العواصف، ولكنه القادر على عكس

---

(١) انظر: "ملاحظاتنا حول النور في مؤلفات فيكتور هيغو" (دفاتر الجمعية الدّولية للدراسات الفرنسيّة، ١٩٦٧).

(٢) اشتراك البحر والليل هو ثابتة في الموضوع الهيغولي الرئيسي وهو، في الأساس، في مجموعة: الأشعة والظلال موضوع تحت عناية فيرجيل، من خلال العنوان نفسه عنوان: oceano nox (محيط الليل) انظر (الإبداع الميثولوجي ص: ٣٤٦)

السّموات، التي هي اللانهائيّ المعتم الذي تشرق فيه "ستيلا"[1]. إن المحيط في الرّجل الضّاحك، يتبدّى أولاً، وكأنه قوّة شيطانية – Portentosum mare – حين يضرى على الهوركة البيسكيّة: "إن المتوحّشة الكبرى هي العاصفة" والإعصار "جلاّد متعجّل" و"بهيمة" و"ثور" يمكن أن يتعرض للغشّ أحياناً، ولكنه يمتلك "كلّ تلاوين الشراسة الوحشيّة" إن المحيط يتّفق مع الموت، ليس لأنه يميت البحّارة والقباطنة فحسب، بل أيضاً لأن الموت ذاته هو هنا، كما قد يقال، ذو طبيعة سائلة: إن الماء هو عنصرُ الموت: فغوينبلين يموت غرقاً، والكومبرا شيكوس يغمرهم الماءُ ببطء: العاصفة تهدأ، ولكن مجرى مائياً قد تشكّلَ ولسوف يغرقُ القارب في البحر، رويداً رويداً: إن "الماء" كما يجري التحديد، "لم يدخل سريعاً جدّاً" بل يصعد "بلا تعجّل". "كان ذلك بطيئاً جدّاً". من المؤكدّ أن المطلوب هو إعطاء الكومبرا شيكوس الوقت لكي يتوبوا، ولزعيمهم أن يكتب الرسالة التي ستتيح، من خلال تخبئتها في مطرةِ هاردكوانون، إثباتَ الهويّة الحقيقية للرّجل الضّاحك ذات يوم. إلا أن إلحاح هيغو يجبرنا على أن نكتشف سببَ اختيار الموضوع من خلال انضوائه تحت السّبب الروائي. إن هناك اهتماماً بالإشارة إلى أن مسافري الماتوتينا "كانوا يحسّون بأنهم قد دخلوا إلى عمقٍ هادئ هو الموت". فلقد سحبهم ثقلُهم الذي هو أيضاً ثقلُ جريمتهم بالتأكيد: "ولم يكن الماء يصعدُ نحوهم، بل كانوا ينزلون إليه". وهكذا يجري بقوة تأكيدُ الإحساسِ بابتلاعِ البحر، وإبراز نوعيّة الغرق، والموت السّائل (١، ٢، ١٨) [2].

---

(١) انظر في طبعتنا للمؤلفات الشعرية (مكتبة لابلياد. المجلد:٢) الصفحات ٤٢ ٤٥ في المدخل: (XL11–XLV).

(٢) إن جيرناردوس جيستيموند الذي ليس زعيم الكومبرا شيكوس، ولكنّه "الرّوح، يبينهم (١، ٢، ٣) (La alma، كما يرد في أغنية (العماء المهزوم...) أو ربما يكون أيضاً هو "روح العالم" حسب رأي ريشار. ب. غرانت (البحث المحفوف بالخطر، الصورة، والأسطورة والنبوءة في حكايات فيكتور هيغو، ص: ٢٠٤)، يغوص في الأمواج، وقبلاً، يلقي إلى البحر بالمشعل الذي أنار المشهد الأخير على السفينة، فينطفئ المشعل "وكلّ ضياء يتلاشى" ولكن شعلةً انفصلت عنه وطارت في الليل، ويعود إلى الظهور تشاركُ البحر – الظلّ – والنقطة المضيئة مرّة جديدة. وقبلاً، كان قد جرى الالتقاء به

إن الحضورَ الآخر للشرّ بيننا هو المرأة، حين تكونُ الجسدَ واللّذةَ الحسية مثل جوزيان، فهو أيضاً من طبيعة محيطية وسائلة. لقد ولدت فينوس من المحيط[1]. ومع ذلك فجوزيان 'أصلها قد كان النغولة والمحيط' (٢، ١، ٣)، ويمكنها أن تقول للمحيط: أبي (٢، ٧، ٣). كان يبدو أنها 'خارجةٌ من زبد'؛ 'فالسّير مع التيار كان أوّل اندفاعة في مصيرها' فقد كان فيها شيءٌ من الموج وشيء من العاصفة' (٢، ١، ٣). إن جوزيان دودةٌ بحريّة مبلّلة بالأحجار الكريمة بكليّتها' وأكثر من ذلك، كانت 'جنية البحر' (٢، ٤، ١ و٢، ٧، ٣): 'لقد كانت حضناً نبيلاً وصدراً رائعاً [...] ووجهاً صافياً ومتعجرفاً ومن يدري؟ ولها تحت الماء، في الشّفافية الملموحة والعكرة، استطالةٌ متموجةٌ وفائقة على الطبيعة، وربّما تنينيّةٌ ومشوهةٌ (٢، ١، ٣) ومن جهة الماء والعمق الأسفل يتوضّع الاضطرابُ والشيطاني. إن كلامها، بالنسبة لغوينبلين شبيه بـــ 'العاصفة' (٢، ١٧، ٤)، واقترابها يثير العاصفة في النفس، لأن بعض حركات الرّوح المخفية بصورةٍ خاصّة هي أيضاً من طبيعة الأمواج[٢]. إن الإغواء الذي يتعرّض له غوينبلين، حين تظهر له جوزيان شبه عارية يُشبّه بـــ 'غرقٍ' لا يكون فيه 'المكسرُ الصخري' هو 'الصّخرة' بل 'جنيّة البحر' (٢، ٧، ٣). إن جوزيان تتبدّى لغوينبلين في قاعة تنتظرُ في وسطها فسقيةٌ مغطسٍ حمام المرأة في 'ظلّ' قبّة سريرٍ برجيّة من الرّخام الأسود، لتقوم 'بحمّام' أسود (الماء والظلّ...)، إن الغرفة التي تنام فيها

أيضاً في نهاية الفصل ١٢، مع 'انطفاء' منارة الكاسكيه: 'طفت الشعلة، وقاومت، وغرقت [...] وكأنها غريقة [...] وكان ذلك مثل انسحاق للضوء في أعماق الليل'.

(١) راجع في: 'القيثارة كلّها' القصيدة التي تحمل عنوان: المرأة (٨ نيسان ١٨٧٤).

(٢) تحت بعض النفحات العنيفة الآتية من داخل الرّوح، تكون الفكرة سائلاً. [...] فالمدّ، والجزر، والاهتزازات، والدّورانات [...]، والظلّ والتشتت، كلّ ذلك، الموجود في الهوّة، موجودٌ في الإنسان' (٢، ٤، ١)؛ إننا نرى أن العبارة الشهيرة' عاصفة تحت جمجمة ليست، وإلى حدٍّ بعيد مجازاً بسيطاً بالنسبة لهيغو.

"مغارةٌ من المرايا[1]" وهذه المغارة تستدعي إلى الذّهن، من خلال إضاءتها مغارةَ رواية عمّال البحر في باطن البحر حيث يواجه جيليات الإخطبوط وفي واقع الأمر، فإن جوزيان العنكبوت البحريّة، أخطبوطٌ يتشبّث بغوينبلين[2] وأكثر من ذلك أيضاً فإن جوزيان هي الماء نفسه، وهي تظهرُ مشدودة القامة في قميصٍ "ناعمٍ جداً بحيث تبدو مبلّلةً" (٢، ٧، ٣)؛ وذلك لأن "كلّ ألوان مرونة الماء موجودةٌ لدى المرأة. وشأن الماء، كان لدى الدّوقة شيء يصعب الإمساك به لا ندري ما هو[3]" (٢، ٧، ٣).

لئن كان المحيط يمتّ بصلةٍ على هذا النحّو إلى جوزيان، باعتباره امتداداً مشؤوماً، فهو يتعاون أيضاً مع ذلك "الشرّير" الآخر الذي هو باركيلفيدرو[4]. وذلك بأن، يسوق مطرة هارد كواذون حتى يديه، ويسمح له بأن يحقّقَ مشاريعه الثأريّة، ومع ذلك، ففي الفصل نفسه الذي يشطح فيه المؤلّف – وقد يقول النّقد السّطحي: بصورةٍ سانجة... – حول ترابط الوقائع الفائق للعادة – وحول استبعادٍ كاملٍ لحدوثها، حسب النّقد التقليدي – والذي أوصل إلى المكان المطلوب المطرةَ التي تحمل مصير غوينبلين، في هذا الفصل الذي يعبّر عن انتصار باركيلفيدرو، إنما يتكشّف أن المحيطَ قدرةٌ سماويّة فجأة. وإذا كان البحرُ والقدرُ يتحرّكان بالنفس نفسه"، كما يؤكدّ على ذلك عنوانُ الكتاب الخامس من القسم الثاني، فينبغي أن نعتبر أيضاً، كما يشيرُ عنوانُ الفصل الذي نتكلّم عليه، "بأن من يهيمُ على وجهه لا يخطئ" وألاّ نتجاهل "رقّةَ المحيط العميقة". إن بار كيلفيدرو، التّعس، يظنّ أنه قد انتصر؛

---

(١) وهذا ما يتيح للمرأة، حين تفتح عينيها أن ترى نفسها ألف مرّة عاريةً في المرايا الموجودة فوق رأسها" وهذا إبراز للاستعراء الذي يشكلّ النشاط الجنسي عند جوزيان.

(٢) راجع ريشار. ب غرانت، المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٣) إن الموضوع المتعلق بالسّائل قويّ جداً في هذ المقطع بحيث ينطبق حتى على الضّوء الذي "يغسل الآلهة".

(٤) الحاسد الخالص والذي يؤذي من غير أية فائدة؛ فبار لكيلفيدرو حتى هو أكثر "الشريّرين" كمالاً، حسب رأي هيغو.

فكلُّ شيء، من واقع الأمر، قد قادته العناية الإلهيّة، من أوّله إلى آخره، وليس المحيط، في هياجه كما في رقّته، إلاّ الخادمَ المطيع لها. وفي نهاية القسم الأوّل، بعد أن هدأت العاصفةُ، يرجعُ المحيطُ ليصبح صورةَ اللاّنهائيّ: "كان نشيدُ اللاّنهاية العميق يخرج من البحر" هكذا نقرأ في فصل "استيقاظ". وفي الفصل: "من يهيم على وجهه لا يخطئ". تثير إعجابنا عبارات: "يجعل المحيط من نفسه أباً وأمّاً ليتيم، ويرسل الإعصار إلى جلاّديه [...] ولا يقبل منهم إلاّ توبتهم، وتتلقّى العاصفة وديعة من أيدي الموت [...] فيغيّر البحر دوره، مثل فهد يجعل من نفسه حاضنةً، فلا يأخذ بهدهدة الطفل بل بهدهدة مصيره [...] والماءُ الذي لا يرحم مثل ضمير، والبلبلة التي تحلّ النظام، وعالم الظلمات الذي يُفضي إلى إضاءةٍ معينة، وكلّ العتمة التي تستخدم لخروج الكوكب هذا، الحقيقة...." – وها نحن نقع على الموضوع الخيِّر، موضوع النجم على البحر. وعلى نحوٍ مشابه، يقابل الموتَ السائلَ والمعدَم، موتَ الكومبرا شيكوس، غرقٌ غوينبلين تحت بصر النجّمة. وكأنما كانت هناك، من الأرض إلى السّماء رابطةٌ سائلة، إذا تكلّمنا على طريقة كلوديل.

إن المكان مزوّد بالتعارض نفسه؛ فأوّلُ لقاءٍ يحدث للطفل غوينبلين بعد ترك الكومبرا شيكوس له هو لقاؤه المشنوق الذي تهزّه الرّياح بشكل مسعور في كل الاتجاهات: إن الجثّةُ تقعُ فريسةَ المكان: "كانت تلك الكتلةُ السّلبية ترضخُ لحركاتِ الامتدادات المعممّة". وتلك الجثّةُ المتروكةُ للأبعاد الشاسعة "قد كانت الدّليل على المادّة المقلقة". وينتهي الفصلُ الذي يصف تلك المشنقة بـ– "الانسداد المشؤوم" للمكان الذي ينغلق مجدداً. (١، ١، ٥). وينفتح المكان من أجل موت ديا التي تأتي بالدّليل على الرّوح، لأنها نجمةٌ في أعماق الأعالي. إن مغامرة غوينبلين كلّها، مغامرة تلك المشنقة التي تسلم فيها Cadaver (الجثة) إلى نزوات المدى المتحرك لدى ظهور Anima (الرّوح) في الأفق البعيد، تجري خلال المكان الذي لا يكفّ عن عبوره قط[1]. والحال،

---

(١) لقد قلنا إنه، في القسم الأوّل، لم يفعل شيئاً إلاّ السير؛ أما القسم الثاني والخاتمة فتنقلاته من إن تادكاستر (نزل تاد كاستر) إلى الكهف العقابي، ومن هناك إلـــى كورليـــو ن –

ففي المسار الصّعب، وإلى صورة المتاهة التي يدلّ عليها سيلبيه، ينضمّ موضوعٌ آخر، أكثر أهميّة أيضاً، هو موضوع الصّعود والنزول. وفي القسم الأوّل، سبق للمسار الذي يقود الطفل إلى أورسوس أن تطلّب صعوداً ونزولاً. وفيما بعد، فلئن نزل غوينبلين إلى القبو الجزائي - ويُعنى هيغو بوصف هذا النزول بصورة تفصيليّة على طول ممرّ متعرّج وضيّق ويزداد تضيّقاً، مضيفاً أن 'ما كان باعثاً على الكآبة في ذلك خصوصاً هو أنّه ممرّ نازل' (٢، ٤، ٨) إن هذا النزول تحت الأرض هو تمهيدٌ وشرط للصعود المخيف (٢، ٨، ١)، والذي سيقود المشعوذ إلى قمم المجتمع، في كورليون - لودج وفي مجلس اللوّردات. ومع ذلك، فإذا ما نزل غوينبلين لكي يصعد، هل يكون من المؤكّد أن 'هذا الصعّود المخيف' لن يكون في الواقع سقوطاً؟ في تلك اللحظة يحسُّ البطل 'بدوار الصّعود ودُوار السّقوط' وإذْ يكابد إغراءَ الغرور، ويصبح على وشك أن ينسى ديا 'فقد كان يشعر بأنه يصعد، ولم يكن يشعر بأنه يسقط' ويهتف: أنا 'على القمّة'، 'أنا في الأعلى (٢، ٥، ٥)، والحال، فهذا الصّعود هو صعودٌ زائفٌ، وإذا كان المسار من كورليون - لودج إلى ويستمنستر هول يتبدّى وكأنه 'صعودٌ من درجةٍ إلى درجة، فإن عنوان الكتاب الثامن نفسه 'الكابيّتول وجواره' يعلن عن السّقوط باعتباره نهاية للصّعود. ويمكن لويستمنستر - هول أن تشبه متاهةً عندما يجول غوينبلين ومواكبُه في قاعاتها، غير أن الغرفة التي يجتمعُ فيها اللوردات هي قمّة، 'إنها الذّروة القديمة للجبل الاقطاعي' (٢، ٤،٨) إنها قمة زائفة! وحين بلغها غوينبلين، كان قد غادر 'الفردوس من أجل موطن الآلهة (الأولمب)' - والفردوس ينبغي أن يتمّ العثورُ عليه 'في الأعلى' من خلال الصّعود الحقيقي الذي يُجري لقاء السقوط في اللجّة المحيطيّة. وخلال حديثه مع اللوردات، يشعر البطل 'بأن صعوده يتصدّع تحته' فالنسبة إليه: 'اصعد! كانت تعني: انزل!'

لودج، وإلى ويند سور، ومن هناك مجدّداً إلى لندن، وإلى ويستمنستر - هول، ثم إلى ضفاف التايمز، وعلى الجوف الهولندي، وحتّى مصبّه. فضلاً عن ذلك، فالحياة الخفيّة 'لغوينبلين' قد كانت حياة شخص مترحّل.

(٢، ٩، ٢) إن نشاط غوينبلين يبدأ بصعود، هو تسلّق شاطئ بورتلاند الصّخري؛ وينتهي بسقوط يستهلّ الصعود الأعلى، مثلما كان النزول من الكهف العقابي قد استهلّ الصّعودَ الزّائف، الصّعود - السّقوط في ويستمنستر - هول.

إن موضوع الولادة الثانية ملتبسٌ على نحوٍ مشابه، فاللّورد غوينبلين، الذي ينزل إلى الكهف العقابيّ الذي يصعد منه مجدّداً، يختبرُ شعورَ الولادة من جديد: يقول إنهم قد طوّحوا بي إلى أدنى درجات الجنس البشريّ، وإلى ما تحت عرقصةِ أقدام الجميع' و'من هناك إنّما أعادوا الصّعود! من هناك إنّما أُبعث!'. والحالَ، فهذه الولادةُ الجديدة خادعة: إن الهويّةَ الحقيقيّةَ للبطل، هويّة روحه ليست في كونه اللّورد فيرمان كلانشارلي، بل غوينبلين، المشوّه، والذي تحبّه ديًا. إن هذه الولادة الجديدة هلاكٌ - وسيكون الهلاكُ حين يكون غوينبلين قد فقد كلّ شيء، ويفكرُ في أن يقتل نفسه، والذي سوف ينشئ الولادة الحقيقية الجديدة التي سينضمّ فيها البطل إلى روحه من خلال الحبّ ومن خلال الموت[1].

إن تناقض هذه الموضوعات هو الذي يصنع من الرّجل الضّاحك رواية الظّاهر الزّائف: سمت الرأس الذي هو سمت القدم، في كورليون كما في ويستمنستر هول، وصعودٌ، هو سقوطٌ، وولادةٌ قد تكون موتاً، في حين أن السقوط هو صعودٌ، والموتُ ولادة، وهذا يحيلُ إلى إيديولوجيا ميتافيزيقية وسياسيّة توضحها الرواية وتبحث فيها. وفي إعادة الاعتبار التي بدئ بها للرّجل الضّاحك تُقصى هذه الإيديولوجيا إلى المستوى الثاني. ويرى ليون

(١) حين نتكلم عن انتحار غوينبلين، ينبغي أن نعتبر أن الانتحار الحقيقيّ سيكون الانتحار الذي يتهيّأ له في الفصل المعنون ب: المتبقّي، والذي يثنيه عنه الذئب أومو لكي يقوده إلى ديا: وهذا الانتحار يُعرض على أنه 'إغراءٌ مشؤوم'. لأن الموت ينشَدُ فيه باعتباره راحة: 'كان يشعرُ برغبةٍ قاهرة إلى النّوم'. وكان التاميز في العتمة يقدم له السّرير الكبير الهادئ' وعلى العكس من ذلك، فإن غوينبلين وهو يسير نحو النجمة، يطوح بنفسه إلى الموت؛ فليس بالإمكان الحديث عن انتحار، بل عن الجواب المنتظر على نداء الحياة الحقيقية.

سيلييه، مثلاً، أن التعليمَ ووجهةَ النظر التاريخية، والالتزامِ السياسي تعكرُ مغزى الأسطورة.' ويبدي ريشار. ب. غرانت أسفه من أن النّبوءة تشوّشُ هنا الأسطورة، وأن الخطاب التعليميّ يُثقل تصوّرَ البحث المحفوف بالخطر، والبنية المساريّة الصّرفة، ويعدمّ عليها. إن هذا الموقف النقديّ يؤدي إلى إغفال الخطاب الكبير، خطابِ غوينبلين في مجلس اللّوردات، والذي كان يشكلّ في تفكير هيغو بالتأكيد إحدى لحظات الرّواية في ذروتها، والذي أعِدَّ بكامله لكي يُفضيٍ إلى الموت الزّفافي لغوينبلين وديا، من جهة، ومن الجهة الأخرى، إلى هذا الشّروع بالخطاب.

إن موضوع الكلام واللغّة أساسيٌ في هذا الكتاب حقيقة. إن مقطوعة العماء المهزوم تقع في مركز الرّجل الضّاحك وتحتفل بولادة الغناء: إن الكلام الذي يولد من النّور ينظمّ الفوضى. وهذه الفوضى الأصلية تستمرّ أيضاً في الخليقة، تحت شكل الإعصار، وفي القسم الأوّل، في فصل 'الفظاعة المقدّسة' وقبل أن يصف هيغو العاصفة التي تبتلع الماتوتينا، فهو يخصّص صفحة رائعة لـــ 'زئير الهوّة': 'إنها الصّوت الحيواني الهائل للعالم' الذي نسمعه. عندما يطلقُ 'هذا الكلّ الشامل[1] الذي لا يُدرَك' صرخةً، هي الإعصار. فماذا تعني إذن هذه 'الصّرخات' الآتية من الهواء إلى الماء، ومن الريح إلى الأمواج، ومن المطر إلى الصّخر؟ إنّه الليل الذي يتكلمّ، و'هذرُ الليل ليس أقلّ حداديّة من صمته'. من يتكلمّ؟ مع من؟ ومن الذي يقول ماذا؟ 'الأصوات الأخرى' أصوات الخليقة' التي تخرج من الأعشاش، ومن الفقسات، ومن التّزاوجات، ومن القرانات، ومن المساكن'. 'تعبّر عن روح الكون'؛ فالإعصار يعبّر 'عن وحشِه'. الرّوح والوحش، إننا نتعرّف القطبين المتناقضين، قطبي الرّجل الضّاحك - ونذكرّ بأنه إذا كان كلامٌ ديا غناءً ويوقظ الرّوح، فإن تصريح جوزيان بالحبّ يُحدث لدى غوينبلين أثرَ عاصفةٍ، ويجرّبُ الوحشَ في نفسه. لأن غوينبلين وحش، وهذا الوحشُ

(١) إنه الـــ pam عند اليونان، يمثلّ إله رعاة أركاديا الذي ولد بساقي وقرني ووبر تيس ويشخص، عند الرّواقيين، الكلّ الأكبرَ والحياة الكونيّة (م: ز. ع).

بالضبّط هو الذي سيشرع بالكلام. كما أن الإعصار الذي هو "المجمجمُ الذي ينطلق به اللانهائي" "وعتمة" الكون الوحشي، يمثّل "الجهد الذي يبذله الكون لكي يتكلمّ".

وفي النّظام البشري أيضاً، فإن هذه الكتلة الوحشيّة، هذه الفوضى الغنيّة بكلّ ألوان المستقبل، والتي هي الشعب، لا تتكلمّ؛ ولسوف يعطيها الوحش غوينبلين صوتَه. إن الصّفحات الأولى للرواية تعلمنا بأن الشخصيّة التي تحمل اسم أومو لا تتكلمّ؛ بل تعوي لأنها ذئب. وفي النقيض من ذلك، فثمة بشرٌ حلّت صرخة الحيوان لديهم محلّ اللغة المنظومة؛ وهكذا، فبين الوحوش البشريّة التي تصنّعُ من أجل الملوك والتي هي الصّورةُ الحقيقية لاستلاب الإنسان على يد الإنسان، وإلى جانب القناع الضاحك (Masca ridens) لا يفوت هيغو أن يشير إلى الإنسان - الديّك الذي يطلق صيحة الديك، بواسطة عمليةٍ في البلعوم، ويتجوّل في قصر ملك إنكلترا، معلناً فيه ساعات الوقت.

مع ذلك، فهناك شخصيّة في الرّجل الضّاحك تتكلّم كثيراً، وكما قيل، أكثر من اللازم، وهي المشعوذ الفيلسوف، أورسوس[*] العجوز. ومهما كان دبًّا، فهذا الرّجل يتكلّم، أو على نحوٍ أدقّ، يدمدم؛ فضلاً عن ذلك، فإن ميزته هي مناجاة النّفس. إنه يناجي نفسه بلا نهاية[1]. إنه يتكلم وحده، وهذا هو قدرُ أورسوس؛ فهو لا يتكلمّ لكي يُسمَع، وعلى نحوٍ أدق، فهو يتكلم لكي لا يسمع. ومهما كانت لغتهُ مهذارةً فهي لا تقيم أيَّ تواصلٍ (وهذا هو السّبب في أنه جدّ مهذار، فهو لا ينتظر أيَّ ردّ). ومع أورسوس، تنحرفُ اللغة دائماً على وجه التقريب عن مسارها المعتاد، ومن متحدّثٍ إلى آخر، ومن فمٍ إلى أذن: زدْ على ذلك أنه يتكلمّ وحده، فما لا يتوجّه إلى أية أذن. إن أورسوس مقماقٌ

(*) أورسوس: ursus، تعني الدّب، باللاتينية. (م: ز-ع).

(١) محادثة الذات هي سمة من سمات الصعلوك، عند هيغو (راجع: غلابيو في: مكافأة ألف فرنك) والعجوز: وهنا يناجي العجوز جيرناردوس جيسموند ذاته شأن أورسوس (وهو مثله عالمٌ بكل شيء!).

(يتكلم من بطنه) وبهذه الصّورة، يخفي مكان لغته[1] نفسه. إنها لغة لا تُقيم أيّ تواصل، ولكنها مع ذلك هي اللغة كلها. إننا نعلم في الفصل الأوّل، أن أورسوس قادرٌ على محاكاة كلّ النبرات، وصوت أيّ شخص بإتقان؛ فهو يقلّدُ كلّ ضروبِ صيحات الطّيور، وهو قادرٌ على أن يُسمعَ صوته، حسب مشيئته "إمّا ساحةً عامةً تغطيّها ألوان الضوّضاء البشريّة، أو مرجاً مليئاً بالأصوات الحيوانيّة". وإذْ امتلكَ، بالاختصار، الصّوتين الكبيرين، صوتَ البشريّة وصوت الطبيعة "فتارة يكون عاصفاً مثل جمهرة، وتارة صبيانياً وصافياً كالفجر"، إن أورسوس يستقر مؤقتاً، في أولى الصّفحات تماماً، في صورة الشاعر ذاته: فهو أورفيوس، وهو هيغو، غير أنه لا يُسمِعُ صوته إلاّ في المعرض، بأسلوب المحاكاة السّاخرة، والهزل، من دون أن يفتن، شأن أورفيوس، بل بالإضحاك، من دون إقناع، وجذب، وسيطرة، شأن هيغو، بل أن يجعل الآخرين يضحكون منه، وذلك بقطع التواصل الذي هو ميزة اللّغة البشّرية، وبحرمان الكلمة من قدرتها. وحين يريد أورسوس، بعد اختفاء غوينبلين الذي يجلبه القائد المسلحّ، وحين يريد خداع ديا، وهو يتصنّع، بمفرده، أداء أصوات تمثيل العماء المهزوم، الممثلين والمشاهدين، فيطلق موهبته العجيبة، موهبة "محادثة الذات المتعدّدة اللغات، و"بروتيه"[2] السّمع".

غير أن هذه اللغة الكليّة الفائقة للمعتاد كاذبةٌ؛ فليس هناك أحد، ومهما كان أورسوس ماهراً في محاكاة الأصوات، فهو لا يخدع ديا (٢، ٦، ٢). وإضافة إلى أنه مقماق ومحادثٌ لذاته، فهو لا يزال خطيباً لا يتعثرّ قطّ إنّ الرّجل الضاحك تتضمن خطابين كبيرين: خطاب أورسوس أمام الحشد الذي يتجمّع في إنْ - تودكاستر، وخطاب غوينبلين في مجلس اللوردات. إن أورسوس يعلم أنه يتكلمّ إلى صمّ، ويقول متهكّماً: "أما أنا، فأعمى"، "أتكلم ولا

---

(١) المقماق (المتكلم من بطنه) يشبه: الصّدى الركّان، وهو عكسه: وصوت المقماق يضيع في لغة الجميع، في حين أن لغة الجميع، تكون موجودة وتنكشف في صوت: الـصّدى الركّان.

(٢) بروتيه: إله بحري (في الميثولوجيا) قد أخذ عن والده بو زيدون موهبة النبوءة، وكان يغيّر شكله. حسب مشيئته. (م: ز.ع).

أدري أنكم صمّ" (٢،٣، ٢): "إنها بلاغة في مهبّ الرّيح". وغوينبلين أيضاً سوف يتكلّم مع صمّ أيضاً، غير أنه يريد أن يقنعهم، وما يقوله صحيح بما أنه نبوءة الثّورة. ولا يُسمَعُ غوينبلين، لأنه النبيّ، وما يقوله صحيح أكثر مما ينبغي. أما أورسوس فلا يُسمَع، لأنه لا يسعى لأن يُسمع، وخطابه منافٍ للعقل. ذلك هو دورُ اتّساع المعرفة الذي يطفح بغزارة في أحاديثه: إنه يُدخلُ في اللّغة الغريب والمستهجن، والسّخيف، ويسمح بحديثٍ متهافت مستمرّ، وهو وسيلةٌ لتشويش اللغة. فاللغة هنا مشوّشة: راجع الحوار المنافي للعقل بصورة خاصة، بين أورسوس والقضاة الثّلاثة في الفصل الذي عنوانه هو: "الفئران التي تستجوبها القطط" إن القاضي اللاّهوتي يتهّم أورسوس: "قلتَ إن البتولة تنافي الأمومة" – أورسوس: "لم أقلْ ذلك. قلت إن الأمومة تنافي البتولة" أما القاضي المرتبك والمقتنع فقد قال: "في الواقع، إنها نقيضتها" وكأننا أمام أحد مؤلّفات يونيسكو! وأخيراً، فإن الصّفة الثّابتة في لغة أورسوس هي قلبُ المعنى: إنه يقول بالضبط عكسَ ما يحسّ به (راجع: ٢، ٦، ١) وما يريد أن يُسمعه، كما في الحديث الطّويل الذي يوجهه لغوينبلين في الفصل ٢،٢، ١١. وهكذا فإن أورسوس، الثّرثار العجيب، يمتلك كلّ قدرات اللغة، إنما، في حقيقة الأمر، لكي لا يتكلّم[١].

---

(١) لا بدّ من دراسة الثّرثار في رواية ومسرح هيغو، فالثّرثار يشبه الشاعر وهو نقيض الشاعر. إن الشاعر هو رجل قدرة اللغة والثّرثار، هو رجلُ ضعفها. لنضف أن للغة الرّجل الضاحك سماتها الخاصّة التي تناسب دراما مباشرة الكلام هذه: إن اللغة، موجودة، فمن الذي سوف يستعملها ولأجل من؟ إن هذا الحضور الغزير، المبهظ قصداً للغة يميز الرواية: إنها روايةٌ متعدّدة اللغات، ونجد فيها اللاتينية، والإسبانية، والإنكليزية، والايرلندية، ولغة الباسك و"اللهجة الإقليمية الرومّية" (أو لغة الجنوب؟ مع كلمات !Aro Rai PUr aro rai وهي عبارة جدّ معتّادة في مقاطعة تولوز ومعناها: الأمور تسير حسناً، لا بأس، لا أهمية لهذا...") إن غرابة أسماء الشخصيّات لافت للنظر. ولعل رواية هان الإيسلنديّ وحدها يمكن مقارنتها في هذه النقطة برواية الرّجل الضّاحك من حيث شخصياتها: باركيلفيدرو، وتوم جيم – جاك وفيليم – غي ما دون إلخ. إن المفردات، أخيراً، ذات غنى، وذات وفرة فريدة، حتى في مؤلفات هيغو.

حيذذاك، سيتكلم غوينبلين. ولسوف يزعقُ بصوتٍ عالٍ وواضح بما يدمدمُ به أورسوس أو يقوله على نحو موارب. وهنا نصادفُ التفسير الذي كنّا قد أعطيناه الرّجلَ الضّاحك[1]: وحين رأينا فيه أسطورةً جبّارة، فقد ظنّنا أننا قد حلّلنا في آن، روايةً الرّوح ورواية الشعب، والعماء المهزوم، والنبوءةَ الثوريّة والإيديولوجيا معاً.

من الممكن أن تكون الفكرةُ الأولى، فكرة الطفل الذي شُوِّه بغرض كسب العيش من خلال تقديم عروضٍ في المعارض قد زوّده بها مقطع من غوزمان دالفاراش، حسب رأي لوساج، والذي كان هيغو يعرفه جيّداً: فنرى فيه المتسوّل الجنويّ كاستيليتو الذي يشوّه ابنه منذ نعومة أظفاره لكي يصنع منه المتسوّل الأكثر قدرةً على إثارة الشفقة[2]. أما البنوّة الهيغولية لشخصيّة غوينبلين فهي أكثر تأكيداً وأكثر وضوحاً. وهي ترجع إلى كازيمودو في نوتردام باريس. وتتواصل بشخصيّة ميرابو في كرّاسة عام ١٨٣٤، والتي تستخدم كخاتمة لكتاب: الأدب والفلسفة مختلطان. ولدى الشخصيّات الثلاث، هناك القباحةُ ذاتها التي تتلخص في الوجه. إن الرؤية الأولى التي يكوّنها المرء عن كازيمود وهي رؤية سحنته التي تتبدى في نجمة القاعدة الكبرى لقصر العدل، أثناء مسابقة الوجوه المسيخة؛ غير أنّه، بالنّسبة لكازيمودو، كما بالنسبة لغوينبلين "كان الوجه المسيخ هو وجهه" [3]. أما عن ميرابو، فإن "رأسه المسخيّ يُبدي وجة امرأةٍ أسطورية (غورغون: شعرها ثعابين) قادراً على تجميد أعداء الثّورة من الذّهول[4]. وينكشف الأبطالُ الثلاثة فجأة. ويجري التهيؤ لشنق إزميرالدا، فيبرز كازيمودو فجأة بقفزةٍ منه وينقذها، إنه إظهارٌ مفاجئ للحبّ في عالمٍ شرس، واختراقٌ مباغت للرّوح في البهيمة؛

---

(١) راجع: الإبداع الأسطوري (الميثولوجي) لدى فيكتور هيغو الصفحات: ٢٤٣ – ٢٥٣ والذي سوف نقدّم ملخصاً له في الصفحات التالية.

(٢) راجع: ماريا – لاي – دوتش، الصّعلوك عند فيكتور هيغو، دروز: ١٩٣٦.

(٣) المجلد الرابع: ص: ٥٣.

(٤) المجلد الخامس: ص: ٢١٢.

فالمسخُ قد أصبح فجأة 'جميلاً' ويحسُّ بأنه 'عظيم'[1] إن ميرابو، في الثلاثين من عمره لم يكن إلاّ مسخاً مخفقاً، وبعد عشرة أعوام، 'إنما هو الذي يصيح، بعد أن كان صامتاً حتى ذلك الحين، وفي ٢٣ حزيران ١٧٨٩، يصيح بالسّيد بريزيه: اذهب وقل لسيّدك... [...] إن الثورة هي التي تجعل صيحته تنطلق... '[2]. وفي كتاب: نابوليون الصّغير، يصف هيغو مجدّداً ذلك الظّهور المفاجئ لميرابو في عام ٨٩: لقد اجتمع مجلسُ عموم الطبقات، 'وما إن جلسوا حتى رؤوا على المنصّة وجهاً غريباً يصعد وينتصب فيها. فقال بعضُهم: من هو هذا المسخ، وقال الآخرون. من هو هذا العملاق! لقد كان كائناً فريداً، غير متوقعٌ، ومجهولاً، وقد خرج بغتة من الظّل، وكان يُشيعُ الخوفَ والافتتان...' ثم، 'سمعوا كلاماً سامياً يخرج من ذلك الوجه المشوّه. [...] لقد كان عام ٨٩ هو الذي ينتصب واقفاً ويستفهم ويتهّم [...] فقد كان ذلك هو الماضي الذي ترضّه الأغلالُ، والمدموغُ في كتفه، والعبدُ العجوز، وسجينُ الأشغال الشّاقة الهرم، الماضي المنكود الذي كان بصيحاتٍ عالية ينادي المستقبل، المستقبلَ المحرِّر! '[3]. أليس بالطّريقة نفسها بالضّبط، إنما ينتصبُ غوينبلين - 'المتفرّدُ' و'الخارجُ بغتةً من العتمة' - في مجلس اللوّردات، وأليست 'الكلمة السّامية' ذاتها، المتّهِمة والتّنبُّئيّه، هي التي تخرج من فمه 'المشوّه'؟ إن كازيمودو، الأصمّ - والأبكم حتى في مشروع هيغو الأول، قلما يتكلمّ؛ والشّعب، في القرن الخامس عشر لم يصل بعد إلى الكلام؛ وفي عام ١٧٨٩، غدا كازيمودو هو ميرابو، والشّدق المكشّرُ هو الآن الفم الذي يلفظ الكلمة المحرِّرة؛ وفيما بينهما، يمثّل غوينبلين الشّعب في ذلك العصر تقريباً، وفي درجة التحررّ التي كان يشير إليها روي بلاس: إن غوينبلين يباشر الكلام، ويصبح روي بلاس رئيساً للوزراء، ولكن الأوّل منهما ينحني أمام دون سالوست، ويتعرّض الآخر للإهانة والسّخرية، وللطردّ إذا صحّ القول على يد اللوردات.

---

(١) المجلد الرابع: ص: ٢٤٧.

(٢) المجلد الخامس: ص: ٢٠٥.

(٣) المجلد الثامن: ص:٤٨٤.

قد يقال إن غوينبلين قد وُلد من التقاطع بين روي بلاس وتريبوليه، وغوينبلين، وهو مهرّج، شأن تريبوليه، وعلى هذا الأساس، فهو يتوّج سلالةً هيغوليّة جديرة جداً بالملاحظة[1]. إن أوّل هؤلاء المهرّجين، في النصّ الثاني لبوغ جارغال نص ١٨٢٥ هو: ها بيبراه، هذا "المضحك المشوّه" الذي يأسف على أنه قد ثأر سريعاً أكثر مما ينبغي من السّيد الذي كان مكلّفاً بتسليته من غير أن يتوفّر له الوقت ليجعله "يحسّ أيّة آثارٍ مُحرقة تتركها دموعُ الخجل والغضب على وجهٍ حُكم عليه بالضّحك المستمرّ"[2]. وفي عام ١٨٣٢، في الملك يتلهّى، يذوب عنه تريبوليه، مهرّجُ فرانسوا الأول، وينبئ في بيت شعريٍّ مشطوب في المناجاة التي يتلفّظ بها في المشهد الثاني من الفصل الثاني، ينبئ بالضبط إلى حدّ كبير بغوينبلين وبمصيره.

أن تكون إنساناً يضحك، وليس عليه أن يفعل شيئاً إلاّ أن يضحك[3]!

إن هذا الثنائيّ المتعادي، ثنائيّ الملك والمهرّج يظهر من جديد، في عام ١٨٤٠، في رسالة الرّين الكبيرة حول قصر هايدلبرغ. وفي الصّفحات الأولى من الرّجل الضّاحك، يذكرّ الفصل الذي يدورُ على الكومبرا شيكوس "بقزم النّاخب البلاطيّ" بيركو، والذي تخرج دميته – أو شبحُه – من علبة مفاجآتٍ في كهف هايدلبرغ". إن رسالة الرّين تعلمّنا كيف تعمل علبة المفاجآت هذه، وساعةُ توقيتٍ موضوعةً بجانب التمثال الخشبيّ المصغرّ الذي يمثل بيركو، "وهو عجوزٌ قصيرُ القامة ومرح، ويرتدي زيّاً مضحكاً بشكلٍ غريب". ويتلو ذلك تأمّلٌ في المهرّج: "في المرح المكشرّ لذلك البائس، كان هناك بالضرورة تهكّمٌ وازدراء [...]. يبدو أن تمثال بيركو يسخر من تمثال شارلمان".

(١) راجع م لاي – دوتش، المرجع السّابق، وبيترو توليدو، "انعكاسات البداية في مؤلّفات فيكتور هيغو" R.H.L.F ١٩١٩.

(٢) المجلّد الثاني، الصفحة: ٦٨٩.

(٣) المجلّد الرابع، الصفحة: ٥٥٨.

ويضيف هيغو[1] قائلاً: "ما من شيء أكثر شؤماً من الضّحك الجامد". إن الضّحك، بالنسبة لذلك الخيال القلق، مرعبٌ فعلاً بكلّ سهولة: إن هيغو يعرف أشباحاً ضاحكة، وفي عزلة الطبيعة، يحدث له أن يسمع ضحكات، والظلمات، بالنسبة إليه تنفجر أحياناً ضاحكة، وأخيراً، فالضّحك الجامد الذي هو ضحك بيركو وغوينبلين هو أيضاً ضحك رأس الميت - كما لم يفت هيغو إطلاقاً أن يذكرّ بذلك، عندما يتأمّل الطّفلُ غوينبلين الهيكل العظميّ للمشنوق، على شبه جزيرة بورتلاند... (١، ١، ٦). إن هذا الانزعاج أمام الضحك الثابت، وهو ضيقٌ قد يتحوّل سريعاً إلى ذعر، ولعله المصدر الأكثر عمقاً لذلك الخيال، وخيال الرّجل الضّاحك. وفي مستوى أفضل إعداداً، فإن لهذا الخيال قيمةً رمزيّة واضحة: ولا يمكن أن نتخيّل صورة أكثر كمالاً للإذلال وللاستلاب أكثر من صورة المهرّج، المحكوم بأن يُضحك الناسَ من نفسه والذي سُرق منه إذا صحّ القول ضحكُه الخاصُ به. غير أن المهرّج، كما رأينا، لا يسير من غير معلّمه الذي يثأر منه أو يحلم بأن يثأر منه. إن غوينبلين، أكثر المهرّجين كمالاً، لن يثأر، ولكنه سيحاول، بكلامه أن ينتقم لكلّ المثلّين.

إننا نجد هنا الوحشَ ذا الوجه المشوّه والذي يتبدّل وجهه، ويغيرّ كلامه السّامي العالم. لقد وضعنا غوينبلين على تقاطعِ سلالة كازيمودو - ميرابو، وسلالة المهرّجين. غير أن سلفه الأقرب بالتأكيد هو السّتير[2] في مجموعة: أسطورة القرون. فهو أيضاً، كائنٌ مشوّه، أو حيوانيٌ أو سخريٌ، أنه يخيفُ ويضحك؛ إنه يبرز فجأة من الظّل، ويصعد إلى الأولمب. إن الآلهة تضحك، ولكن الكلام السّامي، والغناء، يخرج من فم الوحش الذي يغدو عملاقاً، فيَقضي على الآلهة. وفي فهمنا، فإن السّتير وغوينبلين هما الجبّاران الهيغوليان الأكثر كمالاً. وهذان الجبّاران يدخلان في نطاق المثال الأصلي، مثال بروميثيوس، نظراً لأنهما متمرّدان: إن السّتير ينهض ضدّ جوبيتر باسم

(١) المجلّد السادس، ص: ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٢) كائنٌ خرافي نصفُه بشر ونصفه ماعز. وقد يرمزُ إلى الشّهواني. (م: ز.ع).

الخليقة، والإنسانية، وشأن بروميثيوس شيلي(*)، ينتصر عليه. أما غوينبلين فيخفق في تمرّده، غير أنه لا يخسرُ الغلبةَ بسبب ذلك، فالمستقبل له. وشأن آلهة الأولمب، سوف يختفي اللوردات بعد حين، كلمّا تكلّمَ السّتير:

قبل أن يتوفرّ الوقت للعدّ حتى عشرين...

إن هذه النماذج البرميثيوسية الهيغوليّة المُذِلّة في البداية، والمتضعّة، تشبه أيّوبَ 'جبّارَ المزبلة' وهذه السّمةُ الثانية هي الأكثر بروزاً عند غوينبلين، البائس المحكوم بأن يُضحِك، أكثر مما هي عند السّتير. وأخيراً، فإن الإنسانَ الذي يَضحك ويُضحك، والسّتير 'ابن الآلهة الفاسد' والذي هو أيضاً 'صعلوك' هما مثيران للسّخرية، ولسوف نضعهما في إطار نماذج رابليه. وفي كتاب وليام شكسبير يكون رابليه 'جبّاراً' 'ليس فرحة أقلّ عظمة من المرح الجوبيتيريّ.الفكّ ضدّ الفكّ، فكّ النظام الملكيّ والكهنوتيّ يأكل، والفكّ الرابليزيّ يضحك. إن أيّ إنسان قد قرأ رابليه يرى أمام عينيه أبداً هذه المجابهة القاسية: قناع الثيوقراطيّة (التربُّيّة) الذي ينظر إليه قناع الملهاة نظرة ثابتة، ولسوف نجده في الرّجل الضاحك، بصدد غوينبلين: 'كان الفنّ القديم يعلقّ في الماضي على جبهيّهِ مسارح اليونان وجهاً برونزيّاً ضاحكاً. وكان هذا الوجه يسمي الكوميديا (الملهاة). كان ذلك البرونز يبدو وكأنّه يَضحك ويُضحِك، وكان متفكراً. إن كلّ المحاكاة السّاخرة التي تفضي إلى الجنون، وكلّ التهكّم الذي يُفضي إلى الحكمة، كانت تتكثّف وتندمج على ذلك الوجه(1)'. ذلك هو وجه غوينبلين وذلك هو ضحكه، 'لجّة الفكر' بمقدار ما هي لجّة رابليه في نظر ملك المجوس. إن الجبّار الهيغوليّ صعلوك، لا يُفلت من السّخري، ولكنه

(*) شاعر انكليزي رومنسي (١٧٩٢- ١٨٢٢). (م: ز-ع).

(١) ٢، ٢، ١. هذا 'الضحك الثابت' وهذا 'الهزء' فيهما 'جمودٌ تحديّ' إننا نقع على ضحك رأس الميت الذي قد يكون إذا صحّ القول، النموذج، والمثال الأصلي المرعب للقناع القديم ووجه غوينبلين.

مستعدٌ ليغدو هائلاً؛ إنه المكابدُ الذي سوف ينتقم ويحرِّرُ معه كلَّ المذلِّين. إنه أيوّبُ بروميثيوس[1] بضحكة الهائل والمخيف، ضحك رابليه.

إن أسطورة الجبابرة الهيغوليّة، كما تتبدّى في إتقانها وفي اكتمالها مع قصيدة السّتير ذاتُ دلالةٍ ميتافيزيقية وسياسية في الوقت نفسه. إن مغامرة السّتير تلخِّصُ تطوّرَ الكون، من الخواء إلى الله، والمادة، من كونها حيوانية ومشوّهة، تتكوّن روحاً، وتعود الخليقة إلى الله وإلى التعاظم الشّامل للنهاية. فضلاً عن هذا، فالسّتير يتّهم الآلهة بأنهم 'ملوك'. وهذا الأولمب (موطن الآلهة) كما نعلم، يشبه التويلرّي كثيراً كما يراه ويعلنه شاعر القصاص: إن السّتير يتكلّمُ من أجل المضطهدين، والمذلّين، والصّعاليك. إنه يمثّل أيضاً الشعب. وهذه الدّلالة المزدوجة موجودةٌ في الرّجل الضّاحك، رواية الرّوح ورواية الشعّب.

حين يهتف السّتير:

والآن، أيتها الآلهةَ! اصغي إلى هذه الكلمةَ: الرّوح!
فتحت الشّجرة التي تتمتم، وقربَ الوحش الذي يذزب[*]
يتكلمّ أحدهم. إنه الرّوح! وهي تخرج من الفوضى[2].

إنه يدلّنا مسبقاً، على معنى الفاصل الذي يقدّمه أورسوس، العماء المهزوم. وحين تبتعد 'الخادمة المهرجة الفاسقة' لا نرى في البداية إلاّ 'السّواد'

---

(١) يكتب هيغو، في مشروع مقدمّة: 'هل لـديـنا، فـي قروننـا الحديثـة [...] معـادلٌ للمصعوق القديم؟ [...]، على سبيل المثال، 'للحقّ الملكي في البتـر'، الحـقّ القـديم [...] هل أمكن له أن يخرج شيئاً من مثل بروميثيوس، أو مـن مثـل أيـوب الـذي ينتصب في لحظة معينة، ويقذف ليس أمام الإله أيضاً، بل أمـام الملـك باحتجاجـه المأسويّ؟ لقد فكرّ المؤلفّ بذلك، ومن هنا هذا الكتاب' لنذكر أيضاً أن جوزيان تعلـن لغوينبلين: 'أنت، جبّار...'

(*) صوت الأيّل. (م: ز.ع).

(٢) المجلد: ١٠، ص: ٥٩٥.

ونكون قد وصلنا، في الحقيقة، إلى اللحظة الأولى من غناء السّتير والتي تسمّى بالتحّديد 'الأسود'، وتمجّد الخواء الذي ستولد منه 'الرّوح'. إن الدبّ والذئب ينقضّان على غوينبلين، 'وذلك هو العماء الذي يحارب الإنسان' وهو لا يكاد يكون متميزاً عن البهيمة في ذلك العراك. حينذاك، يظهر فجأة بياضٌ: 'وكان هذا البياض ضوءاً، وهذا الضوء كان امرأةً' إنها ديا التي تغني: ' / De palabra 'Nace razon, Da luze elson ('من الكلمة يولد العقل - والغناءُ يخلق النوّر'). وهكذا، ففي مجموعة التأمّلات القصيدة المعنونة بـــ تتمّة كانت تمجّد قدرة الكلام وأوّليته، والذي يخلق النّور عن طريق الـــ fiat lux [1]. وفي نشأة الكون الجبارة، ينظم الغناء الفوضى، ويحرّر الإنسان الذي يصل، بدوره، إلى الكلام، يردّ على ديا: 'أوه! تعالي! أحبيّ! - فأنت أيضاً روح - وأنا قلب' إن ميتافيزيقيا الكلام والنوّر، وموضوع أورفيوس وصعود الروح عبر الخواء، كما في قصيدة السّتير، هذا كل ما تتضمّنه إسبانيةُ أورسوس السّاذجة. ولا يفوت هيغو أن يشدّد على كافة دلالاتها؛ 'في هذا المشهد الغريب' الذي 'كانت له شفافيّةٌ تجسّد الفكرة' (والذي له قيمةٌ مفعمةٌ بالطّقوس، حين أدّاه يوميّاً وعاشه غوينبلين وديا المتحابّان) كان بالإمكان أن نستشفّ 'كيف تتبدل صورة المشوّه، وكيف يغدو الذي لا شكل له فردوسيّاً' - وفي هذا خلاصة قصيدة السّتير ذاتها'.

وهكذا، يقال لنا إن ديا 'كانت تجد أفعواناً وتصنع روحاً'؛ إنها تدعو 'المسخ' ليتخلّى عن 'درعه الأسود' - وبهذه الصّورة تهيّئة، الحقّ يقال، إلى المشهد النّهائي، إلى التجرّد الأعلى، عندما 'يتخلّى' الرجل غوينبلين عن 'درعه اللحميّ' يرمي نفسه إلى الموت، ولكي يتحدّ بالرّوح - النّور. ولكن الوحش، قبلاً، قد عانى من الإغواء. لأن غوينبلين ليس إطلاقاً رجلاً تعرّض لإغواء جوزيان التي تعرّض نفسها فحسب. وفي حقيقة الأمر، فإن الجبّار، هنا، هو الذي

---

(١) نفكرّ بإنجيل القدّيس يوحنّا: 'في البدء، كانت الكلمة.... in principio erat verbum' ولقد قرّبنا أيضاً هذه القصيدة من: النظرة الإجمالية لفلسفة معينة للامونية (راجع المجلد الثاني من المؤلفّات الشّعرية، في طبيعة 'لابلياد' الهامش رقم ١، الصفحة: ٣. ٥). وترجمتها: (إنه يؤمن بالنّور).

يتعرض لإغواء "الجبّارة" - لأن عنوان الكتاب الذي يروي هذا اللقاء يسمّي جوزيان على هذا النحو. وكذلك فإن غوينبلين يمتّ إلى جوزيان بوحشيّته، ومن هذه الناحية إنما ستغويه: إن الجبّارة الوحشيّة تدعو الجبّار إلى تمجيد وحشيّته[١]. إنها السّتير الذي تغويه فينوس التي قد تكون جيو[٢] في الوقت نفسه. ألم يُشر لنا بأن قصر كورليون - لودج الذي تنتظر فيه جوزيان غوينبلين يبدو "مثل جوهرة لأجل جيو" (٢، ٨، ٢)؟ ولئن كانت ديا تغنّي فوق غوينبلين السّاجد، ترتيلة الرّوح، من العماء المهزوم، فإن جوزيان، أمام غوينبلين، المذهول والواقع تحت الإغواء، تغنيّ نشيد جيو ونشيد المادّة: "يا غوينبلين، أنا المرأة. والمرأة من الصّلصال الذي يرغبُ في أن يكون وحلاً [...] إن مزج العالي والواطئ هو الشّواش، والشّواش يروق لي [...] فنحن، أحدنا والآخر، ننتمي إلى النيل. [...] أنت تصلين، وهاهي روحي خارجاً [...] إن اقترابك يُخرج مني الأفعوان، أيتها الإلهة". إنه الرجوعُ إلى الشّواش، أيتها الروّح التي هي أفعوان. إن غناء جوزيان هو بالضّبط نقيضُ غناء ديا.

إن غوينبلين، كما نعلم، سوف يجري إنقاذُه واستبقاؤه لزفافٍ صوفيٍّ مع ديا. وقبل ذلك سوف يتعيّن عليه أن يخضعَ لامتحان آخر، أمامَ اللوردات. وهنا، نعرض لدلالة الرّواية السّياسية حصراً، ولسفحها "الثوريّ"، فلا يفوت هيغو إطلاقاً أن يشبِّه غوينبلين في ويستمنستر - هول بميرابو "المشوّه هو أيضاً" والذي يبرز فجأة "مثل شيطان من الحجر"، من بين نواب عموم

(١) حين قرأ غوينبلين بطاقة جوزيان، فهو يحسّ بأنه قد أطري في خيلائه كوحش: "كان يحس بأنه فائق على البشر، وهو وحشٌ إلى درجة كبيرة بحيث أصبح إلهاً" إنه، في الحقيقة، الإله الوثنيّ الذي هو أيضاً الجبار غوينبلين والتي ستحتفي الجبارة به في ذاته.

(٢) لقد التقينا هذه الألوهة الهيغوليّة في: solitudines coeli (عزلة السّموات) حيث يغني النسر وثنيّة إلهته - الجبل، و"الوحش" جيو ذا الغراميات الملتهمة (المجلد: ٩، الصفحات: ٤٣٩ -٤٤٠). ولنضف أنه، في أسطورة الجبابرة، في السّتير أو الجبارة تمثل فينوس السيدة الكبرى غير المحتشمة، وجوزيان، هي الأخرى، ليست مجرّدة من القيمة المزدوجة، الخاصة بهذه الرّواية، وهي قيمة الرمز السّياسي والاجتماعي (فهي المرأة الأرستقراطية)، والقيمة ذات الرّمز الميتافيزيقي (التي هي المادّة).

الطبّقات. إن غوينبلين يُشبِّه أيضاً ببروميثيوس. إن غوينبلين ينتصبُ في وسط اللوّردات، 'وكانت رؤيته هائلة': 'ولنتصوّر، على جبلٍ مخصّصٍ للآلهة، وفي احتفالٍ أمسيةٍ رائعة، كلُّ زمرة المقتدرين، مجتمعة، ووجه بروميثيوس الذي أتلفته ضَربات منقار النسر، يظهر فجأة مثل قمرٍ مضرّج بالدّم في الأفق'. (٢، ٨، ٧). إن بروميثيوس الهيغوليّ، سواء كان السّتير أم غوينبلين، هو خطيب، إن غوينبلين يتهيّأ ليصبح كازيمودو الذي يلج إلى الكلام؛ فيقول 'الشعب صمت' – 'سأكون المحامي الهائل لهذا الصّمت. وسأتكلمّ نيابة عن الخرس [...]، سوف أتكلم من أجل كافة الصّموتين اليائسين. وسأعبّر عن تمتماتهم. سأعبر عن زمجراتٍ وعويل، وهمسات، وضوضاء الحشود، وعن الشكاوي التي لم يُفصَح عنها جيداً، وعن الأصوات غير المفهومة، وعن كلّ تلك الصّرخات، صرخات الحيوانات التي جعلوا النّاس يطلقونها لفرط الجهل والمعاناة [...] سأكون كلمةَ الشّعب' (٢، ٩، ٢) صوت الشعب مثل السّتير الذي هو نشيد العالم، ويضيف غوينبلين إلى صورة بروميثيوس، صورة أورفيوس. إن خطاب أورفيوس هذا حدٌّ مميّز لبلاغة الجبّار، ذلك الكائن الذي يصعد من الأعماق، الذي هو المذَلّ، والسّخري والمتألّم، والذي يمتلك مع ذلك الاقتدار الحقيقي، اقتدار الكائن، في حين أن أولئك الذين في الأعلى مقتدرون زائفون، وهم الضّعفاء الحقيقيّون. إن غوينبلين يبدأ بهذا التناقض بين العالي والواطئ: 'يا سادتي الميلوردات، أنتم في الأعلى [...] وأنا ذلك الذي يأتي من الأعماق'. ومثل السّتير الذي يصف 'الأسفل المرعب' أسفل الأرض،

ظاهر الخليقة المعتم

فإنّ غوينبلين يجبُر اللّوردات على رؤيةِ الظّاهر المظلم، ظاهر المجتمع. 'من هذا العالم الهائل الاتساع، أنتم لا ترون إلاّ الاحتفال، فلتعلموا أن هناك عتمةَ' وبما أنه ضعيفٌ، ولكنهٔ واثقٌ باقتدار الكائن فهو يستأنف على محكمة البشر، محكمًاً المحكمة الإلهية: 'يا سادتي الميلودرات، أنا المحامي اليائس، وأترافع عن القضيّة الخاسرة. فهذه القضيّة، سوف يكسبُها الرّبُّ من جديد'. وإن كان غوينبلين ضعيفاً ويائساً، فهو ليس كذلك إلاّ ظاهريًا وللحظةٍ

من الزّمن. إن العالم الذي يعيش فيه عالمٌ زائف يضطهدُ فيه هؤلاء الضّعفاء الذين هم المقتدرون، الملوكُ واللوردات، وآلهة الأولمب الزائفون. يضطهدون هؤلاء المقتدرين الذين هم الضّعفاء، الشّعب، والبشريّة، وبتأثير منظورٍ غريبٍ وفاضح يحجبون حتّى الله. غير أن غوينبلين، شأن السّتير هو الكلّ الشامل، وهو يصيح باللوّردات: 'أنا الشعب [...] أنا العالم كلّه [...] وأنتم الوهم. أنا الواقع، أنا الإنسان [...] إني أجسّد كلّ شيء' (٢، ٨، ٦). ومع ذلك، فإن غوينبلين لن يعرف انتصار السّتير؛ وهو الرّجل الضّاحك، عمودُ تمثال العالم الذي يبكي [...]، وقلق متحجّر في الضّحك، وهو يحمل ثقل كونٍ كارثيّ، وهو محصور أبداً في الجذل' (٢، ٩، ٢). إن غوينبلين هذا، التّمثال المضطهد، بضحكه الحجريّ، يذكرّ في نهاية المطاف بهؤلاء الجبابرة الآخرين الذين هم أعمدةٌ تماثيلِ (Cariatides) قصيدة الثوّرة، وعلى الخصوص، عمود التمثال الذي يضحك، وعند مرور الملوك، يطلق صرخةً هي مرافعةٌ متحمّسة ضدّ الماضي، وتنبؤٌ مخيفٌ بالمستقبل. إن قدرة الكلمة التي يجري إظهارُها كفعل في قصيدة السّتير التي تؤمّن فيها تعاظم البطل وإفناء خصومه تستند هنا إلى المستقبل. لم يستطع غوينبلين أن يتحكمّ بوجهه حتى نهاية خطابه؛ ففي قمّة الانفعال، لا يتمكن من منعه من القهقهة، مُطلقاً عاصفةً من المرح الصّاخب[1]. فإن غوينبلين ينتهي كما بدأ السّتير، بأن يثير

(١) يمكن أن نتصورّ، مع ج – ب باريّر (هيغو، الإنسان والمؤلّفات)، أن 'هيغو قد كثّف في مهاتفات اللوّردات المرارة التي تركتها لديه جلسات عامي ١٨٤٩ – ١٨٥٠'؛ فهو لم يكن الوحيد الذي اختبر هذه الضّروب من الصّخب البرلماني، ويدلّني بيير سالومون، السّاندي النزعة، والمعروف جيداً، على هذا المقطع من إضراب ساماريز (١٨٦٣، م: ١، ص ٥٨) حيث يروي رفيقٌ منفى هيغو الذي قليلاً ما يودّه، وهو بيير لورو هذه الحادثة المزعجة: 'ذات يوم في الجمعية المسماة بالتأسيسيّة، جمعية عام ١٨٨٤، والتي لم تؤسّس شيئاً، وليس أكثر مما أسّسته الجمعية الأخرى، حدث لي بتهورّ أن تكلمت على الثالوث كما نتحدث عن مبدأ لم يكن بالإمكان ازدراؤه، ويمكن أن نستمدّ منه نتائج مفيدة للتنظيم الاجتماعي. وكان في تلك الجمعية العديد من الكهنة الذين نتعرّفهم من زيّهم. وكان من الطبيعيّ أن أسعى لملاحظة درجة الاهتمام الذي كانوا يولوني إياه. فأنظر إلى بطريرك أورليان، الجالس في أسفل المنصّة، قريباً من

الضّحك. غير أنّه يطلق التّنبّؤ الذي يجعلُ السُّخريُّ مرعباً، برغم الضّحكات: 'ارتجفوا. إن الحلول التي لا تقبل الفساد تقترب. [...]؛ والفرانيس المبنيّة على الجحيم تترنحٌ [...]، وما هو في الأعلى ينحني، وما هو في الأسفل ينفرج؛ والعتمة تتوق لأن تصبح نوراً [...]، إنه الشعب الذي يأتي، كما أقول لكم، إنه الإنسان الذي يصعد، إنها النهاية التي تبدأ، إنه فجر الكارثة الأحمر....' (٢، ٨، ٦).

إن عام ٩٣ يصعد إلى الأفق، وقد سوّغه صممُ السّلطات العليا' (٢، ٩، ٢).

إن الرّجل الضّاحك تنتهي وهي تتفتح، وتُختَم بانفراج فاغر. إن النّهاية، أي موت غوينبلين وديا، هي، بصورةٍ جليّة، بداية حياتهما الحقيقية واكتمال حبّهما. والحال، فحتى الآن، كانت روايات هيغو تُقفل بانتهائها. وبصرف النظر عن نوتردام باريس، رواية القدر ananke، فإن رواية

مقعد الوزراء، وأراه مقهقهاً. وهذا لا يدهشني! فهو رجلٌ مرح، والتقيته كلّ يوم في المكتبة وهو يقرأ: اللّفظ والضجّة': Charivai، غير أن مطران لانغر كان معروفاً بأنه رجلٌ جدّي ولاهوتيّ. وها أنا أبحث عنه بعينيّ، لقد كان يضحك وهو يعضّ على شفتيه. فهل كان الثالوث مثيراً للضّحك إلى تلك الدرجة إذن؟ وفي وسطِ نصف الدائرة كانت تتألّق مجموعة من الخوارنة، الآتين من بوري، ومن أوفيرنيا، ومن لاكوريّز. وكان هؤلاء يسرفون في الضحك. حينذاك، أتوجّه بنظري إلى الأب (رئيس الدّير) كازاليس، ورئيس الدّير سييور، وهما رئيسا دير وسيمان وشابّان وجالسان على أعلى المقاعد في أقصى اليمين، وكانا معتادين على النوم في حين يجري الإطناب في الكلام. وفي تلك المرّة، لم يكونا نائمين، كانا يضحكان. وهكذا، فإن كل إكليروس الجمعية كان يضحك. وأسألك عن العلمانيين؟ إن الجمعيّة بكاملها قد سيطر عليها مرحٌ لا ينتهي، إن ٩٥٠ مشرّعاً عيّنهم ٣٦ مليوناً من الفرنسيين يضحكون، ويضحكون بضحك هوميريّ، لأنني قد تحدّثت عن الثّالوث! ولسوف تقولون لي: كان هناك على الأقلّ واحدٌ من أصل ٩٥٠ لم يكن يضحك. إنه الخطيب؟ ولكن، بلى، فإن الخطيب كان يضحك وهو يراهم يضحكون [...].

إننا نحترس من أن نرى في ذلك 'مصدراً' من مصادر: 'الرّجل الضّاحك'؛ غير أنه ليس ممنوعاً أن تجري مقارنة مع هذا الأمر.

البؤساء تنغلق على المظهر النّهائي لقبر جان فالجان المهجور، والأبيات المكتوبة بقلم الرصاص على ذلك القبر توجز مغامرته التي فُرِغ للتوّ من روايتها. وما من شيء يوحي بأن غرق جيليات في نهاية عمّال البحر - هو غرق متعمّد، مثل غرق غوينبلين - يشكّل، في الحقيقة، الولادةَ الثانية للبطل: في حين أن غوينبلين ينضمّ إلى ديا، من خلال موته، فإن جيليات يموت متروكاً من ديروشيت وإيبينيزير واللذين تبتعد سفينتها إلى الأفق. وفي الرواية الهيغولية، هناك موت واحدٌ أكثر انتصاراً أيضاً من موت غوينبلين، وذلك حين تتعالى روح غوفان الذي يُعدم بالمقصلة، في نهاية رواية عام ٩٣ حاملةً في نورها الرّوح القاتمة والتي خلّصت، روح سيموردان الذي انتحر لتوّه. والحال، فإن الرّجل الضّاحك وعام ٩٣ هما روايتا الثورة. فتنتهي الأولى منهما بالتنبؤ بتلك الثورة، والثانية بالتنبؤ بما سيأتي بعد الثّورة، بالقرن العشرين السّعيد. وبما أنهما روايتا التنبّؤ الثوري والديمقراطي - الطوبّاوي بالتأكيد - فهاتان الرّوايتان تنتهيان بالانفتاح - لأن الطوبّاوية انفتاحٌ تحديداً. وهكذا، فإن الإيديولوجيا، ليست في تفاصيل الأفكار المعروضة، بل باعتبارها قوّة انفتاح، تحدّدُ البنيةَ ولا تنفصل عنها. إن هاتين الرّوايتين، من خلال بنيتهما وإيديولوجيتّهما (انتقام الضّعفاء الذين هم المقتدرون الحقيقيون، إسقاط عالمٍ مقلوب أعيد إلى جانبه الأفضل إذاً، في الرّجل الضّاحك، أو تعاون ضمني بين الخير والشرّ الضّروريّ تحت شكل العنف في عام ٩٣ إن هاتين الروايتين تصدران عن الأسطورتين الكبيرتين اللتين هما أسطورتان شخصيّتان لهيغو: أسطورة السّتير، أو أسطورة الجبابرة؛ أسطورة الشيطان الذي خلص.

هل نخضع للإغراء أو للجرأة المفرطة حين نردّ هاتين الأسطورتين إلى مخطّط واحد؟ ولمَ لا؟ أليستا، إحداهما والأخرى، أسطورتين للثورة؟ في إحداهما كما في الأخرى، يجري الانطلاق من الأسفل: إن السّتير يأتي من العالم التحتيّ، عالم الشجرة "التي تُرى من جهة جذورها" من الحيوان، من العالم القاتم والعميق والذي هو عالمُ العماء الأصليّ، عالم "البدء". لقد عاش غوينبلين "تحت عرقصة الجميع" وفي أعماق الشّواش الاجتماعي. لقد سقط

الشّيطان، فهو المقصى - وهو منفي، على طريقته هو أيضاً. غير أن العالم السّفلي مزدوجٌ بصورة متناقضة؛ فالشعْبُ، السّخريّ والمثيرُ للشّفقة في آن، شأن غوينبلين، يحمل في ذاته، مثل كازيمودو "قوّة الرّب"؛ فالشرّ ضروري، وبدونه لا يتحرّك التاريخ، ولا يكون هناك مجالٌ للتقدّم. وإضافة إلى أنه والدُ ليليت - إيزيس، والقدر، والعدم المرعب، فإن الشّيطان هو أيضاً والدُ الملاك حريّة. إن التّاريخ الذي ينطلق على هذا النحْو يجري حسب قانون التقدم والالتباس؛ فالخير يمكن أن يصبح شراً، والشرّ يتحوّل إلى خير. إن يسوع والشيطان متشاركان، في حقيقة الأمر، ففي هذا التّاريخ، الصعودُ سقوط، والسّقوطُ صعود، كما هي حال غوينبلين. إن السّتير ينشد هذا التاريخ المؤلم والظّافر؛ فتكون حينئذٍ في لحظة القصيدة: غناء السّتير، وخطاب غوينبلين؛ ففي نهايةَ الشّيطان، يتوقّف التاريخ للحظة من الزّمن، ويبقى معلّقاً: إن الملاك حريّة هو بالقرب من الشيطان، وهو أيضاً ينشد. وأخيراً، فإن الشيطان سيصعد إلى النّور، ومن سمت القدم إلى سمت الرأس، يغدو السّتير هو الكلّ الأكبر. فتكون الدنيا والحالة هذه التّرسيمة التالية:١) الأسفل/ المنفي- ٢) التاريخ أو الفعل الملتبس- ٣) لحظة الكلام -٤) الصّعود. فمن الأسفل يجري اقتياداً نحو الأعلى، بوساطة الامتحان ووسيلة الكلام (باعتباره نشيداً أو خطاباً قابلاً للفتح، أي يتضمّن، وأنا أكرّر هذا، الإيديولوجيا القابلة للفتح، والتي هي إيديولوجيا هيغو. في الرّجل الضّاحك، اللحظة الرابعة أقل وضوحاً؛ فمع النجاح الصوّفي لغوينبلين، بفضل موته، يتعارض إخفاقُه السّياسي (أو بصورة أفضل، التاريخيّ). غير أن هذا الإخفاق مؤقّت، ففي التنبؤ، يتضمّن خطابه، في آن، اللحظة الرابعة (الصعود عن طريق الانفراج المفتوح باتّجاه المستقبل) و اللحظة الثانية بما أنه، إذ يتنبأ بالنهاية، فهو يتنبأ أيضاً بالوسائل، وبالوقت الوسيط وسائل وزمن العنف: إن غوينبلين هو في آن المتنبئ بغوفان (المستقبل الهائل الاتساع، والصّعود النهائيّ، واللحظة الرابعة) وبسيموردان (المفصلة الضرورية والتي لا مفرّ منها: التاريخ، واللحظة الثانية).

وبصرف النظر عن اتّساع البؤساء الفريد، وسيادتها السّامية، فمن المباح أن نؤثر عليها الفنّ الأكثر تجرّداً، فن عمال البحر وعام ٩٣: إن الرّجل

الضّاحك هي، بلا شكّ، الرّواية الأكثر جنوناً بين روايات هيغو. وبما أنّها قصةُ وحش، فقد كانت تلتزم أن تكون بذاتها رباعية التشكيل. إنها تُعرفُ بتماسكها: وهو تماسكٌ على كافّة المستويات بين موضوعها الرئيس، وبنيتها، وإيديولوجيتها، وكتابتها. وبرغم غرابتها، فهي تُعرف مع ذلك أيضاً بصدقها: سواء تعلّق الأمر برقصة المشنوق المقطرن المرعبة والذي أُسلم إلى هبوب الرّيح، أم بالصّورة نفسها، صورة الرّجل الضّاحك، فالخيال فيها مزوّدٌ بالجلاء الحلميّ الأكثر صلابة. وأخيراً، فإن الرّجل الضّاحك التي تتضمن الملحمة، ونهايةَ العالم، والغزليةَ والخيالَ المبدع للمسرح الحرّ، وربّما تكون، بعد البؤساء، أغنى الرّوايات الهيغوليّة(*).

بيير ألبوي

(*) إننا نورد هنا مدخل الرّجل الضّاحك التي نشرت في المجلد الرابع عشر، من الأعمال الكاملة لفيكتور هيغو، النادي الفرنسي للكتاب ١٩٧٠.

تنبيه

إن الغنى في مفردات رواية الرّجل الضاحك مسهبٌ في حرفية كلماته. ويتعلّق هذا الغنى بأسماء العلم والأسماء العامّة في آن، ويمكن أن يرجع إلى اللاتينيّة التقليدية أو إلى اللاّتينية المختلطة باللغة الوطنيّة، وإلى الإسبانية، وإلى اللهجة الإقليمية النورماندية أو البيسكيّة(*)، وإلى عاميّة المهن، وإلى ما نسميه اليوم "الفرنكو - إنكليزية". وهذا الغنى يتوافق مع إرادة فيكتور هيغو في تحميل روايته بالزّخارف، وفي إثرائها بكلّ الثّقافة التي اكتسبها في نصف قرن، ومما يشبه في ذلك بعض الشيء الفنّ القوطيّ الذي أخذ يتموّج في خطوطه الزخرفية مع الزّمن.

وسواء تعلّق الأمر بإعداد قائمةٍ بلوردات مجلس النّواب وممتلكاتهم، أو بتعداد الأسماء المجلوبة للنباتات الطبّيّة، أو تعلقّ الأمر بالآلهة القديمة أو بمصطلحات البحرية التي تجعل التعّابير غير المعروفة تتكاثرُ على المبتدئ دفعة واحدة، وسواء ذُكرت كافة أنواع الرّخام التي استخدمت في إقامةِ بناء قاعة، أو بالتنافس، ثم تعداد أكثر الآلات الموسيقيّة عدداً وأكثرها بعداً عن الملائمة وكأن الجوقة الموسيقية بكاملها في أثرنا: إن كلّ شيء يشكّل ذريعة لفيكتور هيغو كي يستخدمَ الكلمات لعناصرَ مولدّةٍ لديكور باروكيّ(**).

ولا يجري ذلك من غير طرحِ مشكلةٍ خطيرة على ذلك الذي يحمل تسميةً غير أنيقة، مع أنها صحيحة، تسمية المعلّق؛ فبوسع هذا الأخير أن ينتقي أحد خيارين لا يُمكنهما إرضاءَ إلاّ هواة الحلول القصوى: فإما أن تكون

(*) لهجة مقاطعة في إسبانيا.

(**) شديد الزّخرفة (م: ز، ع).

كلُّ كلمةٍ يتساءل الفضولُ بصددها، موضوعاً لحاشيةٍ ما، حينئذٍ تُقطعُ القراءة باستمرار، وينتهي الكتاب ذاته بالتّواري تحت كثافة التعليق؛ وإمّا أن تُترك الحرّيةُ للنص لكي يتوسّعَ من غير شرحٍ، مثل مستعمرة مرجانية حقيقية دلاليّة، إلاّ أن القارئ التّواق إلى المعرفة الواسعة هو الذي يحسّ حينذاك بأنه محبط. لقد حاولنا، بين المكسرين الصّخريين، أن نجد طريقاً وسطي، شأننا شأن مركب الماتوتينا الذي يبحث بصورة يائسة عن ممرّ بين أورتاش وأوريني(*)، ومعبّرين، عن تمنينا على القارئ أن يبدو أكثر تسامحاً من 'البحر الوحشي'.

لقد قرّرنا أن نستبعدَ من التّفسير معظم الكلمات التي نجد تعريفاً لها في المعاجم الصّغيرة المعاصرة التي تعتبر حجّة. إن ترياق الأورفيتان ليس معروفاً من الجميع، و'Hiloire' (سدّ الحماية) كلمة نادرة بعض الشيء. ولكن هل ينبغي بسبب ذلك ترتيبها في معجم خاصّ يشغل وحده عشرات الصّفحات، في حين أن كتاباً شعبيّاً من مثل: Le petit Larousse illustré (معجم لاروس الصّغير الموضح) يقدّم تعريفاً واضحاً لها؟

لقد عدلنا أيضاً عن التعليق بصورة منهجيّة على الكلمات الفنّية التي تفترض اللجّوء إلى معاجم متخصّصة (من مثل مصطلحات بحريّة أو نباتية): فهل هناك ضرورة حقّاً لتحديد معنى وهن 'itaques' وحبالِ قلوع الأشرعة الواطئة' حين يكون المرء قد فهم جيداً أن أوامر قد أصدرها البحارة لمحاولة إنقاذ سفينة الهوركة من الكومبرا شيكوس، ولسوف يعترضون علينا بأن هاتين الكلمتين الأخيرتين يمكن أن تبدوا غامضتين بالنسبة لعامّة البشر الفانين. غير أن هيغو يخصّص بالتحديد فصلاً كاملاً لكلّ واحد منهما يشرح معناها. وإذْ يعطي هيغو عنواناً لأحد فصوله هو 'wapentake' فلا نكشفنّ ماذا يعني: إن فيكتور هيغو نفسه هو الذي سيتكفّل بذلك في الصّفحات التالية. وهكذا، يحدث له غالباً جدّاً أن يستخدم كلمة نادرة ليخلق ترقّباً تأتي خاتمته

(*) جزيرة في إنكلترا، وهي جزءٌ من الجزر الأنكلو – نورماندية.

بعد بضع صفحات أو بضعة فصول. إن ملاحظةً تفسيريةً سابقة لأوانها ستفيد الأثر الذي كان المؤلفُ يتمنى إحداثه.

إن فيكتور هيغو ينظر إلى الكلمة على ما هي عليه: أي على أنها كائنٌ حيٌّ، فيمكن أن يدور الأمر على كائن مألوف أو كائن مجهول؛ على صديق أو على الاثنين في آن. فلنأخذ كلمة 'Brucolaque' (ص: ٢٣٨)؛ فناشرو 'الرّجل الضّاحك' لا يعطون تعريفاً لهذه الكلمة. وهناك مسوّغ واحدٌ لهذا على الأقلّ: إننا لا نجدها في المعاجم، وهي إحدى تلك الكلمات الصّنمية التي يستعملها هيغو. ونجدها في كرّاساته. ونجدها في مقدّمة كرومويل. وتعرض طبعة ماسّان عندئذ التّعريف التالي لها: 'كانوا يسمّون على ذلك النحْو، وعند الإغريق، جثثَ الأشخاص المضروبين بالحرْم' ونحن نجدها اعتباراً من الآن على الإنترنت، فتكون كلمةً ذات أصل يونانيٍّ، وتدلُّ على طيفٍ أو على شبح. فكيف لا نرى أن فيكتور هيغو يستخدمُها في وصفهِ للإعصار مثلما يجري إدخال خيمر[1]، وشيء غير قابل للتحديد وينبغي أن يظلَّ غير محدّد؟ فلماذا نلقي ضوءاً، في الضوء الخافت، على ما يعبّر عن الظلّمة؟

وبصدد الكلمات التي نجدها في المعاجم، يمكننا أن نورد عدداً كبيراً منها، وبدءاً من كلمة 'etanerie' (ص:٧٠) التي أوردت في كلّ الطبّعات، اعتباراً من طبعة لاكروا التي تبنّيناها مصدراً لطبعتنا. فهل تعدّ هذه الكلمة كلمةً مهجورة؟ هل يتعلق الأمر بتحريفٍ قديم يعود إلى أنّ ما هو قصدير يقال له باللاتينية tinning تعني 'قصدرة'؟ أو أنه بكلّ بساطة ليس سوى قوقعة؟ فمعجم ليتريه لا يذكر في هذا المجال إلاّ الكلمتين: etamage (قصدرة) و etamerie (محل للقصدرة). وكان لدى كونتيتّي كورنواي وديفون فعلاً تقليد طويل في استخراج واستخدام القصدير، إضافة للحقوق المكتسبة التي يمكن لذلك أن يتضمنّها. ويمكننا أن نماحك طويلاً في هذه الحالة، كما في حالات كثيرة أخرى. وهذا ما اخترنا ألاّ نفعله.

---

(١) الخيمر هو حيوان أسطوري له رأس أسد وجسم شاة وذنب حيّة، ودلالته المعنويّة هي الوهم والخرافة إلخ.... (م: ز.ع).

وهل ينبغي أن نحيل القارئ إلى ملاحظة حول الأب بوهور (باريس ١٦٢٨ - ١٧٠٢) والذي كان نحويًا وكاهناً مدنيًا، وكان رأيه يعتبر حجّة (ص: ٥٨)، أو إلى ذلك المغنيّ المسرحي - لوجيلوت في الصفحة: (٢٨) - والذي كان طيلة عشرين عاماً أحد نجوم الأوبرا والذين يوردهم هيغو كمثالين على الشخصيات الشهيرة والتي سوف ينساها المستقبل؟ بالطبّع لا. سوف ندعُ هناك الموتى يهتمون بالموتى. ولئن أثنينا بملاحظة على سوفير الذي كان ادّعاؤه موضوعاً للتملق، أو على زويل الذي ظنّ أن إحصاءَ مَواطن استبعاد الحدوث في أعماق هوميروس هو أمرٌ جيد (!) وبسوء نيّة كبير بحيث أن اسمه قد أصبح يرد في اللغة ليدلّ على ناقدٍ خسيس، فذلك لأن هيغو يوردهم لمراتٍ عديدة في كتابه وليام شكسبير وذلك ليفضح وضاعتهم إنهم يشكّلون بالنسبة لهيغو مرجعيّة ثابتة.

في نهاية المطاف لقد خصّصنا تعليقاتنا للكلمات التي تشكّل جزءاً من الاستحواذات الهيغولية، وللكلمات التي يمكن أن تتخذ ذريعة لحكاية يسير طابعها التصّويريّ باتجاه الرّواية، ولبعض أسماء الأعلام التي يوردها هيغو ليكوّن نوعاً من بساط تزييني تاريخي، وقماشةَ رسمٍ ملوّن تتحرّك أمامها شخصيّاتُ كتابه. وحين قمنا بكتابة الهوامش التي ترافقه، أردنا أن ننسجم مع الحركة الحيويّة التي تحرّك هذه الملحمة، وليس أن نقوم بتشريحها.

وخلافاً لما يمكن لغنى وتعقّد الإحالات التي تبرزُ في هذا الكتاب أن يبعثا على الخشية، فإن الرّجل الضّاحك يمكن أن تُقرأ دفعة واحدة، مثلما نزور آبدةً عظيمة الشأن عمارتُها على درجة كافية من البساطة في نهاية الأمر.

أما القارئ الفطن فينظر إليها على أنها أفخاخ قد زحم بها المؤلّف عمداً طريق غوينبلين المساريّ... فيفهم حينئذٍ بصورةٍ أفضل مراحله الأساسيّة، ويستخرج من قراءته "النخاع المغذّي" بدلاً من أن يتيه في اتساع معرفةٍ رخيص والذي كان هيغو أوّل من حمل عليه بتهكماته.

وأخيراً، أجزنا لأنفسنا الإلحاح على التّاغمات التي يلتقطها المرء بين الرّجل الضّاحك، هذه الرّواية ذات الطابع الأكثر شخصيّة، والأكثر سيريّة لدى فيكتور هيغو، وفي الوقت نفسه. الزاخرة أكثر من سواها بالثقافة التي اصطنعها لنفسه، وبين مؤلفات فرانسوا رابليه لأنها كتابٌ مصنوع أيضاً من العلم والقلب، ولعلّها إحدى المحاولتين الكبيرتين الفرنسيّتين في الأدب لصهر الثقافة والعاطفة في قالبٍ واحد.

روجيه بوردري

الرجل الضاحك

مقدّمة

انطلاقاً من إنكلترا، كلُّ شيء كبير، حتى ما هو غير جيّد، وحتى حكم الأقليّـــة.

إن طبقة النبلاء الإنكليزية هي طبقة الأشراف، بالمعنى المطلق للكلمة. وما من إقطاعيّة أكثر شهرة، وأشدّ رعباً، وأكثر تأصُّلاً من إقطاعيتها. ولنقل صراحة إنّ تلك الإقطاعية قد كانت مفيدةً في زمانها. وفي إنكلترا، إنما تحتاج هذه الظاهرة التي هي السّيادة الإقطاعية لأن تُدرس، مثلما تحتاج أن تدرس في فرنسا هذه الظّاهرة التي هي الحكم الملكيّة.

قد يكون العنوان الحقيقي لهذا الكتاب هو: الأرستقراطية وثمّة كتابٌ آخر سوف يتلوه ويمكن أن يحمل عنوان الحكم الملكيّ. وهذان الكتابان، إذا ما أتيح للكاتب أن ينجز هذا العمل، سوف يسبقان كتاباً آخر ويؤدّيان إليه، ولسوف يحمل عنوان: عام ٩٣.

هوتفيل هاوس، ١٨٦٩

القسم الأوّل

البحر والليل

فصلان تمهيديّان

I

أورسوس

١

كان أورسوس وأومو(*١) مرتبطين بصداقةٍ وثيقة. كان أورسوس رجلاً، وكان أومو ذئباً، وقد توافقت أمزجتهما. لقد كان الرّجل هو الذي عمّده فأطلق على الذئب اسمه. ولربّما يكون هو الذي اختار اسمه بنفسه؛ وبعد أن وجد اسم أورسوس مناسباً له، وجد اسم أومو مناسباً للحيوان. وكان تشارك هذا الرّجل وهذا الذئب مفيداً في المعارض، وفي الأعياد الرّعوية، وفي زوايا الشوارع التي يحتشد فيها المارّة، وعند الحاجة التي يشعر بها الشّعب في كلّ مكان للإصغاء إلى الترّهات ولشراء ترياق الأورفييتان الإيطالي(**). كان ذلك الذئب المطيع، والتابع بظرف مقبولاً لدى الجمهور. إن رؤية عمليات الترّويض أمرٌ يبعثُ على السّرور. فرضانا الأقصى لدينا هو في أن نشاهد كلّ تنوّعات التدّجين تُعرض أمامنا. وهذا ما يؤدّي إلى أن يكون هناك العديد من الناس عند مرور المواكب الملكيّة.

كان أورسوس وأومو يذهبان من تقاطعِ طرقٍ إلى ملتقى آخر، ومن ساحات أبيريستويث العامة إلى ساحات بيدلبرغ العامّة، ومن بلدٍ إلى بلد، ومن مقاطعةٍ إلى أخرى، ومن مدينةٍ إلى مدينة. وما إن يُستنفَدَ سوقٌ حتى ينتقلا إلى سوقٍ آخر. وكان أورسوس يقطنُ كوخاً صغيراً متنقلاً يجرّه نهاراً أومو،

(*١) هذه الأرقام تحيل إلى هوامش وإيضاحات في آخر الكتاب (م: ز. ع).

(**) ترياق كان يروّجه دجّال إيطالي (م: ز. ع).

المتحضّر بصورة كافية، ويحرسه ليلاً. وفي الطرّق الصّعبة، عند الطّلعات، وحين تكون هناك أخاديدُ أكثر من الحدّ، ووحلٌ أكثر من الحدّ، كان الرّجل يغلق قدّة الحّمال على رقبته ويجرّ بصورة أخويّة، جنباً إلى جنب مع الذئب. وهكذا فقد كانا يشيخان معاً. كانا يخيّمان على غير هدى في أرضٍ بائرة، في فرجةِ غابة، وفي موضع تقاطعٍ تتشابكُ فيه الطرّق، وعند مدخل الضّيَع، وعند أبوابِ الدّساكر، وفي أسواق الخضار، وفي المشجّرات العامّة، وعلى تخومِ البساتين، وعلى فناءات الكنائس. وحين كانت العربة الصّغيرة تتوقف في ساحة معرض، وحين كانت النسّاء المهذارات الفاغرات(٢) يلبسن أزياء مضحكة، وحين كان الفضوليّون يتحلّقون، كان أورسوس يخطب بإطناب، وأومو يؤيّد. أما أومو، الذي يضع صفيحةً خشبية في شدقه، فكان يجمع التبرّعات من الحضور بأدب. كانا يكسبان عيشهما. فكان الذئب أديباً وكذلك الرّجل، كان الذئب قد تدرّب على يد الرّجل، أو تدربّ بمفرده على مختلف ألوان اللّطف الذئبيّة التي كانت تساهم في ما يجنيانه. ويقول له صديقه:

– خصوصاً لا تنحطّ إلى إنسان.

لم يكن الذئبُ يعضّ قطّ، والرّجل أحياناً. وعلى أيّة حال؛ فقد كان العضّ شيئاً يدعّيه؛ فأورسوس مُبغض للبشر. ولكي يشدّد على بغضه للناس. كان قد أصبح بهلواناً، ولكي يعيش أيضاً؛ فالمعدة تفرض شروطها. إضافة لذلك، فإن هذا البهلوان المبغض للبشر قد كان طبيباً، إما ليصبح أكثر غموضاً، وإما ليكتمل. أما أن يكون طبيباً، فهذا أمرٌ قليل الشأن، فكان أورسوس، متكلّماً من بطنه. وكان يُرى وهو يتكلّم من غير أن يتحركّ فمه، وهو يحاكي نبرةَ ولفظَ أوّل شخصٍ يصل، بحيث يلتبس الأمر؛ وهو يقلدّ الأصوات بحيث يظنّ المرء أنّه يسمع أشخاصاً. وبمفرده، كان يُحدثُ همهمةَ حشدٍ معين، وهذا ما كان يعطيه الحقّ في لقب Engastrimythe(٣) فحمله. وكان يحاكي كلّ ضروب أصوات الطيّور، كالسّمن، وتنقنة الفرس، والقبّرة العطشى والتي تسمّى أيضاً بالرّويهبة، والشحرور ذا الكنف الأبيض، والمترحّلة جميعهم مثله، بحيث كان يُسمعُك أحياناً، حسب مشيئته، ساحةً عامة مغطّاة بالصخب البشريّ، أو مرجاً مليّئاً بالأصوات الحيوانيّة، وتارة يكون

عاصفاً مثل حشد، وتارة صبيانياً ورائقاً مثل الفجر. فضلاً عن ذلك، فهذه المواهب موجودة، مع أنها نادرة. وفي القرن الأخير؛ فإن شخصاً يُدعى توزيل، كان يقلّد الحشودَ التي يختلط فيها البشرُ والحيوانات، ويحاكي كل صيحاتِ الحيوانات، وكان ملحقاً بشخصٍ بوفون بصفة معرض للوحوش. كان أورسوس فطناً، وغير عاديّ وفضوليّاً، وميّالاً إلى الشرّوحات الفريدة والتي نسميّها خرافات. وكان يبدو أنه يصدّقها. وكانت هذه السّفاهةُ تشكّل جزءاً من مكره. كان ينظر في أيدي فلان وفلان، ويفتح كتباً دون تبصُّر ويقدّمُ استنتاجات، ويتنبأ بالحظوظ، ويعلمٌ بأنه من الخطر أن يصادفَ المرء فرساً سوداء، وبأن الأخطر أيضاً أن تسمع، في اللحظة التي تتهيأ فيها لسفرٍ، أن أحداً يناديك وهو لا يدري إلى أين تذهب. وكان يطلق على نفسه تسمية "بائع الفأل". كان يقول: "إن بين بطريرك كانتوربريٍ وبيني اختلاف، فأنا أعترف بذلك بحيث أن البطريرك الذي غضب عن حقّ، قد استدعاه ذات يوم، ولكن أورسوس الماهر قد هدّأ غضب نيافته بأن تلا عليه عظةً من تأليفه هو أورسوس حول يوم الميلاد المقدس، بحيث أن البطريرك الذي سحرته العظة قد حفظها عن ظهر قلب، وألقاها من على المنبر وعمّمها، وكأنها من إعداده هو البطريرك. وبناءً على ذلك، فقد غفر له.

كان أورسوس. كطبيب يشفي لأنه، أو مع أنه كان يطبّق المواد العطريّة، فقد كان خبيراً في المفردات الطبيّة. وكان يفيد من القدرة العميقة الموجودة في كومةٍ من النباتات المزدراة، كبندق الكرمة. والعوسج الأبيض Lebourg _ epine[*] وجنبة الرّباط والنّبق. وكان يعالج السّل الرئوي بـــالـــ Ros Solis[**]، وكان يستعمل في الوقت المناسب أوراق الفربيون، التي هي مادة مسهلة. إذا ما اقتُلعت من الأسفل، ومادة مقيّئة، إذا ما اقتُلعت من الأعلى؛ وكان يزيل لك ألماً في الحنجرة بوساطة الزّوائد الفطريّة النباتية المسمّاة أذن اليهودي، كان يعرف أيّ أسَلٍ يشفي الثّور، وأيّ نعناع يشفي

(*) أسماء متداولة وعاميّة لنبات الرّباطية التزييني (م: ز. ع).

(**) نبات هو زهرة الشمس (م: ز.ع).

الحصان؛ كان عارفاً بعناصر الجمال، والفائدة في عشب اللفّاح الذي هو رجلٌ وامرأة، وما من أحد يجهل ذلك. كانت لديه وصفاتٌ، وكان يشفي الحروق بصوف السّمندل والذي كان لدى نيرون منشفة منه، حسب قول بلين. كان أورسوس يمتلك معوجّة ومطريّة(٤) وكانوا يقوم بعمليات تحويل، ويبيع أنواعاً من التّرياق. ويروى عنه أنه قد حبس في الماضي لوقتٍ قصير في بيدلام(٥). وكانوا قد استقبلوه أن لا تكون هذه القصّة صحيحة. فلدينا جميعاً من هذه الأساطير التي نخضع لها.

الواقع هو أن أورسوس كان متعالماً، ورجلاً ذوّاقة، وشاعراً لاتينيّاً قديماً. كان علاّمة بالنّوعين: فيتبحّر في إبقراط، وفي بيندار، وكان يمكن أن يتبارى مع رابّان وفيدا وكأنه فيبوس (أبولون) (٦). وكان ينتج عن إلفته لإيقاعاتِ وأوزان القدماء أنه قد أصبحت لديه صورٌ خاصّة به، وعائلة كاملة من المجازات التقليديّة. وكان يقول عن أمٍّ تسبقها ابنتاها: وهذه داكتيل(*)، وعن أبٍ يتبعه ابناه: هذا أنا بيست(**)، وعن صبيٍّ صغير يسير بين جدّه وجدّته: هذا أمفيماكر(٧). ولم يكن لهذا القدر الكبير من العلم إلاّ أن يؤدّي إلى المجاعة. إن مدرسة سالِرن تقول: "كلوا قليلاً وغالباً". وكان أورسوس يأكل قليلاً ونادراً، ممتثّلاً على هذا النحوّ لنصف التوصية، ومخالفاً النصف الآخر. ولكن الخطأ كان خطأ الجمهور الذي لم يكن يتوافد دوماً ولم يكن يشتري مراراً. وكان أورسوس يقول: إن إصدار حكمٍ يريح. فالذئب يتعزى بالعواء، والخروف بالصّوف، والغابة بالنّخلة، والمرأة بالحب، والفيلسوف بالخاتمة الحكميّة(٨)". كان أورسوس يصنع، عند الحاجة، تمثليات هزليّة يؤديها هو تقريباً؛ وكان ذلك يساعد على بيع العقاقير. وكان قد ألّف، في عداد مؤلّفات أخرى، تمثيليّة رعويّة بطولية تكريماً للفارس هوغ ميدلتون الذي جلب جدولاً إلى لندن، في عام ١٨٠٦. وكان الوادي هادئاً في هارتفورد، على بعد ستين ميلاً من لنــدن، فأتى الفارس ميدلتون واستولى عليه؛ وقد اقتاد مفرزةً من

(*) تفعيلة يونانية أو لاتينية مؤلفة من مقطع طويل ومقطعين قصيرين. (م: ز. ع).

(**) تفعيلة يونانية أو لاتينية على وزن فَعِلن. (م: ز. ع).

ستمئة رجل مسلحّين بالمجارف والمعاول، وأخذ يقلب الأرض، فيحفرها هنا، ويرفعها هناك إلى ارتفاع عشرين قدماً أحياناً، وبعمق ثلاثين قدماً، ويصنع قنواتٍ مائية من الخشب في الهواء، وفي هذا المكان أو ذاك، ثمانمئة جسر من الحجر، والآجر، والرافدات الخشبية. وذات صباح، دخل الوادي إلى لندن التي كانت تفتقر إلى الماء. ولقد حولّ أورسوس كلّ هذه التفاصيل المبتذلة إلى قصيدة رعويّةٍ جميلة، بين نهر التايمز ووادي السّيربانتين، فقد كان النّهر يدعو الوادي إلى المجيء إليه، ويقدّم إليه سريره، وكان يقول له: "لقد تقدّم بي العمرُ أكثر مما ينبغي لأروق للنسّاء، ولكني غنيٌّ بما يكفي لكي أدفع لهن المال". لأن هذه طريقةٌ كلاميةٌ بارعة وظريفة للتعبير عن أن السّير هوغ ميدلتون قد قام بكل الأشغال على نفقته.

وكان أورسوس رائعا في محادثة الذات. وبما أنه ذو جبلّة مخيفة وثرثارة، وبما أن لديه رغبةً في ألاّ يرى أحداً، ورغبة في أن يتكلمّ مع أحدهم؛ فقد كان يتخلّص من المأزق بأن يتكلّم مع نفسه. إن أيّ شخصٍ عاش متوحّداً يعرف إلى أيّة درجةٍ تصبحُ المناجاة من طبيعته. إن الكلام الضمني يأكل المرء. والاستفاضة في الكلام مع الفضاء متنفّس. إن حديث المرء بصوتٍ عالٍ وبمفرده تماماً يُحدِث أثر حوارٍ مع الإله الذي يحمله في داخله. وكانت تلك هي عادة سقراط، كما لا نجهل. فقد كان يخطب بإطنابٍ مع ذاته. ولوثر أيضاً. وكان أورسوس يشبه هؤلاء الرّجال العظماء. كانت لديه تلك الملكة الخنثاويّة ليكون المستمع الخاص لنفسه. كان يتساءل، وكان يجيب نفسه، كان يُمجّد ذاته ويشتم ذاته. وكانوا يسمعونه من الشارع وهو يناجي نفسه في كوخه الصّغير. أما المارّة الذين لديهم طريقتهم الخاصّة بهم في تقدير رجال الفكر، فقد كانوا يقولون: هذا معتوه. فقد كان يسبّ نفسه أحياناً، وقد قلنا هذا منذ قليل، غير أن هناك أوقاتاً أيضاً يُنصف فيها نفسه. وذات يوم، وفي إحدى خطبه الموجزة التي كان يوجهّها إلى نفسه، كانوا يسمعونه يهتف: "لقد درستُ النباتي في كلّ أسراره الخفيّة. وفي السّاق، وفي البرعم، وفي الكأسيّة، وفي التويجيّة، وفي السّداة، وفي الخباء، وفي البذيرة، وفي إناء الطحالب، وفي كيس البوغ، وفي وعاء الأبواغ، قمت بتعميق علم الصّبغيات،

والتناضح، والتّكيموس، أي تشكّل اللوّن، والرّائحة والطّعم(٩)'. ولا شكّ أنه كان في هذه الشّهادة التي كان يعطيها أورسوس لأورسوس بعض الغرور، غير أن أولئك الذين لم يعمّقوا علم الصّبغيات والتّاضح والتكيموس يرمونها بأوّل حجر.

ولحسن الحظّ فإن أورسوس لم يذهب قطّ إلى البلاد المنخفضة (هولندا). وكان يمكن بالتأكيد أن يزنوه فيها ليعرفوا إن كان له الوزنُ الطبّيعيّ الذي يكونُ الإنسان ساحراً فيما بعده أو فيما قبله. وكان ذلك الوزنُ قد حدّده القانونُ في هولندا تحديداً متعقّلاً. ولم يكن هناك شيء أكثر بساطة وأكثر براعة من ذلك. لقد كان عملية تحقّق. فكانوا يضعونك في كفّة ميزان، فتسطع الحقيقة الجليّة إذا ما كسرت التوازن: فإذا كنتَ أثقل من اللازم، تُشنق؛ وإذا كنت أخفّ من اللازم تُحرق. ولا يزال من الممكن اليوم رؤيةُ الميزان الذي يزن السّحرة في أودويتر، غير أنه يُستخدمُ اليوم في وزن الأجبان لفرط ما تدنّى شأنُ الدّين! وكان يمكن لأورسوس بالتأكيد أن يتبارى مع ذلك الميزان. وفي أسفاره، أحجم عن الذّهاب إلى هولندا، وقد أحسن. فضلاً عن أننا نظنّ أنه لم يكن يخرج إطلاقاً من بريطانيا العظمى. ومهما يكن من أمر؛ فبما أنه كان فقيراً جدّاً وجشعاً جدّاً، وقد تعرّف في غابة، على أومو، فقد عاد إليه الميلُ إلى حياة التنقل، واتخذ من ذلك الذئب شريكاً له، وانطلق معه عبر الدّروب، نابضاً بالحياة، في الهواء الطلق، وبحياة المغامرة العظيمة، وكان ذا مهارةٍ كبيرة وأفكار مبُطنة، وفنّ كبير في كل أمرٍ ليشفي، ويبضع، ويخلّص الناس من المرض، ولينجز أعمالاً متفرّدة مدهشة؛ فقد كان يُعدّ بهلواناً وطبيباً جيداً، ويُعرف بأنه ساحرٌ أيضاً، ونحن ندرك الأمر، وذلك بمقدار قليل، وليس أكثر من اللازم؛ فقد كان أمراً غير سليم في ذلك العصر أن يُظنّ أن المرءَ صديقٌ للشّيطان. كان أورسوس، في حقيقة الأمر، يخاطر بنفسه، شغفاً بتركيب الأدوية، وحبّاً بالنباتات، ونظراً لأنه كان غالباً ما يذهب لقطف الأعشاب في المشجرّات المتلبّدة، التي فيها خضرة لوسيفر (الشيطان)، والتي يخاطر المرء فيها، كما تبيّن ذلك مستشار دولانكر(١٠)، بأن يلتقي في الغبش(١١) المسائي رجلاً يخرج من الأرض، "أعور من عينه اليمنى، لا

يرتدي معطفاً، وسيفه إلى جنبه، حافي القدمين وينتعل خفاً لا أرضية له(١٢)". أما أورسوس، فمع أنه فضلاً عن ذلك ذا مسلكٍ وطبعٍ غريب، فقد كان رجلاً مفرط الظرّف بحيث لا يمكن أن يستجلب الجدري أو يطرده، وأن يجعل الوجوه تختفي، ويقتل رجلاً بتعذيبه بالإفراط بالرقص، ويوحي بأحلام جليّة أو حزينة وملأى بالرّعب، وتوليد ديوك بأربعة أجنحة، فلم يكن لديه من مثل تلك الضّروب من الأذى. لقد كان غير قادر على القيام ببعض الفظاعات، كأن يتكلم الألمانية، والعبرية أو اليونانية، على سبيل المثال، من غير أن يكون قد تعلّمها، وهذا ما يُعتبر دلالة على إثم مقيت، أو على مرضٍ طبيعيّ ناتج عن مزاجٍ اكتئابيّ. وإذا كان أورسوس يتكلّم اللاّتينية، فذلك لأنّه كان يعرفها. ولم يكن ممكناً أن يسمح لنفسه بأن يتكلّم السريانية نظراً لأنّه لم يكن يعرفها. فضلاً عن ذلك، فقد ثبت أن السريانية هي لغة محافل السّبت[*]. وفي الطبّ، كان يؤثر عن حقّ غاليان على كاردان(١٣) ومهما كان رجلاً عالماً، فهو ليس إلا دودة أرضٍ مقارنة بقدْر غاليان.

لم يكن أورسوس، إجمالاً، شخصيّة تزعجها الشرّطة. وكان كوخه الصغير واسعاً بما يكفي وعريضاً بما يكفي لكي يتمكن من أن ينام فيه على صندوق يحتوي أمتعته العتيقة القليلة الفخامة. كان مالكاً لمصباح، ولعدد من طاقيات الشعر المستعار، ولبعض المواعين المعلقة بمسامير، ومن بينها آلات موسيقية. وكان يمتلك بالإضافة إلى ذلك، جلد دبّ كان يتغطّى به في أيام الأداء التمثيليّ الكبير، وكان يسمّي هذا لباس التذكّر. وكان يقول: لديّ جلدان؛ وهذا هو الحقيقي. وكان يُري جلد الدّب. كان الكوخُ الصّغيرُ ذو العجلات له وللذئب. وزيادة على كوخه، ومعوجّته وذئبه، كان لديه ناي وكمان أوسط من حبال الجنب، وكان يعزف عليهما بصورة مقبولة. وكان يصنع بنفسه سوائله المحلاة. ويستمّد من مواهبه ما يتعشّى به أحياناً. وكان ثمة ثقب في كوخه يمرّ منه قسطلُ مدفأةٍ من الحديد المصبوب ملاصقة لصندوقه، بما يكفي لتصهيب الخشب. وكان في تلك المدفأة حجرتان؛ فيسخنّ أورسوس خيمياءه

(*) أي محافل السحرة في القرون الوسطى، فما صحّة ذلك (م: ز، ع)؟

في إحداهما، ويشوي في الأخرى حبّات بطاطا. وفي الليل، كان الذئب ينام في الكوخ، وقد أوثق بسلسلة بصورة وديّة؛ فقد كان لأومو وبرٌ أسود، ولأورسوس وبرٌ رمادي؛ وكان أورسوس في الخمسين من عمره إن لم يكن في الستّين، وكان يقبل المصير البشريّ بحيث يأكل كما رأينا منذ قليل، حبّات بطاطا هي أقذارٌ كانوا يطعمونها الخنازير، وسجناء الأشغال الشاقة. وكان يأكل، ساخطاً وراضخاً. ولم يكن طويل القامة، بل كان ممشوقاً. وكان طيّعاً واكتئابيّاً. إن قامة الرّجل المسنّ المحنيّة هي ضغطُ الحياة. لقد صنعته الطبّيعة ليكون حزيناً. كان صعباً عليه أن يبتسم، ومن المتعذّر دائماً عليه أن يبكي، فقد كان يفتقر إلى تلك المواساة التي هي الدّموع، وإلى ذلك الملطف الذي هو الفرح. إن رجلاً عجوزاً(١٤) هو خرابٌ مفكّر. وكان أورسوس هو ذلك الخراب. فهذرٌ الدّجال، ونحولُ النبيّ، وسرعةُ غضبِ وجهٍ مرهق، ذلك هو أورسوس. وفي شبابه، كان فيلسوفاً عند أحد اللوّردات.

كان ذلك يجري منذ مئة وثمانين عاماً (١٥) في الزّمن الذي كان فيه البشر ذئاباً أكثر بقليل مما هم عليه اليوم.

وليس أكثر بكثير.

II

لم يكن أومو هو أوّل ذئبٍ وافد. وبناءً على شهيّته للزّعرور الجرماني وللتّفاح، كان يمكن أن يظنّه المرءُ ذئبَ المروجِ، ومن وبره العاتم، يمكن أن يظنّه سِمْعاً، وبناءً على عوائه الذي تلطّف إلى نباح، يمكن أن يظنّه Un culpeu (١٦)؛ إلاَّ أنه لم تجرِ بعد ملاحظة حدقة الـ Culpeu بصورةٍ كافية للتأكد من أنه ليس ثعلباً. لقد كان أومو ذئباً حقيقياً. كان طوله خمسة أقدام، وهذا ما يعتبر طولاً جيّداً لذئب، حتى في ليتوانيا، وكان قويّاً جداً، وبصرُه مائلاً، هذا ما لم يكن ذنبه؛ كان لسانه ناعماً فيلحس به أورسوس أحياناً، وكانت له فرشاة ضعيفةٌ واقفة من الوبر القصير على عموده الفقريّ، كان نحيلاً ذلك النّحول الجيد في الغابة. وقبل أن يعرف أورسوس وتصبح له عربة صغيرة يجرّها، كان يقطع بنشاط أربعين فرسخاً في ليلة واحدة. وما إن التقاه أورسوس في دغل يابس، بقرب ساقيةِ ماء جارٍ، حتى نال تقديره، حين رآه يصطاد السّراطين بتعقّلٍ وحرص، وحيّا فيه ذئب الكوبارا النزيه والحقيقيّ من النوّع المسمى الكلب أكّال السّراطين.

كان أورسوس يؤثر أومو على حمارٍ كدابّة نقل. وقد كان يمكن أن يشمئز من أن يجعل حماراً يجرّ كوخه الصغير؛ يفرطُ في تقدير الحمار من أجل هذا الأمر. فضلاً عن ذلك، فقد لاحظ أن الحمارَ، الحالمَ ذا القوائم الأربع الذي قلما يفهمه الناسُ، يحدثُ له انتصابٌ مقلقٌ في أذنيه مقلقٌ حين يقول الفلاسفة الترّهات. وفي الحياة، يكون الحمارُ، بين فكرنا وبيننا، طرفاً ثالثاً: وهذا مزعج. فكصديق: كان أورسوس يؤثر أومو على كلب، مقدّراً أن الذئب يأتي إلى الصّداقة من مكان أبعد.

هذا هو السبَب في أن أومو كان كافياً لأورسوس. وكان أومو بالنسبة لأورسوس أكثر من رفيق، كان مثيلاً له. وكان أورسوس يربّت على خاصرتيه الغائرتين وهو يقول: وجدت مجلّدي الثاني.

وكان يقول أيضاً: حين أموت، لن يكون على من يريد معرفتي إلاّ أن يدرس أومو. "فأنا أتركه بعدي كنسخة مطابقة لي".

إن القانون الانكليزي، القليل الرّفق بحيوانات الغابة، كان يمكن أن يخاصم تلك الذئب، ويثيرَ نزاعاً معه بسبب جرأته في الذّهاب إلى المدن بلا تكّلف، غير أن أومو كان يفيد من الحصانة التي منحها "الحيوانات الأهليّة" تشريعٌ لإدوارد الرابع، "فيمكن لكل حيوان أهليّ يتبعُ صاحبهُ أن يذهب ويرجع بحريّة". زيادة على أن بعض اللّين تجاه الذئب قد نتج عن أسلوب نساء البلاط في عهدِ آخر ملوك عائلة ستيورات، في الحصول، بمثابة كلاب، على ذئابٍ صغيرة Torsacs تسمّى Adives، وهي ضخمة كالقطط، وكنّ يعملن على جلبها من آسيا بتكاليف كبيرة.

كان أورسوس، قد نقل إلى أومو قسماً من مواهبه، كان فيقفُ منتصباً، ويرقّقُ غضبه إلى مزاجٍ سيء، ويدمدم بدلاً من أن يعوي، إلخ. ومن جهته، كان الذئب قد علّم الرجل ما كان يعرفه، وهو أن يستغني عن السقف، ويستغني عن الخبز، ويستغني عن النّار، وأن يؤثر الجوعَ في غابةٍ على العبوديّة في قصر.

كان للكوخ الصغير، الذي هو ضربٌ من كوخٍ - عربة، والذي يقتفي المسار الأكثر تنوّعاً، من غير أن يخرج مع ذلك من إنكلترا ومن أسكوتلندا، كان له أربع عجلات، إضافة إلى محملٍ للذئب، وإلى ناظمةِ سيور الجرّ للرّجل. وكانت تلك النّاظمة معدّةً لوقتِ الحاجة في الطرق السّيئة. وكانت متينةً مع أنها مصنوعةٌ من ألواح خشبية خفيفة كبناء خشبيّ مفرّغ. ولها من الأمام بابٌ مزجّجٌ، ذو شرفةٍ صغيرة تستخدم عند الخطب الطويلة لمنصةٍ معدّلةٍ إلى منبر، ومن الوراء بابٌ كامل مثقّب بكوى. وكان إنزالُ مرقاة من ثلاثةٍ درجات تدور على مفصّلة، ومنصوبةٍ خلف الباب ذي الكوى يشكّل

مدخلاً إلى الكوخ، وكان مغلقاً جيداً بالمزالج والأقفال ليلاً. ولطالما كان يهطلُ المطر ويسقط الثلجُ كثيراً فوقه. لقد كان مدهوناً، غير أنه لم يعد أحدٌ يعرف كثيراً بأيِّ لون، لأن التغيرات الفصليّة بالنسبة للعربات الصّغيرة كتبدّلات العهود الملكية بالنسبة لأهل البلاط. ومن الأمام، في الخارج، وعلى نوعٍ من مقدم بناءٍ مؤردز، كان يمكن فيما مضى فكُّ رموز تلك الكتابة ذات الحروف السّوداء المكتوبة على أرضيةٍ بيضاء التي تشابكت شيئاً فشيئاً واختلطت:

ٍيفقدُ الذّهبُ بالحكّ أربعة عشر جزءاً من مئة من حجمه سنويّاً، وهذا ما نسميّه التآكل؛ فينجم عن ذلك أنه، من أصل ألف وأربع مئة مليوناً من الذّهب المتداول في الأرض كلّها، يضيع مليونٌ كلّ عام. وهذا المليونُ الذهبيّ يتحوّل إلى غبار، ويتعالى ويتكاثر، ويصير ذرات، ويغدو قابلاً للاستنشاق، ويشحن الضّمائر، ويركزّ معاييرها، ويكظهّا ويثقلها، ويندمج بروح الأغنياء الذين يجعلهم متعجرفين، وبروح الفقراء الذين يجعلهم مخيفينٌ.

إن هذه الكتابة التي محاها وشطبها المطرٌ، بفضل العناية الإلهيّة كانت لحسن الحظّ غير مقروءة؛ فمن المحتمل أن هذه الفلسفةِ الملغزة والشفّافة في آن، فلسفةَ الذّهب المستنشق، لم تكن تلائمُ العمدات والحكاّم، ومدراء الشّرطة، ومعتمري الشّعر المستعار الآخرين من رجال القانون. ولم يكن التشريعُ الانكليزي مازحاً في ذلك الزّمن. فيكون المرء عاصياً بسهولة. وكان القضاةُ يظهرون عنيفين بصورةٍ تقليدية. وأصبحت القسوةُ أمراً نمطيّاً، وصار قضاةُ التفتيش وفيري العدد. فجيفريه كان(١٧) قد خلفّ صغاراً.

III

داخل الكوخ الصّغير، كانت هناك كتابتان أخريان: ففوق الصّدوق على جدار الألواح الخشبية المغسول بماء الكلس، كان يقرأ ما يلي، مكتوباً بالحبر وباليد:

'الأشياء الوحيدة التي تهمّ معرفتها':

- إن البارون عضو مجلس اللوردات الإنكليزي يضع تاج بارونيّة ذا لآلئ ست.
- يبدأ التاج بالفيكونت.
- الفيكونت يضع تاجاً من اللآليء بلا عدد، والكونت تاجاً من اللآلي على رؤوس مختلطة لأوراق نبتة فريز أكثر انخفاضاً، والمركيز يضع لآلئ وأوراق ذات ارتفاع متساوٍ، والدّوق يضع زخارفَ زهرية بلا لؤلؤ، ويضع الدّوقُ الملكيّ دائرة صلبان وأزهارَ زنبق؛ ويضع أمير دوغال تاجاً شبيهاً بتاج الملك، ولكن ليس مغلقاً.
- الدوق هو أميرٌ رفيع المرتبةِ جداً ومقتدر جداً، والمركيز والكونت نبيل جدّاً وسيّد إقطاعي مقتدر جداً والفيكونت سيّد إقطاعي نبيل ومقتدر، والبارون سيّد إقطاعي حقاً.
- يلقب الدوق بـــ السّموّ وأعضاء مجلس اللوردات الآخرين (الأعيان) بـــ السّيادة.
- ويكون اللوّردات مصونين.
- وأعضاء مجلس اللوّردات يكونون في المجلس والبلاط Cocilium et curia في التشريع والقضاء.

- إن: "Most honorable" (الأكثر تبجيلاً) هي أعلى من "Right Honorable" (المبجّل تماماً).

- اللوردات الأعيان يسمّون 'لوردات القانون'، واللّوردات الذين ليسوا أعياناً' هم: 'لوردات المجاملة' وما من لوردات إلاّ أولئك الذين هم أعيان.

- اللورد لا يحلفُ اليمين، لا أمام الملك. ولا في القضاء. إن كلمته تكفي، وهو يقول: وشرفي.

- إن ممثّلي العامة الذين هم الشّعب والذين يُستدعون إلى حرم محكمة اللوردات، يحضرون إليه بتواضع، حاسري الرؤوس، وأمام الأعيان المحتفظين بغطاء رؤوسهم.

- يرسل ممثّلو العامّة إلى اللّوردات الشكاوى بنصابِ أربعين عضواً أو الذين يقدّمون الشّكوى مقترنةً بثلاثةِ انحناءات إجلالٍ عميقة.

- يرسل اللوّردات إلى العامّة الشكاوى بوساطة كاتب محكمة بسيط.

- في حال النزاع، يجتمع المجلسان في الغرفة المدهونة، ويكون الأعيان جالسين ومحتفظين بأغطية رؤوسهم، ورجال العامة واقفين وحاسري الرؤوس.

- بناءً على تشريع لإدوار الرابع، يكون للوردات الحقّ المكتسب في ارتكاب القتل الفردي، فاللورد الذي يقتل رجلاً ببساطة لا يُلاحق.

- للبارون المرتبة نفسها التي للمطارنة.

- لكي يكون المرء باروناً عيناً ينبغي أن يصدر ذلك عن الملك عن طريق بارونيّة كاملة: baroniam integram.

- رأس البارونيّة الكاملة تتألف من ثلاثة عشر إقطاعة نبيلة وربع، وكلُّ إقطاعة نبيل تعطي عشرين جنيهاً إسترلينياً، وهذا ما يصل إلى أربعمئة مارك قديم.

- رأس البارونيّة: Caput baroniae هو قصرٌ يُحكَم وراثياً مثل إنكلترا ذاتها، أي لا يمكن أن يؤول إلى البنات إلاّ لعدم وجود الأولاد الذّكور، وفي هذه الحال، يذهب إلى الفتاة البكر(*): caeteris filiabus aliunde satifactis.

- أما البارونات الذين لهم صفة لورد السّاكسون لافورد المأخوذة من اللاتينية البعيدة Domimus، ومن اللاتينية القريبة Lordus.

- إن الأبناء الأبكار، وثواني الأبكار للفيكونتات، والبارونات هم أوّلُ حملةِ سلاح الملكيّة.

- أبناء الأعيان الأبكار يتقدّمون على فرسان وسام ربطة السّاق، أما الأبناء ثواني الأبكار فلا.

- الابن الأكبر لفيكونت يسير بعد كلّ البارونات وقبل كلّ البارونتات.

- كلّ ابنة لورد هي سيّدة: ليدي. والبنات الانكليزيّات الأخريات آنسات: مِسْ.

- كلّ القضاة هم أدنى مرتبة من الأعيان، والرقيب يرتدي برنساً من جلد الخروف، والقاضي برنساً من فرو السّنجاب الرقيق Deminuto vario، وهي كميّةٌ من الفراءات الصّغيرة البيضاء من كلِّ نوع، باستثناء القاقم؛ فالقاقمُ يقتصر على الأعيان وعلى الملك.

- لا يمكن الموافقة على شكوى Supplicavit ضدّ لورد.

- لا يمكن للّورد أن يقيّد جسدياً، باستثناء حالة برج لندن.

- إن لورداً يُستدعى إلى الملك له الحق في أن يقتل أيّلاً أو أيلين في البستان الملكيّ.

- يتخذ اللورد في قصره حاشية بارون.

(*) وهذا ما معناه: توفر للبنات الأخريات ما يحتجن إليه من معاش بقدر الإمكان (ملاحظة من أورسوس على هامش الجدار).

- من غير اللائق أن يذهب لورد إلى الشوارع مرتدياً معطفاً ومتبوعاً بخادمين. لا يمكن أن يظهر إلاّ مع بطانة حوله طويلة من النبلاء المقيمين.

- يتوجّه الأعيان إلى مجلس النوّاب في عربة فاخرة (كارّوسية) وبالتتابع، أما ممثلو العامة فلا. ويذهب عددٌ من الأعيان إلى ويستمنستر على مقاعد متنقّلة ذات أربع عجلات، وشكل هذه المقاعد، وهذه العربيات الفاخرة (الكرّوسات) المزيّنة بشعارات النبالة والمتوّجة ليس مسموحاً إلاّ للوردات ويشكل جزءاً من مقامها.

- لا يمكن للورد أن يُحكَم بغرامة إلاّ على يد اللوردات، وليس بأكثر من خمسة شلنات أبداً، باستثناء الدّوق الذي يمكن أن يُحكَم بعشرة.

- إن لورداً يمكنه أن يستضيف في منزله ستة غرباء، وكلّ انكليزي آخر لا يمكنه استضافة أكثر من أربعة.

- إن لورداً يمكنه أن يمتلك ثمانية براميل من النبيذ من غير أن يدفع رسوماً.

- اللورد وحده معفىً من المثول أمام عمدة الدّائرة.

- لا يمكن للورد أن يدفع ضريبة إلاّ للحرس الوطني.

- حين يروق لأحد اللوردات، يمكنه أن يجنّد فوجاً ويعطيه إلى الملك؛ فهكذا فعل سمو الدّوق داتول. والدّوق هاملتون، والدوق نور ثمبرلاند.

- اللورد لا يرتبط إلاّ باللوردات.

- في الدعاوى ذات الطابع المدني، يمكنه أن يطلب ردّ الدّعو، إن لم يكن هناك على الأقلّ فارسٌ بين القضاة.

- إن اللورد يسمّي كهنة كنائسه.

- إن البارون يسمّي ثلاثة كهنة كنيسة، وفيكونتاً، أربعة. وكونتاً أو مركيزاً، خمسة، ودوقاً ستة.

- اللورد لا يمكن أن يُستجوبَ حتى في الخيانة العظمى.

- اللورد لا يمكن أن يوشم بيده.

- اللورد يعتبره كاتباً رسمياً، حتى وإن كان لا يحسن القراءة؛ فهو على دراية بقوة القانون.
- إن الذوق يترافقُ بمظلّةٍ في كلّ مكانٍ لا يكون الملكُ موجوداً فيه، والفيكونت تكون لديه مظلّة في منزله، ويكون للبارون غطاءٌ اختباريّ، ويأمر بأن يحمل له تحت القدح فيما يشرب، وللبارونة الحقّ بأن يحمل رجلٌ لها ذيل الثوب بحضور فيكونته.
- إن ستة وثمانين لورداً، أو أبناءً أبكاراً للوردات يرئسون ست وثمانين منضدة، على كلّ واحدة منها خمس مئة مدعوّ، ويقدّم لهم الطعام كلّ يوم لدى جلالته في قصره، على نفقة المنطقة المجاورة للإقامة الملكيّة.
- إن رجلاً من العامة يضربُ لورداً تُقطع قبضةُ يده.
- اللورد ملك تقريباً.
- الملك هو الرّب تقريباً.
- والأرض لورديّة.
- والإنكليز يقولون للرّب ميلورد: أي سيّدنا".

قبالة هذا الكتابة، كانت تُقرأ كتابةٌ ثانية، مكتوبة بالطريقة ذاتها، وهذه هي:

"إرضاءات ينبغي أن تكفي أولئك الذين ليس لديهم شيء"

- يمتلك هنري أوفيركيرك، كونت غرانثام الذي يجلسُ في مجلس اللّوردات بين الكونت دوجيرسيه والكونت دوغرينويتش، يمتلك إيراداً قدره مئة ألف جنيه إسترليني. وإنما تعود إلى سيادته ملكيّةُ قصر غرانثام - تيّراس، المبنيّ بكامله من الرّخام، والشهير بما نسميّها متاهة الممرّات، والتي هي شيء يثير الفضول، والتي فيها الممرّ الورديّ (اللحميّ) الرّخامي، ممرّ سارانكلولان، والممر البنيّ المصنوع من حجر أستراكان المحاريّ، والممرّ الأبيض المصنوع من رخام لاني، وممر ألاباندا الأسود الرّخامي، وممرّ ستاريمّا الرّمادي الرّخامي، وممرّ هيسّ الأصفر الرّخامي، وممرّ تيرول الأخضر الرّخاميّ، والممرّ الأحمر المنقسم إلى

قسمين، القسم الرّخاميّ المرقط البوهيميّ، وقسم رخام قرطبة المحاري، والممر الأزرق المصنوع من المرمز الأزرق الجنوي، والممرّ البنفسجيّ الذي هو من صوّان كاتالونيا، والممرّ الحداديّ والمعرّق بالأبيض والأسود، وهو من نضيد مورفييدور، والممرّ الورديّ المصنوع من الرخام البصليّ، رخام الألب، والممرّ اللؤلؤي، والمصنوع من الرّخام المحاري، رخام نونيت، وممرّ كافة الألوان، المسمى بالممرّ البلاطي، المصنوع من رخام مسنّن رقعيّ(١٨).

- يمتلك ريشار لوفتير. فيكونت لو نسدال، لوفتير، في ويستموريلاند، والتي هي ذات منافذ باذخة، والتي يبدو أن درج مدخلها يدعو الملوك إلى الدّخول.

- يمتلك ريشار، كونت سكاربوروف، وفيكونت وبارون لوملي، وفيكونت دوفاترفورد في ايرلندا واللورد القائمقام، ونائب أميرال كونتيه نورثمبرلاند، ودور هام، المدينة والكونتيّة، يمتلك إقطاعيّة قصر ستانسدّد المزدوجة، القديمة والحديثة، حيث يبدي المرء إعجابه بالشّبكة الرائعة نصف الدّائرية والمحيطة ببركة فيها نافورة ماء لا مثيل لها. ولديه إضافة لذلك قصره في لوملي.

- لدى روبير دارسي، كونت هولدرنيس ملكيته في هولدرنيس، مع أبراج البارون وحدائق لا تنتهي على الطريقة الفرنسيّة والتي يتجوّل فيها بالعربة الفاخرة (كارّوسة) ذات الجياد السّتة، والتي يتقدمها سائساخيل كما يليق بعين من أعيان إنكلترا.

- ويمتلك شارل بوكليرك، دوق سان ألبان، وكونت بورفورد، وبارون هيدنغتون ومدجّن الباز الكبير لإنكلترا. منــزلاً ملكيّاً في وندسور، إلى جانب منزل الملك.

- يمتلك شارل بودفيل، اللوّرد روباتس، وبارون تورو، وفيكونت بودمين، يمتلك فيمبل في كامبردج، والتي تشكل ثلاثة قصور لها ثلاثة جبهيات، جبهيّة مقوّسة، وجبهيتان مثلثيتان، ومكان الوصول على بعدِ صفّ

رباعيٌ من الأشجار. واللورد فيليب هيربير النبيل جدًّا، والمقتدر جدًّا، وفيكونت كاإيرديف، وكونت دي مونتيغومري، وكونت دو بيمبروك، السيِّد الإقطاعي والعين، وطاغية كاندال، ومارميون، وسان كانتان وشورلان، وحارس منجم قصدير في كونتيات ودوفون، والزائر الوراثي لمعهد يسوع، يمتلكُ الحديقةَ الرائعة،حديقة فيلتون التي فيها بركتان ذواتا نوافير أجمل من فرساي في عهد الملك المسيحيِّ جدًّا لويس الرابع عشر.

- يمتلك شارل سيمور، دوق سومير سيت، منزل سومير سيت على نهر التّايمز والذي يضاهي دارة بامفيلي في روما. ويلاحظ المرء على الموقد الكبير إناءين من الخزف يعودان إلى سلالة إيوين واللذان يعادل ثمنُها نصف مليون من العملة الفرنسية.

- يمتلك آرثر، لورد إنغرام، وفيكونت إيرون، في يوركشاير تامبل - نيو شام الذي يتم الدخول إليه عن طريق قوس نصر - تشبه سطوحُه العريضة المسطّحة المصاطب الموريسكيّة(١٩).

- ويمتلك روبير، لورد فيرِّير دو شارتليه، وبورشييه ولوفين، في الليسستر شاير، ستاونتون هارولد التي لها بستان ذا مخططٌ هندسيٌ له شكلٌ معبدٍ ذي جبهيّة في مقدمته، وأمام الحوض الصّغير المائي، تعود ملكيّة الكنيسة الكبيرة ذات قبة الجرس المربّعة إلى سيادته الإقطاعيّة.

- يمتلك شارل سبنسر، كونت ساندرلاند، أحد المجالس الخاصّة لجلالته، يمتلك، في كونتيّة نورثامبتون، ألتروب التي يتم الدّخولُ إليها عبر شبكةٍ لها أربع دعامات وتعلوها مجموعاتٌ رخاميّة.

- يمتلك لورنس هيد، كونت روشيستر، في السّوريّه، نيو بارك الرائعة بقاعدة تمثالها(٢٠) المنحوت، وأرضها المعشبة الدائرية، والمحاطة بالأشجار، وغابتها التي يقع على حافتيها جبلٌ صغيرٌ مستديرٌ بشكلٍ فنيٍّ وتعلوه سنديانة كبيرة تُرى من بعيد.

- يمتلك فيليب ستانهوب، شيسترفيلد، يمتلك بريدباي، في ديربيشاير، والذي فيه جناحُ ساعةٍ توقيت رائع، ومداجنُ صقور، ومؤرنبات، وأحواضٌ مائية طويلة جميلة جدًّا، ومربعة وبيضويّة، إحداها على قاعدة على شكل مرآة، مع فوّراتي ماء تتدفعان عالياً جدًّا.

- ويمتلك اللورد كورنفاليس، بارون آي، بروم هول والتي هي قصرٌ من القرن الرابع عشر.

- يمتلك النبيل جدًّا ألجيرون كابيل، فيكونت مالدن، وكونت إيسيكس، ويمتلك كاشبوبيري في هيرسفوس ردشير، وهو قصرٌ له شكل حرف H كبير وفيه أماكن صيد كثيرة الطرائد.

- يمتلك شارل، لورد أوسولستون، داولي الموجودة في ميدلسكس والتي يتم الوصول إليها عبر حدائق إيطاليّة.

- يمتلك جيمس سيسيل، كونت ساليسبوري، على بعد سبعة فراسخ من لندن، يمتلك هارتفيل – هاوس، بأجنحته الأربع المولويّة، وببرجه الإنذاريّ في مركز باحة الشّرف، والمبلّطة بالأبيض والأسود. مثل باحة سان – جيرمان. وهذا القصر الذي تصل واجهته إلى مئتين واثنين وسبعين قدماً قد بُني في عهد جاك الأوّل على يد رئيس خزانة إنكلترا الكبير والذي هو والد جدّ الكونت الحاكم. ويرى المرءُ فيه سرير إحدى كونتيسّات ساليسبوري الذي لا يقدّر بثمن، والمصنوع بكامله من خشب مستورد من البرازيل، والذي هو ترياقٌ ضدّ لدغة الأفاعي، والذي يسمّونه Milhombres وهذا معناه Mille Hommes (ألف رجل) وقد كتب على هذا السّرير بحروفٍ ذهبيّة: مشنّعٌ على من يسيء التفكير في هذا.

- يمتلك إدوارد ريش، كونت فارفيك وهولندا، فارفيك – كاسيل (قلعة فارفيك) والتي يشعلون في مواقدها أشجار سنديانٍ كاملة.

- في خورنيّةِ سفن – أوكز، يمتلك شارل ساكفيل، بارون بوكهورست، وفيكونت كرانفيلد، وكونت دو دورست وميدلسكس، يمتلك نوفل والتي هي كبيرة بحجم مدينة، وتتألف من ثلاثة قصور متوازية، أحدهما خلف

الآخر، كخطوط المشاة، مع عشر جبهات جملون ذات درجٍ، في الواجهة الرئيسيّة، وبابٍ تحت البرج الرئيسيّ المنخفض.

- يمتلك توماس تين، فيكونت، وبارون بارمينستر، يمتلك لونغ - ليت والتي فيها تقريباً عددٌ من المواقد، والمصابيح، والاستراحات، والمراقب، والسُّرداقات، والبُريجات يعادل العدد الموجود في شامبور في فرنسا. والتي تعود للملك.

- ويمتلك هنري هوارد، كونت سوفولك، على بعد اثني عشر فرسخاً من لندن، قصر أودلين في ميدلسكس، الذي يكاد لا يُعتبر أدنى منزلةً في العظمة والجلال من الإسكوريال، قصر ملك إسبانيا.

- إن ويست هاوس وبارك، في بيد فورشاير، والذي هو منطقةٌ كاملةٌ مسوّره بحفر وجدران عالية، إضافة إلى أحراش، ووديان وهضاب، تعود لهنري، مركيز كنت.

- إن هامبتون - كورت، في هارفورد، إضافةً إلى برجها الرئيس القويّ والمليء بالفتحات المسننة، وحديقته المقفلة ببركة صغيرة تفصلُها عن الغابة، تعود إلى توماس، لورد كوننغسباي.

- تعود ملكية غريمستورف في لينكولن شاير، مع واجهتها الطويلة المقطوعة ببريجاتٍ عالية على شكل وتد، وبساتينها، ومستنقعاتها، وبيوت التدُّرج فيها، وحظائرها، ومحاضرها، ومغروساتها المخمسّة، وممرّاتها المشجرّة، ومشجّراتها الضخمة، وروضاتها الموشّاة، المربّعة والمعيّنة بالزّهور والتي تشبه بسطاً كبيرة، ومروج السّباق فيها، وجلال الدائرة التي تدور فيها العربات الفخمة قبل أن تدخل إلى القصر، وتعود ملكيتها إلى روبير، كونت ليند ساي، اللورد الوريث لغابات فالهام.

- إن أب بارك، في سوسّيكس، القصر المربّع ذا السّرادقين المتناظرين اللذين فيها برج مراقبة من جانبي قاعة الشرف يعود إلى المبجّل جداً فورد، لورد غراي، وفيكونت غليندال والكونت دوتانكارفيل.

- وتعود نيونهام باروكس، في فارفيكشاير، التي فيها حوضا سمكٍ مربّعا الزّوايا، وجبهة جملون ذات زجاجيّة لها أربع زوايا، تعود إلى الكونت دو دوينبيغ، والذي هو الكونت دورابينفلدين في ألمانيا.

- إن ويثيم، في كونتيّة بيرك، بحديقتها الفرنسيّة، والتي فيها أربعة عرائش مشذّبة، وبرجها الكبير المليء بالفتحات، والذي تجاورهُ سفينتان عاليتان حربيّتان تعود ملكيتّها للورد مونتاغ، كونت أبينغدون، والذي لديه أيضاً ريكوت التي هو بارون لها. والتي يجعل بابُها الرئيسي المرء يقرأ(٢١) Virtus ariete fortior (الشجاعةَ أقوى من الكبش آلةَ الحرب).

- لدى وليام كافيندس، دوق ديفونشاير، ستّة قصور أحدها هو شاتسوورث المؤلّف من طابقين، من أجمل طراز إغريقيّ، فضلاً عن أن سموّه كان يمتلك داراً في لندن وفيها أسدٌ يدير ظهره لقصر الملك.

- يمتلك الفيكونت كينالميكي، والذي هو كونت دوكورك في ايرلندا، يمتلك بور لنغتون – هاوس في بيكاديلي، إضافة إلى حدائق واسعة تمتدّ حتى الحقول، خارج لندن؛ ولديه أيضاً شيسويك التي فيها تسعة أقسام رئيسيّة رائعة؛ كما لديه لوند يسبروغ التي هي دارٌ جديدة إلى جانب قصرٍ قديم.

- يمتلك الدّوق دوبو فور شيلسيا التي تحتوي قصرين قوطيّين، وقصراً فلورنسيّاً؛ ولديه أيضاً بادمنغتون في غلوسستر، والذي هو قصرٌ ضيافة تتفرعُ منه جملةٌ من الجادّات كما تنطلق الأشعّة من نجمة. إنه النّبيل جداً والأمير المقتدر هنري، دوق دو بوفور، وهو في الوقت ذاته مركيز وكونت دفوسستر، وبارون راغلان، وبارون بوفير وبارون هيربير دوشيبستوف.

- ويمتلك جون هولز، دوق نيوكاسيل. ومركيز دوكلار، يمتلك بولسوفر ذا البرج الرّئيسي المهيب، إضافة إلى هاتفون في نوتينغهام والذي فيه، وسط بركةٍ صغيرة، هرمٌ مستديرٌ يحاكي برج بابل.

- ويمتلك وليام، لورد كرافن، وبارون كرافن دوها مبستيرد، في فارفيكشاير، قصر ضيافة، وهو كومب – أبيه الذي تُرى فيه أجملُ نافورة ماء في

إنكلترا، وفي بيركشاير، بارونيّتين هما: هامبستد مارشال التي تبرز واجهتها خمسةُ مصابيح قوطيّة متوازية في البناء، وأسداون بارك والذي هو قصر في نقطة التقاطع بين طرق متصالبة في غابة.

- ويمتلك اللورد لينيوس كلانشاري، بارون كلانشارلي وهاندكر فيل، مركيز كورليون في صقلية، يمتلك إقطاعته النبيلة على قصر كلانشارلي، والذي بناه عام ٩١٤ إدوار لوفيو ضدّ الدنماركيين، إضافة إلى كور ليون - لودج، في وندسور، والذي هو قصرٌ آخر، وثماني ولايات قصر، والتي إحداها في بروكستون، على نهر الترينت، مع حقّ على مقالع المرمر، ثم غومدريث، وهومبل، وموريكامب، وترينفارديث، وهل - كيرترز التي فيها بئر رائعة، وبيلنمور، ومناقع الخثّ، وريكو ليفر بقرب المدن القديمة فاغنياسو، وفينيكاونتون على جبل مويل - إنلي، إضافة إلى تسع عشرة دسكرة وقريّة مع إكاراتها، وكلّ منطقة بينسنيث - شاز، وهي ما يجلب مجموعها إيراداً إلى سيادته الاقطاعية يقدّر بأربعين ألف جنيهاً إسترلينيّاً.
- يمتلك المئة واثنان وسبعون عيناً (أعضاء مجلس اللّوردات) الحاكمون في عهد جاك الثاني يمتلكون فيما بينهم جملةً دخلاً قدره ألف ومائتان واثنان وسبعون ألفاً من الجنيهات الإسترلينية في العام وهذا ما يعادل جزءاً من أحد عشر من دخل إنكلترا[١].

وعلى هامش الاسم الأخير، اللوّرد لينيوس كلانشاري، كان المرء يقرأ هذه الحاشية بيد أورسوس:

إنه متمرّدٌ في المنفى، فأمواله وقصورُه، وممتلكاته موضوعةً تحت الحراسةَ القضائيةَ. وحسناً فعلوا.........

IV

كان أورسوس معجباً بأومو. ويُعجب المرء بمن هو بقربه. هذا قانونٌ طبيعيٌ. وأن يكون أورسوس في سريرته ساخطاً دوماً، فتلك هي حالته الداخليّة. أو أن يزمجر فتلك حالتُه الخارجيّة. كان أورسوس هو المستاء من الخليقة. وكان بالطبيعة يتخذ موقف الاعتراض. وكان يسيء الظن بالكون، ولا يعطي شهادة رضى لأيٍّ كان، ولأي شيء كان. إن صناعة العسل لا تغفر للنحلة وخزها. ووردةٌ متفتحّة لا تسامحُ الشمس على حمّى البعوض والحميّ الصفراء. ومن المحتمل أن يقدّم أورسوس الكثير من الانتقادات إلى الربّ في قرارة نفسه. وكان يقول: "إن الشيطان يتحرّك حسب حافزٍ معين، وخطأ الرّبّ هو أنه قد أطلق الزناد". وقلما كان يستحسن إلا الأمراء، وكانت لديه طريقته في التصفيق لهم. وذات يوم قدّم جاك الثاني هبةً لعذراء مصلىً كاثوليكيّ ايرلندي مصباحاً من الذهب المصمت، فانفجر إعجابُ أورسوس الذي كان يمرّ من هناك، مع أومو، وهو على درجة أكثر من عدم الاكتراث، وأمام الجمهور كلّه، وهتف: "من المؤكدّ أن العذراء القدّيسة بحاجة لمصباح ذهبيّ أكثر بكثير مما يحتاج الأطفال الحفاة لأحذية". إن دلالاتٍ كهذه على "استقامته" ووضوح احترامه للسّلطات القائمة.لم تسهم قليلاً ربما في أن تجعل القضاة يتسامحون عن معيشته المتشرّدة وصحبته غير المتكافئة مع ذئب. وكان يدع في المساء أحياناً، وبضعفٍ وديٍّ منه، يدع أومو يمطّ أطرافه قليلاً ويهيم بحريّة حول الكوخ، فقد كان الذئب غير أهل لسوء الائتمان، ويتصرّف "في المجتمع" أي بين البشر، وبتحفّظِ كلبٍ جَعد؛ ومع هذا، فلو كان يمكن أن تكون هناك دعوى مع قضاةٍ أسبانٍ سيئي الطّباع لأمكن أن تحدث إزعاجات، وهكذا فقد كان أورسوس يبقّي الذّئب الأمين موثقاً بقدر الإمكان. من وجهة

النظر السّياسيّة، فإن لافتته حول الذهب التي غدت غير مقروءة الحروف، وقلّما هي مفهومة من ناحية أخرى، لم تكن شيئاً آخر يتعدّى خربشةً على واجهة، ولا تشي بشيء. وحتى بعد عهد جاك الثاني، وفي عهد الملكيّة 'المتمتعة بالاحترام'، ملكيّة غليوم وماري، فإن المدن الصّغيرة، مدن كونتيّات إنكلترا كان يمكنها أن ترى عربته الصغيرة تجول بهدوء. كان يسافر بحريّة، من أول بريطانيا العظمى إلى آخرها، يبيع شراباته، شرابات المحبّة وقواريره، ويقوم بتكلّفاته، تكلّفات طبيبِ مفترق الطرّق، مناصفة مع أومو، ويَعبُر بيسرٍ من خلال عيون شبكة الشرطة، والتي نصبتها، في ذلك العهد، إنكلترا بكاملها لتصفية العصابات المتجولة، وخصوصاً لإيقاف الكومبرا شيكوس في طريقها.

إضافة إلى هذا، فقد كان الأمر منصفاً. ولم يكن أورسوس من أيّة عصابة. كان أورسوس يعيش مع أورسوس، وجهاً لوجه لذاته مع ذاته التي كان الذئب يحشر فيها خطمه بلطف. كان طموحُ أورسوس في أن يكون كاريبيّاً، وإذ لم يستطع ذلك، فقد كان ذلك الذي يبقى وحيداً. إن المتوحّد هو تصغيرٌ للمتوحّش، والذي تقبله الحضارة. تزدادُ وحدةُ المرء أكثر عندما يكون مترحّلاً. ومن هنا يأتي تنقّله المستمرّ. إن البقاء في مكان ما كان يبدو له شيئاً من التدّجين، كان يقضي حياته في المضيّ في طريقه. إن رؤية المدن كانت تضاعفُ في نفسه الميل إلى أشواك الغابات، وإلى الأسيجة اليابسة والأشواك، وفجوات الصّخور. كان منزله هو الغابة. ولم يكن يحسُّ بأنّه مغتربٌ في ضوضاء السّاحات العامّة الشّديدة الشّبه بجلبةِ الأشجار. إن الحشد يُرضي إلى حدٍّ معين الميل الذي يحمله المرء للصحراء. إن الأمر الذي لا يروق له في ذلك الكوخ هو أن له باباً ونوافذ وأنّه يشبه منزلاً. ولو كان بإمكانه أن يضع مغارةً على أربع عجلات، وأن يسافر في كهف، لبلغ غايته المثلى.

لم يكن يبتسم، كما قلنا، بل كان يضحك. وأحياناً، وحتى غالباً، ضحكاً مريراً؛ إن في الابتسام رضاءً في حين أن الضحك غالباً ما يكون رفضاً.

كان أكبر همٍّ يشغله هو كراهية الجنس البشريّ. وكان لا ينثني في هذه الكراهيّة، بعد أن اتضّحت له حقيقةٌ أن الحياةَ البشرية شيءٌ فظيع، وبعد أن

لاحظ تراكم الكوارث، الملوك على الشّعب، والحرب على الملوك، والطّاعون على الحرب، والمجاعة على الطاعون، والحماقة على كلّ شيء. وبعد أن تبين قدراً معيناً من القصاص في مجرّد كون الإنسان موجوداً، وبعد أن أقرّ بأن الموت خلاص، حين كانوا يأتون إليه بمريض، كان يشفيه. كانت لديه أدوية منشطة، وشرابات لإطالة حياة الشيوخ. وكان يجعل المقعدين يقفون على أقدامهم، ويرميهم بهذا التهكمّ: 'ها أنت على قوائمك، فلعلّه يكون باستطاعتك أن تسير طويلاً في وادي الدمّوع!' وحين كان يرى فقيراً يموت من الجوع، كان يعطيه كلّ الفلوس التي كان يحملها وهو يدمدم: 'عشْ، أيها البائس! كلْ! ودمْ طويلاً! فليس أنا من سيختصر مدة سجنك الشاقّ'. وبعد ذلك، كان يفرك يديه، ويقول: 'إني أُنزل بالنّاس كلّ الأذى الذي أقدر عليه'. كان المارّة يستطيعون، من خلال ثقب الطّاقة الخلفيّة، أن يقرؤوا على سقف الكوخ هذه اللافتة المكتوبة في الداخل، ولكن المرئيّة من الخارج والمكتوبة بالفحم بحروف كبيرة: أورسوس. فيلسوف.

II
الكومبرا شيكوس
I

من يعرف في هذا الزمن كلمة كومبرا شيكوس، ومن يعرف معناها؟

إن الكومبرا شيكوس أو الكومبرا بيكوينيوس قد كانوا تجمعًا مترحّلاً، غريباً وكريهاً لأفراد ينضوون فيه، كانوا ذائعي الصّيت في القرن السابع عشر، ومنسييّن في القرن الثامن عشر، ومجهولين اليوم. إن الكومبرا شيكوس هم، شأن 'مسحوق الوراثة'(٢٢)، تفصيلٌ قديمٌ اجتماعي له ما يميّزه. إنهم محسوبون في عداد القباحة البشريّة القديمة. وفي نظرة التاريخ الكبيرة، التي ترى المجموعات، فإن الكومبرا شيكوس يرتبطون بالحدث الهائل، حدث العبودية. ويوسف الذي باعه أخوته هو فصلٌ من أسطورتهم. لقد ترك الكومبرا شيكوس أثراً في التشريعات الجزائية لإسبانيا وإنكلترا. ونجد هنا وهناك في التشوّش القائم للقوانين الإنكليزية ضغطَ هذا الحدث الوحشيّ، كما نجد أثرَ قدم متوحّشٍ في غابة.

إن الكومبرا شيكوس كما هي كومبرا بيكوينيوس، هي كلمةٌ إسبانية مركبّة تعني 'شاري - الصّغار'.

كان الكومبرا شيكوس يتاجرون بالأطفال.

كانوا يشترون أطفالاً ويبيعون أطفالاً.

لم يكونوا يختلسونهم؛ فسرقة الأطفال صناعةٌ أخرى.

وماذا كانوا يصنعون بهؤلاء الأطفال؟

مسوخاً.

ولماذا مسوخاً؟

للضّحك.

إن الشعب بحاجة إلى الضحك، والملوك أيضاً، فلا بدّ من مهرّج في ملتقيات طرق، ولا بدّ من البهلول في اللوڤر، فالأوّل منهما يسمّى تورلوبان والآخر تريبوليه(٢٣).

إن جهود الإنسان للحصول على الفرح تكون أحياناً جديرة باهتمام الفيلسوف فما هي الخطوط الأولى التي نرسمها في هذه الصفحات التمهيّدية؟ إنها فصلٌ من فصول أكثر الكتب رعباً، وهو الكتاب الذي يمكن أن نعنونه بما يلي: استغلال المنكوبين على يد المحظوظين.

II

أن يكون هناك طفلٌ مخصّص ليكون لعبة في يد الرّجال، فقد كان ذلك موجوداً. (وهو لا يزال اليوم موجوداً). وفي العصور السانجة والضّارية، يشكلُ هذا صناعة خاصّة. وقد كان القرنُ السّابع عشر، المسمّى بالقرن العظيم، أحد تلك العصور. إنه قرنٌ بيزنطيٌّ جداً، قد كانت فيه سذاجة مفسَدَة وضراوةٌ رهيفة، وهذا تنوّعٌ حضاريٌّ عجيب. إنه نمرٌ يقلّل من الأكل. إن مدام دوسيفينييه تتظارف بصدد المحرقة ودولاب التعذيب. لقد استغل ذلك القرن الأطفال كثيراً. والمؤرخون، مادحو تلك القرن، قد أخفوا الجرح، غير أنهم كشفوا الدّواء، إنه فانسان دوبول(*).

لكي ينجح الرّجل الخشخيشة، ينبغي القبض عليه مبكراً؛ فالقزم ينبغي أن يكون قد بُدئ به صغيراً. كانوا يتلاعبون بالطفولة. ولكن طفلاً منتصب القامة ليس مسليّاً حقاً. والأحدبُ أكثر بهجة.

ومن هذا ينشأ فنٌ معين، لقد كان هناك مُربون، كانوا يأخذون إنساناً ويصنعون منه جهيضاً، يأخذون وجهاً ويصنعون منه خطماً. كانوا يضغطون النموّ يعجنون السّحنة. إن هذا الإنتاج المصطنع لحالاتٍ مسخيّة كانت له قواعده. لقد كان علماً كاملاً. فلنتصوّره علم تجبير باتجاه معاكس. وفي ذلك المكان الذي وضع فيه الرّب البصر، كان ذلك الفنّ يصنع الحَوَل. وفي ذلك المكان الذي وضع فيه الرّبُّ الانسجام، وضعوا التشوُّه. وفي ذلك المكان الذي وضع فيه الرّب الكمال، أعادوا رسم الخطوط الابتدائية. وفي نظر العارفين،

(*) كاهن (١٥٨١-١٦٦٠)، اهتم بالأطفال اللقطاء وأسس جمعيات خيرية دينية - (م: ز. ع).

فإن الرسم الأوّليّ هو الكمال، لقد كان هناك أيضاً أعمالٌ تستعيد من الأساس تكوين الحيوانات؛ وكان يتمّ اختراعُ الخيول البقع. فيمتطي تورين جواداً أبقع. ألا يصوّرون الكلاب بالأزرق والأخضر في أيّامنا؟ إن الطبّيعة هي المخطط الذي صمّمّنا بحسبه. ولطالما أراد الإنسان أن يضيف شيئاً إلى الرّب. إن الإنسان ينقّحُ الخليقة، بشكلٍ جيّد أحياناً، وبشكلٍ سيّء أحياناً. إن بهلول البلاط لم يكن شيئاً آخر سوى محاولةٍ لإعادة الإنسان إلى القرد. إنه تقدّمٌ إلى الوراء. وتحفةٌ تسيرُ القهقرى. وفي الوقت نفسه، كانوا يحاولون صناعة القرد الإنسان. وكان لدى بارب، دوقة كليفلاند، وكونتيسّة ساوثمبتون، كان لديها قردُ السّاجو كغلام. وفي منزل فرانسواز سوتون، بارونة دودليه، وزوجة النبيل الثامنة في مقعد البارونات، كان الشاي يقدمه قردٌ كلبيٌ يرتدي بروكاراً مذهباً وتسميه الليدي دودليه: "زنجيّي". وكانت كاترين سيدليه ذاهبة لتجتمع في مجلس النّواب في عربةٍ فخمة مزينّة بالشعارات، وكان ينتصبُ، وراء العربة، ثلاثةُ قرود ربّاحة بملابسها الاحتفالية، وخطومها مرفوعة. وكانت دوقةٌ من ميدينا سولي، التي رأى الكاردينال بولوس استيقاظها ترتدي جواربها على يد سعلاة. وكان هؤلاء القرود الذين ترتفع مراتبُهم يوازنون الرّجال الذين جرى تعنيفهُم وحطّهُم إلى مرتبة الحيوان. إن هذا الاختلاط الذي يريده الكبار، بين الإنسان والحيوان كان قد أبرزه خصوصاً القزم والكلب؛ لم يكن القزمُ يترك الكلب قطّ، فهو أطول منه قامة على الدّوام. كان الكلب هو ثاني(٢٤) القزم. كانا مثل طوقين مقترنٌ كلّ منهما بالآخر. ويتبيّن هذا التجاور بمجموعةٍ من الرّوائع المنزلية، وخصوصاً صورة جيفري هدسون، قزم هنرييت دوفرانس، وابنة هنري الرّابع، وزوجة شارل الأوّل.

إن الحطّ من مرتبة الإنسان تؤدّي إلى تشويهه. فقد كان يجري إكمالُ إلغاء وضعه بتشويه صوته. إن عدداً من مشرّحي حيوانات تلك الأزمنة كانواقد نجحوا على نحوٍ جيّد جداً في أن يمحوا الرّسم الإلهيّ عن الوجه البشريّ. إن الدّكتور كونكيست، عضو معهد أمين – ستريت، والزّائر اللّدود لدكاكين كميائييّ لندن قد كتب كتاباً باللاّتينية حول الجراحة المقلوبة التي يقدّم وسائلها. وإذا ما أخذنا برأي جوستون دوستون دوكارّيك – فيرغوس، فإن

مبتكر هذه الجراحة هو راهبٌ يُدعى أفين - مور، وهي كلمة إيطالية معناها النهر الكبير.

إن قزم الناخب البلاطي، بيركو(٢٥)، والذي تخرج دميته - شبحُه - من علبة مفاجآت في قبوهايد لبرغ، قد كان عيّنةً لافتة لذلك العلم المتنوّع جدًّا في تطبيقاته.

وكان ذلك يصنعُ كائناتٍ قانونُ وجودها بسيطٌ إلى درجةٍ وحشيّة وهو: السّماح بالألم، والأمر بالتسلية.

III

كانت هذه الصّناعةُ، صناعة المسوخ تمارَسُ على مستوى كبير، وتتضمّنُ مختلف الأنواع.

كان يلزم منها للسّلطان، وكان يلزم منها للبابا. وللأوّل منهما لحراسة نسائه، وللثاني منهما لإقامة صلواته. وقد كان ذلك نوعاً منفصلاً لا يمكن أن يتكرر بذاته. فتلك الأشباهُ البشريّةُ مفيدةٌ للمتعة وللدّين، وكانت دارُ السّراي (الحريم) ومصلى السّكستين يستهلكان النّوع نفسه من المسوخ، وهي في هذا المكان ضارية، وفي ذاك عذبة.

كانوا يحسنون في تلك العهود إنتاجَ أشياء لم نعد ننتجها اليوم، كانوا يمتلكون مواهبَ نفتقرُ إليها. ولا تشكو العقولُ السليمة من الانحطاط من غير سبب. فلم نعد نحسن النحت في قلب اللحم البشريّ؛ وهذا يرجع إلى أن فنّ التعذيب يتلاشى؛ لقد كانوا بارعين في هذا النّوع، ولم نعدْ كذلك. لقد بسّطنا هذا الفنّ إلى الدّرجة التي قد يختفي فيها تماماً بعد قليل وحين كانوا يقطعون أطراف رجالٍ أحياء، ويفتحون بطونهم، وينتزعون أحشاءهم. كانوا يداهمون الظواهر، ويحصلون على اكتشافات. وإن كان لا بدّ لنا من التخلي عن هذا، فنحن نُحرم من ألوان التقدّم التي يجعل الجلادُ الجراحة تحرزُها.

إن هذا التشريح الحيوانيّ، تشريح الماضي لم يكن يكتفي بأن يصنع ظواهرَ عجيبةً للسّاحة العامّة، وبهاليل للقصور، وضروباً من المبالغات لرجل البلاط، وخصياناً للسلاطين والبابوات. وكان يُكثِر التنويعات. وأحد هذه الانتصارات هو صناعةُ ديك لملك إنكلترا.

وكان من المعمول به، في قصر ملك إنكلترا، أن يكون هناك نوعٌ من رجلٍ ليليّ، يصيح كالدّيك. وهذا السّاهرُ، الواقفُ في حين ينام الآخرون، كان يجولُ في القصر، ويطلق من ساعةٍ إلى ساعة صيحة الفنّ تلك، التي يردّدها

عدداً من المرّات كافياً ليقوم مقام جرس. وهذا الرّجل، المرتقي إلى درجة ديك، يكون قد خضع لأجل ذلك لعمليةٍ في بلعومه والتي تشكل جزءاً من الفنّ الذي يصفه الدّكتور كونكيست. وفي عهد شارل الثاني، وإذْ اشمأزّت دوقةُ بورتسماوث من سيلان اللّعاب اللصيق بالعملية، فقد تمتْ المحافظة على الوظيفة، لكي لا يجري إنقاصٌ بريق التاج، ولكنهم جعلوا صيحة الدّيك يطلقها رجلٌ غير مبتور. وكانوا يختارون عادةً لهذه الوظيفة المشرّفة ضابطاً سابقاً. وفي عهد جاك الثاني، كان ذلك الموظّف يسمّى ويليام سامبسون كوك (أي ديك)، وكان يتلقّى سنويّاً مقابل صياحه تسع ليرات وشيلنين وستّة فلوس(*).

إن مذكرات كاترين الثانية تروي، منذ ما يقرب من مئة وخمسين عاماً، أنه عندما يكون القيصرُ أو القيصرة منزعجين من أميرٍ روسيّ، كانوا يجعلون الأمير يجثو في قاعة انتظار القصر الكبرى. وكان يبقى في تلك الوضعيّة عددا محدّدا من الأيّام، ويموء بأمرٍ، مثل قطّ أو ينقّ مثل دجاجة تحضن البيض، وينقر طعامه من الأرض.

إن هذه الأساليب قد انقضت أقل مما نظنّ مع ذلك. واليوم فإنّ رجال البلاط الذين ينقّون لكي ينالوا الرضى يحوّرون تنغيمهم قليلاً. ولم يعدْ هناك من يلتقط من الأرض، ولا نقول من الطيّن، ما يأكله.

ومن حسن الحظّ إلى حدّ كبير ألاّ يمكن للملوك أن يخطئوا. وبهذه الصّورة فإن تناقضاتهم لا تُربك قطّ. وحين يُمتدحُ المرءُ باستمرار، يكون على ثقة بأنه مصيبٌ دائماً، فهذا أمرٌ مستحبٌ. لم يكن لويس الرابع عشر يمكن أنْ يحبّ أن يرى في فيرساي ضابطاً يقلّد الدّيك، ولا أميراً يحاكي الديك الرّومي. إن ما كان يرفعُ من شأن الكرامة الملكيّة والإمبراطوريّة في إنكلترا وروسيا كان يمكن أن يبدو للويس العظيم مخالفاً لتاج القدّيس لويس. ونحن نعرفُ استياءه حين نسيت مدام هنرييت نفسها حتى رأت دجاجةً في الحلم، وهذا عدمُ لياقةٍ خطير فعلاً لدى شخصٍ من البلاط. فحين يكون المرءُ من النبلاء، لا ينبغي أن يحلم بما هو خسيس إطلاقاً. وبوسوييه، كما نتذكرُ، قد شارك الملك لويس الرابع في خزيه.

(*) راجع الدكتور شامبرلين: حالة إنكلترا الحاضرة، ١٦٨٨ القسم الأول، الفصل: ١٣، ص ١٧٩.

IV

كانت تجارةُ الأطفال في القرن السّابع عشر تُستكمَلُ، كما أوضحنا منذ قليل بصناعة معيَّنة. وكان الكومبرا شيكوس يقومون بهذه التجارة، ويمارسون تلك الصّناعةَ. وكانوا يشترون أطفالاً، ويشتغلون قليلاً على تلك المادّة الأوّليّة، ويبيعونها مجدّداً بعد ذلك.

كان هناك باعةٌ من كلّ شاكلة؛ بدءاً من الأب البائس الذي يتخلّص من عائلته، ووصولاً إلى السّيِّد الذي يستعمل المربط الذي يصنع فيه عبيداً. ولم يكن بيعُ النّاس إلاّ أمراً بسيطاً. وقد تقاتل النّاس في أيامنا للإبقاء على هذا الحقّ. ونحن نتذكرّ، منذ أقلّ من قرن، أن ناخب اتحاد هيس قد باع رعاياه إلى ملك إنكلترا الذي كان بحاجةٍ إلى أناسٍ يُقتَلون في أمريكا. وكانوا يذهبون إلى منزل ناخب هيس كما يذهبون إلى الجزار ليشتروا اللحم. كان ناخبُ هيس يتاجر باللحم البشري المخصّص للمدافع. وكان ذلك الأمير يعلّق رعاياه في دكّانه. ساوموا، هذا للبيع. وفي إنكلترا، في عهد جيفريه، وبعد مغامرة مونموث(٢٦) المأسوية. كان هناك العديد من السّادة الإقطاعيين والنبلاء الذين قطعت رؤوسهم وفسخوا؛ وقد ترك هؤلاء المنكّل بهم زوجاتٍ وبنات، أرامل ويتيمات أعطاهن جاك الثاني للملكة زوجته. وقد باعت هؤلاء السيّدات النبيلات إلى غليوم بين(٢٧). ومن المحتمل أن يكون هذا الملك قد حصل على حسم مئويّ كبير. والأمرُ المدهشُ ليس أن يكون جاك قد باع هؤلاء النسّاء بل أن يكون غليوم بين هؤلاء الذين اشتراهن.

إن صفقةَ شراءِ "بين" تجدُ لها عذراً، أو تفصح عن رأيها بما يلي؛ وهو أن بين الذي كانت بحوزته أرضٌ قفرٌ عليه أن يبذرها بالرّجال، قد كان يحتاج إلى النساء؛ فكانت النساء تشكّل جزءاً من أدواته.

كانت تلك السيّدات النبيلات صفقةً جيّدةً للطفِ جلالتها الملكة. وقد يبعث الشابّات بثمنٍ غالٍ.

ويخطر للمرءِ بانزعاجٍ شعورٌ بالفضيحة معقّد؛ بأن بين قد حصل ربمّا على دوقات عجائز بسعرٍ جيّد جداً.

كان الكومبرا شيكوس يُدعون أيضاً بـــ "الشيلاس" وهي كلمةٌ هندوسيّة تعني مختطفي الأطفال من منازلهم.

بقي الكومبرا شيكوس لزمنٍ طويل غير متوارين إلاّ جزئياً؛ ففي النّظام الاجتماعي أحياناً غبشٌ يراعي الصّناعات الأثيمة؛ وهي تحافظ على نفسها فيه. وقد رأينا في إسبانيا، في أيامنا، انضواءً ضمنَ جماعةٍ من هذا النوع ويُديرها قاطعُ طريق(٢٨) هو رامون سيل، ويستمرُّ من عام ١٨٣٤ إلى عام ١٨٦٦، ويستولي خلال عهد الإرهاب، ولمدة ثلاثين عاماً، على ثلاث مقاطعات هي: فالنسيا، وأليكانت ومورسي.

في عهد آل ستيوات، ولم يكن الكومبرا شيكوس مغضوباً عليهم إطلاقاً. وعند الحاجة، كانت مصلحة الدّولة تستخدمهم. لقد كانوا بالنسبة لجاك الثاني: Instrumentum regni (أدوات للحكم). وكان ذلك هو العهدُ الذي يبتّرون فيه العائلات المزعجة والمتمرّدة، والذي كانوا يضعون فيه حدّاً لعلاقات النّسب، ويلغون البنوّات بشكلٍ مفاجئ. وأحياناً كانوا يجري انتزاعُ فرعٍ لصالح فرع آخر.

كان للكومبرا شيكوس موهبةٌ هي تشويه الوجه والتي كانت تشفّع لهم في السّياسة. إن تشويه الوجه يفضّل القتل. كان هناك القناعُ الحديدي حقاً. غير أن هذه وسيلة فظّة. فلا يمكن أن نملأ أوروبا بالأقنعة الحديديّة، في حين أن المشعوذين الدّميمين يجوبون الشوّارع من دون استغراب؛ ثم أن القناع الحديديّ يمكن نزعُه، وقناع اللحم البشريّ ليس كذلك. وأن تتقنّع بصورةٍ دائمة بوجهك الخاصّ هو أمرٌ لا شيء أكثر منه حذقاً. إن الكومبرا شيكوس يشتغلون على الإنسان كما يشتغلون على الشجرة. لقد كانت لديهم أسرار، كما قلنا؛ وكانت لديهم وسائل. إنّه فنٌّ مفقود. إن نوعاً من ضعف النّمو (الدّسو) الغريب كان يخرج من بين أيديهم. كان ذلك مضحكاً وعميقاً. كانوا يمدّون أيديهم إلى كائن صغير بكثير من البراءة بحيث أن أباه لا يعرفه. وبحيث تتكره عين والده. هكذا

يقول راسين مع خطيئةٍ باللغة الفرنسيّة(٢٩). وكانوا أحياناً يدعون العمود الفقري منتصباً، ويعيدون تكوين الوجه؛ فكانوا يزيلون علامات وجه طفل، كما تُزال علامات منديل. كانت النّتاجات المخصّصة للمشعوذين ذات مفاصل مفككّة بصورةٍ بارعة. وكأنها منزوعة العظام. وكان ذلك يصنع رياضيّين.

لم يكن الكومبرا شيكوس ينزعون للطفل وجهه فحسب، بل كانوا ينزعون ذاكرته. وعلى أيّة حال، كانوا ينزعون منه ما يقدرون عليه. ولم يكن الطفل يدرك البتر الذي خضع له. وكانت تلك الجراحة المرعبة تترك أثراً على وجهه، وليس في عقله. وكان يمكنه أن يتذكر على أبعد تقدير أن رجالاً قد قبضوا عليه ذات يوم، وأنه قد نام، وأنهم قد شفوه بعد ذلك. شفوه ممّ؟ كان يجهل ذلك.لم يكن يتذكرّ شيئاً من حروق الكبريت، ومن شرْطات الحديد. كان الكومبرا شيكوس، أثناء العمليّة، ينوّمون المعذّب الصّغير بوساطة مسحوقٍ مخبّل يُعتبر سحريّاً ويقضي على الألم. كان ذلك المسحوق معروفاً في الصيّن على الدّوام، ولا يزال يُستخدم فيها في الوقت الحاضر. لقد كان لدى الصيّن قبلنا كلّ اكتشافاتنا، المطبعة، والمدفعيّة، وصناعة المناطيد، والكلوروفورم. إلا أن الاكتشاف الذي يولد سريعاً وينمو في أوروبا. ويغدو معجزاً وعجيباً، يبقى جنينيّاً في الصيّن ويحفظ فيها ميتاً. إن الصين قارورة أجنّة.

بما أننا في الصين، فلنبقَ فيها أيضاً للحظةٍ من الزمن من أجل تفصيلٍ معيّن. لقد رأينا في الصين على الدّوام البحثَ الفني والصّناعي الذي هو الآتي: قولبة الإنسان الحيّ. فيأخذونٍ طفلاً عمره عامان أو ثلاثة، ويضعونه في إناء من القيشاني، غريبٍ تقريباً، لا غطاء له، ولا قعر لكي يمرّ منه الرأس والقدمان. وفي النّهار، يبقون هذا الإناء قائماً، وفي الليل يمدّدونه لكي يتمكن الطفل من النّوم؛ وهكذا يتضخّم الطفل من غير أن يكبر، مالئاً بلحمه المضغوط، وعظامه الملتوية حدبات الإناء. ويدوم هذا النّمو في الزّجاجة بضع سنوات. ويغدو غير قابل للإصلاح، في وقت من الأوقات. وحين يرون أن ذلك قد نجح، وأن المسخ قد تكوّن، يكسرون الإناء، ويخرج منه الطفل، ويحصلون على رجلٍ له شكل أصيص.

إن هذا مريح؛ ويمكن مسبقاً أن يوصي المرء على قزم بالشكل الذي يريد.

V

لقد تقبّل جاك الثاني الكومبرا شيكوس. ولسببٍ وجيه، هو أنه كان يستخدمهم. وقد حدث له ذلك غير مرّة على الأقلّ. إن المرء لا يستخفّ دوماً بما يُزدرى. إن هذه الصّناعة الدّنيا التي هي وسيلةٌ ممتازة أحياناً للصّناعة العليا التي نسميها السّياسة، قد تُركت بائسةً عمداً، ولكنها لم تُضطهَدْ إطلاقاً. لم تكن عليها أيّة رقابة، بل بعض التيقّظ تجاهها. ويمكن لهذا أن يكون مفيداً. فقد كان القانون يغمض عيناً، والملك يفتح العين الأخرى.

كان الملك يصل أحياناً إلى التصريح بتواطئه معهم؛ فتلك هي مساراتُ النزعة الإرهابية للحكم الملكيّ. كان مشوّهَ الصّورة يوشَمُ بزهرة الزنبق؛ وكانوا ينزعون منه علامة الرّب، ويضعون له علامة الملك. إن جاكوب آستلي، الفارس والبارونت، وسيّد ملتون الإقطاعي، وضابط شرطة كونتيّة نورفولك، كان لديه في عائلته طفلٌ مُباع، وكان الوسيط البائع قد طبع على جبهته زهرة زنبق بالحديد المحمّي. وفي بعض الحالات، إذا كان هناك حرصٌ لأسبابٍ أيّاً كانت، على تبيُّن الأصلِ الملكيّ للوضعية الجديدة التي وضع فيها الطفل، قد كانوا يستخدمون تلك الوسيلة. وقد شرّفتنا إنكلترا دائماً باستخدام زهرة الزنبق، لاستعمالاتها الشّخصية.

إن الكومبرا شيكوس، إضافة إلى الفارق الطفيف الذي يفصلُ صناعةً ما عن تعصّبٍ ما، كانوا يماثلون خانقي الهند؛ فقد كانوا يعيشون بين جماعتهم، على شكل عصابات، وهم يقومون بالتهريج المضحك بعض الشّيء، ولكن تذرُّعاً به. وهكذا، فقد كان التجوّال سهلاً عليهم؛ فيخيمّون في هذا المكان أو ذاك، ولكنهم كانوا رصينين، ومتديّنين، وليس بينهم وبين الرّجال الآخرين أيّ تشابه، فهم غير مؤهلين للسّرقة. ولطالما خلط الشعب

خطأ بينهم وبين موريسك إسبانيا أوموريسك الصيّن، لقد كان موريسك إسبانيا مزيّفي نقود، وكان موريسك الصيّن نشّالين. ولا شيء يماثل ذلك عند الكومبرا شيكوس. فقد كانوا أناساً نزيهين. وليكن رأينا بهم كما نشاء، فقد كانوا أحياناً أصحابَ ذمةٍ بصدق. كانوا يفتحون باباً، ويدخلون ويساومون على طفل، ويدفعون ثمنه، ويأخذونه. كان ذلك يجري بدقّة.

كانوا من كلّ البلدان، وتحت هذا الاسم: كومبرا شيكوس، كانوا يتآخون مع الإنكليز والفرنسيين، والقشتاليين، والألمان والطليان. إن تفكيراً واحداً وتطيّراً واحداً، والاستغلال المشترك لمهنة واحدة، يُصنعُ من مثل هذه الاتحادات. وفي التآخي بين قطاع الطرق، كان المشرقيّون يمثلون المشرق، والمغربيّون يمثلون الغرب. كان العديد من الباسكيين يتحادثون فيه مع الكثير من الايرلنديين. إن الباسكيّ والايرلندي يتفاهمان. إنهمّا يتكلمان الأرغة البونيّة (القرطاجيّة)؛ أضيفوا إلى ذلك العلاقات الحميمة بين إيرلندا الكاثوليكية وكاثوليك إسبانيا. وهي علاقاتٌ تصلُ إلى الحدّ الذي انتهى به الأمرُ إلى القيام بشنق ملك إيرلندا تقريباً في لندن. وهو اللورد الغاليّ دوبراني، وهذا ما أحدث كونتيّة ليتريم.

كان الكومبرا شيكوس رابطةً أكثر مما هي قوم، وحثالةً أكثر ممّا هي جماعة. لقد كانوا تجمّعاً لأنذال العالم، صناعتُه الجريمة. كانوا نوعاً من شعبٍ مهرّجٍ مكوّنٍ من كلّ الأسمال. إن ضمُّ رجل، كان معناه خياطة خرقة.

إن التشرّد هو قانون عيش الكومبرا شيكوس. الظهورُ ثم الاختفاء؛ فما يجري تقبُّله فحسب لا يتجذر. وحتى في الممالك التي كانت صناعتُهم فيها مزوّدة للبلاطات، وعند الحاجة، مساعدةً للسّلطة الملكية، فقد كانوا أحياناً يعاملون معاملةً شديدة تماماً. كان الملوك يستخدمون فنهّم ويصنعون الفنانين في سجن الأشغال الشّاقة. إن هذه التناقضات موجودةٌ في الحركة المستمرّة، حركةِ النزوة الملكيّة. ففي ذلك يتمّ سرورنا.

إن الحجر الذي يتدحرجُ، والصّناعة التي تجول لا تجمع زبدة. كان الكومبرا شيكوس فقراء. وكان يمكن لهم أن يقولوا ما كانت تقوله تلك الساحرة

الهزيلة والتي ترتدي الأسمال حين رأت اشتعال حزمة قشّ المحرقة: 'إن اللعبة لا تعادل قيمة الشمّعة'. ولربّما، وحتى بصورةٍ محتملة، أن زعماءهم غير المعروفين، ومتعهّدي تجارة الأطفال على مستوى كبير، قد كانوا أغنياء. وهذه النقطة، بعد قرنين من الزمن، قد يكون من العسير إيضاحُها.

لقد كانوا، كما قلنا تجمعاً انضوائياً. وكانت له قوانينُه، وقسمُه، وتعابيرُه. كانوا مذهباً سرّيّا تقريباً. من يودُّ أن يعرف اليوم أكثر عن الكومبرا شيكوس لن يكون عليه إلاّ أن يذهب إلى بيسكايا وإلى غاليسيا. وبما أنه كان هناك الكثيرُ من الباسكيين بينهم، فإن أسطورتهم إنما كانت بين تلك الجبال. ولا يزال يجري الكلام في الوقت الحاضر عن الكومبرا شيكوس في أويارزون، وفي أوبيستوندو، وفي ليزو وفي أستيغاراغا (*) Aguardate,nino,que voy allmar all comprachicos! وهي في تلك البلاد صرخة تخويف الأمهات لأطفالهم.

كان الكومبرا شيكوس، شأنهم شأن البوهيميين والغجر، يحدّدون أماكن لقاء؛ ومن وقتٍ لآخر. كان الزعماء يتبادلون الحوارات. وكانت لهم، في القرن السّابع عشر أربع نقاطِ التقاء رئيسية. واحدة في إسبانيا وهي: معبر بانكوربو، وواحدة في ألمانيا، وهي: فرجة الغابة المسمّاة موفيزفام (المرأة السّيئة) بقرب ديكيرش، والتي فيها نقشان بارزان ملغزان يمثّلان امرأة لها رأس ورجلاً ليس له رأس، وواحدٌ في فرنسا هو: الرّبوة التي كان عليها التمثّال الضّخم، تمثالُ ماسّو - لا - بروميس، في الحرش القديم المقدّس بورفو تومونا، بقرب بوربون - ليه - بان. وواحدٌ في إنكلترا وهو: خلف جدار حديقة ويليام شالونر. حامل أسلحة جيسبروف في كليفلاند في بورك، بين البرج المربّع وجبهة الجملون الكبرى التي أحدِث فيها بابٌ قوطيٌّ.

(*) احترس، سوف أنادي الكومبرا شيكوس.

VI

لطالما كانت التّشريعات ضدّ المشرّدين صارمةً في إنكلترا. إن إنكلترا، في تشريعها القوطيّ، كان يبدو أنها تستوحيه من المبدأ التّالي(٣٠): Homo errans feva errante pejor إن أحد أنظمتها الخاصّة تصف الإنسان الذي لا مأوى له بأنه 'أخطر من الصّل، والتّنين و'الأوس والمثليكة' atrocior aspide, dracone, lynce et basilico وكانت إنكلترا لزمن طويل منشغلة بهمٍّ الغجر الذين كانت تريد أن تتخلّص منهم مثلما هي منشغلة بالذئاب الذين تطهّرت منهم.

وفي هذا يختلف الانكليزي عن الايرلندي الذي يصلّي إلى القدّيسين من أجل صحة الذئب ويسميّه 'إشبيني'.

مع ذلك، فإن القانون الإنكليزي كان يتقبّل كما رأينا منذ قليل، الذئب المروّض والمدجّن والذي أصبح كلباً إذا صحّ القولُ، كما يتقبّل المتشرِّد ذا الوضع المحدد والذي أصبح أحد الرّعايا. ولم يكونوا يزعجون البهلوان، والحلاق المتجوّل، والفيزيائي والبائع الجوّال، والعالم في الهواء الطلق، نظراً لأن لديهم مهنةً يعيشون منها. عدا عن ذلك، ومع بعض الاستثناءات، فإن هذا النوّع من الإنسان الحرّ الموجود في الإنسان المتجوّل كان يخيفُ القانون. إن عابر سبيل كان يعتبر عدّواً عاماً ممكناً. إن هذا الشيء الحديث الذي هو التّسكّع، قد كان غير معروف؛ ولم يكونوا يعرفون إلا ذلك الشيءَ القديمَ، الذي هو التجّوال؛ فهذا 'الوجه غيرَ المرحِّب' هو الشيء الذي لا نعرفُ ما هو، والذي يفهمه كلّ الناس ولا يستطيعُ أحدٌ تحديده، كان كافياً لكي يأخذ المجتمع بتلابيب الرّجل سائلاً: أين تقطن؟ ماذا تفعل؟ وإن لم يكن قادراً على الإجابة، فإن عقوبات قاسية تنتظره. وكان الحديد والنار مدوّنين في الشرّعة. كان القانون يمارس الكيّ في حالة التشرّد.

ومن هنا يأتي، على كلّ الأرض الإنكليزية، تشريعٌ ضدّ المشتبه بهم 'حقيقيّ' وهو يطبق على المتجوّلين، المسيئين عمداً، ولنقل، وبصورة خاصّة على الغجر الذي شُبِّه طردُهم خطأً بطرد يهود إسبانيا ومغاربيّها، وبرتستانتيّ فرنسا. أما نحن، فلا نخلطنّ إطلاقاً غارةً تُشنُّ باضطهادٍ معيّن.

إن الكومبرا شيكوس، ولنلحّ على هذا، لا شيء يجمعهم بالغجر، فقد كان الغجر أمّة. وكان الكومبرا شيكوس خليطاً من كلّ الأمم، وحثالة، كما قلنا، وحوضاً مرعباً مليئاً بالمياه القذرة. ولم يكن لدى الكومبرا شيكوس، شأن الغجر، لغة اصطلاحية خاصة بهم. وكانت أرغتُهم اختلاطاً بين لغاتٍ اصطلاحيّة، هي كلّ اللغات مختلطة. يتكلّمون تشوّشاً معيناً. وقد انتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا، كما هي حال الغجر، شعباً يتلوى بين الشّعوب، إلا أن رابطتهم المشتركة قد كانت الانضواء في الجماعة وليس العرق. وفي كلّ حقب التاريخ، يمكن أن نتبيّن، في تلك الكتلة الواسعة السّائلة والتي هي البشريّة، بعضاً من تلك السّواقي البشريّة السّامّة والتي تسيل بمفردها، مع شيء من التّسميم حولها. لقد كان الغجر أسرة، وكان الكومبرا شيكوس ماسّونية حرّة؛ ماسّونية ليس لها هدف عظيم، بل صناعةٌ كريهة. وهناك فارق أخير هو الدّين. فالغجر كانوا وثنيّين، وكان الكومبرا شيكوس مسيحيّين، وحتى مسيحيّين جيّدين؛ وكما يليق بجماعةٍ انضوائية نشأت في إسبانيا، المكان التّقيّ، مع أنها خليطٌ من كل الشّعوب.

لقد كانوا أكثر من مسيحيّين، كانوا كاثوليكاً، وكانوا أكثر من كاثوليك، كانوا روميين، وجدّ نفورين في إيمانهم، وجدّ نقيّين بحيث أبوا أن يشتركوا مع الرّحّل الهنغاريين في قضاء بيست المجري، والذين يأتمرون بأمر عجوز يقودهم، ويحمل بمثابة صولجان عصا ذات كرةٍ فضيّة يعلوها نسر النمّسا ذو الرأسين.

والحقيقة أن هؤلاء الهنغاريين قد كانوا انشقاقيّين إلى الحدّ الذي يحتفلون فيه بعيدِ صعود العذراء في ٢٧ آب، وهذا أمرٌ مخزٍ.

وفي إنكلترا طيلة حكم آل ستيورات، كان تجمّع الكومبرا شيكوس الإنضوائي محميّاً تقريباً، وقد جعلنا دوافعَ ذلك تُستَشف. إن جاك الثّاني،

الرّجل الورع، والذي كان يضطهد اليهود، ويلاحقُ الغجر، كان أميراً طيباً بالنسبة للكومبرا شيكوس. وقد رأينا لماذا. فلقد كان الكومبرا شيكوس مشترين للسّلعة البشريّة التي كان الملك يتاجرُ بها. لقد كانوا يبدعون في الاختفاءات؛ فمصلحة الدولة تقتضي اختفاءات من وقتٍ لوقت. إن وريثاً مزعجاً، في سن الحداثة، كانوا يمسكون به، ويقلبّونه بين أيديهم، فيفقد شكله. وهذا ما كان يسهّل المصادرات. إن عمليات نقل الملكيّات الإقطاعية إلى المحظيين قد كانت تسهل من جراء ذلك. وكان الكومبرا شيكوس فضلاً عن ذلك جدّ متكتّمين، وجدّ صموتين، ويلتزمون السّكوت، ويفون بوعودهم، وهذا ما هو ضروريّ لأمور الدّولة. ولم يكن هناك مثالٌ واحد تقريباً على أنهم قد أفشوا أسرار الدّولة. فقد كان ذلك في مصلحتهم حقاً. ولو قدّر للملك أن فقد الثقة بهم لأصبحوا في خطرٍ شديد. لقد كانوا والحالة هذه أصحابَ حيلةٍ من وجهة نظر السياسة. فضلاً عن هذا، فقد كان هؤلاء الفنانون يزوّدون الأب القدّوس بالمرتّلين. وكان الكومبرا شيكوس مفيدين لشكوى الليّغري(٣١). وكانوا ممجّدين مخلصين بصورةٍ خاصة لمريم. وكان كلّ ذلك يروق لأتباع البابا من أسرة ستيوارت. إن جاك الثاني لم يكن بإمكانه أن يكون معادياً لرجال متديّنين يبالغون بإجلال العذراء، وصولاً إلى صناعة الخصيان. وفي عام ١٦٨٨، كان هناك تغييرٌ في السّلالة الحاكمة في إنكلترا. فقد أزاحت أورانج أسرة ستيوارت، وحلّ غليوم الثاني محلّ جاك الثالث.

مضى جاك الثاني ليموت في المنفى الذي صُنعت فيه معجزاتٌ على قبره، وشفت فيه ذخائرُه الأسقفَ دوتان من النّاسور، وهي مكافأةٌ لائقة بفضائل ذلك الأمير المسيحيّة.

أما غليوم الذي لم تكن لديه إطلاقاً الأفكار نفسها والممارسات نفسها التي كانت لدى جاك، فقد كان متشدّداً تجاه الكومبرا شيكوس. وقد أبدى الكثير من الصّلابة لسحق هؤلاء الأوباش.

إن تشريعاً صدر في أوائل عهد غليوم وماري قد ضربَ بقسوة جماعة شاري الأطفال. وقد كانت عملاً طارئاً ضدّ الكومبرا شيكوس الذين سحقوا

اعتباراً من ذلك الوقت. وبناءاً على بنود ذلك التشريع، فإن رجال تلك الجماعة التي يقبض عليها ويتم إثباتها شرعاً، كان يتعيّن عليهم أن يوسموا على الكتف بحديدٍ محمّى يطبع الحرف R والتي تعني rogue (متعجرف) أي نذل، وعلى اليد اليسرى بحرف T والتي تعني Thief أي لصّ، وعلى اليد اليمنى حرف M والتي تعني Man Slay أي: قاتل. أما زعماؤهم "الذين يُظنّ أنهم أغنياء، مع أن لهم مظهر متسوّلين" فيُعاقَبون بالـــ Collistrigium والذي هو عمود التشهير، ويوسمون على جبينهم بالحرف p (pilori)، ثم تُصادرُ أملاكهم، وتُقتلع أشجارُ أحراشهم. أما أولئك الذين لا يبلّغون إطلاقاً عن الكومبرا شيكوس، فيعاقبون بالمصادرة والسجن المؤبّد" كما هي الحال بالنسبة لجريمة التستّر على جرم (٣٢). أما النسّاء اللواتي يُعثر عليهن بين هؤلاء الرّجال، فكن يخضعن للــ Cukingstool والتي هي عبارةٌ عن فخّ قفصيّ تسميتهُ المؤلفة من الكلمة الفرنسيّة Coquine (غنجة) من الكلمة الألمانية: Stuhle "كرسي....." وبما أن القانون الانكليزي يتمتّع بحياةٍ طويلة غير مألوفة، فهذا العقاب لا يزالُ موجوداً في التشريع الانكليزيّ بالنسبة "للنسّاء المحبّات للمشاحنة". إنهم يعلقون كرسي التشهير Cuking stool فوق نهر أو مستنقع، ويجري إجلاسُ المرأة داخلها، وتترك الكرسي لتسقط في الماء، ثم تُسحبُ، ويجري البدء مجدّداً في هذا الغمر للمرأة، وكما يقول المفسّر شامبرلين: "لتبريدِ غضبها".

الكتاب الأول

الليل الأقلّ سواداً
من الإنسان

I

رأس بورتلاند الجنوبيّ(٣٣)

هبت من الشّمال ريحٌ شتائيةٌ عنيدة بلا انقطاع على القارّة الأوربيّة، وعلى إنكلترا بصورةٍ أكثر قسوة أيضاً، خلال شهر كانون الأول بكامله في العام ١٦٨٩، وطيلة شهر كانون الثاني للعام ١٦٩٠. ومن هنا، فإن البرد الكارثيّ الذي سُجّل ذلك الشتاء باعتباره "مشهوداً بالنسبة للفقراء"، وذلك على هوامش الكتاب المقدّس القديم لمصلى النون جيرورز(*) المشيخيّ في لندن. وبفضل المتانة المفيدة للرّق القديم الذي يرجع إلى العهد الملكي والمستخدم في السّجلات الرسميّة، فإن قوائم طويلة من المعوزين الذين عُثر عليهم موتى من الجوع والعري لا تزال مقروءةً اليوم في العديد من الفهارس المحليّة، وخصوصاً في جداول الدّخل الكنسي(٣٤) لكينك ليبرتي كورت لدسكرة ساوثويرك، ولي باودر كورت، وهذا معناه باحة الأقدام المعفرّة، والوايت شابيل كورت، والتي أقيمت في قرية ستابنيه على يدِ مشرف أعمال السّيد الإقطاعي. لقد تجمّد نهرُ التّايمز، وهذا ما لا يحدث مرّةً في كلّ قرن، فالجليدُ يتكوّن فيه بصعوبة بسبب اضطراب البحر. وقد تدحرجت العرباتُ على النّهر المتجمّد؛ وأُقيمت على التايمز معارضُ ذات خيام، ومصارعاتُ دببةٍ وثيران؛ وجرى فيها شيٌ ثورٍ كاملٍ على الجليد، ودامت سماكةُ الجليد هذه شهرين. وقد تخطّت سنة ١٦٩٠ في قسوتها حتى فصول الشتاء الشهيرة في بداية القرن السّابع عشر، والتي راقبها بدقةٍ الدّكتور جيديون دولون، والذي كرّمته مدينة لندن بتمثالٍ نصفي له قويعدة باعتباره عطّاراً للملك جاك الأول.

(*) رجال الكنيسة الذين رفضوا يمين الولاء للملك وليام والملكة ماري، عام ١٦٨٩. (م: ز.ع).

ذات مساءٍ وحوالي نهايةِ أحد أكثر النّهارات جليديّة في ذلك الشّهر، شهر كانون الثاني للعام ١٦٩٠، كان يحدث في أحد الجوينات العديدة غير المضيافة لخليج بورتلاند شيءٌ غير مألوف يجعل النوارس وإوز البحر تحوّم في مدخل ذلك الجوين، ولا تجرؤ على الدّخول.

في ذلك الجون الصغير الذي هو أكثر جوينات الخليج كلّها خطورةً، حين تسيطر بعض الرِّياح، ويغدو نتيجةً لذلك هو الأكثر عزلةً، وسهولةً، بسبب خطره ذاته، على السّفن التي تختبئ، كانت سفينةٌ صغيرة، راسيةً على الشاطئ الصخري تقريباً، بفضل الماء العميق، تربط قلسها برأس صخرةٍ. إننا نخطئ إذ نقول هبط الليل، وكان ينبغي أن نقول الليل يصعد، لأن الظلّمةً إنما تأتي من الأرض. كان قد حلّ الليل في أسفل الشاطئ الصّخري، لا يزال هناك ضوءٌ في الأعلى ومنٍ كان قد اقترب من السفينة المربوطة بالقلوس، كان يمكنه أن يتعرّف هوركةً بيسكيّة.

أما الشّمسُ التي كانت تخفيها سحبُ الضّباب طيلة النهار، فكانت قد غابت. وكان المرء يشعر بذلك القلق العميق والأسود الذي يمكن أن نسميّه حَصَرَ الشّمس الغائبة.

كان ثمة استثناء سعيد، في الشّتاء خصوصاً. فجوينات بورتلاند هي تقريباً مراسٍ رملية دوماً. والبحرُ يكون مضطرباً فيها كثيراً في أوقات الهياج، ويلزم الكثير من المهارة والنظاميّة في العمل للعبور بأمان. إن هذه الموانئ الصغيرة الظاهريّة أكثر مما هي حقيقيّة، تقدّم خدمةً رديئة. فمن المرعب الدّخول إليها، ومن المخيف الخروج منها. وفي ذلك المساء، لأمرٍ غير مألوف لم يكن هناك أيُّ خطر.

إن الهوركة البيسكيّة هي قالبُ سفينةٍ قديم بطلَ استعماله، وهذه الهوركة التي أدّت خدمات حتى للبحريّة العسكريّة، كانت هيكل سفينة قويّاً، فهي مركبٌ من حيث الحجم، وسفينة من حيث المتانة، وكانت موجودةً في أسطول الأرمادا، والحقيقة أن الهوركة الحربية كانت تحملُ زناتٍ كبيرة. وهكذا فإن السّفينة القبطانيّة غران غريفّون (العنقاء الكبرى) التي ركبّها لوب دو ميدينا،

كانت سعتها ست مئة وخمسين برميلاً وتحملُ أربعين مدفعاً: أما الهوركة التجاريّة والتهريبيّة؛ فقد كانت ذات قياسات صغيرة جداً(٣٥) وكان الملاّحون يقدّرون ويعدّون هذا المقياس هزيلاً. وكانت حبال الهوركة مكوّنة من طويقاتٍ من القنب، وبعضُها نواتُه من الأسلاك الحديدية، وهذا ما يدلّ على قصدٍ محتمل، مع أنه قلمّا هو علميّ، للحصول على مؤشراتٍ في حال التوتّر المغناطيسيّ؛ فقد كانت رهافةُ هذا التجهيز لا تنفي إطلاقاً قلوسَ العمل الضّخمة، وماكنات القوانس الإسبانية، وماكنات ثلاثيات المجاديف الرّومانية. كان مقبضُ الدّفّة طويلاً جدّاً، وهذا ما يعطيه ميزة ذراع رافعةٍ كبيرة، ولكن له سيئّة قوسٍ صغير يتطلب جهداً. وكان دولابا مغزل ضمن زمرتين في طرف مقبض الدّفة يصحّحان هذا العيب ويصلحان قليلاً هذا الفقد للقوّة. كانت البوصلةُ قد أُدخلت جيّداً ضمن حجرةٍ مربّعة تماماً، ومؤرجحة جيداً بوساطة إطارين نحاسيّين موضوعين كلّ منهما داخلَ الآخر بشكلٍ أفقيّ على مسامير صغيرة كما في مصابيح مفصل متحرك (كاردان). كان ثمة علم وحذق في بناء الهوركة، غير أنه كان علماً جاهلاً، وحذقاً همجيّاً. فالهوركة قد كانت بدائية مثل الشواطئية، والجذعيّة، فكانت نوعاً من الشواطئية من حيث الاستقرار، ونوعاً من الجذعيّة من حيث السّرعة، وكانت لها خاصيات بحرية فريدة، شأن كلّ الزوارق التي نشأت من غريزة القرصان، والصّيّاد البحري. لقد كانت صالحة للمياه المغلقة والمياه المفتوحة. وكانت مجموعة أشرعتها المدعّمة بحبال القنبّ تتيحُ لها الإبحار على نطاق ضيّق في الخلجان الصغيرة لمقاطعة أستوريا، والتي هي أحواض تقريباً، مثل بازاج (٣٦) على سبيل المثال، وكان بإمكانها، حين تبتعد في عرض البحر، أن تدور حول بحيرةٍ أو حول العالم؛ إنها سفنٌ شراعية فريدة لغايتين، فهي صالحة للمستنقع، وصالحة للعاصفة. كانت الهوركة بين السّفن مثلما هو طيرُ الذّعرة بين الطيّور، إنه أحدُ أصغرها وأحدُ أكثرها جسارةً. إن طير الذّعرةِ إذا كان جاثماً، لا يكاد يلوي قصبة، وإذا طار، يجتاز المحيط.

إن الهوركة البيسكية، وحتى الأكثر فقراً منها، كانت مذهّبةً ومدهونة. إن ذلك الوشم موجودٌ في إبداع تلك الشعوب الرائعة والمتوحشة قليلاً. إن

البرقشة المهيبة لجبالهم المقسّمة إلى مربّعات من الثلوج والمروج تكشف لهم عن فتنة الزخرفة الوعرة مع ذلك، إنهّم معوزون ورائعون ويضعون شعاراتهم على أكواخهم. ولديهم حميرٌ كبيرة الحجم يزوّقونها بالجلاجل، وثيران كبيرة يغطوّن رؤوسها بالرّيش، وعرباتهم التي تُسمع عجلاتُها تصرُّ على بعد فرسخين، مزخرفة، ومنقوشة بالحفر، ومزيّنة بالأشرطة. هناك إسكافٌ لديه نقش بارز على بابه؛ إنه سان - كريبان ونعلٌ قديم، ولكنه من الحجر. إنهم يضعون شرائط على سترهم الجلديّة. ولا يعيدون خياطة السّمل، بل يطرّزونه. إنه مرحٌ عميق ومتعال. إن الباسكيين، شأن الإغريق، أبناء الشمس. وفي حين يتلفّع الفالنسيّ عارياً وحزيناً في غطائه الصّوفيّ الأصهب والمثقوب من أجل مرور الرأس، فإن أهل غاليسيا وبيسكايا يبتهجون بالقمصان الجميلة والنسيج الكتانيّ الذي يُنظّفُ في النّدى. إن عتباتهم ونوافذهم تغصُّ بالوجوه الشّقر والغضّة. والتي تضحك تحت أكاليل الذّرة. إن صفاءً جذلاً وفخوراً يتألق في فنونهم السّانجة، وفي صناعاتهم، وفي عاداتهم، وفي تبرّج بناتهم، وفي أغانيهم. إن الجبل، هذا المسكن المتداعي الهائل، يكون في بيسكايا ساطعاً بكامله، فالأشعّة تدخل إليه وتخرج منه عبر الفتحات كلّها. إن جاييزكيفيل المخيفة ملأى بالغزليّات، وبيسكايا هي نعمةُ البيرينيه مثلما تعتبر السّافوا نعمة الألب. إن الخلجان الصّغيرة المخيفة التي تجاوزُ سان - سيباستيان، وليوز ومونتارابي تخلط الأعاصير، والسّحائب الجشّاء، والزّبد، من فوق الرّؤوس، وضروب غضب الموج والرّيح، والذّعر، والصخب، وبالزّوارق المكلّلة بالورود. إن من رأى بلاد البسك يرغب في أن يراها ثانية. إنها الأرض المباركة. إن فيها موسمي قطاف في العام، وقرى مرحة وصاخبة، وفقراً شامخاً. وكلّ نهار أحد، فيها صوتُ قيثارات، ورقصاتٌ، وصنّاجاتٌ، وغراميّات، ومنازلُ نظيفة، ولقالقُ في قباب الأجراس.

لنعُد إلى بورتلاند، جبل البحر الوعر.

إن شبه جزيرة بورتلاند، إذا ما نُظر إليها من مستوى هندسيّ، تُظهرُ مشهدَ رأسِ عصفور يستديرُ نحو المحيط، وقفا رأسه نحو فيموث، ويشكل البرزخ عنقه.

إن بورتلاند موجودة اليوم من أجل الصّناعة، كتعويضٍ كبيرٍ عن خسارة وحشيّتها. فقد اكتشف سواحل بورتلاند أصحابُ المقالع والجصّاصون عند منتصف القرن الثّامن عشر. ومنذ ذالك العهد، يصنعون من صخرة بورتلاند ملاطاً يسمّونه بالملاط الرّوماني، وهو استثمارٌ مفيدٌ يُغني المنطقة ويُشوّه شكل الجون. ومنذ مئتي عام، كانت تلك السّواحل مهدّمةً مثل شاطئ صخريّ، وهي اليوم مهدّمةٌ مثل مقلع؛ فالمعولُ يقضمُ على نطاقٍ ضيّق، والموجُ على نطاقٍ واسع؛ ومن هنا يأتي تضاؤلٌ في الجمال. لقد أعقبَ تبديدَ المحيط العظيم قطعُ الإنسان المنتظم. وهذا القطعُ المنتظم قد أزال الجون الذي كانت تُربط فيه قلوسُ الهوركة البيسكيّة. ولكي نعثر على بقايا هذا المرسى الصّغير المدمّر، لا بدّ من البحث في السّاحل الشّرقي لشبه الجزيرة، باتجاه الرأس، وفيما يتعدّى فوليّ - بييه وديردل بييه، وحتى فيما يتعدّى فاكنهام، بين المكان المسمّى شيرش - هوب، والمكان المسمّى ساوثويل.

إن الجون، المسوّر من كلّ الجهات بانحداراتٍ وعرة عالية أكثر مما هي عريضة، كان يجتاحُه المساءُ من دقيقةٍ لأخرى بصورة متزايدة؛ وكان الضبابُ العكرُ، الجديرُ بالشفق، يتكاثفُ فيه؛ فكان ذلك أشبه ما يكون بفيضٍ من الظلمة في قعر بئر. وكان منفذ الجون إلى البحر، ذلك المعبر الضيّق، يرسمُ في ذلك الدّاخل الليليّ تقريباً، والذي كان الموج يتحرّك فيه، شقّاً مبيّضاً. وكان لا بدّ للمرء أن يكون قريباً جدّاً ليلمح الهوركة المربوطة قلوسها بالصّخور، وكأنّها مخبّأة في معطف عتمتها الكبير. وكان لوحٌ خشبيٌّ ملقى على حافةِ بروزٍ خفيض ومسطح للسّاحل الصّخري، وهو النقطة الوحيدة التي يمكن للمرء أن يوطدّ قدمه فيها، وكان يجعلُ القارب على اتصالٍ بالأرض. وكانت أشكالٌ سوداء تسيرُ وتتلاقى على ذلك الجسر المزعزع، في تلك الظلّمات، وكان ثمة أناس يُبحرون.

كان الجوّ بارداً في الجون أقلّ ما هو في البحر، بفضل ستارةِ الصّخور المنتصبة في شمال ذلك الحوض. ولم يكن ذلك النقصانُ يحول دون أن يرتعد هؤلاء الناس برداً. فأخذوا يسرعون.

إن تأثيرات الشّفق تبرزُ الأشكال بصورة فظّة؛ فكانت بعضُ التّخريمات في ملابسهم مرئية، وتظهر أن هؤلاء النّاس كانوا ينتمون إلى الطبقة المسمّاة في إنكلترا The ragged أي برثيثي الثّياب.

كان المرء يميّز بصورةٍ مبهمة تلوّي أحد المعابر في تضاريس السّاحل الصّخريّ. إن فتاةً تدعِ رباطها يعلقُ وينسحبُ على مسند مقْعد ترسم، عن غيرِ ارتياب منها، كلّ معابر السّاحل الصخريّ والجبال تقريباً. إن معبر ذلك الجون، المليء بالعقد والعقفات العموديّة تقريباً والذي هو بالنسبة للماعز أفضل ممّا هو النّسبة للنّاس، كان يؤدّي إلى المصطبة التي يقع فيها اللوحُ الخشبيّ. إن معابرَ السّاحل الصّخري عادة ذات تحذُّرٍ مغرٍ: إنها تقدّمُ نفسها كطريق أقلّ مما تقدّمها كمسقط؛ إنها تنهارُ أكثر مما تنزل. وهذا المعبر، الذي هو تفرّعٌ محتملٌ لطريق ما في السّهل، كان النّظر إليه غير مُستحبّ، لفرط ما كان عموديّاً. كان يُرى من الأسفل وهو يصلُ متعرّجاً إلى الأسس العالية للسّاحل الصّخري الذي كان ينفذ منه إلى السّهل الأعلى عبر انهدامات معيّنة، ومن خلال صدعٍ في الصّخر. ومن ذلك المعبر إنما يُفترض أن يكون قد أتى المسافرون الذين كان القارب ينتظرُهم في ذلك الجون.

وحول حركة الإبحار التي كانت تجري في الجون، وهي حركةٌ مذعورة وقلقة، بصورةٍ جليّة، كان كلّ شيء منعزلاً. لم تكن تُسمعُ خطوة ولا ضجّة، ولا نفس. كان المرء يلمح بصعوبة من الجانب الآخر من المرسى، وعند مدخل جون ريندستيد، أسطولاً صغيراً، تائهاً بصورةٍ واضحة، ومؤلّفاً من مراكب لصيد سمك القرش. إن هذه المراكب القطبيّة كانت قد طُردت من المياه الدّانمركيّة إلى المياه الإنكليزية بسبب غرائب البحر. وقد كانت الرّياحُ البارِدةُ الشّمالية القطبية تقوم بمثل تلك الحيل على الصّيادين. فكان هؤلاء الصّيادون يأتون ليلتجئوا إلى مرسى بورتلاند، وهذه علامة على الطقس السّيء الذي يخمنوّن حدوثه، وعلى الخطر في عرض البحر. لقد كانوا منشغلين بإلقاء المرساة. وكان المركبُ الرّئيس، الموضوع بصورة بارزة حسب عادة الأساطيل الصغيرة النروجيّة، يرسم بلون أسود كلّ عنقه على بياض البحر المسطّح، وكان المرء يرى في مقدمته مشعبَ الصّيد الذي يحمل كلّ أنواع

الكلاّبات والخطّافات المخصصة للـ Seymnus glacialis وللـ[*] Squalus acanthias وللـ Squalus spinax niger والشبكة لاصطياد سمكة القرش الكبيرة. وباستثناء هذه القوارب المعدودة التي أزيحت كلهّا إلى الزاوية نفسها، فإنّ العين، في أفق بورتلاند الواسع هذا، لم تكن تصادف شيئاً حيّاً. لا منزلاً، ولا سفينة أما السّاحل، في ذلك الزمن، فلم يكن مأهولاً، والمرسى في ذلك الفصل، لم يكن صالحاً للسّكنى.

وأيّاً كان مظهرُ الطقس، فإن الكائنات التي كانت الهوركة البسكيّة تقلها لم تكن تحثّ الخطى على نحوٍ أقلّ. لقد كانوا يشكلّون على شاطئ البحر نوعاً من جماعةٍ مشغولة ومختلطة، وذات تحرّكات سريعة. وقد كان تمييزٌ أحدهما عن الآخرِ صعباً. ومن المتعذّر على المرء أن يرى إن كانوا شيباً أم شباناً. كان المساء المبهم يخلطُهم ويموّهُهم. أما الظلُّ، ذلك القناع، فقد كان على وجوههم. لقد كانوا أخيلةً من الليل. وكانوا ثمانية، وربما كان بينهم امرأة أو امرأتان يصعب تعرّفهن تحت التمزّقات والخرق التي كانت الجماعة كلهّا ملتفّة بها، إنها أزياءٌ مضحكة لم تعد تُعتَبر ملابس نسائية أو ملابس رجاليّة. إن الأطمار ليس لها جنس.

كان ثمة ظلّ أقصر، يذهب ويجيء بين الظّلال الطويلة، ويدلُّ على قزمٍ أو على طفل. لقد كان طفلاً.

(*) أنواع من أسماك القرش (م: ز).

II
عزلة

إذا ما راقب المرء عن كثب، هاكم ما كان يمكنه أن يلاحظ.

كان الجميع يرتدون دثارات مقلنسة طويلة، مثقّبة ومرقّعة، ولكنّها مجوّخة، وتخبّئهم عند الحاجة حتى العيون، وهي صالحة ضدّ ريح الشّمال والفضول. وتحت هذه الدّثارات كانوا يتحركون برشاقة. كان معظمُهم يغطي رأسه بمنديل يلتفّ حول الرأس. وهو نوعٌ من أصلٍ أولي تبتدئ العمامة به في إسبانيا. ولم يكن في تلك العمرة شيءٌ يبعث على الاستهجان في إنكلترا. كان جنوبُ فرنسا، في ذلك العهد، على الدُّرجة المتبعة في الشمال، وربما كان يرجع إلى أن الشّمال كانت له الغلبة على الجنوب، لقد انتصر عليه وهو يُبدي إعجابه به. وبعد هزيمة الأرمادا، أصبحت اللغة القشتاليّة عند إليزابيت رطانةَ البلاط الأنيقة. كان الكلامُ بالإنكليزية أمراً صادقاً 'Shocking'. إن احتمالاً قليلاً لأخلاق أولئك الذين تُفرض عليهم سلطة القانون قد كان عادة لدى المنتصر الهجميّ بمواجهة المهزوم المهذب، فالتّتري يتأمل الصيني، ويقلّده. وهذا هو السببُ في أن الدُّرْجات القشتاليّة كانت تلجُ إلى انكلترا؛ وبالمقابل، فإن المصالح الإنكليزية كانت تتسلّل إلى إسبانيا.

كان لأحد رجال المجموعة التي كانت تبحر هيئةٌ زعيم، لقد كان يحتذي ألبارغات(٣٧) ويتبهرج برثيث الثياب المحبّكة بالقيطان والمذهّبة، وبصدرة من ورق الشبه(٣٨)، والتي تلتمع تحت دثارة المقلنس، مثل بطن السّمكة. وكان هناك رجلٌ آخر يخفض على وجهه قبعةً من اللّباد مفصّلةً على شكل قبّعة عريضة (صمبريرة). لم يكن لتلك القبعة اللبديّة ثقبٌ من أجل الغليون، وهذا ما كان يدلّ على رجلٍ متعلّم.

أما الطفل، من تحت أسماله، فقد كان يرتدي زيّاً غريباً هو عباءة نوتي تنزل حتى ركبتيه، حسب المبدأ الذي يرى أن سترة رجل هي معطف طفل.

كانت قامته تجعل المرء يخمّن بأنه صبي بين العاشرة والحادية عشرة من عمره. وكان حافياً.

كان طاقم الهوركة مكوّناً من قائد مركب وبحاريّن.

كانت الهوركة على ما يبدو آتيةً من إسبانيا وهي عائدة إليها. وكانت تقوم، من غير أدنى شكّ ومن جهةٍ إلى أخرى، بمهمة سرّيّة.

أما الأشخاص الذين تنقلهم فكانوا يتهامسون فيما بينهم.

كانت الوشوشة التي يتبادلها هؤلاء الأشخاص مختلطة. فتارة كلمةً قشتاليّة، وتارة كلمةً ألمانيّة، وتارةً كلمة فرنسيّة، وأحياناً لغةً غاليّة، وأحياناً باسكيّة. كان ذلك لهجة إقليمية، إن لم تكن أرغة(*).

كان يبدو أنهم من كلّ الأمم، ومن العصابة نفسها.

كان الطاقمُ ربّما من جماعتهم؛ فقد كان هناك تواطؤ ما في هذا الإبحار.

كانت تلك الجماعةُ المبرقشة تبدو وكأنها صحبةٌ من الرّفاق، ولربّما عددٌ كبير من الشركاء.

ولو كان هناك ضوءٌ أكثر بقليل، للاحظ المرءُ أن هؤلاء الناس يحملون سبحاتٍ، ويرتدون كتفيّات رهبانيّة مخفيّة جزئيّاً تحت أسمائهم. وكان أحدُ أشباه النّساء المختلطات بالجماعة، كان يحملُ سبحةً ورديّةً تشبه تقريباً ورديّة الدّرويش من حيث حجم حبّاتها. ويسهل تعرُّفها كورديّةٍ ايرلنّدية من لانيمنيفري، والتي نسميّها أيضاً لانداديفري.

ولو كانت هناك عتمةٌ أقلّ، لأمكن للمرء كذلك أن يلاحظ، تمثالاً لنويستر سينيورا (سيّدتنا) وللنّينو (للطّفل) منحوتاً ومذهّباً في مقدّمة الهوركة. ولربّما كانت نوتردام الباسكيّة، والتي هي نوعٌ من باناجيا(٣٩) المرتلين القدماء. وتحت ذلك الشّكل، كان هناك قفصٌ للإضاءة، ويقومُ مقامَ دمية جؤجؤ السّفينة،

(*) الأرغة: لغة هي رطانة تخصّ مهنةً معينة، إلخ.. (م: ز.ع).

ولم يكن مشغلاً في تلك اللحظة، لمزيد من الحذر الذي كان يدلّ على اهتمام أقصى بالتخفّي. وكان لذلك القفص الضّوئي غايتان بشكلٍ واضح؛ فحين كان يضاء، كان يضيءُ للعذراء ويُنيرُ البحرَ، مثل فانوسٍ يؤدي دورَ شمعة.

إن شفرة البحر الطويلة والمحنيّة والحادّة تحت صاري المقدمة المائل، كان يخرج من الأمام مثل رأس الهلال. وعند بدايةِ شفرة البحر، وعند قدميّ شكل العذراء، كان يجثو ملاكٌ يستندُ إلى صدر السّفينة، وجناحاه مطويّان وينظرُ إلى الأفق بمنظار.

- كان الملاك مذهباً مثل تمثال السّيدة العذراء (نوتردام).

وكان في شفرة البحر ثقوبٌ وفتحاتٌ لتسمح بمرور الأمواج، وهي فرصةٌ للتّذهيب والزّخارف.

تحت شكل نوتر دام، كانت تُكتبُ بحروف كبيرة مذهّبة كلمة ماتوتينا(٤٠) Matutina وهي اسم السفينة، غير المقروء في تلك اللحظة بسبب العتمة.

وفي أسفل السّاحل الصّخري، كانت توضعُ بشكلٍ فوضويّ، وفي اختلاط الحابل بالنّابل أثناء الانطلاق، الحمولةُ التي كان المسافرون يحملونها، والتي كانت تعبرُ سريعاً من الضّفّة إلى القارب، بفضل اللوح الخشبيّ الذي يُستخدم كجسر، أكياسٌ من البسكويت، وبرميل من السّمك المخزّن(٤١)، وعلبة الحساء المحمول، وثلاثة براميل، برميل من الماء العذب، وبرميل من مالت الشعير، وبرميل من الزفت، وأربع أو خمس زجاجات من المزّر(*) ومشجب عتيق محزوم بزنانير، وحقائب، وصناديق، وحزمة من مشاقات الكتان للمشاعل والإشارات، كانت تلك هي الحمولة. كان هؤلاء الرّثيثو الثياب يحملون حقائب، وهذا ما كان يبدو أنّه يدلّ على حياةٍ مترحّلة؛ فالصّعاليك المترحّلون مجبرون على امتلاك شيء ما. إنّهم يودّون أن يطيروا كالعصافير، ولكنهم لا يقدرون إلاّ إذا تخلّوا عن كسب عيشهم. ولديهم

(*) هي جعة انكليزية خفيفة. (م: ز. ع).

بالضرّورة صناديقُ عدّة، وأدوات عمل، أيّاً كانت مهنتُهم المتجوّلة. فقد كان هؤلاء الناس يصطحبون معهم هذا المتاع، والذي يربكُهم في غير مناسبة.

لا بدّ أنّه لم يكن يسيراً أن يجلبوا هذا التّرحيل لمتاعهم إلى أسفل ذلك السّاحل الصّخري؛ فقد كان هذا يكشف إضافة إلى ذلك عن نيّةٍ للرّحيل النّهائي.

لم يكونوا يضيعون الوقت؛ فقد كان ذلك عبوراً متواصلاً من الضّفّة إلى القارب، ومن القارب إلى الضّفّة، وكان كلٌّ واحد يؤدّي نصيبه من العمل؛ فكان هذا يحمل كيساً، والآخر صندوقاً. أمّا النّساء الممكنات أو المحتملات في هذا الاختلاط فكنّ يشتغلن كالآخرين. وكان يجري إرهاقُ الطفل بالعمل.

أمّا إن كان لهذا الطفّل في هذه الجماعة أبٌ وأمٌ، فهذا أمرٌ مشكوكٌ فيه. وكانوا لا يتعاملون معه وكأنّ له وجوداً. كانوا يجعلونه يشتغل، ولا شيء أكثر. كان لا يبدو كطفلٍ في أسرة، بل كعبدٍ في قبيلة. كان يخدم الجميع، ولم يكن أحدٌ يكلّمه.

فضلاً عن هذا، فقد كان يتعجّل، ومثل كلّ تلك الجماعة الغامضة التي يشكّل جزءاً منها. كان يبدو أنه ليس لديه إلاّ فكرةٌ واحدة، هي الإبحار بسرعة. فهل كان يعلمُ لماذا؟ ربّما لا. كان يسرع بصورةٍ آليّة لأنه كان يرى الآخرين يسرعون.

كانت الهوركة قد جُسرت. وكان ربطُ الحمولة بالركيزة قد تمّ بسرعة. ولحظة الولوج إلى عرض البحر قد أتت. كان الصّندوقُ الأخير قد حُمل إلى السّطح، ولم يبق إلاّ تحميل الناس. إن الشخصين الاثنين من تلك الجماعة واللذين كانا يبدوان امرأتين قد أصبحا على متن القرب؛ وستةُ أشخاص، بينهم الطّفل، كانوا لا يزالون على سطيحة السّاحل الصّخري الخفيضة. بدأت حركةُ الانطلاق في السّفينة، وأمسك الرّبان بالدّفّة، وأمسك بحارٌ ببلطةٍ لقطع حبل الرّسو. إن القطع، هو علامة العجلة؛ وحين يكون هناك وقت، تحلّ العقدة، Andamos. كما قال بصوتٍ خافت ذلك الذي كان يبدو أنه القائد بين السّتة، والذي يضع ترتراً فوق أسمأله. هرع الولد إلى اللّوح الخشبيّ ليكون أوّل من

يعبر. وما إن وضع قدمه عليه، حتى هجم رجلان، فدخلا قبله، وكادا يلقيان به في الماء، وأبعده ثالثٌ بمرفقه، وعبر، ودفعه الرابع بقبضته، ولحق بالثالث، أما الخامس الذي كان الرئيس، فقد قفز إلى القارب قفزاً بدلاً من الدخول إليه. وحين قفز إليه، دفع بعقبه اللوّح الخشبّي الذي سقط إلى البحر، وقطعت ضربةٌ بلطةٍ حبلَ الرّسو، وانعطفت عصا القيادة، فغادرت السّفينة الضّفة، وبقي الطفل على البرّ.

III
وحدة

مكث الطفل بلا حراك على الصّخرة. وهو يحدّق بنظره. لم يناد إطلاقاً، ولم يحتجّ. وكان هذا غير متوقّع مع ذلك؛ ولم يقلْ كلمة. وكان في السّفينة الصّمتُ نفسه. وما من صرخةٍ من الطفل باتجاه هؤلاء الرّجال. وما من وداعٍ من هؤلاء الرّجال للطفل. كان هناك من الجانبين قبولٌ أخرس للمسافة المتزايدة. كان ذلك أشبه ما يكون بفراق أرواح الموتى الإغريق على ضفة الستيكس (نهر الجحيم). أما الطفل الذي كان وكأنه مسمّرٌ إلى الصخرة التي كان المدُّ العالي قد بدأ يغمرها، فقد نظر إلى القارب وهو يبتعد. وكأنه كان يفهم. ماذا؟ ماذا كان يفهم؟ العتمة.

بعد لحظة من الزمن، بلغت الهوركة مضيقَ الخروج من الجون، ودلفت إليه. كان يُرى رأس الصّاري على السّماء الصافية، فوق الكتل المتصدّعة التي يتعرّج المضيقُ فيما بينها، بين سورين. وجال ذلك الرأسُ إلى أعلى الصّخور، بدا أنه ينغرزُ فيه. ولم يعدْ يُرى. فقد انتهى الأمر. واتجه المركبُ إلى البحر.

نظر الطفلُ إلى ذلك التلاشي.

وكان مذهولاً، ولكنه كان حالماً.

أخذ ذهولُه يتفاقم بمعاينةٍ قاتمةٍ منه للحياة. كان يبدو أن هناك تجربة في ذلك الكائن المبتدئ. ولربّما يكون قد بدا يحاكمُ الأمور. إن الامتحان الذي يصل مبكراً جداً، يبني أحياناً في أعماق التفكير الغامض عند الأطفال ميزاناً رهيباً لا ندري ما هو، وبهذا الميزان تزنُ هذه النفوسُ الصّغيرة الرّب.

إن ذلك الاستبعاد المفاجئ الذي أجروه ضدّه لم ينتزع منه حركةً واحدة حتى. لقد نشأ لديه نوعٌ من تصلّب داخلي. وتحت ذلك التعدّي المفاجئ للقدر والذي كان يبدو أنه يصنع خاتمةً لوجوده قبل بدايته تقريباً، لم ينثن الطفل، وتلقىّ تلك الضربة الصّاعقة واقفاً.

كان من الجليّ، لمن كان يمكنه أن يرى دهشته دون ضنى، ألاّ شيء يحبّه، وأنه لا يحبّ شيئاً، في تلك الجماعة التي تخلّت عنه.

وإذْ كان متفكرّاً، فقد نسي البرد. وفجأةً بلّل الماءُ قدميه. وأخذ المدّ يصعد، ومرّ نَفَسٌ في شعره. وكانت ريحُ الشّمال تهبُّ، فارتعش. وأحسّ من رأسه إلى قدميه بتلك الرّجفة التي هي اليقظة.

ونظر حوله.

وكان بمفرده.

حتى تلك اليوم، لم يكن هناك بالنسبة إليه رجالٌ آخرون غير أولئك الذين كانوا في تلك اللحظة في الهوركة. وهؤلاء الرّجال قد تواروا منذ قليل.

لنضفْ، وهذا أمرٌ بيانُه فيه غرابة، أن هؤلاء الرّجال، الوحيدين الذين عرفهم كانوا مجهولين لديه.

ولم يكن باستطاعته أن يقول من كان هؤلاء الرّجال.

كانت طفولته قد انقضت بينهم، من غير أن يتكوّن لديه شعورٌ بأنّه منهم. لقد كان متجاوراً معهم، ولا شيء أكثر.

لقد نسوه لتوّهم.

ولم يكن يحمل نقوداً، وليس لديه حذاء في قدميه، ولا يكاد يسترُ جسمَه برداء، ولم تكن لديه حتى قطعة خبز في جيبه.

كان الفصل شتاء، وكان الوقت مساء، ولا بدّ من السّير بضعة فراسخ قبل الوصول إلى مسكن بشريّ.

كان يجهلُ أين هو.

لم يكن يعرف شيئاً، إلا أن أولئك الذين أتوا وإياه إلى ساحل ذلك البحر قد مضوا من دونه.

كان يشعر أنه قد وُضع خارج الحياة.

وكان يشعر أن الإنسان ينهار تحته.

كان عمره عشرة أعوام.

كان الطفل في صحراء، بين أعماقٍ يرى صعود الليل فيها وأعماقٍ يسمع فيها هدير الأمواج.

مطّ ذراعيه الصغيرتيْن النّحيلتين وتثاءب.

ثم، وفجأة، ومثل شخص يتّخذ قراره بجسارة، ويتنشّط، وبخفّة سنجاب - ومهرّج ربّما - أدار ظهره للجون، وأخذ يصعد على طول السّاحل الصّخريّ. لقد تسلّق المعبر، وتركه، ورجع إليه، وهو رشيقٌ، ومندفعٌ في مخاطرته. وكان يسرع آنذاك باتّجاه الأرض. وكأنما كان لديه مسارٌ معيّن. ومع ذلك، فهو لم يكن يذهب إلى أيّ مكان.

كان يسرعُ من غير هدف، وكأنه ضربٌ من هارب أمام مصيره.

الارتقاء للإنسان، أما التّسلق فللحيوان. لقد كان يرتقي ويتسلّق. وبما أن الانحدارات الوعرة لبورتلاند كانت تستديرُ إلى الجنوب، فلم يعدْ هناك ثلجٌ تقريباً في المعبر. إن حدّة البرد كانت قد صنعت من هذا الثّلج غباراً فضلاً عن ذلك، وهو غير مريح للسّائر. وكان الطفل يتخلّص منه. وكانت السّترة الرّجالية التي يرتديها. والمفرطة الاتّساع بالنسبة إليه، كانت تعرقله، وتزعجُه. ومن وقتٍ لوقت، كان يصادفُ على ميلٍ معين أو على تحدّرٍ قليلاً من الجليد الذي يجعلُه يقع. وكان يتشبّثُ بغصنٍ جافٍ أو بروزٍ حجريّ، وبعد أن تعلّق لبضع لحظات فوق الهوّة. وذات مرّة، صادف خطأً في صدع قد انهار فجأة تحته، فسحبه معه أثناء انهدامه. إن تلك الانهيارات في الصّدع غادرة؛ فانزلق الطفل لثوانٍ معدودة مثل انزلاق آجرّةٍ على سطح؛ وتدحرج حتى حافّة السّقوط القصوى، وقد أنقذته طاقةُ عشبٍ أمسك بها في الوقت المناسب. لم يصرخ أمام الهوّة أكثر مما صرخ أمام الرّجال. لقد تجلّد، وعاد

إلى الصّعود صامتاً. وكان الانحدارُ الوعرُ عالياً. وهكذا، فقد حدثت له بضعة حوادث طارئة. وكانت الهوّةُ تزيد العتمة خطورة. ولم تكن لتلك الصّخرة العمودية نهاية. كانت تتراجع أمام الطفّل في عمق الأعالي. وكلّما كان الطفل يصعدُ، كان يبدو أن القمة ترتفع. وكان يتأمّل، أثناء تسلّقه، ذلك السّطح البارز الأسود، والموضوعَ مثل سدّ بين السّماء وبينه. ووصل أخيراً.

قفز إلى الهضبة. وقد نتمكن من أن نقول تقريباً إنه وصل إلى البّر، لأنه كان خارجاً من هوّة.

ما إن أصبح خارج المنحدر الوعر حتى أخذ يرتعشُ برداً. وقد أحسّ في وجهه بريح الشّمال، عضّة الليل هذه. كانت ريحُ الشمال الشّرقي الباردة تهبّ. فضمّ إلى صدره قطعة جنفيص البحّار.

لقد كانت لباساً جيداً. وهي تسمّى بلغة السفينة دثار الوقاية البحريّ: Suroit لأن هذا النّوع من الدرّاعات قليلاً ما يسمح باختراق أمطار الجنوب الغربي:

أما الطّفل الذي وصل إلى الهضبة، فقد وضع قدميه الاثنتين العاريتين بثباتٍ على الأرض المتجمدّة، ونظر.

كان البحرُ وراءه، وأمامه الأرض، والسّماء فوق رأسه.

ولكنها كانت سماء بلا كوكب. وكان ضبابٌ غيرُ شفاف يحجبُ السّمت.

حين وصل إلى أعلى جدار الصّخرة، ألفى نفسه يستدير إلى جهة الأرض، فتأمّلها. لقد كانت أمامه على مدّ البصر، متجمّدة، ومغطاةً بالثلج. وكانت بضعُ باقات من الخلّنج ترتعش. لم تكن تُرى طرقٌ، ولا أيُّ شيء. ولا حتى كوخ راعٍ. وكان المرء يلحظ هنا وهناك دوراناتٍ لأشكال حلزونيّةٍ داكنة كانت زوابعَ ثلجيّة ناعمة اقتلعتها الرّيح من الأرض، وتطايرت. كان يتثنى في الأفق تعاقبٌ لتموّجات الأرض والذي غدا مُضباً. وكانت السُّهول الكبيرة المغشّاة تضيعُ تحت الضّباب الأبيض. فالصّمتُ عميق، وكان ذلك يتسّع كاللانهاية، ويصمتُ كالقبر.

واستدار الطفّل نحو البحر.

كان البحرُ أبيض كالأرض، أحدهما من الثّلج والآخر من الزّبد. ولا شيء يثير الكآبة مثل النّهار الذي كان يصنعه ذلك البياضُ المضاعف. إن لبعض إضاءات الليل ألواناً من القسوة جدّ واضحة؛ فقد كان البحرُ فولاذيّاً، والصّخورُ السّاحليّة من الأبنوس. ومن العُلوّ الذي كان الطفلُ فيه، كان جون بورتلاند يتبدّى تقريباً وكأنه في خارطةٍ جغرافية، باهتاً من خلال هضابه التي تشكّل نصف دائرة؛ كان هناك حلمٌ في ذلك المشهد الليليّ. إن ثمّة استدارة شاحبة تنحصر في هلالٍ معتم، فالقمر يقدّم مثل هذا المظهر أحياناً. ومن رأسٍ لآخر، في كلّ ذلك السّاحل، ولم يكن المرءُ يلمحُ التماعاً واحداً يدل على موقدٍ مُشعَلٍ، أو نافذةٍ منارة، ومنزلٍ حيّ، وما من كوكب فوق. كان لتسطّحات الأمواج العريضة في الخليج، في هذا المكان أو ذاك، انتفاضاتٌ مفاجئة. فقد كانت الرّيحُ تشوّشُ ذاك السّماط وتغضّنه. وكانت الهوركة لا تزال مرئيّة في الجون، وهي تهربُ. كانت مثلثاً أسود ينزلق على تلك الدّكنة.

وفي البعيد، وبصورةٍ مشوّشة، كانت امتداداتُ الماء تتحرّك في الضّوء الخافت المشؤوم، ضوءِ الاتّساع الهائل.

كانت الماتونينا تنطلق بسرعة. وتتضاءل من دقيقةٍ إلى دقيقة. فما من شيء سريعٍ مثل ذوبان سفينةٍ في أقاصي البحر.

في إحدى اللحظات، أشعلت ضوء مقدّمها؛ ومن المحتمل أن تكون العتمة حولها مثيرة للقلق، وأن القبطان يحسّ بالحاجة إلى إنارة الموج. كانت تلك النقطة المضيئة، التي هي تلألؤ مرئيّ بعيد، تلتصق بصورةٍ محزنة بشكلها الأسود، العالي والطويل. وكأنها كفنٌ منتصبٌ يسيرُ في عرض البحر، ويجول تحته شخصٌ يحمل نجمة في يده.

في الجوّ، كان هناك حدوثٌ وشيك للعاصفة. ولم يكن الطّفل ينتبه لذلك، إنّما كان يمكن لبحّارٍ أن يرتعد. فقد كانت دقيقة قلقٍ مسبق يبدو فيها أن العناصر ستصير أشخاصاً، وأننّا سنشهدُ التحوّلَ الغامضَ لهيئة الرّيح إلى ريحٍ شمائل. سيغدو البحر محيطاً، وتتكشّف القوى عن كونها إرادات، وما نظنه شيئاً يكون روحاً. سنرى ذلك. ومن هنا يأتي الرُّعبُ. إن روحَ الإنسان تتهيّب من تلك المجابهة مع روح الطبّيعة.

إن شواشاً سوف يدخل. والرّيح التي تغضّنُ الضّباب، وتكدُّسُ السّحب وراءها، كانت تضع بيئة (ديكور) تلك المشجاة الرّهيبة، مشجاةِ الموج والشتاء والتي نسميّها بالعاصفة الثّلجيّة.

أخذت تظهر علامةُ السفن التي تؤوبُ إلى المرفأ. ومنذ بضع لحظات، لم يعد المرسى خالياً. وفي كلّ لحظة، كانت تبرزُ من الخلف رؤوسُ الزّوارق القلقة وهي تهرع نحو مكان الرّسو. كان بعضُها يتخطىّ بورتلاند بيل، والبعضُ الآخر سانت ألبانس هيد. ومن أكثر الأقاصي بعداً، كانت تأتي أشرعة. وكان هناك تسابقٌ على الهروب. وفي الجنوب، كانت العتمة تتكاثف، وتقترب الغيوم المحمّلة بالظلام من البحر. وكان ثقلُ العاصفة المهيمنة والمعلّقة يهدئ الموج بصورةٍ محزنة. ولم تكن اللحظةُ مناسبة للانطلاق، مع ذلك، فقد رحلت الهوركة.

كانت قد اتجّهت نحو الجنوب. وكانت قد أصبحت خارجِ الخليج وفي أعالي البحار. وفجأةً هبّت الرّيحُ الباردة على شكل زوبعة. وتغطّت الماتوتينا التي كان لا يزال المرءُ يميزها بوضوح شديد، تغطت بأشرعتها، وكأنها عازمة على الإفادة من الإعصار. كانت تلك الريح هي: النوروا (ريح شماليةَ) والتي كانوا يسمّونها قديماً بريح غاليّرن galerne، وهي ريحُ شمألٌ ماكرةٌ وغضبى. وسرعان ما بدأت ريحُ النوّروا تضرى على الهوركة. أما الهوركة، التي هوجمت جانبيّاً، فقد مالت، ولكنها لم تتردّد، وواصلت انطلاقها نحو عرض البحر. كان ذلك يدلّ على هروبٍ أكثر مما يدلّ على سفر، وعلى خشيةٍ من البحر أقلّ من الأرض، وعلى تَوجُّسٍ من ملاحقةِ الناس أكبر من توجّسٍ من ملاحقة البحر.

أما الهوركة التي مرّت عبر كلّ درجات التضاؤل، فقد غاصت في الأفق، والنجمة الصّغيرة التي كانت تجرّها في العتمة، قد بهتت. والهوركة التي كانت تندمج بالليل أكثر فأكثر، فقد توارت.

بدا أن الطفل على أيّة حال قد فهم ذلك. فكفّ عن النّظر إلى البحر، ورجعت عيناه إلى السّهول، والهضاب، وباتجاه تلك المساحات التي لم يكن متعذراً ربّما أن يلتقي شيئاً حيّاً فيها. فأخذ يسيرُ في ذلك المجهول.

IV
أسئلة

ماذا كان ذلك النوّعُ من عصابةٍ هاربةٍ تركت وراءها تلك الطّفل؟

هل كان هؤلاء الهاربون من أفراد الكومبرا شيكوس؟

لقد رأينا فيما سبق تفصيل التّدابير التي اتخذها غليوم الثّالث، وصوّت عليها مجلس النوّاب، ضدّ الجناة، رجالٍ ونساءٍ، والمدعوّين بالكومبرا شيكوس، والمدعوين بالكومبرابيكينيوس، والمدعوّين بالشيلاس.

هناك تشريعاتٌ تُشتّتُ. وهذا القانونُ الذي انقضّ على الكومبرا شيكوس قد سبب هروباً عامّاً، ليس للكومبرا شيكوس فحسب، بل للمشرّدين من كلّ لون.

فأصبح السّابق من يهرب ويبحر. ورجع معظمُ الكومبرا شيكوس إلى إسبانيا. وكان الكثيرون منهم، كما قلنا، باسكيّين.

كان لذلك القانون الذّي يحمي الطّفولة نتيجةٌ أولى مثيرةٌ للغرابة وهي: التّخلي عن الأطفال.

لقد أنتج هذا القانون الجزائيّ في الحال مجموعةً من الأطفال اللّقطاء، أي الضّائعين.

وما من شيء أيسر على الفهم من ذلك. لقد كانت كلُّ جماعةٍ مترحّلة تحتوي طفلاً مشتبهاً بها، وواقعةُ وجود الطّفل وحدها كانت تشي بها - فربّما يكونون كومبرا شيكوس. تلك كانت فكرة العمدة، ورئيس السّجن، وضابط الشّرطة الأولى. ومن هنا تأتي توقيفاتٌ وتحرّيات. وكان أناسٌ بؤساء بكلّ بساطة، وآل بهم الأمرُ إلى التسكّع، وإلى التسوّل، قد انتابهم الرّعب من أن يُعتبروا كومبرا شيكوس، ومع أنّهم ليسوا كذلك، ولكن الضّعفاء قلّما يكونون

مطمئنين من أخطاء العدالة الممكنة. إضافة إلى أن العائلات المتشرّدة عادةً ما تكون مذعورة. إن ما كان يؤخذُ على الكومبرا شيكوس، هو استغلالُ أطفال الآخرين. غير أن تشوّشات الشّدة والعوز تصل إلى حدٍّ يصبح معه أحياناً من العسير على أبٍ وعلى أمٍّ أن يتبيّنا أن طفلهما هو طفلهما.

فمن أين أتيتما بهذا الطّفل؟ وكيف تثبتان أنه يجيء من الرّب؟ كان الطّفل يصبح خطراً: فيجري التّخلص منه. وكان الأسهل أن يهربا بمفردهما. وكان الأب والأم يقرّران إضاعة الطفل، في حرشٍ حيناً، وعلى ساحلٍ رمليٍّ حيناً، وداخل بئرٍ حيناً.

كانوا يعثرون على أطفالٍ غرقى في الخزّانات.

لنضفْ أن الكومبرا شيكوس قد كانوا، على غرار إنكلترا، ملاحقين مذ ذاك من أوروبا كلّها. كان تحريك مطاردتهم قد أُطلق. فما من شيءٍ مثل مبادرةٍ تُتّخذ. وأصبح هناك منذ ذلك الحين تنافسٌ بين كلّ قوى الشّرطة للقبض عليهم. ولم يكن قائد الشرطة الأسباني يرصدهم أقل مما كان الضّابط الانكليزي. وكان المرءُ لا يزال يقرأ، منذ ثلاثة وعشرين عاماً، وعلى حجرٍ في باب أوتيرو، كتابةً لا يمكن ترجمتها - إن المدوّنة في كلماتها تتجرّأ على النزاهة حيث يُشدَّد، فضلاً عن ذلك، بفارقٍ جزائي كبير، على التباين بين تجّار الأطفال، وسارقي الأطفال. وإليكم الكتابة باللغة الغشتاليّة الفظّة قليلاً:

Aqui quedan las orejas de los comprachicos Y las bolsas de los robaninos mientras que se van ellos al trabajode mar (42) وكما نرى، فالآذان، إلخ.... المصادرة لا تحول دون الأشغال الشّاقة. ومن هنا يأتي نداء الهرب بين المتشرّدين. وقد كانوا ينطلقون مرتعبين، ويصلون مرتجفين. وعلى كلّ ساحلِ أوروبا، كانت تجري مراقباتٌ خفيّة لوصول بضائعهم. وبالنسبة لعصابةٍ معينة، كان الإبحار برفقة طفلٍ متعذّراً، لأن الوصول إلى المرفأ مع طفل كان يكتنفه الخطر.

فإضاعةُ الطفل كانت تجري قبلاً.

فمن الذي لفظ الطّفلَ الذي لمحناه منذ قليل في ضوءِ قفار بورتلاند الباهت؟

إنهم الكومبرا شيكوس، على الأرجح.

V
الشّجرة التي ابتكرها البشر

كان يمكن أن يكون الوقت عند السّاعة السّابعة مساءً تقريباً. كانت الرّيح تخفت، وهذه علامة على ازدياد شدّتها المقبلة. وكان الطفلُ موجوداً على الهضبة الجنوبيّة الأبعد في رأس بورتلاند.

إن بورتلاند شبه جزيرة، غير أن الطّفل كان يجهلُ ماذا تكون شبه الجزيرة، ولا يعرف حتى هذه الكلمة، بورتلاند. لم يكن يعرف إلا شيئاً، وهو أنه يمكن للمرء أن يسير حتى يسقط. إن مفهوماً ما هو مرشد. ولم يكن لديه مفهوم معيّن. كانوا قد أتوا به إلى هناك، وتركوه هناك. هم وهناك، كان هذان اللّغزان يمثّلان كلّ مصيره. ولم يكن لديه إطلاقاً، على هذه الأرض، أيّةُ نقطة ارتكاز إلاّ كميةُ الأرض الصّغيرة التي كان يضع فيها عقبه. وهي أرضٌ قاسية وباردة بالنسبة لعري قدميه. وفي هذا العالم الكبير الشّفقيّ المفتوح من كلّ جهة، ماذا كان هناك لذلك الطّفل؟ لا شيء.

كان يسير نحو هذا اللاّشيء.

كان تخلّي الناس الهائل عنه يحيط به.

اجتاز قطرياً الهضبةَ الأولى، ثمّ الثّانية، ثم الثّالثة. وفي نهاية كلّ هضبة، كان الطفل يجد تصدّعاً في التربة، وكان الانعطاف وعراً أحياناً، ولكنه قصيرٌ دوماً والسّهول العالية العارية لرأس بورتلاند تشبه بلاطات كبيرةً محصورٌ بعضها جزئياً تحت البعض الآخر. وتبدو الجهة الجنوبيّة داخلة تحت السّهل السّابق، والجهة الشمالية ترتفع على الجهة التالية. كان ذلك يشكّل نتوءاتٍ يجتازها الطّفل برشاقة. ومن وقت لوقت، كان يوقف سيره،

ويبدو أنه يتشاورُ مع نفسه. كان الليل يصبح أكثر عتمة، ويتضاءل شعاعُه المرئيّ. ولم يعد يرى إلا على بعد خطوات.

توقّف فجأة، وأصغى للحظة من الزّمن، وهزّ رأسه هزّة رضاً على نحوٍ خفيّ واستدار بنشاط وتوجّه نحو ربوةٍ قليلة الارتفاع كان يلمحُها بشكلٍ مشوّش على يمينه، في تلك النقطة من السهل الأكثر قرباً من السّاحل الصّخري. وكان على تلك الرّابية شكلٌ يبدو وكأنّه شجرة في الضباب. كان الطفل قد سمع لتوّه ضجّةً من تلك الناحية، والتي لم تكن صوت الرّيح، ولا صوت البحر. ولم تكن أيضاً صرخةَ حيواناتٍ، فظنّ أن هناك أحداً.

أصبح في أسفل الأكمة، ببضع خطوات عريضة.

وكان هناك أحدهم فعلاً.

إن ما كان غير واضح في قمّة الرّبوة، أصبح الآن مرئياً.

كان شيئاً مثل ذراعٍ كبيرة خارجة من الأرض بشكلٍ مستقيم. وفي الطّرف الأعلى من تلك الذراع، نوع من سبابةٍ يسندها الإبهامُ من تحتها، وتستطيل أفقيّاً. إن تلك الذّراع، وذلك الإبهام كانا يرسمان على السّماء زاويةً قائمة. وفي نقطة التقاء ذلك النّوع من الإبهام كان هناك حبلٌ يتعلّق به شيءٌ أسود غيرُ واضح ولا شكل له. وهذا الحبلُ الذي تحرّكه الرّيح، يُحدثُ صوتَ سلسلة.

كان ذلك الصّوتَ هو الذي سمعه الطّفل.

وكان ذلك الحبل، إذا ما شوهد عن كثب، ما يُنبىء به صوتُه.

كان سلسلة. سلسلة بحرية ذات حلقاتٍ مصمتة جزئياً.

بهذا القانون الخفيّ، قانونِ الخلط الذي ينضّد في الطبيعة الظواهرَ فوق الوقائع، فالمكانُ، والسّاعةُ، والضّبابُ، والبحرُ المأسويّ، وألوانُ جلبةِ الأفق القصيّة الملأى بالرؤى. كان تتضافُ إلى ذلك الخيال، وتجعله هائلاً.

كانت الكتلةُ المرتبطةُ بالسّلسلة تُظهر تشابهاً مع غمد. وكانت مقمّطةً مثل طفل، وطويلةً مثل رجل. كانت في أعلاها استدارةٌ يلتفُّ طرفُ السّلسلةِ

حولها. وكان الغمدُ مشرّماً في جزئه السّفلي، وتخرج أشكالٌ مجردة من اللحم من تلك التمزّقات.

كانت نسمةٌ خفيفة تحرّك السّلسلة، وكان ما يتعلّق بالسلسلة يتذبذبُ بهدوء. كانت تلك الكتلة السّلبية تخضعُ لحركات المساحات الممتدّة المنتشرة. وكان فيها ذعرٌ لا ندري ما هو، فالرّعب الذي يشوّش حجومَ الأشياء ينزع عنها أبعادها تقريباً، ويترك لها محيطها، لقد كانت تكثيفاً لسوادٍ له مظهرٌ معيّن، كان فوقَها عتمةٌ، وفي داخلها عتمة، وكان ذلك فريسةً لتضخّم جدثيّ، فأوقات الشفق، وشروق القمر، ونزول الكوكبات وراء السّواحل الصّخرية، والأشياء العائمةُ في الفضاء، الغيوم، وكلٌّ دوّارة الرّياح، كانت قد انتهت إلى الدّخول في تكوين ذلك العدم المرئيّ،وكان ذلك الضّربُ من كتلةٍ ما معلّقةً في الرّيح من نوع اللاّشخصيّة المتناثرة في البعيد على البحر، وفي السماء، وكانت الظلمات تجهز على ذلك الشيء الذي كان رجلاً.

كان ذلك ما لم يعد موجوداً.

أن يكون الشخصُ بقيّةً، فهذا ما يُفلتُ من اللّغة البشرية. ألاّ يعود موجوداً، وأن يستمرّ، وأن يكون في الهوّة وخارجها، ويعود إلى الظّهور من فوق الموت، وكأنه غير غروق، ففي هذا قدرٌ معيّنٌ من المستحيل ممتزجٌ بوقائع كهذه. ومن هنا يأتي العصيُّ على الوصف. إن هذا الكائن - هل كان كائناً؟ - هذا الشّاهدُ الأسود، كان بقيّةً، وبقيّةً مخيفة. بقيّة مم؟ من الطّبيعة أولاً، ومن المجتمع بعد ذلك، صفراً وكُلاًّ.

كان انعدامُ الرّحمة المطلق قد وضعه تحت مشيئته. وكانت الضّروبُ العميقة للنّسيان، نسيان الوحدة تحيط به. لقد أُسلِمَ إلى مغامرات المجهول. وكان من غيرِ دفاعٍ ضدّ الظّلمة التي تصنعُ منه ما تريد. كان المعذّبَ إلى الأبد. وكان يكابد. كانت الأعاصير تعصف به. إنها وظيفةُ الهبوب المحزنة.

كان ذلك الشّبحُ هناك عرضةً للنّهب. وهو يقاسي هذا التّعدّي المرعب، التعفُّنَ في الرّيح من كلّ جانب. كان خارج شرعة التّابوت. وهو عرضةٌ للإفناء من غير راحة، ويتحوّل إلى رمادٍ صيفاً، وإلى طينٍ شتاء. وينبغي

للموت أن يكون له حجابٌ، وينبغي للقبر أن يكون احتشاماً. وهنا لا احتشامٌ ولا حجاب. التفسّخ الوقح وبشكلٍ معلن. ثمّة سفاهة في أن يُظهر الموتُ عمله. إنه يهينُ كلَّ أشكالِ سكينةِ العتمة حين يعمل خارج معمله، القبر.

كان ذلك الكائنُ الذي قضى مسلوخاً. إن سلخَ مسلوخٍ هو إجهازٌ لا رحمةَ فيه. لم يعد نخاعه في عظامه، ولم تعد أحشاؤه في بطنه، ولم يعد صوته في حلقومه. إن جثّة ما هي جيبٌ يقلبه الموتُ ويفرغهُ. فإن كان لديه أنا، فأين أصبحت هذه الأنا؟ ربما، هناك أيضاً. وكان التفكيرُ بالأمر شيئاً مؤثّراً. شيء هائم حول شيء مُغلّل. فهل يمكننا أن نتصوّر في العتمة بداءة كائن أكثر مأتميّة؟

ثمّة حقائق واقعة في هذا العالم هي مثل منافذ على المجهول، ويبدو خروجُ الفكر منها ممكناً، إليها يندفعُ الافتراض. إن للتخمين ما يحثُّ على الدّخول (٤٣) فإذا مرّ المرء في بعض الأماكن، وأمام بعض الأشياء، فلا يمكن له أن يفعل شيئاً سوى أن يتوقّف وهو فريسةُ الخيالات، وأن يترك ذهنه يتقدّم داخلها. إن في اللاّمرئيّ أبواباً معتمةً منفرجةً قليلاً. وما كان بوسعِ أحد أن يصادف هذا المتوفّى من غير أن يتأمّل.

كان التبعثرُ الواسعُ يستنفذه بصمت. كان لديه دمٌ قد شُرب، ولديه جلدٌ قد أُكل، ولحمٌ قد سرق. لم يمرّ شيءٌ من غير أن يأخذ منه شيئاً. فكانونُ الأول قد استعار منه برداً، ومنتصفُ الليل ذعراً، والحديدُ صدأً، والطّاعونُ أبخرتَهُ النتنة، والزهرة عطوراً. كان تفكّكه البطيء رسم مرور. رسم مرور الجثّة إلى الزّوبعة، وإلى المطر، وإلى النّدى، وإلى الزّواحف، وإلى الطّيور. إن كلّ أيدي الليل المعتمة قد نبشت هذا الميت.

لقد كان ساكناً غريباً لا ندري ما هو، ساكن الليل. كان في سهلٍ وعلى هضبة. ولم يكن فيهما. كان يمكن جسّه وكان مغشيّاً عليه. كان شيئاً من الظلّ الذي يُكمل الظّلمات. وبعد أفول النهار، في العتمة الواسعة الصّامتة، أخذ يصبح بشكلٍ مفجعٍ متّفقاً مع كلّ شيء. كان يزيد من حداد العاصفة وهدوء الكواكب، لا لشيء إلا لأنه كان موجوداً هناك. إن العصيّ عن التعبير، والذي هو في

الصّحراء، كان يتكثّف فيه. وإذ هو حطامُ مصيرِ مجهول، فقد كان ينضافُ إلى كلّ تكتّمات الليل. كان في سرّه الخفيّ التماعُ غامضٌ لكلّ الألغاز.

كان المرء يحسّ حوله بشيء يشبه انخفاضاً في الحياة يمضي حتى الأعماق. وكان في الامتدادات المحيطة تناقضٌ في اليقين وفي الثقة. إن ارتعاشَ أشواك الغابات، والأعشاب، والكآبة المؤسفة، والقلق الذي يبدو أن فيه إحساساً، كانت تخصّص بشكل مأسويّ كلّ المشهد لذلك الشكل الأسود المعلّق بتلك السّلسلة. إن حضورَ شبحٍ في أفقٍ ما هو أمرٌ يزيدُ الوحدة خطورةً.

لقد كان صورةً زائفة، وإذْ كان يتلقّى ضروبَ العصف التي لا تهدأ، فقد كان لا يعرف السّكون. وكان الارتجافُ الدّائم يجعلة مخيفاً. كان يبدو، في المساحات، مركزاً، وهذا ما يبعث قوله الرّعبَ، وكان شيءٌ هائل يتّكئ عليه. فمن يدري؟ فربّما يكون هو الإنصاف الذي نخمّنه ونتجرأ عليه والذي يتعدّى عدالتنا. كان في ديمومته خارج القبر، ثأرُ البشر، وثأرةُ الخاصّ به. لقد كان يقدّم شهادةً ما، في ذلك الشفق، وفي تلك الصّحراء. كان إثباتاً على المادة المقلقة، لأن المادّة التي يرتجف المرء أمامها مصنوعةٌ من روحٍ مدمّرة. ولكي تقلقنا المادّةُ الميتة، لا بدّ أن يكون الفكرُ قد عاش فيها. كان يشي بقانون العالم السّفلي إلى قانون العالم العلوي. وإذْ وضعه الإنسان هناك، فقد كان ينتظر الرّب. وفوقة كانت ترفرفُ هواجسُ الظلام الهائلة، مع كلّ التواءات السّحب والموج المبهمة.

خلف تلك الرؤيا، كان هناك انسدادٌ مشؤوم. إن اللاّمحدود، الذي لا يحدّه شيء، لا شجرة، ولا سطح، ولا عابر سبيل، كان حول ذلك الميت. وحين تشرف الحلولية علينا، تبدو السّماء، والهوّة، والحياة، والقبر، والأبديّة جليّة، وحينذاك إنّما نحسّ بأنه يتعذّر الوصولُ إلى كلّ شيء، وأن كلّ شيءٍ ممنوعٍ، وكلّ شيء مسوّر. حين تنفتح اللانهاية، لا يكون هناك إقفالٌ أكثر هولا.

VI
معركة بين الموت والّليل

كان الطّفل أمام ذلك الشّيء، صامتاً، دَهشاً، وعيناه محدّقتان.

بالنسبة للرّجل، كان يمكن لذلك أن يكون مشنقة، وبالنّسبة للطّفل رؤية.

وحيث كان يمكن للرّجل أن يرى الجثّة، كان الطّفل يرى الشّبح.

ثم أنه لم يكن يفهم شيئاً.

إن إغراءات الهوّة هي من كلّ نوع، فمنها إغراءٌ كان في أعلى ذلك الهضبة.

لقد خطا الطفل خطوة، ثم خطوتين. وصعد، والرّغبة تحدوه للنزول، واقترب، والرغبة تحدوه للتّراجع.

اقترب من الشّبح كثيراً، متجاسراً ومرتعداً، لكي يتعرّفه.

وما إن وصل إلى ما تحت المشنقة، حتى رفع رأسه وتفحّص.

كان الشّبح مقطرناً. ويلتمعُ هنا وهناك. ولم يكن الطّفل يميّز الوجه، فقد كان مطليّاً بالزّفت، وهذا القناع الذي كان يبدو لزجاً ودبقاً كان يتقولبُ في التماعات اللّيل. كان الطّفل يرى الفم الذي كان ثقباً، والأنفَ الذي كان ثقباً، والعينين اللتين كانتا ثقبين. كان الجسمُ ملفوفاً وكأنّه محزوم في نسيجٍ خشن مبلّل بالزّيت المعدنيّ. كان النّسيج قد تعفّن وتهشّم. وكانت تخرج ركبةٌ من خلاله. وكانت ثغرةٌ تبرز الأضلاع. كان بعض الأقسام جثّة، وبعضها الآخر

هيكلاً عظميّاً. كان الوجهُ بلون التّراب، وكانت بعض البزاقات التي جالت فوقه، قد تركت عليه أشرطةً فضيّةً قليلة الوضوح. أما النسيج الملتصق بالعظام، فقد كان يُبرزُ نتوءاتٍ مثل رداء التمثال. كان في الجمجمة المشقوقة والمصدوعة شقٌّ مثل شقّ الثمرة العفنة. وكانت الأسنان قد بقيت أسناناً بشريّة، فقد احتفظت بضحكتها. كان يبدو أن بقيةً من صرخة قد دمدمت في الفم المفتوح. كان هناك بعضُ أشعارِ الذّقن على وجنتيه. أمّا الرّأس الذي كان منحنياً فكانت له هيئة متيقّظة.

كانت قد جرت عليه مؤخّراً إصلاحاتٌ معيّنة، فالوجهُ قد غُطّي بالقطران حديثاً، وكذلك الرّكبة التي تخرج من النّسيج، ومن الأسفل، كانت القدمان تخرجان.

في الأسفل تماماً، على العشب، كانت فردتا حذاء تُريان، وقد أصبحتا من غير شكل في الثلج وتحت الأمطار. كانت هاتان الفردتان قد سقطتا من ذلك الميت.

أمّا الرّيح التي أصبحت مقلقةً أكثر فأكثر، فقد كانت تتقطعُ انقطاعاتٍ هي جزءٌ من استعدادات العاصفة. قد توقّفت تماماً منذ بضع لحظات. ولم تعد الجثّة تتحرّك. وكانت السّلسة بلا حراك مثل سلكٍ رصاصيّ (٤٤).

شأن كلّ القادمين الجدد إلى الحياة، فإن الطفل، إذا أخذنا بحسباننا الضّغط الخاص لمصيره، قد حدث لديه بلا أدنى شكّ، ذلك الاستيقاظُ للأفكار الخاصّ بسنوات الحداثة، والذي يحاول أن يفتح العقل، والذي يشبه نقراتِ منقار الطّير في البيضة. غير أن كل ما كان موجوداً في وعيه الصّغير في تلك اللحظة كان يتحوّل إلى ذهول. إن الإفراط في الإحساس، إنما هو نتيجة الزّيت الزّائد، ويصل إلى خنق الفكر. كان يمكن لرجلٍ أن يطرح على نفسه أسئلة، أمّا الطّفل فلم يكن يطرح عدداً منها على نفسه، بل كان ينظر.

كان القطران يعطي ذلك الوجه مظهراً مبتلاً. وثمّة قطراتٌ من القار المتجمّد في ما كان قبلاً هو العينين. كانت تشبه الدموع. فضلاً عن هذا، فبفضل ذلك القار، فإن ضررَ الموت قد جرى إبطاؤه بصورةٍ جليّة، إن لم نقلْ

إلغاؤه، وتقليصُه إلى أقلّ تلفٍ ممكن. إن ما كان أمام الطّفل كان شيئاً تمّ الاعتناء به. لقد كان ذلك الرّجلُ ثميناً بصورةٍ واضحةٍ. ولم يكن هناك حرصٌ على المحافظة عليه حيّاً، بل كان هناك حرصٌ على حفظه ميتاً.

كانت المشنقة قديمةً، ونَخِرة، مع أنّها متينة. وقد استُخدمت لسنواتٍ طويلة. لقد كان عرفاً موغلاً في القدم، في إنكلترا، أن يُطلى المهرّبون بالقطران. وكان يجري تعليقهم على ساحل البحر، ويُدهنون بالقار. ويُتركون معلّقين. إن الأمثولات تتطلّب الهواء الطّلق. والأمثولات المدهونة بالقار تصون ذاتها بشكل أفضل. فهذا القار يعبّر عن الحنوّ الإنساني. فكان يمكن بهذه الطّريقة تجديد المشنوقين لمرّات أقلّ تكراراً. وكانت توضع مشانق من مسافةٍ إلى مسافة، على الساحل كما توضع المصابيح في أيامنا. كان المشنوقُ يقوم مقام مصباح. وكان ينوّر على طريقته، رفاقه المهرّبين.فالمهرّبون كانوا يلمحون المشانق، من بعيد، في البحر. فهذه مشنقة، تعتبر تحذيراً أول، وهذه مشنقة أخرى، تعتبر تحذيراً ثانياً. ولم يكن ذلك يمنع التهريب إطلاقاً. غير أن النظام يتكوّن من هذه الأشياء. وقد دامت تلك الدّرجة في إنكلترا حتى بداية هذا القرن. وفي عام ١٨٢٢. كان لا يزال يُرى أمام قصر دوفر ثلاثة مشنوقين مبرنقين. فضلاً عن هذا، فإن طريقة الحفظ لم تكن إطلاقاً مقصورة على المهرّبين. لقد كانت إنكلترا تتّخذ القرار نفسه بحقّ اللّصوص، ومشعلي الحرائق والقتلة. إن جون بينتر الذي أحرق مخازن بورتسموث البحريّة قد شُنق وطُلي بالقطران في عام ١٧٧٦. وقد رآه ثانية رئيس الدّيركوابية الذي يسمّيه جان لوبانتر (جان الدّهان أو الرّسام) وفي عام ١٧٧٧. كان جون بينتر معلّقاً ومكبّلاً فوق الخراب الذي أحدثه، وكان يُعاد طليُه بالكلس من وقتٍ لوقت. وقد دامت تلك الجثّة، ويمكن أن نقول تقريباً، عاشت قرابة أربعة عشر عاماً. وكانت لا تزال ذات استعمال حسن في عام ١٧٨٨. وفي عام ١٧٩٠، مع ذلك، كان لا بدّ من استبدالها. كان المصريّون يقيمون وزناً لتحنيط الملك، أما تحنيط الشّعب، فكما يبدو، يمكن أن يكون مفيداً.

أما الريح التي كان لها تأثير كبير على الأكمة فقد أزالت عنها الثّلج كلّه. وكان العشبُ يعود إلى الظهور ثانية مع بعض الأشواك في هذا المكان

أو ذاك. وكانت الهضبة مغطّاة بخضير العشب البحريّ الكثيف والمحلوت الذي يجعل أعلى السّاحل الصّخري شبيهاً بالجوخ الأخضر. وتحت المشنقة، وفي النقطة ذاتها التي كانت تتدلّى فوقها قدما المعدم، كانت هناك باقةٌ عالية وكثيفة، ومدهشة على تلك الأرض العجفاء. إن الجثث المدفّنة هناك منذ قرون كانت تفسّر ذلك الجمال، جمال العشب. إن الأرض تتغذي بالإنسان.

كان يسيطر على الطفل افتتانٌ حداديّ، فمكث هناك، فاغراً فمه. ولم يخفض جبينه إلا للحظةٍ من الزّمن بسبب شوكةٍ كانت تخز ساقيه، وجعلته يحسّ بأنها حشرة ثم انتصب ثانية، وأخذ ينظرٌ فوقه إلى تلك الوجه الذي ينظر إليه. كان ينظر إليه خصوصاً وأنه لم يكن له عينان. لقد كانت نظرة معممّة، وتحديقاً عصياً على الوصف فقد كان فيه الضّياء والظلمات، ويخرج من الجمجمة ومن الأسنان كما يخرجٍ من قوسي الحاجبين الفارغين. إن رأس الميت كلّه ينظر، وهذا أمرٌ يبعثٌ على الذّعر. فما من حدقةٍ فيه، ويشعر المرء أنه مرئيّ. إنها فظاعة أشباح الموتى.

أخذ الطفل يغدو بذاته مرعباً رويداً رويداً. فلم يعد يتحرّك، وأخذ الخمود يسيطر عليه. ولم ينتبه إلى أنه يفقد وعيه. كان يصيبه الخدر ويتصلّب. والشتاءُ يُسلمه بصمت إلى الليل. ففي الشتاء شيء من طبع الغادر. وكان الطفل تمثالاً تقريباً. وكان حجرُ البرد يدخل في عظامه. وكانت العتمة، تلك الزاحفة، تتسلّل إلى داخله. إن التهويم الذي يخرج من الثلج يصعدُ في الإنسان مثل مدٍّ غامض. وقد كان الطفل يجتاحه ببطء جمودٌ يشبه جمودَ الجثّة. فكان على وشك أن ينام.

في يدّ النّوم هناك يد الموت. وكان الطّفل يشعرُ بأن تلك اليد قد قبضت عليه، وذلك في اللحظة التي وقع فيها تحت المشنقة، ولم يعد يدري إن كان لا يزال واقفاً.

النّهاية المحدقةُ على الدّوام، وغياب أية فترة انتقالية بين أن يكون هناك وجود وألا يكون من بعد، والدّخول إلى المطهر، والانزلاق الممكن في كلّ دقيقة، إن تلك الهوّة هي الخليقة.

وما هي إلاّ لحظة أيضاً، حتى يختلطَ الطّفلُ والمتوفّى، والحياة في ملامحها الأولى والحياةُ المُدمَّرة في الامّحاء نفسه.

بدا أن الشّبحَ يفهمُ ذلك ولا يريده. فجأة، أخذ يتحرّك، وكأنّه يحذّر الطّفل.

كان ذلك عودةً للريح التي كانت تهبّ

ما من شيء غريب مثل هذا الميت المتحرّك.

بدأت الجثّة المربوطة بطرف السلسة، والتي دفعتها هبّة الرّيح غير المنظورة، بدأت تتخذ وضعاً مائلاً، وترتفعُ إلى اليسار، ثم تعود لتهبط ثانية، وترتفع إلى اليمين. وتعود إلى الهبوط، وتعاود الصعود بالدّقة البطيئة والمأتمية، دقّة نبض. إنها حركةُ ذهابٍ وإيابٍ مخيفةٌ. فكان يمكن للمرء أن يظنّ أنّه يرى في الظلمات رقّاص ساعةِ توقيتٍ الأبديّة.

استمرّ ذلك على هذا النحو لبعض الوقت. وكان الطّفل أمام تحرّكُ الميتِ هذا يُحسّ بأنه قد استفاق، ومن خلال تبرّده، كان يشعر بخوفٍ داخليّ جليّ إلى حدّ ليس بالقليل.

أما السّلسلة، فعند كلّ ترجّح، كانت تصرّ بانتظام مقيت. وكان يبدو أنها قد استعادت أنفاسها، ثم عاودت حركتها. وكان ذلك الصّريرُ يحاكي غناء الصّرصار.

إن حركات اقتراب الزوبعة تُحدثُ انتفاخات مباغتةً للرّيح. لقد غدت النّسمة فجأة ريحاً شماليّة. وازداد ترجّحُ الجثّة بشكلٍ مغمّ. ولم يعدْ تأرجحاً، بل هزّاً. والسّلسلةُ التي كانت تصرّ، صرخت.

بدا أن تلك الصّيحة قد سُمعت. فلو كانت نداءً، لجرى الامتثالُ له. ومن أعماق الأفق، أتى مسرعاً صخبٌ كبير.

كان ذلك صوت أجنحة.

لقد كان يحدثُ فجأة حادثٌ طارئ، إنّه حادثُ المقابر والأماكن الموحشة، وهو وصول سربٍ من الغربان.

نقرت الغيم بقعٌ سوداء طائرة، واخترقت الضّباب، وكبرت، واقتربت، واختلطت بعضها ببعض، وازدادت كثافةً، وأسرعت نحو الهضبة، مطلقةً الصّيحات. وكان ذلك يشبه وصول جحفل. إن أوباش الظّلمات المجنحة قد انقضت على المشنقة.

أما الطفل الذي ذُعر فقد رجع إلى الوراء.

إن الأسرابَ تخضعُ لأوامر معيّنة؛ فقد تجمّع الغربانُ على المشنقة. وما من غرابٍ واحد ليس على الجثّة. كانوا يتكلمّون فيما بينهم. إن النعّيب فظيع. فالعواءُ، والصّفيرُ والزّمجرة هي أمورٌ من الحياة، أما النّعيبُ فهو قبولٌ يرضى بالتفسّخ. ويظنّ المرء أنه يسمع الهمهمة التي يصنعُها صمتُ المقبرة وهو يتكسّر. إن النعيب هو صوتٌ فيه شيء من العتمة. لقد كان الطفل متجمّداً من الخوف أكثر مما هو متجمدٌ من البرد.

سكتت الغربان. وقفز واحدٌ منهم على الهيكل العظميّ. وكان ذلك إشارة. فهرعِ الجميع، وصار هناك سربٌ من الأجنحة، ثم انغلق كل ذلك الرّيش مجدّداً، واختفى المشنوق تحت ازدحام الجرابات السّوداء التي تتحرك في العتمة. في تلك اللحظة تحرّك الميت.

هل كان هو من تحرّك؟ هل كانت الرّيح؟ لقد صدرت عنه قفزةٌ مرعبة. إن الإعصار الذي كان يهبُّ قد أتى لمساعدته. فدخلُ الشّبحُ في اختلاج. إن الزوبعة التي سبقٍ لها أن أخذت تنفخُ بملء رئتيها هي التي كانت تستولي عليه وتحرّكه في كلّ الاتجاهات، فغدا مرعباً. وأخذ يتخبّط. إنه دمية متحرّكة مرعبة، وخيطه هو سلسلة مشنقة. وكأن مقلداً ساخراً آتياً من الظّلمة قد أمسك بخيطه وهو يلاعبُ ذلك المومياء. استدارت المومياء وقفزت وكأنها مهيّئة للتفكّك. أما الطيّور المرتعبة فقد طارت. وكان ذلك مثل ارتدادٍ لكلّ تلك الحيوانات المفزّرة. ثم رجعت. حينذاك بدأ صراع.

بدا أن الميت قد سيطرت عليه حياةٌ وحشيّة. كانت هبّاتُ الهواء ترفعه، وكأنها ستحمله معها. حتى ليظنّ المرء أنه يتخبط ويبذل جهداً للهرب، وكان غلّة يمنعُه من ذلك. كانت الطيّور تعكس كلّ حركاته، فتتراجع ثم تهجم،

فتصبحُ مذعورةً وضارية. فمن جهةٍ، هروبٌ غريبٌ تختبرُه، ومن الجهة الأخرى، ملاحقةٌ لمكبِّل. أما الميتُ، الذي تدفعه كلُّ تشنجاتِ ريح الشمال، فكانت تصدر عنه قفزاتٌ مفاجئة، وتصيبُه صدمات. وسُوْر غضب، فيروحُ، ويجيءُ، ويصعدُ، وينزلُ، ويصدُّ السِّرب المشتّت. كان الميتُ هراوةً، وكان السرب غباراً. ولم تكن السِّربةُ الضّارية المهاجمة ترخي قبضتها، وتعاند في ذلك. أما الميتُ، وكأن الجنون قد سيطر عليه تحت ذلك الرّهط المتكالب عليه من المناقير، فقد كان يضاعفُ في الفراغ خبطاته العمياء الشّبيهةِ بضربات حجرٍ مربوطٍ بمقلاع. وأحياناً، كان تنقضُّ عليه كلُّ المخالب وكلُّ الأجنحة. ثم لا شيء. كانت تلك تلاشيات للّحشد، تتلوها في الحال رجعاتٌ مسعورة. إنه عذابٌ مرعبٌ يتواصل بعد الحياة. كانت الطيّور تبدو مهووسةً. يتعيّن على منافذ الجحيم أن تفسح المجال لمرور أسراب مماثلة. ضرباتٌ مخلب، وضرباتٌ منقار، وأصواتٌ نعيب، وانتزاعٌ لمزقٍ لم تعدْ لحماً بشريّاً، وأصوات طقطقةِ المشنقة، وصراخُ الزّوبعة، وضجيج، فما من صراع أكثر حداديّة. شبحٌ ميتٌ(٤٥). ضدُّ عفاريت. إنها نوع من معركة شبحيّة.

أحياناً، كانت ريحُ الشمال تشتدّ، وكان المشنوقُ يدورُ على نفسه، ويجابه السِّرب من كلِّ الجهات في آن، ويبدو أنه يريد أن يجري وراء الطيّور. ويُخيّل للمرء أن أسنانه كانت تحاولُ أن تعضّ. وكانت الرّيحُ لصالحه، والسّلسلة ضدّه. وكأن آلهة سوداء كانت تتدخل في ذلك. وكان الإعصارُ مشتركاً في المعركة. كان الميت يتلوّى، ويلتفُّ رفُّ الطّيور عليه بشكلٍ لولبيّ. كان ذلك دوراناً داخل دوّامة.

كانت تُسمع في الأسفل زمجرةٌ هائلة، وكانت هي البحر.

كان الطّفل يرى تلك الرؤيا. وفجأة. بدأ يرتجف بكلّ أطرافه، وجرت رعشةٌ على طول جسمه، فترنحّ، وارتعد، وكاد يسقط، واستدار، وضغط على جبينه بيده، وكأنّ الجبينَ نقطةُ ارتكاز. ونزل الهضبة بخطىً واسعة، زائغ النظرة، متطاير الشعّر، مُغمض العينين، وكأنه هو نفسه شبحٌ تقريباً، وفرّ هارباً، تاركاً خلفه العذاب في الليل.

VII
رأس بورتلاند الشماليّ

ركض حتى انبهار نَفَسه، وعلى غير هدىً، وقد سيطر عليه الاضطرابُ، في الثلج، وفي السّهل، وفي فضاء المكان. وقد دفّأه هذا الهروب، وكان بحاجةٍ إليه. ولولا ذلك الرّكض، ولولا ذلك الذّعر، لكان قد مات.

حين ضاق تنفسُّه، توقّف، غير أنه لم يجرؤ إطلاقاً على النّظر إلى الوراء. كان يبدو له أن الطيّور لا بدّ أنها تلاحقه، وأن الميت لا بدّ أنه قد فكّ سلسلته، ولربما يكون سائراً في الجهة نفسها التي يسيرُ هو فيها، وأنه لا بدّ أن تكون المشنقة ذاتها قد أخذت تنزل الهضبة، راكضةً وراء الميت. كان خائفاً من رؤية ذلك، إن استدار.

حين استعاد أنفاسه قليلاً، عاود الهرب.

إن أخذَ الوقائع بالحسبان ليس من أمور الطّفولة إطلاقاً. لقد كان يلتقطُ انطباعاتٍ معيّنة من خلال تضخم الرّعب، ولكن من غير أن يربطها في ذهنه، ودون أن يستنتج شيئاً. كان يمضي إلى أيّ مكان، وكيفما كان. وكان يركضُ مصحوباً بقلق الخيال وعنائه. ومنذ ما يقرب من الثلاث ساعات التي تُرك فيها، فإن سيره إلى الأمام قد بدّل غايته، وفي الوقت نفسه الذي بقي فيه غير محدّد. كان قبلاً في حالة بحث، وأصبح حالياً في حالة هروب. لم يعد جائعاً، ولا بردانا، كان خائفاً. لقد حلّت غريزةٌ محلّ غريزةٍ أخرى. كان الهربُ آنذاك هو كلّ ما يفكرّ فيه.

الهروب ممّ؟ من كلّ شيء. كانت الحياة تبدو له من كلّ ناحيةٍ حوله مثل سورٍ رهيب؛ فلو أمكنه الهروب من كلّ شيء، لفعل ذلك.

غير أن الأطفال لا يعرفون إطلاقاً تحطيمَ السجن هذا والذي يسمّونه الانتحار.

كان يركض.

ركض على هذا النّحو لزمنٍ غير محدّد، غير أن النَفس ينفدُ، والخوفُ ينفدُ أيضاً. فجأة، توقف، وكأن وصولاً مفاجئاً للعزم والعقل قد سيطر عليه، حتى لَيُظنّ أنه يخجل من الهروب؛ فتماسك وخبط بقدمه، ورفع رأسه بحزم، واستدار.

لم تكن هناك هضبةٌ، ولا مشنقة، ولا طيران غربان.

كان الضّبابُ قد استعاد سيطرته على الأفق.

وواصل الطفل طريقه.

لم يعدْ يركض في ذلك الحين. كان يسير. أما القولُ بأنّ ذلك اللّقاء مع ميت قد جعل منه رجلاً، قد يكون معناه حصرَ الشعور المتعدِّد والمشوش الذي كان يعانيه؛ فلقد كان في هذا الشعور أكثر بكثير وأقل بكثير من ذلك الأمر. إن تلك المشنقة، المشوّشة إلى حدّ كبير في تلك الفهم الابتدائي الذي هو تفكيره، قد ظلت بالنسبة إليه رؤيا. إلاّ أنه شعر بأنه قويّ أكثر لأن رعباً يكبّحه المرء يصبح ثابتاً. ولو كان في سنٍّ يسبر فيها أغوار نفسه، لوجد في ذاته ألف بداية أخرى للتأمل، غير أنّ تفكير الأطفال لا شكل له. وهم يشعرون على الأكثر بالطعّم المرّ المتبقي من ذلك الشيء الغامض بالنسبة إليهم، والذي يسميّه الرّجلُ فيما بعد بالغضب.

لنضف أن لدى الطفل موهبةَ القبول السّريع جداً بنهاية إحساسٍ معيّن. إن الحدودَ البعيدة والمنظورة والتي تشكّل اتساعَ الأشياءِ المؤلمة تُفلت من متناوله. إن الطفل تدافعُ عنه حدودُه. والتي هي الضّعفُ، ضدّ الانفعالات البالغة التعقيد. إنه يرى الواقعة، وشيئاً قليلاً إلى جانبها. إن صعوبة الاكتفاء بالأفكار الجزئية غير موجودة بالنسبة للطفل. إن قضية الحياة لا تُدرس إلاّ فيما بعد، حين تصلُ التجربة مع ملفّها. فتكونُ هناك حينئذٍ مجابهةٌ لمجموعاتِ الوقائع التي يُعثر عليها، والعقل الذي استبقى المعلوماتِ وكبُر يقارنُ، فتعود إلى الظهُور ذكرياتُ سن الحداثة من تحت الأهواء كما يظهر الرّقّ الممسوحُ

من تحت الشطب، وهذه الذكرياتُ هي نقاطُ ارتكاز للمنطق، وما كان رؤيا في عقل الطفل يغدو قياساً في عقل الرّجل. وفضلاً عن هذا، فإن التجربة متنوعة وتؤدي إلى نتيجة حسنةٍ أو سيئة حسب الطّبائع. فالطيّبون ينضجون، والسّيئون يتعفّنون.

كان الطّفل قد قطع حقّاً ربع فرسخ ركضاً، وقطع مشياً ربع فرسخ آخر. وفجأة شعر بأن معدته تمغصه. وأتت فكرةٌ حجبت في الحال رؤيا الهضبة المقيتة، أتت إلى ذهنه بعنف وهي: الأكل. ففي الإنسان لحسن الحظّ، حيوانٌ معيّن، وهو يعيده إلى الواقع.

ولكن ماذا يأكل؟ ولكن أين يأكل؟ ولكن كيف يأكل؟

تحسّس جيوبه. وبصورة آلية، فقد كان يعلم جيّداً أنها فارغة.

ثم حثّ الخطا، ومن غير أن يعلم إلى أين يمضي، وحثّ الخطا نحو الكوخ المحتمل.

إن هذا الإيمان بالنُّزل يشكل جزءاً من جذور العناية الإلهية في الإنسان.

إن هذا الإيمان بملجأ، هو الإيمان بالله.

فضلاً عن هذا، فما من شيء، في هذا السّهل الثّلجي يشبه سقفاً.

كان الطفل يسير، وكانت الأرض البائرة تمتدّ، جرداء على مدّ البصر.

لم يكن في تلك الهضبة مسكنٌ بشريٌ قطّ؛ ففي أسفل السّاحل الصّخري، وفي فجوات الصّخور، كان يسكن قديماً، لعدم وجود الخشب لبناء الأكواخ، السّكان القدماء البدائيّون، والذين كان سلاحهم هو المقلاع، وتدفئتُهم هي روثُ البقر المجفّف، وديانتُهم هي عبادة هيل المنتصب في فرجة من غابة دور شيستر، وصناعتهم الصيد البحريّ لذلك المرجان الزّائف الرّماديّ والذي كان الغاليّون يسمّونه plin (بلين) واليونان: isides plocamos (إيزيدس بلوكاموس).

كان الطفل يتوجّه على أفضل نحوٍ يستطيعه. إن المصير بكامله مفترقُ طرق، واختيارُ الاتجاهات مرعب، وكان على ذلك الكائن الصغير أن يختار

بين خطوطٍ غامضة. ومع ذلك؛ فكان يتقدّم، ولكنه بدأ يتعب، مع أنه كان يبدو مشّاء. لم تكن هناك ممرّاتٌ ضيّقة في ذلك السّهل؛ ولو كان لبعضها وجود، فقد محاها الثلج. كان يواصل بغريزته الانحراف باتجاه الشرق، وكانت الحجارةُ القاطعة تكشط عقبية. ولو كان النّهار طالعاً، لأمكنه أن يرى الآثار التي كان يتركُها على الثلج، إنها بقعٌ وردية كانت من دمه.

لم يكن يتعرّفُ شيئاً، وكان يجتازُ هضبة بورتلاند من الجنوب إلى الشّمال، ومن المحتملُ أن تكون العصابةُ التي أتى معها، قد اجتازتها من الغرب إلى الشرق، وهي تتحاشى المصادفات. كانت قد ذهبت بوجه الاحتمال إلى كوخ صيّاد أسماك أو مهرّب، في نقطةٍ ما على ساحل أوغسكومب، من مثل سانت - كاترين شاب، أوسوانكري، لتذهب إلى بورتلاند، فتلتقي الهوركة التي كانت تنتظرها ولا بدّ أنها قد نزلت في أحد جُوينات ويستون ولتذهب وتبحر مجدّداً من أحد خلجان إيستون الصّغيرة. كان ذلك الاتّجاه قد تقاطع على شكلٍ متصالب مع الاتّجاه الذي كان الطّفلُ يتبعه الآن. وقد كان متعذّراً عليه أن يتعرّف طريقه.

في هضبة بورتلاند، ثمة انتفاخات، في هذا المكان أو ذاك، قد هدمها السّاحل فجأة فغدت مقطوعة بشكل عمودي على البحر. لقد وصل الطفل التائه إلى إحدى هذه النقاط المطلّة، وتوقّف فيها، آملاً أن يجد مزيداً من الدّلالات في مزيد من المساحات، وباحثاً عن شيء يراه. كان ما لديه من أفق أمامه، غبشٌ باهتٌ واسع. فعاينه باهتمام، فغدا أقلّ إبهاماً، تحت تحديد نظرته. وفي أعماق ثنية أرضٍ بعيدة، باتجاه الشرق، وفي أسفل تلك الدّكنة غير الشفافة، كان هناك نوعٌ من تحدّرٍ وعرٍ متحرّك وباهتٍ يشبه ساحلاً صخريّاً أثناء الليل، كانت تزحفُ وترفرفُ مزقٌ مبهمةٌ سوداء، هي نوعٌ من أشياء منتّفة منتشرة. إن هذا الغبش الشّاحب، كان ضباباً. وهذه المزقُ السّوداء كانت دخاناً. وحيثما يكون هناك أدخنة، يكون هناك أناس. فاتجّه الطّفل في ذلك الاتّجاه.

كان يلمحُ على بعدِ مسافة معيّنة انحداراً، وفي أسفل الانحدار، بين ترتيباتٍ لا شكل لها لصخورٍ يموّهُها الضّباب، مجليً لرصيفٍ رمليٍّ أو للسانٍ

أرضٍ ربّما يربط بين سّهولِ الأفق والهضبة التي كان يجتازها للتوّ. كان لا ينبغي بالطبع المرورُ من هناك.

كان قد وصل في الحقيقة إلى برزخ بورتلاند الذي هو طميٌ طوفانيٌ يسمّونه شيس – هيل.

دلف إلى سفح الهضبة.

كان الانحدارُ صعباً ووعراً. وكان الوجه المعاكس للصّعود الذي كان قد قام به للخروج من الخليج الصّغير، مع وعورةٍ أقلّ مع ذلك. إن كلَّ صعودٍ يكونُ الهبوطُ نتيجته. فبعد أن تسلّق، أخذ يتدحرج.

كان يثبُ من صخرةٍ إلى أخرى، تحت خطر الإصابة بالتواء، أو تحت خطر التدّهور إلى عمق غير محدود. ولكي يتمالك نفسه في انزلاقاتِ الصّخر والخليج، كان يمسك بملء يديه بسيور الأرض البائرة الطويلة، ونباتات الجولق الملأى بالأشواك، وكانت كلُّ تلك الرؤوس تدخلُ في أصابعه. وأحياناً، كان يجد بعضاً من منحدرٍ خفيف، فينزل مستعيداً أنفاسه، ثم يعود إلى الظهّور منحدرٌ وعرٌ، وعند كلِّ خطوة، كانت تلزمُه وسيلةٌ معينة. وعند نزوله من الجروف، تكون كلُّ حركةٍ يقومُ بها حلاً للمشكلة؛ فلا بدّ للمرء من أن يكون ماهراً تحت طائلة الموت. وهذه المشكلات، كان الطّفل يحلُّها بغريزةٍ كان يمكن لقردٍ أن يسجّلها. وببراعةٍ كان يمكن لبهلوان أن يُعجب بها. كان النُّزول شديدَ التحذُّر وطويلاً. وكان يتغلّبُ عليه مع ذلك.

كان يقترب شيئاً فشيئاً من اللحظة التي يطأ فيها أرضَ البرزخ الذي يلمحه.

على فترات، وفي الوقت الذي يقفز فيه أو ينحدرُ من صخرةٍ إلى صخرة، كان يصيخ السّمع بانتصابِ أيّلٍ يقظ، كان يصغي في البعيد، على يساره، لجلبةٍ واسعة وضعيفة. شبيهة بلحن نفيرٍ عميق. وفي واقع الأمر، كان هناك، في الفضاء. تحركٌ لنفحاتِ هواءٍ تسبقُ تلك الرّيحَ الشمالية المرعبة

والتي نسمعها آتيةً من القطب مثل وصول الأبواق. في الوقت نفسه، كان الطفّل يحسُّ أحياناً على جبينه، وعلى عينه، وعلى وجنتيه، شيئاً يشبه راحاتِ أيدٍ باردةٍ تتوضّعُ على وجهه. لقد كانت رقعاً عريضة متجمدّة، ومبذورة في الفضاء بشكلٍ رخوٍ في البداية، ثم أخذت تدوّم منذرةً بعاصفة ثلجيّة. كان الطفل قد تغطّى بها. والعاصفة الثلجيّة التي كانت تعصف على البحر منذ أكثر من ساعة، بدأت تتقدّم إلى الأرض. لقد كانت تجتاح السّهول ببطء. وكانت تدخلُ بصورةٍ منحرفة إلى هضبة بورتلاند، من الشمال الغربيّ.

الكتاب الثاني

الهوركة في البحر(٤٦)

I

القوانين التي هي خارجة عن الإنسان

إن العاصفةَ الثلجيّة هي من أمور البحر غير المعروفة. إنها أكثر الظواهر الجويّة غموضاً: فهي غامضة بكلّ ما في الكلمة من معنى. إنها مزيجٌ من الضّباب والإعصار. وفي أيامنا، لم يجرِ بعد التأكّد جيداً من هذه الظّاهرة. ومن هنا يأتي الكثير من الكوارث.

هناك من يرغب في أن يفسّر كلّ شيء بالريّح والموج: والحال فإن في الهواء قوّةً ليست الريح، وفي الماء قوة ليست الموج، وهذه القوة نفسها في الهواء وفي الماء هي الدفق المغناطيسي(٤٧). إن الهواء والماء هما كتلتان مائعتان، ومتماثلتان تقريباً، وتدخل كلّ منها في الأخرى، عن طريق التكثيف والتمدّد بحيث أن التنفسّ يصبح الشّرب: فالدّفق المغناطيسي وحده سيّالٌ. ليست الريح والموج إلا قوى رافعة. أما الدفق المغناطيسي فهو تيار، إن الريح تُرى من خلال السُّحب، والموج يُرى من خلال الزّبد؛ أما الدّفقُ المغناطيسيّ فغيرُ مرئيّ. ومن وقتٍ لوقت، يقول مع ذلك: أنا هنا. أما أنا هنا التي يقولها. فهي قصفةُ رعد.

إن العاصفة الثلجيّة تعرضُ مشكلة مماثلة للضّباب الجاف. فإذا كان إيضاحُ الـــ Callina عند الأسبان والـــ quobar عند الإثيوبيين ممكناً، فمن المؤكدّ أن هذا الإيضاح سيجري من خلال الملاحظة اليقظة للدّفق المغناطيسيّ.

سرعة الريح، التي تتبدّل في العاصفة من ثلاثة أقدام في الثانية إلى مئتين وعشرين قدماً، تعلّل تنوّعات الموج التي تبدأ من ثلاث بوصات، في البحر الهادئ، إلى ست وثلاثين قدماً، في البحر الهائج. وعند الاقتضاء، فإن أفقيّة هبوبِ الرّياح، حتى وإن كانت على شكلِ زوبعة، تجعلنا نفهم كيف أن موجةً ارتفاعُها ثلاثون قدماً يمكن أن يكون طولها ألف وخمس مئة قدماً. ولكن لماذا تكون أمواجُ الباسيفيك على مقربة من أمريكا أعلى مما هي على مقربة من آسيا، أي أعلى في الغرب منها في الشرق؛ ولماذا يكون الأمرُ عكس ذلك في الأطلسي، ولماذا يكونُ تحت خطّ الاستواء وسطُ البحر هو الأعلى. ومن أين تأتي تنقّلاتُ تضخمِ المحيط؟ هذا ما يمكن للتّدفق المغناطيسيّ وحدهُ، والمندمج بالدّوران الأرضي والجانبية الفلكيّة أن يفسره.

أليس هذا التّعقيدُ الغامض لازماً لتعليل نَوَسان الرّيح التي تذهب، مثلاً، عن طريق الغرب، من الجنوب الشّرقي إلى الشّمال الشّرقي، والتي ترجع بعد ذلك فجأة، وعن طريق الدّورة الكبيرة نفسها. من الشّمال الشّرقي إلى الجنوب الشّرقي، بحيث تصنع في ستّ وثلاثين ساعة، دائرةً من خمسمئة وستين درجة، وهذا ما كان إنذاراً بعاصفة الثلج التي حدثت في ١٧ آذار للعام ١٨٦٧؟

إن أمواج عاصفة أستراليا تصل إلى ارتفاع ثمانين قدماً، وهذا يرجع إلى مجاورتها للقطب. وينتجُ إعصارٌ خطوط العرض هذا عن انقلاب هبوب الرّياح أقلّ مما ينتج عن تواصل التّعريفات الكهربائية تحت البحر. وفي سنة ١٨٦٦، كان السّلك الهرتزيّ فيما بعد الأطلسي يضربُ بانتظام في وظيفته خلال الساعتين من أصل أربع وعشرين، من الظهيرة وحتى السّاعة الثانية بعد الظهر، بنوع من الحمى المنقطعة. إن بعض تكوّنات القوى وتفكّكها تُنتج الظواهر، وتفرض نفسها على حسابات البحّار الذي يجاهد ضدّ الغرق(٤٨). وفي اليوم الذي تغدو فيه الملاحةُ، التي هي عمل نمطيّ، شيئاً رياضياً، في اليوم الذي نسعى فيه إلى معرفة السّبب الذي تأتي فيه الرّيح الحارّة، مثلاً، من الشّمال، في منطقتنا أحياناً، والرّياح الباردة من الجنوب، في اليوم الذي نفهمُ فيه أن تناقضات الحرارة تتناسب مع أعماق المحيطات،

في اليوم الذي يكون ماثلاً في ذهننا أن الكوكب هو مغناطيس ضخمٌ مستقطبٌ في مساحةٍ شاسعة الأبعاد، له محوران، محورُ دوران، ومحورُ دفقٍ مغناطيسي، ويتقاطعان في مركز الأرض، وإن القطبين المغناطيسيّن يدوران حول القطبين الجغرافيّين، وحين يرغب أولئك الذين يخاطرون بحياتهم في أن يخاطروا بها علمياً، حين نبحرُ في اللااستقرارية المدروسة، وحين يغدو القبطان عالماً بالظّواهر الجويّة، وحين يصبحُ الرُّبان كيميائياً، حينئذ، يتمّ تحاشي العديد من الكوارث. إن الماء مغناطيسيٌّ بقدرِ ما هو مائيٌّ. إن محيطاً من القوى يطفو بشكلٍ خفيٍّ في محيط الأمواج، مع التيار، كما قد يُقال. ألاّ يرى المرءُ في البحر إلاّ كتلةً من الماء معناه عدم رؤية البحر. إن البحرَ حركةُ ذهابٍ وإيابٍ سائل بقدر ما هي مدٌّ وجزر. إن حركاتِ الجذب تعقّدها ربما أكثرٍ مما تفعله الأعاصير، إن الالتحامَ الجزيئيَّ الذي يتبدّى، في عداد ظواهرَ أخرى، من خلال الجذب الشّعريّ، المجهريّ بالنسبة إلينا، يدخل في نطاق الأمداء الواسعة في المحيط. وموجة الدّفقات المغناطيسيّة تساعدُ حيناً، وتعرقلُ حيناً موجةَ الأجواء وموجةَ المياه. إن من يجهلُ القانون الكهربائي يجهل القانون الهيدروليكي (المتعلق بالمياه). فأحدُهما يتوغّل في الآخر. وما من دراسةٍ عويصةٍ أكثر منها، في حقيقة الأمر، ولا أكثر غموضاً، فهي تتصل بالتجريبيّة كما يتّصل علم الفلك بالتنجيم.

ولولا هذه الدّراسة مع ذلك، لما كانت هناك ملاحة.

بعد قولنا هذا لنمضِ دون إلحاح.

إن أحدَ مركبّات البحر الأكثر إثارةً للرّعب هو الزّوبعة الثّلجيّة. إن الزوّبعة الثلجيّة مغناطيّسية خصوصاً. ويُحدثُها القطبُ مثلما يُحدثُ الفجرَ القطبيُّ الشمالي. إنه في ذلك الضّباب مثلما هو في ذلك الضّوء، وفي رقعةِ الثلج مثلما هو في أخدود اللهّب، فالدّفقُ المغناطيسيُّ مرئيٌّ.

إن الأعاصير هياجاتٌ عصبيّة، ونوباتُ هذيان البحر. فالبحرُ يُصابُ بصداعاته. ويمكن أن نشبّه العواصفَ بالأمراض؛ فبعضُها مميتٌ، وبعضُها الآخر ليس كذلك. وينجو المرءُ من هذا المرض ولا ينجو من ذاك. إن زوابع

الثلج تُعتبرُ عادةً مميتة. وكان جارابيجا، أحدُ ربابنة ماجيلان، يصفها بـــ "سحابةٍ خارجة من ناحية الشيطان السّيئة"(*).

وكان سيركو يقول:

هناك حميٌّ دخنيّة في هذه العاصفة.

كان الملاّحون الإسبان القدامى يسمّون ذلك النوع من الإعصار Lanevada (لانيفادا) = المثلج، في لحظة سُقوط الرُّقع و Lahelada (لاهيلادا) = المتجمد في لحظة هطولِ حبّاتِ البَرَد، وحسب رأيهم، فقد كانت الخفافيشُ تَسقط من السّماء مع الثلج.

إن العواصفَ الثلجيّة خاصّةٌ بمناطق خطوط العرض القطبية. ومع ذلك فهي تتزلق، ولعلّنا يمكن أن نقول تقريباً إنها تتدهورُ وصولاً إلى أقاليمنا لفرط ما يكون الخرابُ مختلطاً بأحداث الجو.

إن الماتوتينا، كما رأينا، قد اندفعت بتصميمٍ إلى تلك المخاطرة الليلية، والتي كانت يزيدُها خطورةً اقترابُ العاصفة، بعد أن غادرت بورتلاند. كانت قد دخلت إلى ذلك التهديد بنوعٍ من الجرأة المأسوية. ومع ذلك، ولنصرّ على هذا، فإنها لم تكن تفتقرُ إلى التحذير إطلاقاً.

(*) una nube salida del malo lado del Diabolo.

II

الأخيلة المحدَّدة

أخيلة البداية

طوال الوقت الذي كانت فيه الهوركة في خليج بورتلاند، كانت حركةُ البحر قليلة، فالموج كان فيه راكداً تقريباً. وأياً كانت دكنةُ المحيط، فقد كانت السّماءُ لا تزالُ نيّرة. وكان الهواءُ البحريّ قليلاً ما يلسعُ السّفينة. كانت الهوركةُ تتقدّم بقدر الإمكان بمحاذاة السّاحل الصخري الذي كان حاجزاً واقياً جيداً له.

كانوا عشرةً على الزّورق الصّغير البيسكيّ، ثلاثة رجال هم الطّاقم، وسبعة مسافرين فيهم امرأتان. على ضوءِ مدّ البحر، لأن سطح البحر يعيدُ نشر الضوء في فترة الشفق، كانت كلُّ الوجوه مرئيةً في ذلك الوقت وواضحة. ومن ناحية أخرى. فلم يعدْ أحدٌ يخفي نفسه، ولم يعدْ يتضايقُ؛ فقد أخذ كلٌّ منهم يستعيد حريّة تصرّفاته، ويُطلقُ صرخته، ويُظهرُ وجهه، فقد كان الرّحيلُ خلاصاً.

كانت برقشةُ المجموعة ساطعةً، فالنسّاءُ كنّ بلا عمر، وحياةُ التّرحل تصنع عجائز مبكّرات، والعوزُ تجعيدةً في الوجه. كانت إحداهنّ باسكيّة من الموانئ الجافة(٤٩)، والأخرى، المرأة ذات السّبحة الورديّة الضخمة، كانت ايرلنديّة. وكان يبدو عليها مظهرُ البؤساء غير المكترث. كانتا، حين دخولهما، قد جثتا إحداهما إلى جانب الأخرى على صناديق موجودة في أسفل الصّاري. كانتا تتحدثان؛ فالايرلنديةُ والباسكيّةُ، كما قلنا، هما لغتان متماثلتان. كانت الباسكيّة معطرّة الشعر بالبصل والرّيحان وكان قائدُ الهوركة باسكيّاً

guipuzcoan. وهناك بحّارٌ باسكيٌّ من السّفح الشمالي للبيرينة، وكان الآخر باسكيّاً من السّفح الجنوبيّ، أي أنهما من الأمّة نفسها، مع أنّ الأوّل منهما كان فرنسيّاً والثاني إسبانياً. إن الباسكيين لا يعترفون إطلاقاً بالوطن الرّسمي: Mi madre se llam amon 'أمّي تسمّى الجبل' هكذا كان يقول البغّال زالاريوس(٥٠). ومن الرّجال الخمسة الذين يرافقون المرأتين، وكان واحدٌ منهم فرنسيّاً ذا لغة جنوبيّة، وواحدٌ منهم فرنسياً بروفانسياً، وواحدٌ جنويّاً، وواحدٌ عجوزاً، وهو الذي يعتمرُ قبعةً عريضة ليس فيها ثقبٌ للبريم، وكان يبدو ألمانياً، والخامس الزّعيم، فقد كان باسكيّاً لا نديّاً من بيسكاروسن وكان هو الذي قذف بجسير النزول إلى البحر، في اللحظة التي كان الطّفل سيدخل فيها إلى الهوركة. إن هذا الرّجل المتين البنية، والفجائيّ الحركة، والسّريع والذي تغطيّه، كما نتذكرّ، المحبّكات القيطانيّة والتّطريزات. وألوان البّريق التي تجعل ملابسه الرّثة متموّجة، ولم يكن بمقدوره أن يثبت في مكانه، فكان ينحني، وينتصب، ويذهب ويجيء بلا توقف من أحد طرفي السّفينة إلى الطرف الآخر، وكأنه قلقٌ بين ما قام به للتوّ وما سوف يحدث.

كان زعيم الجماعة وقائد الهوركة، ورجلا الطّاقم، وهم الأربعة باسكيّون، كانوا يتكلمون الباسكيّة تارة، والإسبانية تارة، والفرنسيّة تارة، بما أن تلك اللغات الثّلاث منتشرة في جانبي البيرينية. فضلاً عن هذا، فباستثناء النسّاء، كان الجميعُ تقريباً يتكلّمون الفرنسية، والتي كانت على أساس أرغة العصابة. وبدأت الشعوب، منذ ذلك العهد، تختار اللغة الفرنسيّة كلغةٍ وسيطة بين الإفراط في استخدام الصّوامت في الشمال، والإفراط في استخدام الصّوائت في الجنوب. وفي أوروبا، كانت التّجارة تتكلّم الفرنسيّة، وكذلك اللصوصيّة. ونحن نتذكر أن جيبي، لصّ لندن، كان يفهم كارتوش(*).

كانت الهوركة، السّفينة الشراعيّة الرّشيقة، تسيرُ كما يرام، مع ذلك، فإن عشرة أشخاص، إضافة إلى الأمتعة، كانت حمولةً كبيرةً بالنسبة لأنموذجٍ على هذه الدرجة من الضّعف بين السّفن.

(*) زعيم عصابة لّصوص، ولد في باريس (١٦٩٣-١٧٢١) وقد عُذب على الدّولاب.

لم يكن هذا الإنقاذ لعصابة معينة على يد هذه السّفينة يتضمّنُ بالضرورة انضمامَ طاقمِ الباخرة إلى العصابة. وكان يكفي أن يكون قائدُ السفينة فاسكونغادو = (باسكيًّا)، وأن يكون زعيمُ العصابة باسكيًّا آخر. إن التعاضد، بين أفراد ذلك الجنس، هو واجبٌ لا يقبل بأي استثناء. إن باسكيًّا، كما سبق أن قلنا، ليس إسبانياً، ولا فرنسيًّا، إنه باسكيّ، ويجب عليه أن ينقذ باسكيًّا، دوماً وفي كلّ مكان. هذا هو إخاء البيرينيه.

طيلة الوقت الذي كانت فيه الهوركة في الخليج، لم تبد السّماء إطلاقاً، برغم تجهّم مظهرها، معكرّةً إلى حدٍ كاف بحيث يشغل بال الهاربين. لقد كانوا ينجون ويهربون، وكانوا مبتهجين بشكلٍ فظّ. كان أحدُهم يضحك، والآخر يغنّي وكان ذلك الضّحك جافاً، ولكنه متطلّقٌ. وكان ذلك الغناءُ خفيضاً، ولكنه غير مكترث.

كان الناطقُ بلغةِ الجنوب (لانغدوسيّ) يصيح: Caocagno! أي 'أرض النّعيم'. وهذا هو طفاحُ السّرورِ الناربوني. وقد كان نصفَ بحّار، وهو مولودٌ في قريةٍ مائية في غرويسّان، على السّفح الجنوبي لجبل كلاب، فهو ملاّحُ قوارب أكثر مما هو بحّار،ولكنه معتادٌ على قيادة القوارب الطويلة الضيقة، قوارب مستنقع باج، وعلى سحب الشّبكة ملأى بالسّمك في رمال سانت لوسي المالحة. كان من ذلك الجنس الذي يعتمر قبعة حمراء، ويرسمُ إشاراتِ الصّليب المعقّدة على الطريقة الإسبانية، ويشرب نبيذ جلد التيس، ويرضع القربة، ويكشط الجامبون (فخذ الخنزير)، ويجثو لكي يجدّف، ويتضرّعُ لشفيعه القدّيس متوعّداً: أيها القدّيس الكبير، امنحني ما أطلبه منك، أو أقذفُ رأسك بحجر 'oute feg' unpic'.

كان باستطاعته، عند الحاجة، أن ينضاف إلى الطاقم بصورة مفيدة. وكأن البروفانسيّ، في هري السّفينة، يضرم تحت مقلاةٍ حديديّة ناراً على فحم الخثّ، ويصنع الحساء.

كان ذلك الحساءُ نوعاً من سُلاقةٍ يحلُّ فيها السّمك محلّ اللحم، ويرمي فيه البروفانسيّ بحبّات الحمصّ، وبقطعٍ صغيرة من دهن الخنزير مقطّعة على

شكل مربّعات، وبقرون من الفلفل الأحمر، وهذه تنازلاتٌ من آكل حساء السّمك المتبّل لآكلي السُّلاقة المعفّنة(٥٢). كان أحدُ أكياس المؤن التي فُتحت بجانبه، وكان قد أشعل، فوق رأسه، مصباحاً حديديّاً مزجّجاً بالطّلّق، وينوس على كلاّبٍ في سقف مستودع المؤن. وإلى جانبه، وعلى كلاّب آخر، كان يترجّحُ طائرُ ألسيون، وهو دوّارةُ هواء. فقد كان ذلك اعتقاداً شعبيّاً حينذاك مفادُه أن طائرَ ألسيون ميت، ومعلّقاً من منقاره، يتّجه بصدره دوماً إلى الناحية التي تأتي منها الرّيح.

كان البروفانسيّ، في الوقت نفسه الذي يصنع فيه الحساء، يضع أحياناً في فمه عنقَ مطرة، ويبتلعُ جُرعةً من ماء الحياة(*) وكانت من تلك المطرات المغطّاة بخشبِ السّوحر، عريضة ومسطحّة، ولها أذنيّات، ويعلّقها المرءُ على جنبه بوساطة سير، وكانوا يسمّونها حينذاك "مطرات الورك". وبعد كل جُرعةٍ، كان يغمغم بمقطعٍ غنائيٍّ من إحدى تلك الأغاني الريفية ذات الموضوع التافه: ثمة طريق ضيّقة ومتعرّجة، وسياج، ويُرى في أحد المروج، من خلال شقٍّ في دغل، الظلُّ المستطيلُ لعربةٍ وحصان في الشمس الغاربة، ومن وقتٍ لوقت، وفوق السّياج يظهرُ ويختفي طرفُ مشعبٍ محمّلٍ بالعلف، ولا يلزم أكثر من ذلك من أجل أغنية.

إن رحيلاً ما، حسبما يكون لدى المرء في قلبه وفي ذهنه، هو تسريةٌ أو ضنى. كان الجميع يبدون متخفّفين من همومهم، باستثناء واحد منهم، وهو شيخُ المجموعة، والرجل ذو القبعة التي لا بريم لها.

إن هذا العجوز الذي كان يبدو ألمانياً أكثر مما هو غير ذلك، مع أن له سحنةً من تلك السّحنات ذات الأساس الضائع، والتي تمحّي فيها الجنسيّة، قد كان أصلع، وكثير الرزانة بحيث كانت تبدو صلعتُه إكليل رأس. وكان في كلِّ مرّةٍ يمرُّ فيها من أمام تمثال العذراء القدّيسة في مقدّم السّفينة، كان

(*) شراب كحولي يستخرج تقطيراً من العنب (النبيذ) أو التفاح أو القمح إلخ..... (م: ز.ع).

يرفعُ لبديّته، ويمكن للمرء أن يلاحظ العروقَ المنتفخة والشّائخة لجمجمته.
إن تفصيلاً لرداء بالٍ ومشرّم، على شكل صرج (رداء صوفيّ) بنيّ اللون من دور شيستر، كان يتلفّع به، لم يكن يخفي إلاّ جزئيّاً رداءه المخصّر المشدود، والضيّق، والمشبوك حتى الياقة مثل جبّة الكاهن. كانت يداه الاثنتان تمتدّان إلى التّقاطع، وتلتقيان بانضمام آليّ، وهو انضمام الصّلاة المعتادة. وكانت له ما يمكن أن ندعوه بسيماء الوجه الكالحة، فسيماء الوجه هي انعكاسٌ قبل كل شيء. ومن الخطأ الظنّ بأنه ليس للفكرة لون. إن سيماء الوجه هذه قد كانت بطبيعة الحال سطحَ حالةٍ غريبة داخلية، والناتجة عن تركيبٍ من التناقضات التي يمضي بعضُها ليتلاشى في الخير، وبعضُها الآخر في الشرّ؛ وهي الكشفُ، بالنسبة للمراقب، عن إنسان بالتّقريب يمكنه أن يهبط إلى ما دون النمر، وأن يكبر إلى ما فوق الإنسان. إن عماءات الرّوح هذه موجودةٌ؛ فقد كان ثمة شيء غير مقروء في ذلك الوجه. وكان السرّ الخفيّ يصلُ فيه حتى المجرّد. كان مفهوماً أن هذا الرّجل قد عرف الشّعور المسبق بالشرّ، والذي هو الحساب، وخُلْفة الشر التي هي الصّفر. وفي لاحساسيّته، الظاهريّة، فحسب ربّما، كان التحجّران مطبوعين، تحجّر القلب، الخاص بالجلاّد، وتحجّر الفكر، الخاص بالمثقّف. وكان يمكن التّأكيد، لأن الوحشيّ له طريقته في الكمال، بأنّ كلّ شيء كان ممكناً بالنسبة إليه، وحتى التأثّر. إن كلّ عالمٍ هو جثةٌ بعض الشيء، كان ذلك الرجلُ عالماً. إن مجرّد رؤيته يجعلُ المرءَ يتكهّن بذلك العلم المطبوع في حركات شخصه، وفي ثنايا ردائه. لقد كان وجهاً مستحاثياً تعاكسُ جديتهُ تلك الحركيّة المجعّدة لمتعدّدِ اللغات، والتي تصل حتى تقطيبة الوجه، وهو فضلاً عن ذلك، متشّدد. لا شيء فيه منافقٌ، ولكن لا شيء سفيه. إنه حالمٌ مأسويّ، لقد كان الرّجل الذي تركته الجريمة متفكراً. كان لهُ حاجبٌ بندقيّ الشكل ومحوّرٌ لنظرة بطريرك. وكانت شعراته النّادرة الشائبة بيضاء على فوديّه. كان المرء يحسّ في شخصه بطابع مسيحيّ يتضاعف بنزعة تعصّبٍ تركيّ.

وكانت عقدٌ نقرسيَّةٌ تشوِّهُ أصابعه التي يشرّحها النّحول. وكانت قامتُه المديدةُ المتصلّبةُ مثيرةً للضّحك. وكانت قدمه قدمَ بحّار، فقد كان يسير ببطء على سطح السّفينة من غير أن يرى أحداً، وبهيئةٍ واثقةٍ ومشؤومة. وكانت حدقتاه مليئتين بشكلٍ غامض بالضياء، بضياء نفسٍ منتبّهة للظلمات، ومعرّضة لظهوراتٍ جديدة للوعي.

ومن وقتٍ لوقت، كان زعيمُ العصابة، بصورةٍ مباغتة ورشيقة، وسائراً على نحو متعرّج في السّفينة، يأتي ليكلّمه في أذنه. وكان العجوزُ يجيب بإيماءةٍ من رأسه. حتى ليظنَ المرء أن البرق يستشير الليل.

III

الرّجال القلقون

في البحر القلق

كان هناك رجلان مستغرقان في عملهما على السّفينة، هذا العجوز، وربّان الهوركة. وهما اللذان لا ينبغي أن نخلط بينهما وبين زعيم العصابة. كان الرّبانُ منشغلاً بالبحر، والعجوزُ بالسّماء. كان الأول منهما لا يزيح عينيه عن الأمواج، ويركز الثاني مراقبته على الغيوم. كان سلوكُ الماء هو هاجسُ الرّبان؛ وكان يبدو أن العجوز يرتابُ بالسّمت. وهو يرصدُ الكواكب من خلال كلّ أغطية السّحب.

كانت تلك هي اللحظةُ التي لا يزالُ الضوءُ طالعاً فيها، والتي تبدأ بعضُ النجوم فيها باختراق ضوء المساء، بصورةٍ ضعيفة.

كان الأفقُ فريداً، والضبابُ فيه متفرّقاً.

كان هناك ضبابٌ أكثر على الأرض، وغيوم أكثر على البحر.

أولى الرّبانُ المنشغلُ بالموج حالاً تحركاته ضبطاً كبيراً، حتى قبل أن يخرج من بورتلاند - باي. ولم ينتظر تنظيفَ الصّدأ. لقد استعرض تشبيك الحبال، وتأكدّ من أن لجمَ أعنّة الحبال الدنيا قد كان في حالةٍ جيّدةٍ، وتسندُ جيداً حبالَ جنبِ المصطبة، وهذا احتياطُ رجلٍ ينوي أن يقوم بمجازفاتٍ في السّرعة.

كانت الهوركة تغوصُ بمقدار نصف وارة(*) من الأمام أكثر مما تغوصُ من المؤخرة. وهذا عيبٌ فيها.

(*) الوارة: vare هي مقياس للطول (٣١-٣٤إنشاً) (ز.ع).

كان الرّبان ينتقّلُ في كلّ لحظةٍ من بوصلةِ الطّريق إلى بوصلة التّبديل. موجّهاً وريقتي الرّيشة إلى أشياء السّاحل. وبهدف تعرُّف وجهة الرّيح التي تستجيب هذه الأشياء لها. هبَّ في بداية الأمر هواءٌ يجريّ على حبل الشّراع، ولم يبد أنه قد اغتاظ منه، مع أنه كان يبتعد بخمسة رؤوس عن رياح الطريق. كان يقبض بنفسه على عصا القيادة بأكبر قدرٍ ممكن، وقد بدا عليه أنه لا يركن إلاّ لنفسه لكي لا يفقد أية قوّة، فتأثير الدّقّة تحافظ عليه سرعة المخر.

وبما أن الفارق بين وجهة الرّيح الحقيقية ووجهة الرّيح الظاهرية يصبحُ أكبر كلّما تزايدت سرعةُ المركب، فقد كان يبدو أن الهوركة تتجه نحو مصدر الرّيح أكثر مما تفعله في الواقع. ولم تكن الهوركة تواجه ريحاً مائلة، وهي لا تقترب منها أكثر. إنّما لا يعرفُ المرءُ مباشرةً وجهة الريح إلاّ حين تصبحُ ريحاً خلفيّة. فإذا لاحظ المرء في السّحب أشرطةً طويلة تفضي إلى النقطة نفسها في الأفق، تكون هذه النقطة هي مصدر الرّيح. غير أنه، في ذلك المساء، كانت هناك عدّة رياح، ومجالُ وجهةِ الريح قد كان مضطرباً. وهكذا، فإن الرّبان كان لا يركنُ إلى إيهامات السّفينة.

كان يقودُ السفينة بشكلٍ وجلٍ وبجرأة في آن؛ فيوجّه الصّاري بحيث يفيد من الرّيح، ويراعي الانحرافاتُ المباغتة، وينتبه للتّمايل الدّوراني، ولا يدع السّفينة تقترب، ويلاحظ الحيدان، ويدوّن صدمات عصا القيادة الصغيرة، ويرصدُ كلّ ظروفِ الحركة، وعدمَ تساوي سرعة المخر، والهبوبات المجنونة، ويقفُ باستمرار، خوفاً من المخاطرة، على بعدٍ معيّنٍ من رياح السّاحل الذي يسير بمحاذاته، ويُبقي خصوصاً زاوية دوّارة الرّيح مع الصّالب[*] مفتوحة أكثر من زاوية الأشرعة، لأن وجهةَ الرّيح التي تشير إليها البوصلةُ مشكوكٌ بها، بسبب صغرِ بوصلة الطريق. وكانت حدقةُ عينه، المخفضةِ برباطةِ جأش، تتفحّصُ كلّ الأشكال التي يتّخذها الماء.

ومع ذلك، فذات مرّة، رفع عينيه نحو الفضاء، وحاول أن يلمحَ النّجوم الثّلاث الموجودة في حمّالة أوريون: وتسمّى هذه النجوم بالمجوسيّين الثلاثة،

(*) عارضة خشبية في أرض المركب. (م: ز. ع).

ويقول مثلٌ قديم عند القباطنة الإسبان القدماء: من يرى المجوسيِّين الثلاثة لا يكون بعيداً عن المخلِّص.

تساوقت نظرة الرّبان تلك إلى السّماء مع تلك المناجاة التي دمدم بها العجوز في الطّرف الآخر من السّفينة:

"إننا لا نرى حتى لاكلير دي غارد (كلير الحرس) ولا كوكبَ أنتاريس، برغم احمراره، ما من نجمةٍ يمكن تمييزُها"(٥٣).

لم يكن هناك أيُّ هاجسٍ لدى الهاربين الآخرين.

مع ذلك، فعندما انقضى المرحُ الصّاخب الأول للهروب، كان لا بدّ فعلاً أن يلاحظوا أنهم في البحر في شهر كانون الثاني، وأن ريحَ الشمال قد كانت جليديّة. وكان من المتعذر المكوثُ في قمريّةِ السّفينة، الضيقة فوق الحدّ، والمزدحمة فوق ذلك بالأمتعة والحزم الصّغيرة. كانت الأمتعةُ تخصّ المسافرين والحزمَ الصّغيرة تخصّ الطاقم، لأن الهوركة لم تكن إطلاقاً سفينةً للنزهة، وكانت تقوم بالتّهريب. وقد تعيّن على المسافرين أن يقيموا على سطح السّفينة، وهذا تنازلٌ سهل على هؤلاء الرّحل. إن عادات الهواء الطّلق تجعل من اليسير على هؤلاء المشرّدين أن يقوموا بترتيبات الليل: إن العراء هو من بين أصدقائهم، والبردُ يعينهم على النوم، وعلى الموت أحياناً.

في تلك الليلة، فضلاً عن ذلك، وكما رأينا منذ قليل، كان النجم الجميل (العراء) غائباً.

أما اللانغدوسيّ (الجنوبي اللغة) والجنوبيّ فقد كانا متكوّرين بقرب النّساء، في أسفل الصّاري، وتحت أغطية البضائع التي رماها البحّارة لهم.

مكث العجوز الأصلع واقفاً في المقدّمة، بدون حراك، وكأنه لا يحسّ بالبرد. أما ربّان الهوركة فقد أطلق من دفة القيادة التي كان فيها نوعاً من نداء صخريّ شبيهٍ بالصّوت التعجبيّ الذي يُطلقه الطير الذي يسمّونه في أمريكا بالطيّر الهاتف: وعند هذه الصّيحة اقترب زعيم العصابة، ووجه إليه الرّبان هذا النداء Etcheco jauna!، وهاتان الكلمتان الباسكيتان اللتان تعنيان

'يا فلاح الجبل' هما عند هؤلاء الكانتابريين(*) القدماء استهلالاً للكلام ارتسامياً ويفرض الانتباه.

ثم دلّ الرّبان الزعيم على العجوز بإصبعه، وتواصل الحوارُ بالإسبانية، السّليمة قليلاً، من جهةٍ ثانية لأنه بالإسبانية الجبليّة، وهذه هي الأسئلة والرّدود:

Etechco jauna,que es est hombre ?(**)

un hombre.

_ que lenguas habla?

(*) قدامى الإسبان من سكان خليج غاسكونيا (م: ز.ع).

(**) 'يا فلاح الجبل، من هو هذا الرّجل؟

رجل.

أيةّ لغات يتكلّم؟

كلّ اللّغات.

وأيةّ أشياء يعرف؟

كلّ الأشياء.

وما هو بلده؟

لا بلد له، وكلّ البلدان.

وما هو إلهه؟.

اللّه.

ماذا تسميّه؟

المجنون.

ماذا تقول إنك تدعوه؟

الحكيم.

ومن هو في جماعتكم.

هو ما هو عليه.

الزّعيم؟

وإذن فما هو؟

الرّوح.

_ Todas.

_ que cosas sabe?

_ Todas.

_ quel pais?

_ Dios.

_ como le llamas?

_ El tonto.

_ como lices que le llamas.

_ Ei sabio.

_ En vuestre tropa,que esta.

_ El gefe.

_ No.

_ pues,gue esta?.

_ la alma.

افترق الزّعيمُ والرُّبان، وعاد كلٌّ منهما إلى أفكاره، وبعد قليل خرجت الماتوتينا من الخليج.

وبدأت تمايلاتُ عرضِ البحر الكبرى.

كان البحرُ، من خلال تفرُّقات الزّبد، ذا مظهر لزج. أما الأمواجُ التي تُشاهَد في الضّوء الشّفقي ذي الصورة الجانبيّة الضائعة فقد كان لها مظهر بقعِ المرارة. وفي هذا المكان وذاك، كانت موجةٌ تطفو بصورةٍ مسطّحة تُبدي شقوقاً ونجوماً، مثل لوحٍ زجاجي قُذف بالأحجار. وفي مركزِ تلك النُجوم، وفي ثقب مدوّم، كان يرتعشُ وميضٌ هو شبيهٌ إلى حدٍّ كافٍ بانعكاسٍ رشيق للضّوء المتواري، والموجود في حدقة البوم.

اجتازت الماتوتينا بزهوٍّ، وكسّباحة جسورَ الاهتزاز المخيف للرّصيف الصّخري، رصيف شامبور. إن رصيفَ شامبور، الذي هو عائقٌ خفيٌّ عند

الخروج من مرسى بورتلاند، ليس سدّاً إطلاقاً، إنه مدرّج. ميدانٌ متدرجٌ رمليٌ تحت الماء، ودرجاتٌ تحتها دوائرُ الموج، وحلبةٌ مستديرة ومتناظرة، وعالية مثل يونغفراو، ولكنه غارق، ومدرجٌ مثل الكوليزية في المحيط يلمحه الغاطس من خلال شفافيّة الابتلاع الرؤيويّة، وذلك هو رصيفُ شامبور. إن الحيوانات المائيّة الضخمة تتقاتلُ فيه، وتلتقي فيه وحوشُ البحر، فهناك، كما تقول الأساطير، وفي قعرِ قمعٍ عملاق، جثثُ سفنٍ قبضت عليها، وأغرقتها عنكبوتٌ كراكن(٥٤) والتي يسمونها أيضاً بالسّمكة – الجبل. تلك هي عتمة البحر المرعبة.

إن هذه الوقائع الشّبحيّة التي يجهلها الإنسان تتبدّى على السّطح من خلالِ بعض الارتعاش.

في القرنِ التاسع عشر، أصبح رصيفُ شامبور مهداً؛ فكاسرُ الأمواج الذي بُني مؤخراً قد قلب وبتر بقوّةٍ ارتداداتِ تلك العمارة العالية تحت البحر، مثلما بدّل المكسرُ المبنيُّ في لوكروازيك عام ١٧٦٠ لربعِ ساعةٍ فيه توضُّعَ تيارات المدّ. ومع ذلك، فالمدُّ أبديّ، غير أن الأبديّة تمتثلُ للإنسان أكثر مما نظنّ.

IV
دخول غيمة مختلفة عن سواها إلى الساحة

لم يعدْ الرّجل العجوز الذي وصفه زعيمُ الجماعة بالمجنون في البداية، ثمّ بالحكيم، لم يعدْ يترك مقدمة السّفينة(٥٥). ومنذ عبور رصيف شامبور، كان اهتمامه يتوزع بين السماء والمحيط. كان يُخفض عينيه، ثم يرفعهما. وما كان يتفحّصه خصوصاً، كان الشمال الشرقي.

عَهد الرُّبان بدفّة القيادة إلى أحد البّحارة، وخطا فوق مأطورةِ حفرةِ الجبال، واجتاز الممرّ الطّولي، ووصل إلى طرفِ مؤخّرة الجؤجؤ.

دنا من العجوز، ولكن ليس مواجهةً، ومكث إلى الوراء قليلاً هناك، ومرفقاه مشدودان إلى وركيه، ويداه مُبعدتان، ورأسه منحنٍ على كتفه، وعينُه مفتوحة، وحاجبه مرفوع، وإحدى زاويتي شفتيه باسمة، وهذا هو موقف الفضول، حين يتردّد بين السّخرية والاحترام.

أما العجوزُ، فسواء كانت لديه عادةُ التكلُّم أحياناً بمفرده، وسواء كان الشّعور بأنّ أحداً وراءه يحرِّضُه على الكلام، فقد بدأ يناجي نفسه وهو يتأمّلُ الامتداد الشّاسع.

'إن الهاجرة(*) التي يحسبون منها الصّعود المستقيم يتمّ تحديدُها في هذا القرن بأربعة نجوم، هي النجمة القطبية، وكرسي كاسيوبيه، ورأس أندروميد، ونجمة الجنوب والتي هي الفرس الأعظم. ولكن ما من نجمةٍ منها مرئيّة'.

(*) الهاجرة هي: خطّ نصف النّهار. (م: ز.ع).

كانت هذه الكلماتُ تتالى بشكلٍ آليّ، وبصورة مشوّشة، وكأنها قد قيلت تقريباً، ومن غير أن يتدخّل إلى حدّ ما بالتّلفّظ بها. كانت تطفو خارج فمه وتتبدّد. إن المناجاة هي دخانُ نيرانِ الفكر الداخليّة.

وقاطعه الرُّبان قائلاً:

"سيّدي...".

فتابع العجوزُ الأصمُّ بعضَ الشّيء ربّما في الوقت نفسه الذي يتفكّر فيه كثيراً:

"ليس هناك ما يكفي من النجوم، وهناك ريحٌ أكثر مما يلزم. إن الرّيح تترك طريقها دوماً لكي تنقضّ على السّاحل. إنها تنقضّ عليه عموديّاً. وهذا يعودُ إلى أن الأرضَ أكثرُ سخونةً من البحر، فهواؤها أخفّ. إن ريحَ البحر الباردة والثّقيلة تندفع إلى الأرضَ لتحلّ محلّه. وهذا هو السّبب في أن الرّيح في السماء المكشوفة تهبُّ نحو اليابسة من كلّ الجهات. وقد يكونُ من المهمّ القيامُ بتموّراتٍ مستطيلةٍ بين دائرة التوازي المقدَّرة ودائرة التوازي المفترضة. وحين لا يختلف خطُّ العرض المفترض أكثر من ثلاث دقائق خلال عشرة فراسخ، وأربع دقائق خلال عشرين فرسخاً، تكون السّفينة في المسار الصّحيح".

أدّى الرّبان تحيته، غير أن العجوزَ لم يره إطلاقاً. إن هذا الرّجل الذي كان يرتدي تقريباً ثوباً فضفاضاً يلبسُه جامعيّو أوكسفورد أو غوتينغ، لم يكن يتحرّك من وضعيّته المتعجرفة والفظّة. كان يلاحظ البحر كعارف بمياهه وبالناس. كان يدرسُ الأمواج. وكأنه تقريباً سيطلب دوره في الكلام من خلال صخبها ويعلّمها شيئاً. كان في شخصه معلمٌ وعرّاف. كان يبدو مدّعياً بمعرفة اللجّة.

تابع مناجاته، التي أطلقها ربّما، لكي تُسمَع، في نهاية المطاف.

"يمكننا أن نكافحَ، ولو كان لدينا طريقٌ بدلاً من دفّة قيادة. فبسرعة أربعة فراسخ بالسّاعة، يمكن لثلاثين ليبرة من الجهدُ تُطبّق على الدّولاب أن

تنتج ثلاثمائة ألف ليبرة من الجهد على المقود. وأكثر من ذلك أيضاً، لأن هناك حالاتٍ يمكن أن نجعل فيها عدّة السّفينة تقومُ بدورتين إضافيّتين".

حيّا الربان للمرة الثانية وقال:

"يا سيّدي.....".

حدّقت به عينُ العجوز، واستدار برأسه من غير أن يتحرّك جسمه.

"نادني يا دكتور.

- يا سيدي الدّكتور، أنا الرّبان.

"فردّ الدكتور":

- فليكن.

- أما الدكتور - ولسوف نسميه كذلك من الآن - فقد بدا أنه موافقٌ على الحوار:

- أيّها الرّبان، هل لديك ثمانيّة انكليزية؟

- لا.

- من غير ثمانيّة انكليزيّة لن تُستطيع الارتفاعَ، لا من الخلف ولا من الأمام.

فردّ الربان:

- كان الباسكيّون يرتفعون قبل أن يكون هناك انكليز.

- لا تركن إلى الاقتراب من مهبّ الرّيح(٥٩).

- أُرخي المقاومة إذا لزم الأمر.

- هل قمتَ بقياسِ سرعةِ السّفينة؟

- أجل.

- متى؟

- قبل قليل.

- وبأية وسيلة؟

- بوساطة المسراع.

- هل عُنيتَ بمراقبةِ خشب المسراع؟

- أجل.

- هل تستغرقُ السّاعةُ الرمّليّةُ ثلاثين ثانية بالضّبط؟

- أجل.

- هل أنت متأكّد من أن الرملَ لم يحكّ إطلاقاً الثُّقبَ بين القارورتين؟

- أجل.

- هل قمتَ بالتجربةِ المعكوسة للسّاعة الرمّلية عن طريق اهتزازِ رصاصةِ بندقيّةِ الفتيلة المعلّقة...

- بخيطٍ مسطّحٍ مشدود من فوق الثّقب المنقوع؟ بلا شكّ.

- هل شمّعت الخيط لكي لا يتمدّد؟

- أجل.

- هل قمت بتجربةِ المسراع المعاكسة؟

- قمتُ بتجربة السّاعة الرّملية عكسيّاً عن طريقِ رصاصةِ بندقية الفتيل، وتجربةِ المسراع عكسيّاً عن طريق قنبلة المدافع.

- ما هو قطرُ قنبلتك؟

- قدمٌ واحد.

- ثقلٌ جيد.

- إنها قنبلةٌ قديمة للهوركة الحربيّة القديمة، لاكاس دوبار غران.

- التي كانت في أسطول الأرمادا؟

- أجل.

- والتي كانت تحملُ ستمائة جنديٍّ، وخمسين ملاحاً وخمسة وعشرين مدفعاً؟

الغرق يعرفُ ذلك.

- كيف وزنتَ صدمةَ الماء للقنبلة؟

- بواسطة قبان ألمانيّ.

- هل أخذت بحسبانك دفع الماء للحبل الذي يحمل القنبلة؟

- أجل.

- ما هي النتيجة؟

- كانت صدمةُ الماء مئة وسبعين ليبرة.

- أي أن السّفينة تقطعُ أربعةَ فراسخ بالسّاعة في فرنسا.

- وثلاثة في هولندا.

- ولكن هذا فقط هو فائضُ سرعةِ المخر عن سرعة البحر.

- بلا شكّ.

- إلى أين تتوجّه؟

- إلى جُوين أعرفه بين لويولا وسان - سيباستيان.

- خذْ موضعك بسرعة على موازاة مكان الوصول.

- أجل، بأقلّ حيدانٍ ممكن.

- لا تركن إلى الرياح وللتيارات؛ فالأولى منها تحرّضُ الثانية.

- ترويدوريس(*).

- لا كلمات مهينة. إن البحر يسمع. فلا تشتم شيئاً، اكتفِ بالمراقبة.

- لقد راقبتُ، وأنا أراقب. إن المدّ في هذه اللّحظة ضدّ الرّيح. ولكن بعد قليل. حين يجري مع الرّيح، نحصل على شيء جيد.

(*) غادرة.

- ألديك كشاف طرق؟
- لا، ليس من أجل بحرٍ كهذا.
- إذاً، فأنت تبحر على غير هدى؟
- إطلاقاً. لديّ البوصلة.
- البوصلة عين، وكشاف الطّرق هو العين الأخرى.
- إن الأعور يرى.
- كيف تقيس الزّاوية التي يصنعها فريق السّفينة مع الصّالب(*)؟
- لدي فرجار (بوصلة) التبدّل والانحراف، ثم إني أخمّن.
- التخمين، هذا أمرٌ جيد، والمعرفة أمرٌ أفضل.
- كريستوف(**) كان يخمّن.
- حين يكون هناك ضباب، وحين تدور دوّارة الرّياح بشكل شرير، لا يعود المرءُ يعرف أيّة عدّة انطلاق تتخذ الرّيح، وينتهي الأمر بألا يعودَ المرءُ قادراً على التقدير، ولا على التصحيح إطلاقاً. إن حماراً مع مرشدٍ طريقه هو أفضل من متنبّئ مع وحيه.
- ما من اضطراب بعد، في ريح الشّمال ولا أرى داعياً للذّعر.
- إن السُّفن ذبابٌ في نسيجٍ عنكبوتِ البحر.
حالياً كل شيءٍ في حالةٍ جيدة إلى حدٍّ كافٍ في الموج وفي الرّيح.
- ارتعاشٌ لنقاطٍ سوداء في المياه، ذلك هم الرجالُ في المحيط.
- لا أتنبأ بشيء سيءٌ لهذه الليلة.
- يمكن أن يحدثَ إشكالٌ بحيث تجد مشقّة في التخلّص من الورطة.
- حتى الآن كلّ شيء يسير على ما يرام.

(*) عارضة رئيسية تمتد على طول قعر المركب. (م: ز.ع).

(**) كولومب. (كولومبوس).

حدقت عين الدكتور بالشمال الشرقيّ.

فتابع الربان يقول:

"لنقصدْ فقط خليج غاسكونيا، وأنا أتعهّد بكلّ شيء. آه! عجباً، إني أكون فيه في منزلي. فأنا أعرفه خليجي، خليج غاسكونيا. إنّه جرنٌ غالباً ما يكون غاضباً فعلاً. ولكنني هناك أعرفُ كلّ ارتفاع الماء، وكلّ صفات القعر، إنه إناءٌ أمام سان سيبريانو، وقواقع أمام سيزارك، ورمال في رأس بيناس، وحصىً صغيرة في بوكودو ميميزان، وأنا أعرفُ لون كلّ الحصى".

قطع الرُّبان كلامه، فلم يعدْ الدّكتور يصغي إليه.

كان الرُّبان يتأمل الشّمالَ الشّرقيّ. وكان يمرُّ على ذلك الوجه الجليديّ شيءٌ يفوق المعتاد. كان كلُّ حجمِ الذّعر الممكن مرتسماً فيه على قناعٍ حجريّ. وترك هذا التعبير يفلت من فمه:

"الحمد لله!"

أما حدقتهُ التي غدت عينَ بومٍ تماماً، ومستديرةً تماماً، فكانت قد توسّعت من الذّعر وهو يتفحّصُ نقطةً في الفضاء.

وأضاف:

"هذا صحيح. أما أنا، فموافق".

كان الرّبان ينظر إليه.

واستأنف الدكتور وهو يتكلّم مع نفسه، أو يتكلّم مع أحدٍ في اللّجة:

- أقول نعم.".

سكت، وفتح عينيه أكثر فأكثر، وهو يضاعفُ انتباهه لما كان يراه، واستأنف:

"هذا يأتي من البعيد، ولكن هذا يعرفُ ما يصنع ذلك".

إن قطعةَ الفضاء التي كان يغطسُ فيها شعاعٌ بصر الدّكتور وفكره، وبما أنّها معاكسة للغروب، فقد كان ينيرُها الانعكاسُ الشّفقيّ الواسع مثلما هو الأمر

في النهار تقريباً. وهذه القطعةُ، المحصورةُ إلى حدٍّ كبير، والمحاطةُ بمزقٍ من البخار المائل للرماديّ، كانت زرقاء بكلّ بساطة، ولكن بزرقةٍ قريبةٍ من الرّصاص أكثر ممّا هي قريبةٌ من اللازورد.

أما الدّكتور، الذي استدار تماماً إلى جهة البحر، من غير أن ينظر إلى الرّبان مذ ذاك، فقد أشار بسبابته إلى تلك القطعة الفضائية وقال:

"أيها الرّبان، هل ترى؟

– ماذا؟

– ذلك.

– ماذا؟

– هناك.

– لوناً أزرق، أجل.

– ما هذا؟

– زاوية من السّماء.

فقال الدّكتور:

– بالنسبة للذين يذهبون إلى السّماء، وبالنّسبة لمن يذهبون إلى موضعٍ آخر، فهذا أمرٌ مختلف".

وشدّد على تلك الكلمات الملغزة بنظرةٍ مرعبة ضائعةٍ في العتمة.

وهيمنت لحظةُ صمت.

أما الربّان، الذي أخذ يفكّرُ بالتّوصيفِ المزدوج الذي أعطاه الزّعيمُ لذلك الرّجل، فقد طرح في نفسه هذا السّؤال: هل هذا مجنون؟ هل هذا رجلٌ حكيم؟

بقيت السّبابة العظميّة والمتصلبّة للدكتور منتصبةً كتحذير باتجاه الزاوية الزّرقاء المعكرّة في الأفق.

عاين الرّبانُ ذلك اللونَ الأزرقَ.

ودمدم:

في الواقع، ليس هذا جزءاً من السَّماء، إنه غيم.

فقال الدكتور:

- غيمٌ أزرق، أسوأ من الغيم الأسود.

وأضاف:

- إنه غيمُ الثَّلج.

فقال الربان وكأنه يسعى إلى أن يفهمَ بصورةٍ أفضل، من خلال ترجمة التعبير لنفسه:

- ' la nube de la nieve."

وسأل الدكتور:

- هل تعرف ما هو غيمُ الثلج؟

- لا.

- سوف تعرفُ ذلك بعد قليل'.

وعاد الرّبان يتكلمُ بصوتٍ خافت. في الوقت نفسه الذي يراقبُ فيه الغيم.

شهرٌ من الزوابعِ، وشهرٌ من المطر، وكانون الثّاني الذي يسعل وشباط الذي يبكي، هذا هو كلُّ شتائنا الخاصُّ بنا نحن الأسطوريين. إن مطرنا حارٌ. وليس لدينا ثلجٌ إلا على الجبل. فمثلاً، حذار الجرف الثّلجي! فالجرف الثلجيّ لا يعرف شيئاً، الجرف الثلجيّ هو البهيمة.

وقال الدكتور:

- والإعصار، هذا هو الوحش'.

وأضاف الدكتور بعد لحظة توقّف.

'ها هو يأتي'.

واستأنف يقول:

'إن عدداً من الرّياح تأخذ بالعمل في آن. ريحٌ عاصفةٌ من الغرب، وريحٌ جدُّ بطيئة من الشرّق.

فقال الرّبان:

- تلك الرّيحُ مخادعةٌ.

وكانت السّحابةُ الزرقاءُ تكبر.

وتابع الدكتور يقول:

- إذا كان الثّلجُ مخيفاً حين ينزلُ من الجبل، فقدّر ماذا يكون عليه حين يهبطُ مندفعاً من القطب".

كانت نظرتُه كابية. وكانت الغيمةُ تبدو وكأنّها تكبرُ في وجهه في الوقت نفسه الذي تكبرُ فيه على الأفق.

استأنف بلهجةٍ حالمة:

"كلُّ الدقائق تقودُ إلى السّاعة، ومشيئة الأعلى تتفرج.

وطرح الرُّبانُ على نفسه مجدّداً، وفي مخيلته نقطةَ الاستفهام التالية:

"هل هذا مجنون؟"

سارع الدّكتور إلى القول، وحدقتُه معلّقةٌ دوماً بالغيمة:

"أيّها الربّان، هل أبحرت كثيراً في المانش؟"

فردّ الرّبان قائلاً:

"هذه هي المرّة الأولى اليوم".

أمّا الدكتور الذي كانت الغيمة الزّرقاء تشغل ذهنه، والذي كان كالأسفنج الذي ليس له إلاّ قدرةٌ على الماء، فلم تكن له إلاّ قدرة على القلق، لم يكن، عند جواب الرّبان ذاك،متأثراً إلى درجةٍ تتعدّى هزّة كتفٍ خفيفة.

"وكيف ذلك؟

- يا سيدي الدكتور، أنا لا أقوم عادةً إلاّ بالسّفر إلى ايرلندا. فأنا أذهب من فونتارابي إلى بلاك هاربر، أو إلى جزيرة أكيل، والتي هي جزيرتان. وأحياناً، أذهب إلى براشيبولت، والتي هي أحد رؤوس بلاد الغال (ويلز) غير أني أقودُ سفينتي دوماً من جهة جزر سيلي. ولا أعرف هذا البحر.

- هذا خطير. الويل لمن يتهجّأ المحيط! فالمانشُ هو بحرٌ يجب قراءتُه بيسر. إنّه أبو الهول. فلا تركنْ إلى القعر.

- نحن هنا على خمسة وعشرين باعاً بحريّاً.

- ينبغي أن نصل إلى خمسة وخمسين باعاً عند الغروب، وأن نتحاشى العشرين باعاً عند الشرّوق.

- سوف نسير خلال مسارنا.

- ليس المانش بحراً كغيره؛ فالمدُّ يرتفعُ فيه إلى خمسين قدماً في المياه المتموّجة، وخمسة وعشرين قدماً في المياه الراكدة. الجزرُ، هنا ليس الانحسار، والانحسارُ ليس المدّ الهابط، آه! تبدو لي حائراً في الواقع.

- هذه الليلة، سوف نقوم بالسّبر.

- من أجل السّبر، لا بدّ من التوّقف. ولن تستطيع ذلك.

- لماذا؟

- بسبب الرّيح.

- سنحاول.

- الزوبعةُ سيفٌ في الخاصرة.

- سوف نقوم بالسّبر، يا سيّدي الدّكتور.

- لن تتمكّن فقط أن تضع جانب السفينة بشكلٍ معترض.

- الإيمان بالله.

- احذر في كلامك. ولا تتلفّظْ بخفّةٍ بالاسم المغضوب.

- أقول لك إنني سأسبر.

- كن متواضعاً؛ فبعد قليل سوف تلطمُك الرّيح.

- أعني أنني سأحاول أن أسبر.

- إن صدمةَ الماء ستمنع رصاصَ المسبر من النزول وسينكسرُ الخيط. آه! أنت تأتي إلى هذه المناطق البحريّة للمرّة الأولى؟

- للمرّة الأولى.

- حسناً، في هذه الحالة، اسمعْ، أيّها الرّبان.

كانت نبرةُ هذه الكلمة، اسمعْ، آمرةً بحيث أن الرّبان قد أدّى التحيّة.

يا سيدي الدكتور، إني أصغي.

- اربطْ الشّاغول على يسار السّفينة، وشطِّطْ على الميمنة.

- ماذا تعني؟

- ضع جؤجؤ السّفينة إلى الغرب.

- كارامبا! (اللعنة!).

- ضع الجؤجؤ إلى الغرب.

- غير ممكن.

- كما تشاء. إن ما أقوله لك هو من أجل الآخرين. أما أنا، فأقبل.

- ولكن، يا سيدي الدّكتور، الجؤجؤ إلى الغرب.

- نعم أيّها الرّبان.

- إن الرّيحَ معاكسة.

- أجل، أيّها الرّبان.

- إنّه اهتزازٌ شيطانيّ!

- اخترْ كلمات أخرى. أجل، أيّها الرّبان.

- إنها السّفينةُ على منصّة التعذيب.

- أجل، أيّها الرّبان.

- ربما يكون الصّاري مكسوراً!

- ربّما.

- أنت تريدُ أن أقود باتّجاه الغرب!

- أجل.

- لا يمكنني ذلك.

- في هذه الحالة، تخاصمْ مع البحر كما تشاء.

- سيتعيّن على الرّيح أن تبدّل اتجاهها.

- لن تبدّله طيلة الليل.

- لماذا؟

- إنه هبوبٌ طولُه ألفٌ ومئتا فرسخ.

- الذّهاب بعكس هذه الرّيح! مستحيل.

- الجؤجؤ إلى الغرب، أقول لك!

- سأحاول. ولكنّا سننحرفُ عن خطّ سيرنا برغم كلّ شيء.

- هذا هو الخطر.

- إن رياحَ البحر تسوقُنا إلى الشّرق.

- لا تذهبْ إلى الشّرق.

- لماذا؟

- أيّها الربان، هل تعلم ما اسمُ الموتُ بالنسبة إلينا اليوم؟

- لا.

- الموت يسمّى الشّرق.

- سأقود إلى الغرب؟"

نظر الدّكتور هذه المرّة إلى الرّبان، ونظر إليه بتلك النّظرة التي تحدّق لكي تغرز فكرة معيّنةً في دماغٍ ما. كان قد استدار بكليّته نحو الرّبان وتلفّظ بهذه الكلمات ببطء، مقطعاً مقطعاً.

"إذا سمعنا، هذه الليّلة. ونحن في وسط البحر صوتَ جرس، فإن السّفينة ستهلك".

فتأمّله الرّبانُ مدهوشاً:

"ماذا تعني؟".

لم يجبه الدكتور. ونظرتُه التي خرجت للحظة، عادت لتغور الآن، وأصبحت عينُه منكفئةً إلى الداخل مجدّداً. ولم يبد إطلاقاً أنه يلتقط سؤال الرّبان المذهول. لم يعد ينتبه إلاّ إلى ما كان يصغي إليه في ذاته. وتلفّظت شفتاه، وكأنما بصورة آلية" بهذه الكلمات الخفيفة المعدودة وكأنّها همس:

"أنتَ اللحظةُ التي تغتسلُ فيها النفوسُ السّوداء".

ومطّ الرّبان شفته بصورةٍ معبرّة ببرطمةٍ تقرّبُ من أنفه أسفلَ وجهه كلِّه.

ودمدم:

"هذا هو المجنون أكثر مما هو الحكيم".

وابتعد.

ومع ذلك، فقد وضع الجؤجؤ إلى الغرب.

غير أن الرّيحَ والبحرَ أخذا يعظمان.

V
هاردكانون

كانت كلُّ ضروب التورُّم تُغيّر شكل الضبّاب، وتضخّمٌ في آن كلٌّ نقاط الأفق، وكأن أفواهاً لا يراها المرءُ قد انشغلت بنفخٍ قرَبِ العاصفة. وأخذ تشكيلُ الغيوم يصبح مقلقاً.

كان السّحابُ الأزرقُ يشغلُ خلفيّة السماء بأكملها. وأصبح هناك مقدارٌ من هذا السّحاب الآن في الغرب يعادل ما في الشرّق. وكان يتقدّم بعكسِ الرّيح البحريّة. فهذه التّعارضات تشكّل جزءاً من الرّيح.

أما البحرُ الذي كانت له حراشف، قبل لحظةٍ من الزّمن، فقد أصبح له جلدٌ الآن. إنه أشبهُ بالتّنين. لم يعدْ هو التمساح، لقد أصبح ثعبانَ البواء. وذلك الجلد، المرصّصُ والقذرُ، كان يبدو سميكاً. وهو يتجعّد بشكلٍ بطيء. وعلى السّطح، كانت تتكوّر فقاعاتُ أمواجٍ صاخبة، معزولةٌ، وشبيهةٌ بالبثّور، ثم تنفجر.

لقد كان الزّبدُ يشبه الجذام.

في تلك اللحظة إنما أشعلت الهوركة التي لم يزل يلمحُها من بعيد الطّفلُ المتروكُ، أشعلت ضوءها.

انقضت ربعُ ساعة.

بحث الرّبان بعينه عن الدكتور. إنه لم يعدْ موجوداً على سطح السّفينة.

ما إن تركّه الرّبانُ، حتى أحنى الدُكتور تحت وقاء الغرفة قامته التي قلّما كانت مرتاحة، ودخل إلى القمرة. وهناك جلس بقرب الموقد، على معبر الصّواري(٦٠). وكان قد سحب من جيبه محبرةً من الجلد المحبّب، ومحفظةً

من الجلد القرطبيّ، وكان قد أخرج من المحفظة رقّاً مثنياً إلى أربع ثنيات، قديماً، ومبقّعاً بالأصفر، وبسطَ تلك الورقة، وأخذ ريشةً من علبة محبرته، ووضع المحفظة بشكلٍ مستوٍ على ركبته، والرقّ على المحفظة، وعلى قفا ذلك الرّق، وعلى أشعّة المصباح الذي كانٍ ينير المطبخ، أخذ يكتب. كانت اهتزازاتُ الموج تضايقُه. واستمرَّ يكتبُ فترةً طويلة.

لاحظ الدّكتور أثناء الكتابة، أن مطرة ماء الحياة التي كان البروفانسيّ يتذوّقها، وفي كلّ مرةٍ يضيفُ فيها قرنَ فليفلة إلى السُّلامة المتبّلة، وكأنه يستشيرُها حول التّتبيل.

لاحظ الدّكتور تلك المطرة، ليس لأنّها زجاجةُ ماء الحياة، لكن بسبب اسمٍ كان مجدولاً في السّوحر، بأسلٍ أحمر في وسط الأسَل الأبيض. وكان المكانُ نيراً بما يكفي في القمرة حتى يكون بالإمكان قراءةُ ذلك الاسم.

قطع الدكتور كتابته، وتهجّأه بصوتٍ خافت: "هاردكاذون"؟

ثم توجه بالكلام إلى الطّباخ:

"لم أكن قد انتبهت بعد إلى هذه المطرة. فهل كانت تخصّ هاردكانون؟

فقال الطبّاخ:

- رفيقنا المسكين هاردكاذون، أجل.

فتابع الدكتور"

- هاردكاذون، الفلمنكيّ من الفلاندر؟

- أجل.

- والذي هو في السّجن؟

فردّ الطبّاخ: هذه مطرته. وقد كان صديقي. وإني أحتفظ بها كذكرى منه. فمتى سنراه ثانية؟ أجل، هذه هي مطرته الجانبيّة".

أمسك الدكتور مجدّداً بريشته، وأخذ يرسمُ بعناءٍ خطوطاً متعرّجة بعض الشّيء على الرّق. كان يهتمّ بطبيعة الحال بأن يكونَ ما يكتبه جدّ مقروء. وبرغم اهتزاز السّفينة، ورجعة العمر، فقد أنجز ما كان يريدُ أن يكتبه.

لقد حان الوقت، لأن عاصفةً بحريةً عابرة قد حدثت بغتةً. وانقضّ وصدولٌ مندفعٌ للأمواج على الهوركة، وبدأ الإحساسُ بانبلاجِ ذلك الرّقص المرعب الذي تستقبلُ السّفنُ به العاصفة.

نهض الدكتور، واقترب من الموقد، معارضاً بانحناءاتٍ ماهرة من ركبته فظاظاتِ الموج الصّاخب المباغتة، وجفّف، بقدر استطاعته، على نار المقلاة، السّطور التي كتبها، وثنى الرّقّ في المحفظة، ووضع المحفظة، وظرفَ أدوات الكتابة في جيبه.

لم يكن الموقدُ هو القطعةَ الأقلّ براعةً في الإعداد الدّاخلي للهوركة؛ فقد كان في عزلةٍ جيّدة. ومع ذلك، فإن المقلاةَ قد كانت تترجّحُ. وكان البروفانسيّ يراقبها.

وقال:

"حساء بالسّمك".

فأجاب الدكتور:

- للسّمك"

ورجع إلى سطح السّفينة.

VI
يظنّون أنّهم يتلقّون العون

قام الدّكتورُ بنوعٍ من الاستعراض للوضع، من خلال انشغاله المتزايد. لو كان يمكن لأحد أن يكون بقربه لأمكنة أن يسمع هذا يخرج من شفتيه:

"مزيدٌ من التّرنحّ، وقدرٌ غيرُ كافٍ من الترجّح الأماميّ الخلفيّ". والدكتور الذي استدعاه العملُ القائمُ، عملُ ذهنه، عاود النزولَ إلى فِكْرِه مثلما ينزلُ عاملُ منجمٍ إلى بئره.

لم يكن ذلك التأمّلُ ينفي إطلاقاً ملاحظةَ البحر؛ فالبحرُ الذي تجري ملاحظتُه هو تذكّرٌ حالم.

إن عذابَ المياه القاتم والتي تضطربُ بصورةٍ مستمرّة سوف يبدأ. إن عويلاً كان يخرجُ من كلّ تلك الماء. وكانت تجري تحضيراتٌ كئيبةٌ في المدى الشاسع. وكان الدكتور يتفحّص ما كان أمام عينيه ولا يفوته أيُّ تفصيل. إضافة إلى أنه لم يكن في نظرته أيُّ تأمّل. فلا أحد يتأمّل الجحيم.

إنّ هزّةً واسعة، لا تزال طافيةً جزئياً، ولكنّها أصبحت شفّافةً من خلال اضطراب الأمداء الواسعة، كانت تزيدُ الريّح، والأبخرة والأمواج العاصفة وتجعلها أكثر خطورة. لا شيء منطقيٌ، ولا شيء يبدو غير معقول كالمحيط. إن هذا التّبعثر، تبعثره الذاتي لصيقٌ بسلطته المسيطرة، وهو أحدُ عناصرِ اتسّاعه الهائل. إن الموجَ باستمرارٍ مع وضدّ. إنه لا ينعقد إلا ليخلّ. إن أحدَ انحداراته يهاجم، وانحداراً آخر يخلّص، فما من رؤيا كالأمواج. فكيف نصفُ هذه الفجوات، وهذه البروزات المتناوبة، والتي هي حقيقيةٌ بالجهد. وهذه الوديان، وهذه الأراجيح، وهذه الاضمحلالاتُ لصدر الخيل، وهذه الخطوط

الأولى؟ كيف نفسّر أدغالَ الزبد هذه المختلطة بجبلٍ وحلم؟ إن العصيَّ على الوصف موجودٌ هنا، في كل مكان، في التمزّق، وفي التقطيب، وفي القلق، وفي التكذيب المستمرّ، في الضّوء الخافت، وفي مثلّثات قبة السّحاب، وفي مفاتيح عقود القبب التي تتهدّمُ باستمرار، وفي التّفكّك من غير فجوةٍ ومن غيرِ انقطاع، وفي القرقعةِ المأتميّة التي يصنعُها كلُّ هذا الجذون.

كانت النسائمُ البحريّةُ قد بدأت تظهرُ للتّو في قلبِ الشّمال. وكانت مؤاتيةً في عنفها إلى حدٍ كبير، ومفيدةً للابتعاد عن إنكلترا، بحيث عزم ربّانُ الماتوتينا على تغطية المركب بنسيجٍ كتّاني. كانت الهوركة تهربُ في الزبد، وكأنما خبباً، كلُّ أشرعتها منشورة، والرّيحُ خلفية، وهي تثبُ من موجةٍ إلى موجة بغضبٍ ومرح. أما الهاربون المفتونون فقد كانوا يضحكون. كانوا يخبطون بأيديهم، مصفقين للأمواج الصّاخبة، وللماء وهبّات الريّح، والأشرعة والسّرعة، والهروب والمستقبل المجهول. وكان يبدو أن الدكتور لا يراهم، وهو يتفكر حالماً.

كانت كلُّ بقيةٍ من الضوء قد احتجبت.

كانت تلك الدقيقة هي التي غابت فيها الهوركةُ عن ناظرِ الطّفل الملتفتِ إلى الصخورِ البعيدة. وحتى تلك اللحظة. كانت نظراتُه قد بقيت محدّقةً، وكأنها مركّزة على السّفينة. فأيُّ نصيبٍ كان لهذه النظرة في مصيره؟ ففي تلك اللحظة التي محت فيها المسافةُ الهوركةَ، والتي لم يعدْ الطّفل يرى فيها شيئاً، مضى الطّفل إلى الشّمال، فيما كانت السّفينة تمضي إلى الجذوب.

VII
فظاعة مقدّسة

إن أولئك الذين كانت الهوركة تحملهم كانوا ينظرون من جهتهم، بانشراح وحبور،إلى الأرض المعادية وهي تتوارى وتصغر. وأخذتْ استدارةُ المحيطِ المعتمةُ ترتفع مرققة في الشفق بورتلاند، وبوربيك، وتينهام، وكيميريدج، وما ترافير الاثنتين، والشرائط الطويلة، شرائط السّاحل الصّخري المضببّ. والسّاحل المنقّط بالمنارات.

أمّحت إنكلترا، ولم يعد حول الفارّيْن إلا البحر.

فجأة أصبح الليل رهيباً.

لم يعد هناك امتدادٌ ولا فضاء، صارت السّماءُ سواداً، وانغلقت على السّفينة، وبدأ الهطولُ البطيء للثلج. ظهرت بضعُ رقع. وكأنّها أرواح. ولم يعدْ شيءٍ مرئياً في مضمارِ سباق الرّيح. وأحسّ المسافرون بأنهم قد أسْلموا. وكان كلُّ الممكن موجوداً هناك. إنه الفخ.

من خلال ظلمة الكهف هذه، إنما يبدأ في أقاليمنا الإعصارُ القطبيّ.

كان غيمٌ عظيم عكرٌ، شبيه بباطن أفعوان، يُنيخُ بثقله على المحيط، وكان هذا البطنُ في عددٍ من المواضعِ يلتصق بالأمواج. وكان عددٌ من هذه الالتصاقات يشبه جيوباً مشقوقة، تضخُ البحرَ، وتفرغُ البخار، وتمتلئُ بالماء. كانت هذه الامتصاصاتُ ترفعُ مخاريط من الزّبْد، في هذا المكان أو ذاك على الموج.

اندفع الإعصارُ الشمالي على الهوركة، فوثبت الهوركة إلى داخله. ووصلت الزّوبعةُ والسفينة وكل منهما إلى أمام الأخرى، وكأنما لتتبادلا الشتيمة.

وفي ذلك الصّدام الأوّل المحتدم، ما من قلعٍ قد طوي، وما من شراعٍ زاويّ لم يُجلب، وما من قدّةِ شراعٍ لم تثبّت، لفرط ما أصبح الهروبُ هنيانا. كان الصّاري يقضقضُ ويلتوي إلى الخلف، وكأنه مذعور.

إن الأعاصيرَ الحلزونية، في نصف كرتنا الشمالي تدور من اليسار إلى اليمين، باتجاه عقارب السّاعة نفسه، بحركةٍ انتقالية تبلغ أحياناً ستين ميلاً في السّاعة. ومع أن الهوركة قد كانت بكاملها تحت رحمة ذلك الدّفع العنيف الدّوراني، فقد كانت تسلك وكأنّها في نصف الدّائرة الطيّع للقيادة، ومن دون احتياطٍ آخر، غير أن تنتصب أمام الموج، وأن تُعرّض مقدّمها للرّيح السّابقة، وذلك بأن تلتقي الرّيح الحالية على الميمنة لكي تتحاشى الضّربات الخلفيّة والجانبيّة، ولم يكن ممكناً لهذا الحذر الجزئيّ أن يفيد في شيء في حالةِ انقلابٍ مفاجئ للرّيح من جهة أخرى.

كانت جلبةٌ عميقةٌ تهبُّ في المنطقة التي لا يمكن بلوغُها.

إنه هديرُ اللجّة، وما من شيء يمكن تشبيهه بذلك. إنّه الصّوتُ الهائلُ الحيوانيّ للعالم. وما ندعوه بالمادّة، هذه البنية التي لا يمكن سبرُ غورها، هذا الخليط من الطّاقات غير القابلة للقياس التي نميز فيها أحياناً كميّةً غير محسوسةٍ من القصد الذي يبعثُ على الارتعاش، هذا الكونُ الأعمى واللّيليّ، هذا الكلُّ الأكبر (بان) غير المفهوم، تصدرُ عنه صرخةٌ، هي صرخةٌ غريبة، ومتّصلة الامتداد، وعنيدة، ومتمرّدة، وهي أصغرُ من الكلام وأكبرُ من الرّعد. هذه الصّرخة هي: الإعصار. أما الأصوات الأخرى، والأناشيد، والألحان، وضروب الصّخب، والأقوال، فتخرجُ من الأعشاش، ومن الفراخ الفاقسة والتّزاوجات، والقرانات، والمنازل. فهذه، التي هي الإعصار، تخرجُ من هذا اللاّشيء الذي هو الكلّ. إن الأصواتَ الأخرى تعبّر عن روح الكون. وهذه تعبّر عن مسخه. إنّها اللاّشكلُ، مُعولاً. إنها اللاّملفوظُ الذي ينطقُ به اللاّمحدّد. شيءٌ مؤثرٌ ومرعب. إن هذه الضّروب من الضّجيج تتحاورُ فيما يعلو على الإنسان وما يتعدّاه. إنها ترتفعُ، وتنخفضُ، وتتماوجُ وتحدّدُ الأمواهَ الضّاجّةَ، وتصنعُ كلّ ألوان المفاجآت المخيفة للفكر، فهي تارةً تنفجرُ بقرب أذننا بإزعاجِ جوقةِ أبواقٍ، وتارةً تكونُ لها بحّةُ المكان البعيد الجشّاء. إنها

جلبةٌ مدوِّخةٌ تشبه لغةً معيّنة، والتي هي لغةٌ في الحقيقة؛ فهي الجهدُ الذي يقومُ به العالمُ كي يتكلّمَ، إنها لجلجةُ العجيب. وفي هذا الاستهلال(*) يتمظهرُ بشكلٍ مشوّشٍ كلُ ما يقاسيه، ويكابده، ويقبله، ويلفظهُ الاختلاجُ الهائلُ المعتم. إن هذا يقول هذراً في أغلب الأحيان، ويبدو هذا مثل نوبةِ مرضٍ مزمن، إنه الصّرَع المعمّم أكثر مما هو القوة المستخدمة. ويظنّ المرءُ أنه يشهدُ سقوطاً لمرضِ الصّرَع اللانهائي. وأحياناً يستشفُ مطالبةً معيّنة للعنصر، وقصداً خفيّاً غير محدَّد يعاود فيه الخواءُ سيطرتَه على الخليقة. وأحياناً، هو شكوى، فالفضاءُ ينوحُ ويسوّغ نفسه، إنه شيءٌ يشبه قضيةً للعالم تجري المرافعةُ عنها: ويخيّل للمرءِ أنه يتكهّن بأنه الكون محاكمة: فهو يصغي، ويحاولُ أن يفهم المبرّرات المقدّمة، المؤيّدة والمضادّة المخيفة؛ فأنينٌ كهذا في العتمة له صلابةُ قياس. إنه اضطرابٌ واسعٌ للفكر. إن مسوّغ وجود الميثولوجيّات وتعدُّدات الآلهة موجودةٌ هنا. وتضاف إلى رعب هذه التمتمات الكبرى أشكالٌ جانبيةٌ فائقةٌ على البشر تتلاشى حالما تُلمَحُ، هي الآلهة العطوفة(٦٠) المتميّزة تقريباً، عن أخلاق الجنيّات الهائجة المرسومة في الغيوم، وعن الخيمرات(**) الجوفيّة المؤكدّة تقريباً.

ما من رعبٍ يعادلُ هذه الانتحابات وهذه الضحكات، وهذه الضروب من ليونةِ الفرقعة، وهذه الأسئلة وهذه الرّدود المعمّاة، وهذه النّداءات لمساعداتٍ غير معروفة. إن الإنسان لا يدري ماذا سيصبحُ بوجود هذا التّعزيم المرعب. إنّه ينثني تحت لغز هذه النغميّات الشديدة القسوة. وأيُّ شيءٍ مضمرٌ فيها؟ وماذا تعني؟ ومن تهدِّد؟ وإلى من تتوسّل؟ إن فيها انفلاتاً من العقال. زعيقٌ من هاويةٍ إلى هاوية. ومن الجوّ إلى الماء، ومن الرّيح إلى الموج، ومن المطر إلى الصّخر، ومن السّمت إلى النّظير، ومن الكواكب إلى الزّبد. إن كمامة اللجّة قد انحلّت، ذلك هو الصّخب، الذي تشابك معه اختصامٌ غامضٌ لا ندري ما هو مع النّوايا السّيئة.

(*) صوت صراخ الوليد. عند ولادته. (م: ز.ع).

(**) الخيمر هو حيوان أسطوريٌ له رأس أسد وجسم شاة وذنب حيّة (م: ز.ع).

إن ثرثرةَ الليل ليست أقلَّ حداديّةً من صمتِه. ونحسُّ فيها بغضبِ المجهول.

إن اللّيلَ حضورٌ. وهو حضورٌ من؟

فضلاً عن ذلك؛ فلا بدّ من التمييّز بين الليل والظلّمات. ففي الليل، هناك المطلقُ، وهناك المتعدّدُ في الظلّمات. إن النحوَ، وذلك المنطق لا يقبل بصيغة المفرد بالنسبة للظلّمات(*) أمّا اللّيلُ فواحدٌ، والظلّماتُ متعدّدة.

إن هذا الضبّابَ، ضبابَ السرّ الليليّ، هو المنتشر، هو الزّائل، والمتهدّم، والمشؤوم، فلم يعدْ هناك شعورٌ بالأرض، بل هناك شعورٌ بواقع آخر.

في الظلّ اللاّنهائي، وغير المحدّد، هناك شيء ما أو هناك أحدٌ ما حيٌّ. غير أن ما هو حيٌ يشكل جزءاً من موتنا. وبعد مرورنا الأرضيّ، حين يصبحُ هذا الظلُّ بالنسبة إلينا نوراً، فإن الحياة فيما وراء حياتنا تقبضُ علينا. وبانتظار ذلك، فيبدو أنه يتحسّسُنا. إن الظلمة ضغط. والليّل نوعٌ من يدٍ توضعُ على روحنا. وفي بعض السّاعات الكريهة والمهيبة، نُحسُّ بما هو وراء جدار القبر يتعدّى علينا.

لم يكن هذا الاقتراب، اقترابُ المجهول محسوساً قطّ أكثر مما هو في عواصف البحر، فالمرعبُ يزداد فيها بالوهميّ. وجامعُ - الغيوم(٦٢) يمتلك، تحت تصرّفه، لكي يكوّن الحادثة كما يحلو له، يمتلك العنصرَ الرّخوَ، وعدمَ التماسك غير المحدود، والقوّةَ المنتشرةَ من غير رأيٍ قبليّ. إن هذا السّرّ الخفيّ الذي هو العاصفة، يقبل وينفّذ، في كلّ لحظةٍ تبدّلاتٍ في المشيئة غير محدّدة، ظاهريةً أو واقعيّة.

وقد أسمى الشعراء ذلك في كلّ حين نزوة الأمواج.

إلا أن النزّوةَ غير موجودة.

إن الأشياءَ المحيرّةَ التي نسميّها في الطّبيعة، النزّوةَ، وفي المصير، المصادفةَ، هي أجزاء يمكن استشفافُها من قانون معيّن.

(*) باللغة الفرنسية: Les tenebres (الظلمات) ليس لها مفرد (م: ز.ع).

IIIV

(63)Nix Et Nox

إن ما يميّزُ عاصفةَ الثّلج هو أنّها سوداء. والمظهرُ المعتادُ للطّبيعة في العاصفة، الأرض أو البحرُ المعتم، والسّماء الدّاكنة، يصبح مقلوباً؛ فالسّماء تصبحُ سوداء، والمحيط أبيض. في الأسفل الزّبد، وفي الأعلى الظلمات. إنّه أفقٌ مسوّرٌ بالدّخان، وسمتٌ مسقوفٌ بقماشٍ حداديّ (كريب). إن العاصفة تشبه من الدّاخل كاتدرائيّةً مفروشة بالحداد. ولكن ما من أنوارٍ في هذه الكاتدرائيّة. ما من أضواءٍ صادرةٍ عن سانت - إيلم على رؤوس الأمواج، ما من شرارات، ما من التماعات فوسفوريّة؛ ما من شيء إلاّ ظلّ هائل الاتّساع. إن الإعصارَ الحلزونيّ القطبيّ يختلفُ عن الإعصار الحلزوني المداريّ في الأمر التّالي، وهو أن الأوّل منهما يشعلُ كلّ الأضواء والثاني يطفئُها جميعاً! إن العالم يصبحُ فجأةً قبّة كهف. من ذلك الليل يسقط غبارٌ من بقعٍ باهتة تتردّدُ بين تلك السّماء وذلك البحر. وتلك البقع، التي هي الرّقعُ الثلجيّة، تنزلقُ، وتشردُ، وتتطايرُ. إنها شيءٌ أشبه ما يكون بدموعِ الكفن التي تدبُّ فيها الحياةُ وتبدأ بالحركة. وتمتزج بهذا البذر ريحٌ شماليّة عاتية. السّوادُ المتفتّتُ إلى بياضات، والهائج داخل المظلم، وكلٌ الجلبة الخليقة بالقبر، وإعصارٌ تحت نعش، تلك هي عاصفةُ الثّلج.

وتحتها يرتجف المحيط مغطيّاً تعمّقاتٍ هائلةً مجهولة.

وفي الريح القطبيّة والتي هي كهربائية، تصيرُ الرّقع حبّاتِ بردٍ حالاً، ويمتلئ الجوُّ بالقذائف، ويفرقعُ الماءُ، وقد تعرّض للقصف.

ما من قصفاتِ رعد. إن برقَ الأعاصير الشّماليّة صامت. وما نقوله أحياناً عن القطِّ "إنه يحلف"، يمكن أن نقوله عن ذلك البرق. إنه تهديدٌ بشدقٍ منفرج، ولا يرحم على نحوٍ غريب. إن عاصفةَ الثلج هي العاصفةُ العمياء والخرساء. وحين تكون قد مرّت، تكون السّفن أيضاً عمياء، ويكون البحّارة خرساً. إن الخروج من لجّة كهذه أمرٌ عسير.

مع ذلك، فإن المرء قد يخطئ إذْ يظنّ أن الغرقَ لا يمكن تحاشيه إطلاقاً. والصّيادون الدّانمركيّون، صيّادو ديسكو وباليسن، والباحثون عن الحيتان السّود، وهيرنان الذي يذهب نحو مضيق بيهرنغ ليتعرّف مصبَّ نهر منجم النحّاس، وهدسون، وماكينزي، وفانكوفر، وروس، وديمون دورفيل قد عانوا، في القطب نفسه، من أكثر عواصف الثلج قسوةً، ونجوا منها.

في ذلك النوع من العواصف، إنّما كانت الهوركة قد دخلت ناشرةً كلّ قلوعها وعلى نحوٍ ظافر، سعارٌ ضد سعار. وحين دفع مونتغومري بقادسه[*] مستخدماً كلّ مجاذيفه على السّلسلة التي تسدُّ نهر السّين في لابويّ، وذلك أثناء هروبه من روان، كان متّصفاً بالسّفاهة نفسها.

كانت لاماتوتينا تتقدّمُ مسرعةً. وكان ميلُها تحت الأشرعةَ يصنع أحياناً مع البحر زاويةً رهيبةً مقدارُها خمسَ عشرةَ درجة، غير أن صالبها الجيد المستدير كان يلتصقُ بالمياه مثلما يلتصق بالدّبق. وكان الصّالبُ يقاوِمُ انتزاعَ الإعصار له. كان قفصُ النّار ينيرُ المقدّمة، وكان الغيمُ المحمل بالرّياح العاصفة، والذي يسحب انتفاخه على المحيط، كان يضيقُ ويقضمُ البحرَ بشكلٍ متزايد حول الهوركة. وما من نورس هناك، وما من سنونو واحدة على السّاحل الصّخري. لا شيء إلاّ الثلج. كان حقلُ الأمواج صغيراً ومرعباً، فلم يكن المرء يرى إلاّ ثلاثَ أو أربعَ أمواج مفرطةً في طولها.

من وقتٍ لوقت، كان برقٌ واسعٌ ذو لونٍ نحاسيٍّ أحمر يتبدّى خلف التّراكبات المعتّمة في الأفق، وفي السّمت. وكان ذلك التوسّعُ القرمزيّ يُظهرُ هولَ السّحب. إن الاضطرامَ المفاجئ للأعماق والذي كانت تبرزُ عليه، للحظةٍ

(*) القادس هو سفينةٌ حربيّةٌ شراعيّة. (م: ز.ع).

من الزمن، أوّلُ مسطحّات الغيوم، والهروبات القصيّة لركامات السّماء المشعّثة، كان يجعلُ اللجّة في نطاق المنظور. وعلى تلك الأرضيّة النّارية، كانت رقعُ الثلج تغدو سوداء، ويخيلُ للمرء أنّها فراشاتٌ داكنةٌ تطيرُ داخل أتون، ثم كان كلُ شيء ينطفئ.

بعد أن انقضى الانفجارُ الأوّل، أخذت الزّوبعة التي تسوق الهوركة باستمرار، أخذت تزمجرُ بصوتٍ خفيضٍ متواصل. هذه هي مرحلةُ القصف التي هي تناقصٌ مخيف للفرقعة. ما من شيءٍ مقلق مثل مناجاة العاصفة هذه. إن هذا الإلقاء الملحّن الكئيب يشبه زمنَ توقّفٍ تأخذه القوى الخفيّة المتحاربة، ويشير إلى نوعٍ من الترصّد في المجهول.

كانت الهوركة تواصلُ سيرها بشكلٍ جامح. وكان الشّراعان الأكبران خصوصاً يقومان بوظيفةٍ مرعبة. كانت السّماءُ والبحر بلون الحبر، بالإضافة إلى رشقاتٍ من اللّعاب تثب إلى ما يعلو الصّاري. وفي كلّ لحظة، كانت كميّاتٌ كبيرة من الماء تجتاز سطح السّفينة كالفيضان، وفي كلٍّ انعطافات الترنّح، كانت تغدو فتحاتُ كبلِ المرساة، على الميمنة تارة، وعلى الميسرة تارة، مثل أفواهٍ مفتوحة تتقيّأ الزّبد ثانية إلى البحر.

وكانت النّساء قد التجأن إلى القمره، أما الرّجالُ فقد ظلوّا على سطح السّفينة، وكان الثلجُ الذي يُعمي العيون يدوّم، وتنضافُ إليه بُصاقاتُ الأمواج الصّاخبة. لقد كان كلُ شيء مسعوراً.

في تلك اللحظة، صاح زعيمُ العصابة الذي كان واقفاً خلف عارضة أخشاب المؤخّرة(*)، ويتمسّك بإحدى يديه بكبلات الأعمدة، وينزع بالأخرى وزرته الرأسيّة والتي كان يهزّها على أضواء قفص النار، متعاظماً، ومسروراً، وشامخَ الوجه، مخيفَ الشعر، ونشواناً بكلّ تلك العتمة، وصاح:

نحن طلقاء:

فردّدت أصواتُ الهاربين:

(*) L'Arcasse هو تجمّع أخشاب مؤخرة السفينة المربعة. (م: ز.ع).

- طلقاء! طلقاء! طلقاء!

إذْ أمسكت العصابة كلّها بقبضاتها عدّة السّفينة، فقد انتصبت على السّطح،

وصاح الزّعيم:

" هورّا!"

وزعقت العصابة في العاصفة:

" هورّا!"

في اللحظّة التي كانت تتلاشى فيها تلك الجلبةُ بين هبّاتِ الرّيح، ارتفع صوتٌ رزينٌ وعالٍ من الجهة الأخرى للسّفينة، وقال: "سكوت!".

استدارت الرؤوسُ كلّها.

لقد تعرّفت صوتَ الدّكتور. وكانت الظّلمةُ كثيفةً، وكان الدكتور مستنداً بظهره إلى الصّاري الذي كان نحوُله يختلط به، ولم يكن يراه أحد.

فردّد الصّوت قائلاً:

"اصغوا!".

فسكت الجميع.

حينئذٍ سُمع في الظّلمة بوضوح رنينُ جرس.

IX
تفويضٌ يُعهَدُ به
إلى البحر الغاضب

قهقه ربّانُ القارب الذي كان يمسك بدفّة القيادة وقال: "جرس! هذا حسن إننا نشردُ إلى اليسار. وماذا يُثبت هذا الجرس؟ أن الأرض على يميننا".

ورد صوتُ الدّكتور الصّارم والبطيء:

"ليست الأرض على ميمنتكم.

فصاح الربّان:

- بلى.

- كلاّ.

- ولكن هذا الصّوتَ يأتي من الأرض.

فقال الدّكتور.

- هذا الجرسُ يأتي من البحر؟"

وسرت رعشةٌ بين هؤلاء الرّجال الجسورين. وظهر وجها المرأتين الحائران في مربّع غطاء القمرة مثل شبحين يجري استحضارُهما، قام الدّكتور بخطوةٍ، وبرزت قامتُه الطويلة السّوداء من الصّاري. وكان يُسمعُ الجرسُ وهو يرنّ في أعماق الليل.

وردّد الدّكتور قائلاً:

"في وسط البحر، وفي منتصف الطّريق بين بورتلاند وأرخبيل المانش، ثمة طوّافةٌ للتحذير. وهذه الطّوافةُ مربوطةٌ القلوس بسلاسل إلى مضاحل

البحر، وهي تطفو على سطح الماء. وعلى تلك الطوّافة قد ثُبِّتت منصبةٌ حديديّة، وبصورةٍ عرضانيةٍ من هذه المنصبة قد عُلّق جرس. وفي الطّقس العاصف، يهزّ البحر المزعزعُ هذه الطوّافة، ويرنّ الجرس، وهذا الجرس، أنتم تسمعونه".

ترك الدكتور المجالَ لمرور اشتدادِ الريح الشمالية، وانتظر أن يستعيدَ صوتُ الجرس غلبتَه، وتابع يقول:

"إنّ سماع هذا الجرس في العاصفة، حين تهبُّ ريحُ الشمال، معناه الهلاك. لماذا؟ إليكم الأمر: إذا ما سمعتم صوتَ هذا الجرس، فذلك لأن الرّيح تحمله إليكم. والحال، فإن الرّيحَ تأتي من الغرب، ومكاسرُ صخورِ أوريني في الشرق، ولا يمكنكم أن تسمعوا الجرس إلاّ لأنّكم بين الطوافة ومكاسر الصّخور؛ فإلى هذه المكاسر، إنّما تدفعكم الرّيح. إنكم في الجهة السّيئة من الطوافة. ولو كنتم في الجهة الجيّدة، لكنتم في عرض البحر، وفي أعاليه، وعلى الطريق المأمونة، ولن تسمعوا الجرس. فالرّيح لن تحمل صوته إليكم. وتمرّون بقرب الطوّافة من غير أن تعرفوا أنها موجودة هناك. لقد انحرفنا عن مسارنا، وهذا الجرس هو الغرق الذي يقرعُ ناقوس الخطر. والآن، تنبهّوا!".

كانَ الجرسُ، فيما يتكلّم الدّكتور، وقد هدّأه خفوتٌ في ريح الشمّال، يدقّ ببطء، دقّةً بعد دقّة، وكان هذا الرّنينُ المتقطّعُ يبدو وكأنه يدوّن كلماتِ الدّكتور. ويخيّل للمرء أنه قرعة حزنِ اللجّة.

كان الجميع يصغون لاهثين، إلى ذلك الصّوت حيناً، وإلى ذلك الجرس حيناً آخر.

X
المتوحِّشة الكبرى
هي العاصفة

ومع ذلك فقد كان الرّبانُ قد أمسك بمكبّر صوته:

اطووا كلَّ القلوع أيها الرّجال[*]! تجاوزوا كلَّ السّرعات، اسحبوا كل الرّكائز! انزلوا القوارب الإغريقيّة والهولندية المنخفضة الأشرعة! ولنتجاوزْ باتجاه الغرب! ولنستبعدْ البحر! وليكن مقدّم السّفينة باتجاه العوّامة، فثمة بحرٌ آمنٌ هناك. وليس كلُّ شيء ميئوساً منه.

فقال الدّكتور: - حاولوا!.

لنقلْ هنا، دون أن نتوقّف، إن هذه العوّامة ذات الجرس، والتي هي نوعٌ من جرسٍ بحريّ، قد أُلغيت في عام ١٨٠٢. ولا يزال ملاّحون جدّ مسّنين يتذكرون أنهم قد سمعوه. لقد كان ينذر، ولكن في وقتٍ متأخرٍ قليلاً.

لقد جرى الامتثالُ لأمر الرّبان. وكان اللانغدوسيّ ملاحاً ثالثاً، وكان الجميع يساعدون. وقد صنعوا أكثر من طيّ القلوع، فقد لفّوها، وحزموا بسيرٍ كلَّ الضفائر، وعقدوا أحبال التثبيت، وحبال القعر، وحبالَ الأشرعة. ووضعوا حبالاً إضافيةً على قيودِ الدفّة التي أصبحت على هذا النّحوْ تُستخدم مثل كبلاتٍ للأعمدةِ العرضانية، لقد زاوجوا الصّاري، وسمرّوا الوقاءات النقّالة لكُوى السّفينة، وهذه هي طريقةٌ لتسوير السفينة. أما المناورةُ، مع أنها قد نُفّذت في بلبلةٍ وتشوّشٍ، فلم تكن مناورةً غير صحيحة مع ذلك. لقد آل الأمرُ

(*) الجملة باللغة الإسبانية، في النّص الأصلي. (م: ز.ع).

بالهوركة إلى تبسيط الكرب. ولكن بقدر ما كان هذه العمارةُ التي ضيّقت كلّ شيء، تتضاءلُ، بقدر ما كان هياجُ الهواء والماء يتزايدُ عليها. كان يبلغ ارتفاعُ الأمواج الصّاخبة تقريباً الحجم القطبيّ.

أخذ الإعصارُ، شأن جلاّد متعجّل، يفسخُ السّفينة. وكان هناك، في طرفةِ عينٍ، اقتلاعٌ مرعبٌ؛ فالأشرعةُ العليا قد نُزعت حباكُها. ودُكّ تبطينُ القعر، واقتُلعت من حجراتها كلابُ حراسة ربط الشّاغول[*] وخُرّبت كبلات الأعمدة، وتحطّم الصّاري، وكلُّ قرقعة الكارثة قد تطايرت مزقاً. وتراخت الحبالُ الضّحمةُ مع أنها مربوطةٌ بطولِ أربعة باعات بالأنجر[**]. إن التّوتر المغناطيسي الخاصّ بالعواصف الثّلجيّة كان يساعد في قطع الحبال. كانت تتقطّعُ بسبب الدّفق المغنطيسي كما تتقطعُ بسبب الرّيح. إن سلاسلَ مختلفةً خارجةً من بكراتها لم تعد تعمل. وفي الأمام، الوجنتان، وفي المؤخرة، الوركان كانت تنثني تحت ضغوط مفرطة. وجرفت موجةٌ البوصلة. وعلبة البوصلة. وجرفت موجةٌ أخرى زورقَ الإنقاذ المعلّق بصاري المقدّمة المائل وكأنّه مشجب. حسب التّقليد الغريب الأسطوريّ، وجرفت موجةٌ أخرى تمثال نوتردام في الجؤجؤ والقفص النّاري.

لم يبقَ إلاّ دفّة القيادة.

لقد جرى إحلالُ رمانةٍ ضخمةٍ ذاتَ حرّاقة ملأى بمشاقةٍ ملتهبة، وقارٍ مشتعل، محلَّ الضوء النّاقص، وعلّقوها بجؤجؤ السّفينة.

أما الصّاري. الذي انقسم إلى قسمين، وغدا منتفشاً بالقطع الممزّقة المرتعشة، بالحبال، والبكرات، والدّواقل، فقد كان يزحمُ سطحَ المركب. وأثناء سقوطه، كان قد حطمّ شقّةً من سور الميمنة.

أما الرّبانُ الذي كان وراءَ دفّته باستمرار، فقد صاح:

"طالما يمكننا أن نقود، لم يضعْ شيء. إن غاطسَ السّفينة صامد. بلطات! بلطات! القوا بالصّاري إلى البحر! وحرّروا سطح السّفينة".

(*) حبال ربط الأشرعة من الأسفل لمقاومة الرّيح (م: ز. ع).

(**) حلقة المرساة (م: ز. ع).

كان الطاقمُ والمسافرون قد أصيبوا بحمّى المعارك اليائسة. فكانت المهمّةُ تتمثّل ببضعِ ضرباتٍ من البلطات. وجرى دفعُ الصّاري من فوق الحافة. فتحرّر سطحُ السفينة.

واستأنف الرّبان يقول:

"والآن، خذوا حبلَ رفع، وثبّتوني به إلى الدّفّة".

فربطوه إلى مقبض الدّفة.

وفيما كانوا يربطونه، كان يضحك، ويصيحُ بالبحر:

"أطلق خوارك، أيّها العجوز، أطلق! لقد رأيتُ أسوأ من هذا في رأس ماشيشاكو".

وعندما أوثقوه، أمسك مقبَضَ الدّفة بقبضتيه بفرحٍ غريب هو الفرحُ الذي يمنحه الخطر، وقال:

"كلُّ شيء جيد، أيّها الرفاق! عاشت نوتردام دو بوغلوز! ولنقدْ إلى الغرب!".

أتت موجةٌ عرضانية، جبّارة، وانقضّت على المؤخّرة؛ ففي العواصف، هناك نوعٌ من موجةٍ كالنمر، وهي موجةٌ ضاريةٌ ونهائية تصل إلى نقطةٍ معيّنة، وتزحفُ لبعضِ الوقت على بطنها فوق البحر، ثم تثبُ، وتزمجرُ، وتصرفُ، وتنقضّ على السّفينة المكروبة، وتقطعُ أوصالها. وغطّى ابتلاعُ الزّبد كلَّ جؤجؤ الماتوتينا وسُمعَ تفكّكٌ، في ذلك العراك المائي والليليّ. وحين تبدّد الزّبدُ، وعادت المؤخّرةُ إلى الظّهور، لم يعد هناك ربّان، ولا دفّة قيادة.

كان كلُّ شيء قد اقتُلع.

كان المقبضُ والرّجلُ الذي أوثق به منذ قليل قد حُملا مع الموجة في اختلاطِ العاصفة المحمحم.

حدّق زعيمُ العصابة في الظلمة وصاح:

"te burlas de Nosostros? "(*)

(*) أتسخر منا؟

أعقبت صيحةُ التمرّد هذه صيحةً أخرى:

"لنلق المرساة! لننقذْ الرّبان".

هرْعوا إلى الرافعة الرّحويّة، وغطسوا المرساة، فسفنُ الهوركة ليس فيها إلاّ مرساةٍ واحدة. ولم يفضِ ذلك إلاّ إلى خسارتها. فقد كانَ قعرُ البحرِ من الصّخر النّاتئ، وكان الموجُ العاصفُ مسعوراً، فانقصف الحبلُ مثل شعرة.

بقيت المرساة في قاع البحر.

لم يبقَ من شفرةِ المخر إلاّ الملاك الذي ينظر في منظاره.

اعتباراً من تلك اللّحظة، لم تعدْ الهوركة إلاّ حطاماً. وكانت لاماتوتينا تسير على غير هدىً بصورةٍ لا يمكن إصلاحُها. إن هذه السّفينة، التي كانت مجنّحةً قبل قليل، ورهيبةً تقريباً في سيرها، قد أصبحت الآن كسيحةً. وما من قلس إلاّ وبُتر أو تفكّك. لقد كانت تخضعُ، وقد تصلّبت وأصبحت سلبيّة، لهياجاتِ الطفّوِ الغريبة. وأن يكون هناك، بدلاً من النسّر، مُقعَدٌ، هذا أمرٌ لا يُشاهد إلاّ في البحر.

أصبح عصفُ الفضاء وحشيّاً أكثر فأكثر. إن العاصفةَ رئةٌ مرعبة. إنّها تُضيفُ بلا انقطاع اشتداداتٍ حداديّةً للشّيء الذي ليس فيه تلوينات، إلى الظلام. كان الجرس في وسط البحر يرنُّ بصورةٍ يائسة وكأنّ يداً مخيفةً تهزّه.

كانت الماتوتينا تمضي حسب مشيئة الأمواج. إن سُدادةً من الفلّين تخضع لتماوجاتٍ مماثلة؛ فهي لم تعدْ تمخر البحر، إنها تعوم. وكانت تبدو في أيّةِ لحظة أنها مستعدّة لتقلب بطنها على سطح الماء مثل سمكة ميتة. إن ما كان ينقذُها من ذلك الهلاك هو الحفظ الجيّد لهيكلها الكتيم للماء تماماً. ما من لوح تبطينٍ قد تراخى بتأثير العوم. لم يكن هناك شقّ أو فجوة، لم تكن قد دخلت قطرةٌ ماء إلى القعر لحسن الحظ، لأن عطلاً كان قد أصاب المضخّة، وجعلها غير قابلة للاستخدام.

كانت الهوركة ترقصُ رقصاً قبيحاً في المياه المضطربة. كان سطحُ السّفينة يتشنّج مثل حجابٍ حاجز يسعى إلى التقيّؤ، ويخيّل إلى المرء أنه يبذل جهداً ليقذف بالغارقين. أمّاهم، الجامدين فقد كانوا يتشبّثون بالقلوسِ

النّائمة، وببطانة القعر، وبعوارضِ البراميل، وبحبلِ تثبيت المرساة، وجدائل الحبال، وتصدّعات حرم الجسر المنتفخة، والتي كانت مساميرها تمزّق أيديهم، ولوائح التّدعيم المنفتلة بشكلٍ غير متساوٍ، وكلّ نتوءات التّلف البائسة. ومن وقتٍ لوقت، كانوا يصيخون السّمع. وكان صوتُ الجرس يتزايد ضعفاً. ويُخيّل إلى المرء أنه أيضاً يُحتضر. ولم يعدْ رنينهُ أكثر من حشرجةٍ متقطعة. ثم تلاشت تلك الحشرجة. فأين كانوا إذن؟ وعلى أيّة مسافةٍ كانوا من الطوّافة؟ كان صوتُ الجرس قد أرعبهم، أمّا صمتُه فقد ذعرهم. كانت ريحُ الشمال قد جعلتهم يسلكون طريقاً ربّما يتعذّر تصحيحُه. كانوا يشعرون بأنّ نَفَساً مستعاداً مهتاجاً قد حملهم. وكان الحطامُ ينطلق في الظلمة. ولا شيء أكثر إثارة للرّعب من سرعةٍ معمّاة. كانوا يحسّون باللّجة أمامهم، وتحتهم، وفوقهم. لم يعد ذلك سيراً، كان سقوطاً. فجأة، في جلبة ضباب الثلج الهائلة، ظهر لونٌ أحمر.

فصاح الغارقون "منارة!".

XI

الكاسكيه (٦٥)

كان ذلك فعلاً لايت – هاوس دي كاسكيه. (منارة دي كاسكيه) (*).

إن منارةً في القرن التاسع عشر هي أسطوانة مخروطيّة الشّكل من بناء حجريّ تعلوها آلةٌ للإنارة العلمية تماماً. ومنارة كاسكية خصوصاً هي اليوم برجٌ ثلاثيّ أبيض يحمل ثلاثة قصورٍ ضوئية. وهذه البيوتُ الناريّة تتحرّك وتدورُ على دواليب توقيتيّة بدقّةٍ كبيرة بحيث أن الرّجل المناوب الذي يلاحظها من عرض البحر يقوم بلا تغيير بعشرِ خطواتٍ على سطح السّفينة خلال وميضها، وبخمس وعشرين خلال احتجابها. إن كلّ شيء محسوبٌ في المستوى البؤريّ ودورةِ علبةِ النوابض. المثّمنة الزّوايا والمكوّنة من ثماني عدسات عريضة وبسيطة ذات درجات، وفيها، من فوقها، ومن تحتها، سلسلتان من الحلقات الإنكساريّة، وهي مسنّن جبريّ تحميّه من هبّات الرّيح وعواصف البحر نوافذُ زجاجيّة سماكتُها ميلمتر واحد، وتكسرها مع ذلك أحياناً نسورٌ البحر التي ترمي بنفسها فوقها، والتي هي فراشاتٌ كبيرةٌ تصطدمُ بتلك الفوانيس العملاقة. إن المبنى الذي يحتوي، ويُسندُ، ويرصُ هذه الآليّة هو، مثلها، مدروسٌ رياضياًّ. وكلُّ شيء فيه معتدلٌ، ومضبوطٌ، ومكشوفٌ، ودقيق، وصحيح. إن منارةً ما هي رقم.

في القرن السّابع عشر، كانت منارةٌ ما هي نوعٌ من قنزعةٍ ترابيّةٍ على ساحل البحر. وكان فنّ بناءِ برج المنارة رائعاً، ومبالغاً فيه؛ فقد كانت تكثرُ

(*) الترجمة الإيضاحيّة للمترجم (م: ز-ع).

فيه الشُرفات، وأعمدةُ الدّرابزينات، والبُريجاتُ، والحجراتُ، والأقفاصُ الكبيرة، ودوّاراتُ الرّيح، ولم يكن فيها سوى قناعاتٍ تزيينيّة مرعبة، وتماثيل، وزخارف غصنيّة، وزخارف حلزونيّة، ونقوشٍ بارزة، وأشكال، وأشكال مصغرّة، وخرطوشات إضافة إلى كتاباتٍ بارزة؛ وقد كانت تقول منارة إيديستون: pax in bello(٦٦) (السّلم في زمنِ الحرب) فنلاحظ دون أن نتوقف، أنّ إعلانَ السّلام هذا لم يكن ينزعُ سلاحَ المحيط دائماً. وقد كرّرها وينستانلي على منارةٍ بناها على نفقته في مكانٍ مخيف، أمام بلايموث. وبعد أن تمّ إنجازُ برج المنارة، جلس في داخلها وقام بتجريبها في العاصفة وقد أتت العاصفة وجرفت منارة وينستانلي. فضلاً عن هذا، فإن هذه الأبنية المفرطة قد كانت تعرّض نفسها للإعصار من كلّ جهة، شأن هؤلاء الجنرالات المتزينّين أكثر مما ينبغي، والذين يجتذبون إطلاق النار في المعركة. وفضلاً عن انفلات نزوات الأحجار، كانت هناك انفلاتاتُ الحديد، والنحاس، والخشب؛ وكانت ضروبُ القفالة تبرز، وتصبحُ السّقالات ناتئة. وفي كلّ مكان، وعلى منظر المنارة الجانبيّ، كانت أدواتٌ من كلّ نوع، المفيدة منها وغير المفيدة، ملفافاتٌ، ورافعاتٌ، وبكرات، ونقّالات، وسلالم، ورافعاتُ تحميل، وكلاّبات إنقاذ، تتراكمُ بكثرةٍ وقد تثبتت إلى الجدار بين الخطوط المتعرّجة. وفي القمة، وحول الموقد، كانت قطعُ حدادةٍ متقنة تحملُ شمعداناتٍ ضخمة تغرسُ فيها قطعٌ من حبلٍ غارقة في الراتينج، وهي ذبالاتٌ تشتعلُ بعناد. ولم تكن أيّةُ ريحٍ تطفئها. من الأعلى إلى الأسفل، كان البرجُ معقداً براياتٍ بحريّة، وراياتٍ صغيرة، وألويةٍ، وأعلام، ورايات مثلّثة، وبيارق تصعد من سارية إلى سارية، ومن طابقٍ إلى طابق، خالطةً كلّ الألوان، وكلّ الأشكال، وكلّ شعارات النسب، وكلّ الإشارات، وكلّ التدوّمات وصولاً إلى قفصِ المنارة المشعّ، وتصنع في خضمّ العاصفة تجمعًا مشاغباً مرحاً من الأسمالِ الرّثة حول ذلك الالتماع. إن هذه السّفاهة، سفاهة الضّوء على حافة اللّجة تشبه تحدّياً وتحرّكُ قريحةَ جسارةِ الغارقين. لكن منارة دي كاسكيه ليست على تلك الدّرجة.

كانت في ذلك العهد منارةً بسيطةً قديمة متخلّفة، مثلما أمر هنري الأوّل ببنائها بعد هلاك بلانش - نيف(٨٦)، على شكلِ محرقةٍ تتوهّجُ تحتَ مشبّكٍ حديديٍّ في أعلى صخرة، ونارِ جمرٍ خلف شبكة، وشعر امرأة يتطاير في الهواء.

إن التحسينَ الوحيد الذي طرأ على تلك المنارة منذ القرن الثاني عشر، كان منفاخ محلّ حدادةٍ يحرّكُه معلاقٌ قدْرٍ ذو ثقل حجريّ، وكان قد أُحكِم على القفص الناري في عام ١٦١٠.

في تلك المنارات القديمة، كانت مغامرةُ طيور البحر أكثر مأسويّةً مما هي في المنارات الحاليّة، فكانت الطيورُ تُهرعُ إليها، وقد اجتذبها الضّياءُ، وتندفعُ إليها وتسقطُ في المجمر الذي شوهدت تقفزُ فيه، كأنها ضروبٌ من أرواحٍ سود محتضرة في ذلك الجحيم؛ وأحياناً، كانت تعود إلى السّقوط خارج القفص الأحمرِ على الصّخور، وهي داخنةٌ، وعرجاء، وعمياء، شأن الذّباب المحترق جزئياً، بعد خروجه من لهب مصباح.

إن منارة دي كاسكيه مفيدةٌ لسفينةٍ تتحرك، ومزوّدةٍ بكلِّ وسائل تجهيز السّفن، وطيعةِ القيادة بالنسبة للقبطان. إنها تصرخُ: حذارِ! وتنبّه من المكسر الصخريِ؛ فما من شيءٍ مخيف كهذا بالنسبة لسفينةٍ تسيرُ على غير هدى. إن الهيكلَ، المشلول والذي لا حراك فيه، والذي لا يقاومُ تثنّيَ الماء الجنوني، والذي لا دفاعَ له ضدَّ ضغط الريح، مثل سمكةٍ بلا زعانف، وطيرٍ بلا أجنحة، لا يمكنه إلاّ أن يمضي إلى حيث يدفعُ به الهبوبُ. إن المنارة تُظهِر له الموضعَ الأخير، وتشير إلى مكان تواريه، وتنيرُ مكانَ الدّفن. إنها شمعةُ القبر.

ما من سخريةٍ أكثر مأسوية من إنارةِ الفرجةِ التي لا ترحم، ومن الإنذار بالمحتوم.

XII
مجابهةٍ مع المكسر الصّخريّ مجابهة

إن هذا الاحتقار الاستهزائي الغامض الذي يضافُ إلى الغرق قد فهمه حالاً بؤساءُ الماتوتينا الواقعون في الضيّق أحيا ظهورُ المنارة أملهم في البداية، ثم أضناهم، فلا شيء يمكن عملُه، ولا شيء يمكن محاولتهُ؛ فما قيل عن الملوك يمكن أن يقال عن الأمواج. فنكون شعبَهم ونكون فريستَهم. إن كلّ ما يهذون به، نحتمله. كانت الريحُ الشمالية الغربية تجعل مركب النقل ينحرف عن مسارهِ نحو شاطئ الكاسكيه(*). كان يجري السَّير باتجاهها. وما من رفضٍ ممكن. ويجري الانحرافُ سريعاً باتجاه صخور الشاطئ. كانوا يحسّون بأنّ القاع يصعدُ. أما المسبر، فلو غطسَ مسبرٍ بصورةٍ مفيدة، لما أعطى أكثر من ثلاثة أو أربعة باعات.كان الغارقون يصغون إلى اندفاعاتِ الموج المكتومة التي تغوصُ في الفجوات تحت البحريّة للصخر العميق. ويميّزون تحت المنارة، مثل مقطعٍ معتم، وبين صفحتين من الصّوان، المضيقَ الضّيّقَ للمرفأ المهجورِ الصّغير والمرعب الذي كان يمكن التكهّن بأنه مليءٌ بهياكل عظميّة بشريّة، وبهياكل سفن. لقد كان فمَ مغارةٍ أكثر مما هو مدخلَ ميناء. كانوا يسمعون فرقعة المحرقة العالية في قفصها الحديديّ، وكان لونٌ أرجوانيٌ زائغٌ ينيرُ العاصفة، ولقاءُ البرَدَ واللهّب يعكرّ الضّباب، والسّحابُ الأسود، والدّخان الأحمر يتصارعان، حيّة ضدّ حيّة، تتطايرُ نتفٌ من الجمر في الرّيح، وتبدو رقعٌ لاذةً بالهرب أمام تلك الهجوم المفاجئ، هجوم الشرَر. أما المكاسرُ الصّخريّة التي كانت في البداية مموّهة، فأصبحت ترتسمُ الآن بوضوح، إنها

(*) الكاسكيه: اسم مكان، اسم جزر.

ركامٌ صخريٌّ له رؤوسٌ ونرى وفقرات. وتتشكّل زواياه تتشكّل من خطوطٍ حادةٍ فضيّةٍ مذهّبة، ومستوياتُها المائلة من انزلاقاتٍ ضوئيةٍ مضرجّةٍ بالدّم. وكلّما كان المرء يتقدّم، يزداد تضريسُ المكسر الصخريّ، ويصعدُ، مشؤوماً.

كانت إحدى النّساء، الإيرلنديّة مذهما، تكرّ سبحتها الورديّة بتشتّت. وفي غيابِ الربّان الذي كان هو القبطان، بقي الزعيمُ الذي كان قائد السّفينة. إنّ الباسكيين جميعاً يعرفون الجبل والبحر. وهم جسورون عند اللّجج، ومبتكرون عند الكوارث.

كانوا يصلون، وكانوا على وشك أن يلامسوا الصّخور. فقد أصبحوا فجأة جدّ قريبين من الصخرة الكبيرة الشمالية، صخرةِ دي كاسكية بحيث حجبت المنارة. ولم يعودوا يرون سواها، وضوءاً وراءها. إن تلك الصّخرة المنتصبة في الضّباب كانت تشبه امرأةً طويلة سوداء تعتمرُ غطاء رأسٍ ناريّاً.

إن تلك الصّخرة السّيئة الصّيت تسمّى بيبليه. وهي تسدُّ من الشّمال المكسَرَ الصّخريّ الذي يسنده من جهة الجنوب شاطئٌ صخريٌّ آخر، هو ليتا - أو- غيلميه.

نظر الزعيم إلى بيبليه وصاح:

"رجلٌ لديه استعداد ليوصل حبلاً غليظاً إلى المكسر الصّخري! هل هناك أحدٌ هنا يحسن السّباحة؟

وما من جواب.

لم يكن أحدٌ على متن السّفينة يحسنُ السّباحة، ولا حتى البحّارة، وهذا جهلٌ فضلاً عن ذلك شائعٌ بين رجال البحر.

إن مانعةَ تسرّبِ الماء، المفصولة تقريباً عن روابطها، كانت تترجّحُ في تبطين القعر. وقد أمسك الزعيم بها بقبضتيه، وقال:

"ساعدوني"

فصلوا مانعةَ التّسرّب، وأصبحت تحت تصرّفهم ليجعلوا منها ما يريدونه. وانتقلت من كونها دفاعيّةً لتغدو هجوميّة.

لقد كانت رافدةً طويلةً إلى حدٍّ كافٍ، ذات جوفٍ من السّنديان، سليمةً ومتينة، ويمكن أن تستخدم كأداةِ هجومٍ أو نقطة ارتكاز، كرافعةٍ مقابل ثقلٍ معيّن، وكمنجيق ضدّ برج.

"وصاح الزّعيم: هيئوا!"

واستعدّوا، وعددهم ستة، وقد استندوا إلى جزءٍ من الصّاري، وهم يضعون مانعةَ التسرّب الأفقيّة خارج الحافة وبشكلٍ مستقيم مثل رمحٍ أمام كشحِ المكسر الصّخري.

كانت الحركةُ محفوفةً بالخطر. فإعطاءُ دفعةٍ لجبل هو أمرٌ فيه جسارة؛ فقد كان يمكن للرجال السّتة أن يُقذَفوا إلى الماء بصدمةٍ ارتداديّة.

إن في هذا تكمن تنوّعاتُ صراعِ العواصف؛ فبعد العصف يأتي المكسر الصّخري، وبعد الرّيح، يأتي الصدّوان. إن المرء يواجه الذي يتعذّر إمساكه تارةً، والذي لا يتزعزعُ تارة أخرى.

كانت هناك دقيقة من تلك الدّقائق التي يبيّضُ الشّعرُ خلالها.

إن المكسرَ الصّخريَّ والسّفينة، كانا سوف يتصادمان.

إن صخرةَ ما معذّبةٌ صابرٌ، والسّاحل الصخري ينتظر.

انطلقت سريعاً موجةٌ صاخبة بصورةٍ مضطربة. ووضعت نهايةً للانتظار.

فأمسكت بالسّفينة من تحتها، ورفعتها، وأرجحتها للحظةٍ من الزّمن، كما تؤرجحُ المقلاعُ القذيفةَ.

صاح الزّعيم:

"لنكن صامدين! فما هذه إلا صخرة، ونحن رجال".

كانت الرافدةُ في حالة حذر. والرّجالُ السّتةُ يتوحدّون بها، وكانت أوتادُ حافّةِ منع التسرّب تحدُّ آباطهم، ولكنهم لم يكونوا يشعرون بها إطلاقاً.

ألقت الموجةُ الصّاخبة بالهوركة إلى الصّخر.

وحدثت الصّدمة.

حدثت تحت غيمة الزّبد العديمة الشّكل، والتي تحجب تغيّراتها الفجائية دائماً.

حين سقطت هذه الغيمة إلي البحر، وحين حدثَ الابتعادُ مجدّداً بين الموج والصّخر، كان الرّجالُ السّتّة يتدحرجون على سطح السّفينة، غير أن الماتوتينا كانت تهربُ على طولِ المكسر الصّخري. كانت الرّافدةُ قد صمدت وعيّنت انحرافاً معيناً. وفي غضون بضع ثوان. وبما أن انزلاق الموجة قد كان جامحاً، فقد أصبحت منارةُ الكاسكية خلف الهوركة، وصارت الماتوتينا، في ذلك الوقت، خارجَ الخطر المباشر.

إن هذا يحدثُ. إن ضربةً مستقيمةً من الصّاري المائل في الشّاطئ الصّخري هي التي أنقذت وود دو لارغو من مصبّ نهر التّاي؛ ففي المناطق البحريّة القاسية لرأس وينستيرن، وتحت قيادة القبطان هاملتون، إنما استطاعت سفينةُ لاروايال - ماري أن تُفلتَ من الغرق، عن طريق حركةٍ لرافعةٍ مماثلة بمواجهة صخرة برانّودو- أوم المخيفة، مع أنها لم تكن سوى فرقاطةٍ على الطريقة السّكوتلنديّة. إن الموج قوّةٌ تتفكّك بصورةٍ مفاجئة بحيث تصبح الانحرافاتُ فيها سهلة، وممكنة على أية حال، وحتى في الصّدماتِ الأعنف. إن في العاصفةِ حيواناً بهيميّاً؛ والإعصارُ ثورٌ، ويمكن خِداعه.

إن السّر في لتحاشي الغرق كامنٌ بكلّيته في محاولةِ الانتقال من القاطع إلى المماس.

إن هذه الخدمةَ هي التي أدّتها مانعةُ التّسربِ للسّفينة. لقد اضطلعت بوظيفة مجذاف، وقامت مقامَ دفّة القيادة. غير أن هذه الحركة المحرِّرة التي جرت لمرّة واحدة، لم يكن بالإمكان تكرارُها. كانت الرّافدةُ في البحر. وكانت قسوةُ الصّدمة قد جعلتها تقفزُ خارجةً من أيدي الرّجال من فوق حافّة السّفينة. واختفت في المياه. أما انتزاعُ صقالةٍ أخرى فقد كان معناهُ تصديعَ قفصِ السّفينة.

جرفت العاصفة لاماتوتينا من جديد. وبدت ليكاسكيه فجأة في الأفق وكأنّها شيء مزحمٌ لا فائدة منه. وما من شيء يبدو حائراً مثل مكسرٍ صخريٍّ في مناسبة مماثلة؛ فهناك في الطبّيعة، من ناحية المجهول، هناك حيث يتعقّد

المرئيّ بغير المرئيّ، صورٌ جانبيةٌ فظّةٌ وجامدة كأنّما قد أغضبتها طريدةٌ أفلتت منها.

كذلك كانت ليكاسكيه في حين كانت لامادونينا تهرب.

أما المنارةُ المتقهقرة، فقد شحبت وبهتت ثم تلاشت.

كان ذلك الانطفاءُ مغمّاً. وتراكبت طبقاتُ الضباب الكثيفة على ذلك الالتماع الذي غدا منتشراً. وذاب الإشعاعُ في الأمداء الشّاسعة المبلّلة. وطفا اللّهب، وصارعٍ، وغاصٍ وفقد شكله. ويخيّلُ للمرء أنّه غريق. لقد غدا موقدُ الجمر مصباحاً خفيف النّور. لم يعدْ أكثر من ارتعاشٍ باهت ومبهم. وكانت تتّسع على مداره بكامله دائرةٌ من النّور المرتشح. كان ذلك مثل انسحاق النّور في أعماق اللّيل.

أمّا الجرسُ الذي كان تهديداً، فقد صمت. والمنارةُ التي كانت تهديداً فقد تلاشت. ومع ذلك؛ فحين توارى هذان التّهديدان، أصبح الأمر أكثر رعباً. كان أحدهما صوتاً، والآخر مشعلاً. وكان فيهما شيء إنسانيّ، وأقلّ منهما بقيت اللّجة.

XIII
بمواجهة اللّيل

ألفت الهوركة نفسها من جديد منجرفةً مع الظّل في العتمة التي لا قياس لها.

إن الماتوتينا، التي أقلتت من ليكاسكيه، كانت تتحدر من موجٍ صاخب إلى موجٍ صاخب. إنها هدنة، ولكنها في الشوّاش. وإذْ كانت الرّيح تدفعُها عرضاً، وتتلاعبُ بها تجاذُبات الموج الكثيرة، فقد كانت تعكسُ كلَّ ترجُحاتِ الموج الجنونيّة. لم يعدْ فيها تقريباً تموّرٌ، وهذه علامة مرعبةٌ على احتضار السّفينة. إن حطاماتِ السّفن لا تترنّح. والتّموُّر هو تشنّجُ الصّراع. ودفّةُ القيادة وحدها تستطيع أن تجعل الرّيح معاكسة.

في العاصفة، وخاصة في ظاهرة الثّلج الشّهابية، ينتهي البحرُ والليلُ إلى الاندماج والاندغام، بحيث لا يشكلان من بعد إلاّ دخّاناً. ضبابٌ، ودوّامةٌ، وهبوبٌ، وانزلاقٌ في كافّة الاتّجاهات؛ فما من استناد، وما من نقطة استدلال، وما من زمنٍ للتوقّف، بل عودةٌ مستمرة إلى البداية، وفجوةٌ بعد أُخرى؛ فما من أفقٍ مرئيٍّ، وتقهقرٌ عميقٌ أسود، وكانت الهوركة تُبحّر داخله.

أمّا التّخلصُ من الكاسكيه، وتجنّب المكسر الصّخري؛ فقد كان ذلك انتصاراً بالنسبة للغارقين، بل كان ذهولاً على الخصوص. لم يكونوا قد أطلقوا صيحات الفرح: هورّا. وفي البحر، لا يجري القيام مرّتين بمثل هذه الضّروب من التهوّر. وإلقاء التحدّي في ذلك الموضع الذي لا يُلقى فيه المسبرُ، هذا أمرٌ خطير.

إن دفعَ المكسرِ الصّخريّ كان يعني إنجاز المستحيل. وقد ذُهلوا من ذلك. ومع هذا، فقد أخذ يراوِدُهم الرّجاءُ شيئاً فشيئاً. تلك هي سراباتُ الرّوح التي لا تغرق. وما من كربٍ حتّى في اللحظة الأكثر حرجاً، لا يشهدُ في أعماقه البزوغَ الذي يتعذّر بيانه، بزوغَ شروقِ الرّجاء. لم يكن هؤلاء المنكودون يطلبون أكثر من أن يقرّوا لأنفسهم بأنهم نجوا. لقد كانت تلك التّمتمةُ في دواخلهم.

إلاّ أن تعاظماً هائلاً قد جرى فجأة في اللّيل. وظهرت فجأة من اليسار، وارتسمت، وبرزت على الأساس الضّبابي. كتلةٌ عالية داكنة وعمودية، وذات زوايا قائمة، برج مربع، هو برجُ الهاويّة.

لقد نظروا إليها فاغري الأفواه.

وكان الموجُ الثائر يدفعهم نحوها.

كانوا يجهلون ما كان ذلك. لقد كان صخرةَ أورتاش.

XIV
أورتاش(٦٨)

عاد المكسرُ الصّخري إلى الظّهور. وبعد ليكاسكيه، أتت أورتاش. إن العاصفة ليست فنّانة، إنّها فظّةٌ، وكليّةُ الاقتدار، ولا تُنوِّعُ وسائلها.

ليست الظلمةُ قابلةً للنفاد. ولا تعييها قطّ الأفخاخ وضروبُ الغدر. أمّا الإنسانُ، فسرعان ما يصلُ إلى أقصى ما لديه من إمكانات. إن الإنسان يُجهِدُ نفسه، أمّا اللّجةُ فلا.

استدار الغارقون إلى الزّعيم، إلى أملهم. ولم يكن بوسعه إلاّ أن يهزّ كتفيه.

إنها الأنفة الحزينة للعجز.

أرضٌ مبلّطةٌ في وسط المحيط، هذه هي صخرة أورتاش. إن مكسرَ أورتاش، الذي لا مرونة فيه ولا جمال، فوق الصدمة المعاكسة للأمواج الثائرة، يرتفعُ مباشرةً إلى ثمانين قدماً إلى الأعلى، إن الأمواج والسّفن تتكسّر عليه. وبما أنه مكعبٌ ثابتٌ ومستقرٌ، فهو يغطسُ سطوحَه المستقيمةَ الخطوط في المنحنياتِ التي لا حصرَ لها والملتويةِ، منحنيات البحر.

في الليل، يشكّلُ قرمةَ شجرةٍ هائلة موضوعةٍ على ثنياتِ نسيجٍ كبيرٍ أسود.

وفي العاصفة، ينتظرُ ضربةَ البلطة، التي هي قصفةُ الرّعد.

إنّما لا تكون هناك قصفةُ رعد في الإعصار الثلجي. والسّفينةُ، في الحقيقة قد أصبحت على عينيها عصابة، وقد انعقدت كلُّ الظلمات عليها. فصارت جاهزةً مثل منكّلٍ به. أمّا الصّاعقة، والتي هي نهايةٌ عاجلةٌ، فلا ينبغي إطلاقاً عقدُ الأمل عليها.

أما الماتوتينا، فلأنها لم تعدْ إلاّ سقوطاً عائماً، فقد مضت نحو تلك الصّخرة، كما مضت نحو الصّخرة الأخرى. والمنكودون الذين ظنّوا للحظةٍ من الزّمن أنهم قد أُنقذوا، قد عادوا ليدخلوا إلى القلق. والغرقُ الذي كانوا قد تركوه خلفهم، عاد إلى الظّهور أمامهم. وأخذ المكسر الصّخريّ يبرزُ من أعماق البحر. ولم يكن هناك شيء يمكن فعلُه.

إن الكاسكيه قالبُ مزبّدات ذو ألف حجيرة، أما لورتاش فجدارٌ عالٍ. والغرقُ في الكاسكيه معناه التمزّق، أما الغرقُ في لورتاش فمعناه الهرس.

ومع ذلك، فقد كانت هناك فرصة.

على الجبهات القائمة، ولورتاش جبهة قائمة؛ ليس للموجة، أكثر مما ليس للقنبلة، نبوّات. لقد آلت إلى لعبةٍ بسيطة. إنّه المدّ ثم الجزر. إنها تصلُ موجةً وترجعُ موجاً ثائراً.

في حالات مماثلة، تُطرحُ مسألةُ الحياة والموت على النّحوِ التّالي: إذا كانت الموجةُ تقودُ العمارةَ البحريّة حتى الصّخرة، فهي تحطّمها عليها، وتهلك؛ وإذا ما رجع الموجُ الثّائر قبل أن تصطدمَ العمارةُ البحريّة بالصّخرة، فهي ترجعها، وتنقذها.

قلقٌ مؤثّر. كان الغارقون يلمحون في الغبش الموجَ الكبير الأعلى آتياً نحوهم. فإلى أين سيسحبهم؟ فإذا كان الموج يتحطّم على السّفينة، فلسوف يتدحرجون باتجاه الصّخر ويتكسّرون. وإذا مرّ من تحت السّفينة.....

ومرّ الموج من تحت السّفينة.

وتنفّسوا الصّعداء.

ولكن أيّ هجومٍ راجعٍ سوف يأتيهم؟ ماذا سيصنع ارتدادُ الموج بهم؟

سوف يجرفهم ارتدادُ الموج.

بعد بضع ثوان، كانت الماتوتينا خارجَ مياه المكسر الصّخري. وأخذ لورتاش يمّحي مثلما كانت ليكاسكيه قد أمّحت.

كان ذلك هو الانتصارُ الثّاني. وللمرّةِ الثّانية، كانت الهوركة قد وصلت إلى حافّةِ الغرق، وتراجعت في الوقت المناسب.

XV
PORTENTOSUM MARE(69)

مع ذلك، فإنّ تكثّفاً للضّباب كان قد انقضّ على هؤلاء المنكودين الذين يتقاذفهم البحر. كانوا يجهلون أين هم. وكانت رؤيتهم لا تكاد تصل إلى بضعة أطوالٍ للقلسّ حول الهوركة. وبرغم رجمٍ حقيقيٍّ لحبّات البَرَد التي كانت تجبرهم جميعاً على خفض رؤوسهم، كانت النّساء قد أصررن على ألا يعدن إلى النّزول إلى القمرة. وما من قانطٍ يريد أن يغرق في العراء. وحين يكون جدّ قريب من الموت، يبدو أن سقفاً فوقه هو بدايةٌ التّابوت.

أما الموجُ، الذي تضخّم أكثر فأكثر، فقد أخذ يصبحُ قصيراً. ويدلّ انتفاخُ المياه على اختناق؛ ففي الضّباب، تشير بعض وسائدِ الماءَ إلى وجود مضيق. وفي الواقع، وبلا علو منها، كانت تسيرٌ بمحاذاة أوريني. وبين أورتاش والكاسكيه في المغرب، وأوريني في المشرق. يكون البحرٌ محصوراً ومضيّقاً عليه، وتحدّد حالةُ البحر غيرٌ المريحة حالةَ العاصفة موضعيّاً. إن البحرَ يعاني مثل أيِّ شيء سواه. وهو يغضبُ في ذلك المكان الذي يعاني فيه. إن ذلك المضيقَ البحريَّ مرعبٌ.

كانت لاماتوتينا في ذلك المضيق.

فلنتصوّرْ تحت الماءِ نبل سلحفاة بحجم هايد - بارك، أو ليشانزيلزيه، وكلّ حزٍّ فيها وهدةٌ، وكلُّ حدبةٍ شاطئٌ صخريٌ. ذلك هو الطّرفُ القريبُ الغربيُّ لأوريني. إن البحرَ يغطّي ويخفي أداةَ الغرق هذه. وعلى تلك القوقعة، قوقعةِ مكاسرِ الصّخور تحت البحرية، يثبُ الموجُ الممزّق ويزبد، ففي حالةِ الهدوءِ بقبقةٌ، وفي حالةِ العاصفة، شواشٌ.

إن هذا التعقّد الجديد، كان الغارقون يلاحظونه من غير أن يفسّروه لأنفسهم. وبغتةً فهموه. وحدث انفراجٌ باهتٌ في السّمت، وانتشر قليلٌ من الشّحوب على البحر، كشفت تلك الدُّكنة على يسار السّفينة عن سدٍّ طويلٍ معترضٍ في الشّرق، وكانت اندفاعةُ الرّيح تهجمُ باتجاهه، طاردةً السّفينة أمامها. وهذا السّد كان باريني.

فماذا كان ذلك السّدُّ؟ لقد ارتعدوا. وكان يمكن أن يرتعدوا أكثر فعلاً لو أن صوتاً قد أجابهم: أوريني.

فما من جزيرةٍ يحظّر وصولُ الإنسان إليها مثل أوريني. فلديها تحت الماء، وخارج الماء حراسةٌ شرسةٌ خفيرُها هو أورتاش؛ ففي الغرب، هناك بورهو، وسوتيريو، وأنفروك، ونيسانغل، وفون - دي - روك، وليجوميل، ولاغروس، ولاكلانك، وليزيغويّون، ولوفراك، ولافوس ماليير، وفي الشرق هناك. سوكيه، وهومّو- فلورو، ولابرينوبوتيه، ولاكيستلانغ، وكروكليهو، ولافورش، ولوسو، ونوار بوت، وكوبي، وأوربو. فما هي كل هذه الوحوش؟ أفعوانات؟ أجل، من نوع المكاسر الصّخريّة.

إن أحدَ هذه الشطآن الصّخريّة يُسمّى لوبوت (الهدف)، وكأنما للدّلالة على أن كلّ رحلةٍ تنتهي هناك.

إن ازدحام المكاسر الصخريّة هذا والذي يسطّه الماء والليل، كان يتبدّى للغارقين بشكلِ شريطٍ بسيطٍ معتم، وضرباً من شطبةٍ سوداء على الأفق.

الغرقُ هو المثلُ الأعلى للعجز. وأن يكون المرءُ قريباً من الأرض، ولا يستطيع بلوغها، أن يطفو، وألاّ يستطيع أن يبحر، وأن تكون قدمُه على شيء ما يبدو صلباً وهو هشّ، مليء بالحياة وهو مليء بالموت في الوقت نفسه، وأن يكون سجينَ الأمداءُ الشاسعة، وأن يكون محصوراً بين السّماء والمحيط، وأن يكون فوقه اللانهائيّ مثل زنزانة، وأن يكونَ حوله الهروبُ الهائلُ لهبّات الهواء والأمواج، وأن يكون مقبوضاً عليه، وموثوقاً، ومشلولاً، إن هذا الرّزوح يخبّلُ ويُسخط. ويظنّ المرءُ أنّه يستشفُ فيه هزءَ المقاتل الذي لا يعرف الرّحمة. إن ما يستوقفك هو نفسه ما يطلق الطّيور، ويُطلق سراحَ

الأسماك. إن هذا لا يبدو شيئاً وهو كلّ شيء. إن المرء يتعلّق بهذا الهواء الذي يعكّره بفمه، ويتعلّق بهذا الماء الذي يأخذه براحة يده. اغترفوا من هذه العاصفة ملء قدح، فلم يعدْ ذلك إلا قليلاً من المرارة. فإذا أُفعم المرءُ. يكونْ الغثيان، أمّا الموجُ الثائرُ فإبادة. إن حبّة الرّمل في الصّحراء، وكبّة الزبد في المحيط هما تجلّيان مدوّخان: إن القدرةَ الكليّة لا تكلّف نفسها عناءَ إخفاء ذرّتها، وهي تصنع من الضّعف قوّة، وتملأ بكليّتها العدم، وباللاّمتناهي في الصّغر، إنّما يسحقكم اللامتناهي في الكبر. وبقطراتٍ إنما يهرسُكم المحيط. ويشعرُ المرء أنه لعبة.

لعبة، أيّةُ كلمةٍ رهيبة!

كانت الماتوتينا فوق أورينيي قليلاً، وهذا شيءٌ مؤات؛ غير أنّها كانت تحيدُ نحو الرأس الجنوبيّ، وهذا أمرٌ مشؤوم. إن الرّيحَ الباردة الآتية من الشمال الغربي، مثل قوسٍ مشدودة، تقذفُ سهماً، وتدفع بالسّفينة باتجاه الرّأس الشمالي. ففي ذلك الرأس، قبل ميناء كوربوليه بقليل ما يسمّيه بحارةُ الأرخبيل النورماندي "قرداً".

إن القرد - swinge - هو تيّارٌ من النّوع العاصف. إن سبحةً من الأقماع في القاع تنتجُ في الأمواج سبحةً من الدّوامات. فحين تفلتُك إحداهن تستعيدك الأخرى. والسّفينة التي يتلقّفها القردُ، تتدحرجُ على هذا النحو من لولبٍ إلى لولبٍ إلى أن تفتح صخرةٌ حادةٌ هيكلَ السّفينة. حينئذٍ تتوقّف العمارة البحريّة التي انشقت، وتخرج المؤخّرة من الأمواج، وتغطسُ المقدّمة، وتُنهي اللّجة دورتها الكاملة، وتغرقُ المؤخرة، وينغلقُ كلُّ شيء مجدّداً. تتوسّعُ بقعةٌ من الزّبد وتطفو، ولا يعودُ المرءُ يرى على سطح الموجة إلا بضعَ فقاعاتٍ هنا وهناك، وصادرةً عن أنفاسٍ مخنوقةٍ تحت الماء.

في المانش كلّه، إن القرود الثلاثة الأشدّ خطورةً هي القردُ الذي يجاورُ المصطبةَ الرّمليةَ الشهيرة جيدلر ساندز، والقردُ الذي هو في جيرسيه، بين بينيونيه ورأسِ نوارمون، وقردُ أورينيي.

كان يمكن لربّانٍ محلّي على متن الماتوتينا أن يحذّر الغارقين من هذا الخطر الجديد. وفي غياب الرّبان كانت لديهم الغريزة؛ وفي المواقف النهائية، هناك نظرةٌ ثانية. كانت تتطايرُ التواءاتٌ عاليةٌ من الزّبد على طول السّاحل، في تناهُبٍ مهووسٍ للرّيح. كان ذلك هو بصاق القرد. إن عدداً من المراكب قد ترنّح في تلك الأحبولة. ومن غير أن يعرفوا ماذا هناك، كانوا يقتربون بذعر.

فكيف يمكن تخطّي هذا الرأس؟ ما من وسيلةٍ لذلك.

مثلما كانوا قد شاهدوا ليكاسكيه تظهر فجأة، ثم تنبثقُ أورتاش، أخذوا يرون الآن رأس أوريني ينتصب، وكلّه من الصّخر العالي.

كان ذلك يشبه العمالقة المتتابعين أحدهم بعد الآخر. إنها سلسلةٌ من النّزالات المرعبة.

ليست كاريبد وسيلاّ سوى صخرتين(*) أما ليكاسكيه وأورتاش وأوريني فثلاث.

كانت الظاهرةُ ذاتها، ظاهرةُ اجتياحِ المكسرِ الصّخري للأفق تحدثُ برتابةِ اللّجةِ الهائلة. إن لمعاركِ المحيط، شأن معارك هوميروس، تكرُّرَها السّامي ذاكَ.

كانت كلُّ موجةٍ، كلّما يقتربون، تُضيف عشرين ذراعاً إلى الرأس الذي يتضخم بشكلٍ مرعب في الضباب. إن تناقصَ الفاصل الزّمني كان يبدو أكثر فأكثر غير قابل للتّعويض. لقد كانوا يصطدمون بتخوم القرد، وأول ثنيةٍ تقبض عليهم تسحبهم. فما أن يجري اجتياز مدٍّ مائي أيضاً، حتى يكون كلُّ شيءٍ قد انتهى.

فجأة دُفعت الهوركةُ إلى الخلف وكأنما بلكمةٍ من جبّار، وشبَّ الموجُ العالي تحت السّفينة وانقلب، مُلقياً بالحطام إلى عفرته المزبدة. أما الماتوتينا فقد حادت عن أوريني، بتأثير تلك الدّفعة.

(*) كاريبد وسيلاّ صخرتان متجاورتان يهبّ باتّجاهها إعصار مخيف في مضيق ميسينًا (م: ز.ع).

ألفت نفسها في عرض البحر.

فمن أين كانت تأتي تلك النّجدةُ؟ من الرّيح.

كان هبوبُ العاصفة قد بدّل مكانه منذ قليل.

كان مدُّ الموج قد تلاعبَ بهم، وأتى الآن دورُ الرّيح. كانوا قد خلّصوا أنفسهم من ليكاسكيه؛ غير أن الموجَ الثائرَ أمام أورتاش قد أحدث التّغير المفاجئ، وأمام أورينيي، كان هناك الرّيح الباردة، وجرى بغتةً انقلابٌ مفاجئ فيها من الشّمال إلى الجنوب.

لقد أعقبت الرّيحُ الجنوبيّةُ الغربيةُ الرّيحَ الشّماليّة.

إن التيارَ هو الرّيحُ في الماء، والرّيح هي التيارُ في الجوّ؛ إن هاتين القوّتين قد تعاكستا منذ قليل، وتملّكت الرّيحَ نزوةٌ تحثّه على سحب طريدته من التيار.

إن مباغتات المحيط غامضة. إنها المستديم ربّما. وحين يكون المرء تحت رحمتها، لا يمكنه لا أن يأمل، ولا أن يقنط. إنها تصنعُ الأشياء ثم تفكّكها؛ فالمحيطُ يلهو. وكل لوينات الشّراسة الوحشية موجودة في ذلك البحر الواسع والماكر الذي كان جان بار يسمّيه "الدّابة الضّخمة". إنها ضربةُ المخلب التي تنفّذها قائمةٌ مخمليةٌ بفواصل توقّف متعمّدة. أحياناً، تربح العاصفةُ الغرق، وأحياناً، تعملُ باهتمام؛ وقد يمكننا القول تقريباً إنها تداعبه. البحرُ لديه الوقت. والمحتضرون يلاحظون ذلك.

أحياناً، ولنقلْ هذا، تبشّر هذه التّباطؤات في المحنة بالخلاص. وهذه الحالات نادرة. ومهما يكن من أمر؛ فإن المحتضرين سرعان ما يؤمنون بالنجاة؛ وأقلّ تهدئةٍ في تهديدات العاصفة تكفيهم، وهم يؤكّدون لأنفسهم بأنهم بعيدون عن الخطر، بعد أن ظنّوا أنّهم قد دُفنوا، وهم يدوّدون بعثهم، ويقبلون بصورة محمومة ما لا يمتلكونه بعد، وكلّ ما كان يتضمّنه الحظّ السّيئ قد نفد، هذا جليّ، وهم يظهرون أنهم راضون، وقد نجوا، ويعفون الرّب من ذلك. ولا ينبغي إطلاقاً أن يتسرّعوا أكثر مما ينبغي في إعطاء هذه المخالصات إلى المجهول.

بدأت الرّيح الجنوبيّة الغربية بدوّامة. أما الغارقون فليس لهم قطّ إلاّ مساعدون أفظاظ. كانت الماتوئينا تنجرُّ باندفاعٍ إلى عرض البحر، بما تبقّى لها من عتاد مثل ميتةٍ يسحبُها شعرُها. وقد كان ذلك شبيهاً بتلك الخلاصات التي كان يمنحها تيبيروس مقابل الاغتصاب. كانت الرّيح تعامل أولئك الذين تنقذهم بشراسة. كانت تخدمُهم بغضب مسعور. كان ذلك نجدةً لا رحمة فيها.

أما الحطامُ فقد أنهى تفكّكه، من خلال هذا التعنيف المحرِّر.

كانت حبّاتُ برد، ضخمةٌ وقاسية تصلح لتلقيم بندقيّة، تتخلُ العمارة البحريّة. ولدى كلّ تقلّبات الموج، كانت تلك الحبّات تتدحرجُ على سطح السفينة كالكريّات.

أما الهوركة، فقد كانت بين سطحين مائيين، تفقد كلَّ شكلٍ لها تحت مساقطِ الأمواج وتحت انهيارات الزّبد. وكان كلٌّ واحد في السّفينة يفكّر بنفسه.

كان يتشبّثُ بالسّفينة من استطاع ذلك. فبعد كلِّ كميّة من ماء البحر، كانوا يتفاجؤون من أنهم قد تلاقوا جميعاً.وكان هناك عددٌ منهم قد تمزّق وجْهه بسببِ الشّظايا الخشبيّة.

إن لليأس، لحسن الحظّ، قبضاتٍ متينة. ويدُ طفلٍ مذعور تشدُّ كما يشدُّ عملاق. إن القلق يصنع من أصابعِ امرأةٍ ملزمةً. الفتاةُ التي ينتابُها الخوف قد تغرز أظافرها في الحديد. لقد كانوا يتشبّثون، ويمسك بعضُهم البعضَ الآخر، ويحول بعضُهم دون وقوعِ البعضِ الآخر. ولكنّ كلّ الأمواج كانت تجلبُ إليهم رعبَ الانجراف.

وفجأة، تخففّوا من معاناتهم.

XVI
عذوبة اللّغز المباغتة

توقّف الإعصارُ منذ قليل بصورةٍ مفاجئة.

لم يعدْ في الجوّ لا ريح جنوبيّة غربيّة، ولا ريحٌ شماليّة. لقد صمتتْ أبواقُ الفضاء الغضوبة. وخرج الإعصارُ من السّماء، من دون تناقصٍ ابتدائيّ، ومن دون فترةٍ انتقالية. وكأنه بنفسه قد انزلق عموديّاً في هاوية. لم يعدْ أحدٌ يعلم أين كان، وحلّت الرّقعُ الثلجيّةُ محلّ حبّات البرد. وعاد الثلج إلى الهطول ببطء.

لم يعد هناك موج. لقد تسطّح البحر.

إن هذه الانقطاعات المفاجئة خاصّةٌ بزوابع الثّلج. فما أن ينفَذَ الدُّفقُ الكهربائي، حتى يهدأ كلّ شيء، حتى الموج الذي غالباً ما يحتفظ بتحريضٍ مديد، في الأعاصير العاديّة. أما هنا فلا. وما من إطالةٍ للغضب في الموج. وشأنَ عاملٍ بعد فترة عناء، يهدأ الموجُ في الحال، وهذا ما يناقضُ قوانينَ علم توازن القوى، ولكنه لا يُدهش إطلاقاً الرّبابنةَ القدماء، فهم يعلمون أن اللاّمتوقعَ كلّه موجود في البحر.

تحدث هذه الظاهرة حتى في العواصف العاديّة، ولكن على نحوٍ شديد النّدرة. وهكذا، ففي أيامنا، وأثناء إعصار ٢٧ تموز للعام ١٨٦٧ المشهود في جيرسيه، فإن الريح، بعد أربع عشرة ساعة من الهيجان، سقطت فجأةً في الهدوء المسطّح.

بعد بضع دقائق، لم يعدْ حول الهوركة إلاّ ماءٌ راكد.

في الوقت نفسه، لم يعد يجري تمييزٌ شيء، فالمرحلةُ الأخيرة تشبه المرحلةَ الأولى. وكل ما كان قد غدا مرئياً في اختلاجات الغيوم الجويّة يصبح مجدّداً مشوّشاً، إن الأخيلةَ الباهتة قد انحلّت إلى ذوبانات مبعثرة، وعتمة اللانهائي اقتربت من السّفينة من كافّة الجهات. إن جدارَ الليل هذا، وهذا الانسداد الدائري، وجوفَ الأسطوانة هذا والذي كان قطرُه يتناقصُ من دقيقةٍ إلى دقيقة، ويلفّ الماتوتينا، وبالبطء المشؤوم، بطء طوفٍ جليديّ ينغلق، كان يصغر بصورةٍ هائلة. وفي السّمت، لا شيء، غطاء من الضباب، وسور. كانت الهوركة في قعرِ بئر اللّجة.

في هذه البئر، كانت هناك بركةٌ صغيرةٌ من الرّصاص السّائل، وكان ذلك هو البحر، لم يعدْ الماءُ يتحرّك، بل سكونٌ محزن، ولا يكون المحيطُ قطّ مخيفاً أكثر مما هو عليه حين يكون مستدقّعاً.

كان كلّ شيء صمتاً، وتهدئةً، وعميً.

إن صمتَ الأشياء ربّما يكون سكوتاً.

كانت البقبقاتُ الأخيرةُ تنزلق على طول بطانة القعر. وكان سطحُ السّفينة أفقياً مع تحدّرات غير ملحوظة. وكانت بعضُ التّفككات تتحرّك على نحوٍ ضعيف، ولم يعدْ هيكلُ الرّمانة الذي يقوم مقام فانوس، والذي تشتعل فيه مشاقاتٌ في القار، لم يعدْ يترجّحُ في الصّاري المائل، ولم يعد يُلقي بقطراتٍ مشتعلة في البحر، وما كان قد بقي من هبوب في السّحب لم يعد له صوت. كان الثّلج يهطل كثيفاً، ورخواً، ومائلاً قليلاً. ولم يكن يُسمع زبدُ أيّ مكسرٍ صخريّ. إنه هدوءُ الظّلمات.

إنّ هذه الاستراحة، بعد تلك الغضبات. وتلك الاشتدادات قد كانت بالنسبة للمنكوبين الذين تقاذفهم البحرُ طويلاً، قد كانت شيئاً لا يوصف ربمّا. لقد بدا لهم أنهم قد توقفوا عن التعرّض للتنكيل بهم. وكانوا يستشفّون حولهم وفوقهم قبولاً بإنقاذهم، فاستعادوا اطمئنانهم. وكلُّ ما كان هيجاناً قد غدا الآن هدوءاً. لقد بدا لهم هذا سلاماً ممهوراً. فانشرحت صدورُهم البائسة. وكان يمكنهم أن يفلتوا طرف الحبل، أو اللوّح الخشبي اللذين كانوا يمسكون بهما،

وأن ينهضوا، وينتصبوا، ويقفوا ويسيروا، ويتحركوا. كانوا يحسّون بأنهم قد هدؤوا على نحوٍ لا يوصف. إن هناك في العمق المظلم لتلك المؤثّرات الفردوسيّة، تحضيراً لشيء آخر. كان من الواضح أنّهم قد أصبحوا بصورةٍ مؤكدةٍ بعيدين عن العصف وعن الزّبد، وبعيدين عن هبوب الرّياح، وبعيدين عن ضروب الهيجان، وقد خلصوا.

اعتباراً من ذلك الحين، أصبحت كلُّ الفرص متاحةً لصالحهم. وبعد ثلاث أو أربع ساعات، سيطلعُ الصبّاح، وتلاحظُهم سفينةٌ عابرة، وتنتشلُهم. فقد انقضى أصعبُ ما في الأمر، وقد أخذوا يدخلون إلي الحياة. وكان الأمر المهمّ هو أن يتمكنوا من التّماسك فوق الماء حتى تتوقّف العاصفة. وكانوا يقولون في أنفسهم: هذه المرّة، انتهى الأمر.

فجأة لاحظوا أن الأمر قد انتهى فعلاً.

نزل أحد البحّارة، وهو الباسكيّ الشمالي ويُدعى غالديازون، ليأتي بالقلس من القعر، ثم صعد مجدّداً وقال:

القعرُ ممتلئ.

فسأل الزعيم:

- بماذا؟

فأجاب البحّار.

- بالماء؟

فصاح الزعيم:

- وماذا يعني ذلك؟

فاستأنف غالديازون يقول:

- هذا معناه أننا سوف نغرق بعد نصف ساعة.

XVII
الملجأ الأخير

كان هناك شقٌ في صالب القعر؛ فتشكّل مسربٌ للماء! ففي أيّة لحظة جرى هذا؟

لم يكن بإمكان أحد أن يتبيّن ذلك. هل حدث هذا حين اقتربت السّفينة من ليكاسكيه؟

هل كان ذلك أمام أورتاش؟ هل كان ذلك عند بقبقة الماء في وهدة غربيّ أوربنيي؟

إن الأمرَ الأكثرَ احتمالاً أنهم قد اصطدموا بالقرد (Le singe). فتلقّوا ضربةً عنيفةً غامضة. ولم ينتبهوا إليها إطلاقاً في وسط هبوب الرّيح التّشنجي الفائق والذي كان يهزّهم. ففي مرض الكزاز، لا يشعر المرءُ بوخزة. أما البّحار الآخر، الباسكيّ الجنوبي، والذي كان يُدعى آفية - ماريا، فقد قام بدوره بالنزول إلى القعر، ورجع وقال: "الماء في صالبِ القعر يرتفع إلى وارتين[*] أي حوالي ست أقدام.

وأضاف آفية - ماريا يقول:

"سوف نغرقُ قبل أربعين دقيقة".

أين كان ذلك المسربُ المائيّ؟ لم يكن مرئياً. كان غارقاً. كان حجمُ الماء الذي يملأ القعر يخفي ذلك الشّق. وقد كان هناك ثقبٌ في بطنِ السفينة. وفي مكانٍ ما، تحت خطّ العوم، وفي موضعٍ يقعُ تحت الغاطس، وقبله بكثير.

(*) الوارة مقياس للطول (٣١ - ٣٤ إنشاً). (م. ز.ع).

ومن المستحيل ملاحظتُه. ومن المستحيل سدُّه. وكان هناك جرح، ولم يكن بالمستطاع تضميدُه ولم يكن الماءُ فضلاً عن هذا يدخلُ بشكلٍ سريعٍ جدًا.

وصاح الزّعيم:

يجب أن نضخّ الماء.

فأجاب غالديازون:

- لم يعد لدينا مضخّة.

فسارع الزّعيم إلى الرّد:

- وإذن، فلنتوجه إلى اليابسة.

- أين هي، اليابسة؟

- لا أدري.

- ولا أنا.

- ولكنها في مكانٍ ما.

- أجل.

فاستأنف الزّعيم.

- فليقدْنا إليها أحدُهم.

فقال غالديازون:

- ليس لدينا ربّان.

- أمسك أنت بعصا القيادة.

- لم يعدْ لدينا عصا قيادة.

- لنسفسفْ عصا بأولِ رافدةٍ تأتينا. هاتوا مسامير، ومطرقة، وعدّة بسرعة!

- إن مركن النّجارة في الماء. ولم تعد لدينا عدّة.

- فلنقدْ السّفينة مع ذلك، ولا يهمّ إلى أين!

- ليس لدينا دفّة قيادة.
- أين زورقُ الإنقاذ؟ فلنرمِ بأنفسنا فيه. ولنجذّف!
- لم يعدْ لدينا زورقُ إنقاذ.
- لنجذّف على الحطام.
- لم تعد لدينا مجاذيف.
- إلى الشّراع إذن!
- لم يعد لدينا شراعٌ، ولا صارٍ.
- لنصنعْ صارياً بإطارِ تسرُّب، ولنصنعْ شراعاً بوقاءٍ خيشيّ. ولننجُ من هنا. ونعهد بأنفسنا للرّيح!
- لم تعدْ هناك ريح!

كانت الرّيح في الحقيقة قد غادرتهم، وكانت العاصفةُ قد مضت، وهذا الرّحيلُ الذي كانوا قد اعتبروه خلاصاً، كان هلاكَهم. كانت الريحُ الجنوبيّة الغربيّة، من خلال استمرارها، يمكن أن تدفعهم بشكلٍ جنونيٍّ إلى ساحلٍ ما، وكان يمكن أن تسبق بسرعتها المسربَ المائي، وأن تحملهم ربّما إلى مصطبةٍ رمليةٍ جيّدةٍ ومؤاتية، فتصدمهم بالرّمل قبل أن يغرقوا. وكان يمكن لاندفاعِ العاصفة السّريع أن يجعلهم يصلون إلى اليابسة. إذْ لم تعدْ هناك ريح، لم يعدْ هناك أمل. كانوا يموتون بسبب غياب العاصفة.

كان الموقفُ اليائس يتبدّى.

إن الرّيح، والبَرَد، والزّوبعة، والدّوامةَ هي محارباتٌ غير منظّمة ويمكنُ قهرُها. ويمكن للعاصفة أن تخذلها عدّةُ التدّريع. إن هناك وسائل ضدّ العنفِ الذي يتكشّف باستمرار ويتحرك بشكلٍ خاطئ، ويضرب جانبيّاً في الغالب. ولكن لا شيء يمكن فعلُه ضدّ الهدوء. وما من نتوء يمكن الإمساكُ به.

إن الرّياح هجومٌ قوزاق. فاصمدوا جيّداً، وسوف يتفرّقُ هذا الهجوم.

أما الصّمتُ فهو كمّاشةُ الجلاد.

أمّا الماء فقد كان، بلا تسرّع، ولكن من غير انقطاع، وعلى نحوٍ لا يُقاوَم، يرتفع في القعر، وكلّما كان يرتفع، كانت السفينة تنزل. وكان ذلك بطيئاً جدّاً.

كان غارقو الماتوتينا يشعرون شيئاً فشيئاً بانفراجِ أكثر الكوارثِ إثارةً لليأس تحتهم، وهي الكارثة السّاكنة. وكان اليقين الهادئ والمشؤوم بالواقعة الآليّة يسيطر عليهم. لم يكن الهواءُ يدوسُ، لم يكن البحرُ يتحرّك. إن الذي لا يتحرّك، هو الذي لا يرحم، كان الابتلاعُ يمتصّهم بصمت. ومن خلال سماكةِ الماء الصّامتة، ومن غير غضبٍ، ومن غير اندفاع، ومن غير أن يرغب في ذلك، ومن غير أن يعلم، ومن غيرِ أن يهمّه ذلك، فإن المركزَ القاتل، مركزَ الكوكب كان يجتذبهم. كانت الفظاعة، براحة، تدغمهم بها. لم يعد الأمر هو شدق الأمواج الفاغر، وفكُّ عصفةِ الرّيح، وعاصفةُ البحر المزدوج، والمهدِّد بشكلٍ شرّير، وتكشيرة الإعصار، وشهيّة الموج الثائر المزبدة، بل كان تحت أولئكَ البؤساء فغرٌ أسود للانهاية لا ندري ما هو. لقد كانوا يحسّون بأنهم يدخلون في عمقٍ هادئ هوٍ الموت. إن مقدار الحافّة الذي كان للسّفينة خارج المياه كان يتناقصُ، هذا كلُّ شيء. وكان بالإمكان أن يحسبَ المرء في أيّة دقيقة سوف تزول. وكان ذلك هو العكس الكامل لغمرِ المدّ الصاعد. لم يكن الماء يصعد نحوهم. بل كانوا ينزلون إليه. كان حفرُ قبرهم يأتي منهم. وكان ثقْلهم هو حفّارُ قبرهم.

لقد كانوا يُعدَمون، ليس بشرعة البشر، بل بشرعة الأشياء.

كان الثلجُ يهطل. وبما أن الحطامَ لم يعدْ يتحرك، فإن خرَق الضّماد البيضاء تلك كانت تصنعُ على سطح السّفينة سماطاً، ويغطيّ السّفينة بكفن.

كان القعرُ يصبح ثقيلاً أكثر فأكثر، وما من وسيلة لاجتيازِ مسربِ الماء، لم يكن لديهم حتى رفشٍ لنضحِ الماء، والذي كان يمكن أن يكون وهميّاً، وذا استخدام يتعذّر تنفيذه من جهة أخرى، بما أن الهوركة قد كانت مجسّرةً. لقد استثاروا؛ فقاموا بإشعال ثلاثة أو أربعة مشاعل غرسوها في فجوات كما استطاعوا. وجلب غالديازون عدداً من الدّلاء الجلدية القديمة، وشرعوا يجفّفون القعر، وصنعوا سلسلة، غير أن الدّلاء تفرغُ في الطريق. كان التفاوتُ يثيرُ الاستهزاء بين ما كانوا يتلقّونه من الماء، وما يفرغونه منه.

كان طنٌّ من الماء يدخل، ويخرج قدحٌ من الماء. ولم يكن هناك نجاحٌ آخر فقد كان الأمر كإنفاقِ بخيلٍ يحاول أن يستنفد مليوناً بصرفِ فلسٍ ففلس.

وقال الزعيم:

"لنخففَ الحطام!"

أثناء العاصفة، كانوا قد ربطوا بالقلوس عدداً من الصّناديق التي كانت على سطح السفينة، وكانت قد بقيت مربوطةً بتلك القطعة من الصّاري. لقد حلّوا القلوس، ودحرجوا الصّناديق إلى الماء من خلال فتحات حافة التسرّب. كانت إحدى تلك الحقائب تخصُّ المرأة الباسكيّة التي لم تستطعْ أنْ تحبس هذه الحسرة:

"أوه! دثار كتفي الجديد المبطّن بقماش قرمزيّ! جواربي المسكينة المخرّمة بقشر البتولة! أوه! ذوائبي الفضيّة المخصّصة للذهاب إلى القدّاس في شهر مريم!".

بعد أن رفعوا الرّكامَ عن سطح السّفينة، بقيت القمرة. وقد كانت جدّ مزدحمة. وكانت تحتوي، كما نتذكرّ، أمتعةً كانت للمسافرين، وحزماً كانت للبحّارة،

أخذوا الأمتعة، وتخلصوا من كلّ تلك الحمولة من خلال فتحة حافة التسرّب.

سُحبت الحزم، ودُفعت إلى المحيط.

انتهوا من إفراغ القمرة؛ فالمصباحُ وخشبةُ تثبيتِ الصّواري، والأكياسُ ومراكنُ الغسيل، ومدافنُ العظام، والقِدرُ والحساء، كلّ شيء قد أُلقي به إلى المياه.

لقد فكّوا حزقات الموقد الحديديّ المطفأ منذ زمنٍ طويل، وانتزعوه من مكانه، ودفعوه إلى خارج السّفينة.

أرسلوا إلى الماء كلّ ما أمكنهم أن ينتزعوه من ألوان التبطين، ومن ألواح التدعيم، ومن كبلات الأعمدة، ومن عدّة السفينة المحطمّة.

كان الزّعيمُ من وقتٍ لوقت يمسكُ مشعلاً، ويجول به على أرقام قياس المياه الضّحلة، المرسومة على مقدّمة السّفينة، وينظر إلى أين وصل الغرق.

XVIII
الملجأ الأسمى

كان الحطامُ الذي خفَّ وزنُه، يُغرقُ على نحوٍ أقلّ بقليل، ولكنه كان يغرقُ باستمرارٍ. لم يعدْ هناك ملجأ من يأس الموقف، ولا شيء يلطفّه. كانوا قد استنفذوا كل وسيلة.

وصاح الزّعيم: ألا يزال هناك شيءٌ يمكن إلقاؤه في البحر؟'

خرج الدكتور الذي لم يعدْ أحد يفكرّ به، من إحدى زوايا فتحةِ القمرة. وقال:

'نعم.

فسأل الزعيم:

– ماذا؟'

فأجاب الدّكتور:

'جريمتنا'

وسرت بينهم ارتعادةٌ، وصاح الجميع. 'آمين'.

أما الدّكتور، الذي كان واقفاً وشاحباً، فقد رفع إصبعه نحو الّماء وقال:

'اجثوا!'

كانوا يترنّحون، وهذا هو بدايةُ الرّكوع.

فتابع الدّكتور يقول:

لنلقِ بجرائمنا إلى البحر؛ فهي تثقلُ كاهلنا. هذا هو الذي يُغرق السفينة، فلا نفكرّن بعد بالإنقاذ، ولنفكرّ بالخلاص. إن جريمتنا الأخيرة خصوصاً،

والتي ارتكبناها، أو لنقلْ بشكلٍ أوضح، التي أكملناها منذ قليل، أيّها الأشقياء الذين تصغون إليّ، ترهقنا. وإنها لوقاحة كافرة أن يمتحن المرءُ الهاوية حين يكون قد خلّف وراءه قصداً للقيام بجريمة. إن ما يجري القيامُ به ضدّ طفل، إنما يجري القيامُ به ضدّ الرّبّ. كان ينبغي الإبحار، أنا أعلم هذا، ولكن ذلك قد كان الهلاكَ المؤكدَ؛ فالعاصفةُ التي أخطرتها الظلمةُ بأن فعلتنا قد حدثت، قد أتت! حسناً. فلا تندموا على شيء، فوق ذلك. فلدينا هناك، وليس بعيداً عنا، في هذه الظلّمة، رمال فودفيل، ورأس لاهوغ. إنها فرنسا. ولم يكن هناك إلا ملجأ ممكن. إنه إسبانيا. وفرنسا ليست أقلّ خطورة علينا من إنكلترا. إن خلاصنا من البحر كان يمكن أن يُفضي إلى المشنقة. فإمّا أن نشنق، وإما أن نغرق، ولم يكن لدينا خيارٌ آخر؛ وقد اختار الرّبّ لنا. فلنشكرْه على فضله. إنه يمنحُنا القبر الذي يغسل. يا إخوتي، إن المحتمّ قد كان موجوداً في ذلك. ولنفكرّوا بأننا نحن الذين عملنا جهدنا منذ قليل لكي نرسل أحدهم إلى الأعالي، وهو ذلك الطفل، وأنه في هذه الآونة بالذات، وفي اللحظة التي أتكلمّ فيها، ربمّا تكون هناك فوق رؤوسنا روحٌ تتهّمنا أمام قاضٍ ينظر إلينا. فلنفدْ من هذا التأجيل الأسمى، ولنبذلْ جهدنا، إن كان ذلك لا يزال ممكناً، في أن نزيل الأذى الذي سبّبْناه، في كلّ ما يتعلّق بنا. وإذا ما كُتبت للطفل النجاةُ بعدما فعلنا، فلنأتِ لمساعدته. وإذا مات، فلنحاول أن يغفر لنا. ولنرفع من فوق رؤوسنا إثمَنا، ولنبرّئ ضمائرنا من هذا الثّقل. ولْنحاول ألا تكون أرواحُنا مُبتلعةً أمام الرّبّ، لأن هذا هو الغرق الرّهيب. إن الأجساد تذهب إلى الأسماك، والأرواحُ إلى الشياطين فلترأفوا بأنفسكم. ولتجثوا، كما أقولُ لكم. إن التّوبةَ هي القاربُ الذي لا يغرق. ألم تعدْ لديكم بوصلة؟ هذا خطأ! إن لديكم الصّلاة.

لقد غدا هؤلاء النئاب خرافاً؛ فهذه التحوّلات تُرى من خلال القلق. فيحدث أن تلحس النئاب خشبَ الصليب. وحين ينشقّ البابُ المعتم، يُصبح الإيمانُ صعباً، وعدم الإيمان متعذّراً. ومهما تكن المخطّطاتُ الأوّليةُ المختلفة، مخططاتُ الدّين التي يحاول رسمها الإنسان غير كاملة، حتى عندما يكون الإيمانُ بلا شكل، وحتى عندما تكون حدودُ العقيدة غير متآلفة إطلاقاً مع ملامح الأبديّة المخمّنة، فهناك، في الدقيقة القصوى، ارتعادٌ للرّوح. إن شيئاً ما يبدأ، بعد الحياة. وهذا التأثير الشديد يحدثُ عند الاحتضار.

إن الاحتضارَ استحقاق. وفي تلك اللحظة المحتومة، يحسّ المرء بمسؤوليّةٍ معمّمة في ذاته. إن ما كان موجوداً يعقّد ما سيكون، فيرجعُ الماضي ويدخلُ في المستقبل، ويغدو المعروف هوّةً شأن المجهول، وهاتان الهوّتان، الأولى منهما التي تمثّلُ فيها أخطاء المرء، والهوّة الأخرى التي فيها انتظاره، تمزجان التماعهما. وهذا الاختلاطُ بين الهوّتين هو الذي يذعر المحتضر.

كان المسافرون قد استنفدوا آخرَ رجاء لهم من ناحية الحياة. وهذا هو السّبب في أنهم قد استداروا إلى الناحية الأخرى. لم يعد يتبقّى لهم من حظّ إلاّ في تلك العتمة. وقد أدركوا ذلك. وكان ذلك انبهاراً مُغمّاً أعقبته في الحال معاودةٌ للرّعب. إن ما نفهمُه في الاحتضار يشبه ما نلمحُه في البرق، كلّ شيء، ثم لا شيء. نرى ثم لا نعود نرى. بعد الموت، تنفتح العين ثانية، وما كان برقاً يصبح شمساً.

صاحوا بالدّكتور:

"أنت! أنت! لم يعدْ هناك سواك. سوف نطيعُك، فماذا ينبغي أن نفعل؟ تكلمْ".

فأجاب الدكتور قائلاً:

"المقصودُ هو العبور من فوق الهوّة المجهولة، وبلوغ الحافّة الأخرى للحياة، والتي هي في ما وراء القبر. وبما أني ذلك الذي يعلم أموراً أكثر، فأنا الأكثر عرضةً للخطر منكم جميعاً. وأنتم تُحسنون إذا ما تركتم اختيار الجسر لذلك الذي يحملُ العبء الأثقل."

وأضاف:

"إن العلمَ يضغطُ على الضّمير."

ثم استأنف يقول:

"كم تبقّىَ لنا من الوقت أيضاً؟"

نظر غالديازون إلى مقياس انخفاض الماء وأجاب:

- أكثر من ربع ساعة بقليل.

وقال الدّكتور:

- حسناً.

كان سقفُ وقاءِ المحرّكِ الخفيض والذي يتكئ عليه، يشكلّ نوعاً من منضدة. فأخذ الدّكتور من جيبه ظرفَ أدواتِ الكتابة وريشتَه ومحفظتَه التي سحب منها رقّاً، هو الرّقّ نفسُه الذي كان قد كتب على ظهره، قبل بضع ساعات، حوالي عشرين سطراً متعرّجاً ومتراصّاً، وقال:

'هاتوا ضوءاً'.

كان الثّلجُ الذي هطل مثل زبد شلال، قد أطفأ المشاعل، واحداً، بعد الآخر. ولم يبق إلاّ مشعلٌ واحد؛ فاقتلعه آفية - ماريا، وأتى ليتخذّ مكاناً له واقفاً، إلى جانب الدّكتور، وهو يمسك بالمشعل.

أعاد الدكتور محفظته إلى جيبه، ووضع على وقاء المحرّك الرّيشةَ والمحبرة، وثنى الرقّ وقال:

'اسمعوا'.

حينئذٍ، في وسط البحر، وعلى ذلك الجسر العائم الذي يهبط، والذي هو ضربٌ من أرضيّة للقبر مرتجفة، بدأت قراءةٌ قام بها الدّكتور بصورةٍ جدّيّة. وكان يبدو أن العتمة كلّها كانت تسمعه. كان كلُّ هؤلاء المحكومين يخفضون رؤوسهم حوله. وكان توهّجُ المشعل يزيدُ من شحوب وجوههم. إن ما يقرؤه الدّكتور كان مكتوباً بالإنكليزية. وعلى فترات، وحين كانت تبدو إحدى تلك النظراتِ الدّاعيةِ للرّثاء راغبةً في إيضاحٍ ما، فإن الدّكتور كان يقطعُ كلامه ويكرّر، سواء بالفرنسيّة أو بالإسبانية، أو بالباسكيّة، أو بالإيطالية المقطع الذي قرأه للتوّ. وكانت تُسمعُ انتحاباتٌ مخنوقةٌ، وقرعاتٌ مكتومةٌ تضربُ الصّدور.

وكان الحطامُ يواصل الغوص.

بعد أن أنهى الدكتور قراءته، وضع الرّقّ بصورةٍ مسطحّة على وقاء المحرّك، وأمسك بالرّيشة، وعلى هامشٍ أبيض وفّره في أسفلٍ ما كان قد كتبه، وقع كما يلي:

الدكتور جيرهاردس جيسدموند

ثم استدار نحو الآخرين، وقال:

"تعالوا ووقّعوا."

اقتربت الباسكيّة، وأمسكت بالرّيشة ووقعت: أسونسيون.

ومرّرت الرّيشة إلى الايرلنديّة التي لا تُحسن الكتابة، فقد خطّت صليباً.

أما الدكتور فقد كتب إلى جانب ذلك الصّليب:

بارباره فيرموا، من جزيرة تيريف، في تيزيبود.

ثم مدّ الرّيشة إلى زعيم العصابة.

فوقع الزعيم: غايزودوا، كابتال(70).

أما الجنوبيّ، فقد وقّع تحت الزّعيم: جيا نجيرات.

ووقع اللانغدوسي: جاك كاتورز الملقب بــ النّاربوني.

ووقّع البروفانسيّ: لوك – بيير كابغاروب من سجن ماهون.

وتحت هذه التّواقيع، كتب الدكتور هذه الملاحظة:

"من رجال الطّاقم الثلاثة، وبما أن الرّبان قد اختطفته عاصفةٌ عابرة، لم يبق إلاّ اثنان،وقد وقّعا."

وضع البحّاران اسميهما تحت تلك الملاحظة. وقد وقّع الباسكيّ الشمّالي غالديازون، ووقع الباسكيّ الجنوبيّ بــ: آفية – ماريا، لصّ.

ثم قال الدكتور:

"يا كابغاروب.

فقال البروفانسيّ:

– حاضر.

– لديك مطرةٌ هاردكانون؟

– أجل.

– أعطني إياها."

شرب كابغاروب الجرعةَ الأخيرة من ماء الحياة، ومدَّ المطرة إلى الدّكتور.

كان فيضانُ الماءِ الداخليّ يزدادُ تفاقماً، ويدخلُ الحطامُ في البحر أكثر فأكثر، وكانت حوافُّ سطح السفينةِ المائلة الانحدار مغطاةً بموجةٍ رقيقةٍ قاضمة، وتزداد كبراً.

كان الجميعُ يتجمعّون على تقوُّس السفينة.

جفّف الدكتور حبرَ التّواقيع على نار المشعل، وثنى الرّق إلى طيّاتٍ أضيق من قطر عنق الزّجاجة، وأدخلها إلى المطرة.

وصاح:

"السّدادة.

فقال كابغاروب:

– لا أدري أين هي.

وقال جاك كاتورز.

هذه قطعة من حبل(٧١).

سدَّ الدّكتورُ المطرة بقطعةِ الحبل تلك، وقال:

"أريد قطراناً"

ذهب غالديازون إلى المقدّمة، وأسند مِطفأةً من مشاقةٍ على الرّمانة ذات الحرّاقة والتي كانت تنطفئ، وفكهّا عن صدر السفينة، وجلبها إلى الدّكتور، وهي مملوءةٌ جزئياً بالقطران الغالي.

غمس الدّكتورُ عنقَ المطرة في القطران، وسحبه منها.

لقد أصبحت المطرةُ التي كانت تحتوي الرّقّ الذي وقّعه الجميع، أصبحت مسدودةً ومقطرنة.

وقال الدكتور: لقد تمّ الأمر".

ومن كلّ تلك الأفواه، خرجت، وبصورةٍ مغمغمةٍ بكلّ اللّغات، جلبةُ سراديبِ الأموات الحداديّة.

"آمين!

– أنا الخاطئ!

- Asi sea[*]

- Aro rei[**]

– آمين".

كان يمكن للمرء أن يظنّ أن أصواتَ بابل الكئيبة قد انتشرت في الظلّمات، أمام الرّقص السّماويّ المرعب لسماعها.

أدار الدكتور ظهره إلى رفاقه في الجريمة وفي الكرب، وخطا بضع خطوات باتجاه بطانة القعر، وما إن وصل إلى الحطام، حتى نظر إلى اللاّنهاية وقالَ بلهجةٍ عميقة:

"Bist du bei mir[***]".

لقد كان يتكلمُ ربّما مع شبحٍ ما.

كان الحطامُ يغوص.

وراء الدكتور، كان الجميع يحلمون. إن الصلاةَ قوةٌ كبرى. لم يكونوا ينحنون، كانوا يلتوون. كان هناك شيءٌ غيرٌ إراديّ في ندامتهم. وقد كانوا ينثنون مثلما يرتخي شراعٌ تنقصنه الرّيح، وهذه المجموعةُ الحائرة كانت تتخذ، رويداً رويداً من خلال ضمّ الأيدي، ووهنِ الجباه، تتّخذُ الموقف المختلف، ولكن المضنى، موقفَ الثّقة اليائسةِ بالرّب. ولا يدري المرءُ أيّ انعكاسٍ جليل، صادرٍ عن الهوّة، كان يرتسم على تلك الوجوه الآثمة.

(*) آمين.

(**) الحمد لله (لهجة إقليميّة روميّة).

(***) هل أنت قريب مني؟

رجع الدكتور إليهم. وأيّا كان ماضيه؛ فقد كان ذلك العجوزُ كبيراً بوجودِ هذه الخاتمة. وكانت هذه الحيرةُ المحيطةُ تشغل ذهنه من غير أن تبلبله. لقد كان الرّجلَ الذي لا يؤخذُ مباغتة. كان لديه رعبٌ هادئ. وكان جلالُ الرّب المدرَك مرسوماً على وجهه.

إن قاطعَ الطريق، هذا الشّائخ والمتفكّر، قد كان في وضعيةٍ حبريّة، من غير أن يبالي بذلك، فقال:

"انتبهوا."

وتأمّل للحظةٍ من الزّمن الامتداد الشّاسع وأضاف:

"الآن، سوف نموت"

ثم أخذ المشعل من يدي آفية - ماريا، وهزّه.

انفصلت عنه شعلةٌ، وتطايرت في الليل، ورمى الدّكتور المشعل إلى البحر.

انطفأ المشعل. وتلاشى كلُّ ضياء. ولم يعدْ هناك سوى ظلٍّ هائل غير معروف. وكان ذلك شيئاً هو أشبه ما يكون بقبرٍ ينغلق.

في ذلك الكسوف، سُمع الدكتور الذي كان يقول:

"لنصلّ."

فجثا الجميع.

لم يعودوا بعد ذلك يجثون في الثلج، وإنما في الماء.

ولم يعد لديهم إلاّ بضعُ دقائق.

كان الدّكتور وحده قد بقي واقفاً. وكانت رقعُ الثّلج، بتوقّفها عليه، تكوكبُه بدموعٍ بيضاء، وتجعله مرئيّاً على تلك الخلفيّة المعتمة، حتى ليخيّل للمرء أنه تمثالٌ ناطقٌ للظلّمات.

رسم الدكتور إشارةَ الصّليب، ورفع صوتَه في حين كانت قدماه تبدآن بذلك الترجُّح غير المتميّز تقريباً، والذي ينبئ باللحظة التي يغطسُ فيها الحطام. وقال:

'أبانا الذي في السّموات(*) :Pater noster qui es in coelis

فردّد البروفانسي بالفرنسيّة:

'أبانا الذي في السّموات'

وردّد الايرلندي باللغة الغاليّة التي فهمتها المرأة الباسكيّة:

'Ar nathair ata ar neamh: (أبانا الذي في السّموات).

فأكمل الدكتور:

'Sanctifi cetur nomum tuum: (ليتقدس اسمك).

فقال البروفانسي:

'ليتقدس اسمك'

وقالت الايرلنديّة:

Naomhthar hainm

وأكمل الدكتور:

'Adveniat regnum tuum'

فقال البروفانسيّ:

- ليأتِ ملكوتك.

وقالت الايرلنديّة:

- 'Tigeadh do rioghachd"

كان الماءُ يصلُ إلى أكتاف الجاثين، فردّد الدكتور:

Fiat volontas tua.

فدمدم البروفانسي:

- لتكن مشيئتك.

(*) باللاتينية في النصّ (م: ز.ع).

وأطلقت الايرلندية والباسكية هذه الصَيحة:

' Deunter do thoil ar on Hhalamb ' لتكن مشيئتك.

فقال الدكتور:

Sicut in coelo et interra": كما في السَماء كذلك على الأرض.

ولم يردّ عليه أيٌّ صوت.

خفض عينيه. فقد كانت كلّ الرؤوس تحت الماء. ولم ينهض أحد، لقد تركوا أنفسهم يغرقون وهم جاثون.

أمسك الدكتور بيده اليمنى المطرةَ التي كان قد وضعها على وقاء المحرّك، ورفعها إلى ما فوق رأسه.

كان الحطامُ يغرق.

كان الدكتور في الوقت الذي يغوصُ فيه يهمسُ ببقيّة الصّلاة.

كان جذعُه للحظةٍ من الزمن خارج الماء، ثم رأسه، ثم لم يعد هناك إلاّ ذراعه التي تمسك المطرةً، وكأنه يظهرها للانهاية.

توارت تلك الذراع، لم يعدْ في البحر العميق إلاّ طنّ من الزيت. وكان الثلجُ يواصلُ الهطول.

ثمة شيء قد طفا، وانساق مع الماء في العتمة. وكان ذلك هو المطرة المقطرنة والتي كان غلافها السّوحريّ يسندها.

الكتاب الثالث

الطّفل في العتمة

I
شيس - هيل

لم تكن العاصفةُ أقلَّ حدَّةً على الأرض منها في البحر.

كان انقلابُ العاصفة المخيف نفسُه قد احتدم حول الطفل المتروك. إن الضَّعيفَ والبريءَ يصبحان ما يقدران عليه عند الإسراف في الغضب غير الواعي الذي تقوم به القوى العمياء؛ فالظلام لا يتبصَّر. وليس للأشياء إطلاقاً ضروب التَّسامح التي نفترضه بها.

كان يهبُّ على اليابسة قدرٌ قليلٌ من الرِّيح؛ وكان البردُ ينطوي على شيء جامدٍ لا ندري ما هو. وما من حبَّةِ بَرَد. وكانت كثافةُ الثلج الهاطلة مرعبةً.

إن حبّات البرد تضربُ، وتزعجُ، وتمزِّقُ، وتُصمُّ، وتسحقُ؛ أما الرُّقَعُ الثلجية فأسوأ. إن رقعة الثَّلج التي لا ترحمُ والنَّاعمة تقوم بعملها بصمت. إذا ما لمسها المرءُ، ذابت. إنها صافيةٌ كسذاجةِ المنافق. ومن خلال بياضات تتراكبُ ببطء، إنما تصلُ رقعةُ الثلج إلى الجرف الثلجيّ، ويصلُ المخادعُ إلى الجريمة.

كان الطفل قد واصل التقدم في الضَّباب، والضَّبابُ عائقٌ رخو، ومن هنا تأتي الأخطار. إنه يتراجعُ ويستمرّ، والضَّباب شأن الثلج، مليء بالخيانة.

كان الطفلُ، ذلك المكافحُ الغريبُ في خضمِّ كلِّ هذه المخاطر، وقد نجح في الوصول إلى أسفل الانحدار، ودلف إلى شيش – هيل، كان، من غير أن يدري، على برزخ، يحيطُ به المحيطُ من جانبيه، ولا يمكنه أن يتيه، في ذلك الضَّباب وفي ذلك الليل، من غير أن يسقط على اليمين في ماء الخليج

العميق، وعلى اليسار، في الموج العنيف عند المدّ البحري. كان يسيرُ بين هاويتين، وهو غافل.

كان برزخُ بورتلاند في ذلك العهد وعراً وقاسياً. ولم يعد فيه شيء اليوم من صورته حينذاك. فمنذ أن خطرت فكرةُ استثمارِ حجارةِ بور تلاند كملاطٍ رومانيّ، طرأ على الصّخور كلّها تبديلٌ ألغى مظهرها البدائي. ولا نزالُ نجد فيها الجيرَ المحبّبَ، والنضيّدَ، وحجرَ السّماق الذي يخرج من مصاطب صخورٍ مركبّة كما تخرجُ السّنُّ من اللّثة؛ غير أن المعول قد بتر وسوّى كلّ هذه الشّعاف الشائكة والوعرة، والتي كانت تأتي لتحطّ عليها بصورةٍ قبيحةٍ محطّمات العظام(٧٤). لم تعد هناك قممٌ يمكن أن تتواعد فيها طيورُ اللاّب والستيركورير(٧٥). والتي تحبّ أن تلوّث القمم، شأن الحاسدين. وعبثاً يبحثُ المرءُ عن حجرٍ وحيدِ القطع، وعالٍ ويسمى غودولفان، وهي كلمة غاليّة قديمة تعني النسّر الأبيض. ولا يزال المرء يقطفُ، صيفاً، في تلك الأراضي المحفّرة والمثقّبة كالإسفنج، إكليلَ الجبل، ونعنعَ الحقل، والزّوقاءَ البّرية، وشمرة البحر التي تعطي دواءً منشّطاً، إذا ما جرى نقعُها، وتلك العشبة، المليئة بالعقد، والتي تخرج من الرّمل، ويُصنعُ منها الحصير، ولكن لم يعد يلتقط فيها لا العنبرُ الرّماديّ، ولا القصديرُ الأسود، ولا ذلك النّوع الثلاثي من الأردواز، وأوّله الأخضر، وثانيه الأزرق، وثالثه الذي هو بلونِ أوراق القويصة. إن الثّعالب، وحيوانات الغرير، والقندس والسّمور قد رحلت عنها؛ وقد كان في تلك الانحدارات، انحدارات بورتلاند، كما في رأس كونواي، حيوانات شامواه. ولم يعد هناك منها. ولا يزال يجري صيدٌ بحري، في بعض الفجوات، للهوشع، وسردين البلشار. إلا أن السّلمون الذي يجفل، لم يعد يصعد لاوي، بين لاسان - ميشيل ولانويل لكي يضع بيضة. ولم يعد يُرى هناك، كما في عهد إليزابيت، شيء من تلك الطيور القديمة المجهولة، والتي هي بحجم البزاة، والتي كانت تقطعُ تفاحةً إلى قسمين، ولا تأكل منها إلا البزر. ولم يعد المرءُ يرى شيئاً من تلك الغربان ذات المنقار الأصفر والمسماة Cornish chough بالإنكليزية، و pyrrocarax باللاتينية، والتي كان مكرُها يتمثّل في إلقاء سروعِ الكرمة المشتعلة على سقوف القش. ولم يعد

المرءُ يرى فيها العصفورَ السّاحرِ فولمار(٧٦)، والذي يهاجرُ من أرخبيل اسكوتلاندا، ويرمي من منقاره زيتاً كان سكّان الجزر يشعلونه في مصابيحهم. ولم يعد المرء يلتقي، مساءً، من خلال سقسقةِ انحسار المدّ، القَقمةَ الأصلية(٧٧)، القديمةَ والأسطوريةَ ذات الأقدام الخنزيرية، وصوتَ العجل. إن المدّ لم يعد يصدم على هذه الرّمال أسدَ البحرِ المشورب. والملفوف الأننين، وصاحب الأسنان الطّاحنة(٧٨). المدبّبة، وهو يزحف على قوائمه التي لا أظلاف فيها. في بورتلاند هذه التي لم تعد تُعرَف اليوم، لم يكن ثمّة عنادلُ قطّ، بسبب النقص في الغابات، إلاّ أن الصّقور والدّمّ، وإوزّ البحر قد طارت. إن لخرافِ بورتلاند الحالية لحماً دهنياً، وصوفاً ناعماً. والشياهُ النادرة التي كانت ترعى منذ قرنين هذا العشب المالح قد كانت صغيرةً وعنيدة، وكانت جزّتُها متلبّدة، كما يليق بقطعانٍ سلتيّة كان يسوقُها قديماً رعاةٌ من أكلة الثوم ويعيشون مئة عام، وعلى بعد نصف ميل، كانوا يثقبون دروعاً بسهمهم الذي طوله نصف ذراع. إن الأرض البائرة تنتج صوفاً قاسياً. إن شيس - هيل لا تشبه في شيء شيس - هيل في الزّمن الماضي، لفرط ما قلقلها الإنسان، وتلك الرّياح الهوجاء، رياح سوريلنغ(٧٩)، التي تقضم حتى الحجارة.

أما اليوم، فلسانُ الأرض هذا يحملُ سكّة حديد تُفضي إلى رقعةِ شطرنج من المنازل الجديدة، هي شيسيلتون، وفيها "محطة بورتلاند". إنّ المقطورات تسيرُ في المكان الذي كانت تزحفُ فيه القفمات.

كان برزخُ بورتلاند، منذ مئتي عام، مسنّماً رمليًّا له عمودٌ فقريّ من الصّخر، بذل الخطرُ شكلَه، بالنسبة للطّفل. فما كان يخشاه الطفلُ عند النزول هو أن يتدحرج إلى أسفل المنحدر؛ وفي البرزخ، كاد أن يسقط في الفجوات. وبعد أن كان عليه مواجهة الهوّة، صار عليه مواجهة المنقع الموحل. فكلُّ شيءٍ فخّ على شاطئ البحر. فالصّخرُ منزلقٌ، والسّاحل الرّمليّ متحرّك. ونقاطُ الارتكاز أحبولات؛ فيكون المرءُ مثلَ شخصٍ يدوسُ على ألواحٍ زجاجيّة. وكلُّ شيءٍ يمكن أن ينصدع تحتك، فينشأ صدعٌ يختفي المرء تحته. إن للمحيط سافلةً ثالثة مثل مسرحٍ جيّد أُحْسنَ التجهيز الآليّ.

يُعدُّ النّتو من النّتوءاتِ الطويلةِ الصّوانيّةِ التي يتكّئُ عليها المنحدرُ المضاعفُ لبرزخٍ، يُعدُّ غير يسير، ويجد المرءُ فيها بصعوبةٍ ما يسمّيه بلغةِ الإخراج أموراً قابلةً للتحقيق. ما من ضيافةٍ ينتظرُها الإنسانُ من المحيط؛ فالطيّرُ والسّمكُ وحدهما مرصودانِ للبحر. إن البرازخ معّراةٌ وشائكة على نحوٍ خاصٍ. وماءُ الموج الذي يحتّها ويتآكلها من الجانبين يحيلها إلى أبسط تعبيراتها؛ ففي كلّ مكانٍ منها، تضاريسُ حادّة، ونتوءاتٌ، ومناشرُ محزّزة، وأسنانٌ مرعبةٌ لحجارةٍ ممزّقة، وانفراجات مسننّة مثل الفكّ المتعدّد البروزات الحادّة (٨٠). فكّ سمك القرش، ومعاثر الطحالب المبلّلة، وتدفّقات الصّخور السّريعة المفضية إلى الزّبد. إن من يشرعُ في اجتيازِ برزخٍ يصادفُ في كلّ خطوة كتلاً دميمةً، وضخمةً بحجم المنازل تصوّر عظام الشظيّة، والتّرقوات، وعظام الفخذ، وهي تشريحٌ مقزّز لجلاميد صخريّةٍ مسلوخة. وليس من المجانيّة في شيء أن تُسمّي هذه الأخاديد، أخاديد شواطئ البحر سواحل(*) (أضلاعاً). إنِ الماشي يتخلّصُ حسب إمكانه من ذلك الاختلاط الفوضويّ للرّدوم. إن التّقدمُ سيراً عبر هذا التّشكيل العظمي لهيكلٍ هائل، إنّما هو ذلك العناء تقريباً.

فلنضعْ طفلاً في هذا العمل الهرقليّ.

كان يمكن لرأد الضّحى أن يكون مفيداً، وكان الوقتُ ليلاً؛ وكان يمكنُ لمرشد أن يكون ضروريّاً، وكان الطفل بمفرده. ولم يكن لبأس الرّجل كلّه أن يكون أكثر مما ينبغي، ولم يكن لدى الطفل إلاّ قوّته الضعيفة. ويمكن لمعبرٍ صغير أن يساعده، لعدم وجودِ مرشد، ولم يكن هناك معبرٌ إطلاقاً.

كان يتحاشى غريزيّاً سلسلةَ الصّخور الصّغيرة الحادّة، ويسلك الشّاطئ ما استطاع. وهناك إنما كان يصادف المناقعَ الموحلة. وكانت المناقع تتكاثر أمامه بأشكال ثلاثة، منقع الماء ومنقع الثلج، ومنقع الرّمل. وكان المنقعُ الأخيرُ هو الأكثر إثارةً للخوف. فهنا يجري الغوصُ في الرّمل.

أن يعلم المرءُ ما يجابهه أمرٌ مقلقٌ، أما الجهلُ به فمخيف. كان الطفل يكافح الخطر المجهول. فلقد كان على غير هدىً داخل شيء ربما هو القبر.

(*) ساحل أو ضلع: côte، دلالة مزدوجة لكلمة واحدة بالفرنسية. (م: ز.ع).

لا تردُّد في الأمر. كان يلتفّ حول الصّخور، ويتجنّبَ الصّدوع، ويخمّن الأفخاخ، ويعاني من تعرّجات العائق، ولكنه كان يتقدّم. وإذْ لم يكن يستطيع أن يسير على خطٍّ مستقيم، فقد كان يسير بثبات.

كان يتراجع عند الحاجة بعزم. وكانٍ يُحسنُ انتزاعَ نفسه من الدّبقِ المقزّز، دبقِ الرّمال المتحرّكة. كان ينفضُ الثّلج عن نفسه، وقد دخل في الماء غير مرّة حتى الركبتين، وما إن يخرج من الماء، حتى تصبحَ ثيابُه الرّثة المبلّلة متجمدّة في الحال بفعل بردِ الليل الشديد. كان يسير سريعاً في ملابسه المتصلّبة، ومع ذلك، فقد كانت لديه المهارة للحفاظ على سترته، سترةِ البحّارة، جافّةً ودافئةً على صدره. وكان جائعاً حقّاً على الدّوام.

ليست مغامراتُ الهوّة محدودةً في أيِّ اتّجاه؛ فكلُّ شيءٍ فيها ممكنٌ، وحتى السّلامة. إن المخرج غير منظور، ولكنه يمكن العثورُ عليه. فكيف يتوصّلَ الطفل الذي تلفّع بلولبٍ خانق من الثلجٍ، والضّائع على ذلك المرتفع الضّيق بين شدقي الهوّة، والذي لا يرى فيه شيئاً، يتوصّلَ إلى اجتياز البرزخ. هذا ما كان هو نفسه لا يتمكن من قوله. كان قد انزلق، وتسلّق، وتدحرج، وبحث، وسار، وثابر على ذلك، وهذا كلّ شيء. إن هذا هو سرّ كلّ النجاحات. وبعد أقلّ من ساعة بقليل، أحسّ بأن الأرض تصعد مجدّداً. وكان يصل إلى الضّفة الأخرى، ويخرج من شيس – هيل. كان على الأرض الصّلبة.

إن الجسر الذي يربط اليوم سانفور – كاس بسمولموث – ساند لم يكن موجوداً في ذلك العهد. ومن المحتمل أن يكون الطفل، من خلال تلمسّه الذكي لطريقه، قد صعد مجدّداً حتى مواجهة فايك – ريجيس التي كان فيها حينذاك لسانٌ رمليٌّ، هو مرتفعٌ أرضيٌّ طبيعيٌّ يجتازُ ليست فليت.

كان قد أُنقذَ من البرزخ، غير أنّه كان يلقى نفسه بمواجهة العاصفة، والشّتاء، والليل.

أمامه كانت تنبسط من جديد سهولٌ على مدى البصر المعتم.

نظر إلى الأرض، باحثاً عن معبر.

فجأة انحنى.

لقد لمح في الثّلج لتوّه شيئاً بدا مثل أثر.

كان ذلك أثراً فعلاً. وهو أثرٌ لقدم. وكان بياضُ الثّلج يُبرزُ بوضوح انطباعَها، ويجعله جدّ مرئي. لقد تأمّلها، فقد كانت قدماً عارية، أصغر من قدمِ رجل، وأكبر من قدم طفل.

من المحتمل أن تكون قدمَ امرأة.

بعد هذا الأثر، كان هناك، أثرٌ آخر؛ كانت هذه الآثار تتعاقبُ بمسافةِ خطوة واحدة، وتغوصُ في السّهل باتجاه اليمين. كانت لا تزال حديثةً وهي مغطّاةٌ بقليل من الثّلج. إن امرأةً قد مرّت لتوّها من هناك.

كانت تلك المرأةُ قد مشت، ومضت في الاتجاه نفسه الذي كان الطّفلُ قد رأى فيه أدخنة.

أما الطّفلُ فقد أخذ يقتفي تلك الخُطا، محدّقاً بالآثار.

I I
أثر الثّلج

سار لبعض الوقت على ذلك الخطّ. وقد أخذت تلك الآثارُ تُصبح لسوء الحظّ أقَلّ فأقلّ وضوحاً. كان الثلج يهطل كثيفاً ومرعباً. وكانت تلك هي اللحظة التي تحتضر فيها الهوركة تحت ذلك الثلج نفسه في عرض البحر.

أمّا الطفلُ الذي كان في ضيق كالسّفينة، ولكن بصورةٍ أخرى، وإذْ لم يكن لديه في تقاطع الظّلمات التي تنتصب أمامه، وسيلةٌ أخرى غير تلك القدم المطبوعة في الثلج، فقد كان يتشبّثُ بتلك الخطوة كما يتشبّثُ بخيطٍ في متاهة.

فجأة، إمّا لأن الأمر قد انتهى بالثّلج لتسويتها، وإما لأيّ سببٍ آخر، فإن الآثار أمحّت. وغدا كلُّ شيء من جديد مسطّحاً، وسويّاً، ومنبسطاً من غير أيّة لطخة، ومن غيرِ أيّ تفصيل. ولم يعدْ هناك إلاّ بساطٌ أبيض على الأرض، وبساطٌ أسود في السّماء.

كان ذلك وكأن العابرةَ قد طارت.

أما الطّفلُ الغارقُ في الضيّق فقد انحنى وبحث. ولكن عبثاً.

وإذْ كان ينهضُ مجدّداً، فقد أحسّ بشيء غير واضح كان يسمعه، غير أنه لم يكن متأكدّاً من سماعه. كان ذلك يشبه صوتاً، ونفساً، وشبحاً. كان ذلك بشرياً أكثر مما هو حيواني، وقبريّاً أكثر منه حيّاً. كان ذلك ضجيجاً، ولكنه من ضجيج الحلم.

نظر فلم يرَ شيئاً.

كانت العزلةُ الواسعةُ العاريةُ والداكنة أمامه.

أصغي. وما كان يظنّ أنه قد سمعه تبدّد. ولعلّه لم يكن قد سمع شيئاً. فأصغي أيضاً. وكان كلّ شيء صامتاً.

كان ثمة وهمٌ في كلّ ذلك الضّباب؛ فأخذ يستأنفُ المسير.

أخذ يسيرُ على غير هدى، فلم تعدْ له منذ ذلك الحين خطوةٌ ترشده. وما كاد يبتعد حتى رجعت الضجّة مجدّداً. وتلك المرّة، لم يعدْ بإمكانه أن يرتابَ بالأمر. كان ذلك أنيناً، ونحيباً تقريباً.

استدار، وجال بعينه في الفضاء الليّلي: فلم يرَ شيئاً.

وارتفعت الضّجةُ من جديد.

إذا كان باستطاعة الأرواح الهائمة أن تصرخ، فهي إنّما تصرخ على ذلك النّحو.

ما من شيء نافذٍ ومؤثرٌ وضعيف كذلك الصّوت؛ فقد كان صوتاً. وكان كذلك يصدرُ عن روح. وكان ثمة اختلاجٌ في ذلك الهمس. ومع ذلك، فقد كان هذا يبدو غير واعٍ تقريباً، لقد كان شيئاً أشبه ما يكون بعذابٍ يستغيث، إنما من غير أن يدري أنه عذاب، وأنه يستغيث.

إن هذه الصّرخة التي ربّما تكون النّفس الأخير كانت على مسافة متساوية من الحشرجة التي تختم الحياة وصُراخ الوليد الذي يستهلها. والشيءُ يتنفسّ، ويختنق، وكان يبكي. إنّه تضرّعٌ محزن في اللاّمرئي.

كان الطفلُ يركزّ انتباهه في كلّ مكان، في البعيد، في القريب، في العمق، في الأعلى، وفي الأسفل. لم يكن هناك أحد. لم يكن هناك شيء.

أرهف السّمع. فسمعَ الصّوتَ أيضاً. لقد التقطه بوضوح. وكان في ذلك الصّوت قليلٌ من ثغاء خروف.

حينذاك، خاف وفكّر بالهرب.

تكرّر الأنينُ. وكانت تلك هي المرّة الرّابعة. وكان أنيناً بائساً وشاكياً بصورةٍ غريبة. وكان المرء يحسّ أنه بعد هذا الجهد الأقصى، والذي هو آليّ أكثر ممّا هو طوعيّ، من المحتمل أن تلك الصّرخة كانت ستخمد. لقد كانت

التماساً منازعاً مقدّماً بصورةٍ غريزيّةٍ إلى ذلك القدْر من النّجدة المعلّقة في المدى الواسع؛ كان ذلك غمغمة احتضارٍ غير واضحة وموجّهة إلى عنايةٍ إلهيّةٍ ممكنة. وتقدّم الطّفلُ من الجهة التي كان الصّوتُ يأتي منها.

لم يكن يرى شيئاً في كلّ آن:

وتقدّمَ أيضاً وهو يرقب.

كانت الشكوى تتواصلُ. وتحوّلت من شكوى مجمجمةٍ ومشوّشة إلى شكوى واضحةٍ ومهتّزةٍ تقريباً. كان الطّفلُ جدّ قريب من الصّوت. ولكن أين كان الصوتُ؟

كان الطّفل على مقربةٍ من شكاة. كان ارتجافُ شكاةٍ في الفضاء يمرُّ بجانبه. إن أنيناً بشرياً طافياً في اللاّمرئي هو ذلك الذي كان يسمعُه منذ قليل. وكان ذلك على أيّةٍ حالٍ هو انطباعُه المضطرب كالضّباب العميق الذي ضاع فيه.

وإذْ كان يتردّد بين غريزةٍ تدفعه إلى الهرب وغريزةٍ تقول له أن يبقى، فقد لمح في الثّلج، عند قدميه، على بعد بضع خطوات أمامه، نوعاً من تموُّجٍ بحجم جسمٍ بشريّ، ومرتفعاً صغيراً واطئاً، طويلاً وضيّقاً، وشبيهاً بتقبُّب حفرة، ومشاكلةً لقبر في مقبرة على أن تكون بيضاء.

في الوقت نفسه، صاح الصّوت.

من تحت ذلك الصّوت، إنما كان يخرج.

انحنى الطفل، وقرفص أمام التموّج، وبيده بدأ ينزع عنه الرّكام.

رأى شكلاً يتشكل تحت الثّلج الذي كان يزيحه، وفجأة، تحت يده، وفي الفجوة التي أحدثها، ظهر وجة شاحب.

لم يكن ذلك الوجه إطلاقاً هو الوجه الذي كان يصرخ فقد كانت عيناه مغمضتين وفمه مفتوحاً، ولكنه مملوءٌ بالثّلج.

كان الوجه جامداً، فلم يتحرّك تحت يد الطّفل. أما الطّفل الذي كان مصاباً بالخدر في أصابعه، فقد ارتعد وهو يلمسُ برودة ذلك الوجه. لقد كان رأسَ امرأة. كان الشّعرُ المبعثرُ مختلطاً بالثّلج. فتلك المرأةُ قد كانت ميتة.

أخذ الطفلُ يزيحُ الثلج مجدداً. تحرّرت عنقُ الميتة، ثم أعلى جذعها الذي كان يرى لحمه تحت الأسمال.

فجأة، أحسّ تحت تلمُّسه بحركةٍ ضعيفة. كان ذلك شيئاً صغيراً مدفوناً، وكان يتحرّك. أزاح الطّفلُ الثلج، واكتشف جسماً بائساً لجهيض، هزيلاً وشاحباً وبارداً، ولا يزالُ حيّاً، وعارياً على صدرِ الميتة العاري.

كان طفلةً صغيرة.

كانت مقمّطة، ولكن ليس بما يكفي من الخرق، وقد خرجت من مزقها وهي تتخبّط. وكانت أطرافُها المسكينة النحيلة تحتَها، ونفَسُها فوقها، قد أذابت الثلج قليلاً. وكان يمكن لمرضعة أن تحدّد عمرها بخمسة أو ستّة أشهر، ولكنه كان ربّما عاماً، فالنّمو في حالة البؤس تطرأ عليه تصغيراتٌ مؤسفةٌ تصلُ أحياناً حتى الكساح، وحين أصبح وجهُها في الهواء، أطلقت صرخةً هي استمرارٌ لانتحابها المستغيث. ولكي لا تكون الأمُّ قد سمعت ذلك الانتحاب، لا بدّ أنها كانت قد ماتت بصورةٍ تامّة فعلاً.

أمسك الطفلُ بالصغيرة بين ذراعيه.

أما الأمّ المتصلّبةُ فقد كانت مخيفةً. وكان إشعاعٌ شجيٌّ يخرج من سحنتها تلك. ويبدو أن الفمَ الفاغرَ والذي لا نفس فيه قد بدأ بلغة الظلام غير الواضحة الرّدَّ على الأسئلة المطروحة على الموتى في اللاّمرئي. كان الالتماعُ الباهت، التماعُ السّهول المتجمّدة على ذلك الوجه. ويرى المرءُ الجبينَ الفتيَّ تحت الشّعر الكستنائي، وتقطّبَ الحاجبين الغاضب تقريباً، والمنخرين المنقبضين، والجفونَ المغمضة، والأهدابَ الملتصقة بسبب الجليد، ومن زاوية العينين إلى زاوية الشفتين أخدود الدّموع العميق. كان الثلجُ ينيرُ الميتة، إن الشتاء والقبرَ لا يضيرُ أحدُهما الآخر. والجثةُ هي ثليجة الإنسان. لقد كان عريُ الثّديين مؤثراً. كانا قد خدما؛ وكان قد أصابهما الذبولُ السّامي، ذبولُ الحياة التي يمنحُها الكائنُ الذي غادرته الحياة، كان الجلالُ الأموميّ يحلّ فيهما محلَّ الطهّارة البتولية. وعلى رأس حلمةِ أحد الثديين، كانت هناك لؤلؤةٌ بيضاء. إنها نقطةُ حليب متجمّدة.

لنقل ذلك حالاً؛ إن في تلك السّهول التي كان يمرّ فيها الصّبيّ الضّائع بدوره، كانت متسوّلةٌ ترضعُ رضيعها، وتبحث هي أيضاً عن ملجأ، وقد تاهت منذ بضع ساعات. وإذْ كانت ترتعد برداً، فقد سقطت تحت العاصفة. ولم تتمكّن من النّهوض مجدّداً. كان الجرفُ الثلجيّ قد غطاها؛ فضمّت إليها ابنتها بأشدّ ما أمكنها ذلك، وقضت.

كانت البنتُ الصغيرةُ قد حاولت أن ترضع من هذا الرّخام.

إنها ثقةٌ محزنة أرادتها الطبيّعة، فيبدو أن الإرضاعَ الأخيرَ ممكنٌ بالنسبة لأمّ، حتى بعد النَّفَس الأخير.

غير أن فمَ الطفلة لم يكن باستطاعته أن يجد الثّدي الذي تجمدّت عليه قطرةُ الحليب التي اختطفها الموت، فصرخت الرضيعةُ التي اعتادت على المهد أكثر مما اعتادت على القبر.

كان الصّغيرُ المتروكُ قد سمع المحتضرة الصغيرة.

فنبشها من التراب.

وأخذها بين ذراعيه.

حين أحسّت الصّغيرة بأنها بين ذراعيه، كفّت عن الصّراخ. وتلامَسَ وجها الطفلين، واقتربت شفتا الرّضيع البنفسجيّتان من خدّ الصبّي كما تقتربان من ثدي.

كانت البنتُ الصغيرة تقريباً في تلك اللحظة التي يوقفُ الدّمُ المتخثّرُ القلبَ فيها بعد قليل. وكانت والدتُها قد أعطتها شيئاً من موتها، فالجثّةُ تتواصل، فيكون هناك تبرّد يتفشّى. كانت قدما الصّغيرة، ويداها، وذراعاها، وركبتاها وكأنما قد شُلّت بسبب الجليد. وأحسّ الصّبيّ بهذا البرد الرّهيب.

كان يلبس رداءً جافاً ودافئاً، وهو سترتهُ؛ فوضع الرّضيعة على صدر الميتة، ونزع سترته، ولفّ بها البنتَ الصّغيرة، وأمسك بالطفّلة مجدّداً، وإذْ غدا الآن تقريباً عارياً تحت هبّاتِ الثلج التي تنفخها ريحُ الشّمال، وحمل الصّغيرة بين ذراعيه؛ واستأنف السّير.

ما إن نجحت الصغيرة في العثور على خدّ الطفل حتى أطبقت عليه فمها، وشعرت بالدّفء، فنامت. إنها أولُ قبلةٍ لهاتين الروحين في الظلّمات.

بقيت الأمّ راقدةً، وظهرُها على الثلج، ووجهُها نحو الليل. ولكن في اللّحظة التي تجرّد فيها الصبيُّ من ملابسه لكي يغطيّ البنت الصّغيرة، كان الأمّ ربما تراه من أعماق اللانهاية التي كانت فيها.

III

كلُ طريق مؤلمة

يثقلها عبء

كانت الهوركة قد ابتعدت عن جون بورتلاند، منذ أكثر من أربعِ ساعاتٍ بقليل، تاركةً خلفها ذلك الصبّي على الشاطئ. ومنذ هذه السّاعات الطويلة التي تُرك فيها، كان يسير إلى الأمام، لم يكن قد التقى، في ذلك المجتمع البشريّ الذي سيدخل إليه ربّما، إلاّ ثلاثة أشخاص، رجلاً، وامرأة، وطفلاً. أما الرّجلُ، فهو ذلك الرّجل على الهضبة، والمرأة هي تلك المرأة في الثّلج، والطفل هو تلك البنت الصغيرة التي كانت بين ذراعيه.

كان مرهقاً من التّعب ومن الجوع.

كان يتقدم بتصميمٍ أكثر من أيّ وقتٍ، وبقوةٍ أقلّ وحملٍ أكبر.

كان الآن تقريباً بلا ملابس، والقليل من الأسمال الذي تبقّت له، والتي صلّبها الجليد، كانت قاطعةً كالزّجاج وهي تخدشُ جلده. وكان يتبّرد، غير أن الطفلة الأخرى كانت تتدفّأ، فما كان يفقدهُ لم يكن ضائعاً؛ فالطفلةُ تكسبُه من جديد. كان يتبيّن تلك الحرارةَ التي كانت بالنسبة للمسكينة استعادةً للحياة. وواصل تقدّمه.

من وقتٍ لوقت، كان ينحني، وهو يسندُها جيداً، وبإحدى يديه، يأخذُ شيئاً من الثّلج في قبضته، ويفركُ قدميها ليمنعهما من التجمّد.

وفي فتراتٍ أخرى. وحين يشعر بالتهاب حلقه، كان يضع في فمه قليلاً من ذلك الثّلج ويمصّه، وهذا ما يخدعُ ظمأه لدقيقةٍ من الزمن، ولكنه يحوّله إلى حميّ. فكان ذلك تسكيناً هو مفاقمةٌ للأمر.

كانت الزّوبعة قد أصبحت بلا شكل لفرط عنفها، وغدت فيضاناتُ الثّلج ممكنة، وهذا أحدُ فيضاناته، وأخذ ذلك الاشتدادُ يعاملُ السّاحلَ بقسوة في الوقت الذي يهيّج فيه المحيط. كانت تلك ربّما هي اللحظة التي تتفكّك فيها الهوركة المضطربة في معركة المكاسر الصّخرية.

لقد اجتاز تحت هذه الريح الشّمالية مساحاتٍ واسعةً من الثلج، وهو يسير دوماً باتّجاه الشرق. لم يكن يدري كم كانت السّاعة. ومنذ وقتٍ طويل،لم يعد يرى أدخنة. إن تلك الإشارات في الليل سرعان ما تمّحي. ومن جهةٍ أخرى، فقد تجاوز الوقتُ السّاعةَ التي تنطفئ فيها الأضواء. وفي النهاية لعلّه قد أخطأ، ومن الممكن أنه لم تكن هناك مدينةٌ ولا قريةٌ في الجهة التي كان يسير إليها.

وفي تشكّكه، كان يثابر على السّير.

صرخت الصّغيرة مرتين أو ثلاث. حينئذٍ طبع مشيته بحركةٍ هدهدة ؛ فأخذت تهدأ وتسكت. وانتهى بها الأمر إلى أن تغفو فعلاً، وبنومٍ جيّد. وكان يشعر بها دافئة وهو يرتعدُ برداً.

غالباً ما كان يشدّ ثنيات السّترة حول عنق الصّغيرة لئلا يتسلّل الجليدُ من فتحةٍ ما، ولئلا يكون هناك أيُّ تسرُّبٍ للثلج الذّائب بين لباس الطفلة.

في السّهل، كانت هناك تموّجاتٌ، وعند التحدُّرات التي ينخفض فيها السّهلُ، فإن الثّلجَ، الذي راكمته الرّيحُ في ثنايا الأرض، قد كان عالياً بالنسبة إليه، هو القصير، بحيث كان يغرق بكليّته تقريباً فيه. وكان لا بدّ له من أن يسير وهو مطمورٌ جزئيّاً. كان يسير، دافعاً الثلج بركبتيه.

ما إن اجتاز الوهدةَ حتى وصل إلى هضابٍ مستوية كانت ريحُ الشّمال قد كنستها فكان الثلجُ فيها رقيقاً.

كان نَفَسُ البنت الصّغيرة الفاتر يمسُّ وجنته مسّاً خفيفاً ويدفّئه للحظة، من الزمن، فيتوقّف ويتجمّد في شعره حيث يُحدثُ ثلجة.

كان يدرك أن هناك تعقّداً مخيفاً للأمور؛ فلم يعدْ باستطاعته أن يسقط. وكان يحسُّ بأنه لن ينهض مجدّداً. كان منهوكاً من التعب، ويمكنُ لرصاصِ الظلّمة، شأن المرأة التي قضت، أن يثبّته إلى التراب، ويمكنُ للجليد أن يلحمه حيّاً إلى الأرض. كان قد انزلق على منحدراتِ هاويات ونجا منها؛ وكان قد تعثّر في فجواتٍ وخرج منها؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت سقطةٌ واحدة هي الموت. كانت كبوةٌ واحدةٌ تفتحُ القبر. لم يكن ينبغي أن ينزلق، فلن تكون له القوّه لينتصب على ركبتيه.

والحال، فقد كان الانزلاقُ حوله في كلّ مكان. وكان كلُّ شيء جليداً وثلجاً متصلّباً.

كانت الصّغيرة التي يحملها تجعلُ سيره صعباً إلى درجةٍ فظيعة. فلم تكن ثقلاً مفرطاً بالنسبة لعيائه ونهكه، بل كانت عائقاً. كانت تشغل ذراعيه، وبالنسبة لمن يسير على الجليد، تعتبر الذّراعان ميزانَ توازنٍ طبيعيّاً وضروريّاً.

كان يتعين عليه أن يستغني عن ميزان التّوازن هذا.

كان يستغني عنه ويسير، وهو لا يدري ما سيحدثُ له تحت حمله.

كانت تلك الصّغيرةُ هي القطرة التي جعلت إناء الضّائقة يفيض.

كان يتقدّم، مترجّحاً عند كلّ خطوة، وكأنّه على مقفز، ومنجزاً، من غير أن ينظر إليه أحد معجزاتٍ في التوازن. ربّما كان مع ذلك، ولنقلْ هذا من جديد، متبوعاً في تلك الطريق المؤلمة بعيونٍ مفتوحةٍ في أقاصي الظّلام. عين الأمّ وعين الرّب.

كان يتمايلُ ويترنّح، ويثبّت أقدامه، ويولي الطفْلة عنايته، ويضع لباساً عليها مجدّداً، ويغطي رأسها، ويترنّح أيضاً، ويتقدّمُ باستمرار، وينزلقُ، ثم يستعيدُ انتصابه. وبلغتْ النّذالة بالريّح أن أخذت تدفعُه.

من المحتمل أنه كان يسير أكثر مما ينبغي. وكان على الأرجح في تلك السّهول التي أُنشئت فيها فيما بعد بينذكليف فارم، وبين ما يسمّى اليوم بـــ سبرينغ غاردنز وبيرسوناج هاوس. والتي هي إكارات وبيوتٌ ريفية حاليّاً، وأرض بائرة حينذاك. وغالباً ما يفصل أقلّ من قرن بين سهبٍ ومدينة.

فجأة، جرى توقفٌ في الزّوبعة الثلجيّة التي كانت تُعمي بصره، ولمح على بعد مسافة قليلة أمامه مجموعةً من جبهات الجملون والمداخن التي أبرزها الثّلجُ، ونقيضَ صورةٍ ظليّة، وهو مدينةٌ مرسومةٌ بالأبيض على الأفق الأسود، شيئاً شبيهاً بما نسميّه اليوم صورةً سلبية.

سطوحٌ، ومنازل، أي ملجأ! لقد كان إذاً في مكانٍ ما! كان يحسُّ بتشجيع للرّجاء لا يوصف. إنه مراقبُ السّفينة التائهة الذي يصيح: الأرض! فانتابته من مثل هذه الانفعالات، وحثّ الخطا.

لقد أصبح أخيراً بجوار الناس إذن. ولسوف يصلُ إذن إلى أحياء. لم يعدْ هناك شيء يخشاه. كانت لديه في داخله تلك الحرارةُ المفاجئة التي هي الأمان. إن الأشياء التي تخلّص منها قد انتهت. ولن يكون هناك اعتباراً من ذلك الوقت ليلٌ، ولا شتاء، ولا عاصفة. كان يبدو له أن كلّ ما هو ممكن في الشرّ قد أصبح خلفه. لم تعد الصّغيرةُ ثقلاً. كان يعدو تقريباً.

كانت نظرته تحدّق بتلك السّطوح، ففيها كانت الحياة. لم يكن يزيح نظره عنها. إن ميتاً قد ينظر على هذا النحو إلى ما يتبدّى له من خلال انفراجِ غطاءِ قبر. لقد كانت تلك هي المداخن التي رأى أدخنتها.

ولم يكن يخرج منها أيٌّ دخان.

سرعان ما انطلقّ للوصول إلى تلك المساكن. وقد بلغ ضواحي المدينة التي كانت شارعاً مفتوحاً. في ذلك العهد كان حاجزُ الطرّق شيئاً مهملاً.

كان الشارع يبدأ بمنزلين. وفي هذين المنزلين، لم تكن تُلمح أيّة شمعة، وأيٌّ مصباح، ولا في الشّارع كلّه، ولا في المدينة كلّها، وبقدر ما كان يمكن للنظر أن يمتدّ.

كان المنزلُ اليمينيّ سقفاً أكثر مما هو منزل؛ فما من شيء أكثر منه حقارةً؛ فقد كان سؤرةٌ من الطيّن وسطحُه من القش؛ وكان فيه من قشّ السّقوف أكثر مما فيه من الجدران. وكانت شجيرةٌ قرصٍ كبيرة قد نبتت من أسفل الجدار تصلُ إلى حافة السّقف. ولم يكن لذلك الكوخ المتداعي إلاّ بابٌ يبدو وكأنّه كوّة هرّة، وإلاّ نافذةٌ هي طاقة. كلّ شيء كان مغلقاً. وإلى جانب ذلك، كانت هناك زريبةُ خنازير مسكونةٌ وهي تدلّ على أن الكوخ كان مسكوناً أيضاً. أما المنزلُ الشّمالي فقد كان واسعاً، وعالياً، ومبنيّاً من الحجارة، ولهُ سطحٌ من الأردواز. وكان مغلقاً أيضاً. كان ذلك منزل الغني مقابل منزل الفقير.

لم يتردّد الصّبي. فقد مضى إلى المنزل الكبير. إن الباب ذا المصراعين والذي هو رقعةٌ ضامةٌ مصمتةٌ من السّنديان، وذاتُ مسامير ضخمة، كان من تلك الأبواب التي يخمّن المرء وراءها هيكلاً متيناً من العوارض والأقفال؛ وكانت مطرقةٌ حديديّةٌ معلقّة عليه.

رفعَ المطرقةَ ببعضِ العناء؛ فيداه المخدّرتان قد كانتا جدعتين أكثر مما هما يدان.

وقرع قرعةً واحدة.

لم يجبه أحد.

قرع مرّة ثانية. وقرعتين.

لم تصدر أيّةُ حركةٍ عن المنزل.

قرع للمرّة الثالثة. لا شيء.

فهِم أنهم كانوا نائمين، وأنه ليس في بالِ أحدٍ أن ينهض.

حينئذٍ استدار نحو المنزل الفقير، وأمسك من الأرض، وفي الثلج، بحصاةٍ وخبط بها الباب الواطئ.

فلم يجب أحدٌ إطلاقاً.

ارتفع على رأس قدميه، وصدم الطّاقة بحصاته، وعلى نحوٍ لطيفٍ إلى حدٍّ كافٍ لئلاّ يكسر الزّجاج، وبصورة كافية لكي يُسمَع.

لم يرتفع أيُّ صوت، ولم تتحرّك أيّةُ خطوة، ولم تشتعلْ أيّةُ شمعة.

ظنّ أنهم هناك أيضاً لا يريدون أن يستيقظوا إطلاقاً.

كان في القصر الحجري وفي كوخِ القشّ الصّممُ نفسه تجاه البؤساء.

عزم الصّبي على المضيّ إلى أبعد من ذلك، ولجَ إلى مضيق المنازل الذي كان يمتدّ أمامه، والمعتم إلى حدٍّ كبير. بحيث يقولُ عنه المرءُ إنه ابتعاد شاطئين صخريين أكثر مما هو مدخلٌ مدينة.

IV
شكلٌ آخر للصحراء

إنمّا كان يدخل لدوّه إلى ڤايموث

إن ڤايموث تلك العهد لم تكن إطلاقاً هي ڤايموث أيامنا المكرّمة والبهيّة.

إن ڤايموث القديمة تلك لم يكن فيها، شأن ڤايموث الحاليّة، رصيفٌ مستقيمٌ لا عيب فيه، إضافة إلى تمثالٍ ونزل، إكراماً لجورج الثالث. إن السبب في ذلك أن جورج الثالث لم يكن قد وُلد. وللسّبب نفسه، لم يكن قد رُسِم بعد، عند منحدر الهضبة الخضراء في الشرق، وعلى سطح التّربة، بواسطة أرضٍ معشبة مقصوصة، والحوّار المكشوف، لم يكن قد رُسم ذلك الحصانُ الأبيض والذي طولُه(*) أربنت واحد، وهو وايت هورس(**) والذي يحملُ ملكاً على ظهره، ومديراً ذيله نحو المدينة، ودائماً إكراماً لجورج الثّالث. إن هذه الأمجاد، فضلاً عن ذلك، مستحقّة؛ فجورج الثّالث الذي فقد في شيخوخته النّباهة التي لم يكن يتمتّع بها قطّ في شبابه، ليس مسؤولاً إطلاقاً عن نكبات عهده الملكيّ. لقد كان إنساناً بريئاً. فلماذا يكون مسؤولاً عن التماثيل؟

لقد كانت ڤايموث التي تعود إلى مئة وثمانين عاماً متناظرةً تقريباً مثل لعبة عصيّة الرّامي(٨١) المختلطة. إن عشتروت(٨٢) الأساطير كانت تتجوّل أحياناً على الأرض، حاملةً وراءَ ظهرها خرجاً فيه كلُّ شيء، حتى النسّاء

(*) يعادل ٦٣ يارنة، حسب القياس الفرنسيّ (م: ز.ع).

(**) الحصان الأبيض (بالإنكليزية).

المسنّات في منازلهن. إن خليطاً غير منظّم من الأكواخ يقع من ذلك الكيس، كيس الشيطان قد يعطي فكرةً عن ڤايموث الهجينة تلك. إضافة إلى النسّاء المسنّات، في الأكواخ. وكعيّنةٍ من هذه المساكن الحقيرة، يبقى منزلُ الموسيقيين. إن اختلاطاً من الوجارات المصنوعة من الخشب المحفور والمنخورة، وهذا ما يُعتبر حفراً آخر، ومباني لا شكل لها ومتزعزعة وذات شرفات بارزة، وبعضها ذات دعامات، ويستند بعضها على البعض الآخر لئلا تسقط بسبب ريح البحر، وتترك فيما بينها فسحاتٍ ضيّقة لشبكةِ طرقٍ متعرّجة وعديمة البراعة، وزقاقاتٍ ومفترقات غالباً ما تغمرها دوراتُ المدّ البحريّ في الاعتدالين، وتكدّساتٌ لمنازل قديمة من منازل الجدّات المتجمعّة حول كنيسة جدّة، ذلك ما كانت عليه ڤايموث. كانت ڤايموث نوعاً من قريةٍ قديمةٍ نورمندية حطّت على سطح إنكلترا.

إن المسافر، إذا ما دخل إلى حانةٍ حلَّ الفندقُ اليوم محلّها، بدلاً من أن يدفع بطريقةِ الملوك خمسة وعشرين فرنكاً ثمناً لسمكةِ موسى مقليّة وزجاجة نبيذ، فهو يتحمّل الإذلال إذْ يأكل بفلسين شوربة سمك لذيذة الطعم مع ذلك. وكان هذا أمراً يُرثى له.

سلك الطفلُ الضّائعُ الذي يحمل الطّفل الذي عثر عليه أوّلَ شارعٍ، ثم الشّارعَ الثاني، ثم الثالث. كان يرفعُ عينيه باحثاً في الطّوابق وعلى السّطوح عن نافذةٍ زجاجيّة مضاءة، غير أن كلّ شيء كان مغلقاً ومطفأ. وعلى فتراتٍ زمنية، كان يقرعُ الأبواب. ولم يكن أحدٌ يجيب. لا شيء يحجّر القلب مثل أن يكون المرءُ مستدفئاً بين غطاءين. لقد انتهى الأمر بهذه الضجّة، وبهذه الهزات بأن أيقظت الصّغيرة. وكان يلاحظُ ذلك لأنه كان يشعر بأن ثمّة من يرضعُ خدّه. إنها لم تكن تصرخ، ظنّاً منها أن لديها أمّاً.

أخذ يخاطرُ بالدّوران، والتجوّل طويلاً ربّما في تقاطعاتِ أزقّة سكرامبريدج التي كانت فيها حينذاك أراضٍ مزروعة أكثر مما فيها من المنازل، وأسيجة أشواك أكثر مما فيها من المساكن الحقيرة، غير أنه قد دلف

في الوقت المناسب إلى ممرٍّ لا يزالُ موجوداً اليوم قريباً من ترينيتي سكولز(*). وقاده هذا المعبرُ إلى شاطئٍ هو جزءٌ من رصيف له درابزين. وعلى يمينه، تبيّن جسراً.

كان هذا الجسرُ هو جسر لافي الذي يصل بين فايموث وميلكوب – ريجيس، والذي يتصل الهاربر بياك ووتر من تحت عقوده.

موث، الضّيعة، كانت حينذاك ضاحية ميلكومب – ريجيس، المدينة والمرفأ. أما اليوم فميلكومب – ريجيس هي خورنيّة ڤايموث. لقد امتصّتْ القريةُ المدينة. ومن خلال ذلك الجسر، إنما جرى هذا العمل. إن الجسورَ أدواتٌ فريدة للامتصاص والتي تمتصُّ السّكانَ وتجعل حيّاً ساحليّاً يتضخّم أحياناً على حساب حيٍّ مقابله.

مضى الصّبي إلى ذلك الجسر، والذي كان في ذلك العهد عبّارةً ذات هيكلٍ مغطّى. وقد اجتاز تلك العبّارة.

بفضل وقاء الجسر، لم يكن هناك ثلجٌ على سطحه. وكانت قدما الصّبي قد وجدتا لحظة من الرّاحة حين سارتا على تلك الألواح الخشبية الجافّة.

ما إن اجتاز الجسر، حتى ألفى نفسه في ميلكومب – ريجيس.

كان هناك منازل خشبيّة أقلّ مما هناك من المنازل الحجريّة. لم تعدْ تُعتبرُ بلدةً، لقد غدت مدينة. وكان الجسرُ يُفضي إلى شارعٍ على درجةٍ من الجمال وهو سان – توماس – ستريت. فدلف إليه. وكان الشّارع يكشفُ عن بيوت عاليةٍ منحوتة. وفي هذا المكان أو ذاك، عن واجهات متاجر. أخذ يقرع الأبواب، فلم يتبقّ له ما يكفي من القوّة لكي ينادي ويصرخ.

لم يكن أحد يتحرّك في ميلكومب – ريجيس كما في فايموث. كانت الأقفالُ مغلقةً بدورتين قويّتين. وكانت النّوافذ مغطّاة بمصاريعها. كما تتغطّىً العيونُ بأجفانها. إن كلّ التّدابير قد اتُّخذت ضدّ الاستيقاظ الذي هو انتفاضةٌ مزعجة.

(*) مدارس الثالوث (م: ز.ع).

كان المترحّلُ الصّغيرُ يعاني من الضّغط الذي لا يمكن تحديدُه. ضغط المدينة الغافية. إن هذه الضّروب من الصمْت، صمتِ التجمّع البشريّ المشلول تبعثُ الدّوار. وكلٌ هذه الضروب من النُّوام تُخرجُ كوابيسها؛ فهذه الألوان من النّوم هي جمهرة، ويخرج من هذه الأجساد البشريّة الرّاقدة دخانٌ من الأحلام. إن للنّوم مخالطات قائمةً خارج الحياة. ويرفرف فكرُ النائمين المتفكّك فوقهم، بخاراً حيّاً وميتاً، ويندمجُ مع الممكن الذي يفكرّ بصورة محتملة أيضاً في الفضاء. ومن هنا تأتي التّشابكات. والحلمُ، ذلك الغيم، يُراكبُ كثافاته وشفافيّاته في تلك النجمة، التي هي الفكر. وفوق تلك الأجفان المغمضة التي حلّت الرّؤيا فيها محلَّ النّظر، يتوسّع تفكّكٌ ضريحيٌ من الأخيلة والمظاهر في غيرِ المحسوس. إن تبعثراً لأشكالٍ من الوجود خفيّةٍ تندمجُ بحياتنا بوساطةِ حافّة الموت هذه والتي هي النّوم. إن هذه التّشابكاتِ بين الأشباح والأرواح موجودةٌ في الهواء. وحتى ذلك الذي لا ينام يحسٌ بذلك الوسطِ المفعمِ بحياةٍ مخيفةٍ مرخياً عليه بثقله. إن الوهمَ المحيط بالشّخص باعتباره واقعاً مخمّناً، يضايقه. إن الإنسان الموقظ الذي يسير من خلال أشباحِ نوم الآخرين يكتبُ بصورةٍ مشوّشة أشكالاً عابرة، ويُصابُ، أو يظنّ أنه يصابُ بالرّعب الغامض للتماسّات العدائية باللاّمنظور. ويحسّ في كلِّ لحظة بقوةِ الدّفع الغامضة للقاءٍ يتعذّر التعبيرُ عنه ويتلاشى. ثمة مؤثراتٌ للغابة في ذلك المسير، في وسط انتشار الأحلام الليليّ.

هذا ما يسمّى الخوف من غير أن يدري المرءُ لماذا.

إن ما يحسّ به رجلٌ ما، يحسّ به الطفلُ أكثر أيضاً.

إن إزعاجَ الرّعب الليلي الذي تضخّمه هذه المنازل الشبحيّة كان يضافُ إلى كلّ ذلك المجموع الحداديّ الذي كان يكافح في نطاقه.

دخل إلى كونيكار لاين، ولمح في نهاية ذلك الزّقاق الباك ويتر الذي ظنّه المحيط. إنه لم يعد يدري في أيّة جهةٍ كان البحر؛ فرجع على أعقابه، واستدار نحو اليسار عن طريق ما يدن ستريت، وتراجع حتى ألبانس روف.

هناك، وعلى غير هدىً، من غير اختيار، وعند أولى المنازل التي وصلَ إليها، اصطدم بعنف. إن هذه الصّدمات التي كان يستنفدُ فيها آخر طاقته، أصبحت منذ ذلك الحين غيرَ منتظمة، ومتقطّعة، مع انقطاعاتٍ متاوبة، واستئنافاتٍ متهيّجة تقريباً كان ذلك هو نبضان حمّاه الذي يقرعُ الأبواب.

وأجاب صوت.

هو صوتُ السّاعة.

دقّت السّاعة ببطء ثلاث دقّات في برج الجرس القديم، برجِ سان - نيكولا. ثم غرق كلّ شيء في الصمت.

ألاّ يكون بإمكان ساكنٍ واحدٍ حتى أن يشقّ طاقة، فهذا أمرٌ يمكن أن يبدو مثيراً للدهشة. ومع ذلك، فإنّ هذا الصّمت يمكن تفسيرُه إلى حدّ ما. وينبغي القول إن الناس كانوا، في كانون الثاني للعام ١٦٩٠، غداةَ طاعون على جانبٍ كبير من الشدّة، وقد حدث في لندن، وإن الخشية من استقبال متشرّدين مرضى كان يُحدثُ في كلّ مكان تناقضاً في الضّيافة. ولم يكن الناسُ يشقّون حتى نافذةً خوفاً من أن يستنشقوا نتنهم.

أحسّ الصّبيّ بأن بردَ البشر أكثر رعباً من برد الليل. إنه بردٌ حاقد. فأُصيب بذلك الانقباض في قلبه الذي أوهن عزيمته، وهو الانقباضُ الذي لم يكن قد أصابه في القفار. كان في ذلك الحين قد ولج مجدّداً إلى حياة الجميع، وقد بقي وحيداً. إنه طفاحُ القلق. لقد فهم الصّحراء العديمة الرأفة، أما المدينةُ التي لا ترحم، فقد كانت أمراً يتجاوز الحدّ.

كانت السّاعة التي كان يعدّ منذ قليل دقّاتها إرهاقاً إضافيّاً له. فما من شيء مرعبٍ في بعض الحالات أكثر من ساعةٍ تدقّ. إنها إعلانٌ عدم اكتراث. إنها الأبديّة التي تقول: ماذا يهمّني!

توقّف. وليس من المؤكّد أنه، في تلك الدقيقة المثيرة للشّفقة، لم يتساءل إن لم يكن أسهل عليه أن ينام هناكَ وأن يموت. ومع ذلك، فقد وضعت البنتُ الصّغيرة رأسها على كتفه، ونامت مجدّداً. إن هذه الثقة الغامضة قد جعلته يستأنف المسير.

أما هو، الذي لم يكن حوله إلاّ الانهيار، فقد أحسّ أنه كان نقطةَ ارتكاز، إنه تبليغ عميقٌ للواجب.

لم تكن تلك الأفكار، ولا ذلك الوضع تناسبُ عمره. ومن المحتمل أنه لم يكن يفهمها. لقد كان يتصرّف بشكلٍ غريزيّ. فيفعل ما كان يفعل.

لقد سار باتجاه جونستون روف.

غير أنه لم يكن يمشي، بل كان يجرُّ قدميه جرّاً.

لقد ترك على يساره سانت - ماري ستريت، وسار بشكلٍ متعرّجٍ بين كوخين حقيرين، ألفى نفسه في فسحةٍ عريضةٍ خالية. لقد كانت أرضَ بورا، غير معمرّة، ومن المحتمل أن تكون الموضعَ الذي تقعُ فيه اليوم شيسترفيلد بلاس. كانت المنازل تنتهي هناك. وكان يلاحظ البحر على يمينه، ولم يعد هناك شيء تقريباً من المدينة على يساره.

ما العمل؟ كان الرّيفُ يبتدئ مجدّداً. وفي الشّرق، كانت حدوراتٌ ثلجيّة كبيرة تحدّد معالم سفوح راديبول العريضة. فهل يتابعُ هذه الرّحلة؟ هل يتقدّمُ ويدخلُ مجدّداً إلى المناطق المعزولة؟ هل يتراجعُ ويلجُ إلى الشوارع؟ ماذا يفعلُ بين هذين الصّمتين، السّهلِ الصّامت، والمدينةِ الخرساء؟ أيّ رفضٍ يختارُ من هذين الرّفضين؟

هناك مرساةُ الرّحمة(*)، وهناك أيضاً نظرةُ الرّحمة. إن هذه النظرة هي التي ألقاها الصّغير المسكين اليائس حواليه.

فجأة سمع تهديداً

(*) يدعونها أيضاً: المرساة الرئيسة في السفينة (م: ز.ع).

-V-

بغض البشر يصنع الحماقات

لا ندري أيّ صريرٍ غريبٍ ومعلّق قد أتى إليه في تلك العتمة.

كان في ذلك ما يجعل المرء يرتدّ إلى الوراء. فتقدّم.

إن أولئك الذين يروّعهم الصّمتُ، تروقُ لهم الزّمجرة.

إن تلك التكشيرة الشرسة قد طمأنته؛ فقد كان ذلك التهديدُ وعداً. فثمّة كائنٌ حيٌّ ومستيقظٌ هناك، حتى وإن كان حيواناً متوحّشاً. فسار من الجهة التي كان الصّرير يأتي منها.

دار حول إحدى زوايا الجدار، ووراءه، وعلى التماعِ ثلج البحر الذي هو نوعٌ من إضاءةٍ ضريحيّة واسعة. رأى شيئاً موجوداً في ذلك المكان، وكأنه محميٌّ من الريح. لقد كان عجلةَ نقل، إن لم يكن كوخاً. كانت هناك عجلات، فهذه عربةٌ، وكان هناك سقفٌ، فهذا مسكنٌ. ومن السّقف، كان يخرج قسطلٌ، ومن القسطلِ دخان. كان ذلك الدّخان فضيّاً مذهباً، وهذا ما كان يبدو أنه يُنبئ بوجودِ نارٍ جيّدة في الدّاخل. وفي المؤخّرة، كانت هناك مفصّلات نافرة تدلّ على وجود باب. وفي مركز هذا الباب، كانت هناك فتحةٌ مربعّة تكشفُ عن ضوءٍ في الكوخ الصّغير. فاقترب.

لقد شعر به ذلك الذي كان يصرّ. وحين أصبح قريباً من الكوخ الصّغير، أصبح التّهديد ساخطاً. إنه لم يعدْ يواجهُ زمجرةً، بل عواءً. لقد سمع

صوتاً بلا صدى، وكأنه صوتُ سلسلةٍ مشدودةٍ بعنف. وفجأة، تحت الباب، وفي تباعدِ الدّواليب الخلفية، ظهر صفّانِ من الأسنان الحادّة البيضاء.

وفي الوقت نفسه الذي مرّ فيه شدقٌ بين العجلات، مرّ رأسٌ من الطاقة.

وقال الرأس:

"صه!"

فصمت الشدّق.

وتابع الرأس قائلاً:

"هل هناك أحد؟".

فأجاب الطفّل:

"أجل.

- من؟

- أنا.

- أنت؟ ومن تكون؟ من أين أتيت؟

فقال الطفل:

- إني متعبٌ.

- كم السّاعة الآن.

- إني بردان.

- وماذا تفعل هنا؟

- إني جائع"

فردّ الرأسُ:

"لا يمكن لكلّ الناس أن يكونوا سعداء مثل لورد. امضِ".

دخل الرأسُ، وأُغلقت كوّةُ الباب.

طأطأ الطفّل جبهته، وضمّ بين ذراعيه الصّغيرةَ النائمة، وجمع قوّته لكي يستأنف سيره. وخطا بضع خطوات. وأخذ يبتعد.

مع ذلك، في الوقت نفسه الذي كانت تنغلق فيه الطّاقةُ، انفتح البابُ، وانخفض سلمٌ صغير. وصاح الصّوتُ الذي كان يتكلّم لتوّه مع الطفّل من أعماق الكوخ بغضب قائلاً:

"حسناً، ولماذا لا تدخل؟".

استدار الطفل.

فردّد الصوت:

"فلتدخلْ إذن، من الذي أعطاني ولداً كهذا فاسداً وجائعاً وبرداناً وهو لا يدخل!"

أما الطفل الذي صُدَّ واجْتُنِبَ في آن، فقد مكث بلا حراك، فسارع الصّوت إلى القول:

"أقول لك أن تدخل، أيّها الغريب الأطوار!"

حزم الصّبي أمره، ووضع قدمه على الدّرجة الأولى من السلّم.

إلاّ أن زمجرةً انطلقت من تحت العربة.

فارتدّ الصّبي إلى الوراء، وظهر الشدّق المفتوح مجدّداً، وصاح صوتُ الرّجل:

"صه!".

فدخل الشدّق، وتوقفت الزّمجرة.

وردّد الرّجلُ: "اصعدْ".

تسلّق الطفل بعناء الدّرجات الثّلاث. كانت تعيقُ حركتَه الطّفلةُ الأخرى التي كانت مسترخيةً إلى حدٍّ كبير، ومغلّفةً وملفوفةً في الرّيح الجنوبية الغربية بحيث لم يكن المرء يميّز شيئاً منها، ولم تكن إلاّ كتلةً صغيرة لا شكل لها.

اجتاز الدّرجات الثلاث، وحين وصل إلى العتبة، توقّف.

لم تكن أيّةُ شمعة تشتعل داخل الكوخ الصّغير، ربّما بقصد التوفير في حالة البؤس. لم يكن الكوخ الحقير مضاءً إلاّ بالاحمرار الذي يصنعه منفسٌ

مدفأةٌ من الحديد المسبوك، والتي تتوقّد فيها نارُ الخثّ. وعلى المدفأة، كان يتصاعدُ الدّخانُ من قصعة، ومن إناء يحتوي على الأرجح شيئاً يؤكل. وكان المرءُ يشعرُ برائحته الزكيّة. كان هذا المسكنُ مؤثّثاً بصندوق، وكرسيٍّ مطبخ، ومصباحٍ غير مشعل، ومعلّق بالسّقف. ويُضاف إليها، عند الحواجز، بعضُ الألواح الخشبية الموضوعة على رفوف، ومشجب ثيابٍ قديمة تعلّق به أشياءُ مختلطة. وعلى الألواح الخشبيّة، وعلى المسامير، كانت تتضدّدُ مصنوعاتٌ زجاجيّة، ونحاسيّاتٌ، وكركةٌ، وإناء يشبه إلى حدٍ كاف تلك الدوجلات الخاصة بتحبيب(٨٢) الشّمع والتي تسمّى Grelous، وخليطٌ من الأشياء الغريبة لم يستطع الطّفلُ أن يفهم منها شيئاً، والتي كانت أدواتِ طبخٍ لكيميائي. كان شكلُ الكوخ الحقير مستطيلاً، وكانت المدفأة نتيجة تلك الصناعة. لم يكن الكوخُ حتى غرفةً صغيرة، لم يكد يعتبرُ علبة كبيرة. وكان الخارج ينيرُه الثلج أكثر مما تنيرُ المدفأةُ الداخلَ. كان كلُّ شيء غيرَ واضحٍ ومشوّشاً. ومع ذلك، فإن انعكاسَ النار على السّقف كان يتيحُ للمرء أن يقرأ الكتابة التالية بحروفٍ كبيرة:

أورسوس، فيلسوف: URSUS,PHILOSOPHE

كان الطّفل يدخل. في حقيقة الأمر، إلى منزل أومو وإلى منزل أورسوس. وقد سمع للتوّ زمجرةَ الأول منهما، وكلامَ الآخر.

حين وصل الطفلُ إلى العتبة، لمح قريباً من المدفأة رجلاً ممشوق القامة، أمرد، ونحيلاً وعجوزاً يرتدي لباساً رماديًا. وكان واقفاً وتلمس جمجمتُه الصّلعاءُ السّقف. لم يكن بوسع هذا الرّجل أن ينتصب على قدميه. فقد كان الكوخُ الحقير ضيّقاً.

قال الرّجل الذي هو أورسوس.

"ادخل"

دخل الطفل

"ضعْ هناك صرّتك".

وضع الطفل حمله على الصّندوق بحرص، خوفاً من أن يرعبه أو يوقظه.

واستأنفَ الرّجلُ يقول:

'كم تضع هذا الشّيء برفق! وقد لا يكون الأمرُ أسوأ من ذلك حين يكون مذخراً. هل تخشى أن تشقّ أسمالك؟ آه! يا للتّافهِ البغيض! في الشوارع، في هذه السّاعة؟ من أنت؟ أجبْ. لكن لا، أمنعك من الإجابة. فلنأتِ إلى الأكثر إلحاحاً؛ أنت بردان، فتدفأْ.'.

ودفعه من كتفيه إلى أمام المدفأة.

'هل ابتللت بشكلٍ كاف! هل تجمدْت بشكلٍ كاف! لعلّه من المسموحِ به أن يدخل المرء على هذه الصّورة إلى المنازلِ! هيا! انزع لي كلّ هذه القذارات، أيّها الشّقي!'.

وبيدٍ واحدة، وبمباغتةٍ محمومة، نزع عنه أسماله التي تمزّقت إلى خرق، في حين أنزل عن مسمار باليد الأخرى قميصاً رجاليّاً، وإحدى تلك السّترات الصّوفية المحبوكة والتي لا يزالون يطلقون عليها اليوم تسمية: القبلةَ السّريعةَ: kiss _ my _ quick

'خذْ، إليك هذه الأطمار'

اختار الرّجلُ من الكومة خرقةً من الصّوف، وفرك بها أمام النّار أطرافَ الطفّل المبهور والخائر القوى، والذي ظنّ أنه يرى ويلامس السّماء، في تلك الدقيقة من العري الدافئ. وما إن فرك الرّجل أطراف الطفل حتى نشف له قدميه.

'هيّا، أيها الهيكلُ العظمي، ليس لديك شيء متجمّد. لقد كنتُ على درجةٍ كافية من الغباء بحيث خشيتُ أن يكون قد تجمّد فيه شيء، القائمتان الخلفيتان أو الأماميتان! لن يكون كسيحاً هذه المرّة. ارتدِ ثيابك مجدّداً'.

ارتدى الطفل القميص، فألبسه الرّجل السّترة المحبوكة فوقه.

'والآن....'.

تقدّم الرّجلُ من أسفل المرقاة، وأجلس عليها الصّبيَّ الصغير، وذلك بدفعه إليها من كتفه باستمرار، ودلّه بسبابته على قصعةٍ يصعدُ منها الدّخان

على المدفأة. إن ما كان الطفلُ يستشفّه في تلك القصعة كان السّماء أيضاً، أي حبّة بطاطا وشيئاً من دهن الخنزير.

'أنت جائع، كلْ'.

أخذ الرّجلُ من على عارضةٍ خشبيّةٍ كسرةَ خبزٍ وشوكةً حديديّةً، وقدّمها إلى الطفّل، فتردّد الطفّل.

قال الرّجلُ:

'هل ينبغي أن أضع مفرشاً(*)؟'.

وضع القصعةَ على ركبتي الطفّل.

'التهمْ كلّ هذا!'

تغلّب الجوعُ على الذهول. وأخذ الطفّل يأكل. كان المسكين ينهش أكثر مما يأكل. وكان الصوتُ الفرح، صوتُ الخبز المقضوم يملأ الكوخ الحقير. وكان الرّجل يدمدم قائلاً:

'ليس بهذه السّرعة، أيّها النّهمُ المرعبُ! كم هو شره، هذا الوغد! إن هؤلاء الأنذال الجائعين يأكلون بطريقة مثيرة. وما علينا إلاّ أن نرى لورداً يتناولُ عشاءَه. لقد شاهدتُ في حياتي أُدواقاً يأكلون. إنهم لا يأكلون. هذا هو الشّيء النبيل. إنهم يشربون، مثلاً. هيا، يا جرو الخنزير الوحشيّ، أتخمْ نفسك'.

إن غياب السّمعِ الذي يميز البطن الجائع كان يجعلُ الطفّلَ قليلَ التأثّر بهذا العنفِ، عنفِ النّعوت الذي تلطّفه من جهةٍ أخرى رحمةُ الأفعال، وهو عملٌ معكوس لصالحه. لقد كان، في تلك اللحظة، مستغرقاً في هذين الأمرين الملحّين، وفي هاتين النّشوتين، الاستدفاء والطعام.

كان أورسوس يواصل بصورةٍ جدّ خافتة لعناته المكتومة قائلاً:

'شاهدت الملك جاك وهو يتناول عشاءَه شخصيّاً في البانكيتنغ هاوس، حيثُ يستحسنُ الناسُ صوراً للشهير روبنس. ولم يكن جلالته يلمس شيئاً. إن

(*) أي شوكة وملعقة وسكين حسب المفهوم الفرنسيّ (م: ز.ع).

هذا الصّعلوك Broute (يرعى) وهي كلمة مشتقّة من Brute (فظّ) فأية فكرةٍ خطرت لي للمجيء إلى فايموث، المرصودة سبع مرّات إلى الآلهة الجحيميّة!لم أبعْ شيئاً منذ الصّباح، لقد تكلّمتُ مع الثّلج، وعزفتُ على النّاي للعاصفة، ولم أضع في جيبي فارذينغاً واحداً(٨٤)، وفي المساء، يأتي إليّ فقراء! باللمنطقة الكريهة! هناك معارك وصراعٌ وتنافسٌ بين عابري السّبيل المعتوهين وبيني. إنهم يحاولون ألاّ يعطوني إلاّ فلوساً ضئيلة، وأحاول ألاّ أعطيهم إلاّ عقاقير. حسناً، واليوم لا شيء! ما من أحمقٍ في مفترق الطرّق، وما من بيني(*) في الصندوق. كُلْ يا صبيّ الجحيم! اعصرْ واقضم! نحن في زمنٍ لا شيء فيه يعادلُ وقاحة الطفّيليين. ولتسمنْ على حسابي، أيها المتطفّل. إنه أكثر من جائع، إنه مسعور، هذا الكائن. ليست هذه شهيّة، إنها ضراوة. إنه يرزح تحت تأثير حُمّة (فيروس) كلبيّة. من يدري؟ فربمّا هو مصاب بالطاعون. هل أنت مصابٌ بالطّاعون، أيها اللّص؟ وإذا ما نقله إلى أومو! آه! ولكن لا! فلتفطسْ أيّها السّوقيّ، ولكني لا أريد أن يموت ذئبي. وإذن هذا، فأنا أيضاً جائع. إني أعلن أن هذا الأمر حادثٌ غير مستحبّ. لقد اشتغلتُ اليومَ إلى ساعةٍ متأخرة من الليل. فالمرءُ يكون أحياناً متعجلاً في الحياة. وكنتُ كذلك حينَ أكلتُ في هذا المساء. إني بمفردي، وأشعلُ النار، وليس لديّ إلاّ حبةُ بطاطا، وكسرة خبز، ولقمة من دهن الخنزير، وقطرة من الحليب. وقد وضعت ذلك ليسخن. وقلت لنفسي: حسناً! أتصوّر أني سوف أقتاتُ بها. باتاترا(**)! لا بدّ أن هذا التمساح قد هبط عليّ في تلك اللّحظة. إنه يقيمُ صراحةً بين غذائي وبيني. هذه هي قاعةُ طعامي وقد دُمرّت. فلتأكلْ، أيّها الزّنّجور(***)، فلتأكلْ، أيها القرش، فكم لديك من صفوف الأسنان في شدقك؟ أيها المُلتهِم، أيها الجرموز. كلاّ، إني أسحب هذه الكلمة احتراماً للذئاب. فلتبتلعْ غذائي، أيها البوا! لقد اشتغلت اليوم بمعدةٍ خاوية، وحلقوم شاكٍ، ومعثكلةٍ تستغيث، في ضيق، وأحشاءٍ تالفة، إلى وقتٍ متقدّم في الليل.

(*) البيني: هو ١/١٢ من الشيلين. (عملة انكليزية: م: ز.ع).

(**) باتاترا: صوت جسم يسقط محدثاً فرقعة (م: ز.ع).

(***) نوع من الأسماك، كبير الشّدق. (م: ز.ع).

ومكافأتي هي أن أرى شخصاً آخرَ يأكل. الأمر سيّان. فلنقتسم الحصص. سيكون له الخبزُ والبطاطا ودهن الخنزير، ولكن سيكون لي الحليب'.

في تلك اللحظة، ارتفعت صرخةٌ نائحةٌ وطويلة من الكوخ الصّغير. وأصاخ الرّجل السّمع.

'أنت تصرخ الآن، أيّها النمّام! لماذا تصرخ؟'

استدار الصّبي. وكان من الواضح أنه لا يصرخ؛ فقد كان فمه مليئاً.

ولم يتوقف الصّراخ.

مضى الرّجل إلى الصندوق.

إن الصّرة إذن هي التي تزعق! يا وادي جوزافا(*) ها هي الصّرةُ التي تزعق! فماذا أصاب صرّتك لكي تنعق؟'.

فكّ القبعة المشمعة، فخرج منها رأسُ طفل، فمه مفتوح، وهو يصرخ.

وقال الرّجل:

'عجباً، من هناك؟ ما هذا؟ هناك شخصٌ آخر. ألن ينتهي الأمر إذن؟

من القادم! إلى السّلاح! أيّها العريف، ليخرج الحرس! سقوطٌ ثانٍ (باتاترا)! ما الذي تحمله إليّ، أيها اللّص؟ أنت ترى أنها عطشانة. هيّا، يجب أن تشرب هذه، حسناً، لن يكون لي حتى الحليب لأشربه الآن.'

أخذَ من رِكامٍ موضوعٍ على لوحٍ خشبيٍّ لفافةً من بياض التضّميد، وإسفنجةً وقارورةً، وهو يهمس بشكلٍ مهتاج:

'يا للبلد الملعون!'

ثم تأمّل الصغيرة وقال:

'إنها بنت. إن المرءَ يتعرّفُ هذا من صراخها الثّاقب. إنها مبلّلة، هي أيضاً'.

(*) بين القدس وجبل الزيتون، وحسب التقليد المسيحي، يجتمع فيه الموتى يوم الدينونة (م: ز.ع).

انتزَعَ، كما فعل بالنّسبة للصبّي، الأسمالَ التي كانت قد عُقدت بها أكثر مما أُلبست إيّاها، ولفّها بمزقةٍ فقيرة، ولكنها نظيفة وجافّة، ومن نسيجٍ خشن. إن هذا الإلباس الجديد السّريع والمفاجئ قد أحنق البنت الصّغيرة.

فقال الرّجل: 'إنها تموء بلا رحمة'.

قطع بأسنانه قطعةً مستطيلةً من الإسفنجة، ومزّق من اللّفيفة مربّعاً من البياض، وسحب منه قطعةً من خيط. وأخذ من المدفأة الإناء الذي كان فيه الحليبُ، وملأ القارورة بهذا الحليب، وأدخل جزئياً الإسفنجة في عنق القارورة، وغطىّ الإسفنجةَ بقطعةِ البياض، وربط هذه السّدادة بخيط، وألصق القارورة بخدّه ليتأكد من أنها لم تكن شديدة الحرارة، وأمسك تحت ذراعة اليسرى المقمّط المضطرب الذي كان يواصل الصّراخ.

'هيّا، تعشّ، أيها المخلوق! وخذْ الثّدي.'

وضع في فمها عنق القارورة.

فشربت الصّغيرة بنهم.

سند القارورةَ على الميلِ المطلوب وهو يدمدم:

'إنهم جميعاً متماثلون، هؤلاء الجبناء! حين يحصلون على ما يريدون، يسكتون.'.

كانت الصغيرةُ قد شربت الحليب بقوّة، وأمسكت بكثيرٍ من الاندفاع هذه الحَلَمة التي تقدّمها تلك العنايةُ الفظّة، بحيث أصيبت بنوبة سُعال.

فزمجر أورسوس:

'سوف تختنقين، يا لهذه من أكولةٍ متوحّشة!'

سحب منها الإسفنجة التي كانت تمصّها، وترك نوبةَ السّعال تهدأ. وأعاد وضع القارورة بين شفتيها، وهو يقول:

'ارضعي، أيتها الفاجرة.'

مع ذلك، كان الصّبي قد أنزل شوكته؛ فقد كانت رؤيةُ الصّغيرة وهي تشرب تنسيه الأكل. وقبل لحظة، حين كان يأكل، كان الرّضى في نظرته،

أما الآن فقد أصبح عرفان الجميل. كان ينظر إلى الصّغيرة وهي تحيا مجدّداً. وكان هذا الاكتمال لبعثها والذي كان هو قد بدأه يملأ حدقتيه بالتماع لا يوصف. وكان أورسوس يواصلُ بين لثّيه مغمغته الكلاميّة الحانقة، وكان الصّبي أحياناً يرفع نحو أورسوس عينيه المبلّلتين بسبب الانفعال المبهم الذي كان يحسّ به، من غير أن يتمكّن من التّعبير عنه، هذا الكائنُ المعنّف والمفعم بالحنان.

وهتف به أورسوس بحنق:

"عجباً، فلتأكلْ إذن!

قال الطفلُ وهو يرتجف بكليّته، ودمعةٌ في مقلته:

"وأنت؟ ألن يبقى لك شيء؟

– أتريد أن تأكلَ كلّ شيء، أيّها الكريه! ليس هناك الكثيرُ من أجلك طالما لم يكن هناك ما يكفي لي".

أمسك الطفل بشوكته مجدّداً، ولكنه لم يأكل إطلاقاً.

فزعق أورسوس:

"كلْ. هل يتعلقّ الأمرُ بي؟ من الذي يكلّمك عني؟ أيها المتديّن الصغير الحافي القدمين من خورنيّة سان – لو – سو (المفلسة). إني أقول لك أن تأكل كلّ شيء. كلْ، وإلاّ أرمي بك إلى الباب، أنت وفاجرتك!"

عند هذا التهديد. أخذ الصّبي يأكلُ من جديد. ولم يكن يتعيّن عليه الشيءُ الكثير لكي ينهي ما تبقّى له في القصعة.

همس أورسوس قائلاً:

"إن الوصلَ غيرُ محكمٍ في هذا البناء، فالبردُ يأتي من زجاج النّوافذ".

كان زجاجُ النافذة قد انكسر في الحقيقة، من الأمام بسبب هزّةِ العربة أو بسبب حجرٍ ما ألقاه ولدٌ عفريت. وكان أورسوس قد ألصق على ذلك التّلف نجمةً ورقيّة قد أزيلت. وكانت ريحُ الشّمال تدخلُ من هناك.

كان قد جلس جزئياً على الصّندوق. أمّا الصّغيرة التي كانت بين ذراعيه، وعلى ركبتيه في آن، فقد كانت تمصّ الزجاجة بلذّة، وهي تتسنّ مثل أولئك الأطفال الجميلين المغتبطين أمام الرّب، والأطفال أمامَ الثّدي.

وقال أورسوس:

"إنها منتشية".

وتابع يقول:

"فلتصنعوا إذن مواعظَ الاعتدال!"

انتزعت الرّيحُ من زجاجِ النافذة اللصقةَ الورقية التي طارت عبر الكوخ الصّغير، غير أن ذلك لم يقلق الطفلين المنشغلين بالانبعاث.

في حين كانت الصّغيرة تشربُ، والصّغير يأكل. كان أورسوس يبرطم.

"إن السُّكْر يبدأ من القماط. فلتتجشّموا إذن عناء أن تكونوا الأسقف تيوستون، ولتْرعدوا ضدّ الإفراط في الشّرب. ياللرّيح البغيضة المتسرّبة! إضافة إلى أن مدفأتي قديمة. إنها تدعُ نفثاتِ الدخان تخرج منها فتصيبك بانحراف الأجفان(٨٥). ويصابُ المرءُ بضرر البرد وضرر النار. إنني لا أبصرُ هنا بوضوح. والكائن الذي هو هذا يسيء استخدامَ ضيافتي. حسناً، لم يعدْ بمقدوري بعد أن أميّز وجه هذا الشّخص الفظّ. هذا المنزل يفتقرُ إلى الراحة. وحقّ جوبيتير، إني أقدّر تقديراً كبيراً المآدب الشّهيّة في الغرف المغلقة جيداً. لقد أخطأتُ في توجُّهي، فقد وُلدت لأكون شهوانيّاً.

إن أعظم الحكماء هو فيلوكسينيس(٨٦) الذي تمنّى أن تكون له عنقٌ كركيّ لكي يتذوّق لفترة أطول ملذّات المائدة. أما اليوم، فقائمةُ الطعام صفر! لم أبعْ شيئاً خلال النّهار! إنها نكبة. إن السّكان، والخدم، وأهل المدينة، هؤلاء هم الطبيب، هذا هو الطبّ. إنك تضيع جهدك، يا صديقي القديم. احزم صيدليتك؛ إن كلّ الناس بصحّةٍ جيدة هنا. وهذه مدينة ملعونة لا يمرضُ فيها أحد! إن السّماء وحدها مصابةٌ بالإسهال. يا له من ثلج. كان أناغزاغوراس(٨٧) كان يعلم بأن الثلج أسود. وكان على حقّ، لأن البرودة سوداء؛ فالجليدُ هو الليل. فيا لها من زوبعة! أني أتصوّر متعة أولئك الذين

يسافرون بحراً. إن الإعصار هو مرورُ الشّياطين، وصيحةَ الحميّات المنتشرة الصيّادة التي تعدو وتتدحرج، رأساً لقدمين فوق عُلبنا العظميّة. وفي السّحابة الجشّاء، لهذا نيل، ولذاك قرون، ولذلك لسانٌ من اللّهب، ولهذا الآخر مخالبُ وأجنحة. ولذلك الآخر رأسٌ ضخمٌ لأكاديميٍّ. إن المرء يميّز شكلاً في كلّ صوت، ولكلّ ريحٍ جديدة، عفريتٌ مختلف، فالأذنُ تصغي، والعين ترى، والفرقعةُ مظهرٌ من مظاهرها. تبّاً! هناك فأسٌ في البحر، إن هذا جليٌّ. يا أصدقائي، ولتنجوا من العاصفة، فلديّ ما يكفي من العمل لكي أُدبِّر أمري في الحياة. وإذن هكذا، فهل أُثيرُ نزلاً، أنا؟ ولماذا تصلُني دفعاتٌ من المسافرين؟ إن الضائقة الشّاملة ترمي برشقاتها حتى تصل إلى فقري. وتسقط عليّ في كوخي الحقير قطراتٌ كريهة من الوحلِ البشريّ الكبير. لقد أُسلِمتُ إلى ضراوة عابري السّبيل. إني فريسة. فريسةُ المتضوّرين جوعاً. هناك الشتاء، والليل، وكوخ حقيرٌ من الورق المقوّى، وصديقٌ منكود تحته، وفي الخارج. هناك العاصفةُ، وحبّةُ بطاطا، ونارٌ بحجم قبضة اليد، وطفيليّون، والرّيح التي تدخل من خلال الشقوق، وما من فلس، والصّرر التي تأخذ بالنباح! فنفتحها، ونجد داخلها عاهرات. لعلّ في ذلك سحراً! إني أضيف أن القوانين قد خُرقت! آه! أيّها المتشرّد مع متشرّدتك، أيها الماكر النشّال، والجهيض السّيء القصد، آه! إنك تتجوّل في الشّوارع مخترقاً منع التجوّل! لو كان يعلم مليكُنا الطيّب ذلك، لقام هو برميك في قاعِ حفرةٍ خفيضة عقاباً لك! إن السّيد يتنزّه ليلاً مع الآنسة! في طقس برودته تصل إلى خمس عشرة درجة، حاسر الرأس، حافي القدمين! فلتعلمْ أَن ذلك ممنوع. فهناك أنظمةٌ وأوامر، أيها المتمرّد! إن المتشرّدين يُعاقبون، فالناس الشرفاء الذين لهم منازل يمتلكونها يُحرسون ويُحمون. والملوكُ هم آباء الشعب. أنا لديّ مكان أقيم فيه! وكان يمكن لك أن تُجلد في ساحةٍ عامّة، لو صادفوك، ولكانوا أحسنوا صنعاً. فلا بدّ من النظام في دولةٍ متحضّرة. أما أنا، فقد أخطأت لأنني لم أُبلغ ضابط الشّرطة عنك. ولكنني هكذا، فأنا أفهم الخيرَ، وأعمل الشّر. آه! أيّها المنحلّ! أتأتي إليّ في هذه الحال! إني لم ألاحظ الثلج عليها عند دخولهما، فقد ذاب الثلج. وها قد أصبح منزلي كلّه مبللاً. إن الفيضان في منزلي. ولسوف يتعيّن علي إشعالُ فحمٍ

متعذرٌ لتجفيف هذه البحيرة. وهو كمية من الفحم ثمن الدينيريل(٨٨) منها اثنا عشر فارثينغاً. فما نصنعُ لإيواء ثلاثة أشخاص في هذا الكوخ الحقير؟ لقد انتهى الأمرُ الآن، سوف أدخلُ إلى بيت الحضانة، وسوف أرى في منزلي فطامَ مستقبل التّصعلك الإنكليزي، وسوف يكون لديَّ كعملٍ، وفرصٍ ووظيفة، القيامُ بتصغير الجنين الذي وُلد ولادة سيئة من النذل الأكبر البؤس، وأن أُحسِّن قباحةَ طرائد المشنقة الأحداث، وأن أعطي الفتيان الشاطرين أشكالاً كأشكال الفلاسفة! إن لغة الذّنب هي إزميل الرّب. ولنفكّر بأنني لو لم أكن منذ ثلاثين عاماً مسحوقاً بأنواع من هذه الشاّكلة، لكنت غنيّاً، ولكان أومو سميناً، ولكان لي حجرةٌ للطباعة ملأى بالغرائب، وأدوات جراحيّة بقدر ما لدى الدكتور ليناكر، جراح الملك هنري الثامن، وحيوانات مختلفة من كلّ نوع، ومومياءات مصريّة، وأشياء أخرى مماثلة! لكنتُ من هيئة الأطباء، ولكان لي الحقّ في أن أستخدمَ المكتبةَ المبنيّة في عامٍ ١٦٥٢ على يد هارفي الشهير، وفي الذهاب للعمل في فانوس القبّة التي تُكتشف منها مدينة لندن بكاملها! ولأمكنني أن أتابع حساباتي حول الإبهار(٨٩) الشمّسي، وأن أثبت أن بخاراً ضبابيًّا يخرجُ من الكوكب. وهذا هو رأيُ جان كيبلر الذي ولد قبل سان - بارتيلمي بعامٍ واحد، والذي كان عالمَ رياضيّات لدى الإمبراطور. إن الشمس مدخنةٌ تطلق الدّخان أحياناً. ومدفأتي أيضاً. إن مدفأتي لا تَفضُل الشّمس، أجل، كان يمكن لي أن أجني ثروة. ولكانت شخصيّتي مختلفة، ولكنت مبتذلاً، ولما أهنتُ العلمَ في ملتقيات الطرق. فالشعبُ ليس جديراً بالفقه. إذ أن الشعب ليس إلاّ حشداً من الحمقى، وإلاّ خليطاً مشوّشاً من كلّ ضروب الأعمار، والأجناس، والأمزجة، والأحوال، والذي لم يتردّد حكماءُ كلّ العصور في ازدرائه، والذين يمقتُ الأكثر اعتدالاً منهم، إنصافاً له، شططه وهياجه. آه! لقد ضجرتُ مما هو موجود. وبعد ذلك، فلن يعيشَ المرءُ طويلاً، فسرعان ما تجري الحياة البشرية. ولكن لا، فهي طويلة، وعلى فترات، ولكي لا تثبط همتنا، لكي يبلغ بنا الغباء أن نقبل الوجود، ولكي لا نفيد من الفرص الرائعة في أن نشنق أنفسنا، والتي تقدّمها لنا كلُّ الحبال وكلّ المسامير، فإن الطّبيعة تبدو أنها تولي الإنسان قليلاً من العناية. وليس هذه اللّيلة مع ذلك. إنها تُنبتُ

القمح، وتُنضجُ العنب، وتجعلُ الهزار يغنيّ، هذه الطّبيعةُ الماكرة. ومن وقتٍ لوقت، يأتي شعاعٌ من أشعّة الفجر، أو قدحٌ من الجنّ، وهذا ما نسمّيه السّعادة. إنه إطارٌ رقيقٌ من الخير حول كفنٍ من الشرّ هائل الاتساع. لنا مصيرٌ صنع الشّيطانُ نسيجه وصنع الربُّ هُدبه. وبانتظار ذلك المصير، لقد أكلتَ عشائي، أيّها اللص".

مع ذلك، فإن الرّضيعَ الذي كان يمسك به دائماً بين ذراعيه، وبرقّةٍ كبيرة، هو يتميّز غضباً، أغمض عينيه مجدّداً وبصورةٍ غائمة، دلالةً على الاكتفاء. وعاين أورسوس القارورة، ودمدم:

"لقد شربت كل شّيء، هذه الوقحة!"

وانتصب، وهو يسند الصّغيرة باليد اليسرى، وباليد اليمنى، رفع غطاء الصّندوق، وسحب من الدّاخل جلدَ دبّ، وهذا ما كان يسميّه، كما نتذكرّ "جلده الحقيقي".

في الوقت الذي كان ينفّذ فيه هذا العمل، كان يسمعُ الطفّل الآخر، وهو يأكل وكان ينظرُ إليه شزراً.

"ستقعُ على عاتقي مهمّةٌ معيّنة، إذا كان لا بدّ لي من الآن أن أُطعم هذا الشّره الذي ينمو! فسيكون دودةً وحيدة تقبعُ في بطن صناعتي".

بسط، بيدٍ واحدةٍ دائماً، وعلى أفضل وجه، جلدَ الدّب على الصّندوق، باذلاً جهوداً منّ مرفقه... ومراعياً حركاته لكي لا يهزّ بدايةَ نومِ البنتَ الصّغيرة. ثم وضعها على الفرو، ومن الناحية الأقرب من النّار.

ما إن فعل هذا، حتى وضع القارورة الفارغة على المدفأة، وهتف:

"أنا العطشان!"

نظر إلى الإناء، لقد تبقّى فيه بعضٌ من جرعاتِ الحليب؛ فقرّب الإناءَ من شفتيه. وفي اللحظة التي كان يهمّ فيها بالشرّب، وقعت عينُه على البنتَ الصغيرة. فأعاد الإناء إلى فوق المدفأة، وأمسك بالقارورة، ونزع سدادتها، وأفرغ فيها ما تبقّى من الحليب، بما يكفي تماماً لملئها، وأعاد الإسفنجة إلى مكانها، وأعاد ربطَ قطعةِ البياض على الإسفنجة حول عنق القارورة.

وردّد يقول:

"مع ذلك، فأنا جائعٌ وعطشان"

وأضاف:

"حين لا يملك للمرء أن يأكل خبزاً، يشرب ماء".

وراء المدفأة، كان المرءُ يلمح جرّةً ماءٍ مهشمّة الفتحة.

أمسك بها وقدّمها إلى الصبّي، وقال:

"أتريد أن تشرب؟"

شرب الطفل، وأخذ يأكل مجدّداً.

أمسك أورسوس بالجرّة ثانية ورفعها إلى فمه.

كانت حرارةُ الماء الذي كانت تحتويه قد تبدّلت بصورةٍ غير متساوية بسبب تجاورها مع المدفأة. وابتلع عدداً من الجرعات، وكشّر متقزّزاً.

"أيها الماء النقيّ المزعوم. إنك تشبه الأصدقاء الزائفين؛ فأنت فاترٌ من الأعلى وباردٌ من الأسفل"

مع ذلك، فكان الصبّي قد انتهى من تناول العشاء. وكانت القصعةُ أكثر من فارغة، لقد كانت منظّفة تنظيفاً. وكان يجمعُ ويأكل، وهو يتفكّر، بعضَ فتاتِ الخبز المتناثرة في ثنيات النّسيج المحبوك، على ركبتيه.

استدار أورسوس نحوه وقال:

"ليس هذا كلّ شيء. والآن، جاء دورُنا كلانا. إن الفمَ لم يخلق للأكل فقط، إنه مخلوق لكي يتكلمّ. أما وقد تدفأتَ الآن وأُتخِمتَ، أيها الحيوان، فلتحترسْ، ولسوف تجيب على أسئلتي. فمن أين تأتي؟

أجاب الطفل:

"لا أدري.

- كيف، لا تدري؟

- لقد تُركتُ هذا المساء على ساحل البحر.

– أه؟ أيّها الوغد! ما اسْمك؟ إنّه لشخصٌ فاسدٌ ذلك الذي يصل إلى أن يتركه أهلهُ.

– ليس لي أهل.

– فلتحسبْ بعضَ الشّيء حساباً لميولي، ولتنتبه إلى أنني لا أحبُّ إطلاقاً أن تُقال لي ترّهات هي حكاياتٌ خادعة. لك أهلٌ، بما أن لك أخت.

– هذه ليست أختي.

– هذه ليست أختك؟

– كلاّ.

– فمن تكون إذن؟

– إنها بنتٌ صغيرة عثرتُ عليها.

– عثرتَ عليها!

– أجل.

– وكيف! أنت التقطت هذا الشّيء؟

– أجل.

– وأين؟ إن كنتَ تكذب فلسوف أقضي عليك.

– فوق امرأة ماتت في الثلج.

– متى؟

– منذ ساعة.

– أين؟

– على مسافة فرسخ من هنا.

تجعّدت أقواس أورسوس الجبهيّة، واتّخذت ذلك الشّكل الحاد الذي يميّزُ انفعالَ حاجبيّ فيلسوف.

– ماتت! هاكم امرأة تُعدُّ سعيدة! وينبغي تركُها هناك، في ثلجها. إنها مرتاحة فيه. ومن أيّة ناحية؟

- من ناحية البحر.

- هل اجتزتَ الجسر؟

- أجل."

فتح أورسوس الطّاقة الخلفيّة وعاين الخارج. ولم يكن الطّقس قد تحسّن.

كان الثّلج يهطلُ كثيفاً وحدادياً.

أغلق كوّةَ النافذة من جديد.

مضى إلى الزّجاج المكسور، وسدّ الثقبَ بخرقة، ووضع شيئاً من الخثّ في المدفأة، وبسط بأوسع ما أمكنه ذلك جلدَ الذّب على الصّندوق، وأخذ كتاباً سميكاً كان لديه في إحدى الزّوايا، ووضعه تحت السّرير ليستخدمه كوسادة، ووضع على هذا المسند رأسَ الصّغيرة النائمة.

استدار نحو الصّبي، وقال:

"نمْ هنا"

امتثل الطفل وتمدّد بطوله كلّه مع البنت الصّغيرة.

لفّ أورسوس جلدَ الذّب حول الطّفلين، وطواه تحت أقدامهما.

وصل إلى عارضةٍ خشبية، وعقد حول جسمه حزاماً من نسيجٍ كتّاني ذا جيبٍ ضخم وهو يحتوي ربّما عدّة جرّاح وقواريرَ مواد طبيّة.

ثم نزع المصباحَ المعلّق بالسّقف، وأشعله. وقد كان مصباحاً صامتاً(٩١). وباشتعاله، ترك الطّفلين في العتمة.

شقّ أورسوس الباب وقال:

"إني خارج. لا تخافا. سوف أعود، فناما."

وصاح وهو يخفض المرقاة:

"أومو!"

وردّت عليه زمجرةٌ رقيقة.

أما أورسوس فقد نزل، حاملاً المصباح، وعادت المرقاةُ إلى الصّعود، وانغلق الباب من جديد، وبقي الطفلان لوحدهما.

وفي الخارج، سأل صوتٌ هو صوتُ أورسوس:

'أيّها الصبّي الذي أكلتَ عشائي لتوّك! قلْ لي، ألا تزال نائماً؟

فأجاب الطفل:

- لا.

- حسناً! سوف تُعطيها بقيةَ الحليب، إذا صرختْ.'.

وسُمعت طقطقةُ سلسلةٍ محلولة، وصوتٌ وقعِ قدمِ رجلٍ كان يبتعد، مختلطاً بوقعِ قائمةِ حيوان.

وعاد الطفلان إلى النّوم بعمق، بعد بضع ثوان.

كان ذلك خليطاً غير محدّد، ولا يمكن وصفه من الأنفاس، وهو أكبر من العفّة، إنه الجهل. إنها ليلة عرس، قبل الجنس. فالصبّيُّ الصّغير والبنتُ الصغيرة، العاريان جنباً إلى جنب. كان بينهما خلال تلك السّاعات الصّامتة اختلاطُ العتمة الملائكي. وكان مقدارُ الحلم الممكن في ذلك العمر يرفُ من أحدهما إلى الآخر. وربما كان تحت أجفانها المغمضة ضوءُ النجوم. وإذا كانت كلمةُ زواج ليست هنا غير مناسبة، فقد كانا زوجاً وامرأةً بالصُّورة التي تكون بها الملائكة. إن براءات كهذه في ظلماتٍ كهذه، وطهارةً كهذه في عناق كهذا، وهذه التوقّعات المسبقة من السّماء ليستْ ممكنة إلاّ عند الطفولة، وما من اتساعٍ هائلٍ يقتربُ من تلك العظمة، عظمة الصّغار. وهذه الهوة هي الأعمق بين كلّ الهُوى. إن التأبّد الرّهيب لأحد الموتى المصفّدين خارج الحياة، والضّراوة الهائلة للمحيط في غرقٍ معيّن، والبياض الواسع للثّلج الذي يغطيّ أشكالاً مدفونة لا يعادلُ في الشجن فمّي طفلين يتلامسان بصورة ربّانية في النوّم، ولقاؤهما ليس قبلةً حتى. وربمّا خطوبة، وربمّا كارثة. إن الشيء المجهول يرمي بثقله على هذا التجاور. إن المرء يشعرُ بانقباضِ القلب. إن البراءة أسمى من الفضيلة. فالبراءةُ مصنوعةٌ من العتمة المقدّسة. لقد كانا ينامان. وكانا وادعين. كانا مستدفئين. وكان عريُ الجسدين المشتبكين يدمجُ بتوليّةَ النفسين. كانا موجودين هناك وكأنما في وكْنِ الهوّة.

- VI -

الاستيقاظ

كانتْ بدايةُ النّهار كئيبةً؛ وقد دخل بياضٌ حزينٌ إلى الكوخ الصّغير. لقد كان ذلك هو الفجر الجليديّ. أما هذا الشحّوب الذي يرسمُ بروزَ الأشياء التي ضربها الليل بظاهرٍ شبحيّ، فصارت واقعاً مأتميّاً، فلم يوقظْ الطفلين النائمين بشكلٍ متلاصق. كان الكوخ دافئاً. وكان المرء يسمع تنفّسيهما المتناوبين مثل موجتَين هانئتَين. لم تعدْ هناك عاصفة في الخارج. كان ضوءُ الشّفق يسيطر على الأفق ببطء. وأخذتْ كوكباتُ النجّوم تنطفئ مثل شموعٍ تُطفأُ الواحدةُ بعد الأخرى. ولم يعدْ هناك إلاّ مقاومةُ بعض النجوم الكبيرة.

لم تكن المدفأة قد خمدت نارُها تماماً. فأخذ الصّباحُ الباكر يغدو رأْدَ الضّحى شيئاً فشيئاً وكان الصّبيُّ ينام أقل من البنت؛ فقد كان في دخيلته شيء من طبع السّاهر والحارس. وقد فتح عينيه عند شعاعٍ اخترق الزّجاجَ بشكلٍ ساطعٍ أكثر من سواه. إنّ نوم الطفولة ينتهي إلى النسيان؛ فمكث في حالةٍ من الترنيق الجزئي، ومن غير أن يعرف أين كان، وما لديه إلى جانبه، من غير أن يقوم بجهدٍ ليتذكرّ، وناظراً إلى السّقف، ومكوّناً لنفسه عملاً من التفكرّ بالأحرف المكتوبة أمامه: أورسوس فيلسوف، والتي كان يعاينها من غير أن يحلّ رموزها، فهو لم يكن يُحسنُ القراءة.

جعلهُ صوتُ قفلٍ يدخلُ فيه مفتاحٌ يرفع رقبته.

دار الباب، وانقلبت المرقاة. لقد عاد أورسوس، وصعد الدّرجات الثلاث، ومصباحُه المطفأ في يده.

وفي الوقت نفسه، تسلّق المرقاةَ بخفةٍ دونَ لأربعةِ قوائم. وكان ذلك هو أومو الذي يتبع أورسوس وكان هو أيضاً يدخل إلى منزلَه.

أما الصبيُّ الذي أوقظ فاعترته رجفة.

كان الذئبُ الذي تحرّكت شهيتُه إلى الطعام ربّما قد كشرّ تكشيرةً صباحيّةً كانت تُظهرُ كلَّ أسنانه الشّديدة البياض.

توقّف، وقد صعد جزئياً، ووضع قائمتيه الأماميّتين في الكوخ الصّغير، ومرفقيه علي العتبة مثل واعظٍ على حافّة المنبر. واشتّم عن بعد العلبة التي لم يكن معتاداً على رؤيتها مسكونةً على ذلك النحْو. كان جذعُه كذئب، والذي يؤطّره البابُ، يرتسمُ بالأسود على ضوء الصّباح. فحزم أمره، وقام بالدّخول.

أما الصبّي فقد خرج من جلد الدّبّ، حين رأى الذئب في الكوخ الصغير، ونهض، وأخذ مكانه واقفاً أمام الصّغيرة، التي كانت نائمةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

كان أورسوس قد انتهى لتوّه من إعادة تعليق المصباح بمسمار السّقف. وفكّ بصمتٍ وبتؤدةٍ آليّة حزامه الذي كانت معدّاته فيه، ووضعه على لوحٍ خشبيّ. ولم يكن ينظر إلى شيء، ويبدو أنه لا يرى شيئاً؛ فقد كانت حدقة عينه كابيةً. وكان شيءٌ ما عميقٌ يتحرّك في ذهنه. بانت أفكارُه أخيراً، وكالمعتاد، بخروجٍ سريع للكلام، فهتف:

"بالتأكيد سعيدة! ميتة، حقّاً ميتة."

جلس القرفصاء، وألقى بملء مجرفةٍ من جفاء البراكين في المدفأة، ودمدم وهو يسوق الخثّ:

"لقد وجدت عناءً في العثور عليها. وكان المكرُ المجهول قد حشرها تحت قدمين من الثلج. ومن غير أومو الذي يرى بوضوح بأنفه مثلما كان كريستوف كولومبوس يرى بذهنه، لكنت لا زلتُ هناك أتخبّط في الجرف الثلجيّ، وألعب لعبة التخبئة مع الموت. كان ديوجين يحمل مصباحه ويبحث عن رجل، وقد حملت مصباحي وبحثتُ عن امرأة؛ ولقد لقي التهكّمّ وأنا لقيتُ الحداد. فكم كانت باردةً! لقد لمستُ يدَ حجر. وأيّ صمتٍ في عينيها!

كيف كان للمرء أن يكون غبيًّا إلى هذا الحدّ لكي يموت، ويترك طفلاً وراءه! لن يكون الأمرُ سهلاً الآن أن يؤوي المرء ثلاثة أشخاص في هذه العلية: يا للحادث السّيء! ها قد أصبحت لديّ أسرةٌ الآن! بنتٌ وصبيّ.'

في حين كان أورسوس يتكلّم، كان أومو قد اندسّ قريباً من المدفأة. وكانت يدُ الصّغيرة النائمة تتدلّى بين المدفأة والصّندوق. وأخذ الذئب يلعقُ تلك اليد.

كان يلعقّها برقّةٍ كبيرة بحيث لم تستيقظ الصّغيرة.

استدار أورسوس، وقال:

'حسناً، يا أومو، سأكون الأبَ وستكون العمّ.'

ثم استأنف مهمته كفيلسوفٍ في تدبرٌ أمرِ النّار، من غير أن يقطع تناجيه.

'تبنٍّ . لقد تقرّر هذا. إضافة إلى أن أومو يقبل بذلك'

انتصب وقال:

'أودّ أن أعرف من المسؤول عن تلك الميتة، هل هم النّاس؟ أم...'

ونظرت عينه في الهواء، ولكن إلى ما وراء السّقف، وهمس فمه:

'هل هو أنت؟'

ثم انخفض جبينه وكأنما تحت ثقل معيّن، وتابع يقول:

'لقد تكفّل الليلُ بقتل هذه المرأة.'

حين ارتفع نظره، التقى وجه الصبي الموقَظ الذي كان يصغي إليه.

واستجوبه أورسوس فجأة:

'ما الذي يضحكُك؟'

وأجاب الصّبي:

'أنا لا أضحك.

أصيب أورسوس بنوعٍ من الصّدمة، وعاينه بثبات، وبصمتٍ خلال بضع ثوان، وقال:

"أنت رهيبٌ إذن"

كان داخلُ الكوخ الصّغير في الليل قليلَ الإضاءة بحيث أن أورسوس لم يكن قد رأى بعد وجه الصّبيّ. فأخذ الضّحى يريه إياه.

وضع راحتي يديه على كتفي الصّبي، وتأمل أيضاً باهتمامٍ ممضّ أكثر فأكثر، وصاح به:

"لا تعدْ إلى الضّحك إذن!

فقال الطّفل:

- أنا لا أضحك"

ارتجف أورسوس من رأسه إلى قدميه، وقال:

"أقول لك، إنّك تضحك"

وإذْ هزّ الطفل بشّدّة كانت هياجاً إن لم تكن رأفة، وسأله بعنف:

"من الذي صنع بك ذلك".

فأجاب الطفل:

"لا أعرفُ ما تعنيه"

- لديك هذا الضّحك منذ متى؟

فقال الطفل:

- كنت هكذا على الدّوام".

استدار أورسوس نحو الصندوق وهو يقول بصوتٍ خافت:

"كنت أظنّ أن هذا العمل لم يعد يجري القيام به".

وأخذ من رأس السّرير، وبتؤدةٍ بالغة لكي لا يوقظ البنت، الكتابَ الذي كان قد وضعه كوسادةٍ تحت رأس الصّغيرة، وهمس:

"لنّر كونكيست".

كان ذلك رزمة بقطع نصف الطلحيّة، ومجلّده بالرّق الطريّ. فتصفّحها بإبهامه، وتوقف عند إحدى الصّفحات، وفتح الكتاب على عرضه فوق المدفأة، وقرأ:

إنه هنا – De Denasatis...."

وتابع يقول:

Bucca fissa usque ad aures, genzivis denudates, nasoque murdridato ' masca eris, et ridebis semper (93).

– هذا حسن."

وأعادَ وضعَ الكتابَ على أحد الألواح الخشبيّة وهو يدمدمُ:

"إنّها مغامرة قد يكون التعمّق فيها غير سليم. فلنبق على السّطح. فاضحكْ، أيها الصّبي."

استيقظت البنتُ الصّغيرة، وكانت تحيّتها الصّباحية صرخة، فقال أورسوس:

"هيا، أيها المرضع، أعطها الثّدي.

كانت الصّغيرة قد جلست على جنبها. فأخذ أورسوس القارورةَ من على المدفأة، وأعطاها إياها لتمصّها.

في تلك اللحظة كانت الشمسُ تشرق. وكانت على وجه الأفق. وكان شعاعُها الأحمر يدخلُ من الزّجاج ويصفع وجهَ البنتِ الصّغيرة الذي يستديرُ نحوه. كانت حدقتا الطفلة المحدّقتان بالشمس تعكسان مثل مرآتين تلك الاستدارة الأرجوانية. وقد بقيت الحدقتان ثابتتين، والجفون أيضاً.

فقال أورسوس: "عجباً، إنها عمياء".

القسم الثّاني

بأمر الملك

الكتاب الأول

الحضور الدّائم للماضي؛
النّاس يعبّرون عن صورة الإنسان

I

اللّورد كلانشارلي

I

في تلك العهود، كانت هناك ذكرى قديمة.

وكانت تلك الذكرى هي اللّورد لينيوس كلانشارلي.

كان البارون لينيوس كلانشارلي، معاصر كرومويل، هو أحد أعضاء مجلس لوردات إنكلترا الذين قبلوا بالجمهورية، ولنسارعْ إلى القول إنهم كانوا قليلي العدد.

وكان يمكن لذلك القبول أن يكون له علّة وجود، وأن يُفسَّر عند الاقتضاء، بما أن الجمهورية قد انتصرت مؤقّتاً. وكان أمراً بسيطاً تماماً أن يظلّ اللورد كلانشارلي من حزب الجمهورية، طالما كانت الغلبة للجمهورية. ولكن اللورد كلانشارلي قد بقي ثابتاً على موقفه بعد إنهاء الثورة، وسقوط الحكومة البرلمانية. كان من اليسير على نبيلٍ من الأشراف أن يدخل مجدّداً إلى المجلس الأعلى الذي أُعيدَ تشكيلُه، فقد كانتْ عمليات إعادة الملكيّة تستقبلُ مواقفَ التوّبة استقبالاً جيداً دوماً، لأن شارل الثاني أميرٌ طيب بالنسبة لأولئك الذين يرجعون إليه، إلاّ أن اللورد كلانشارلي لم يكن قد أدرك ما تتطلّبه الأحداث. ففي حين كانت الأمّةُ تغمر بالتهليل الملك الذي استعاد السيّطرة على إنكلترا، وفي حين كان الإجماعُ ينطقُ بحكمه، وفي حين كانت تتمّ تحيّة الشّعب للملكيّة، وفي حين كانت السلالةُ الملكيّة تنهضُ في خضمّ قصيدةٍ تراجعيّةٍ مجيدة وظافرة، في اللحظة التي أخذ الماضي يصبحُ فيها المستقبل،

والمستقبل يصبح الماضي، بقي هذا اللورد متمرّداً. كان قد أشاحَ برأسه عن كلّ تلك الاستبشار؛ ونفى نفسه نفياً طوعيًّا، وإذْ كان يستطيع أن يكون عضواً في مجلس اللوردات، فقد فضّل أن يكون مُبعداً، وقد انقضت السّنين على ذلك النحو؛ وشاخ وهو مخلصٌ للجمهورية الميتة. لذلك فقد أُوسِعَ بالسّخرية التي ترتبط طبعاً بهذا النوع من التصرّف الصّبياني.

كان قد اعتزل في سويسرا. وكان يسكن في ضربٍ من كوخٍ عالٍ متداعٍ على ضفّةِ بحيرة جينيف. كان قد اختار لنفسه ذلك المسكن في الزاوية المخبأة الأشدّ قسوةً على البحيرة، بين شيّون التي تقع فيها زنزانة بونيفار(94) وفيفه التي يقع فيها قبرُ لودولف(95) وكانت جبالُ الألب القاسية، والملأى بأوقاتِ الشفق، وهبوب الرّيح والسحب الجشّاء تحيط به. وكان يعيش هناك، ضائعاً في تلك الظلمات العظيمة التي تهبط من الجبال. وكان من النّادر أن يصادفه عابرُ سبيل. كان ذلك الرّجلُ خارج وطنه، وخارج عصره تقريباً. وفي هذه اللّحظة، بالنسبة لأولئك الذين كانوا ملميّن بالأمور، والذين كانوا يعرفون قضايا العصر،لم تكن أيّةُ مقاومةٍ للأحوال قابلة للتبرير. كانت إنكلترا محظوظة؛ فإعادةُ الملكية هي مصالحةٌ بين زوجين؛ فالأميرُ والأمّةُ قد كفّا عن أن يناما منفصلين؛ فما من شيء أكثر ظرفاً وأكثر بشاشة؛ كانت بريطانيا العظمى تتألّق، والحصول على ملكٍ، هو شيءٌ كثير، ولكن إضافة إلى هذا، فقد كان لها ملكٌ فاتن؛ فشارل الثاني كان محبوباً، وهو رجلٌ متعةٍ وحكم، وهو عظيمٌ على نهجِ لويس الرّابع عشر، لقد كان سيّداً مهذباً ونبيلاً؛ كان شارل الثاني محطّ إعجابِ رعاياه، وقد خاض حرب هانوفر، وهو يدري بالتأكيد لماذا، ولكنه يدري ذلك وحده، وقد باع دنكرك إلى فرنسا، وهي عمليةٌ من عمليّات السّياسة العليا. أما أعضاء مجلس الأعيان الديمقراطيّون الذين قال عنهم شامبرلان: "إن الجمهورية الملعونة قد أصابت بالعدوى، بنفسها النتن، عدداً من رجال طبقة النبلاء العليا" لقد أرشدهم عقلُهم السليم إلى الرضوخ إلى حكم الواقع، وإلى أن يكونوا أهل زمانهم، وأن يستعيدوا مقعدهم في مجلس اللوردات النبيل. وكان يكفيهم في سبيل ذلك أن يقسموا يمين الولاء للملك. وحين كان المرءُ يفكرُ بكلّ هذه الوقائع، وبكلّ ذلك العهد الملكيّ الجميل،

وبذلك الملك الممتاز، وبأولئك الأمراء العظماء الذين أعانتهم الرّحمةُ الإلهيّةُ إلى محبّة الشعوب، حين كان المرءُ يقول لنفسه إن شخصيّات ذات اعتبار، من مثل مونك(96) وفيما بعد جيفريه، كانت قد تحالفت مع العرش، وإنهم قد كوفئوا حقاً على ولائهم وحماستهم بأعلى المناصب الرّفيعة، وبالوظائف الأكثر إدراراً للربح، وإن كلانشاري لم يكن ممكناً أن يجهل ذلك، وإنه لم يكن يعتمد إلاّ على نفسه ليجلس بفخار إلى جانبهم في مواقع المجد، وإن إنكلترا كانت قد ارتقت، بفضل ملكها، إلى قمة الازدهار، وإن إنكلترا لم تكن إلاّ أعياداً وحفلات فروسيّة، وإن كلّ الناس كانوا أثرياء ومتحمسّين، وإن البلاط كان غزلاً ومَرحاً وبهيّاً؛ ولو أن المرء، بالمصادفة، وبعيداً عن هذه البهاءات، وفي نورٍ غسقٍ كئيبٍ، وغير واضح يشبه هبوط الليل، كان يلمح ذلك العجوزَ الذي يرتدي الملابسَ ذاتها التي يرتديها عامّةُ الشعب، العجوز الشّاحب، والذاهل، والمحنيّ الظهر، والقريب ربّما من القبر، والواقف على ضفة البحيرة، والذي لا يكاد يصغي للعاصفة وللشتاء، ويسير وكأنّما على غير هدى، بنظرته المحدّقة، وشعره الأبيض الذي تهزّه ريحُ العتمة، العجوز الصّامت، والمتوحّد، والمتفكّر، فقد كان من الصّعب عليه ألاّ يبتسم.

إنه أشبه ما يكون بظلّ رجلٍ مجنون.

وإذا ما فكرّ المرءُ باللورد كلانشارلي، وبما كان يمكن له أن يكون، فإن الابتسام يُعتبرُ تسامحاً. وقد كان البعضُ يضحكون بصوت عالٍ، وكان آخرون يبدون سخطهم.

إن المرءَ يدركُ أن الرّجال الرصينين قد صدمتهم وقاحةُ عزلته.

الظروف التخفيفيّة: لم يكن اللورد شارلي نبيهاً قطّ. وكان كلّ الناس متفقّين على ذلك.

II

من غير المستحبّ أن يرى المرءُ الناسَ يمارسون العناد. والنّاس لا يحبّون مسالك ريغولوس هذه(97) وتنتج عنها سخريّةٌ معيّنة في أوساط الرأي العام.

إن هذه الضّروب من العناد تحاكي ألوان اللّوم، وللمرء الحقّ في أن يضحك منها.

ثم أن هذه الضروب من التصلّب في الطبّع، ومن العسر فيه، هل هي فضائل؟ أليس في هذه التباهيات المتعاقبة بنكران الذات، والشرّف، الكثيرُ من التّيه؟ إن هذا استعراضٌ أكثر مما هو شيءٌ آخر. لماذا هذه المبالغات بالوحدة والنّفي؟ إن عدم الإفراط في شيء هو حكمةُ العاقل. قفوا في المعارضة، لا بأس؛ ولتلوموا إذا شئتم، ولكن باحتشام. ومع الهتاف بحياة الملك! إن الفضيلة الحقيقيّة هي أن يكون المرء متعقّلاً. إن من يسقطُ هو من يتعيّن عليه أن يسقط، ومن نجح هو الذي كان لابدّ أن ينجح. إن للعناية الإلهيّة بواعثها؛ إنها تتوّجُ الاستحقاق. هل تدّعي أنك تعرف نفسك أفضل مما تعرفك؟ عندما تكون الظروف قد أطلقت حكمها، وحين يكون نظامٌ قد حلّ محلّ نظامٍ آخر، وحين يكون قد أسقط النجاحُ ما هو حقيقيٌ وما هو زائف، فتكون الكارثة هنا، والظفّر هناك، لا يعود هناك أيُّ شكٌ ممكناً، والرّجلُ النزية ينضمّ إلى ما كانت له الغلبة، مع أن هذا مفيدٌ لثروته ولأسرته، ومن غير أن يدع نفسه تحت تأثير هذا الاعتبار، إذْ لا يفكر إلاّ بالشأن العام، فهو يساند المنتصر.

إلامَ ستؤول الدّولة إذا لم يقبل أحدٌ أن يخدمها؟ هل يتوقّفَ كلّ شيء في هذه الحالة؟ أن يحافظ المرء على مكانه هو دأبُ المواطن الصّالح. فلنتعلمّوا التضحية بميولكم الخفيّة. إن الوظائف تتطلب أن تُشغل. ولا بدّ

لأحد أن يضحي بمصلحته. إن الأمانة للوظائف العامة تعدّ إخلاصاً. وقد يصبح اعتزالُ الموظفين شللاً للدّولة. إنه لأمرٌ يدعو إلى الرّثاء أن تنفوا أنفسكم. فهل هذا مثالٌ يُقتدى به؟ أيّ غرور! وهل هذا تحدٍّ؟ يالّلجرأة! أيّة شخصيّة تظنّون أنفسكم إذن؟ فلتعلموا أننا متعادلون في القدر. ونحن لا نفرّ. ولو شئنا، نحن أيضاً، لكنا متصلّبين في مواقفنا وعصيّين على الترويض، ولصنعنا أشياء أسوأ مما تصنعون غير أننا نفضّل أن نكون أناساً أذكياء. ولأني تريمالسيون(*)، فأنتم لا تظنون أنني قادر على أن أكون كاتون(**)! فلننته من الأمر!

(*) الحديث النعمة الوصولي.

(**) رجلٌ ذو فضيلة متشدّدة.

III

لم يكن قطّ وضعٌ أكثر وضوحاً وأكثر حسماً من الوضع في عام ١٦٦٠. ولم يكن قطّ السّلوك المطلوب اتخاذهُ مشاراً إليه بوضوحٍ أكبر بالنسبة لعقلٍ راجح.

كانت إنكلترا قد خرجت من تأثير كرومويل. وفي عهد الجمهورية، كان قد حدث الكثيرُ من الوقائع الشّاذّة. وكانت الهيمنةُ البريطانيّة قد أُسّست. وجرت السّيطرة على ألمانيا، بواسطة حرب الثلاثين عاماً، وأذلّت فرنسا، بواسطة لافروند، بمساعدة الدوق دوبراغانس(*) وصغّر شأنُ إسبانيا بواسطة الدوق دوبروتانيا. كان كرومويل قد روّض مازاران، ومن خلال المعاهدات، وكان حامي إنكلترا يوقّع فوق ملك فرنسا، وجرى فرضُ غرامةٍ قدرُها ثمانية ملايين على المقاطعات - المتّحدة، وأُرهقت الجزائر وتونس، واحتلّت جامايكا، وأذلّت ليشبونه، وأُثيرت في برشلونه المنافسةُ الفرنسية، وفي نابولي مازانييلوّ (98). كان قد جرى ربطُ البرتغال بإنكلترا؛ وتمّ، من جبل طارق إلى كاندي، طردُ البربر، وتمّ تأسيسُ الهيمنة البحريّة بشكليها، النّصر والتجارة! وفي العاشر من آب للعام ١٦٥٣، فإن رجل المعارك الثلاث والثلاثين الظافرة، الأميرال العجوز الذي كانوا يُطلقون عليه لقب جدّ البحّارة، هذا المدعو مارتان هابيرتس ترومب.(99) الذي كان قد قهر الأسطول الأسبانيّ، كان قد تعرّض أسطولُه للتدمير على يد الأسطول الإنكليزي؛ فجرى انتزاعُ الأطلسيّ من البحريّة الإسبانية، والمحيط الهادي من البحريّة الهولندية، والبحر المتوسط من البحرية البندقية. وبناء على العقد

(*) لافروند هي انتفاضة ضد مازاران في فترة وصايته على لويس الرابع عشر... (م: ز.ع).

الملاحيّ، كان قد تمَّ الاستيلاءُ على سواحل العالم؛ فمن خلال المحيط، كان يتمُّ القبضُ على العالم، وكان العلمُ الهولنديّ يحيي بتواضعٍ في البحر العلمَ البريطانيّ.

أما فرنسا، بشخصِ السّفير مانسيني، فقد كان يحيي بانحناءات أوليفييه كرومويل؛ وكان كرومويل هذا يتلاعبُ بكاليه ودنكرك، كما يتلاعب بكجتّين مريّشتين على مضرب كرة. كانت قد جُعلت القارّةُ ترتعدُ، وفُرضَ الصلحُ، وأعلنت الحربُ، ووُضع العلمُ الانكليزيّ على كلّ القمم. كان فيلق كوت - دو - فير وحده، فيلق الحامي يعادل في إرهابه لأوروبا جيشاً. كان كرومويل يقول: أريد أن تُحترم الجمهوريّةَ الإنكليزية كما كانت تُحترم الجمهوريّةَ الرّومانية. لم يعدْ هناك شيء مقدّس؛ فقد كان الكلامُ حرّاً، والصّحافةُ حرّة، والناسُ يقولون في عرض الشارع ما يشاؤون. كانوا يطبعون من غير تدقيق ولا رقابة ما يشاؤون. وكان توازنُ العروش قد تحطمّ. وكان النظامُ الملكي الأوروبي والذي يشكلّ آل ستيورات جزءاً منه قد اضطرب. وأخيراً، جرى الخروجُ من ذلك النظام البغيض، وحصلت إنكلترا على المغفرة.

كان شارل الثاني، المتسامح، قد قدّم إعلان بريدا، ومنحَ إنكلترا نسيان ذلك العصر الذي كان ابنُ صانعِ جعةٍ من هونتينغدون يضع فيه قدمه على رأس لويس الرابع عشر. كانت إنكلترا تقدّم توبتَها، وتتنفّسَ الصّعداء، وكان انشراحُ الصّدور، كما قلنا منذ قليل، كاملاً. وكانت مشانقُ قتلة الملوك تُضاف إلى الفرح الشّامل. إن إعادةً للملكية هي ابتسامة، ولكن القليل من الشنق ليس شيئاً غيرَ لائق، وينبغي إرضاءُ الضّمير العام. كانت روحُ عدم الانضباط قد تبدّدت، وأخذ الإخلاصُ يتكوّن مجدّداً. فأن يكون النّاسُ رعايا صالحين قد غدا منذ ذلك الحين طموحاً وحيداً. لقد رجع الناس من حماقات السّياسة؛ كانوا يهزؤون من الثّورة، ويسخرون من الجمهورية. وفي تلك الأوقات الفريدة التي كانت تتردّد فيها على الألسنة كلماتٌ كبيرة كالحقّ، والحريّة، والتقدّم، كان الناس يضحكون من تلك التفخيمات. وكان الرّجوعُ إلى الحسّ السّليم رائعاً. فإنكلترا كانت تحلم. وأيّةُ سعادةٍ في أن يكون المرء بعيداً عن هذه الضّلالات! فهل هناك شيءٌ أكثر منافاةٍ منها للعقل؟ فإلامَ كانت ستؤول الأمور إذا كان لأوّل الواصلين

حقوق؟ هل يمكن أن نتصوّر أن يكون كلُّ الناس حكّاماً؟ هل نتخيّلُ المدينة تحتَ قيادة المواطنين؟ إن المواطنين هم المقطورُ، والمقطورُ ليس الحوذيّ، إن الركون إلى الأصوات هو اعتمادٌ على الحظّ. فهل تريدون أن تجعلوا الدّول تتطاير كالسّحب؟ إن الفوضى لا تبني النظام. فإذا كان الشوّاشُ هو المعمار، فإن المبنى سيكون بابل. ثم أيّ طغيانٍ ستكون هذه الحريّة المزعومة! أنا أريد أن ألهو، وليس أن أحكم. إن التصّويتَ يُضجرني، وأريدُ أن أرقص. يا لها من عنايةٍ إلهيّة أن يتكفّل أميرٌ بكلّ شيء! من المؤكدّ أن هذا الملك أريحيٌّ لأنه يكلّفُ نفسه العناءَ من أجلنا! ثم أنه مهذّب في نخيلته، ويعلم ما معنى هذا. هذا هو شأنه. فالسّلم، والحرب، والتشريعُ، والمال، هل هذه أمورٌ تعني الشّعوب؟ لا شكّ أن الشّعب يجب أن يدفع، ولا شكّ أن الشعب يجب أن يخدم، بيد أن هذا يجب أن يكفيه. إن ثمة حصّة من السّياسة مخصّصةٌ له، فمنه تخرجُ قوّتا الدّولة، الجيشُ والميزانية. فأن يكون الشعبُ دافعاً للضرائب، وأن يكون جنديّاً، ألا يكفي هذا؟ لِمَ يحتاجُ لشيء آخر؟ إنه الذّراعُ العسكريّة، وهو الذراعُ الماليّة. وهذا دورٌ رائع. أما الحكم فيجري بالنيابة عنها، ولا بد أن يعوّض عن هذه الخدمة. إن الضريبة والقائمة المدنيّة هي أمورٌ يسدّدها الشّعبُ ويكسبُها الأمراء. إن الشّعب يعطي دمَهُ وماله شريطة أن يُقاد. أما أن يرغب في أن يقودَ نفسه، فيا لها من فكرة مستهجنة! إن المرشدَ ضروريٌّ له. وبما أن الشّعبَ جاهلٌ، فهو أعمى. أليس للأعمى كلب؟ إنّما بالنسبةِ للشعب، فهو سبع، وهو الملكُ الذي يقبل أن يكون الكلب. يا للطيّبة! ولكن لماذا يكونُ الشّعبُ جاهلاً؟ لأنه يجب أن يكون كذلك. فالجهلُ حارسٌ للفضيلة. وحين لا تكون هناك آفاقٌ مستقبليّة، لا يكون هناك طموحات؛ فالجاهلُ في ظلمةٍ مفيدة، وحين يُلغى النّظر، تُلغى الاشتهاءات. ومن هنا تأتي البراءة. من يقرأ يفكرّ، ومن يفكرّ يحاكمُ، إن عدم المحاكمة هو الواجب، وهو السّعادة أيضاً. إن هذه الحقائق لا جدال فيها. والمجتمعُ قائمٌ عليها.

وهكذا فقد كانت المذاهبُ الاجتماعية السّليمة قد تعزّزت في إنكلترا. وعلى هذا الأساس فإن الأمّة قد أُعيدَ اعتبارُها. وفي الوقت عينه فقد كان يجري الرّجوعُ إلى الأدب الجميل. لقد كانوا يزدرون شكسبير، ويعجبون

بدريرنن. إن دريدن هو أكبر شاعر في إنكلترا، وفي هذا القرن. هكذا كان يقول أتيربوري مترجم كتاب أرخيل. وكان ذلك هو العهد الذي كان السّيد هوييه، ومطران أفرانش يكتب إلى سوميز(100)، الذي شرّف مؤلّف الفردوس المفقود بدحضه له وبإهانته: كيف يمكنك أن تهتم بشيء ضحل إلى هذا الحدّ والذي هو ميلتون؟ كان كلُّ شيء يولدُ مجدّداً وكلّ شيء يستعيدُ مكانه. فدريدن في الأعلى، وشكسبير. في الأسفل، وشارل الثاني على العرش، وكرومويل على المشنقة. كانت إنكلترا تنهض مجدّداً من مخازي الماضي وشططه. وإنها لسعادةٌ كبرى بالنسبة إلى الأمم أن تكون قد أعانتها الملكيّة إلى النظام الجيّد في الدّولة وإلى الذّوق الجيّد في الأدب.

أن يكون ممكناً تجاهلٌ حسنات كهذه هو أمرٌ يصعبُ تصديقه. إدارة الظّهر لشارل الثاني، ومكافأة الشهامةِ التي تمتّع بها لتسنّم العرش بذكران الجميل، ألم يكن ذلك أمراً مقيتاً؟ كان اللورد لينيوس كلانشارلي قد سبّب هذا الغمّ للناس الشرّفاء. فإبداءُ استيائه من سعادة وطنه، أيّ ضلالٍ هذا!

نعلم أن البرلمان كان قد أصدر في عام ١٦٥٠ هذه الصّيغة المكتوبة: أعدُ بأن أظلّ مخلصاً للجمهوريّة، من غير ملك، ولا عاهل، ولا سيّد إقطاعيّ. وقد كان اللورد كلانشارلي يعيش خارج المملكة، تحت ذريعة أنه قد أقسم هذا القسم الشيّطاني. وبمواجهة الغبطة العامّة، كان يظنّ أن له الحقّ في أن يكون حزيناً. كان لديه التقديرُ القاتم لما لم يعد موجوداً. ارتباطٌ غريب بأشياء قد تلاشت.

كان التماسُ العذر له متعذّراً؛ فقد أخذ الأكثر عطفاً عليه يهجرونه. وكان أصدقاؤه قد أكرموه لفترةٍ طويلة بأن ظنّوا أنه لم يدخل إلى الصّفوف الجمهوريّة إلاّ ليرى عن كثبٍ نقاطَ ضعف الدّرع، درع الجمهوريّة، ولكي يضربها بصورةٍ أكيدة. في اليوم المناسب، لصالح قضيّة الملك المقدّسة. إن هذه الانتظارات للسّاعة المجدية لقتل العدوّ من الخلف تشكّل جزءاً من الإخلاص. كانوا يأملون هذا من اللورد كلانشارلي، بسبب الميل الشديد الذي كان لديهم للحكم عليه بصورةٍ إيجابيّة. بيد أنه كان لا بدّ حقّاً، بمواجهة إصراره الجمهوري، أن يتخلّوا عن ذلك الرأي الجيّد. لقد كان اللورد كلانشارلي مقتنعاً بالطبع بأفكاره، أي أنه كان أحمق.

كان تفسيرُ المتسامحين يتردّد بين العناد الصّبياني، والتصلّب الشيخيّ.

أما المتشدّدون والمنصفون فقد كانوا يمضون إلى أبعد من ذلك. لقد كانوا يندّدون بهذا المرتدّ. إن للحماقة حقوقاً، غير أن لها حدوداً. ويمكن للمرء أن يكون بهيمة، ولا ينبغي أن يكون متمرّداً. ثم ماذا كان اللورد كلانشارلي، بعد كلّ حساب؟ إنه منشق. كان قد ترك معسكره، الأرستقراطيّة، لكي يذهب إلى المعسكر المضادّ، الشّعب. كان ذلك المخلصُ خائناً. والصّحيح أنه كان 'خائناً' للأقوى ومخلصاً للأضعف. والصّحيح أن المعسكرَ الذي تخلّى عنه قد كان المعسكر المنتصر، وأن المعسكر الذي تبنّاه قد كان المعسكر المهزوم؛ والصّحيح أنه بهذه 'الخيانة' قد خسر كلّ شيء، امتيازَه السّياسيّ وحياتَه المنزليّة، وعضويّةَ مجلس اللوردات ووطنه. ولم يكسب إلاّ السّخرية. ولم يجن نفعاً إلا المنفى، ولكن ماذا يثبتُ هذا؟ أنه كان أبلهاً. موافقون على هذا.

إنه خائنٌ ومخدوعٌ في الوقت نفسه، هذا بيّنٌ.

فليكن المرء أبلهاً، بقدر ما يشاء، بشرط ألاّ يقدّم القدوة السّيئة، إننا لا نطلبُ من البلهاء إلاّ أن يكونوا شرفاء، فيمكنهم بواسطة ذلك أن يطمحوا إلى أن يكونوا ركائز الملكيّات.

كان ضيقُ أفقِ كلانشارلي أمراً يتعذّر تصوّره. فقد مكث ضمنَ انبهارِ الاستيهام الثّوريّ. كان قد ترك الجمهوريّة تسوقه إلى داخلها، وإلى خارجها. وكان يشكلّ عاراً على بلاده. إن موقفه يعتبر غدراً بحتاً. فأن يكون المرءُ غائباً، معناه أن يكون مسبباً للإهانة. كان يبدو أنه يقفُ بعيداً عن السّعادة العامّة كما يقف بعيداً عن طاعون. وفي نفيه الطّوعي، كان هناك اختباء غير واضح من الرّضى الوطني. كان يعامل الملكيّة وكأنها داءٌ سار. كانَ العلمَ الأسودَ المرفوع على الجذل الملكي الواسع الذي طعن عليه، وكأنه محجرٌ صحيٌ. ماذا! أفوق النظام الذي أُعيدت إقامته، والأمة التي نهضت مجدّداً، والدِّين الذي جرى إحياؤه، يظهر المرء عابساً! ويُلقي بذلك الظلّ على ذلك الصفاء! ويسيء الظّن بإنكلترا المسرورة! ويكونُ النقطةَ المعتمة في تلك السّماء الكبيرة الزّرقاء! ويشبه تهديداً! ويحتجّ على إرادةِ الأمّة! وينكرُ على القبول الشّامل قول نعم! إن هذا يعدُّ كريهاً، إن لم يكن مضحكاً.

إن كلانشارلي هذا لم يكن قد أدرك أنه يمكن أن يضلّ مع كرومويل، وأنه ينبغي أن يرجع مع مونك. انظروا إلى مونك. إنه يقودُ جيش الجمهوريّة؛ لقد كتب إليه شارل الثاني في منفاه بعد أن أعلموه بنزاهته، أما مونك الذي يجمع بين الفضيلة والسّلوكات المخاتلة، فيستتر في البداية، ثم فجأة، وعلى رأس قواته، يحطّم البرلمان المتمرّد، ويعيد تنصيب الملك، ويصبح مونك دوق دالبيمارل، ويحصل على شرف إنقاذ المجتمع، ويصبح غنيّاً جدًّا، ويشرّفُ عصره إلى الأبد، ويُرسمُ فارس دولاجاروتيير مع الأمل بأن يدفن في ويستمنستر. وذلك هو مجدٌ انكليزيّ مخلص. أما اللورد كلانشاري فلم يستطع أن يرتقي إلى فهم الواجب الذي مورس بتلك الطّريقة، كان مصاباً بتبجّح وجمود المنفى. وكان يرضي نفسه بجمل جوفاء. كان ذلك الرّجل متصلّباً بسبب الكبرياء. فكلماتُ الضميرِ والكرامة إلخ، هي كلماتٌ بعد كلّ حساب، وينبغي أن يرى المرء المضمون.

هذا المضمون، لم يكن كلانشارلي قد رآه. لقد كان وعياً قصير النّظر، ويريد، قبل أن يقوم بعمل، أن ينظر إليه عن كثب لكي يشمّ رائحته. ومن هنا تأتي تقزّزاتٌ عبثيّة. والمرء لا يكون رجل دولة بمثل رهافاتٍ كهذه. إن الإفراطَ في الضّمير يتحوّل إلى عجز. إن الوسواسَ أكتع أمام الصّولجان الذي ينبغي إمساكه، وخصيّ أمام الثروة التي ينبغي الاقتران بها. فلنرتّبْ بالوساوس. إن لها نتائج خطيرة. والإخلاص غير المتعقّل ينحدرُ مثل درج قبو. درجة ثم درجة، ثم درجة أيضاً، ويجد المرء نفسه في العتمة. إن المهرة يعاودون الصّعود، والسّاذجين يبقون. ولا ينبغي للمرء أن يدع وعيه يدلفُ إلى المخيف بخفّة. ومن انتقالٍ إلى انتقال، يصلُ إلى الدرّجات اللونية القاتمة، درجات الحياء السّياسي. حينذاك يضيع المرء. وكانت تلك هي مغامرة لورد كلانشارلي.

تنتهي المبادئ إلى أن تصبح هاوية.

كانت يتنزّه، ويداه خلف ظهره، وعلى طول بحيرة جينيف؛ فيا له من تقدّم جميل!

كانوا يتكلّمون أحياناً في لندن عن هذا الغائب. لقد كان تقريباً متّهماً، أمام الرأي العام. كانوا يقدّمون الحججَ في حسناته وفي سيّئاته. وبعد أن جرى سماعُ القضية، كان الحكمُ الذي كسبه هو نعته بالغباء.

كان الكثيرون من المتحمّسين القدامى للجمهوريّة السّابقة قد انضموا إلى آل سيتوارت. وهذا ما ينبغي أن نمتدحهم عليه. لقد كانوا يفترون عليه قليلاً بالطبع. فالمعاندون يزعجون المجاملين. وكان أُناسٌ نبيهون، مقبولون ولهم مواقع جيدة في البلاط، وقد سئموا من موقفه غير المستحبّ يقولون عنه بسرور: "إذا كان لم ينضوِ في صفوف الملكيّة، فذلك لأنهم لم يدفعوا له ثمناً غالياً إلى درجةٍ كافيةٍ، إلخ. – كان يريد مركز رئيس قضاة والذي أعطاه الملك اللورد هايد إلخ. وكان أحد "أصدقائه القدامى" قد ذهب به الأمر إلى أن يهمس: لقد قال لي ذلك بنفسه.

وفي بعض الأحيان، ومع أن لينيوس كلانشارلي كان متوحّداً؛ فقد كان يصل إليه شيء من هذه الأقاويل عن طريق مبعدين كان يصادفهم، وقتلة ملوك.

شيوخ من مثل أندرو براوتون. كان كلانشارلي يكتفي بهزّةٍ من كتفيه غير ملحوظة، وهي دلالةٌ على تخبُّل عميق.

ذات مرّة، أكمل هزّة الكتفين هذه ببعضِ كلماتٍ همس بها بصوتٍ خافت:

إني أرثي لمن يظنّون ذلك(101).

IV

ازدراه شارل الثاني، الطيّب القلب. وكانت سعادةُ إنكلترا في عهد شارل الثاني أكثر من السّعادة، كانت تهلّلاً. إن إعادة للحكم الملكي هي لوحةٌ قديمة متشائمة إلى حدّ بعيد يجري تلميعُها مجدّداً؛ فالماضي بأكمله يظهر ثانية. لقد كانت الطبّائع القديمة الجيّدة تحقق رجوعها، وأخذت النّساءُ تتسنّم الملك وتحكم. وقد دوّن إيفيلين(102) ذلك؛ ونحن نقرأ في يومياته: "الفسق، وتدنيس المقدّسات، وازدراء الرّبّ. لقد شاهدتُ مساءَ يوم أحدٍ الملكَ وفتياته، بنات الهوى، البرستموث، والكليفلاند، والمازاران، وفتاتين أو ثلاث أخريات، وجميعُهنّ عاريات تقريباً في قاعة القمار". وإننا لنشعر بظهور بعض الحقد في هذا التصوير. غير أن إيفيلين قد كان طُهريّاً متذمّراً، وملوّثاً بأحكام جمهورية. ولم يكن يثمّن المثال النافع الذي كان يعطيه الملوك من خلال تلك الضّروب العظيمة من المرح البابلي التي تغذّي التّرف في حاصل الأمر. لم يكن يفهم فائدة الرّذائل. هناك قاعدة: لا تستأصلوا الرّذائل، إن أردتم أن تحصلوا على نساءٍ فاتنات. وإلاّ فإنكم قد تشبهون الحمقى الذين يقضون على الشّرفات وهم مشغوفون بالفراشات.

أما شارل الثاني، وقد رأينا منذ قليل، فلم يتبيّن إلاّ بصعوبة وجودَ متمرّدٍ يدعى كلانشارلي، غير أن جاك الثاني قد كان أكثر انتباهاً. وكان شارل الثاني يحكم برخاوة؛ فتلك هي طريقتُه؛ ولنقل إنه لم يكن يديرُ الحكم بسبب ذلك على نحوٍ أسوأ. إن بحّاراً يجعلُ مجموعةَ الحبال المخصّصة للسيطرة على الريح معقودةً بشكلٍ رخوٍ بحيث يترك للريح أن تشدّها. تلك هي حماقةُ الإعصار والشّعب.

إن هذه العقدة، التي سرعان ما تصبح عقدةً ضيّقة هي حكومةُ شارل الثاني.

في عهد جاك الثاني، بدأ الخنق. إنه خنقٌ ضروريّ لما تبقّى من الثورة. لقد كان لدى جاك الثاني الطمّوحُ الذي يستحقّ الثناء، طموحُ ملك فاعل. إن فترة ملْك شارل الثاني لم تكن في نظره إلاّ مخطّطاً أوليّاً لإعادة الملكيّة، فقد أراد جاك الثاني رجوعاً إلى النظام الأكثر اكتمالاً أيضاً. وكان، في عام ١٦٦٠، قد أسف لأنه قد جرى الاكتفاءُ بشنق عشرةٍ من قاتلي الملك. فقد كان مُعيداً لبناءِ السّلطة حقيقيّاً بصورة أكبر. لقد أعطى قوّةً للمبادئ الجديّة. وجعل تلك العدالة التي هي العدالة الحقيقية تحكم، والتي تتركزّ فوق التفخيمات العاطفية، والتي تهتمّ قبل كلّ شيء بمصالح المجتمع. إن المرءَ يتعرّفُ في هذه التشدّدات الحُمّائيّة رجل الدّولة. لقد عهد بيد العدالة إلى جيفريه، وبالسّيف لكيرك(103) . وكان كيركُ يكثرُ من الأمثلة. إن هذا العقيد النافع قد أمر ذات يومٍ بشنق الرّجل نفسه ثلاثَ مرّاتٍ متتابعة، وهو جمهوريٍ، وكان يسأله في كلّ مرّة: - هل تنكر الجمهورية؟ وبما أن الأثيم قد قال لا دائماً، فقد أجْهز عليه - لقد شنقته أربع مرّات، هكذا قال كيرك راضياً.

إن ضروبَ التعذيب التي أعيد العملُ بها هي علامة قوّةٍ كبيرة في السّلطة. لقد تمّ إعدام الليدي ليل، التي كانت مع ذلك قد أرسلت ابنها ليحارب ضدّ موغاوث، وذلك لأنها قد خبأت في منزلها متمرديّن اثنين. وهناك متمرّدةٌ أخرى كانت على درجةٍ من النزاهة بحيث صرّحت بأن امرأةً معمدانيةً متجدّدةً قد أعطتها ملجأً، فحصلت على العفو، أما المرأةُ فقد أُحرقت حيّة. وفي يومٍ آخر، أفهم كيرك إحدى المدن بأنه كان يعلم أنها جمهوريّة الانتماء؛ بأن شنق تسعة عشر بورجوازياً منها. إنها بالتّأكيد انتقاماتٌ مشروعة حقّاً، حين نفكرّ بأنه كان يجري قطعُ أنفِ وأذنيّ القِسّيسين الحجريّين في الكنائس، في عهد كرومويل. إن جاك الثاني الذي كان قد أحسن اختيار جيفريه وكيرك، وقد كان أميراً مشبعاً بالدّين الحقيقي، كان يقومُ بإماتة جسده بواسطة قباحة عشيقاته، ويصغي إلى الأب كولومبير، هذا الواعظ الذي كان عذْب الكلام كالأب شومينيه تقريباً، ولكن بحماسةٍ أكبر، والذي كان له في النصف الأوّل من حياته المجد ليكون مستشار جاك الثاني، وفي النصف الثاني ليكون مرشد ماري ألا كوك، (104) وبفضل هذا الغذاء الروحي القويّ، إنما أمكن لجاك

الثّاني، فيما بعد، أن يحتمل المنفى بنُبل، وأن يقدّم في معتزله في سان – جيرمان مشهدَ ملكٍ يتعالى على المحنة، وهو يلمسُ بهدوء العقد السّلّية. ويتحدثُ مع اليسوعيِّين.

إننا ندرك أن ملكاً كهذا قد توجّب عليه، إلى حدّ معيّن، أن يهتمّ بمتمرّد من مثل اللورد لينيوس كلانشارلي؛ فمراتبُ النبلاء الوراثية التي يمكُن نقلُها تضمن قدراً معيّناً من المستقبل، ومن الجليّ أنه لو كان هناك احتياطٌ يُتخذ من ناحية هذا اللورد، لما تردّد جاك الثاني.

II

اللّورد دافيد ديري - موار

I

لم يكن اللّورد لينيوس كلانشارلي دائماً عجوزاً ومُبعداً. وكانت له فترةٌ للشّباب والهوى. ونحن نعلم، من هاريسون وبرايدا (105) أن كرومويل الشّاب كان قد أحبّ النساء والمتعة، وهذا ما ينمّ أحياناً (وهو وجة آخر من مسألة المرأة) عن وجود متمرّد. احترسْ من الحزام غير المربوط جيداً (106). Male proecinctum juvenem cavete

كان للّورد كلانشارلي، شأن كرومويل، سلوكاته غير اللاّئقة وشذوذاته.

وقد عُرِف لهُ طفلٌ غير شرعي، وهو ابنه. وهذا الابن الذي أتى إلى العالم في اللحظة التي كانت تنتهي فيه الجمهوريّة، قد ولد في إنكلترا في الوقت الذي ذهب فيه والده إلى المنفى. وهذا هو السّبب في أنّه لم يرَ قطّ ذلك الوالد الذي كان له. ترعرعَ ذلك الابن غير الشرعي للورد كلانشارلي غلاماً في بلاط شارل الثاني. وكانوا يدعونه اللّورد دافيد ديّري – موار؛ وقد كان لورداً للمجاملة، وكان والدته امرأة رفيعة المستوى. وهذه الأمّ، وفيما كان اللورد كلانشارلي يصبح متوحّداً في سويسرا، قد اتخذت قراراً بأن تحرد بقدرٍ أقلّ، لأنها جميلة، وقد حصلت على المسامحة عن ذلك العشيق الوحشيّ الأوّل بعشيق ثانٍ، وهذا العشيق مدجّنٌ بشكل أكيد، وهو ملكيّ حتّى، فقد كان هو الملك. وقد كانت لبعض الوقت عشيقةً شارل الثاني وبما يكفي لكي يعطي حلالتة الذي كان شديد السّرور بأنه قد استعاد تلك المرأة الجميلة من الجمهوريّة، لكي يعطي اللورد الصغير دافيد، ابن نصره الغراميّ، مهّمةَ

حارسٍ للفرع. وهذا ما جعل من نلك الابن غير الشرّعيّ ضابطاً، مع منفذٍ إلى البلاط، وبطريقةٍ غير مباشرةٍ، نصيراً لآل ستيوارت متحمّساً. كان اللورد دافيد لبعض الوقت، باعتباره حارساً للفرع، أحد أولئك المئة والسّبعين الذين يحملون السّيف الضخم، ثم دخل إلى عصبة أصحاب الوظائف، وكان أحد الأربعين الذين يحملون الحربة المذهّبة. وكان يتمتّع إضافةً لذلك بحقٍّ وضعٍ الأطباق على مائدة الملك، لأنه من تلك الجماعة النبيلة التي شكلّها هنري الثامن لحمايته الشخصيّة، وعلى هذا النحّو، فإنما نجح اللورد دافيد في عهد شارل الثاني، في حين كان والده يشيخ في المنفى.

بعد ذلك، نجح في عهد جاك الثاني.

مات الملك، وعاش الملك، الـ non de ficit alter, aureus. (107)

عند تسنمّ دوق يورك العرش إنما حصل على الإذن بأن يُسمّى اللّورد دافيد ديري – موار، لإقطاعةٍ كانت والدتُه التي ماتت منذ قليل، قد أورثته إياها في تلك الغابة الكبيرة في اسكوتلندا، حيث نجد العصفور كراغٍ الذي يحفرُ عشّه بمنقاره في جذع أشجار السّنديان.

II

كان جاك الثاني ملكاً، وكان يدّعي أنه جنرال. كان يحبّ أن يحيط نفسه بالضباط الشّبان. ويظهر بارتياح علانية وهو يمتطي الجواد بخونته، ودرعه، وطاقيةِ شعره المستعار العريضة البارزة التي تخرج من تحت الخوذة وفوق الدّرع؛ أنه أشبه ما يكون بتمثالٍ لخيّال في حربٍ حمقاء. وكان يشعرُ بالودّ تجاه لطافة اللّورد دافيد الشّاب. وكان ممتناً لذلك الملكّي لأنه ابن رجلٍ جمهوريّ. إن والداً يُنكرُه المرء لا يُضيرُ إطلاقاً حظّاً موّفقاً في البلاط في بدايته. لقد جعل الملك من اللورد دافيد نبيلاً في غرفة السُّرير، مقابل راتبٍ قدرُه ألف ليرة.

لقد كانت ترقيةً جيدة. إن نبيلاً من نبلاء السُّرير ينام كلّ ليلةٍ بجانب الملك على سريرٍ يُنصب هناك. وثمة اثنا عشر نبيلاً، يتناوبون على ذلك.

كان اللورد دافيد، في هذا المنصب، وهو رئيسُ مستودعِ شوفان الملك، الذي يُعطي الشوفان للخيول، ويحصل على مئتين وستين ليرة راتباً. وكان تحت إمرته حوذيّو الملك الخمسة، وحوذيّو بريد الملك الخمسة، وسائسو خيول الملك الخمسة، وحاملو كرسي الملك الأربعة.

وكان له أن يسوسَ خيولَ السّباق السّتة التي يُعني الملك برعايتها في هاي ماركت، والتي تكلّف جلالته ستمئة ليرة في العام. لقد كان ذا سلطةٍ ونفوذ في خزانة ملابس الملك والتي تزوّد فرسان دولا جارّوتيير بملابس الاحتفالات. وكان يحييّه بانحناء بوّابُ الصّولجان الأسود الذي هو للملك. وكان ذلك البوّاب، في عهد جاك الثاني، هو الفارس دوبّا. وكان اللورد دافيد

يتلقى تحيّات الاحترام من م. بيكر، الذي كان كاتب التّاج وم. براون الذي كان كاتباً في البرلمان. إن بلاط إنكلترا، بعظمته، نموذجٌ للضيافة. وقد تصدّر اللورد دافيد، باعتباره أحد الأثني عشر، المآدبَ والاستقبالات. كان له الفخرُ في أن يكون واقفاً خلف الملك في أيام التّقدمة، حين يعطي الملكُ الكنيسة البيزانَ الذّهبيّ (108) Byzantium، في أيام القلادة، حين يرتدي الملك قلادةَ رتبتّه، وفي أيّام التناول، حين لا يتناول أحدٌ، عدا الملك والأمراء، كان هو الذي أدخل إلى الملك الفقراءَ الأثني عشر، في يوم الخميس المقدّس، والذين أعطاهم الملك كمياتٍ من النقود الفضيّة بقدر ما بلغ من السّنين، وكميّة من الشّلنات بقدر سنواتِ حكمه. وحين كان الملك مريضاً، اضطلع بمهمّة استدعاء وصيفيّ المرشد، واللّذين كانا كاهنين، وذلك لمرافقة جلالته في مرضه، ولمنع الأطبّاء من الاقتراب من غير إذنٍ من مجلس الدّولة. إضافة إلى ذلك، كان مقدّمَ الفيلق الأسكوتلنديّ للحرس الملكيّ، والذي حطّم الزحفَ الآتي من أسكوتلندا.

لقد قام بهذه الصّفة بعدّة حملات، وبصورة جدّ ظافره، فقد كان محارباً باسلاً. كان سيّداً مقداماً، قويَّ البنية، وسيماً، وكريماً، وجدّ كبير بمظهره كما بتصرّفاته. وكان شخصُه يشبه صفاته. فكان طويل القامة مثلما كان عالي المنبت.

كان في فترةٍ من الفترات تقريباً في وضعٍ يمكن أن يُسمّى فيه وصيفاً للرداء، وهذا ما كان يمكن أن يعطيه حقّ إلباس الملك قميصه، غير أنه كان ينبغي لذلك أن يكون المرءُ أميراً أو لورداً.

إن تسميةَ لورد هي أمرٌ كبير. وهي تعني إحداثَ إقطاعة لورد، وهذا ما يصنع حسّاداً.

إن خطوةً ما تصنعُ للملك صديقاً ومئة عدوّ، ما عدا الصّديق الذي يصبحُ ناكراً للجميل. إن جاك الثّاني، بتدبيرٍ سياسيٍ منه، كان ينشئ إقطاعاتِ اللوّرد بصعوبة، ولكنه كان ينقلُها بيسر، فإقطاعةُ اللورد المنقولة لا تُحدثُ

اضطراباً. إن الاسم هو الذي يتواصلُ بكلّ بساطة. وقد اضطربت رتبةُ اللورد بعض الشيء بسبب ذلك.

لم تكن المشيئةُ الملكية تأنفُ إطلاقاً من أن تدخل اللورد دافيد – ديري – موار إلى مجلس اللوردات الأعلى، شريطة أن يكون ذلك من خلال باب إقطاعة لورد مستبدلة. لم يكن جلالتُه يطلب أكثر من أن تتوفرّ الفرصةُ ليجعل من دافيد ديرّي – موار الذي هو لورد مجاملة، لورداً كامل الحقوق.

III

أتت تلك المناسبة.

فذات يوم، أتى خبرٌ بأن أموراً شتّى قد حدثت للغائب العجوز اللّورد لينيوس كلانشارلي، والأمرُ الرئيس فيما بينها كان أنه قد توفي. وللموت هذه الفائدة التي يقدّمها للناس، وذلك أنه يطلقُ الحديثَ عنهم قليلاً. لقد روى الناس ما كانوا يعلمونه، أو ما كانوا يظنّون أنهم يعلمونه عن سنوات اللورد لينيوس الأخيرة.

ولعلها تخميناتٌ واختلاقات. وإذا ما صدّق المرءُ تلك القصص، التي تحمل الكثير من المجازفة بلا شكّ، فإن اللورد كلانشارلي، عند نهاية حياته، ربّما يكون قد أصابه ازدياد في الحماسة الجمهوريّة، بحيث آل به ذلك، كما كانوا يؤكدّون، بإصرارٍ غريب هو إصرارُ المنفى - إلى الزّواج بابنة قاتل ملك هي: آن برادشو - وكانوا يحدّدون الاسم - والتي ماتت أيضاً، ولكنها، كما كان يُقال، قد أنجبت طفلاً، هو صبيٌّ، والذي سيلفى نفسه الابنَ الشرعيَّ والوريثَ القانونيّ للورد كلانشارلي، إذا كانت كلُّ تلك التفاصيل دقيقة. إن هذه الأقاويل، المبهمة إلى درجةٍ كبيرة، كانت تشبه الشّائعات أكثر مما تشبه الوقائع. وما كان يجري في سويسرا كان بالنسبة لإنكلترا ذلك الزمن أمراً بعيداً مثلما يجري في الصيّن بالنسبة لإنكلترا اليوم. وكان اللورد كلانشارلي قد بلغ تقديراً تسعة وخمسين عاماً عند زواجه، وستين عند ولادة ابنه، ومات بعد فترةٍ وجيزة بعد ذلك، تاركاً وراءه طفلاً، يتيمَ الأب والأمّ. إنّها أشياءٌ ممكنة، بلا شكّ، ولكنها مستبعدةُ الحدوث. وكانوا يضيفون أن هذا الطفل قد كان "جميلاً كالنهار" وهذا ما يُقرأ في كلّ حكايات الجنيّات (الخارقة). ولقد وضع الملكُ جاك حدّاً لتلك الشّائعات، التي ليس لها أيٌّ أساس بالطبّع، حين

أعلن ذات يوم اللورد دافيد ديرّي - موار، وريثاً وحيداً ونهائياً، لعدم وجود ابن شرعيّ، وبرغبةٍ ملكيّة، وريثاً للورد لينيوس كلانشارلي، والده غير الشرعيّ، بما أنه قد تبيّن عدم وجود أيّة بنوّة وأيّ خلف. وقد سُجّلت براءاتُ تلك الرّغبة في مجلس اللّوردات؛ وبهذه البراءات، كان الملك يمنحُ اللوردَ دافيد ديرّي - موار الألقابَ والحقوقَ والامتيازات التي كانت للمدعو المرحومِ اللورد لينيوس كلانشارلي، وبشرطٍ وحيد هو أن يتزوّج اللورد دافيد فتاةً معينة، حين تصبحُ بالغةً وهي في هذه اللّحظة لا تزال طفلة وعمرُها بضعة أشهر وحسب، وكان الملك قد جعلها دوقة وهي في المهد، ولا يدري أحدٌ لماذا. فتبينّوا القصد، إذا شئتم، فقلّما كان الناس يعلمون لماذا. وكانت تلك الصّغيرة تُدعى الدّوقة جوزيان.

كانت الدُّرْجةُ الإنكليزية آنذاك في الأسماء الإسبانية. وكان أحدُ أبناء شارل الثاني غير الشرّعيين يُدعى كارلوس، كونت بلا يموث. ومن المحتمل أن تكون جوزيان هي إدغامٌ بين جوزيفا - ي - آنا. ومع ذلك فربّما كان هناك جوزيان كما كان هناك جوزياس. وقد كان أحدُ نبلاء هنري الثالث يدعى جوزياس دي باسّاج.

إن تلك الدّوقة الصّغيرة هي التي أعطاها الملك إقطاعةَ كلانشارلي، فكانت صاحبةَ إقطاعةٍ بانتظار أن يكون هناك صاحبُ إقطاعة لورد. ويصبح اللورد زوجها. إن هذه الإقطاعة كانت تعتمد على ولاية قصر مزدوجة، وهي بارونيّة هنكرفيل؛ فضلاً عن أن لوردات كلانشارلي قد كانوا، مكافأةً لهم على عملٍ بطوليّ باهرٍ سابق، وبإذن ملكيّ، يحملون لقب مركيز كورليون في صقلية. إن لوردات إنكلترا لا يمكنهم أن يحملوا ألقاباً أجنبيّة، ومع ذلك، فهناك استثناءات؛ وهكذا، فقد كان هنري أروندل، بارون أروندل دوفار دور، شأن اللورد كليفورد، كونتاً للإمبراطوريّة المقدّسة التي يتولىّ إمارتها اللّورد كوبر، إن الدّوق دو هاملتون هو في فرنسا دوق شاتلرو؛ وبازيل فيلدنغ، كونت دو دنباي. هو في ألمانيا كونت دوها بسبورغ، ودولا فينبورغ، ورايندفلدن. إن الدّوق دوما لبورو قد كان أميراً

لمندلهايم في سواب، كما كان الدّوقُ دو ويلنغتون أميراً لواترو في بلجيكا. وكان الدّوقُ ويلنغتون نفسُه دوقاً إسبانياً لكويداد رودريغو، وكونتاً برتغاليّاً لفيميرا.

كان هناك في إنكلترا، ولا يزال أيضاً، أراضٍ للنبّلاء وأرضٍ للعامّة. وقد كانت أراضي اللوّردات كلانشارلي أراضي للنبلاء كلها. وكانت هذه الأراضي، والقصور، والدّساكر، والمحاكم الإقطاعية. والإقطاعات، والرّيوع، وأراضي الأحرار(109) . والممتلكات الملتصقة بإقطاعة اللّوردات كلانشارلي - هانكرفيل، كانت تخصّ مؤقّتاً اللّيدي جوزيان. وكان الملك يعلن أنه ما إن تتزوّج جوزيان، حتى يصبح اللّورد دافيد ديري - موار بارون كلانشارلي.

إضافة لميراث كلانشارلي؛ فقد كان لجوزيان ثروتها الشّخصيّة. كانت بحوزتها أملاكٌ كبيرة، وكان عددٌ منها يأتي من هباتِ السّيّدة سان - كو إلى دوق يورك. إن Madame sans queue (مدام سان كو) تعني السّيّدة وحسب. وكانوا يسمّون هكذا هنرييت دانغلوتير، دوقة أورليان، وهي المرأة الأولى في فرنسا بعد الملكة.

IV

بعد أن أحرز اللورد دافيد النجاح في عهد شارل وجاك، أحرزه في عهد غليوم. ولم تصل به نزعته اليعقوبيّة إلى اللحاق بجاك إلى المنفى. وفي نفس الوقت الذي استمرّ فيه يحبّ ملكه الشرعيّ، فقد أوحى له حسّه السّليم بخدمة المغتصب. وكان فضلاً عن ذلك، ضابطاً ممتازاً، برغمِ شيءٍ من عدم الانضباط. لقد انتقل من القوات البريّة إلى القوات البحريّة، وتميّز في الأسطول الأبيض. لقد أصبح فيه ما كانوا يسمونه حينذاك "قبطانَ الفرقاطة الخفيفة". وانتهى ذلك بأن صنعَ منه رجلاً غزلاً جدّاً، وماضياً إلى حدّ بعيدٍ جدّاً في رذائله الأنيقة. وصنع منه شاعراً بعضَ الشيء، مثل كلّ الناس، وخادماً جيّداً للدّولة، وخادماً بيتياً للأمير، ومواظباً على الأعياد، والاحتفالات، وإزاحات السّتار الصّغيرة، والحفلات، والمعارك، وخسيساً كما ينبغي، ومتعالياً جدّاً، وذا نظرة مخفضةٍ أو ثاقبة تبعاً للشيء الذي ينظر إليه، ونزيهاً بطيبة خاطر، ومجاملاً، ومتعجرفاً في الوقت المناسب، وهو يقوم بحركةٍ صريحة ومخلصة، مع احتمال أن يتموّه ثانية، بعد ذلك، شديدَ الملاحظة للمزاج الملكي الجيّد والسّيء، وغير مبالٍ أمام سنان سيف، ومستعداً على الدّوام للمخاطرة بحياته بإشارةٍ من جلالته ببطولةٍ وتزلّف، وقادراً على القيام بكلّ الحماقات، وليس على أيّةِ سفاهة، وهو رجلٌ غزلٍ وقواعد تشريفات، وفخورٌ بأن يكون جاثياً في المناسبات الكبرى الملكيّة، وذو إقدامٍ مرح، ورجلٌ بلاطٍ من فوق، ورجل قصرٍ من تحت، وشاباً تماماً في الخامسة والأربعين.

كان اللورد دافيد يغني أغنياتٍ فرنسيّة، وهذا مَرحٌ أنيق قد أدخل السّرور إلى قلب شارل الثاني.

كان يحبُّ الفصاحةَ واللّغةَ الجميلة. وكان جدّ معجبٍ بتلك التّدميقات الشّهيرة التي تسمّى خُطبُ بوسوّيه التأبينيّة.

من جهة والدته، كان لديه تقريباً ما يعيشُ به، أي ما يقارب دخلاً قدرُه عشرة آلاف ليرة إسترلينيّة، أي مئتين وخمسين ألف فرنكاً ريعاً. وكان يتدبّر أمره بها إضافةً إلى بعض الدّيون. لقد كان لا يُضاهى في البذخ والشّطط والأشياء المستحدثة، وما إن يقلّدونه، حتى يغير دُرْجته. كان يرتدي، على جواده، حزمةً مريحةً من جلد البقر المقلوب، وذات مهاميز. وكان يعتمرُ قبعاتٍ لا يمتلكها أحد، ويلبس تخاريم غريبة، وياقاتٍ له وحده.

III
الدّوقة جوزيان

نحو عام ١٧٠٥، مع أن الليدي جوزيان قد بلغت الثالثة والعشرين، وبلغ اللورد دافيد أربعة وأربعين، فإن الزّواج لم يتمّ بعد، وذلك بسبب أفضل المبرّرات في العالم.

هل كانا متباغضين؟ بعكس ذلك. غير أن ما لا يمكن أن يفوتك لا يحثّك على أيّ تعجُّل. كانت جوزيان ترغب في أن تظلّ حرّة؛ وكان دافيد يريد أن يبقى شابّاً. وألاّ يكون له ارتباطٌ إلاّ في أبعد وقتٍ ممكن، كان يبدو له ذلك إطالةً للفتوّة. ولقد كان الشبّان المتأخّرين في الزواج يكثرُون في تلك العهود المفعمة بالغزل. كان الرّجلُ يخطّه الشيبُ وهو مجاملٌ غزِل.(110) وكانُ الشّعرُ المستعارُ متواطئاً في ذلك، وصارت المساحيقُ مساعدةً في الأمر فيما بعد. إن اللورد شارل جيرّار، وهو البارون جيرار من آل جيراردو بروملي، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، كان يملأ لندن. بحُسن حظوظه. وكانت دوقة بالنّغهام الجميلة والشابّة تقوم بحماقاتٍ غراميةٍ مع الوسيم توماس بيلا سِيز ذي السّبعة والسّتين عاماً. وهو فيكونتُ فالكومبرغ. وكانوا يوردون أبيات كورنيي الشّعريّة وهو في السّبعين من عمره، والموجّهة إلى امرأةٍ في العشرين: أيتها المركيزة، لو كان وجهي. وكانت للنساء أيضاً نجاحاتٌ في خريفِ العمر، والشاهدُ على ذلك نينون وماريون(١١١). كانت تلك هي النماذج.

كانت جوزيان ودافيد في حالة دلال مع فارقٍ طفيف خاصّ. لم يكونا متحابّين، بل كان كلّ منهما يروقُ للآخر. وكان يكفيهما تجاورهما. فلماذا يسرعان بالانتهاء منه؟

كانت رواياتُ ذلك العهد تدفع بالمحبيّن والخاطبين إلى ذلك النّوع من التمرين الذي كان من أجمل الأساليب. أما جوزيان، التي كان تعلم أنها ابنةٌ غير شرعيّة، فقد كانت تحسُّ بأنها أميرة، وتتعاملُ معه بتعجرف، مستخدمةً ترتيباتٍ أيّاً كانت. كانت تميلُ إلى اللورد دافيد. وكان اللورد دافيد وسيماً، ولكن زيادةً على الصّفقة، كانت تجده أنيقاً.

أن يكون المرء أنيقاً، هذا كلّ شيء. إن عفريتاً (١١٢) أنيقاً ورائعاً يبزّ أربيل (١١٢) الفقير. كان اللّورد دافيد وسيماً. هذا حسن. إن عثرةَ الوسامة هي في كونها باهتة. وهو لم يكن كذلك. كان يراهنُ ويلاكم، ويستدين. وكانت جوزيان تقيم وزناً كبيراً لخيوله، وكلابه، وخسائره في القمار، وعشيقاته. وكان اللورد دافيد من جهته يحتملُ فتنة الذّوقة جوزيان، تلك الفتاة التي لا غبار عليها، وليس لديها وسواس، والشّامخة والصّعبة المنال والجسورة. كان يوجّه إليها قصائد من أربعة عشر بيتاً، وكانت تقرؤها أحياناً. وفي هذه القصائد، كان يؤكدّ أن امتلاك جوزيان قد يكون صعوداً إلى الكواكب. وهذا ما لم يكن يمنعه من أن يؤجّل ذلك الصّعود دوماً إلى العام التالي. وكان يقف كغرفة انتظار على باب قلب جوزيان. وكان ذلك يناسُبهما كليهما. وكانوا في البلاط يبدون إعجابهم بالذّوق السّليم والرّاقي لذلك التّأجيل. وكانت الليدي جوزيان تقول: "من المضجر أن أكون مجبرةً على الزّواج باللورد دافيد، أنا التي لا أطلب أكثر من أكون مغرمةً به".

كانت جوزيان هي الجسد، والذي لا يفوقه شيء بهاءً. كانت طويلةً جدّاً، وطويلةً أكثر مما ينبغي. وكان شعرُها بذلك التدرُّج اللونيّ الذي يمكن للمرء أن يسميّه الأشقر الأرجواني. كانت سمينةً، وغضّة، ومتينة البنية، وقرمزيّة اللون، مع قدرٍ كبير من الجرأة والنّباهة. وعيناها جليّتين إلى حدّ فائق. ولم يكن لها عشيق. ولم تكن أكثــر من ذلك عفيفة. وكانت تحبس نفسها داخل الكبرياء. أما الرّجال، فتفّاً لهم إذن! كان إلهٌ على الأكثر جديراً بها، أو مسخ. فإذا كانت الفضيلةُ تتمثّلُ في الوعورة، فقد كانت جوزيان هي الفضيلة الممكنة كلّها، من دون أيّة براءة. لم تكن لها مغامراتٌ غراميّة ازدراءً منها، ولكن إذا افترض المرء وجودها عندها، فلن يغضبها ذلك،

بشرط أن تكون هذه المغامرات غريبةً ومتناسبةً مع شخصٍ في مثل تكوينها. لقد كانت قلّما تحرصُ على سمعتها، وتحرص كثيراً على مجدها. أن تبدو سهلةً وأن تكون مستحيلة، ذلك هو الإنجاز الرائع. كانت جوزيان تشعرُ أنها جلالٌ ومادّةٌ. لقد كانت جمالاً مزحماً. وكانت تعتدي أكثر مما تفتن. كانت تسيرُ على القلوب، وكانت ترابيّة. ويمكنها أيضاً أن تُبدي الدّهشة إذا بيّنوا لها روحاً في صدرها مثلما يجعلونها ترى أجنحة على ظهرها. كانت تتكلّم بإسهابٍ عن لوك. وتتصنّعُ باللياقة، ويرتابون بأنها تعرف العربيّة.

أن تكون الجسد وأن تكون المرأة هما أمران مختلفان. وحيث تكون المرأة مجروحةً، من جهة الرأفة مثلاً، والتي تغدو بسهولة حبّاً، فإن جوزيان لم تكن كذلك. إن التشبيه القديم للجسد بالرّخام هو تشبيه زائف تماماً. وإن جمال الجسد هو في ألاّ يكون رخاماً، وهو أن يختلج، هو أن يرتجف، هو أن يحمرّ، وهو أن ينزفَ، وهو أن تكون له صلابة دون أن تكون له قسوة، وهو أن يكون أبيض، من غير أن يكون بارداً، وهو أن تكون له ارتعاشاتُه وضروبٌ وهنه، هو أن يكون الحياة، أما الرّخامُ فهو الموت. إن الجسدَ، في درجةٍ معيّنةٍ من الجمال، له الحقّ تقريباً في العري. إنّه يتغطىّ بالإبهار كما يتغطّى بنقاب. من كان يمكن أن يرى جوزيان عاريةً لم يكن بإمكانه أن يلحظ هذا النموذج المجسّم إلاّ من خلال توسّعٍ ضوئيّ. وكان يمكن أن تظهر نفسها بطيبة خاطرٍ لستير شهوانيّ، أو لخصيٍّ. كانت لديها رباطة الجأش الجديرة بالأساطير، وأن تصنع من عريها عذاباً، وأن تتملّص من تانتال(*) كان يمكن أن يُلهيها. كان الملك قد جعلها دوقة، وجعلها جوبيتِر حوريّة بحر. إن إشعاعاً مزدوجاً كان يتألّف منه الضيّاءُ الغريبُ لتلك المخلوقة. وحين يتأمّلها المرءُ بإعجاب، كان يحسُّ بأنه يصبح وثنيّاً وخادماً. أما أصلُها فمكانُ النّغولة والمحيط. وكان يبدو أنها تخرج من زبد. إن السّير مع التيار كان أوّلَ انبجاسٍ لمصيرها، ولكن في الوسط الملكيّ الكبير. كان في داخلها الموجُ،

(*) تانتال: قدّم ابنه طعاماً للآلهة، فحكَم عليه أبدياً بالجوع والعطش، في أساطير الإغريق. (م: ز.ع).

والمصادفةُ، والسّيادةُ الإقطاعيّة والعاصفة. كانت متّقفةً وعالمة. ولم يكن هوىً قد دنا منها قطّ. وكانت قد سبرت أعماقَ كلّ الأهواء. وكانت تتقزّز من الإنجازات، ومن الذّوق أيضاً. لو طعنت نفسها، لما فعلت ذلك إلاّ مثل لوكريس، فيما بعد، كانت كلُّ المفاسد موجودةً في تلك العذراء، في الحالة الرّؤيويّة. لقد كانت أستارتيه(١١٣) ممكنة في إهابِ ديانا حقيقيّة. كانت شريفة الأصلِ بوقاحة، ومغوية، ولا تُقْرب، ومع ذلك، فقد كانت تجدُ من المسليّ أن ترتّب لنفسها سقطةً معيّنة. كانت تسكن مجداً ضمن هالةٍ مقدّسةٍ مع ضعفٍ في الإدارة يؤدّي إلى النّزول منها، وربّما بفضول السّقوطِ منها. لقد كانت ثقيلةً قليلاً بالنسبة لغيمة. إن الزّلل يروقُ لها. إن لا مراعاة التصرّف الأميريّة تعطي امتيازاً للتجريب، وشخصيّة دوقيّة تقريباً تتلهّى في المكان الذي تضلُّ فيه بورجوازيّةٌ طريقها لقد كانت جوزيان في كل شيء ملكة تقريباً، من حيث نسبُها، وجمالُها، وتهكمّها، وإشراقُها. لقد مرّت بلحظة حماسةٍ نحو لويس دو بوفلير الذي كان يكسرُ حذوةَ حصانٍ بين أصابعه. وكانتْ تأسفُ على أن هرقل قد مات. وتعيشُ بانتظارِ مثلٍ أعلى غير واضح المعالم، مثلٍ أعلى شهوانيّ وسام.

كانت جوزيان، من حيث الطبّاع، تجعل المرء يفكرّ بالبيت الشّعري الوارد في رسالة إلى البيزون[*]: Discinit it piscem

إن جذعاً جميلاً لامرأةٍ ينتهي بأفعوان.

لقد كان لها صدرٌ نبيل، ونهدٌ رائعٌ يرفعهُ بصورةٍ متناغمة قلبٌ ملكيٌ، ونظرةٌ نشيطة ونيرّة، ووجهٌ صافٍ ومتعجرف، ومن يدري؟ ولها تحت ماء العين، وفي الشّفافية المستشفّة والعكرة، إطالةٌ متموّجة، وفائقةٌ على الطبّيعة، وربما تنينيّة ومسيخة. إنها فضيلةٌ شامخة، وتنتهي إلى رذائل في أعماق الأحلام.

(*) أشعار كتبها هوراس تعالج الأخلاق والذوق، وهي تشكلّ رأياً في فن الشعر. (م: ز.ع).

II

وإلى ذلك، متحذلقة.

كانت تلك هي الدُّرْجة.

فلنتذكر إليزابيت.

إن إليزابيت نموذجٌ قد هيمن، في إنكلترا على ثلاثة قرون، وهي القرن السّادس عشر، والسّابع عشر والثّامن عشر. إن إليزابيت أكثر من انكليزيّة، إنها أنغليكانية، ومن هنا يأتي احترامُ الكنيسة الأسقفيّة العميق لذلك الملكة. وهو احترامٌ قد تأثّرت به الكنيسة الكاثوليكيّةُ والتي كانت تُلحقُ بها قليلاً من الحرْم. وعلى لسانِ سيكست – كانت(*) الذي يحرمُ كنسيّاً إليزابيت، فإن اللعْنة تتحوّلُ إلى قصيدة عاطفية: (١١٦) un grand cervello di principessa كما يقول. أما ماري ستيوارت التي كانت مهتمةً بمسألةِ الكنيسة على نحوٍ أقل، ومهتمةً أكثر بمسألة المرأة فقد كانت قلّما تحترم أُختها إليزابيت، وكانت تكتبُ إليها، من ملكةٍ إلى ملكة، ومن غنجةٍ إلى متحشّمة: "إن ابتعادك عن الزّواج يأتي من أنك لا تريدين أن تفقدي حرّيتك في أن تصنعي الحبّ لنفسك.". كانت ماري ستيوارت تلعبُ بالمروحة، وإليزابيت بالبلطة. إن القوى غير متكافئة. وفضلاً عن هذا، فقد كانتا كلتاهما تتباريان في الأدب. كانت ماري ستيورات تنظمُ أشعاراً بالفرنسيّة، وكانت إليزابيت تترجمُ هوراس. كانت إليزابيت، القبيحةُ، تصدرُ مرسوماً بأنّها جميلة، وتحبّ الرّباعيّات والمطرّزات

(*) أبيات شعرية إذا جُمعت حروفُ أوائلها أعطت اسم المهْدى إليه (م: ز.ع).

الشّعرية(*)، وتجعل مفاتيحَ المدن تُقدَّم إليها على يد آلهة الحب (كوبيدون)، وتعضُّ شفتها على الطريقة الإيطاليّة، وتجول بحدقتيها على الطريقة الإسبانيّة، وكان لديها في خزانةِ ملابسها ثلاثة آلاف لباس وغطاء، ومن بينها كان هناك بضعة أثواب على طريقة منيرفا وأمفيتريت(**)، وتقدّر الإيرلنديين لعرض مناكبهم، وتغطيّ نافخ تنوّرتها برُقاقاتِ تذهيبٍ وتخريمات، وتعشق الورود، وتحلفُ، وتجدّف، وتعرقص، وتلكمُ بقبضتها وصيفاتها، وتطردُ بغضب دادلي، وتضرب رئيس الوزراء بورليه الذي كان يبكي، وهو الغبيّ العجوز، وتبصق على ماتيو، وتمسك بخناق هاتون، وتصفعُ إيسِّكس، وتظهر فخذها لباسّومبيير، وكانت عذراء.

إن ما فعلته لباسّومبيير، كانت ملكة سبأ قد فعلته لسليمان(*) إذن، فقد كان ذلك سليماً، لأن الكتابة المقدّسة قد صنعت الحادثة السّابقة. وما هو توراتيّ يمكن أن يكون أنغليكانياً. فالسّابقةُ التّوارتية تصلُ إلى ولادةِ طفل يُدعى ابن حكيم أو ميليليشت، أي ابن الحكيم.

إن إنكلترا اليوم، والتي لديها لويولا الذي يُدعى ويسلي(١١٨)، تُخفضُ عينيها أمام هذا الماضي. إنها متضايقةٌ منه، ولكنها تفخر به.

في تلك الطبّاع، كان الميلُ إلى المشوّه موجوداً، عند النّساء بوجهٍ خاصٍّ، وعند الحسناوات بالأخصّ. فما الفائدة من أن تكون المرأة جميلة، إن لم يكن لديها رجلٌ قبيح؟ وما النفع في أن تكون ملكة، إذا لم يخاطبها دون كلفةٍ رجلٌ سمين؟ كانت ماري ستيورات تقوم بالتفاتاتٍ عطفٍ نحو محني الظهر(١١٩) وهو ريزو. وكانت ماري تيريز ملكة إسبانيا ترفع الكلفة قليلاً مع زنجيّ. ومن هنا تأتي تسميةُ رئيسةِ الدّير السّوداء. وفي مخادع القرن العظيم، كانت الحدبةُ مقبولةً جيداً، والشّاهد على ذلك الماريشال دو لوكسمبورغ.

(*) آلهتا الحكمة والبحر بالتتابع (م: ز.ع).

(**) هو أحد بابوات روما.

(*- ١١٧) Regina Saba coram rege crura denudavit. شيكلاردوس إن بروإيمو تاريش. جيريسيشي. فـ : ٦٥.

وقبل لوكسمبورغ، هناك كونديه، "هذا الرّجل القصير، المليح جداً".

أما الجميلاتُ أنفسهنّ فقد كان يمكن لهنّ أن يكنّ سيّئات التكوين. وكان ذلك مقبولاً. كان لآنا دوبولين نهدٌ أكبر من الآخر، وستةُ أصابع في إحدى يديها، وسنٌ زائدة. وكانت لافاليير عرجاء. ولم يمنع هذا هنري الثامن من أن يكون فاقداً لرشده، ولويس الرابع عشر من أن يكون مستهاماً.

وكانت هناك الانحرافات نفسها، في الطّباع. فما من امرأةٍ في المراتب العليا لم تكن حالة مسخيّةً. كانت أينيس تحتوي ميلوزين. كانت امرأة في النهار، وغولةً في الليل. وكانت تمضي إلى السّاحل الرّمليّ لتقبّل على الوتد الحديديّ رؤوساً غضّة مقطوعة. وقد كانت مارغريت دوفالوا، وهي سلَفُ المتحذلقات، تحملُ في حزامها، تحت قفلٍ نقّال، وضمن علبٍ من الصّفيح، ومخاطة بجسم تنّورتها، كلّ قلوب عشّاقها الموتى. وكان هنري الرابع مخبأً في ذلك الثوب المنفوخ.

في القرن الثامن عشر، لخصّت الدّوقة دو بيرّي، ابنة الوصيّ على العرش، كلّ تلك المخلوقات في نموذجٍ فاحشٍ وملكيّ.

كانت النساء الجميلاتُ فضلاً عن ذلك يحسنّ اللاّتينيّة؛ فقد كان ذلك ظُرفاً نسائياً، منذ القرن السّادس عشر. وقد دفعت جين غراي الأناقة لتصل إلى معرفة العبريّة.

كانت الدّوقة جوزيان تتلّتين. إضافة إلى هذا، فقد كانت كاثوليكيّة، وهذا نهجٌ جديد وجميل. وقد كانت كذلك خفيّة، شأن عمها شارل الثاني. أكثر مما هي شأن والدها جاك الثاني. فكان جاك قد خسر ملكيته بسبب كاثوليكيته، ولم تكن جوزيان تريدُ أن تخاطر بإقطاعتها النّبيلة، لذلك، وإذْ كانت كاثوليكيّة في دخيلتها، وبين المهذّبين والمهذبات؛ فقد كانت بروتستانتية من الخارج بالنسبة للسّوقة.

إن هذه الطّريقةَ في فهم الدّين مستحبّةٌ. فالمرءُ يتمتّع بكلّ المنافع المرتبطة بالكنيسة الرّسمية الأسقفية (الأنغليكانية) وفيما بعد، حين تموت، شأن غروتيوس بصيت الكاثوليكية، يكون لك الفخر في أن يقيم الأب بيتّو قدّاساً لأجلك.

ومع أن جوزيان سمينةٌ ومتمتّعةٌ بصحّةٍ جيدة، فقد كانت، ولنؤكدْ على هذا، متحذلقةً كاملة.

وأحياناً، كانت طريقتُها الوسنانة والشّهوانية في جرجرةِ نهاية الجمل تحاكي استطالاتِ قوائم نمرةٍ تسيرُ في الأدغال.

إن فائدة أن تكون المرأة متحذلقةً هي في أن هذا يحطّ من درجة الجنس البشريّ، فلا يعود يجري تكريمُ المرء لكونه من هذا الجنس.

قبلَ كلّ شيء، يُعدُّ إبعاد الجنس البشريّ هو الأمرُ الهامّ.

حين لا يحصل المرء على الأولمب، يأخذ منزل رامبوييّه.

إن جونون تتحوّل إلى أرامينت(*)، إن الادّعاء بإلوهةٍ لا تسليمَ بها يخلقُ المرأةَ المتصنّعة. ولعدمِ وجودِ قصفاتِ الرّعد، تكون هناك الوقاحة. والمعبدُ ينكمشُ إلى صالون صغير. وحين لا يكون بإمكان المرأة أن تكون إلهةً، تصبح معبودة.

فضلاً عن هذا؛ فهناك لدى المتحذلق بعضُ ادّعاء المعرفة التي تروق للنساء.

إن المغناج ومدّعي المعرفة متجاوران. والتصاقهما ملحوظٌ لدى المغرور.

إن الحاذقَ مشتقّ من الشّهواني. والشّره يضرّ بالرّهافة. إن تكشيرةً متقزّزةً تليق بالاشتهاء.

ثم أن الجهة الضّعيفة للمرأة تحسّ بأنها محميّةٌ بكلّ ذلك البحث الضّميريّ، بحثِ التظرّف الذي يحلُّ محلّ وساوسِ المتحذلقات. إنها خندقٌ محصنٌ مع حفرة. إن لكلّ متحذلقةٍ مظهرَ نفور. وهذا يحمي.

إنها تبدي موافقتها، ولكنها تزدري في فترة الانتظار.

(*) جونون هي زوجة جوبيتير وأرامانت شخصيته من شخصيات ماريفو. (م: ز.ع).

كان لجوزيان طويّة مقلقة، وقد كانت تشعر بميلٍ إلى عدم الحياء بحيث تبدو متعففة. إن تراجعات الأنفة باتجاه معاكس لرذائلنا تقودنا إلى الرذائل المعاكسة، إن الجهدَ المفرطَ لتكون عفيفةً كان يجعلها مبالغةً في التحشّم. وأن تكون مسرفة في استعدادها للدّفاع، يدلّ على رغبةٍ خفيّةٍ في الهجوم. إن من يكون مخيفاً لا يكون متشدّداً.

كانت تحبسُ نفسها ضمنَ استثناءِ منزلتها المتعاظم، وفي الوقت الذي تتحضّرُ فيه ربّما مسبقاً، كما قلنا، لخروجٍ مفاجئ معيّن.

كان ذلك عند فجر القرن الثامن عشر، وكانت إنكلترا تصنعَ تصميمَ ما كان في فرنسا هو الوصاية على العرش. إن ڤالبول وديبوا يتحالفان. وكان مارلبورو يقاتل ضدّ ملكه السّابق جاك الثاني الذي، كما كان يقال، قد باعه أخته شرشل، وكان يُرى تألّقُ بولينغبروك، وبزوغُ نجم ريشيليو(١١٦) وكان التظرّفُ يجدُ احتشاداً معيّناً للصفوف أمراً مريحاً؛ وكان التساوي في المستوى يجري من خلال الرّذائل. وقيِّض له أن يجري فيما بعد من خلال الأفكار. أما التسفل، الذي هو استهلالٌ ارستقراطيّ، فقد كان يبدأ ما كان ينبغي على الثورة أن تنجزه. ولم نكن حينذاك بعيدين جدّاً عن جيليوت الجالس علناً، وفي وضح النهار، على سرير مركيزة إبيناي. والصّحيح أن القرنَ السّادسَ عشر قد شهد القلنسوةَ الليلية، قلنسوةَ سميتون على وسادة آنّا دو بولين، لأن التقاليد يحاكي بعضها بعضاً.

إذا كانت المرأة تعني الخطيئة، كما لم أعدْ أدري أيّ مجمعٍ دينيّ قد أكّد ذلك، فإنّ المرأة لم تكن قطّ امرأةً مثلما كانت في تلك العهود. وإذْ كانت تخفي هشاشتها بفتنتها، وضعفها بجبروتها، فهي لم تحلّ من خطاياها قطّ بصورة أكثرَ قهريّةٍ من ذلك الزمن. أن تصنع حوّاء من الثّمرةِ المحرّمة ثمرةً مسموحاً بها. ذلك هو سقوطُها. ولكن أن تصنع من الثّمرةِ المسموح بها ثمرةً محرّمةً، فذلك هو انتصارها. إن الأمر ينتهي بها هناك. وفي القرن الثامن عشر تغلق المرأة المزلاجَ على الزّوج. إنها تغلق على نفسها في عدن مع الشّيطان. أما آدم فيبقى خارجاً.

III

إن كلّ غرائز جوزيان تميل إلى أن تمنح نفسها في غزلٍ غراميٍّ أكثر مما تميلُ إلى منحها بصورةٍ مشروعة. أن تمنح نفسها بعلاقةٍ غراميّة أمرٌ يتضمّن شيئاً من الأدب، ويذكرّ بمينالك وأماريليس، وهو تقريباً عملٌ بارع(١٢٣).

إن مدموازيل دوسكوديري، بصرف النظر عن جاذبيّة القباحة من أجل القباحة، لم يكن لديها باعثٌ آخر لكي تستسلم لبيليسّون(١٢٤).

الفتاة السّيدة والمرأة الخاضعة، هذان هما التّقليدان. كانت جوزيان تؤجلّ أكثر ما تستطيع ساعة ذلك الخضوع، أما أن يكون من المتوجّب أن تصل إلى الزّواج باللورد دافيد، فتلك ولا شكّ ضرورة، ولكن أيّةُ خسارة هذه! كانت جوزيان تقبل باللورد دافيد وتُبعده. وكان بينهما اتفاقٌ ضمنيٌّ لكي لا يعقدا الزّواج، ولا يفسخا الخطوبة. كان كلٌّ منهما يتجنّب الآخر. إن هذا الأسلوب في التحابّ بخطوةٍ إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء، قد عبّرت عنه ألوانُ الرّقص في ذلك الزّمن، الرقصةُ الثلاثية ورقصة الغافوتة. أما أن يكون الناس متزوّجين، فهذا أمرٌ لا يناسبُ مظهر الوجه، وهذا يُذبلُ الشّرائطَ التي توضع، وهذا يُشيب. إن الاحتفال بالعرس هو حلٌّ مؤسفٌ في وضوحه. أما تسليمُ امرأةٍ عن طريق كاتب العدل، فأيّة تفاهة!

إن فظاظةَ الزّواج تخلقُ مواقفَ نهائية، وتلغي الإرادة، وتقتلُ الاختيار، ولها نحوٌ كالقواعد، وهي تستبدل بالإلهام الكتابة، وتجعلُ من الحبّ إملاءً، وتُشوّش سرَّ الحياة الخفيّ، وتُنزل الشّفافيّة بالوظائف الدّورية والحتمية، وتَنزَع من الغمام مظهرَ المرأة وهي بقميصها، وتُعطي حقوقاً متناقضة

بالنسْبة لذلك الذي يمارسُها كما بالنسبة لذلك الذي يخضع لها، وتُخلُّ، حين تميلُ بالميزان إلى جهةٍ واحدة، بالتوازن الرائع بين الجنس المتين والجنس المقتدر، بين القوّة والجمال، وتصنعُ هنا سيّداً وهناك خادمة، في حين أن هناك عبداً وملكة، خارج الزّواج. أما تَنْقيةُ السّرير، وصولاً إلى جعله عفيفاً، فهل نتصورُ أمراً أكثر فظاظةً منه؟ أفلا يُعتبر أمراً على درجةٍ كافية من الغباء، ألاّ يعود هناك أيُّ شرٍّ في التّحابِّ!

كان اللورد دافيد ينضج. فأربعون عاماً، هي ساعة تدقّ. ولم يكن ينتبه إلى ذلك. وقد كان يبدو في الثلاثين من عمره دوماً. في واقع الأمر. وكان يجد أكثر إمتاعاً أن يرغب في جوزيان من أن يمارس الحبّ معها. فقد كان متملّكاً لأخريات، كانت لديه نساء. وكان لجوزيان من جهتها أحلام.

وكانت الأحلام أسوأ.

كانت للدّوقة جوزيان هذه الميزة، والتي هي أقلّ ندرةً مما نظنّ، والتي هي أن إحدى عينيها زرقاء والأخرى سوداء. وكانت حدقتاها مصنوعتين من الحبّ والكراهية، من السّعادة والشّقاء. وكان النهارُ والليلُ مختلطين في نظرتها.

كان طموحُها هو التالي: أن تبدو قادرةً على المستحيل.

ذات يوم، كانت قد قالت لسويفت:

"أنتم تتخيّلون، أنتم الآخرين، بأن ازدراءكم موجود."

أنتم الآخرين، كان معناه الجنسُ البشريّ.

لقد كانت بابويّةً بصورةٍ سطحيّة. ولم تكن نزعتُها الكاثوليكية تتخطّى القدر الضّروري لأناقتها، كان ذلك من بوزيّة(١٢٥) اليوم. وقد كانت ترتدي فساتين خشنة من المخمل أو السّاتان، أو القماش المموّج. وبعض تلك الفساتين فضفاضٌ من خمسة عشر وستّة عشر أوناً(*)، وأغلفة قماشية ذهبيّة وفضيّة، وحول زنّارها الكثير من العقد يتراوح بين اللآلئ المتناوبة مع عقدٍ من الحجارة الكريمة. وكانت تُفرطُ في استخدام الشرّائط. وترتدي أحياناً سترةً من

(*) الأون هو قياس قديم للطّول يعادل ١,١٨٨م في باريس. (م: ز-ع).

جوخٍ مزركشةً بالقيطاني مثل تلميذ شاب. وتمضي ممتطيةً جواداً على سرج للرّجال، برغم ابتكار سروجٍ للنسّاء كانت قد أُدخلت إلى إنكلترا في القرن الرابع عشر على يد آنّا، زوجة ريشار الثاني. وكانت تغسلُ وجهها وذراعيها، وكتفيها، وجيدها بالسّكر المصفّى والمذاب في زلال البيض على الطريقة القشتاليّة. وكانت لها ضحكةٌ متفكرّة ذاتُ لطافةٍ فريدة، بعد أن يكون قد جرى كلامٌ فيه نباهة أمامها.

فضلاً عن ذلك، فليس لديها أيُّ خبث. فقد كانت طيِّبةَ القلب على الأرجح.

IV
MAGISTER ELEGANTIARUM(حَكَم الأناقة)

لا داعٍ للقول بأن جوزيان كانت تشعر بالسَّأم.

أما اللّورد دافيد ديْري – موار فقد كان له وضعٌ يليقُ بأستاذٍ في حياة لذن الفرحة. وكانت طبقةُ النبلاء والأشراف تجلاّنه.

لنسجل عملاً يفخر به اللّورد دافيد وهو: أنه كان يجرؤ على الظّهور بشعره؛ فقد بدأ ردُّ الفعل على الشعر المستعار. وكما في عام ١٨٢٤، فإن أوجين ديفيريا قد كان أوّل من تجرّأ على المخاطرة علناً، وتحت مواربة تجعيدٍ فنّي، بشعره الطبيعي. إن مخاطرة المرء بشعره، قد كان معناه تقريباً المخاطرة برأسه. كان السّخطُ شاملاً؛ ومع ذلك، فقد كان برايس ديفيرو فيكونت هيرفورد، وعضو مجلس لوردات إنكلترا. قد أُهين، والحقيقة أن الأمر كان يستحق العناء. وفي أوج الصّياح السّاخر، بدا اللّورد دافيد فجأة، بشعره، هو أيضاً، بلا شعرٍ مستعار. إن تلك الأشياء تنبئ بنهايةِ المجتمعات. وقد جرى التشنيعُ على اللّورد دافيد أكثر أيضاً مما جرى للفيكونت هيرفورد. وقد صمد لذلك؛ فلقد كان برايس ديفيرو هو أوّل من شُنّع عليه، وكان دافيد ديْري – موارهو الثاني. وأحياناً، يكون من الأصعب على المرء أن يكون الثاني من أن يكون الأوّل؛ فتلزم لذلك عبقريةٌ أقلّ. ولكن شجاعةٌ أكبر. فقد أمكن للأوّل، الذي كان منتشياً بالتجديد، أن يتجاهل الخطر. أما الثاني فيرى الهاوية، ويندفعُ إليها. وهذه الهاويةُ، التي هي ألاّ يعتمر شعراً مستعاراً بعد؛ فقد رمى دايفيد ديرّي – موار نفسه فيها. وفيما بعد، جرت محاكاتهما في ذلك. وتوفّرت، بعد هذين الثوريّيْن، الجرأةُ لكي يغطّي رأسه بشعره، ثم أتى مسحوقُ الزينة (البودرة)، باعتباره ظرفاً مخففاً.

لكي نحدّد بدقّة، دون أن نتوقّف، تلك اللحظةَ من التاريخ؛ فلنقلْ إنّ الأولويّة في الحرب على الشّعر المستعار تعودُ إلى ملكةٍ هي كرستين ملكة السّويد، التي كانت ترتدي ملابسَ الرّجال، وكانت قد ظهرت في عام ١٦٨٠ بشعرها الكستنائي الطبيعيّ المرشوش بمسحوقِ الزّينة، ومن غير أن تعتمر شيئاً على رأسها جديداً، وكما قال ميسّون، كان لها فضلاً عن ذلك، 'بعضُ الأوبار في ذقنها'.

أمّا البابا، من جهته، ومن خلال بيانه البابويّ المؤرّخ في آذار للعام ١٦٩٤، فقد حطّ قليلاً من شأنِ الشّعر المستعار، وذلك بنزعه عن رأس الأساقفة والكهنة، وبالأمر الذي وجّهه إلى رجال الكنيسة ليدعوا شعرهم ينمو.

لم يكن اللورد دافيد إذن يعتمرُ الشّعرَ المستعار، وكان يحتذي جزمةً من الجلد البقريّ.

كانت هذه الأمورُ الكبيرة ترشحّه لإعجاب الجمهور به؛ فما من نادٍ إلا وكان رئيسه، وما من مباراةِ ملاكمةٍ وإلاّ وتمنّوا أن يكون محكمًا فيها، والمحكمّ هو الحكم.

كان قد صاغ مواثيقَ بضعةِ أنديةٍ للترّف؛ وأقام مؤسّساتٍ للأناقة، ولا تزال إحداها موجودةً في بال - مال. وفي عام ١٧٧٢ واسمها: ليدي غينيا. وكان ليدي غينيا نادياً ترتاده بكثرةٍ كلّ الشبّيبة اللورديّة. وكانوا يقامرون فيه. وكان أقلّ رهانٍ هو لفافة من خمسين جنيهاً. ولم يكن فيه قطّ أقلّ من عشرين ألف جنيه على الطّاولة. وكانت تنتصب إلى جانب كلّ لاعبٍ منضدةٌ ليضع عليها الشاي، وصحيفةٌ خشبيةٌ مذهّبة توضع عليها لفافاتُ الجنيهات. وكان اللاّعبون، شأن الخدم حين يصقلون السّكاكين، يضعون أكماماً من الجلد تحمي مخرّماتهم، وواقياتٍ جلديّةً لحماية سحناتهم، وعلى رؤوسهم، لتقّي عيونهم، بسبب ضوء المصابيح الكبير، وتُبقي تجعيداتِ شعرهم مرتّبةً، وكانوا يعتمرون قبعاتٍ عريضةً من القش مغطّاة بالزّهور. كانوا مقنّعين لكي لا يُرى انفعالُهم، وخصوصاً في لعبةِ الخمس عشرة. وكانوا جميعاً يضعون ملابسهم بالمقلوب على ظهورهم، لكي يجتذبوا الحظّ.

كان اللورد دافيد عضواً في البيفستيك كلوب، وفي السّورلي كلوب، وفي السبليت – فارذينغ كلوب، وفي نادي البورّوس، ونادي الغرات – سو، ونادي نور – سيلّيه، ونادي السيلدكنوت، نادي الملكيّن، ونادي المار تينوس سكريبيل – روس، الذي أسّسه سويفت، بديلاً عن لاروتا الذي أسّسه ميلتون.

ومع أنه وسيمٌ، فقد كانَ عضواً في نادي القبيحين. وكان هذا النادي مُهدىً إلى الدّمامة. وكان يؤخذُ فيه التعهّدُ بالقتال، ليس من أجلِ امرأةٍ جميلة، بل من أجلِ رجلٍ دميم. وكان تزيينُ قاعةِ النادي يتمثّل بصورةٍ مقزّزة: لثيرسث، وتريبوليه، ودونز، وهوديبرا، وسكارّون. وعلى الموقد، كانت هناك صورةُ إيسوب، بين رجلين أعورين هما: كوكليس وكامويتس.

كان كوكليس أعورَ من العين اليسرى، وكامويتْس من العين اليمنى. وكان كلُّ واحد منحوتاً من النّاحية العوراء. وكان هذان الشكلان الجانبيان اللذان لا عيون لهما مصنوعين بصورةٍ متقابلة. وفي اليوم الذي أُصيبت فيه مدام فيزار بالجدري، شرب نادي القبيحين نخباً لها. وكان ذلك النادي لا يزال مزدهراً في القرن التاسع عشر. وكان قد أرسل شهادة عضو شرفٍ إلى ميرابو.

منذ إعادة تسنّم شارل الثاني العرش، كانت الأنديةُ الثّوريّةُ قد أُلغيت. وكان قد جرى، في الشارع الصّغير المجاور لمورفيلدز، تدميرُ الحانة التي كان يقيمُ فيها الكالفس هيد كلوب، نادي رأس العجل (تيت دوفو)، والذي سُميَّ كذلك لأنه في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٩، في اليوم الذي سال فيه على المقصلة دمُ شارل الأوّل، قد جرى فيه شربُ النبيذ الأحمر في جمجمةِ عجل على صحّة كرومويل.

أعقبت الأنديةَ الجمهوريّة الأنديةُ الملكيّة.

وكانوا يتسلّون فيها باحتشام.

كان هناك نادي تْشي رومبس (إنها تقصف). وكانوا يأخذون من الشّارعِ امرأةً ما، عابرة سبيل، من نساء المدينة (برجوازيّة) عجوزاً وقبيحةً على أقلّ قدر ممكن؛ ويجري دفعُها إلى النادي قســراً، وكانوا يجعلونها تسيرُ على يديها، وقدماها في الهواء، ووجهها مغطىً بتنانيرها المتهدّلة. فإذا قامت بذلك

كرهاً منها، ساطوا قليلاً ما لم يكن مغطىً منها بالسّوط. فالذّنبُ يكون ذنبها. وكان معلمّو الفروسية في هذا النوع من الترويض يدعون 'بالقفّازين'.

كان هناك نادي ديزيلكير (بروق) الحرّ، والذي يُدعى مجازاً ميري – دانسز.

وكانوا يجعلون زنوجاً ونساءً بيضاوات يرقصون فيه رقصاتِ البيكانت والتيمتيريمباس البيروفية، وخصوصاً الموزامبالا، 'الفتاة السّيئة'، وهي رقصةٌ يكون الفخرُ فيها للرّاقصة التي، إذا ما جلست على كومة نخالة، تترك فيها، حين تنهض، أثراً يدلّ على جمالِ المؤخّرة. وكانوا يسترعون انتباه النظارة ببيت شعري للوكريس:

Tunc venus in sylvis jungebat corpora amantum (١٢٧).

وكان هناك الهيلفاير كلوب 'نادي اللهب' الذي كانوا يلعبون فيه لعبةَ الكافر.

وكانت تجري فيه مناظرةٌ خارقي القدسيّات، وكان الجحيم فيه مزاداً لأكبر تجديفٍ ممكن.

وكان هناك كلوب دي كو دوتيت (نادي ضربات الرأس)، وقد سُمّي هكذا لأنه كانت تُوجَّه فيه للناس ضرباتٌ رأس، وكانوا يتجرّؤون على حمّالٍ عريض الصّدر، وذي هيئة معتوهة. ويقدّمون إليه ملء وعاء من البيرة المسكرة (البوتر)، ويرغمونه عند الاقتضاء، على أن يسمح لهم بأن يوجهوا أربعَ ضرباتٍ من الرأس إلى صدره. وكانوا يتراهنون على ذلك. وذات مرّة، قضى أحد الرّجال، وهو إنسانٌ فظٌّ ضخمٌ من بلاد الغال يُدعى غوغا نجيرد، وذلك عند ضربةِ الرأس الثالثةَ. وقد بدا ذلك أمراً خطيراً. فكان هناك تحقيقٌ، فأصدرت هيئةٌ محلّفي الاتّهام هذا القرار: 'موت بانتفاخٍ قلبيّ من جرّاء إفراطٍ في الشرّب'.

وكان غوغا نجيرد قد شرب فعلاً إناء البيرة الثقيلة.

كان هناك الفان كلوب: fun Club؛ وFun[*] شأن كلمة Cant وشأن كلمة humour[**] هي كلمة لا تُترجم والـــ fun بالنسبة لتمثيليةِ التّهريج مثل الفلفل الحلو بالنسبة للملح؛ فولوجُ منزلٍ، وتحطيمُ زجاجٍ غالي الثمن فيه، وشجُّ صور العائلة، وتسميمُ الكلب، ووضعُ القطّ في المطيَرة، هذا يسمّى "تفصيلُ قطعةٍ من الفكاهة". أما إعطاءُ خبرٍ كاذب، وسيّئ يجعلُ الأشخاصَ يقيمون الحدادَ خطأً، فهذا فاكهةٌ فيها دعابة. وفاكهةُ الدّعابة هي التي صنعت ثقباً مربّعاً في صورةٍ للمصوّر هو لبين، في هامبتون - كورت. وقد تكون فكاهةُ الدّعابة مزهوةً إذا ما كانت هي التي كسرت ذراعي فينوس ميلو. وفي عهد جاك الثاني، جعل لوردٌ شابٌ وميليونير لندن تقهقه. وحين أشعلَ النّار ليلاً بكوخٍ من القشّ، فنودي به ملكاً لفكاهة الدعابة: Roi dufun. وكانِ الناسُ المساكين في الكوخ قد هربوا بقميصهم، وأعضاءُ الفان - كلوب، وكلّهم من الطبقة الأرستقراطيّة العليا، يركضون في لندن في السّاعة التي ينامُ فيها البورجوازيّون، وينتزعون المفصّلات من المصاريع، ويقطعون قساطلَ المضخّات، ويبعجون الصّهاريج، ويُنزلون لافتات المحلاّت، ويخرّبون الزّراعات، ويطفئون المصابيح، وينشرون عوارضَ تدعيم المنازل، ويكسرون ألواحَ النوافذ الزّجاجيّة، وخاصّةً في الأحياء المعوزة. كان الأغنياء هم الذين يفعلون ذلك بالبؤساء. لهذا السبب لم تكن هناك أيّةُ شكوى ممكنة. فضلاً عن أن ذلك كان شيئاً من الهزل. وهذه التقاليدُ لم تختفِ تماماً. وفي نقاطٍ مختلفة من إنكلترا، أو في ممتلكاتٍ انكليزية، في غير نيزيه مثلاً، ومن وقتٍ لوقت، يتلفون بيتك بعضَ الشّيء في الليل، ويحطمّون لك سياجاً، وينتزعون مقرعةَ بابك. ولو كان من يفعلون ذلك فقراء، لأرسلوهم إلى سجنِ الأشغال الشّاقة. ولكنهم فتيانٌ لطفاء.

كان يرئس أكثر الأنديّة تميّزاً إمبراطورٌ يضعُ هلالاً على جبينه وكان يُسمّى "الموهوك الكبير". والموهوك كان يتخطّى فكاهة الدّعابة: Fun. فالقيامُ

(*) هي كلمة تقع بين التّسليّة والدّعابة المضحكة (م: ز.ع).

(**) بين الفكاهة والدّعابة أيضاً (م: ز.ع).

بالشرّ من أجل الشرّ ذلك كان برنامجه. كان لنادي الموهوك هذا الهدف العظيم: الإضرار. ولإتمام هذه المهمّة، كانت كلُّ الوسائط صالحة. وحين يصبح المرءُ موهوك، كان يقسمُ بأن يكون ضاراً. الضّرر بأيّ ثمن، وفي أيّ وقت، وبأيّ شخص، وبأيّة طريقة، كان ذلك هو الواجب. وكان يتعيّن على أيّ عضو في نادي الموهوك أن تكون له موهبة. فكان أحدهم "مدرّباً للرّقص"، أي أنه كان يجعلُ القرويين الأفظاظ ينطوّن، وذلك بأن يُنفذَ ربلةَ سيقانهم بسيفه. وكان آخرون يحسنون "جعلَ الناس يتصببّون عرقاً" أي أن يرتجلوا حول إنسانٍ تافه أيًّا كان دائرةً من ستّة نبلاء أو ثمانية، والسّيف الحادّ (المِغول) بيدهم، وبما أنه كان محاطاً من كلّ الجهات، فقد كان من المتعذّر على الإنسان التّافه ألا يدير ظهره لأحدهم، والنبيلُ الذي كان الرّجلُ يبدي له ظهره كان يعاقِبه بضربةٍ من رأس السّيف تجعله يستدير على رجلٍ واحدة. وكانت ضربةٌ جديدة من رأس السّيف في حقوه تُخطر هذا الشّخص بأن نبيلاً موجودٌ خلفه، وهكذا دواليك؛ فقد كان كلٌّ منهم يخزه بدوره، وحين يكونُ الرّجلُ، المحبوسُ في دائرة السّيوف هذه، والمضرّجُ تماماً بدمه، قد دار ورقص بما يكفي، يجعلونه يُضربُ بالعصيّ على يد الخدم لتغيير مجرى أفكاره. وكان آخرون "يخبطون الأسد"، أي يوقفون عابرَ سبيل وهم يضحكون، ويسحقون أنفه بلكمة، ويغرزون إبهاميهم في عينيه. وإذا ما فُقئت عيناه، كانوا يدفعون له مقابلاً لهما.

كانت تلك هي التّسليات الخفيفة، تسلياتِ الأثرياء البطّالين في لندن، في بداية القرن الثامن عشر. وكان لبطّالي باريس تسلياتٌ أخرى؛ فكان السّيد شاروليه يطلقُ طلقةً من بندقيته على بورجوازيّ، على عتبة بيته.

فقد مارست الشبَيبةُ اللّهو دائماً.

كان اللورد دافيد ديّري – موار يُسهمُ بفكره الرائع والمتحرّر في مؤسّسات المتعة المتعدّدة تلك. وشأن أيّ شخص آخر، كان يُشعلُ بمرحٍ كوخاً من القشّ والخشب، وكان يشيّط قليلاً أولئك الذين كانوا في داخلها، بل كان يُعيدُ بناء منزلهم من الحجارة. وقد حدث له أنه جعل امرأتين ترقصان على

أيديهما في نادي شي رامبز كلوب (إنّها تقصف). وكانت الأولى فتاة، وقد أمهرها، وكانت الثانية متزوجة. فعيّن زوجها كاهناً في كنيسةٍ خاصّة.

لقد دانت معاركُ الدّيوك له بتحسينات تستحقّ الثناء. فقد كان شيئاً رائعاً أن يرى المرءُ اللورد دافيد وهوٍ يُلبس ديكاً من أجل المعركة؛ فالدّيوكُ تتماسك بالرّيش كما يتماسك الناس بالشّعر. وهكذا، فقد كان اللورد دافيد. يجعلُ ديكه أصلعاً بقدر الإمكان. وكان يقطعُ له بالمقصّ كلّ ريش الذيل، ومن الرأس إلى الكتفين، وكلّ ريش الرقبة. "أقلّ قدرٍ من الرّيش بالنسبة لمنقار العدوّ"، هكذا كان يقول. ثم يُبسطُ جناحيّ ديكه، ويبري بشكلٍ حادّ كلّ ريشةٍ، الواحدةَ بعد الأخرى. وكان ذلك يجعلُ الجناحين مجهّزين بحراب، وكان يقول: "هذه من أجل عينيّ العدوّ". ثم أنه كان يحكُّ القائمتين بمدية، ويشحذ مخالبه، ويعشّق له في شوكته الرئيسة مهمازاً فولاذيّاً حادّاً وقاطعاً، ويبصقُ على رأسه، ويبصقُ على عنقه، ويطليه باللّعاب، مثلما كانوا يفركون الرّياضي بالزّيت، ويفلته وقد أصبح رهيباً، وهو يهتفُ: "هاكم الطّريقة التي نصنع بها نسراً من ديك، والتي يغدو بها حيوانُ القنّ حيواناً جبليّاً!"

كان اللورد دافيد يحضر مباريات الملاكمة، وكان قاعدتها الحيّة. وفي مناسبات الأداء الكبرى(١٢٨)، كان هو من يأمرُ بغرسِ الأوتاد وشدّ الحبال، والذي كان يحدّد عددَ مقاييس الأقدام الستّة التي يقاس بها مربّعُ الصّراع. وحين يكون معاوناً، يتابعُ خطوةً خطوةً ملاكِمه، وهو يحملُ زجاجةً بيد، وإسفنجةً بالأخرى، ويصيح به: Strike fair[*]، ويشير إليه بالحيل، وينصحه وهو يقاتل، ويمسحه وهو مضرّج بدمائه، ويلتقطه حين ينقلب، ويمسكه على ركبتيه، ويضعُ المطرة بين أسنانه، وبفمه ذاته المليء بالماء ينفخُ له على عينيه، وفي أذنيه بمطرٍ ناعم، وهذا ما ينعشُ المحتضر. وحين يكون حكماً، كان يسهرُ على مشروعيّة الضربات، ويحظر على أيّ شخصٍ كان، ماعدا المعاونين، أن يساعد المتصارعين، ويعلنُ هزيمة البطل الذي لا يتّخذ مكاناً له بمواجهة الخصم، ويحرصُ على ألا يتخطّى زمنُ الدّورات(١٢٩) نصفَ

(*) أي: اضربْ بشدّة.

دقيقة، ويحولُ دون النطحات(١٣٠)، ويخطّئ من يلطمُ برأسه، ويمنعُ ضربَ الرّجلِ الذي يسقط على الأرض. وكان كلُّ ذلك العلم لا يجعله إطلاقاً مدّعياً، ولا ينزع شيئاً من سلاسته مع الناس.

ولا يجيز الشركاءُ المسمرّون والمليئون بالبثور، والكثيفو الشّعر لأنفسهم، شركاءُ هذا الملاكم أو ذاك، حين يكونُ محكماً، أن يأتوا لمعونة ملاكميهم الخائري القوى، وأن يقلبوا ميزان المراهنات، ويمرّوا من فوق الحبال، ويدخلوا إلى الحلبة المسوّرة، ويحطمّوا الحبال، وينتزعوا الأوتاد، ويتدخّلوا بعنف في المعركة. وكان اللورد دافيد من ذلك العدد القليل من المحكميّن الذي لا يجرؤون على ضربه بشدّة.

لم يكن أحدٌ يدربّ مثله. والملاكمُ الذي كان يوافق على أن يتدرّب على يديه كان واثقاً من الانتصار. كان اللّورد دافيد يختارُ رجلاً هرقليَّ البنية، وضخماً مثل صخرة، وطويلَ القامة مثل برج، ويصنعُ منه ابناً له. أما الانتقالُ من الحالة الدّفاعية إلى الحالة الهجوميّة، والذي هو عثرة بشريّة، فتلك هي المشكلة. وكان يبرعُ في ذلك. فما إن يتبنّى ذلك العملاقَ (السّكلوب) حتى لا يعود يتركه، ويصبح مربيّاً له. كان يكيلُ له النبيذ، ويزنُ له اللحم، ويحسبُ له النوم. وكان هو الذي ابتكر ذلك النظامَ الرائع، نظامَ الرّياضي، والذي جدّده موروليه بعد ذلك؛ ففي الصّباح بيضةٌ نيئة، وقدحٌ من الشيّري، وعند الظهيرة لحمُ فخذِ الخروف المضهّب والشّاي، وفي السّاعة الرّابعة الخبزُ المحمّصُ والشّاي، وبعد ذلك، كان ينزعُ ملابسُ الرّجل، ويدلّكهُ ويُرقّده. وفي الشارع لم يكن يجعله يضيعُ عن ناظره، ويُبعد عنه كلَّ المخاطر، الخيولَ الهاربة، وعجلاتِ العربات، والجنودَ السّكارى، والفتياتِ الجميلات. كان يسهر على فضيلته. وكان هذا الاهتمامُ الأموميّ يجلبُ باستمرار بعضَ التحسين الجديد إلى تربيةِ الرّبيب.

كان يعلّمه اللكمةَ التي تكسرُ الأسنان، وضربةَ الإبهام التي تجعل العين تنبجس، فما من شيء مؤثّرٌ أكثر منها.

كان يتهيأ على ذلك النحوّ للحياة السياسيّة التي كان مقدّراً فيما بعد أن يُدعى إليها؛ فليست مسألةً بسيطةً أن يصبح المرءُ نبيلاً كاملاً.

كان اللورد دافيد نيرّي - موار يحبُّ بشغفٍ عروضَ ملتقيات الطرّق، ومسارحَ الاستعراض، وسيركات الحيوانات المثيرة للفضول، وتخشيبات المشعبذين، والمهرجين، وخدمَ الملاهي المرتجلة، والبهلوانات، وتمثيليات التّهريج في العراء، والمؤديّن الخارقين في المعرض(١٣١). إن السّيد الإقطاعي الحقيقيّ هو الذي يستحسنُ رجلَ الشّعب وهذا هو السّبب في أن اللّورد دافيد كان يتردّد إلى الحانات وإلى قاعات المعجزات، قاعات لندن وسانك - بور (الموانئ الخمسة)، حتى يتمكّن عند الحاجة، من غير أن يخاطر بمركزه في الأسطول الأبيض، أن يمسك بخناق نوتيٍّ أو جلفاط(*). وكان يرتدي حين يذهب إلى تلك الأحياء البائسة، سترةَ بحّار. بالنسبة لهذه التغييرات، كان عدمُ اعتمار الشّعر المستعار مريحاً له؛ لأن الشّعب، وحتى في عهد لويس الرابع عشر، كان يحتفظ بشعره، كما يحتفظُ الأسد بلبدته. ولقد كان متحرراً، وعلى تلك النّحو. إن الناس البسطاءَ الذين يلتقيهم اللورد في تلك الجمهرات التي يختلطُ بها، كانوا يقدّرونه تقديراً عالياً، ولم يكونوا يعرفون أنه لورد. وكانوا يدعونه بتوم - جيم - جاك. وتحت هذا الاسم، كان شعبيّاً، وشهيراً جدّاً بين هؤلاء الأوغاد.

وكان يعاشرُ الأوباش كسيّد. وعند الاقتضاء، كان يشتركُ في معركة للّكم والرّكل. وكان ذلك الجانبُ من حياته الأنيقة معروفاً، وتثمّنه جيداً الليدي جوزيان.

(*) من يدهن شقوق السّفن بالزّفت.. إلخ.... (م: ز.ع).

V

الملكة آنّا

I

فوق ذلك الثُّنائيّ، كانت هناك آنّا، ملكةُ إنكلترا.

كانت أوّلَ امرأةٍ وصلت هي الملكة آنّا. كانت مرحةً، وبشوشةً ووقورةً تقريباً.

لم تكن أيٌّ من صفاتها تبلغُ الفضيلة، ولم يكن أيُّ نقصٍ فيها يبلغُ الشرّ. كانت بدانتُها منتفخةً، ومكرُها غليظاً، وطيبتُها غبيّة. كانت متصلّبةً ورخوة. وكزوجة، كانت غير مخلصةٍ ومخلصة، ولديها محظيّون تسلمّهم قلبها، وشريكٌ كانت تحتفظ له بسريرها. وكمسيحيّة، كانت هرطوقيّةً ومتزمّتة، وكان لها جمالٌ معيّن، وجيدٌ متين مثل نيوبيه(*). أما بقيةُ شخصها فقلّما كان موفّقاً. كانت ذاتَ دلال على نحوٍ أخرق، وبصورةٍ مهذّبة. وكانت بشرتُها بيضاءَ وناعمة، وتظهرها للعيان كثيراً. ومن عندها إنّما أتت دُرجةُ العقد، عقدِ اللآلئ الكبيرة المشدودة إلى العنق. كان جبينُها ضيّقاً، وشفتاها شهوانيّتين، وخدّاها لحيمين، وعينُها واسعة، ونظرتُها خفيضة. وكان قصرٌ بصرها يمتدّ إلى فكرها. وعدا هذا وذاك، فقد كان ألقُ جذلها مبهظٌ بقدر غضبها تقريباً، وتعيشُ في نوعٍ من التعنيفِ السّاكت والصّمت المتذمّر. وكانت تُفلتُ منها كلماتٌ ينبغي للمرء أن يخمّنها. لقد كانت خليطاً من امرأة طيّبة وشيطانة شريرة. كانت تحبّ غير المتوقّع، والذي هو أمرٌ أنثويّ بعمق. كانت آنّا عيّنة مشذّبةً بصعوبةٍ للحوّاء

(*) الملكة الأسطورية الباكية ملكة فريجيا التي تحولت إلى تمثالٍ باكٍ بعد مقتل أبنائها وبناتها (م: ز.ع).

الشّاملة. وقد وقعت في هذه الصّورة الإجمالية تلك المصادفةُ والتي هي العرش. كانت تشرب. وكان زوجُها دانمركياً في أصله. وبما أنها توريّة(*) فقد كانت تحكم من خلال الهويغيين(**)، وكامرأة، كانت تحكم كمجنونة. كانت لها نوباتُ غضب. وكانت ضجّاجة. وما من شخصٍ أكثر خرقاً منها في تداول شؤون الدّولة. كانت تدعُ الأحداث تمرّ دون اهتمام. وكانت سياستها مصدّعة كلّها. وتبدعُ في أن تصنع من الأسباب الصّغيرة كوارث ضخمة. وحين تصيبُها نزوةٌ سلطوية، كانت تسمّي ذلك: تسعير النار.

كانت تقول بمظهر يدلُّ على التفكّر العميق كلمات كالتّالية: "لا يمكن لعضوِ مجلس اللّوردات أن يحتفظ بغطاء رأسه أمام الملك، باستثناء كورسي، بارون كينساك، ولورد إيرلندا" وتقول: سيكون من التعسّف ألاّ يكون زوجي لورداً – أميرالاً، والدي كان كذلك." وقد جعلت من جورج الدانمرك أميرالاً سامياً لإنكلترا، "ولكافّة مستعمرات جلالتها". لقد كانت باستمرار تتصبّبُ عرقاً بسبب سوء مزاجها. لم تكن تعبّر عن أفكارها، كانت تتضحُ بها. ففي تلك الإوزة كان هناك شيء من غموض أبي الهول.

لم تكن تكرهُ المرحَ، والهزلَ المعذّب والعدائي. فلو أمكنها أن تجعل من أبولون أحدب، لكان ذلك أمراً يفرحها. غير أنها تركته إلهاً. وبما أنها طيّبةُ القلب؛ فقد كان مثلها ألاّ تثبّط همة أحد، وأن تضايق كلّ الناس. وغالباً ما كان كلامُها فجاً وأكثر من ذلك بقليل. فقد كان يمكن أن تجدّف، شأن إليزابيث. ومن وقتٍ لآخر، كانت تأخذ من جيبٍ رجّالي موجود في تنّورتها علبةً صغيرة دائريةً من الفضّة المطرّقة، وعليها صورتها الجانبية بين حرفين: Q.A (أي الملكة آنّا) وكانت تفتح تلك العلبة، وتسحب منها بطرف إصبعها قليلاً من مرهم تحمّر به شفتيها. حينئذٍ وبعد أن ترتّب فمها، كانت تضحك. وكانت ترغب كثيراً بخبز الأبازير المسطحّ الزيلندي، وكانت فخورةً بأنّها سمينة.

(*) توريّة: أي من أنصار الملكية، واليوم تقابل نصيرة حزب المحافظين (م: ز.ع)

(**) الهويغيون: أنصار الإصلاح، ويدعون اليوم بالأحرار (م: ز.ع).

وإذْ كانت طهريّةً أكثر من أيّ شيء آخر، فقد كان يمكن لها مع ذلك أن تؤمن بالاستعراضات بطيبة خاطر، فكانت لديها رغبةٌ متردّدة لإقامة معهدٍ عالٍ للموسيقا هو نسخة عن معهد فرنسا. وفي عام ١٧٠٠، أراد فرنسيٌّ يُدعى فورتروش أن يبني في باريس "سيركاً ملكيّاً" يكلّف أربع مئة ألف ليرة، وقد عارضه دارجانسون؛ فانتقل هذا المدعوّ فورتروش إلى إنكلترا، وعرض على الملكة آنا التي فُتنت بذلك للحظةٍ من الزمن، فكرةَ بناء مسرحٍ ذي آلات في لندن، أجملَ من مسرح فرنسا، ففيه قسمٌ رابعٌ أسفل. وشأن لويس الرابع عشر، كانت تحبّ أن تسيرَ عربتُها سيراً سريعاً (عدْواً). وكانت حيواناتُها المقرونة وأبدالُها تقطع أحياناً المسافةَ بين ويندسور ولندن في أقلّ من خمسة أرباع السّاعة.

II

في عهدِ آنّا، ما من اجتماعٍ من غير موافقةِ قاضيي صلح. إن اثني عشر شخصاً متجمّعين يُعتبرون في حالةِ عصيان، حتى وإن كان ذلك ليأكلوا المحار، أو ليشربوا البورتر (وهي بيرة انكليزية ثقيلة) (*).

في ذلك العهد الملكيّ، الذي كان مع ذلك سمحاً نسبياً، جرى التجنيدُ من أجل الأسطول بغاية العنف؛ وهذا دليلٌ قائمٌ على أن الانكليزي تابعٌ أكثر مما هو مواطن؛ فمنذ قرون وملك إنكلترا يتصرّفُ بطريقةٍ استبداديّة تُنكرُ كلَّ مواثيق الإعفاء القديمة والتي تفوّقت بها فرنسا خصوصاً فاغتاظت منها. إن ما يقلّل من شأن هذا الظفر قليلاً هو أنه كان هناك في فرنسا تجنيدٌ للعسكر، مقابل تجنيدِ البحّارة في إنكلترا. ففي كلّ مدن فرنسا الكبرى، كان كلُّ رجلٍ سليم البنية يسيرُ في الشّوارع لقضاء حاجاته معرّضاً ليسوقه محترفو التجنيد إلى منزل يدعى الفرن. وهناك كان يُحشرُ بلا نظام مع آخرين. وكانوا ينتقون أولئك الذين يصلحون للخدمة، وكان المجندون يبيعون هؤلاء المارّة إلى الضبّاط. وفي عام ١٦٩٥، كان في باريس ثلاثون فرناً.

كانت التشريعات ضدّ إيرلندا والصّادرة عن الملكة آنّا تشريعاتٍ فظيعة.

كانت آنّا قد ولدت في عام ١٦٦٤، أي قبل عامين من حريق إنكلترا الذي كان المنجّمون (وكان لا يزال هناك عددٌ منهم، والشاهدُ على ذلك لويس الرابع عشر، الذي وُلد بمساعدةِ منجّم، وتقمّط بطالعٍ ملكيّ) قد تنبؤوا بأنها "شقيقة النار الكبرى"، وستكونُ ملكة. وكانت كذلك. بفضل التنجيم، وثورة عام ١٦٨٨. وكانت تشعرُ بالمهانة لأنه لم يكن لها عرّابٌ سوى جيلبير، بطريرك

(*) الإيضاح بين قوسين من المترجم (ز.ع).

كانتوربري فلم يعدْ ممكناً أن تكون ابنةً بالمعمودية للبابا في إنكلترا. إن كبيرَ أساقفة بسيطاً هو عرّابٌ متواضعٌ، وقد توجّب على آنا أن تكتفي بذلك. كان الخطأُ خطأها. فلماذا كانت بروتستانتيّة؟

كانت الدانمرك قد دفعت ثمن بتوليّتها Virginita empta، كما تقول المواثيق القديمة، مهراً مؤجّلاً قدْره ستة آلاف ومائتين وخمسين ليرة إسترلينيّة كريع، تؤخذ من محكمة فاردنبورغ الإقطاعية ومن جزيرة فيمارن.

كانت آنا تتبعُ، عن غير قناعةٍ منها وبصورةٍ نمطيّة، تقاليد غليوم. إن الإنكليز، في عهود تلك الملكية التي ولدت من ثورة، كان لديهم كلّ مساحة الحرّية بين برج لندن الذي كان يوضع فيه الخطيب، وعمود التعذيب الذي كان يوضعُ فيه الكاتب. كانت آنّا تتكلّم الدنمركيّة قليلاً، في محادثاتها الانفرادية مع زوجها، وقليلاً من الفرنسيّة في محادثاتها الانفراديّة مع بولينغبروك. إنها رطانةٌ صرفةٌ، إنّما كانت الدُّرجةُ الإنكليزية، في البلاط خصوصاً، أن يجري الكلامُ بالفرنسيّة. ولم تكن هناك كلمةٌ طيبة إلاّ بالفرنسيّة. كانت آنّا تهتمّ بالعملات، وخصوصاً العملات النحاسيّة والتي هي العملاتُ الخسيسةُ والشعبيّة، وتريد أن تقومَ بدورٍ مهمّ كبير فيها. إن ستة فارذنغات(*) قد صُكّت في عهدها الملكيّ. وعلى قفا الثلاثة الأولى، أمرت بوضع عرشٍ ببساطة، وعلى قفا الرابع منها شاءت أن تضع عربةَ نصر، وعلى قفا السّادس منها، وضعت إلهةً تمسك سيفاً بإحدى يديها، وباليد الأخرى شجرة الزيتون مع كتابةٍ منقوشة هي: Bello et pace (جميل وهادئ مسالم). وبما أنها ابنة جاك الثاني الذي كان سليم النيّة وشرساً، فقد كانت فظّة.

في الوقت عينه. كانت رقيقةً في أعماقها. وهذا تناقضٌ ليس إلاّ تناقضاً ظاهريّاً، فقد كان نوبةُ غضبٍ تحوّلها. فلتسخّن السّكر، ولسوف يغلي.

(*) الفارذينغ يعادل ربع بنس (م: ز.ع).

كانت آنا شعبيّة. وإنكلترا تحبّ النسّاء الجالسات على العرش. فلماذا؟ إن فرنسا تطردهن. هذا هو أحد الأسباب المتوفرة. ولربّما لا يكونُ هناك سببٌ آخر إطلاقاً. في نظر المؤرخين الإنكليز. إن إليزابيت هي العظمة، وآنا هي الطّيبة. كما يشاؤون، فليكن الأمر كذلك. غير أنه ما من شيء مرهف في عهود حكم هؤلاء النسّاء. فسلالتهن ثقيلة، وعظمتُهن فظّة، وطيبتُهن فظّة. أما عن فضيلتهن النّاصعة؛ فإن إنكلترا تحرصُ عليها. ونحن لا نعترض عليها. إن إليزابيت عذراء يلطفّها إيسكس، وآنا زوجةٌ يعقّد أمورها بولنغبروك.

III

ثمّة عادةٌ حمقاء تألفُها الشّعوب، وهي أن تنسبَ إلى الملك ما تصنعُه هذه الشّعوب. إنها تقاتلُ، فلمن يكون المجد؟ إنها تدفعُ الثمن؛ فمن هو الرائع؟ الملك. والشّعب يريد أن يكون الملكُ شديدَ الثراء. إن الملك يتلقّى من الفقراء ريالاً ويعيدُ إلى الفقراء فلساً. فكم هو كريم! إن قاعدة التمثال الجبارة تتأمّل القزم الذي تحمله. فكم هو طويلُ القامة هذا القزم! إنّه على ظهري، ولدى القزم وسيلةٌ ممتازةٌ ليكون أعلى من عملاق، وهي أن يجثم على كتفيه. أمّا أن يقبل العملاقُ ذلك، فهذا هو الأمرُ الغريب، وأن يُبدي إعجابَه بعظمة القزم، فهذا هو الغباء. وهذه هي السّذاجة البشريّة.

إن تمثالَ الخيّال، المخصّص للملوك وحدهم، يصوّر الملكية على نحوٍ جيّد جداً؛ فالحصانُ هو الشعب. إلاّ أن هذا الحصان يتحوّل ببطء؛ فيكون في البداية حماراً، وفي النهاية سبعاً. حينئذٍ يُلقي بخيّاله على الأرض، ولدينا مثال عام ١٦٤٢ في إنكلترا، وعام ١٧٨٩ في فرنسا، وأحياناً يفترسه، ولدينا مثال ١٦٤٩ في إنكلترا، وعام ١٧٩٣ في فرنسا.

أما أن ينقلب السّبعُ مجدّداً إلى حمار، فهذا ما يدعو إلى الدّهشة، غير أن هذا أمرٌ وارد. وكان يُشاهدُ في إنكلترا. فجرت استعادةٌ بردعةِ عبادةِ الملكيّة. لقد كانت الملكة آنّا، كما قلنا منذ قليل، شعبيّةً. فماذا كانت تفعل من أجل ذلك؟ لا شيء. لا شيء. وهذا كلّ ما يُطلب من ملك إنكلترا. إنه يحصلُ من أجل هذا اللاّشيء على ثلاثين مليوناً في العام. وفي عام ١٧٠٥، فإن إنكلترا التي لم يكن لديها سوى ثلاث عشرة سفينة حربيّة في عهد إليزابيت،

وست وثلاثين سفينة في عهد جاك الأوّل، قد أصبح لديها مئة وخمسون سفينة. كان لدى الإنكليز ثلاثةُ جيوش، وخمسةُ آلاف رجلٍ في كاتالونيا، وعشرة آلاف في البرتغال. وخمسون ألفاً في الفلاندر، وفضلاً عن ذلك، فقد كانوا يدفعون أربعين مليوناً في العام لأوروبا الملكية والدبلوماسيّة، والتي هي ضربٌ من عاهرةٍ طالما أنفق عليها الشعبُ الإنكليزيّ. وبما أن مجلس اللوردات قد صوّت على قرضٍ وطنيّ قدرُه أربعة وثلاثين مليوناً من الإيرادات مدى الحياة، فقد كان هناك حملةٌ ماليّة للاكتتاب فيها. وكانت إنكلترا ترسل أسطولاً إلى الهند الشرقية، وأسطولاً إلى سواحل إسبانيا مع الأميرال ليك، دون حسابٍ احتياطيّ لوقت الحاجة مؤلّفٍ من أربعمئة سفينةٍ شراعية تحت إمرة الأميرال شوويل. كانت إنكلترا قد دمجت بها اسكوتلندا منذ قليل. وكان الزّمنُ حينذاك بين هوشستات وراميّي[*]. وكان أحدُ هذين الانتصارين يجعلُ المرءَ يستشفُّ الانتصار الآخر. وكانت إنكلترا، من خلال هذا الفوز، فوز هوشستات، قد أسرت سبع وعشرين كتيبة، وأربعة فيالق من الخيّالة، واقتطعت مئة فرسخٍ من أراضي فرنسا، التي تقهقرت من الدّانوب إلى الرّين. كانت إنكلترا تمدُّيدها باتجاه سردينيا والباليار. وقد ساقت إلى موانئها ظافرةً عشرَ سفنٍ إسبانية حربيّة. وعدداً كبيراً من سفن الغليون الشراعيّة المحمّلة بالذهب. إن جون ومضيق هدسون كان قد تخلّى عنهما جزئياً لويس الرابع عشر، وكان هناك شعورٌ بأنه سوف يتخلّىّ عن أركاديا، وسان كريستوف وتيرنوف أيضاً، وأنه سيكون بالغَ السّعادة إذا ما تساهلت إنكلترا مع ملك فرنسا في الرأس البروتاني ليقوم بصيد الغائس. ولسوف تفرضُ عليه إنكلترا ذلك الخزي، خزي تدميرِ تحصيناتِ دانكرك بنفسه. وبانتظار ذلك، كانت قد استولت على جبل طارق واستولت على برشلونة. فكم من الأشياء العظيمة قد تحقّق! وكيف لا يعجبُ المرءُ بالملكة آنّا التي كانت تتحمّلُ مشقّةَ العيش في ذلك الزّمن؟

(*) حدثت في هذين المكانين معارك عديدة (م: ز. ع).

من وجهة نظرٍ معيّنة، يبدو عهدُ آنّا الملكيّ انعكاساً لعهد لويس الرابع عشر الملكيّ. فآنّا، التي كانت في فترةٍ ما موازيةً لذلك الملك في ذلك اللقاء الذي ندعوه التاريخ، كان لديها تشابهُ انعكاسيٌّ مبهمٌ معه. وهي تراهنُ مثله على وجودِ عهد عظيم. فلديها أوابدها، وفنونُها، وانتصاراتُها، وقادتُها، وأنبياؤها، وخزينتُها التي تُجري معاشاتٍ على أصحاب الشّهرة، وقاعةُ روائعها الفنّية التي تجاور جلالتها. إن بلاطها، الخاصّ بها أيضاً، يواكبُ ذلك، وله مظهرٌ ظافرٌ، ونظامٌ وسيرٌ معيّن. إنه صورةٌ مصغّرة عن كلّ أولئك الرّجال العظام في فرساي، الذي لم يكونوا بعد رجالاً جدّ عظماء. إن الخداعَ البصريّ موجودٌ فيه؛ فلنضفْ إليه God Save The Queen. (ليحفظْ اللهُ الملكة) والذي أمكن أن يكون قد أُخذ منذ ذلك الحين عن لوليّ(*) فيحقّق كلّ هذا إيهاماً. فما من شخصيّةٍ تنقصنه؛ فكريستوف فرين هو ما منسار جدّ مقبول؛ وسوميرز يعادل لاموانيون. ولدى آنّا راسين الذي هو دريدن، وبوالو الذي هو بوب، وكولبير الذي هو غودولفان، ولوفوا الذي هو بمبروك، وتورين الذي هو مارلبورو. وينبغي مع ذلك تكبيرُ الشّعر المستعار، وتصغيرُ الجباه. إن كلّ شيء احتفاليٌّ وباذخ. ولويندسور، في تلك الفترة، مظهرٌ زائف تقريباً لمارلي. ومع ذلك؛ فكلّ شيء أنثويّ، والأب تيلييه، أب آنّا يدعى سارةَ جينينغز(١٣٢). فضلاً عن هذا، فإن بدايةً للسّخرية، والتي ستصبحُ الفلسفةَ بعد خمسين عاماً، ترتسمُ بخطوطها الأولى في الأدب، ويُكشَفُ القناعُ عن التّارتوف(**) البروتستانتي على يد سويفت، كما كان التارتوف الكاثوليكي قد أُزيل عنه القناعُ على يد موليير. ومع أن إنكلترا في ذلك الزّمن تخاصمُ وتقاتلُ فرنسا، فهي تقلّدُها، وتستنيرُ بها، وما هو على واجهة إنكلترا، هو النور الفرنسيّ. ومن المؤسف ألاّ يكون عهدُ آنّا الملكي قد دام إلاّ اثني عشر عاماً، والذي من دونه لن يتمنّعوا كثيراً ليقولوا إنه قرنُ آنا، كما نقول قرن لويس الرابع عشر. إن آنا تظهر عام ١٧٠٢ حين يؤول لويس الرابع عشر

(*) موسيقيٌّ إيطالي عاش في فرنسا، وقدّم مسرحيات موسيقيّة إلخ... (م: ز.ع).

(**) تارتوف هو شخصية من شخوص موليير تمثّل الورع الزائف (م: ز.ع).

إلى الزّوال. وإنها لإحدى غرائب التاريخ أن يكون طلوعُ هذا الكوكب الباهت متزامناً مع غياب الكوكب الأرجواني، وفي اللحظة التي يكون فيها لفرنسا الملكُ الشمس، أن يكون لإنكلترا الملكةُ القمر.

وثمة تفصيلٌ ينبغي ذكرُه؛ فلويس الرابع عشر كان محطًّ إعجابِ إنكلترا، مع أنها كانت في حربٍ معه. إنه الملك الذي يلزم فرنسا، هكذا كان يقول الإنكليز. إن حبَّ الإنكليز لحريّتهم يتشابكُ بقبولٍ معيّنٍ لعبوديّة الآخرين، إن هذا الترحيبَ بالأصفاد التي توثقُ الجار تصلُ أحياناً إلى الحماسة للطّاغية الموجود بقربها.

لقد جعلت آنّا شعبها "سعيداً" بالإجمال، كما يقول المترجمُ الفرنسيّ لكتاب بيفريل، في ثلاثة مواضع، بنوعٍ من الإصرار اللطيف، في الصفحات ٦ و٩ من إهدائه، وفي الصفحة ٣ من مقدمته.

IV

كانت الملكة آنّا تحقد قليلاً على الدّوقة جوزيان لسببين.

أولهما لأنها كانت تجدُ الدّوقةَ جوزيان جميلة.

وثانيهما لأنها كانت تجدُ خطيبَ الدّوقة جوزيان وسيماً.

إن سببين يكفيان امرأةً لكي تكون غيرى، وسببٌ واحد يكفي لملكه.

ولنضفْ ما يلي: كانت تحقدُ عليها لأنها كانت شقيقتها.

لم تكن آنّا تحبُّ أن تكون النسّاءُ جميلات.

وكان تجد ذلك مخالفاً للأخلاق.

أمّا هي، فقد كانت قبيحة.

وليس هذا باختيارها مع ذلك.

وكان جزءٌ من تديّنها يأتي من تلك القباحة.

كانت جوزيان الجميلةُ والفيلسوفةُ، تزعجُ الملكة.

فبالنسبة لملكةٍ قبيحة، ليست دوقةٌ جميلةٌ شقيقةً محبّبة.

كان هناك مطعنٌ آخر، وهو الولادةُ غير الملائمة(١٣٣) لجوزيان.

كانت آنّا ابنة آنا هايد، وهي سيدةٌ بسيطة، وبصورة شرعية، ولكنها قد تزوّجت بجاك الثاني بصورةٍ مؤسفة، حين كان دوقاً ليورك. وبما أن ذلك الدّم المتدنّي كان يجري في عروق آنا، فهي لم تكن تحسّ بأنها من أصلٍ ملكيّ إلاّ جزئياً. وجوزيان التي أتت إلى العالم بصورةٍ غير نظاميّة بالكامل، كانت تؤكّد على هذا الغلط، الأصغر ولكن الحقيقيّ، غلطِ مولدِ الملكة. إن ابنة الزواج غير المتكافئ كانت ترى بلا سرور، وليس بعيداً عنها، ابنة الهجنة. وكان في ذلك

نشابة يبعثُ على الغمّ. وكان لدى جوزيان الحقّ في أن تقول لآنّا: إن والدتي ليست أقلّ شأناً من والدتك؛ ففي البلاط، لم يكن ذلك يُقال، وإنما يجري التفكيرُ به. وكان ذلك مزعجاً للجلالة الملكيّة. فلماذا جوزيان هذه؟

وأيّة فكرة قد خطرت لها لكي تولد؟ وما الغرض من أن تكون هناك جوزيان؟

إن بعض أنواع القُربى تصغرّ شأنَ المرء.

ومع ذلك، فقد كانت آنّا تبشّ في وجه جوزيان.

ولربما أحبّتها، لو لم تكن شقيقتها.

VI
باركيلفيدرو

من المفيد معرفةُ أفعالِ الأشخاص، وبعضُ الرقابة أمرٌ فيه تعقّل.

كانت جوزيان تقوم بالتجسّس على اللّورد دافيد قليلاً عن طريقِ رجلٍ تابعٍ لها، وتثقُ به، وكان يُسمّى باركيلفيدرو.

وكان اللّورد دافيد يجعل جوزيان عرضةً للمراقبة بصورةٍ سرّية على يدِ رجلٍ تابعٍ له، وهو يثقُ به، وكان يدعى باركيلفيدرو.

كانت الملكة آنّا من جهتها تُبقي نفسها على اطّلاعٍ بأعمالِ وحركاتِ الدّوقة جوزيان، شقيقتها الهجينة، واللورد دافيد، صهرها المقبل بزواج متعة، على يدِ رجلٍ كانت تعتمد عليه اعتماداً تامّاً، وكان يسمّى باركيلفيدرو.

كان باركيلفيدرو يضع يده على لوحة المفاتيح هذه: جوزيان، واللّورد دافيد، والملكة. رجلٌ بين امرأتين. فما أكثر ما هناك من تبدّلاتٍ ممكنة في النغمة! وأيّ خلطٍ للنفوس!

لم يكن باركيلفيدرو دوماً في مثل هذا الموقف الرائع الذي يتكلّم فيه بصوتٍ خفيض مع ثلاث آذان.

لقد كان خادماً سابقاً لدوق يورك: وقد حاول أن يصبح رجلَ دين، وأخفق في ذلك. أما دوق يورك، الأميرُ الانكليزي والرّوماني، الذي يجمع بين نزعةٍ بابويّةٍ ملكيةٍ وأنغليكانية شرعية، فقد كانت له كنيستهُ الكاثوليكيةُ وكنيستهُ البروتستانتيّةُ، وكان يمكن له أن يدفعَ بباركيلفيدرو إلى أحد هذين التّدرُّجين أو الآخر، غير أنّه لم يتصوّر إطلاقاً بأنه كاثوليكيٌّ على نحوٍ كافٍ

بحيث يجعله مرشداً، وأنّه بروتستانتيّ بصورةٍ كافيةٍ ليصير كاهناً في كنيسة خاصّة، بحيث أن باركيلفيدرو قد ألغى نفسه، وتهدّمت نفسُه بين دينين.

وليست هذه إطلاقاً وضعيّةً سيئةً بالنسبة لبعض النفوس المنحطّة.

إن بعض الطّرق لا يمكن السّيرُ فيها إلاّ زحفاً.

إن خدمةً منزلية قاتمة، ولكنها معيلة، كانت لفترةٍ طويلة تشكّل كلَّ معيشة باركيلفيدرو. إن الخدمة المنزلية كانت أمراً له قيمة، غير أنه كان يريد الاقتدارَ إضافةً إليها. وكان سيصلُ إليه ربّما عندما سقط جاك الثاني. فكان عليه أن يبدأ من جديدٍ في كلّ شيء. ولم يكن هناك شيءٌ يفعله في عهد غليوم الثالث، العَبوس، والذي كان في طريقته بالحكم تحشّمٌ كان يظنّه نزاهة. أما باركيلفيدرو، فبعد أن عُزل عن العرش حاميه جاك، لم يصبح معدماً بالحال. إن شيئاً غامضاً يبقى بعد سقوط الأمراء يغذي ويساندُ لبعض الوقت متطفّليهم؛ فبقيّةُ النّسغِ القابلِ للنّفاذ يجعل أوراق الشجرة المقتلعة تعيشُ يومين أو ثلاثة على أطراف الأغصان، ثم تصفّر الورقةُ فجأة وتجفّ، وكذلك رجلُ البلاط.

وبفضل هذا التحنيط الذي نسمّيه الشرعيّة؛ فإن الأمير، يستمرُّ ويحافظُ على نفسه، مع أنه قد سقط وأُلقي به بعيداً؛ وليس الأمرُ كذلك بالنسبة لرجل البلاط الذي يصبح أكثر موتاً حقّاً من الملك. إن الملك يكون هناك جثّةً محنّطة، ويكون رجلُ البلاط هنا شبحاً، أما أن يكون المرء ظلاً للظلّ، فذلك غايةُ الهزال. لذلك فقد غدا باركيلفيدرو ساغباً. حينئذٍ اتّخذ صفة الأديب.

كانوا يطردونه حتى من المطابخ. وفي بعض الأحيان لم يكن يدري أين ينام.

'فمن الذي يخلّصني من العراء؟' هكذا كان يقول. وكان يكافح. وكلّ ما كان مفيداً في الصّبر عند المحنة، كان يمتلكه. وكانت لديه إضافةً إلى ذلك موهبةُ السُّرقة، وهي أن يحسن إحداث ثغرةٍ من الأسفل إلى الأعلى. بالاستناد إلى اسم جاك الثاني، وإلى الذّكريات، والإخلاص، والحنان، إلخ.... فقد قام بالاختراق نحو الدّوقة جوزيان.

لقد سُرّت جوزيان برفقة تلك الرّجل الذي يعيشُ البؤسَ ويمتلكُ النباهةَ، وهما أمران يحرّكان الشعور. لقد قدّمته إلى اللُّورد نيرّي- موار، وآوته في موضع الخدمة لديها، واعتبرته من بيتها، وكانت طيّبةً معه، وحتى أنها حادثته أحياناً. لم يعد باركيلفيدرو جائعاً ولا بردانًا. وكانت جوزيان تخاطبه رافعةً الكلفة معه[*]. وكانت تلك هي دُرْجة السّيدات الرّفيعات الشّأن في مخاطبتهن للأنباء الذين يسمحون بذلك. كانت المركيزةُ دومايي تستقبل وهي مضطجعةٌ روا الذي لم تكن قد رأته قطّ، وكانت تقول له: "أنت من كُتّب السّنَةَ الاحتفاليّةَ؟ صباح الخير".(١٣٤) وفيما بعد، ردّ الأنباءُ المخاطبةَ بلا كلفة. وقد أتى يوم قال فيه فابر نيغلانتين للدّوقة دوروهان:

"ألستِ سمكةَ القدّ؟"

كانت المخاطبة بلا كلفة نجاحاً، في نظر باركيلفيدرو. وكان مسروراً بها؛ فكان يطمح إلى هذه الألفة من أعلى إلى أسفل.

وكان يقول لنفسه: "إن السّيدة جوزيان تخاطبني بلا كلفة. وكان يفركُ يديه. وقد أفاد من هذه المخاطبة بلا كلفة لكي يتقدّم. وقد أصبح مألوفاً إلى حدٍّ معين في شقّقِ جوزيان الصّغيرة، وليس مزعجاً، وغيرَ منظور. وكان يمكن للدّوقة أن تبدّل تقريباً قميصها أمامه. وكان كلُّ هذا غير ثابت مع ذلك. كان باركيلفيدرو يطمح إلى مركزٍ معيّن. فالدّوقةُ تُعتبر مُنتصفَ الطريق. إن سرداباً تحت الأرض لا يصل حتى الملكة، كان عملاً مخفقاً.

ذات يوم، قال باركيلفيدرو لجوزيان:

"هل تريدين، سموّك أن تصنعي سعادتي؟

فسألت جوزيان:

– ماذا تريد؟

– عملاً.

– عملاً! لك!

(*) أي بصيغة المخاطب المفرد.(م: ز.ع).

- أجل، يا سيّدتي.

- أيّة فكرةٍ خطرت لك للحصول على عمل؟ أنت لا تصلحُ لشيء.

- هذا هو السّبب.

فأخذت جوزيان تضحك.

"بين الوظائف التي لا تصلحُ لها، في أيّة وظيفةٍ ترغب؟

- وظيفة نازعٍ لسداداتِ زجاجاتِ المحيط"

تضاعفتْ ضحكةُ جوزيان.

"وما ذاك؟ أنت تسخر.

- كلاّ، يا سيّدتي.

فقالت الدّوقة:

- سوف أتسلّى بأن أجيبك بجدّ. فماذا تريد أن تكون؟ كرّر.

- نازعاً لسّدادات زجاجات المحيط.

- كلُّ شيء ممكن في البلاط. فهل هناك عملٌ كهذا.

- أجل، يا سيّدتي.

علّمني أشياء جديدة. تابعْ كلامك.

- إنه عملٌ موجود.

- أقسم لي بالروح التي لا تملكُها.

- أقسم على ذلك.

- لا أصدّقك إطلاقاً.

- شكراً، يا سيّدتي.

- أنت تريد إذن.... كرّر ثانية.

- أن أفضّ زجاجات البحر.

- ها هي وظيفةٌ لا تحتاج إلى جهدٍ كبير. إنها مثلُ تمشيطِ الحصان البرونزي.(١٣٥).
- تقريباً.
- ألاّ يفعل المرء شيئاً. هذا في الحقيقة المركز الذي يلزمك. إنّك صالحٌ لذلك.
- أنت ترين أنني أصلحُ لشيء.
- عجباً! إنك تهرّج. فهل هناك وجودٌ لهذا المركز؟'

اتّخذ باركيلفيدرو موقف الرّصانة المفعمة بالاحترام وقال:

يا سيّدتي، إن لك والداً عظيماً. هو جاك الثاني، الملك، وصهراً ذائعَ الصّيت، هو جورج الدانمرك، دوق كومبرلاند. وكان والدك لوردا أميرالاً لإنكلترا وكذلك هو صهرك الآن.

- هل هذه هي أمورٌ جديدةٌ تلك التي تُعلمني بها؟ فأنا أعلمُ ذلك مثلما تعلمه.
- ولكن هاك ما لا تعرفينه سموّك. ثمّة ثلاث أشياء في البحر: تلك الأشياء الموجودة في قعر الماء وهي لاغون (الراسبة المرجانيّة) وتلك التي تطفو على الماء: فلوتسون، والتي يقذفها البحر إلى الأرض: جيتسون.
- وبعد هذا؟
- إن هذه الأشياء الثلاثة: لاغون، وفلوتسون وجيتسون تخصُّ اللورد الأميرال- الأعلى.
- وبعد هذا؟
- هل تفهمين سموّك؟
- لا.
- كلّ ما هو في البحر، وكلّ ما ينغمرُ فيه، وما يطفو عليه وما يسقطُ فيه، كلُّ شيء يخصّ أميرال إنكلترا.

- كلّ شيء. فليكنْ. وبعد ذلك؟

- باستثناء سمك الإستورجون الذي يخصّ الملك.

فقالت جوزيان:

- كان يمكن أن أظنّ أن كلّ شيء يخصّ نبتّون.

- إن نبتون أحمق. فقد تخلّى عن كلّ شيء، وترك الانكليز يستولون على كلّ شيء.

- اختتمْ.

- غنائم البحر. هذا هو الاسم الذي يطلقونه على تلك اللُّقى.

- فليكن.

- إنها لا تنفد. فهناك دوماً شيءٌ يطفو، وشيء يدنو من الشّاطئ. إنه ضريبةُ البحر، فالبحرُ يدفع ضريبةً لإنكلترا.

- أوافق على هذا. اختتمْ.

- إن سموّك تعتبرين أن المحيط يُنشئ مكتبه بهذه الصّورة.

- وأين ذلك؟

- في إمارة البحر.

- أيّ مكتب؟

- مكتب غنائم البحر.

- وإذن؟

- إن المكتب يتفرّعُ إلى ثلاث إدارات. لاغون، وفلونسون وجيتسون، ولكلّ إدارةٍ هناك ضابط.

- وثمّ؟

- إن سفينةً في عرض البحر تريد أن تقدّم إخطاراً ما لليابسة، وأنها تبحرُ في خطّ عرضٍ معيّن، وأنها تلتقي وحشاً بحريّاً، وأنها تقصدُ شاطئاً معيناً، وأنها في ضائقة، وأنها ستغرقُ، وأنها هالكةٌ، إلخ،

فيأخذُ القائدُ زجاجةً ويضع داخلها قطعةً من الورق يكتبُ عليها الشيءَ الذي يريد، ويختم عنقَ الزجاجة، ويرمي الزّجاجة في البحر. فإذا ما سقطت الزّجاجة إلى القاع، فإن ذلك يخصُّ الضابط لاغون، وإذا ما طفت، فهذا يخصُّ الضّابط فلوتسون، وإذا ما حملتها الأمواجُ إلى اليابسة، فهذا يخصُّ الضّابط جيتسون.

- وتريد أن تكون الضابطَ جيتسون؟

- بالضّبط.

- وهذا ما تسمّيه بنازع سداداتِ المحيط؟

- وبما أن المركز موجود.

- ولماذا ترغبُ في هذا المركز الأخير أكثر مما ترغبُ في المركزين الآخرين؟

- لأنه شاغرٌ في هذا الوقت.

- وفيمَ يتمثّل ذلك العمل؟

- يا سيدتي، في عام ١٥٩٨، تمّ العثورُ على زجاجةٍ مطليّة بالقار على يد صيّادٍ لثعابين البحر في رمال الحوض الجاف لإيبيديوم برومونتوريوم، وأُتيَ بها إلى الملكة إليزابيث. وقد أعلم رقٌّ سحبوه من تلك الزجاجة إنكلترا بأن هولندا قد استولت من دون أن تقول شيئاً على بلادٍ مجهولة، وهي زامبل الجديدة: Nova zembla، وأن هذا الاستيلاء قد حدث في حزيران للعام ١٥٩٦، وأن الناس في هذه البلاد تأكلهم الدّببة، وأن الطريقة لقضاء الشتاء فيها كان يُشار إليها... على ورقةٍ مخبّأةٍ في غمدِ بندقيّةٍ فتيلةٍ معلّقةٍ في موقد المنزل الخشبي المبنيّ في الجزيرة، والذي تركه الهولنديّون الذين كانوا جميعاً موتى، وأن ذلك الموقد كان مصنوعاً من برميلٍ مبعوجِ القعر، ومعلّبٍ في السّطح.

- إني أفهم كلامك المبهم قليلاً.

- فليكن. لقد فهمت إليزابيت ذلك. إن بلداً إضافيًّا لهولندا، كان يعني بلداً أقلّ لإنكلترا. إن الزّجاجة التي كانت قد قدّمت التحذير قد اعتُبرت شيئاً مهماً. واعتباراً من ذلك اليوم، أصبح هناك أمرٌ قد أُبلغَ لأيّ إنسان يعثرُ على زجاجةٍ مختومة على ساحل البحر، أن يحملها إلى أميرال إنكلترا، تحت طائلة الشّنق، إن الأميرال يفوّضُ لفتح هذه الزجاجات ضابطاً يُطلعُ جلالتها على محتواها، إن كان هناك داعٍ لذلك.

- هل يصلُ مثلُ هذه الزّجاجات غالباً إلى إمارة البحر؟

- نادراً. ولكن الأمر سيّان. فالمركز موجود. وهناك من أجل هذه الوظيفة غرفةٌ ومأوى في إمارة البحر.

- وهذا الأسلوب في ألاّ يفعل المرءُ شيئاً، كم يُدفعُ أجرُه؟

- مئة جنيه في العام.

- أنت تزعجني من أجل هذا.

- هذا ما يؤمّن القوت.

- بصورةٍ معدمة.

- كما يليق بأولئك الذين هم من طرازي.

- مئة جنيه. هذا دخان.

- إن ما يجعلك تعيشين دقيقة يجعلنا، نحن الآخرين، نعيشُ عاماً.

- ستحصل على المركز.

بعد ثمانية أيام، وبفضل حسن نيّة جوزيان، وبفضل نفوذ اللورد دافيد ديرّي - موار، فإن باركيفليدرو قد أُنقذ منذ ذلك الحين، وتخلّص مما هو مؤقّت، وواضعاً الآن قدمه على أرضيّة صلبة، وقد وجد مأوى، وحصل على نفقة، وأصبح لهُ دخلٌ قدرُه مئة جنيه، وأُقام في إمارةِ البحر.

VII
باركيلفيدرو يلمع نجمه

بالنسبة إليه ثمّة أمرٌ ملحٌ في بادئ الأمر، وهو أن يكون المرء ناكراً للجميل.

ولم يفت باركيلفيدرو ذلك.

فبعد أن حصل من جوزيان على الكثير من النّعم، لم يكن لديه بالطبع إلاّ فكرةٌ واحدة، وهي أن يثأر.

لنضفْ أن جوزيان قد كانت جميلةً، وطويلةَ القامة، وشّابةً، وغنيّةً، ومقتدرة، وذائعةَ الصّيت، وأن باركيلفيدرو قد كان قبيحاً، وقصير القامة، وعجوزاً، وفقيراً، وتحت الحماية، وكئيباً، فكان لا بدّ له حقاً من أن يثأر لذلك.

حين لا يكون المرء مصنوعاً إلاّ من الظّلمة، فأنىّ له أن يسامح على هذا القدْر من الأشعّة؟

كان باركيلفيدرو ايرلنديّاً قد أذكر ايرلندا: إنه طرازٌ رديء.

لم يكن لدى باركيلفيدرو إلاّ شيءٌ واحد لصالحه، وهو أن له كرشاً ضخماً جدّاً. إن البطن الضخم يُعتبر علامةً على الطّيبة؛ غير أن هذا البطن كان يُضافُ إلى رياء باركيلفيدرو. فذلك الرّجل قد كان شريراً جدّاً.

كم كان عمرُ باركيلفيدرو؟ لا عمر له. إنه العمر الضّروري لمشروعه الحالي. لقد كان عجوزاً من حيث التجاعيدُ والشعرُ الأشيب، وشابّا من حيث سرعةُ الخاطر. لقد كان رشيقاً وثقيلاً؛ كضربٍ من فرس النّهر القرد. كان ملكياً بالتأكيد، وجمهوريّاً، من يدري؟ وربّما كاثوليكياً وبروتستانتياً بلا شكّ.

وكان مؤيِّداً لستيورات بوجه الاحتمال، ومؤيِّداً لبروتشفيك بطبيعة الحال. أن يكون المرءُ مؤيِّداً لأحدٍ لا يشكّل قوّة إلاّ بشرطِ أن يكون ضدَّ أحد. وكان باركيلفيدرو يمارس هذا التعقّل.

لم يكن مركزُ 'نازعِ سداداتِ زجاجات المحيط' مثيراً للضحك مثلما كان يبدو كلامُ باركيلفيدرو عليه. إن الاحتجاجات التي قد نصفها اليوم بضروب الطّعن المفخمة، احتجاجات غارسي – فيرنانديز في كتابه: كشّاف البحر ضدّ سلب الأحواض البحرية المغلقة والمسمّاة قانون الحطام. وضد نهب هياكل السّفن المحطَّمة على يد أناس السّواحل، قد تركت أثراً عميقاً في إنكلترا، وجلبت بالنسبة للغرقى هذا التقدم الذي مفادُه أن أموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم قد صادرها اللورد - الأميرال. بدلاً من أن يسرقها الفلاّحون.

إن كلّ فضلات البحر التي تُلقى على الشاطئ الانكليزي، كالبضائع، وهياكل السّفن، والمحزومات، والصناديق، إلخ. كانت تخصُّ اللورد– الأميرال. ولكن، وهنا كانت تتكشّفُ أهميّةُ المركز الذي يلتمسه باركيلفيدرو. فالأواني الطافية التي تحتوي رسائل ومعلومات كانت توقَظُ بصورةٍ خاصّة اهتمام إمارةِ البحر. إن حوادثَ الغرق هي إحدى الاهتمامات الخطيرة لإنكلترا. وبما أن الملاحة تشكّل حياتها، فإن حادثة الغرق تشكّل هاجسها. إن إنكلترا تقلقُ باستمرار بصدد البحر. والقارورةُ الزجاجية الصغيرة التي تلقي بها إلى الأمواج سفينةٌ مشرفةٌ على الغرق، تحتوي إعلاماً عظيم الأهمية، وثميناً من كلّ وجهات النّظر. إنها معلوماتٌ حول العمارة البحرية، ومعلوماتٌ حول الطاقم، ومعلومات عن المكان، وعن فترةِ حادثة الغرق وأسلوبها، ومعلوماتٌ عن الرّياح التي حطمّت المركب، ومعلومات عن التيارات التي حملت القارورة الطّافية إلى السّاحل. كانت الوظيفة التي أخذ يشغلها باركيلفيدرو قد أُلغيت منذ أكثر من قرن، بيد أنها كانت ذاتَ فائدةٍ حقيقية. وكان آخر من عُيّن فيها هو وليام هوسي الذي هو من دودينغتون في لنكولن. وكان الرّجل الذي يدير تلك الإدارة نوعاً من مراسلٍ ينقل أحوال البحر. كانت كلّ الأواني المغلقة والمختومة، من مثل الزّجاجات، والقوارير والجرار إلخ... والتي ألقى بها المدُّ على السّاحل الانكليزي، كانت تُسلمّ إليه؛ وكان

الوحيد الذي له الحقّ في أن يفتحها؛ وكان الوحيدَ المطّلعَ على محتواها؛ فقد كان يصنّفها، ويُلصق عليها بطاقات في قلم إدارته. إن التعبير إيداع ورقة في قلم المحكمةَ الذي لا يزال مستخدماً في جزر المانش، يأتي من ذلك الأمر. وفي حقيقة الأمر، كان ثمة احتياطٌ قد اتُّخذ. فما من وعاء من تلك الأوعية كان يمكن أن يُفضّ ختمهُ ونزعُ سدادته إلاّ بحظور رجلين محلّفين من إمارة البحر ومُقسمين على حفظ السّرية، وكانا يوقّعان بالاشتراك مع الموظف المعيّن في إدارة جيتسون محضرَ الفتح الرّسمي. ولكن بما أن هذين الرجلين المحلّفين ملزمان بالصّمت، فقد كان ينجمُ عن ذلك، بالنسبة لباركيلفيدرو بعضُ حريّةِ التصرّف التّقديرية. لقد كان يتعلقّ به، إلى حدٍّ معيّن، أن يلغي واقعة، أو أن يبرزها إلى العلن.

إن تلك الهياكل المحطّمة الهشّة لم تكن إلى حدٍّ بعيد، كما كان باركيلفيدرو يقول لجوزيان، نادرةً ولا قيمة لها؛ فتارةً كانت تصل إلى اليابسة بسرعة لا بأس بها، وأحياناً بعد سنوات. كان ذلك يرتبط بالرّياح والتيارات. إن دُرْجة الزّجاجات الملقاة على سطح الماء قد جرت بعض الشّيء مثل دُرْجة الذنور؛ ولكن أولئك الذين كانوا سيموتون، في تلك الأزمنة المتديّنة، يُرسلون عن قصدٍ منهم، وعلى ذلك النحوَ، آخر ما يفكرون فيه إلى الرّبّ وإلى الناس، وكانت رسائلُ البحر هذه تكثر في إمارة البحر. إن رقّاً محفوظاً في قصر أودلين Audlyene (وهذه كتابةٌ قديمة له) ويعلّق عليه الكونت دوسوفولك، ورئيس خزانة إنكلترا في عهد جاك الأوّل، يثبت أن اثنتين وخمسين مطرة، وأبازيم مطليّة بالقار تحتوي تنويهاتٍ عن سفنٍ مشرفة على الغرق، قد جلبت وسُجّلت في قلم دائرة اللورد – الأميرال، في سنة ١٦١٥ وحدها.

إن وظائف البلاط هي نقطةُ الزّيت، وهي تتّسعُ باستمرار. وعلى هذا النّحو، غدا البّوابُ رئيسَ قضاة، والسّائسُ قائداً عاماً للجيش. أما الضّابط الخاصُّ المكلّف بالوظيفة التي تمنّاها وحصل عليها باركيلفيدرو فقد كان في العادة رجلاً موثوقاً. وكانت إليزابيت قد أرادته أن يكون كذلك. وفي البلاط، من يقلّ ثقة يعنِ دسيسة، ومن يقلّ دسيسة يعلنْ نموّاً. وكان الأمر قد انتهى بذلك الموظف ليصبح شخصيّةً مرموقة بعض الشّيء. لقد كان كاتبَ محامٍ،

وتأتي مرتبتُه مباشرةً بعد الوصيفين التابعين للإرشاد الدينيّ. وكانت له ولوجاته إلى القصر. ولكنّها، ولنقلْ ذلك، ما كان يسمّى بـ 'الولوج المتواضع' humilis Introitus وحتى غرفة السّرير. فقد جرت العادة أن يُعلم الشّخصَ الملكيُّ، حين تستحقُّ المناسبة العناء، بلُقاه التي غالباً ما تكون مثيرة جداً للاهتمام، من مثل وصايا اليائسين، والوداعات الملقاة إلى الوطن، ومكاشفات أعمال الاحتيال،(١٣٦) وجرائم البحر، وهبات الوصيّة إلى التاج. إلخ، وأن يُبقي قلم إدارته على اتصال بالبلاط، وأن يُطلعَ جلالتها من وقتٍ لوقت على فضّ الزّجاجات المشؤومة. كانت تلك هي غرفة المحيط السوداء.

إن إليزابيت التي كانت تتكلّم اللاتينية بسهولة كانت تسأل تامفيلد دوكولاي في بيركشير، وهو ضابط جيتسون في عهدها، حين كان يأتيها بإحدى تلك الأوراق القديمة الخارجة من البحر: ' quid mihit Scribit Neptunus?'

ماذا يكتب لي نبتون؟'

لقد حدث الاختراق. والسّرفةُ قد نجحت في الاقتراب من الملكة.

كان هذا كلّ ما كان يريدُه.

كان يبني ثروته؟

لا...

لكي يخرّب ثروة الآخرين.

وهذه سعادةٌ أكبر.

فالإضرارُ هو التمتّع.

أن تكون لدى المرء رغبةٌ في إلحاق الضّرر، مبهمةٌ ولكنها لا ترحم، وألاّ يجعلها تغيبُ عن نظره قطّ، ذلك أمرٌ لا يتوفرُ لكل الناس. وكان لدى باركيلفيدرو هذه النظرة الثابتة.

أما التصاق الشّدق الذي للكلب الأقطم، فكان تفكيره يمتلكه.

إن شعوره بأنه لا يرحم كان يعطيه أساساً قاتماً للرضى. ولم يكن ينقصُه شيء، شريطة أن تكون لديه طريدةٌ تحتَ أسنانه، أو أن يكون لديه في روحه يقينٌ بالإضرار.

كان يرتعد مسروراً، بأمل أن يبرد الآخرون.

أن يكون المرءُ شرّيراً، هذا ثراء. إن إنساناً ما نظنّه فقيراً، وهو كذلك في الحقيقة، يمتلك كلّ ثروته في المكر، وهو يفضّلها على هذا النّحو. إن كلّ شيء موجودٌ في الاكتفاء الذي نشعر به. إن القيامَ بحيلةٍ خبيثة هو الأمر عينه الذي يقوم به المرء بحيلةٍ جيدة. وهو أفضل من الحصول على المال. وهو أمرٌ سيء بالنسبة لمن يعاني من هذه الحيلة، وجيد بالنسبة لمن يقوم بها كان شريكَ غي فاوكرز، في مؤامرةِ البارود المناصرة للبابا، كان يقول: "أن أرى المحكمةَ العليا منفجرةً وقوائمها في الهواء، هذا أمرٌ لا أبدّله مقابل مليون ليرة إسترلينية".

فماذا كان هذا المدعوّ باركيلفيدرو؟ هو أصغر ما هو موجود، والأكثر إثارةً للرّعب إنه حاسد.

إن الحسد أمرٌ يتوضّعُ دوماً في البلاط.

إن البلاطَ يزخرُ بالسّفهاء، والمتعطّلين، والأغنياء الخاملين، والتوّاقين إلى ذمّ الناس، والباحثين عن الإبر في أكوام العلف، وصانعي ضروب البؤس، والسّاحرين الذين يُهزأ بهم، والحمقى الظّريفين، والذين يحتاجون إلى حديث حاسد.

فأيُّ شيء منعشٍ هو ذلك الكلامُ السيّئ الذي يُقال لك عن الآخرين!

إن الحسد قماشٌ جيّد لصناعة جاسوس.

ثمّة تماثلٌ عميقٌ بين ذلك الهوى الطبيعيّ الذي هو الحسد، وتلك الوظيفة الاجتماعية التي هي التجسّس. إن الجاسوسَ يصطادُ من أجل الآخرين، كالكلب. والحاسدُ يصطاد لحسابه الشخصيّ، كالقطّ.

إنه أنا شرسة، ففيها يكمن الحاسدُ بكليّته.

وثمة صفات أخرى: كان باركيلفيدرو متكتماً، وخفيًا وواقعيًا. كان يحافظ على كلّ شيء، ويفكرّ مليًا بكراهيته. إن خسّةً هائلة تتضمنُ إدعاءً هائلاً. لقد كان محبوباً من أولئك الذين كان يسلّيهم، ومكروهاً من الآخرين. غير أنّه كان يشعر أنه مزدرىً من أولئك الذين كانوا يكرهونه، ومحتقراً من أولئك الذين يحبونه. وكان يكتفي بذاته. إن كلّ الإهانات التي تعرض له تغلي دون صوتٍ في رضوخه العدائيّ. لقد كان ساخطاً، وكأن للأنذال مثل ذلك الحقّ. وكان بصمتٍ فريسة لهياجات غاضبة. وأن يبتلع كلّ شيء، فتلك كانت موهبته. كان لديه ضروبٌ من السخط المكتوم الداخلي، وألوانٌ من الهوس المسعور الخفيّ، وألسنةُ نيران كامنة وسوداء لم يكن المرءُ ينتبه إليها. لقد كان رجلاً غضوباً مبتلعاً للدّخان. وكان سطحُه يبتسم. كان مجاملاً، ومتلطّفاً، وليّن الجانب، ومحبباً، ومسايراً. كان يحيّ أيًا كان، وفي أيّ مكانٍ كان. عند هبّة ريح، كان ينحني إلى الأرض. وأيّ مصدرٍ للثروة أن يكون للمرء قصبةٌ في العمود الفقري!

إن تلك الكائنات المختبئة والسّامة ليست نادرةً بالقدر الذي نّظنه. إننا نعيش محاطين بانزلاقاتٍ مشؤومة. فلماذا هناك محبّون للإيذاء؟

إنّه سؤالٌ موجع. والمتفكّرُ الحالمُ يطرحُه على نفسه باستمرار، والمفكّر لا يحلّه قطّ. ومن هنا تأتي نظرةُ الفلاسفةِ الحزينة والمحدّقة دائماً بذلك الجبل من الظّلمات والذي هو المصير، والذي يدعُ شبحَ الشرّ الجبّار يُسقِطُ من أعلاه على الأرض حفنات من الأفاعي.

كان جسمُ باركيلفيدرو بديناً ووجهه نحيلاً. جذعٌ سمين ووجهٌ عظميّ. كانت أظافُره مخدّدةٌ وقصيرةٌ، وأصابعُه معقّدة، وإبهاماه مسّطحين، وشعرهُ غليظاً، وهناك مسافةٌ كبيرة بين أحدِ صدغيه والآخر، وله جبينٌ رجلٍ قاتل، جبينٌ عريضٌ ومنخفض. كانت عينه المغولية تخفي صغر نظرته تحت عليّقٍ من شعر الحاجبين.

أما أنفُه الطويّلُ والذّلقُ والمقوّس والرّخو، فكان ينطبق على فمه تقريباً. وإذا ما ارتدى باركيلفيدرو بصورةٍ لائقةٍ ملابس إمبراطور، فسوف يكون

شبيهاً بعض الشيء بدوميسيان. أما وجهه الذي تعلوه صفرة زنخة فقد كان مشكّلاً من عجينةٍ لزجة؛ وكانت وجنتاه الجميلتان تبدوان كأنهما من صمغ العلكة. كانت على وجهه كلّ أنواعِ التجاعيد القبيحة والمقاومة، وكانت زاويةُ فكّه ثخينةً، وذقنه ثقيلة، وأنفُه شنيعة. عند الرّاحة، وبصورةٍ جانبيّة، كانت شفتُه العليا الناتئة لزاويةٍ حادّةٍ تُظهر سنّين. ويبدو كأن هاتين السنّين تنظران إليك. إن الأسنانَ تنظر، كما تَعضّ الشّفة.

كان الصبْرُ، والاعتدالُ والتّعففُ والتحفظُ والدّماثةُ والاحترامُ، والرّقّةُ، والأدبُ، والرّزانةُ، والعفّةُ تكملُ باركيلفيدرو وتجهزّ عليه. وكان يفتري على هذه الفضائل في الوقت عينه الذي يمتلكها فيه.

وفي غضون وقتٍ قصير، توطدّ موقع باركيلفيدرو في البلاط.

VIII

INFERI(١٣٧)

يمكن، في البلاط أن يتوطدّ موقعُ المرء بصورتين: في السَّحب، يكون المرءُ عظيماً، وفي الوحل، يكون المرءُ مقتدراً.

في الحالة الأولى، يكون المرءُ من السَّماء (الأولمب)، وفي الحالة الثانية، يكون من بيت الخلاء.

من يكون من الأولمب لا يكون لديه إلاّ الصّاعقة، ومن يكون من بيت الخلاء له الشّرطة.

إن بيت الخلاء يحتوي كل وسائل عهد الملكيّة، وأحياناً، لأنه غادر، فهو يحتوي القصاص. ويأتي إيليوغابال(*) ليموت فيه، فيُسمى حينئذٍ المرحاض.

إنه في العادة أقلّ مأسويّةً. ومن هنا يبدي ألبيروني إعجابه بفاندوم (١٣٨).

فبيتُ الخلاء هو عمداً المكان الذي تُعقدُ فيه جلساتُ الشخصيّات الملكيّة. وهو يقوم مقام عرش. ويستقبل فيه لويس الرابع عشر دوقة بورغونيا، ويجلس فيليب الخامس مع الملكة جنباً إلى جنب فيه. ويلج إليه الكاهن. فبيتُ الخلاء أحياناً فرعٌ من كرسيّ الاعتراف.

هذا هو السّبب في أن هناك ثرواتٍ من الأسفل. وهي ليست الأقلّ شأناً؛ فإذا شئت، في عهد لويس الحادي عشر، أن تكون عظيماً، فلتكن لويس

(*) إيليوغابال: كاهن روماني أراد أن يدخل إلى روما عبادة الشمس وقد مات مقتولاً (م: ز.ع).

دوروهان، ماريشال فرنسا. وإذا شئت أن تكون متنفّذاً، فلتكن أوليفييه لودان، المزيّن. وإذا شئت، في عهد ماري دوميديسّي، أن تكون مكلّلاً بالمجد، فلتكن سيّوري، رئيس القضاة. وإذا أردت أن تكون ذا مكانة معتبرة، فلتكن لاهانون، مدبّرة المنزل. وإذا أردت، في عهد لويس الرابع عشر، أن تكون شهيراً، فلتكن شوازول، الوزير. وإذا أردت أن تكون مرهوبَ الجانب، فلتكن لوبيل، الخادم. وبالنّظر إلى لويس الرابع عشر، فإن بونتان الذي يرتّب له سريره هو أكثرُ اقتداراً من لوفوا الذي يصنع له جيوشه، وتورين الذي يصنع له انتصاراته، ولتنزع الأب جوزيف من ريشيليو، فيغدو ريشيليو فارغاً تقريباً. ويصبح بلا سرّ خفي. إن النيافة الحمراء بهيّة، والنيافة الرّمادية رهيبة. فيالها من قوّة أن يكون المرءُ دودة! إن كلّ آل نارفاييز المندمجين بكل آل أودونيل يقومون بعملٍ أقل مما تقوم به الأختُ باتروسينيو (١٣٩).

إن شرط هذا الاقتدار مثلاً هو الضآلة. فإذا شئت أن تبقى قويّاً، فلتبقَ هزيلاً. ولتكن العدم. إن الأفعى في فترة الراحة، ترقدُ على نحوٍ دائري، وتمثّل في آنٍ واحد اللانهايةَ والصفر.

إن إحدى هذه الثروات الأفعويّة قد آلت إلى باركيلفيدرو.

كان قد انزلق إلى المكان الذي يشاء.

إن الحيواناتِ الزاحفة تدخل إلى أيّ مكان. وكان عند لويس الرابع عشر بقّ في سريره، ويسوعيّون في سياسته.

أما التعارضُ فيما بينهما، فلن يكون موجوداً إطلاقاً.

في هذا العالم، كلُّ شيء مؤقّت. إن الجاذبيّةَ هي التّرجحُ. والقطبُ يريد القطب الآخر. ففرانسوا الأوّل يريد تريبوليه، ولويس الخامس عشر يريد لوبيل. وهناك تناغمٌ عميقٌ بين هذا العلوّ الأقصى وهذا الانخفاض الأقصى.

إن الانخفاضَ هو الذي يوجّه. وما من شيء أيسر على الفهم؛ فالذي هو تحت يمسك بالخيوط.

وما من موقعٍ أكثر ملاءمةً.

فيكون المرء عيناً، وتكون له أذن.

تكون له عينُ الحكومة.

وتكون له أذنُ الملك.

أن يكون للمرء أذن الملك معناه أن يسحب وأن يدفع على هواه مزلاجَ وعي الملك. وأن يحشر في هذا الوعي ما يريد. إن ذهنَ الملك هو خزانتك. فإذا كنت لمّام خرق، فهو سلّتك الظهرية. إن أذنَ الملوك ليست للملوك، وهذا ما يجعل بالإجمال هؤلاء المساكين مسؤولين قليلاً. فمن لا يمتلك تفكيره، لا يمتلك فعله. فالملك كائنٌ يطيع.

يطيع ماذا؟

روحاً شريرة معينة تطنّ في أذنه من الخارج. إنها دبابةُ الهاويةِ القاتمة.

إن هذا الطنين يأمر. وعهدٌ ملكيّ معينٌ هو إملاء.

إن الصّوت العالي، هو صوتُ العاهل السّيد، والصّوتَ الخفيضَ هو صوتُ السّيادة.

إن أولئك الذين يعرفون في عهدٍ ملكيّ كيف يميّزون هذا الصّوتَ الخفيضَ، ويسمعون ما يهمس به للصّوت العالي، هم المؤرّخون الحقيقيّون.

IX
الكراهية قويّة كالحبّ

كان حول الملكة آنّا عددٌ من تلك الأصوات الخفيضة، وكان باركيلفيدرو أحَدَها.

فضلاً عن الملكة، كان يحرّكُ السّيدةَ جوزيان واللورد دايفيد، ويؤثّرُ فيهما ويخالطهما خفيّةً، وكما قلنا، فقد كان يتكلّمُ بصوتٍ خفيضٍ مع ثلاثة آذان. أي مع أُذنٍ زيادةً عن دانجو؛ فلم يكن دانجو يتكلّمُ بصوتٍ خفيضٍ إلاّ إلى شخصين في ذلك الوقت الذي كان يدقُّ فيه رأسَه بين لويس الرابع عشر المغرم بهنرييت أخت زوجته، وهنرييت المغرمة بلويس الرابع عشر زوج أختها، وأمين سرّ لويس بلا علم هنرييت، وهنرييت بلا علم لويس، والمتمركز في وسط الحبّ القائم بين دميتين. لقد كان يصنع الأسئلة والأجوبة.

كان باركيلفيدرو جدّ بشوش، وجدّ راضٍ، وجدّ عاجز عن أن يدافع عن أيّ شخصٍ كان، وقليل الوفاء إلى حدٍّ كبيرٍ في الواقع، وشديد القبح، وجدّ شرير بحيث كان أمراً بسيطاً جداً أن يصل شخصٌ ملكيٌّ إلى عدم إمكان الإستغناء عنه. فما إن تذوّقت آنّا باركيلفيدرو، حتى لم تعد تريدُ متملّقاً آخر. لقد كان يُطريها مثلما كان يطري لويس العظيم، عن طريق التجريح بالآخرين - كان الملكُ جاهلاً، كما تقول السّيدة دومو شيفروي، وكان الملك مضطراً لأن يهزأ بالعلماء.

أما تسميمُ التجريح من وقتٍ لوقت، فقد كان قمةَ الفنّ، ونيرون يحبّ أن يرى لوكيست(*) تعمل.

(*) لوكيست: Locuste: مسمِّمة رومانية. (م: ز.ع).

إن القصورَ الملكية قابلةٌ للاختراق إلى حدّ كبير؛ فهذه العروقُ المرجانيّة المتشعبّة لها شبكةٌ طرقٍ داخلية يجري اكتشافُها بسرعة، واستعمالها، والتنقيب فيها، وتجويفها عند الحاجة. على يدِ هذا القارض الذي يسمّى رجل البلاط. إن ذريعةً واحدةً للدّخول تكفي. وبما أن باركيلفيدرو قد حصل على هذه الذّريعة، التي هي مهمّتُه، فقد أصبح في زمنٍ قصير جداً لدى الملكة ما كان لدى الدّوقة جوزيان، أي الحيوان الأهليّ الذي لا غنى عنه. إن كلمةً قد خاطر بها ذات يوم جعلته يفهمُ الملكة. وقد عرف بماذا يكتفي من طيبة جلالتها. لقد كانت الملكةُ تحبّ كثيراً لوردها القهرمان، وليام غافيديش، دوق ديفو نشاير، والذي كان جدّ أبلهاً. إن هذا اللورد الذي حصل على كلّ درجات أوكسفورد، ولا يحسن الإملاء، قد ارتكب ذات صباح حماقةَ الموت. فالموتُ هو أمرٌ جدّ متهوّر في البلاط لأنه لن يزعج شخصٌ نفسه بعد ذلك في الحديث عنك. أما الملكة فقد أخذت تعول بحضور باركيلفيدرو، وانتهى بها الأمرُ إلى أن تهتف وهي تتنهّد: إنّه لأمر مؤسف أن تكون فضائل عديدة قد حملها وخدمها عقلٌ على تلك الدرّجة الكبيرة من الهزال!

فهمس باركيلفيدرو بصوتٍ خفيض: فليتقبّل الربُّ حماره(*)!

فابتسمت الملكة. وسجّل باركيلفيدرو هذه الابتسامة.

واستنتج: إن التجريحَ يحوزُ على الرّضى.

لقد أُعطي مكرُه إذناً.

اعتباراً من ذلك اليوم، حشر فضوله في كلّ مكانٍ، وكذلك خبثه. وكانوا يسمحون له بذلك طالما كانوا يخشونه. إن من يجعلُ الملك يضحك، يجعل الآخرين يرتجفون.

إنه رجلٌ طريفٌ مقتدر.

(*) تلاعب لفظي بين كلمتي: Ame (روح) وAne (حمار) وهو مقصودٌ للسخرية (م: ز.ع)

كان يحرزُ كلَّ يوم خطواتٍ إلى الأمام، وبصورةٍ خفيّة. لقد كانت هناك حاجةٌ إلى باركيلفيدرو. وكان عددٌ من رفيعي الشأن يكرّمونه بثقتهم إلى الدّرجة التي يكلّفونه بها بمهمّةٍ مخجلة عند الاقتضاء.

إن البلاطَ دوامةٌ تدورُ، وقد غدا باركيلفيدرو محرّكها. فهل لاحظتم في بعض الآليّات صغرَ العجلة المحرّكة؟

إن جوزيان، على الخصوص، التي كانت تستخدمُ، كما أشرنا، موهبة التجسّس لدى باركيلفيدرو، كان تثقُ به ثقةً كبيرةً إلى درجةٍ لم تكن تتردّدُ معها في تسليمه أحدَ المفاتيح السّرية لشقّتها، والذي كان يمكن بواسطته أن يدخل إلى منزلها في أيّة ساعة. إن هذا التسليم المفرط لحياتها الخاصّة كانت دُرْجةً في القرن السّابع عشر. وكان ذلك يُسمّى: إعطاءَ المفتاح. كانت جوزيان قد أعطت مفتاحين من هذه المفاتيح الموثوقة، وكان اللورد دافيد يمتلك واحداً، وباركيلفيدرو المفتاح الآخر.

فوق ذلك، كان الولوجُ دفعةً واحدة حتى غرف النّوم أمراً لا يثيرُ الدّهشة إطلاقاً في التقاليد القديمة. وقد حدثت بعضُ الحوادث بسبب ذلك. فلا فيرتيه(١٤٠). الذي سحب فجأة ستائر سرير مدموازيل لافون، قد وجد فيها سينسون، الفارس الملكيّ الأسود، إلخ. إلخ.

كان باركيلفيدرو مبدعاً في القيام بمثل تلك الاكتشافات المتستّرة التي تخضعُ الكبار للصّغار. وكان سيره في الظلمة متعرّجاً ورقيقاً وبارعاً. وشأن كلّ جاسوس كامل، كان مكوناً، من قساوةِ الجلاّد، ومن صبرِ الرّسام المجهريّ. لقد كان رجل بلاطٍ بالولادة. إن كلّ رجلِ بلاط مصابٌ بالدّوام؛ فرجلُ البلاط يجوس في ذلك الليل الذي ندعوه بكليّة القدرة. إنه يحمل مصباحاً أخرس بيده، وينيرُ النقطة التي يريدها، ويبقى غامضاً. إن ما يبحثُ عنه بهذا المصباح، ليس رجلاً، بل هو دابّة. وما يجده هو الملك.

إن الملوك لا يحبّون أن يدّعي أحدٌ أنه عظيمٌ حولهم. والسّخريةُ بسواهم تبهجُهم. وكانت موهبةُ باركيلفيدرو تتمثّل بتصغيرٍ مستمرّ للوردات والأمراء لصالح الجلالة الملكية التي تعظُم بهذا القدر الذي يصغرونه به.

كان المفتاحُ الخاصّ الذي يمتلكه باركيلفيدرو قد تأمّن، وفيه دورتان، واحدة في كل طرف، بحيث يمكنه أن يفتح الشّقق الصغيرة في مكاني الإقامة المفضّلين لدى جوزيان، وهما هونكرفيل هاوس في لندن، وكورليون – لودج في ويندسور. ويشكل هذان القصران جزءاً من ميراث كلانشارلي. كان هونكيرفيل – هاوس يجاورُ أولدغيت. وكانت أولدغيت في لندن باباً يأتون من خلاله من هارفيك، ومنه كان يُرى تمثالٌ لشارل الثاني ويحمل على رأسه ملاكاً مرسوماً، وتحت قدميه يُرى أسدٌ وقارنٌ(*) منحوت. ومن هونكيرفيل هاوس، ومن خلال ريحِ الشرق، كان المرء يسمع جرسَ المصلصلة في سانت ماريلبون. أما كورليون – لودج فكانت قصراً فلورنسيّاً من الآجر والحجارة مع أعمدة الرّخام، ومبنيّ على أوتادٍ فوق الماء في ويندرسور في نهايةِ الجسر الخشبيّ، وفيه إحدى أروع قاعات التشريفات في إنكلترا.

في هذا القصر الأخير، المجاور لقصر ويندسور، كانت جوزيان على مقربةٍ من الملكة، كان ذلك يروقُ لجوزيان مع ذلك.

لم يكن هناك شيء تقريباً في الظاهر. كان تأثيرُ باركيلفيدرو على الملكة، يمسّ الجذور؛ فما من شيءٍ أصعب على الاقتلاع من تلك الأعشاب الضّارة في قاعة التشريفات. إنها تتغرز بصورةٍ عميقةٍ جداً، ولا تبدي أيّ مظهرٍ خارجيّ. إن غرقَ الأعشاب الرّديئة في روكلور وتريبوليه أوبروميل كان أمراً متعذّراً تقريباً (١٤١).

ومن يومٍ ليوم، وأكثر فأكثر، كانت الملكةُ آنّا تُسرّ برفقةِ باركيلفيدرو. كانت سارة جينيدغز شهيرةً؛ أما باركيلفيدرو فمغمور. وقد ظلّت حظوته غامضة. إن هذا الاسم باركيلفيدرو لم يصل إلى التاريخ؛ فكلُّ المناجذ لا يقبضُ عليها صيّاد الخلد.

إن باركيلفيدرو، المرشّح السابق ليكون رجلَ دين، كان قد درس قليلاً من كلّ شيءٍ؛ فالإلمامُ الخفيف بكلّ شيء لا يُعطي شيئاً. ويمكن للمرء أن يكون ضحيّةً للـــ: omnis res scibilis(١٤٢). وان يكون تحت جمجمة المرء برميلُ

(*) القارن حيوانٌ أسطوريٌ كان القدماء يرون له قرناً في رأسه. (م: ز.ع).

الدّانايد[*] فذلك هو شقاءُ سلالةٍ كاملة من العلماء الذين يمكن أن نسميّهم بالعقيمين. إن ما كان باركيلفيدرو قد وضعه في دماغة جعله يبقى فارغاً.

إن العقل، شأن الطبيعة، يأنفُ من الفراغ؛ ففي الفراغ، تصنعُ الطّبيعةُ الحبَّ، ويصنعُ فيه العقلُ الكراهيةَ غالباً. والكراهية تشغل (العقل).

إن الكراهية من أجل الكراهية موجودةٌ. والفنّ للفنّ موجودٌ في الطّبيعة، أكثر مما نظنّ.

إن المرء يكره؛ فلا بدّ فعلاً أن يصنع شيئاً.

إن الكراهية المجانية هي كلمةٌ مرعبة. وهذا يعني الكراهية التي تسدّد أجرها من ذاتها.

إن الدّب يعيشُ من لحسِ مخلبه.

إنما ليس بصورة مطلقة. فهذا مخلبٌ ينبغي تغذيتُه، ويجب أن يوضع شيءٌ تحته.

أن يكره المرءُ بصورةٍ غامضةٍ هو أمرٌ لذيذ، ويكفي لبعض الوقت. بيد أنه ينبغي أن ينتهي بأن يكون له موضوعٌ معيّن. إن البغضاءَ المنتشرة على الخليقة تستنفذُ المرء، شأن كلّ تمتّع متوحّد. إن الكراهية بلا غرض تشبه الرّمي بلا دريئة. إن ما يثيرُ الاهتمامَ في اللعبة، هو قلبٌ ينبغي اختراقه.

لا يمكن للمرء أن يكره من أجل الشرّف فحسب. ولا بدّ من تتبيلٍ له، لا بدّ من رجلٍ أو امرأة، أو شخصٍ ينبغي تحطيمُه.

إن هذه الخدمة، خدمة أن تصبح اللعّبةُ ممتعةً، وتقديم هدفٍ لها، وإذكاء الكراهية بتثبيتها، وإلهاء الصيّاد بالنّظر إلى الطّريدة الحيّة، وبجعل المترصّد يأمل بالغليان الفاتر والدّاخن للدّم الذي سوف يسيل، وبإبهار قنّاص الطيّور بالسّذاجة المجنّحة للقبرّة على نحوٍ لا فائدة منه، وبأن يكون حيواناً كامناً لا

(*) بنات داناوس الخمسون اللواتي قتلن أزواجهن ليلة عرسهن، باستثناء إحداهن، وقد حُكِم عليهن بملء برميلٍ بلا قعر بالماء، كما تقول الأسطورة. (م: ز.ع).

فائدة منه، من أجل أن يجري القتلُ على يدِ شبح ما، هذه الخدمة اللذيذة والرهيبة والتي يدركها ذلك الذي يؤدِّيها، قد أدَّتها جوزيان لباركيلفيدرو.

إن الفكرة دنيئة. ومنذ اليوم الأوَّل، كان باركيلفيدرو قد أخذ يستهدف جوزيان بمقاصده السَّيئة والتي كانت في ذهنه. إن قصداً ما هو بندقيةٌ واسعةُ الفوهة. إنهما متشابهان. كان باركيلفيدرو يتربَّصُ، موجِّهاً ضدَّ الدَّوقة كل خبثه الخفيّ. هل هذا يدهشك؟ فماذا صنع لك العصفورُ الذي تطلقُ عليه طلقة بندقيَّة؟ ستقول لي: لكي آكله. وباركيلفيدرو أيضاً.

قلَّما كان يمكن لجوزيان أن تُصاب في قلبها؛ فالموضعُ الذي فيه لغزٌ يقبل الانجراح بصعوبة. غير أنها يمكن أن تصاب في رأسها، أي في غرورها.

ومن تلك الزاوية كانت تظنُّ أنها قويَّة وأنها ضعيفة.

وكان باركيلفيدرو قد تبيَّن ذلك.

لو استطاعت جوزيان أن تُبصرَ بوضوح في ليلِ باركيلفيدرو، ولو أمكنها أن تميِّز ما كان كامناً خلف تلك الابتسامة، لكانت تلك الشخصيَّة المعتدّه بنفسها، والعالية المقام إلى درجةٍ كبيرة، قد ارتعدت ربَّما. ولحسن الحظّ، فمن أجل أن تنام ملء جفونها، فقدْ كانت تجهل جهلاً مطبقاً ما كان في دخيلةِ ذلك الرَّجل.

إن غيرَ المنتظر يندفعُ بسرعةٍ من مكانٍ لا ندري ما هو، والأعماق السُّفلى للحياة مخيفة؛ فما من كراهيةٍ صغيرة. إن الكراهيةَ هائلةٌ دائماً. إنها تحافظ على قوامها في أصغر الكائنات، وتظلّ وحشيةً. إن الكراهية هي الكراهية كلّها. إن فيلٌ تكرهُه نملةٌ يكونُ في خطر.

إن باركيلفيدرو، حتّى قبل أن يضرب، كان يحسُّ بفرحٍ بدايةً لطَعْمِ العمل السيئ الذي كان يريد ارتكابه، لم يكن يعلم بعد ماذا سيصنع ضدَّ جوزيان. غير أنه كان عازماً على أن يصنع شيئاً. وكان قرارٌ من هذا النوع يُعتبرُ شيئاً مفرطاً في سوئه.

إن تدمير جوزيان، كان يمكن أن يكون نجاحاً زائداً عن الحدّ. ولم يكن يرتجيه مطلقاً. أما إذلالُها، وتصغيرُها، وتكديرها، وجعلُ عينيها الرائعتين تحمرّان من الدّموع، فذلك يعتبرُ نجاحاً. وكان ينوي ذلك. وبما أنه عنيدٌ

ومثابر، ومخلصٌ في عذابه للآخرين، ولا يمكن انتزاعه من ذلك، فإن الطّبيعة لم تكن قد صنعته على ذلك النحو من أجل لا شيء. كان ينوي فعلاً أن يجد الضّعف في لأمة جوزيان الذهبيّة، وأن يجعل الدّمَ يسيلُ من تلك اللاّعبة الأولمبيّة. وأيّة فائدة كان يجنيها من ذلك، ولنؤكّد على هذا؟ إنها فائدةٌ هائلة. إنها إيذاءُ ذلك الذي أُحسن إلينا.

من هو الحاسد؟ إنه ناكرٌ للجميل. إنه يمقتُ النورَ الذي ينيرُه ويدفئه. وزويل(*) يكره هذا المعروف الذي هو هوميروس.

أن يجعل جوزيان تخضعُ لما يمكن تسميته تشريحاً لكائنٍ حيٍّ، وأن يحصل عليها، وهي تختلج، على منضدة التشريح، وأن يشرّحها، وهي حيّة، وعلى مهلٍ، من خلال عملٍ جراحيٍّ معيّن، وأن يقطّعها كهاوٍ، في حين تجأرُ مُعولةً، إن هذا الحلم يفتنُ باركيلفيدرو.

للوصول إلى هذه النّتيجة، كان لا بدّ من التألمُّ قليلاً، ومن أن يجد ذلك حسناً. فيمكن للمرء أن يقرصَ نفسه بكماشته. والسّكين حين يُطوى ثانية يقطعُ أصابعك: فما أهميّةُ ذلك! وأن يعاني قليلاً من عذابِ جوزيان كان يمكن أن يكون سيّان عنده. إن الجلاّد الذي يستعملُ الحديدَ المحمّى له نصيبه من الحرق، ولا يحاذرُ من ذلك. ولأن الآخر يعاني أكثر، فلا يشعرُ المرءُ بشيء. وأن ترى المعذّب يتلوّى يزيحُ الألم عنك.

اصنع ما يضرّ، وليحدثْ ما يمكن أن يحدث.

إن بناء الأذى للآخرين يترافق بقبولٍ للمسؤولية قاتم. إن المرءَ يجازفُ بنفسه، وفي الخطر الذي يجعل شخصاً آخر يتعرّض له ما دامت ترابطاتُ كلِّ شيء يمكن تُفضي إلى انهياراتٍ غير متوقّعة. إن هذا لا يوقفُ إطلاقاً الشّرير الحقيقيّ. إنه يحسُّ وهو فرحٌ بما يشعر به المعذّبُ الغارقُ في القلق. إن هذا التمزّق يدغدغه. إن الرّجلَ السّيءَ لا ينشرحُ إلاّ انشراحاً فظيعاً. والتعذيبُ ينعكسُ عليه هناءً. كان الدّوق دالب يدفئ يديه على المحارق. موقد، فألمٌ، فانعكاسٌ، فمتعةٌ، وأن تكون انتقالاتٌ من هذه الشاكلة ممكنةً، فذلك أمرٌ يسبّبُ

(*) فضح زويّل تناقضات هوميروس وترهاته غير المعقولة (م: ز. ع).

الارتعاش. إن جانبَ الظلمات فينا لا يمكن سبرُغوره. العذاب اللّذيذ، هذا التعبيرُ الذي يرد عند بودان[*] ربما يكون له هذا المعنى الثلاثي الرّهيب: البحثُ عن العذاب، تألّمُ المعذَّبِ، لذّةُ المعذِّب. الطمّعُ والشّهوة. كلّ هذه الكلمات تعني وجودَ أحدٍ مضحىً به لأحدٍ مُشبَع الرغبة. إنه لأمرٌ محزنٌ أن يكون بوسع الرّجاء أن يكون منحرفاً. إن الحقدَ على مخلوقٍ معيّن، معناه أن يُراد له الشرّ، إن أحدَ أقسى ضروبِ الكدّ التي يمارسها الرّجلُ الصّالح هو أن يقتلعَ من نفسه بصورةٍ متواصلة سوءَ نيّة تُستدفدُ بصعوبة. إن كافةَ اشتهاءاتنا، إذا ما عاينّاها، تحتوي شيئاً لا نعترفُ به. وبالنسبة للشرّير الكامل، وهذا الكمال البغيضُ موجودٌ، فإن بئساً للآخرين يعني هذا أفضل بالنسبة لي. إنها عتمةُ الإنسان، ومغاوِرُه.

كان لدى جوزيان ذلك الفيضُ من الأمان الذي يمنحه الغرورُ الجاهل، والذي هو مكوّن من ازدراء كلّ شيء. إن مَلكة الاحتقار الأنثوية فائقة. إنه احتقارٌ لا شعوريّ، ولا أرادي وواثق. وكانت هذه هي حال جوزيان. وباركيلفيدرو بالنسبة إليها كان شيئاً جامداً تقريباً. ويمكن أن تعتريها الدّهشةُ فعلاً لو قيلَ لها إن باركيلفيدرو هو شيء له وجود.

كانت تروح وتجيء وتضحك أمام هذا الرّجل الذي كان يتأمّلها بصورةٍ مواربة. أما هو فقد كان يترصّدُ مناسبةً معيّنة.

وكلّما كان ينتظر، كان عزمُه على أن يُلقي في حياةِ تلك المرأة يأساً معيّناً يزداد.

إنه تربُّصٌ لا يرحم.

ومن جهةٍ أخرى فقد كان يعطي نفسه مبرّراتٍ ممتازة. ولا ينبغي أن نظنّ أن الأنذال لا يقدّرون أنفسهم، وهم يحسبون حساباتهم من خلال مناجياتٍ متكبرّة، ويجيبون على ذلك بعجرفةٍ كبيرة جداً. فكيف؟ هل كانت جوزيان هذه قد قدمت له الصّدقة!

وكانت تُفتّت عليه، كما على متسوّلٍ، بعضَ الفلوس، ومن ثروتها الهائلة!

(*) اقتصادي وكاتب سياسي فرنسي، له بحثُ "الجمهورية" (١٥٣٠- ١٥٩٦).

كانت قد قيّدته وسمرته في وظيفةٍ غير لائقة! فإنْ كان، هو باركيلفيدرو، رجلُ الكنيسة تقريباً، وذو الكفاءة المتنوعة والعميقة، والشخصيّةُ العالمة، والذي يرتدي ثوبَ رجلٍ مبجّل، وإذا كان عملُه هو تسجيلَ كسراتِ خزفٍ تصلحُ لتقشير بثرات أيوب، وإنْ كان يُمضي حياته في كوخٍ حقير هو قلمُ تسجيلٍ ينزع فيه بصورةٍ جدّيةٍ سداداتِ زجاجاتٍ غبيّة مرصّعةٍ بكلّ قذارات البحر، ويفكُّ فيه رموزَ الرّقوقِ المتعطّنةِ، ونتانات الطلاسم، وقاذورات الوصايا، ولا ندري أيّ هراءٍ غير مقروء، فقد كان ذلك ذنبَ جوزيان! فكيف كانت تلك المخلوقةُ ترفعُ معه الكلفةَ (تخاطبه بالمفرد)!

ولا يثأر لذلك!

ولا يقتصّ من ذلك الصّنف من البشر!

هكذا هو الأمر ولكن! ربّما لم تعدْ هناك في هذه الحالة عدالةٌ في هذا العالم الأرضيّ!

X
الالتماعات التي قد نراها
إذا كان الإنسان شفافاً

ماذا! هذه المرأة، هذه المشتطّة، هذه الحالمةُ الشّهوانيّة، والعذراء إلى أن تحين الفرصة، تلك القطعة من اللحْم التي لم تُسلِّم نفسها بعد، وتلك السّفاهة ذات التاج الأميريّ، وإلهة الصيّد من حيث غرورها، والتي لم يأخذْها بعد أوّلُ القادمين. فليكنْ، وربّما كما يقال، وأنا موافق على ذلك، لعدم وجود مصادفة، فإن هذه الابنة غير الشرعية لذلك الملك الوغد الذي لم تكن لديه النباهة ليبقى في مكانه، وهذه الدّوقة بضربة حظّ، والتي، إذْ أصبحت سيدةً عظيمةً، كانت تلعب دور الإلهة، والتي كان يمكن أن تكون عاهرة، لو كانت فقيرة، وهذه السيدة النبيلة (الليدي) تقريباً، وسارقة ممتلكات رجلٍ مُبعَد، وهذه الفاسقةُ المتعجرفة، لأن باركيلفيدو، ذات يوم، لم يكن لديه ما يتعشّى به، ولأنه كان بلا مأوى، وبلغت بها الصّفاقةُ أن أجلسته في منزلها إلى طرف مائدة، وأن تؤويه في وجار، داخل جحرٍ ما من قصرها الذي لا يُطاق، وأين ذلك؟ في أيّ مكان، ربّما في مخزن الغلال، وربما في القبو. وماذا يعني هذا؟ أفضل بقليل من الخدم، وأسوأ بقليل من الخيول! كانت قد أساءت استخدامَ ضائقته هو، باركيلفيدرو، لتسارع إلى أن تؤدّي له خدمةً بشكلٍ غادر، وهذا ما يفعله الأغنياء لإذلال الفقراء، وهو أن يربطوهم بهم كالكلاب المعوّجة القوائم التي تُقاد بالرّسن! وماذا كانت تلك الخدمة تكلّفها من جهةٍ أخرى؟ إن خدمةً ما تعادلُ ما تكلّفه. كانت لديها غرفٌ زائدة في منزلها. أما أن تأتي لمساعدة باركيلفيدو! فياله من جهدٍ رائعٍ قد قامت به لذلك! هل أكلت ملعقة

أقلّ من حساء السّلحفاة؟ هل حرمت نفسَها من شيء من فيضِ الأشياء الزائدة الكريه؟ كلاّ. كانت قد أضافت لهذا الشيء الزائد ادّعاءً، وشيئاً كلاميّاً، وصنيعاً جيداً على شكلِ خاتمٍ في الإصبع، ورجلاً نبيهاً تمّت إغاثتُه، ورجلَ دينٍ مُعضَد! كان يمكنها أن تتعاظمَ وهي تقول: "إنّي أغدق النِّعم، وأعطي الزّقة لعدد من الأدباء، وأكون حاميةً له! إنه محظوظ لأنه قد عثر عليّ، هذا البائس! فأيّةِ صديقةٍ للفنون أنا!" إن كلّ هذا لأنها قد نصبت سريراً من السُّير في حجرةٍ صغيرة تحت الرُّدوم! أما عن مركزه في إمارة البحر؛ فقد كان باركيلفيدرو قد حصل عليه عن طريق جوزيان، عجباً! يا للوظيفة الجميلة! لقد صنعت جوزيان من باركيلفيدرو ما كان عليه، لقد خلقته، فليكن، أجل، لقد خلقت لا شيء، وأقلّ من لا شيء، لأنه كان يحسّ أنه، في هذا التكليف المضحك، ملويٌّ، ومتصلّبٌ، ومشوّهٌ!. فبمَ كان يدين لجوزيان؟ بعرفان جميل الأحدبِ لوالدته التي جعلته مشوّهاً. هذه هي الامتيازات، وهؤلاء هم النّاس الذين أُسبِغت عليهم النّعم، هؤلاء الوصوليّون، وأثيرو زوجةِ الأب الكريهة التي هي الحظّ! والرّجل ذو المواهب، وباركيلفيدرو، كان مجبراً على الاصطفاف على الأدراج، ليلقي التحيّة على الخدم، وأن يتسلّق مساءً عدداً من الطوابق، وأن تكون على خطمة تكشيرةُ احترام! آه لو لم يكن هناك ما يدعو إلى صرِّ الأسنان غضباً! وخلال ذلك الوقت كانت تضعُ لآلئ في عنقها، وتتخذُ وضعياتٍ غرامية مع أهبلها اللورد دافيد ديري – موار، الفاجرة!

لا تقبل أن تؤدّى لك خدمةٌ قطّ. فلسوف يُساءُ استخدامُها. ولا تدعْ نفسك يُقبضُ عليك بالجرم المشهود وأنت جائع. فقد يلبّون حاجتك. ولأنه كان بلا خبز، فإن تلك المرأة قد وجدت الذّريعة الكافية لتعطيه ما يأكل به!

ومنذ ذلك الوقت أصبح خادمها! خورٌ في المعدة، وها هو يصيرُ مصفّداً مدى الحياة!

فأن يكون المرءُ مديناً هو أن يكون مُستغَلاً. إن المحظوظين والمقتدرين يفيدون من اللحظة التي تمدّ فيها يدك لكي يضعوا فلساً داخلها، ومن الدّقيقة التي تصبحُ فيها جباناً لتصنع من نفسك عبداً، وعبداً من أسوأ الأصناف، عبداً

للحسنة، عبداً مجبراً على المحبّة! فأي خزي! وأيّة فظاظة! وأية مفاجأة لأنفتنا! وينتهي الأمر. ها أنت محكومٌ أبداً بأن تجد هذا الرّجل طيّباً، وأن تجد هذه المرأة جميلة، وأن تبقى في المستوى الثاني للتابع، تستحسن، وتصفّق، وتبدي الإعجابَ، وتُبخرّ، وتسجد، وتضع في دواغصك جُسأة[*] الركوع، وتحلّي كلامك، حين يتآكلك الغضب، وحين تلوك صرخات السّخط، وحين يكون في نفسك هيجانٌ وحشيٌ وزبدٌ مريرٌ أكثر مما في المحيط!

على هذا النحو إنما يسجنُ الأغنياءُ الفقيرَ.

إن دبقَ العمل الطيّب الذي يرْتكبُ ضدك يلطّخُك ويمرّغُك في الطّين بشكلٍ نهائي.

إن حَسَنةً ما يتعذّر إصلاحُها. والاعترافُ بالجميل هو شلل. وللجميل التصاقُ لزجٌ ومقرّزٌ ينتزعُ منك حركاتك الحرّة. إن الكائناتِ الكريهةَ الثريّةَ والمتخمةَ والتي تعاقبك بقسوة تعلم هذا. لقد تمّ ذلك. إنك شيئُها وقد اشترتك. بكم؟ بعظمةٍ، انتزعتها من كلابها لتقدّمها إليك. وقد رمت بهذه العظمة على رأسك. لقد جرى رجمُك بقدر ما تمتّ نجدتُك، إن الأمر سيّان. لقد قضمتَ العظْمة، نعم أم لا؟ ولقد حصلتَ على نصيبك من الوجار. فلتشكرْ إذن. لتشكر على الدّوام. ولتعبدْ أسيادك. وليكن هناك سجودٌ لا نهاية له. إن المعروف يتضمّن إضماراً لدونيّةٍ ارتضيتَها لنفسك. إنهم يقتضون منك أن تشعر بأنك إنسان مسكين، وأنك تحسّ بأنهم آلهة. إن تصغيرك يكبّرهم، وانحناءك ينصبُ قامتهم. إن في نبرة صوتهم ظلاّ رقيقاً وقحاً. إن حوادثهم العائلية، وزيجاتهم، ومعموديّاتهم، وأنثاهم التي تحبل، والصّغار الذين تنتجهم، هذا يعنيك. فيولد لهم جرموزٌ، حسناً، فلسوف تؤلّف سونيته[*]. إنك شاعرٌ لأنك تافه. ولعلّ ذلك لا يجعل النجوم تسقط! وبعد ذلك بقليل، قد يجعلونك تُبلي أحذيتهم القديمة!

ماذا لديكِ هنا إذن، يا عزيزتي؟ كم هو قبيح! وما هذا الرّجل؟ – لا أدري، إنه كويتبٌ فاشل(١٤٤) أُطعمه'. هكذا تتحادث هؤلاء البلهاوات. وحتى

(*) الداغصة هي العظم المتحرك في الركبة والجسأة هي الجلد المتقرّن. (م: ز.ع).

(*) السّونيتة قصيدةٌ شعرية من أربعة عشر بيتاً (م: ز. ع).

من دون أن يخفضن أصواتهن. إنك تسمعُ، وتظلّ لطيفاً على نحوٍ آليّ. ومع ذلك، فإذا كنت مريضاً، فإن أسيادك سيرسلون إليك الطّبيب. وليس طبيبهم. وفي تلك الفرصة، يستعلمون. وبما أنهم ليسوا من صنفك نفسه، وبما أن ما يتعذّر بلوغُه في جهتهم، فهم ودودون. إن وعورتهم تجعلهم يسيري المقابلة. إنهم يعلمون أن المستوى الموحّد متعذّر، ولفرط احتقارهم، فهم مهذّبون. وعلى المائدة، يومئون لك برؤوسهم إيماءةً صغيرة. وأحياناً، يعرفون إملاء اسمك. ولا يجعلونك تحسّ بأنهم حماتك، إلاّ إذا ساروا بسذاجةٍ على كلّ ما لديك من أمور حسّاسة ومرهفة. إنهم يعاملونك بطيبة!

هل هذا أمرٌ مخزٍ كفاية؟

من المؤكّد أنه قد أصبح أمراً ملحّاً معاقبةُ جوزيان. وكان ينبغي أن نعلّمها مع من تتعامل! آه! أيّها السّادة الأغنياء، لأنكم لا تستطيعون أن تستهلكوا كلّ شيء، ولأن الثراءَ قد يؤدّي إلى سوء الهضم، نظراً لصغر معداتكم المساوية لمعداتنا، وفي نهاية المطاف، لأنه من الأفضل لكم أن توزّعوا البقايا من أن تتلفوها، فأنتم تقيمون هذه الخبيصة التي تُرمى إلى الفقراء بكرم! آه! إنكم تعطوننا الخبز، وتعطوننا ملجأً، وتعطوننا ملابس، وتعطوننا عملاً، وتتمادون في الجرأة، والجنون، والقسوة، وعدم اللياقة، ومنافاة العقل حتى تظنّوا أننا مدينون لكم! إن هذا الخبز، هو خبزٌ عبوديّة، وهذا الملجأُ هو غرفةُ خادم، وهذه الملابسُ هي خلعة، وهذا العملُ هو شيءٌ تافه، مدفوعُ الأجر، ولكنه مخبّل! آه! إنكم تظنّون أن لكم الحقّ في إذلالنا بمسكنكم وغذائكم، وأنتم تتصوّرون أننا مدينون لكم، وأنتم تتكلّون على اعترافنا بالجميل! حسناً، سوف نأكل بطنك! حسناً!. سوف ننتزع أحشاءك، أيها السّيدة الجميلة، وسوف نلتهمك كلّك وأنت حيّة، وسوف نقطعُ نياطَ قلبك بأسناننا!

يا لجوزيان هذه! ألم يكن ذلك وحشيّاً؟ وأي استحقاقٍ كان لها؟ كانت قد صنعت ذلك العملَ الرائعَ بأن أتت إلى العالم شاهدةً على حماقةِ والدها وعارِ والدتها، لقد كان لها الفضلُ علينا بأن وجُدتْ، وذلك التّلطف بأن تكونَ فضيحةً عامّة. وقد دُفعت لها الملايين من أجل ذلك، فكانت لديها أراضٍ وقصورٌ، ومؤرنبات، ومناطقُ للصّيد، وبحيرات، وغابات، وما أدراني أنا أيضاً؟ ومع

ذلك فقد كان يعتبرُها حمقاء! أما هو، باركيلفيدرو، الذي كان قد درسَ واشتغل، والذي تجشّم العناء، وحشر كتباً ضخمة في عينيه وفي دماغه، وتعفّن في الكتب القديمة، وفي العلم، وكان لديه قدرٌ هائل من النباهة، ويمكن أن يقودَ جيوشاً بشكلٍ جيِّد جداً، ويكتبَ مسرحياتٍ مأسويّةً شأن أوتوي ودريدن، لو شاء، هو، الذي خُلق ليكون إمبراطوراً، قد آل به الأمرُ ليسمحَ لهذه اللاشيء على الإطلاق بأن تحولَ دون أن يفطسَ من الجوع! واغتصابُ هؤلاء الأغنياء، هؤلاء المقيتين الذين اصطفتهم الصّدفة، هل يمكن أن يمضي إلى أبعد من ذلك! أي أن يتظاهروا بأنهم كرماء معنا، وأن يحمونا، ويبتسموا لنا، نحن الذين قد نشربُ دمهم، ونلحسُ شفاهنا بعد ذلك! أما أن تكون لا مرأةَ البلاطِ الوضيعة القدرةُ المقزّزةُ لتكونَ محسنةً، وأن يمكن للرّجل المتفوّق أن يُحكمَ عليه بالتقاطِ فضلاتٍ من تلك النوع ساقطةٍ من يدٍ مماثلة، فأيّ جورٍ أكثر فظاعة من هذا! وأيّ مجتمعٍ ذلك الذي تتكوّن قاعدتُه من التفاوت والتعسّف إلى تلك الدّرجة؟ أليس هذا هو الأوان الذي يجري فيه القبضُ على كلّ شيء من زواياه الأربع، وإرسالُ سماطِ المأدبةِ دون نظام، إلى السّقف وكذلك القصفُ والسّكرُ، وإدمان الخمرة، والمدعووين، وأولئك الذين هم على بعدِ كوعين من المائدة، والذين هم على أطرافهم الأربعة تحتها، والوقحين الذين يُعطون، والحمقى الذين يقبلون، وقذفُ كلّ شيء بوجه الإله، وإلقاء كلّ الأرض إلى السّماء! وبالانتظار، فلنغرزْ مخالبنا بجوزيان.

هكذا كان يفكرُ باركيلفيدرو. وكانت تلك هي الزّمجرات التي تتردّد في نفسه.

وهذه هي عادةُ الحاسد في تبرئة نفسه من خلال دمجِ تظلُّمه الشخصيّ بالشرّ العام. كانت كلُّ أشكالِ الأهواء الحاقدة المخيفة تروح وتجيء في ذلك العقل المفترس. وفي زاويةِ خرائط الأرض القديمة في القرن الخامس عشر، نجدُ مساحةً واسعةً غيرَ واضحةٍ ولا شكلَ لها، ولا اسمَ لها. وتكتب منها هذه الكلمات الثلاث: Hic sunt Leones(*). إن هذه الزّاوية المظلمة هي موجودةَ أيضاً في الإنسان.

(*) هذه هي الأسود (باللاتينية م: ز. ع).

إن الأهواء تجوسُ وتزمجرُ في مكانٍ ما فينا، ويمكن أن نقول أيضاً من جهةٍ معتمة من روحنا؛ ثمة أسود هنا.

وهذا التكديسُ لمحاججاتٍ وحشيّة هل كان منافياً للعقل تماماً؟ وهل كان ذلك يفتقرُ إلى محاكمة معيّنة؟ لا بدّ حقّاً من قول ذلك، كلاّ.

من المرعب أن يفكرّ المرء بأن هذا الشيّءَ الموجودَ في نفسه والذي هو المحاكمةُ، ليس العدالة. إن المحاكمة هي النسبيّ. أما العدالةُ فهي المطلق. ففكّروا بالفارق بين قاضٍ ورجلٍ صالح.

إن الأشرار يسيئون استخدام الضّمير بصورةٍ تحكُّميّة. إن هناك تدرّباً رياضيّاً على الزائف؛ فالسّفسطائيّ مزيّف. وفي الفرصة المناسبة، فإن هذا المزيّف يعاملُ العقلَ السّليم بعنف. إن منطقاً معيناً شديد المرونة، وجدّ قاسٍ ورشيقاً إلى حدٍّ كبير هو في خدمة الشرّ، وهو يبدعُ في تجريحِ الحقيقة في الظّلمات. إنها لكلماتٌ مشؤومةٌ موجهةٌ من الشيطان إلى الرّب.

إنّ سفسطائياً من هذه الشاكلة، يُعجبُ به البلهاء، ولا يفخر بشيء آخر سوى بأنه قد وجه "اللّطمات والكدمات" للضّمير البشريّ(١٤٥).

إن الأمرَ المحزنَ هو أن باركيلفيدرو قد كان يستشعرُ إجهاضاً. وقد شرع يقوم بعملٍ واسع، وإجمالاً، كان يخشاه على أيّة حال، مهما كان ضررُه قليلاً. أي أن يكون رجلاً خبيثاً، وأن تكون لديه إرادةٌ فولاذية في دخيلته، وحقدٌ ماسيّ، وفضولٌ مستعرٌ للكارثة، وألا يُحرق شيئاً، ولا يقطع رأس شيء، ولا يبيد شيئاً! أن يكون كما كان عليه، قوّة تدمير، وبغضاً شرساً، وقاضماً لسعادة الآخرين، وأن يكون قد خُلق - (لأن هناك خالقاً، الشيطان أو الرّب، لا أهمية لمن يكون!) - أن يكون قد خُلق بشكلٍ مصطنع ليكون باركيلفيدرو، ولكي لا يحقق إلا نقرةً بالإصبع، هل هذا ممكن! ويخطئ باركيلفيدرو ضربته! أيكون نابضاً يقذفُ قطعاً من الصخر، ويُفلت زناده كلّه لكي يُحدث لامرأةٍ متصنعّة تورّماً في جبينها! منجنيقٌ

يُحدثُ ضررَ نقفةٍ بظفرِ الإصبع! إنجازُ عملٍ جديرٍ بسيزيف من أجل نتيجةٍ تصلُ إليها نملة! أن ينضح بكلّ الكراهية من أجل لا شيء تقريباً! ألا يكفي هذا الإذلالُ حين يكونُ المرءُ آلةَ عداوةٍ يمكن أن تسحقَ العالم! وأن يشغّل المرء كلّ دوّاماته، وأن يصنع في الظلام ارتباكاً تحدثه آلةُ مارلي(١٤٦) لكي يفلح ربما في قرصِ طرفِ إصبع صغير ورديّ! كان سيقلبُ كتلاً صخرية، ويُعيِّد قلبها لكي يصل، ومن يدري؟ إلى تغضينِ سطحِ البلاط المنبسط بعض الشيء! فدى الربُّ هذا الهوى الغريب في صرفِ القوى بوفرة.

إن تحريكاً للجبل يؤدي إلى تبديلِ موضعِ كومة الخلد.

فضلاً عن هذا، وبما أن البلاط أرضٌ غير مألوفة، فما من شيءٍ أكثر خطراً من أن يصوب المرءُ فيه على خصمه وأن يخطئه. فهذا أولاً يكشفُ قناعك أمام عدوك، وهذا ما يغطيّه. ثم أن هذا، خصوصاً، لا يروق للسيِّد. فالملوك قليلاً ما يستحسنون الخرق. فما من كدماتٍ، وما من لطماتٍ قبيحة. فلتذبحْ الجميع، ولا تجعلْ أحداً ينزفُ من أنفه. إن من يقتلُ ماهر، ومن يجرحُ أحمق. إن الملوك لا يحبّون أن يتسبّبَ المرءُ في عرج خدمهم. ولسوف يحقدون عليك إذا ما شققت قطعةَ خزفٍ فوق موقدهم، أو رجل بلاط في موكبهم. فالبلاط ينبغي أن يبقى نظيفاً، فاكسرْ، وبدّلْ، هذا جيد.

إن هذا يتّفق فوق ذلك اتّفاقاً تاماً مع الميل إلى الاغتيالات والذي هو لدى الأمراء. فلتغتبْ، ولكن لا تفعلْ شرّاً. أو، إذا ما فعلت، فليكن ذلك بالجملة.

اطعنْ، ولكن لا تخدشْ، وإلاّ إذا كان الدبوس مسموماً. أما الظروفُ المخففةُ، فقد كانت، ولنذكّر بذلك، حالة باركيلفيدرو.

إن كلَّ قزمٍ حاقد هو القارورةُ التي يُحبسُ فيها تنيّنُ سليمان(١٤٧). وهي قارورةٌ مجهريّة، فيها تنيّنٌ مفرط الضخامة. إنه تكثيفٌ هائلٌ ينتظرُ ساعةَ التوسّع العملاقة. وهذا ضجرٌ يتعزّى بالإعداد المسبق لانفجار. إن

المحتوى أكبر من الحاوي؛ فالعملاقُ الكامنُ، أيّ شيءٍ غريبٍ هذا! جَرَبٌ قمليٌ فيه أفعوان! فأن يكون تلكَ العلبةَ الفظيعة، علبةَ المفاجآت، وأن يحتوي في ذاته ليفياتان(*)، هذا بالنسبة للقزم عذابٌ ولذّة.

وهكذا لم يكن لشيء أن يجعل باركيلفيدرو يتخلّى عن هدفه. وكان ينتظر ساعته. فهل تأتي؟ ما أهمية ذلك؟ كان ينتظر. حين يكون المرءُ سيئاً جداً، فإن كبرياءه تتدخّل. إن إحداثَ ثقوبٍ وأعمالَ حفر في الحظّ السّعيد، حظّ البلاط، الذي هو أعلى منا، وجعله يتآكل تحت مسؤوليّته، مهما كان المرء خفيًّا ومخبأً، ولنؤكّد على هذا، هو أمرٌ مثيرٌ للاهتمام. إن المرءَ يتحمّسُ بلعبةٍ كهذه. إنه يشغفُ بذلك كما بقصيدةٍ ملحميّة يؤلّفها المرء. وأن يكون المرء صغيراً جدًّا، وينقضّ على شخصٍ ما كبيرٍ جدًّا هو عملٌ باهر. فمن الجميل أن يكون المرءُ برغوثَ السّبع.

إنّ الحيوانَ المتعاظم يشعر بأنه قد قُرص، وهو يبدّد غضبه الهائل ضدّ الذرّة. إن نمراً يصادفه قد يزعجه بدرجةٍ أقلّ. وها قد تبدّلت الأدوار. إن السّبعَ الذي أذلّ يحملُ في لحمه شوكةَ الحشرة، ويمكن للبرغوث أن يقول: لدي في جسمي شيء من دم السّبع.

مع ذلك، لم تكن تلك الأمورُ سوى تهدئاتٍ جزئيةٍ بالنسبة لغرور باركيلفيدرو. إنها ترضياتٌ. وملطّفات. إن المضايقةَ شيءٌ، والتّعذيب أفضل منها. إن باركيلفيدرو، وهذه فكرة غير مستحبّة تأتيه باستمرار، لم يكن ممكناً أن يكون له بوجه الاحتمال نجاحٌ آخر سوى أن يخدش بشرة جوزيان بشكلٍ ضعيف. فما الذّي كان يمكنُه أن يأمله أكثر من ذلك، وهو الشديد الصّغرِ بمواجهتها، وهي الشّديدة التألّق! فالخدشُ كم هو قليل، بالنسبة لمن يريد كلّ حمرةِ الكشط، كشطِ اللحم الحيّ، وزمجراتِ المرأة التي هي أكثر من عارية، والتّي لم تعد تتلفّعُ حتى بذلك القميص، الذي هو الجلد! ومع رغباتٍ كهذه، كم هو أمرٌ مزعجٌ أن يكون المرء عاجزاً! فوا أسفاه! لا شيء كامل.

(*) في الأساطير الفينيقية، مسخٌ مذكور في الكتاب المقدس. وهو كتابٌ لهوبز يضع فيه مبادئة في الحسيّة والمادّية والنفعية (م: ز.ع).

لقد كان راضخاً إجمالاً. وبما أنه لم يكن بمقدوره القيامُ بما هو أفضل، فلم يكن يحلم إلاّ بنصف حلمه. إن القيام بخديعةٍ سوداء، ذلك هو هدفُه، في نهاية المطاف.

أيّ رجلٍ يكون ذلك الذي ينتقم لجميلٍ أُسْدي إليه! كان باركيلفيدرو جبّاراً. وعدمُ العرفان بالجميل يكون نسياناً في العادة. وقد كان لدى هذا المتميّز في الشرّ غضباً مسعوراً. إن العاقّ المبتذل مملوءٌ بالرّماد. فبمَ كان باركيلفيدرو مليئاً؟ بأتون. أتونٍ مسوّرٍ بالكراهية، والغضب، والصّمت، والضّغينة، وينتظر جوزيان كوقودٍ له. لم يمقتْ رجلٌ قطّ امرأةً إلى تلك الدّرجة من غير سبب. فأيّ شيء رهيبٍ هذا! لقد كانت أرَقَهُ، وشُغلَه الشّاغل، وضجَره، وسُخطه.

لربّما كان مغرماً بها قليلاً.

X
باركيلفيدرو متربّصاً

أن يجدَ الموضعَ الحسّاسَ لدى جوزيان وأن يضربها فيه، ولكلّ الأسباب التي قلناها منذ قليل، تلك كانت رغبةُ باركيلفيدرو الثّابتة.

إن الرّغبة لا تكفي، ولا بدّ من القدرة.

فكيفَ يتعاملُ مع الأمر بمهارة؟

كانت تلك هي المسألة.

إن الأوغادَ المبتذلين يرسمون بعنايةٍ خطّةً (سيناريو) النّذالة التي يريدون ارتكابها. ولا يشعرون بأنهم على درجةٍ كافية من القوّة بحيث ينتهزون الحادثةَ على عجلٍ لكي يمسكوا بها طواعيةً أو بالقوّة، ولكي يجبروها على خدمتهم. ومن هنا تأتي توافقاتٌ تمهيديةٌ يزدريها الأشرارُ المعرقون. إن كلّ قبليّتهم هي الخبث. وهم يكتفون بالتسلّح بكلّ شيء مصطنع، ويحضرّون بضعةَ أشياء معدّةً لوقت الحاجة ومتنوّعة، وشأن باركيلفيدرو، يترقّبون الفرصة ببساطة. إنهم يعلمون أن مخططاً معدّاً مسبقاً هو عرضةٌ لخطر الاندماجِ في الحادثة التي ستكون حاضرة. فلا يصبح المرءُ على هذا النّحو مسيطراً على الممكن، ولا يصنع منه ما يريد. ولا يكون للمرء محادثةٌ مع القدر. والغد لا يخضع لنا؛ فللمصادفةِ شيء من عدم الانتظام.

إنهم يرقبونها كذلك لكي يطلبوا إليها أن تتعاون معهم، بالقوّة، وفوراً. فما من خطّة، وما من رسمٍ منجزٍ، وما من تصميمٍ تمهيديّ، وما من حذاءٍ جاهزٍ يمكن أن يُنعلَ به المتوقّع بصورة سيئة. إنهم يغطسون عمودياً في السّواد، والإفادةُ المباشرة والسّريعة من أيّة واقعة يمكن أن تساعد، تلك

المهارةُ التي تميّز الشرّيرَ الفاعلَ، والتي ترفع النّذل إلى مرتبةِ الشّيطان؛ فمباغتةُ القدر هي العبقريّة.

إن الوغدَ الحقيقيَّ يضربُك مثل مقلاعٍ بأوّلِ حصاةٍ متوفّرة.

إن الأشرار المقتدرون يعتمدون على غير المنتظر، ذلك المساعد المشدوه للكثير من الجرائم.

إنه الإمساكُ بالحادثة، والقفزُ فوقها، فما من فنٍّ مؤثّرٍ آخر لهذا النّوع من الموهبة. وبالانتظار، معرفة الشخص الذي نتعامل معه، وسبرغور الأرض.

بالنسبة لباركيلفيدرو، كانت الأرض هي الملكة آنّا.

وكان باركيلفيدرو يقتربُ من الملكة.

يقتربُ منها إلى درجةٍ كبيرة أحياناً بحيث كان يتصوّرُ أنه يسمعُ مناجيات جلالتها.

وأحياناً كان يحضرُ أحاديثَ الشقيقتين، وهذه نقطةٌ يُحسبُ حسابها. ولم يكن يحظر عليه أن يدسّ كلمة، ويُفيدُ من ذلك لكي يصغرّ نفسه، وتلك وسيلةٌ للإيحاء بالثّقة.

وهكذا فذات يوم في هامبتون - كورت، في الحديقة، وإذْ كان وراء الدوقة التي كانت وراء الملكة، سمع التي تمتثلُ بتثاقلٍ للدرُجة، تطلقُ هذه الأحكام.

كانت الملكة تقول:

"إن الحيوانات سعيدة لأنها لا تواجه خَطَر الذهاب إلى الجحيم.

فردّت جوزيان:

"إنهم فيه".

إن هذا الردّ الذي كان يحلُّ الفلسفةَ فجأةً محلَّ الدين، لم يرُقْ للملكة. ولقد صُدمت الملكة، مع أن هذا الردّ قد كان عميقاً بالصّدفة.

وقالت لجوزيان:

"يا عزيزتي، إننا نتكلّم عن الجحيم مثل حمقاوين. فلنسألْ باركيلفيدرو عن الأمر. فلا بد أن يعرف هذه الأشياء.

فسألت جوزيان:

– كشيطان؟

فأجاب باركيلفيدرو:

– كحيوان.

وحيّاهما.

فقالت الملكةُ لجوزيان:

"يا سيّدتي، إنه أكثرُ نباهةً منّا."

بالنسبة لرجلٍ مثل باركيلفيدرو، إن الاقترابَ من الملكة، كان معناه الإمساك بها. وكان يمكنه أن يقول: لقد امتلكتُها. والآن، كان يلزمُه الطريّقة لاستخدام ذلك.

لقد وضع قدمه في البلاط. فأن يكون قد تمركز هو أمرٌ رائع. فلم يعد ممكناً أن تفوتَه أيّةُ فرصة. وأكثر من مرّة، كان قد جعل الملكةَ تبتسمُ بصورةٍ خبيثة، وكان ذلك سماحاً بالصيّد.

ولكن هل كانت هناك أيّةُ طريدةٍ محميّةٌ؟ وهذا السّماحُ بالصيّد، هل كان يصل حتى كسر جناحٍ أو قائمةِ شخصٍ ما مثل شقيقة جلالتها بالذّات؟

النقطةُ الأولى التي ينبغي إيضاحها. هل كانت الملكة تحبُّ شقيقتها؟

يمكنُ لخطوةٍ خاطئةٍ أن تضيّع كلّ شيء. وقد كان باركيلفيدرو يراقب.

إن اللاّعبُ، قبل أن يباشرَ اللعبة، ينظرُ إلى أوراقه. فأيّةُ أوراقٍ رابحةٍ يحمل؟

لقد بدأ باركيلفيدرو بمعاينة عمر المرأتين: فجوزيان عمُرها ثلاثة وعشرون عاماً، وآنا واحد وأربعون عاماً. كان ذلك جيّداً. لقد صارت لديه لعبة.

إن اللحظة التي تكفُّ فيها المرأة عن العدّ بالرّبيعات، وتبدأ بالعدّ بالشّتاءات هي لحظةٌ تثيرُ السّخط. إنها ضغينةٌ خفيّةٌ ضدّ الزّمن يحملُها المرء في نفسه. فالحسناوات الشّابات المتألّقات اللواتي هنّ عطورٌ بالنسبة للآخرين، هنّ أشواكٌ بالنسبة إليك. ومن هذه الوردات كلّها، إنّما تحسُّ بلسعتها. يبدو أن كلّ هذه النّضارة قد أُخِذتْ منك، وأن الجمالَ لا يتناقص فيك، إلاّ لأنه ينمو عند الآخرين.

إن استغلالَ هذا المزاج السّيء، وحفرَ تجاعيدِ امرأةٍ في الأربعين هي ملكة، قد أُوحي به لباركيلفيدرو.

الحسدُ يبدعُ في إثارةِ الغيرة كما يبدعُ الفأرُ في إخراجِ التمّساح.

كان يرى في الملكة مثلما نرى في ركودٍ ما؛ فللمستنقعِ شفافيتّه. وفي الماء القذر نرى المفاسد، وفي الماء العكر نشاهدُ الحماقات. وآنّا لم تكن سوى ماءٍ عكر.

أجنّةُ مشاعر، ويرقاناتُ أفكار كانت تتحرّكُ في ذلك الدّماغ الثخين.

قلّما كان ذلك واضحاً، ولا تكاد تكون له حدود. ومع هذا فقد كان حقائق واقعة، مع أنها عديمةُ الشكل. كانت الملكة تفكّر بهذا، وكانت الملكة ترغب في ذاك. أما تحديدُ أيّ شيء فقد كان صعباً. إن فالتّحوّلاتُ المختلطةُ التي تجري في الماء الراكد عسيرةٌ على الدّرس.

أما الملكةُ، التي عادةً ما تكون قاتمةً، فقد كانت لها بُرهاتُ صحوٍ حمقاء ومفاجئة. وكان هذا ما ينبغي الإمساكُ به. كان ينبغي أن يُقبض عليها متلبّسة.

فماذا كانت الملكةُ آنّا، في دخيلتها، تريدُ من الدّوقة جوزيان؟ هل تريدُ لها الخيرَ أم الشرّ؟

إنها مشكلة، وقد طرحها باركيلفيدرو على نفسه.

وإذا ما حُلّت هذه المشكلة؛ فيمكنُ له الذهاب إلى أبعد منها.

إن مصادفاتٍ مختلفةً قد خدمت باركيلفيدرو. وخصوصاً عناده في الترقّب.

كانت آنّا، من جهة زوجها، قريبةً بعض الشيء لملكة بروسيا الجديدة، وزوجةَ الملكِ ذي المئة حاجب، ولديها صورةٌ لها مرسومةٌ بالطّلاء الخزفي حسب طريقة توركيه دومايرن. وقد كانت لملكة بروسيا هذه أيضاً، شقيقةٌ أصغر منها، هي البارونة دريكا.

ذات يوم، وكان باركيلفيدرو حاضراً، طرحت آنّا على سفير بروسيا أسئلةً حول دريكا هذه قائلة:

يُقال إنها غنيّة؟

فأجاب السّفير:

- غنيّة جدّاً.

- لديها قصور؟

- أعظم من قصور الملكة شقيقتها.

- فمن ينبغي أن تكون تزوّجت؟

- سيّداً إقطاعيّاً كبيراً جداً. هو الكونت غورمو.

- ووسيم؟

- ساحر.

- وهي شابّة؟

- شابة تماماً.

- وجميلة كالملكة؟

خفض السّفير صوته وأجاب:

أجمل.

فهمس باركيلفيدرو:

- وهذا أمرٌ وقح.

فصمتت الملكة برهة، ثم هتفت:

'هاتان المرأتان غير الشرعيتين!'

فسجّل باركيلفيدرو هذا الجمع(*).

ومرّةً أخرى، ولدى الخروج من المصلى الخاصّ الذي كان باركيلفيدرو يجلسُ فيه على مقربة من الملكة إلى حدٍّ كافٍ، وخلف خادميّ الإرشاديّة الدّينية، فإن اللورد دافيد ديرّي - موار، الذي كان يجتازُ صفوفَ النساء، قد ترك أثراً عميقاً ببشاشته، وأثناء عبوره، كان ينفجرُ الهرجُ والمرجُ بصيحاتٍ متعجّبةٍ نسائية:

'كم هو أنيقٌ! - كم هو ظريفٌ! ما أرقى مظهره! كم هو وسيم!

فدمدمت الملكة قائلة:

- كم هذا مزعج!

وسمع باركيلفيدرو.

فقد كان يركزّ انتباهه.

أصبحَ من الممكن إيذاءُ الدّوقة دون إزعاجِ الملكة.

وكانت المشكلةُ الأولى قد حُلّت.

وطرُحت الآن المشكلةُ الثانية.

فما العملُ لإيذاء الدّوقة؟

وأيّةُ وسيلةٍ يمكنُ أن يقدّمها عملُه البائسُ، من أجل هدفٍ عسيرٍ إلى هذه الدّرجة.

ما من وسيلةٍ، بطبيعة الحال.

(*) باللغة الفرنسيّة ليس هناك مثنّى (م: ز.ع).

XII
سكوتلندا، وإيرلندا وإنكلترا

لنذكرْ التّفصيل التّالي: كانت جوزيان "لها الحقّ في صندوق".

ولسوف نفهم ذلك حين نفكّر بأنها كانت شقيقة الملكة، مع أنها من الجانب الضّعيف، أي أنها كانت شخصيّة أميريّة.

الحقّ في صندوق، ما ذاك؟

إن الفيكونت سان - جون - ولنتلفظوه بولينغ - بروك - كان يكتب إلى توماس لينار، كونت سوسّيكس: "هناك أمران يجعلان المرء عظيماً. في إنكلترا أن يكون له الحقّ في صندوق وفي فرنسا الحق في التخصيص (le pour). التّخصيصُ في فرنسا قد كان ما يلي: حين كان الملك يسافر، كان محاسبُ تجهيزاتِ البلاط، حين يأتي المساء، وعند الوصول، يعيّنُ للأشخاص الذين يتبعون جلالته سكنهم. وكان للبعض من هؤلاء السّادة امتيازٌ هائل. هو "لهم التخصيص" Le pour (من أجل). كما تقول الصّحيفة التاريخية: Le Journal Historique للعام ١٦٩٤، الصفحة ٦، أي أن محاسب التجهيزات الذي يحدّد أماكن السّكن يضع كلمة pour (من أجل). قبل أسمائهم، على غرار: من أجل السّيد الأميردو سوبيز، بدلاً من ألا يضع pour ، حين يحدّد مكان سكن شخصٍ ليس أميراً، بل يضع اسمه فقط، وعلى سبيل المثال: الدّوق دوجيفر، الدّوق دو مازاران، إلخ". إن هذه الـ pour (من أجل) على الباب كانت تشير إلى أمير، وكان الملك يمنح الـ pour كما يمنحُ الوشاحَ الأزرقَ أو لقبَ النبالة.

أما الحقّ في صندوق، في إنكلترا فقد كان أقلّ إثارةً للزّهو، ولكنه أكثر واقعيّة. كان علامةً على اقتراب حقيقيّ من الشّخص الحاكم. فأيّ إنسانٍ كان بالولادة، أو بالحظوة في وضعٍ يسمحُ له بتلقّي اتّصالاتٍ مباشرة من جلالته، كان لديه في جدارِ غرفةِ نومه صندوق أُحكم فيه جرسٌ. كان الجرسُ يقرعُ، فينفتحُ الصّندوقُ وتظهرُ رسالةٌ ملكيّة على صحنٍ ذهبيّ، أو على وسادةٍ مخمليّة، ثم ينغلقُ الصّندوقُ من جديد. كان ذلك حميماً ورسميًّا. إنّه الغامضُ السرّي في إطار الألفة الخالصة. ولم يكن الصّندوقُ يُستخدمُ لأيّ استعمالٍ آخر. وكان جرسُه يعلن عن رسالةٍ ملكيّة. ولم يكن يُرى من يحملها. لقد كان بكلّ بساطةٍ مع ذلك غلاماً في خدمةِ الملكة أو الملك. كان ليسستر لديه صندوقٌ في عهد إليزابيت، وباكنغهام في عهد جاك الأوّل. وكان لجوزيان صندوقٌ في عهد آنّا، مع أن حظوتها قليلة. إن من كان لديه صندوق هو أشبه ما يكون بشخصٍ في علاقةٍ مباشرة مع بريد السّماء الصّغير، ويُرسل الرّبُّ إليه من وقتٍ لوقتٍ ساعيه حاملاً رسالة. فما من استثناء أكثر إثارة للحسد من هذا. كان ذلك الامتيازُ يجرُّ إلى عبوديةٍ أكبر؛ فيصبح المرءُ بسببه خادماً أكثر بقليل. وفي البلاط، ما يرفعُ يُخفض. "أن يمتلك المرءُ الصّندوق"، كان هذا يُقال بالفرنسيّة؛ فهذا التفصيلُ في اللباقة الإنكليزية ربّما كان تفاهةً فرنسيّة قديمة.

لقد كانت اللّيدي جوزيان، العذراءُ النبيلة مثلما كانت إليزابيت ملكةً عذراء، تعيش، تارةً في الرّيف، وحسب الفصل، حياةً شبه أميريّة، وتحكم تقريباً في بلاطٍ كان اللورد دافيد رجلَ بلاطٍ فيه، مع عددٍ آخر. وبما أن اللورد دافيد والليدي جوزيان لم يكونا بعد متزوّجين، فقد كانا يظهران معاً علناً دون أن يتعرّضا للسّخرية، وهذا ما كانا يفعلانه بطيبة خاطر. وغالباً ما كانا يذهبان لحضور الاستعراضات والسّباقات في العربة نفسها، وفي أروقة الشخصيات نفسها. أما الزّواج الذي كان مسموحاً لهما، بل ومفروضاً عليهما، فقد كان يبرّد حماستهما، غير أن التقاءهما هو ما كان يجتذبُهما إجمالاً. إن ضروبَ الألفة المسموحة للمخطوبين (Engaged) لها حدودٌ يسهل اجتيازُها. وقد كانا يمتنعان عن ذلك؛ لأن ما هو سهلٌ كان يعتبرُ في نطاق الذّوق الرّديء.

كانت أجمل مباريات الملاكمة في ذلك الزّمن تجري في لامبث، وهي خورنيّة يمتلك اللوردُ رئيسُ أساقفة كانتوربري قصراً فيها، مع أن الجوّ فيها غير صحّي، كما يمتلك مكتبةً غنيّةً مفتوحةً في بعض السّاعات لشرفاء القوم. وذات مرّة، وكان ذلك في الشتاء، كانت هناك، في مرجٍ طبيعيٍّ مغلقٍ بمفتاح، مسابقةٌ بين رجلين، وقد حضرتها جوزيان. وكانت قد سألت: هل يُسمح للنسّاء بالحضور؟ وكان دافيد قد أجاب sunt foeminoe magnates والترجمةُ بتصرّف لذلك هي: وليس البورجوازيات (نساء الطبقة الوسطى). والترجمة الحرفية هي: السّيدات الرفيعات الشأن موجودات. إن دوقةً تدخل إلى أيّ مكان. وهذا هو السّبب في أن اللّيدي جوزيان قد شاهدت مباراة الملاكمة.

حصلت الليدي جوزيان فقط على السّماح لها بأن ترتدي ملابسَ خيّال. وهذا أمرٌ كان مستخدماً حينذاك. وقلّما كانت النسّاء يسافرن بصورةٍ أخرى. ومن أصل ستة أشخاص، كانت تضمّهم عربةُ خيل ويندسور، كان يندر ألاّ يكون هناك امرأةٌ أو امرأتان ترتديان ملابسَ رجاليّة. لقد كان ذلك دلالةً على الطبقة العليا الحاكمة.

وبما أن اللورد دافيد كان برفقةِ امرأة، فلم يكن ممكناً أن يظهر في المباراة، وكان عليه أن يبقى مجرّدَ واحدٍ من الحضور.

لم تكن الليدي جوزيان تكشفُ عن منزلتها إلاّ بما يلي: أنها كانت تنظر من خلال منظارٍ صغير، وهذا ما كان عملاً يقومُ به نبيل.

كان "اللقاء النبيل" يرأسه اللورد جيرمين، وهو والدُ جدّ أو شقيق والد جدّ اللورد جيرمين الذي كان عقيداً، عند نهاية القرن الثامن عشر، وقد هرب من إحدى المعارك، ثم صار وزيراً للحربيّة، ولم يُفلت من بنادق العدوّ الكرويّة الرّصاص، إلاّ ليقع تحت تهكّمات شيريدان، وهذا رشقٌ أسوأ. (١٤٨) وكان الكثيرُ من النبلاء يراهنون: فهاري بيلو دو كارليتون، الذي كانت له مطامحُ في إقطاعةِ بيلاّ أكوا المنقرضة، يراهنُ ضدّ هنري، لورد هايد، وعضو القضاء الأعلى في بلدة دونهيد، والتي تسمى أيضاً لونسستون؛ والجدير بالاحترام بيريغرين بيرتي، العضو في بلدة ترورو ضدّ السّير

توماس كولبيير، العضو عن ميدستون، وصاحب قصر لاميربو، والذي هو من ثغر لوتيان، ضدّ ساموبل تريفوزي، من بلدة بينرين، والسّير بارتولوميو غراس - ديو، من بلدةِ سانت - إيف، ضد الجدير جدّاً بالاحترام شارل بودفيل، يُدعى اللّورد روبارتيس والذي هو من كوستوس روتولورم، من كونتيّة كورنواي، وآخرون أيضاً.

كان الملاكمان هما: إيرلنديّ من تيبراري ويُدعى باسم الجبل الذي وُلد فيه فيليم - غي - مادون، واسكوتلنديّ يُدعى هيلمسغاي. وهذا ما كان يضعُ فخرين وطنيّين يتجابهان. كانت ايرلندا واسكوتلندا سوف تصطدمان. كان إيرين سوف يوجّه اللكمات إلى كاجوتيل. وهكذا، فإن الرّهانات كانت تتجاوزُ أربعين ألفَ جنيهاً، بصرف النظر عن الرّهانات النهائية.

كان البطلان عاريين، ويرتديان سروالاً قصيراً جدّاً مشبوكاً على الوركين. وينتعلان مداسين ضخمين بأنعالٍ مثبّتةٍ بالمسامير، ومربوطين بسيور إلى عرقوبيهما.

كان هيلمسغاي، السكوتلنديّ، رجلاً قصير القامة، لا يكاد يبلغ تسعة عشر عاماً، غير أن جبينه كان قد لُوِم من قبل. وهذا هو السّبب أنه كان لصالحه اثنان وثلث. وفي الشّهر السّابق، كان قد هشّم أحد أضلاع الملاكم سيكسمايلز ووتر، وفقأ له عينيه: وهذا ما كان يفسّر الحماسة له. وكان هناك ربحٌ يُقدَّر باثني عشر ألف جنيه للمراهِنين عليه. وإضافةً إلى جبينه الذي أعيد لأمّه، فقد كان فكٌّ هلمسغاي مشروماً. كان رشيقاً وحذراً. وكان بطولِ امرأةٍ قصيرةِ القامة، مربوعاً، وقصيراً وسميناً، وذا قامةٍ خفيضة ومتوعّدة، لم يكن شيءٌ قد فقد من الطينة التي صُنِع منها؛ فما من عضلةٍ لا تصل إلى هدفها لدى هذا الملاكم. كان هناك اقتضابٌ في جذعه المتّين، واللاّمع والبنّي كالبرونز. كان يبتسمُ، وكانت تضاف إلى ابتسامته ثلاثةُ أسنانٍ كان قد فقدها.

كان خصمُه ضخماً وعريضاً، أي ضعيفاً.

كان رجلاً في الأربعين من عمره، وكان طولُه ستّة أقدامٍ، وله لُبانٌ(*) كَلَبان فرسِ النهر ومظهرٌ وديع. وكانت ضربةٌ من قبضته تشقُّ سطحَ سفينة،

(*) اللبان هو صدر الحصان. (م: ز.ع).

غير أنه لم يكن يُحسن توجيهها. كان الإيرلنديّ فيليم - غي - مادون على الخصوص سطحاً، ويبدو أنه في مباريات الملاكمة مخصّصٌ لتلقّي الكلمات أكثر مما هو مخصّص لتوجيهها. إلاّ أن المرءَ كان يشعرُ أنه سيصمدُ طويلاً. إنه نوعٌ من لحمِ عجلٍ مشويٍّ وغير مطهوٍ بشكلٍ كافٍ يصعبُ قضمُه، ويتعذّر أكلُه، إنّه ما يسمّى بالأرغة المحليّة، لحماً نيئاً، Raw flesh[*]. كان مصاباً بالحَوَل. ويبدو راضخاً.

كان هذان الرّجلان قد أمضيا الليلة السّابقة جنباً إلى جنب في السّرير نفسه، وقد ناما معاً، وشربا في القدح نفسه، وكلّ منهما قد شربَ ثلاثَ رشفاتٍ من نبيذ البورتو.

وكان لكلّ منهما فريقٌ من المناصرين، وهم أناسٌ ذوو وجوه خشنة، وهم يهدّدون المحكّمين عند الحاجة. وفي الفريق المناصر لهليمسغاي، كان المرءُ يلاحظُ جون غرومان، الذي اشتهر بحمل ثورٍ على ظهره، ورجلاً يُدعى جون براي الذي حمل ذات يوم على كتفيه عشرة صاعات[**] من الطحين، وفي كلّ صاعٍ خمسةُ عشر غالوناً، إضافة إلى الطحّان، وقد سار بهذا الحِمل إلى مسافةٍ أبعد من مئتي خطوة. وإلى جانب فيليم - غي - مادون، كان اللورد هايد قد أحضر من لونسيستون رجلاً يُدعى كيلتر، والذي كان يقطن في شاتوفير، ويقذفُ من فوق كتفه حجراً زنته عشرون ليبرة إلى ارتفاعٍ هو أعلى من أكثر أبراج القصر علوّاً. إن هؤلاء الرّجال الثلاثة كيلتر، وبراي، وغورمان كانوا من كورنواي، وهذا ما يشرّفُ الكونتيّة.

كان مناصرون آخرون مشاغبين أفظاظاً، وذوي صلبٍ متين، وسيقان مقوّسة، وقوائم ضخمة معقّدة، ووجه أبله، ويرتدون الأسمالَ، ولا يخشون شيئاً، بما أنهم جميعاً على وجه التّقريب محكومون سابقون.

كان الكثيرون منهم ماهرين في إثارةِ رجالِ الشرّطة بشكلٍ رائع؛ ولا بدّ لكلّ مهنة من أن تكون لها مواهبها.

(*) اللحم النيء والطري (م: ز.ع).

(**) الصاع الفرنسي يعادل عشرة ليترات تقريباً (م: ز.ع).

كان المرجُ الذي اختير أبعد من جاردان ديزورس (حديقة الدّببة)، والتي كانوا قديماً يجعلون الدّببة، وثيران المصارعة، والكلابَ الدّرواسة تتصارعُ فيها، فيما وراء آخر الهياكل التي هي قيد البناء، بجانب مسكنٍ دير سانت – ماري أوفر – راي المتداعي، والذي هدمه هنري الثامن. أما الطقسُ فكان ريحاً شماليةً وصقيعاً، وكان يهطلُ مطرٌ ناعمٌ سرعانَ ما تجمّد فصار رقاقَ جليد. وكان المرءُ يتعرّف بين السّادة المهذبين الحاضرين أولئك الذين كانوا أربابَ عائلة لأنهم كانوا قد فتحوا مظلاّتهم.

من جهة فيليم – غي – مادون، كان هناك العقيد مونكريف، المحكمُ، وكيلتر، لتثبيت الركبة.

كان الملاكمان لا يتحرّكان لبعض لحظات ضمن السّور فيما كان يجري ضبطُ السّاعات. ثم سار كلٌ منهما باتّجاه الآخر، وتصافحا.

قال فيليم – دي – مادون لهيلمسغاي: "أودّ أن أذهب إلى منزلي".

أجاب هيلمسغاي بنزاهة: "لا بدّ أن الطبقة العليا قد انزعجت من شيء".

وبما أنهما كانا عاريين على النحو الذي كانا فيه؛ فقد شعرا بالبرد. وكان فيليم – غي – مادون يرتجف، وفكّاه يصطكان.

لقد صاح الدّكتور إيليانور شارب، ابن أخ رئيسٍ أساقفة يورك بهما:

"تلاكَمَا، أيّها الظّريفان. فهذا سيد فئكما".

فأزال برودتهما هذا الكلامُ المتلطّف.

ووثب كلٌ منهما على الآخر.

غير أنه لم يكن أحدُهما أو الآخر غاضباً. وحُسبت ثلاثُ جولات ليّنة. أما الدكتور الموّقر غومدريث، وهو أحدُ الشركاء الأربعين في أولُ سولز كوليج فصاح قائلاً: (*) "فليُسكَب لهما شيءٌ من مشروب الجنّ".

غير أن الحكمين الاثنين والكفيلين، وهم الأربعة جميعاً محكّمون، قد ثبّتوا الأنظمة. ومع ذلك، فقد كان الطقسُ بارداً حقاً.

(*) كليّة كل النفوس.

سمعت الصّرخة القائلة: first blood![*] لقد كانت هناك مطالبةٌ بأن يسيلَ الدّمُ للمرّة الأولى. فجرى تماماً وضعُ كلٍّ من المتلاكمين بمواجهة الآخر.

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، واقترب منه، وبسطا ذراعيهما، وتلامسا بالقبضات، ثم تراجعا.

فجأة وثب هيلمسغاي، الرجلُ القصير.

وبدأت المعركةُ الحقيقيّة.

ضربُ فيليم – غي – مادون في منتصف جبينه، بين حاجبيه، فأخذ وجهه كلّه يقطر دماً. صاح الجمهور: "لقد أسال هيلمسغاي الأحمر البنفسجي[**]" وصفّق.

أما فيليم – غي – مادون، فإذْ أدار ذراعيه كما تدير طاحونة مراوحها، فقد أخذ يحرّك قبضتيه باهتياج على غير هدى.

وقال المحترم بيريغرين بيرتي: "لقد أعمي. ولكنّه لم يصبح بعد أعمى.".

حينذاك. سمع هيلمسغاي من كلّ جهةٍ هذا التّشجيع ينفجر! Bung[***] his peepers

إن البطلين إجمالاً قد جرى اختيارها اختياراً جيداً حقّاً، ومع أن الطقس قلّما كان ملائماً؛ فقد كان هناك إدراكٌ بأن المباراةَ سوف تنجح. وكان لشبه العملاق فيليم – غي – مادون ما يضيره من ميزاته؛ فقد كان يتحرّك بتثاقل. وكانت ذراعاه هراوةً، ولكن جسمه كان مطرقة. كان الملاكمُ القصيرُ يعدو، ويضربُ، ويقفزُ، ويصرّ على أسنانه، ويضاعفُ البأسَ بالسّرعة، ويعرفُ الحيل. فمن جهةٍ، اللّكمةُ البدائيةُ والوحشيةُ، والفظةُ، في حالة الجهل. ومن

(*) أي: أوّل إدماء. (م: ز.ع).

(**) Helms Gail has tapped his claret (بالإنكليزية).

(***) افقأ له عينه.

الجهةِ الأخرى، لكمةُ الحضارة. كان هيلمسغاي يقاتل بأعصابه كما يقاتل بعضلاته، وبخبثه كما بقوّته؛ أما فيليم - غي - مادون فقد كان ضرباً من صارعٍ خامل، وهو مصروعٌ قليلاً منذ البدء. لقد كان هناك الفنّ في مواجهة الطبيعة، كان ذلك هو الشّرس ضدّ الهجميّ.

كان واضحاً أن الهجميّ سوف يُغلبُ. ولكن ليس سريعاً جدًّا. ومن هنا يأتي التّشويق.

شخصٌ قصيرُ القامة ضدّ شخصٍ طويل. ويكون الحظُّ إلى جانب القصير. قطّ يتغلّب على درواس، إن أمثال جوليات يُهزمون دوماً على يد أمثال داود.

كان يهطلُ وابلٌ من النداءات على الملاكمين:

"Bravo, Helmesgail! good! well done, highlander_ Now, phelem!(*) وكان أصدقاءُ هيلمسغاي يردّدون له برفق الحضّ التالي: 'أفقأ له عينيه!' أمّا هيلمسغاي فقد صنع أفضلَ من ذلك. فقد انخفض ثم اعتدل فجأةً بتموّجٍ زاحفةٍ، وضرب فيليم - غي - مادون، في القصّ. فترنحّ الجبّار.

وصاح الفيكونت برنار: 'ضربةٌ سيئة!'

انهارَ فيليم - غي - مادون على ركبة كيلتر وهو يقول: 'لقد بدأتُ أسخن' استشار اللورد ديزيرتوم المحكميّن. وقال: 'سيكون هناك خمسُ دقائق للجولة (**)'.

كانت قوى فيليم - غي - مادون تخور. وقد مسح كيلتر الدّم عن عينيه، والعرقَ عن جسمه بقطعةِ فلانيلة ووضع في فمه مطرة ماء. وكان ذلك في وضعيةِ المجابهة الحاديةَ عشرة. أما فيليم - غي - مادون، فضلاً عن الجرح الذي في جبينه، فقد كانت أضلاعُه قد شوّهتها اللّكمات، وكان بطنُه متورّماً، ويا فوخُه مرضوضاً. أما هيلمسغاي فلم يكن مصاباً بشيء.

(*) مرحى، يا هيلمسغاي! حسناً! هذا جيد، أيها الجبلي دورك الآن، يا فيليم!

(**) أي: خمس دقائق توقّف.

انفجرت جلبةٌ بين السّادة المهذبِّين.

وكان اللوّرد برنار يردّدُ "ضربةٌ سيئة".

وقال صاحبُ قصرِ لاميربو:

- الرّهانُ باطل.

وتابع السّير توماس كليبير:

- أطالب برهاني.

وأضاف العضو المبجّل عن بور سانت - إيف، السّير بارتولومو غراسديو:

فلتعيدوا إليّ جنيهاتي الخمس مئة، فأنا ذاهب.

وصاح الحضور:

- أوقفوا المباراة.

غير أن فيليم - غي - مادون قد نهضَ وهو يتمايل تقريباً مثل رجلٍ ثمل، وقال:

"لنواصلْ المبارة، بشرطٍ واحد، سيكون لي، أنا أيضاً، الحقّ في أن أسدّد ضربةً سيئة."

فصاحوا من كلّ الجهات: "أُعطي لك."

هزّ هيلمسغاي كتفيه.

انقضت الدّقائقُ الخمسُ، وبدأت الجولة.

أما المعركة التي كانت احتضاراً بالنسبة لفيليم - غي - مادون، فقد كانت لعبةً بالنسبة لهيلمساغاي.

يا لها من دراية! لقد وجد الرّجل القصير الوسيلة لكي يمسك بالرّجل الطّويل من رأسه وعنقه بإحكام، أي أن هيلمساغي قد أمسك تحت ذراعه اليسرى المثنيّة مثل هلالٍ فولاذي برأس فيليم - غي - مادون الضخم، وثبّته هناك تحت إبطه، وقد التوت عنقه وانخفض قذالُه، وفيما كان يسحق وجهه

بحرّيّة بقبضته اليمنى التي تهوي مجدّداً كمطرقة على مسمار، ولكن من أسفل إلى أعلى، ومن تحت. وحين تمّ إفلات فيليم - غي - مادون أخيراً، رفع رأسه من جديد، فلم يعدْ له وجه.

إن ما كان أنفاً، وعينين وفماً، ولم يعد يشبه إلاّ مظهراً لإسفنجةٍ سوداء مبلّلة بالدّم. فبصق. وشوهدت أربعةُ أسنان على الأرض.

ثم سقط فتلقّاه كيلتر على ركبته.

أما هيلمسغاي فلم يكن قد أصابه شيءٌ يذكر. وكانت لديه آثارٌ لطماتٍ زرقاء وخدشٌ في التّرقوة.

لم يعد أحدٌ يشعر بالبرد. وكانوا يسجّلون ستّة عشر وربعاً لأجل هيلمسغاي ضدّ فيليم - غي - مادون.

وصاح هاري دوكارليتون:

"لم يعد هناك فيليم - غي - مادون، إني أراهن على هيلمسغاي بإقطاعتي بيلاّ - أكوا، وبلقبي اللورد بيلو مقابل طاقيّة شعر مستعار لرئيسِ أساقفة كانتوربري".

وقال كيلتر لفيليم - غي - مادون:

- هات مشفرك".

وإذا أقحم قطعةَ الفلانيلة المضرّجة بالدّم التي لديه في الزّجاجة، فقد نظّف وجهه بمشروب الجنّ. فشوهدَ فمُه من جديد. وفتح فيليم - غي - مادون أحد جفنيه. وكان صدغاه يبدوان مشدوخين.

وقال كيلتر:

"جولة أخرى، يا صديقي".

وأضاف:

"على شرفة المدينة الواطئة."

إن الغاليين والايرلنديين يتفاهمون. ومع ذلك فإن فيليم - غي - مادون لم تصدرْ عنه أيّةُ إشارةٍ يمكن أن تدلّ على أنه لا يزال لديه شيء في ذهنه.

نهض فيليم - غي - مادون من جديد، وكيلتر يسنده. وكانت تلك هي الجولة الخامسة والعشرين. وبالصورة التي كان هذا السيّكلوب يعودُ بها إلى وقفته، لأنه لم يعدْ له سوى عين واحدة، كان المرءُ يدرك أنها النهاية، ولم يشكّ أحد بأنه قد هلك. لقد وضع قبضةَ الحمايةِ فوق ذقنه، وهذه حركةٌ خرقاء لمشرفٍ على الموت. أما هيلمسغاي الذي لا يكاد يبلّله العرق فقد صاح: أراهن على نفسي، بألفٍ ضدّ واحد.

وإذْ رفع هيلمسغاي ذراعه، فقد ضرب، وكان ذلك أمراً غريباً، فقد سقطا كلاهما، وسُمعت همهمةٌ فرحة.

إن فيليم - غي - مادون هو الذي كان مسروراً.

كان قد أفاد من اللكمةِ الرّهيبةِ التي وجّهها هيلمسغاي إلى جمجمته لكي يوجّه إليه لكمةً سيئة، في سرّته.

أما هيلمسغاي الذي تمدّد فقد كان يحشرج.

نظر الحضور إلى هيلمسغاي وهو على الأرض وقالوا:

"استوفى حقّه"

صفق كلّ الناس، وحتى الخاسرون منهم.

كان فيليم - غي - مادون قد سدّد ضربة سيّئة مقابل ضربةٍ سيئة، وتصرّف ضمن حقّه.

حُمل هيلمسغاي على نقّالة. وكان الرأيُ أنه لن يستعيدَ وعيه إطلاقاً، وهتف اللّورد روبارت قائلاً: "إني أكسب ألف ومئتي جنيهاً. أما فيليم - غي - مادون فقد أصبح مُقْعَداً مدى الحياة بالتأكيد.

أمسكت جوزيان بذراع اللورد دافيد، أثناء الخروج، وهذا أمرٌ مسموحٌ به بين "المخطوبين"، وقالت له:

"هذا جميلٌ جدّاً. ولكن....

- ولكن ماذا؟

- كنت أظنّ أن ذلك سيزيل ضجري عني، وإذن، فلم يفعل."

توقف اللورد دافيد. ونظر إلى جوزيان، وأغلق فمه، ونفخ خدّيه وهو يهزّ رأسه، وهذا ما يعني: انتبهي! وقال للدّوقة:

"للضجر ليس هناك إلا دواء واحد.

- وما هو؟

- غوينبلين."

فسألت جوزيان:

"وماذا يكون غوينبلين هذا؟".

الكتاب الثاني

غوينبلين وديا

I

حيث نرى وجه
ذلك الذي
لم نشهدْ بعد إلاّ أعماله

كانت الطّبيعة سخيّةً في جمائلها على غوينبلين. لقد أعطته فماً ينفتح حتى أذنيه، وأذنين تنثنيانِ وصولاً إلى عينيه، وأنفاً لا شكل له وهو مخصّصٌ لاهتزاز نظارات المتصنع، ووجهاً لم يكن بإمكان المرء أن ينظر إليه من غير أن يضحك.

لقد سبق لنا أن قلنا للتوّ إن الطبّيعة قد غمرت غوينبلين بهباتها، ولكن هل كان ذلك فعل الطبيعة؟

ألم يُعنْها أحدٌ على ذلك؟

عينان شبيهتان بأيّام المعاناة، وفجوةٌ بمثابة فم، وحدبةٌ فطساء فيها ثقبان هما المنخرانِ، ووجهٌ هو انسحاقٌ، ومحصلةُ ذلك كلّه هو الضّحك، فمن المؤكّد أن الطّبيعَة لا تُنتجُ وحدَها روائعَ كهذه.

ولكن، هل الضّحكُ مرادفٌ للفرح؟

وإذا ما تركنا، بوجودِ هذا البهلوانِ - فقد كان بهلواناً - الانطباعَ الأوّلَ بالمرحِ يتبدّد، وإذا ما لاحظنا ذلك الرجلَ بعنايةٍ، تعرّفنا فيه أثرَ الفنّ. إن وجهاً مماثلاً ليس عرضيّاً، ولكنه مقصود. فأنْ يكونَ المرءُ كاملاً إلى هذه الدّرجة ليس موجوداً في الطبيعة. إن الإنسانَ لا يمكنه أن يفعل شيئاً بصدد جماله، ولكنه قادرٌ على كلّ شيء بصددِ قباحته. فمن مرتَسَمٍ جانبي لهوتنوتي(*)، لن

(*) الهوتنوتي: شعبٌ أفريقيٌ ذو بشرةٍ ضاربةٍ إلى الصّفرة. (م: ز.ع).

تصنع مرتسمَ وجهٍ رومانيّ، ولكنك تستطيعُ من أنفٍ إغريقيّ أن تصنعَ أنفاً كلموكيًّا(١٤٩). فيكفي أن تطمس قاعدةَ الأنف، وتُسطّحَ المنخرين. إن اللاتينية المتأخّرة في العصر الوسيط لم تنحت عبثاً الفعلَ denasare (أزال أو فطس الأنف). وهل كان غوينبلين، وهو الطفلُ، جديراً بالعناية إلى حدٍّ كافٍ بحيث يجري الاهتمامُ به إلى الدّرجة التي يحوّرون بها وجهه؟ ولم لا؟ ألم يكن ذلك بغرض عرض الألعاب والمضاربة. وحسبما يظهر، فإن متاجرين حاذقين بالأطفال كانوا قد اشتغلوا على ذلك الوجه. كان يبدو جليّاً أن علماً سرّيّاً، ولربما يكون خفيّاً، وهو بالنسبة للجراحة مثلما هي الخيمياءِ بالنسبة للكيمياء، قد نقّشت هذا اللحمِ البشريّ، وفي عهد الحداثة المبكرة جدّاً بالتأكيد، وصنع هذا الوجه، انطلاقاً من تصوّرٍ مسبق. إن هذا العلم الماهر بضروب القطع، والتوسيع، والأربطة، كان قد نقّش فم الطّفل، ونزعِ ألجمةَ شفتيه، وجرّد لثّتيه، ومطّ أذنيه، وأزال الحواجز بين غضاريفه، وشوّش نظامَ حاجبيه وخدّيه، ووسّع العضلة الوجهيّة، وأخفى النّدوبَ والتئاماتِ الجروح، وسحب الجلدَ إلى مكانِ الإصابات، مع إبقاء الوجه في الحالةِ الفاغرة، ومن هذا النّحت المقتدر والعميق خرج هذا القناعُ الذي هو غوينبلين.

إن المرء لا يولدُ على هذه الصّورة.

وأيًّا كان الأمر، فقد كان غوينبلين ناجحاً بصورةٍ تُثيرُ الإعجاب. كان غوينبلين هبةً قدمتها العنايةُ لحزنِ البشر. وأيّةُ عناية؟ هل هناك عنايةً شيطانيّةً مثلما هناك عنايةٌ إلهيّة؟ إننا نطرحُ السّؤال من غير أن نحلّه.

كان غوينبلين مهرّجاً. وكان يقدّمُ استعراضَه علناً. وما من تأثيرٍ يمكنُ مقارنته بتأثيره. كان يُشفي الوساوسَ بمجرّد ظهوره. وكان يحرص على تحاشيه أهلُ الحداد الذين يضطربون ويُجبرون، إذا ما لمحوه، على الضحكِ بصورةٍ غير لائقة. وذات يوم أتى الجلاّد، وجعله غوينبلين يضحك. كانوا يرون غوينبلين، ويسرفون في الضحك، كان يتكلّم، وكانوا يتدحرجون على الأرض.

لقد كان القطبَ المعاكسَ للغمّ. وكان الاكتئابُ في طرفٍ، وغوينبلين في الطّرف الآخر.

لقد توصّل سريعاً أيضاً، في ميادين المعارض، وفي ملتقياتِ الطّرق، إلى سمعةٍ مُرضيةٍ جدّاً كرجلٍ رهيب.

من خلال ضحكهِ، إنما كان غوينبلين يُضحكُ الآخرين. ومع ذلك، فهو لم يكن يضحك. كان وجهُه يضحك، أمّا فكرُه فلا. إن هذا النوّع من الوجه الخارق الذي كانت قد شكّلته له المصادفةُ، أو صناعةٌ خاصّةٌ بشكلٍ غير مألوف، كان يضحكُ بمفرده. ولم يكن غوينبلين يتدخّل في ذلك. إن الخارج لم يكن يرتبطُ بالدّاخل. إن هذا الضّحك الذي لم يضعْه إطلاقاً على جبينه، وعلى وجنتيه، وعلى حاجبيه، وعلى فمه، لم يكن باستطاعته أن يزيله عنها. لقد جرى إلصاقُ هذا الضّحك على وجهه بصورةٍ دائمة. كان ضحكاً آليّاً، ولا يمكن مقاومته خصوصاً لأنه متحجّر. فما من أُحدٍ يتهرّب من هذه الابتسامة الهازئة. إن تشنّجين للفمّ معديان، وهما الضّحك والتثاؤب. وبفضل العمليةِ الغامضة التي يحتمل أن يكون غوينبلين قد خضع لها وهو طفل، فإن كلّ أجزاء وجهه كانت تشتركُ في تلك الابتسامة الهازئة، وكلّ سيماء وجهه كانت تُفضي إليها، مثلما تتركّزُ عجلةٍ على قبّ الدّولاب. إن كلّ انفعالاته، أيّاً كانت، كانت تضخّم سحنةَ الفرح الغريبةِ تلك، ولنقلْ على نحو أفضل، كان تزيدُها تفاقماً. إن دهشةً ما كان يمكنُ أن تعتريه، وعذاباً كان يمكن أن يحسّ به، وغضباً كان يمكن أن يستبدّ بهِ فجأة، ورأفةً يمكن أن يشعر بها، لم يكن لها إلاّ أن تزيدَ ضحكَ العضلاتِ هذا؛ فلو بكى، لضحكَ؛ وأيّ شيء كان يفعله غوينبلين، وأيّ شيء كان يريده، وأيّ شيء كان يفكرّ به، ما إن يرفع رأسه، حتى يجد الجمهورُ أمام عينيه، إن كان هذا الجمهور موجوداً، ذلك الظّهور الذي هو، انفجار الضحك الصاعق.

فلنتصوّر ميدوزا(*) مفعمة بالفرح.

إن كلّ ما كان يخطرُ في الذهن كان ذلك الشيءُ المفاجئُ يشوّشُه، فقد كان لا بدّ من الضّحك. في الزمن الماضي، كان الفنُّ القديمُ يلصقُ على جبهيّةِ

(*) رأس أسطوريّ محاطٌ بالأفاعي (م: ز.ع).

مسارح اليونان وجهاً من البرونز، وجهاً فرحاً. وكان ذلك الوجهُ يسمّي الملهاة. وكان ذلك البرونزُ يبدو ضاحكاً ويثيرُ الضّحك، وكان متفكرًا. إن كل المحاكاة السّاخرةِ التي تفضي إلى العته، وكلّ التهكمّ الذي يُفضي إلى الحكمة، كانا يتكثّفان ويندمجان على تلك السحنة. إن جملة الهواجس، والخيبات، وضروب التقزّز وألوان الغمّ كانت تُصنع على ذلك الجبين العاري عن التأثّر، وتعطي هذا المجموعَ الحداديَّ الذي هو: المرح؛ إن إحدى زوايا الفمّ كانت تُرفعُ، من ناحية الآلهة، من خلال التجديف؛ فقد كان الناس يأتون ليجابهوا بهذا النموذج من التهكّم المثاليّ نموذجَ السّخرية الذي يحملُه كلّ واحدٍ في ذاته. والجمهورُ الذي يتجدّد باستمرار حول الضّحك الثابت، كان يُغمى عليه من الحبور أمام الجمود الضّريحيّ للهزء. إن هذا القناع الميت للملهاة القديمة المضبوط على رجل حيّ، يمكن أن نقول تقريباً إن ذلك هو غوينبلين. إن هذا الرأسَ الجحيميّ، رأسَ المرحَ الصّاخب الشرّس، كان يحمله على رقبته. فأيّ حملٍ بالنسبة لمنكبيّ رجل، هو الضّحكُ المستمّر(١٥٠)!

ضحك مستمرٌ لنتفقْ، ولنفصحْ عن ذلك. فإذا ما أخذنا برأي المانويين[*]، فإن المطلق يخضعُ أحياناً، والربُّ نفسه له تقطعّاتٌ، ولنتّفق أيضاً على الإدارة. فأن يكون بوسعها أن تكون عاجزةً تماماً في وقتٍ ما، فهذا ما لا نسلمّ به. إن كلّ وجودٍ يشبهُ رسالةً تعدّلُ محتواها حاشية. بالنّسبة لغوينبلين، كانت الحاشية هي ما يلي: بقوّة إرادته، وبتركيزِ كلّ عنايته فيها، وبشرط ألاّ يأتي أيُّ انفعالٍ ليلهيه وليُرخي ثباتَ جهده، فقد كان باستطاعة غوينبلين أن يتوصّل إلى إيقاف الضّحك الهازئ المستمرّ لوجهه، وأن يُلقي عليه نوعاً من ستارٍ مأسويّ، حينئذٍ لم يعدْ أحدٌ يضحك أمامه، بل كان يرتعش.

إن هذا الجهد، ولنقلْ ذلك، لم يكن غوينبلين يقوم به قطّ تقريباً، لأنه كان تَعَباً مؤلماً، وتوتّراً لا يُطاق. وقد كانت من ناحيةٍ أخرى أدني تلهيةٍ وأدنى انفعالٍ كافيين لكي يعود هذا الضّحك، الذي طُرد للحظة، وغدا لا يُقاوم مثل جزْرٍ، لكي يعود إلى الظّهور على وجهه. وقد كان يزداد حدّةً بقدر ما كان الانفعالُ يزدادُ، أيّاً كان.

(*) أتباع مذهب ماني الفارسي صاحب عقيدة الصّراع بين النوّر والظلام. (م: ز.ع).

باستثناء هذا التحديد، فإن ضحكَ غوينبلين قد كان مستمرّاً.

كان الناس يرون غوينبلين، وكانوا يضحكون. وحين كانوا يضحكون، كانوا يشيحون برأسهم. وكانت النسّاء خصوصاً يستبقحن ذلك. فقد كان ذلك الرّجل مرعباً. والتشنجُ المضحكُ قد كان مثل ضريبةٍ مدفوعة؛ وكان الناس يحتملونها بفرح، ولكن بصورةٍ آليّة تقريباً. وبعد ذلك، فما إن يخمدَ الضّحكُ، حتى يصبح غوينبلين، بالنسبة لا مرأةٍ، لا يُحتمل، وحتى يتعذّر النّظرُ إليه.

كان مع ذلك طويلَ القامة، حسنَ القوامِ، ورشيقاً، وليس مشوّهاً إطلاقاً إلاّ في الوجه. وكان ذلك دلالةً إضافية في عداد القرائن التي كانت تسمح للمرء بأن يستشفّ في شخص غوينبلين إبداعاً فنيّاً أكثر مما يستشفّ نتاجاً للطبيعة. إن غوينبلين جميلٌ بجسده، ومن المحتمل أنه قد كان قبلاً جميلَ الوجه. وعند ولادته، كان من المفروض أن يكون طفلاً مثل أيّ طفلٍ آخر. لقد جرت المحافظةُ على الجسم سليماً، وتمّ تعديلُ الوجه. لقد جرى تكوينُ غوينبلين عمداً، وكان ذلك، على الأقلّ، هو الأمر المحتمل.

كانوا قد تركوا له أسنانه؛ فالأسنان ضروريّةٌ للضحك، ورأس الميت يحتفظ بها.

لا بدّ أن العملية التي أجريت عليه قد كانت فظيعةً. ولم يكن يتذكّرها، وهذا ما لم يكن يبرهن إطلاقاً على أنه لم يخضع لها. إن ذلك النّحت الجراحيّ لم يكن بإمكانه أن ينجح إلاّ على طفلٍ جدّ صغير، وبالتّالي غير مدركٍ كثيراً لما يحدثُ له، ويمكنه بسهولة أن يظنّ جرحاً ما مرضاً. فضلاً عن هذا، فمنذ ذلك الوقت، ونحن نتذكرّ هذا، كانت وسائل تنويم المريض، وإلغاء الألم معرفة. إلا أنها تُدعى في ذلك العهد سحراً. أما اليوم فنسمّيها تخديراً.

فضلاً عن هذا الوجه، فإن أولئك الذين ربّوه، كانوا قد أعطوه إمكانات رجلٍ رياضيّ ومصارع؛ فمفاصلُه التي خُلّعت بصورةٍ مفيدة، وأصبحت قابلةً لالتواءاتٍ باتجاهٍ معاكس، كانت قد تلقّت تربيةً يتبعُها مهرّج، وكان بمقدورها، شأنَ مفصّلاتِ الباب، أن تتحرّكَ في كلّ الاتجاهات. وفي تملّكه لحرفةِ البهلوان، لم يكن يتمّ إغفالُ شيء.

كان شعْره قد صُبغ بلونٍ أمغرٍ بصورةٍ نهائية. وهذا سرٌّ عثرنا عليه في أيّامنا. إن النساءَ الجميلات يستخدمنه؛ وما كان يُقبِّح فيما مضى يُعتَبر اليومَ جيّداً للتجميل. وقد كان شعر غوينبلين أصفر. وصبغُ الشعر هذا، والذي يحتّ الشعر على ما يبدو، كان قد جعله صوفيَّ المظهر، وخشناً عند اللمّس. إن هذا الانتفاش الوحشيّ، الذي هو لبدةٌ أكثر مما هو شعر، كان يغطيّ ويخفي جمجمةً عميقةً معدّةً لتحتوي التفكير. إن العملية أيّاً كانت، والتي أزالت الانسجامَ عن الوجه، ووضعت كلّ هذا اللحْمَ البشريَّ في حالة فوضى، لم يكن لها تأثيرٌ على العلبة العظميّة. كانت الزّاوية الوجهيّةُ لغوينبلين قويّةً ومدهشة. وخلف ذلك الضّحك، كانت هناك روحٌ، تصنعُ حلماً، مثلنا جميعاً.

فوق هذا، كان ذلك الضّحكُ بالنسبة لغوينبلين موهبةً كاملة. ولم يكن يستطيعُ أن يفعلَ شيئاً حيالها. وكان يُفيدُ منها. وبواسطةِ هذا الضحك، كان يكسبُ رزقه.

إن غوينبلين - وقد تعرّفناه بلا شكّ من قبل - قد كان ذلك الطّفلَ المتروكَ ذات مساءٍ شتائيّ على ساحلِ بورتلاند، وجرى إيواؤه في مسكنٍ فقيرٍ متنقّلٍ في فايموت.

I
دِيا

أصبح الطّفل في تلك السّاعة رجلاً. فانقضت ستّةُ أعوام. وكان ذلك في العام ١٧٠٥. وكان غوينبلين يقاربُ الخامسة والعشرين من عمره.

كان أورسوس قد احتفظ بالطفلين إلى جانبه. ولقد شكّلوا جماعةً مترحّلة.

كان أورسوس وأومو قد شاخا. وغدا أورسوس أصلع تماماً، وأخذ الذئب يشيب. إن عمر الذئاب ليس محدّداً مثل عمر الكلاب. وحسب رأي مولان، فإن هناك ذئاباً تعيش ثمانين عاماً، وفي عداد ذئاب أخر، هناك الصّغير كوبارا، والذئب ذو الرائحة cavio voeus، ذئب ساي canis nubilus(١٥١).

أما البنتُ الصّغيرة التي عُثر عليها فوق المرأة الميتة فقد أصبحت الآن مخلوقةً كبيرةً عمرُها ستة عشر عاماً، شاحبةُ الوجه، ولها شعرٌ بنيٌّ وهي رقيقةُ القوام، وهزيلةٌ، ومرتجفةٌ تقريباً لشدّة رهافتها التي تبعثُ على الخشية من أن تتكسر، وكانت جميلةً بشكلٍ رائع. وعيناها مفعمتان بالنور، وعمياء.

إن الليلة الشّتائية المشؤومة التي أوقعت المتسوّلةَ وابنتها في الثلج كانت قد ضربت ضربةً مضاعفة، لقد قتلت الأمّ وأعمت البنت.

كانت القطرةُ الصافيةُ قد شلّت نهائياً حدقتي تلك الطفلة التي أصبحت بدورها امرأةً. وعلى وجهها، والذي لا يمرّ الضوءُ من خلاله إطلاقاً، كانت الزّوايا المنخفضةُ بحزن، زوايا شفتيها تعبّر عن تلك الخيبة المريرة. إن عينيها الكبيرتين والصّافيتين كانتا تتصفان بذلك الشيء الغريب الذي هو أنهما مطفأتان بالنسبة إليها، وأنهما كانتا تلمعان بالنسبة للآخرين. إنهما مشعلان غامضان ومضاءان، ولا ينيران إلاّ الخارج. لقد كانت تعطي النّور، وهي

التي لم تمتلك شيئاً منه. كانت عيناها الزّائلتان تلتمعان. كانت أسيرة الظّلمات تلك تبيّض الوسطَ القاتمَ الذي كانت فيه. ومن أعماقِ عتمتها التي لا شفاء لها، ومن خلف ذلك الجدار الأسود الذي نسميّه بالعمى، كانت تُصدرُ إشعاعاً. لم تكن تبصرُ الشّمس خارجاً عنها، وكان المرء يُبصر روحها في داخلها.

كان في نظرتها الميتة تحديقٌ سماويٌ غير محدّد.

لقد كانت الليلَ، ومن تلك العتمة التي يتعذّر إصلاحها والمندمجة بذاتها، خرجت كوكباً.

أما أورسوس، المهووس بالأسماء اللاتينيّة، فقد سمّاها ديا. وكان قد استشار ذئبه قليلاً، وقال له: "أنت تمثّلُ الإنسان، وأنا أمثّل الحيوان. ونحن العالم الأرضي؛ وهذه الصّغيرة سوف تمثّل العالم الأعلى. إن هذا الكثير من الضّعف، هو القدرة الكليّة. وعلى هذا النّحوِ يكون الكونُ بكامله، عالم البشرية، والحيوانية، والألوهية، يكون موجوداً في كوخنا الصغير- ولم يعترض الذئبُ على ذلك.

وبهذه الصّورة إنما سُمّيت الطّفلة اللّقيطةُ ديا.

أما غوينبلين، فلم يكلّف أورسوس نفسه عناءَ ابتكارِ اسمٍ له. وفي صباح اليوم نفسه الذي تبيّن فيه تشوّهُ وجه الصّبي الصّغير، وعمى البنت الصّغيرة. وجّه للصبيّ سؤالاً: "أيّها الصّبي، ما اسمُك؟ وأجاب الصّبي: "أدعى غوينبلين. فقال أورسوس: - فلتكن غوينبلين".

وكان ديا تساعد غوينبلين في تمارينه.

لو كان بالإمكان تلخيص البؤس البشريّ، لكان يمكن تلخيصه بغوينبلين وديا.

كان يبدو أن كلاً منهما قد وُلد في حجرةٍ من حجرات القبر: غوينبلين في حجرة المرعب، وديا في حجرة المظلم. كان وجوداهما مصنوعين من ظلماتٍ من نوعٍ مختلف. ومحصورين في جانبي العتمة الهائلين. إن هذه العتمات، كانت ديا تحتويها في ذاتها، وكان غوينبلين يحملها فوق وجهه. كان هناك طيفٌ في ديا، وشبحٌ من غوينبلين. كانت ديافي الحداديّ، وكان غوينبلين في الأسوأ، فبالنسبة لغوينبلين المبصر، كانت هناك إمكانيةٌ مُشجيةٌ لم تكن موجودةٌ بالنسبة

لديا العمياء وهي: أن يقارن نفسه بالرّجال الآخرين. والحال، ففي موقفٍ كموقف غوينبلين، إذا ما سلّمنا بأنه كان يسعى إلى إدراك ذلك، فقد كانتْ مقارنةٌ ذاته تعني ألاّ يفهم نفسه بعد ذلك. وأن يكون للمرء، شأن ديا، نظرٌ فارغ يغيب عنه العالم، فهذا ضيقٌ أعلى. ومع ذلك، فهو أقلّ شأناً من الضيّق التالي: أن يكون المرءُ لغزَه الذاتيّ؛ وأن يشعر بشيءٍ غائب هو ذاته، وأن يرى الكون، وألا يرى نفسه. كان لديا نقابٌ هو العتمة، وكان لغوينبلين قناعٌ هو وجهه. إنه شيءٌ يتعذّرُ بيانه، فبلحمه ذاته إنّما كان غوينبلين مقنّعاً. فأي وجهٍ كان وجهه، كان يجهلُ ذلك. ولقد كانت صورة وجهه في حالةِ تلاش. وكانوا قد وضعوا عليه ذاتاً زائفة. وكان له بمثابة وجه اختفاءٌ للوجه. كان رأسُه يحيا، وكان وجهه ميتاً. ولم يكن يتذكر أنه قد رآه. إن الجنس البشريّ، بالنسبة لديا، كما بالنسبة لغوينبلين، كان واقعةً خارجيّة. وكانا بعيدين عنها. كانت وحيدةً وكان وحيداً. كانت عزلةُ ديا جنائزيّة؛ فهي لم تكن ترى شيئاً. وكانت عزلةُ غوينبلين مشؤومةً، فقد كان يرى كلَّ شيء. وبالنسبة لديا، لم تكن الخليقةُ تتعدّى إطلاقاً السّمعَ واللمسَ، وكان الواقع محدداً ومحصوراً، وقصيراً، وضائعاً لتوّه، لم يكن لديها لا نهائيٌّ آخر سوى العتمة. وبالنسبة لغوينبلين، فإن العيشَ كان معناه أن يكون الحشدُ أمامه باستمرار، وأن يكون خارجه. كانت ديا هي المبعدة عن الضّوء، وكان غوينبلين هو المنفيّ عن الحياة. لقد كان هذان بالتأكيد شخصين قانطين. لقد لمسا قعر الكارثة الممكنة، وأصبحا فيه، شأنه شأنها. ولو أن مراقباً قد رآهما، لشعر بأن تفكيره سينتهي إلى رأفةٍ لا يمكن قياسُها. فما الذي لن يُقدّر لهما أن يعانياه؟

إنّ قراراً بالشّقاء كان ينيخُ بثقله بصورةٍ جليّة على هذين المخلوقين البشريّين. ولم يكن القدر قطّ قد حوّل بصورةٍ أفضل مصيرَ كائنين لم يصنعا شيئاً إلى عذاب، وحوّل حياتهما إلى جحيم.

لقد كانا في نعيم.

كانا متحابيّن.

وكان غوينبلين مدلّهاً بديا. وكانت ديا مفتونةً بغوينبلين.

وكانت تقول له: "إنك جميلٌ جدّاً!"

III

Oculos non HABET, ET VIDEt.(١٥٢)

(ليس لها عينان، وهي تبصر)

كانت هناك امرأةٌ واحدة على الأرض ترى غوينبلين، وكانت هي تلك العمياء.

إن ما كان يعنيه غوينبلين بالنّسبة إليها، كانت تعرفُه من أورسوس، والذي كان غوينبلين قد روى له مسيره الشّاقّ من بورتلاند إلى فايموث، وألوان الكرْب المختلطة لتخلّي الناس عنه. كانت تعلم أنها حين كانت جدّ صغيرة، ومشرفةً على الموت فوق أمّها التي قضت، وهي ترضعُ من جثّة، فإن كائناً أكبرَ منها بقليل، قد التقطها، وأن هذا الكائن المقصى، وكأنه مدفونٌ تحت الرّفض القاتم الشامل، كان قد سمع صُراخها وأنه، وقد كان الجميع صُمّاً بالنسبة إليه، لم يكن أصمّاً بالنسبة إليها، وأن هذا الطّفلَ المعزولَ، والضعيفَ، والمرفوضَ من غير سند في هذا العالم الأرضيّ، والذي يجرّ نفسه في القفار، وقد أضناه التّعبُ، فأُنهك، كان قد قبلَ من يديّ اللّيل هذا الحمْل الذي هو طفلٌ آخر، وأنّه هو، الذي لم يكن له نصيبٌ ينتظرهُ من ذلك التّوزيع القاتم الذي هو القدر، قد كلّف نفسه بمصيرٍ آخر، وأنه، إذْ كان إملاقاً وقلقاً وضيقاً، قد جعل من نفسه حمايةً، وأنه، إذْ انغلقت السّماء، كان قد فتح قلبه، وأنه، إذْ كان ضائعاً، قد منح الخلاص. وأنه، إذْ لم يكن لديه سقف ولا ملجأ، قد أصبح ملاذاً، وأنه قد صنَع من نفسه أمّاً ومرضعةً، وأنه، هو الذي كان وحيداً في العالم، قد ردّ على التخلّي بالتّبنّي، وأنّه، في العتمة، قد أعطى هذا المثال، وأنه، إذْ لم يجدْ نفسه مضنىً كفاية، كان قد قبل حقّاً ببؤس شخصٍ

آخر زيادةً على هذا. وأنه، على هذه الأرض التي كان يبدو أنه لم يكن هناك له شيء فيها، قد اكتشف الواجب؛ وأنه هناك حيث كان يمكن للجميع أن يتردّدوا، كان قد تقدّم؛ وهناك حيث كان يمكن للجميع أن يتراجعوا، أنه قد قَبِل، وأنه قد وضع يده في فتحة القبر، وسحبها منه، هي، ديا؛ وأنه، وهو نصفُ العاري، قد أعطاها سَمَله الرثّ، لأنها كانت بردانة؛ ومع أنه جائعٌ، كان قد فكرّ بأن يسقيها ويطعمها، وأنه، من أجل هذه الصّغيرة، كان هذا الصّغير قد حارب الموت، وأنه قد حاربه تحت كافّة أشكاله، تحت شكل الشتاء والثلج، وتحت شكل الوحدة، وتحت شكل الرعب، وتحت شكل البرد، والجوع والعطش، وتحت شكل الإعصار، وأنه، بالنسبة لديا، هو ذلك الجبّارُ ذو الأعوام العشرة والذي خاض معركةً ضدّ الاتساعِ الليّلي الهائل. كانت تعلم أنه قد فعل ذلك، وهو طفلٌ، والآن، قد غدا رجلاً، قد أصبح قوّتها، وهي الواهنة، وغناها وهي المعوزة، وشفاءَها وهي المريضة، ونظرها وهي العمياء. ومن خلال الكثافات المجهولة التي كانت تحسُّ بسببها أنها مُبعدة، كانت تميّز بوضوح هذا الإخلاص، وهذا التفاني، وتلك الشجاعة. إن للبطولة نطاقاً في المنطقة غير المائيّة. وكانت تلتقطُ هذا النّطاق السّامي؛ وفي التجريد الذي يتعذّر بيانُه حيث يحيا فكرٌ لا تنيرهُ الشّمسُ، كانت تدرك ذلك الملمحَ الخفيَّ للفضيلة. وفي ذلك المحيط، محيطِ الأشياء المعتمة والتي تتحرّك، والتي كانت الانطباعَ الوحيدَ الذي يقدّمه لها الواقع، وفي ذلك الرّكودِ القلق للمخلوقة السّلبية التي ترصدُ باستمرار الخطرَ الممكن، وفي ذلك الإحساس بأنها موجودة هناك بلا دفاع، والذي هو حياة الأعمى كلّها، كانت تتحقّق من وجود غوينبلين فوقها، والذي لا يفتر قطّ، ولا يغيب قطّ، ولا يحتجبُ قطّ، وهو غوينبلين المترفّق بها، والمنجد لها والرقيق؛ كانت ديا ترتعش يقيناً وعرفاناً بالجميل، وكان قلقُها المطمَئن يفضي بها إلى النّشوة، وبعينيها المليئتين بالعتمة، كانت تتأمّلُ في سمتِ هوّتها تلك الطيّبة، التي هي النّور العميق.

في المثل الأعلى، الطّيبةُ هي الشّمس، وقد كان غوينبلين يُبهر ديا.

بالنسبة للحشد، الذي يحولُ عددُ الرّؤوس المفرط فيه دون أن يكون له تفكير، وعددُ العيون المفرط دون أن تكون له نظرة، بالنسبة للحشد الذي هو

سطحٌ بحدّ ذاته، فيتوقّفُ عند المظاهر الخارجيّة، كان غوينبلين مهرّجاً، ومشعوذاً، وبهلواناً، ومضحكاً سخريّاً، أكثر بقليل أو أقلّ بقليل من حيوان. لم يكن الحشد يعرف إلاّ الوجه.

بالنسبة لديا، كان غوينبلين هو المنقذ الذي التقطها من القبر وحملها إلى خارجه، والمواسي الذي جعل لها الحياة ممكنة، والمحرّر الذي كانت تحسُّ بيده في يدها، وفي تلك المتاهة التي هي العمى؛ كان غوينبلين هو الأخ، والصّديق، والسّند، وشبيه السّماء، والزّوج المجنّح والمتألّق، وحيث كان الجمهورُ يرى الوحش، كانت ترى رئيسَ الملائكة.

وذلك لأن ديا العمياء كانت تتبيّنُ الرّوح.

IV
العاشقون المتجانسون

أورسوس، الفيلسوفُ، كان يفهمُ الأمر. وكان يستحسنُ شغفَ ديا.

وكان يقول:

"الأعمى يرى غير المنظور."

وكان يقول:

"الوجدان رؤيا"

وكان ينظر إلى غوينبلين، ويدمدم:

"نصف وحش، ونصف إله".

أما غوينبلين، من جهته، فقد كان مفتوناً بديا. وهناك العينُ الخفيّة التي هي الفكرُ، والعينُ المبصرةُ التي الحدقة. أما هو، فبالعينِ المبصرة كان يراها. كان لدى ديا الانبهارُ المثاليُّ، وكان لدى غوينبلين الانبهارُ الواقعيُّ. لم يكن غوينبلين قبيحاً، كان مرعباً. وكان أمامه نقيضُه. وبقدر ما كان مرعباً، بقدر ما كانت ديا عذبةً. لقد كان هو الرّعبَ، وكانت هي اللّطف. لقد كان هناك خيالٌ في مخيلة ديا، وكانت تبدو حلماً قد تجسّد قليلاً. كان هناك في كلّ شخصها، وفي بنيتها الهوائية، وفي قامتها الطريّة القلقة كالقصب، وفي كتفيها المجنحيّن ربّما بصورةٍ غير مرئيّة، وفي استداراتِ كفافها المحتشمة والدّالة على جنسها، ولكن في الرّوح أكثر مما هي في الحواس، وفي بياضها الذي كان شفافيّةً تقريباً، وفي الانسداد العظيم الصّافي لنظرتها المغلقة على الأرض بشكلٍ إلهي، وفي البراءة المقدّسة لابتسامتها، كان هناك تجاورٌ رائعٌ مع الملاك، وكانت على التّمام امرأة إلى حدٍّ كافٍ.

أمّا غوينبلين، كما قلنا، فقد كان يقارن نفسه، وكان يقارن ديا.

إن وجودها، على النحو الذي كان عليه، كان نتاجاً لخيارٍ مزدوجٍ غريب، إنّه نقطةُ تقاطعٍ لشعاعين من الأدنى ومن الأعلى، لشعاعٍ أسود وشعاعٍ أبيض: إن الفُتاتَ نفسه يمكن أن يُنقرّ في آن بمنقاري الشرّ والخير، فيعطي أحدهما اللدْغة، ويعطي الآخر القبلة. كان غوينبلين هو ذلك الفُتات، تلك الذّرةَ المجرّحة والمهدهدة. كان غوينبلين نتاجَ قدرٍ مشتبكٍ بعنايةٍ سماويّة. كان الشقاءُ قد اكتشفه والسّعادة أيضاً. إن قدرين أقصيين كانا يُشكلان مصيره الغريب. كانت فوقه لعنةٌ وبركة. وكان الملعونَ المختار. فمن كان؟ لم يكن يعرف ذلك. حين كان ينظرُ إلى نفسه، كان يرى شخصاً مجهولاً. غير أن هذا المجهولَ كان مسيخاً. كان غوينبلين يعيش في نوعٍ من قطع الرأس والذي له وجهٌ ليس هو. وكان ذلك الوجهُ مريعاً، ومريعاً جدًّا بحيث يبعثُ التّسلية. لقد كان يخيفُ إلى درجةٍ كبيرة بحيث يثيرُ الضّحك. كان هزليّاً بصورةٍ جهنّمية. كان ذلك هو غرقَ الوجه البشري في قناعٍ ساخر حيوانيّ. لم يرَ المرءُ قطّ احتجاباً كاملاً للإنسان على وجهٍ بشريّ، ولم تكن محاكاةٌ ساخرةٌ قطّ أكثر كمالاً، ولم يكن مشهدٌ هزليٌّ مسرحيٌّ قد ضحك هازئاً قط من خلال كابوسٍ بصورةٍ أكثر فظاعة. وكلّ ما كان يمكن أن ينفّر امرأةً لم يندمجْ قطُّ في رجلٍ بصورةٍ أكثر إثارةً للتقزّز. إن هذا القلب المنكود، والمقنّع، والمفترى عليه بسبب هذا الوجه، كان يبدو أنه محكومٌ بالوحدة تحت ذلك المحيا، وكأنه تحت غطاء قبر. ولكن لا، عجباً! فحيث كان قد نفد الخبثُ المجهول، كانت الطيّبةُ غيرُ المنظورة بدورها تبذل طاقتها. في ذلك الخائر القوى المسكين، والذي نهض فجأة، وإلى جانب كلّ ما ينفرّ، كانت تضعُ ما يجتذب، وفي حجر العثرة كانت تصنعُ المغناطيسَ الجاذب، وكانت تجعلُ روحاً تهرعُ بخفقِ الجناحِ إلى ذلك المتروك، وكانت تعهد إلى اليمامةِ بمواساةِ المصعوق، وكانت تجعلُ التّشوّه معبوداً من الجمال.

لكي يكون ذلك ممكناً، كان ينبغي ألاّ ترى الجميلةُ المشوّه الوجه. من أجل تلك السّعادة، كان لا بدّ من ذلك الشقاء. والعناية السّماوية كانت قد جعلت ديا عمياء.

كان غوينبلين يحسُّ بصورةٍ مبهمةٍ أنّه موضوعُ خلاص. فلِمَ الاضطهاد؟ كان يجهلُ ذلك. ولِمَ الافتداء؟ إن هالةً قد أتت لتحطَّ على ذبوله، هذا كلُّ ما كان يعرفه. أما أورسوس، فحين أصبح غوينبلين في العمر الذي يفهم فيه، قرأ له وشرح نصَّ الدكتور كونكيست دو ديناساتيس، وفي كتابٍ آخر، نصفيِّ الصّفحات، هو هيغون بلاغون[*]، المقطع nares habensmutilas (١٥٢).

غير أن أورسوس قد تجنّب 'الفرضيّات' بحذر، واحترس جيّداً من أن يستنتج أيَّ شيء كان. إن افتراضاتٍ كانت ممكنةً، واحتمالَ وجودِ وسائل عنيفة في طفولة غوينبلين كان يمكن تخمينُه، غير أنه، بالنسبة لغوينبلين، لم يكن هناك إلاّ أمرٌ جليٌّ، هو النتيجة. لقد كان مصيرُه أن يعيشَ تحت ندبة. فلِمَ هذه النّدبة؟ ما من جواب. هناك صمتٌ ووحدة حول غوينبلين. كان كلُّ شيء هارباً في التخمينات التي كان يمكن ضبطُها على ذلك الواقع المأسويّ، وباستثناء الواقعة الرّهيبة، لم يكن شيء مؤكداً. في ذلك الرزوح، كانت ديا تتدخل؛ إنه نوع من تدخّلٍ سماويّ بين غوينبلين واليأس. لقد كان يدركُ، وهو متأثّرٌ وكأنه قد تدفّأ، رقّةَ تلك الفتاةِ المرهفة التي تستديرُ نحو فظاعته. كانت الدهشةُ الفردوسيّة تُحنّن وجهه القاسي؛ وإذْ صُنِعَ من أجل الرّعب، فقد كان له ذلك الاستثناءُ العجيبُ هو أن يُعجبَ به النورُ ويفتتنُ في ميدانِ الخيال، وإذْ كان مسخاً، فقد كان يحسُّ بأنّ نجمةً تتأمّله.

كان غوينبلين وديا ثنائياً، وهذان القلبان المثيرانِ للرأفة كان كلُّ منهما هائماً بالآخر. عش، وعصفوران. كانت تلك هي قصّتهما. لقد قاما بالرّجوع إلى القانون الكوني والذي هو أن يروق كلٌّ منهما للآخر، وأن يبحثَ عن الآخر، وأن يلتقي بالآخر.

بحيث أنه تمّ خداعُ الكراهية. إن مضطهدي غوينبلين، أيّاً كانوا، وضراوتهم الملغزة، ومن أيةِ جهةٍ أتت، كانت قد أخطأت هدفها. لقد كانوا يريدون أن يصنعوا يائساً، وقد صنعوا متهلّلاً. لقد خطبوا له مسبقاً جرحاً في

(*) versio Gallica will.Tyrii,lid,II.Cap xxll.

طريق الشّفاء. وقدّروا عليه أن تواسيه بلوى. واتّخذت كماشةُ الجلاّد برقّة يد امرأة. لقد كان غوينبلين مرعباً، ومرعباً بشكلٍ مصطنع، ومرعباً على يد الناس، وكانوا يأملون بعزلِه إلى الأبد، عن الأسرة أوّلاً، إن كانت له أسرة، وعن البشريّة بعد ذلك؛ وحين كان طفلاً، صنعوا منه دماراً. غير أن هذا الدّمارَ قد استعادته الطبيّعةُ كما تستعيد كلَّ ضروب الدّمار، أما تلك العزلة، فكانت الطبيّعةُ قد واستها كما تواسي كلَّ ضروب العزلة. إن الطبيعة تأتي لنجدة كلّ ألوانِ الهجر؛ فهناك حيث ينقصُ كلّ شيء، تمنحُ نفسها من جديد بكاملها؛ إنها تزهر مجدّداً وتخضرّ على كلّ الانهيارات، إن لديها اللبلاب من أجل الأحجار، والحبُّ من أجل النّاس.

إنّها أريحيّةُ الظلّ والحبّ العميقة.

V
الأزرق في الأسود

هكذا كان يعيش كلٌّ من هذين المنكودين بفضلِ الآخر، ديا التي وجدت سنداً، وغوينبلين الذي قُبل.

كان لتلك اليتيمةَ ذلك اليتيم، وكان لتلك العاجزة ذلك المشوّه.

لقد تزاوج هذان التّرمُّلان.

إن فعلَ نِعمٍ يعجز عنه الوصفُ كان يتحرّر من هاتين الشّدّتين؟ لقد كانتا تشكران.

من؟

الاتّساعَ الهائل المظلم.

أن يشكرَ المرءُ مواجهةً، هذا كافٍ. إن فعل النِّعم له أجنحةٌ ويمضي إلى حيث ينبغي أن يمضي. إن صلاتك تعرفُ أكثر منك.

كم من البشر قد آمنوا بالصّلاة لجوبيتير، وصلّوا ليهوه! وكم من المؤمنين بالتعاويذ قد سمعهم اللانهائي! وكم من الملحدين لا يتبيّنون أنهم يصلّون للرّب، بمجرّد كونهم طيّبين وحزانى!

كان غوينبلين وديا شاكرين.

التشوّهُ هو الإبعاد، والعمى هو الهوّة. فالإبعادُ قد تمّ تبنّيه، والهوّة قد غدت قابلةً للسّكن فيها.

كان غوينبلين يرى سحابةً بيضاء لجمالٍ يتخذُ شكلَ امرأةٍ ينزل نحوه في قلبِ الضّياء، بترتيبٍ من القدر يشبه ترتيبَ منظورِ حلم، ورؤيا ساطعة كان

فيها قلب، وهذا التجليّ الذي هو غيمةٌ تقريباً، ومع ذلك فهو امرأة، كان يضمّه، وتلك الرؤيا كانت تعانقه، وكان ذلك القلبُ يرغب فيه؛ ولم يعدْ غوينبلين مشوّهاً، بما أنه محبوب، إن وردةً كانت تطلبُ الزّواج بسُرّقةٍ، فقد شعرت بالفراشةِ الرائعةِ الجمالِ في تلك السّرفة؛ فغوينبلين المرفوضُ قد اختير.

أما أن يكون للمرء ما هو ضروريّ له، فكلُّ شيءٍ موجودٌ هنا. كان لغوينبلين ماله، وكان لديا ما لها.

إن النّفورَ من مشوّه الوجه والذي جرى تلطيفُه وأُعلي من شأنه، قد أخذ يتمدّد إلى انتشاء، وإلى افتتان، وإلى إيمان، وكانت يدٌ تأتي لمواجهة التردّد القائم، تردّد الأعمى في الليل.

إنه ولوجُ شدّتين في غايتهما القصوى. هذه الشِدّةُ تمتصُّ تلك. إنهما إبعادان كان يرضى كلٌّ منهما بالآخر، وثغرتان كانتا تتوافقان لكي تتكاملا. لقد كانتا تتمسكان بما ينقصهما. ومن حيث كان أحدُهما فقيراً، كان الآخر غنيّاً، إن شقاءَ أحدِهما يصنعُ كنز الآخر. ولو لم تكن ديا عمياء، هل كان يمكن أن تختار غوينبلين؟ ولو لم يكن غوينبلين مشوّه الوجه، هل كان يمكنه أن يؤثرَ ديا؟ أما هي فمن المحتمل ألاّ يكون لها أن ترغب بالمشوّه أكثر مما يرغبُ المشوّهُ بالعاجزة. فأيّة سعادةٍ بالنسبة لديا أن يكون غوينبلين مقزّزاً! وأيُّ حظٍّ جيّد بالنسبة لغوينبلين أن تكون ديا عمياء! لقد كانا غير ممكنين خارج مشاكلتهما السّماوية. إن حاجةً عجيبةً لأحدهما للآخر كانت أساساً في حبّهما. كان غوينبلين ينقذ ديا، وديا تنقذ غوينبلين. لقاءٌ بين ألوان البؤس ينتجُ الاتّحاد. إنه عناقٌ بين المبتّلعين في اللّجة. وما من شيء أوثق، وما من شيء أشدّ يأساً، وما من شيء أكبر لذّة.

كانت تخطرُ لغوينبلين فكرةٌ وهي:

'ماذا يمكن أن أكون من دونها!'

وكان يخطرُ في بالها فكرة وهي:

'ماذا يمكن أن أكون من غيره!'

كانا هذان المنفيان ينتهيان إلى وطن. وكان هذان القدران اللذان لا أمل فيهما، ندبةَ غوينبلين، وعمى ديا يُجريان التحامهما في إطار الرّضى. كان كلٌ منهما مكتفياً بالآخر. ولم يكونا يتصوّران شيئاً يتعدّى نفسيهما. فأن يتحدثا كان ذلك متعةً لهما، وأن يتقاربا كان ذلك غبطةً لهما. ومن فرط حدسهما المتبادل، كانا يصلان منه إلى وحدةٍ في التفكّر، كانا يفكّران الفكرةَ ذاتها بشكلٍ ثنائي. حين كان غوينبلين يسير، كانت ديا تظنّ أنها تسمع خطوةً تعظيمية. كان يلتصق كلٌ منهما بالآخر في نوعٍ من ضوءٍ خافتٍ كوكبيٍّ مفعمٍ بالعطور، والأضواء، وألوان الموسيقا، والعمارات المضيئة، والأحلام، كان كلٌ منهما يخصُّ الآخر، وكانا يعلمان أنهما معاً إلى الأبد في الفرحِ نفسه وفي النّشوةِ ذاتها. وما من شيءٍ كان غريباً مثل هذا النعيم الذي بناه مُعذّبان.

لقد كانا سعيدين بصورةٍ لا توصف.

بجحيمهما كانا قد صنعا السّماء، فذلك هو اقتدارُك، أيّها الحبّ!

كانت ديا تسمع غوينبلين يضحك، وكان غوينبلين يرى ديا تبتسم.

وهكذا فقد لقيا الهناءة المثاليّة، وتحقّق لهما فرحُ الحياة، وحُلّت المشكلةُ الخفيّة، مشكلة السّعادة. وعلى يد من؟ على يد بائسين.

بالنسبة لغوينبلين، كانت ديا هي البهاء، وكان غوينبلين بالنسبة لديا هو الحضور.

الحضورُ هو السِّر الخفيّ العميق الذي يؤلّه غيرَ المنظور، والذي ينتج عنه ذلك السرُّ الخفيّ الآخرُ والذي هو الثقة. وما من شيءٍ لا يمكن اختزالُه في الأديان إلاّ ذلك. غير أن هذا الشيء الذي لا يُختزلُ كافٍ. فلا يرى المرء الكائن الهائل الضروريّ، ولكنه يُحسّ به.

كان غوينبلين هو دينُ ديا.

أحياناً، تتولّه حبّاً، فتجثو أمامه، وكأنّها كاهنةٌ حسناء تتعبّدُ لتمثالٍ في معبّدٍ صيني (باغودة) وهي متهلّلةُ الوجه.

تخيّلوا الهوّة، وفي وسط الهوّة واحةٌ ضياء، وفي هذه الواحة، هذين الكائنين اللذين هما خارج الحياة، وقد بُهرا.

ما من نقاوة تشبه هذه الغراميات. لقد كانت ديا تجهلُ ما هي القبلة، ومع أنها ربّما كانت تشتهيها، لأن للعمي، وخصوصاً لدى المرأة، تخيّلاتُه. ولو أنها كانت ترتجف أمام اقترابات الرّجل المجهول، فهي لم تكن تكرهها كلّها. أما غوينبلين، فإن الفتوّة، المرتعشة كانت تجعلُه متفكرًا. وبقدر ما يزدادُ إحساسُه بالنشوة، بقدر ما يزداد خجلُه وكان يمكن له أن يتجرأ على كلّ شيء مع تلك الرّقيقة في سني حداثتها، ومع تلك الجاهلة بالخطيئة كما هي جاهلة بالضّوء، ومع تلك العمياء التي كانت ترى شيئاً، وهذا الشيء هو أنها مولعةٌ به. غير أنه كان يظنُّ أنه يختلسُ ما كان يمكنها أن تعطيه إياه. وكان يرتضي لنفسه بكآبة قانعةٍ أن يحبّ حبّاً ملائكيّاً، وكان إحساسُه بتشوّهه يتحولُ إلى احتشامٍ جليلٍ.

كان هذان السعيدان يقطنان عالم الخيال، وكانا فيه زوجين عن بعد كالكوكب، ويتبادلان في زرقة السّماء الدّفقَ المغنطيسيّ العميق الذي هو الجاذبيّة في اللاّنهاية، والجنس على الأرض. كانا يتبادلان قبلات الرّوح.

كانت حياتهما مشتركةً دوماً. ولم يكن أحدُهما يعرفُ نفسه إلاّ مع الآخر.

لقد كانت طفولةُ ديا تتزامن مع يفاعة غوينبلين. لقد شبّا جنباً إلى جنب. وناما لفترة طويلة في السّرير نفسه، فلم يكن الكوخُ الصّغيرُ على الإطلاق غرفةَ نومٍ واسعة. كانا ينامان على الصّندوق، وينام أورسوس على الأرضيّة الخشبيّة. هكذا كان ترتيب الأمر. وذات يوم، وكانت ديا لا تزال صغيرة، ورأى غوينبلين أنه قد أصبح كبيراً، إنّما بدأ الخجلُ من جهة الرّجل. وقال لأورسوس: أريد أن أنامَ على الأرض، أنا أيضاً. وما إن حلّ المساء، حتى تمدّد بقرب العجوز، على جلد الذّئب. فبكت ديا حينذاك. لقد طالبت برفيقها في السّرير. إلاّ أن غوينبلين، الذي غدا قلقاً، لأنه قد بدأ يشعرُ بالحبّ، قد صمد. واعتباراً من تلك اللحظة، أخذ ينامُ على الأرضية مع أورسوس. وفي الصّيف، في الليالي الجميلة، كان ينام خارجاً، مع أومو. وكانت ديا في الثالثة

عشرة بحيث لم تقبل بالأمر بعد. وفي المساء كانت تقول: يا غوينبلين، تعال إلى جانبي، فهذا سيجعلني أنام. إن رجلاً إلى جانبها كان ضرورةً لنومٍ البريئة. إن العري هو أن يرى المرءَ نفسه عارياً. وهكذا فقد كانت تجهل العري. إنها سذاجة أركاديا أو أوتايتي.(١٥٢) كانت ديا المتوحشة تصنع من غوينبلين رجلاً نفوراً. وكان يحدثُ أحياناً لديا، والتي كانت لا تزال صبيّة، أن تمشّط شعرها الطّويل، وهي جالسةٌ على سريرها، وقميصُها مفتوحٌ ومتهدّلٌ جزئياً، فيُظهِرُ تمثالاً أنثويّاً بخطوطه الأولى، وبدايةً مبهمة لحواء، وأن تنادي غوينبلين. وكان غوينبلين يحمرُّ خجلاً، ويُخفضُ عينيه، ولا يدري ماذا يفعل أمام ذلك اللحّم البشريِّ البريء، وكان يتمتمُ، يُشيحُ برأسه، ويخاف، ويمضي. وهذا الدافني القاتم كان يهرب أمام كلويه العتمة(*).

هكذا كانت تلك القصيدة الغزلية التي تفرّخ ضمن مأساة.

وكان أورسوس يقول لهما:

"أيّها البهيمان العجوزان، ليعشقْ كلٌّ منكما الآخر".

(*) دافني وكلويه: رواية رعوية وسيمفونية راقصة للونغوس ورافيـل وفـوكين علـى التوالي: (م: ز.ع).

VI
أورسوس المعلّم
وأورسوس الوصيّ

كان أورسوس يضيف:

"سوف أفعل لهما في أحد هذه الأيام حيلةً خبيثة، سوف أزوّجهما".

كان أورسوس يقدم لغوينبلين نظريّة الحبّ، وكان يقول له:

"الحبُّ، هل تدري كيف يشعلُ الإله الطيّب هذه النّار؟ لأنه يضع المرأةَ في الأسفل، والشيطان بين الاثنين، والرجل فوق الشيطان. وعودٌ ثقاب، أيّ نظرة، وها أن كلّ شيء يشتعل.

وكان غوينبلين يردّ وهو يفكّر بديا:

- إن نظرةً ليست ضرورية.

وكان أورسوس يجيبه قائلاً:

"أيها الأحمق! وهل تحتاجُ الأرواح للعيون لكي ينظرَ بعضُهما إلى بعض؟"

كان أورسوس أحياناً صبيّاً لطيفاً، وأحياناً، حين يصلُ ولهُ غوينبلين بديا درجةً يصبح معها مُغمًّا، كان يتحاشى أورسوس كما يتحاشى شاهداً. وقد قال له أورسوس:

"عجباً! لا تتضايق. ففي الحبّ يُظهِرُ الدِّيكُ نفسه.

فردّ غوينبلين قائلاً:

- غير أن النسّر يتخفّى".

وفي أوقاتٍ أخرى، كان أورسوس يقولُ على انفراد:

"من الحكمة أن توضع العصيّ في دواليب عربة سيتيريه. إنهما متحابان على نحوٍ مفرط، ويمكن لذلك أن تكون له سيئاته. فلنتداركْ الحريق. ولنهدّئ قلوبنا".

وكان أورسوس يلجأ إلى تحذيراتٍ من هذا النّوع وهو يتكلّم مع غوينبلين حيث تكون ديا نائمة، ويتكلّم مع ديًا حين يبتعد غوينبلين:

"يا ديا، لا ينبغي أن تتعلّقي بغوينبلين؛ أكثر مما ينبغي؛ فالعيشُ من خلال شخص آخر أمرٌ محفوفٌ بالخطر. إن الأنانيّةَ أساسٌ جيّدٌ للسعادة. فالرّجال يهربون من النّساء. ثم أن غوينبلين يمكن أن ينتهي به الأمر إلى التبجّح. فلقد أحرزَ الكثيرَ من النّجاح! ولا تتصوّرين النجاح الذي أحرزه!".

"يا غوينبلين، إن ضروب التّفاوت لا تساوي شيئاً. فالقباحةُ المفرطة من جهة، والجمالُ المفرط من الجهة الأخرى، لا بدّ أن يدعو ذلك إلى التفكرّ. فلتلطّفْ من اندفاعك يا بنيّ. فلا تشغفْ بديا أكثر من اللازم. فهل تظنّ نفسك مخلوقاً من أجلها جنّيّاً؟ فلتتأمّلْ إذن دمامتك وجمالها الكامل. انظرْ إلى المسافة بينها وبينك. إن لديها كلّ شيء، ديا هذه! فأيّةٌ بشرةٍ بيضاء، وأيّ شعر، وأيّة شفتين هما حبتان من توت الأرض، وقدمُها! أمّا يدُها! وكتفاها منحنيتان بشكل رائع، ووجهُها فيه سموّ، وحين تسيرُ يخرج منها النوّر، كلامُها الرّصينُ إضافةً إلى نغمةِ صوتها السّاحر! ومع كلّ ذلك يخطر في بالك أنها امرأة! إنها ليست حمقاء إلى الدّرجة التي تُصبح فيها ملاكاً. إنها الجمالُ المطلق. فقلْ كلّ ذلك لنفسك لكي تهدأ".

كان ينتجُ عن ذلك زياداتٌ في الحبّ بين ديا وغوينبلين. وكان أورسوس يُدهش من عدمِ نجاحه وكأنه بعض الشيء مثل شخص يقول:

"إن هذا أمرٌ غريب، فأنا ألقي الزيتَ على النار بلا طائل، فلا أتوصّل إلى إطفائها".

أن يطفئ هذه الزيادات، وأقلّ من ذلك أن يبرّدها. فهل كان يريدُ ذلك؟

كلاّ، بالتأكيد. كان يمكن أن يخدعَ نفسه لو نجح في ذلك. وهذا الحبُّ الذي هو في الأساس شعلةٌ بالنسّبة إليهما، وحرارةٌ بالنسبة إليه، كان يفتده.

ولكن ينبغي حقاً أن نكدّر قليلاً ما يسحرنا. وهذا التكديرُ هو ما يسميّه الرّجالُ الحكمة.

كان أورسوس بالنسبة لغوينبلين وديا أباً وأمّاً على وجه التّقريب. وكان قد ربّاهما وهو يتمتم، وأعالهما وهو يزمجرُ. وبما أن هذا التبنيّ قد جعل المسكن الصّغير المتنقّل ثقيلاً، فقد كان يتعيّن عليه بكثرةٍ أن يقرن نفسه مع أومو لكي يجرّهما.

ولنقل إنه، بعد أن مرّت السنوات الأولى، وحين أصبح غوينبلين كبيراً تقريباً، وحين غدا أورسوس عجوزاً تماماً، فقد أتى دورُ غوينبلين ليجرّ أورسوس.

أما أورسوس فقد استنتج الطاّلع الفلكيٍّ لغوينبلين من دمامته أثناء رؤيته له وهو يكبر، وكان قد قال له: "لقد صُنع حظك".

إن هذه العائلة المؤلفّة من عجوزٍ وطفلين وذئب قد شكّلت، أثناء تجوالها، جماعةً تزداد روابطُها وثوقاً.

لم تحل الحياةُ المترحّلةُ دون التربية. فأن يترحّلَ المرءُ معناه، كما كان أورسوس يقول: معناه أن ينمو. وبما أن غوينبلين قد أُعدَّ بطبيعة الحال "ليُعرَض في المعارض"، فإن أورسوس كان قد ربّى فيه البهلوان، وفي هذا البهلوان، كان قد غرس الحكمةَ بأفضل ما يستطيع. أما أورسوس، الذي كان مبهوتاً أمام القناع المذهل، قناع غوينبلين، فقد كان يدمدمُ: لقد بدأ بداية جيّدة". وهذا هو السّبب في أنه قد أكمله بكلّ زخارفِ الفلسفة والمعرفة.

كان أورسوس يقول، في مناجياته التي كان الذئب يصغي إليها: "لقد علّمت غوينبلين كلّ شيء، بما في ذلك اللاّتينية، ولم أعلمّ ديا شيئاً، بما في ذلك الموسيقى" كان قد علّمهما كليهما الغناء. وكانت لديه أيضاً موهبةٌ ظريفةٌ للعزف على آلةِ القمح، وهي نايٌ صغيرة من ذلك الزّمن. وكان يعزف عليها بصورةٍ مستحبّة، كما يعزف على الشّيفونيا، وهي نوعٌ من

أرغول يستخدمه متسوّل، والذي تصفُه وقائع بردّران دوغا سكلان بــ 'آلة المتشرّد' والتي هي نقطةُ انطلاق السّيمفونيّة. كانت تلك الضّروبُ من الموسيقا تجتذبُ الناس. وكان أورسوس يعرضُ على الجمهور آلة الشّيفونيا. ويقول إنها 'الأورغانسدروم، باللاتينيّة'.

كان قد علّم ديا و غوينبلين الغناءَ حسب طريقة أورفيه وإيجيد بينشوا.

وكان قد حدث له غير مرّة أن يقطع الدّروس بصيحةِ الحماسة التّالية: 'أورفية، موسيقى اليونان! وبينشوا، موسيقى بيكارديا!'.

إن تعقيداتِ التّربية المتقنة هذه لم تشغلْ الطفلّين إلى الدّرجة التي تمنعُها فيها من أن يتولّه كلٌّ منهما بالآخر. وكانا يكبران وهما يمزجان قلبيهما، مثل شجرتين مغروستين بشكلٍ متقارب، وحين تصبحان شجرتين، تشبكان أغصانهما.

كان أورسوس يهمسُ قائلاً:

'إن الأمرَ سيّان، ولسوف أزوّجهما.'

وكان يدمدمُ على انفراد:

أما الماضي، ذلك الشيء القليل الذي كان لهما منه على أيّة حال، فلم يكن موجوداً إطلاقاً بالنسبة لغوينبلين وديا. كانا يعرفان منه ما كان أورسوس قد قاله لهما عنه. وكانا يدعوان أورسوس بــ 'الأب'.

لم يكن غوينبلين يتذكرُ طفولته إلاّ باعتبارها مروراً للشياطين على مهده.

كان لديه انطباعٌ عنها أشبه ما يكون بالعرقصة في الظلّمة تحت أقدامٍ دميمة.

هل كان ذلك عمداً، أم عن غير قصد؟ كان يجهلُ هذا. إن ما كان يتذكرّه بوضوح، وفي أصغر تفاصيله، كان المغامرة المأسويّة لتركه. إن العثور على ديا قد كان بالنسبة إليه في تلك الليلة الكئيبة تاريخاً مشرقاً.

كانت ذاكرةُ ديا غائبة، أكثر أيضاً مما كانت عليه ذاكرةُ غوينبلين. وإذْ كانت جدّ صغيرة، فقد تبدّد كلّ شيء في ذاكرتها. كانت تتذكرّ أمّها وكأنها

شيء بارد. فهل رأت الشمس؟ ربّما. لقد كانت تبذلُ مجهوداً لكي تجعل ذهنها يغطس مجدّداً في ذلك التلاّشي الذي كان خلفها. والشمس؟ ماذا كانت؟ كانت تتذكرّ شيئاً مضيئاً غير واضحٍ ودافئاً، وقد حلّ غوينبلين محلّه.

كان يقول كلٌّ منهما للآخر أشياءَ بصوتٍ خفيض. ومن المؤكدّ أن النجّوى هي الشيء الأكثر أهميّة على الأرض. كانت ديا تقول لغوينبلين: "النّورُ هو حين تتكلّمّ".

وذات يوم، لم يعد غوينبلين يحتمل، وهو يلمح ذراعَ ديا من خلال كمٍّ من نسيج موصليّ، فمسّ مسّاً خفيفاً بشفتيه تلك الشّفافيّة. فمٌ دميم، وقبلةٌ مثاليّة. فأحسّت ديا بنشوةٍ عميقة. وغدت متورّدةً بكليّتها. إن تلك القبلة من مسخٍ صنعت الفجرَ على ذلك الجبين الجميل المفعم بالعتمة. ومع ذلك، فقد كان غوينبلين يتنهّد بنوعٍ من الرّعب، وإذْ كانت تنفرجُ ياقةُ عنق ديا، لم يتمالكْ نفسه من أن ينظر إلى بياضاتٍ مرئيةٍ من خلال فتحة الفردوس تلك.

رفعت ديا كمّها ومدّت إلى غوينبلين ذراعها العارية وهي تقول: "أيضاً!" فانسحب غوينبلين من الموقف بالهروب.

وفي اليوم التالي، بدأت هذه اللعبة مجدّداً بتنويعاتٍ فيها. إنه انزلاقٌ سماويّ في تلك اللّجة اللّذيذة التي هي الحبّ.

إن تلك الأشياء أمورٌ يبتسم لها الإلهُ الطيّبُ باعتباره فيلسوفاً قديماً.

VII

العمى يعطي درساً في البصيرة

كان غوينبلين يوجّه اللوّم لنفسه أحياناً. وكان يصنعُ من سعادته أزمةَ ضمير. كان يتصوّر أن الاستسلام لحبّ تلك المرأة التي ليس باستطاعتها أن تراه معناه أن يخدعَها. ماذا تقول لو أبصرت عيناها فجأة؟ كم سينفّرُها ما يجتذبُها! كم ستتراجعُ أمام محبّها المرعب! أيّة صرخة! وأيّه يدين ستغطّيان وجهها! وأيّ هرب! إن وسواساً مضنياً كان يضايقه، وكان يقول لنفسه إنه ليس له الحقّ في أن يحبّ، لأنه مسخ. إنه أفعوانٌ يغرم به الكوكب. وكان من واجبه أن ينير بصر تلك النجمة العمياء.

وذات مرّة، قال لديا:

'أنت تعلمين أنني جدٌّ قبيح.

فردّت قائلة:

- أعلم أنك سامٍ.

وتابع يقول:

'حين تسمعين كلَّ النّاس يضحكون، فهم يضحكون مني، لأنني شنيع.

وقالت له ديا:

- أحبّك'.

وأضافت بعد فترةِ صمت:

'لقد كنتُ في أحضانِ الموت، وأعدتني إلى الحياة. أنت هنا، إنّما أنت السّماء بجانبي، فأعطني يدك فألمس الرّبّ!'.

أخذت أيديهما يلتمس بعضُها البعض الآخر واشتبكت، ولم يعودا يقولان أيّة كلمة، فقد أسكتهما امتلاءُ المحبّة.

أما أورسوس، الفظّ، فكان قد سمع. وفي اليوم التّالي، وحين كانوا ثلاثتهم معاً. فقد قال:

"ومن جهةٍ أخرى، فديا قبيحة أيضاً."

لم تُحدث الكلمة تأثيرها. ولم تكن ديا وغوينبلين يصغيان. وإذْ كان كلٌّ منهما مشغوفاً بالآخر، فقد كانا نادراً ما يدركان خاتماتِ أورسوس الحكميّة. وكان أورسوس عميقاً من غير طائل.

ومع ذلك؛ فقد كانت حيطةُ أورسوس هذه المرّة والتي هي "ديا قبيحةٌ أيضاً" كانت تدلُّ لدى الرّجل العلاّمة على نوعٍ من العلم بالمرأة. ومن المؤكّد أن غوينبلين قد ارتكب بشرف عملاً طائشاً. فأن يقول لأيّة امرأة أخرى، ولأيّة عمياء أخرى غير ديا كلمة "أنا قبيحٌ" كان يمكن أن يكون خطراً. فأن يكون المرءُ أعمى وعاشقاً معناه أن يكون أعمى مرّتين. وفي مثل هذا الوضع، يصنعُ المرءُ أحلاماً. والوهمُ هو خبز الحلم؛ ونزع الوهم عن الحبّ، هو نزعُ الغذاء منه. إن كلّ ألوانِ الحماسة تدخلُ بصورةٍ مفيدة في تكوينه، الإعجاب الجسديّ مثلما الإعجاب الرُّوحي. زدْ على ذلك أنّه لا ينبغي أن تقال لامرأة كلمةٌ يصعبُ فهمُها. فتتفكّر فيها، وغالباً ما تسيء التفكرّ فيها. إن لغزاً كامناً في تفكرٍ معين يُحدث ضرراً. ويفكّكُ صدى كلمةٍ معيّنة تفلت منا ما كان متماسكاً. ويحدُثُ أحياناً، ومن غير أن نعرف كيفَ، ولأنّ القلب قد تلقى الصدْمةَ القاتمةَ لكلمةٍ في الهواء، يحدث أن يفرغ شيئاً فشيئاً. إن الكائن الذي يُحبّ يتبيّن نقصاناً في سعادته. فما من شيءٍ مرعبٍ مثل هذا النضّح البطيء للإناء المشقوق.

لم تكن ديا لحسن الحظّ من هذه الطينّة. إن العجينةَ التي تُصنع منها كلُّ النساء لم تفدها في شيء. لقد كانت ديّا من جبلّةٍ نادرة. وكان جسدُها هشّاً، أما قلبُها فلا. إن ما كان أساساً في كيانها، إنما هو ثباتٌ إلهيّ على الحبّ.

إن كلَّ الحفرِ الذي أحدثته في نفسها كلمةُ غوينبلين يؤدّي إلى جعلها تقول ذات يوم هذا الكلام:

"أن يكونَ المرءُ قبيحاً، ما معنى ذلك؟ هو أن يؤذي. وغوينبلين لا يفعل إلاّ الخير. إنه جميل."

ثم تابعت تقول، ودوماً بهذا الشّكل من التّساؤل المألوف لدى الأطفال والعمي:

"الرّؤية؟ ما الذي تسمّونه الرّؤية، أنتم الآخرين؟ أنا لا أرى، وأنا أعلم ذلك. فيبدو أن الرّؤية أمرٌ يخفي الأشياء.

وسألها غوينبلين:

- ماذا تعنين؟"

فأجابته ديا:

"الرّؤيةُ شيءٌ يُخفي الحقيقيّ".

فقال غوينبلين:

- لا.

فردّت ديا:

- بلى، وبما أنك تقول إنّك قبيح!"

وتفكرّت للحظة من الزّمن، وأضافت:

"كاذب".

وابتهج غوينبلين لأنّه قد اعترف ولم يُصدّق. فارتاح ضميرُه وحبُّه أيضاً.

وهكذا كانا قد وصلا، هي إلى السّادسة عشرة من عمرها. وهو إلى ما يقارب الخامسة والعشرين.

لم يكونا قد "تقدّما" كما يُقال اليوم، أكثرَ من اليوم الأوّل. بل أقلّ من ذلك، إذ أننا نتذكرّ أنهما قد كانت لهما ليلةُ عرس، حين كان عمْرها تسعة أشهر، وكان

عمره عشرة أعوام. وتواصلَ نوعٌ من الطّفولة الطّاهرة في حبّهما. وهكذا يحدث أحياناً أن يُطيل العندليبُ المتأخرّ غناءه الليّلي حتى الفجر.

قلّما كانت مداعباتهما تمضي إلى أبعد من الأيدي التي تضغط، وأحياناً إلى ذراعٍ عارية تُمسُّ مسّاً خفيفاً. إن لذّة تتمدّم برقّة كانت تكفيهما.

أربعة وعشرون عاماً، وستة عشر عاماً. وهذا ما جعل أورسوس، ذات صباح، يقول لهما. ولم تغرب عن باله 'حيلته الخبيثة':

'سوف تختاران ديناً في أحد هذه الأيام.

وسأل غوينبلين:

– وما جدوى ذلك؟

– لتتزوّجا.

فأجابت ديا:

لقد تمّ هذا'.

لم تكن ديا تفهم إطلاقاً أنه يمكن لهما أن يكونا زوجاً وامرأة أكثر مما كانا عليه.

إن هذا الاكتفاء الوهميّ والبتوليّ، في الواقع، وهذا الإشباع، إشباع الرّوح بالرّوح، وهذه العزوبة التي اعتُبرت زواجاً. لم تكن تزعجُ أورسوس إطلاقاً. وما كان يقول عنها إنّما هو لأنه ينبغي أن يتكلّم. غير أن الطبّيب الذي كان في إهابه كان يجدُ ديا، إن لم تكن صغيرةَ السّن أكثر من اللازم، فعلى الأقلّ، مفرطةَ الرّهافة، ومفرطة الهزال لتكون ما كان يسمّيه 'الزّقاف بكلّ ما فيه'.

ولعلّ هذا ما يحدث دوماً مبكرّاً إلى حدٍّ كافٍ.

ومن جهةٍ أخرى، ألم يكونا متزوّجين؟ وإذا كان الذي لا يُفسخُ موجوداً في مكانٍ ما، ألمْ يكن موجوداً في ذلك الاتحاد. غوينبلين وديا! إنه لأمرٌ رائع، أن يكون قد ارتمى كلٌ منهما بين ذراعي الآخر بصورةٍ فاتنةٍ وبسبب الشّقاء.

وكما لو كان ذلك الوثاق ليس كافياً؛ فقد أتى الحبّ ليرتبط بذلك الشّقاء ويلتفّ حوله ويلازمه.

فأيّةُ قوّةٍ يمكنها أن تقطع يوماً السّلسلة الحديديّة التي تقوّيها عقدةُ الزهور؟

من المؤكد أن غير القابلين للانفصال كانا موجودين.

كان الجمالُ لدى ديا، وكان النورّ لدى غوينبلين. وكانا كلٌّ منهما قد جلب مهره؛ وكانا يشكّلان أكثر مما يشكّله ثنائيّ الزّوجين، كانا يشكلان الزّوج، وتفصلُهما فقط البراءةُ، وهي تدخلٌ مقدّس.

ومع ذلك فعبثاً كان غوينبلين يتفكّر ويغرق بأكثر ما يستطيع في تأمُّل ديا، ففي دخيلة حبِّه، كان رجلاً، والقوانينُ الحتميّةُ لا يمكن تحاشيها. لقد كان يكابد، شأن الطبيعة الهائلة كلّها من الاختمارات الخفيّة التي يشاؤها الخالق. وحين كان يظهرُ علناً، فإن ذلك يجعله أحياناً ينظرُ إلى النساء بين الحشد، غير أنّه كان يُشيح بتلك النّظرة المخالفة فوراً، ويسارعُ إلى الانكفاء إلى نفسه نادماً.

لنضف أنه كان ينقصُه التّشجيعُ. فعلى وجه كلّ النسّاء اللواتي كان ينظر إليهن، كان يرى الاشمئزاز والكُره والنفور والرّفض. وكان واضحاً أنه ما من امرأةٍ أخرى غير ديا كانت متيسّرة له. وهذا ما كان يعينه على النّدم.

VIII

ليست السّعادة فقط بل الازدهار

ما أكثر الأشياء الصّحيحة في الحكايات! إن حَرَق الشيطان غير المرئي الذي يصيبك، هو تبكيتُ الضّمير بسبب فكرةٍ سيّئة.

ولدى غوينبلين، لم تكن الفكرةُ السّيئة قد وصلت إلى الظهّور، ولم يكن فيها تبكيتُ ضمير قطّ إنما كانت فيها أحياناً حسرةٌ.

أما ضروبُ ضبابِ الوجدان المبهمة.

فماذا؟ لا شيء.

كانت سعادتُهما تامّة. وقد كانت كاملةً إلى الدّرجة التي لم يعودا معها فقيرين حتّى.

كان قد جرى بين الأعوام ١٦٨٩، ١٧٠٤ تبدّلٌ في صورة الأشياء.

كان يحدثُ أحياناً، عند حلول الظلام، أن تدخلَ مقطورةٌ عريضةٌ وثقيلة يجرّها جوادان، قويّان، إلى هذه المدينة الصّغيرة أو تلك من مدن السّاحل. وكان ذلك يشبه هيكل سفينةٍ جرى قلبُها، فصار صالبُها سقفاً لها، وسطحُها أرضيّة، وقد وُضعت على أربعِ عجلات. وكانت العجلاتُ الأربعُ متماثلةً جميعها، ويصل ارتفاعُها إلى ارتفاع عجلات عربةِ أثقال. إن العجلات والعريشَ والمقطور، كلّ شيء كان مكلّساً باللون الأخضر، مع تدرّجٍ إيقاعيٍّ في الفروق اللونية ينهب من أخضر القناني بالنّسبة للعجلات إلى الأخضر التفّاحيّ بالنسبة إلى غطاء السّقف وكان قد انتهى الأمرُ بهذا اللوّن الأخضر بأن جعل العربة تُلاحَظُ. وقد كانت

معروفةً في ميادين المعرض. وكانوا يسمّونها: Box -Green ، وهذا ما كان يعني العلبة الخضراء. ولم يكن لهذه لـــ Box -Green إلاّ نافذتان، واحدةٌ من كلّ جهة، ومن الخلف بابٌ له مرقاة. وعلى السّطح، كان يخرجُ دخانٌ من قسطلٍ مدهون بالأخضر كباقي الأشياء. وكان هذا المنزلُ السّائرُ مبرنقاً دوماً من جديد، مغسولاً للتوّ. وفي الأمام، وعلى كرسيٍّ متحرّك ملتصقٍ بالمقطورة وله نافذةٌ بمثابة باب، وفوق مؤخّرة الحصانين، وإلى جانب عجوزٍ يمسكُ بالأعنّة ويوجّه المقرن، كانت هناك امرأتان عاقران(١٥٥)، أي غجريّتان، ترتديان ملابس آلهات، وهما تنقران بالبوق. وكانت دهشةُ البورجوازيين تتأمّل تلك الآلة المرتجّة باعتداد، وتعلّق عليها.

كانت تلك هي منشأة أورسوس القديمة، والتي ضخّمها النّجاحُ بمنصبةٍ رُقّيت إلى مسرح.

وكان هناك نوعٌ من كائنٍ هو بين الكلب والذّئب موثقاً تحت المقطورة، إنه أومو.

كان الحوذيّ العجوزُ الذي يسوق الرّهوانين(١٦٥) هو شخصُ الفيلسوف ذاته.

فمن أين كان يأتي هذا النّمو، نموّ الكوخِ الصّغير البائس إلى عربةِ تحميلٍ أولمبيّة فاخرة؟

ممّا يلي: كان غوينبلين مشهوراً.

وبفطنةٍ حقيقيةٍ لما هو عليه النجاحُ بين النّاس، إنّما كان أورسوس قد قال لغوينبلين:

لقد تحقق حظُّك السّعيد.

إن أورسوس، كما نتذكرّ، كان قد صنع من غوينبلين تلميذاً له. وكان أناسٌ مجهولون قد اشتغلوا على وجهه. أمّا هو فقد اشتغل على عقله. ووراء هذا القناع الذي نجح نجاحاً كبيراً فعلاً، وضع أكثر ما استطاعه من الفكر. وما إن بدا الطفل الذي كبر جديراً بذلك، حتى قدّمه على المسرح، أي على

مقدمة العربة الصّغيرة. وكان أثرٌ ذلك الظهّور فائقاً للمعتاد. وأبدى المارّة إعجابهم به في الحال. ولم يكونوا قد رؤوا قطّ شيئاً مماثلاً لهذا التّقليد المدهش للضّحك. كانوا يجهلون كيف تمٌ الحصولُ على معجزةِ المرح الصّاخب المعدي ذلك؛ فكان البعضُ يظنونّها طبيعيّة، والبعضُ الآخر يعلنون أنها مصطنعة، وكانت تضافُ إلى التكهّنات للواقع. في كلّ مكان، في مفترقاتِ الطرّق، وفي الأسواق، وفي كلّ مواقع المعرض والاحتفال. كان الحشدُ يهجم على غوينبلين. وبفضل تلك 'الجاذبيّة العظيمة'(*)، كان هناك في كيس النقود الفقير كيسِ الفرقة المتجوّلة، وابلٌ من الفلوس في البداية، ثم قطعٌ كبيرة، وأخيراً شلنات. وما إن يُستنفد مكانٌ محبٌ للطرائف، حتى يجري الانتقال إلى آخر. إن التنقل لا يُغني بناء حجرياً، ولكنه يُغني عربةً صغيرة، ومن سنةٍ إلى سنة، ومن مدينةٍ إلى مدينة، ومع تزايدِ جدارةِ غوينبلين وقباحته، أتى الحظ الوافر الذي تنبّأ به أورسوس.

وكان أورسوس يقول: 'أيّةٌ خدمةٍ قد أدّوها لك، يا بنّي!'

وكان ذلك 'الحظّ' قد أتاح لأورسوس، الذي يديرُ نجاحَ غوينبلين، أن يعمل على بناء العربة التي يحلم بها، أي مقطورةٍ واسعة بشكلٍ كافٍ لحمل مسرح، ونشر العلم والفنّ في مفترقات الطرّق. فوق ذلك، فإن أورسوس قد أمكنه أن يضيفَ على الفرقة المكوّنة منه، ومن أومو، ومن غوينبلين، ومن ديا، حصانين وامرأتين كانتا في فرقة الآلهات، كما سبق أن قلنا، وكن خادمات. وكان ثمة مقدّم بناء أسطوري مفيداً حينذاك لتخشيبةِ مشعوذين. وكان أورسوس يقول: 'نحن معبدٌ متجوّل'.

إن هاتين الغجريتّين العاقرين اللتين التقطهما الفيلسوفُ من خلال الاختلاط المشوّش والمترحّل بين النّساكر والضواحي، كانتا دميمتين وشابتين، وتُدعيان حسب رغبة أورسوس، إحداهما بفيبية والأخرى بفينوس، ويجري النطقُ بهما: فيبي: fibi وvinos، نظراً لأنه من المناسب الالتزامُ باللّفظ الانكليزي.

(*) ترجمة للعبارات الإنكليزية: "Great attraction" (م: ز-ع).

كانت فيبيه تطبخ وكانت فينوس تفرك المعبد(١٥٧).

إضافة إلى ذلك، كانتا تُلبسان ديا، في أيام الأداء المسرحي.

وبعيداً عما هو، بالنسبة للمشعوذين، كما بالنسبة للأمراء 'الحياة العامة' فقد كانت ديا، شأن فيبي وفينوس، ترتدي تنوّرةً فلورنسيّة من نسيجٍ مزهّر، وعباءةً خشنةً نسائية(١٥٨) تدع الذّراعين طليقتين، بما أنها بلا أكمام. أما أورسوس وغوينبلين فكانا يرتديان عباءتين خشنتين رجّاليتين، وشأن البحّارة المحاربين، سراويلَ كبيرةً على نمط البحريّة. وكان لدى غوينبلين إضافة إلى هذا، ومن أجلِ أعمالِ وتمرينات القوّة، وحول عنقه، وعلى كتفيه، إسكلافينةٌ جلديّة(١٥٩). وكان يُعنى بالخيول. أما أورسوس وأومو فكان كلٌ منهما يُعنى بالآخر.

أما ديا، فلفرط ما كانت معتادةً على العلبة الخضراء، فقد كانت تروحُ وتجيء في داخل المنزل المتنقّل بيسرٍ تقريباً، وكما لو أنها كانت تبصرُ فيها.

إن العين التي كان بمقدورها أن تتغلغلَ إلى البنيةِ الدّاخلية، وإلى ترتيبِ ذلك المبنى المتجوّل كان يمكن أن تلمحَ في إحدى زواياها كوخَ أورسوس العتيق والذي أُحيل على التقاعد، ورُبطَ بقلسٍ إلى الحيطانِ الداخلية، فصار بلا حراك على عجلاته الأربع، وقد أُتيح له أن يصدأ، فقد أُعفي منذ ذلك الوقت من التدحرجِ مثلما أُعفي أومو من الجرّ.

إن ذلك الكوخ الصّغير، والذي كان مزوياً في المؤخرّة على يمين الباب، كان يستخدمُ كغرفة وحجرةِ ثياب لأورسوس وغوينبلين. وكان في ذلك الحين يحتوي سريرين، وفي الزاوية المواجهة كان هناك المطبخ.

إن تنظيماً لسّفينة ليس أكثرَ اختصاراً وأكثر دقّة مما كان عليه التخّصيصُ الداخلي للعلبةِ الخضراء، فكان كلُ شيء فيه داخل مكانه، وكان مرتّباً، ومتوقّعاً ومقصوداً.

كانت المقطورةُ الفاخرة مقطعّةً إلى ثلاثِ حجراتِ مفصولةٍ بحواجز. وكانت الحجراتُ متصلةً فيما بينها بكوىً حرّة من غير بابٍ، وكانت قطعةُ قماش

متدليّةٌ تعلقُها تقريباً. الحجرةُ الخلفيّة هي مسكنُ الرّجال، والحجرة الأماميّة هي مسكنُ النساء، والحجرة الوسطى التي تفصل بين الجنسين، هي المسرح.

أما أغراضُ الجوقةِ والآلات فقد كانت في المطبخ. وكانت حجرةُ السّلّمِ تحت تقوّس السّطح تحتوي الزّخارف (الديكورات)، وإذا ما فتح المرءُ باباً قلّاباً لذلك التقوّس، كان يكشفُ الغطاءَ عن مصابيح تُحدِثُ ألواناً من سحرِ الإضاءة.

كان أورسوس شاعرَ هذه الألوان من السّحر. وكان هو الذي يؤلّف التمثيليّات.

كانت لديه مواهبُ شتى، فكان يصنعُ ألعابَ خفّةٍ جدّ فريدة. وفضلاً عن الأصوات التي كان يُسمعها، كان يُحدِثُ كلَّ أنواعِ الأشياء غير المتوقّعة، صدماتِ نورٍ وعتمة، وتشكيلاتٍ تلقائيةً لأرقامٍ أو لكلمات حسب المراد على حاجز، وتدرّجاتٍ ضوئيةً ممزوجةً بتلاشٍ للصّور، وغرائبَ كثيرةَ العدد كان يتأمّلها فيما بينهما، غير منتبهٍ للحشد الذي كان مسحوراً.

ذات يوم، قال غوينبلين:

"يا أبتِ، يبدو وكأنك ساحرٌ".

وقد أجابه أورسوس:

"ربما يعود هذا إلى أنني كذلك".

أما العلبةُ الخضراء التي صُنعت بناءً على مخطّطٍ بارعٍ أنجزه أورسوس، فقد كانت تعرضُ ذلك التفنّنَ الحاذقَ الذي تدورُ بموجبه المأطورةُ المركزيةُ للواجهة اليسرى على مفصّلة، بين الدّولابين الأماميّن والخلفيّن، بمساعدة مجموعةٍ من السّلاسل والبكرات، تهبطُ حسب المراد مثل جسرٍ متحرّك. وأثناء هبوطها، كانت تحرّر ثلاثَ دعائم ذات أذرع، وعلى مفصّلات وهي تأتي لتحطّ بشكلٍ عموديّ على الأرض، ومن خلال محافظتها على اتجاهٍ قائمٍ في حين تنخفضُ المأطورة، وذلك مثل قوائمَ منضدة، وتسند فوق الأرضيّة، مثل منصّة، المأطورةَ التي غدت خشبةَ مسرح. وفي الوقت نفسه، كان المسرح يتبدّى وقد أُضيفت إليه خشبةُ المسرحُ التي أصبحت تشكل مقدّم المسرح. كانت تلك الفتحةُ تشبه تماماً

إحدى فوهات الجحيم، وعلى حدّ قول الواعظين المتزمّتين بالفم الملآن والذين كانوا يشيحون بصرهم عنها باستفظاع.

ومن المحتمل أن يكون سولون قد أوسع تيبسيس ضرباً بالعصيّ بسبب ابتكارٍ زنديق من هذا النوّع.

لقد كُتب البقاءُ لتيبسيس مع ذلك زمناً أطول مما يُظَنّ؛ فمسرحُ العربة لا يزالُ موجوداً، وعلى مسارح متنقّلة من هذا النّوع مُثِّلتْ في إنكلترا، في القرن السّادس عشر والسابع عشر، بالياتٌ وموشحاتٌ غنائية لأمنير وبيلكنغتون، ومثلث في فرنسا التّمثيلياتُ الرّعويّةُ لجيلبير كولان، وفي الفلاندر، وفي الأعياد الشعبيّة، جوقات كليمان المزدوجة والذي يلقب بـــ نون بابا، وفي ألمانيا، آدم وحواء لتيلز، وفي إيطاليا، الاستعراضاتُ البندقية، استعراضات أنيموكسيا وكافوسيس، وأجمات جيسفالدو، أمير فيذوز، وستير(*) لورا غيديكسيوني، ويأس فيلين، وموت إيفولان لفانسان غاليله، والد الفلكي. وكان فانسان غاليله ينشدُ موسيقاه بنفسه ويرافقه الكمانُ الأوسط، كمان حبال الغامب، وكلّ تلك المحاولات الأولى، محاولات الأوبرا الإيطالية التي استبدلت، اعتباراً من عام ١٥٨٠ الإلهامَ الحرَّ بالنوّع الغزليّ الموسيقيّ.

إن العجّالةَ الملوّنة بالأمل والتي كانت تحملُ أورسوس وغوينبلين وحظهّما، والتي تتقدمها فيبي وفينوس اللتان تبوّقان مثل آلهتين رمزيّتين أسطوريّتين، وتشكّلان جزءاً من كلّ تلك المجموعة الكبيرة المترحّلة والأدبيّة، وما كان لتيسيس أن ينكر أورسوس مثلما لم يكن لكونغريو أن يُنكر غوينبلين.

عند الوصول، وفي ساحات القرى والمدن، وأثناء الفواصل بين ما تؤدّيه فيبي وفينوس على البوق، كان أورسوس يعلقّ على نافخي البوق بإيضاحاتٍ كاشفة تعليمية، وكانت يصيح قائلاً: "هذه السّيمفونية، غريغوريّة، أيّها المواطنون البرجوازيّون، فكاتبُ الصّلوات الغريغوريّ، هذا التّقدم الكبير قد اصطدم في إيطالية بالطقس(١٦١) الأمبروزيّ، وفي إسبانيا بالطّقس المستعربيّ، ولم ينتصر عليهما إلاّ بصعوبة.

(*) السيتر كائن خرافي، نصفه بشر ونصفه ماعز. (م: ز. ع).

بعد ذلك كانت العلبةُ الخضراء تتوقّف في مكانٍ ما يختارُه أورسوس، وحين يحلُّ المساء، كانت تنخفضُ مأطورةُ صدر المسرح، وينفتحُ المسرح، ويبدأ الأداء.

كان مسرحُ العلبة الخضراء يمثّل مشهداً رسمهُ أورسوس الذي لم يكن يحسن الرّسم، وهذا ما يجعل المنظر عند الحاجة قادراً على تمثيلِ سرداب.

أما السّيارة، وهي ما ندعوه بقماشة الخلفية، فقد كانت من نسيج التريفولين الحريري المقطّع بمربّعاتٍ متباينة.

كان الجمهورُ خارجاً، في الشارع، وفي السّاحة، وقد تحلّقَ على شكلِ نصفِ دائرة أمام العرض، تحت الشمس، وتحت زخّات المطر. وهذا ترتيبٌ كان يجعل المطر مرغوباً فيه بالنسبة لمسارح ذلك الزّمن على نحوٍ أقلّ مما هو مرغوبٌ فيه بالنسبة للمسارح الحاليّة. وحين يكون ممكناً، كانوا يقدّمون عروضاً في باحة نزل، وهذا ما كان يؤدّي إلى توفّرِ صفوفٍ من المقصورات بقدر ما هنالك من طوابق للنوافذ. وبهذه الصّورة، وبما أنّ المسرح مغلق، كان الجمهورُ يدفعُ أكثر.

كان أورسوس مشتركاً في كلّ شيء، في المسرحية، وفي الفرقة، وفي المطبخ، وفي الجوقة. كانت فينوس تقرعُ على طبلةِ الكاركافو التي تَستعملُ مقارعَها بشكلٍ رائع. وكانت فيبي تنقر على الموراش والذي هو نوعٌ من آلةٍ مقوّسة. وقد رُقّيّ الذئب ليغدو مفيداً. وكان بالتأكيد يشكل جزءاً من 'الجماعة' ويلعب عند الحاجة أدواراً قصيرة. وغالباً، حين كانوا يظهرون على المسرح جنباً إلى جنب، أورسوس وأومو، أورسوس، تحت جلد الدبّ المشدود جيّداً بسير، وأومو تحت جلد الذئب المسوّى على نحوٍ أفضل أيضاً، لم يكن المرءُ يدري أيّهما هو الحيوان، وهذا ما كان يُشعر أورسوس بالإطراء.

IX
ضروب الشّطط التي يدعوها الناسُ العديمو الذّوق شعراً

كانت تمثيليات أورسوس فواصلَ ترفيهيّة، وهذا نوع قد تخطّته الدُّرجةُ قليلاً اليوم. إن إحدى تلك التمثيليات التي لم تصل إلينا، كانت تحملُ عنوان: Ursus Rursus(١٦٢). ومن المرجّح أن يكون قد لعب فيها الدّور الرئيسيّ. وكان موضوعُها بوجه الاحتمال هو خروجٌ خاطئٌ تتبعه عودة، وهو موضوعٌ بسيطٌ وخليقٌ بالثناء.

كان عنوانُ فواصل أورسوس باللاتينية أحياناً، كما نرى، وكان الشّعرُ أحياناً بالإسبانية. وكانت أبياتُ أورسوس الشّعرية الإسبانية مقفّاةً مثل كافّة السّونيتات(*) القشتاليّة في ذلك الزّمن تقريباً، ولم يكن ذلك يزعجُ الجمهورَ إطلاقاً. كانت الإسبانيةُ حينذاك لغةً رائجةً، وكان البحّارةُ الإنكليز يتكلّمون القشتاليّة كما كان الجنودُ الرّومان يتكلّمون القرطاجيّة. فلترجعوا إلى بلوتوس في ذلك. ومن جهةٍ أخرى، فقد كانت اللغةُ اللاّتينية أو غيرها، في العرض كما في القدّاس، والّتي لم يكن الحضور يفهمونها، لم تكن تربك أحداً. وكانوا يتدبّرون أمرهم فيها بمرافقتها بكلمات معروفةٍ وعلى نحوٍ مرح. إن بلادنا فرنسا القديمة الغاليّة بصورةٍ خاصة كانت لديها صورةٌ خاصة في التديّن، ففي الكنيسة عند كلمة: Immolatus، كان المؤمنون ينشدون سأمسك بجذل، وعند كلمة: Sanctus، قبّليني، يا حبيبتي، وكان لا بدّ من مجمع الثلاثين لوضع نهاية لتلك المزاحات الهازلة.

(*) قصيدة من ١٤ بيتاً. (م: ز.ع).

كان أورسوس قد صنع لغوينبلين خصّيصاً فاصلاً ترفيهيّاً قد سرَّبه. وكان ذلك هو رائعته الرّئيسة. وكان قد وضع فيها كلَّ طاقته. فأن يُعطي المرءُ أكثرَ ما لديه من نتاجه، هو انتصارٌ لأيِّ إنسانٍ مبدع. إن الضّفدعة التي تلدُ ضفدعاً تصنعُ رائعةً. فهل تشكوّن بذلك؟ حاولوا أن تصنعوا مثلها.

كان أورسوس قد أتقن كثيراً هذا الفاصل الترفيهيّ. وكان ذلك الجبيس (صغير الدب) يحمل اسم: العماء المهزوم(١٦٣).

وها كم ما كان ذلك الفاصل:

إحداثٌ مؤثّرٌ لليل. في اللحظة التي كانت تبتعد فيها السّتارةُ الحريريّةُ، لم يكن الجمهور الذي يحتشدُ أمامَ العلبة الخضراء يرى إلاّ العتمة. وفي تلك العتمة، كانت تتحرّكُ، في حالة زواحف، ثلاثةُ أشكالٍ مبهمة، ذئبٌ، ودبٌّ ورجل. أما الذئبُ فكان الذئب، وكان أورسوس هو الدّب، وغوينبلين هو الرّجل. كان الذئبُ والدبُّ يمثّلان القوى المفترسة للطبيعة، وضروب الجوع غير الواعية، والعتمة الوحشيّة، وكان كلاهما ينقضّان على غوينبلين، وكان ذلك هو العماء الذي يحارب الإنسان. ولم يكن المرءُ يميّزُ وجــه أيٍّ منهم. كان غوينبلين يتخبّطُ وهو مغطىً بكفن، ويحجب وجهه شعرُه الكثيفُ المنسدل. ومن جهة أخرى، كان كلُّ شيءٍ معتماً. كان الدّبُّ يزمجرُ، والذئبُ يصرُّ بأسنانه، والرّجلُ يصرخ. وكان الرّجلُ مغلوباً على أمره، فالحيوانان يرهقانه، وكان يطلبُ العون والنّجدة، ويُلقي في المجهول نداءً عميقاً. وكان يحشرج. وكان الحضورُ يشهدُ احتضارَ الإنسان الأوليّ، والذي لا يزال يتميّز بصعوبةٍ عن البهائم. كان ذلك باعثاً على الكآبة، والحشدُ ينظر وهو يلهثُ، وبعد دقيقةٍ من ذلك، يأخذ الوحشان بإحراز الظفر، ولسوف يبتلعُ العماءُ الرّجل. صراعٌ، وصراخٌ، وعواءٌ، وفجأةً، صمت. نشيدٌ في العتمة، فقد مرّت نفثةٌ، وأخذ يُسمعُ صوت. وبدأت ألحانٌ موسيقيّة خفيّة تتردّد، مرافقةً هذا النّشيد، نشيد اللامنظور، وبغتة، ومن دون أن يدري المرء من أين ينبثق بياضٌ ما، ولا كيف؛ فقد كان ذلك البياضُ ضوءاً، وكان ذلك الضوءُ هو امرأة، وكانت تلك المرأةَ هي الرّوح. إن ديا، الهادئةَ، والبريئةَ، والجميلةَ، والمدهشة بصفائها ورقّتها كانت تتبدّى في داخل هالة. قامةٌ من الضّياء في

الفجر. أما الصّوتُ فكان هي. صوتٌ خفيفٌ وعميق، ويفوقُ الوصف. ومن كونها غير منظورةٍ، غدت منظورة، في ذلك الفجر، وكانت تنشدُ. وكان المرءُ يظنُّ أنه يسمعُ أغنيةَ ملاكٍ أو نشيدَ عصفور. وعند هذا الظهّور، أخذ الإنسانُ، وقد انتصب بانتفاضةِ انبهار، يخبط قبضتيه على الحيوانين البهيمين المطروحين على الأرض.

حينذاك أخذت الرؤيا التي حُملت على انزلاقٍ يصعبُ فهمُه ويثيرُ الإعجاب بالقدر نفسه، أخذت تنشدُ هذه الأبيات الشعريّة، ذات النّقاوة الإسبانية الكافية بالنسبة للبحّارة الإنكليز الذين كانوا يصغون إليها:

Ora! llora!

De palabra

Nace razon

(*)Da luz el son

ثم كانت تُخفض عينيها إلى ما تحتها وكأنّها قد رأت هاوية، وتتابع منشدةً:

Noche quita te de alli

(**) EL alba Canta hallali

كلّما كانت تنشد، كان الرّجل ينهضُ أكثر فأكثر، وأخذ يغدو جاثياً الآن، بعد أن كان راقداً، ويداه مرفوعتان باتجاه الرؤيا، وركبتاه موضوعتان على الحيوانين اللذين لا يتحرّكان، وكأنهما قد صُعقا، وكانت تتابعُ وهي تستديرُ نحوه:

Es menester a cielos ir

(***)Y tu que llorabas reir

(*) صلّ، وابك! - فمن الكلمة يولد العقل - والغناء يخلق النّور.

(**) أيها الليل! امض! - فالفجر يغني صيحة الظفر.

(***) ينبغي الذهاب إلى السّماء - وأن تضحك، أنت يا من كنت تبكي.

وأخذت تضيفُ وهي تقتربُ بجلال كوكب:

Gebra barzan!

Dexa,monstro,

Atu negro

(*)caparazon

وكانت تضع يدها على جبينه.

حينئذٍ أخذ صوتٌ آخر يرتفع، وهو أكثر عمقاً، وأكثر رقّة أيضاً بالنتيجة، صوتٌ مدمي الفؤاد ومفتون، وذو رصانةٍ، ناعمٌ ومخيف، وكان ذلك هو الغناءُ البشريّ الذي يردّ على الغناء الكوكبيّ. وكان غوينبلين، الجاثي باستمرار في العتمة بين الدّبّ والذئب المهزومين، ورأسه تحت يد ديا، كان يغني:

Oven! Ama!

Eres alma,

Say corazon

وفجأة، وفي تلك العتمة، كان دفقٌ نورٍ يضربُ غوينبلين على ملء وجهه.

كان المرء يرى في تلك الظلمات الوحشَ المبهور.

من المتعذّر أن نعبّر عن انفعالِ الجمهور العنيف. إن شمساً من الضّحك المنبثق كانت هي النتيجة. إن الضّحكَ يولد مما هو غير متوقّع، وما من شيءٍ أكثر فجائية من هذه الخاتمة. وما من إدهاشٍ مثيرٍ يشبهُ تلك الصّفعة من الضوء على ذلك القناع المضحك والمخيف. كانوا يضحكون حول ذلك الضّحك. وفي كلّ مكان، في الأعلى، وفي الأسفل، في المقدّمة، وفي المؤخرة، كان الرّجالُ، والنسّاء، والوجوه الشائخة الصّلعاء، ووجوه الأطفال الورديّة، والطيّبون، والأشرار، والناس المرحون، والناس الكئيبون، وكلّ الناس، وحتى المارّة، وفي الشّارع، أولئك الذين لم يكونوا يرون، بل كانوا يسمعون الضحك، كانوا يضحكون.

(*) أوه! تعال! وأحبّ – أنت روح وأنا قلب.

وكان ذلك الضحك ينتهي بتصفيقٍ، أو عرقصةٍ (خبط بالأرجل). وما إن أغلقت الستارةُ الحريرية ثانية حتى استُدعي غوينبلين بشكلٍ مهووس. وهنا أصبح النجاحُ هائلاً. فهل شاهدتم العماء المهزوم؟ كان الناس يهرعون إلى غوينبلين. وكان أهلُ عدم الاكتراث يأتون ليضحكوا، وأهل الكآبة السّوداء يأتون ليضحكوا. وأهلُ الإحساس بالخطأ يأتون ليضحكوا. إنه ضحكٌ لا يُقاوَمُ بحيث يمكن أحياناً أن يبدو مَرَضياً. غير أن هناك وباءً لا يهربُ الإنسانُ منه، إنه عدوى المرح. ثم أن النجاحَ لم يكن يتعدّى الدّهماء، فالجمهورُ الأعظمُ هو الطبقة الدّنيا. وقد كانوا يشاهدون العماء المهزوم مقابل بنس. والطبقةُ العليا لا تذهب إلى المكان الذي يذهب النّاسُ إليه مقابل فلس.

لم يكن أورسوس يكره ذلك العملَ الفنيَّ والذي تفكرُ فيه لزمنٍ طويل. وكان يقول بتواضع: "إنه على نمط ذلك المدعو شكسبير".

إن مجاورةَ ديا كانت تزيدُ من تأثير غوينبلين الذي لا يوصف؛ فهذا الوجهُ الأبيضُ بجانب ذلك العفريت كان يمثّل ما يمكن أن ندعوه بالدّهشةِ السّماويّة. كان الجمهورُ يشاهد ديا بذلك النّوع من القلق الغامض. فقد كان لديها هذا الشيء السّامي غير المحدّد بين البتول والكاهنة، والذي يجهلُ الإنسان ويعرفُ الله. كانوا يرون أنها عمياء، ويحسّون أنها بصيرة. كانت تبدو واقفةً على عتبة الفائق على الطّبيعة، وتظهرُ نصفياً ضمنَ نورنا، ونصفياً في الضياء الآخر. كانت قد أتت لتشتغل على الأرض، ولتشتغل بالصّورة التي تشتغل بها السّماء مع الفجر. لقد وجدت أفعواناً وصنعت منه روحاً. وكان يظهر أن لديها قدرةً خلاّقة مكتفيةً ومندهشةً من خلقها؛ وكان المرءُ يظنّ أنه يرى على وجهها المشدوه بصورةٍ فاتنةٍ إرادةَ السّبب ودهشةَ النتيجة. كان المرءُ يشعر بأنها تحبّ مسخها. فهل كانت تدري أنه مسخ؟ أجل، ما دامت تلمسه. ولا، لأنّها تقبلُ به. إن تلك الليلة كلّها، وكلّ ذلك النهار مختلطين كانا يذوبان في ذهن المشاهد من خلال ضوء خافت كانت تتبدّى فيه آفاقٌ لا نهاية لها. فكيف يكون الشّعاعُ الشّمسيّ حبلاً سّريّاً، وكيف تتبدّل صورةُ المشوّه، وكيف يصبح العديمُ الشّكل فردوسيّاً، لقد كانت كلُّ تلك الأسرار المستشفّةُ تتشابك بانفعالٍ كوني تقريباً مع تشنجِ المرح الصّاخب الذي

يثيرُه غوينبلين. ومن غير أن يذهب إلى العمق، فالمشاهدُ لا يحبّ إطلاقاً تعبَ التعمّق، فلقد كان المرءُ يفهم شيئاً يتعدّى ما كان يلحظه، وكان لهذا المشهد الغريب شفافيةُ الانمساخ.

أما ديا، فما كانت تحسُّ به يُفلتُ من كلام البشريّ. لقد كانت تحسُّ بأنها في وسط جمهور، ولم تكن تدري ما هو الجمهور. كانت تسمع ضوضاء، وهذا كلّ شيء. إن جمهوراً بالنسبة إليها هو نفس؛ وفي الأساس ليس إلاّ ذلك. أما الأجيال فهي أنفاسٌ تعبر. إن الإنسان يتنفّس، إنه يشهقُ ويزفر. وضمن ذلك الجمهور، كانت ديا تشعر أنها وحيدة، وتحسُّ بارتعاشةِ التّعليق فوق هوّة. وفجأةً وفي هذا الاضطراب، اضطرابِ البريء المكروب، والمستعدّ لاتهام المجهول، وفي عدم الرّضى هذا عن السّقوط الممكن، فإن ديا الصّافية الذّهن مع ذلك، والتي ترتفعُ عن القلق المبهم، قلق الخطر، ولكنها المرتعشة داخليًّا من عزلتها، قد كانت تستعيد يقينها وسندها؛ لقد كانت تلتقطُ مجدّداً حبل نجاتها في عالمِ الظلمات، وتضعُ يدها على رأس غوينبلين المقتدر. يا له من فرحٍ خارق! كان تسند أصابعها الورديّة على تلك الغابة من الشعر القصير الجعد. إن الصّوفَ الذي يُلمَسُ يوقظُ فكرةَ النعّومة. كانت ديا تلمس خروفاً تعلم أنّه أسد. وكان قلْبها كلّه يذوب في حبّ لا يوصف. كانت تحسّ أنها بمأمنٍ من الخطر، فقد وجدت منقذها. وكان الجمهورُ يرى عكس ذلك. فبالنسبة للمشاهدين، إن الكائن المُنقَذ كان غوينبلين، والكائن المنقذَ كان ديا. وما أهمية أن يكون قلبُ ديا منظوراً لمن، كما كان يرى أورسوس. أما ديا، المُطمَئِنةُ، والمواساةُ، والمفتونة، فقد كانت مولّهة بالملاك، في حين كان الشّعب يتأملُ المسخَ ويحتملُ، وهو أيضاً مجذوبٌ، وإنما باتجاهٍ معاكس، ذلك الضّحكَ الهائلَ والبروميثيوسيّ.

إن الحبّ الحقيقيّ لا يتقزّزُ إطلاقاً. وبما أنه روحٌ بكليّته، فلا يمكنه أن يفتر. إن جمرةً تتغطى بالرّماد، أما النّجمة فلا. إن تلك الإحساساتِ اللذيذة كانت تتجدّد كلّ مساء بالنسبة لديا، وكانت مهيئةً للبكاء حناناً، في حين كانوا يضحكون بتشنجٍ. حولها، لم يكونوا إلاّ فرحين؛ أما هي فكانت سعيدة.

فوق ذلك، فإن تأثيرَ المرح الذي يرجعُ إلى التكشيرة غير المنتظرة والمذهلة، تكشيرة غوينبلين لم يكن أورسوس يتعمّدُها بطبيعة الحال. وكان

يفضّل ابتساماً أكثر مع نجاحه المفرط، وهو يحسبُ كم شلناً كانت تساوي أكداسُ الفارذنغ (ربع البنس)، وكم ليرةً كانت تساوي أكداسُ الشّلنات، ثم أنه كان يقول في نفسه إنه بعد انقضاء ذلك الضّحك، سوف يبقى من العماء المهزوم شيء في داخل الأذهان. ولعلّه لم يكن مخطئاً تماماً في ذلك؛ فاكتناز العمل الفني يجري لدى الجمهور. والحقيقة هي أن تلك الدّهماء التي تعيرُ اهتمامها لذلك النّئب، ولذلك الدّبّ، ولذلك الرّجل، ثم لتلك الموسيقا، ولتلك الصيّحات المعولة التي يروّضها التناغم، ولذلك الليل الذي يبدّده الفجر، ولذلك الغناء الذي يُصدر الضّوء، تلك الدهماء كانت تقبلُ بتعاطفٍ مشوّش وعميق، وحتى بنوعٍ من الاحترام المحنّن، تلك الدّراما - القصيدةَ التي هي العماء المهزوم، وتلك الانتصار للروّح على المادّة، والذي يُفضي إلى فرح الإنسان.

تلك هي مسرّاتُ الشّعب الفظّة.

كانت تكفيه. فلم تكن تتوفرُ للشعب الإمكانيةُ للذّهاب إلى 'المباريات الراقية' مباريات الطبقة العليا، ولم يكن باستطاعته، شأن السّادة الإقطاعيين والأشراف، أن يراهن بألف جنيه على هيلمسغاي ضدّ فيليم - غي - مادون.

X
نظرة خاطفة ممن هو بعيدٌ عن كلُ شيء ويلقيها على الأشياء وعلى النّاس

تخطر للإنسان فكرة، وهي أن يثأر للمتعة التي تُقدّم إليه. ومن هنا يأتي ازدراؤه للممثّل.

"إن هذا الكائنَ يفتنُني، ويسلّيني، ويُلهيني، ويُعلّمني، ويسخّرني، ويواسيني، ويسكب لي المثل الأعلى، وهو مستحبٌ إلى نفسي، ومفيدٌ لي، فأيّ أذىً يمكنني أن ألحقه به. إنه الإذلالُ، والاحتقارُ، والصفعة عن بعد. فلنصفعْه. إنه يروقُ لي، فهو خسيسٌ إذن. إنه يخدمُني، فأنا أكرهُه إذن. وأين يوجدُ حجرٌ أرميه به؟ أيّها الكاهن، اقذفه بحجرك، وأيّها الفيلسوف، أقذفْه بحجرك. ويابوسّويِيه، احرمْه. وياروسّو، اشتمْه. ويا أيّها الخطيب ابصقْ عليه حصى فمك. وأيها الدّب، اقذفه ببلاطتك. لنرجمْ الشجرة، ولنهشّم الثمرة، ونأكلها. مرحى! وليسقط الممثّل! فأن يتلو أبياتَ الشّعراء معناه أن يكون موبوءاً. فامضِ، يا إستريون[*]! ولنضعْه في الغلّ من خلال نجاحه. ولننهِ انتصارهَ بصرخاتِ الهزء منه. وليجمعْ الحشد وليخلق الوحدةَ". وعلى هذا النّحو إنّما ابتكرت الطبقاتُ الغنيّة المسمّاة بالطبقات العالية للممثل ذلك الشكل من العزلة، ألا وهو التّصفيق.

(*) المسرحيّ المتكلّف، أو الممثّل الفاشل (م: ز. ع).

إن الدّهماءَ أقلّ شراسة؛ فهي لم تكن تكرهُ غوينبلين إطلاقاً. ولم تكن تحتقرُه كذلك. إلاّ أن آخر جلفاطِ(*) لآخر طاقمٍ آخرِ سفينةٍ مستطيلةٍ مربوطةٍ بقلوسٍ في آخر مرافئِ إنكلترا كانَ يعتبر نفسه أعلى شأناً بما لا يقاسُ من ذلك المسليّ، مُسليّ "الأوغاد"، ويقدّر أن جلفاطاً هو أعلى شأناً من مشعوذٍ بقدر ما اللوّرد أعلى شأناً من جلفاط.

كان غوينبلين إذن، شان كافة الممثلين، يُقابَلُ بالتّصفيق، ويعاني العزلة. فضلاً عن أن أيّ نجاح في هذا العالم جريمة، ويتمّ التكفير عنها. فمن يمتلك الميداليّة يمتلك وجهها السّيء.

بالنسبة لغوينبلين، لم يكن هناك من وجهٍ سيء إطلاقاً. وذلك بالمعنى الذي كان فيه جانبا نجاحه يروقان له. لقد كان راضياً عن التصفيق، ومسروراً من العزلة. فبالتّصفيق، كان غنياً، وبالعزلة، كان سعيداً.

أن يكون المرءُ غنياً، في هذا الحضيض الاجتماعي، معناه ألا يعود المرءُ بائساً، ومعناه ألاّ يعود لديه ثقوبٌ في ملابسه، وألاّ يعود هناك بردٌ في موقده، وفراغٌ في معدته. معناه أن يأكل حين يشتهي الطعّام، وأن يشرب حين يعطش. ومعناه أن يكون لديه كلّ ما هو ضروريّ، بما في ذلك فلسٌ يعطيه لفقير. إن هذا الغنى المعوز، والكافي للحريّة، كان متوفّراً لغوينبلين.

من جهة الرّوح، كان ثريّاً، فقد كان لديه الحبّ. وماذا يمكنه أن يتمنى؟

لم يكن يرغب في شيء.

التشوهُّ بدرجةٍ أقل، يبدو أن هذا ما كان يمكن أن يكون عطاءً يُقدّم إليه. وكم كان يمكنُ أن يرفض ذلك! فأن يتركَ ذلك القناع، ويستعيدَ وجهه، وأن يغدو من جديد ما كان عليه ربّما، جميلاً وساحراً، من المؤكدّ أنه لم يكن يرغبُ في ذلك! وبمَ كان يمكن أن يُعيل ديا؟ وإلامَ كانت يمكن أن تؤولَ العمياءُ الرقيقةُ والمسكينة؟ ومن غير هذه التكشيرة التي كانت تصنع منه مهرّجاً فريداً، ما كان له أن يكون إلاّ مشعوذاً مثل أيٍّ مشعوذ آخر، وحين

(*) من يسدّ حزوز السّفن بالزّفت أو من يدهن هيكلها الخارجي بمادةٍ عازلةٍ. (م: ز.ع).

يصل أوّلُ بهلوان، ملتقط للفلوس من بين شقوق الأرصفة، ربّما لن يكون لدى ديا خبزٌ في كلّ يوم! كانَ يشعرُ وقد غمره زهوٌ عميقٍ بالحنان، أنه حامي تلك العاجزة السّماويّة. فالليلُ، والوحدةُ، والإملاقُ، والعجزُ، والجهلُ، والجوعُ والعطش هي الأشداقُ السّبعةُ الفاغرةُ للبؤس كانت تنتصبُ حولها، وكان هو القديس جاورجيوس الذي يحاربُ ذلك التّنين. وقد تغلّب على البؤس. فكيف؟ بتشوّهه. بتشوّهه، صار مفيداً، ومسعفاً، ومنتصراً، وعظيماً، ولم يكن عليه إلاّ أن يظهر، وكانت النقودُ تأتي. لقد كان سيّد الحشود. وكان يتبيّن له أنه سائدٌ على هذه الدّهماء، كان يمكنه أن يقوم بكل شيء من أجل ديا. أما حاجاتُها، فكان يوفرّها لها. أما رغبتها واشتهاءاتها، ونزواتها، في النطاق المحدود، نطاق التمنّيات الممكنة بالنسبة لأعمى. فقد كان يرضيها. كان كلٌّ من غوينبلين وديا، كما بيناّ من قبل، سببَ سعادة الآخر. كان يحسُّ أنه مختطفٌ على جناحيها، وكانت تحسّ أنّها محمولة على ذراعيه. فأن تحمي من يحبّك، وأن تعطي الضّروري لمن يعطيك النجوم، ما من شيء أرقّ من ذلك. كان لدى غوينبلين تلك الغبطة العليا. وكان يدين بها لتشوّهه. وكان هذا التشوّه يجعله أعلى شأناً من كلّ شيء. فبه كان يكسب عيشه، وعيش الآخرين. وبه كان يحصل على الاستقلال، والحريّة، والشهرة، والاكتفاء الداخلي، والفخر. لقد كان منيعاً من خلال تشوّهه. ولم يكن بإمكان الأقدار أن تفعل شيئاً ضدّه فيما يتعدّى تلك الضربّة التي استنفدت فيها قواها، والتي انقلبت إلى انتصارٍ له. إن هذا القاع، قاع الشقاء قد غدا قمة نعيميّة. كان غوينبلين سجيناً في تشوّهه، ولكن برفقة ديا. لقد كانا، كما قلنا، موجودين في زنزانةٍ في الجنّة. كان بينهما وعالم الأحياء سور. فنعماً حدث. كان هذا السّورُ يزربهما، ولكنه كان يدافعُ عنهما. فما الذي يمكن صنْعه ضدّ غوينبلين بمثل هذا الإغلاق للحياة حولهما؟ أن يُنتزَع منه النجاح؟ غير ممكن، كان لا بدّ أن يُنتزع منه وجهُه. أن يُنتزع حبّه؟ غير ممكن. لم تكن ديا تراه إطلاقاً. وكان عمى ديا عصيّاً على الشّفاء بكمالٍ مطلق. وأيّ ضرر يصيب غوينبلين بسبب تشوّهه؟ ليس هناك أيُّ ضرر. وأيّة منفعة كانت تحصل عليها من ذلك؟ كلّ المنافع. لقد كان محبوباً برغم تلك الفظاعة، وربما بسببها. إن العجزَ والتشوّه قد تقاربا

بصورةٍ غريزية، وتزاوجا. فأن يكون المرءُ محبوباً، أليس هذا كلّ شيء؟ لم يكن غوينبلين يفكرّ بتشوهِ صورته إلاّ بعرفانٍ للجميل. لقد كان مباركاً من خلال هذا الوسْم. كان يشعر في نفسه بذلك الفرح الذي لا يمكنه خسارتهُ والأبديّ. فأيّ حظٍّ طيّب أن تكون هذه النّعمة عصيّةً على الشّفاء! وما دام هناك ملتقيات طرق، وميادينُ معارض، وطرقاتٌ يسيرُ المرء إليها، وما دام هناك أناسٌ تحت وسماءٌ فوق، يكون المرءُ متأكّداً من معيشته، ولن ينقصَ ديا شيء، ويكون الحبُّ موجوداً! ولا يبدّل غوينبلين وجهه مع أبولون. فأن يكون مسخاً بالنسبة إليه هو شكلُ السّعادة.

وهكذا، فقد كنّا نقول في البداية إن القدرَ قد أغدق عليه نعمته. لقد أصبح هذا المنبوذُ أثيراً.

كان جدّ سعيد بحيث وصل به الأمر أن رثى لأمرِ الناس حوله. وكانت لديه رأفةٌ زائدة. ومن جهةٍ أخرى، فقد كان لديه ميلٌ فطريٌّ للنظر إلى الخارجِ بعض الشيء؛ فما من إنسانٍ ليس فيه أيّةُ مرونة، والطّبيعةُ ليست شيئاً مجرّداً. لقد كان مفتوناً لأنه مُحاصرٌ، ولكنه من وقتٍ لآخر، كان يرفع رأسه من فوق الجدار. ولا يرجعُ من ذلك إلى عزلته بقربِ ديّا إلاّ بفرحٍ أكبر، بعد أن يكون قام بالمقارنة.

ماذا كان يرى حواليه؟ وما كان أولئك الأحياء الذين كان عيشُه المترحّل يُريه كلّ عيّناتهم، والذين يُستبدل بهم آخرون كلّ يوم؟ فدوماً جماهير جديدة، ودوماً الحشدُ نفسه. ودوماً وجوهٌ جديدة، ودوماً الحظوظُ العاثرة نفسُها. إنه اختلاطٌ من الانهيارات. في كلّ مساء، كانت كافّةُ الأقدار الاجتماعية تأتي لتتحلّق حول بهجته.

كانت العلبةُ الخضراءُ شعبيّة.

السّعرُ المتدنّي ينادي الطبقة المتدنّية. إن من كان يأتي إليه هم الضّعفاء، والفقراء، والصّغار، كانوا يذهبون إلى غوينبلين كما يذهبون لتناول الجن، فيأتون ليشتروا النّسيان مقابل فلسين. ومن أعلى مسرحه، كان غوينبلين يستعرضُ الجمهورَ الكئيب. وكان ذهنُه يمتلئ بكلّ تلك التجليّات

المتعاقبة للبؤس الهائل الاتساع. إن هيئةَ الوجه يصنعُها الوعيُ والحياة، وهي ناتجةٌ عن طائفةٍ من ضروبِ الحفر الخفيّ. فما من معاناة، ومن غضبٍ، وما خزيٍ، وما من يأسٍ، لا يرى غوينبلين تجعيدته. إن أفواهَ الأطفال هذه لم تكن قد أكلت. وهذا الرّجل كان أباً، وهذه المرأة كانت أمّاً، وخلفها، كان المرءُ يتكهّن بوجود أسرٍ هالكة. فهذا الوجهُ كان يخرجُ من الرّذيلة، ويدخل إلى الجريمة. وهل كان المرء يدركُ السّببَ في ذلك؟ إنه الجهلُ والعوزُ. وذاك شخص آخر يُبدي سمةً لطيبةِ قلبٍ أولى يشطبُها الإرهاقُ الاجتماعيّ فتغدو كراهية. فعلى هذا الجبين، جبين المرأة العجوز كان يُرى الجوعُ؛ وعلى هذا الجبين، جبين الفتاة الشابة، كانت تُرى الدّعارةُ. وتُرى الواقعةُ ذاتها فإذْ تقدّم مورداً للشّابة، تكون باعثةً على الغمّ عند العجوز. كانت هناك سواعدُ، في تلك الجمهرةِ المزدحمة، وليس فيها أدوات للعمل؛ إن هؤلاء الشّغيلة لم يكونوا يطلبون أكثر من ذلك، غير أنه لم يكن هناك عملٌ متوفّر. وأحياناً كان يأتي جنديٌ ليجلس بجانب العامل، وهو جنديٌّ عليلٌ في بعض الأحيان. وكان غوينبلين يلحظُ ذلك الشّبح الذي هو الحرب. فيقرأ غوينبلين البطالةَ هنا، وهناك يقرأ الاستغلالَ والعبوديّة. وعلى بعض الجباه، كان يتبيّن دفعاً باتجاه الحيوانيّة غير محدّد، وهذا الرّجوعُ البطيء، رجوعُ الإنسان إلى الحيوان، والذي ينتجه في الأسفل ضغطُ الثّقالاتِ القائمة لسعادةِ من هو في الأعلى. وفي هذه الظلمات، كان لغوينبلين متنفّسٌ. لقد كانا يحسّان، هو وديا، بالسّعادة في يومٍ فيه معاناة. وكلّ ما تبقّى كان عذاباً. كان غوينبلين يحسّ فوقه بوطء الأقدام غير المدرك، وطء أقدامِ المقتدرين، والأثرياء، والأجلاّء والعظماء، ومختاري المصادفة. وتحتهم، كان يميز كومةَ الوجوه الشاحبة للمحرومين. كان يرى نفسه، هو وديا، بسعادتهما الصّغيرة جدّاً، والهائلة الاتساع، بين عالمين، في الأعلى، العالم الذي يروح ويجيء، حرّاً، فرحاً، وراقصاً ومزدرياً، في الأعلى، العالمِ الذي يسير، وفي الأسفل العالم الذي يجري السّيرُ عليه. إنه شيءٌ قاتل، ويدلّ على شرٍّ اجتماعيّ عميق؛ فالنورُ يسحقُ العتمة! وكان غوينبلين يتبيّن ذلك الحداد. ماذا! أهو قدرٌ منحطّ إلى هذه الدّرجة! أيزحف الإنسان على هذه الصورة! ويلتصق على هذا الشكل بالغبار والوحل،

أهناك تقزّزٌ كهذا، وتخلّ كهذا، ودناءة كهذه بحيث يشتهي المرءُ أن يدوسها! وهذه الحياةُ الأرضيّة شرنقةٌ لأية فراشةٍ إذن؟ ماذا! وفي هذا الحشد الجائع والجاهل، في كلّ مكان، وأمام الجميع، هناك إشارة استفهام عن الجريمة أو عن العار! أتنتجُ صلابةُ القوانين إرخاءً للضّمائر! أهناك طفلٌ لا ينمو لكي يصغر! أما من عذراء لا تكبرُ من أجل العرض! وما من وردةٍ لا تولد من أجلِ اللّعاب السّائل! أحياناً كانت عيناه، الفضوليّتان بفضولٍ مفعمٍ بالانفعال، تسعيان لتبصرا حتى أعماق تلك الظلمة التي يحتضرُ فيها الكثيرُ من الجهود التي لا فائدة منها، والتي يناضل فيها الكثيرُ من العناء، عائلاتٌ يفترسُها المجتمع، وسلوكيّاتٌ تعذبُها القوانين، وجروحٌ تحولّها العقوباتُ إلى موات، وضربٌ من العوز تقضمُها الضرائبُ، وعقولٌ مخفقةٌ يبتلعُها الجهلُ، وأطواقٌ مكروبةٌ مغطّاة بالجائعين، وحروبٌ، ومجاعاتٌ، وحشرجاتٌ، وصرخاتٌ، واختفاءات؛ وكان يشعرُ برعشةِ انفعالٍ مبهم، رعشة هذا القلق الشّامل المؤثّر. كانت لديه رؤيا ذلك الزّبد، زبدِ الشقاءِ فوق الاختلاط البشري القاتم. أما هو، فكان في الميناء، وكان ينظر إلى ذلك الغرق حواليه. وكان، أحياناً، يمسك رأسه المشوّه بين يديه، ويتفكّر.

أيّ جنونٍ هو أن يكون المرء سعيداً! وكم يحلمُ المرء! لقد كانت تأتيه أفكار. وكان غيرُ المعقول يخترقُ دماغه. ولأنه كان قد أغاث طفلاً فيما مضى، كان يشعرُ بوجود نوايا ضعيفةٍ لإغاثة العالم. إن غيوماً من أحلام اليقظة كانت تعتّم عليه أحياناً واقعه الذاتي. أخذ يفقدُ الإحساسَ بالتّناسب وصولاً إلى أن يقول في نفسه: ما الذي يمكنُ فعلهُ لهذا الشعب المسكين؟ وكان استغراقُه يصلُ إلى الدّرجة التي يقول ذلك بصوتٍ عالٍ. حينذاك، كان أورسوس يهزّ كتفيه، ويحدّق به. وكان غوينبلين يستمرُّ في أحلام يقظته قائلاً: "أوه! لو كنت مقتدراً، كم كنت سآتي لمساعدة المنكودين! ولكن ما أنا؟ إني ذرّة. وماذا بإمكاني أن أفعل؟ لا شيء." لقد كان مخطئاً ؛ فقد كان يستطيعُ الكثيرَ من أجل المنكودين. كان يُضحكهم.

وكما قلنا، فأن تُضحِك هو أن تُنسي. فأيّ محسنٍ على الأرض هو من يوزّعُ النّسيان!

XI
غوينبلين في نطاق العدل
أورسوس في نطاق الحقيقيّ

إن فيلسوفاً ما يُعتبر جاسوساً. وأورسوس، مترصِّدٌ أحلام اليقظة، كان يَدرس تلميذه. إن لمناجياتنا على جبيننا انعكاساً مبهماً متميّزاً بالنسبة لعالم الفراسة. وهذا هو السّبب في أن ما يحدث في نفس غوينبلين لم يكن يُفلتُ من أورسوس إطلاقاً. وفي يومٍ كان غوينبلين يتأمّل فيه، هتف به أورسوس، وهو يسحبه من عباءته الصّوفية الخشنة:

"أنت تظهر لي وكأنك ملاحظٌ، أيها الأبله! فاحترس من ذلك، فهذا لا يعنيك. إن عليك شيئاً تفعله، هو أن تحبّ ديا. إنك مغبوطٌ بسعادتين، فالأولى أن الجمهورَ يرى خطمك، والثانية هي أن ديا لا تراه. وهذه السعادة التي تمتلكها، ليس لك الحقّ فيها. فما من امرأةٍ ترى فمك، ستقبلُ قبلتك. وهذا الفم الذي يصنع لك حظّك، وهذا الوجه الذي يصنعُ ثراءك، ليس لك. أنت لم تولد بهذا الوجه. لقد أخذته من التكشيرة الموجودة في أعماق اللاّنهاية. لقد سرقت من الشيطان قناعه. إنك قبيحٌ، فاكتفِ بهذه الخماسة(١٦٤). إن في هذا العالم الذي هو شيء مصنوع بشكلٍ جيّد جداً، هناك السّعيدون عن حق، والسّعيدون بالمصادفة. وأنت سعيدٌ بالمصادفة. إنك في قبوٍ يحدث أن قُبض على نجمةٍ فيه. وهذه النجمةُ المسكينةُ لك. فلا تحاول الخروج من قبوك، وحافظ على كوكبك، أيها العنكبوت! إنّ لديك في شبكتك الياقوتة فينوس. أسعدني بأن تكون راضياً. إني أراك مستغرقاً في الأحلام. وهذه حماقة. فاصغِ لي، سوف أحدثك بلغة الشعر الحقيقي: فلتأكل ديا شرائح البقر، وقطع ضلع الخروف،

ولسوف تصبح بعد ستّة أشهر ممتلئة الجسم مثل امرأة تركيّة؛ وتزوّجها فوراً، واجعلْها تحمل طفلاً، وطفلين، وثلاثة أطفال، وموكباً من الأطفال. هذا ما أسمّيه التّفلسف. إضافة إلى هذا، فإن المرء يصبح سعيداً، وهذا ليس شيئاً غبيّاً. فأن يكون للمرء أولاد صغار، هذا هو السّعادة. فليكن لديك أولاد، فامسحْ وجوههم، ومخّطهم، وأضجعهم، ولطخّهم، وأزلْ أوساخهم، وليعجّوا حولك؛ وإذا ضحكوا، فهذا جيّد، وإذا زعقوا، فهذا أفضل، فالصّراخ يعني الحياة. وانظر إليهم وهم يرضعون في الشهر السّادس، ويزحفون بعد عام، ويمشون بعد عامين، ويكبرون في الخامسة عشرة، ويحبّون في العشرين. فمن يحصل على هذه الأفراح يحصل على كلّ شيء. أما أنا، فقد فاتني ذلك. وهذا ما أدّى بي إلى أن أصبح بهيمة. إن الإله الرّحيم، وهو صانع قصائد جميلة، وهو أوّل الناس الأدباء قد أمر معاونه موسى قائلاً: تكاثروا! هذا هو النّص. فتكاثرْ أيها الحيوان. أما العالم، فهو على ما هو عليه، وليس بحاجة إليك ليسير بشكل سيّء. فلا تقلقْ لذلك، ولا تهتمّ بما هو في الخارج. دعْ الأفق هادئاً. إن ممثّلاً ما قد أعدّ ليُشاهَد. وليس ليشاهِد. هل تعلم ماذا في الخارج؟ السّعيدون عن حقّ. أما أنت، فأكرّر لك، أنت السّعيد بالمصادفة. أنت نشّال السّعادة التي هم مالكوها. إنهم الشّرعيون، وأنت الدّخيل، وأنت تعيش في استسرار مع الحظّ. فماذا تريد أكثر مما لديك؟ وليكن شيبوليت(١٥٦) بعوني! إن هذا الولد السّوقيّ حقيرٌ. فإن يتكاثرْ مع ديا، هذا أمرٌ مستحبٌ مع ذلك. إن بهجةً كهذه تشبهُ عمليةَ نصب. إن أولئك الذين لديهم السّعادة في هذا العالم الأرضيّ بامتيازٍ من العالم السّماوي لا يحبّون أن يُجيز من هم أدنى منهم لأنفسهم الحصول على الكثير من الفرح. فإذا سألوك: بأيّ حقّ أنت سعيد؟ فلن يكون بمقدورك أن تجيب. ليس لديك شهادةٌ براءة، أما هم فلديهم شهادة. إن جوبيتير، وألله، وفيشنو، وساباأوت، لا أهمية للتسمية، قد منحهم السّمة ليكونوا سعداء. فلتخشهم. ولا تتدخّل بأمورهم كي لا يتدخّلوا بأمورك. هل تعلم، أيّها الشّقيّ، ما هو السّعيد عن حقّ؟ إنه كاهنٌ رهيب، إنه اللّورد. آه! اللورد، ها هو لوردٌ لا بدّ أنه كان يحضّر الدسائس في خفاء الشيطان قبل أن يأتي إلى العالم، ولكي يدخل إلى الحياة من ذلك الباب! وكم كان صعباً

عليه أن يولد! إنه لم يتجشّم إلاّ هذا العناء(١٦٦). ولكن، أيتها السّماء العادلة! ها هو واحدٌ قد ولد! وحصلَ من القدر، هذا الفظّ الأعمى، أن يجعلك دفعةً واحدةً في المهد سيّداً للناس! فلتدمْ رشوة قيّم المكتب هذا لكي يعطيك أفضلَ مكانٍ في الاستعراض!

اقرأ المذكرات الموجزة التي هي في الكوخ الصّغير والذي وضعته عند تقاعدي، اقرأ كتاب حكمتي المعتاد هذا، ولسوف ترى ماذا يكون اللورّد. إن لورداً هو ذلك الذي يمتلك كلّ شيء والذي هو كلّ شيء. إن لورداً هو ذلك الذي له وجودٌ فوق طبيعته الخاصّة. إن لورداً هو الذي يملك، شابّاً، حقوقَ العجوز،و عجوزاً، ثروات الشابِّ الجيدة، وفاسداً، احترامَ أهل الخير، وجباناً، قيادةَ أهل الإقدام وخاملاً، ثمرةَ العمل، وجاهلاً، شهادةَ كامبريدج وأوكسفورد، وغبيّاً، إعجابَ الشعراء، وقبيحاً، ابتسامةَ النسّاء، وتيرسيت، خوذةَ أخيل، وأرنباً بريّاً، جلدَ الأسد، لا تُسئ استخدام كلامي، فأنا لا أقول إن لورداً جاهلٌ بالضرورة، وجبانٌ، وقبيحٌ، وغبيٌّ وعجوز، فأنا أقول فقط إنه يمكن أن يكون كلّ هذا من غير أن يؤذيه ذلك. وعلى العكس، فاللورداتُ هم الأمراء، وليس ملكٌ إنكلترا إلاّ لورداً، فهو السّيدُ الإقطاعيُّ الأولٌ للسيادة الاقطاعية. هذا كلّ شيء. كان الملوك سابقاً يُسمّون باللوردات؛ لورد الدانمرك، ولورد إيرلندا، ولورد الجزر، ولورد النرويج لم يُسمَّ ملكاً إلاّ منذ ثلاثمئة عام. أما لوسيوس، أقدمُ ملكٍ في إنكلترا فقد كان يُنعتُ بسان تيليسفور الميلورد لوسيوس(١٦٧) واللورداتُ يعتبرون أعياناً أي متساوين. بمن؟ بالملك. إني لا أقترفُ خطأً الخلط بين اللوّردات ومجلس النوّاب. إن مجلسَ الشعب الذي كان السّكسونيون، قبل الغزو، يسمّونه wittenagemot، قد أطلق عليه النّورمانديّون، بعد الغزو parliamentum. وشيئاً فشيئاً، طُردَ منه الشعبُ. إن رسائل الملك المغلقة التي تستدعي مجالسَ العموم كانت تسجّل قديماً ad consilium impendendum وهي تسجل اليوم ad consentiendum؛ فلمجالس العموم الحقّ في الموافقة. وحرّيتهم هي في أن يقولوا نعم. ويستطيعُ الأعيانُ أن يقولوا لا، والدّليلُ، أنهم قد قالوها، ويمكن للأعيان أن يقطعوا رأسَ الملك. أما الشّعبُ فلا. إن ضربةَ البلطة التي قطعت رأسَ شارل الأوّل هي تطاولٌ، ليس على الملك، بل على الأعيان، وقد

أحسنوا صنعاً بشنق هيكل كورمويل العظميّ. إن القوّة للأعيان، فلماذا؟ لأنهم يمتلكون الثروة. فمن الذي تصفّح دومسداي – بوك؟ إنه الدّليل على أن اللوردات يمتلكون إنكلترا، فهو سجلٌ أملاكِ الرّعايا الذي وُضع في عهد غليوم القاهر، وهو تحت صيانةٍ وزير المالية. لكي يُنسخ منه شيء، يدفعُ المرءُ أربعة فلوس مقابلَ كلّ سطر. إنه كتابٌ كبير. وهل تعلم أنني كنتَ طبيباً خادماً لدى لورد كان يُدعى مارمادوك، وكان يمتلك تسع مئة ألف فرنك، من فرنكات فرنسا ريعاً سنويّاً؟ انسحبْ من هنا، أيّها القميء البشع. هل تعلمُ أنه بأرانب مؤرنبات الكونت دو ليندساي وحدها، يمكنُ إطعامُ كلّ سوقةِ الموانئِ الخمسة (١٦٨). وهكذا فلتدخلْ في ذلك. إنهم يُصلحون الأمور. وكلّ صيّاد مخالف يُشنق. ولقاءَ أذنين طويلتين مغطّاتين بالوبر كانتا تُطلاّن خارج جرابه، رأيتُ والداً لستّة أطفال يُعلّق على المشنقة. هذه هي السّيادةُ الإقطاعية. إن أرنبَ اللورد يفوق قيمةَ رجلِ الإله الرّحيم. إن السّادة الإقطاعيين موجودون، فهل تسمعُ، أيّها اللص؟ وينبغي أن نجد ذلك حسناً. ثم أنه إذا وجدنا هذا سيئاً، فبماذا يضيرُهم ذلك؟ أيقدّم الشّعبُ اعتراضاته! قد لا يقتربُ بلوتوس نفسُه من هذا الهزل. وسيكون فيلسوفٌ ما طريفاً إذا قدّم النُصحَ لتلك الجمهرة المسكينة لتحتجّ على سخاء وثقل اللوردات. أي أن نجعل اليرقة تنازعُ قائمة الفيل. لقد رأيتُ ذات يوم فرسَ نهرٍ يسيرُ على جُثوةِ خلْد، فلقد كان يستحقُ كلّ شيء، وكان بريئاً. ولم يكن يدري حتى أن فيها مناجذ، هذا المستدون(*) الضخم السّاذج.

يا عزيزي، إن المناجذ التي تُسحق هي الجنس البشريّ. والسّحقُ قانون. وهل تظنّ أن الخلد نفسه لا يستحقُ شيئاً؟ إنّه مستدون العثّة. والتي هي مستدون الأشنة الصّغيرة(١٦٩) ولكن لا نحاكمنّ الأمور. فالعرباتُ موجودة، يا بنيّ، واللورد في داخلها، والشعبُ تحت العجلة، أما العاقلُ فيترصّن. فتنحّ جانباً، ودعْها تمرّ. أما أنا، فأحبُ اللوردات، وأتحاشهم. لقد عشتُ عند أحدهم. وها ما يكفي لتكون ذكرياتي جميلة. إني أتذكرّ قصره،

(*) حيوان منقرض شبيه بالفيل. (م: ز.ع).

وكأنّه هالةٌ داخل غيمة. إن أحلامَ يقظتي أنا ترجع إلى الوراء. فما من شيءٍ مثيرٍ للإعجاب مثل مارمادوك - لودج من حيث ضخامتِه، وتناظرُه الجميل، وعائداتُه الوافرة، وزخارفُ وملحقاتِ المبنى. وفوق ذلك، فإن المنازلَ، والدّاراتِ وقصورَ اللوردات تقدّمُ مجموعةً مقتطفةً ممّا هو أعظم وأروع شيء في تلك المملكة الزّاهرة. إني أحبُّ سادتنا الإقطاعيين. وأشكرهم على كونهم أثرياء، ومقتدرين، ومزدهرين. أنا الذي أرتدي العتمة، أرى باهتمامٍ وسرور تلك العيّنة من اللاّزورد السّماوي الذي ندعوه لورداً. كان يجري الدّخول إلى مارمادوك - لودج من خلال باحةٍ فسيحة للغاية والتي كانت تشكّل مربّعاً مقطعّاً إلى ثماني تربيعات صغيرة، ومغلقةٍ بدرابزينات، وتاركةٍ من كافة الجهات طريقاً عريضاً مفتوحاً، إضافة إلى منهلٍ رائعٍ مسدّس الشكل في وسطه، وله حوضان. المنهل مغطى بقبّةٍ ذات صنعةٍ رهيفة تامة، وهي معلّقة على ستة أعمدة. وهناك إنما عرفتُ ذلك العلاّمةَ الفرنسيّ، السّيد رئيسَ دير لوكروس، والذي كان من دير اليعاقبة في شارع سان - جاك. كان في مارمادوك - لودج نصفُ مكتبة إيبيرنيوس، وكان نصفُها الآخر موجوداً في قاعة الاجتماعات العامّة لعلمِ اللاّهوت في كامبريدج. وكنت أقرأ فيها كتباً، وأنا جالسٌ تحت البّوابة التي كانت مزخرفة. إن هذه الأشياء لم يكن يراها بصورةٍ معتادة إلاّ عددٌ صغيرٌ من المسافرين الفضوليّين. فهل تعلمُ، أيها الفتى المضحك، أن سيّدي الإقطاعي وليام نورث، والذي هو اللورد غراي دورولستون، والذي يجلس في الصّف الرابع عشر في مقعد البارونات، لديه أشجارٌ غابيّةٌ عالية في جبلِه أكثر مما في شعرِ رأسك الضخم المرعب. هل تعلم أن اللورد نوريه دو ريكوت، والذي هو شأن الكونت دابينغدون، لديه برجٌ رئيسٌ مربّعٌ ارتفاعُه مئتا قدم، ويحمل هذا الشعار: vitus ariete fortior، والذي يبدو أنّه يعني: الفضيلة أقوى من كبشٍ. ولكنه يعني، أيها الأبله! أن الشّجاعة أقوى من آلة الحرب؟ أجل، إني أُجلّ، وأقبّلُ وأحترمُ، وأبجّلُ سادتنا الإقطاعييّن. إنهم اللوّردات الذين يعملون، مع الجلالة الملكيّة، على تأمين مصالح الأمّة، وعلى الحفاظ عليها. إن حكمتهم التامّة تتألّقُ في الظرّوف الشائكة. أمّا حقّ التصدُّر للجميع، فأودّ أن أرى حقّاً أنه لم يكن موجوداً لديهم.

ولكنه موجود. إن ما يُدعى في ألمانيا إمارةً وفي إسبانيا عظمة، يُدعى في إنكلترا وفي فرنسا نبالة. وبما أنه كان يحقّ للمرء أن يجد هذا العالم على درجةٍ غير قليلة من البؤس، فقد شعر الله بنقطة الضّعف، وأراد أن يُثبت أنه يُحسنُ صُنعَ أناسٍ سعداء، فخلّق اللوردات لكي يُرضي الفلاسفة. إن هذا الخلْق يصحّحُ الخلْق الآخر، وخلّص من المأزق الإله الرّحيم. هذا بالنسبة إليه مخرجٌ لائق من وضع خاطئ. إن العظماءَ عظماءَ. إن عيناً يقول نحن لنا حين يتكلمُ على نفسه. إن عيناً ما يكون جمعاً. والملك ينعت الأعيان بـ consanguineri nostri (أقاربنا). لقد صنع الأعيانُ طائفةً من التشريعات الحكيمة، وفي عداد تشريعات أخرى، التشريعُ الذي يحكمُ بالموت على الرّجل الذي يقطعُ شجرةَ حور عمرُها ثلاثة أعوام. ويصل تفوّقهم إلى الدّرجة التي يمتلكون بحسبها لغة خاصّة بهم. وفي الأسلوب الشّعاري، يسمّى الأسْودُ الذي يدعى بكلمة sable (رمل) بالنسبة لجماعة النبلاء، يسمّى saturne (زحل) بالنسبة للأمراء. إن مسحوق الماس، ذلك الليل المليء بالنجوم، هو أسود السّعداء. وحتى فيما بينهم، هناك فوارقٌ طفيفةٌ، أولئك السّادة الإقطاعيّون الرّفيعو المنزلة. إن باروناً لا يمكنه أن يغتسل مع فيكونت من غيرِ إذنٍ منه. إن تلك الأشياء ممتازةٌ، وتحافظُ على الأمم. فما أجملَ أن يكون لشعبٍ ما خمسة وعشرون دوقاً، وخمسة مراكيز، وستّة وسبعون كونتاً، وتسعة فيكونتات، وأحد وستّون باروناً والذين يشكّلون مئة وستة وسبعين عيناً، وبعضُهم أصحاب سمّو، والآخرون أصحاب سيادة! وبعد ذلك، فحين يكون هناك ربّما بعضُ الأسمال في هذا المكان أو ذاك! فلا يمكن لكلّ شيء أن يكون مصنوعاً من الذهب. أسمال، فليكنْ. أفلا نرى النسيجَ الأرجوانيّ؟ إن أحدهما يشتري الآخر. لا بدّ أن يُبنى شيء بوساطة شيء. أجل، حسناً، هناك معوزون، فيا له من أمرٍ مهمّ! إنهم يُغنون سعادةَ الأثرياء. تبّاً لهذا! إن لورداتنا يصنعون مجدنا. إن الجماعة الضاريّة لشارل موهون، بارون موهون تكلّف وحدها بقدر ما يكلّف مشفى المجذومين في مورغات، ومشفى المسيح الذي تأسّس من أجل الأطفال في عام ١٥٥٣ على يد إدوار السّادس. إن توما أوسبورن، دوق ليدز، ينفق في العالم، من أجل خلعاته وحدهما، خمسة آلاف

جنيهاً ذهباً. إن عظماء إسبانيا لديهم حارسٌ يعيّنه الملك ويمنعهم من الإفلاس. إن هذه نذالة. فلورداتنا نحن مبذرّون وشديدو السخاء. وأنا أقدّر ذلك. فلا نطعننّ عليهم شأنَ الحاسدين. إني ممتنّ لرؤيا جميلة تمرّ. فليس لديّ النوّر، ولكن لديّ انعكاسُه. ولسوف تقول إنه انعكاسٌ على جرحي المتقرّح. فلتذهبْ إلى الشيّطان. إني أيوبُ السّعيد بتأمّل تريمالسيون. أوه! يا له من كوكبٍ جميل ساطع في الأعالي! إنه لشيءٌ ذو قيمة أن يحصل المرء على ضوء القمر هذا. إن إلغاء اللوردات هو رأيٌ لا يجرؤ أوريست على الدفاع عنه، مهما كان أحمق أما القولُ إن اللوردات مضرّون وغير ذي فائدة، فهذا يؤول إلى القول إنه ينبغي زعزعةُ الدّول، وإن النّاس لم يخلقوا ليعيشوا كالقطعان يرعون العشب ويعضّهم الكلب. إن المرج يجزّه الخروفُ، والخروفُ يجزّه الرّاعي. فأيّ شيء أكثر إنصافاً؟ فللجزّار جزّار ونصف. أما أنا، فكلّ شيء لديّ سواء، فأنا فيلسوف. وأحرصُ على حياتي كذبابة. فما الحياةُ إلاّ قدمٌ على الأرض. وحين يخطر في ذهني أن هنري بويز هوارد، كونت برغشاير، لديه في إسطبلاته أربع وعشرون عربةٌ فاخرة للاحتفال، وأن عربةً منها ذات طقم فرس فضّي، وعربة أخرى ذات طقم فرسٍ ذهبيّ! يا إلهي، أنا أعلم جيّداً أن كلّ الناس ليس لديهم أربع وعشرين عربة احتفالٍ فاخرة، ولكن لا ينبغي إطلاقاً رفع الصوت بالهجاء، ولأنك إذا ما شعرتَ بالبرد ذات ليلة، هذا ما تقوله! فليس هناك إلاّ أنت في ذلك. إن آخرين أيضاً قد بردوا وجاعوا. فهل تعلم أنه ما كان لديا أن تصبح عمياء لولا ذلك البرد، وأنه لو لم تكن ديا عمياء، لما أحبّتك! فلتحكّم عقلك أيّها الجاهلُ الأحمق! ثم أنه إذا كان كلّ الناس المشتّتين يشكون، فسيكون هناك صخبٌ عظيم. فالصّمتُ، هذه هي القاعدة. أنا مقتنعٌ بأن الإله الرّحيم يأمرُ المدانين بالسكوت، وإلاّ فإن الإله الرّحيم هو الذي سيكون مداناً بأن يسمع صرخةً أبديّة. إن سعادة موطن الآلهة (الأولمب) تتحققّ مقابل صمت كويست(*). فاصمت إذن، أيها الشعب. إني أفعل أكثر من هذا، فأنا أبدي موافقتي وإعجابي. ولسوف أقوم بعد قليل بتعداد اللوردات، إنما ينبغي أن نضيف إليهم بطريركين، وأربعة وعشرين مطراناً!

(*) في الميثولوجيا الإغريقية: نهرٌ في الجحيم يحيط بسافلتها. (م: ز-ع).

وإني أشعرُ بالتأثُّر، في حقيقة الأمر، حين أفكر بذلك فأنا أتذكر أنني قد رأيت، في منزل محصّل ضريبة العُشْر لدى كبير قضاة رافويه المبجّل، وهو كبيرُ قضاةٍ يدخل في عداد ولاية الكنيسة الإقطاعيّة، رأيت رحىً واسعة لأجمل قمح وقد صودرت من فلاّحي الجوار، والتي لم يتجشّم كبير القضاة عناءَ الأمر بدفعها. كان يترك له ذلك الوقت لكي يصلّي للربّ. وهل تعلم أن اللورد مارمادوك، سيّدي، قد كان لورداً هو كبير خازني ايرلندا، والقهرمان (وكيل السّيد الإقطاعي) الأعلى لولاية كنارسبوغ في كونتيّة يورك؟ وهل تعلم أن اللوّرد الذي هو الحاجبُ الأعلى، والذي هو منصبٌ وراثيٌّ في أسرة دوقات أنكاستر، يُلبس الملك في يوم التتويج، ويتلقىّ مقابل جهده أربعين أوناً من المخمل القرمزيّ، إضافةً إلى السّرير الذي نام فيه الملك، وهل تعلم أن حاجب الصّولجان الأسود هو مندوبه! أودّ أن أراك تُبدي مقاومة لما يلي، وهو أن أقدم فيكونت لإنكلترا هو السّيد روبيرت برنت، والذي سمّاه فيكونتاً هنري الخامس.

إنّ كافة ألقاب اللّوردات تدلّ على سيادةٍ على أرضٍ معيّنة، باستثناء الكونت ريفرز الذي يعتبر اسم عائلته لقباً له. فما أكثر ما يدعو إلى الإعجاب هذا الحقّ الذي يمتلكونه في فرض الضرائب على الآخرين، وفي اقتطاع أربعة شيلنات على كلّ ليرةٍ إسترلينية كدخل، على سبيل المثال، في هذه اللحظة، وهذا ما جرت منذ قليل متابعتهُ لمدّة عام، وما أروع كلّ هذه الضرائب الجميلة على المشروبات الرّوحية المقطرّة، وعلى رسوم إنتاج النبيذ، والبيرة، وعلى الحمولات والأوزان، وعلى خمر التّفاح، ونبيذ الإجاص، وعلى الجعة القويّة، والشّعير المحضّر، وعلى الفحم الترابي، وعلى مئة شيء آخر مماثل(١٧٠). فلنبجّلْ ما هو موجود. إن الإكليروس نفسه يتبع اللوردات. فمطران مان هو من رعايا الكونت دوديربي. إن لدى اللوّردات حيواناتٍ متوحّشة تخصّهم، ويضعونها في شعارات نبالتهم. وبما أن الرّبَّ لم يصنع منها ما يكفي، فقد ابتكروا عدداً منها. ابتكروا الخنزيرَ الوحشيَّ الشّعاريَّ والذي هو أعلى من الخنزير الوحشي بالقدر الذي يعلو به الخنزيرُ الوحشيُّ على الخنزير، وبالقدر الذي يعلو به السّيد الإقطاعي على الكاهن.

وقد ابتكروا عنقاء مُغرِب(*) التي هي نسرٌ بالنسبة للأسود، وأسدٌ بالنسبة للنسور، والتي تخيفُ الأسودَ بجناحيها والنسور بعفرتها. إن لديهم الثعبان، والحصان القارن(**)، والحيّة، والسّمندل، والتّاراسك(***)، والذّرية، والتنين، والحصان الغرفين، إن هذا كلّه، والذي هو رعبٌ بالنسبة إلينا، يُعدّ زينةً وحيلةً بالنسبة إليهم. إن لديهم معرضَ وحوشٍ تسمّى بفن الشّعارات. وتزمجرُ فيها مسوخٌ غير معروفة. وما من غابةٍ تضاهي زهوهم فيما هو غير منتظر من معجزاتهم. إن تباهيهم مفعمٌ بالأشباح التي تتنزّه فيه كما في ليلة جليلة، وهي مسّلحة، ومعتمرة خوذاتها، ومدرّعة، وذات مهاميز، حاملة بيدها عصا الإمبراطوريّة، وقائلةً بصوت رزين: نحن الأسلاف! إن الجُعل تأكل الجذور، ومجموعات أسلحة الفرسانِ (شكّاتهم) تأكل الشّعب. فلمَ لا؟ فهل سنبدّل القوانين؟ إن السّيادة الإقطاعية تشكّل جزءاً من النّظام؟ وهل تعلم أن هناك دوقاً في اسكوتلندا يعدو ثلاثين فرسخاً على حصانه من دون أن يخرج من أرضه؟ وهل تعلم أن اللورد البطريرك دو كانتربوري كانت لديه عائدات تقدّر بمليون من نقد فرنسا؟ وهل تعلم أن لدى جلالته في العام سبع مئة ألف ليرة إسترلينية كمخصصاتٍ ملكيّة، بصرفِ النظر عن القصور والغابات، والأراضي والإقطاعات، ومناطق النفوذ، والإقطاعات الحرّة والدخول الكنسيّة والدّخول القانونية، وضرئب العشر والإتاوات، والمصادرات والغرامات التي تتجاوزُ مليوناً استرلينياً. إن أولئك الذين ليسوا مسرورين ذوو طباع شكسة.

فهمس غوينبلين وهو يتفكّر:

– أجل، إن من جحيم الفقراء إنّما يصنَعُ فردوسُ الأغنياء.

(*) أو الغرفين وهو حيوان خرافي نصفه أسد ونصفه نسر. (م: ز.ع).

(**) حصان أسطوري له قرن في جبهته. (م: ز.ع).

(***) حيوان أسطوري يطوفون به في مدينة تاراسك بفرنسا. (م: ز.ع).

XII
أورسوس الشّاعر
يجذب أورسوس الفيلسوف

ثم دخلت ديا؛ فنظر إليها، ولم يعدْ يرى إلاّ ها. فالحبُّ هكذا؛ ويمكن للمرء أن يجتاحه للحظة من الزمن استحواذٌ لأفكار أيّا كانت؛ فتصلُ المرأةُ التي نحبّها، فتجعل فجأةً كلّ ما ليس حضوراً لها يتلاشى من غير أن ترتاب بأنها تمحو ربّما عالماً فنياً.

لنقل هنا تفصيلاً معيّناً. ففي تمثيلية العماء المهزوم هناك كلمة هي Monstro توجّهُ إلى غوينبلين، لقد كانت تروق لديا. وأحياناً، بالقليل من الإسبانية التي كان يعرفها كلّ الناس في ذلك الزّمن، كانت تتّخذُ قراراً صغيراً طائشاً بأن تستبدل بهذه الكلمة كلمة quiero والتي تعني أريده. وكان أورسوس يتسامحُ بهذه التحريفات للنّص، وليس من غير بعض البرم. وكان يمكن أن يقول لديا بسهولة، كما يقول مويسّار لفيّسو في أيّامنا: 'إنك لا تراعين لائحة المرجع'.

'الرجل الضاحك' كان ذلك هو الشّكل الذي اتّخذته شهرةُ غوينبلين. إن اسمه، غوينبلين، الذي كان مجهولاً تقريباً، كان قد غاب تحت هذا اللّقب، كما يغيبُ وجهُه تحت ضحكه. كانت شعبيّتُه قناعاً، شأن قناعه.

ومع ذلك، كان اسمهُ يُقرأ على لافتة معلّقة في مقدّم العلبة الخضراء والتي كانت تعرضُ على الجمهور الصّياغةَ التاليةً التي أعدّها أورسوس:

'هنا يُشاهد غوينبلين الذي تركه في العاشرة من عمره، في ليل ٢٩ كانون الثاني للعام ١٦٩٠، الكومبرا شيكوس الغادرون، على شاطئ البحر في بور تلاند، وقد غدا كبيراً بعد أن كان صغيراً، ودُعي اليوم بـــ:

"الرّجل الضّاحك"

كان وجودُ هؤلاء المشعوذين هو وجود المجذومين في مشفى الجذام، والمطوَّبين في جزيرة الأتلانتيد(*)؛ فقد كان ذلك كلّ يوم انتقالٌ مباغتٌ في المعرض المتجوّل الأكثر ضجيجاً إلى التجريد الأكثر اكتمالاً. وفي كلّ مساء، كانوا يقومون بالخروج من هذا العالم. كانوا أشبه ما يكونون بالموتى الذين يمضون، مع احتمال أن يبعثوا في اليوم التالي. إن الممثل منارةٌ ذات احتجاب، ظهور ثم اختفاء، وقلّما يكون موجوداً بالنسبة للجمهور إلاّ باعتباره شبحاً وضوءاً، في هذه الحياة ذات الأضواء الدّوارة.

عند ملتقى الطرق كان يتعاقب الاحتجاز. فما أن ينتهي العرض، فيما كان الحضورُ ينشتّت، وجلبةُ رضى الجمهور تتبدّد في تفرّق الشوارع، حتى تعيدَ العلبةُ الخضراء (غرين - بوكس) من جديد نصبَ لافتتها، مثلما تنصّب قلعةٌ محصّنةٌ جسرَها المتحرّك، فينقطعُ التواصلُ مع الجنس البشريّ، فمن جهةٍ هناك الكون، ومن الأخرى تلك التخشيبة. كانت هناك الحريّةُ، والضميرُ الحيُّ، والشجاعةُ، والإخلاصُ والبراءةُ، والسّعادة، والحبّ، وكلّ الكوكبات.

كان العمى البصيرُ والتشوّه المحبوبُ يجلسان جنباً إلى جنب، واليدُ تشدّ على اليد، والجبينُ يلمسُ الجبين، وهما منتشيان ويتحادثان بصوتٍ جدّ خفيض.

كانت المقصورةُ الوسطى لغايتين، فهي مسرحٌ للجمهور، وهي غرفةُ طعام للممثّلين.

(*) جزيرة افتراضيّة في الأطلسي، وقد غرقت قديماً وألهمت قصصاً عديدة منذ أفلاطون. (م: ز.ع).

أما أورسوس، الذي كان يرضيه دوماً أن يقيمَ مقارنةً معينة، فقد كان يفيد من هذا التنوّع، من التخصيص، ليماثل بين المقصورة المركزية، مقصورةِ العلبة الخضراء والـ Arradash[*] في كوخ حبشي.

كان أورسوس يحسب الإيراد، ثم يجري تناولُ العشاء، وبالنسبة للحب، كلّ شيء يغدو مثالياً، الشرابُ والطعام معاً، حين نحبُ، هو أمرٌ يجيزُ كلّ ألوان التشوّش الرقيقة الخاطفة التي تجعل لقمةً تصبح قبلة. إنهما يشربان الجعة الخفيفة (المزر) والنبيذ من القدح نفسه، كما يُشربُ النّدى في الزنبقة نفسها. إنهما روحان، في وليمة أصدقاء، ولهما اللّطافة نفسها التي لعصفورين. كان غوينبلين يخدم ديا، ويقسم لها القِطَع، ويسكب لها الشراب، ويدنو منها بصورةٍ كبيرة.

كان أورسوس ويقول "إحم!" ويحوّل زمجرتَه المؤنّبة بحيث تنتهي إلى ابتسامة.

أما الذئبُ فقد كان يتناولُ عشاءه تحت الطاّولة، ولا يعير انتباهاً إلى ما هو ليس عظمته.

أما فينوس وفيبي فقد كانتا تتشاطران وجبتهما، ولكنهما قلّما تسبّبان الإزعاج.

إن هاتين المتشرّدتين، المتوحشتين جزئياً، واللتين قد ظلّتا مرتعبتين، فقد كانتا تتكلمان فيما بينهما لغةَ العواقر.

بعد ذلك دخلت ديا إلى مكان الحريم مع فيبي وفينوس. وكان أورسوس ذاهباً ليربط أومو بالسلسلة تحت العلبة الخضراء، وكان غوينبلين يهتمّ بالخيول. ومن كونه عاشقاً أخذ يغدو سائساً، كما لو كان بطلاً من أبطال هوميروس، أو سيّداً من حاشية شارلمان.

عند منتصف الليل، كان كلُّ شيء نائماً، باستثناء الذّئب الذي كان، من وقتٍ لوقت، وقد أدرك مسؤوليّته، يفتح إحدى عينيه.

(*) الموضع الأوسط في الكوخ الحبشيّ على الأرجح. (م: ز. ع).

وفي اليوم التالي، كانوا يلتقون، عند الاستيقاظ، وكانوا يفطرون معاً، ويتناولون شيئاً من فخذ الخنزير (جامبون) والشّاي عادة. إن الشّاي، في إنكلترا يرجع تاريخه إلى عام ١٦٧٨. ثم أن ديا، وعلى الدُّرجة الإسبانية، وبناءً على نصيحة أورسوس الذي كان يجدُها رقيقة الصّحة كانت تنام بضع ساعات فيما يقوم غوينبلين وأورسوس... بكلّ الأعمال الصّغيرة في الخارج، وفي الدّاخل، والتي تتطلّبها الحياةُ المتنقلة.

كان من النادر أن يتجوّل غوينبلين خارج العلبة - الخضراء، باستثناء الشوارع الخالية والأماكن المنعزلة. وفي المدن، لم يكن يخرج إلاّ في الليل، وقد أخفى نفسه بقبّعةٍ عريضةٍ منخفضة، لكي لا يستهلك وجهه في الشّارع.

لم يكن يُرى مكشوف الوجه إلاّ على المسرح.

فوق ذلك، فإن العلبة الخضراء قليلاً ما كانت تتردّد على المدن. أما غوينبلين، في الرابعة والعشرين من عمره، فقلّما كان قد رأى مدناً أكبر من الموانئ الخمسة. ومع ذلك، فقد كانت شهرتُه تزداد. وأخذت تتجاوز الدّهماء، وتصعدُ إلى أعلى. وبين هواة الضرائب المتجوّلة، والسّاعين خلف الطُّرف النّادرة، كانوا يعلمون أنه كان هناك في مكانٍ ما، وفي حالةِ حياة مترحّلة، وفي هذا المكان تارةً، كان هناك قناعٌ عجيب. وكانوا يتحدّثون عنه، ويبحثون عنه، ويتساءلون: أين هو؟ لقد أخذ الرّجلُ الضاحك يصبحُ شهيراً بالتأكيد. وكان الدّماغ معيّن ينعكسُ على العماء المهزوم.

بحيث أن أورسوس قال ذات يوم، وقد حرّكه الطمّع: ينبغي الذهاب إلى لندن.

الكتاب الثالث

بداية التّصدُّع

I
نزل تادكاستر

لم يكن في لندن في ذلك العهد إلا جسرٌ واحد، هو جسرُ لندن، وفوقه منازل. كان ذلك الجسر يربطُ بلندن ساوثويرك، وهي ضاحيةٌ مبلطةٌ ومحصبّة بحصى ملساء من نهر التّايمز، ومليئة بالزّقيقات والأزقة، وفيها أماكنُ جدّ متراصة، وشأن المدينة، فيها كميّة من المباني، والمساكن الحقيرة والأكواخ الخشبية وهي خليطٌ قابل للاشتعال ويسري فيه الحريق بحريّة. وقد أثبتت ذلك سنةُ /١٦٦٦/.

كانت ساوثويرك حينئذٍ تُلفظُ سودريك، وتُلفظُ اليوم سوسوروك، تقريباً. وفق ذلك، فإن طريقة ممتازة للفظ الأسماء الإنكليزية هي في ألاّ تُلفظ على الإطلاق، وهكذا فإن ساوثامبتون تُقال ستبنتن Stpntn.

كان ذلك هو الزّمن الذي كانت تُلفظ فيه شاذام: Je t' aime (أحبك).

إن ساوثويرك في ذلك الزمن تشبهُ ساوثويرك اليومُ، كما تشبه فوجيرار مرسيليا. لقد كانت بلدة. وهي الآن مدينة. ومع ذلك. فقد كانت تجري فيها حركةٌ ملاحةٍ كبيرة.

في جدارٍ طويل قديمٍ وهائلٍ على نهر التّايمز، كانت حلقاتٌ قد ثُبّتت برسوخ وتُربطُ بها قواربُ النهر التي تسحبها الخيول. وكان ذلك الجدارُ يسمّى جدارٍ إفروك، أو إفروك – ستون. وحين كانت يورك سكسونيةً، كانت تُدعى إفروك. وكانت الأسطورة تروي أن أحد أدواق إفروك قد غرق في أسفل ذلك الجدار. وكان الماءُ عميقاً فيه بالنسبة لدوق؛ فعند المدّ البحريّ، كان

لا يزالُ هناك ستة أبواع كاملة[1]، وكان امتيازُ هذا المرسى الصّغير يجتذب مراكبَ البحر، وكان الجوفُ القديمُ الهولندي، والذي يدعونه Vograat يأتي ليربط قلوسه بإفروك ستون. وكانت الفوغرات تقوم مباشرةً برحلة بحريّة من لندن إلى روتردام، ومن روتردام إلى لندن، لمرةٍ واحدة أسبوعياً، وكانت قواربُ أخرى تنطلق مرتين يومياً، إما باتجاه ديبتفورت، وإما باتجاه غرينويتش، وإما باتجاه غرافسند، هي تنزل أثناء المدّ وترجع مع المدّ الآخر. وكان يجري قطعُ المسافة حتى غرافسند بستّ ساعات، مع أنها عشرين ميلاً.

كان الفوغرات من نموذجٍ لم نعد نراه اليوم إلاّ في المتاحف البحريّة، فقد كان ذلك الجوفُ يشبه قليلاً الشراعية الخيزرانية. وفي ذلك الزمن، وفيما كانت فرنسا تقلّد اليونان، كانت هولندا تقلّد الصين. أما الفوغرات التي لها هيكلٌ ثقيل ذو صاريين، فكانت مقطّعة بحواجزَ عازلة بصورة عمودية. وفيها غرفةٌ شديدة التجويف في وسط العمارة، ولها سطحان، أحدهما في المقدمة، والآخر في المؤخرة، وهما مجسّران بلا صوارٍ، شأن المراكب الحديديّة ذات التبريج في أيامنا، وهذا ما كانت له ميزةُ تخفيض تأثير الموج على السفينة في الأوقات العاصفة، والضررُ فيه أنه يعرّض الطاقم لضرباتِ البحر، بسبب عدم وجود حاجز. فما من شيء يوقفُ عند الحافة ذلك الذي يهمّ بالسقوط. وهذا ما يتسبّبُ بسقطاتٍ متكرّرة. وبخسائر بالرّجال الذين أهملوا هذه المعايير. كان جوفُ فوغراتٍ يمضي مباشرة إلى هولندا ولا يتوقّفُ حتى في غرافسند.

كان إفريزٌ قديم حجري، صخري بقدر ما هو بناءٌ منفذ، يمتّد بمحاذاة أسفل إيفروكِ ستون، وهو صالح ليجري سلوكُه في أيةِ حالةٍ بحرية، ويسهل رسوّ المراكب المربوطة بالجدار بقلوسها. أما الجدارُ فكان من مسافة إلى مسافة مقطوعاً بأدراج. وكان يحدّد الرأسَ الجنوبيّ لساوثويرك. وكان ردمٌ يتيح للعابرين أن يتكئوا على أعلى إفروك - ستون كما يتكئون على حاجز رصيف. ومن هناك كان يرى نهر التايمز. ومن الجهة الأخرى من الماء، كانت لندن تنتهي. فلم يعد هناك إلاّ حقول.

---

(١) الباغ قياسٌ بحريٌّ قديم يتراوح بين مترٍ ونصف ومترين. (م: ز.ع).

في أعلى إفروك – ستون، وعند عقفة التاميز، وبمواجهة قصر سان – جيمس تقريباً، وخلف لامبث – هاوس، وليس بعيداً عن المنتزه الذي كان يُدعى حينذاك فوكسهول (فو– هول ريمًا). كانت هناك، بين معملِ فخارٍ يصنعون فيه الخزفَ ومعملِ زجاجٍ يصنعون فيه زجاجاتٍ مدهونة، كانت هناك إحدى تلك الأراضي الواسعة البائرة، والتي ينمو فيها العشب، والتي كانت تسمى في فرنسا قديماً الزّراعات والممرات المشجّرة، وفي إنكلترا، من بولينغ – غرين. البساط الأخضر الذي ندحرج عليه كرةً، صنعنا كلمة بولينغران[1] ويمتلك المرء هذا المرج في منزله، إلا أنه يضعه على منضدة، وهو من الجوخ بدلاً من أن يكون من أرض معشبة، ويسمونه بلياردو.

فوق ذلك، لا يدرك المرء لماذا، بعد أن كان لدينا كلمة بولفار (الكرة – الخضراء) والتي هي كلمة بولينغ – غرين نفسها، أعطينا أنفسنا كلمة بولينغران. ومن المدهش أن تكون شخصية رزينة كالمعجم قد كانت لديها هذه الضروب غير المفيدة من التّرف.

كان البولينغ – غرين في ساوثويرك يسمى بتارينزو – فيلد، لأنه كان يخصٌ قديماً البارونات هاستينغز الذين هم بارونات تارينزوأند موشلاين. ومن اللوردات هاستيذغز، كان قد انتقل تارينزو – فيلد إلى اللوردات تودكاستر الذين كانوا قد استثمروه كمكانٍ عام، كما استثمر الدوق دورليان فيما بعد الباليه – روايال. ثم أن تارينزو – فيلد قد أصبح منطقة إرعاءٍ عمومي وملكيةً خورنيّة.

كان تارينزو فيلد نوعاً من ميدان معرضٍ دائم، مزدحمٍ بالمشعوذين، والبهلوانات، والحواة، وبألوان الموسيقا المؤداة على المسارح، وممتلئ دوماً بالبلهاء الذين يأتون ليشاهدوا الشيطان'، كما كان يقول البطريرك شارب. إن مشاهدةَ الشيطان هي الذهابُ إلى الاستعراض.

إن عدداً من الأنزال التي كانت تمسكُ بالجمهور وترسله إلى تلك المسارح المتجولة، كانت تطل على تلك السّاحة التي تحتفل طيلة السّنة

---

(١) أرض مزروعة بالخضير. (م: ز. ع).

وتزدهر بها. لقد كانت تلك الأنزال حوانيت صغيرة مأهولة أثناء النهار فقط، أما في المساء، فقد كان الخمّارُ يضع مفتاح الحانة في جيبه ويمضي. وكان نزلٌ واحدٌ من هذه الأنزال منزلاً، ولم يكن هناك مسكنٌ آخر في كل بولينغ – غرينٍ؛ فتخشيباتُ ميدان المعرض كان يمكن لها دوماً أن تختفي بين لحظةٍ وأخرى، نظراً لغيابِ ارتباط هؤلاء المشعوذين وتشردهم. إن للحواة حياةً مقتلعةَ الجذور.

إن هذا النّزلَ المسمّى بنزل تادكاستر، باسم السّادة الإقطاعيين السّابقين، والذي هو نزلٌ أكثر مما هو حانة، ودارُ ضيافةٍ أكثر مما هو نزل، كان له بابُ عرباتٍ وباحةٌ كبيرة بما يكفي.

إن بابَ العربات الذي ينفتح من الباحة إلى الساحة، كان البابَ الشّرعيّ لنزل تادكستر وكان إلى جانبه بابٌ غير شرعي يجري الدّخول منه، ومن يقول غير شرعيّ... يقول المفضل. وكان هذا البابُ الخفيض هو الوحيد الذي يجري العبور منه. وكان يطلّ على الحانة بحصر المعنى، والتي كانت مسكناً حقيراً داخناً، ومجهزاً بطاولات وذا سقف خفيض. وكانت تعلوه نافذةٌ في الطابق الأول. وقد أُحكمت في حدائدها وعُلّقت لافتةُ النزل. أما الباب الكبير المسدود، والمرتج نهائياً، فقد كان يظلُّ مغلقاً.

كان لا بدَّ من اختياز الحانة للدخول إلى الباحة.

كان في نزل تادكاستر ربُّ عملٍ وصبيٌ. وكان ربُّ العمل يدعى بالسيد نيكليس. ويدعى الصبيّ كوفيكوم. أما السيد نيكليس نيكولا دون شك والذي يغدو باللفظ الإنكليزي نيكليس – فقد كان أرملَ بخيلاً ومرتجفاً. ولديه احترام للقوانين. وفوق هذا، فهو مشعرُ الحاجبين واليدين.

أما الصبّي الذي هو في الرابعة عشرة فقد كان يسكبُ الشرابُ ويردّ حين ينادونه بكوفيكوم. لقد كان ذا رأسٍ ضخمٍ ومرح ويرتدي مئزراً. وكان حليق الشّعر، دلالةً على العبودية.

كان ينام في الطابق الأرضي، في غرفةٍ حقيرةٍ، كانوا قد وضعوا فيها كلباً فيما مضى. وكان لتلك الغرفة الحقيرة طاقةٌ تفتحُ على البولينغ – غرين.

I I

فصاحة في مهبِّ الرّيح

ذات مساء، والرّيح تهبُّ عاصفةً وباردةً بما يكفي، وحين كان لدى المرء كلّ مسوّغات الدّنيا ليحثّ الخطا في الشارع، توقف فجأة رجلٌ كان يسير في تارينزو - فيلد، تحت جدار نزل تادكاستر. كان ذلك في الأشهر الأخيرة من شتاء عام/١٧٠٤ و ١٧٠٥/. كان ذلك الرجل الذي تدلّ ملابسه على أنه بحّار ذو صحة جيدة، وقامة حسنة، وهذا ما هو موصوف لأناس البلاط، وليس ممنوعاً على عامة الشعب. فلِمَ توقّف؟ لكي يصغي. وإلامَ كان يصغي؟ إلى صوتٍ كان يتكلم ربّما في باحة في الجانب الآخر من الجدار، صوت شيخي قليلاً، غير أنه مع ذلك جدّ مرتفع بحيث يصل حتى المارة في الشارع وفي الوقت عينه، كانت يُسمَعُ، في الأرض المسوّرة التي كان الصوتُ يخطبُ فيها بإطناب، ضجيجُ الجمهور، كان ذلك الصوت يقول:

يا رجالَ ونساء لندن، ها أنذا. إني أهنئكم قلبياً لأنكم انكليز. أنتم شعبٌ عظيم. وأنا أقول أكثر من هذا، إنكم سوقة عظماء. إن لكماتكم هي أجملُ أيضاً من ضربات سيوفكم. لديكم شهية. وأنتم الأمة التي تأكل الآخرين. فيا لها من وظيفةٍ رائعة. إن امتصاص العالم هذا يصنف إنكلترا تصنيفاً مستقلاً. وكسياسةٍ وفلسفة، وإدارةٍ للمستعمرات، والسكان، والصناعات، وكرغبة في إيذاء الآخرين والتي هي خيرٌ بحدِ ذاتها، أنتم متفرّدون ومدهشون. إن اللحظة التي سيكون فيها على الأرض لافتتان، يقرأ المرء على إحداهما جهة البشر، وعلى الأخرى: جهة الإنكليز هذه اللحظة تقترب. وإني أتبيّن هذا الأمر الذي هو فخرٌ لكم، أنا الذي لست إنكليزياً، ولا إنساناً، والذي يشرفني أن أكون دباً، وإضافة لذلك، فأنا طبيبٌ. والأمران يسيران معاً. أيها السادة المهذبون إني

أعلم. ماذا؟ نوعين من الأشياء، الأشياء التي أعرفها والأشياء التي أجهلها. إني أبيع عقاقير، وأعطي أفكاراً. فاقتربوا، واصغوا. إن العلم يدعوكم إلى ذلك. افتحوا أذنكم. فإذا كانت صغيرة، فلسوف تحفظ القليل من الحقيقة، وإذا كانت كبيرة، فلسوف يدخل إليها الكثيرُ من الغباء. فانتبهوا إذن. إني أعلّم الـ Pseudoxia Epidemica(*). ولديّ رفيقٌ يقوم بالإضحاك. وأنا أدعو إلى التفكير. إننا نسكنُ العلبةَ ذاتها، بما أن الضّحكَ له سمعةٌ حسنة كالمعرفة. وحين كانوا يسألون ديموقريط " كيف تعلّم؟": "كان يجيب: "إني أضحك". وأنا، إذا سُئلت: " لماذا أضحك؟" فلسوف أجيب: "إني أعلم". وفوق ذلك. فأنا لا أضحك. إني مصحّح الأخطاء الشعبية. وأنا أقوم بتنظيف عقولكم. إنها غير نظيفة. إن الرّبَّ يسمح للشعب بأن يخطئ وأن يكون مخدوعاً. ولا ينبغي أن يكون لدى المرء احتشامات غبية. فأنا أقرّ بصراحة أنني مؤمنٌ بالرب، حتى حين يكون على خطأ. إلا أنني حين أرى قاذورات - فالأخطاء قاذورات - فأنا أكنسها. وكيف أعلم ما أعلم؟ هذا أمر لا يعني سواي. إن كل واحد يأخذ العلم من المكان الذي يقدر عليه، كان لاكتانس يطرح أسئلة على رأسٍ برونزي لفيرجيل، والذي كان يردّ عليه، وكان سيلفيستر الثاني يتحاور مع الطيور. فهل كانت الطيور تتكلم؟ وهل كان البابا يزقزق؟ إنها أسئلة. كان الابن الميت، ابن الحاخام إيليازار يتحدث مع القديس أوغسطين. وفيما بيننا، أنا أشك بكل هذه الوقائع، باستثناء الأخيرة منها. كان الطفلُ الميتُ يتكلم، فليكن؛ غير أنه كانت لديه تحت لسانه رقاقةٌ ذهبية قد حفرت عليها كوكبات نجوم مختلفة. لقد كان يغشّ إذن. والواقعة تجد تفسيراً لها. أنتم تلاحظون اعتدالي. إني أفصلُ الصحيح عن الخطأ. هيا، إليكم أخطاء أخرى تتشاطرونها بلا شك، يا أبناء الشعب المساكين، وأريد أن أخلصكم منها. كان ديوسكوريد يؤمن بأن هناك إلهاً في البنج، وكان كريزيب يؤمن بوجوده في بنية المولي(1). وكانوا جميعاً مخطئين. إن ما هو موجود في هذه الأعشاب ليس إلهاً؛ بل هو عفريت. وقد تحققت من هذا. وليس صحيحاً أن للحية التي أغوت

(*) وباء الخلية الكاذب (م: ز. ع).

(1) نبات أسطوري أسود الجذور وحليبيُّ الزهر له تأثير سحري (م: ز. ع).

حواء، شأن قدموس، وجهاً بشرياً. إن غراسيا دو هورتو، وكاد اموستو، وجان هيغو، بطريرك تريف، ينكرون أنه يكفي أن تدشر شجرة حتى تقبض على فيل. وإني أميلُ لرأيهم. أيها المواطنون، إن جهود لوسيفر هي سببُ الآراء الخاطئة. ففي عهد أمير كهذا، لا بد أن تظهر ظاهراتٌ سريعة من الخطأ والضلال. أيها الشعب، إن كلوديوس بولشير لم يمت لأن الدّجاجَ قد رفض الخروج من القنّ. فالحقيقة هي أن لوسيفر، بعد أن توقع موت كلوديوس بوليشر، قد عُني بمنع هذه الحيوانات من الأكل. أما أن يكون بلزبوث قد أعطى الإمبراطور فيسبازيان خاصيَّةَ تقويمِ مشيةِ العرجِ. وإعادة البصر إلى العمي من خلال لمسه لهم، فقد كان عملاً جديراً بالثناء بحدّ ذاته، غير أن باعِثه قد كان مُداناً. أيها السادة المهذبون، لا تركنوا إلى العلماء الزائفين الذين يستثمرون جذر نبات البريوان، وعنب الحية الأبيض، والذين يصنعون قطْرات من العسل، ودم الدّيك، وتعلموا كيف تكونون على بصيرة من الأكاذيب. وليس صحيحاً إطلاقاً أن أوريون قد ولد من حاجة طبيعية[1] من حاجات جوبيتر؛ فالحقيقة هي أن ميركور هو الذي خلق هذا الكوكب على هذا النحو. وليس صحيحاً أن آدم قد كانت له سرة. وحين قتل القديسُ جاور جيوس تنيناً، لم تكن بقربه ابنة قديس. ولم يكن لدى القديس جيروم في حجرته ساعةٌ دقّاقة على موقده. أولاً، لأنه لم تكن لديه حجرة، بما أنه كان في مغارة. وثانياً، لأنه لم يكن لديه موقد، وثالثاً لأن الساعات الدقّاقة لم تكن موجودة. فلنصوّب الأمور، لنصوب الأمور. أوه، أيها اللطفاء الذين تصغون إليّ، إذا ما قيل لكم إن أيّ إنسان يشمّ عشبة الفاليريان، تتولد في دماغه عظاية، وفي عملية التفكّك، يتحوّل الثورُ إلى نحل، والحصان إلى زنابير، وأن الإنسان يزن وهو ميت أكثر مما هو حيّ، وأن دم التّيس يحلّ الزمرد، وأن سرفةً ونبابة وعنكبوتاً تُلحظ على الشجرة نفسها تنذرُ بالمجاعة والحرب، والطاعون، وأن المرض القديم يُشفى بواسطة دودةٍ نعثر عليها في رأس اليحمور، فلا تصدقوا ذلك، إنها ضلالات. ولكن إليكم بعض الحقائق: إن جلد

---

(١) أي أن الإله ميركور (ابن جوبيتير) قد صنع الكوكب عطارد على صـــورته الحاليـــة (م: ز.ع).

العجل البحري يقي من الرعد؛ والضفدعَ يغتذي بالتراب، وهذا ما يسبب له حصاةً في رأسه. إن وردة جرش تزهر عشيّة الميلاد، وليس للفيل مفاصل، فهو مجبرٌ على النوم واقفاً إزاء شجرة؛ وليجعلوا ضفدعاً يرخم على بيضة ديك، فتحصلوا على عقرب يصنع لكم سمذلاً. إن أعمى يستعيدُ البصر حين يضع يده اليسرى على الجهة اليسرى من المذبح، واليد الأخرى على عينيه. إن البتولة لا تنفي الأمومة. أيها الناس الطيبون. اغتذوا بهذه البداهات. وعلى ذلك، يمكنكم أن تؤمنوا بالله بطريقتين: إما بالطريقة التي يؤمن العطشُ بها بالبرتقالة، أو كما يؤمنُ الحمار بالسوط، والآن سوف أقدم إليكم العاملين معي".

وهنا هزت هبةُ ريحٍ عنيفة بما يكفي إطاراتِ نوافذ ومصاريع النزل، والذي كان منزلاً منعزلاً. وهذا ما أحدث نوعاً من همسٍ طويل سماويٍّ. فانتظر الخطيب لحظة، ثم استعاد تفوقه قائلاً: "انقطاع. فليكن، فتكلمي ياريح الشمال. أيها السادة المهذبون. أنا لا أستاء. فالريح ثرثارة، شأن كل المتوحِّدين، فلا أحد يرافقها في الأعلى. فهي تثرثر إذن. إني أستأنف سياق كلامي. إنكم تتأملون هنا فنانين متشاركين، إننا أربعة، Alupo principium. إني أبدأ بصديقي الذي هو ذئب. وهو لا يخفي ذلك. فانظروا إليه إنه متعلم، ورصينٌ وفطن. ولعل العناية الإلهية قد خطرت لها فكرة أن تصنع منه أستاذاً جامعياً (دكتور). ولكن لا بدَّ من أجل ذلك كائنٌ غبيٌّ بعض الشيء. ولكنه ليس كذلك. وأضيف أنه لا أحكام مسبقة لديه، وليس أرستقراطياً إطلاقاً. إنه يتحادث، حين تُتاحُ له الفرصةُ، مع كلبة، هو الذي له الحق في ذئبة. وأولياء عهده، ولو كان لديه أولياء عهد، ربما يخلطون بظرفٍ نُباحَ والدتهم بعواء والدهم. لأنه يعوي. وينبغي أن يعوي مع البشر. إنه ينبح أيضاً، تواضعاً منه من أجل الحضارة. وهذا تلطيفٌ فيه شهامة. إن أومو كلبٌ محسن. فلنبجّل الكلب. الكلبُ - أيُّ حيوانٍ ظريف! - عَرقه على لسانه وابتسامته في ذيله. أيها السادة المهذبون. إن أومو يعادل في حكمته ويتخطى في مونته الذئب العديم الوبر، ذئب المكسيك، كزولويتزينيسكي، المثير للإعجاب".

أضيفُ أنه مُتضعٌ. ولديه تواضعٌ نَتِبٍ مفيد لبني البشر، إنه مغيثٌ ومحسنٌ بصمت، وقائمته اليسرى تجهل العمل الجيّد الذي صنعته قائمته اليمنى. تلك هذه مزاياه. وفي ذلك الآخر، صديقي الثاني، لن أقول إلا كلمة: إنه مسخ. ولسوف تُعجبون به. وفيما مضى، كان قد تخلى عنه عدد من القراصنة على شواطئ المحيط الموحش. وهذه فتاةٌ عمياء فهل هذا استثناء كلا. فنحن جميعاً عمي. فالبخيل أعمى، إنه يرى الذهب ولا يرى الثروة. والمبذّر أعمى؛ فهو يرى البداية ولا يرى النهاية، والمغناجُ عمياء، فهي لا ترى تجاعيدها. والعالم أعمى، فهو لا يرى جهله. والرّجل النزيه أعمى، فهو لا يرى النّذل. والنّذل أعمى، فهو لا يرى الله. والله أعمى في اليوم الذي خلق فيه هذا العالم؛ فلم يرَ أن الشيطان كان قد اندسّ فيه. وأنا أعمى، فأنا أتكلم ولا أرى أنكم صمٌ. إن هذه العمياء التي ترافقنا هي كاهنةٌ غامضة. كانت فيستا (الكاهنة) ستعهدُ(*) إليها بجمرة نارها. إن لها في طباعها عتماتٍ رقيقةٍ مثل الفجوات التي تنفتح في صوف الخروف. إني أظنها ابنة ملك من دون تأكيد. إن ارتياباً محموداً هو ما يتّصفُ به العاقل. أما أنا، فامحكُ وأداوي. أفكر وأضمد. إني جراح: Chirurgus sum. إني أشفي الحميّات، والنّتانات والأوبئة. إن كافة الإصابات البلغمية (173) والآلام هي متنفّسات، وإذا ما عولجت جيداً فهي تخلّصنا بلطف من أمراض أخرى تكون أسوأ. وبرغم ذلك، فأنا لا أنصحكم بأن تصابوا بالجمرة التي تُدعى بصورة أخرى داء الدمامل. إنها مرضٌ غبي لا يفيد في شيء. ويموت المرء منه. ولكن هذا كل شيء. أنا لستُ عديمَ الثقافة وريفياً فظاً. فأنا أوقّر الفصاحةَ والشّعر. وقد عشت مع هاتين الإلهتين في حميمية بريئة. وأنهي كلامي برأي.

أيها السادة المهذبون، والسيدات المهذبات، ازرعوا في ذواتكم، من الجهة التي يأتي منها النور، الفضيلةَ، والتواضعَ، والنزاهةَ، والإنصافَ،

(*) إلهة النار عند الرومان وهي إلهة المنزل. (م: ز.ع).

والحبُّ. فيمكن لكل إنسانٍ في هذا العالم الأرضي، على هذا النحو، أن يكون لديه أصيصٌ صغيرٌ للزهور على نافذته. أيها الميلوردات والسادة. لقد قلت كلامي هذا. ولسوف يبدأ الاستعراضُ.

أما الرّجلُ الذي يُحتمل أن يكون بحاراً، والذي كان يصغي من الخارج، فقد دخل إلى القاعة الخفيضة، قاعة النزل، واجتازها، ودفع بعضَ النقود التي طُلبت منه، ودلف إلى باحةٍ ملأى بالجمهور، ولمح في صدر الباحة تخشيبةً على عجلات وهي مفتوحةً على مصاريعها، ورأى على تلك المنصة رجلاً عجوزاً يرتدي جلد دبٍّ، رجلاً شاباً كأنّ وجهه قناعٌ، وفتاةً عمياء، وذئباً. فهتف: "مرحى! هاهم أناسٌ رائعون".

III
حيث يعود إلى الظهور عابرُ السّبيل

كانت العلبة الخضراء، وقد تعرفناها منذ قليل، قد وصلت إلى لندن، وكانت قد استقرت في ساوثويرك. وكان أورسوس قد اجتذبته البولينغ – غرين، التي كان امتيازها في أن المعرض لا يتعطل فيها قطّ ولا حتى في الشتاء.

إن رؤية قبة سان – بول قد كانت أمراً مستحباً لدى أورسوس.

إن لندن، إذ اعتبرنا كل شيء، هي مدينةٌ فيها أمورٌ حسنة. فأن تكون قد كُرّست كاتدرائيةٌ للقديس بولص هو أمرٌ فيه إقدام. إن القديس الحقيقي الكاتدرائي هو سان – بيير (القديس بطرس). إن القديس بولص متّهمٌ بالخيال، وفي الموضوع الكنسيّ، الخيالُ يعني الهرطقة. وليس القديس بولص قديساً إلاّ مع ظروفٍ تخفيفيّة. ولم يدخل إلى السماء إلاّ من باب الفنّانين.

إن كاتدرائيةً ما هيٍ شعار. فالقديس بطرس يدلّ على روما، مدينة العقيدة، والقديس بولص يدل على لندن، مدينة الانشقاق.

إن أورسوسٍ الذي كانت لفلسفته أذرعٌ جدّ واسعة بحيث تحتوي كلّ شيء، قد كان رجلاً يثمّن هذه الفوارق الطفيفة، وكان انجذابهُ للندن يأتي ربما من ميلٍ معين إلى القديس بولص.

كانت باحة نزل تادكاستر الكبيرة قد حددت خيار أورسوس. وكان يبدو أن العلبة الخضراء قد تأهبت لها تلك الباحة، فهي مسرحٌ ناجز تماماً. ولقد كانت مربّعة الشكل، ومبنيةً من جهاتٍ ثلاث مع جدارٍ يواجه الطوابق، وقد أسندت إليه العلبة الخضراء. التي أُدخلت بفضل القياسات الواسعة لباب العربات. إن شرفةً خشبيةً كبيرة، مغطاة بإفريز ومحمولة على أوتاد، وهي

تُفضي إلى غرف الطابق الأول، كانت تنطبقُ على شقق الواجهة الداخلية الثلاث لتلك الباحة، مع زوايتين قائمتين. شكّلت نوافذُ الطابق الأرضي الحمّامات، وشكلت أرضية الباحة روضة الزهور، وشكّلت الشرفة الشرفة. أما العلبة الخضراء، التي صُنّفت إلى الجدار، فقد كانت أمامها قاعة الاستعراض. كان ذلك يشبه كثيراً مسرح الغلوب الذي جرى عليه تمثيل غُطيل، والملك لير والعاصفة[1].

في زاويةٍ مخبأة، ووراء العلبة الخضراء، كان هناك إسطبل.

كان أورسوس قد أخذ ترتيباته مع صاحب الحانة السيد نيكليس الذي لم يقبل بوجود الذئب إلا إذا دُفع مبلغٌ أكبر، مراعاةً للقوانين. أما اللائحة المكتوبة: 'غوينبلين – الرجل الضاحك' فقد نزعت من مكانها على العلبة الخضراء، وعُلّقت بجانب عنوان النزل. كان لقاعةِ – الحانة، كما نعلم، بابٌ داخليٌ يطلّ على الباحة. وإلى جانب هذا الباب – كانت قد أُعدّت بلا استعداد، وبواسطةٍ برميل مبقور، حجرةٌ 'لقيّمةِ المكتب'، والتي كانت تارة فيبي، وتارة فينوس. وكان الأمر تقريباً كما هو اليوم. من يدخل يدفع، وتحت اللائحة المكتوبة: الرجل الضاحك، علقت بمسمارين لوحةٌ خشبية مدهونةٌ بالأبيض تحمل عنوان مسرحية أورسوس الكبيرة، العماء المهزوم، وقد كتبت بالفحم بحروف كبيرة.

في وسط الشرفة، وقبالة العلبة الخضراء بالضبط، كانت هناك مقصورةٌ مخصّصةٌ 'لطبقة الأشراف' بين حاجزين، ولها مدخل رئيسي هو بابٌ – نافذة.

كانت هذه المقصورة واسعةً بشكل 'كافٍ' لاحتواء عشرة مشاهدين، على صفّين.

كان أورسوس قد قال: 'نحن في لندن. ولا بد أن نتوقع مجيء عدد من الطبقة العليا'.

---

(١) مسرحيات لشكسبير (م: ز. ع).

كان قد عمل على تأثيث هذه "الشرفة" بأفضل مقاعد النزل؛ فوضع في الوسط كنبة من مخمل أو ترشت ذي الأزرار الذهبية، وعليه رسومٌ كرزية اللون في حال أتت زوجة ألدرمان (عضو في المجلس التشريعي) (174).

كانت العروض قد بدأت

ووصل الجمهور حالاً.

أما المقصورةُ المخصّصةُ لطبقة الأشراف فقد ظلت خالية. باستثناء ذلك، فإن النجاح قد كان على درجةٍ لم تشهد ذاكرةٌ مشعوذٍ مثيلاً لها. لقد هرعت ساوثويرك كلها، وتجمهرت لتبدي إعجابها بالرجل الضاحك. وأصيبَ مهرجو وحواةُ تارينزو- فيلد بالذعر من غوينبلين. إن صقراً قد انقض على قفصِ حساسين، وأكل بمنقاره ما لديهم في معلفهم. وكانت تلك هي النتيجة، لقد التهم غوينبلين جمهورهم.

فضلاً عن الطبقة الدنيا، طبقة بالعي السيوف، وممثلي السحنة، كان هناك في البولينغ - غرين استعراضاتٌ حقيقية. كان هناك سيركٌ للنساء يقرع من الصباح إلى المساء ألحاناً رائعة من كل ضروب الآلات الموسيقية، السّنطورات، والطبول، والرّبابات، والميكامونات، والنواقيس، والشبابات، والدولكينات، والجينغات، والشيفريت، ومزمارات القِرَب، والبويقات الألمانية، والإسشاكي الإنكليزية، والقصابات، والنواسير، والفلاجوس، والصّافرات. وكان هناك تحت خيمة عريضة مستديرة قافزون ما كان لهم أن يضاهوا إطلاقاً عدّائينا الحاليين، عدائي البيرينية، دولما، وبورندانوف، وميلونغا الذين ينزلون من شعفةِ جبل بييرفيت إلى هضبة ليماسون، وهذا سقوط تقريباً. وقد كان هناك معرضٌ وحوش متنقّل يشاهد فيه نمرٌ متعاظم يسوطة مرّوضٌ وحوش. وهو يحاولُ أن يتخطّف منه سوطه ويلتهم عذبته. إن هذا الإضحاك ذا الشدق والمخالب قد حُجب عنه.

فضولٌ، وتصفيقٌ، وعائدات، وجمهور. إن الرجل الضاحك قد أخذ كل شيء. وبلمح البصر قد تمّ ذلك. ولم يعد هناك إلا العلبة الخضراء.

كان أورسوس يقول: "العماءُ المهزومِ هو عماءٌ منتصر"، واضعاً نفسه مناصفةً ضمن نجاح غوينبلين، وساحباً السماط نحوه، كما يقال بلغةِ التمثيل الرديء.

كان نجاحُ غوينبلين خارقاً. ومع ذلك، فقد بقي محلياً. إن اجتياز الماء صعبٌ على الشهرة. وقد استغرق اسم شكسبير مئة وثلاثين عاماً ليصل من إنكلترا إلى فرنسا. إن الماءَ سور، ولو أن فولتير، وهذا ما ندم عليه فعلاً فيما بعد، لم يقصرّ له المسافة، لكان لا يزال، في هذه الساعة ربما في الجانب الآخر من الجدار، في إنكلترا، أسيرَ مجدٍ مقتصرٍ على الجزيرة.

إن مجد غوينبلين لم يتخطَّ أبداً جسر لندن. ولم يتّخذ أبعاد صدى مدينة كبيرة. على الأقل في أوائل عهده. غير أن ساوثويرك يمكن أن تكون كافيةً لطموح مهرج. كان أورسوس يقول: -إن خرج العائدات، شأنَ فتاةٍ ارتكبت خطيئة، يكبرُ بسرعة كبيرة.

لقد كانوا يمثّلون ursus Rursus (رجوع أورسوس الخاطئ) ثم: العماء المهزوم.

كان أورسوس يسوّغُ صفته كمتكلِّمٍ من معدته، في الاستراحات بين الفصول، ويمارس التكلّم البطنيّ المتعال. كان يقلد كلّ صوتٍ يُعرض أمامه بين الحضور، من مثل غناء، أو صراخ، بحيث يُذهل بمشاكلته المغني، أو مطلقَ الصرخة نفسه، وكان أحياناً يحاكي هرجَ ومرجَ الجمهور، وكان ينفخُ وكأنّ لديه وحده كثيراً من الناس. إنها مواهبُ لافتةٌ للنظر.

فضلاً عن ذلك، كان يخطب باستفاضة، كما رأينا منذ قليل مثل شيشرون، ويبيع عقاقير، كان يعالج الأمراض، ويشفي المرضى حتى.

وكانت ساوثويرك مفتونة به.

وكان أورسوس راضياً عن ضروب تصفيق ساوثويرك، غير أنه لم يكن دَهِشاً لذلك إطلاقاً.

وكان يقول: "إنهم الترينوبانت (175) القدماء".

وكان يضيف:

"الذين لا أخلط بينهم، من حيث رهافة الذوق، وبين الأتروبات الذين قطنوا بيركس، والبلجيكين الذين سكنوا سوميرسيت، والباريسيين الذين أسسوا يورك".

عند كلّ عرض، كانت باحة النزل، التي تتحول إلى ردهة، تمتلئ بحضورٍ رثٍّ الثياب ومتحمس. لقد كانوا دجّالين، وحملَة كراسي ونجّارين للسفن، وحونيين للعربات النهرية، وبحارة حديثي العهد قد نزلوا من مراكبهم، وينفقون أجورَهم على القصف والفتيات. كان هناك خدم مسلحون، وقوادون، وحراسٌ سودٌ هم جنود محكومون بسبب خطأ انضباطيّ لارتدائهم لباسهم الأحمر بصورةٍ مقلوبة من جهة البطانة السوداء، وهم يُدعون لذلك بالحرس الأسود:

Black Guard والتي صنعنا منها كلمة BlaGueurs (هزّال، مهذار). كان كلّ ذلك يتدفق من الشارع إلى المسرح، ويرتد من المسرح إلى قاعة الشراب. فكؤوس الجعة المشروبة لا تضير النجاح.

بين هؤلاء الناس الذين اصطُلح على تسميتهم بـ "الحثالة أو الرعاع"، كان هناك واحدٌ منهم أعلى من الآخرين، وأطولُ قامة، وأقوى بنية، وأقلّ فقراً، وعريضُ الكتفين أكثر، ويرتدي ملابس مثل عامة الشعب، ولكنها ليست ممزقة، ومعجب إعجاباً شديداً، ويؤمن مقعداً لنفسه باللكمات، ويعتمر طاقيةَ شعرٍ مستعار بلا إتقان، وهو يجدّف، ويتهكّم، بلا قذارة، وعند اللزّوم، مورّماً عيناً، ومبتاعاً زجاجة.

إن هذا المتردّد على المكان كان هو العابر الذي سُمعت صيحةُ حماسته منذ قليل.

إن هذا الخبير الذي فتنته المسرحية فوراً كان قد تبنّى الرجل الضاحك في الحال. لم يكن يأتي إلى كافة العروض، ولكنه، حين كان يأتي، كان "مدَرِبَ" الجمهور. وقد أخذت عواصفُ التّصفيق تتحول إلى هتافات. ولم يكن

النجاح يصل إلى سمائيّةِ المسرح، فلم يكن لها وجود، بل كان يصل إلى السحب؛ فقد كانت هناك سحب (وحتّى هذه السحب، نظراً لعدم وجود سقف، كانت تمطر أحياناً على رائعة أورسوس).

حتّى أن أورسوس قد لاحظ ذلك الرجل، وأن غوينبلين قد نظر إليه.

لقد كان ذلك الشخص الموجود هناك صديقاً معتدّاً بنفسه، وغير معروف.

أراد أورسوس وغوينبلين أن يعرفاه، أو أن يعلما من يكون على الأقل.

ذات مساء، دلّ أورسوس، من مؤخر المسرح الذي كان باب مطبخ العلبة الخضراء، وإذ وجد بالمصادفة السيد نيكليس صاحب النزل بجانبه، دلّه على الرجل المختلط بالجمهور، وسأله قائلاً:

"هل تعرف هذا الرجل؟

- بلا شك.

- ومن هو؟

- بحّار.

فقال غوينبلين متدخّلاً:

وماذا يُدعى.

فأجاب صاحبُ النزل:

- توم - جيم - جاك".

ثم أن السيد نيكليس، في الوقت الذي كان ينزل فيه مجدداً الدّرج المرقاة، درجَ مؤخّرِ العلبة الخضراء ليدخل إلى النزل، أفلت هذه الملاحظة العميقة على مدّ النظر:

"أية خسارة ألا يكون لورداً لأصبح إذن وغداً ذائعَ الصّيت".

فوق ذلك، فمع أن فرقة العلبة الخضراء قد أقامت في دار ضيافة، فهي لم تكن قد بدّلت عاداتها، وأبقت على عزلتها باستثناء بعض الكلمات التي تبادلها أعضاء الفرقة مع صاحب الحانة هنا وهناك، فلم يكونوا

يختلطون إطلاقاً بالسكان الدائمين أو العابرين، أناس النزل، واستمروا يعيشون فيما بينهم.

منذ أن أصبحوا في ساوثويرك، كان غوينبلين قد اعتاد، بعد العرض، وبعد عشاء الناس والخيول، أن يذهب، في حين كان أورسوس وديا يمضيان إلى النوم، كلٌ في جهته، ليستنشق قليلاً من الهواء في البولينغ - غرين، بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل. إن كآبةً معينة في النفس تدفعُ إلى النزّهات الليلية، وإلى التسكّعات تحت النجوم. إن فترة الشباب انتظارٌ يكتنفه الغموض؛ وهذا هو السبب في أن المرء يسير في الليل بسهولة من غير هدف. وفي تلك الساعة لم يعد هناك أحدٌ في ميدان المعرض، وعلى أكبر تقدير، كانت هناك بعض التمايلات لسكيرين يشكّلون قاماتٍ مترنّحةً في الزوايا المظلمة. كانت الحاناتُ الخاليةُ تغلق، وقاعة نزل تادكاستر الخفيضة تطفئ أضواءها، فلا يكاد يبقى فيها، في زاويةٍ ما، شمعةٌ أخيرة تضيء لشابٍّ أخير. وكان ضوءٌ غير واضح يخرجُ من بين كفافات أبواب ونوافذ النزل المفتوح قليلاً. أما غوينبلين، المتفكّر، والمسرور والحالم، والمغتبط بسعادة إلهية مشوشة، فقد كان يروح ويجيء أمام ذلك الباب المشقوق. فبمَ كان يفكّر؟ بديا، بلا شيء، بكلّ شيء، بالأعماق. كان يحيدُ قليلاً عن النزل وهو محتجزٌ، وكأنما بخيط قريباً من ديا. فالقيام ببضعِ خطوات في الخارج كان يكفيه.

ثم كان يدخل، ويجد كلّ العلبة الخضراء نائمةً، فينام.

IV

الأضداد يتآخون في الكراهية

ليس النجاحُ محبوباً، وخصوصاً من أولئك الذين يُعتبر هذا النجاحُ سقوطاً لهم. فمن النادر أن يشغف المأكولون بآكليهم. لقد كانت تمثيلية الرّجل الضاحك حدثاً بالتأكيد. وكان بهلوانات الجوار ساخطين. إن نجاحاً مسرحياً هو آلة ماصّة. فهو يجتذب الجمهور ويفرغ المكان حوله؛ فالدّكانُ المواجهة مضطربة. وكان يتوافق مع ارتفاعٍ إيرادات العلبة الخضراء حالاً انخفاضٌ في الإيرادات المجاورة، كما قلنا.

وفجأة، أخذت العروضُ التي تحتفل حتى ذلك الوقت تتوقف عن العمل؛ فالفيضان هنا، والنقصان هناك. إن كلّ المسارح تشهدُ مثل تلك الآثار للمدّ؛ فلا يكون المدُّ عالياً عند هذا المسرح إلا بشرط أن يكون منخفضاً عند ذاك. إن الاحتشادَ الجوّال الذي كان يعرض مواهبه وألوانَ صخبه على خشبات المسارح المجاورة، إذْ ألفى نفسه قد أفلس بسبب الرجل الضاحك، غرق في اليأس، ولكنه كان مبهوراً. إن كافة ممثّلي دور العجائز، وكافة المهرجين، وكافة البهلوانات كانوا يحسدون غوينبلين. فها هو شخص سعيد لأن له خطم حيوانٍ مفترس! إن أمهاتٍ مهرّجاتٍ وراقصاتٍ على الحبل، ولديهن أطفال جميلون، ينظرون إليهم بغضب، ويشرن إلى غوينبلين ويقلن: أية خسارة ألا تكون لك سحنةٌ كهذه وكان البعض منهن يضربن صغارهن من الغضب لأنهن يجدنهم وسيمين. وغير واحدة منهن، لو كانت تعرف السرّ، لرتّبت ابنها "على طريقة غوينبلين". إن رأس ملاكٍ لا يجلبُ شيئاً لا يضاهي وجهَ شيطانٍ يدرّ ربحاً. وقد سُمعت ذات يوم أمٌّ لصغيرٍ هو آيةٌ في لطف ملامحه، ويلعب أدوارَ إله الحب، وهي تصرخ: "لقد خسّرونا أبناءنا، فما من أحد قد نجح إلا

هذا الغوينبلين". وإذْ رفعت قبضتها مهددةً ابنها، فقد أضافت تقول: "لو كنت أعرف أباك، لعنّفته!".

كان غوينبلين دجاجةً تبيضُ ذهباً. فياله من ظاهرة رائعة! لم يكن هناك إلا صيحةٌ واحدة في كل التخّشيبات. كان البهلوانات، الذين أخذتهم الحماسةُ والغضب. يتأملون غوينبلين وهم يصرّون على أسنانهم. إن الغضبَ المسعورَ يبدي إعجابه، وهذا ما يسمى بالحسد، حينذاك يُعولُ. لقد حاولوا أن يعكروا العماء المهزوم، فقاموا بالتآمر عليها، فصفروا، ودمدموا، وصاحوا ساخرين. وكان ذلك بالنسبة لأورسوس محفّزاً على خطاباتٍ مطنبة هورنتسية (146) موجهة إلى عامة الشعب، وبالنسبة للصديق توم - جيم - جاك مناسبة ليوجّه بعضاً من تلك الكلمات التي تعيد النظام إلى نصابه. إن لكماتِ توم - جيم - جاك قد انتهى بها الأمر ليلاحظها غوينبلين وليقدّرها أورسوس. وفوق ذلك، فقد كان هذا عن بعد؛ لأن فرقة العلبة الخضراء كانت تكفي نفسها بنفسها، وتبقى على مسافةٍ من كلّ شيء. أما عن توم - جيم - جاك، فقد كان هذا القائد للسوقة يعطي انطباعاً بأنه نوع من حارسٍ مسلح أعلى. لا ارتباط له، ولا علاقات ودية، وهو ضجاجٌ، وقائدُ رجال، فيظهرُ، ويختفي، وهو رفيقُ كلّ الناس، وليس مصاحباً لأحد.

إن هذا الانفلاتَ للحسد ضدّ غوينبلين لم يقر بعجزه بسبب بضع صفعاتٍ وجّهها توم، جيم - جاك. فبعد أن أُجهِضت صيحاتُ السخرية، قام بهلواناتُ تارينزو - فيلد بكتابةِ عريضة استرحام. وقد توجهوا بها إلى السلطة. هذا هو المسارُ المعتاد. فضدّ نجاحٍ يضايقنا، نحرّضُ الجمهور، ثم نناشدُ الحاكم (177).

انضم الموقّرون إلى البهلوانات. فالرجل الضاحك كانت قد وجهت ضربةً إلى المواعظ. إن الفراغ لم يحدث في التخشيبات فحسب بل في الكنائس. ولم يعدْ في مصليات الخورنيات الخمس حضور. كان يجري التخلي عن الموعظة من أجل الذهاب إلى غوينبلين. فالعماء المهزوم، والعلبة الخضراء والرجل الضاحك. إن كل هذه الفظاعات، فظاعاتِ بعل (178) كانت لها الغلبة على بلاغة المنبر. إن الصوت الذي يتكلم بإطنابٍ في

البرية: Vox Clamantis in deserto ليس راضياً. وهو يناشدُ الحكومة بطيبة خاطر. لقد شكا رعاةُ الخمس خورنيّات أمرهم إلى مطران لندن الذي شكا الأمر إلى جلالته.

كانت شكوى البهلوانات تستند إلى الدين. وكانوا يعلنون أنه قد أُهين. ويبلغون عن غوينبلين باعتباره ساحراً، وعن أورسوس باعتبارها كافراً.

أما المبجّلون فقد كانوا يتذرّعون بالنظام الاجتماعي. وكانوا يدافعون عن قرارات القضاء الأعلى التي خُرقت، مهملين الصّراطَ المستقيم. وكان ذلك أكثر خبثاً. لأن الناس كانوا في عهد م. لوك، الذي لم يكد تمضي على وفاته ستة أشهر، في ٢٨ تشرين الأول للعام /١٧٠٤/، ونزعة الارتياب التي سوف يوحي بولينغبروك بها لفولتير قد بدأت. وتعين على ويسلي فيما بعد أن يأتي ليجدد التوراة، كما جدد لويولا البابوية.

إن العلبة الخضراء، بهذا الشكل، قد هوجمت من ناحيتين، من البهلوانات باسم أسفار موسى الخمسة، ومن كهنةِ المصليّات باسم تعليمات الشّرطة؛ فمن جهةٍ السماء، ومن الجهة الأخرى – إدارة الطرق. فالمبجّلون يتشبثون بإدارة الطِرق، والمشعوذون بالسماء، أما العلبة الخضراء فقد بلّغ عنها الكهنةُ باعتبارها مزعجةً، والمهرجّون باعتبارها مدنّسةً للحرمات.

هل كانت هناك ذريعةٌ ضدها؟ وهل مكّنت أحداً منها؟ أجل. وما كانت جريمتها؟ ما يلي: كان لديها ذئب. إن ذئباً في إنكلترا محظور. الكلب الدرواس، لا بأس فيه، أما الذئب، فلا. إن إنكلترا تقبل الكلب الذي ينبح، وليس الكلب الذي يعوي؛ إنه الفارق بين القن والغابة. إن خدّام الرعية، ووكلاء الخورنيات الخمس في ساوثويرك كانوا يذكّرون في عرائضهم بالتشريعات العديدة الملكية والبرلمانية التي تجعل الذئب خارجاً على القانون. وكانوا يخلصون إلى شيءٍ من مثلِ حبس غوينبلين، ووضع الذئب في محشر الحيوانات، أو طرده علّى الأقلِ. إنها مسألةٌ تتّصلُ بالمصلحة العامة. وبالخطر بالنسبة للمارة، إلخ، وفي هذا الموضوع، كانوا يستعيذون بالكلية[1].

---

(١) أي الطب. (م: ز.ع).

ويستشهدون بحكم مجمعٍ الأطباء الثمانين في لندن. وهو هيئةٌ علميةٌ يرجعُ تاريخُها إلى عهد هنري الثامن، والتي لها خاتم كالدولة، والتي ترفع المرضى إلى مرتبةِ متقاضين، والتي تملكُ الحقَّ في سجن أولئك الذين يخرقون قوانينها ويخالفون تعليماتها، والتي جعلت، في عداد إثباتاتٍ أخرى مفيدةٍ لصحّة المواطنين، جعلت الواقعةَ التاليةَ المكتسبة لصالح العلم، واقعةً لا يرقى إليها الشك: "إذا رأى ذئبٌ إنساناً أولاً، فإن الإنسان يُصاب بالبحّة طيلة حياته - وفوق ذلك، فهو يمكن أن يتعرّض للعضّ".

كان أومو هو الذريعة إذن.

علم أورسوس بهذه الدسائس، عن طريق صاحب النزل. وكان قلقاً. كان يخشى هذين المخلبين، الشرطة والقضاء. ولكي يخاف المرء من هيئة القضاء، يكفي أن يخاف. وليس من الضروري أن يكون مذنباً. كان أورسوس قليلاً ما يتمنىّ الاحتكاكَ بالعُمَد وقادةِ الشرطة، والقُضاة الإقطاعيين، وضبّاط المباحث. وكانت مبادرتُه لتأمّل تلك الوجوه الرسمية عن كثبٍ معدومةً. كان لديه لرؤية رجال القضاء الفضولُ نفسُه الذي للأرنب البرّيّ لرؤية كلاب التربّص.

أخذ يندم على مجيئه إلى لندن. وكان يهمس على انفراد قائلاً: "إن الأحسن هو عدوُّ الجيّد. وكنت أظن أن هذا المثل قد فقد قيمته، وكنت مخطئاً؛ فالحقائقُ الحمقاء هي الحقائقُ الحقيقية".

مقابل الكثير من القوى المتقلبة، مقابل المهرجين الذين يتحملون مسؤولية قضية الدين، وكهنة المصليات الساخطين باسم الطب، فإن العلبة الخضراء المتّهمة بالسحر في شخصِ غوينبلين، والمتهمة بداء الكلب في شخص أومو، لم يكن لصالحها إلا شيءٌ واحد، ولكنه قوةٌ كبرى في إنكلترا وهو العطالةُ البلدية، فمن الإغضاء المحلي إنما خرجت الحرية الإنكليزية. إن الحرية في إنكلترا تتصرفُ كالبحر حول إنكلترا. إنها مدٌّ بحري. إن العادات تطغى على القوانين. فتشريعٌ فظيعٌ غارقٌ، والعرفُ فوقه، وشرعةٌ شرسة لا تزال مرئيةً تحت شفافيّة الحرية الهائلة الاتساع، هذه هي إنكلترا.

كان يمكن للمهرّجين والواعظين والمطارنة، ومجلس العموم، ومجلس اللوّردات، وصاحب الجلالة، ولندن، وانكلترا كلها أن تكون ضد الرجل الضاّحك، والعماء المهزوم وأومو، ولا يعكر صفوهم، شيء، طالما أن ساوثويرك إلى جانبهم. كانت العلبةُ الخضراءُ هي التسليةُ الأثيرة لدى الضاحية، وكان يبدو أن السلطات المحلية غير مكترثة. وفي إنكلترا، عدمُ الاكتراث يعني الحماية. وما دام عمدةٌ كونتيةِ سوريّ والتي تتبع لها ساوثويرك لم يكن يتحرك، فقد كان أورسوس يتنفسُ الصعداء، وكان يمكن لأومو أن ينام مطمئنَّ البال كذئب.

إن تلك الأحقاد كانت تخدم النجاح، بشرط ألا تؤدي إطلاقاً إلى تيسير تحقيق مآربه. ولم تكن العلبة الخضراء تجد نفسها في حالٍ أسوأ بسببها في تلك الفترة. بل على العكس. فقد كان يذيعُ الخبرُ بين الجمهور أن هناك دسائس. إن الرجل الضاحك قد أخذت تغدو من جراء ذلك أكثرَ شعبيةً. إن الجمهور لديه حاسّةُ تمييزٍ للأشياء التي يجري التشهيرُ بها، وهو يأخذُها على محملٍ حسن. فأن يكون المرءُ مشتبهاً به أمرٌ يجعله مطلوباً. إن الشعب يتبنىّ غريزياً من يتعرّض لتهديدِ التحريم. إن الشيء الذي يشهر به هو بداية الثمرة الممنوعة؛ فالمرء يسارع إلى قضمها. ثم أن تصفيقاً يزعج أحدهم خصوصاً حين يكون هذا الأحد هو السلطة، هو أمرٌ لطيف. ثم أن قضاء سهرةٍ ممتعةٍ بصورةٍ عابرة، وهي فعلُ التزامٍ مع المضطهَد، ومعارضةٌ للمضطهِد هو أمرٌ يروق للمرء. إنه يقوم بحماية المضطهَد ويتسلّى في الوقت عينه. لنضفْ أن التخشيبات المسرحية للبولينغ - غرين كانت تواصل صيحاتها الساخرة وتآمرها على الرجل الضاحك. فما من شيء أفضل من ذلك للنجاح. إن الأعداء يُحدِثون ضجةً فعالةً تشحذُ النصر وتؤجّجه. إن صديقاً ما يتعبُ من الإطراء بسرعة أكبر مما يتعبُ عدوٌ من الشتم. فالشتيمةُ لا تؤدّي إلى الضرر. هذا ما يجهلُه الأعداء. ليس بمقدورهم ألا يشتموا. ومن هنا تأتي فائدتهم.

إنه يتعذر عليهم السكوت الذي يحافظ على اليقظة العامة.

لقد كان الجمهور يزداد في العماء المهزوم.

كان أورسوس يحتفظ لنفسه بما كان يقوله له السيد نيكليس عن دسائس وشكاوى السلطات العليا.ولم يكن يقولها لغوينبلين لكيلا يعكّر صفاءَ العروض بانشغالات للذهن. وإن حدثَ مكروهٌ، فقد كان يجري علمٌ به في وقت مبكرٍ بما يكفي دوماً.

– V –

Le WAPENTAKE (179)

(المأمور القضائي)

مع ذلك فقد ظنّ ذات مرة أنه ينبغي عليه أن يخالف هذا الحرص، من باب الحرص بالذات، ورأى أنه من المفيد أن يحاول إقلاقَ غوينبلين. والحقيقة هي أن الأمر كان يتعلق بشيء أكثر خطورة بكثير في ذهن أورسوس، من مؤامرات المعرض والكنيسة. أما غوينبلين، فإذْ التقط فارذينغاً واقعاً على الأرض، في اللحظة التي كان يجري فيها حسابُ الإيراد، فقد أخذ يعاينه، وبحضور صاحب النزل، كان قد استخلص التباين بين الفارذينغ، الذي يمثّلُ بؤسَ الشعب، وبين النقش الذي يمثّل، بصورةٍ آنا، عظمة العرش الطفيلية. إنه حديث يؤذي السمع. وهذا الحديث الذي ردّده السيدُ نيكليس قد سار في الكثير من الطرق بحيث رجع إلى أورسوس على يد فيبي وفينوس. فأصيب أورسوس بقلقٍ محموم. إنها كلمات تحريضية. قدحٌ بالذات الملكية. فوبّخ غوينبلين توبيخاً شديداً.

راقب شدقك البغيض. هناك قاعدةٌ بالنسبة للكبار وهي: ألا يفعلوا شيئاً. وقاعدة للصغار وهي: ألا يقولوا شيئاً. ليس للفقير إلا صديق هو: الصّمتُ ولا ينبغي أن يلفظ إلا كلمةً من مقطع واحد هي: نعم. الإقرار والموافقة، هذا هو كل حقك. نعم للقاضي. ونعم للملك. إن الكبار، إذا شاؤوا، يوسعوننا ضربا بالعصي، وقد تلقيّتُ ضرباتٍ منها. إنه حقّهم المكتسب، وهم لا يخسرون إطلاقا من عظمتهم إذا ما حطّموا عظامنا. إن كاسرَ العظام هو نوعٌ من النسور. ولنوقّر الصّولجان الذي هو أوّل العصي. إن الاحترامَ يعتبرُ حصافةً،

والسُّطحية تُعدّ أنانية إن من يهين ملكه يضع نفسه في الخطر ذاته الذي تضع نفسها فيه فتاة تقصّ للأسد لبدته (180). وصلني إخبارٌ بأنك قد ثرثرت بحق الفارنينغ، والذي يعادل الفلس، وأنك قد تكلمت بالسوء على تلك الميداليّة العظيمة التي بواسطتها يمنحوننا في السّوق ثُمْنَ سمكة رنكة مملحّة. فاحترسْ. ولتصبحْ رصينا. وتعلم أنه توجد عقوبات. ولَتتشبّعْ بالحقائق التشريعية. إنك في بلدٍ يُساق فيه إلى المشنقة بهدوء ذلك الذي ينشرُ شجرةً صغيرة عمرُها ثلاثةُ أعوام. أما المجدّفون، فيضعون أقدامهم في القيود (181). ويحبسُ السكّيرُ في برميلٍ كبير مبعوجٍ من الأسفل لكي يسير، وثقبٌ في أعلى البرميل يمر فيه رأسه، وثقبان في موضع التعبئة والتفريغ تمر منهما يداه، بحيث لا يكون بوسعه أن يرقد. إن من يضرب أحدا في قاعة ويستمنستر يقبعُ في السجن مدى الحياة، وتُصادر ممتلكاته. ومن يضرب أحدا في قصر الملك تُقطع يدُه اليمنى. ونقفةٌ على أنفٍ يرعف، وها أنت تغدو أكتع. إن من يقتنع بالهرطقة في محكمة المطران يُحرق حياً، ومن أجل لاشيء يُذكر، إنما جرى فسخُ كوتيير سيمبسون في محاكمة عسكرية.

وها أنه منذ ثلاثة أعوام، في عام /١٧٠٢/، وليس هذا بالبعيد، كما ترى، قد جرى تدويرُ رجلٍ أثيم يدعى دانييل دوفو على عمود التشهير، وهو الذي تجرّأ على طبع أسماء أعضاء مجلس العموم الذين تكلموا في اليوم السابق في مجلس الأمة. إن ذلك الذي يكون عاصياً على جلالته، يُبقرُ بطنه حياً، ويُنتزعُ قلبه وتُصفعُ به وجنتاه. ثبّتْ في ذهنك هذه المفاهيم، مفاهيمَ الحقّ والعدالة. ولا تُجزْ لنفسك كلمةً قط، وعند أصغرِ قلقٍ تشعر به، تحرّرْ؛ هذا هو الإقدامُ الذي أمارسه والذي أنصح به. ففيما يتعلق بالجسارة، قلّد الطيور، وفيما يتعلق بالثرثرة، قلّد الأسماك. فوق ذلك، فإن لإنكلترا هذا الشيء الذي يدعو إلى الإعجاب وهو أن تشريعها كثير الليونة".

بعد أن أنهى أورسوس توبيخه، مكث لبعض الوقت قلقاً. أما غوينبلين، فلا. إن جرأة الشباب تتكوّنُ من نقصِ التجربة. ومع ذلك، بدا أن غوينبلين كان على حقّ في أن يكون مطمئناً، فقد انقضت الأسابيعُ بسلام، ولم يظهر أن حديثه عن الملكة قد كانت له تبعات.

كان أورسوس، كما نعلم، يفتقر إلى فتور الشّعور، كان يقظاً دوماً من كلّ الجهات، مثل يحمورٍ في حالة ترقّب.

ذات يوم، وبعد تأنيبه لغوينبلين بقليل، غدا أورسوس شاحبَ الوجه، وهو ينظر من خلال طاقة الجدار التي تطلّ على الخارج وقال:

يا غوينبلين؟

- ماذا؟

- انظرْ.

- أين؟

- في الساحة.

- وبعد هذا؟

- هل ترى ذلك العابر؟

- ذلك الرجل الذي يرتدي الأسود؟

- أجل.

- الذي يحمل ضربا من مقمعةٍ في قبضته؟

- أجل.

- وإذن؟

- وإذن، يا غوينبلين، هذا الرّجلُ هو الويبونتيك (المأمور القضائي الممسك بالسّلام) [1]

- وما هو الويبونتيك؟

- إنه المشرفُ الملكيّ على المئة.

- وما هو المشرف الملكي على المئة؟

---

(١) الإيضاح بين قوسين للمترجم، مع ضرورة إبقاء اللفظة الأجنبية (الإنكليزية) السابقة (م: ز.ع)

- إنه الـ: Proepositus Hundredi
- وما هو الـ Proepositus Hundredi?
- إنه ضابطٌ مخيف.
- وماذا يحمل بيده؟
- السّلاح الحديديّ...
- وما هو السّلاحُ الحديديّ؟
- إنه شيءٌ مصنوع من الحديد.
- وماذا يصنع بهذا؟
- إنه يقّسم به. ولذلك يسمونه الويبونتيك.
- ومن ثم؟
- ومن ثم يلمسك به.
- بماذا؟
- بالسّلاح الحديدي.
- الممسك بالسلاح يلمسك بالسلاح الحديدي؟
- أجل.
- وماذا يعني هذا؟
- هذا يعني: اتبعني.
- وينبغي أن أتبعه؟
- أجل.
- إلى أين؟
- وماذا يدريني؟
- ولكنه يقّول لك إلى أين يقّودك؟
- كلا.

– ولكن يمكن حقا أن نسأله عن ذلك؟

– كلا.

– وكيف؟

– إنه لا يقولُ لك شيئا. وأنت لا تقول له شيئاً.

– ولكن...

– إنه يمسك بالسلاح الحديدي، فيكون كلُّ شيء قد قيل. وينبغي أن تسير.

– ولكن إلى أين؟

– وراءه.

– ولكن إلى أين؟

– حيث يبدو له ذلك مناسباً، يا غوينبلين.

– وإذا قاوم المرءُ؟

– يُشنق.

عاد أورسوس ليضع رأسه عند الكوة، ويتنفّس بملء رئتيه، وقال:

"شكرا لله، ها هو قد مرّ! فليس آتياً إلى منزلنا".

من المحتمل أن يكون أورسوس قد ذُعر أكثر مما ينبغي من ضروب عدم التكتم، ومن التقارير الممكنة في موضوع أقوال غوينبلين غير المتبصّرة.

أما السيد نيكليس الذي كان قد سمعها، فلم تكن لديه أيّةُ مصلحة في أن يعرّض أناسَ العلبة الخضراء المساكين للخطر. وكان يجني من الرجل الضاحك جانبيا ثروةً صغيرة طيبة، أما العماء المهزوم فقد أحرزت نجاحين؛ وفي الوقت نفسه الذي كانت تحقّق الظفرَ للفن في العلبة ا لخضراء، كانت تجعل السُّكْر يزدهرُ في الحانة.

VI
الفأرة التي تستجوبها القطط

تلقّى أورسوس أيضا إنذاراً آخر، مرعباً بما يكفي. وهذه المرّة كان هو المعنيّ بالأمر. لقد استدعي إلى بيشوبزغيت أمام لجنةٍ مؤلفةٍ من ثلاثة وجوه بغيضة. وكانت هذه الوجوه الثلاثة هي ثلاثة علاّمين، وصفوا بأنهم مكلّفون، وكان أحدهم علامةً في علم اللاهوت، وهو مندوبُ أقدم قضاة ويستمنستر، والآخر علامة في الطّب، وهو مندوب مجمع الثمانين، والآخر علامةً في التاريخ والقانون المدني، وهو مندوب مجمع غريشام. إن هؤلاء الخبراء الثلاثة in omni re scibili (في كافة أمور العلم) كانوا مكلّفين بالرّقابة على الكلام الذي يجري التلفّظُ به علناً على كلّ أرض خورنيّات لندن المئة والثلاثين، وعلى خورنيات ميدلسيكس الثلاث والسبعين، وتعميما على خورنيات ساوثويرك الخمس. إن هذه السلطات القضائية اللاّهوتية لا تزال موجودة في إنكلترا، وتعاقبُ بقسوة على نحوٍ مفيد. وفي /٢٣/ كانون الأول للعام /١٨٦٨/، وبحكمٍ صادر عن محكمة ديزارش، ومؤيَّدٍ بموجب قرارٍ من لوردات المجلس الخاص، فإن الموقّر ماكونوشي قد حكم عليه باللّوم، والمصاريف إضافة إلى ذلك، لأنه كان قد أشعل شموعاً على منضدة.إن الطقوس جادّة.

لقد تلقى أورسوس إذن ذات يوم من العلامين المندوبين أمراً بالمثول، وهو أمرٌ لحسن الحظ، قد سُلِّم إليه مباشرة، فأمكنه أن يحافظ على سرّيته. فذهب، من دون أن يقول كلمة، إلى الاستدعاء، مرتعداً من الفكرة التي راودته

بأنه قد يُعتَبر مقدِّماً لمسوّغات تصلُ حدّاً ربّما يظهرُ فيه موضعَ ريبةٍ بالتهوّر إلى درجةٍ ما، وهو الذي طالما كان يوصي الآخرين بالصّمت، قد تلقّن من ذلك درساً قاسياً Garrule ,sanate ipsum (182).

كان العلامون الثلاثة المكلّفون والمندوبون يجتمعون في بيشوبزغيت، في داخل قاعة من الطابق الأرضي، على ثلاث كراسي ذات سواعد جلديّة سوداء، ومع ثلاثة تماثيل نصفيه لمينوس وإياكويه، ورادامانت (183)، فوق رؤوسهم، على الجدار، وأمامهم منضدة، وكرسيّ المتهم عند أقدامهم.

أما أورسوس، الذي أدخله خادمٌ مسلّح، هادئ وصارم، فقد دخل، ورآهم، وفي الحال، أعطى كلاً منهم، في فكره، اسم قاضي الجحيم الذي كان للشخصية المعلّقة فوق رؤوسهم.

إن مينوس، أوّل الثلاثة، ومندوب اللاّهوت، أشار إليه بالجلوس على كرسي المتّهم.

حيا أورسوس بشكلٍ صحيح، أي حتى الأرض، وإذْ كان يعلم أنه يمكن سحرُ الدببة بالعسل، والعلامين باللاتينية، فقد قال، في الوقت الذي بقي فيه منحنياً جزئياً من باب الاحترام: ((Tres faciunt capitulum.))(184).

وإذ خفض رأسه، والتواضعُ يهدّئ الغضب، فقد أتى ليجلس على المقعد الصغير.

كانٍ أمام كلّ واحدٍ من العلاّمين الثلاثة على المنضدة إضبارةُ مدوّناتٍ كان يتصفّحُها وبدأ مينوس يقول:

'أنت تتكلّم علناً؟

فأجاب أورسوس.

- أجل.

- بأيّ حق؟

- أنا فيلسوف.

- ليس هذا حقاً.

فقال أورسوس.

- وأنا أيضا بهلوان

- هذا مختلف.'

تنفّس أورسوس، ولكن بتواضع، فاستأنف مينوس يقول:

'باعتبارك بهلواناً، يمكنك أن تتكلّم، أما باعتبارك فيلسوفاً، فيتعيّن عليك أن تسكت.

فقال أورسوس:

- سأحاول'

وفكّر قائلاً في نفسه: 'بوسعي أن أتكلم، ولكن ينبغي أن أسكت. إنه أمر معقد'

لقد كان مذعوراً جداً.

وتابع مندوبُ الربّ يقول:

'وأنت تقول أشياء تؤذي الأذن. إنك تهينُ الدّين. وتنكرُ الحقائق الأكثر جلاء. وتنشر ضلالاتٍ مثيرةً للغضب. فمثلاً، قلت إن البتولة تنفي الأمومة.'

فرفع أورسوس عينيه بهدوء وقال:

'لم أقلْ ذلك. قلت إن الأمومة تنفي البتولة'

فغدا مينوس متفكّرا، ودمدم:

'في حقيقة الأمر، العكس هو الصّحيح.'

كان ذلك هو الأمر نفسه، غير أن أورسوس كان قد تفادى الضّربة الأولى.

أما مينوس، فإذْ تفكر في ردّ أورسوس، فقد غرق في أعماق بلاهته، وهذا ما أحدث فترة صمت.

أما المندوبُ عن التاريخ، والذي كان بالنسبة لأورسوس هو رادامانت، فقد موّه اندحار مينوس بهذا الاستجواب:

"أيها المتّهم، إن جراءاتك وضلالاتك هي من كلّ شاكلة. وقد أنكرت أن معركة فارسال قد تمت خسارتها لأن بروتوس وكاسيوس قد التقيا زنجيّاً.

فهمس أورسوس:

– قلت إن ذلك كان يعود أيضاً إلى أن قيصر قد كان قائدا أفضل"

انتقل رجلُ التاريخ من غير تمهيد إلى علمِ الأساطير:

"لقد غفرت لأكتيون أعماله الشائنة.

فألمح أورسوس بلباقة:

– أظن أن رجلاً ما لا يعيِّبه أن يكون قد رأى امرأة عارية.

فقال القاضي بصرامة:

– وأنت مخطئ في ذلك"

ورجع رادامانت إلى التاريخ:

"بصدد الحوادث التي حصلت لخيّالة ميتريدات، لقد شكّكت بمزايا الأعشاب والنّباتات، وقد أنكرت أن عشبا من مثل السيكوريديكا كان بمقدوره أن يسقط حدوات الخيول.

فردّ أورسوس:

– عفواً: لقد قلت إن ذلك لم يكن ممكناً إلا بعشب سفيرّا – كافالّو. أنا لا أنكر مزيّة أيّ عشب."

وأضاف همساً:

"وأية امرأة"

بواسطة هذه النافلة التي أضافها إلى ردِّه، كان أورسوس يثبتُ لنفسه أنه مهما يكن قلقاً، فهو لم يكن مُفحَماً؛ فقد كان أورسوس مكوّنا من الرّعب وحضور الذّهن.

واستأنف رادامانت يقول:

"إني مصرٌ على رأيي. لقد أعلنت أنها قد كانت بساطة في التفكير لدى سيبيون، حين أراد أن يفتح أبواب قرطاجة، أن يحمل عشب إيتيوبيس كمفتاحٍ لها، لأن عشبَ الإيتيوبيس ليست له خاصيّةٌ كسر الأقفال.

– لقد قلت ببساطة أنه كان من الأفضل له أن يستعمل عشب اللّوناريا

فهمس رادامانت وقد تأثّر بدوره:

– هذا رأيي"

وسكت رجلُ التاريخ.

أما رجل اللاّهوت، مينوس، الذي هدأ، وسأل أورسوس من جديد، وقد كان لديه الوقت ليراجع دفتر مدوّناته.

"لقد صنّفت الزّهج الأصفر[1] بين المستحضرات الزرنيخيّة، وقلت إنه كان بالإمكان التّسميم بالزّهج الأصفر. والتوراة تنفي ذلك.

فتنهّد أورسوس وقال:

– التوراة تنفيه، ولكن الزرنيخ يؤكّده"

إن الشخص الذي كان أورسوس يرى فيه إيياك[2]، الذي كان مندوب الطّب والذي لم يكن قد تكلّم بعد، تدخّل، وعيناه مغمضتان جزئيا بصورة متعجرفة؛ فقد ساند أورسوس من موقعٍ عالٍ جدّاً، وقال:

((ليس الجوب أحمق))

فشكره أورسوس بابتسامته الأكثر ذلاً.

وكشّر مينوس تكشيرة مرعبة.

وتابع مينوس يقول:

---

(١) كبريتور الزرنيخ الأصفر (م: ز.ع).

(٢) إيياك، في الأساطير الإغريقيّة، هو أحد قضاة الجحيم الثلاثة، مع مينوس ورادامانت. (م: ز.ع).

"إني أواصل. فأجب. لقد قلت إنه من الخطأ اعتبار أن المليك[1] هو ملك الحيات، ويحمل اسم كوكاتريكس.

فقال أورسوس:

– أيها الموقّر جداً، قلما أردت أن أسيء إلى المليك بحيث قلت إنه من المؤكد أن له رأس إنسان.

فردّ مينوس بشكل صارم:

– فليكن، ولكنك أضفت أن فوريوس قد رأى مليكاً برأسِ صقر. فهل يمكنُك إثبات ذلك؟

فقال أورسوس:

– بصعوبة"

وهنا، تقهقر قليلاً.

أما مينوس، فقد أمسك مجدّداً بالتقدّم، وضغط قائلاً:

"لقد قلت إن يهودياً يصبح مسيحياً ليست له رائحةٌ زكية.

– ولكن أضفت أن مسيحياً يصبح يهودياً يصير نتناً"

ألقى ميذوس نظرة على الإضبارة الواشية فقال:

"إنك تؤكد وتنشر أشياء لا تصدّق. وقلت إن إيليا قد شاهد فيلاً يكتب أحكاماً قضائية.

– كلا، أيها الموقرّ جداً. لقد قلت ببساطة إن أوبيان قد سمع فرسَ نهرٍ يناقشُ مسألةً فلسفية.

– لقد أعلنت أنه ليس صحيحاً أن صحناً من خشب الزّان يتغطّى من تلقاء نفسه بكل أطباق الطعام التي يمكن أن نرغب فيها.

– قلت إنه لكي تكون للصحن هذه المزية، فينبغي أن يكون قد أعطاك الشيطان إياه.

---

(١) مسخ أسطوري نسب إليه القدامى قوة خارقة (م: ز.ع).

- يعطيه لي!

- لا، لي، أيها المبجل! لا! للأحد! لكلّ الناس! '

وفكر أورسوس على حدةٍ قائلاً:

'لم أعدْ أعرفُ ما أقول'

غير أن اضطرابه الخارجي، مع أنه شديد للغاية،لم يكن منظوراً أكثر مما ينبغي، لقد كان أورسوس يكافح. فأجاب مينوس بسرعة:

'كل هذا يتضمّن بعضَ الإيمان بالشيطان'.

'أيها الموقّر جداً. إن الإيمان بالشيطان هو عكس الإيمان بالله. وكلٌ منهما يثبت الآخر، فمن لا يؤمن قليلاً بالشيطان، لا يؤمن كثيراً بالله. إن من يؤمن بالشمس ينبغي أن يؤمن بالعتمة. إن الشيطان هو ليل الله. وما هو الليل؟ إن دليلَه هو النهار.

كان أورسوس يرتجل هنا توفيقاً مغلقاً بين الفلسفة والدّين. وغدا مينوس متفكّراً من جديد، وعاد ليغرق ثانية في الصمت '.

تنفّس أورسوس الصّعداء من جديد.

حدث هجومٌ مباغت، فإياكويه، مندوب الطّب الذي حمى منذ قليل أورسوس بازدراء ضدّ ممثل اللاهوت. قلق من كونه مهاجماً مساعداً. فوضع قبضته المغلقة على إضبارته التي كانت سميكةً ومثقلة. وتلقّى أورسوس في صدره هذا التعنيف منه:

'من المثبت أن الكريستال مصنوعٌ من الزّجاج المصعّد، وأن الماسَ مصنوعٌ من الكريستال المصعّد، ومن المؤكّد أن الزجاج يصبح كريستالاً في ألفِ عام، وأن الكريستال يصبح ماساً في ألف قرن. وقد أنكرت ذلك.

فردّ أورسوس بكآبة:

- إطلاقاً. لقد قلت فقط إن الزّجاج في ألف عام قد كان له الوقت الكافي لكي ينصهر، وأن ألفَ قرنٍ هي شيء يصعب عدُّه'.

استمرّ الاستجواب، وكانت الأسئلة والإجابات مثل قعقعةِ السّيوف.

"لقد أنكرت أن النباتات يمكنُها الكلام".

– إطلاقاً. ولكن يلزمُ لذلك أن تكون تحت مشنقة.

– هل تقرّ بأن اللّفاح(*) يصرخ؟

– لا، ولكنه يغنّي.

– لقد أنكرتَ أن الإصبعَ الرابعة لليد اليسرى لها خاصيةٌ قلبيّة.

– لقد قلت فقط إن العطاس على اليسار هو علامة مشؤومة.

– لقد تكلّمت عن العنقاء كلاماً متهوّراً ومهيناً.

– أيها القاضي العلامة، لقد قلت فقط إن بلوتارك كان قد خرج عن التحفّظ أكثر مما ينبغي، حين كتب أن دماغَ العنقاء قطعةٌ ضعيفة، ولكنه يسبب أوجاعاً في الرأس، نظراً لأن العنقاء لم يكن له وجودٌ قطّ.

– كلام بغيض. إن طائر القرفة الذي يبني عشّه بأعواد القرفة، والضبّاب العاصف الذي كان باريساتيس يستخدمه في تسميماته، والمانوكورديات، الذي هو طائر الجنّة، والسّيميندا الذي لمنقاره ثلاثة قصبات، قد اعتُبرت أنها العنقاء خطأً، غير أن العنقاء قد كان لها وجود.

– أنا لا أعارض ذلك.

– إنك أبله عنيد.

– أنا لا أطلب أكثر من هذا.

– لقد اعترفت بأن البيلسانَ يشفي التهاب الحنجرة (185) ولكنك أضفت أن ذلك لم يكن لأن في جذوره زائدةً فطريّةً حارقة.

– قلت إن ذلك قد كان بسبب أن يهوذا قد شنق نفسه بشجرة بيلسان.

فدمدم اللاهوتي مينوس، وهو راضٍ عن أنه قد ردّ للطبيب إياك انتقاده:

(*) نبات عشبي ينبت في المناطق الحارّة ويذكّر جذره بشكل الجسم البشري، وكانوا يعتقدون قديماً بخصائصه السّحرية (م: ز.ع).

- ((رأيٌ محتمل ظاهرياً))

وصارت العجرفةُ المهانةُ غضباً في الحال. فأصبح إيباك ضارياً:

"أيها الرّجل المترحّل. إنك تهدم بالفكر كما تهيم بالقدمين. إن لديك نزعاتٍ مشبوهة ومفاجئة. إنك تقارب السّحر. وأنت على علاقة بحيواناتٍ مجهولة.

إنك تتكلم مع الدّهماء عن أشياء غير موجودة إلا بالنسبة لك وحدك، وهي ذات طبيعة غير معروفة، من مثل الهيموروس".

- الهيموروس هو ثعبان رآه تريميليوس".

أحدث هذا الرّدّ بعض الاضطراب في علم العلامة إيباك المغاظ.

وأضاف أورسوس:

"إن الهموروس واقعيّ أيضاً كالضّبع الزكيّ الرائحة، والزّباد الذي وصفه كاستيلوس".

تخلّص إيباك من الأمر بهجوم في العمق:

"هذه كلماتٌ نصيّة من جانبك، وهي جدُّ شيطانية. فلنسمع"

وقرأ إيباك وعينُه في الإضبارة:

"هناك نبتتان، التالاسيغل والأغلافوتيس، وهما مضيئتان في المساء.

فهما زهرتان في النّهار، نجمتان في الليل"

وإذ حدّق بأورسوس، فقد قال:

"ما الذي لديك لتقوله؟"

فأجاب أورسوس: إن كلّ نبتةٍ مصباح، والرائحة مكوّنة من النّور"

تصفح إيباك صفحاتٍ أخرى.

"لقد أنكرت أن حويصلات ثعلب الماء معادلة لإفراز القندس.

- لقد اكتفيت بالقول إنه ربّما كان ينبغي الاحتراس من أييتيوس حول هذه النقطة (185). وغدا إيباك مخيفاً، وقال:

"أنت تمارس الطّب؟

فتنهد أورسوس بخجل وقال:

- أتمرّن على الطّب.

- على الأحياء؟

فقال أورسوس:

- أكثر مما على الموتى.

كان أورسوس يردّ بصلابة، ولكن بتسطّح؛ إنه يردّ بمزيج يدعو إلى الإعجاب، وتهيمن عليه العذوبة. كان يتكلّم بكثيرٍ من الرقّة بحيث أحسّ العلامة إيباك بالحاجة إلى شتمه. فقال بفظاظة:

"ما الذي تسجعُ به لنا هنا؟"

فذهل أورسوس، واكتفى بأن يردّ قائلاً:

" إن السّجع للشبّان والتأوّه للشّيوخ. فوا أسفاه إنّي أتأوّه.

فردّ إيباك:

"فلأحذرك بما يلي: إذا ما مات مريضٌ تعالجه، فلسوف تعاقَب بالموت".

فخاطر أورسوس بطرحِ سؤال:

"وإذا ما شفي؟

فأجاب العلامة، وهو يلطّف صوته:

"ستعاقبُ بالموت

فقال أورسوس:

- هذا مختلف قليلاً.

فأستأنف العلامة:

إن كان هناك موت، تجري معاقبة الغباوة، وإن كان هناك شفاء، يعاقب الشّعور بالزّهوّ، فالمشنقة في الحالتين.

فهمس أورسوس:

- كنت أجهل هذا التفصيل. وإني أشكرك على إخباري به؛ فالمرءُ لا يعرفُ كلَّ جمالات التشريع.

- فحذارِ من نفسك.

فقال أورسوس:

حذراً دقيقاً.

- نحن نعلم ماذا تصنع.

ففكّر أورسوس:

- أنا لا أعلم ذلك دوماً.

- باستطاعتنا أن نرسلك إلى السّجن.

- أنا أستشفّ ذلك، يا سادتي.

- ولا يمكنك أن تُنكر مخالفاتك وتطاولاتك.

- إن فلسفتي تطلبُ الصّفح.

- تُنسب إليك أعمالٌ متهوّرة.

- إنهم مخطئون خطأً جسيماً.

- يقال إنك تشفي المرضى!

- إني ضحيّة الافتراءات.

إن زوجَ الحواجبِ الثلاثيَّ المفزع المصوّب على أورسوس قد تقطّب؛ والوجوه الثلاثة العالمة قد تقاربت وأخذت توشوش. وتمثّلت لأورسوس رؤيا قلنسوة حمار ترتسمُ بخطوطها الأوليّة فوق تلك الرّؤوس الثّلاثة المفوّضة؛ واستمرت الدّمدمة الحميمية والمختصّة لذلك الثّالوث بضع دقائق، أحسّ

خلالها أورسوس بكلّ ضروب جليدِ القلق وجمراته. وأخيراً، فإن مينوس الذي يقود (187) استدار نحوه وقال له بلهجةٍ غاضبة:

"امضِ"

أحسّ أورسوس قليلاً بما شعر به يونان وهو يخرج من بطن الحوت.

وتابع مينوس يقول:

"إننا نفرجُ عنك"

فقال أورسوس في نفسه:

"إذا قُبض علي مجدّداً في هذا – فمساء الخير أيها الطّب!"

وأضاف في طويّته:

"من الآن وصاعداً، سأترك الناس يَنفِقون بكلّ عناية.

وإذْ لوى جسمه إلى قسمين، فقد حيّا كلّ شيء، العلاّمين، والتماثيلَ النصفيّة، والمنضدةَ والجدرانَ، وتوجّه القهقرى نحو الباب، وهو يتوارى تقريباً كالظّلّ الذي يتبدّد.

خرج من القاعة ببطء، مثل شخصٍ بريء، ومن الشّارع بسرعةٍ مثل مُذنب.

إن الاقترابَ من رجال القضاء فريدٌ من نوعه وقاتمٌ إلى حدٍّ كبير بحيث أن المرء يفرّ منه، حتى وإن كان بريئاً.

لقد كان أورسوس يدمدم أثناء هروبه قائلاً:

"لقد خلصت من خطر داهم. فأنا العالم البري، وهم العلماء الأهليون. إن العلم الزائف هو برازُ العلمِ الحقيقي"؛ ويُستخدم لإهلاك الفلاسفة. إن الفلاسفة ينتجون شقاءهم الخاص من خلال إنتاج السفسطائيين. فمن ذرق طائر السّمنة يولدُ الهذّال الذي يجري به اصطياد طائرُ السّمنة Turdus Sibi malum Cacat(188).

إننا لا نقدم أورسوس على أنه ضعيف، فقد كانت لديه سفاهةٌ استخدامِ كلماتٍ تعبر عن تفكيره. ولم يكن لديه ذوق أكثر مما كان لڤولتير.

رجع أورسوس إلى العلبة الخضراء، وروى للسيد نيكليس أنه قد تأخر لأنه قد لحق بامرأةٍ جميلة، ولم ينبس بكلمةٍ عن مغامرته.

إلا أنه قال لأومو مساءً بصوتٍ خفيض:

"أعلم ما يلي. لقد هزمت رؤوس سيربير[*] الثلاثة".

(*) في الأساطير اليونانية. هو كلب ثلاثي الرؤوس يحرس الجحيم. (م: ز.ع).

VII

أيةُ مسوغات يمكن أن تكون
لربعيةٍ ذهبية
لكي تأتيَ وتتسفلَ
بين الفلوس الكبيرة (189)

حدث بغتةً صرفٌ للأنظار.

كان نزل تادكاستر يصبح أكثر فأكثر أتوناً من الفرح والضحك. فما من صخبٍ أكثر منه مرحاً. ولم يعد صاحب النزل وصبيُّه كافيين لسكبِ جعةِ المزرِ، وجعة الستاوت والبورتر(*) فعند المساء، لم يكن في القاعة المنخفضة ذات النوافذ الزجاجية المضاءة، أية طاولة خالية. كان الناس يغنون ويصيحون؛ وكان الموقدُ الكبير القديم الذي هو على شكلِ نصفِ قبّة، والمحاطُ بحاجزٍ حديديّ، والملقّم بالفحم الحجري، كان يتوهج مثل بيتِ نارٍ وصخب.

وفي الباحة، أي في المسرح، لم يعدْ هناك حشد.

كان كلُّ جمهورِ الضاحية الذي كان يمكن لساوثويرك أن تقدمه يتدفّق إلى عروضِ العماء المهزوم إلى الدرجة التي، ما إن رفعت الستارة، أي ما إن خفضت لافتةَ العلبة الخضراء، حتى صار من المتعذّر أن يجدَ المرءُ مكاناً.

كانت النوافذ تغصُّ بالمشاهدين، وكانت الشرفةُ قد تمَّ اجتياحُها. ولم يعد المرء يرى بلاطةً واحدة من الباحة، فقد استُبدلت وجوهٌ بها جميعاً.

(*) نوعان من الجعة الإنكليزية القوية والثقيلة. (م: ز. ع).

غير أن المقصورة المخصصة للنبلاء قد بقيت خالية على الدوام.

وكان ذلك يشكّل، في ذلك الموضع، والذي هو وسط الشرفة، فجوةً سوداء يسمونها بمجاز الأرغةِ "تدّوراً". فلا أحد فيها. فالحشدُ في كل مكان، باستثناء ذلك المكان.

وفي المساء، كان هناك أحدُ الأشخاص.

كان ذلك يوم سبت، وهو اليوم الذي يسرع فيه الإنكليز إلى التسلية بما أنهم سيضجرون نهار الأحد.

لقد كانت القاعةُ تغصّ بالناس.

إننا نقول قاعة. ولم يكن لدى شكسبير أيضاً، ولزمنٍ طويل، إلا باحة نزل المسرح، وكان يسميها قاعة Hall.

في اللحظة التي انفتحت فيها الستارة الحريرية على استهلال العماء المهزوم، وكان فيها أورسوس، وأومو، وغوينبلين على المسرح، فإن أورسوس قد ألقى نظرة، كعادته، على الحضور، فأصيب بصدمة.

كانت المقصورة المخصصة للنبلاء مشغولة.

كانت هناك امرأةٌ جالسة، بمفردها، في وسط الشرفة، على مقعدٍ من مخملِ أوتريشت.

كانت بمفردها، وكانت تملأ شرفتها.

إن لبعض الكائنات ضياءً معيناً. وكان لتلك المرأة، شأن ديا، إشعاعُها الخاص بها. لقد كانت ديا شاحبة الوجه، وكانت تلك المرأةُ متورّدةَ الخدين. كانت ديا هي الشروق الأول، وكانت تلك المرأة هي الفجر. كانت ديا جميلةً، وكانت تلك المرأة رائعةً، كانت ديا هي البراءةَ، والصفاءَ، والبياضَ والمرمرَ، وكانت تلك المرأة هي الأرجوان، وكان المرء يحسّ بأنها لم تكن تخشى الاحمرار، وكان تألُّقها يفيضُ على الشرفة، وهي تجلس في الوسط، لا تبدي حراكاً في كمالِ معبودةٍ غير محدّد.

وفي وسط ذلك الحشد المنفرّ، كان لديها إشعاعُ العقيق الفائقٍ، وكانت تغمر ذلك الجمهور بكثير من النور بحيث تغرقه بالظل، وكانت كل وجوهه المظلمة تعاني احتجابه. كان تألّقها امحاءً لكلّ شيء.

وكانت كلٌ العيون تنظر إليها.

كان توم - جيم - جاك مختلطاً بالغوغاء، وكان يختفي كالآخرين في هالةِ تلك الشخصية الساطعة.

امتصّت تلك المرأة أولاً اهتمامَ الجمهور، وتنافست مع العرض، وأضرّت قليلاً بأولى مؤثّرات العماء المهزوم.

أياً كانت هيئتُها الحالمة، فقد كانت واقعيةً بالنسبة لأولئك الذين كانوا بقربها. لقد كانت حقاً امرأة. ولربما كانت حتى امرأةً أكثر مما ينبغي. كانت طويلةَ القامة ومتينةَ البنية، وهي تبدي بصورةٍ رائعة أكثر ما كانت تقدر عليه من عري. كانت تضع أقراطاً ثقيلة في أذنيها مصنوعة من اللآلئ التي تختلط بها تلك المجوهرات الغريبة التي تدعى مفاتيح إنكلترا. كان فستانُها الفوقاني مصنوعاً من الموصلي السّيامي، والمطرز بالذهب الحائل والمترف إلى حدٍ كبير، ففساتين من الموصلي من هذه الشاكلة كانت تساوي حينذاك ست مئة ريال.

وكان مشبكٌ عريضٌ من الماس يُغلقُ قيمصها الذي كان يُرى على ياقة جيدها، وهذه درجةٌ خليعةٌ في ذلك الزمن، وكان مصنوعاً من ذلك النسيج، نسيج فريز، والذي كان لدى الملكة آنا النمسوية أجواخٌ مرهفة منه بحيث تمرّ من خلال خاتم. وكان لدى تلك المرأة ما يشبه درعاً من الياقوت، وبعضُها على شكل أحجارٍ كريمة غير مصقولة، وأحجارٍ أخرى مخاطة في كلّ المواضع على جسم خراطتها. علاوة على ذلك، فإن الحاجبين المسودين بالحبر الصيني والذراعين، والمرفقين، والكتفين، والذقن، وأسفل المنخرين، وأعلى الجفون، ورَوم الأذنين، وراحة اليدين، ورأس الأصابع، والتي لمسها الخضاب، فأصبح لها ظلٌ أحمر مثيرٌ غير محدد. وفوقٍ كل ذلك رغبة لا تنثني في أن تبدو جميلة. لقد كانت على وشك أن تغدو مثيرةً للخوف. فقد كانت الفهد الذي يمكنه أن يصبح قطّة، وأن يلاطف. كانت إحدى عينيها زرقاء، والأخرى سوداء.

كان غوينبلين، شأن أورسوس، يتأمّلان تلك المرأة.

كانت العلبةُ - الخضراء تقدم إلى حدٍّ ما عرضاً استشباحياً، فالعماءُ المهزوم قد كانت حلماً أكثر مما هي مسرحية. وكانا معتادين على أن يجعلا الجمهور تحت تأثير رؤيا؛ أما في تلك المرة فإن تأثير الرؤيا قد رجع عليهما، وكانت القاعة تردّ دهشتَها إلى المسرح، وقد حان دورُهما لأن يرتعبا. فقد أصابهما ارتداد الافتتان.

كانت تلك المرأة تنظر إليهما.

وكانا ينظران إليها.

بالنسبة إليهما، ومن المسافة التي كانا فيها، وفي الضبابة المضيئة التي كان يصنعها الغبشُ المسرحيّ، كانت التفاصيل تتلاشى، وكان ذلك أشبه ما يكون بهلوسة. لقد كانت امرأةً بلا شك. ولكن ألم تكن أيضاً خيالاً؟ كان هذا الدّخولُ للنور في عتمتهما يذهلهما. كان ذلك مثل وصول كوكب مجهولٍ. وكان ذلك يأتي من عالم السعداء، وكان الإشعاعُ يضخّم تلك الصورة. وكان على تلك المرأة تلألؤاتٌ ليليةٌ مثل دربٍ للتّبانة. وكانت تلك الأحجار الكريمة تبدو نجوماً، وكان مجسّمُ صدرها الرّائع يبدو فائقاً على الطبيعة. وكان المرءُ يشعرُ، وهو يرى تلك المخلوقة الكوكبية، بالدّنو اللّحظي والجليديّ لمناطق الغبطة. فمن أعماق جنةٍ معينةٍ، إنما كان ينحني على العلبة - الخضراء الهزيلة الغبطة، وعلى جمهورها البائس، ذلك الوجه ذو الصفاء الذي لا يرحم.

إنه فضولٌ سامٍ كان يكتفي بنفسه، ويجعل الفضولَ الشعبيّ يرعى فيه إن ما هو فوق قد كان يسمحُ لما هو تحت بأن ينظر إليه.

لقد أصيب أورسوس، وغوينبلين، وفينوس، وفيببي، والحشد، والجميع بتلك الهزة، هزّة الانبهار، باستثناء ديا التي تجهلُ ذلك في ليلها.

في ذلك الحضور كان هناك تجلٍ، ولكن ما من فكرةٍ من الأفكار التي توقظُها عادةً تلك الكلمة قد نفّذتها تلك الشّخصية،لم يكن فيها شيء شفّاف، ولا شيء ملتبس، ولا شيء عائم، وليس فيها أيٌّ بخار. لقد كانت تجلياً وردياً

وغضّاً، وبصحةٍ جيدة، ومع ذلك، ففي ظروف الرؤية التي كان يتوضّع فيها أورسوس وغوينبلين، كان ذلك رؤيوياً. إن الأشباحَ الكثيفةَ التي يسمّونها مصاصي الدماء، موجودة. إن ملكةً جميلة كهذه هي أيضاً، بالنسبة للجمهور رؤيا، والتي تأكل ثلاثين مليوناً في العام من شعب الفقراء، تتمتع بتلك الصحّة.

خلف تلك المرأة، وفي الغبش، كان المرءُ يلحظ فتاها elmozo[*]، وهو رجلٌ قصير القامة، وصبيانيٌّ أبيض البشرة، ومليح وذو مظهر جادّ. إن تابعاً فتياً جداً ورصيناً جداً، كان يُماشي الدُّرجة في ذلك الزمن. كان لباس ذلك الفتى الذي يرتديه، وحذاؤه الذي ينتعله، وعمامة رأسه من المخمل الناري. وكانت قلنسوتُه المزيّنة بشرائط ذهبية باقةً من ريش عصفورٍ نسّاج، وهذا علامة على خدمةٍ منزليةٍ عاليةٍ، وهو يدلّ على أنه خادمٌ لسيدةٍ ذات مرتبة جدّ عظيمة.

إن الخادم يعدّ جزءاً من السيد الاقطاعي، وقد كان من المتعذّر ألا يلاحظ المرء في ظل تلك السيدة ذلك الوصيف المذناب. إن الذاكرة تدوّن ملاحظاتٍ غالباً ما تكون من غير علمنا، ومن غير أن يشك بذلك غوينبلين؛ فإن الخدين المستديرين، والمحيّا الرصين، والقلنسوة المزيّنة بالشرائط وباقة الريش لدى فتى السيدة، قد تركت أثراً معيناً في ذهنه. إن هذا التابع إضافة لذلك لا يفعل شيئاً يُنظر إليه؛ فجذبُ الانتباه هو إخلالٌ بالاحترام. كان يمكثُ واقفاً وسلبياً في صدر الشرفة، ومتراجعاً إلى أبعد ما يتيحُه له الباب المغلق.

ومع أن صبيَّها المذنابَ قد كان موجوداً، فإن تلك السيدة لم تكن بسبب ذلك وحيدة بدرجةٍ أقلّ في المقصورة، نظراً لأن خادمها ليس له حساب.

ومهما كان قوياً تأثيرُ تشتيتِ الانتباه الذي أحدثه شخصُ تلك المرأة الذي كان له فعلُ شخصيةٍ مسرحيةٍ، فقد كانت خاتمة العماء المهزوم أقوى أيضاً. كان الانطباع، كما هو دائماً، لا يمكنُ مقاومتُه. وحتى أنه كان هناك في القاعة ربما، وبسبب المشاهدةِ المتألقة، فالمشاهدُ يضيفُ من نفسه على العرض، مزيداً من الكهرباء. وكانت عدوى ضحك غوينبلين غالبةً أكثر من

(*) بالإسبانية (م: ز. ع).

أي وقتٍ مضى. كان الحضور غارقاً في اختلاجٍ لا يوصف من المرح الصاخب، والذي كان المرء يميّز فيه التكشيرةَ الرنّانةَ المتفوقة في إتقانها، تكشيرة توم – جيم – جاك.

أما المرأةُ المجهولة التي كانت تشاهدُ العرض بجمودِ تمثال وبعينيّ شبح، فوحدها لا تضحك.

إنها طيفٌ ولكنه شمسي.

ما إن انتهى العرض، ورُفعت اللافتةُ، وعاد الجوّ الحميمُ ثانية إلى العلبة – الخضراء، حتى فتح أورسوس وأفرغ على طاولة العشاء كيس الحصيلة. فكانت كميةً مزدحمةً من قطع الفلوس الكبيرة، والتي تساب بينها فجأة أوقيةٌ ذهبيةٌ إسبانية(*) فهتف أورسوس: "هي!".

كانت تلك الأوقية الذهبية في وسط تلك الفلوس الزّنجارية هي في الواقع تلك المرأة في وسط ذلك الشعب.

وردد أورسوس وقد أخذته الحماسة:

"لقد دفعت تعرفةَ محلّها بأربعة أمثال"

في تلك اللحظة، دخل صاحب النّزل إلى العلبة – الخضراء، ومرّر ذراعه من نافذة المؤخرة، وفتح في الجدار الذي كانت تستند إليه العلبةُ الخضراء نافذةً تحدثنا عنها، وتتيحُ للمرء أن ينظر إلى الساحة، والتي كانت على مستوى تلك النافذة، ثم أشار لأورسوس بصمتٍ لينظر إلى الخارج. وكانت هناك عربةٌ فاخرة مزينةٌ بخادمٍ يعتمرُ الريش، ويحملُ مشاعلَ، ومقطورةً بشكل رائع، كانت تبتعد بخببٍ سريع.

أمسك أورسوس باحترام الرّبعية الذّهبيةَ بين إبهامه وسبابته، وأراها للسيد نيكليس وقال:

"إنها إلهة".

(*) ما يعادل /٣٨,٨/ غ من الذهب، وهي مثقال قديم. (م: ز. ع).

ثم وقعت عيناه على العربة الفاخرة المتأهبّة للانعطاف عند زاوية الساحة، وعلى طبقتها العلوية، التي كانت مشاعل الخدم تنيرُ عليها تاجاً ذهبياً ذا ثمانية زخارف زهريّة.

وهتف:

"إنها أكثر من هذا، إنها دوقة".

توارت العربة الفاخرة، وتلاشى ضجيجُ تدحرجها.

مكث أورسوس لبضع لحظات في حالة نشوة، وهو يرفع، بين أصبعيه اللذين صارا معرضاً للذخيرة المقدسة، الربْعية الذهبية، كما يجري رفع القربان، ثم وضعها على المنضدة، وهو يتأملها، وأخذ يتكلم عن "السيدة". وقد أعطاه صاحب النّزل الردّ. لقد كانت دوقة. أجل. كان اللقب معروفاً.

أما الاسمُ؟ فقد كان مجهولاً. كان السيد نيكليس قد رأى العربة الفاخرة عن كثب، وهي مجلّلة بالشعارات، والخدم المزينين بالشرائط. كان الحوذي يعتمرُ طاقية شعرٍ مستعارة بحيث يظن المرء أنه يرى لورداً - رئيس قضاء. وكان للعربة الفاخرة ذلك الشكل النادر المسمى في إسبانيا Coche-Tumbon. وهو تنوّعٌ رائع له غطاء قبر، وهذا ما يعتبر حاملاً رائعاً لتاج. وقد كان التابع الفتى عينةً لرجلٍ جدّ لطيف بحيث يتمكن من أن يمكثَ جالساً على ركابِ العربة الفاخرة خارج بابه. إن هذه الكائنات المليحة تُستخدم في حمل ذيول فساتين السيدات، وهم يحملون أيضاً رسائلهن. وألم تكن قد لوحظت ضمّةُ ريشِ طيرِ النسّاج التي لذلك التابع؟ وإليكم الأمر العظيم. إن الغرامة تدفع إذا ما جرى لبسُ هذه الريشات بلاحقٍّ. كان السيد نيكليس قد نظر إلى السيدة عن كثب. إنها ضربٌ من ملكة. إن الكثير من الغنى يعطي جمالاً. إن الجلد يكون أكثر بياضاً، والعين أكثرَ اعتداداً، والمشية أكثر نبلاً، والغنجَ أكثرَ سفاهةً، ولا شيء يضاهي الأناقة الوقحة لتلك الأيدي التي لا تشتغل. كان السيد نيكليس يروى تلك الروعة، روعةَ الجسد الأبيض بعروقه الزرقاء، وهذا العنق، وهاتين الكتفين، وهاتين الذراعين، وتلك الخضاب في كل موضع،

وتلك الذوائب ذات اللآلئ، وتلك التّسريحة المعفّرة بالذهب، وتلك الإفراطات بالحجارة الكريمة، وتلك اليواقيت، وتلك الماسات.

وهمس أورسوس:

"الأقل التماعاً من العيون"

وكان غوينبلين يصمت.

وكانت ديا تصغي.

وقال صاحب الحانة:

"وهل تعرف الأكثر إدهاشاً؟"

فسأل أورسوس:

– ماذا؟

– هو أني رأيتها تصعدُ في عربةٍ فاخرة.

– وبعد ذلك؟

– ولم تصعد إليها وحدها.

– عجباً!

– لقد صعد أحدُهم معها.

– ومن هو؟

– احزرْ.

فقال أورسوس:

– الملك.

فقال السيد نيكليس:

– أولاً، ليس هناك ملك، في الوقت الحالي. ونحن لسنا تحت حكم ملك. فاحزرْ من الذي صعد إلى العربة الفاخرة مع تلك الدوقة.

فقال أورسوس:

– جوبيتَر'

فأجاب صاحب النزل:

'توم – جيم – جاك'.

أما غوينبلين الذي لم يكن قد تلفّظ بكلمة، فقد قطع الصمت، وهتف:

'توم – جيم – جاك.'

وكانت هناك فترةٌ توقّفٍ مليئةٌ بالدهشة، وخلالها أمكن سماعُ ديا وهي تقول بصوتٍ خفيض:

'ألا يمكن منعُ هذه المرأة من أن تأتي؟'

VIII
أعراض التسمُم

لم يرجع "التّجلي".

لم تعدْ إلى القاعة، غير أنها رجعت إلى ذهن غوينبلين.

لقد أصيب غوينبلين إلى حدٍ ما بالاضطراب.

وبدا له أن قد رأى للتوّ امرأة، للمرة الأولى في حياته. وتعرّض في الحال لهذا السقوط الجزئي الذي يتمثّل في التفكير بغرابة. فالمرء ينبغي أن يحترس من أحلام اليقظة التي تفرض نفسها. إن لأحلام اليقظة ما للرائحة من سرٍّ خفيّ ونفاذ. إنّ لها بالنسبة للتّفكير ما للعطرِ بالنسبة للمسكِ الروّمي. إنها أحياناً تمدّد فكرةً سامة، ولها تغلغل دخان. فيمكن للمرء أن يتسمّم بأحلام يقظة، مثلما يتسمّم بالزهو. إنه انتحارٌ باعثٌ على النشوة، ولذيذٌ ومشؤوم.

إن انتحار الروح، هو التفكيرُ بشكلٍ سيء، وفي ذلك التّسمم. إنّ أحلام اليقظة تجتذب، وتغرّ، وتخدعُ، وتحتضن، وتجعل منك متواطئاً معها. إنها تشاركك مناصفةً في المخادعات التي تخدع بها الضمير. إنها تسحُرك، ثم تُفسدُك.

يمكن أن يقال عن أحلام اليقظة ما يقال عن القمار؛ فالمرءُ يبدأ بأن يكون مخدوعاً، وينتهي بأن يكون خادعاً.

لقد أخذ غوينبلين يحلم.

إنّه لم يكن قد رأى المرأة قطّ.

كان قد أرى ظلّها في كلِّ نساء الشعب، وكان قد رأى روحها في ديا.

وقد رأى للتوّ حقيقتها الواقعية.

بشرةٌ فاترة وحية، وتحتها، كان يحس المرءُ بجريان دمٍ مشبوب، ومنحنياتِ خطوطٍ خارجية لها دقّة الرخام، وتعرّجات الموج، ووجهٌ متعالٍ ولا تأثرٌ فيه، يمزج بين الرفض والجذب، فهو تألق بإجماله، وشعرٌ متلونٌ مثل انعكاسِ الحريق وتطرّفٌ في التزيّن يحمل ويعطي ارتعاشةَ اللذات، وعرياً في بدنه يفضحُ الأمنيةَ المزدرية في أن يمتلكه الجمهور عن بعد، وغنجٌ منيعٌ، وسحرٌ ما لا يمكن النفاذ إليه، والإغواء الذي يطيّبه الهلاكُ المستشف، ووعدٌ للحواس وتهديدٌ للروح، وقلق مضاعف، أحدهما هو الرغبة، والآخر هو الخشية، لقد رأى ذلك لتوه. لقد رأى لتوه امرأة.

لقد رأى منذ قليل أكثر وأقل من امرأة، رأى أنثى.

وفي الوقت نفسه، رأى إلهة أولمبية.

إنها أنثى إلهيّة.

وهذا السرّ الخفي، الجنس، قد ظهر له منذ قليل.

وأين؟ في المتعذر بلوغه.

وعلى مسافةٍ لانهائية.

إنه قدرٌ سخري. فهذا الشيء السّماوي، كان يمسك به، كان في يده، وقد كان دياً، فالجنسُ، هذا الشيء الأرضيّ، كان يلمحُه في أعمقِ أعماق السماء، وكان تلك المرأة.

إنها دوقة.

وكان أورسوس قد قال:

أكثر من دوقة.

فأية وعورة!

إن الحلم نفسه قد يتراجع أمام تسلّقٍ كهذا.

فهل سيصل به الجنون إلى أن يحلم بتلك المجهولة؟

كان يتخبّط.

لقد أخذ يتذكر كل ما كان أورسوس قد قال له عن تلك الكينونات العالية شبه الملكية، إن ضروبَ شطط الفيلسوف التي كانت قد بدت له غير ذات فائدة، قد أخذت تصبح بالنسبة إليه معالم للتأمل، وغالباً ما لا يكون لدينا في الذاكرة. إلا طبقة من النسيان جدّ رقيقة، وهي عند الضرورة، تدعنا نرى ما تحتها فجأة. لقد كان يتصوّر هذا العالم المعظم، عالم السيادة الإقطاعية والذي كانت منه تلك المرأة، والتي تتموضعُ بصورةٍ لا ترحم فوق العالم الصغير الشأن، الشعب الذي كان هو منه وهل كان من الشعب حتى؟ ألم يكن هو، البهلوان، تحت ما هو تحت؟

وللمرة الأولى، ومنذ أن وصل إلى سنّ التفكير، أحس بشكلٍ مبهم بانقباض قلبه بسبب تدنيه، والذي ربما نسميه اليوم انحطاط شأنه، إن ألوان التصوير عند أورسوس وتعداداته، وجروده الغنائية، وتقريظاته للقصور، والمنتزهات، وفوارات المياه، وصفوف الأعمدة، وضروب تفاخره بالغنى والاقتدار، كانت تنبعثُ في تفكير غوينبلين مع ظلال واقعٍ مختلط بسحب جشّاء. لقد كان يستحوذ عليه هذا الأوج، فأن يستطيع رجل أن يكون لورداً، كان يبدو له ذلك خيالياً. ومع ذلك فقد كان هذا موجوداً. إنه أمر لا يصدّق! لقد كان هناك لوردات! ولكن هل كانوا من لحمٍ وعظم مثلنا؟ كان ذلك مشكوكاً فيه. لقد يُحسُّ بأنه موجود في أعماق العتمة، والسور يحيط به تماماً، وهو يلمح في موضع قصي سامٍ، وفوق رأسه، كما من فتحة بئر، لعله يكون موجوداً في قعرها، ذلك الاختلاط المبهر غير المنظم من الزرقة السماوية، من الأشكالِ والأشعّة التي هي الأولمب (موطن الآلهة). وفي وسط ذلك المجد، كانت تتألّق الدوقة.

كان يحسّ بحاجةٍ إلى تلك المرأة، غير محددة وغريبة ومشتبكة بالمستحيل.

وكان هذا الاتجاه المعاكس المؤثّر يدورُ باستمرارٍ في ذهنه بالرغم منه وهو: أن يرى بقربه، وفي متناوله، وفي الواقع المحصور والملموس،

أن يرى الروح، وفي الذي يتعذّر الإمساك به، وفي أعماق المثالي، أن يرى الجسد.

لم تكن أيةُ فكرةٍ من هذه الأفكار تصلُ إليه في حالةٍ دقيقة، فقد كان الضّبابُ هو الذي يغشى نفسه. وكان ذلك يبدّل في كلّ لحظةٍ حدوده ويغدو عائماً.

بل كان ذلك تعتيماً عميقاً.

فضلاً عن ذلك فإن فكرة أن هناك شيئاً يسير المنال أيّاً كان لم تلامس ذهنه للحظة من الزمن. ولم يشرع، ولا حتى في الحلم، بأي صعودٍ نحو الذوقة.

لحسن الحظ.

إن اهتزاز تلك السلالم، ما إن يضع المرء قدمه عليها، يمكن أن يبقى في العقل دائماً، فيظن المرءُ أنه يصعدُ إلى موطنِ الآلهة (السماء)، فيصل إلى الشواش. إن اشتهاءً جلياً كان يمكن له أن يتشكّل في داخله، كان يمكن أن يرعبه. إنه لم يحسّ بشيء مماثل.

من ناحيةٍ أخرى، هل يمكن أن يرى هذه المرأة مجدداً في يومٍ من الأيام؟ من المحتمل أن لا. أما أن يشغفَ المرءُ بضياءٍ يعبرُ في الأفق، فإن اختلال العقل لا يصل إطلاقاً إلى تلك اليقظة، وأن يرنو المرء بشغفٍ إلى نجمة، عند الاقتضاء، فهذا أمرٌ يمكن فهمُه، فيمكن أن يراها ثانية، وأن تعود إلى الظهور مجدداً، فهي ثابتة. ولكن هل يمكن للمرء أن يكون مغرماً بالبرق؟

كانت لديه حركةٌ مستترة لأحلام يقظته. إن المعشوقة الموجودة في صدر الشرفة، والمهيبة والظريفة، كانت تتلاشى بشكلٍ مضيء في توزّع أفكاره، ثم تمّحي. كان يفكر بها، ولا يفكر بها، ويهتم بشيء آخر، ويعود إلى التفكير بها، كان يعاني من ترجّح، ولا شيء أكثر.

لقد منعه ذلك من النوم بضع ليال. إن الأرقَ مليءٌ بالأحلام كالنوم.

من المتعذر تقريباً أن يعبّر المرء عن التطورات العويصة التي تجري في الدماغ. إن ضرر الكلمات هو في أن لها حدوداً أكثر مما للأفكار. إن كافة الأفكار تختلط من حوافها، أما الكلمات، فلا. إن جانباً منتشراً للروح يفلت منها دوماً.

إن للتعبير حدوده، أما الفكر فليس له حدود.

إن أمداءنا الداخلية الشاسعة والمعتمة على درجةٍ من الاتساع بحيث أن ما كان يجري في دخيلة غوينبلين لا يكادُ، في تفكيره، يمسّ ديا. كانت ديا مقدسة، في مركز تفكيره. ولم يكن بمقدور شيء أن يقترب منها.

مع ذلك. فهذه التناقضاتُ هي النفسُ الإنسانية كلها. كان هناك نزاعٌ في داخله. فهل كان يدرك ذلك؟ في الأكثر.

كان يشعر في طويّته، وفي موضعِ التّصدعات الممكنة، ولدينا هذا الموضع جميعاً، بصدام الإرادات الضعيفة. وكان يمكن لذلك أن يكون واضحاً بالنسبة لأورسوس، أما بالنسبة لغوينبلين، فقد كان ذلك مبهماً.

شيئان مبهمان، أحدهما المثالي، والآخر الجنس، كانا يتصارعان في داخله. وثمة صراعات من هذا النوع بين الملاك الأبيض، والملاك الأسود على جسر الهاوية وأخيراً. فالملاكُ الأسود قد دفع إليها.

وذات يوم، وفجأة لم يعدْ يفكّر بالمرأة المجهولة.

إن المعركة بين المبدئين، والمبارزة بين جانبه الأرضي وجانبه السّماوي، كانت قد انتقلت إلى أكثر ما هو معتم في نفسه، وإلى أعماق بعيدة بحيث لم يكن قد لاحظها إلا بشكلٍ جدّ مشوش.

إن ما هو مؤكد، هو أنه لم يكن قد كفّ دقيقةً واحدة عن التدلّه بديا.

كان هناك اضطرابٌ في نفسه، وقبل ذلك بكثير، فكان قد أصيب دمُه بحمى معينة، غير أن الأمر قد انتهى، ووحدها ديا قد بقيت.

كان يمكن لغوينبلين أن يصاب حقاً بالدهشة، لو قيل له إن ديا كان من الممكن أن تكون في خطرٍ للحظةٍ من الزمن.

إن الشّبحَ الذي كان يبدو أنه قد هدّد هاتين النفسين قد زال في غضونِ أسبوع أو أسبوعين.

لم يعد في دخيلة غوينبلين إلا القلب، مقرّاً، والحبُّ شعلته.

فضلاً عن ذلك، وكما قلنا، فإن "الدوقة" لم ترجع.

هذا ما وجده أورسوس بسيطاً تماما "فالسيدة ذات الربيعيّة الذهبية" هي ظاهرة. إنها شيء يدخل، ويدفع، ويغيب. ولو رجع ذلك، لكان جميلاً أكثر مما ينبغي.

أما ديا، فلم تُلمح حتى إلى تلك السيدة التي مرت. من المحتمل أنها كانت تصغي، وقد أصبحت على علم بالأمر على نحو كافٍ من خلال تأوّهات أورسوس، وهنا وهناك، من خلالِ تعجّبٍ ذي دلالة من مثلِ "لا نحصلُ كل يوم على أوقيات ذهبيةَ!". ولم تتكلّم بعد ذلك عنِ "المرأة"، وذلك انطلاقاً من غريزةٍ عميقة. فالنفسُ تتخذُ احتياطاتٍ غامضةً من هذا النوع، فلا تكون دوماً على طبيعتها في قراراتها. إن السّكوتَ عن شخصٍ ما يبدو أن معناه إبعاده. وحين يستعلم المرءُ، يخشى أن يستدعيه. إن المرءَ يلوذُ بالصمّت من جهته مثلما يغلق باباً.

نُسيت الحادثة.

وهل كانت حتى شيئاً يُذكر؟ هل كان لها وجود؟ هل كان يمكنُ القول إن عتمةً قد طفت بين غوينبلين وديا؟ لم تكن ديا تعلم ذلك، ولم يكن غوينبلين يعلمه أيضاً. كلا، لم يكن هناك شيء. لقد تلاشت الدّوقةُ نفسُها في منظورٍ قصيٍّ مثل وهم. لم تكن شيئاً سوى دقيقةِ حلمٍ اجتازها غوينبلين. وكان خارجها. إن تبدُّداً لأحلام اليقظة، شأن تبدد الضباب، لا يترك أثراً إطلاقاً. وبعد أن تمرّ الغيمةُ، لا يتضاءلُ الحبُّ في القلب أكثر مما تتضاءل الشمس.

I X

ABYSSUS ABYssum VocAT.(190)

لقد اختفى وجه آخر. وكان هو توم – جيم – جاك. وبغتة، كفّ عن المجيء إلى نزل تادكاستر.

لعل الأشخاصَ الذين هم في موقع يجعلهم يرون سفحي حياةِ كبارِ السادة الإقطاعيين الأنيقة في لندن، لعلهم قد تمكنوا من أن يلاحظوا، في العهد نفسه أن La gazette de la semaine قد أعلنت، بين مقتطفين من سجلات الخورنية، عن رحيل اللورد دافيد ديري – موار، بناءً على أمر جلالته، ليذهب ويستلم مجدداً، في الأسطول الأبيض، قيادة فرقاطته، للقيام بجولة بحرية على سواحل هولندا.

لاحظ أورسوس أن توم – جيم – جاك لم يعد يأتي. وكان مشغول البال جداً لذلك. إن توم – جيم – جاك لم يكن قد عاد إل الظهور إطلاقاً منذ اليوم الذي انطلق فيه في العربة الفاخرة نفسها التي انطلقت فيها السيدة ذات الربعيّة الذهبية. ومن المؤكد أن هذا المدعو توم – جيم – جاك الذي كان يختطفُ الدّوقات بذراعين مفتوحتين هولغز! فأيُّ تقصٍّ مثيرٍ للاهتمام ينبغي القيام به! وأية أسئلة يتعين طرحها؟ وأية أشياء يجب أن تقال! هذا هو السبب في أن أورسوس لم يقلْ كلمة.

إن أورسوس الذي كان قد خبر الحياة، كان يعلم أيّة ضروبٍ من الاكتواء تسببّها ألوانُ الفضول المتهوّرة. إن الفضول ينبغي أن يكون دائماً متناسباً مع الفضولي.

فإذا ما أصغى المرء. يخاطرُ بأذنه، وإذا ما رصد يخاطرُ بعينه. وألا يسمع المرء شيئاً، وألا يرى شيئاً أمرٌ حصيف. كان توم – جيم – جاك قد صعد إلى تلك العربة الفاخرة الأميرية، وكان صاحبُ النزل شاهداً على ذلك الصمود. إن ذلك البحار الذي جلس إلى جانب تلك السيدة الراقية (الليدي) كان له مظهرٌ كائنٍ خارقٍ قد جعل أورسوس متحفّظاً. إن نزواتِ حياة المجتمع العالي ينبغي أن يقدّسها أناس الحضيض. إن كلّ هؤلاء الزواحف الذين نسميهم الفقراء ليس لديهم شيء أفضل من أن يلبدوا في جحرهم حين يلحظون شيئاً يفوق المعتاد، إن بقاء المرء ساكناً هو قوة. فأغلقْ عينيك، إن لم تتوفرْ لك سعادةُ أن تكون أعمى، وسدَّ أذنيك، إذا لم يحالفْك الحظُّ في أن تكون أصماً، وعطّلْ لسانك إذا لم يكن لديك الكمال في أن تكون أخرسا. إن الكبار هم ما يريدون أن يكونوا، والصغار هم ما يستطيعون، فلندعِ المجهولَ يمرّ. ولا نضايقهن قصصَ الأساطير، ولا نزعجهنّ المظاهر؛ ولنحترمْ المتظاهرين بعمق. ولا نوجهنّ ذمّنا للناس نحو التصغيرات أو التضخيمات التي تجري في المناطق العليا لدواعٍ نجهلها.

إنها في معظم الأوقات تافهةٌ بالنسبة إلينا، وأوهامٌ بصريّة. إن التّحولات هي شأنُ الآلهة؛ فتبدلاتٌ وتفكّكاتُ الشّخصيات الكبيرة المحتملة، والتي تعوم فوقنا هي غيومٌ يتعذّر فهمُها، ودراستُها محفوفةٌ بالمخاطر. إن الانتباه المفرط يفرغ صبرَ الأولمبيين في جولاتهم من أجل التسلية والنزوة، ويمكن لقصفة رعد فعلاً أن تعلمك أن هذا الثور الذي عاينته بصورة فضولية أكثر مما ينبغي هو جوبيتر. ولا نشقّنّ قليلاً ثنياتِ المعطف الذي هو بلون سورِ المقتدرين الرهيبين. إن عدم الاكتراث هو العقل. لا تتحرّكْ إطلاقاً، فهذا أكثرُ سلامةً. تظاهرْ بالموت، فلا يقتلوك فهذه هي حكمةُ الحشرة. وكان أورسوس يمارسها.

أما صاحبُ النزل الذي انشغل باله، من ناحيته، فقد استفهم ذات يوم من أورسوس قائلاً: "هل تعلم أننا لم نعد نرى توم – جيم – جاك؟

فقال أورسوس:

– عجباً، لم أكن قد لاحظت ذلك".

أبدى السيد نيكليس ملاحظةً بصوتٍ خفيض، وهي بلا شك ملاحظةٌ حول التجاور الصادم في العربة الفاخرة الدوقية مع توم - جيم - جاك، وهي ملاحظة تفتقر ربما إلى الاحترام وخطرة، وقد غنّي أورسوس بألايسمعها.

مع ذلك؛ فقد كان أورسوس أكثر حذاقة من ألا يأسف على توم - جيم - جاك. لقد أُصيب بشيء من خيبةِ الأمل، ولم يشركْ أحداً بانطباعه إلا أومو، الذي هو المؤتمن الوحيد الذي يثق به على الكتمان فقال في أذن الذئب همساً:

"منذ أن كف توم - جيم - جاك - عن المجيء، أحسّ بفراغٍ كإنسان وبالبرد كشاعر".

لقد خففّ هذا البوحُ إلى قلب صديق عن أورسوس.

بقي مغلقاً بمواجهة غوينبلين الذي، من ناحيته لم يشرْ أيّةَ إشارةٍ إلى توم - جيم، - جاك.

وفي حقيقة الأمر، فإن توم - جيم - جاك قلّما كان يهمُّ بكثيرٍ أو قليل غوينبلين الذي كان مشغوفاً بديا.

أخذ النسيان يفعل فعله أكثر فأكثر في ذهن غوينبلين. أما ديا، فلم يكن لديها شك حتى بأن اهتزازاً قد حصل. وفي الوقت نفسه، لم يعدْ أحدٌ يتكلم عن مؤامرات وعن شكاوى ضد الرجل الضاحك، وكان يبدو أن الأحقاد قد تراخت. كان كلّ شيء قد هدأ في العلبة - الخضراء، وحول العلبة الخضراء. فلم يعد هناك تظارفٌ تمثيلي، ولا ممثلون متظارفون، ولا كهنة، لم يعد هناك زجرٌ خارجيٌ. كان هناك نجاح من غير تهديد. إن القدر يحمل مثل هذه الألوان من الصفاء المفاجئ. كانت غبطةُ غوينبلين وديا البهية، في تلك اللحظة، بلا قلق إطلاقاً. لقد صعدت رويداً رويداً إلى تلك النقطة التي لا يمكن لشيء أن يزداد فيها، وثمة كلمة تعبر عن مثل تلك الأوضاع، وهي الأوج. إن السّعادةَ، كالبحر، تصل إلى امتلائها. وما هو مقلقٌ بالنسبة للسعيد سعادةً تامة، هو أن البحر ينزل بعد صعود.

هناك طريقتان لكي يكون المرء منيعاً، وهما أن يكون عالياً جداً ومنخفضاً جداً (191) والطريقة الثانية مرغوبة على الأقل بقدر الطريقة الأولى. إن الخلية المجهرية تُفلت من السحق بصورةٍ مؤكدةٍ أكثر مما يفلتُ النَّسر من السَّهم. إن أمانَ الصِّغر هذا، كما سبق أن قلنا، إن كان متوفراً لأحدٍ على الأرض، فهو لهذين الكائنين، غوينبلين وديا. ولكنه لم يكن قط أماناً على تلك الدرجة من الكمال. كانا يعيشان أكثر فأكثر كلٌّ منهما من أجل الآخر، وكلٌّ منهما من خلال الآخر بصورةٍ انتشائية. إن القلب يشبعُ بالحبِّ، كما يشبع بملحٍ إلهي يحافظُ عليه.

ومن هنا يأتي التصاقٌ لا يمكن إفساده بين أولئك الذين تحابّوا منذ فجر حياتهم، وتأتي نضارة الغراميات القديمة الطّويلة الأمد. ثمة تحنيطٌ للحب. ومن دافني وكلوويه[*] إنما صُنع فيلمون وبوسي[**]. إن تلك الشيخوخة التي هي تشابهٌ بين المساء والفجر قد كانت بطبيعة الحال محفوظةً لغوينبلين وديا، وبالانتظار، فقد كانا شابين.

كان أورسوس ينظر إلى ذلك الحب مثلما يقوم طبيبٌ بطبّه التّطبيقي. وفوق ذلك، فقد كانت لديه ما كان يسمى في ذلك الزمن بـــ "النظرة الإيبوقراطية". كان يثبت حدقته البصيرة على ديا، الواهية والشاحبة، ويدمدم: "من حسنِ الحظّ فعلاً أن تكون سعيدة!". وأحياناً كان يقول: "إنها سعيدة قياساً إلى صحتها".

كان يهز رأسه، ويقرأ بانتباه أحياناً ابن سينا الذي ترجمه فوسبيسكوس فورتوناتوس، في طبعة لوفان، للعام /١٦٥٠/، وهذا كتاب كان يمتلكه، وذلك في موضع "الاضطرابات القلبية".

(*) رواية رعوية تنسب إلى الإغريقي لونغوس (بين القرنين الثالث والرابع والميلاديـين) (م: ز.ع).

(**) زوجان أسطوريان نجيا من الطوفان لاستقبالهما زوس وهيرمس، وهما رمز الحب الزوجي (م: ز.ع).

أما ديا، التي كانت تتعب بسهولة، فقد كانت تُصابُ بحالاتٍ من التعرّق والهمود، وتستريح في قيلولتها أثناء النهار، كما نتذكّر، وذات مرةٍ فيما كانت نائمة، وهي مستلقيةٌ على جلد الدب، حيث لم يكن غوينبلين موجوداً، انحنى أورسوس بهدوء، وطبّق أذنه على صدر ديا، من ناحية القلب. وبدا أنه يصغي لبضع لحظات، وحين اعتدل في وضعيته، همس قائلاً: "لا ينبغي أن تتعرّض لهزّة، فقد يتوسّعُ الصّدَعُ سريعاً جداً".

كان الجمهور يواصل التدفق على عروض العماء المهزوم. وكان يبدو نجاحُ الرجل الضاحك نجاحاً لا ينضب. كان الجميع يهرعون، ولم تعد ساوثويرك وحدها، وإنما قد أصبحت لندن تهرع بعض الشيء إلى هناك. وبدأ الجمهور يصبح مختلطاً حتى. ولم يعد يتألّف من بحارة وحونيين صرفين. وفي رأي السيد نيكليس، الذي كان خبيراً بالسوقة ؛ فقد كان هناك الآن، بين تلك الدهماء، سادةٌ مهذبون، وبارونتات(*) متنكرون بهيئةِ أناسٍ من الشعب. إن التنكّرُ هو إحدى مباهج الزّهو، وكان الدُّرْجةَ الكبرى في ذلك الزّمن. كانت تلك الأرستقراطيّة المختلطة بالدّهماء (192) مؤشّراً جيداً، وتدلُّ على توسّعٍ في النّجاحات يصل إلى لندن. كان مجدُ غوينبلين بالتأكيد قد ولج إلى الجمهور الرّفيع الشأن. وقد أصبح هذا الحدثُ واقعيّاً؛ فلم يعد يدورُ الحديث في لندن إلاّ على الرّجل الضّاحك. وكان يجري الحديثُ عنه حتى في موندوك – كلوب، الذي يتردّد إليه اللّوردات.

في العلبة – الخضراء، لم تكن هناك مبالاة بذلك، وكانوا يكتفون بأن يكونوا سعداء. وكان انتشاءُ ديا في أن تلمس كلَّ مساء الجبينَ الجعدَ والأصهب لغوينبلين. وما من شيء يشبه الحبَّ كالعادة إن الحياة بأكملها تتركّز فيه. وظهورُ الكوكب مجدّداً هو عادةٌ للكون. إن الخليقة ليست شيئاً آخر سوى عاشقة، والشّمس عشيق(**).

(*) رتبة تقع بين البارون والفارس (م: ز.ع).

(**) الشمس : le soleil بالفرنسية اسم مذكّر. (م: ز.ع).

أما النّور فهو تمثالُ امرأة(*) باهرة تحمل العالم. وفي كلّ يوم، وأثناء لحظةٍ سامية، فإن الأرضَ المغطاة بالليل تستند إلى الشمس المشرقة. أما ديا، العمياء، فقد كانت تشعرُ بدخولِ الحرارةِ والرّجاءِ نفسهِ إليها في اللحظة التي تضع فيها يدها على رأس غوينبلين.

إذا ما كان هناك كئيبان صامتان وكلٌ منهما مفتونٌ بالآخر، ومتحابّان في كمال الصّمت، فلسوف يرتضيان لنفسيهما الأبديّة التي يمضيانها على هذا النّحو.

ذات مساء، كان غوينبلين، الذي يحمل في ذاته هذا الإبهاظَ من الغبطة التي تسبّب نوعاً من الضّيق الإلهي الشّبيه بنشوة العطور، كان يتجوّل، مثلما كان يفعلُ عادةً بعد انتهاء العرض، في المرج، على مسافة مئة خطوةٍ من العلبة – الخضراء. ويكون للمرء مثل هذه السّاعات من الانشراح التي يُفرغُ فيها فيضَ قلبه.

كان الليل أسودَ وشفافاً؛ وكانت النجومُ مضيئةً. وكان كلٌّ ميدانِ المعرض خالياً. ولم يكن هناك إلاّ النوم والنسيان في التخشيبات المبعثرة حول تارينزو – فيلد.

كان هناك ضوءٌ واحد غير مطفأ؛ وقد كان مصباح نزلِ تادكاستر الذي كان منفرجاً قليلاً، وينتظر دخول غوينبلين.

دقّت منذ قليل أجراسُ منتصف الليل في خورنيات ساوثويرك مع تقطّعاتِ الأصوات واختلافاتها من قبّة جرسٍ لأخرى.

كان غوينبلين يفكر بديا. فبم كان يمكن أن يفكّر؟ غير أنه في ذلك المساء، المشّوش على نحوٍ فريد، والمفعم بسحر فيه قلق، كان يفكر بديا مثلما يفكّر رجلٌ بامرأة. وكان يأخذ ذلك على نفسه. فقد كان ذلك نقصاناً. إن هجومَ الزوج الخفي قد بدأ في ذاته. إنها لهفةٌ رقيقةٌ وقهرية. كان يجتاز الحدَّ غير المنظور؛ فمن هذه الجهة هناك العذراء، ومن ورائها، هناك المرأة. لقد كان يتساءل بقلق؛ فقد أصابه ما يمكن أن يُدعى بالخجل الداخلي.

(*) تمثال على شكل امرأة يتّخذ بدلاً من عمود في مبنى. (م: ز. ع).

إن غوينبلين السنوات الأولى كان قد تحولّ قليلاً قليلاً من خلال لا وعي نموٍّ غامض. كان اليافعُ السابقُ المحتشمُ يشعر أنه قد أصبح مبلبلاً ومُقلقاً. لدينا أُذن النور التي يتكلم فيها العقل، وأُذن الظلمة التي تتكلم فيها الغريزة. في هذه الأُذن المبكرة هناك أصواتٌ مجهولة تقدم له عروضاً. ومهما كان الفتى الذي يحلم بالحب طاهراً، فإن تكثفاً معيناً للجسد ينتهي دوماً بأن يتوسّط بين حلمه وبينه. وتفقد النوايا شفافيتها. ويجري دخولٌ ما لا يُعترَفُ به، والذي تريدُه الطبيعةُ إلى الإدراك.

إن غوينبلين كان يحس باشتهاءٍ غيرِ محدَّد لتلك المادة التي تكمن فيها كافة الإغراءات والتي تفتقر إليها ديا تقريباً. وفي حمياه التي كانت تبدو له غير سليمة، كان يغيِّر مجرى ديا، من الناحية المحفوفة بالمخاطر ربما، وكان يحاول أن يبالغ في ذلك الشكل الملائكي وصولاً إلى الشكل النسائي. فإليك إنما نحتاجُ، أيتها المرأة.

إن قدراً فائضاً من النّعيم يجعلُ الحبُّ يصل منه إلى عدم الرغبة فيه. فيلزمه الجلدُ المحمومُ، والحياةُ المنفعلة، والقبلةُ المكهربة والتي لا إصلاح لها، والشعرُ المحلول، والعناقُ الذي له غايته. إن الكوكبيّ يضايق. والأثيريّ يزعج. إن المزيدَ المفرطَ من السماء في الحبِّ، هو القدرُ المفرطُ من الوقود في النار، وتتأثرّ شعلتُه منه. فأن تكون ديا في متناوله وأن يمسك بها، والاقتراب المدوخ الذي يمزج في كائنين ما هو خفيٌ في الخليقة،ذلك كابوسٌ لذيذ قد وقع لغوينبلين المدله. امرأة! كان يسمع في داخله صيحةَ الطبيعة العميقة هذه. وشأن بيغماليون الحلم الذي يشكل غالاتيا من اللازورد(*)، كان يجري بصدورة متهورة، وفي أعماق نفسه، لمسات على خطوط جسم ديا الطاهر، وهي الخطوطُ المفرطةُ في ملائكيتّها، والتي ليست فردوسيّة بما يكفي. لأن عدن، هي حواءُ، وحواء قد كانت أنثى، وأمّاً جسديّة، ومرضعةً أرضيةً والبطنَ المقدسَ للأجيال، وثدي الحليب الذي لا ينضب، ومهدهدةَ

(*) بيغماليون نحات أسطوري من قبرص، شغف بتمثال غالاتيا وقد وافقت أفروديت أن تبثّ فيه الحياة، فتزوج غالاتيا. (م: ز. ع).

العالم الوليد، فالثّديُ يقصي الأجنحة. ليست البتولةُ إلا رجاء الأمومة. ومع ذلك، ففي أوهام غوينبلين الخادعة، كانت ديا حتّى ذلك الحين فوق الجسد. وفي تلك اللحظة التي تاه فيها، كان يحاول في تفكيرِه أن يجعلها تنزل منه مجدداً، وكان يشدّ ذلك الخيط الجنسيّ، الذي يجعل كلَّ فتاةٍ مرتبطةً بالأرض. وما من طيرٍ من هذه الطيور قد أفلت.

ولم تكن ديا، أكثر من أية فتاة أخرى. خارج القانون. أما غوينبلين، في الوقت الذي لا يعترف فيه بذلك إلا جزئياً؛ فقد كانت لديه الرغبةُ الغامضةُ في أن تخضع لهذا القانون. كانت لديه تلك الرغبةُ بالرغم منه، وبمعاودةٍ مستمرة. كان يتصوّرُ ديا بشريةً. وقد توصل إلى أن يتخيل عنها فكرةً خارقةً. إن ديا مخلوقة ليس من النّشوة فحسب، بل من اللذة. لأن رأسَ ديا في وضع حميميّ. لقد كان يخجلُ من هذا التّعدي الرؤيوي، كان ذلك أشبه ما يكون بعملٍ تدنيسي؛ لقد كان يقاوم هذا الاستحواذ، وكان يحيدُ عنه، ثم يعودُ إليه. وكان يبدو له أنه يرتكب اعتداءً على الحشمة. وكانت ديا بالنسبة إليه غيمة. وكان يبعدُ، وهو يرتعشُ هذه الغيمة، وكأنه يرفع قميصاً. كان ذلك في نيسان.

إن للعمود الفقري أحلامَ يقظته.

كان يخطو خطواتٍ بلا تبصّر، وهو يترجّح ذلك الترجّح الذاهل الذي يحس به المرء في وحدته. فألاّ يكون حول المرء أحدٌ، هو أمرٌ يعينه على أن يشرد. فإلى أين كان يمضي فكرُه؟لم يكن يجرؤ على أن يقول ذلك لنفسه. إلى السماء؟ كلا. إلى سرير. وكنت تنظرين إليه، أيتها الكواكب.

لماذا يُقال عاشق؟ لعله ينبغي أن يُقال مُستحوذٌ عليه. فأن يكون المرءُ مستحوذاً عليه من الشيطان، ذلك هو الاستثناء. أما أن يكون مستحوذاً عليه من المرأة، فتلك هي القاعدة. إن كلَّ رجلٍ يكابر هذا الاستلاب لذاته. فأية ساحرةٍ هي المرأة الجميلة! إن الاسم الحقيقيَّ للحب هو الأسر.

يجعل المرء نفسه أسيراً لروحِ امرأة، ولجسدها أيضاً. وأحياناً يكون أسيراً للجسد أكثر مما هو أسير للروح. الرّوحُ هي العاشقة، والجسدُ هو العشيقة.

يجري الافتراءُ على الشيطان. فليس هو الذي أغوى حواء؛ فحواء هي التي أغوته.

فالمرأة هي التي بدأت.

كان لوسيفير يمرّ مطمئناً، فلمحَ المرأة، وأصبح الشيطان.

إن الجسد هو غطاءُ الخفيّ. إنه يستفز عن طريق الحشمة، وهذا شيء غريب، فلا شيء أكثر إثارة للاضطراب، إنه يخجل، هذا السّفيه.

في تلك اللحظة، إن ما كان يثير غوينبلين، وما كان يسيطر عليه إنما هو حبُّ السطح المرعب. إنها لحظةٌ رهيبة تلك اللحظة التي يريد المرء فيها العري. إن انزلاقاً إلى الخطيئة ممكن. فما أكثرَ الظلّمات في ذلك البياض، بياض فينوس!

إن شيئاً في غوينبلين ينادي ديا بصرخاتٍ كبيرة، ديا الفتاة. ديا التي هي نصفُ رجل، ديا الجسد والتدلّه، وديا الجيدِ العاري، لقد كان يطارد الملاك تقريباً.

إنها أزمة خفية يجتازها كلُّ حبّ، والمثاليُّ فيها في خطر. إن هذا هو التحضير المسبق للخلق.

ولحظةُ فسادٍ ملائكية.

لقد أخذ حبُّ غوينبلين لديا يصبح زواجياً. فليس الحبُّ البتوليّ إلا مرحلةً انتقالية. ولقد حان الوقت؛ وأصبحت هذه المرأة تلزمُ غوينبلين.

كانت تلزمه امرأة.

إنه منعطف لا يرى المرءُ منه إلاّ المستوى الأوّل.

إن نداءَ الطّبيعة الغامض لا يرحم.

المرأةُ كلّها، أيّة لجّه!

لحسن الحظّ، لم تكن هناك، بالنّسبة لغوينبلين، أيّة امرأة أخرى غير ديا. إنها الوحيدة التي أرادها. والوحيدةُ التي أمكنها أن ترغبَ فيه.

لقد كانت تعتري غوينبلين تلك الرّعشةُ الكبيرةُ المبهمةُ والتي هي الالتماس الحيويّ للانهائي.

أضفْ إلى ذلك التفاقمُ الذي يسبّبه الرّبيع. فلقد كان يمتصُ ضروبَ الدّفق التي لا اسم لها، دفقَ العتمة الكوكبيّة. وكان يسيرُ على خطٍّ مستقيم، وهو زائغ النظرة بصورةٍ عذبة. إن العطورَ المتجوّلة للنسغ الذي يعمل عمله، والإشعاعات المدوّخةُ التي تطفو في الظّلمة، وتفتّحَ الأزهار الليليّةِ القصيّ، وتواطؤَ الأعشاش الصّغيرة المختبئة، وخريرَ المياه وحفيفَ الأوراق، والتّنهداتِ التي تخرج من الأشياء، والنّداوةَ، والدّفءَ، وكلّ ذلك الاستيقاظ الخفيّ لنيسان وأيّار، هذا هو الجنسُ الهائلُ الاتّساع والمنتشر والذي يعرضُ بصوتٍ خافت اللذةَ التي هي تحريضٌ مدوّخٌ يجعلُ الرّوح تتغنّج.

إن المثاليّ لم يعد يدري ما يقول.

إن من كان يمكن له أن يرى غوينبلين يمشي، كان يمكن أن يظنّ قائلاً:

عجباً! هذا سكّير!

كان يتمايلُ في الحقيقة تقريباً تحت ثقلِ قلبه، وثقلِ الرّبيع والليل.

كان الانعزالُ في ملعبِ البولينغ هادئاً إلى درجةٍ كبيرة بحيث أنه كان يتكلّم أحياناً بصوت عالٍ.

أن يشعرَ المرء بأن لا أحد يتسمّعُ عليه يجعله يتكلّم.

كان يتجوّل بخطىً بطيئة، ورأسُه مخفضٌ، ويداه خلفَ ظهره، ويده اليسرى في يده اليمنى، وأصابعه مفتوحة.

فجأة شعر بما يشبه انزلاق شيء من انفراج أصابعه الساكن.

فاستدار سريعاً.

لقد كانت في يده ورقة، وأمامه رجل.

كان ذلك هو الرجل الذي أتى إليه من الخلف بحذر قِطّ، والذي وضع له تلك الورقة بين أصابعه.

كانت الورقةُ رسالة.

أما الرجلُ الذي كان ينيِّره بشكل كافٍ الغبشُ الكوكبيّ فقد كان قصير القامة، وممتلئ الوجه، وشاباً، ورصيناً، ويرتدي خلعةً بلونٍ ناريّ، ويراها المرء من الأعلى إلى الأسفل من خلال الشقّ العمودي لثوبٍ فوقاني رمادي، وكانوا يسمونه حينذاك كابنوش، وهي كلمة إسبانية مدغمة وتعني دثار الليل. وكان يعتمر قبعةً بندقيةً(*) قرمزيةَ اللون، وشبيهةً بقلنسوة كاردينال تؤكّدُ شريطةٌ فيها على الخدمة المنزلية. وعلى تلك القلنسوة، كان المرء يلمح ضمّة من ريش طير النساج.

كان لا يُبدي حراكاً أمام غوينبلين، فيظنّه المرء شبحاً في حلم.

تعّرف غوينبلين فيه تابعَ الدوقة.

وقبل أن يكون بإمكان غوينبلين أن يطلق صرخة دهشة، سمع الصّوتَ الضعيفَ، والطّفولي والأنثوي في آن، صوت التابع الذي كان يقول له:

"لتكن موجوداً غداً، في مثل هذه الساعة، عند مدخل جسر لندن، فسأكون هناك، وأقودك.

فسأل غوينبلين:

إلى أين؟

– حيث ينتظرونك"

خفض غوينبلين عينيه على الرسالة التي كان يمسك بها في يده بصورةٍ آلية، وعندما رفعهما، لم يعد التابعُ موجوداً هناك.

كان المرء يميز في عمق ميدان المعرض شكلاً مبهماً وقاتماً يتضاءلُ بسرعة.

وكان ذلك هو الخادم القصير الذي يمضي. لقد انعطف من إحدى زوايا الطرق، ولم يعد هناك أحد.

(*) غورا: gorra قبعة حريرية. مستوردة من البندقية في بداية القرن التاسع عشر. (م: ز.ع)

نظر غوينبلين إلى التابع وهو يتوارى، ثم نظر إلى الرسالة، إن هناك لحظاتٍ في الحياة، ما يحدث لك فيها لا يحدث لك؛ فالذهولُ يبقيك لبعض الوقت على مسافةٍ معينةٍ من الحدث. لقد قرّب غوينبلين الرسالة من عينه مثل شخصٍ يريدُ أن يقرأ، فتبين له حينئذ أنه ليس بإمكانه أن يقرأها لسببين: أولاً، لأنه لم يكن قد فضّها، وثانياً، لأن الظلام قد كان مهيمناً. ومضت دقائقُ قبل أن ينتبه إلى أن هناك مصباحاً في النزل. لقد خطا بضع خطوات، ولكن باتجاهٍ جانبيٍّ، وكأنه لم يكن يعرف إلى أين يذهب. إن مصاباً بالنّوام قد سلّمه شبحٌ رسالةً يسير على ذلك النحو.

حزم أمره أخيراً، وتقدم نحو النزل، أو هرع إليه على الأصح، وتمركز في فرجة الباب المشقوق جزئياً، وتأمل الرّسالة المغلقة، في ذلك الضياء، مرة أخرى أيضاً. لم تكن ترى أيّةُ علامةٍ على الختم، وعلى المغلف. بسط الرسالة ووضعها بكاملها تحت الضوء، وها كم ما قرأ:

"إنك قبيحٌ وأنا جميلة. أنت مشعبذٌ، وأنا دوقة. أنا الأولى وأنت الأخير. إني أريدك. إني أحبك، تعال".

الكتاب الرابع

القبو العقابي

I

تجربة

القديس غوينبلين

هذه دفقةٌ لهبٍ، لا تكاد تلسع الظلمات، وتلك دفقةٌ أخرى تشعل النار في بركان.

إن هناك شراراتٍ هائلة.

لقد قرأ غوينبلين الرسالة، ثم قرأها من جديد. وكانت فيها فعلاً هذه الكلمة: أحبك!

كانت ضروبُ الرعب تتتالى في ذهنه. وكان أولها هو أن يظنّ نفسه مجنوناً.

لقد كان مجنوناً. هذا مؤكد.فما رآه للتو لم يكن موجوداً. وكانت الصّورُ الخيالية الشفقيّة تتلاعبُ به هو المسكين. كان الرّجلُ القصيرُ القرمزي ضوءاً لرؤيا. وأحياناً في الليل، يأتي ليسخر منك شيءٌ تافهٌ يتكثّفُ، على شكلِ لهب. فبعد أن هزأ الكائنُ الوهميُّ، توارى، تاركاً خلفه غوينبلين مجنوناً. إن العتمةَ تصنعُ أشياء من هذه الشّاكلة.

والرعبُ الثّاني هو أن يتبّين أنه يمتلك كامل عقله.

أهذه رؤيا؟ لا. عجباً! وهذه الرسالة؟ ألم تكن هناك رسالةٌ بين يديه. أليس هذا مغلّفاً، وختماً، وورقاً، وكتابة؟ ألا يعلمُ ممن يأتي هذا؟ ما من شيءٍ غامضٍ في هذه المغامرة. لقد جرى الإمساكُ بريشةٍ وبشيء من الحبر، وكتب

بهما، لقد أُشعلت شمعةٌ، وخُتمت الرسالة بالشّمع. أليس اسْمه مكتوباً على الرسالة؟ إلى غوينبلين. إن للورق رائحةً زكية. وكلٌ شيء واضح. أما الرجلُ القصير القامة. فإن غوينبلين يعرفه. إن هذا القزمَ وصيفٌ. وهذا الضوء هو خلعة خادم. وقد ضرب الوصيف موعداً لغوينبلين في اليوم التالي، في السّاعة نفسها، عند مدخل جسر لندن. وجسر لندن، هل هو وهم؟ لا، لا. إن كل ذلك يصدّق؛ فليس في الأمر أيٌ هذيان. كلٌ شيء واقعيٌ. إن غوينبلين ذو ذهنٍ صافٍ تماماً. وليس هذا استشباحاً يتفكّكُ فوق رأسه، ويتبدد متلاشياً. إنه أمرٌ يحدثُ له. لا، إن غوينبلين ليس مجنوناً، وغوينبلين لا يحلم في يقظته، أخذ يُعيد قراءة الرسالة.

حسناً، أجل، وإذن؟

إذن، إن الأمر هائل.

هناك امرأةٌ تريده.

امرأة تريده! في هذه الحالة، لا يلفظن أحدٌ بعد ذلك قطٌ هذه الكلمة: غير معقول. هناك امرأة تريده! امرأة قد رأت وجهه! امرأة ليست عمياء! ومن هي هذه المرأة؟ امرأة قبيحة؟ لا. بل جميلة. غجرية؟ لا. بل دوقة.

ماذا كان في ذلك الأمر، وماذا كان يعني ذلك؟ أيٌ خطرٍ هو هذا الانتصار! وكيف لا يندفع إليه بلا تفكير؟

ماذا؟ هذه المرأة! الفاتنة، التجلّي، السيدة الراقية، مشاهدة الشرفة الرؤيوية، الباهرة الغامضة والصّامتة! لأن هذه كانت هي. كانت فعلاً هي.

أخذت فرقعةُ الحريق المبتدئ تتفجّر فيه من كلّ ناحية. وكان ذلك هو تلك الغريبة المجهولة! وهي ذاتها التي أشعرته بالكثيرِ من الاضطراب! وعادت إلى الظهور أفكارُه الأولى الضاجّة حول تلك المرأة، وكأنها قد حُميت بكلّ تلك النار القاتمة. ليس النسيانُ شيئاً آخر سوى رقٍ أعيدت الكتابةُ عليه. فليطرأ فجأةً حادثٌ ما، وتنبعثُ كلُ الأشياء الممسوحة فيما بين سطور الذاكرة الدّهشةَ. كان غوينبلين يظن أنه قد سحب تلك الصورة من ذهنه، ووجدها فيه

مجدداً، وقد انطبعت فيه، وأحدثت فجوتُها في ذلك الدماغ غير الواعي، والمذنب بتشكيل حلم. وبلا علم منه، كان النقش العميق لأحلامِ اليقظة قد نفذ إلى مكان جدّ متقدم. والآن قد حدث ضررٌ معين.

وأحلام اليقظة هذه كلّها، التي ربما أصبحت منذ الآن عصيةً على الإصلاح، قد استعادها باندفاع.

ماذا! كانوا يريدونه! ماذا! كان الأميرةُ تنزل عن عرشها، والمعبودةُ عن مذبحها، والتمثالُ عن قاعدته، والطيف عن سحابته! ماذا! من أعماق المستحيل، كان الوهم الكاذب يأتي! ماذا! إلهة السّقفِ الأسطورية هذه، ماذا! هذا السّطوع المشعّ! ماذا! هذه العروسُ البحريّة المغطّسة تماماً بالأحجار الكريمة ماذا! تلك الحسناءُ التي لا تُقربُ والعاليةُ الشأن، من أعلى انحدار أشعتها، كانت تنحني نحو غوينبلين! ماذا! عربتها الفجّرية المكدونة بالترغلاّت والتنانين، كانت تتوقف فوق غوينبلين، وتقول لغوينبلين: تعال! ماذا! هو، غوينبلين، قد حاز على المجد المرعب بأن يكون موضوعَ نزولٍ من الأعالي لموطن الآلهة!

هذه المرأة، إذا أمكننا أن نطلق هذا الاسم على شكلٍ كوكبي وسني، هذه المرأة كانت تعرضُ نفسها، وتمنحُ نفسها، وتسلم نفسها. يا للدّوار! كانت سماء الآلهة تتعهّر! لمن؟ له، غوينبلين! كانت ذراعا غانيةٍ تُفتحان من خلال هالةٍ لتضماه إلى صدر إلهة! وذلك من غير تدنيس. إن تلك الجلالات لا تلطّخ بالسواد. إن النور يغسل الآلهة. وهذه الإلهة التي كانت تأتي إليه تدري ماذا كانت تفعل. لم تكن جاهلةً بالقباحة المتجسّدة في غوينبلين. كانت قد رأت ذلك القناع الذي هو وجه غوينبلين! وهذا القناع لم يكن يجعلها تتراجع. فقد كان غوينبلين محبوباً برغم ذلك!.

إنه أمر كان يتخطّى كلّ الأحلام، فلقد كان محبوباً لأنه! وعلى العكس من أن يجعل الكونتيسة تتراجع، فقد كان ذلك القناعُ يجذبُها! كان غوينبلين

أكثرَ من محبوب. كان مشتهىً. وكان أفضل مما كان مقبولاً، كان مختاراً، هو، مختار!

ماذا! هناك حيث كانت تلك المرأة، في ذلك الوسط الملكي، وسط التألّق غير المسؤول، والاقتدار بكامل حرية الاختيار، كان هناك أمراء، وكان يمكنها أن تأخذ أميراً، وكان هناك لوردات، وكان يمكنها أن تأخذ لورداً. وكان هناك رجالٌ وسيمون، وساحرون، ورائعون، وكان يمكنها أن تأخذ أدونيس. فمن أخذت؟ غنافرون! (193) كان يمكنها أن تختار من بين النيازك والصواعق الملاك (السّاروفيم) الهائل ذا الأجنحة الستّة، وقد اختارت اليرقة الزاحفة في الوحل. فمن جهة، هناك أصحاب السمو، وأصحابُ السيادة، وكلّ العظمة، وكلّ الثراء، وكلّ المجد، ومن الجهة الأخرى، هناك، بهلوان. وكانت الغلبةُ للبهلوان! فأيّ ميزان كان هناك إذن في قلب تلك المرأة؟ وبأيّ عيارٍ كانت تزنُ حبّها؟ لقد كانت تلك المرأةُ تنزعُ عن جبينها القبّعة الدوقيّة، وتلقي بها إلى مسرح المهرّج! كانت تلك المرأة تنزعُ عن رأسها الهالةَ الأولمبيّة، وتضعُها على جمجمةِ العفريت المنتفشة! لا ندري أيّ انقلاب للعالم، فيغدو ازدحامُ الحشرات في الأعلى، وكوكباتُ النجومِ في الأسفل، قد كان يبتلعُ غوينبلين المضطربَ تحت انهيارِ النّور، ويجعلُ له هالةً في البالوعة. إن امرأةً ذات قدرةٍ كليّة، ومتمردةً على الجمال والبهاء، كانت تهبُ نفسها لمرذول، وتؤثر غوينبلين على أنتينووس(*)، وتدخل في نوبةٍ من الفضول قبالة الظلمات، وتنزل إليها، ومن خلال هذا التخلي، تخلي ربّة الجمال، كانت تخرج مملكةُ البائس، متوجةً وخارقة. "أنت قبيحٌ، وأحبّك" وكانت هذه الكلماتُ تصيب غوينبلين في موضع الزهوّ الكريه. إن الزّهو هو العقب الذي يمكن أن يُجرح فيه كل الأبطال.

لقد جرى إطراءُ غوينبلين في غروره كمسخ. وكان ذلك أنه قد أُحبّ لأنه مشوّه. فهو أيضاً، وبقدر أشباه جوبيتير وأبولون وربمّا أكثر، قد كان الاستثناء. كان يحسُّ أنه فائقٌ على البشر، وأنه مسخٌ إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيث يصبح إلهاً. إنه انبهارٌ مرعب.

(*) فتى إغريقي ذو وسامة كبيرة كان عبداً ومحظياً للأمبراطور أدريان (م: ز.ع).

والآن، ماذا كانت تلك المرأة؟ وماذا كان يعرفُ عنها؟ كلَّ شيء ولا شيء.

لقد كانت دوقةً، وهو يعلمُ ذلك؛ وكان يعلم أنّها جميلة، وأنها غنيّة، وأن لديها خلعات خدم، وخدماً، وغلماناً، وعدّاؤون يحملون مشاعل حول عربتها الفاخرة ذات التاج. وكان يعلم أنها مغرمةٌ به، أو أنها كانت تقول ذلك على الأقل. أما الباقي، فقد كان يجهلُه. كان يعرفُ لقبها، ولا يعرفُ اسمها. كان يعرف تفكيرَها، ولا يعرف حياتها. هل كانت متزوّجة، أم أرملة، أم فتاة؟ هل كانت غير مرتبطة؟ هل كانت تخضعُ لواجبات معيّنة؟ ولأية أسرةٍ كانت تنتمي؟ هل كانت حولها أفخاخ، ومكائد، وعقبات؟ أما عن التطرّف في المناطق العالية العاطلة عن العمل، وعن أنّ ثمة على هذه القمم مغائر تحلم فيها الفاتناتُ الضّاريات اللواتي تحيط بهن بلا نظام عظامُ موتى الحبّ التي سبق التهامها، وإلى أيّة تجاربَ بذيئةٍ مأسويةٍ يمكن أن يُفضي ضجرُ امرأةٍ تظن أنها فوق الرّجل، فإن غوينبلين لم يكن يرتابُ بشيء من ذلك. ولم يكن حتى في ذهنه ممّ يبني مخططاً لتخمينٍ معيّن، فالاستعلامُ عن الأمور سيّء في السّردابِ الاجتماعي الذي كان يعيشُ فيه. ومع ذلك، فقد كان يرى ظلمة. وكان يدركُ أن هذا الجلاءَ معتمٌ.

فهل كان يفهم؟ لا، هل كان يخمّن؟ أقلّ من ذلك أيضاً. ماذا كان وراء تلك الرّسالة؟

فتحةٌ ذات مصراعين، وفي الوقت ذاته إغلاقٌ مقلقٌ. فمن ناحية، هناك الاعتراف،ومن الناحية الأخرى، هناك اللّغز.

الاعتراف واللّغز، هذان الفمان، اللذان. أحدُهما محرِّضٌ، والآخر مهدِّد، يتلفّظان بالكلمة نفسها: تجرّأ!

لم يتخذْ عذرُ المصادفة قطّ تدابيره بشكل أفضل، ولم يوصل إغواءٌ إلى مكانه على نحو أكبر. إن غوينبلين الذي هزّه الرّبيع، وصعودُ النّسغ الكوني، كان يحلم في ذلك الوقت بالجسد. إن الرّجل العجوز غير القابل للغرق، والذي لا يتغلّب عليه أحدٌ منا، كان يستيقظ في ذلك المراهق المتأخّر، والذي بقي

يافعاً في الرابعة والعشرين من عمره. ففي تلك اللحظة، وفي الدقيقة الأكثر اضطراباً في تلك الأزمة، إنما قُدِّم العرضُ إليه، وانتصب أمامه، مُبهراً، الجيدُ العاري للمرأة الملغزة. إن الشباب مستوى مائل، وكان غوينبلين ينحني. وكان يُدفع دفعاً، ممن؟ من الفصل... وممن؟ من الليل. وممن؟ من تلك المرأة. لو لم يكن هناك شهرُ نيسان، لكان المرءُ فعلاً فاضلاً أكثر. إن أشجارَ الدَّغل المزهرة هي مجموعةٌ من الشركاء المتواطئين!

إن الحبُّ هو السارق، والربيعُ هو مخبئ المسروقات.

كان غوينبلين مبلبلاً.

إن للشر دخاناً معيناً يسبقُ الخطيئة، ولا يتنفّسه الضّمير، والنزاهةُ المجرّبة تصابُ بغثيان الجحيم الغامض. إن ما ينفرج يُطلق فوحاً يُنذرُ الأقوياء ويدوّخُ الضعفاء. وقد أصيب غوينبلين بذلك الانحراف الغامض في مزاجه.

إن معضلاتٍ، عابرةً وعنيدةً في آن، كانت تتردّد أمامه. الخطيئة، المصرّة على تقديمِ نفسها كانت تتشكّل. وفي اليوم التالي، عند منتصف الليل، على جسر لندن، الوصيف؟ هل يذهب؟ نعم! كان الجسدُ يصيح. ولا! كانت الرّوح تصيح.

ومع ذلك، فلنقلْ، مهما كان ذلك غريباً. للوهلة الأولى، فإن هذا السؤال - هل يذهب؟ - لم يوجهه إلى نفسه مرةً واحدة بصورةٍ واضحة.

إن الأفعال التي توجبُ اللوم لها مواضعُ مخصّصة. وشأن مشروبات ماء الحياة القوية أكثر مما ينبغي، لا يشربُها المرء جرعةً واحدة. يضعُ القدح. وينظر في الأمر بعد بذلك، فالقطرة الأولى قد سبق لها أن كانت غريبة حقاً.

ما هو مؤكّد، هو أنه كان يشعرُ بأنه مدفوعٌ من الخلف نحو المجهول.

وكان يرتعد. وقد كان يستشفُّ حافة انهيار. وكان يرتد إلى الوراء، وقد قبض عليه الذعر من كل ناحية. كان يغمض عينيه. ويبذل جهداً لينكر على نفسه هذه المغامرة، ولكي يبدأ مجدداً بالشك بعقله. كان ذلك هو الأفضل بدهياً.

فالأمر الأكثر تعقلاً الذي كان عليه أن يفعله، هو أن يظنّ نفسه مجنوناً.

إنها حمى قاتلة. وكل إنسانٍ بباغتُه غيرُ المتوقع يكون قد تعرّض في حياته لمثل هذه الترددات المأسوية. إن المراقبَ يصغي دوماً بقلق إلى دويِّ ضرباتِ كبشِ القدر القائمة على ضميره.

كان يتساءل، فوا أسفاه! وفي ذلك الموضع الذي يكون فيه الواجب جلياً. أن يطرح المرء أسئلة، فتلك هي الهزيمة مسبقاً.

فوق ذلك، هناك تفصيلٌ ينبغي ذكره؛ فإن سفاهةَ المغامرة التي يمكن أن تكون قد صدمت فاسداً لم تبدُ له إطلاقاً. لقد كان يجهلُ ما تعنيه الوقاحة. أما فكرة الدّعارة التي أشرنا إليها آنفاً فلم تكن قريبة منه. ولم يكن قادراً على تصورها.

لقد كان أكثر طهراً من أن يقبل بالافتراضات المعقدة. فمن تلك المرأة، لم يكن يرى إلا العظمة. واأسفاه! لقد تعرّض للإطراء. ولم يكن غرورُه يتبيّن إلا انتصاره.

أما أنه قد كان موضوعاً لعدمِ الحياء أكثر مما هو موضوعٌ لحبٍّ، فقد كان يلزمه، ليخمن ذلك قدرٌ من الفكر أكثر بكثير مما لديه من البراءة. وإلى جانب "أحبّك" لم يكن يلاحظ هذا التعبير التخفيفيّ المرعب. "أرغب فيك".

كان الجانبُ الحيوانيّ في إلهة الجمال يُفلت منه.

يمكن أن يخضع الفكرُ لغزوات. إن للروح همجييّها، وهي الأفكار السيئة التي تأتي لتدمرّ فضيلتنا. إن ألف فكرةٍ باتجاه معاكس كانت تندفع نحو غوينبلين، واحدةٌ بعد الأخرى، وأحياناً تندفع كلها معاً. ثم كانت تحدثُ في دخيلته فتراتٌ من الصّمت. حينذاك، كان يمسك رأسه بين يديه. بنوعٍ من الانتباه الحداديّ الذي يشبه تأمّلَ مشهدٍ لليل.

فجأة تبيّن شيئاً، وهو أنه لم يعدْ يفكّر. وكانت أحلامُ يقظته قد وصلت إلى تلك اللحظة السوداء التي يختفي فيها كلُّ شيء.

لاحظ أيضاً أنه لم يرجعْ إلى مسكنه، وكان يمكن أن تكون الساعة الثانية صباحاً. وضع الرسالة التي جلبها الوصيفُ في جيبه الجانبية، وإذْ لاحظ أنه كان قد وضعها في صدره، فقد نزعها من هناك، ودسّها وهي مدعوكةٌ تماماً في أول جيبٍ عرض له في سرواله، ثم توجّه نحو النّزل، ودلف إليه بصمت، ولم يوقظ كوفيكوم الصغير الذي كان ينتظره، وقد غلبه النعاس على إحدى الطاولات صانعاً من ذراعيه وسادةً له، وأغلق الباب مجدداً، وأشعل شمعةً في مصباح النزل، ورتّج المزالجَ، وأدار المفتاح دورةً في القفل، واتخذ بصورةٍ آلية احتياطاتِ رجلٍ يرجع متأخراً، وصعد من جديد درجَ العلية - الخضراء، وانسلّ إلى الكوخ القديم الذي كان يستخدمه كغرفة، ونظر إلى أورسوس الذي كان نائماً، وأطفأ شمعته ولم ينمْ.

مرّت ساعةٌ على هذا النحو، وإذ أحسّ بالإرهاق أخيراً، فقد تصوّر أن السرير هو النوّم، فوضع رأسه على وسادته، من غير أن ينزع ملابسه، وقدم للعتمة تنازلاً هو أن يغمض عينيه، غير أن عاصفة الانفعالات التي كانت تنقضّ عليه لم تنقطع للحظة واحدة. إن الأرقَ هو سوء معاملة الليل الواقعة على الإنسان.

كان غوينبلين يتألمّ كثيراً. وللمرة الأولى في حياته، لم يكن مسروراً من نفسه. إنه ألمٌ ضمني يختلط بغروره الذي أُرْضي. فما العمل؟ لقد طلع النهار. وسمع أورسوس وهو ينهض، ولمٍ يفتح أجفانه. وما من مهادنةٍ مع ذلك. لقد كان يفكر بتلك الرسالة. وكانت كلُ الكلمات تأتيه في نوعٍ منِ التشوش، وتحت بعض النفحات العنيفة من داخل الروح، يكون التفكير سائلاً، ويدخل في حالة تشنّجات، وينتفض، ويخرج منه شيء شبية بهديرِ الموج المكتوم. مدٌّ، وجزرٌ، واهتزازاتٌ، ودوراناتٌ، وتردّداتٌ للمياه أمامِ صخر البحر، زخّاتُ بردٍ وأمطار، وغيومٌ بينها فرجاتٌ هي أضواء، ونتفٌ بائسةٌ من زبدٍ لا فائدة منه، وصعوداتٌ مجنونةٌ سريعاً ما تنهار، وجهودٌ هائلة ضائعة، وظهور للغرق من كل ناحية، عتمةٌ وتشتّت، كل ذاك، والذي هو موجود في اللجّة، موجود في الإنسان. قد كان غوينبلين فريسة لذلك الاضطراب.

في أعلى درجةٍ من هذا القلق، سمع، وهو مغمضٌ الأجفان صوتاً عذباً يقول: 'هل أنت نائم، يا غوينبلين؟' فتح عينيه مذعوراً، ونهض على قفاه، وكان بابُ حجرةِ الثياب مشقوقاً. وكانت ديا تظهر من خلال الفرجة. وكان في عينيها وعلى شفتيها ابتسامة تفوق الوصف. كانت تنتصب ساحرةً، في الصفاء غير الواعي لإشراقها. وكان هناك نوعٌ من دقيقةٍ مقدسة. فتأملها غوينبلين مرتعشاً، ومبهوراً ومستيقظاً. مستيقظاً من ماذا؟ من النوم؟ لا، من الأرق. لقد كانت هي، كانت ديا، وفجأة، أحسَّ في أعمقِ كيانه تلاشي العاصفة الذي يتعذّرُ تحديدُه، والانقضاضَ السامي للخير على الشر، ومعجزةَ النظرةِ الآتية من الأعلى قد حدثت، فالعمياءُ الرقيقة الساطعة، ومن غير أي جهدٍ سوى حضورها، قد بددت كلّ العتمة فيه، وستارة الغيم انزاحت عن ذلك الذهن، وكأنّ يداً غير منظورة قد سحبتها، وأحس غوينبلين، من خلالِ افتتانٍ سماوي، بدخولٍ للزّرقة الصّافية في وجدانه. وبغتة غدا من جديد غوينبلين البريء، الكبير والطيب، بفضل هذا الملاك. إن للنفس، شأن الخليقة، مثلُ هذه المجابهات الخفيّة؛ لقد كان كلاهما ساكتين، هي الضياء وهو اللجة. هي السماوية، وهو المُطمّأن؛ وفوق قلبِ غوينبلين الهائج، كانت ديا تلتمع بتأثيرِ نجمة بحرٍ يفوق الوصف، وغير محدد.

II

من المسلّي إلى العابس (194)

ما أبسط المعجزة! كان ذلك في العلية - الخضراء ساعة الغداء وكانت ديا تأتي بكلّ طيبةٍ لتعرفَ لماذا لا يأتي غوينبلين إلى طاولتهما الصغيرة، طاولةِ الصباح.

صرخ غوينبلين "أنتِ!" فقيل كلٌّ شيء. ولم يعد لديه أفقٌ آخر، ورؤيا أخرى إلا تلك السّماء التي كانت فيها ديا.

إن من لم يرَ، بعد الإعصار، ابتسامةَ البحر المباشرة لا يمكنه أن يتأكّد بنفسه من تلك التهدئات. فما من شيء يهدأ أسرع من اللّجج. ويرجعٍ هذا إلى سهولة انطوائها. وهكذا هو القلبُ الإنساني؛ ومع ذلك، فليس دائماً. لم يكن يتعيّن على ديا أن تُظهر نفسها، فكلٌّ النور الذي كان فٍي غوينبلين كان يخرجُ، ويمضي إليها، ولم يعد وراء غوينبلين المبهور إلاّ هروبٌ للأشباح. فأيٍّ مهدئ للنفس هو الافتتان!

بعد بضع لحظات، كان كلاهما جالساً، أحدهما أمام الآخر، وأورسوس بينهما، وأومو عند أقدامهما. أما إبريق الشاي، الذي كان يشتعل تحته مصباحٌ صغير، فقد كان على الطاولة. كانت فيبي وفينوس خارجاً، وتتفرّغان للخدمة.

أما الغداءُ، شأنه شأن العشاء، فقد كان يجري في الحجرة الوسطى.

وبالطريقة التي وُضعت بها الطاولةُ الضيّقةُ جداً، كانت ديا تديرُ ظهرها إلى فرجةِ الحاجز الذي يوصلٌ إلى بابِ مدخل العلية - الخضراء.

كانت ركبُهما تتلامس، وكان غوينبلين يسكب الشاي لديا.

كانت ديا تنفخ على فنجانها بشكلٍ ظريف. وفجأة، عطست، وكان في تلك اللحظة، فوق لهب المصباح، دخان يتبدّد، وشيءٌ كالورق الذي يستحيل رماداً. وهذا الدخان قد جعل ديا تعطس.

وسألت "ما هذا؟"

فأجاب غوينبلين

- لا شيء"

وأخذ يبتسم.

لقد كان يفرغُ من حرقِ رسالة الدوقة.

إن ملاكَ المرأةِ المحبوبة الحارس، هو ضميرُ الرجل الذي يحبّ.

أراحَه تخففٌ من حملِ هذه الرسالة بشكلٍ يدعو إلى الاستغراب، وقد شعر غوينبلين بنزاهةٍ كما يشعرُ النسرُ بأجنحته.

لقد بدا له أن الإغراء قد راح مع ذلك الدخان، وأن الدّوقة كانت تستحيل رماداً في الوقت ذاته الذي استحالت فيه الورقة رماداً.

كانا يتحادثان، وهما يخلطان فنجانيهما، ويشربُ كلّ منهما بعد الآخر من الفنجان عينه. إن ثغثغة العشّاق هي قوقأةُ عصافير الدوري. إنها صبيانياتٌ جديرة بالأمير - لوا (الأم - الإوزة) وبهوميروس. هناك قلبان متحابّان، فلا تذهب إلى أبعد من ذلك لتبحث عن الشعر؛ وقبلتان تتحاوران، لا تذهب إلى أبعد من ذلك لتبحث عن الموسيقا.

"هل تعلم شيئاً؟"

- لا.

- يا غوينبلين، لقد حلمت بأننا حيوانان، وأن لنا أجنحة.

فهمس غوينبلين:

- أجنحة، هذا يعني أننا عصافير.

فدمدم أورسوس:

- حيوانات، هذا يعني ملائكة'

واستمرت المحادثة.

'ولو لم تكن موجوداً، يا غوينبلين....

- حسناً؟

- لما كان هناك إلهٌ رحيم.

- إن الشاي جدّ ساخن، ولسوف تُحرقين نفسك، يا ديا.

- انفخ على فنجاني.

- ما أجملك هذا الصباح!

- تخيل أن أشياء من كلّ نوعٍ أريد أن أقولها لك.

- قولي.

- أحبك!

- أعبدك!'

وكان أورسوس يحدثُ نفسه على انفراد:

'وحق السماء، هذان شخصان شريفان.'

حيث يكون هناك تحابٌ، يكون العذب هو فتراتُ الصمت، تتكوّن أكوامٌ من الحب، ثم تشعّ بشكل رقيق.

وكانت هناك فترةُ توقّف، هتفت ديا بعدها:

'لو كنت تعلم! في المساء، حين نؤدّي التمثيلية، في اللحظة التي تلمس فيها يدي جبينك... - أوه إن لك رأساً شهماً، يا غوينبلين!.... في اللحظة التي أشعر بها بشعرك تحت أصابعي، أحسّ برعشة، ويغمرني فرحٌ من السماء، وأقول لنفسي في كلّ هذا العالم المليء بالسّواد الذي يلفّني، وفي كونِ الوحدة هذا، وفي هذا الانهيارِ المظلم الهائل الذي أنا فيه، وفي هذا الارتجاف المرعب، ارتجافِ نفسي وكلّ شيء، لدي نقطةُ استناد، وهذه هي. إنها هو - إنها أنت.

وقال غوينبلين:

- أوه! أنت تحبينني، وأنا أيضاً ليس لي إلا أنتِ على الأرض. أنتِ كل شيء بالنسبة لي. يا ديا، ماذا تريدين أن أفعل؟ هل ترغبين في شيء؟

ما الذي يلزمك؟"

فأجابت ديا:

"لا أدري. إنني سعيدة."

فردّد غوينبلين:

- أوه! إننا سعيدان.

رفع أورسوس صوته بشكلٍ صارم:

"آه! أنتما سعيدان. إن هذه مخالفة. وقد سبق لي أن حذّرتكما. آه! أنتما سعيدان! فلتحاولا، إذن، ألا يراكما أحد. ولتشغلا أقلّ مكانٍ ممكن. فالسعادةُ ينبغي أن تُحشر في ثقوب. فاجعلا نفسيكما أصغر مما أنتما عليه، إذا استطعتما. إن الله يقيسُ كبرَ السعادةِ بصغر السعداء. إن الناس المسرورين ينبغي أن يختبئوا كالجناة. آه! إنكما تتألّقان، فأنتما دودتان شريرتان. تباً لهذا، فلسوف يدوسونكما، وسيُحسنون في ذلك.

فما هي كلّ هذه المداعبات؟ أنا لستُ مربيةً عجوزاً مهنتها أن تنظر إلى العاشقين وهم يتداعبون بمناقيرهم. إنكما تتعبانني، في نهاية الأمر! فامضيا إلى الشيطان!"

حين أحسّ أن نبرتَه الفظّة قد أخذت تلين حتى الحنان، أغرق هذا الانفعالَ في نفخةِ دمدمةٍ قوية.

وقالت ديا:

"يا أبي، كم تجعل صوتَك جهورياً! "

فأجاب أورسوس:

- ذلك أنني لا أحبُّ أن يكون المرءُ سعيداً أكثر مما ينبغي".

وهنا تجاوب أومو مع أورسوس. وسُمعت زمجرةٌ تحت قدمي العاشقَين. انحنى أورسوس ووضع يده على جمجمة أومو.

'هذا هو الأمر، أنت أيضاً، أصبح مزاجُك سيئاً. إنك تدمدم. إنك تدفشُ خصلات وبرك فوق رأسك الذئبي الضخم. أنت لا تحب الغراميات العابرة. وذلك لأنّك عاقل. الأمرُ سيان. اسكتْ لقد تكلمت، وقلت رأيك، فليكنْ، والآن اصمتْ'.

فزمجرَ الذئبُ مجدّداً.

ونظر إليه أورسوس تحت الطاولة.

الهدوء إذن 'يا أومو هيا، لا تصرّ، أيها الفيلسوف!'

إلا أن الذئبَ انتصبَ وكشّر عن أسنانه من جهةِ الباب.

فقال أورسوس:

'وماذا بك إذن؟'

وقبض على أومو من جلد رقبته.

أما ديا، التي لم تكن منتبهةً لصريرِ أسنان الذئب، والغارقة كلياً في أفكارها، والتي تتلذّذ في ذاتها بنبرةِ صوت غوينبلين، فقد كانت صامتةً في ذلك النوع من النّشوة الخاصّة بالعميان، والذي يبدو أنه يمنحهم داخلياً نشيداً يصغون إليه، ويبدّلهم من نورهم الذي ينقصهم موسيقا مثاليةً غير محدّدة. إن العمى سردابٌ يسمع المرءُ فيه التناّغمَ الأبديّ العميق.

وفيما كان أورسوس، وهو يوبّخ أومو، يخفضُ جبهتَه، كان غوينبلين قد رفع عينيه.

كان يهمّ بأن يشرب فنجاناً من الشاي، ولم يشربه. لقد وضعه على الطاولة ببطءِ نابضٍ يرتخي، بقيت أصابعُه مفتوحةً، ومكث بلا حراك وعينه محدّقة، ولم يعدْ يتنفس.

كان هناك رجلٌ واقفاً وراء ديا، في إطار الباب.

كان ذلك الرجلُ يرتدي ملابسَ سوداء ونثاراً قضائياً. وكان يعتمرُ طاقيةَ شعرٍ مستعار تصلُ حتى حاجبيه، ويمسك بيده عصا حديدية محفورة من طرفيها على شكل إكليل.

كانت تلك العصا قصيرةً وغليظة.

فلنتصور ميدوزا[*] التي تطل برأسها من بين غصنين من أغصان الجنة.

إن أورسوس الذي كان قد أحس بصدمة الواصل الجديد، والذي كان قد رفع رأسه من غير أن يترك أومو، قد تعرّفَ الشخصية المرعبة.

أحسّ بارتجافٍ من رأسه إلى قدميه.

وقال بصوت خفيضٍ في أذن غوينبلين:

"إنه المأمور القضائي"

تذكّر غوينبلين.

كانت كلمة تدل على الدهشة ستفلت منه، فكتمها.

إن العصا الحديدة التي تنتهي على شكل إكليل في طرفيه كان هو السلاح - الحديدي.

ومن السلاح الحديدي الذي يقسم ضباط القضاء عليه حين يتوظّفون، إنما كان قدامى مأموري قضاء الشرطة الإنكليزية يستمدّون أهليتهم.

كان يُلمح صاحبُ النزل المذهول، فيما وراء الرجل ذي الشعر المستعار في الغبش.

أما الرجلُ، فمن غير أن يقول كلمة، ومجسداً تلك الـــ (194) Muta Themis في الدساتير القديمة، فقد خفض ذراعه اليمنى من فوق ديا المشرقة، ولمس بالعصا الحديدية كتف غوينبلين، في حين كان يشير إلى باب العلبة - الخضراء خلفه بإبهام يده اليسرى. إن هذه الحركة المضاعفة والقهرية بقدر ما هي صامتة كانت تعني: اتبعني.

(*) مسخٌ أسطوري رأسه محاط بالثعابين (م: ز. ع).

وقال السجل النور ماندي: (196)

'Pro signo Exeund,Sursum trahe

إن الشخص الذي كان السلاح الحديدي يأتي ليقع عليه لم يكن له حقٌ آخر سوى حق الطاعة. فما من ردّ على هذا الأمر الأخرس. وكانت العقوبات القاسيةُ الإنكليزية تهدّد المتمرّد.

تحت هذا الملامسة المتشددة للقانون، أصيب غوينبلين باهتزاز، ثم أصبح كالمذهول.

بدلاً من أن تمسه العصا الحديدية مسّاً خفيفاً على كتفه ببساطة، كان يمكنُ أن يُضرب بها بعنف على رأسه، بحيث لا يمكن أن يكون مدوّخاً أكثر. كان يرى نفسه مُنذراً بأن يتبع ضابطَ الشرطة. ولكن لماذا؟ لم يكن يفهم.

أما أورسوس الذي أُلقي به من ناحيته في اضطرابٍ مؤثّر، فقد كان يخمّن شيئاً واضحاً إلى حدٍّ كاف. وكان يخطرُ في ذهنه البهلواناتُ والمتنبئّون، منافسوه، والعلبةُ الخضراءُ التي وُشي بها، والذئب، هذا الجانح، ومجادلته الشخصية مع محققي التفتيش في بيشو بسغيت؛ ومن يدري؟ وربما، ولكن هذا كان مرعباً، الثرثرات غير اللائقة والمتمرّدة، ثرثرات غوينبلين التي كانت تمسّ السلطة الملكية.

وكان يرتجف بشدة.

كانت ديا تبتسم.

لم يتلفّظ، لا غوينبلين ولا أورسوس بكلمة. لقد كان كلاهما يفكران بالطريقة ذاتها:

عدم إقلاق ديا، ولعل الذئب قد كان كذلك أيضاً. لأنه قد كفّ عن الزمجرة. والحقيقة أن أورسوس لم يفلته إطلاقاً.

زد على ذلك أن أومو كانت له تصرفاتٌ حصيفة، في الوقت المناسب. فمن لم يلاحظْ بعض أنواع القلق المتفهم لدى الحيوانات؟

ولعله كان يشعرُ بأنه مُبعدٌ بالقدر الذي يمكن لذئبٍ أن يفهم الناس.

ونهض غوينبلين.

ما من مقاومةٍ كانت ممكنة، وكان غوينبلين يعلم ذلك، ويتذكّر كلام أورسوس وما من مسألةٍ يمكن نقاشها.

مكث واقفاً أمام المأمور القضائي.

سحب المأمور القضائي السلاح من فوق كتفه، وجذب إليه العصا الحديدية التي أبقاها مستقيمةً في وضعية الأمر، وهذه وقفةٌ كان يفهمها حينذاك الشعبُ كلّه، وتُبلّغ رسمياً الأمر التالي:

"فليتبعْني هذا الرجل، ولا أحد سواه. فابقوا جميعاً حيث أنتم. واصمتوا."

ما من فضوليين. لقد كانت الشرطة تميل، على الدوام، إلى مثل هذه الاحتجازات.

إن هذا النوع من الحبس كان يوصف بأنه "وضع الشخص تحت الحراسة"

أدار المأمور القضائي ظهره بحركة واحدةٍ، وكأنه قطعةٌ آليّة تدور على نفسها، وتوجّه بخطوةٍ حازمةٍ ورصينةٍ نحو مخرج العلبة – الخضراء.

نظر غوينبلين إلى أورسوس.

قام أورسوس بذلك الإيماء المؤلف من هزّ الكتفين، ومن المرفقين إلى الوركين، مع أبعاد اليدين، وتقطيب الجفنين على شكل شارتي سبعة، وهذا إيماء يعني:

الامتثال للغريب.

نظر غوينبلين إلى ديا فكانت تتفكّر، وكانت تواصلُ الابتسام.

وضع طرف أصابعه على شفتيه، وأرسل إليها قبلةً لا توصف.

أما أورسوس الذي خففت إدارةٌ ظهر المأمور القضائي عنه بعضَ الرّعب، فقد انتهز تلك اللحظة لكي يدسّ في أذن غوينبلين الهمسة التالية:

"بحياتك لا تتكلم قبل أن يسألوك!"

أما غوينبلين، فبتلك العناية التي يراعيها المرءُ لئلا يُحدثَ ضجةً في غرفة مريض، فقد نزع من الحاجز قبعته ومعطفه، والتفّ بالمعطف حتى عينيه، وأسدل قبعته على جبينه؛ وبما أنه لم يكن قد رقد، فقد كان لا يزال يرتدي ملابس العمل، ويضع في رقبته رداءه الجلدي المفتوح(*). ونظر إلى ديا مرةً أخرى أيضاً. أما المأمورُ القضائيّ الذي وصل إلى الباب الخارجي، باب العلبة - الخضراء، فقد رفع عصاه، وبدأ ينزل درجَ المخرج الصغير. حينئذ، أخذ غوينبلين يمشي وكأن ذلك الرجل يشده بسلسلةٍ غير منظورة. نظر أورسوس إلى غوينبلين وهو يخرج من العلبة - الخضراء. أما الذئب، في تلك اللحظة، فقد أصدر بدايةَ زمجرةٍ شاكية، ولكن أورسوس أوقفه عند حدّه، وقال له بصوت خفيض: سيعود.

أما في الباحة. فقد كان السيد نيكليس، بحركة خسيسة وآمرة، يكبحُ صرخاتِ الذعر في فمي فينوس وفيبي اللتين كانتا تتأمّلان بحالةِ كربٍ غوينبلين الذي يُقتاد، والملابس التي بلون الحداد، وعصا المأمورِ القضائي الحديدية.

كان هناك ذهولان متحجّران، وهما هاتان الفتاتان، لقد كانت وقفتاهما كالنوازل.

أما كوفيكوم المذهول فقد كان يحملقُ بوجهه من نافذة مشقوقة.

كان المأمورُ القضائي يسبق غوينبلين ببضع خطوات من دون أن يستدير ومن دون أن ينظر إليه، بتلك الطمأنينة الجليديّة التي يعطيها اليقينُ بأنه القانون.

اجتاز كلاهما الباحة، في صمتٍ قبريّ، واخترقا القاعة المظلمة، قاعة الحانة، ونفذا إلى الساحة. كان هناك بعض المارة المتجمعين أمام باب النزل، والقاضي الإقطاعي المفوّض قانونياً على رأس زمرةٍ من رجال الشرطة.

(*) الإسكلافين: رداء قصير مستمدّ من الإسكلافون، وهو مشقوق من الأمام (م: ز.ع).

إن هؤلاء الفضوليين المذهولين، ومن غير أن ينبسوا بكلمة، قد ابتعدوا، واصطفّوا بانضباطٍ انكليزي أمام عصا ضابط الشرطة، واتّخذ المأمورُ القضائي اتجاه الشوارع الصغيرة التي سميت حينذاك Strand Little (الضفة الرملية الصغيرة) التي كانت تحاذي التّايمز. أما غوينبلين، الذي كان على يمينه وعلى يساره رجالُ القاضي الإقطاعي المفوض قانونياً، والمنتظمون على صفٍ مزدوج، والذي كان شاحباً، ولا يأتي بإيماءة، ولا بحركةٍ أخرى غير الخطوات التي كان يخطوها، والذي كان مغطىً بمعطفه كما يتغطّى بكفن، فقد ابتعد ببطء عن النزل، وسار صامتاً خلف الرجل الساكت، مثل تمثالٍ يتبعُ شبحاً.

I I I
LEX, REX , FEX (197)

إن التوقيف من غير إيضاح، والذي قد يُدهش كثيراً إنكليزياً اليوم، كان أسلوباً لدى الشرطة جدّ مستخدم آنذاك في بريطانيا العظمى. وقد تم اللجوء إليه، خصوصاً بالنسبة للمسألة الحساسة التي تعالجها في فرنسا الأوامر الاستبدادية، وبرغم الـ habeas Corpus[*]، وصولاً إلى عهد جورج الثاني، وأحد الاتهامات التي كان يتعين على فالبول أن يدافع عن نفسه ضدّها، هو أنه عملَ على توقيفِ نوهوف أو سمحَ بذلك بتلك الصورة. ومن المرجّح أن الاتهام قد كان يقوم على أسسٍ ضعيفة، لأن نوهوف، ملك كورسيكا، قد حبُس على يد دائنيه.

إن حالاتِ القبض الصّامت على المتهمين، والتي من بينها منظمة سانت فيم[**] في ألمانيا قد استخدمت كثيراً، وكانت مقبولةً في التّقليد الجرماني الذي ينظّمُ نصفَ القوانين الإنكليزية القديمة، والتي أوصى بها، في بعض الحالات، التقليدُ النورماندي الذي ينظمُ النّصف الثاني. إن قائد شرطة قصر جوستينيان كان يسمى 'المسكت الإمبراطوري' 'Silenciacus imperialis' وكان القضاة الإنكليز الذين يمارسون هذا النوعَ من القبض على المتّهم يستندون إلى نصوصٍ نورمنديّة عديدة: Caneslatrant , Sergentes silent

(الكلاب تقطع الطريق، والرقباء يسكتونها).

(*) القبض على المتّهم (باللاتينية). (م: ز. ع).

(**) منظمة ذات أصل جرماني، وهي تماثل محاكم القضاة – الأحـــرار (ق: ١٢ – ١٦) (م: ز.ع).

(Sergentes agree. Id est tacere) (عمل الرقباء هو إحلال الصمت)

وكانوا يستشهدون بلوندولفوس ساغاكس، في المقطع السادس عشر:

Facit imperator silentium (الإمبراطور يُسكِت). وكانوا يوردون شرعةَ الملك فيليب للعام /١٣٠٧/:

'Multos Tenebimus bastonevios.qui

obmutescentes Sergentare Valeant'

وكانوا يوردون تشريعات هنري الأول ملك إنكلترا، الفصل /٥٣/:

'Surge Signo jussus. Tacturnior esto. Hoc est esse in Captione regis.'

وكانوا يفخرون خصوصاً بهذه الأنظمة التي تعتبر كأنها تشكل جزءاً من الإعفاءات الإقطاعية لإنكلترا. تحت الفيكونتات، يأتي رقباءُ السيف الذين ينبغي أن يقوِّموا إلى الفضيلة بالسيف أولئك الذين يتّبعون جماعات السوء. والناس ذوي السّمعة الإجرامية السيئة، والناس الهاربين والغرباء... وينبغي أن يضبطوهم بشدة، وبشكلٍ سرّي لكي تتمَّ بشكل هادئ حمايةُ أمّة الطيبين الوادعين، ولكي يتم توقيفُ الجناة بالحراب"(*). فأن يتمّ الاعتقالُ بهذه الطريقة، كان معناه أن يجري القبض 'بالحسام أو السيف' (التشريعات القديمة النورماندية، I M S، II. I capt. sect pact) لقد كان المشرعون يستندون، فضلاً عن ذلك على: in charta Ludovici Hutini pro normannis من الفصل Serviantes Spethoe: مستخدمو السيوف.

إن الـــ Serviantes Spethoe ، في المقاربة التّدريجيّة للاتينيّة ما بعد روما حتى اصطلاحاتنا التعبيرية أصبحت: Sergentes Spadoe: رقباء السّيف.

كانت التوقيفات الصّامتة هي ضدّ صخب التحريض، وكانت تدلّ على أنه كان من المناسب أن يُلتزم الصّمت، حتى تنجلي بعضُ العتمات.

(*) هذا المقطع مكتوب بلغة فرنسية قديمة. (م: ز.ع).

كانت تعني: أسئلةٌ عليها تحفّظ.

وكانت تدلّ، في عمل الشرطة، على قدرٍ معين من مصلحة الدولة.

إن المصطلح الحقوقي private الذي يعني تحت أبواب مغلقة كان ينطبق على هذا النوع من التوقيفات.

بهذه الطريقة إنّما كان إدوارد الثالث قد أمر بالقبض على مورتيمير في سرير والدته إيزابيل دوفرانس، حسبما يوردُ بعضُ مؤرخي الوقائع. وهنا، أيضاً يمكننا أن نتشكّك بالأمر، لأن مورتيمير كان يساند حصاراً في مدينته، قبل أن يُقبض عليه.

كان فارفيك، صانع الملوك، يمارسُ طواعيةً هذا الأسلوب، أسلوبَ "فتن النّاس".

وكان كرومويل يستخدمه، وخصوصاً في كونّوت[*]، وباحتياطِ الصّمت هذا إنّما تمّ توقيفُ تريلي - أركلو، قريب الكونت أورمون في كلِيماغو.

إن هذه الاعتقالات بناءً على مجرّدِ إيماءةٍ من القضاء كانت تمثّل تكليفاً بالحضور أكثر مما تمثّل مذكّرةً بالقبض.

لم تكن أحياناً إلاّ طريقة للاستعلام، وحتى أنها كانت تتضمّن، من خلال الصّمت المفروض على الجميع، بعضَ المراعاةِ للشخص المقبوض عليه.

بالنّسبة للشّعب، الذي قليلاً ما يكون مطّلعاً على هذه الفوارق الدّقيقة، فقد كانت مرعبةً على نحوٍ خاصّ.

إن إنكلترا، ولا ننسينّ ذلك، لم تكن في العام /١٧٠٥/، ولا فيما بعد ذلك بكثير حتّى، على ما هي عليه في أيّامنا. لقد كانت بالإجمال جدّ مشوّشة، وأحياناً جدّ تعسّفية. إن دانييل دوفو، الذي كان قد اختبر عن كثب عمودَ التّشهير، يصفُ، في موضعٍ معين، النظامَ الاجتماعيَّ الإنكليزي بهذه الكلمات: "أيدي القانون الحديديّة". لم يكن هناك القانون فحسب، بل كان هناك العسفُ. ولنتذكّر ستيل الذي طُرد من مجلس النّواب، ولوك الذي طُرد من

(*) مقاطعة إيرلندية (م: ز.ع).

كرسيّ الأستاذيّة، وهوبز وجيبون اللذين أُجبرا على الهرب. أما شارل تشرشل، وهيوم، وبريستلي فقد اضطهدوا. وقد وضع جون ويلكس في لاتور. وإذا ما عدّدنا ضحايا تشريع القذف المفتن فسوف يكون الحسابُ طويلاً. إن محاكم التفتيش قد انتشرت بعض الشيء في أوروبا بكاملها. وأخذت ممارساتها البوليسيّة تصبحُ قدوةً. لقد كان اعتداءٌ وحشيٌ على كلّ الحقوق ممكناً في إنكلترا؛ ولنتذكر الصّحافي المنيع. وفي عزّ القرن الثامن عشر، كان لويس الخامس عشر يأمر باختطاف الكتّاب الذين لم يكونوا يروقون له من البيكاديليّ. والحقيقة أن جورج الثالث كان يقبضُ في فرنسا على الطّامح إلى العرش في وسط قاعة الأوبرا. كانت هناك ذراعان طويلتان جدًا، ذراعُ ملك فرنسا التي تصل حتى لندن، وذراعُ ملك إنكلترا التي تصل إلى باريس. تلك هي الحريّات التي كانت.

لنضف إلى ذلك أنه كان يجري بطيبةِ خاطر إعدامُ النّاس داخل السّجون؛ وهذا إخفاءٌ مختلطٌ بالتنكيل؛ وهذه وسيلةٌ كريهةٌ ترجعُ إليها إنكلترا في هذا الوقت؛ وفي حين تقدّم للعالم على هذا النحو مشهداً فريداً لشعبٍ عظيمٍ يريدُ الإصلاح فيختارُ الأسوأ، وهو الشّعبُ الذي يجدُ أمامه، الماضي من جهة، والتّقدم من الجهةِ الأخرى، فيخطئ في المجلى، ويظنّ أن الليل هو النّهار.

VI

أورسوس يتجسّس على الشّرطة

مثلما قلنا، وحسب قوانين الشرطة الصّارمة جدّاً في ذلك الزمن؛ فإن الإخطارَ الرسميّ باللحاق بالمأمور القضائي، والموجّه إلى أحد الأفراد، كان يتضمّن بالنسبة لأيّ شخصٍ آخر حاضر الأمر بعدم التّحرك.

مع ذلك، فإن بعضَ الفضوليّين قد ركبوا رؤوسهم، ورافقوا من بعيد الموكبَ الذي كان يقتادُ غوينبلين. وكان أورسوس في عدادهم.

كان أورسوس مصاباً بالذهول بقدر ما يحقُّ للمرء أن يكون. غير أن أورسوس، الذي هاجمته مراتٌ كثيرة مفاجآت الحياة المترحّلة، وضروبُ خبث غير المنتظر، كان، شأن سفينةٍ حربية، لديه استعداده للقتال الذي يدعو كلّ الطّاقم إلى مركز المعركة، أي كُلّ العقلُ.

تعجّل في ألاّ يكون بعد مذهولاً، وأخذ يفكّر. إن الأمر لا يتطلّب الشّعورَ بالتأثّر، إنه يتطلّب المواجهة.

مواجهة الحادث هو واجبُ أيّ إنسانٍ ليس أبلهاً.

ألاّ يسعى المرءُ إلى الفهم. بل أن يتصرّف. وفي الحال، تساءل أورسوس: ما الذي ينبغي فعله في ذلك؟

ما إن مضى غوينبلين، حتى ألفى أورسوس نفسه بين خوفين: الخوف على غوينبلين الذي كان يقول له أن يلحق به، والخوف على نفسه الذي كان يقولُ له أن يبقى في مكانه.

كانت لدى أورسوس بسالةُ نبابة، ولا انفعاليّةُ نبتةِ المستحيا. إن ارتجافه كان لا يوصف. ومع ذلك، فقد اتّخذ قراره بصورةٍ بطولية، وعزم

على خرقِ القانون واقتفاء المأمورِ القضائيِّ لفرط ما كان قلقاً مما يمكن أن يحدث لغوينبلين.

لا بدّ أنه كان خائفاً حقاً ليكون شجاعاً إلى هذه الدّرجة.

فإلى أيّة أفعالٍ باسلةٍ يمكنُ للذّعر أن يدفع بالأرنب البرّي!

إن الشاموا المضطرب يقفز المهاوي. وأن يرتاع المرءُ حتى التّهور، ذلك هو أحدُ أشكال الذّعر.

لقد خُطف غوينبلين أكثر مما اُعتقل. وكانت عمليّة الشّرطة قد نُفّذت بسرعةٍ كبيرة بحيث أن ميدانَ المعرض لم يكد يتأثر بها، إذ أنه كان من جهةٍ أخرى قلّما هو مرتادٌ في مثل تلك السّاعة الصّباحيّة. ولم يكن هناك أحدٌ تقريباً يشكّ في تخشيبات التارينزو - فيلد بأن المأمور القضائي قد أتى بحثاً عن الرّجل الضّاحك. ومن هنا يأتي وجودُ عددٍ قليل من الجمهور.

إن غوينبلين، بفضل معطفه ولبديّته واللذين كانا يلتقيان تقريباً على وجهه لم يكن ممكناً أن يتعرّفه العابرون.

قبل أن يخرج أورسوس في إثرِ غوينبلين، اتّخذ احتياطاً؛ فقد انتحى بشكلٍ مستقلٍ بكلّ من السّيد نيكليس، والصّبي كوفيكوم، وفيبي وفينوس، وأمرَهم بأكبر صمتٍ مطلقٍ تجاه ديا، التي كانت تجهلُ كلّ شيء، وأن يعنوا بألاّ ينبسوا بكلمةٍ يمكن أن تجعلها ترتابُ بما حدث؛ وأن يفسّروا لها غياب غوينبلين وأورسوس بالاهتمام بتدبير شؤون العلبة - الخضراء، وأنه قد حانت، فضلاً عن ذلك، بعد قليل، ساعةُ نومها في منتصف النّهار؛ وأنه سيكون قد رجع قبل أن تستيقظ ديا، هو أورسوس، مع غوينبلين، وأن كلّ ذلك لم يكن إلاّ سوء فهم، وMistake كما يقال في إنكلترا، وأنه سيكون فعلاً سهلاً على غوينبلين، وعليه هو، أن يوضحا الأمر للقضاة وللشرطة، وأنهما سيجعلان سوءَ التفاهم محسوساً، وأنهما سوف يعودان كلاهما بعد قليل. وخصوصاً ألاّ يقول أحدٌ شيئاً لديا. ومضى أورسوس، بعد أن قدّم هذه التوصيات.

تمكّن أورسوس، من غير أن يلاحظّه أحد، أن يتبع غوينبلين. ومع أنه كان يُبقي نفسه على أبعد مسافةٍ ممكنة، فقد تدبّر الأمر بحيث لا يغيبُ عن ناظره. إن الجسارة في الرّصد، هي إقدامُ الفزعين.

مهما حدث، وأيّا كان جهاز التّحرك رسميّاً، فإن غوينبلين ربّما لم يُستدعَ إلاّ للمثول أمام قاضٍ للأمن الأدنى من أجل مخالفةٍ لا خطورةَ فيها.

كان أورسوس يقول في نفسه إن هذه المسألة سوف تسوّى في الحال. سوف يتمّ الإيضاحُ، حتى أمام ناظريه، عن طريق الوجهة التي ستتخذُها الزّمرةُ التي تقتاد غوينبلين في اللحظة التي تبلغ فيها مدخلَ أزقّةِ ليتل – ستراند، بعد أن تكون قد وصلت إلى حدود تارينزو – فيلد.

فإذا استدارت إلى الشمال، فذلك معناه أنها ترافق غوينبلين إلى دار البلدية في ساوثويرك. إن شيئاً لا قيمة له يمكن أن يكون مدعاةً للخوف إذن، من مثل جنحةٍ بلديةٍ مؤذية، وتأنيبٍ (198) من القاضي، وثلاثة أو أربعة شلنات كغرامةٍ، ويُطلق سراح غوينبلين، ويجري تمثيل العماء المهزوم في المساء نفسه كالمعتاد. ولن يلاحظ أحدٌ شيئاً.

وإذا استدارت الزّمرة إلى اليمين، فإن المسألة ستكون جدّية.

من تلك الناحية، كانت هناك أماكنُ لا زخرفةَ في بنائها.

في اللحظة التي وصل فيها المأمورُ القضائي، وهو يقودُ رتلي حراس السّجن اللذين يسير بينهما غوينبلين، إلى الشوارع الصّغيرة، نظر أورسوس لاهثاً. فهناك لحظاتٌ يمرّ فيها الرّجل كلّه من خلال عينيه.

فمن أيّة جهة سينعطفون؟

لقد انعطفوا إلى اليمين.

أما أورسوس الذي كان يترنّح من الذّعر، فقد استند إلى جدار لكي لا يهوي.

ما من شيء فيه مراءاة مثل هذه الكلمة التي يقولها المرء لنفسه: أريد أن أستعلم عن الأمر. فالواقع أنه لا يريدُ شيئاً إطلاقاً. ولديه خوفٌ شديد.

إن القلق يترافقُ بجهدٍ خفيٍّ لكي لا يستنتج شيئاً. ولا يعترف المرء بذلك، بل يتراجعُ بطيبةِ خاطر، وحين يكون قد تقدّم، يلومُ نفسه على ذلك.

وهذا ما فعله أورسوس، فقد فكّر وهو يرتعش:

'ها هو الأمر ينتهي بشكلٍ سيء. كان يمكن دوماً أن أعلم هذا في وقتٍ أبكر بما يكفي. وما حاجتي هنا في أن أتبع غوينبلين؟'

بعد هذا التفكّر، وبما أن الإنسان ليس إلا تناقضاً، فقد ضاعفَ خطوتَه، وسيطر على قلقه، وأسرع لكي يقترب أكثر من الزّمرة. ولكي لا يدعَ الخيط بين غوينبلين وبينه، هو أورسوس، ينقطعُ في متاهةِ شوارع ساوثويرك.

لم يكن بإمكانِ موكبِ الشرطة أن يسيرَ بشكلٍ أسرع بسبب طابعه الرّسمي. كان المأمورُ القضائي يفتحه.

وكان القاضي الإقطاعيّ المحكّم يغلقه.

كان هذا الترتيب يفرض بطئاً معيّناً.

كانت كلُّ المهابة الممكنة للمنفّذ (199) تتألّقُ في شخصِ قاضي النّصاب. لقد كانت بَزتُه تحتلّ الوسط بين الزي البهي لعالم (دكتور) الموسيقا في أوكسفورد، والرداء المشدود البسيط والأسود للعالم (الدكتور) في الإلهيات في كامبريدج.

كان يرتدي ملابسَ سيّدٍ مهذب تحت معطفٍ طويل، هو رداءٌ فضفاضٌ مبطّن بفروِ ظهرِ الأرنب البرّي النروجي. لقد كان مكوّناً من جزء قوطي وجزء حديث، وهو يعتمر قبعة شعرٍ مستعار مثل لاموانيون ويلبس أكماماً علوية التفصيل (200) مثل تريستان ليرميت. كانت عينهُ الضخمة المستديرة تحضنُ غوينبلين بشخوص بوم. كان يسير بشكل إيقاعيّ. ومن المستحيل أن يرى المرء سحنةً بشريةً أكثرَ إثارةً للخوف.

أما أورسوس الذي ضلّ للحظةٍ في اشتباك الأزقّة المختلط، فقد توصّل إلى الانضمام، بقرب سانت – ماري أوفر – ري، إلى الموكب الذي، لحسن الحظ قد أخّرته في باحة الكنيسة مجموعةٌ من الأطفال والكلاب، وهذا حادثٌ معتاد.

في شوارع لندن، dogs and boys، كما تقول سجلات الشرطة التي تجعل الكلاب تَرِدُ قبل الأطفال.

بما أن رجلاً يقتادهُ رجالُ الشرطة إلى حضرةِ القاضي يُعتبر، على كل حال، حادثاً جدُّ مبتذل، وبما أن كلَّ امرئٍ ينصرفُ إلى مشاغله؛ فقد تفرّق الفضوليون، ولم يبقَ إلا أورسوس يتعقّب غوينبلين.

لقد مرّوا من أمام المصليين اللذين يتواجهان، وهما مصليا الرّيكرياتيف ريليجيونيستز، ولاليغ هاليلويّا، وهما طائفتان من ذلك الزمن، ولا تزالان موجودتين اليوم.

ثم تعرّج الموكبُ من زقاقٍ إلى زقاق، مؤثراً اختيارَ الطرق (Roads) التي لم تُبنَ بعد، والصفوف التي ينمو فيها العشب، والدوربَ المقفرة، وقام الموكبُ بتعرجاتٍ كثيرة (201).

وتوقف أخيراً.

أصبح الموكب في زقاقٍ ضيق. ولم تكن هناك منازل، باستثناء كوخين أو ثلاثة عند المدخل. وكان ذلك الزّقاقُ مكوّناً من جدارين، أحدُهما على اليسار، وهو واطئ، والآخر، على اليمين، وهو عالٍ. كان السّورُ العالي أسودَ ومبنياً على الطريقة السكسونية، وله فتحاتُ رمي، وفيه عقاربُ، ومربعاتُ لشبكاتٍ ضخمة على منافذ ضيقة. ولم تكن هناك أيةُ نافذة. بل شقوق هنا وهناك. قد كانت فرجاتٍ قديمةٍ لمنجنيقاتٍ ومقاذف (203). وكانت تُرى، في أسفل هذا الجدار الكبير، شأن فجوةٍ في أسفل مصيدة فئران، كوةٌ صغيرة جداً، ومخفضةٌ جداً.

إن هذه الكوّةَ المعلّبة ضمن عقدٍ حجريٍّ كاملٍ ثقيل، كان لها خصاصٌ مشبّك، ومطرقةٌ ثقيلة، وقفلٌ عريضٌ، ومفصلاتٌ معقدةٌ ومتينة، وتشابكُ مسامير، ودرعٌ من الصفائح والدّهانات، وكان مصنوعاً من الحديد أكثر مما هو مصنوع من الخشب.

لم يكن هناك أحدٌ في الزّقاق الضيق، ولم تكن هناك حوانيت، ولم يكن هناك مارّة. غير أنه كانت تُسمع قريباً منه ضجةٌ مستمرة، وكأن الزقاقَ

الضيّق قد كان موازياً لسيل. كان ذلك هو صخبُ أصوات وعربات. والمرجّح أنه كان هناك في الجانب الآخر من المبنى الأسود، شارعٌ كبير، وهو بلا شك الشارعُ الرئيسُ في ساوثويرك، والذي يتّصل من أحد طرفيه بطريقِ كانتوربيري، ومن الطّرف الآخر بجسر لندن.

على طولِ الزقاق الصغير بكامله، وخارجِ الموكب الذي يلفُّ غوينبلين، لم يكن بإمكان راصدٍ أن يرى وجهاً بشرياً غير المجلى الجانبي لوجهِ أورسوس الممتقع، والمجازف، والمتقدّم جزئياً في النور الخفيف لإحدى زوايا الجدار، والذي ينظرُ ويخاف من الرؤية. كان قد تمركز في العطفة التي كان يصنعُها تعرّجُ للشارع.

تجمعت زمرةُ الجند أمام الكوة.

كان غوينبلين في الوسط غير أن المأمور القضائي كان وراءه الآن مع عصاه الحديدية.

رفع القاضي الإقطاعي المطرقةَ وضربَ ثلاثَ ضربات.

انفتح الخصاص.

فقال القاضي الإقطاعي.

'من قبل جلالته'

دار البابُ الثّقيل، بابُ السنديان والحديد على مفصّلاته، فانكشفت فتحةٌ باهتة وباردة، وشبيهةٌ بفم كهف، واستطالت في العتمة قبةٌ قبيحة.

رأى أورسوس غوينبلين يتوارى تحتها.

٧

مكان سيّء

دخل المأمورُ القضائيّ بعد غوينبلين.

ثم القاضي - الإقطاعي.

ثم زمرةُ الجند بكاملها.

وانغلقت الكوةُ من جديد.

عاد البابُ الثقيلُ إلى الانطباقِ بإحكام على الإطارات الحجرية من غير أن يرى المرء من الذي فتحه، ومن الذي أغلقه من جديد. كان يبدو أن المزالج تدخلُ من تلقاء ذاتها إلى نخاريبها. إن بعضاً من هذه الآليات التي ابتكرها التخويفُ القديم لا تزال موجودةً في السّجون القديمة جداً. إنه باب لم يكن المرء يرى بوّابه. وهذا ما كان يجعل عتبة السجن تشبه عتبة القبر.

كانت تلك الكوة هي الباب الواطئ لسجن ساوثويرك.

ما من شيء في ذلك المبنى المنخور، والخشن يناقضُ المظهرَ الفظّ الخاص بسجن.

إنه معبدٌ وثنيٌ بناه الكاتيوشلان من أجل الموغون الذين هم آلهةٌ إنكليزية، وقد أصبح قصراً لإيتيلولف (203)، وقلعةً محصنةً لسانت إدوار، ثم رفّع إلى مرتبةِ سجن عام /١١٩٩/ على يد جان - سان - تير. وكان هناك سجنٌ ساوثويرك. وهذا السجن الذي كان يخترقُه شارعٌ في البداية، كما يخترق شونونسو نهراً، قد كان لقرنٍ أو لقرنين ume gate (بوابة) أي باباً لضاحية ثم

جرى سدُّ الممر. وقد بقي في إنكلترا بعضُ السجون من هذا النوع. وعلى هذا النّحو، هناك نيوغيت. وفي فرنسا، كان الباستيل في البداية باباً.

إن كافة سجون إنكلترا تقريباً كانت تعرضُ للناظر المظهرَ نفسه؛ فهناك جدارٌ كبير من الخارج، وفي الداخل، قفيرٌ من الزنزانات. وما من شيء مأتميٌ مثل هذه السّجون القوطية التي كانت العنكبوتُ والعدالةُ تبسط شباكها فيها. والتي لم يكن جون هاوارد (204) ذلك الشعاع من النور قد اخترقها. إنها جميعاً، شأن جهنّم بروكسيل القديمة كان يمكن أن تسمى ترورينبرغ، منزل الدموع.

كان المرءُ يشعر أمام هذه المباني الصّارمة والوحشية بالقلق ذاته الذي كان يشعر به البحارة القدماء أمام جحيم العبيد الذي يتحدث عنه بلوتوس(*)، وهو تلك الجزر التي تطقطق بالحديد Ferricepiditae Insolae، حين كانوا يمرون بجانبها إلى حدٍّ كافٍ ليسمعوا صوتَ السلاسل.

إن سجن ساوثويرك، ذلك المكان السابق لطرد الشياطين والتعذيب، وكان متخصصاً أولاً بالسّحرة، كما كان يشيرُ إلى ذلك هذان البيتان الشعريان المحفوران على حجرٍ غير مصقول فوق الكوة.

Sunt arreptitii Vexati daemone multo

Est einergumenus quem daemon possidet unus(**).

إنهما بيتان شعريّان يحددان الفارق الدقيق بين المجنون والممسوس.

فوق هذه الكتابة المحفورة، كان يثبت بالمسامير وبشكل مسطح على الجدار، علامةً على العدالة السامية، سلمٌ حجري، وقد كان يُصنع من الخشب قديماً، إلا أنه قد تمّ تبديلُه بالحجر، بسبب انطمار المكان المسمى أسبليه - غوفيس في الأرض المتحجرة، قريباً من دير فوبورن.

(*) بلوتوس: شاعر لاتيني كوميدي تنسب إليه مسرحيات عديدة. (م: ز.ع).

(**) في ذي الجِنّة، يهيجُ جحيمٌ. وبشيطان واحد، يكون هناك ممسوسٌ، ليس إلاّ.

إن سجن ساوثويرك المهدّم حاليًا، كان يشرف على شارعين وقد كان، باعتباره بوابة gate يفيدُ قديماً في الاتصال فيما بينهما، وكان له بابان: على الشارع الكبير، باب الأبهة المخصّص للسلطات، وعلى الزقاق الضيق، هو بابُ المكابدة المخصّص لبقية الأحياء، وللمتوفّين كذلك. لأنه حين كان يموت سجينٌ في السجن، فإن الجثّة كانت تخرج من هناك.

إنه تحريرٌ مثل سواه.

إن الموت هو التوسُّع في اللانهاية.

فمن مدخل المكابدة، إنما أُدخِلَ غوينبلين إلى السجن.

أما الزقاقُ الضيق، كما قلنا، فلم يكن شيئاً آخر سوى طريقٍ صغيرةٍ محصّبةٍ ومحصورةٍ بين جدارين متقابلين. وهناك في بروكسيل، من هذه الشاكلة، المعبر المسمى: شارع شخصٍ واحد.

كان الجداران متفاوتين؛ فكان الجدار العالي هو السّجن، والجدارُ الواطئُ هو المقبرة. إن هذا الجدار الواطئ، الذي هو سور لمنقعة السجن الجنائزية لم يكن يتجاوزُ إلا قليلاً قامةَ رجل. كان مشقوقاً بباب، بمواجهة كوة السجن. ولم يكن على الموتى إلا أن يحتملوا مشقّة اجتياز الشارع. وكان يكفي أن يسيرَ المرءُ في محاذاة الجدار عشرين خطوةً ليدخل إلى المقبرة. وعلى السور العالي، كان يُسند سلمٌ خاص بالمشنقة، وقبالته على السور الخفيض، كانت هناك جمجمةُ ميتٍ منحوتةٌ. ولم يكن أحد من هذين الجدارين يُفرحُ الجدارَ الآخر.

VI

أيّة هيئاتٍ قضائية كانت موجودة تحت قبعات الشّعر المستعار قديماً

لو كان يمكن لأحد، في تلك اللحظة، أن ينظرَ من الجهةِ الأخرى من السجن، ومن جهة الواجهة، لكان قد لمح شارع ساوثويرك الكبير، ولأمكنه أن يلاحظ عربةَ سفرٍ متوقفةً أمام الباب الهائل والرسميّ، باب السجن، ويمكن تعرُّفُها من "مقصورةِ هيكلها الفخم"، والتي نسميها اليوم كبريلة(*). كانت حلقة من الفضوليين تحيط بالعربة. لقد كانت مغطاةً بشعارات النّبالة، وقد شوهدت شخصيةٌ تنزلُ منها، وتدخل إلى السجن. ومن المحتمل أن تكون قاضياً، كما كان الحشد يخمّن، بما أنّ رجالَ القضاء في إنكلترا غالباً ما كانوا نبلاء، ولهم على الدوام تقريباً "الحقّ في حمل الأسلحة"(205)، وفي فرنسا، شرف النسب والقضاء كانا يتنافيان تقريباً. وقد قال الدوق سان - سيمون، وهو يتكلم على القضاة: "أناس هذا الوضع". وفي إنكلترا، لم يكن يُعاب على رجلٍ من الأشراف أن يكون قاضياً.

إن القاضي المتنقّل موجودٌ في إنكلترا، وهو يدعى بقاضي الجولة. وما من شيء كان أبسط من أن يرى المرء في تلك العربة الفاخرة مركبةَ قاضٍ يقوم بجولة. والأمر الذي كان أقلَّ بساطةً هو أن الشخصية التي يُفترضُ أن تكونَ قاضياً لم تكن قد نزلت من العربة ذاتها، بل من المقصورة الأمامية،

(*) عربة فخمة بعجلتين (م: ز. ع).

وهو المكانُ الذي لا يكون عادةً مكاناً لأحد السادة. وهناك ميزةٌ أخرى؛ فقد كان الناس يسافرون في ذلك العهد، في إنكلترا، بطريقتين، بواسطة 'عربة الجياد' بأجرٍ قدّره شلن لكل خمسة أميالٍ تُقطَع، أو بواسطةِ محطةِ خيلٍ على حصانٍ مطلقِ العنان، مقابل ثلاثة فلوس للميل، وأربعة فلوس للحوذي، بعد كلّ محطة. إنّ عربة السيد التي كانت تروق لها رغبةُ السفر بالأبدال، كانت تدفع مقابل كلّ حصانٍ، وعن كلّ ميلٍ يُقطع مبلغاً من الشلنات يعادل ما كان يدفعه الخيال الذي يعدو إلى محطة الخيل من الفلوس. والحال، فإن العربة التي أوقفت أمام سجن ساوثويرك قد كانت مقطورةً بأربعة خيولٍ ولها حذوتان، وهذا ترفٌ أميري. وأخيراً، فإن ما كان ينتهي به الأمر إلى إثارة التكهنات وبلبلتها، هو أن تلك العربة قد كانت مغلقة إغلاقاً دقيقاً. وكانت المأطورات الملأى مرفوعة. كان زجاجُ النّوافذ مسدوداً بمصاريع. كانت كلّ الفتحات التي يمكنُ للعين أن تخترقها مموّهة؛ فمن الخارج، لم يكن يمكن للمرء أن يرى شيئاً في الداخل. فضلاً عن ذلك، فلم يكن يبدو أن هناك أحداً في تلك العربة.

بما أن ساوثويرك كانت في منطقة السّوريّة، فقد كان سجن ساوثويرك إنما يتبع لعمدة كونتيّة سوريّة. لقد كانت هذه السلطات القضائية المميزة جدّ شائعة في إنكلترا. وهكذا، فإن برج لندن، على سبيل المثال، لم يكن من المفترض أن يقع في أية كونتية. أي أنه، في الفوضى بصورة ما. وكان البرج لا يُقرّ بأية سلطة قضائية غير ضابط شرطتها الذي يوصف بأنه (206): Custos Turris. إن سلطة الحارس (custos) أو ضابط الشرطة كانت تمتدّ إلى خارج لندن على ثلاثة وعشرين Hamlets وترجمتها: Hameaxs (ضيع صغيرة). وكما في بريطانيا العظمى، فإن الخصوصيّات الشرعية تتضافُ بعضٌ منها على البعض الآخر. وكانت مصلحةُ مدّربِ المدفعيّة تدخلُ في نطاق برج لندن.

وتبدو أعرافٌ أخرى شرعيةٌ أكثرَ غرابةً أيضاً. وهكذا، فإن محكمةَ إمارةِ البحر الإنكليزية تستشيرُ وتطبّق قوانينَ رودس وأوليرون (وهي جزيرةٌ فرنسية كانت إنكليزية).

إن عمدةَ مقاطعة معينة قد كان يحظى باعتبار كبير. فقد كان دوماً معلّماً للفروسية، وفارساً أحياناً. لقد كان يوصف بأنه Spectabilis(*) في التشريعات القديمة. "رجلٌ محطُّ الأنظار". وهو لقب وسيط بين illustris et clarissimus (شهير ولامع جداً)، وهو أقلّ من الأول، وأكثر من الثاني. وكان عُمد الكونتيّات يختارهم الشعب جميعاً، غير أنه ما إن استعاد إدوارد الثاني، وبعده هنري السادس؛ هذه التسمية للتاج، حتى أصبح العُمد ينبثقون عن الملك. وكانوا جميعاً يستلمون مهمتهم من جلالته، باستثناء عمدة ويستمورلند الذي كان لقباً وراثياً، وعمدتي لندن وميدلسكس اللذين كان يعيّنهما الخدمُ في القاعة العامة. كان عمدتا غال وشيستر حائزين على امتيازات ضريبية. إن كل هذه الوظائف العامة لا تزالُ موجودةً في إنكلترا، ولكن لم يعدْ لها المظهرُ ذاته الذي كان لها قديماً، فقد استهلكت شيئاً فشيئاً بسبب احتكاكها بالتقاليد والأفكار.

كانت وظيفةُ عمدة الكونتية تتمثّل في مرافقة وحماية "القضاة المتنقّلين" ومثلما للمرء ذراعان، فقد كان لديه ضابطان، ذراعه اليمنى وهو نائب العمدة، وذراعه اليسرى وهو القاضي الإقطاعي. أما القاضي الإقطاعي، الذي يساعده مشرفُ المئة الإقطاعي والذي يُنعت بالمأمور القضائي، فقد كان يضبطُ ويستجوب، ويسجن على مسؤولية العمدة السارقين والقتلة، والعصاةَ، والمشردين، وكافة العناصر الغادرة، لكي يُحاكَموا على يد قضاة الدائرة. إن الفارق الطفيف بين نائب العمدة والقاضي الإقطاعي، من خلال مركزهم التراتبي نحو العمدة، هو أن نائب العمدة كان يرافق، وأن القاضي الإقطاعي كان يعاون. كان العمدة يعقد محاكمتين، محاكمةً جالسةً ومركزية، هي الكاونتي - كورت (محكمة الكونتيّة)، ومحاكمةً متنقلةً هي الشريف - تورن (جولة العمدة). وهكذا، فقد كان يمثّل الوحدةَ وكليّة الحضور. وكان باستطاعته كقاضٍ أن يتلقى العون والاستعلام، في المسائل موضع الخلاف، وذلك على يد رقيب العمرة الذي يدعى Sergens coiffae والذي هو رقيبٌ

(*) باللاتينية: محطّ نظر. (م: ز.ع).

قانوني، يعتمر تحت قلنسوته السوداء، عمرةً من نسيجٍ كتاني أبيض من كومبري. لقد كان العمدةُ يفضّ الزّحام في مقرّات القضاء، وحين كان يصل إلى مدينة في مقاطعته، كان يحقّ له أن يسوقَ السجناء بلا محاكمة، وهذا ما كان يُفضي إما إلى التبرئة أو إلى الشنق، وما كان يسمى بـ 'تحرير السجن' goal delivery. وكان العمدة يقدم إحالة قرار الاتّهام إلى محلّفي الاتهام الأربعة والعشرين؛ فإذا وافقوا عليه، كتبوا فوقه 'billa vecca'، وإذا لم يوافقوا عليه، كتبوا: 'gnoramus'[*] حينئذ، يُلغى الاتهام، ويكون للعمدة الحق في تمزيق القرار الاتهامي. وإذا مات أُحد المحلّفين، أثناء المداولات، وهذا ما يلغي إدانة المتهم قانونياً، ويجعله بريئاً، فإن العمدة الذي كان له حقّ توقيف المتهم، يصبح لديه الحقّ في أن يطلق سراحه. إن ما كان يجعل العمدة يُقدَّرُ بصورةٍ خاصة ويُهاب، هو أنه كان مكلّفاً بتنفيذ 'كلّ أوامر جلالته'.

هذه حريةُ تصرّفٍ مخيفة. إن التعسّفَ يقبعُ في مثل تلك التحريرات. إن الضباط الذين يوصفون بقيمّي الغابات، والمحققين بجرائم غامضة كانوا يواكبون العمدة، وكان محامو السوق يساندونه، وكانت لديه بطانةٌ جميلةٌ من أناسٍ يمتطون الجياد ويرتدون الخلعات الرسمية. إن العمدة الذي يسمى بالشامبرلين. هو 'حياة القضاء، والقانون والكونتية'.

في إنكلترا، ثمة تقويض غير محسوس يسحق ويُفكّك باستمرار القوانينَ والعادات، ففي أيامنا، ولنؤكد على ذلك، قد لا يمارسُ لا العمدةُ، ولا المأمورُ القضائيّ، ولا القاضي الإقطاعي مهامّهم كما كانوا يمارسونها في ذلك الزمن. كان في إنكلترا القديمة شيءٌ من اختلاط السّلطات، وقد كانت الصّلاحياتُ التي حدّدت بشكلٍ سيء تتحولُ إلى تطاولاتٍ يتعذّر اليومَ حدوثُها. إن تشوّش الشرطة والقضاءُ قد توقّف. وبقيت الأسماءُ وتعدّلت الوظائف. ونظنّ حتى أن كلمة Wapentake قد بدلت معناها.

لقد كانت تعني منصباً قضائياً، وهي تعني اليوم مقاطعةً إقليمية؛ كانت تحدّد قائد المئة، وهي تحدد الآن المقاطعة[**] (Centum).

(*) بالتتالي: قرار صحيح، قرار مجهول/ (م: ز.ع).

(**) ما يطلق عليه الآن 'الكانتون'. (م: ز. ع).

فضلاً عن ذلك، فإن عمدة الكونتية، في ذلك الزمن، كان يدمج بمقدارٍ أكثر ومقدارٍ أقل، ويكثّف في سلطته الملكيةَ والبلديةَ في آن واحد، الحاكمين الذين كانا يُسمّيان قديماً في فرنسا قائمقام باريس المدني، وقائمقام الشرطة.

إن قائمقام باريس المدني يجري توصيفُه بشكلٍ كافٍ حقاً بالملاحظة القديمة التالية للشرطة: 'إن السيد القائمقام المدني لا يكْره الخصومات المنزلية، لأن النّهبَ لصالحه دوماً' (٢٢ تموز١٧٠٤) أما قائمقام الشرطة، وهو شخصيةٌ مقلقةٌ، ومتعددةٌ وملتبسة، فيتلخّص في أحدِ أفضل نمانجه، وهو رينيه دار جانسون الذي كان على وجهه قضاةُ الجحيم الثلاثة مختلطين، حسب قول سان - سيمون.

كان قضاة الجحيم الثلاثة هؤلاء، كما رأينا في بيشوبزغيت في لندن.

VI I

ارتعاد

حين سمع غوينبلين الكّوة تتغلقُ مجدداً، وهي تصرُّ بكلّ مزاليجها، ارتعش. وبدا له أن ذلك الباب الذي انغلق للتوّ، كان باب اتّصال الضوء بالظلمة، ويُطل من ناحية على الازدحام الأرضي، ومن الناحية الأخرى على العالم الميت، وأن كلَّ الأشياء التي تنيرها الآن الشمس قد أصبحت خلفه، وأنه قد اجتاز حدود ما يسمى بالحياة، وأنه كان في الخارج. لقد كان ذلك انقباضاً عميقاً للقلب. فما الذي سيصنعونه به؟ وماذا كان يعني كلّ ذلك؟

وأين كان؟

لم يكن يرى شيئاً حوله؛ فقد كان يجد نفسه في العتمة. أما الباب فكان قد جعله مؤقتاً أعمى حين انغلق. وكانت كوةُ الباب مغلقةً كالباب. فما من منفسٍ وما من مصباح. لقد كان ذلك احتياطاً اتخذته الأزمنةُ القديمة؛ فكان ممنوعاً إنارةُ جوانب السجون الداخلية، لكي لا يتمكن القادمون الجدد من أن يبدوا أيّة ملاحظة.

بسط غوينبلين يديه ولمس الجدار على يمينه وعلى يساره؛ لقد كان داخل ممرّ، وشيئاً فشيئاً، جعله ذلك الضوءُ الكهفيّ الذي يرشح من مكانٍ غير محدد، والذي يطفو في الأماكن المعتمة، والذي يضبط فيه توسّع الحدقات، جعله يميّز هنا وهناك ملمحاً أولياً. وارتسمَ الممرُّ ارتساماً مبهماً أمامه.

إن غوينبلين الذي لم يكن قد خمّن ضروبَ الصّرامة العقابية إلا من خلالِ تضخيماتِ أورسوس لها، كان يُحسّ بأن نوعاً من يدٍ ضخمةٍ وغامضة

تمسك به. وإنه لأمرٌ مرعب أن يكون المرء عرضةً لتلاعب ما هو خافٍ في القانون؛ فيكون جسوراً أمام كلّ شيء، ويصاب بالبلبة أمام العدالة، فلماذا؟ ذلك أن عدالة الإنسان ما هي إلا عدالةٌ غسقية، وأن القاضي يتحرّك فيها على غير هدى. وقد كان غوينبلين يتذكّر ما كان أورسوس قد قاله له عن ضرورةِ الصمت؛ كان يريد أن يرى ديا من جديد، وكان في موقفه شيءٌ تقديريٌ غير محدّد، ولم يكن يرغب في إثارته. فأحياناً حين يريد المرء أن يستجلي الأمر، فهو يجعله أسوأ. ومع ذلك، ومن جهةٍ أخرى، فإن ثقلَ هذه المغامرة قد كان على درجةٍ من القوة بحيث انتهى به الأمر إلى الرّضوخ له، فلم يستطع أن يمتنع عن طرح سؤالٍ، فسأل:

– أيها السادة، إلى أين تأخذونني؟

فلم يجيبوه.

كان ذلك هو قانونُ الاعتقادات الصامتة، والنصّ النّورمندي قطعيٌّ في ذلك:

A Silentiariis ostio prae positis intro ducti sunt. (207)

لقد جمّد هذا الصمتُ غوينبلين؛ فحتى ذلك الوقت، كان يظن نفسه قوياً؛ وكان يكتفي بنفسه. وأن يكتفي المرء بنفسه معناه أن يكون مقتدراً. كان قد عاش منعزلاً، متصوّراً أنه إذا كان المرءُ منعزلاً، فمعنى ذلك أنه منيع. وها هو فجأة، يشعر أنه تحت ضغطِ القوةِ الجماعية القبيحة. فبأيةِ صورةٍ يتنازعُ المرءُ مع هذا الرهيب المغفل الذي هو القانون؟ لقد كانت تخورُ قواه تحت اللغز. إن خوفاً من نوعٍ غير معروف قد وجدَ نقطةَ الضّعفِ في لأمته. ثم أنه لم يكن قد نام، ولم يكن قد أكل، ولم يكد يبلل شفتيه بفنجانٍ من الشايِ. لقد أصيب طيلة الليل بنوعٍ من الهذيان، وظل يحسّ بحمى. كان ظمآناً، وربما كان جائعاً. إن المعدة المستاءة تشوّش كلّ شيء. لقد كانت تنقضُ عليه الحوادث العارضة، وصارت الانفعالاتُ التي

تعذّبه تساذده؛ فمن دون الإعصار، يكون الشراعُ خرقة. غير أن ذلك الضّعفَ الشديد، ضعف السّمل الرثّ الذي تنفخُه الريحُ حتى يتمزّق، كان يشعرُ به في داخله. كان يشعر بأن الانهيار آتٍ. فهل سيقعُ فاقداً للوعي على الأرضية؟ هل سيُغمى عليه، فهذا هو ملجأُ المرأة، وإذلالُ الرجل. لقد كان يتماسك، ولكنه كان يرتجف.

كان يتملّكه إحساسُ شخصٍ تزلّ به قدمه.

VIII

أنين

بدؤوا يسيرون.

وتقدموا في الممر

لم يكن هناك أيُّ قلمِ تسجيلٍ أوليّ. ولم يكن هناك أيُّ مكتب فيه سجلاّت.

لم تكن سجونُ ذلك الزمن مزدحمةً بالأوراق. بل كانت تكتفي بأن تنغلق عليك، وغالباً من غير أن تعرف لماذا. فأن تكون سجناً، وأن يكون فيها سجناء، فهذا ما كان يكفيها.

كان يتعيّن على الموكب أن يستطيل، وأن يتخذ شكلَ ممر. فقد كان يجري السّير فيه برتلٍ أحاديّ تقريباً، فالمأمورُ القضائي في المقدمة، ثم غوينبلين، ثم القاضي الإقطاعي، ثم رجال الشرطة الذي يتقدّمون دفعةً واحدة، ويسدّون الممرّ خلف غوينبلين مثل سدادة. وكان الممرُّ يضيق، وقد أصبح غوينبلين في ذلك الحين يلمسُ الجدارَ بمرفقيه. وكان في القبة المبنية من الحصى المغمورة بالإسمنت تقوّساتٌ صوانيّة نافرة تشكل اختناقاتٍ من فسحةٍ لأخرى. كان يتعيّن على المرء أن يخفض جبهته لكي يمر؛ فما من ركضٍ ممكنٍ في ذلك الممرّ، وكان لا بدّ أن يضطر المرء في هروبه أن يسيرَ ببطء، كان ذلك الأخدودُ يحدث انعطافات، إن الأحشاءَ متعرجة، وأحشاء سجنٍ مثلها مثل أحشاء الإنسان؛ ففي هذا المكان أو ذاك، وتارة على اليمين، وتارةً على اليسار، كانت شقوقٌ في الجدار، مربّعةٌ ومغلقة بشبكاتٍ ضخمة تجعلُ المرءَ يتبين أدراجاً، فهذه أدراجٌ صاعدة، وتلك أدراجٌ غاطسة. وقد وصلوا إلى بابٍ

مغلق، فانفتح، ومروا، فعادَ للانغلاق من جديد. ثم وجدوا باباً ثانياً، أفسح لهم المجال للعبور، ثم باباً ثالثاً دار كذلك على مفصّلاته. كانت تلك الأبواب تنفتح وتنغلق ثانية من تلقاء ذاتها. ولم يكنْ يُرى أحد. وفي الوقت ذاته الذي كان الممرّ يضيق فيه، كانت القُبة تنخفض، وقد وصل الأمرُ إلى الحدّ الذي لم يعدْ ممكناً فيه أن يسيرَ المرءُ إلا ورأسه مطأطئ. كان الجدارُ يرشحُ وتسقطُ من القبّة قطرات ماء. وكان للتبليط الذي يرصفُ الممرّ لزوجةٌ معيّ. وأخذ ذلك النوع من الشحوب المنتشر والذي يحل محلّ الإنارة، أخذ يصبح غيرَ شفّاف أكثر فأكثر. وكان الهواء غير كافٍ. أما ما كان باعثاً على الغم خصوصاً؛ فقد كان أن المسار ينحدر.

كان لا بدّ من الانتباه إلى الأمر لكي يتبينَ المرءُ أنه يهبط؛ ففي العتمة، يصبحُ انحدارٌ خفيفٌ شيئاً مخيفاً؛ فما من أمرٍ مرعبٍ أكثر من الأشياء المعتمة التي نصلُ إليها من خلال انحدارات غير محسوسة.

إن الانحدارَ هو الدّخولُ في المجهول الرهيب.

أما كم من الوقت قد جرى السير على تلك النحو؛ فلم يكن بمقدور غوينبلين أن يقول ذلك.

حين انتقلوا إلى هذا المكان المرقّق، استطال القلقُ والدقائقُ استطالةً مفرطة. وفجأة، توقفوا.

كانت الظلّمة كثيفةً.

وكان هناك توسّعٌ ما في الممرّ.

لقد سمع غوينبلين قريباً منه صوتاً يمكن للصنّج الصّيني وحده أن يعطي فكرةً عنه؛ إنه شيء يشبه ضربةً تقرعُ على حجابِ الهوة.

كان المأمور القضائي هو الذي صدمَ بعصاه لتوّه صفيحةً حديدية.

كانت تلك الصّفيحةُ باباً.

إنها ليست باباً يدورُ، بل هي بابٌ يرتفعُ وينخفض، مثل بابٍ محرّبٍ تقريباً.

حدثَ حفيفٌ صارفٌ داخل فرضة.

وواجه غوينبلين أمام عينيه فجأةً قطعةً من ضوءٍ مربعة.

كانت تلك هي الصفيحة التي ارتفعت منذ قليل في شقّ القبة بالصورة التي ترتفعُ بها مأطورةٌ مصيدةِ فئران.

إن فتحةً قد ظهرت.

وذلك الضوء لم يكن ضوءاً، بل كان وميضاً. ولكن تلكَ الإنارةُ الباهتةُ والمفاجئةُ قد كانت، بالنسبة لحدقة غوينبلين المتوسّعة مثل صدمة برقٍ في البداية.

ولبث بعضُ الوقت قبل أن يرى شيئاً. إن تمييزَ الأشياء في حالةِ الانبهار صعبٌ كما في الليل.

ثم أن حدقته قد أخذت تدريجياً تتلاءم مع النور، كما كانت قد تلاءمت مع العتمة. وانتهى به الأمر إلى تمييز الأشياء. فالضوءُ الذي كان قد بدا له شديدَ السطوع، تلطّف في حدقته، وغدا من جديد داكناً؛ ولقد خاطر بنظرةٍ في الفتحة الفارغة أمامه، فكان ما لمحهُ مرعباً.

عند قدميه، كانت عشرونَ درجةً، عالية، وضيقة، وغير مصقولة، وعمودية تقريباً، ولا داربزين لها من اليمين، ومن اليسار، وهي نوعٌ من قمةٍ حجريّةٍ شبيهة بشقّة جدارٍ مشدوفة لتصبح درجاً، كانت تدخلُ وتتوغلُ في قبوٍ شديد التقعر. وكانت تصل حتى الأسفل.

كان ذلك القبو مستديراً، له قبّة ذات قوسٍ قوطية على شكل قوسٍ زاحفة، بسبب نقص مستوى أرجل العقد، وهذا تصدّعٌ خاصٌ بكل السّراديب التي كُوّمت عليها مبانٍ جدّ ثقيلة (208).

أما ذلك الضّربُ من الشق الذي يقوم مقامَ باب، والذي كانت الصّفيحةُ الحديديةُ قد كشفت عنه للتوّ، والذي كان الدّرج يُفضي إليه، فقد كان محزوزاً في القبة، بحيث أن العين تغوص من ذلك الارتفاع في القبو كما تغوصُ في بئر.

كان القبوُ واسعاً، ولو كان قعرَ بئر، لكان قعرَ بئرٍ خرافياً في ضخامته. إن الفكرة التي توقظها الكلمة القديمة 'cul-de- basse -Fosse'(*) لم يكن ممكناً أن تنطبق على ذلك القبو إلا بشرطِ أن يتصوّر المرءُ حفرةً للأسود أو النّمور.

لم يكن القبو مبلطاً أو مرصوفاً. وكانت أرضيتّه من التّرابِ المبللّ والبارد، تراب الأماكن العميقة.

في وسط القبو، كانت أربعةُ أعمدةٍ خفيضةٍ قبيحةٍ تسندُ رواقاً إلى شكل قوسٍ قوطيّةٍ ثقيلة كانت تعاريقُه الأربعةُ ترسم تقريباً جوفَ تاجٍ أسقفيٍّ، حين تتلاقى داخلَ الرواق، وهذا الرواقُ الشبيه بقبب البناء التي كانوا قديماً يضعون فيها التوابيت الحجرية، كان يصعدُ حتى القبّة، ويصنع في القبو نوعاً من غرفةٍ مركزية، إذا أمكننا أن نسمي باسم غرفةٍ حجرةً مفتوحةً من كلّ الجهات، ولها أربعُ دعاماتٍ، بدلاً من أربعةِ جدران.

كان هناك مصباحٌ نحاسيٌّ معلقاً بمفتاحِ عقد القبة، وهو مستديرٌ ومشبّك مثلَ نافذةِ سجن. وكان هذا المصباح يلقي حواليه، وعلى الدّعامات، وعلى القباب، وعلى الجدار الدائري الذي يُستَشفُ بشكلٍ مبهم خلف الدعامات، يلقي ضوءاً باهتاً تقطعه عوارضٌ معتمة.

كان ذلك الضياءُ هو الذي بهر غوينبلين في البداية. أما الآن، فلم يعد بالنسبة إليه إلا حُمرةً مشوّشةً تقريباً.

ما من ضياءٍ آخر في ذلك القبو، لا نافذة، ولا باب، ولا منفذ.

بين الدعائم الأربع، وتحت المصباح تحديداً، في الموضع الذي كان فيه أكبر قدرٍ من الضوء، كانت ممدّدةً بشكلٍ مسطّح على الأرضية قامةٌ بيضاء ورهيبة.

لقد كانت راقدةً على ظهرها. وكان المرءُ يرى رأساً عيناه مغمضتان، وجسماً كان يختفي تحت كتلةٍ لا شكل لها وغيرَ محدّدة، وأربعةَ أطرافٍ

(*) قعر حفرة خفيضة: هو زنزانة تحت الأرض. (م: ز.ع).

ترتبط بالجذع على شكلِ صليبِ القدّيس أندريه، ومشدودةً نحو الدّعائم الأربع بأربع سلاسل مربوطةٍ بالقدمين واليدين. وكانت هذه السلاسلُ تؤدي إلى حلقةٍ حديدية في أسفل كلّ عمود. إن ذلك الشّكل، الذي ثبتَ في وضعيّةِ الفسخ الفظيعة، كان له كمدةُ الجثّة المجمّدة، كان عارياً، وكان رجلاً.

أما غوينبلين الذي كان متحجّراً من الدهشة، وواقفاً في أعلى الدرج، فقد كان ينظرُ. فجأة، سمع حشرجة.

فقد كانت تلك الجثة على قيد الحياة.

وبقرب ذلك الشبح، وفي إحدى أقواس الرّواق القوطية، وفي جانبي مقعدٍ كبيرٍ له ذراعان ويعلوه حجرٌ كبيرٌ مسطّح، كان يقفُ رجلان يرتديان كفنينِ طويلين أسودين، وعلى الكرسي يجلس عجوز متلفّعٌ برداءٍ أحمر، شاحباً، ولا يبدي حراكاً، ومخيفاً، وباقةُ وردٍ في يده.

كان يمكن لباقة الورد هذه أن تحمل دلالةً إلى شخصٍ أقلّ جهلاً من غوينبلين.

إن حقّ المحاكمة، والمرء يمسك بضمّة من الزهور، كان يميّز الحاكمَ الملكيّ والبلديّ في آن. إن اللورد – عمدة لندن لا يزالُ يحاكم بهذه الطريقة. إن مساعدة القضاء على الحكم، كان ذلك هو وظيفةُ ورودِ الفصل الأولى.

أما العجوزُ الجالس في المقعد فقد كان عمدةَ كونتّية سوريّه.

كان له مظهرُ الصلابةِ المهيبة، صلابة رومانيٌ يتقلّد منصبَ العظمة (209).

كان الكرسيُّ هو المقعد الوحيد الموجود في القبو.

إلى جانب الكرسي، كان المرء يرى طاولةً مغطاةً بالأوراق والكتب، وقد وضعت عليها عصا طويلة بيضاء، هي عصا العمدة.

أما الرجلان الواقفان على يمين العمدة وعلى يساره، فقد كانا عالمين (دكتورين)، أحدهما بالطب. والآخر بالقوانين؛ وكان هذا الأخير يمكن تعرُّفه من القلنسوة التي يعتمرُها كرقيبٍ قانونيٌ على شعره المستعار. كان كلاهما يرتديان رداءً أسود، فأحدُهما قاضٍ، والآخرُ طبيبٌ. إن هذين النوعين من الرجال يلبسان الحدادَ على الموتى الذين أعدماهم.

خلف العمدة، وعلى حافة الدرجة التي كان يصنعها الحجرُ المسطح، كان يجلس القرفصاء كاتبُ محكمةٍ مع ظرفٍ لأدوات الكتابة بقربه على البلاطة، وإضبارةٍ من الورق المقوى على ركبتيه، وورقة رقٍّ على الإضبارة، وهو يضع شعراً مستعاراً مستديراً، وبيده ريشة، في وضعية رجلٍ مستعدٍ للكتابة.

كان كاتبُ المحكمة هذا من النوع المسمي: كاذب المحكمةَ حامل الحقائب، وهذا ما كان يشيرُ إلى خُرجٍ كان أمامه، عند قدميه. إن هذه الخروج، التي كانت تستخدم قديماً في الدّعاوى، كانت توصفُ بأنها 'حقائبُ العدالة'.

كان رجلٌ يرتدي الجلد بالكامل يستند إلى إحدى الدعامات، وهو متكتف. لقد كان خادمَ جلاد.

كان هؤلاء الرجال يبدون مسحورين في وضعيتّهم الجنائزية حول الرّجلِ المقيّد. ولم يكن أحدٌ منهم يتحرّكُ أو يتكلم.

كان يهيمن على كل هذا هدوءٌ مخيف.

إن ما كان غوينبلين يراه هناك، إنما هو قبوٌ عقابي. وكانت تلك الأقبيةُ كثيرةَ العدد في إنكلترا. ولقد استخدم قبوُ الدفن، قبو بوشان تاور لزمنٍ طويل لهذا الغرض، وكذلك سردابُ لولاردر بريزن: (سجن لولارد).

لقد كان فيه، ولا يزال المرء يرى ذلك في لندن، من هذا الطراز، المكان الخفيض المسمى بـــ 'قفزات ليدي بليس'. وفي هذه الغرفة الأخيرة، كان هناك موقدٌ يُستخدمُ عند الضرورة لتحمية قطع الحديد.

إن كافة السجون في زمن الملك جون، وسجن ساوثويرك أحدها، كان فيها قبوٌ عقابي.

إن ما سيتلو ذلك قد كان يمارسَ حينذاك بصورةٍ شائعة في إنكلترا ويمكنه، عند الاقتضاء، في الإجراءات الجنائية، أن ينفّذ اليوم حتى، لأن هذه القوانين لا تزال موجودة. إن إنكلترا تقدّم هذا المشهدَ المثيرَ للغرابة، مشهدَ شرعةٍ همجيةٍ حيّةٍ على وفاقٍ جيد مع الحرية. إن الوفاق المنزلي ممتاز، ولنقل ذلك.

إن بعض الارتياب ليس مع ذلك في غير محله، فإذا ما حدثت أزمةٌ طارئة، لا تكون عودة العقاب متعذرة. إن التشريع الإنكليزي نمرٌ مروّض. إنه يُظهر اللطفَ، ولكن لقوائمه مخالبَ دائماً.

إن تقليمَ أظافر القوانين هو أمر متعقّل.

إن القانون، يجهل الحق تقريباً، فمن جهة، هناك العقاب، ومن الجهة الأخرى، الإنسانية. إن الفلاسفة يحتجّون. غير أن زمناً سيمرّ أيضاً قبل أن تلتحمَ عدالةُ البشر بالعدالة.

احترامُ القانون، هذه هي الكلمةُ الإنكليزية. ففي إنكلترا، يبجّلون القوانين إلى حدٍ كبير بحيث لا يلغونها إطلاقاً. ويتخلصّون من هذا التبجيل بعد تنفيذها.

إن شرعةً قديمةً يُهملُ تطبيقُها، مثل امرأةٍ عجوز، فلم يعدْ يجري قتلُ إحدى هذه العجائز، كما لا يجري قتلُ الأخرى. ويجري الكفُّ عن ممارستها، هذا كلّ شيء، ولهما الحريةُ في أن يظنّا نفسيهما جميلتين وشابتين دوماً. إننا ندعُهما تحلمان بأنهما موجودتان. وهذا التأديبُ يسمّى الاحترام.

إن التقليدَ النورماندي متغضّنٌ فعلاً، وهذا لا يمنع أكثر من قاضٍ إنكليزي من أن يرنو إليه أيضاً بشغف. إن المرء يحافظ بحبٍّ على رثّة بغيضة، إذا كانت نورمندية. فأيُّ شيء أكثر فظاعةً من المشنقة، وفي عام /١٨٦٧/ حُكم على رجلٍ(*) بأن يُقطع إلى أربعِ شقق تُقدَّمُ إلى سيدة، هي الملكة.

فضلاً عن ذلك، فإن التعذيب لم يكن قطّ موجوداً في إنكلترا، والتاريخ هو الذي يقول ذلك. إن توازنَ التاريخ شيءٌ جميل.

إن ماثيو دوويستمنستر يدوّن أن "القانون السّكسوني، المتسامحَ جداً والحليم" لم يكن يعاقبُ المجرمين بالإعدام، ويضيف أنه "كان يكتفي بقطعِ أنوفهم وفقء عيونهم، وانتزاع الأقسام التي تميّز الجنسَ لديهم" فقط!

أما غوينبلين، الزائغُ النظرة في أعلى الدرج، فقد بدأ يرتعدُ بكلّ فرائصه. وكان مصاباً بكلّ أنواع الارتعاشات. كان يسعى إلى تذكّر أيّة

(*) الفينيان بورك، في أيار للعام /١٨٦٧/.

جريمةٍ كان يمكن أن يكون قد ارتكبها. وقد أعقب صمتَ المأمور القضائي للتوّ رؤيا العقاب. لقد كان ذلك تقدّماً، ولكنه تقدّمٌ مأسويّ. كان يرى اللغزَ الخفيَّ القانوني الذي يشعرُ أنه قد وقع تحته، كان يراه يزداد غموضاً.

أما الشكلَ البشريَّ الراقد على الأرض فقد حشرجَ مرةً ثانية.

أحسّ غوينبلين بأن هناك من يدفعُه من كتفه بلطف.

وكان ذلك يأتي من المأمور القضائي.

فهم غوينبلين أنه كان ينبغي له أن ينزل.

فامتثل.

لقد توغّل في الدرج من درجةٍ إلى درجة.

كانت للدّرجات حافةٌ رقيقة جداً، وكان ارتفاعُها ثمان أو تسع بوصات. إضافة إلى أنها لم يكن لها درابزين، ولم يكن باستطاعة المرء أن ينزل إلاّ بحذر. ووراء غوينبلين، كان المأمور القضائي ينزل، وهو يتبّعه على مسافة درجتَين، ممسكاً السلاح الحديدي بصورة مستقيمة، وخلف المأمور القضائي، كان ينزل على المسافة نفسها القاضي الإقطاعي.

حين كان غوينبلين ينزلُ تلك الدرجات، أخذ يحس بانطواءٍ للرجاء غير محدد. كان ذلك أشبه ما يكون بالموت خطوةً خطوة. كانت كلُ درجة يجتازها تطفئ نوراً لديه. فوصل، وهو يزدادُ شحوباً، إلى أسفل السلم.

إن ذلك النوع من يرقانةٍ مطروحةٍ أرضاً وموثقةٍ بأربع دعائم تواصلُ الحشرجة.

قال صوتٌ في النور الباهت:

"اقتربوا".

كان ذلك هو العمدة الذي يتوجّه إلى غوينبلين.

خطا غوينبلين خطوة أيضاً. فتابع العمدة قائلاً:

"أقرب"

همس القاضي الإقطاعي في أذن غوينبلين بلهجةٍ على درجةٍ كبيرة من الجدية بحيث بدا هذا الهمس احتفالياً:

'أنتَ أمامَ عمدةِ كونتية سوريّة'

اقترب غوينبلين حتى المعذَّب الذي يراه ممدّداً في وسط القبو. وبقي المأمورُ القضائيّ. والقاضي الإقطاعي حيث هما، وتركا غوينبلين يتقدّم بمفرده.

ما إن وصل غوينبلين إلى ما تحت الرواق، حتى رأى عن كثب ذلك الشيءَ البائسَ الذي لم يكن قد لمحه بعد إلا عن بُعد، والذي كان رجلاً على قيد الحياة، حتى غدا رعبُه ذعراً فظيعاً.

كان الرجلُ الموثقُ على الأرض عارياً تماماً، باستثناء ذلك السمّل البالي والمحتشم بشكلٍ منفرٍ والذي يمكن أن نسميه ورقةَ كرمةِ التعذيب، والتي كانت Succigulum عند الرومان وChristipannus عند القوطيين، والتي صنعت منها أُرغتنا الغاليّة كلمة Cripagne. ويسوع، العاري على الصليب، لم يكن لديه إلا هذه المزقة.

كان المعذَّب المرعبُ الذي يتأمله غوينبلين رجلاً بين الخمسين والستين من عمره. كان أصلع. وكانت أوبارٌ لحيته البيضاء تتنفش في ذقنه. كان يغمض عينيه ويفتح فمه. وكان المرء يرى كل أسنانه. وكان وجْهه النّحيلُ والعظميّ هو أقرب ما يكون إلى هيكلِ جمجمة. أما ذراعاه وساقاه المثبتة بالسلاسل إلى أربعة أعمدة حجرية، فقد كانت تشكل حرف X. وكانت على صدره وبطنه صفيحةٌ حديدية، وعلى تلك الصّفيحة كانت توضعُ، على شكلِ كومة، خمسةٌ أو ستّةٌ أحجار ضخمة، وكانت حشرجتُه نفساً حيناً، وزمجرة حيناً.

أما العمدة، فمن دون أن يترك باقة الورد، فقد أمسك باليد التي كانت خالية، بعصاه البيضاء ونصبها وهو يقول:

'الطّاعة لجلالته'

ثم أعاد وضع العصا على الطاولة.

بعد ذلك، وببطءِ قرعةِ الحزن، ومن دون حركة، رفع العمدة صوته، وهو جامدٌ كجمود المعذَب، وقال:

"أيها الرجلُ الموثَق هنا بالسلاسل، اصغ للمرّة الأخيرة لصوت العدالة، لقد أُخرجتَ من زنزانتك، وجُلبت إلى هذا السجن. لقد جرى استجوابُك حسب الأصول، وضمن الأشكال المرادة (211) Formaliis Verbis pressus، ومن دون مراعاةٍ للمطالعات والإبلاغات التي قُدّمت إليك، والتي جرى مجدداً تقديمها إليك، ومستوحياً روح العناد السيئة والضّالة، فقد انغلقت في الصمت، ورفضت أن تجيب على القاضي. وهذا ما يُعتبر طيشاً مقيتاً، وما يشكّل، بين الوقائع التي يُعاقب عليها المجمعُ الملكيّ على إنه جريمةُ إفراطٍ في ضبطِ النفس، وإثم.

أما رقيبُ القلنسوة الذي كان واقفاً على يمين العمدة فقد قاطعه، وقال بعدمِ اكتراثٍ يتضمّنُ شيئاً كئيباً غير محدد:

" overhernessa[*]. تشريعات الفرد دوغودرون، الفصل السادس"

فاستأنف العمدة يقول:

"إن القانونَ مبجّلٌ من الجميع، باستثناء اللصوص الذين يعيثون فساداً في الغابات، والظباء تلد صغارها".

ومثل جرسٍ يدقّ بعد جرس، قال الرقيب:

" qui Faciunt Vastum in Foresta ubi damae Solent Founinare "

فقال العمدة:

"إن من يرفض الإجابةَ على القاضي يكون مُشتبهاً به بكلّ الرذائل، وهو يُعدُّ قادراً على أن يصنع كلّ الشرّ".

فتدخّل الرقيب قائلاً:

Prodigus,devorator,profusus,salax,ruffianus,ebriosus, luxurosus, simulator ,Consumptor , patrimonii , elluo ,ambro , et gluto.

(*) استرقاق السمع. (م: ز. ع).

فقال العمدة:

– إن كل الرذائل تفترضُ كلّ الجرائم. إن من لا يُقرُّ بشيء يعترفُ بكلّ شيء.

إن من يسكت أمام أسئلة القاضي هو في حقيقة الأمر كاذبٌ وقاتلٌ لأهله.

فقال الرقيب:

– Mendax et parricida

وقال العمدة:

'أيها الرجل، ليس مسموحاً أن يجعل المرءُ نفسه غائباً بالصّمت. إن التغّيب الزّائفَ يجرحُ القانون. إنه يشبه ديوميد الذي يجرح إلهةً. والسكوتُ أمام العدالة هو شكلٌ من التمرّد. إن القدحَ في العدالة إنما هو قدحٌ في الذّات الملكية. فما من شيءٍ بغيضٍ أكثر من ذلك، وأكثر تهوّراً. إن من يتملّص من الاستجواب يسرقُ الحقيقة. والقانون قد عالج الأمر. في حالاتٍ مماثلة، فإن الإنكليز قد تمتّعوا على الدوام بحقّ القبر، والمشانق والسلاسل'.

فقال الرقيب

– Anglica charta (الدستور الإنكليزي) للعام /١٠٨٨/ '

وأضاف الرقيب بالجدية الآلية نفسها دوماً:

.' Ferrum,et Fossam,et Fursas,cum aliis libertatibus '

وتابع العمدة:

'وهذا هو السبب أيها الرجل، وطالما أنك لم تشأ أن تخرجَ عن الصمت، مع أنك سليمٌ عقلياً ومطلّع إطلاعاً كاملاً على ما تطلبه العدالة منك، وطالما أنك متمرّدٌ بشكلٍ شيطاني، فقد اقتضى الأمر أن تدخل جهنم، وقد وضعت في امتحان العذاب المسمى 'بالعقاب القويّ والقاسي'، حسب تعابير الأنظمة الجرمية.

وإليك ما صُنع بك. إن القانون يقتضي بأن أُعلمك بالأمر بشكلٍ حقيقيّ.

لقد أتوا بك إلى هذه الحفرة الخفيضة، وجُرّدت من ثيابك، وأُرقدت عارياً تماماً على الأرض على ظهرك، وقد شُدّت أطرافُك الأربع، وأوثقت بأعمدة القانون الأربعة، وطُبّق لوحٌ حديديٌ على بطنك، ووضعت على جسمك أحجارٌ بالقدر الذي تستطيعُ حمله.

يقول القانون "وأكثر".

وأكد الرقيب:

– Plusque (وأكثر).

وواصل العمدة يقول:

"في هذا الموقف، وقبل أن نطيل أَمَدَ المحنة قد صنعنا لك، أنا عمدة كونتيّة سوريّة، إخطاراً رسميّاً مكرراً للإجابة وللكلام، وقد دأبت بشكلٍ شيطاني على السكوت، مع أنك تحت سيطرة المضايقات، والسلاسل، والقيود، وعوائق الرّبط وأدوات التغليل.

فقال الرقيب:

– Attachiamenta legalia (التغليلات القانونية).

فقال العمدة:

– بناءً على رفضك وتصلّبك، وبما أنه من المنصف أن يكون عنادُ القانون مساوياً لعناد المجرم، فإن المحنةَ قد استمرت كما تأمر بذلك المراسيمُ والنصوصُ. وفي اليوم الأول، لم تُعطَ شراباً ولا طعاماً.

فقال الرقيب:

– "Hoc est superjejunare"

مرّت لحظةُ صمت. وكان المرءُ يسمعُ التنفّسَ الصّافر، تنفّسَ الرّجل الرازح تحت كومةِ الحجارة.

وأكمل الرقيبُ القانوني مقاطعته، فقال:

"Adde augmentum abstinentiae ciborum diminutione consuetudo britannica"

المادة خمس مئة وأربع.

كان هذان الرجلان، العمدة والرقيب، يتناوبان؛ فما من شيءٍ أكثر إثارةً للكآبة من تلك الرّتابة الرّصينة؛ فقد كان الصّوت الحداديّ يجاوبُ الصوتَ المخيف؛ وكأنهما كاهنُ التعذيب ونائبه اللذان يقيمان قدّاسَ القانون الشرس.

استأنف العمدة يقول:

"في اليوم الأول، لم يعطوك شراباً ولا طعاماً. وفي اليوم الثاني، أعطوك طعاماً، ولم يعطوك شراباً؛ فلقد وضعوا بين أسنانك ثلاث لقماتٍ من خبز الشعير. وفي اليوم الثالث، أعطوك شراباً ولم يعطوك طعاماً. وقد سكبوا في فمك، لثلاث مرات، وفي ثلاثة أقداح، بنتة(*) من الماء المأخوذ من ساقيةِ مجرور السجن. أما اليوم الرابع، فهو اليوم. والآن، إذا واصلت عدم الإجابة، فلسوف نترك هنا حتى تموت. هكذا تشاء العدالة".

أما الرقيب المهيأ دوماً لتقديم تجاوبه، فقد وافق قائلاً:

Mors rei homagium est bonae legi

وأسرع العمدةُ ليقول:

– وفيما تشعر بأنك تموتُ بصورةٍ تدعو إلى الشفقة، فلن يساندك أحد في احتضارك، حتى ولو خرجَ الدمُ من حنجرتك، وذقنك وإبطيك، ومن كلّ فتحاتِ جسمك، اعتباراً من فمك وحتى خاصرتيك.

فقال الرقيب:

A throtebolla , et pabu et subhircis ,et a grugno usque ad scriponum'.

وتابع العمدة يقول: – أيها الرجل، انتبه. لأن النتائج تعنيك. وإذا ما خرجت عن صمتك المقيت، وإذا ما اعترفت، فلن تشنق، وسوف يكون لك الحقّ في تعويضٍ عن ضرر، والذي هو مبلغ من المال.

فقال الرقيب:

(*) البنتة هي مكيال قديم ن يعادل في انكلترا: 0.568 من اللتر. (م: ز.ع).

Damnum confitens. habeat le meldefeoh. leges الفصل العشرون

وأكدَ العمدةُ قائلاً:

– وهو مبلغٌ سوف يدفع لك بالدويتكين، والسوسكين والغاليهابينس، في الحالة الوحيدة التي يمكن لهذه النقود أن تُستعمل، حسب عباراتِ تشريع الإلغاء، في السنة الثالثة لهنري الخامس، وسيكون لك الحق في التّمتع بـ Scortum ante mortem (212) وبعد ذلك تُخنق بالمشنقة. تلك هي ميزاتُ الاعتراف. فهل يروقُ لك أن تجيبَ العدالة؟"

سكتَ العمدة وانتظر، وبقي المعذّب بلا حراك.

واستأنف العمدة يقول:

"أيها الرجل، إن الصمت ملجأٌ فيه خطرٌ أكثر مما فيه من الخلاص. إن العنادَ مدانٌ وأثيم. إن من يسكتُ أمام العدالة متمرّدٌ على التاج. فلا تصرّ على هذا العصيان غير البنوي. فكّر بجلالتها. ولا تقاوم ملكتنا اللطيفة. وحين أكلّمك، أجبني. وكنْ من الرعية المخلصة".

حشرج المعذّب:

وأسرع العمدةُ إلى القول:

"إذن، وبعد الساعات الاثنتين والسبعين الأولى من المحنة، ها نحن في اليوم الرابع، فأيّها الرّجل. هذا هو اليومُ الحاسم. وفي اليوم الرابع إنما يحدّد القانون موعدَ المجابهة".

فدمدم الرقيب:

– quarta die, frontem adduce.

وتابع العمدة يقول:

– لقد اختارت حكمةُ القانون هذه الساعةَ القصوى لكي تحصل على ما كان أسلافنا يسمّونه "بالحكم على يد الفاني الهادئ". نظراً لأن هذه هي اللحظة التي يُصدّق فيها الناسُ من قولهم نعم ومن قولهم لا".

فأيد الرقيب القانوني قائلاً:

" Judicium pro frodmortell,quod homines credendi sint per suum ya et per suum na.

تشريع الملك أديلستان. المجلدُ الأول، الصّفحة مئة وثلاث وسبعون"

مرّت لحظةُ انتظار، ثم أحنى العمدةُ وجهه العابسَ نحو المعذّب وقال:

"أيها الرّجلُ الموجود هنا والراقد على الأرض.... "

وتوقّف للحظةٍ، ثم صاح:

"أيّها الرّجل، هل تسمعنا؟"

فلم يتحرّك الرجل.

"باسم القانون، افتح عينيك".

بقيت أجفانُ الرّجل مغمضةً.

استدار العمدةُ نحو الطّبيب الواقف على يساره، وقال:

"أيها الطبيبُ، أعطِ تشخيصك.

فقال الرقيب:

– probe de diagnosticum

نزل الطبيب عن البلاطة بتصلب حازم، واقترب من الرجل، وانحنى ووضع فمه قريباً من فم المعذّب، وجسَّ نبضه عند معصمه، وفي إبطه، وفي فخذه، وانتصب.

فقال العمدة: وإذن.

فقال الطبيب:

– إنه لا يزال يسمع.

فسأل العمدة:

– وهل يرى؟

فأجاب الطبيب:

"يمكنُه أن يرى"

بإشارة من العمدة، تقدّم القاضي الإقطاعي والمأمورُ القضائي. واتّخذ المأمورُ مكانه قريباً من رأس المعذّب. وتوقّف القاضي وراء غوينبلين.

تراجع الطبيبُ خطوةً بين الدعائم.

حينئذ، استجوب العمدة المعذب بصوتٍ عالٍ، وقد غدا مخيفاً، في الوقت الذي كان يرفع فيه باقةَ الورد مثلما يرفعُ كاهنٌ مرشّةَ الماء المقدس:

"أيها الشقي، تكلم! إن القانون يتوسّلُ إليك قبل أن يقضي عليك. أنت تريد أن تبدو أخرس، ففكر بالقبر الذي هو أخرس. وتريد أن تبدو أصم، ففكر بالهلاك الذي هو أصمّ. فكّر بالموت الذي هو أسوا منك. فكّر، ستترك في هذه الزنزانة. اسمعْ، يا شبيهي، لأنني رجل. اسمع، يا أخي، لأني مسيحيٌّ! اسمع، يا بني، لأني عجوز! احترسْ مني، لأني سيّدُ عذابك، ولسوف أكون فظيعاً بعد قليل. إن رعبَ القانون يصنع هيبة القاضي. فكرْ بأني أنا بالذات ارتجفُ أمام نفسي. إن سلطتي الخاصة تروّعني. فلا تدفعني إلى النهاية".

فأنا أحسُّ بأني مفعمٌ بأذى القصاص المقدس. فلتكنْ لديك إذن، أيها المنكودُ الخشيةُ الخلاصيّةُ والنزيهة، خشيةُ العدالة، وأطعني. إن ساعةَ المجابهة قد أتت، وعليك أن تجيب. فلا تتصلّب في مقاومتك. ولا تدخلْ إلى ما يتعذّر تغييرُه. وفكر بأن الإجهازَ هو حقي. أيها الجثة في بدايتها، اسمع! إلا إذا كان يروق لك أن تقضي هنا خلال ساعات، وأيام وأسابيع، وأن تحتضرَ طويلا باحتضارٍ فظيعٍ، جائعٍ وغائطي، تحت ثقل هذه الحجارة، ووحيداً في هذا السّرداب، متروكاً، ومنسياً، وملغى ومقدّماً كطعامٍ للفئران وأبناء عرس، وتعضك حيواناتُ العتمة، في حين يروحُ الناس ويجيئون، ويشترون ويبيعون، وتسيرُ العربات في الشارع فوق رأسك، إلا إذا كان يناسبك أن تحشرج بلا انقطاع في أعماق هذا اليأس، وأنت تصرُّ بأسنانك، وتبكي، وتجدّف، من دون طبيب يسكنُ جراحك، ومن دون كاهنٍ يقدّم قدحَ الماء الإلهي إلى روحك؛ أوه إلا إذا كنت تريد أن تشعرَ ببطءِ ظهورِ زبد القبر القبيح على شفتيك. أوه! إني أناشدُك. وأتوسّلُ إليك، اسمعني! إني أدعوك إلى نجدة نفسك، فارحمْ نفسك، واصنعْ ما يُطلبُ منك، ارضخ للعدالة، وامتثلْ لها، أدرْ رأسك و افتح عينيك، وقلْ إن كنت تتعرّفُ هذا الرّجلَ! ".

لم يُدرْ المعذّبُ رأسَه، ولم يفتح عينيه.

أنعم العمدةُ النّظر بالقاضي الإقطاعيّ وبالمأمور القضائي.

نزع القاضي الإقطاعي قبعةَ ومعطفَ غوينبلين، وأمسك به من كتفيه، وجعله يواجه الضوء من ناحية الرّجل الموثق... فبرز وجهُ غوينبلين في كلّ هذه العتمة، بكل جلائه الغريب، وقد أُنير إنارةً كاملة.

في الوقت ذاته، انحنى المأمور القضائي، وأمسك بين يديه رأسَ المعذّب من صدغيه، أدار ذلك الرأس الذي لا حراك فيه نحو غوينبلين، وبإبهامه وسبّابتيه، أزاح الأجفانَ المغمضة. فظهرت عينا الرجل المخيفتان.

حينئذ، نظر إليه، وهو يرفع رأسه بنفسه، ويفتحُ أجفانه على ملئها.

لقد ارتعد بقدر ما يمكن للمرء أن يرتعد، حين يكون هناك جبلٌ على صدره، وصاح:

"هذا هو! أجل! هذا هو!"

وإذ أصبح مخيفاً، فقد قهقه، وهو يردد:

"هذا هو!"

ثم ترك رأسه يسقطُ ثانيةً على الأرض، وأغمض عينيه من جديد.

فقال العمدة:

"أيها الكاتب القانوني، اكتبْ"

أما غوينبلين، فمع أنه مذعور، فقد كان يُظهر حتى تلك اللحظة رباطةَ جأشٍ تقريباً. فقد شوشته الصّرخةُ التي أطلقها المعذب: "هذا هو!" وقد جمّدته من الخوف هذه الكلمات: "أيها الكاتب القانوني، اكتب". لقد بدا له أن رجلاً غادراً كان يجرّه إلى مصيره، من غير أن يتمكّن هو، غوينبلين، أن يخمّن لماذا، وأن الاعترافَ غير المفهوم لذلك الرجل كان يُطبقُ عليه مثل مفصل غلّ. لقد تخيّل نفسه وذلك الرجل مربوطين بعمود التشهير نفسه بدعامتين توأمين. لقد أصبح غوينبلين لا يعرف ماذا يفعلُ في هذا الذّعر، فتخبّط فيه. وأخذ يلجلجُ بتمتماتٍ غيرِ متماسكة، باضطراب البراءة العميق، فأطلق

مرتعداً، ومذعوراً، ومهتاجاً، وعلى غير هدىً، الصرخاتِ الأولى التي صدرت عنه، وكل تلك الكلمات كلماتِ القلق التي تشبهُ القذائفَ الخرقاء.

"ليس هذا صحيحاً. لست أنا من تريدون. أنا لا أعرفُ هذا الرجل. ولا يمكن أن يعرفني، لأني لا أعرفُه. إن لدي عرضاً مسرحياً ينتظرني هذا المساء. فماذا يُراد مني؟ إني أطلب حريتي. وهذا ليس كلّ شيء. فلم جُلبتُ إلى هذا القبو؟ وإذن لم تعد هناك قوانين. قولوا حالاً إنه لم يعد هناك قوانين. يا سيدي القاضي، أكرر لستُ أنا من تريدون، إني بريء من كلّ ما يمكنُ أن يقال. أنا أعلم ذلك جيداً، وأريدُ أن أذهب. إن هذا غيرُ منصف. ما من شيءٍ بين هذا الرّجل وبيني. ويمكن الاستعلامُ عن ذلك. إن حياتي ليس شيئاً مخفيّاً، وقد أتوا ليقبضوا علي كلصٍّ. فلمَ أتوا كذلك؟ وهذا الرجل، هل عرفَ ما هو؟ إني صبيٌّ متجول يقدّم تمثيلياتِ تهريجٍ في المعارض والأسواق. أنا الرَّجلُ الضاحك. وهناك ما يكفي من الناس الذين أتوا للتفرّج عليّ. إننا في تارينزو – فيلد. وها أنا أقوم بمهنتي بشرفٍ منذ خمسة عشر عاماً. إن عمري خمسة وعشرون عاماً، وأقيمُ في نزل تادكاستر. وأدعى غوينبلين. فتفضّلوا بأن تخرجوني من هنا، يا سيدي القاضي، فلا يجدر الإسرافُ في استغلال صغر المنكودين. فلترأفوا برجلٍ لم يفعلْ شيئاً، وهو محرومٌ من الحماية والدفاع. إن أمامكم بهلواناً مسكيناً.

فقال العمدة:

– أمامي اللورد فيرمان(213) كلانشارلي، بارون كلانشارلي وهانكرفيل، ومركيز كورليون في صقلية، وعضو مجلس لوردات إنكلترا"

وأضاف العمدة، وهو ينهض، ويدلّ غوينبلين على مقعده:

"يا ميلورد فلتتفضلْ سيادتك بالجلوس".

الكتاب الخامس

البحر والقدر يهتاجان تحت الهبوب نفسه

I

صلابة الأشياء الهشة

يمدُّ لنا القدرُ قدحاً من الجنون لنشربه، إن يداً تخرج من الغيم وتقدم إلينا فجأة الكأس القاتمة التي فيها الثمالةُ غير المعروفة.

إن غوينبلين لم يفهم.

إن الصوتَ المفرط في حدّته لا تلتقطه الأذن، والانفعالَ البالغَ الحدة لا يستطيع العقلُ أن يلتقطه كذلك. هناك حدٌّ للفهم مثلما هناك حدٌّ للسمع.

اقترب المأمور القضائي، والإقطاعي من غوينبلين، وأمسكا به من تحت ذراعيه، فأحس أنهما يجلسانه على الكرسيِّ التي كان العمدة قد نهض منها.

خضع لذلك. من غير أن يوضح لنفسه كيف كان ذلك ممكناً.

عندما جلس غوينبلين، تقهقر القاضي الإقطاعي والمأمور القضائي بضع خطوات، ومكثا واقفين وجامدين وراء الكرسي.

حينئذٍ وضع العمدةُ باقةَ الزهور التي يحملُها على البلاطة، ووضع النّظارةَ التي قدمها له الكاتبُ القانونيُّ، وسحبَ من تحت الملفات التي كانت تزحمُ الطّاولة ورقة رقٍ مبقّعة، ومصفرّة، ومخضرّة، ومتآكلة ومهشمة في بعض المواضع، وكان تبدو وكأنها قد طُويت بطيات متقاربة جداً، وكان أحدُ جانبيها مغطىً بكتابة معينة، وقرأ وهو واقفٌ تحت نُورِ المصباح، مقرّباً تلك الورقة من عينيه، قرأ بصوته الأكثر ارتسامية ما يلي:

"باسم الأب والابن والروح القدس".

"في هذا اليوم التاسع والعشرين من كانون الثاني للعام ألف وستمئة وتسعين لتقويم سيدنا المسيح".

"لقد تُرِك بصورةٍ شريرة، على ساحلِ بورتلاند المقفر طفلٌ عمرُه عشرةُ أعوام، بقصد تركه يهلك فيه من الجوع والبرد والوحدة".

"لقد بيع هذا الطفلُ وهو في الثانية من عمره بأمرٍ من جلالته اللطيفة جداً، الملك جاك الثاني".

"إن هذا الطفل هو اللورد فيرمان كلانشارلي، الابن الشرعي الوحيد للورد لينيوس كلانشارلي، بارون كلانشارلي وهنكرفيل، ومركيز كورليون في إيطاليا، وعين من أعيان مملكة إنكلترا، المتوفى، وآنا برانشو زوجته، المتوفاة".

"إن هذا الطفلَ هو وريثُ أملاكِ وألقابِ والده. وهذا هو السَّببَ في أنه قَد بيع وجُدِعَ وشُوِّه وجْهه، واختفى حسبَ مشيئةِ جلالته اللطيفة جداً".

"لقد ربي هذا الطفلُ ودُرِّب ليكون بهلواناً في الأسواق والمعارض".

"وقد بيع في الثانية من عمره بعد موت السيد والده، وأعطي الملك عشر ليرات إسترلينية مقابل شراء هذا الطفل، وكذلك لقاء مختلف الامتيازات والتسهيلات والإعفاءات".

"إن اللورد فيرمان كلانشارلي في الثانية من عمره قد تم شراؤه على يدي، أنا الموقع أدناه الذي يكتب هذه السطور، والذي هو الوحيد الذي يملك أسرارَ الدكتور كونكيست وطرائقه".

"وقد خُصِّصَ الطفلُ على يدنا ليكون قناعاً ضاحكاً. Masca ridens ".

"ولهذه الغاية أجرى له هاردكوانون عملية(*) Bucca Fiss usque od aures والتي تضع على الوجهِ ضحكةً دائمة."

"وبوسيلة يعرفها هاردكوانون وحده، فإن الطفلَ الذي جرى تدويمه، وأصبح فاقداً للإحساس خلال ذلك العمل، يجهلُ العملية التي خضع لها".

"فهو يجهل أنه اللورد كلانشارلي".

"ويستجيبُ لاسم غوينبلين".

(*) شق فموي يصل حتى الأذنين (م: ز. ع).

"ويرجع ذلك إلى صغر سنه، وإلى ضآلة الذاكرة التي كانت لديه حين بيع واشتري، عندما كان لا يكاد يبلغ الثانية من عمره".

"إن هاردكوانون هو الوحيد الذي يُحسن القيام بعملية Bucca Fissa والطفلُ هو الحيُّ الوحيد الذي أجريت له".

"إن هذه العملية وحيدةٌ وفريدةٌ من نوعها بحيث أن هذا الطفل، حتى بعد مرور سنوات طويلة، حتى وإن كان عجوزاً بدلاً من أن يكون طفلاً، وحتى لو أصبح شعرُه الأسود شعراً أبيض، فلسوف يتعرّفه هاردكوانون فوراً".

"في الساعة التي نكتب فيها هذا، فإن هاردكوانون الذي يعرف بكفاءة كلَّ هذه الوقائع، وقد اشترك فيها كصانع رئيسيٍّ لها، محتجزٌ في سجون سموِّ أمير دورونج، والذي يُدعى بصورةٍ متداولةٍ بالملك غليوم الثالث. لقد اعتُقل هاردكوانون وقُبض عليه باعتباره من أولئك المدعووين بـــ الكومبرا شيكوس والشّيلاس، وسُجِن في برج شاتام الرئيس".

"وفي سويسرا، بقرب بحيرة جينيف، وبين لوزان وفيفي، وفي البيت نفسه الذي مات فيه والده ووالدته، إنما بيع لنا الطفل، بموجب أوامر الملك. وسُلِّم على يد الخادم الأخير للورد المرحوم لينيوس، وهو خادم قد توفي بعد قليل من وفاة مخدوميه، بحيث أن تلك القضية الحساسة والسّرية لم تعدْ معروفةً في هذا الوقت من أحد في هذا العالم الأرضي، إلا من هاردكوانون الموجود في زنزانةٍ في شاتام، ومنا نحن الذين سنموت".

"نحن الموقعين أدناه، قد ربّينا ورعينا لثمانية أعوام السيِّد الصغير الذي اشتريناه من الملك، لكي نُفيد منه في صناعتنا".

"وفي هذا اليوم، وإذْ هربنا من إنكلترا لئلا نشارك هاردكوانون مصيره، فقد تركنا، تهيباً وخشيةً، وبسبب قراراتٍ كابحةٍ وتهديداتٍ جزائية جرى سنها في مجلس النواب، تركنا عند حلول الليل، على ساحلِ بورتلاند، الطّفل المعنيَّ غوينبلين، والذي هو اللورد فيرمان كلانشارلي".

"والحال، فقد أقسمنا على السرِّ للملك، ولكن ليس للربّ".

"وهذه الليلة، ونحن في البحر، انقضّت علينا عاصفةٌ قاسية بمشيئة العناية الإلهية، وأصبحنا في غمرة اليأس والكرب، وجثونا أمام ذلك الذي يمكنه أن يُنقذ حيواتنا، والذي ربما يريد أن يخلّصَ أرواحنا، ولم يعد لدينا شيءٌ ننتظرُه من البشر. ولدينا كلّ شيء نخشاه من الله، ولدينا الندم على أفعالنا السيئة مرساةً لنا وملجأ... لقد رضخنا للموت، وسُررنا إذا كانت عدالةُ السماء قد رضيت".

ونحن ندقّ صدورنا بتواضعٍ وتوبة، ونقدّم هذا التصريحَ ونعهد به، ونسلّمه إلى البحر الهائج لكي يستخدمه بمقتضى الخير في طاعة الله. فلتكن العذراء الجزيلة القداسة في عوننا. آمين. وقد وقعنا.

قطع العمدة قراءته وقال:

– هذه هي التواقيع. وكلّها بخطوطٍ مختلفة".

ثم عاد ليقرأ:

"الدكتور جيرناردوس جيستيموند – أسونسيون". صليب، وإلى جانبه:

"بارباره فيرموا، من جزيرة تيريف في الإيبود – غايزدورا، كابتال جيابخيرات – جاك كاتورز المدعو بالناربوني – لوك بيير كارباغروب، من سجن ماوون للأشغال الشاقة."

وتوقّف العمدة أيضاً، وقال:

"ملاحظة مكتوبة باليد نفسها التي كتب بها النص والتوقيع الأول".

وقرأ:

"من رجال الطاقم الثلاثة، لم يبقَ إلا اثنان، فقائدُ السفينة قد اختطفته عاصفةٌ عابرة، وقد وقعا – غالديازون – وآفيه – ماريا – لص".

وتابع العمدة وهو يخلط القراءات بالانقطاعات:

"مكتوب، في أسفل الورقة: "في البحر، على متن الماتوتينا، التي هي أوركةٌ من بيسكايا، في خليج بازاج".

وأضاف العمدة يقول:

"هذه الورقة هي ورقٌ من القنصلية يحملُ الخيطَ الذهبي للملك جاك الثاني. وعلى هامش التصريح، وبالخيط نفسه، هناك الملاحظة التالية:

`إن هذا التصريح مكتوبٌ بيدنا على ظهر الأمر الملكي الذي سُلِّم إلينا من أجل إبرائنا من مسؤولية شراء الطفل، فلتُقلب الورقة، ولسوف يُرى الأمر`.

قلب العمدة الرّق، ورفعه بيده اليمنى معرضاً إياه للنّور. فشوهدت صفحةٌ بيضاء، إذا كانت كلمة صفحة بيضاء يمكن أن تنطبق على تعفّن مماثل، وفي منتصف الصّفحة ثلاث كلمات مكتوبة: كلمتان باللاتينية (214) Jussu regis، وتوقيع: جيفريه.

فقال العمدة، وهو ينتقل، من صوتٍ خفيض إلى صوتٍ عالٍ:

`جوسو ريجيس، جيفريه`

إن رجلاً قد وقعت على رأسه للتوّ قرميدةٌ من قصر أحلامه، كان ذلك هو غوينبلين.

أخذ يتكلّم كما يتكلّمُ المرءُ في اللاّوعي:

`جيرنادوس، أجل، الدكتور. رجلٌ عجوزٌ وحزين. وكنت أخافه. غايزدورا، كابتال، هذا معناه الزعيم. وكانت هناك نساءٌ، أسّونسيون، والأخرى.

كان هناك اسمٌ مكتوب بالأحمر.

فقال العمدة:

– هذه هي`

ووضع على الطاولة شيئاً كان قد سحبه الكاتبُ القانونيّ للتوّ من حقيبة القضاء. كان ذلك مطرةً ذات أنينات، ومغلفة بالسّوحر. وكانت لتلك الزّجاجة مغامراتٌ جلية. لقد كان يتعيّن عليها أن تمكث في الماء، وكانت تلتصقُ بها قواقعُ وطحالبُ(215) ليفيّة. لقد كانت ملبّسةً ومرصّعةً بكل عُفونات المحيط. وكان لعنقها الضّيّق طوقٌ قطرانيٌ يدل على أنها قد سُدّت بإحكام. لقد فُضّت وفُتحت.

وكان قد ثُبّت مع ذلك في العنق نوعٌ من صمّامةٍ من حبلٍ تمّ غمرُه بالزّفت(216) وكان هو السدادة.

وقال العمدة:

"في هذه الزّجاجة إنما خبّأ الناسُ الذين سيموتون، التّصريحَ الذي قدّمتُ للتوّ قراءةً له. إن هذه الرسالة الموجهة إلى العدالة قد سلمها إليها البحرُ بأمانة".

زاد العمدة من مهابةِ نغمِ صوته، وتابع يقول:

"كما أن جبل آرو فائق الجودة بالنسبة للقمح، فهو يقدّم زهرةَ الطّحين الفضلى، والتي يُخبز منها الخبزُ من أجل المائدة الملكية، كذلك هو البحر الذي يؤدّي لإنكلترا كافّة الخدمات التي يستطيعها، وحين يضيعُ لورد، يعثرُ عليه ويعيدُه".

ثم استأنف يقول:

"على هذه المطرة، هناك في الواقع اسمٌ مكتوب بالأحمر".

وإذ رفع صوته، فقد استدار إلى المعذّب الجامد، وقال:

"هو اسمُك الشخصيّ، أيها الجاني الموجود هنا. لأن هذه هي السُّبل الخفيّة التي تصلُ بها الحقيقةُ التي تُطوى في لجّة الأعمال البشرية، من الأعماق إلى السطح(217) ".

أمسك العمدةُ بالمطرة، وعرض للنور أحدَ جوانبِ الحطام الذي كان قد جرى تنظيفُه من أجل مقتضيات العدالة على الأرجح. وكان المرءُ يرى فيه بين تشابكات السوحر شريطاً رقيقاً من الأسل الأحمر يتلوّى، وقد غدا أسود اللون في بعض المواضع، وهذا عملُ الماء والزّمن. إن هذا الأسل، برغم بعضِ التكسّرات. كان يخطّ في السوحر بوضوحٍ هذه الأحرف العشرة: هاردكوانون(*).

حينئذٍ، استدار العمدةُ نحو المعذّب، وهو يتّخذُ مجدداً تلك النّبرة الخاصّة لصوته التي لا تشبه شيئاً، والتي يمكن أن نصفها بنبرة العدالة:

"يا هاردكوانون! عندما عُرضت عليك من ناحيتنا، نحن العمدة، هذه المطرة للمرة الأولى، وأُظهرت لك وقُدّمت، لقد تعرّفتَها في البداية، وبطيبة

(*) في النص الأصلي الفرنسي: اثنا عشر حرفاً: Hardquanonne (م: ز. ع).

خاطر، على أنها كانت تخصُّك، ثم أنه بعد أن تُلي عليك الرّقُّ الذي تحتويه والذي كان مطوياً فيها ومخفيّاً، لم تشأ أن تتكلم عن الأمر أكثر، وبلا شكٍّ بأمل ألا يتمّ العثورُ على الصبيّ الضائع، وأن تُفلتَ من العقاب، فقد رفضت أن تجيب.

ونتيجة لهذا الرفض، فقد طبّق عليك العقابُ الشّديدُ والقاسي، وتُليت عليك قراءةٌ ثانية للرّقّ المذكور الذي دوِّن عليه كتابةً تصريحُ شركائك واعترافاتهم. ولكن بلا فائدة. واليوم الذي هو اليوم الرابع، واليوم المراد قانونياً للمجابهة، وقد وُضِعتْ أمام ذلك الذي تُرك في بورتلاند في التاسع والعشرين من كانون الثاني للعامِ ألفٍ وست مئة وتسعين، فإن الأمل الشّيطانيّ قد تلاشى لديك، فقطعت الصّمتَ، وتعرّفتَ ضحيّتك... '.

فتح المعذّب عينيه، ورفع رأسه، وبصوتٍ كانت فيه رنّةُ الاحتضارِ الغريبة، وبهدوءٍ ممزوجٍ بحشرجته غير محدّد، ومتلفّظاً بصورةٍ مأسويةٍ، تحت تلك الكومةَ من الحجارة، بكلماتٍ كان من أجلِ كلٍّ منها يتعيّن عليه أن يرفعَ ذلك النوعَ من غطاءِ القبر الموضوع عليه، بدأ يتكلّم:

'لقد أقسمتُ على السّر، وحافظتُ عليه قدرَ استطاعتي. إن الناس الغامضين هم الناس المخلصون؛ فثمة نزاهةٌ في الجحيم واليوم، غدا الصّمتُ غيَر مفيد، فليكنْ. وهذا هو السبب في أني أتكلم. حسناً أجل، إنه هو. لقد صنعناه نحن كلينا: الملك بمشيئته، وأنا بفنّي'.

وإذ نظر إلى غوينبلين فقد أضاف:

'والآن اضحكْ إلى الأبد'.

وأخذ يضحكُ هو نفسه.

إن هذه الضّحكةَ الثانية المرعبة أكثر من الأولى أيضاً، كان يمكن أن يظنها المرء انتحاباً.

توقف الضّحك، ورقد الرجل ثانية، وانغلقت جفونهُ من جديد.

أما العمدة الذي كان قد ترك المعذّب يتكلم، فقد واصل يقول:

"لقد جرى تدوينُ كل شيء".

أعطى الكاتب القانونيُّ الوقتَ ليكتب، ثم قال:

"يا هاردكوانون، بحدود القانون، وبعد مجابهةٍ خلصت إلى نتيجة، وبعد قراءةٍ ثالثة لتصريح شركائك، والتي يؤكّدها من الآنَ إقرارُك واعترافُك، وبعد تصريحك المتكرر، سوف تنزعُ عنك هذه القيود المعرقلة، وتسلّم إلى رغبة جلالته لكي تُشنق باعتبارك منتحلاً".

فقال رقيب القلنسوة:

– كلمة منتحل معناها شاري الأطفال وبائعهم. هذا هو قانون الفيزيغوطي، الكتاب السابع، العنوان الثالث، المقطع usurpaverit[*]. والقانون الإفرنجي[**] العنوان رقم واحد وأربعين، والمقطع الثاني. وقانون الفريزون، العنوان واحد وعشرون: Deplagio (في الانتحال). ويقول الكسندر نيكوام:

qui pueros vendis, plagiarius est tibi nomen [***]

وضع العمدةُ الرّق على الطاولة، ونزع نظارته، وأمسك الباقة من جديد، وقال:

"نهاية العقاب الشديد والقاسي. يا هاردكوانون، اشكرْ جلالته".

جعل القاضي الإقطاعيّ بإشارةٍ منه، الرّجلَ الذي يرتدي الجلد يتحرك.

هذا الرجل الذي كان خادمَ جلاّد "خادم المشنقة"، كما تقول الشرائعُ القديمة، مضى إلى المعذّب. ورفع عنه الحجارة التي كانت على بطنه، حجراً بعد حجر، ونزع الصّفيحةَ الحديدية التي أظهرت أضلاعَ المسكين المشوّهة، ثم حلّ عن معصميه، وعن عرقوبيه الأغلالَ الأربعة التي كانت تربُطه بالدعائم.

(*) تحيل إلى فعل: usurper الذي يعني اغتصب واستولى. (م: ز. ع).

(**) القانون الفرنسي القديم الذي يحول دون ترقّي النساء وصولاً إلى الملكية.

(***) أنت يا من تبيع الأطفال، إن اسمك منتحل (م: ز. ع).

أما المعذَّبُ، الذي تخفَّف من الحجارة، وتحرَّر من السلاسل، فقد بقي مسطَّحاً على بطنه، وعيناه مغمضتان، وذراعاه وساقاه مبعدةً، مثل مصلوبٍ نُزعت مساميُره.

قال العمدة:

"هاردكوانون، انهض".

فلم يتحرك المعذب.

أمسك خادمُ المشنقة يده وأفلتها؛ فهوت اليد مجدداً. ورُفعت اليدُ الأخرى، فهوت مجدداً كذلك. وأمسك خادمُ الجلاد قَدماً، ثم الأخرى، فرجع الكعبان ليخبطا الأرض. بقيت الأصابعُ بلا حراك، وأصابع القدمين جامدةً. إن في أصابع جسمٍ راقدٍ شيئاً منتفشاً غير محدد.

اقترب الطبيب، وسحب من جيب ردائه مرآة صغيرة فولاذية، ووضعها أمام الفم الفاغر لهاردكوانون، ثم فتح له جفونه بإصبعه، فلم تتخفض، وبقيت الحدقتان الكابيتان ثابتتين.

انتصبَ الطَّبيبُ وقال:

"لقد مات".

وأضاف:

"لقد ضحك، وهذا ما قتله.

فقال العمدة:

– لا أهمية لهذا. فبعد الإقرار، أن يعيشَ أو أن يموت، لم يعدْ هذا إلا أمراً شكلياً"

ثم ألقى العمدة إلى المأمور القضائي بالأمرِ التالي، وهو يدلّ على هاردكوانون بحركة من باقة الورد التي يحملها.

"يُحملُ الجثمانُ من هنا هذه الليلة".

فوافق المأمور القضائيّ بهزةٍ من رأسه.

وأضاف العمدة:

'إن مقبرةَ السّجن قبالته'.

أشار المأمور القضائي إشارةَ موافقةٍ مجدداً.

وكان الكاتب القانونيّ يكتب:

أما العمدة الذي كان يحمل الباقة بيده اليسرى، فقد أمسك باليد الأخرى عصاه البيضاء، وأخذ مكانه واقفاً أمام غوينبلين الجالس دائماً، وانحنى له باحترام كبيرٍ، ثم قلب رأسه إلى الخلف، وهذا موقفٌ ارتساميٌ آخر، وإذْ نظر إلى غوينبلين مواجهةً، فقد قال له:

'نحن فيليب دينزيل بارسون، الفارس، وعمدة كونتيّة سوريّه، والذي يعاوننا دوبري دوكمينيك، حاملُ الأسلحة، وكاتبنًا ومدونُنا القانوني، وضباطنا المعتادين، والمزودين حسب الأصول بأوامر جلالته المباشرة والخاصة، وبمقتضى لجنتنا، وبحقوق وواجبات مهمتنا، وبإذن من اللورد مستشار إنكلترا، والمحاضر الرّسمية المعدّة، والأحكام المدونة، ونظراً للمستندات التي أرسلتها وزارةُ البحرية، وبعد تحقُّقٍ من الشّهادات والتوقيع، وبعد التّصريحاتِ المقروءة والمسموعة. وبعد المجابهة التي أُجريت، واستكمال كافة البينات والمعلومات القانونية، واستنفادها، وإيصالها إلى غايتها الجيدة والصحيحة، فإننا نبلغكم ونعلنُ لكم، أنتم الحاضرين هنا، لكي يحدث ما هو متوجّبٌ قانونياً، بأنكم أنتم فيرمان كلانشارلي، بارون كلانشارلي وهنكرفيل، مركيز كورليون في صقليه، وعضو مجلس لوردات إنكلترا، وليحفظ الربُّ سيادتكم'.

وحيا.

كررّ الرقيبُ القانونَ، والدكتور، والقاضي الإقطاعي، والمأمور القضائي والمدون القانوني، وكل الحاضرين باستثناء الجلاد، كرروا التحية باحترامٍ أكبر أيضاً، وانحنوا حتى الأرض أمام غوينبلين.

وصاح غوينبلين:

- يا لهذا الأمر، أيقظوني!

وانتصب واقفاً، وهو شاحبُ الوجه تماماً.

فقال صوتٌ لم يكن قد سمع من قبل:

'إني آتٍ لإيقاظك فعلاً.

خرج رجلٌ من وراء إحدى الدعائم. وبما أن أحداً لم يكن قد ولج إلى القبو منذ أن أفسحت البوابةُ الحديديّةُ المجالَ لوصولِ موكب الشّرطة، كان جلياً أن ذلك الرجل كان في ذلك الظلّ قبل دخول غوينبلين، وأن له دوراً نظامياً للمراقبة، وأن مهمّته ووظيفته كانتا في الوقوف هناك. كان ذلك الرّجلُ سميناً وممتلئاً، ويعتمرُ طاقيةَ أهلِ البلاط المستعارة، يرتدي معطفَ سفر، وكان عجوزاً أكثر مما هو شابٌ، وهو جدّ لائق.

حيا غوينبلين باحترامٍ وعفوية، بأناقة رجلٍ مهذبٍ منزليٍّ، من غير خرقٍ جديرٍ بالقضاة.

قال:

'أجل، أنا آتٍ، لأوقظك، فمنذ خمسة وعشرين عاماً وأنت نائم. إنك تحلم، وينبغي الخروج من هذا الحلم. أنت تظنُّ أنك غوينبلين، وأنت كلانشارلي.

وتظن أنك من الشعب؛ وأنت من الأسياد، وتظنّ أنك من المرتبة الأخيرة، وأنت من الأولى. وتظن أنك مشعبذٌ، وأنت من مجلس الشيوخ. وتظنّ أنك فقيرٌ، وأنت ثريٌّ. وتظن أنك صغيرٌ، وأنت كبير، فاستيقظ يا ميلورد! '.

همس غوينبلين بصوتٍ جدّ خفيض وفيه شيءٌ من الذعر:

'وماذا يعني كل هذا؟

فأجاب الرّ جلُ السمين:

– هذا يعني، يا ميلورد، أني أدعى باركيلفيدرو، وأني ضابط في قيادة البحرية، وأن هذا الحطام مطرة هاردكوانون، قد عُثر عليه على ساحل البحر، وأنه قد جُلب إلي لكي يُفضّ على يدي، وبما أن هذه هي تبعيةُ وامتيازُ وظيفتي، وأني قد فتحتها بحضور محلّفين قد أقسما اليمين من مكتب جنسون، واللذين هما كلاهما عضوان في مجلس النواب، وهما وليام بالثويث عن مدينة باث، وتوماس جيرفورا عن ساوثامبتون، وأن المحلفين قد وصفا وشهدا على

محتوى المطرة، ووقّعا على محضر الفتح القانوني، بالشّراكة معي، وأني قد قدمت تقريري إلى جلالتها، وأنه بأمر من الملكة، قد جرى إتمامُ الإجراءات القانونية الضّرورية بالتكتّم الذي تقتضيه مادّةٌ حسّاسةٌ من هذا النوع، وأن الأخير منها، وهو المجابهة، قد حدث للتو؛ وهذا معناه أن لديك دخلاً يبلغ مليوناً. وأن هذا معناه أنك أحد لوردات المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى، وأنك مشرّعٌ وقاض، قاضٍ سام، ومشرّعٌ أعلى. وترتدي الأرجوان والقاقم، ومعادلٌ للأمراء، ومثيلٌ للأباطرة، وأن على رأسك تاجُ الأعيان، وأنك سوف تتزوّج دوقة، هي ابنة ملك".

تحت هذا التغيير، تغييرِ الهيئة الذي انهار عليه كقصف الرعد الفجائيّ، غاب غوينبلين عن الوعي.

II

من يهيم لا يضل طريقه

كانت تلك المغامرة قد صدرت عن جندي عثر على زجاجةٍ على شاطئ البحر.

فلنرو الحادثة.

يرتبطُ بكلّ حادثةٍ تداعٍ معين.

ذات يومٍ التقط أحد المدفعيين الأربعة الذين يشكّلون حامية قصر كالشور مطرةً من السّوحر قذفها الموج هناك، على الرمل أثناء أقصى الجزر. كانت تلك المطرة، المتعفّنة تماماً، مسدودةً بسدادةٍ مزفّتة. وكان الجنديّ قد جلب الحطام إلى عقيد القصر، وسلّمها العقيدُ إلى أميرال إنكلترا. وكان الأميرال هو إمارة البحر، وفيما يخصّ الحطامات، فإن إمارة البحر قد كانت باركيلفيدرو.

وكان باركيلفيدرو قد فتح المطرة ونزع سدادتها، وحملها إلى الملكة. أما الملكة فقد أصدرت تعليماتها فوراً. وقد أُعلم بالأمر واستُشير مستشاران رفيعا المستوى هما: اللورد – المستشار، الذي هو، بالقانون، 'الحارسُ الضّميريّ لملك إنكلترا' واللورد – الماريشال الذي هو قاضي الأعمال العسكرية والمتحدّرين من طبقة النبلاء'. أما توماس هوارد، دوق نورفوك، والعين الكاثوليكي والذي كان بالوراثة ماريشالاً أعلى لإنكلترا، فقد قال على لسان نائبه – الكونت – ماريشال هنري هوارد، كونت بيندون، إنه سيكون من رأي اللورد – المستشار.

أما اللورد – المستشار فقد كان وليام كوبر. ولا ينبغي أن نخلط هذا المستشار بسميّه ومعاصره وليام كوبر، عالم التشريح الذي شرح أعمال بيدلو

(218) والذي نشر في إنكلترا كتاب بحث في العضلات تقريباً في الفترة التي كان ينشرُ فيها، إيتيين أبيي في فرنسا كتابَ تاريخ العظام. إن جراحاً معيناً يتميّز عن لورد.

لقد كان اللورد وليام كوبر مشهوراً، فيما يخصّ قضية تالبوت بيلفيرتون، فيكونت، لونغفيل، بأنه قد أصدر الحكم الذي مفاده "مراعاةً لدستور إنكلترا، يعتبرُ إرجاعُ عينٍ إلى منصبه أكثرَ أهميّة من إرجاع ملكٍ إليه". لقد أيقظت المطرةُ التي عُثر عليها في كالشور اهتمامه إلى أعلى درجة. إن مؤلّف مقولةٍ حكميةٍ يحب المناسبات التي يطبقّها فيها. لقد كانت تلك حالة إرجاعِ عينٍ إلى منصبه. وقد أُجريت أبحاث في ذلك. أما غوينبلين، فبما أن له لافتة في الشارع، فقد كان إيجاده سهلاً. وكذلك هاردكوانون. ولم يكن قد مات.

فالسّجنُ يعفّن الإنسان، ولكنه يحفظُه؛ إذا اعتبرنا أن الحراسة معناها الحفظ.

إن الناس الذين يُعهد بهم إلى السجون القلاع نادراً ما يُضايقون فيها. وقلّما كان يجري تغيير الزنزانة أكثر مما يجري تغييرُ التابوت. كان هاردكوانون لا يزال في برج شاتام الرئيس، ولم يكن يحتاجُ الأمر إلا إلى إلقاءِ القبضِ عليه. فنقل من شاتام إلى لندن. وفي الوقت ذاته، كان يجري الاستعلامُ في سويسرا. وقد أقرّ أن الوقائع صحيحة، وتمّ سحْب محضرِ زواج اللورد لينيوس في المنفى، ومحضر ولادةِ الطّفل، ومحضري وفاة الأب والأم، من السّجلات المحلية، في فيفي، وفي لوزان، واستخدموها "تفيد عند الضرورة" بصورةٍ مزدوجة، مصدّقة أصولاً. وقد تم تنفيذُ كلّ ذلك في إطارٍ من السريّة الأكثر صرامة، بما كان يسمى آنذاك "بالعجلة الملكية" و"بصمت الخلد" الذي أوصى به ومارسه بيكون، والذي سنّه قانوناً فيما بعد بلاكستون، من أجل قضايا المستشارية والدولة، ومن أجل الأمور التي توصفُ بأنها مشيخيّة.

إن الـــ Jussu regis (أوامر الملك)، والتوقيع جيفريه كان يجري التحقّقُ منها، وبالنسبة لمن درس في علم الأمراض حالات النزّوات المسماة مشيئة، فإن هذه الأوامر الملكية أمرٌ جدّ بسيط فلماذا ترك جاك الثاني آثاراً مكتوبةً،

وقد كان عليه، كما يبدو، أن يخفي أعمالاً من تلك الشاكلة، مجازفاً حتى بتعريض نجاحها للخطر؟ إنه استخفافٌ وعدمُ اكتراثٍ متعال. آه! أنتم تظنون أنه ليس هناك من فاجرٍ إلا الفتيات! إن مصلحة الدولةِ هي كذلك.

Et se cupit ante videri(219) إن ارتكابَ جريمةٍ والتفاخرَ بها كالشعارات، تلك هي القصّة بكاملها. إن الملك يَشِمُّ نفسه، مثل سجينِ الأشغال الشّاقة، فالمرءُ يُعنى بأن يفلت من الشرطي، ومن التاريخ. إنه يستاء منهما حقّاً، ويحرصُ على أن يكون معروفاً وعلى أن يُعترف به. انظروا إلى ذراعي، ولاحظوا هذا الرسم، إنه معبدٌ للحب. وقلبٌ متأجّجٌ يخترقُه سهم، أنا من يسمّونه لاسونير. بأمر الملك Jussu regis: أنا هو جاك الثاني. ينجزُ المرء عملاً سيئاً، ويضعُ علامته عليه. فأن يكتملَ المرءُ بالسفاهة، وأن يطعن على نفسه بنفسه، وأن يجعلَ إساءته أمراً لا يمكنُ خسارته، ذلك هو تبجّحُ المسيء الوقح، لقد قبضت كريستين على مونالديشي(220). وجعلته يعترف ويتعرّض للاغتيال وهي تقول: أنا ملكةَ السويد في حمى ملك فرنسا. هناك الطاغية الذي يختبئ، مثل تيبير، وهناك الطاغيةُ الذي يفاخرُ، مثل فيليب الثّاني. الأوّل منهما عقرب أكثر، والآخر فهدٌ أكثر. أما جاك الثاني فقد كان من هذا التنوّع الأخير. كان له وجهٌ صريحٌ ومرحٌ كما نعلم، وكان في ذلك مختلفاً عن فيليب الثاني. كان فيليب مغتماً، وكان جاك بشوشاً. وكانا مع ذلك شرسين؛ فقد كان جاك الثاني نمراً صافي السّريرة، وكان يتمتعٌ، شأن فيليب الثاني بالاطمئنان تجاه جرائمه. لقد كان مسخاً بفضلِ نعمة الرّب. والحال، فلم يكن لديه شيء يكتمه أو يلطّفه، وكانت اغتيالاته نابعةً عن الحقّ الإلهي. وكان يمكن له بطيبةِ خاطر أن يترك وراءَه محفوظات سيمانكا(221)، مع كلّ اعتداءاته المرقمّة، والمؤرّخة، والمصنّعة، والمعنونة والمرتبّة، وكل واحدٍ منها في خانته، مثل السّموم في مستودع عقاقير الصيّدلي. إن توقيع المرء على جرائمه هو أمرٌ ملكيّ.

إن كلّ عملٍ مرتكبٍ هو كمبيالةٌ تقسّط للدّافع الكبير المجهول. وكانت هذه الكمبيالةُ تصلُ إلى استحقاقها تحت السّياج المشؤوم jussu regis (بأمر الملك).

إن الملكة آنّا التي لم تكن امرأةً إطلاقاً من أحد الجوانب، من حيث أنها كانت تبرعُ في الحفاظ على سرّ معين، وكانت قد طلبت، في تلك القضية الخطيرة، من اللّورد – المستشار، تقريراً سرّياً من النوع الموصوف بـــ "تقرير في الأذن الملكيّة".

إن التقارير التي هي من هذه الشاكلة كانت تُستخدمُ دوماً في الأنظمة الملكيّة.

وفي فيينا، كان هناك مستشار الأذن، وهو شخصيةٌ بلاطيّة(222). وكانت تلك رتبة كارلوفنجيّة قديمة وهي الـــ aurivicularius في التشريعات القديمة البلاطيّة. أي ذلك الذي يتكلمّ بصوتٍ خفيض مع الملك.

إن وليام، بارون كوبر، مستشار إنكلترا الذي كانت الملكةُ تصدّقه، لأنه كان حسير النظر مثلها، وأكثر منها، كان قد صاغ مذكرةً تبدأ على النحو التالي:

"كان هناك عصفوران تحت إمرةِ سليمان، هدهدٌ، هو الهودبود والذي كان يتكلمّ كلّ اللّغات، ونسرٌ هو السيمورغانكا الذي كان يظلّلُ بجناحيه قافلةً من عشرين ألف رجل. وكذلك الأمر بالنسبة للعناية الإلهيةِ" تحت شكلٍ آخر. إلخ.

إن اللورد – المستشار قد تبيّن من واقعة مفادها أن وريثاً لإقطاعةِ أشرافٍ قد اختُطف وجُدع، ثم عُثر عليه. لم يكن يلوم إطلاقاً جاك الثاني، فهو والدُ الملكة على كلّ حال. وحتى أنه كان يقدّم المبرّرات لذلك. فأولاً: كانت هناك الأقوال الحكميّة الملكيّة القديمة:

.E Senioratu eripimus.In roturagio cadat (223)

وثانياً، فإن الحقّ الملكي في البتر موجود. وقد تبيّن ذلك شامبرلين:

.Corpora et bona nostrorum subjectorum nostra sunt(*)

هكذا قال جاك الأوّل، ذو الذاكرة الرائعة والعالمة. وقد فقئت عيونُ أدواقٍ من سلالة ملكيّة من أجل مصلحة المملكة. وبعضُ الأمراءِ، الشّديدي القرب من العرشِ، قد تمّ خنقُهم بصورةٍ مفيدةٍ بين حشيتين، وهذا ما اعتُبر

(*) إن حياة وأعضاء الرّعايا ترتبط بالملك (شامبرلين – القسم الثاني، الفصل الرابع. ص: ٧٦).

نوبةَ صَرَع. والحال، فإن الخنقَ أكثر من البتر. لقد اقتلع ملك تونس عيني والده، مولاي – عاصم، وظلّ سفراؤه مع ذلك يُستقبلون من الإمبراطور. فالملك إذن يمكنه أن يأمرَ بحذف أحد الأعضاء كما يُلغي وظيفةً، إلخ... هذا مشروع، إلخ. غير أن شرعيةً ما لا تحطّمُ شرعيةً أخرى. "إذ طفا الغريقُ على الماء ولم يمتْ، فإن الله هو الذي يصحّحُ عملَ الملك." وإذا ما جرى العثور على الوريث، فإن التّاجَ يُعاد إليه.

لقد جرى الأمر على هذا النّحو بالنسبة للّورد ألاّ، ملك نورثومبر الذي كان هو أيضاً بهلواناً. وعلى هذا النّحو ينبغي أن يحدثَ الأمرُ بالنسبة لغوينبلين الذي هو أيضاً ملك، أي، لورد. إن وضاعة المهنة التي عبّر فيها، واحتملها لظروف قاهرة، لا تثلمُ شعارَ النسَب، والشاهدُ على ذلك أبدولونيم الذي كان ملكاً وكان حدائقياً، والشاهد يوسف الذي كان قدّيساً وكان نجّاراً، والشاهد أبولون الذي كان إلهاً وكان راعياً".

باختصار، فقد كان العالم المستشار يخلصُ إلى إرجاع كافّة أملاك وألقاب فيرمان، اللورد كلانشارلي، والمدعو خطأً غوينبلين. بشرطٍ وحيد أن يُواجَه مع الجاني هاردكوانون، وأن يتعرّفَه المذكور". وعلى ذلك؛ فإن المستشارَ الحارسَ الدستوريَّ للضمير الملكيّ، كان يُطمئن ذلك الضمّير.

كان اللورد – المستشار يذكرُ، من خلال حاشية، أنهُ، في الحالة التي يرفضُ فيها هاردكوانون الإجابة، فقد كان يتعيّن أن يُطبَّق عليه العقابُ الشديدُ والقاسي". في هذه الحالة، من أجل بلوغ المرحلة المسماة Frod - mortll التي تقصدها شرعةُ ملك أدلستان، كان ينبغي أن تجري المواجهةُ في اليوم الرابع، وهذا أمرٌ يكمن جانبُه السّيء فعلاً بعضَ الشيء في أنه إذا ما مات المعذب في اليوم الثاني أو اليوم الثالث، فإن المواجهةَ تغدو صعبةً؛ بيد أن القانون يجب أن يُنفّذ؛ وسوءُ القانون يشكّل جزءاً من القانون.

فضلاً عن ذلك، ففي ذهن اللّورد – المستشار، فإن تعرّف هاردكوانون لغوينبلين لم يكن فيه أيّ شكّ.

إن آنّا، التي هي على علمٍ كافٍ بتشوّه غوينبلين، والتي لا تريد أن تؤذي شقيقتها، والتي كانت قد أصبحت وصيةً على أملاكِ أسرةِ

كلانشارلي، قد قرّرت بنجاح أن الدّوقة جوزيان سوف تُزوّجُ إلى اللورد الجديد، أي إلى غوينبلين.

إن إرجاعَ اللورد فيرمان كلانشارلي قد كان فضلاً عن ذلك حالةً جدّ بسيطة، لأن الوريثَ شرعيٌ ومباشر. أما بالنسبة للأنساب المشكوك فيها، أو الإقطاعات النبيلة 'المعلّقة مؤقتاً' والتي يطالبُ بها ورثةُ الحواشي، فإن مجلس اللوردات يجب أن يُستشار. وهكذا، فمن دون الرّجوع إلى زمن أبعد، فقد استُشير في عام/١٧٨٢/ بالنسبة لبارونيّة سيدني التي طالبت بها إليزابيت بيرّي.

وفي عام /١٧٩٨/، وبالنسبة لبارونيّة شاندوس، التي طالب بها الموقّر تيمويل بريدج.

وفي عام /١٨١٣/ بالنسبة لإقطاعة - كونتيّة بانبوري التي يطالب بها الفريقُ كنولي، إلخ.

ولكن لا شيء هنا من هذا القبيل؛ وليس هناك أيّ نزاع؛ بل شرعيةٌ جليّة؛ وحقٌ واضحٌ وأكيد. وليس هناك مجالٌ لعرضِ الموضوع على المجلس، فالملكةُ، التي يساندها اللورد، المستشار، كانت تكفي للاعتراف باللورد الجديد والقبول به.

لقد أدار باركيلفيدرو كلّ شيء.

بفضله بقيت القضيّةُ جدّ خفيّة، وكان السّرُ محفوظاً على نحوٍ مغلق بحيث أنه لا جوزيان، ولا اللّورد دافيد لم يشعرا بالحدث العجيب الذي كان يُحفر تحتهما. إن جوزيان التي كانت شديدة التكبرّ، كانت لديها وعورةٌ تجعل من اليسير حصارها، كانت تعزلُ نفسَها بنفسها. أما اللورد دافيد فقد بعثوا به إلى البحر، إلى سواحل الفلاندر. فلسوف يخسرُ لقبَ السيّادة، ولم يكن يحدّثه قلبه بذلك. ولنذكر هنا تفصيلاً.

لقد حدث أنه على بعد عشرة فراسخ من إرساء المحطة البحريّة التي يقودُها اللورد دافيد، قد تغلبّ قبطانٌ اسمه هاليبورتون على الأسطول الفرنسي. أما الكونت دوبامبروك فقد وضع اقتراحاً بترقيةِ هذا القبطان دوهاليبيرتون ضمن لائحة عمداء البحرية، فشطبت آنّا هاليبيرتون، ووضعت

اللورد دافيد نيّري – موار مكانه، لكي يحصل اللورد دافيد على ترضيةٍ الحصول على رتبةِ عميدٍ بحريٍّ على الأقل، حين يعلم أنه لم يعدْ لورداً.

أحسّتْ آنّا أنها مسرورة، فهناك زوجٌ مرعبٌ لشقيقتها ورتبةٌ جميلة للّورد دافيد، مكرٌ، وطيبة.

كانت جلالتها تلعب دوراً هزلياً لنفسها. فضلاً عن ذلك، كانت تقول في نفسها إنها تُصلح إساءةَ استخدامٍ للسلطة قام بها والدُها العظيم، وإنها تردّ عضواً في مجلس الأعيان إلى لقبه، وإنها تتصرّف كملكةٍ عظيمة، وإنها تحمي البراءة حسب مشيئة الرّب، وإن العناية الإلهيّة من خلال سبلها المقدسة، والتي لا يمكن النفاذ إليها. إلخ. إنه لأمرٌ لطيفٌ حقاً أن يقومَ المرءُ بعملٍ صحيح، وهو أمرٌ غير مستحبٌ لدى شخصٍ لا نحبّه.

فوق هذا، فقد كان يكفي الملكة أن تعلمَ أن الزوج المقبل لشقيقتها كان مشوّهاً، وبأيةِ صورةٍ كان غوينبلين مشوّهاً، وأيّ نوعٍ من القباحة كان ذلك؟

لم يكن باركيلفيدرو يحرصُ على إخبار الملكة بذلك، ولم تتنازل آنّا لتتحرى(224) عن الأمر. إنه ازدراء ملكيٌّ عميق. وبم كان ذلك يهمّها من ناحيةٍ أخرى؟ إن مجلس اللّوردات لم يكن باستطاعته إلاّ أن يكون ممتنّاً. إن اللورد – المستشار، وسيط الوحي، كان قد تكلمّ. فإعادة عينٍ إلى لقبه، هو إعادةٌ لاعتبارِ نبالة الأشراف كلّها. وكانت الملكيّة، في تلك المناسبة، تبدو راعيةً جيدةً ومُجلّةً لحقوق النبالة. فأياً كان وجهُ اللّورد الجدّي، فالوجهُ ليس اعتراضاً على حقّ معيّن. إن آنّا تقول في نفسها هذا تقريباً، وتمضي ببساطةٍ إلى هدفها، إلى ذلك الهدف الكبير النسّويّ والملكي، وهو إرضاءُ الذات.

كانت الملكة حينذاك في ويندسور، وهذا ما كان يضعُ مسافةً معيّنةً بين دسائس البلاط والجمهور.

إن الأشخاص الضّروريين بصورةٍ مطلقةٍ كانوا وحدهم على اطّلاع بخفايا ما سوف يحدث.

أما باركيلفيدرو، فقد كان فرحاً، وهذا ما أضاف إلى وجهه تعبيراً حداديّاً.

إن الشيءَ الذي يمكنُ في هذا العالم أن يكون الأكثر قباحة هو الفرح.

لقد كان أولَ من تلذّذ بتذوّقِ مطرة هاردكوانون. وكان يبدو متفاجئاً قليلاً، فالدّهشةُ صفةُ الفكر الضيّق. ومن جهةٍ أخرى، أليس كذلك؟ فقد كان مستحقاً لهذا حقاً، وهو الذي منذ زمنٍ بعيد يقومُ بالحراسة على باب المصادفة.

وطالما كان ينتظر، فقد كان لا بدّ فعلاً من أن يحدث شيء.

إن هذا(225) nil mirari كان يشكّل جزءاً من رباطة جأشه. في أعماقه ولنقلٍ ذلك، كان قد أُصيب بالذّهول. ولو كان يمكن لأحد أن ينزعَ عنه القناعَ الذي كان يضعُه على ضميره أمام الرّب نفسه، لوجد ما يلي: في تلك اللحظة، تحديداً، كان باركيلفيدرو يبدأ بالاقتناع بأنه سيكون من المتعذّر عليه حتماً، وهو العدوّ الضمني، أن يحدث كسراً في هذه الحياة العالية الشأن، حياة الدّوقة جوزيان، ومن هنا تتأتّى نوبةٌ مهووسةٌ من البغضاء المستترة. كان قد بلغ ذلك الاشتدادَ الذي يُدعى فتورَ الهمّة. لقد أخذ يصبحُ مسعوراً في غضبهِ بقدر ما يزدادُ يأساً. إن كظم الغيظ، ذلك هو التعبيرُ المأسوي والصحّيح!

شريرٌ يكظمُ العجز. ولربما كان باركيلفيدرو في اللحظة التي يتخلىّ فيها، ليس عن الرّغبة في إيذاء جوزيان، بل عن أن يسبّب لها الأذى، وليس عن الغضب المسعور، بل عن اللّدغ. ومع ذلك، فأيّ سقوطٍ أن يُفلتَ قبضته! فالحفاظُ من الآن على كراهيته في غمدها، شأن خنجرٍ في متحف! أيّ إذلالٍ قاسٍ هذا!

فجأةً، وفي حينه – فالمغامرة الهائلة الكونية تروق لها هذه التّزامنات – تأتي مطرةُ هاردكوانون، من موجةٍ إلى موجة، لتتوضّع بين يديه. إن في المجهول شيئاً مستأنساً غير محدّد يبدو وكأنه بإمرةِ الشر. إن باركيلفيدرو، الذي سانده الشاهدان العاديّان، وهما محلّفان غير مكترثين لأمارة البحر، ينزع سدادة المطرة، ويجدُ الرّق، ويبسطه ويقرأ... – فلنتخيّل هذا الانشراح الوحشي!.

من الغريب أن يفكّر المرء بأن البحرَ والرّيحَ، والفضاءاتِ، وضروبَ المدّ والجزر، والعواصفَ، وفتراتِ الهدوء، وألوانَ الهبوب، يمكن أن تتجشّم

الكثيرَ من العناء لكي تتوصّل إلى تحقيقِ نجاحٍ شريرٍ. كان ذلك التواطؤ قد دامَ خمسة عشر عاماً.

وهذا إنجازٌ غامض. وخلال تلك السّنوات الخمس عشرة، لم يكن قد كفَّ لدقيقةٍ واحدة عن العمل به. كلُّ موجةٍ قد نقلت الزّجاجة العائمة إلى الموجة الأخرى. وكانت المكاسرُ الصّخرية قد تحاشت صدمَ الزّجاج، ولم يكن أيّ صدعٍ قد شقّق المطرة، ولم يكن أيّ صدع احتكاكٍ قد أبلى السّدادة، ولم تكن الطحّالب قد عفنّت السّوحر، ولم تكن القواقعُ قد قضمت كلمةَ هاردكوانون، ولم يكن الماءُ قد تغلغل إلى الحطام، ولم يكن العطنُ قد أذاب الرّق، ولم تكن الرّطوبةُ قد محت الكتابة، فكم من ضروبِ العناية قد توجّب على اللجّة أن تتكلّفها! وبهذه الصّورة فإن ما كان قد ألقى به جيرناردوس إلى الظلمة، قد سلّمته الظلمةُ إلى باركيلفيدرو، والرسالةُ المبعوثةُ إلى الرّبّ قد وصلت إلى الشيطان. كان هناك سوءُ ائتمانٍ في المدى الشاسع، والسّخريةُ الغامضة المختلطة بالأشياء قد تدبّرت أمرها بحيث عقّدت هذا الظفّر المشروع، فأصبح الطفلُ الضائعُ غوينبلين مجدّداً اللورد كلانشارلي، بانتصار مسموم، وبحيث أنجزت بشكلٍ خبيثٍ عملاً حسناً، ووضعت العدالةَ في خدمةِ الجور. إن انتزاعَ ضحيّة من جاك الثاني، كان معناه إعطاء باركيلفيدرو طريدة. إن إعلاء غوينبلين كان معناه تسليم جوزيان. لقد كان باركيلفيدرو يحرزُ النّجاح، ولأجل ذلك، فقد كانت الأمواجُ، والأمواج القاطعةُ، والزوابعُ كانت ترجّحُ وتهزّ تلك الفقاعةَ الزّجاجيةَ التي كان فيها العديدُ من الحيوات المختلطة، وتدفعها وترمي بها وتعذّبها خلال العديد من السّنوات! ومن أجل ذلك، إنما كان هناك وفاقٌ وديٌّ بين الرّياح، واندفاعاتِ المدّ والجزر والعواصف! فيا له من اهتياجٍ واسعٍ للمعجز الذي يُراعي بائساً! المعاون اللانّهائي لدودةِ أرض! إن للقدر مثلُ تلك المشيئات الغامضة.

أحسّ باركيلفيدرو بوميضِ اعتداء جبّار. وقال في نفسه إن كلّ ذلك قد نُفّذ من أجله. فشعر بأنه مَركزٌ وهدف.

كان مخطئاً. فلنعدْ الاعتبارَ للمصادفة؛ فلم يكن يكمن في ذلك إطلاقاً المعنى الحقيقيّ للحادثة البارزة التي كان حقدُ باركيلفيدرو يُفيد منها. فالمحيطُ الذي يصنع من نفسه أباً وأمّاً ليتيم، فأرسل الإعصارَ إلى جلاّديه، وحطمَّ كلَّ توسّلاتهم، ولم يقبل منهم إلاّ توبتهم، والعاصفةُ التي تلقّت مستودعاً من أيدي الموت، والسفينةُ المتينةُ التي كان فيها الإثمُ، والتي استبدلت بها قارورةٌ هشّةٌ تحتوي التعويض عن الخطأ، والبحرُ الذي بدّل دوره، كالفهد الذي يصنعُ من نفسه مرضعة، والذي أخذ يهدهد، ليس الطفل، بل مصيره، في حين يكبرُ جاهلاً كلّ ما تصنعهُ اللجّةُ من أجله، والأمواجُ التي ألقيت إليها المطرةُ والتي تسهر على هذا الماضي الذي فيه مستقبل، والإعصارُ الذي يهبّ فوقه بإرادته، والتّيّاراتُ التي توجّه الحطامَ الواهي عبر مسار الماء الذي يتعذرُ سبْره، وترتيباتُ الطحّالب، والأمواج الصاخبة، والصّخور وكلّ زبدِ اللجّة الواسع الذي يضعُ بريئاً تحت حمايته، واليمّ الرابط الجأش مثل ضمير، والشوّاش الذي يُعيد إرساء النّظام، وعالم الظلمات الذي يُفضي إلى ضياء، وكلّ العتمةِ المستعملة لخروجِ الكوكب هذا الذي هو الحقيقة، والمنفيّ المعزّى في قبره، والوريثُ المعادُ إلى إرثه، وجريمة الملك التي أخفقت، والتدبير الإلهي المسبق الذي تمّ الامتثال له، والصّغير، والضّعيف، والمتروك الذي كان اللاّنهائي وصيّاً عليه؛ هذا ما كان يمكن لباركيلفيدرو أن يراه في الحادثة التي انتصر فيها؛ وهذا ما لم يره. إنه لم يقل لنفسه إطلاقاً إن كلّ شيء قد صُنع من أجل باركيلفيدرو؛ وإن الأمرَ كان يستحقّ العناء. تلك هي الشّياطين.

فضلاً عن هذا، فلكي يُدهشَ المرءُ من أن حطاماً هشّاً قد أمكنه أن يسبح لخمسة عشر عاماً من دون أن يتلف، فلا بد أن تكون معرفتُه قليلةً بعمق رقّة المحيط. إن خمسةَ عشر عاماً ليست شيئاً يذكر. وفي الرابع من تشرين الأوّل للعام /١٨٦٧/، في الموربيان، بين جزيرة غروا، ورأس شبه جزيرة غافر وصخرة ديزيّران، عثر صيادو أسماك من بور - لوي على قارورةٍ رومانيةٍ من القرن الرابع، وهي مغطّاة بزخارف من قشور البحر. لقد كانتْ هذه القارورة قد طفت لألف وخمس مئة عام.

أيّاً كانت رباطةُ الجأشِ الظاهرية التي أراد أن يحافظ عليها باركيلفيدرو، فإن ذهوله قد كان يُعادلُ فرحه.

كان كل شيء متاحاً؛ فكأن كلّ شيء كان محضّراً. إن أجزاءَ المغامرة التي سترضي حقده كانت متناثرةً مسبقاً تحت متناوله، ولم يكن يتعيّن إلاّ تقريبها، وإجراءُ عمليات لأمٍ لها. إنه ضبطٌ يتسلىّ المرء بتنفيذه. إنه نقش.

غوينبلين! لقد كان يعرف هذا الاسم. Masca ridens! (القناع الضاحك).

مثل كلّ الناس، كان قد ذهب ليشاهدَ الرّجلَ الضّاحك. وكان قد قرأ اللافتة - الإعلان المعلّقة على نزل تادكاستر كما يُقرأ ملصقٌ للعرض يجتذبُ الجمهور؛ كان قد لاحظها ؛ فتذكرّها في الحال في أدقّ تفاصيلها، مع احتمالِ أن يتثبّت من الأمر بعد ذلك، من جهةٍ ثانيةً؛ وهذا الملصقُ، من خلال الاستحضار الكهربائيّ الذي حدث في ذهنه، عاد إلى الظهّور أمام نظرته العميقة، وأتى ليتوضّع إلى جانب رقّ الغارقين، كالرّدِّ إلى جانبِ السّؤال، كالكلمةِ إلى جانب اللّغز، وهذه السّطور "هنا يُرى غوينبلين المتروكُ في العاشرة من عمره، في ليل /٢٩/ كانون الثاني للعام /١٦٩٠/، على ساحل البحر، في بورتلاند". قد اتخذت فجأة تحت ناظرِه مظهرَ تألّقٍ قياميّ، وتبدّت له هذه الرؤيا وهي: انقّادُ(226) Mane thecel phares على كلامِ المعرض المنمق. لقد انتهى أمرُ كلّ تلك الإعدادات الواهية التي كانت حياةَ جوزيان. إنه انهيارٌ مفاجئ. لقد تمّ العثورُ على الطّفلِ الضائع. وصار اللورد كلانشارلي موجوداً. أما دافيد ديرّي موار فقد طُرد. إن رتبةَ النبالة، والثروةَ، والقوةَ والمرتبةَ، كلّ ذلك قد كان يخرجُ من عند اللورد دافيد، ويدخل إلى عند غوينبلين. إن كلّ شيءٍ، القصورُ، ورحلاتُ الصّيد والغابات، والدّارات، والصرّوح، والأملاك، بما في ذلك جوزيان، قد أصبح لغوينبلين. وجوزيان، أيّ حلّ لها! من الذي أصبح الآن أمامها؟ هي الشهيّرة والمتعالية، أمامها مشعبذٌ، وهي الجميلةُ والمتدللة، أمامها مسخٌ. هل كان يمكن أن يُرتجى ذلك قطّ. الحقيقة أن باركيلفيدرو قد كان مفعماً بالحماسة.

إن كلّ الترتيبات الأكثر حقداً يمكنُ أن تتخطّاها أريحيّةُ الطّارئ الجهنميّة. حين يشاءُ الواقع، يصنعُ أشياءَ رائعة. كان باركيلفيدرو يجد أحلامه كلّها حمقاء. كان لديه أفضل منها.

إن التغيّر الذي كان سيحدثُ على يده، هل حدثَ ضدّه، إنه لم يكن يريد أقلّ من ذلك. فثمّة حشراتٌ مفترسة لا غرض لها، تلسعُ وهي تعلم أنها ستموت من اللسْعة. وكان باركيلفيدرو من ذلك النوع من الهامات.

غير أنه تلك المرّة، لم تكن لديه مزيّة التجرّد. ولم يكن اللورد دافيد ديري – موار يدين له بشيء، واللورد فيرمان كلانشارلي سوف يدينُ له بكلّ شيء. وسوف يصبحُ باركيلفيدرو حامياً، بعد أن كان محميّاً. وحامياً لمن؟ لنبيلٍ إنكليزي. سيكون له شخصيّاً لورد؟ لوردٌ يكون صنيعته!

وأوّل عادة له. كان باركيلفيدرو ينوي فعلاً أن يعطيه إياها، وهذا اللورد سيكون صهر الملكة غير المتكافئ معها! وبما أنه شديدُ القباحة، فلسوف يروقُ للملكة بكلّ القدر الذي يقزّز به جوزيان. لقد كان يمكن لباركيلفيدرو، مدفوعاً بهذه الحظوة، ومرتدياً ملابسَ رصينةً ومتواضعة أن يصبحَ شخصيةً بارزة. وطالما كان قد كرّس نفسه للكنيسة؛ فقد كانت لديه رغبةٌ ليكون مطراناً.

بالانتظار، فقد كان سعيداً.

أيّ نجاحٍ جميل! وكم كان حسناً صنعُ هذا الكمّ من عملِ المصادفة! إنّ انتقامه، فقد كان يسمّي ذلك انتقامه، قد جلبه له أليمٌ برخاوةٍ. ولم يكن قد جرى ترصّدُهُ بلا طائل.

المكسرُ الصّخري، كان هو، والحطامُ كان جوزيان. لقد أتت جوزيان لتجنح على باركيلفيدرو! فيا للنّشوة العميقة الأثيمة!

كان ماهراً في ذلك الفنّ الذي نسمّيه الإيحاء، والذي يتمثّلُ في أن يجري المرءُ شقّاً صغيراً في ذهنِ الآخرين، ويضعُ فكرةً فيه من أفكاره. لقد تدبّر الأمر، وهو يقف جانباً، ودون أن يبدو أنه يتدخّل فيه، بحيث تذهبُ

جوزيان إلى تخشيبةِ غرين - بوكس (العلبة الخضراء) ورأت غوينبلين. ولم يكن لذلك أن يكون ضاراً. إن البهلوان الذي شوهد من خلال تدنيٍّ شأنه. هو جزءٌ مقوّم جيّد من التّرتيب المدبّر. وهذا ما قد يحسّنُ الأمورَ فيما بعد.

كان قد حضرّ كلَّ شيء بصمتٍ مسبقاً. وما كان يريدُه كان شيئاً مفاجئاً غيرَ محدّد.

إن العمل الذي كان قد نفّذه لا يمكن أن يُعبرَّ عنه إلاّ بكلماتٍ غريبة: بناء حبٍّ من أوّل نظرة.

ما إن أُنجزت التّمهيداتُ، حتى حرص على أن يجري استكمالُ كافّةِ الإجراءات المرادة ضمن الأشكال القانونية، ولم تتأثّر السرّيةُ بذلك إطلاقاً، لأن الصّمتَ يشكّل جزءاً من القانون.

كانت المجابهةُ بين هاردكوانون وغوينبلين قد حدثت. وقد حضرها باركيلفيدرو، ورأينا نتيجتها منذ قليل.

في اليوم نفسه، وصلت إحدى عرباتِ نقلِ الملكة فجأة من طرف جلالتها، لإحضار الليدي جوزيان إلى لندن بغية اصطحابها إلى ويندسور التي كانت آنّاً تقضي فيها فصل الشتاء. كانت جوزيان تتمنىّ حقاً ألا تمتثل لذلك، لأمرٍ كان في ذهنها، أو على الأقلّ أن تؤخّر امتثالَها للأمر ليومٍ واحد، وأن تُرجئ رحيلها إلى اليوم التّالي، غير أن حياة البلاط لا تحتمل مثل هذه الممانعات. كان عليها أن تنطلق فوراً، وأن تغادرَ مكانَ إقامتها في لندن، في هانكرفيل، للذهاب إلى مقرّ إقامتها في ويندسور، في كورليون - لودج.

كانت الدّوقةُ جوزيان قد غادرت لندن في اللحظة نفسها التي كان المأمؤر القضائيُّ يحضر فيها إلى نزل تادكاستر ليختطفَ غوينبلين ويقتادَه إلى قبو ساوثويرك العقابيّ.

حين وصلت إلى ويندسور، أعلمها حاجبُ العصا السّوداء الذي يحرسُ بابَ غرفة المثول بأن جلالتها في خلوةٍ مع اللورد - المستشار،

ولا يمكنُها أن تستقبلها إلاّ في اليوم التالي، وأن عليها بالنتيجة أن تمكث في كورليون – لودج، تحت تصرُّف جلالتها، وأن جلالَتها سترسلُ إليها أوامرها مباشرةً في اليوم التالي صباحاً عند استيقاظها. رجعت جوزيان إلى منزلها جدّ مغتاظة، وتناولت عشاءَها بمزاجٍ سيّء، وأصيبت بالصّداع. وصرفت الجميع، باستثناء تابعها، ثم صرفته هو أيضاً، وأوت إلى فراشها، ولا يزالُ النهّار طالعاً.

علمت حين وصلت في ذلك اليوم التالي نفسه، أن اللورد دافيد ديرّي – موار كان منتظراً في ويندسور، بعد أن تلقىّ في البحر الأمرَ بأن يأتي فوراً ليستلمَ أوامرَ جلالتها.

III

ما من رجلٍ يمكنهُ أن يعبر فجأة من سيبيريا
إلى
السّنغال من غير أن يفقد الوعي (هومبو)

إن إغماء رجلٍ، حتى أكثر الرّجال صلابةً وأشدّهم بأساً، تحت ضربةٍ مفاجئةٍ من هراوةِ القدر ليس فيه شيءٌ يثيرُ الدّهشة. إن رجلاً معيّناً يصرعُه الشيءُ غيرُ المنتظر، كما تصرعُ الثّورَ مطرقةُ الجزّار. إن فرانسو داليسكولا، الذي هو الرّجل ذاته الذي نزع من الموانئ التركيّة سلسلتها الحديديّة، قد بقي ليومٍ كامل فاقداً للوعي، حين جعلوه بابا. والحال، فإن الخطوةَ الواسعة من كاردينال إلى بابا هي أقلّ شأناً من الخطوة من بهلوانٍ إلى نبيلٍ إنكليزيّ.

ما من شيءٍ يماثلُ في عنفه ضروبَ فقدِ التّوازن.

حين استعاد غوينبلين حواسّه وفتح عينيه من جديد، كان الوقت ليلاً. كان غوينبلين يجلس في كرسيّ بساعدين، في وسطِ غرفةٍ واسعة يغطي المخملُ كلياً جدرانها، وسقفها وأرضيّتها. وكان المرءُ يسيرُ على المخمل. وإلى جانب غوينبلين، كان يقفُ حاسرَ الرأس، الرّجلُ ذو الكرش الكبير، ومعطف السّفر، والذي كان قد خرج من وراء دعامةٍ في قبو ساوثويرك. كان غوينبلين وحده في تلك الغرفة مع ذلك الرجل. وفي كرسيّه ذي السّاعدين، كان يمكنه، إذا ما بسط ذراعه، أن يلمس طاولتين، وكلّ منهما تحملُ شمعداناً فيه ستّ شموعٍ مضاءة. على إحدى هاتين الطّاولتين. كانت هناك أوراقٌ

وعلبةٌ صغيرة، وعلى الأخرى، غذاءٌ لوقت الحاجة، لحمُ دواجن بارد، ونبيذ، وبراندي، وهي مقدّمةٌ على صينيّة فضيةٍ مذهّبة.

من خلال زجاجٍ نافذةٍ طويلة تمتّد من الأرضيّة إلى السّقف، كانت سماءٌ صافيةٌ ليليّةٌ نيسانية تجعل المرء يستشفُّ في الخارج نصفَ دائرةٍ من الأعمدةِ حول باحةِ شريفاتٍ مغلقة ببوّابةٍ ذات ثلاثةِ أبواب، أحدُها جدُّ واسع، واثنان خفيضان: بابُ العربات الكبير جدّاً، في الوسط، على اليمين، بابُ الفرسان، الأصغر حجماً، وعلى اليسار، بابُ المشاة، الصّغير. كانت تلك الأبوابُ مغلقةً بحواجز مشبّكة تلتمعُ رؤوسُها؛ وكان نحتٌ عالٍ يتوّج البابَ المركزيّ. وكانت الأعمدةُ على الأرجح من الرّخام الأبيض، وكذلك الأمر بالنسبة لتبليطِ الباحة التي كانت توحي بمظهرِ الثّلج وتحيطُ بغطائها المكوّن من رُقاقاتٍ مسّطحة بفسيفساء متميّزة بصورةٍ مبهمة في العتمة؛ وهذه الفسيفساء، كان يمكن لها، بلا شكٍّ إذا ما شوهدت في النهار، أن تعرض للنّظر شعار نسبٍ عملاقاً، بكلّ ما فيه من طلاءات وكلّ ما فيه من ألوان، حسب الدّرجة الفلورنسيّة.

كانت زخارفُ أعمدةِ الدّرابزينات المتعرّجة تصعدُ وتنزلُ دالّةً على أدراجِ شرفات. وفوقَ الباحة كان ينتصبُ بناءٌ معماريٌّ مضببٌ ومبهمٌ بسبب الليل. وكانت فجوات سماوية ملأى بالنجوم تُبرزُ صورةً ظليّةً لقصر.

كان المرء يلمحُ سطحاً مفرطاً في اتّساعه، وجبهاتٍ جملون ذات زخارف حلزونيّة، وسقائفَ ذات مقدّمات كالخوذ، ومداخنَ شبيهة بالأبراج، سطوحاً معمدّةً مغطاة بآلهة وآلهات جامدة. ومن خلال صفّ الأعمدة، كانت تتبثقُ في الغبش إحدى تلك المناهل، مناهلُ عالمِ الجنّ التي تضجّ برقّةٍ والتي تتسكبُ من فسقيّةٍ إلى فسقيّة، وتخلطُ المطرَ بالشّلاّل، وتشبه تبعثرَ علبةِ حليّ.

وتصنع في مهبّ الرّيح توزيعاً جنونياً لماساتها ولآلئها، وكأنما ليفرج الهمّ عن التماثيل التي تحيطُ بها. كانت هناك صفوفٌ طويلةٌ من النوافذ التي ترتسمُ جانبيّاً تفصل فيما بينها مجموعاتٌ من عُدد أسلحة على شكل نقشٍ بارز، وتماثيل نصفيّة تذكاريّة وخوذٌ عالية ذاتُ قنزعاتٍ حجريّة.

في الغرفة التي كان فيها غوينبلين، في صدرها، وقبالة النّافذة، كان المرءُ يرى من إحدى الجهات مدخنةً عالية كالسّور، ومن الجهةِ الأخرى، تحت سرادق، هو أحد تلك الأسرّة الإقطاعيّة الواسعة التي يجري الصّعودُ إليها بسلّمٍ، ويمكن للمرءِ أن يرقد فيها بصورةٍ عرضيّة. كانت مرقاةُ السّرير جانبيه. وكان صفٌّ من المقاعد ذات السّواعد في أسفل الجدران، وصفٌّ من الكراسي أمام المقاعد ذات السّواعد تُكمل التّأثيث. كان السّقفُ على شكل مدفن(227). وكانت نارٌ حطبٍ كبيرة على النمّط الفرنسي تشتعلُ في الموقد. ومن وفرةِ ألسنةِ اللّهب وحزوزِها الورديّة والخضراء، كان يمكن للخبير أن يتبيّن أن تلك النّار هي من خشبِ المرّان، وهذا ترفٌ كبير.

وكانت الغرفةُ على درجةٍ كبيرة من الاتّساع بحيث يُبقيها الشّمعدانان معتمةً. وكانت سجفُ الأبواب، المخفضة والمتطايرة، في هذا المكان أو ذاك، تدلُّ على الاتصالات مع غرف أخرى. وكان لذلك المجموع الشكلُ المربّع والضّخم لزمن جاك الأوّل، وهذه دُرْجةٌ شائخةٌ وفخمة. وشأن فَرْشِ الغرفة الأرضيّ وبُسُطها، والظُّلّة، وقبة السّرير، والسّرير، والمرقاة، والستائر، والموقد، وأغطية المناضد، والمقاعد ذات السّواعد، والكراسي، فقد كان كلُّ شيء من المخمل القرمزيّ. وليس هناك ذهب. إلاّ في السّقف. فهناك، وعلى مسافةٍ متساويةٍ من الزوايا الأربع، كان يلمعُ ترسٌ ضخمٌ مستديرٌ من المعدن المطرّق، وهو مسطّح بشكلٍ مستوٍ، وكان يتلألأ عليه نقشٌ بارزٌ برّاقٌ لشعاراتِ النّبالة؛ وفي شعارات النبالة هذه، وعلى شعاري نسبٍ متجاورين، كان المرءُ يميّزُ تاجَ بارون وتاجَ مركيز. فهل كانا من النحاس المذهّب؟ هل كانا من الفضّة المذهّبة؟ لم يكن هذا معروفاً.

وكان يبدو أنهما من الذّهب. وفي وسط ذلك السّقف السّيادي(*)، والذي هو سماءٌ رائعةٌ معتمة، فإن ذلك التّرس الشّعّاريّ البرّاق كان يتألق تألقاً داكناً مثل شمسٍ في الليل.

(*) ما له علاقة بالسيادة الإقطاعية. (م: ز-ع).

إن رجلاً متوحشاً قد اندمج فيه رجلٌ حرٌ يصبغُ على وجه التقريب قلقاً في قصرٍ مثلما هو في سجن. كان ذلك المكانُ الفخمُ مثيراً للاضطراب. إن كلَّ بهاءٍ يُطلق ذعراً. فماذا يمكن أن يكون ساكنُ هذا المنزل المهيب؟ وأيُّ جبّارٍ كانت تلك العظمة تخصّ؟ ولأيِ أسدٍ كان ذلك القصرُ عريناً؟

كان غوينبلين منقبضَ القلب، فلم يكن قد تيقّظ تماماً بعد؛ فقال:

"أين أنا؟"

وأجاب الرّجل الذي كان واقفاً أمامه:

"أنت في منزلك يا سيدي".

I V

فتنة

يلزمُ بعضُ الوقت ليرجع المرءُ إلى السّطح.

كان غوينبلين قد أُلقي به إلى أعماق الذهول.

فلا يمكن للمرء أن يرسّخ نفسه حالاً في المجهول.

هناك هزائمُ في الأفكار مثلما هناك هزائمُ للجيوش؛ ولمُّ الشّعث لا يجري إطلاقاً على الفور.

يحسُّ المرءُ بالتشتّت إذا صحّ القول. ويشهدُ تبدداً غير مألوف لذاته.

إن الله هو الذراعُ، والمصادفةُ هي المقلاع، والإنسان هو الحصاةُ، فلتقاوموا إذن حين تُرمون.

كان غوينبلين، ولتُسمح لنا بهذه الكلمة، ينبو من دهشةٍ إلى أخرى. وبعد رسالةِ حبِّ الدّوقة، أتى كشفُ قبو ساوثويرك.

في مصيرٍ معين، وحين يبدأ غيرُ المنتظر، أعدّوا أنفسكم لما يلي: عدم الانقطاع. فما إن يُفتحَ هذا البابُ المخيف، حتى تندفعَ منه المفاجآت. إن الثغرةَ تُحدَثُ في جدارك، ويغورُ فيها اختلاطُ الأحداث. وغيرُ المألوف لا يأتي لمرّةٍ واحدة.

إن غير المألوف عتمةٌ، وهذه العتمةُ قد كانت فوق غوينبلين. لقد كان ما يحدثُ له غيرَ مفهوم. وكان يدركُ كلَّ شيء من خلال ذلك الضّباب الذي يُبقيه انفعالٌ عميق في العقل شأن الغبار الناتج عن انهيارٍ ما. لقد كانت الهزةَ كليّةً. ولم يكن يتبدّى له شيءٌ واضح. ومع ذلك فقد أخذت الشّفافيةُ تستقرُّ من

جديد شيئاً فشيئاً. والغبارُ يسقط. ومن لحظةٍ لأخرى، تتناقص كثافةُ الدهشة. كان غوينبلين مثل شخص يُبقي نظره مفتوحاً ومحدِّقاً في حلم، ويحاول أن يبصرَ ما يراه فيه. كان يفكّكُ تلك الترجحَّ، ترجحُّ الفكر ضمن غير المنتظر، وهو الترجُّحُ الذي يدفعك دوريّاً من الجهة التي يفهم المرءُ فيها ما يجري إلى الجهة التي لم يعدْ يفهم فيها ذلك. فمن الذي لم يحدثْ له امتلاكُ هذا الرّقاص في دماغه؟

لقد كان التوسّعُ يجري في ذهنه تدريجياً في ظلماتِ الحادث مثلما كان يجري في حدقته في عتماتِ قبو ساوثويرك. أما الأمرُ الصّعبُ فقد كان هو في التوصّل إلى وضع تفريقٍ ما بين العديد من الإحساسات المتراكمة. ولكي يكون ممكناً أن يتمَّ هذا الاشتغالُ للأفكار المضطربة، المسمّاة فهماً، فلا بُّد من الهواء بين الانفعالات. أما هنا، فقد كان الهواءُ غيرَ متوفرٌ. وكانت الحادثةُ غيرَ صالحةٍ تقريباً للتنفسّ. وحين دخل غوينبلين إلى قبو ساوثويرك المرعب، كان يتوقّع لنفسه غلَّ المحكوم بالأشغال الشاقة، فوضعوا على رأسه تاجَ النبالة. فكيف كان ذلك ممكناً؟ لم يكن هناك إطلاقاً مكانٌ كافٍ بين ما كان غوينبلين يخشاه وما كان يحدث له، فقد تعاقبَ ذلك بسرعةٍ فائقة، وأخذ ذعرُه يتحوّلُ إلى شيءٍ آخر مفرطٍ في فجائيته بحيث لا يمكن أن يكون واضحاً. كان التباينان شديدي التراصّ كلٌّ منهما مع الآخر. وكان غوينبلين يجهدُ لتخليصِ فكره من تلك الملزمة.

كان ساكناً. وهذه هي غريزةُ ضروب الذّهول الكبرى التي تكونُ في حالةِ دفاعٍ أكثر مما نظنّ. إن من لا يقولُ شيئاً يواجهُ كلَّ شيء. إن كلمةً تُفلت منك، ويلتقطها مسننٌ مجهول يمكن أن تسحبك بالكامل إلى تحتِ عجلاتٍ لا ندري ما هي.

السّحقُ. ذلك هو خوفُ الصّغار. إن الحشدَ يخشى دوماً أن يوطأ بالأقدام. والحال، فإن غوينبلين قد كان لزمنٍ طويل حقّاً من الحشد.

إن حالةً فريدةً من القلق البشريّ يُعبَّر عنها بهذه العبارة: توقّع المجيء.

كان غوينبلين في تلك الحالة. فالمرءُ لا يشعُر بعد بأنه متوازنٌ في موقفٍ ينبثقُ فجأة. إنه يراقب شيئاً ينبغي أن تكون له عاقبة. ويكون مذنباً بشكلٍ غامض.

وردّد الرّجل ذو الكرش الضخم.

"أنت في منزلك يا سيّدي".

تحسّس غوينبلين نفسه. في المفاجآت، ينظرُ المرءُ لكي يتأكّد من أن الأشياء موجودة. ثم يتحسّسُ نفسه ليتأكد من أنه موجودٌ شخصياً. فقد كان هو فعلاً من يتكلّمون معه. ولكنه نفسه كان شخصاً آخر. فلم يعد لديه معطفُه المقلنسُ وإسكلافينتُه الجلدية المفتوحة. كان يرتدي صدرةً من الجوخ الفضيّ، ورداءً من السّاتان كان يحسّ بأنه مطرّزٌ حين يلمسه؛ وكان يحسّ بوجودِ صرّةٍ ضخمة ملأى بالنقود في جيب الصّدرة. وكان سروالٌ عريض من المخمل يغطيّ سرواله الضيّق واللّصوق، سروالَ المهرّج، كان ينتعلُ حذاءً ذا كعبين عاليين أحمرين.

فكما كانوا قد نقلوه إلى ذلك القصر، فقد بدّلوا له ملابسه.

واستأنف الرّجل قائلاً:

"فلتتنازل سيادتُك لتتذكّر ما يلي: أنا هو المدعوّ باركيلفيدرو. وأنا كاتبٌ موظفٌ في إمارةِ البحر. وأنا من فتح مطرةَ هاردكوانون، والذي أخرج منها مصيرك. وهكذا، ففي الحكايات العربية، يخرج الصّيادُ عملاقاً من زجاجة"

حدّق غوينبلين بالوجه الباسم الذي كان يكلمّه.

وتابع باركيلفيدرو يقول:

"فضلاً عن هذا القصر، يا سيد، فإن لديك هنكرفيل – هاوس. الذي هو قصرٌ أكبر. ولديك قلعة كلانشارلي التي هي مقرُّ نبالتك، والتي هي قلعةٌ محصنةٌ من عهد إدوارد لوفيو، ولديك تسعة عشر مشرفاً ملكياً مع قراهم وفلاّحيهم. وهذا ما يضعُ تحتَ رايتك كلوردٍ ورجلٍ نبيلٍ حوالي ثمانين ألفِ تابعٍ مُقطعٍ ومزارعين دافعين ضرائب(228). وفي كلانشارلي، أنت قاضٍ،

قاضٍ لكلّ شيء، للأملاك والأشخاص، وتحكمُ في بلاطك كبارون. وليس للملك حقّ يزيد به عليك إلاّ حقٌ صكّ النّقود. إن الملك الذي يصفه القانونُ، النوّرمانديّ بأنه السّيدُ – الرّئيس، يمتلكُ القضاءَ والبلاطَ وأداةَ الصكّ. وأداةُ الصكّ تعني النقود. باستثناء ذلك، فأنت ملكٌ في ولايتك الإقطاعيّة، كما هو في مملكته. ولديك الحقّ، كبارون، في مشنقةٍ ذات أربع ركائز في إنكلترا، وفي منصة شنقٍ ذات سبعة أعمدةٍ في صقلية، باعتبارك مركيزاً، إذ أن عدالة السّيد الإقطاعيّ البسيط لها ركيزتان، وعدالة سيّد القصر ثلاث ركائز، وعدالة الدوق ثماني. إنهم يسمّونك أميراً في قوانين نورثومبر. وأنت حليفٌ لفيكونتات فالنسيا في ايرلندا، والذين هم أسرة بوير، وكونتات أومفرافيل في اسكوتلندا، والذين هم أسرة أنغوس.إنك زعيمُ جماعةٍ مثل غامبيل، وأردماناك، وما ككالومور. إن لديك ثماني ولايات قصر، وهي ريكولفر، وبوكستون، وهيل – كيرترز، وهومبل، وموريكامب، وغمدريث ترينواردريث وسواها، ولك حقٌ في مخثّات(*) بيلينمور، وفي مقالعِ مرمر ترينت. إضافة إلى ذلك، لديك كلّ منطقة بينيث – شيز، ولديك جبلٌ مع مدينةٍ قديمة مبنيةٍ فوقه. والمدينة تسمّى فين – كونتون، ويسمّى الجبل موال – إنلي.

وكل ذلك يشكلّ لك إيراداً قدرُه أربعون ألف ليرة إسترلينيّة، أي ما يعادلُ أربعين مرّة الخمسة وعشرين ألف فرنكاً فرنسياً التي هي الدّخلُ الذي يكتفي به فرنسي".

فيما كان باركيلفيدرو يتكلّم، كان غوينبلين يتذكرّ من خلال تصاعد ذهوله. إن التّذكرّ هو غوصٌ يمكن لكلمةٍ أن تحرّكه حتى الأعماق. إن كلّ تلك الأسماء التي تلفّظ بها باركيلفيدرو، كان غوينبلين يعرفُها؛ لقد كانت منقوشةً في السّطور الأخيرة، سطورِ هاتين الخزانتين اللّتين تفرشان الكوخَ الفقيرَ الذي انقضت فيه طفولته. ولفرط ما ترك عينيه بشكلٍ آليّ تجولان فيها، كان يعرفهما عن ظهر قلب. ولدى وصوله وهو يتيمٌ متروكٌ، إلى تخشيبة فايموث المتنقلة، وجد فيها ميراثَه المجروذ الذي كان ينتظره. وفي الصباح حين كان يستيقظ

(*) أي مواقع استخراج الخثّ أو الطورب (م: ز. ع).

الصّغير المسكين، كان أوّلُ شيءٍ تُهجيّه نظرتُه غيرُ المكترثة والذاهلة، هو ولايتُه الإقطاعيةُ، ونبالتُه. إنه تفصيلٌ غريب كان يُضاف إلى كلّ مفاجأته، فخلال خمسة عشر عاماً، وهو يطوفُ من ملتقى طرقٍ إلى ملتقى طرق، كمهرجٍ في مسرحٍ متجول، وكاسباً عيشه بما تيسّر له، وملتقطاً الفلوسَ، ومُقتاتاً بالفُتات، كان يسافر مع حظه الملصق على بؤسه.

لقد لمس باركيلفيدرو بسبابته علبةَ النقود التي كانت على الطاولة، وقال:

'يا سيّدي، هذه العلبة تحتوي ألفي جنيه ترسلُها إليك أريحيّةُ جلالةِ الملكة من أجل احتياجاتك الأولى'.

فصدرت عن غوينبلين حركةٌ، وقال:

'ستكون لوالدي أورسوس.

فقال باركيلفيدرو:

– فليكن، يا سيّدي. أورسوس في نزل تادكاستر. إن رقيب العمرة الذي رافقنا إلى هنا، والذي سينطلق مجدداً في الحال، سوف يحملها إليه. وربما أذهب إلى لندن. وفي هذه الحالة، يكون أنا من يحملُها. إني أتكفّلُ بذلك.

فردّ غوينبلين سريعاً:

– سوف أحملُها إليه سريعاً.

فكفّ باركيلفيدرو عن الابتسام وقال:

'غير ممكن'

هناك تغيُّرٌ في الصّوت يشدّد على الأمر. وكان لصوتِ باركيلفيدرو هذه النبْرة. فتوقّف وكأنه يضعُ نقطةً بعد الكلمة التي قالها لتوّه. ثم تابع بتلك اللهجة التي تنمّ عن الاحترام، والخاصة بالخادم الذي يحسّ أنه السّيد:

'يا سّيدي، أنت هنا على بعد ثلاثة وعشرين ميلاً من لندن، في كورليون لودج، في مكان إقامتك في البلاط المجاور لقصر ويندسور الملكي. إنك فيه من غير أن يعلم أحدٌ بذلك. وقد نُقلتَ إليه في عربةٍ مغلقةٍ كانت تنتظرُك في باب سجن ساوثويرك. إن الناسَ الذين أدخلوك إلى هذا القصر

يجهلون من تكون، ولكنهم يعرفونني. وهذا يكفي. ولقد كان ممكناً أن تُصطَحبَ حتى هذه الشقة، بواسطةِ مفتاحٍ سرّي أحمله. ثمة أشخاص نائمون في المنزل، وليس هذا هو وقت إيقاظِ الناس. وهذا هو السّبب في أن لدينا وقتاً للإيضاح الذي سيكون قصيراً من ناحية أخرى. ولسوف أقدّم إليك هذا الإيضاح. فلديّ مهمّة من جلالتها".

أخذ باركيلفيدرو يتصفّح وهو يتكلّم رزمةً من الملفّات التي كانت بقرب صندوق النقود.

"يا سيّدي، هذه هي شهادتك كنبيل، وهذه هي إجازةُ منصبك كمركيز صقليّ. وهذه هي رقوق وبراءاتُ بارونيّاتك الثّماني مع أختام أحد عشر ملكاً، منذ بالدريه، ملك كنت، حتى جاك السّادس والأول، ملك إنكلترا واسكوتلندا. وهذه هي رسائلك الخاصّة بحقّ التصدّر. وهذه هي إجاراتك ذات الرّيع، وصكوك وأوصافُ إقطاعاتك، وإقطاعاتك الحرّة، وتبعيّاتك (229)، ومناطقُك وأملاكُك.

إن ما هو فوق رأسك في شعار النسّب هذا، والموجود في السّقف، هو تاجاك، تاجُ البارون ذو اللآلئ، وطوقُ المركيز ذو الزّخارف الزهريّة. وهنا، بالقرب منهما، في خزانة ملابسك تجدُ رداءَك المخمليّ الأحمر ذا الشرائطِ المصنوعة من فرو القاقم، وهو رداءُ نبالتك. وفي هذا اليوم بالذات، ومنذ بضع ساعات، فإن اللورد - المستشار، والمندوب - الكونت - ماريشال إنكلترا، الذين، أُعلما بنتيجة مواجهتك مع الكومبرا شيكوس هاردكوانون، قد تزوّدا بأوامر جلالتها. وقد وقعّت جلالتُها حسب مشيئتها التي يُعتدُّ بها كالقانون نفسه.

إن كافّة الترتيبات الشكلية قد أنجزت. وغداً، وليس أبعد من الغد، سوف تُقبلُ في مجلس اللوردات. وهناك مشاوراتٌ فيه منذ بضعة أيام حول مشروعِ قانونٍ مقدمٍ من التّاج وموضوعُه زيادةُ مئةِ ألفِ ليرةٍ إسترلينية، والتي تعادلُ مليونين وخمس مئة ألف ليرة في فرنسا، وهي المخصصّاتُ السّنويةُ للدّوق دوكامبر لاند، زوجِ الملكة؛ ويمكنك أن تشاركَ في النقاش".

قطع باركيلفيدرو كلامه، وتنفّس ببطء واستأنف يقول:

"مع ذلك لم يتمّ شيء بعد. فلا يكون المرء نبيلاً انكليزياً بالرغم عنه. وكلُّ شيء يمكن أن يُلغى وأن يتلاشى. إلاّ إذا فهمت الأمر. إن الحادثَ الذي يتبدّد قبل أن ينبثق، هذا أمرٌ يُرى في السّياسة. فيا سيّدي، إن الصمتَ في هذه السّاعة لا يزال مخيّماً عليك. ولن يكون مجلسُ اللوردات مطّلعاً على أمرك إلاّ غداً. إن سرّيةَ قضيّتك كلها قد حوفظ عليها لمصلحةِ الدّولة والتي لها نتيجة على درجةٍ عظيمةٍ من الأهميّة بحيث أن الأشخاص الرّصينين المطّلعين الوحيدين في هذه اللحظةِ على وجودك، وعلى حقوقك، سوف ينسونها فوراً، إذا كانت مصلحة الدّولة تأمرهم بأن ينسوها. إن ما هو في العتمة يمكن أن يبقى في العتمة. ومن السّهل شطبُك. وهذا أمرٌ سهل لاسيما أن لديك أخاً، هو ابنٌ غير شرعيّ لوالدك، ولامرأةٍ كانت عشيقةَ الملك شارل الثاني، أثناء نفي والدك، وهذا ما جعل أخاك يحظى برضا الملك. والحال، فإلى هذا الأخ، مع أنه غير شرعيٍّ، إنمّا قد تعودُ حقوقك في النّبالة. فهل تريدُ ذلك؟ أنا لا أظنّ هذا. وإذن، فكلُّ شيء يتعلّقُ بك. وينبغي إطاعةُ الملكة. وأنت لن تغادر محلّ إقامتك هذا إلاّ في الغد، في عربةٍ من عربات جلالتها، ولكني تذهب إلى مجلس اللوردات.

يا سيّدي. هل تريد أن تكون من نبلاء إنكلترا، نعم أم لا؟ إن الملكة لديها مشروعاتٌ من أجلك. إنها تكرّسك لزواجٍ شبه ملكيّ. أيّها اللورد فيرمان كلانشارلي، هذه هي اللحظة الحاسمة. إن القدرَ لا يفتح إطلاقاً باباً من دون أن يُغلق باباً آخر. بعد بضعِ خطواتٍ إلى الأمام، لا يعود بالإمكان القيامُ بخطوةٍ إلى الوراء. إن من يدخلُ إلى تشويهِ الوجه يخلّف وراءه تلاشياً. يا سيدي، إن غوينبلين قد مات. فهل تفهم ذلك؟".

أصيب غوينبلين برعدةٍ من رأسه إلى قدميه، ثم رجع إلى حالته، وقال:

"أجل"

ابتسم باركيلفيدرو، وحيّا، وحمل الصّندوقَ تحت معطفه، وخرج.

V
يظنّ المرء أنه يتذكّر
فينسى

ما هي هذه التّبدلاتُ الغريبةُ المستمرةُ والتي تجري في النفس الإنسانيّة؟

كان غوينبلين قد اخْتطف في الوقت عينه إلى قمّةٍ وجرى دفعُه إلى هاوية.

لقد أُصيب بالدّوار.

الدّوار المضاعف.

دوار الصّعود ودوار السّقوط.

إنه مزيجٌ قاتل.

كان قد أحسّ بأنه يصعد وأحسّ بأنه يهوي.

فإن يرى المرء أفقاً جديداً. هذا أمرٌ مخيف.

إن منظوراً معيناً يقدّم نصائح، وهي ليست جيدة دوماً.

لقد كانت أمامه فجوةٌ سحرية، وربما هي فخٌ، لغيمةٍ تتمزّق وتُظهِرُ الأزرقَ العميق.

والعميق جدّاً إلى الدّرجة التي يصبح فيها معتماً.

لقد كان على الجبل الذي يرى المرءُ منه ممالكَ الأرض.

الجبل الذي يصبحُ مخيفاً خصوصاً وأنه غير موجود. إن أولئك الموجودين على تلك الذروة يكونون في حلم.

إن التجربة في تلك الذروة لجّة؛ وهي على درجةٍ كبيرةٍ من القوّة بحيث يأملُ الجحيمُ على تلك الذروة أن يُفسدَ الجنّة، ويأتي الشيطان بالرّب إليها.

إغراء الأبديّة، أيّ أملٍ غريب هذا!

وفي ذلك المكان الذي يجرّبُ فيه الشيّطانُ يسوع، كيف يمكن لإنسانٍ أن يكافح؟

قصورٌ، وصروحٌ، واقتدارٌ، وغنى، وكافّة الهناءات البشريّة على مدّ البصر حول المرء، وخارطةٌ أرضيّةٌ من المباهج المبسوطة في الأفق، ونوعٌ من جغرافيا مشرقة يكونُ المرءُ مركزاً لها؛ وسرابٌ محفوفٌ بالخطر.

لنتصورْ اضطرابَ رؤيا من هذه الشّاكلة غير مستجلبة، ومن غير درجاتٍ تمهيديّة يجري اجتيازُها، بلا حرص، ولا مرحلةٍ انتقالية.

إن رجلاً قد نام في جحرِ خلدْ، ويستيقظُ على رأس قبّةِ جرس ستراسبور، ذلك هو غوينبلين.

إن الدّوارَ نوعٌ من الصفاء الذّهنيّ الهائل، خصوصاً ذلك الذي يتكوّن من دورانين باتّجاهٍ معاكس، حين يحملك في آنٍ نحو النّهار، ونحو الليل.

يرى المرءُ أكثر مما ينبغي، ولا يرى كفاية.

يرى كلّ شيء، ولا يرى شيئاً.

يكون المرء ما دعاه مؤلّفُ هذا الكتاب في موضوع ما 'الأعمى المبهور'.

أما غوينبلين، الذي بقي وحده، فقد أخذ يمشي بخطواتٍ واسعة. إن غلياناً يسبق الانفجار.

من خلال ذلك الاضطراب، وفي حالةِ استحالة أن يمكثَ المرءُ في مكانه، كان يتأمّل. لقد كان ذلك الغليان تميُّعاً. لقد كان يستدعي ذكرياته. وإنه لأمرٌ مدهشٌ أن يكون المرءُ قد أصغى دوماً بشكلٍ جيد إلى ما يظنّ أنه لم يكدْ يسمعه! إن تصريح الغرقى الذي قرأهُ العمدةُ في قبو ساوثويرك كان يرجع

إلى ذاكرته، بصورة تامة، واضحاً ومفهوماً، لقد كان يتذكّر كلّ كلمةٍ فيه، وكان يرى مجدّداً تحتها كلّ طفولته.

توقف فجأةً ويداه خلف ظهره، وأخذ ينظر إلى السقف، والسّماء، لا فرق، إلى ما هو في الأعلى.

فقال "ثأر!"

كان مثلَ ذلك الذي يضعُ رأسه خارج الماء. وبدا له أنه يرى كلّ شيء، الماضي، والمستقبل، والحاضر، من خلال رعشةِ الضيّاء المباغت.

وصاح "أه!" لأنّ هناك صرخاتٍ في أعماقِ الفكر "أه! لقد كان الأمرُ كذلك إذن! كنتُ لورداً. كلّ شيء يتكشّفُ. أه! لقد سرقوني، وخانوني، وسبّبوا خرابي، وجرّدوني من ميراثي، وتخلّوا عني، واغتالوني! إنّ جثّةَ مصيري قد طفَت خمسةَ عشر عاماً في البحر. وفجأةً أدركتُ الأرض، وانتصبتُ واقفةً وحيّةً! إنني أولد من جديد. إنني أولد! وكنتُ أحسُّ حقاً بأن تحت أسمالي يختلجُ شيءٌ آخر غير البائس. وحين كنتُ أستدير إلى جهة الناس، كنت أحسّ فعلاً أنهم القطيع، وأني لم أكن الكلبَ، بل الرّاعي! رعاة الشعوب، وقادة الناس، ومرشدون وسادة. هذا ما كان عليه آبائي. وما كانوا عليه، أكون عليه أنا! إني رجلٌ نبيلٌ، ولديّ سيف، وأنا بارون، ولديّ خوذة؛ وأنا مركيز، ولديّ قنزعة؛ وأنا عضوٌ مجلس اللوردات، ولديّ تاج. أه! كانوا قد أخذوا مني كلّ هذا! كنت ساكنَ النورّ، وجعلوني ساكنَ العتمة! إن أولئك الذين أبعدوا الوالد قد باعوا الابن. وحين مات والدي. سحبوا من تحت رأسه حجَر المنفى الذي كان وسادةً له، ووضعوه في عنقي، ورموا بي إلى المجرور! أه! قطّاع الطرّق أولئك الذين عذّبوا طفولتي، أجل، إنهم يتحرّكون، وينتصبون في أعمق مكانٍ من ذاكرتي. أجل، إني أرى ذلك مجدداً. لقد كنتُ قطعةَ اللحمِ التي ينقرُها على قبرٍ سربٌ من الغربان. لقد نزف دمي وصرختُ تحت كلّ تلك الأشباح المرعبة. أه! هناك إذن كانوا قد دفعوا بي لكي أُسْحق تحت أولئك الذين يروحون ويجيئون، وتحت عرقصةِ الجميع، وتحت آخرِ سافلة الجنس البشريّ، وأدنى من القنّ، وأدنى من الخادم، وأدنى من النذل، وأدنى من

العبد، وإلى المكان الذي يغدو فيه الرّكامُ المشعّثُ بالوعةً، وإلى أعماقِ الزّوال! ومن هناك إنما أخرجُ! ومن هناك إنمّا أصعدُ مجدّداً، ومن هناك إنما أُبعثُ! وها أنذا. ثأر!'

جلس، ونهض مجدداً، وأخذ رأسه بين يديه، وشرع يسير، وهذه المناجاة، مناجاة العاصفة تتواصلُ في داخله:

'أين أنا؟' على القمّة! أين أتيتُ لأحطّ؟ على الذّروة! وهذه القمّةُ، العظمة، قبّة العالم هذه، القدرة الكلية، هي منزلي. وهذا المعبدُ في الفضاء، أنا أحدُ آلهته! والذي يتعذّرُ بلوغُهِ، أقيمُ فيه. إن هذا العلوّ الذي كنت أنظر إليه من تحت، والذي كان يسقطُ منه الكثيرُ من الأشعّة بحيث كنت أغمضُ عينيّ، هذه الولايةُ الإقطاعية الحريزة، وتلك القلعةُ المحصنّةُ المنيعة، قلعة المحظوظين، أنا أدخل إليها. وأنا فيها، وأنا منها. آه! إنّها دورةُ دولابٍ نهائيّة! كنتُ في الأسفل، وأنا في الأعلى، في الأعلى، إلى الأبد! ها أنا لورد، وسوف يكون لدي معطفٌ أرجواني، ويكون لديّ زينةٌ زهريّةٌ على رأسي، وسأحضرُ تتويجَ الملوك، ولسوف يؤدّون القسَم بين يديّ، وسأحاكمُ الوزراءَ والأمراءَ، وسوف أكونُ موجوداً. ومن الأعماق التي كانوا قد ألقوا بي فيها، سوف انبثقُ مجدّداً حتى السّمت. لديّ قصورٌ في المدينة وفي الرّيف، ودورٌ ضيافة، وحدائق، ورحلاتُ صيد، وغاباتٌ وعرباتٌ فخمة، وملايين؛ سوف أقيمُ احتفالات، وأسنُّ قوانين، وسوف يكون لي أن أختار مباهجي وأفراحي، وغوينبلين المشرّد الذي لم يكن له الحقّ في أن يأخذ زهرةً من العشب، سوف يتمكّن من قطفِ الكواكب في السماء! '

إنه دخولٌ مأتميّ للعتمة في نفسٍ معينة. هكذا كان يجري، في دخيلة غوينبلين هذا الذي كان بطلاً، ولم يكفّ عن أن يكون كذلك ربّما، كان يجري استبدالُ العظمة الأخلاقية بالعظمة الماديّة. إنه انتقالٌ كئيب. وتحطيمٌ للفضيلة على يدِ زمرةٍ عابرةٍ من الشيّاطين. ومفاجأةٌ تجري للجانب الضّعيف من الإنسان. وكلُّ الأشياءِ المتدنيّة والتي تُسمىّ عليا، ضروبُ الطمع، ورغباتُ الغريزة المريبة، والأهواء، والاشتهاءاتُ والتي طردها بعيداً عن غوينبلين

تطهيرُ الشقاء، عادت مجدّداً على رقٍّ في حطامٍ نقله البحر. إنه اغتصابُ ضميرٍ على يد الصّدفة، وهذا أمرٌ ظاهرٌ للعيان.

كان غوينبلين يعبُّ الغرورَ عبّاً، وهذا ما كان يعتّم على روحه. فذلك هو الخمرة المأسويّة.

كانت تلك النشوة تجتاحُه، ولم يكن يرتضيها لنفسه فحسب، بل كان يتلذّذ بها. إنها نتيجةُ ظمأ طويل، فهل يكونُ المرءُ متواطئاً مع الكأس التي يفقد فيها رشده؟ طالما كان يشتهي ذلك بشكلٍ مبهم. كان ينظرُ باستمرارٍ إلى ناحيةِ الكبار. والنظرُ اشتهاء. إن النسيرَ لا يولَد في وكر الكواسر بلا عقاب.

فأن يكون لورداً. الآن، وفي بعض اللّحظات، كان يجدُ ذلك أمراً بسيطاً. لقد انقضت ساعاتٌ قليلةٌ، فكم أصبحَ ماضي الأمس بعيداً.

كان غوينبلين قد التقى كمينَ الأحسن الذي هو عدوّ الخير.

فالويل لذلك الذي يُقال عنه: أيحظى بالسّعادة!

إن المرء يقاوم الضرّاء أفضل مما يقاوم السّراء. إنه ينجو من الحظّ العاثر، وهو بكامل صفاته أكثر مما ينجو من الحظّ الجيد. إن شاريبد(*) هو البؤس غير أن سيلاّ هو الغنى. إن أولئك الذين كانوا يقفون تحت الصّاعقة يجندلهم الانبهار. وأنت يا من لم تكن تذهلُك الهوّةُ، فلتخشَ من أن تخطَفَ على يد جيوشٍ من أجنحة السّحاب والحلم. إن الصعودَ سوف يرفعك وسوف يصغّرك. إن للتّمجيد قدرةً مشؤومةً على أن يصرع.

أما أن يكون المرءُ خبيراً بالسّعادة، فليس هذا أمراً سهلاً. إن المصادفةَ ليست إلاّ قناعاً. وما من شيء يخدعُ مثل ذلك الوجه. فهل هو العنايةُ الإلهيّة؟ وهل هو القدر؟

إن ضياءً ما يمكن ألاّ يكون ضياءً؛ فالنّورُ حقيقةٌ، ويمكن لضوءٍ ما أن يكون خداعاً. أنت تظنّ أنه ينير، كلاّ، إنه يحرقُ:

(*) إعصار مخيف في مضيق ميسّينا؛ وغالباً ما يصل إلى صخرة قريبة من سيلاّ، ومــن هنا المثل: من شاريبد إلى سيلاّ، أي من سيء إلى أسوأ (م: ز. ع).

الظلام يخيِّم؛ وتضع يدٌ شمعةً هي شحمٌ خسيسٌ يغدو نجمةً، تضعُها على حافّةِ فتحةٍ في الظلمات. فتمضي إليها الفراشة.

فبأيِّ قدرٍ هي مسؤولة؟

إن نظرةَ النار تفتنُ الفراشة كما تفتنُ نظرةُ الحيّة العصفور.

أما ألاّ تذهب الفراشةُ والعصفورُ إليهما، فهل ذلك ممكن؟ هل يمكن للورقة أن ترفض طاعة الرّيح؟ هل يمكن للحجر أن يرفضَ الامتثال للجاذبيّة؟

إنها أسئلةٌ ماديّةٌ هي أيضاً أسئلةٌ معنويّة.

بعد رسالةِ الدّوقة، كان غوينبلين قد نهض، وكانت في دخيلته ارتباطاتٌ عميقة قد قاومت. غير أن الزّوابع، بعد أن تستنفذَ الرّيح من إحدى جهاتِ الأفق، تعيدُ الكرّةَ من الجهة الأخرى، والقدرُ، كما الطبيعة، له معانداته الضّارية، ففي المرّة الأولى يزعزعُ، وفي الثانية يقتلعُ.

واأسفاه! كيف تهوي أشجارُ السّنديان؟

وهكذا، فإن ذلك الذي كان طفلاً في العاشرة من عمره، وكان وحيداً على صخور بورتلاند، ومستعداً لشنّ حرب، أخذ يحدِّقُ بالمقاتلين الذي سيجابهُهم، وبالزّوبعة التي كانت تجرفُ السّفينة إلى المكان الذي كان ينوي أن يبحر منه، واللّجة التي كانت تختلسُ منه خشبة الخلاص، والفراغ الفاغرَ الذي يهدّد بالتراجع، والأرضَ التي كانت تمنعُ عنه ملجأً، والسّمتَ الذي يمنعُ عنه نجماً، والوحدة التي لا ترحم، والعتمة التي لا نظر لها، والمحيط، والسماءَ، وكلّ ضروب العنف في لا نهايةٍ ما، وكلّ الألغاز في اللاّنهاية الأخرى؛ إن ذلك الذي لم يكن قد ارتجف وخارت قواه أمام جسامةِ المجهول العدائية، ذلك الذي جابه الليل، وهو حديثُ السّن، كما جابه هرقلُ القديمُ الموتَ، ذلك الذي قام بذلك التحدّي، في ذلك النزاع المفرط في اتسّاعه، تحدّي أن يضع كلّ الحظوظ ضدّه من خلال تبنّيه لطفل، وهو طفلٌ، وبأن يربك نفسه بحملٍ ثقيل، هو المتعبُ والهشُّ والذي يجعل تعرُّضَ ضعفه للدّغاتِ أكثرَ سهولة على هذا النحّو، وينزع بنفسه الكمامات عن مسوخِ الظلام الكامنين

حوله، هو الذي، يروّضُ الوحوشَ قبل الأوان، قد كان فوراً، ومنذ خطواته الأولى، خارج المهد، كان قد بدأ المجابهة مع المصير، هو الذي لم يمنعه عدمُ التكافؤ لديه في الصرّاع من أن يكافح؛ ذلك الذي قبل، وهو يرى حوله فجأة استناراً مرعباً للجنس البشري، قبل ذلك الاحتجاب، وواصل مسيره بشموخ، وذلك الذي كان يعرفُ كيف يبردُ ويعطشُ، ويجوعُ ببسالة؛ ذلك الذي كان جبّاراً بروحه، وهو قزمٌ بقامته؛ غوينبلين هذا الذي قهر ريحَ اللجّة الهائلة تحت شكلها المضاعف، العاصفة والبؤس، كان يترنّح تحت ذلك الهبوب، إنه غرورٌ باطل!

وهكذا فإن القدر، حين استنفد ضروبَ الكربِ والحرمانات، والعواصف، والهدير، والكوارث، والاحتضارات على رجلٍ بقي واقفاً، يأخذ بالابتسام، والرجل الذي يصبح فجأة منتشياً، يتعثّر.

ابتسامة القدر. هل يمكن للمرء أن يتصوّر شيئاً رهيباً أكثر؟ إنها الوسيلة الأخيرةُ لمجرِّب النفوس الذي يمتحن الناس. إن النّمر الموجودَ في القدر يتظاهرُ أحياناً باللّطف. وهذا تهيّؤ مرعبٌ. إنه رقّةُ المسخ الكريهة.

إن كلَّ إنسانٍ قد أمكنه أن يلاحظ في ذاته تزامنَ الوهن مع التّوسّع. والنموُّ المفاجئ يفكّكُ ويسبّبُ الحمّى.

كان في دماغ غوينبلين تدويمٌ مدوّخٌ لطائفةٍ من الأشياء الجديدة، وكلُّ تدرّجِ أضواءِ التحول، ومجابهاتٌ غريبة غير محدّدة، واصطدامُ الماضي بالمستقبل، وغوينبلين اثنان، هو نفسه مضاعفٌ؛ فوراءه، طفلٌ يرتدي الأسمال، وخارجٌ من العتمة، متسكّعٌ، ومرتعدٌ، وجائعٌ، وباعثٌ على الضّحك، وأمامه سيّدٌ متألّقٌ، وباذخٌ، وشامخٌ، وباهر للندن. لقد كان يتجرّدُ من أحدهما ويندمج بالآخر. كان يخرجُ من إيهابِ المهرّج ويدخل في إيهاب اللورد. إنها تغيّراتٌ في الجلد هي أحياناً تغيّراتٌ في الرّوح. كان ذلك يشبه الحلم بشكلٍ مفرطٍ أحياناً. كان ذلك مركباً، سيّئاً وجيّداً. كان يفكّر بوالده. يفكّر بذلك الأخ الذي حدّثوه عنه للتوّ. وهكذا، فهناك أسرة! لماذا!

أسرة! له غوينبلين! لقد كان يتيهُ في تركيباتٍ وهميّة. كانت لديه تجلّياتٌ لألوانٍ من البذخِ عظيمة؛ واحتفالاتٌ غير معروفة تمضي أمامه كالغيم، وكان يسمع أبواقاً تصدحُ.

وكان يقول: "ثم إنني سأكون فصيحاً".

وكان يتصوّر دخولاً بهياً إلى مجلسِ اللّوردات. فقد كان يصل منتفخاً بالأشياء الجديدة. فما الذي يتعيّنُ عليه ألاّ يقوله؟ وأيّةُ مؤونةٍ قد تزوّد بها! وأيّ امتيازٍ لديه في أن يكون، فيما بينهم، الرّجلَ الذي رأى، ولمسَ، وعانى، وتألّم، وأن يستطيع أن يصيح بهم: لقد كنتُ قريباً من كلّ ما أنتم بعيدون عنه! وإلى هؤلاء الأشراف المشبعين بالأوهامِ، سوف يُلقي بالحقيقة في وجوههم، ولسوف يرتجفون، لأنه سيكون حقيقياً. ولسوف يصفّقون، لأنه سيكون عظيماً. سوف يبرز بين هؤلاء الكليّي القدرة، أكثرَ اقتداراً منهم. ولسوف يتبدّى لهم كحاملِ مشعل، لأنه سيريهم الحقيقة، وكحاملِ سيف، لأنه سيريهم العدالة. فأيّ ظفرٍ هذا!

وفي الوقت الذي كان يبني فيه هذه الأمور في ذهنه الصّافي والمضطرب في آن، كان يصابُ بحركاتِ هذيان، وحالات إرهاقٍ عند أوّل وصولٍ ظافر له، وضروبٍ من التهويم، وحالاتِ ذعرٍ مفاجئة. كان يذهبُ ويجيء، وينظرُ إلى السّقفِ، ويعاينُ التيجان، ويدرسُ طلاسمَ شعارِ النّسب بصورةٍ مبهمة، ويجسُّ مخملَ الجدار، ويحرّك الكراسي، ويقلبُ الرّقوق، ويقرأ الأسماء، ويهجّيء الألقاب، بوكستون، وهومبل، وغمدريث، وهانكرفيل، وكلانشارلي، ويقارنُ بين الشموع والدّمغات، ويتلمّسُ ضفائرَ الأختام الملكيّة الحريريّة، ويقترب من النافذة، ويصغي إلى انبجاس المنهل، ويتبينُ التماثيل، ويعدّ بصبرِ المصاب بالنّوام الأعمدة الرّخاميّة، ويقول: هذا موجود.

وكان يلمسُ رداءَه السّاتاني، ويتساءل:

"هل هذا هو أنا؟ أجل."

لقد كان في قلب العاصفةِ الدّاخلية.

وفي هذا الإعصار، هل أحسَّ بخوره وتعبه؟ هل شربَ؟ هل أكل؟ هل نام؟

ولو صنع ذلك، لكان من غير أن يدري. وفي بعض المواقف العنيفة، يتمّ إشباعُ الغرائز مثلما يروق لها، ومن غير أن يتدخّل التّفكيرُ. زدْ على ذلك أن تفكيرَه كان تفكيراً أقلّ مما هو دخان. وفي اللحظة التي يفيضُ فيها الالتماعُ الأسودُ للثوران عبر بئره الملأى بالدوّامات، هل تدري فوهة البركان بالقطعان التي ترعى العشب في أسفل الجبل؟

مرت السّاعات.

ظهر الفجرُ وصنعَ النّهارَ. وولج شعاعٌ أبيض إلى الغرفة، ودخل إلى ذهن غوينبلين في الوقت نفسه.

وقال له الضّياءُ: 'وديا! '.

الكتاب السادس

ملامح أورسوس المختلفة

I
ما يقولُه مبغضُ البشر

بعد أن رأى أورسوس غوينبلين يختفي تحت بابِ سجن ساوثويرك، مكث، زائغَ النظرات، وفي الزاوية المخبّأة التي أخذ يقوم بالرّقابة منها. وظلّ لزمنٍ طويل يتردّدُ في سمعه ذلك الصّريرُ، صريرُ الأقفالِ والمزالج الذي يبدو كأنه صياحُ فرحِ السّجن الذي يفترس بائساً. لقد انتظر. ماذا؟ وراقب، ماذا؟ إن تلك الأبواب التي لا ترحم، ما إن تُغلقَ حتى لا تفتح مجدّداً بعد قليل.

لقد تصلّبت بسبب أسنها في الظلمات. إن حركاتها صعبة، خصوصاً حين يتعلّقُ الأمر بإطلاق السّراح؛ أما الدّخول، فلا بأس، ولكن الخروجَ أمرٌ صعب.

كان أورسوس يعلم ذلك. أما الانتظارُ فهو شيءٌ ليس المرء حرّاً في أن يكفّ عنه حسب مشيئته. إن المرء ينتظرُ رغماً عنه؛ إن الأفعال التي نقوم بها تُطلق قوّةً مكتسبةً تستمرّ حتى عندما لا يعود هناك موضوعٌ لها، وهي تستحوذ علينا وتمسك بنا، وتجبرُنا لوقتٍ ما على مواصلة ما هو بلا هدف من الآن. إن التّرقّب غير المفيد هو وضعيّةٌ خرقاء قد اتخذناها جميعاً في مناسبةٍ معينة، وهو ضياعٌ للوقت يقوم به آلياً كلُّ رجلٍ حريصٍ على شيءٍ مفقود. لا أحد يُفلت من مثل هذه التعلّقات. إن المرء يتشبّثُ برأيه بنوعٍ من العناد الغافل. ولا ندري لماذا يبقى المرءُ في ذلك الموضع الذي هو فيه، ولكنه يبقى فيه. إن ما يكون المرء قد بدأه بفعالية، يواصلُه بصورةٍ سلبيّة.

إنه عنادٌ مرهقٌ يخرج منه المرء مضنىً. إن أورسوس، المختلفُ عن بقيّة الرّجال، قد كان مع ذلك، كأوّل الواصلين، مسمّراً في مكانه بسبب هذا التفكّرِ الممتزجِ بالمراقبة التي يغرقُنا فيها حادثٌ له سلطانٌ كاملٌ علينا، وليس

لنا عليه شيء. كان يتأمّل دورياً السّورين الأسودين، السّور الخفيضَ تارةً، وتارةً البابَ الذي كانت فيه سلّمٌ مشنقة، وتارةً الباب الذي كانت فيه جمجمةُ ميت. لقد كان كأنه ممسوكٌ في تلك الملزمة المكوّنة من سجنٍ ومن مقبرة. لقد كان في ذلك الشّارع الذي يجري تحاشيه، وغير الشّعبيّ، عددٌ قليلٌ جداً من المارّة بحيث لم يلاحظ أحدٌ أورسوس.

خرج أخيراً من الركن العاديّ الذي كان يخفيه، وهو نوعٌ من مرقبٍ وجده مصادفةً، وكان يبرزٌ منه، ومضى بخطىً بطيئة. كان النّهار يميل لفرطِ ما كان انتظارُه طويلاً، ومن وقتٍ لآخر، كان يدير عنقه وينظر إلى الكوّةَ المرعبة الواطئة التي دخل منها غوينبلين. لقد كانت عينه كابيةً وغبيّة. وصل إلى طرف الزّقاق، وسلك شارعاً آخر، ثم آخر، فالتقى بصورة مبهمة المسار التي كان قد عَبَرَ منه قبل بضع ساعات. كان يستديرُ، على فترات، وكأنه كان لا يزال يستطيع أن يرى باب السّجن، ومع أنه لم يعدْ في الشارع الذي كان السّجن فيه. أخذ يقتربُ شيئاً فشيئاً من تارينزو – فيلد. وكانت الأزقّةُ الجانبيّةُ التي تجاور ميدانَ المعرض شعاباً مقفرةً بين تخوم الحدائق. كان يسيرُ محنيّ الظهر على طول الأسيجة والحفر. فجأةَ توقّفَ، وانتصبَ، وصاح:

نِعماً حدث!.

وفي الوقت نفسه، ضرب رأسه بقبضتيه ضربتين، ثم ضربَ فخذيه بضربتين، وهذا ما يدلّ على الرّجل الذي يحكم على الأشياء كما ينبغي الحكمُ عليها. ثم أخذ يدمدم بصوتٍ لا يكادُ يسمع، وبصيحات أحياناً:

حسناً فعلوا! أه! التّافه! قاطع الطريق! الوغد! الخسيس! العاصي! إن كلامه على الحكومة هو الذي أوصله إلى هنا. إنه متمرّدٌ. لقد كان هناك متمرّدٌ في منزلي. وقد تخلّصتُ منه. إني محظوظ. فقد يعرّضنا للخطر. لقد وُضع في السّجن. أه! نعماً حدث! إنها براعةُ القوانين. أه! العاقّ! وأنا الذي أنشأته! فلتتحمّلْ مشقّةَ ذلك إذن! وأيّة ضرورة كانت لديه ليتكلّم ويبدي رأيه؟

لقد تدخّل في مسائل الدولة. وإني أسألك قليلاً! حين قلّب النقود بين يديه، فقد طعن على الضّرائب، وعلى الفقراء، وعلى الشّعب، وعلى كلّ ما لم يكن يعنيه.

لقد سمح لنفسه أن يعطي أفكاراً حول البنسات! لقد علّق بشكلٍ خبيث وماكرٍ على نحاسِ نقود المملكة! لقد أهان فلوسَ جلالتها! إن الفارذينغ يُعتبرُ والملكة شيئاً واحداً! إنه النّقدُ المنقوشُ المقدّس، تبّاً له، إنه النّقد المنقوش المقدّس. ألدينا ملكة، نعم أم لا؟ والاحترام لزنجارها. إن كلّ شيء يُدارُ في الحكومة. ويجب أن نعرفَ ذلك. أنا، قد عشتُ. وأعرفُ الأمور.

ولسوف يُقال لي: ولكنك تتخلّى عن السّياسة إذن؟ السّياسة، يا أصدقائي، أنا أشغل بالي بها بقدر ما أشغل بالي بوبرِ حمارٍ خشن. لقد تلقّيت ذات يوم ضربةَ عصا من بارونيت(*). وقلت في نفسي: هذا يكفي، إني أفهمُ السّياسة. إن الشعب لا يمتلك إلاّ فلساً فيعطيه، وتأخذُه الملكة، فيشكُرها الشعب. ما من شيء أبسط من هذا. أما الباقي فيخصّ اللوردات. ولاياتهم الإقطاعية ولورداتهم الرّوحية والزّمنية. أه! غوينبلين مسجون! أه! إنه في سجن الأشغال الشاقّة هذا عادل، وهذا منصف، وممتاز، ومستحق ومشروع. إن هذا خطؤه. فالثّرثرة ممنوعة. فهل أنت لورد، أيها المعتوه؟ لقد قبض عليه المأمورُ القضائيّ، وأحضره القاضي الإقطاعي، والعمدة يعتقله. لابدّ أن يكون رقيبٌ من رقباء العمرة قد سلخ جلده في هذه اللحظة. كيف ينتفُ ريشك هؤلاء الناس البارعون! لقد خُبستَ، أيّها الظّريف! بئساً له، ونعماً حدث لي! إني، والحقّ، مسرورٌ جداً. وأقرّ بأنني قد كنت محظوظاً ببساطة. فأي عملٍ متهوّر قمتُ به حين التقطتُ هذا الصغير وهذه الصّغيرة! لقد كنا جدّ مرتاحين قبلاً، أومو وأنا. فما الذي أتيا ليفعلاه في تخشيبتي، هذان النّذلان؟ فكم حضنتُهما حين كانا طفلين! وكم جررتهما مع أدواتي المتعدّدة! يا له من إنقاذ جميل! هو القبيح بشكلٍ مشؤوم، وهي العوراء بعينيها الاثنتين!

(*) رتبة تقع بين البارون والفارس في انكلترا قديماً (م: ز. ع).

فلتحرمْ نفسك إذن من كلّ شيء. وكم رضعتْ من أجلهما ضروعَ المجاعة! هذان يكبران، هذان يقومان بفعل الحبّ!إنها مغازلاتٌ ذوي عاهات، فإلى هنا قد وصل بنا الأمر.

الضّفدعُ والخلدُ، إنها قصيدةٌ غزليّة. كنت أرى ذلك في قرارة نفسي. وكان لا بدّ لكلّ ذلك أن ينتهي به الأمرُ إلى القضاء. لقد تحدّث الضفدعُ بالسّياسة. هذا حسنٌ. وها أنا قد تخلّصت منهُ. حين وصل المأمورُ القضائي، كنت غبيّاً في البداية، فالمرءُ يرتابُ دوماً بالسّعادة. وظننت أنني لم أكن أرى ما كنت أراه، وأنه أمرٌ غير ممكن، وأنه كابوس، وأن تلك مهزلة يقدّمها إلي حلمُ اليقظة.

ولكن لا، ما من شيء أكثر واقعيةً منه. إنه أمرٌ قابلٌ للتشكّل. إن غوينبلين في السّجن على نحوٍ لطيف. إنّها ضربةٌ من ضربات العناية الإلهيّة. شكراً أيتها السيّدة الطّيبة. إن هذا المسخ هو الذي جذبَ الانتباه إلى منشأتي، بالضّوضاء التي كان يُحدِثُها، وقد وشى بذئبي المسكين! لقد مضى الغوينبلين! وها أنا قد تخلّصت من الاثنين. أصبت عصفورين بحجرٍ واحد. لأن ديا ستموت نتيجةً لذلك. حين لا ترى بعد ذلك غويذبلين - لأنها تراه، الحمقاء! - لن يكون لديها مبرّرٌ للعيش بعد ذلك، هكذا ستقول لنفسها. ماذا أفعلُ في هذا العالم؟ ولسوف تمضي، هي أيضاً. سفراً موفّقاً. فليذهبا إلى الشّيطان كلاهما. ولطالما أبغضتُهما، هذين الكائنين! فلتقضي، يا ديا. آه! إني مسرور!'

I I

ما يفعله (أورسوس)

التحق بنزل تادكاستر.

دقّت السّاعةُ السّادسة والنصف. النصّف الذي تخطّى السّادسة، كما يقول الإنكليز. وكان ذلك قبل الغسق بقليل.

كان السّيد نيكليس على عتبة بابه. ولم يفلح وجهُه المذهول في أن تنفرجَ أساريرُه منذ الصباح، وبقي الذّعرُ مجمّداً عليه.

ومن أبعد مكانٍ لمح فيه أورسوس، صاح يقول:

"حسناً!

– حسناً ماذا؟

– هل سيرجعُ غوينبلين؟ سيكون أمراً عاجلاً أن يرجع؛ فالجمهورُ لن يتأخرّ عن الوصول. وهل سيكون لدينا هذا المساء عرضٌ للرّجل الضّاحك؟

فقال أورسوس:

– الرّجل الضّاحك، هو أنا".

ونظر إلى صاحب النّزل باستهزاء جليّ.

ثم صعد مباشرةً إلى الطّابق الأوّل، وفتح النّافذة المجاورة للافتة النزل، وانحنى، ومدَّ قبضته، وضغط بثقلها على لافتة غوينبلين – الرّجل الضّاحك، وعلى مأطورةِ إعلان العماء المهزوم، فنزع مساميرَ الأولى منهما، واقتلع الأخرى، ووضع هذين اللّوحين تحت إبطه، ونزل من جديد.

كان ربُّ العمل نيكليس يتبعه بعينية، فقال:

"ولماذا تفكّ هذه الأشياء؟"

فانطلق أورسوس بقهقهةٍ ثانية.

فكرّر صاحب النّزل:

"ولِمَ تضحك؟"

فأجاب أورسوس:

"إنّي أعودُ إلى الحياة الخاصّة"

فهم ربُّ العمل نيكليس، وأمر نائبه، الفتى كوفيكوم، بأن يُعلن لأيِّ شخصٍ يحضر بأنه لن يكون هناك عرضٌ في المساء. ونزع عن الباب البرميلَ - المشكاةَ الذي كانت تجمعُ فيه الحصيلةُ، وركنها في زاويةٍ من زوايا القاعة الخفيضة.

بعد لحظة من الزمن، أخذ أورسوس يصعد إلى العلبة - الخضراء.

وضع في إحدى الزوايا اللافتتين، وولج إلى ما كان يسميّه "جناح النسّاء".

كانت ديا نائمة.

كانت على سريرها بكامل ملابسها، وبدنُ تنّورتها مفكوكُ الأزرار، كما في فترات القيلولة.

بجانبها، كانت فينوس وفيبي الجالستان، أولاهما على مرقاة، والأخرى على الأرض، تتفكرّان.

برغم تقدّمِ الوقت، لم تكونا ترتديان ثوبَ الآلهة المسرّد، وهذه علامةٌ على وهنٍ في عزيمتهما. كانتا قد بقيتا محزّمتين في وشاحهما المسحيّ، وفي فستانهما المصنوع من نسيجٍ خشن.

تأمّل أورسوس ديا.

وهمس قائلاً:

"إنها تتدرّبُ على نومٍ أطول"

وهتف بفيبي وفينوس معنّفاً:

"وأنتما أيضاً تعلمان أن الموسيقا قد انتهت. ويمكنكما أن تضعا بوقكما في درجكما. لقد أحسنتما بعدمِ ارتدائكما ملابس الآلهات الغريبة. فأنتما قبيحتان هكذا بما يكفي. ولكنكما أحسنتما. احتفظا بتورتيكما الممسحتين. فما من عرضٍ هذا المساء، ولا غداً، ولا بعدَ غد، ولا بعدَ بعدَ غد. لم يعدْ هناك غوينبلين. لم يعدْ هناك وجودٌ لغوينبلين أكثر مما هو موجود على قدمي. وأخذ ينظر مجدّداً إلى ديا.

"بأيّة ضربةٍ سيصيبُها ذلك! سيكون ذلك مثل شمعةٍ نطفئها.

ونفخ خدّيه وقال:

"فوه! – لن يعود هناك شيء"

وصدرت عنه ضحكةٌ صغيرةٌ جافّة.

"أن ينقصها غوينبلين معناه أن ينقصها كلُّ شيء. وسيكون الأمرُ كما لو فقدتُ أومو. بل سيكون أسوأ. سوف تكونُ أكثرَ وحدةً من أيّةِ فتاةٍ أخرى. إن العميان يتخبّطون في الحزنِ أكثر منّا.

ومضى إلى طاقةِ صدر العلبة.

"لأن الأيام تطول، فالمرءُ يُبصرُ فيها حتى في السّاعة السّابعة. ومع ذلك فلنشعلْ شمعة الشحم".

قدح الولاّعة، وأشعلَ مصباحَ سقف العلبة – الخضراء.

انحنى على ديا.

"سوف تصابُ بالرّشح. أيتها النّساء لقد حللتن أربطةَ معطفها المقلنس، وهناك المثل الفرنسي":

نحن في نيسان

فلا تخلع خيطاً"

رأى دبوّساً يلتمعُ على الأرض، فالتقطه، وشكهُ في كمّه. ثم ذرع العلبة – الخضراء مكثراً من الإيماءات والإشارات.

إني ممتلكٌ لكامل قدراتي. وذهني صافٍ، صافٍ بدرجةٍ فائقة. وأجدُ هذه الحادثة جدّ سليمة. وأوافق على ما يجري. وحين تستيقظ، أقول لها الحادثة بوضوح. إن الكارثة لن تتأخر عن الحدوث، فلن يعود هناك غوينبلين! فعمي مساءً، يا ديا. فكم جرى ترتيبُ الأمر بشكلٍ جيّد! غوينبلين في السّجن. وديا في المقبرة. سوف يتقابلان. إنه رقصٌ حداديّ. ومصيران يدخلان إلى مؤخرّ المسرح. ولنشدّ البزّات، ولنغلقْ الحقيبة. والحقيبة، فلتقصدوا بها التابوت. لقد كان هذان الكائنان إخفاقاً. فديا بلا عينين، وغوينبلين بلا وجه. وفي الأعالي، سوف يُعيدُ الإلهُ الرّحيمُ النّور لديا، والجمال لغوينبلين. إن الموتَ ترتيبٌ للأمور. فكلّ شيء على ما يرام. ويا فيبي، ويا فينوس، علّقا طبلتيكما بالمسمار. إن مواهبكما في الصّخبِ سوف تفسدُ، أيتها الجميلتان. فلن نمثّل بعد الآن. إن العماء المهزوم قد هُزم. والرّجل الضّاحك قد التهب! تارانانتار(230) قد مات.

إن ديا هذه لا تزالُ نائمة. إنها تُحسن صنعاً. ولو كنتُ مكانها، لما استيقظت.

عجباً! سرعان ما ستعود إلى النّوم. ستكون ميتةً بعد قليل، فتاةٌ ضعيفةٌ البنية كهذه. هذا ما يعنيه أن يهتمّ المرء بالسّياسة. أيٌّ درسٍ هذا! والحكومات، كم هي على حقّ! فغوينبلين يُسلمُ إلى العمدة، وديا إلى حفّارِ القبور. هذا يجري بشكلٍ متوازٍ. وهو تناظرٌ مهذّب. آمل حقّاً أن يكون صاحبُ النزل قد أرتج الباب. فسوف يكون ثمة موت هذا المساء فيما بيننا، ضمن الأسرة. ليس أنا، وليس أومو، بل ديا. غير أني سأواصلُ دحرجةَ حمولتي. إني أنتمي إلى تعرّجات الحياة المتشردة ولسوف أصرفُ الفتاتين، ولن أحتفظ حتى بواحدةٍ منهما؛ فلديّ بعضُ الميل لأكون عجوزاً متهتّكاً. إن خادمةً في منزل فاسقٍ هي كالخبز على لوحٍ خشبيّ.

أنا لا أرغبُ في الإغراء. لم يعدْ يناسب عمري(231) Turpe senile amor. سوف أواصلُ طريقي وحدي مع أومو. وأومو هو الذي سيدهش! فأين غوينبلين؟ أين ديا؟ يا رفيقي القديم، ها نحن معاً مجدداً. وحقّ الطّاعون، أنا مسرور جدّاً. فقد كانت تضايقني قصائدهم الرّعويّة. آه! هذا الولدُ الفاسدُ الذي

لا يرجع إلى هنا حتى! إنه يجمّدنا هنا. حسناً الآن هو دورُ ديا. ولن يطولَ الأمر. إني أحبُّ الأشياء النّاجزة. إني لا أعطي نقرةً بإصبعي على طرف أنفِ الشيطان لكي أمنعه من أن يفطس، فلتفطسْ، هل تسمع! آه! إنها تستيقظ!'

فتحت ديا جفونها، فالكثيرُ من العميان يغمضون عيونهم عند النّوم. وكان وجهُها الرّقيق الجاهلُ يحتفظُ بكلّ إشراقه.

همس أورسوس:

'إنها تبتسم، وأنا أضحك. الأمرُ على ما يرام'.

ونادت ديا:

'فيبي! فينوس! لا بدّ أن وقتَ العرض قد حان. وأظنّ أنني قد نمتُ لفترةٍ طويلة. تعالا لتلبساني.

فلم تتحرّك لافيبي ولا فينوس.

مع ذلك فإن تلك النظرة، نظرةَ الأعمى التي لا توصف، والتي كانت في عين ديا قد التقت للتوّ بحدقةِ عين أورسوس، فارتعد، وصاح:

'حسناً، وماذا تفعلان إذن، يا فينوس ويا فيبي، ألا تسمعان سيّدتكما؟ هل أنتما صمّاوان؟ بسرعة، إن العرضَ سيبدأ'.

نظرت المرأتان إلى أورسوس مذهولتين، وزعقَ أورسوس:

'ألا تريان الجمهور الذي يدخل، يا فيبي، ألبسي ديا، ويا فينوس اقرعي الطّبلة'.

الطّاعة كانت صفة فيبي، والسّلبيّة صفةَ فينوس. أما كلتاهما فقد كانتا تجسّدان الامتثال. طالما كان سيّدهما أورسوس لغزاً بالنسبة إليهما. فحين لا يكون المرءُ مفهوماً قطّ يكون هذا مسوّغاً لكي يُطاع. لقد فكرتا ببساطة أنه يغدو مجنوناً، وقد نفّذتا الأمر. فأنزلت فيبي الطقمَ المعلّق، وأنزلتْ فينوس الطبلَ.

بدأت فيبي بإلباس ديا. وخفض أورسوس سجفَ الخدر، وتابع يقول من خلف السّتارة:

"انظر يا غوينبلين إذن! إن الباحةَ ممتلئةٌ أكثر من نصفها بالجمهور. والناسُ يتدافعون عند أبواب المخارج. فأيُّ حشدٍ هذا! ماذا تقول عن فيبي وعن فينوس اللتين لم يكن يبدو أنهما تلاحظان ذلك؟ فكم هما غبيّتان هاتان المرأتان العاقران.

ما أشدّ الحماقة في مصر! لا ترفعْ السّجف. كن محتشماً، إن ديا ترتدي ملابسها."

توقف للحظة، وفجأة سُمعَ هذا الهتافُ:

"ما أجمل ديا!"

كان ذلك هو صوتَ غوينبلين، فأُصيبت فيبي وفينوس بصدمة، واستدارتا. لقد كان ذلك هو صوت غوينبلين، ولكن بفمِ أورسوس.

أما أورسوس، فبإشارةٍ منه، من خلال انفراج السّجف، منعهما من أن تبديا الدّهشة.

وتابع بصوتِ غوينبلين:

"أيّها الملاك"

ثم ردّ بصوتِ أورسوس:

"ديا، ملاك، إنك مجنون يا غوينبلين؛ فما من ثديّيّ يطيرُ إلاّ الخفّاش."

وأضاف:

"هيا، يا غوينبلين، اذهب لفكّ رباط أومو، فسيكون ذلك أكثرَ حكمةً."

ونزل الدّرج الخلفي للعلبة - الخضراء. وبسرعةٍ كبيرة، على طريقة غوينبلين الرّشيقة. وبجلبةٍ مقلّدة أمكن لديا أن تسمعها.

أبصر في الباحة الفتى الذي كانت هذه المغامرةُ كلُّها تجعلهُ عاطلاً عن العمل وفضولياً.

وقال له: "مدَّ يديك الاثنتين".

وأفرغ فيهما حفنةً من الفلوس.

فامتلأ قلب كوفيكوم بالحنان من جراء هذا السّخاء.

وهمس له أورسوس في أذنه:

"أيها الفتى، اذهبْ وابقَ في الباحة، اقفزْ، وارقصْ، والطمْ، وازعقْ، وانهقْ، وصفّرْ، واهدلْ، واصهلْ، وصفّق واخبطْ بقدمك، وقهقهْ، واكسرْ شيئاً".

أما ربُّ العمل نيكليس، الذي شعر بالإذلال والغيظ لأنه يرى الناس يأتون لمشاهدة الرّجل الضّاحك ويعودون أدراجهم، ويرتدّون نحو التخشيبات الأخرى في ميدان المعرض، فكان قد أغلق باب النزل، وامتنع حتى عن تقديمِ الشرّاب في ذلك المساء، لكي يتحاشى إزعاجَ الأسئلة؛ وفي تعطّل العرض الذي لم يجرِ تقديمه، كان ينظر إلى الباحة من أعلى الشرفة، وهو يحملُ شمعةً في قبضته. أما أورسوس فقد صاح به، وهو يتخذّ حيطةً وضعٍ صوته بين قوسين في راحتي يديه اللتين ضبطهما على فمه:

"أيها السّيد النبيل، افعلْ كما يفعل فتاك، اصرخْ، وانبحْ، واعوِ".

وصعد مجدّداً إلى العلبة – الخضراء، وقال للذئب:

تكلّم بأكثر ما تستطيع".

وإذْ رفعَ صوته، فقد قال:

"هناك جمهورٌ يفوق الحدّ. وأظنُّ أننا سنحصلُ على عرضٍ شديد الارتجاج".

ومع ذلك، فقد كانت فينوس تنقرُ على الطبل.

وتابع أورسوس يقول:

"لقد ارتدت ديا ملابسها. ولسوف نتمكّن من البدء. ويؤسفْني أن نكون قد سمحنا لعددٍ كبير من الجمهور أن يدخل. وكم يتكدّسون بكثرة! ولكن انظرْ إذن يا غوينبلين! إن هناك رعاعاً جامحين! أراهن بأننا سنجني أكبرَ حصيلةٍ اليوم. هيا، أيتها السّفيهتان، هيا إلى الموسيقا كلتاكما! تعالي إلى هنا، يا فيبي، وامسكي ببوقك. وحسناً، يا فينوس، اضربي بقوّة طبلتك. وجهي إليه خبطة.

ويا فيبي، اتخذي وضعيةَ مرسلةٍ من جوبيتر(*). أيتها الآنستان. إني لا أجدُ أنكما متعريّتين بشكلٍ كافٍ. فاخلعا هاتين السّترتين، واستبدلا بالنسّيج الخشن ستراً شفافاً. إن الجمهورَ يحبُّ خطوطَ شكل المرأة. فلندعْ أصحابَ النّزعة الأخلاقية يُرعِدون. فقليلٌ من عدمِ الاحتشام، تبّاً. ولتكونا مثيرتين للّذة. واندفعا في ألحانٍ مستهامةٍ، فاشخرا، وطقطقا، وبوّقا، واقرعا على الطبلة فما أكثر الناس الحاضرون، يا صديقي المسكين غوينبلين!".

وقطع كلامَه قائلاً:

– يا غوينبلين، ساعدني. ولنخفضْ اللاّفتة.

ومع ذلك فقد بسَطَ منديله.

"ولكن دعني أولاً أجأر في سملي البالي".

وتمخّط بقوة، وهذا ما ينبغي دوماً أن يصدرْ عن متكلّمٍ من معدنه.

وما إن أعاد منديله إلى جيبه، حتى سحب موترّةً مفاتيحَ جهاز البكرة الذي أحدث صريره المعتاد؛ فانخفضت اللاّفتة.

"يا غوينبلين، من غير المفيد إبعادُ السّتارة الحريرية؛ فلْنبقِ السّتارةَ حتى يبدأ العرض.

قد لا نكون في منزلنا. أنتما، تعالا إلى مقدّم المسرح كلتاكما. موسيقا. أيتها الآنستان! بوم! بوم! بوم! إن مقرُّ الفرقة قد تشكّل جيداً. إنها حثالةُ الشعب. فكم من الرّعاع، يا إلهي!".

أما المرأتان العاقران اللتانِ خبّلهما الامتثالُ، فقد استقرتا مع آلاتهما في مكانهما المعتاد، عند زاويتي اللاّفتة المخفضة.

حينئذ غدا أورسوس خارقاً للعادة. لم يعد رجلاً، بل صار حشداً. وإذ أُجبِرَ على أن يصنعَ امتلاءً من الفراغ، فقد استنجدَ بلهجةٍ بطنيةٍ خارقة.

إن كلّ جوقةَ الأصواتِ البشريّة والحيوانية التي كانت في داخله قد تحركت معاً. وغدتْ كثيرة العدد. وإذا ما قيّضَ لشخصٍ ما إن يُغمض عينيه،

(*) في أساطير الإغريق، صورة مجازية لمبعوثة جوبيتير العديدة العيون. (م: ز. ع).

لظنَّ أنه في ساحةٍ عامة، في يوم عيدٍ، أو يوم تمرُّد. كان إعصارُ التمتمات والصَّخب الذي يخرجُ من أورسوس يغنّي، وينبحُ، ويتحدَّث، ويسعلُ ويبصقُ، ويعطسُ، ويضغُ سعوطاً، ويتحاورُ، ويطرحُ الأسئلةَ والإجابات، وكلّ ذلك في آن واحد. وكانت المقاطعُ التي يبدأ بها يدخل بعضُها في البعض الآخر.

وفي تلك الباحة التي لم يكن فيها شيء، كان المرءُ يسمعُ رجالاً ونساءً وأطفالاً.

وكان ذلك هو اختلاطُ الجلبةِ الواضح. ومن خلال هذه القرقعة، كانت تتموّجُ، كما في دخان، تنافراتُ أصواتٍ غريبة، وقرقاتُ طيور، وصيحاتُ قطط وزعيقُ أطفال يرضعون. كان المرءُ يميِّز بحّةَ السّكيرين. وكان استياءُ كلابِ الدّرواس تحت أقدام الناس يُبدي تذمّره. كانت الأصواتُ تأتي من البعيد ومن القريب، من الأعلى ومن الأسفل، ومن المستوى الأول إلى المستوى الأخير.

وكان المجموعُ يشكّل ضوضاء، ويشكّلُ التفصيلُ صرخة. كان أورسوس يخبط بقبضته. ويدقّ بقدمه، ويقذفُ صوته إلى أعماقِ الباحة، ثم يجعله يأتي من تحت الأرض. كان ذلك عاصفاً ومألوفاً. وكان ينتقلُ من الهمس إلى الضجّة، ومن الضّجة إلى الضّوضاء، ومن الضّوضاء إلى الإعصار. لقد كان نفْسَه، وكان الجميع.

مناجاةٌ وتعدّدُ لغات. فكما هناك خداعٌ بصري، هناك خداعٌ سمعي. وما كان بروتيه يصنعُه بالنسبة للنظر، كان أورسوس يصنعهُ بالنسبة للسّمع. ما من شيءٍ رائعٍ مثل ذلك التقليد المطابق للحشد. ومن وقتٍ لوقت، كان يُبعدُ سجفَ الخدرِ وينظرُ إلى ديا. وكانت ديا تصغي.

وكان الفتى من جهته يهيجُ في الباحة.

كانت فينوس وفيبي تنفخان بضمير حيّ في مزماريهما حتى الانبهار، وتهتاجان على طبلتيهما. أما ربُّ العمل نيكليس، الشاهدُ الوحيد، فيجد، شأنهما، تفسيراً مطمئناً يقنعُ به نفسه، ومفاده أن أورسوس مجنون، ولم يكن هذا فوق ذلك إلاّ تفصيلاً باهتاً يضافُ إلى كآبته. كان صاحبُ النزل الطيّب يدمدمُ قائلاً: 'أيّة فوضى!' وكان جادّاً مثل شخصٍ يتذكرّ أن هناك قوانين.

أما كوفيكوم الذي سرّه أن يكون مفيداً لإحداث فوضى، فقد كان يهتاجُ بقدر أورسوس تقريباً. وكان هذا يسلّيه. وفوق ذلك، فقد كان يكسبُ فلوساً.

كان أومو متفكّراً.

وكان أورسوس يخلطُ كلماتٍ بضجيجه.

كالمعتاد، يا غوينبلين، هناك متآمرون. إن منافسينا يخرّبون نجاحاتنا. إن السخرية هي تابلُ الظفر. ثم أن النّاس كثيرو العدد. وهم غير مرتاحين.

إن زاويةَ مرفقيِّ الجار لا تهيء الوضع للتسامح والرّفق. المهمّ ألاّ يكسروا المقاعد! سوف نكون ضحيّةَ جمهور أحمق. آهٍ لو كان صديقنا توم – جيم – جاك هنا! غير أنه لم يعدْ يأتي. فلتنظرْ إلى كلّ هذه الرّؤوس، بعضها فوق البعضِ الآخر. إن أولئك الواقفين لا يبدو عليهم السّرور، مع أن الوقوف، حسبَ رأيِ غاليان(*)، يُعتبرُ حركةً، ويسميّها هذا الرّجلُ العظيمُ 'الحركةَ المقويّةَ'. ولسوف نختصرُ العرضَ. بما أنه لم يعدْ هناك إعلانٌ إلاّ عن العماءِ المهزوم، فلن نمثّل رجوعَ أورسوس وهذا ما سيكون كسباً لنا دائماً، فأيّةُ صيحةٍ هذه! ويا لصَخَبِ الجماهير الأعميّ. سوف تحدثُ لنا بعضُ الأضرار! غير أنّ هذا لا يمكن مع ذلك أنَ يستمّر على هذا النحْو.

فقد لا نتمكن من التمثيل. وقد لا نُفهم كلمةٌ واحدةٌ من المسرحية سوف أوجهُ إليهم خطاباً يا غوينبلين، أبعدْ السّتارة الحريرية قليلاً، أيّها المواطنون....'

'يسقط العجوز! '

وتابع بصوته الأصلي:

'أظن أن الشّعب يشتمني. إن شيشرون على حقّ: Plebs Fex urbis لا أهمية لذلك. فلتوبخ الرّعاع، سوف ألاقي مشقةً كبيرةً في أن أجعلهم

(*) غاليان 'طبيب يوناني، ولد في بيرغام /١٣٠ ٢٠١/، قام باكتشافات عديدة في التشريح... (م: ز.ع).

يسمعونني. ومع ذلك، سأتكلم. أيّها الرجل. قمْ بواجبك. يا غوينبلين، انظرْ إذن إلى تلك المرأة الشّرسة التي تصرف هناك".

سكتَ أورسوس للحظة صمتٍ وضعَ فيها صريراً لأومو. أما أومو، الذي استُفِزّ، فقد أضاف صريراً ثانياً، وأضاف كوفيكوم صريراً ثالثاً.

وتابع أورسوس:

"إن النّساء أسوأ من الرّجال. إنها لحظةٌ ملائمةٌ قليلاً. الأمرُ سيّان، فلنحاول استخدامَ تأثيرِ الخطاب. لا يزال الوقتُ مناسباً ليكون المرء بليغاً - اسمعْ هذا، يا غوينبلين، وهذا استهلالٌ تلميحيّ - أيتها المواطنات والمواطنون. أنا هو الذّنب، وإني أنزع رأسي لكي أكلّمكم. وأطلب منكم الصّمت بتواضع".

وعزا أورسوس إلى الجمهور هذه الصّيحة:

"غرومفل! ".

وتابع يقول:

"إني أُجلُّ الحضور لدي: إن غرومفل هي خاتمة حكميّة مثل أية خاتمة حكمية أخرى. فتحيّة، أيّها الجمهور المقرقر. أن تكونوا جميعاً من السّوقة، فهذا ما ليس لديّ أيّ شكّ به. وهذا لا ينزعُ من تقديري شيئاً. وهو تقديرٌ متعقّل. إني أكنّ أعمق الاحترام للسّادة اللؤماء الذين يشرّفونني بممارستهم. إن بينكم كائناتٍ مشوّهةً، وإني لا أغتاظُ منها، إن السّادة العرج، والسّادة الحدب موجودون في الطّبيعة، إن الجملَ محدودبٌ؛ والثّورُ الأمريكيّ منتفخُ الظّهر؛ إن ساقيّ الغرير على اليسار أقصر منهما على اليمين؛ وهذه الحقيقةُ قد حدّدها أرسطو في بحثهِ الدائر على سير الحيوانات. إن أولئك الذين لديهم بينكم قميصان، لديهم قميصٌ على جذعهم، والقميصُ الآخر لدى المرابي. أعلم أن ذلك يحدث.

أعلم أن ألبوكيرك قد رهن شاربه، والقديسَ دونيس هالته. وقد كان اليهودُ يقرضون المال حتى على الهالة. إنها أمثلةٌ عظيمة. فحين يكون على المرء ديون، معناه أن لديه شيئاً ما. إني أُكبرُ فيكم كونكم معدمين."

ناقض أورسوس كلامه بهذا القطع الجهيريّ العميق:

'يا فحل الحمير المثلّث!'

وردّ بنبرته الأكثر تأدّباً:

'اتفقنا. أنا أعلم. وإني أعتذرُ عن ذلك ما أمكنني. إني أزدري العلم ازدراءً علمياً. فالجهلُ حقيقةٌ يغتذي منها المرء، والعلمُ حقيقةٌ يصدوم بها المرء. وبصورةٍ عامة، يضطرّ المرءُ إلى الاختيار، بين أن يكون عالماً ويصابَ بالهزال، وأن يرعى ويكون حماراً. أيها المواطنون، ارعوا. فالعلمُ لا يعادلُ لقمةً من شيء طيّب. أفضّل أن آكل من فتيلةِ الثور من أن أعلم أنها تسمّى العضلة القطنيّة. ليس لديّ شخصياً إلاّ فضلٌ واحد. إنه العينُ الجافة. فكما ترونني، فأنا لم أبكِ قطّ. ولا بدّ من القول إني لم أكن قطّ مسروراً،لم أكن مسروراً قطّ، ولا حتّى من نفسي. فأنا احتقرُ نفسي، غير أني أعرضُ هذا على أعضاء المعارضة الحاضرين هنا. وإذا كان أورسوس ليس إلاّ عالماً، فإن غوينبلين فنّان'.

ونخر من جديد:

'غرومفل! '

وتابع يقول:

'غرومفل أيضاً! هذا اعتراض. ومع ذلك فأنا أتجاوزه. وغوينبلين، يا سادتي وسيّداتي! لديه فنانٌ بقربه، وهو تلك الشخصيّة المميّزة والوَبرة التي ترافقنا وهي السيّد أومو، الكلب السّابق المتوحّش، والذي هو اليوم ذئبٌ متمدّن، وأحدُ رعايا جلالتها المخلصين. إن أومو ممثّلٌ إيمائيّ ذو موهبةٍ ضبابيّة ومتفوّقة. فلتكونوا منتبهين ومتأمّلين. فلسوف ترون أومو بعد قليل وهو يمثّل، شأن غوينبلين، وينبغي أن نبجّل الفنّ. إن هذا يليقُ بالأمم العظيمة. هل أنتم رجالُ غابات؟ إني أوافقُ على ذلك وفي هذه الحالة silvae sint consule dignae. (233) إن فنانين يعادلان قنصلاً.

حسناً. لقد ألقيا عليّ قلبَ ملفوفةٍ لا يؤكل، ولكني لم أُصَب. ولن يمنعني ذلك من الكلام. على العكس، فإن الخطرَ الذي نتفاداه مهذار، وكما يقول جوفينال:

'Garrula pericula'. أيّها الشّعب، إن بين ظهرانيك سكيرين، وهناك سكّيرات أيضاً. وهذا جيّد جداً. إن الرّجال نتنون، والنسّاء مقزّزات. ولديكم كلُّ ضروب المسوّغات الممتازة لكي تتكدّسوا هنا على مقاعد الحانات هذه، هي البطالةُ، والكسلُ، والفاصلُ الزمني بين عمليتي سرقة، والجعة الإنكليزية (البورتر)، والمزرّ (جعة خيفة)، والسّتاوت (جعة داكنة قويّة)، والمالت (طحين الشعير)، والبراندي(*)، والجنّ وانجذابُ جنسٍ للجنس الآخر. على أحسن وجه.

إن ذهناً يتوجّه إلى الدّعابة قد يجد هنا ميداناً جميلاً له. ولكنني أتعفّف عن هذا. وإذا كان الأمر فسقاً، فليكنْ. ومع ذلك، فلابدّ أن يكون القصفُ مهذّباً. أنتم مرحون، ولكنكم ضاجّون. إنكم تقلّدون بتميّزٍ أصواتَ الحيوانات. ولكن ماذا يمكن أن تقولوا. إذ تكلمّتم عن الحبّ مع سيّدةٍ راقية في حانةٍ مشبوهةٍ، لقد كنت أمضي وقتي في النّباح خلفكم؟ ولعلّ ذلك يضايقكمْ حسناً، هذا يضايقنا. إني آذن لكم بالسكوت؛ فالفنُّ محترمٌ كالفسق، إني أكلّمكم بلغةٍ نزيهةٍ'.

وعنّف نفسه قائلاً:

'أيها السّادة المبجلون، دعوا سنابلَ الشّيلم وشأنها. فمن الكفر ممارسةُ العنف ضدّ الخضراوات، لأنكم وجدتم تشابهاً بينها وبين الإنسان والحيوان فضلاً عن هذا، فإن الحميّ لا تخنق. وهذا مجازٌ خاطئ. فتكرُّماً، راعوا الصّمت! فاسمحوا بأن يُقال لكم ذلك، إنكم تفتقرون قليلاً إلى هذه المهابة التي تميّز السّيد النبيلَ الانكليزي الحقيقيّ. وإني أتبيّن، فيما بينكم، أن أولئك الذين لديهم أحذية تمرّ منها أصابع أرجلهم يفيدون من ذلك ليضعوا أقدامَهم على أكتاف المشاهدين الذين هم أمامهم، وها ما يعرّضُ السّيدات لإبداء الملاحظة

(*) مشروبان كحوليان معروفان (م: ز. ع).

التي مفادُها أن النّعال تنثقبُ دوماً من النقطة التي فيها رأسُ العظام المشطيّة. فلتظهروا أقدامكم بشكلٍ أقلّ بقليل، وأظهروا أيديكم بشكلٍ أكبر بقليل. إني ألمحُ من هنا محتالين يغرزون مخالبهم البارعة في جيوبِ صدراتِ جيرانهم الحمقى. فالحشمةُ، أيها النشّالون الأعزاء. الكموا القريب، إذا شئتم، ولا تجرّدوه من ماله. ولسوف تزعجون الناس، إذا ورّمتم عيناً لهم أقلّ مما تزعجونهم إذا نشلتم منهم فلساً. ولتؤذوا الأنفَ، لا بأس. فالبورجوازيّ (ابن المدينة) يحرصُ على نقوده أكثر مما يحرص على وسامته.

وتقبّلوا تعاطفاتي معكم، فوق ذلك. ولست أدعّي المعرفة بحيث ألوم اللّصوص. إن الشرّ موجود. وكلّ إنسان يعانيه، وكلّ إنسان يفعله، وما من أحدٍ معصومٌ من هامة خطاياه.

وأنا لا أتكلمُ إلاّ عن هذه الهامة. أليس لدينا جميعاً أشياؤنا التي تتآكلنا؟ فالرّبُ يحكُّ في موضعِ الشّيطان. وأنا نفسي قد ارتكبتُ أخطاء.

(235)" Plaudite cives ".

صدر عن أورسوس تأوّه طويل (236). وقد سيطر عليه بهذه الكلمات النّهائية:

"أيّها الميلوردات والسّادة، أتبيّن أن خطابي قد حظي بأنه لم يرق لكم. وأنا أستأذن صيحاتِ هزئكم للحظةٍ من الزمن. والآن سوف أُعيدُ رأسي إلى موضعه، ويبدأ العرض".

لقد تخلى عن النّبرة الخطابية ليتخذ لهجةً حميميّة:

"لنغلق السّتارة الحريرية، ولنتنفسّ. فلقد كنتُ معسول الكلام، وتكلمّتُ بشكلٍ جيد. لقد دعوتهم بالميلوردات وبالسّادة. وهذه لغة مخمليّة، ولكن لا فائدةَ منها، فماذا تقول عن كلّ هؤلاء الفجّار. يا غوينبلين؟ وكيف نفهم جيداً هذه الشرّور التي عانت منها إنكلترا منذ أربعين عاماً، بسبب نزق هذه العقول الخشبيّة والماكرة! كان الانكليز القدامى محابين، أما هؤلاء فهم سوداويّون ومتوهمّون، ويفخرون بأنهم يزدرون القوانين، ويتجاهلون السّلطة الملكيّة. لقد فعلتُ كلّ ما يمكن أن تصنعه البلاغة البشريّة، وأغدقت عليهم المجازاتِ

المرسلةَ اللطيفة مثل وجنةٍ يافعٍ مزهرة. فهل هدأ غضبهم؟ أشكّ في ذلك. وماذا ننتظرُ من شعبٍ يأكلّ بهذه الطريقة غير المعتادة، ويكتظ بالتبغ، بحيث أن رجال الأدب أنفسهم في هذا البلد غالباً ما يؤلّفون كتبهم، وهم يضعون الغليون في أفواههم! إن هذا سيّان، لنقدّم المسرحيّة".

سُمع انزلاقُ حلقات السّتارة على قضيبها المعدني. وتوقّف دقُّ العاقرين على الطّبلة. لقد نزع أورسوس خرقه، وأدّى استهلاله، وقال بصوتٍ خفيض: "عجباً! يا غوينبلين، كم هذا غامضٌ! " ثم أخذ يتشقلبُ مع الذئب، ومع ذلك، وفي الوقت نفسه الذي نزع فيه الخرق، نزع عن المسمار طاقية شعرٍ جدّ خشنة كانت لديه، ورماها على الأرضيّة الخشبيّة في إحدى الزّوايا التي هي في متناوله.

جرى عرضُ العماء المهزوم كالمعتاد تقريباً، باستثناء مؤثّراتِ الضّوء الأزرق، ورؤى الإنارة المذهلة. كان الذئبُ يمثّل دورَه بطيبةٍ خاطر.

وفي اللحظة المطلوبة، ظهرت ديا، ونادت غوينبلين بصوتها المرتعش والسّماوي. ومدّت ذراعها، باحثةً عن ذلك الرأس....

انقض أورسوس على طاقيّة الشعر، فشعّثها، واعتمر بها، وقدّم بتؤدةٍ رأسَه الذي نُفش على هذه الصّورة، تحت يد ديا، وهو يحبسُ نفسه.

وإذّ استدعى كلَّ مهارته، وحاكى صوتَ غوينبلين، فقد أنشد بمحبّةٍ لا توصف ردَّ المسخ على نداء الرّوح.

كانت المحاكاة على درجةٍ من الإتقان بحيث أخذت العاقران، تلك المرّة أيضاً. تبحثان عن غوينبلينً بعيونهما، وقد ذُعرتا من سماعهما له من غير أن ترياه.

أما كوفيكوم المفتون، فقد أخذ يُردي(*)، ويصفّق، ويخبطُ بيديه، ويُحدثُ جلبةً جليلة، ويضحكُ وحده مثل جماعةٍ من الآلهة. إن هذا الفتى، ولنقل ذلك، قد أظهر موهبةً نادرة، موهبة مشاهد.

(*) يُردي: أي يخبط الأرض بقدميه. (م: ز. ع).

أما فيبي وفينوس، اللتان هما شخصيتان آليّتان كان أورسوس يحرّكهما، فقد أحدثتا تشوّشَ الآلاتِ الموسيقية المعتاد، والآلات النحاسيّة، وجلد الحمار مختلطةً، والتي كانت تدلُّ على نهايةِ العرض، وترافقُ ذهابَ الجمهور.

نهض أورسوس من جديد وهو يتصبّب عرقاً.

قال بصوتٍ خفيض لأومو: 'أنت تدرك أن المطلوبَ كان كسب الوقت. وأظنّ أننا قد نجحنا في ذلك. لم أتخلص من الورطة بشكلٍ سيّء إطلاقاً، أنا الذي كان يحقُّ لي مع ذلك أن أكون مضطرباً. ولا يزالُ بمقدور غوينبلين أن يرجع أيضاً من الآن وإلى الغد، كان من غير المفيد قتلُ ديا فوراً، وإني أشرحُ لك أنت الأمر'.

نزع طاقيّةَ الشعر، ومسح جبينه، وهمس يقول:

'إني متكلّمٌ عبقريٌ من البطن. فأيّة موهبةٍ كانت لديّ في ذلك! وقد ضاهيت برابان، المتكلّم من معدته لدى ملك فرنسا فرانسوا الأول. فديا قد اقتنعت بأن غوينبلين هنا؟'

وقالت ديا:

- يا أورسوس، أين غوينبلين؟

فاستدار أورسوس مذعوراً.

كانت ديا قد بقيت في صدرِ المسرح واقفةً تحت مصباحِ السّقف. وكانت شاحبةً بشحوبٍ قاتم.

واستأنفت تقول بابتسامةٍ يائسةٍ لا توصف:

'أعلم أنه قد تركنا. لقد مضى، وكنتُ أعلم جيداً أن له أجنحةً'.

وإذا رفعت عينيها البيضاوين نحو اللاّنهاية، فقد أضافت:

'وأنا متى؟'

III
تعقيدات

مكث أورسوس مذهولاً.

إنه لم ينجحْ في الخداع.

وهل كان ذلك هو ذنبَ التكلُّم من البطن؟ كلاّ، بالتأكيد. فلقد نجحَ في خداع فيبي وفينوس اللتين كانت لهما عيون، وليس في خداع ديا التي كانت عمياء. وذلك لأن حدقات فيبي وفينوس كانت وحدها صافية، إلاّ أن القلب هو الذي كان يرى.

لم يستطع أنْ يجيب بكلمة. وفكرّ في ذاته: Bos in lingua. إن الإنسان المذهل يحمل ثوراً على لسانه.

في الانفعالات المركبّة، يكون الإذلالْ هو أوّلَ شعورٍ يظهر، وفكرّ أورسوس قائلاً:

'لقد بدّدتُ كلماتي الصّوتية'

وشأن كلّ حالمٍ أعيتْه الحيلةُ فأوصلته إلى جدارٍ مسدود، أخذ يشتمُ نفسه:

'إنّه سقوط مُذلّ. لقد استنفدتُ سدىً تآلفَ أنغامِ المحاكاة. ولكن ما الذي سيحدث لنا الآن؟'

نظر إلى ديا. فكانت صامتةً وتزدادُ شحوباً، ولا تقومُ بأيّة حركة.

وكانت نظرتُها التائهة تبقى محدّقة في الأعماق.

وأتى حادثٌ في الوقت المناسب.

لمح أورسوس في الفناء صاحبَ النزل نيكليس، الذي كان يؤشرّ له، وهو يحمل شمعةً بيده.

لم يكن صاحبُ النزل نيكليس قد حضر نهاية ذلك الضرّب من الملهاة الشّجيّة التي مثّلها أورسوس. وكان يعودُ السّبب في ذلك أنه قد جرى دقٌ على باب النّزل. فمضى صاحبُ النزل نيكليس ليفتح. لقد جرى الدّقُ مرّتين، وهذا ما أَحدثَ احتجابين لصاحب النزل نيكليس. أما أورسوس، الذي كان منهمكاً بمناجاته ذات الأصوات المئة، فلم ينتبه لذلك.

نزل أورسوس بناءً على نداء صاحب النّزل نيكليس الصّامت.

اقترب من صاحب النزل.

ووضع أورسوس إصبعه على فمه.

ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر على تلك النّحو.

كان كلٌّ منهما يبدو أنه يقول للآخر: لنتكلّم ولكن لنسكتْ.

فتح صاحبُ الحانة بابَ قاعة النزل الخفيضة بصمت، فدخل صاحب النزل نيكليس، ودخل أورسوس. ولم يكن هناك أحدٌ سواهما. كانت الواجهةُ المطلّةُ على الشارع، ببابها ومصاريعها، مغلقة.

دفع صاحبُ الحانة خلفه بابَ الباحة الذي انغلق دون كوفيكوم الفضوليّ.

وضع صاحب النّزل نيكليس الشّمعة على منضدة.

دار الحوار، وبصوتٍ خفيضٍ كالهمس.

"السّيد أورسوس"

– السّيد نيكليس؟

– لقد فهمت أخيراً.

– عجباً!

– لقد أردت أن تجعل العمياء المسكينة تظنُّ أن كلَّ شيء هنا كالمعتاد.

- ما من قانونٍ يمنعُ المرءَ من أن يكون متكلّماً من بطنه.

- أنت موهوب.

- لا.

- إنه لأمرٌ خارق أن تكونَ قد صنعت ما أردت أن تصنعه إلى هذا الحدّ.

- أقول لك لا.

- الآن، عليّ أن أتكلّم معك.

- هل في السّياسة؟

- لا أدري من الأمر شيئاً.

- ذلك أني كنت لا أُصغي ربمّا.

- هذا هو الأمر. وفيما كنت تمثّل المسرحيةَ والجمهورَ بمفردك، دقّوا على باب الحانة.

- دقّوا على الباب؟

- أجل.

- أنا لا أحبّ هذا.

- ولا أنا.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، فتحتُ الباب.

- من الذي كان يدقّ؟

- شخصٌ قد تكلّم معي.

- وماذا قال؟

- لقد أصغيتُ إليه.

- وبماذا أجبته؟

- لم أجبْه بشيء. رجعت لكي أراك تمثّل.

- و....؟

- ودقّوا مرّةً ثانية.

- من؟ الشخص نفسه؟

- كلاّ. شخصٌ آخر.

- شخص آخر أيضاً قد تكلّم معك؟

- شخصٌ لم يقلْ لي شيئاً.

- أفضّل ذلك.

- وأنا لا.

- أوضحْ. يا سيّد نيكليس

- احزرْ من الذي دقّ في المرّة الأولى.

- ليس لدي الوقت لأكون أوديب.

- كان ذلك صاحب السّيرك.

- الموجود بجانبنا؟

- الموجود بجانبنا.

- والذي فيه كلّ هذه الموسيقى الصّاخبة؟

- الصّاخبة.

- وإذن؟

- وإذن؟

- وإذن، أيها السّيد أورسوس، إنه يقدّمُ إليك عروضاً.

- عروضاً.

- ولماذا؟

- لأنّ.

- لديك امتيازٌ تمتاز به عليَّ، يا سيّد نيكليس، وذلك أنّك قد فهمت للتوّ لغزي، أمّا أنا فلا أفهم الآن لغزك.

- لقد كلفني صاحبُ السّيرك بأن أقول لك إنه قد رأى موكب الشرطة يمرّ هذا الصباح، وإنه هو، صاحب السّيرك، يريد أن يثبتَ لك أنه صديقك، وأنه يعرضُ عليك أن يشتري عربتك المتنقّلة، العلبة - الخضراء، وجواديك، وأبواقك مع النساء اللواتي يبوّقن فيها، ومسرحيتّك مع العمياء التي تغنّي فيها، ونئبك وأنت معهم، وذلك مقابل خمسين ليرة إسترلينية تُدفع نقداً.

فابتسم أورسوس ابتسامةً متعاليةً وقال:

"يا صاحبُ نزل تادكاستر، سوف تقولُ لصاحبِ السّيرك إن غوينبلين سيرجع".

أخذ صاحبُ الحانة من على كرسيٍّ شيئاً كان في العتمة، واستدار نحو أورسوس، وذراعاه مرفوعتان، وجاعلاً معطفاً يتدلّى من إحدى يديه، ومن اليد الأخرى إسكلافينةً من الجلد، وقبعةً من اللبّد، ومعطفاً مقلنساً.

وقال صاحبُ النزل نيكليس:

"إن الرّجل الذي دقّ على الباب للمرّة الثانية، والذي كان شرطياً، والذي دخل وخرج من غير أن يتلفّظ بكلمة، قد جلب هذه."

تعرّف أورسوس إسكلافينة غوينبلين ومعطفه المقلنس، وقبعته ورداءه.

I V

Moenibus Surdis

Campana muta (237)

تلمّس أورسوس لبدَ القبعّة، وجوخَ المعطف، وصرجَ المعطف المقلنس، وجلدَ الإسكلافينة، ولم يكن بمقدوره أن يشكّ بهذه الرثّاثة، وبحركةٍ مقتضبةٍ وآمرة، ومن غير أن يقول كلمة، دلَّ صاحب الفندق نيكليس على بابِ النزل.

فتح السيِّد نيكليس البابَ.

فاندفع أورسوس إلى خارج الحانة.

تبعه السيِّد نيكليس بعينيه، ورأى أورسوس يركضُ بقدر ما كانت تُتيحُ له ذلك ساقاه العجوزان، بالاتّجاه الذي سلكه المأمورُ القضائيّ صباحاً وهو يقتادُ غوينبلين. بعد مضيّ ربع ساعة، وصل أورسوس المبهورُ النفس إلى الشّارع الصغير الذي كانت فيه الكوّةُ الخلفية لسجنِ ساوثويرك والذي كان قد أمضى فيه من قبل ساعاتٍ طويلةً من المراقبة.

لم يكن ذلك الزّقاق يحتاجُ إلى انتصافِ الليل لكي يكون خالياً. ولكنه إذْ كان كئيباً في النّهار، فقد كان مُقلقاً في الليل. ولم يكن أحدٌ يخاطر فيه بعد انقضاءِ ساعةٍ معيّنة. ويبدو أن المرءَ كان يخشى من أن يتقارب الجداران، ويخاف من أن يسحقَ تحت العناق، إذا ما دفع الهوى السجنَ والمقبرةَ إلى أن يتعانقا. إنها مؤثّراتٌ ليليّة. لقد كانت أشجارُ الصّفصاف المبتورةُ في زقاق فوفير في باريس سيئة الصّيت على هذه الصّورة، وكان يُزعمُ أن هذه الجذعات من الأشجار كانت تتحوّل إلى أيدٍ ضخمةٍ وتقبضُ على المارّة.

كان الناس في ساوثويرك يتحاشون بالغريزة، كما قلنا، ذلك الشّارع الواقع بين السّجن والمقبرة. وقديماً، كان يجري سدُّه بسلسلةٍ حديديّة. وكان ذلك غير مجدٍ إلى حدٍّ كبير، فأفضلُ سلسلةٍ لإغلاق ذلك الشارع كانت الخوفُ الذي يسبّبه.

ودخل فيه أورسوس بعزم.

فأيّة فكرةٍ كانت لديه؟

لم تكن لديه أيّة فكرة.

كان يأتي إلى ذلك الشّارعِ للاستعلام. فهل يدقّ على باب السّجن؟ كلاّ، بالتأكيد. إن تلك الوسيلةَ المرعبةَ وغير المجدية لم تكن تبرز في دماغه.

فأن يحاولَ الدّخولَ إلى هناك لكي يطلبَ معلومةً، أيّةُ حماقةٍ هذه! إن السجّون لا تنفتحُ لمن يريد أن يدخل إليها أكثر مما تنفتح لمن يخرجُ منها. إن مفصّلاتها لا تدورُ إلاّ على القانون. وكان أورسوس يعلمُ ذلك. فماذا كان يأتي ليصنعَ إذن في ذلك الشارع؟ أن يرى. أن يرى ماذا؟ لا شيء. لا ندري. أن يرى الممكن. وأن يجدَ نفسه قبالة الباب الذي كان غوينبلين قد توارى منه، كان ذلك إنجازاً ما. وأحياناً، يتكلّم البابُ الأكثر سواداً والأكثر خشونة، ومن بين الأحجار يخرجُ شعاعٌ من النّور.

إن رشحاً مبهماً من الضّوء ينبعثُ أحياناً من تراكمٍ مغلقٍ ومعتم. إن معاينةَ غلافِ واقعةٍ معينة معناه أن يكون المرءُ مصغياً بشكلٍ مفيد. لدينا جميعاً هذه الغريزة، غريزة ألاّ نترك بين الواقعة التي تهمّنا وبيننا إلاّ أقلّ سماكةٍ ممكنة. وهذا هو السّبب في أن أورسوس كان قد رجع إلى الزّقاق الذي كان فيه المدخل الواطئ للحبس.

في اللحظةِ التي دلف فيها إلى الزّقاق، سمعَ دقّةَ جرس، ثم دقّةً ثانية.

ففكر قائلاً: "عجباً، هل يكون قد حلّ منتصفُ الليل؟"

وبصورةٍ آليّة، أخذ يعدّ.

"ثلاث، أربع، خمس".

وفكرّ:

'كم هي متباعدةٌ دقّاتُ هذا الجرس – ست، سبع'.

وأبدى هذه الملاحظة:

'أيّةُ نغمةٍ تدعو للرثاء! – سبع، ثمان – أه! لا شيء أكثر بساطةً. فكونها في سجنٍ، فذلك يحزنُ السّاعة الدّقاقة – عشر. ثم أن المقبرة هنا. وهذا الجرسُ يدقُّ ساعةَ الوقتِ للأحياء، والأبديّة للموتى – إحدى عشرة – واأسفاه! أن تدقّ ساعةٌ لمن ليس حرّاً معناه أيضاً أن تدقّ الأبديّة – اثنتا عشرة.

وتوقّف.

'أجل، إنه منتصفُ الليل'

دقّ الجرسُ دقّة ثالثة عشرة.

فارتعش أورسوس.

'ثلاث عشرة!'

وكانت هناك دقّةٌ رابعة عشرة، ثم خامسة عشرة.

'وما معنى هذا؟'

تواصلت الدّقّات على فواصلَ زمنيّة طويلة، وكان أورسوس يصغي.

'ليس هذا جرس ساعةِ توقيت. إنه الجرس موتا. وهكذا فقد كنتُ أقول: كم يطولُ دقّ وقتِ منتصفِ الليل! إن هذا الجرس لا يدقّ، إنه يرنّ. فما هو الأمرُ المشؤوم الذي يحدث هنا؟'

كان كلّ سجنٍ قديماً، شأنه شأن كلّ دير، له جرسُه المسمّى موتا، كان لاموتا 'الأخرس' جرساً يرنّ رنيناً جدّ خفيض، ويبدو أنه يقومُ بكلّ ما يستطيع لكي يُسمع.

كان أورسوس قد عاد إلى الرّكن الملائم للرّصد، والذي كان قد تمكّن منه أن يرقبَ السجَن، أثناء قسمٍ كبير من النّهار.

كانت الرّنّاتُ تتعاقب على فواصلَ زمنيّةٍ محزنةٍ من رنةٍ إلى أخرى.

إن قرعةَ حزنٍ تُحدِثُ في الفضاء علامةَ وقفٍ شنيعة. إنها تحدّد في انشغالاتِ كلّ الناس فقرات جنائزيّة. إن قرعة حزنٍ جرسٍ تشبه حشرجة إنسان. وهي نذيرٌ احتضار. ولئن كانت هناك في المنازل، في هذا المكان أو ذاك، وفي جوارِ ذلك الجرس المهتزّ، أحلامٌ يقظةٍ مبعثرة، وفي حالة انتظار، فإن قرعة الحزنِ تقطعُها إلى أجزاء متصلّبة. فأحلامُ اليقظةِ المتحيّرة هي نوعٌ من اللجوء، ولا يعلم المرء ما الذي يتفشى في القلق لكي يتيح لرجاءٍ معين أن ينبثق، إن قرعة الحزن الباعثة على القنوط تحدّد الأشياء.

أما هذا التفشيّ، فهي تلعنُه. وفي هذا الاضطرابِ الذي يحاولُ فيه القلقُ أن يبقى معلّقاً، تحدّد قرعةُ الحزن أشياء تترسّب. إن قَرعةَ حزنٍ تتحدّث إلى كلّ إنسانٍ باتجاه غمّه أو ذعره، وجرسٌ مأسوي هو أمرٌ يعنيك. إنه تحذير. فما من شيء قائمٍ مثل مناجاةٍ يسقط عليها هذا الإيقاع. إن الرّجعات المتساوية تدلُّ على قصدٍ معيّن. فما الذي تطرّقهُ المطرقة. التي هي الجرس، على السّندان الذي هو الفكر؟

كان أورسوس يعدُّ بشكلٍ مبهم، ومع أن هذا لم يكن له أيّ هدف، رنّاتِ دقّة الحزن. وإذا كان يحسّ بانزلاق، فقد كان يجهدُ في ألاّ يرسم أوليّاً أيّةَ تخمينات. إن التّخمينات حدورٌ يمضي المرء فيها أبعد مما ينبغي بلا طائل. ومع ذلك، فماذا كان يعني ذلك الجرس؟

كان ينظر إلى العتمة في الموضع الذي كان يعلم أنّه باب السّجن.

فجأة، وفي ذلك الموضع نفسه والذي كان يشكّل نوعاً من ثقبٍ أسود، كانت هناك حمرةٌ. وقد كبرت هذه الحمرةُ وغدت جلاءً نيّراً.

لم يكن في تلك الحمرة شيء مبهم. أصبح لها بعد قليل شكلٌ وزوايا. كان بابُ السّجن قد دارَ للتوّ على مفصّلاته. وكانت تلك الحمرة ترسمُ قنطرته وكفافة.

كان ذلك انفراجاً أكثر منه فتحةً. إن سجناً ما هو شيءٌ لا ينفتح، إنه يتثاءبُ من الضجَر ربما.

سمح باب الكوّة بالمرور لرجلٍ كان يحملُ بيده مشعلاً.

لم ينقطع الجرسُ عن القرع؛ فأحسَّ أورسوس أنه أسيرٌ لانتظارين؛ فتوقَّف مبهوتاً، أذنهُ على قرع الحزن، وعينُه على المشعل.

بعد ذلك الرَّجل، اتسَّع بصورةٍ تامة البابُ الذي كان مفتوحاً فحسب، وسمح بعبور رجلين آخرين، ثم بعبور رابعٍ. وكان هذا الرَّابعُ هو المأمورُ القضائي، الذي كان يُرى على ضوء المشعل. وكان يحملُ في قبضته عصاه الحديديَّة. في إثر المأمور القضائي، تتابع رجالٌ صامتون، في نظامٍ، مثنىً مثنى، وهم ينفذون من تحت الكوّة. وبصلابةِ سلسلةٍ من الرّوافد الخشبيّة التي تسير.

كان ذلك الموكبُ اللّيليّ يجتازُ البابَ الواطئ زوجاً فزوجاً، شأن ثنائيّات زيّاح للتّائبين، من دونِ قطع، وبعنايّةٍ تبعثُ على الحزن بعدم إحداث أيّةِ ضجّة، وبصورةٍ رصينةٍ، وبتؤدة تقريباً، إن حيّةً تخرجُ من جحرها تتخذُ هذه الحيطة.

كان المشعلُ يُبرزُ الوجوهَ الجانبيّة والوقفات. وجوهٌ جانبيةٌ مخيفة، ووقفاتٌ مغمّة.

تعرّف أورسوس كلَّ وجوهِ رجالِ الشّرطة الذين كانوا قد اقتادوا غوينبلين في الصباح.

ما من شكّ في أنهم كانوا الأشخاصَ ذاتهم، وقد عادوا إلى الظهّور.

كان غوينبلين، بطبيعة الحال أيضاً سوف يظهر مجدّداً. كانوا قد جلبوه إلى هناك، وها هم يُعيدونه.

كان ذلك واضحاً.

ازدادت حدقةُ عين أورسوس تحديقاً. فهل سيطلقون سراحَ غوينبلين؟ كان رتلُ رجالِ الشرطة المزدوج ينسابُ من القبّة الخفيضةِ بشكلٍ جدّ بطيء، وكأنما قطرةً قطرة. أما الجرسُ، الذي لم يكن يقطعُ قرعَه، فقد كان يبدو أنه يوقّع خطوهم. وحين خرج الموكبُ من السّجن، مبدياً ظهره لأورسوس، أخذ يدورُ إلى اليمين في ذلك الجزءِ من الشّارع الذي يقابلُ الجزء الذي كان متمركزاً فيه.

الشمع مشعلٌ ثانٍ تحت الكوّة

كان ذلك يُنبئ بنهايةِ الموكب.

كان أورسوس سيذهب ليرى ما كانوا يجلبونه. السّجين. الرّجل.

كان أورسوس سيرى غوينبلين.

وما كانوا يجلبونه قد ظهر.

لقد كان تابوتاً.

كان أربعةُ رجالٍ يحملون تابوتاً مغطىً بجوخٍ أسود.

خلفهم كان يأتي رجلٌ يحملُ رفشاً على كتفه.

وكان يمرّ في مؤخرةِ الموكب مشعلٌ ثالثٌ مشتعل، ويحمله شخصٌ يقرأ في كتاب، ولا بدّ أنه كان كاهناً في مصلى.

انضمَّ التابوتُ إلى الرّتلْ على إثرِ رجالِ الشرطة الذين كانوا ينعطفون إلى اليمين.

في الوقت نفسه، توقفّت مقدّمةُ الموكب.

سمع أورسوس صريرَ مفتاح.

بمواجهةِ السّجن، في الجدار الخفيض الذي يمتدّ بمحاذاةِ الجهةِ الأخرى من الشارع، استنارت فتحةٌ ثانية للباب بمشعلٍ مرّ من تحتها.

وهذا البابُ الذي كان المرءُ يميّز عليه جمجمةً، كان بابَ المقبرة.

دلف المأمورُ القضائي من تلك الفتحة، ثم دلف منها الرّجلُ، ثم المشعلُ الثاني، بعد الأوّل؛ فأخذ الموكب يتناقصُ فيها مثل زاحفةٍ تغور!

وولج رتلُ رجالِ الشّرطة بكامله إلى تلك العتمة التي كانت بعد ذلك الباب، ثم ولج إليها التّابوتُ، ثم الرّجل ذو الرّفش، ثم كاهنُ المصلى، بمشعله وكتابه، وانغلق البابُ من جديد.

لم يعدْ هناك شيء إلاّ ضوءٌ فوق جدار.

سُمع همسٌ ثم ضرباتٌ مكتومة.

كان ذلك بلا شك كاهن المصلى، وحفّارَ القبور اللذين يلقيان على التابوت، أحدُهما آياتِ صلاة، والآخرُ ملءَ جرافاتٍ من التراب.

توقف الهمس، وتوقّفت الضّرباتُ المكتومة. ومرّ المأمورُ القضائي ثانية رافعاً إلى الأعلى سلاحه، ومن تحت باب المقبرة الذي فتح ثانية، ورجع كاهنُ المصلى مع كتابه، وحفّار القبور مع رفشه، وعاد الموكب ليظهر مجدّداً، من دون التّابوت، وقام رتلُ الرّجال الثاني باجتياز المسافة ثانية بين البابين بالسّكوت نفسه في اتّجاه معاكس، وانغلق بابُ المقبرة مجدّداً، وانفتح ثانية بابُ السّجن، وقبّة الكوّة القبريّة قد برزت فيها انقطاعاتُ الضوء، وغدت عتمةُ المعبر مرئيةً بشكلٍ مبهم، وبدت للنظر كثافةٌ وعمقُ ليلِ السّجن، ودخلت كلٌّ هذه الرّؤيا في كلّ تلك الظلمة.

خمدت قرعةُ الحزن، وأتى الصّمتُ ليغلقَ كلَّ شيء، وكأنه قفلُ الظلّمات المشؤوم.

في ذلك التجلّي المتلاشي، لم يعدْ الأمرُ إلاّ ذلك.

عبورُ أشباحٍ تتبدّد.

إن اقترابات متزامنةً منطقياً ينتهي بها الأمرُ إلى بناء شيءٍ يشبه البداهة. فإلى غوينبلين الموقوف، وإلى أسلوب توقيفه الصّامت، وإلى ملابسه التي جلبها رجلُ الشّرطة، وإلى قرعةِ حزن السجن الذي اقتيد إليه، كان يأتي ليُضافَ، ولنقل أكثر من ذلك، ليتطابقَ معه هذا الشيءُ المأسويّ، التّابوتُ الذي يدفن.

وصاح أورسوس! "قد مات!"

وخرّ جالساً على أحد التخوم.

"مات! لقد قتلوه! يا غوينبلين! يا ولدي! يا ابني!"

وانفجر بالبكاء.

V
مصلحة الدّولة تفعل فعلها
في الشأن الصّغير كما في الكبير

إن أورسوس، وكان يفخرُ بذلك للأسف، لم يكن قد بكى قطّ. وكان خزانُ الدموع مليئاً. إن امتلاءً كهذا قد تراكمت فيه قطرةً قطرة، وألماً ألماً، حياةٌ طويلة بأكملها، لا يُفرغُ في لحظةٍ واحدة، وقد انتحب أورسوس طويلاً.

الدّمعةُ الأولى كانت بزلاً. لقد بكى على غوينبلين، وعلى ديا، وعلى نفسه أورسوس، وعلى أومو. بكى كطفل. بكى كشيخ. وبكى من كلّ ما كان قد ضحك منه. وسدّد المتأخرّ.

مع ذلك، فإن الميتَ الذي دُفن منذ قليل قد كان هاردكوانون، غير أن أورسوس لم يكن يُفترضُ به أن يعلم ذلك.

انقضت بضعُ ساعات.

بدأ النّهار ينبلجُ، وانبسط سماطُ الصبّاح الباهت، والذي يغضنُه الظلُّ بشكلٍ مبهم على مرج البولينغ. وأتى الفجرُ ليبيّض واجهةَ نزل تادكاستر.

أما السّيد نيكليس فلم يكن قد أغفى، لأنّ الحادثةَ نفسها أحياناً تسبّب عدداً من حالات الأرق.

إن الكوارثَ تنتشرُ في كلّ اتّجاه؛ فلتلق بحجرٍ في الماء، ولتعدّ الرشّاشات.

كان السّيد نيكليس يحسُّ بأنه قد تأثّرَ. فمن غير المستحبّ إلى حدّ كبير أن تجري مغامراتٌ في دارك. والسّيد نيكليس الذي قلّما أحسّ بالاطمئنان،

واستشفّ تعقيداتٍ معينة، كان يتأمّل. وكان نادماً على أنه قد استقبل عنده "هؤلاء النّاس". – لو كان يدريّ! – سوف ينتهي بهم الأمرُ إلى أن يجرّوا عليه قضيةً سيئة. فكيف يطردُهم الآن؟ – كان لديه اتفاقٌ استئجارٍ مع أورسوس – فأيّةُ سعادةٍ إذا ما تخلصَ منه! وكيف يشرعُ بطردهم؟

فجأة، سُمعت على باب النزل إحدى تلك الطّرقات الصّاخبة التي تُعلن عن "شخصٍ مهمّ" في إنكلترا. وتتوافقُ سلسلةُ الطّرق مع سلّم التّراتبيّة.

لم يكن ذلك تماماً هو طَرْقَ لورد، بل كان طرقَ رجلِ قضاء.

أما صاحب النزل، الذي كان جدّ مرتعد، فقد شقّ قليلاً فتحةَ بابه.

كان هناك في الواقع رجلُ قضاء. وقد لمح السّيد نيكليس لدى بابه وعند طلوع الفجر، زمرةً من الشّرطة، وكان يبرز في مقدّمتها رجلان، أحدُهما قاضٍ إقطاعي.

كان السّيد نيكليس قد رأى في الصبّاح القاضي الإقطاعي، وكان قد عرفه.

ولم يكن يعرفُ الرّجل الآخر.

كان رجلاً نبيلاً سميناً. وجهه بلون الشّمع، ويعتمرُ طاقية شعرٍ مدنيّة، ويرتدي برنس سفر.

خاف السّيد نيكليس خوفاً شديداً من أوّلِ هذين الشّخصين، وهو القاضي الإقطاعي. ولو كان السّيد نيكليس من البلاط لخاف أكثر أيضاً من الشخص الثاني. فقد كان باركيلفيدور.

خبط أحدُ رجال الزّمرة البابَ لمرّةٍ ثانية بعنف.

فتح صاحب النّزل، والعرقُ الغزيرُ يتصبّبُ من جبينه قلقاً.

أما القاضي الإقطاعيّ، فقد رفع صوته وسأل بتشدّد، وبلهجةِ رجلٍ مكلّفٍ من الشّرطة، ومطّلع كثيراً على عديد المتشرّدين:

"المعلمّ أورسوس؟"

فأجاب صاحب الفندق، وقد رفع قلنسوته:

"إنه هنا، يا صاحب الاحترام"

فقال القاضي الإقطاعي:

- أعلم ذلك.

- بلا شكّ، يا صاحب الاحترام.

- فليأتِ.

- يا صاحب الاحترام. إنه ليس هنا.

- أين هو؟

- أجهلُ ذلك.

- وكيف؟

- إنه لم يرجع.

- لقد خرج إذن في ساعةٍ مبكّرة فعلاً؟

- كلاّ، ولكنه خرج متأخراً فعلاً.

فردّ القاضي الإقطاعي:

- يا لهؤلاء المتشرّدين!

قال السّيد نيكليس بتؤدة:

- يا صاحب الاحترام، هذا هو."

كان أورسوس، في الواقع، قد ظهر لتوّه عند إحدى عطفات الجدار، ويصل إلى النزل. وكان قد أمضى تقريباً كلّ الليل بين السّجن الذي رأى غوينبلين يدخل إليه عند الظّهيرة، والمقبرة التي سمع فيها ردمَ حفرةٍ عند منتصف الليل. لقد كان شاحبَ الوجه، بنوعين من الشحّوب، حزنه والشفق.

إن طلوعَ الشّمس الذي هو ضوءٌ في حالة يرقانة، يتركُ الأشكالَ، حتى تلك التي تتحرّك، مختلطةً بانتشار الليل. إن أورسوس، الممتقع والمبهم، والذي يسير ببطء، كان يشبه صورةً من صور الحلم.

وفي ذلك الشّرود المخيف الذي يعطيه القلق، كان قد مضى من النّزل حاسر الرأس. ولم ينتبه حتى إلى أنه ليس لديه قبّعة. كانت شعورُه المعدودة الشّائبة تهتزّ في الرّيح. ولم تكن عيناه المفتوحتان تبدوان أنهما تنظران. فغالباً ما يكونُ المرء نائماً وهو مستيقظٌ، كما يحدثُ أن يكون مستيقظاً وهو نائم.

كان أورسوس يبدو ذا هيئة مجنونة.

وصاح صاحبُ النزل:

"أيها المعلمّ أورسوس، تعال، إن أصحابَ الاحترام يرغبون في التكلّم معك".

أما المعلمُ نيكليس، المنشغلُ بتلطيفِ الحادثة فحسب، فقد أطلق صدفةَ الجمع هذه، في الوقت نفسه الذي أراد استبقاءها فيه. إن المخاطبة بأصحاب الاحترام، إذ تحملُ التقديرَ للزمرة، فهي تجرحُ الرّئيسَ الذي جرى خلطهُ بهذه الصّورة بمرؤوسيه.

لقد انتفض أورسوس مرعوباً مثل رجلٍ يُرمى به إلى أسفل سريرٍ كان ينام فيه بعمق، فقال:

"ما هذا؟".

ولمح الشرطة، وعلى رأس الشرطة رجل القضاء.

إنها هزّةٌ جديدة وقاسية.

منذ قليل، المأمور القضائي، والآن، القاضي الإقطاعي. كان يبدو أن أحدهما يرمي به إلى الآخر. إن هناك قصصَ عثراتٍ قديمة من مثل ذلك.

أشار له القاضي الإقطاعي بالدخول إلى النزل.

فامتثل أورسوس.

أما غوفيكوم الذي نهض لتوّه والذي كان يكنسُ القاعة، فقد توقّف، وانزوى خلف الطاولات، وأراح مكنسته، وحبس نفَسه. أدخل قبضتَه في شعره، وأخذ يحكّ نفسه بدون تحديد، وهذا ما يدلٌ على اهتمامه بالأحداث.

جلس القاضي الإقطاعي على مقعد، أمام طاولة؛ وأخذ باركيلفيدرو كرسياً. وبقي أورسوس والسّيد نيكليس واقفين. أما رجالُ الشّرطة الذين تُركوا في الخارج، فقد احتشدوا أمام الباب المغلق.

ركزّ القاضي الإقطاعيّ حدقته القانونيّة بأورسوس وقال:

'لديك ذئب'.

فقال أورسوس:

'ليس تماماً.

فردّد القاضي الإقطاعي وهو يشدّد على كلمة 'ذئب' بلهجة حاسمة.

فأجاب أورسوس:

'هذا لأن...'

وسكت.

فسارع القاضي الإقطاعي إلى القول:

'هذه جنحة'

فخاطر أورسوس بهذه المرافعة:

'إنه خادمي'.

وضع القاضي الإقطاعيّ يده بشكلٍ منبسط على الطاّولة، وأصابعُه الخمس متباعدة، وهذا يعتبرُ حركةَ سُلطةٍ جميلة جدًّا.

'أيّها المهرّج، غداً، في مثل هذه السّاعة، تكون أنت وذئبك قد غادرتما إنكلترا، وإلاّ فإن الذئب يُقبضُ عليه، ويُقادُ إلى قلم المحكمة، ويُقتل.'

ففكرّ أورسوس: 'إنه تواصلُ الاغتيالات'. ولكنه لم ينبس بكلمة، واكتفى بالارتعاد بكلّ فرائصه.

وكرّر القاضي الإقطاعي قائلاً: 'أتسمع؟'

فأبدى أورسوس موافقته بهزّةٍ من رأسه.

وأكّد القاضي الإقطاعي:

'ويُقتَل'

وهيمن صمت.

'يُخنق أو يُغرق'

ونظر القاضي الإقطاعي إلى أورسوس، وقال:

'وأنت إلى السّجن'

فهمس أورسوس:

'يا سيّدي القاضي.....

– فليكن ذهابُك قبل صباح الغد، وإلاّ، فهذا هو الأمر.

– يا سيّدي القاضي.....

– ماذا؟

– يجب أن نغادر إنكلترا، هو وأنا؟

– أجل.

– اليوم؟

– اليوم.

– وما العمل؟'

كان السّيد نيكليس سعيداً؛ فرجلُ القضاء هذا الذي كان يخشاه قد أتى لمساعدته. وكانت الشرطةُ تعاونُه في ذلك، هو نيكليس. لقد كانت تخلّصه من 'هؤلاء الناس'، والوسيلة التي كان يبحث عنها، قد جلبتها إليه. إن أورسوس هذا الذي كان يريدُ أن يصرفه، ستطردُه الشّرطة. يا لها من قوّةٍ قاهرة. ما من اعتراضٍ عليها. لقد كان منتشياً، فتدخّل قائلاً:

'يا صاحبَ الاحترام، هذا الرّجل..... '

وكان يشير إلى أورسوس بإصبعه:

'.... هذا الرّجل يسأل ما العمل لكي يغادر إنكلترا اليوم؟ وما من شيءٍ أسهل من هذا. هناك، في كلّ يومٍ وفي كلّ ليلة، أماكن رسوّ على تايمز، من

هذه الجهة من جسر لندن، كما من الجهة الأخرى، مراكبُ تنطلقُ إلى البلدان. فيذهبُ المرء من إنكلترا إلى الدانمرك، وإلى هولندا، وإلى إسبانيا، وإلى فرنسا، بسبب الحرب، بل إلى كلّ مكان. وهذه الليلة، سوف تسافر بضعُ سفن، نحو السّاعة الواحدة صباحاً، وهي ساعة الجزْر، ومن بينها، ماعون فوغرات من روتردام.'

قام القاضي الإقطاعي بحركةٍ من كتفه من جهة أورسوس:

'فليكنْ. اذهب بأوّل مركبٍ يصلُ، بواسطة الفوغرات.

فقال أورسوس:

'يا سيّدي القاضي...

'وإذن؟

'يا سيدي القاضي، لو لم تكن معي، كما في الزّمن الماضي، إلاّ تخشيبتي الصّغيرة ذات العجلات، فسيكون ذلك ممكناً، ولسوف تُحملُ على مركب، ولكن....

– ولكن ماذا؟

– ولكن، بما أن العلبةَ الخضراءَ التي هي آلةٌ كبيرة ذات حصانين، ومهما تكن السفينة واسعة، فلن تدخل إليها قط.

فقال القاضي الإقطاعي:

– وبماذا يعنيني هذا، نقتلُ الذّئب.'

إن أورسوس المرتعد، كان يحسُّ بأنه يجري التّلاعبُ به وكأنّما بيدٍ جليديّة – ففكّر – يا لهم من مسوخ! إن قتلَ الناس هو وسيلتُهم!

ابتسم صاحبُ النزل، وتوجّه إلى أورسوس قائلاً:

– يمكنك أيها المعلم أورسوس أن تبيع العلبة الخضراء'

فنظر أورسوس إلى نيكليس.

'أيها المعلم أورسوس، لديك عرض'.

- ممن؟

- عرضٌ من أجل العربة، وعرضٌ من أجل الجوادين، وعرضٌ من أجل المرأتين العاقرين، عرضٌ...

فكرّر أورسوس:

- ممن؟

- من صاحب السِّيرك المجاور.

- هذا صحيح.'

وتذكرّ أورسوس.

استدار السّيد نيكليس إلى القاضي الإقطاعيّ وقال:

'يا صاحب الاحترام. إن الصّفقةَ يمكن أن تتمّ اليوم بالذات، وصاحب السِّيرك المجاور يريد أن يشتري العربة الكبيرة والحصانين.

فقال القاضي الإقطاعي:

- إن صاحبَ السِّيرك على حقّ، لأنه سيحتاجُها، فعربةٌ وحصانان سوف تكون مفيدةً له. وهو اليوم سوف يذهبُ أيضاً. إن موقّرّي خورنيّات ساوثويرك قد اشتكوا من ضروب الصّخب الفاحشة لتارينزو - فيلد. وقد اتخذ العمدةُ تدابيره. وهذا المساء، لن تكون هناك أيّةُ تخشيبة لمشعوذ على هذه السّاحة. انتهت الفضائح. إن السّيد النبيل المبجّل الذي يتنازلُ بأن يكون هنا...'

قطع القاضي الإقطاعي كلامه بتحيّةٍ لباركيلفيدرو، والذي ردّ له تحيّته.

'... إن السّيد النبيل المبّجل الذي يتنازل أن يكون حاضراً هنا قد وصل هذه الليلة من ويندسور. وهو يحمل أوامر. فقد قالت جلالتها: 'يجب تنظيفُ ذلك'.

إن أورسوس، من خلال تأمّله طوال الليل، لم يكن قد أغفل طرحَ بعض الأسئلة على نفسه.

مهما يكن من أمر، فلم يكن قد رأى إلاّ تابوتاً. فهل كان متأكداً فعلاً من أن غوينبلين كان في داخله؟ فقد كان من الممكن أن يكون هناك موتى آخرون على الأرض غير غوينبلين. إن تابوتاً يمرّ ليس متوفىً يُعرَف اسمه. وعلى إثر توقيف غوينبلين، كان هناك دفنٌ، ولم يكن هذا يُثبتُ شيئاً.

Post hoc non propter hoc (238) – إلخ – فعاد أورسوس إلى الشكّ بالأمر.

إن الرّجاء يحرقٌ، ويلتمع على القلق كالزيت المعدني على النار. إن تلك الشّعلةَ العائمةَ تطفو بصورةٍ دائمة على الألم الإنساني. انتهى أورسوس إلى أن يقول في نفسه: من المحتّمل أن يكون غوينبلين هو الذي دُفن، ولكن هذا غير مؤكدٌ.

فمن يدري؟ ربما يكون غوينبلين لا يزالُ حيّاً.

انحنى أورسوس أمام القاضي الإقطاعيّ وقال:

"أيّها القاضي المبجل. سوف أذهب. سوف نذهب. سوف نذهبُ جميعاً. بواسطة الفوغرات. وإلى روتردام. إني امتثلُ. وسوف أبيعُ العلبةَ الخضراء، والخيولَ، والأبواقَ، والنسّاءَ المصريّات. غير أن هناك شخصاً معي، وهو رفيقٌ لي، ولا يمكنني أن أتركَه ورائي، هو غوينبلين...

فقال أحد الأصوات:

– إن غوينبلين قد مات "

شعر أورسوس ببرودة زاحفٍ على جلده. لقد كان باركيلفيدرو هو الذي يتكلّم.

كان الشّعاعُ الأخيرُ يتلاشى.ولم يعدْ هناك شكٌ. لقد مات غوينبلين.

لا بدّ أن ذلك الشخص يعلم هذا. فقد كان لا ينقصُه الشؤم لذلك.

حيّاهُ أورسوس.

كان السّيد نيكليس رجلاً طيّبَ القلب إلى حدٍّ كبير، عدا عن أنه جبان. غير أنه يغدو فظيعاً، إذا ما ارتعب. إن الشّراسة القصوى، هي الخوف.

فدمدم قائلاً:

"تبسيط"

لقد أخذ يفركُ يديه، خلف أورسوس، بمثل ذلك الفرك الخاصّ بالأنانييّن والذي يعني: ها أنا بريءُ الذّمة من الأمر! والذي يبدو أنّه فركٌ يجري فوق طشتِ بيلاطوس – البنطيّ.

أما أورسوس المرهق؛ فقد كان يخفضُ رأسه. كان حكمُ غوينبلين قد نُفِّذ، إنه الموت، أما هو، من ناحيته. فقد تبلغّ قراره، وهو النفي. ولم يعدّ هناك إلاّ الامتثال. لقد كان يحلم.

كان يحسّ بأن هناك من يلمس مرفقه. كان ذلك هو الشخصيّة الأخرى، تابع القاضي الإقطاعي، فارتعد أورسوس.

إن الصّوتَ الذي كان قد قال: "لقد مات غوينبلين" قد همس في أذنه: "هذه عشر ليرات إسترلينية يبعثُ بها إليك شخصٌ يريدُ لك الخير".

ووضع باركيلفيدرو صرةً صغيرةً على طاولةٍ أمامَ أورسوس

إننا نتذكرّ العلبةَ الصّغيرةَ التي كان قد حملها باركيلفيدور.

عشرة جنيهات من أصل ألفين. هذا كلّ ما كان يستطيع أن يفعله باركيلفيدرو. كان ذلك كافياً، بصراحة. فلو كان قد أعطى أكثر، لكان خسر في الأمر.

لقد تكبّدَ عناءَ العثور على لُقيةٍ لورد، وأخذ يستثمرها. كان من الإنصاف أن يكونَ له الحقّ في المردود الأوّل للمنجم. إن أولئك الذين يرون في ذلك صغراً هم على حقّ، غير أنهم يخطئون إذا ما دُهشوا. كان باركيلفيدرو يحبُّ المال، وخصوصاً المسروقَ منه. إن الحاسد يحتوي في دخيلته بخيلاً.

لم يكن باركيلفيدرو خالياً من العيوب: فارتكابُ الجرائم لا يمنع المرتكبَ من أن تكون لديه رذائل. فالنمّور تصابُ بالقمل.

ومن جهة أخرى، فقد كانت تلك هي مدرسة بيكون.

استدار باركيلفيدرو نحو القاضي الإقطاعي، وقال له:

"يا سيّدي، تفضل بإنهاء الأمور. فأنا جدّ متعجّل. إن كرسياً مكدونةً بأبدال جلالتها الخاصة تنتظرني. ويجب أن أنطلق مجدّداً بسرعةٍ كبيرةٍ إلى ويندسور، وأن أكون فيها قبل ساعتين من الآن. فلدي تقارير أقدّمها، وأوامر اتّخذُها.

نهض القاضي الإقطاعي.

مضى إلى الباب الذي لم يكن مغلقاً إلاّ بالمزلاج، وفتحه، ونظر، من دون أن يقول كلمة، إلى رجال الشرطة، فانبثقت من سبابته التماعةٌ سلطة.

ودخلت الزّمرة كلّها أثناء هذا الصمت الذي يُستشفُّ فيه اقترابُ شيءٍ صارم.

إن السّيّد نيكليس الذي كان راضياً عن الخاتمة السّريعة التي قطعت الطريّق على التعقيدات، والذي كان مسروراً لأنه خارج ربطة الخيوط المتشابكة، فقد خشي، حين رأى هذا الانتشار لضبّاط الشرطة، أن يكونوا قد ضبطوا أورسوس في نزله. فإن توقيفين متتابعين في منزله، توقيف غوينبلين، ثم توقيف أورسوس، هذا أمرٌ يمكن أن يسيء إلى الحانة، فالشّاربون لا يحبّون إزعاجات الشرطة إطلاقاً. وكان ذلك هو أوان تدخّلٍ متوسّلٍ. وكريمٍ بصورةٍ لائقة. فأدار السّيّد نيكليس نحو القاضي الإقطاعي وجهه الباسم الذي كان الاطمئنانُ فيه قد لطّفه الاحترام.

"يا صاحبَ الاحترام، إني ألفتُ نظرَ عطوفتكم إلى أن هؤلاء السّادة المبّجلين، السّادة الرّقباء ليس لهم ضرورةٌ بتاتاً اعتباراً من اللحظة التي سوف يساقُ فيها الذّئبُ المذنبُ إلى خارج إنكلترا، وأن هذا المدعو أورسوس لا يُبدي مقاومة إطلاقاً، وأن أوامر عطوفتكم تُطاعُ حرفياً.

ولسوف تعتبرُ عطوفتُكم أن أعمال الشرطة المحترمة والتي هي جدّ ضروريةٍ لخير المملكة، تضرُّ بإحدى المنشآت - وأن منزلي بريء. وبعد أن تمّ تنظيفُ بهلوانات العلبة - الخضراء، كما تقول صاحبة الجلالة الملكة، فأنا لم أعد أرى هنا أيّ شخصٍ مجرم؛ فأنا لا أفترضُ أن الفتاةَ العمياء والمرأتين العاقرين هن جانحات، وإني أناشدُ عطوفتكم بأن تتكرّموا باختصار زيارتكم العظيمة الشأن، وأن تصرفوا هؤلاء السّادةَ اللائقين الذين دخلوا للتوّ، لأنه ليس لديهم ما يصنعونه في منزلي. وإذا سمحت عطوفتكم لي بأن أُثبتَ صحّةَ قولي بشكل سؤالٍ متواضع، فإني سأوضح عدمَ فائدةَ حضور هؤلاء السّادة المبّجلين بأن أسألَ عطوفتكم ما يلي بما أن المدعو أورسوس ينفّذ الأوامر ويمضي، فمن الذي يمكن أن يكون عليهم توقيفُه؟

فقال القاضي الإقطاعي:

- أنت".

لا اعتراضَ على ضربة السّيف التي تخترقك من ناحيةٍ إلى أخرى. لقد انهار السّيد نيكليس على أيّ شيء، على طاولةٍ، على مقعد، على ما هو موجودٌ هناك، وصار ملقىً على الأرض.

رفع القاضي الإقطاعي صوته بحيث أصبح بإمكان الناس الموجودين في السّاحة أن يسمعوه.

"أيّها السّيد نيكليس بلومبتر، صاحب هذا النزل، هذه هي النّقطة الأخيرة التي ينبغي تسويتها. إن هذا المهرّجَ وهذا الذئبَ مشرّدان. وقد طُردا. غير أن المذنبَ الأكبرَ هو أنت، ففي منزلك، وبموافقتك إنما خُرِقَ القانونُ. وأنت، أيّها الرّجل الخاضعُ للضريبة، والمكلّف بمسؤوليةٍ عامّة، قد أسكنت الفضيحةَ في منزلك. أيها السّيد نيكليس، إن رخصتَك قد سُحبت منك، وسوف تدفعُ الغرامة، وتذهبُ إلى السّجن."

أحاط رجالُ الشّرطة بصاحب الفندق.

وتابع القاضي الإقطاعي، وهو يشير إلى غوفيكوم:

"هذا الصبّي، شريكُك، مقبوضٌ عليه"

انقضّت قبضةُ ضابط شرطة على ياقة غوفيكوم الذي تفحصّ الضّابط بفضول. إن الصبّي، الذي لم يُذعر كثيرا، كان يفهم الأمر قليلاً، وكان قد رأى سابقاً أكثر من شيء غريب، وكان ذلك هو تتمة الملهاة.

غرز القاضي الإقطاعي قبعتَه في رأسه، وشبك يديه الاثنتين على بطنه، وهذا ما يُعتبرُ زيادةً في المهانة، وأضاف:

"لقد قرّر الأمرُ، أيها السّيد نيكليس، سوف تُحضَر إلى السّجن، وتودعِ الحبس، أنت وصبيك، وهذا المنزل، نزل تادكاستر، سيبقى مغلقاً ومدانا وموصداً. وذلك ليكون عبرة. وعلى ذلك، سوف تتبعنا".

الكتاب السابع

الجبّارة

I
استيقاظ

"وديا!"

بدا لغوينبلين، وهو ينظرُ إلى بزوغ الفجر في كورليون - لودج، أثناء تلك المغامرات، مغامراتِ نزلِ تادكاستر، أن تلك الصّرخة كانت تأتي من الخارج؛ ولكن هذه الصّرخةَ كانت في داخله.

فمن الذي لم يسمع ألوانَ صَخَب الرّوح؟

من جهةٍ أخرى، فقد كان النّهارُ يطلع.

فالفجْر صوت.

فما عسى تكون فائدةُ الشمّس، إن لم يكن لإيقاظ النّائم القائم، الذي هو الوجدان؟

إن النورّ والفضيلةَ هما من النّوع نفسه.

فإذا كان الله يُسمّى المسيح أو يسمّي الحب، فهناك دوماً ساعةٌ يُنسى فيها حتى من أفضل الناس، نحتاجُ جميعاً، حتى القدّيسين منا، إلى صوتٍ يجعلنا نتذكرُ، والفجر يجعل المنذرَ السّامي يتكلمُ فينا. إن الوجدانَ يصرخ أمامَ الواجب، كما يصيحُ الدّيكُ أمام النّهار.

إن القلبَ الإنسانيّ، هذا الشّواش، يسمع الـ Fiat lux [(*)].

كان غوينبلين - وسنستمّر في تسميته هكذا؛ فكلانشارلي هولورد، وغوينبلين إنسان - كان غوينبلين وكأنما قد رُدّ إلى الحياة.

(*) اتّكل على النور (م: ز. ع)، اللاتينية.

لقد حان الوقت لكي يُربَط الشريان.

كان في داخله تسرّبٌ للنزاهة.

فقال: "وديا!"

وأحسّ في أوردته بما يشبه نقلَ دمٍ وفيراً. إن شيئاً صحيّاً وصاخباً كان يتسارع في داخله. إن الفيضان العنيف للأفكار الجيّدة هو رجوعٌ إلى مسكنِ شخص ليس لديه مفتاحه، والذي يكسرُ جداره الخاص به بنزاهة، إن هناك إرتقاءً ولكن للخير، وهناك كسرٌ، ولكن للشرّ.

وردّد: "ديا! ديا! ديا"

كان يؤكدّ لنفسه قلبَه ذاته.

وطرح هذا السؤال بصوتٍ عالٍ:

"أين أنت؟"

واستأنف يقول، وقد دُهشَ تقريباً من أنه لا يلقى جواباً، وهو ينظر إلى السقف والجدران، بنظرة شاردة يرجع إليها التعقّل:

"أين أنتِ؟ أين أنا؟"

وفي تلك الغرفة، في ذلك القفص، بدأ مجدّداً سيره كحيوانٍ مخيفٍ محبوس. "أين أنا؟" في ويندسور. وأنت؟ في ساوثويرك. آه! يا إلهي! هذه هي المرّة الأولى التي تكون هناك مسافةٌ بيننا. فمن الذي حفر ذلك؟.

أنا هنا، وأنت هناك! أوه! هذا غير موجود. وهذا لن يكون. فما الذي صنعوه بي إذن؟

وتوقف.

"من الذي حدّثني عن الملكة؟ هل أعرفُ أنا ذلك؟ تغيّرت! أنا تغيّرت! لماذا؟ لأني لورد. هل تدرين ماذا يحدثُ، يا ديا؟ أنت ليدي. إن الأمورَ التي تحدثُ مدهشة. عجباً! إن المطلوب هو أن أجد طريقي مجدّداً. فهل

أهلكوني؟ هناك رجلٌ قد كلمّني بلهجة قاتمة. وأنا أتذكرّ الكلمات التي وجّهها إليّ: "يا ميلورد، إن باباً يُفتحُ يُغلِقُ باباً آخر. إن ما هو وراءك لم يعدْ موجوداً". وبكلماتٍ أخرى "أنت جبان". إن ذلك الرّجل، التعّس! كان يقول لي ذلك، فيما لم أكن قد استيقظت بعد. لقد كان يُسيء استخدامَ أول لحظةٍ لي من الدهشة. كنتُ وكأنني فريسة له. فأين هو لكي اشتمه! كان يكلمّني بابتسامةِ الحلم القاتمة. آه! ها أنا أصبح مجدّداً أنا! هذا حسن. إنهم مخطئون حين ظنوّا أنهم يمكن أن يصنعوا من اللورد كلانشارلي ما يشاؤون! أحدٌ أعيان إنكلترا، أجل، ولكن مع امرأةٍ نبيلة هي ديا. أهي شروط! هل أقبلُ بها؟ الملكة؟ وبمَ تهمّني الملكة؟ إني لم أرها قطّ. أنا لستُ لورداً لكي أكون عبداً. فأنا أدخلُ حراً إلى السّلطة.

هل يتصورّ المرء أنهم قد فكوّا أغلالي مقابل لا شيء؟ لقد نزعوا كمّامتي، هذا كلّ شيء. يا ديا! ويا أورسوس! نحن معاً. إن ما كنتم عليه، أنا كنتُه، وما أنا عليه، أنتم عليه. تعالا! لا. أنا أذهبُ، في الحال. في الحال! فلقد انتظرتُ أكثر مما يلزم. وماذا ينبغي لهما أن يظنا إذا لم يرياني راجعاً؟ هذه النقود! حين أفكرّ أنني قد أرسلت إليهم نقوداً! فأنا من كان ينبغي له الذهاب. إني أتذكرّ، ذلك الرّجل، لقد قال لي إنه لا يمكنني أن أخرج من هنا. سوف نرى. هاتوا عربة! هاتوا عربة!

فليكدنوا. أريد أن أذهب للقائهما. أين الخدم؟ ينبغي أن يكون هناك خدم، بما أن هناك سيداً إقطاعيّاً. إني السّيد هنا. وهذا هو منزلي. ولسوف أفتل مزالجه، وسوف أحطمّ أقفاله، وأخلعُ أبوابه باللّبطات. وإذا ما سدّ عليّ أحدُهم طريقَ المرور، فلسوف أمررّ سيفي عبر جسده، فقد أصبح لدي الآن سيف. وأودُّ فعلاً أن أرى أنه تجري مقاومتي. لديّ امرأة، هي ديا، ولدي أبٌ، وهو أورسوس. إن منزلي قصرٌ، وأنا أعطي أورسوس إياه. إن اسمي تاجٌ، وأنا أعطي ديا إيّاه. بسرعة. في الحال! يا ديا، هذا أنا. آه! سرعان ما سأكون قد خطوت فوق الفجوة، هيّا!"

وإذا رفعَ أوّل بوّابةٍ التقاها، فقد خرجَ من الغرفة باندفاع.

ألفى نفسه في ممرّ.

فسار إلى الأمام.

فعرض له ممرٌّ ثان.

كان كلُّ الأبواب مفتوحةً.

أخذ يسير على غير هدى، من غرفةٍ إلى غرفة، ومن معبرٍ إلى معبر، باحثاً عن المخرج.

I I
التّشابه بين قصر وغابة

في القصور الإيطالية النمّط كان هناك عددٌ قليلٌ جداً من الأبواب، وكان كورليون – لودج من هذه الشّاكلة، فقد كان كلُّ شيء ستارةً، وسجفاً ونجوداً.

ما من قصرٍ في ذلك العهد لم يكن فيه، من الدّاخل، تراكمٌ من الغرف والممرات التي تكثرُ فيها الأبّهةُ؛ تذهيباتٌ، ورخاميّاتٌ، وخشبيّاتٌ محفورة، وحريرياتٌ شرقيّة؛ إضافةً إلى زوايا مخبّأة ملأى بالحذر والعتمة، وزوايا أخرى ملأى بالضّوء. كانت عبارةً عن تخشيبات سقفٍ غنيّةٍ وفرحة، وخلوات مطليّةٍ بالبرنيق، ولامعة، ومكسوّة بألوانِ الخزفِ الهولنديّة، أو الخزف الأزرق البرتغالي، وعبارةً عن فرجاتٍ جداريةٍ لنوافذَ عالية مقطوعة إلى حجراتِ سلمٍ، وعن حجيراتٍ كلها من ألواحٍ زجاجية، كمصابيح جميلة صالحة للسّكنى. فإن ما جوّفت سماكاتُ الجدران، غدت قابلةً للإقامة فيها. وفي هذا المكان أو ذلك، مساكنُ أنيقةٌ كانت خزائنَ ملابس. ويسمّى ذلك "الشّقق الصّغيرة"، وهناك، إنمّا كانت تُرتكبُ الجرائم.

إذا كان يتعيّن قتلُ دوق دوغيز، أو تضليلُ رئيسة سيلفيكان الحلوة، أو، فيما بعد، خنقُ صرخاتِ الصّغيرات التي كان يأتي بهن لوبيل، فقد كان ذلك متيسّراً. إنه مسكنٌ معقدٌ، وغير مفهوم لأوّل من يصلُ إليه. إنه مكانٌ للاختطافات؛ وعمقٌ مجهولٌ تُفضي إليه الاختفاءات. في تلك المغائر الأنيقة،

كان الأمراءُ والسّادة الإقطاعيون يودعون غنيمتهم. كان الكونت دوشاروليه يخبئ فيها السّيدة كورشان، زوجة مقدّم العرائض، وكان السّيد دومونتوليه يخبئ فيها ابنه أودري صاحبَ مزرعةِ لاكرواسان - لانفروا؛ وكان الأمير دو كونتي يخبئ فيها بائعتي الخبز الجميلتين اللتين من ليل - آدم، وكان الدّوق دو باكينغهام يخبّئ فيها المسكينة بينويل إلخ. كانت الأشياءُ التي تتمّ هناك من نوع ذلك الأشياء التي تحدث[*] Vi , Calm et precario بالقوّة، وسرّاً، ولفترةٍ قصيرة فمن يكون هناك، يبقى في ذلك المكان حسب مشيئة السيّد. لقد كانت سجونَ نسيانٍ مذّهبة. وكان ذلك يشبه الدّيرَ المغلقَ أو الحريم. كانت هناك أدراجٌ تلتفّ، وتصعدُ، وتهبطُ. وكان يعيدُك لولبٌ من الغُرف المندمجة إلى نقطة انطلاقك. وكان رواقٌ ينتهي إلى مخدعِ نوم. وكانت تفرّعاتُ المرجانيات، وفتحات الاسفنجيات تُستخدم ربمّا كنماذج لمعماريّ "الشّقق الصّغيرة" الملكيّة والسّيادية الإقطاعيّة. كانت التشعُّباتُ شديدةَ التعقيد. وكانت هناك صورٌ تدورُ على مدارها فوق فتحاتٍ تعرضُ للمرء مداخلَ ومخارجَ. لقد كانت ذاتَ حركةٍ آلية. وكان ذلك ضروريّاً حقّاً، وتُضافُ إليها أحداثٌ دراميّة. كانت طوابقٌ ذلك القفير تتصلُ من الغرف الأرضية إلى السّقائف.

إنه مرجانٌ متشعّبٌ غير مألوف مرصّعٌ في كلّ القصور. بدءاً من فيرساي، والذي كان أشبه ما يكون بمسكنِ الأقزام في مقرّ الجبابرة.ممرّات، ومذابح لزيّاح القربان، وأعشاشٌ، ونخاريب، ومخابئ. كلّ أنواعِ الفجوات التي كانت تُحشرُ فيها صغائرُ الكبار.

هذه الأماكن التي تتلوّى والمحاطةُ بجدران، كانت توقظُ أفكاراً للّعب، وعيوناً معصوبةً، وأيدي متلمّسة، وضحكاتٍ مكتومةً، واستغمايةً، ولعبة التخبئة؛ وفي الوقت نفسه، تستدعي إلى الذهن الأتريديين، والبلانتاجونية.

(*) بهدوء وبحذر (م: ز. ع).

والمنيسّي، وفرسان إلزالوحشيين، وريزيو، وموناالديسّي، والسّيوفَ التي تلاحق هارباً من غرفة إلى غرفة.

كان للأزمنة القديمة أيضاً مساكنُها الغامضةُ التي على هذه الشّاكلة، والتي يكون الترفُ فيها ملائماً للفظاعات. وقد حُفظت عينةٌ منها تحتَ الأرض في بعض مقابر مصر، وعلى سبيل المثال، في المدفن القبو، مدفن الملك بزاميتيكوس، الذي اكتشفه باسّالاكوا. ونجد لدى الشعراء القدماء الذّعَر من تلك المباني المشبوهة.

Erroe circumflexus, locus implicitus gyris (239)

كان غوينبلين في شقق كورليون - لودج الصّغيرة.

كانت تحرقُه رغبةٌ ملحّة للذهاب، وليكون في الخارج، ويرى ديا ثانية.

إن هذا التشابكَ، تشابكَ الممراتِ والصّوامع، والأبواب الخفيّة، والأبوابِ غير المتوقّعة، كان يوقفُه ويُبطئهُ. كان يريد أن يركض هناك، وكان مجبراً على أن يتيه، ويظنّ أنه لم يعدّ عليه إلاّ بابٌ يدفعه، فيكون عليه كبّة خيطان ليفكّ تشابكها.

وراء إحدى الغرف، هناك غرفةٌ أخرى، ثم ملتقياتُ قاعاتِ استقبال.

لم يكن يلتقي شيئاً حيّاً. كان يصغي. وما من حركة.

أحياناً كان يظنّ أنه يرى شخصاً يأتي إليه.

لم يكن هناك أحد. كان هو، في مرآة، وبملابس سيّد إقطاعيّ.

كان ذلك هو، الذي لا يُصدّق. وكان يتعرّفُ نفسه، ولكن ليس على الفور. كان يروحُ، سائراً في كلّ المعابر التي تَعْرض.

كان يدلفُ إلى كلّ التعرّجات، تعرّجاتِ العمارة الخاصّة، فهنا حجرةٌ مدهونة ومنحوتةٌ بتأنّق، فاحشةٌ بعض الشّيء وجدّ سريّة، وهناك مصلى مشبوهٌ ومحرشفٌ بالأصداف والطلاّءات الخزفية، مع عاجيّاتٍ مصنوعةٍ لكي تُرى بالعدسة المكبّرة، مثل أغطية منشفات العطوس، وهناك أحدُ تلك المعتّكفات المتحذلقة الفلورنسيّة المرتّبة من أجل الوساوس النّسائية، والتي

أصبحت تسمّى منذ ذلك الحين محارد(*). في كلّ مكان، على السّقوف، على الجدران، وحتى على الأرضيّات الخشبية، كانت هناك تصويراتٌ مخمليّة، أو معدنية لعصافير أو لأشجار، ولنباتاتٍ مسرفةٍ تلتفُّ حولها لآلئٌ وبروزاتٌ تطريزٍ قيطانيّة، وسماطاتٌ سبجيّة، ومحاربون، وملكات، وإلهات موجٍ مدرعةٌ ببطن عدار(*). وكانت المقاطعُ المشدوفة للبلّور المنحوت تضيفُ مؤثّرات موشوريّةً على مؤثّرات الانعكاسات.

وكانت الزّجاجياتُ تأخذُ دورَ الجواهر. فيرى المرء زوايا مخفيةً معتمة تلتمع. ولم يكن المرء يعلم إن كانت كلُّ تلك الوُجيْهات اللاّمعة التي تندمج فيها زجاجاتُ الزّمرد بذهبيّات الشمّس المشرقة، أو تطوفُ فيها سحبٌ بلونِ عنقِ الحمامة، إن كانت مرايا مجهريّة أو زمرّداتٍ مفرطةِ الضخامة. إنه بهاءٌ مرهفٌ وهائل في آن. لقد كان هو أصغرَ قصرٍ لطيف، إذا لم يكن الأعظم في علبِ مجوهراته. إنه منزلٌ لماب، أو حلية لجيو (240) لقد كان غوينبلين يبحث عن المخرج.

لم يكن يجده. فالتّوجّهُ متعذّرٌ. وما من شيءٍ مدوّخٍ كالثّراء حين يراه المرءُ للمرّة الأولى. ولكن فضلاً عن ذلك، فقد كان القصرُ متاهةً. وعند كلّ خطوة، كانت تعيقُه الأبهّه. كان يبدو أن ذلك يتصدّى لذهابه. وكان يظهرُ أن ذلك لا يريد أن يفلته. لقد كان كأنه في دبقِ العجائب؛ فقد كان يحسّ أنه ممسوكٌ ومستبقى.

وكان يفكر قائلاً: 'يا للقصرِ المرعب! '

كان يجولُ في ذلك التّيه، قلقاً، متسائلاً عما كان يعنيه ذلك، وإن كان في السّجن، فيهتاج، طامحاً إلى الهواء الطلّق. وكان يردّد: ديا! ديا! وكأنه يمسك الخيطَ الذي لا ينبغي أن يدعه ينقطع، والذي سيجعلّه يخرج. وأحياناً، كان ينادي:

(*) صالونات صغيرة تعتكف فيها وتحرد السّيدات الرفيعات الشأن (م: ز.ع).

(*) حيوان مائي (م: ز.ع).

"هيه! هناك أحد!"

ولم يكن شيء يجيبُه.

لم تكن تلك الغرف تنتهي. وكانت خاليةً، وصامتةً، وبهيّة، ومشؤومة.

وعلى هذا النحّو يجري تخيّلُ القصور المسحورة.

كان فوهاتٌ حارّةٌ وخفيّة تحافظ في تلك الممّرات وتلك الحجرات على حرارةٍ صيفية. كان شهرٌ حزيران يبدو أن ساحراً معيّناً قد أخذه وحبسه في تلك المتاهة. وأحياناً كانت تفوحُ رائحةٌ زكيّة. فكان المرءُ يجتازُ نفحاتِ عطورٍ، وكأنما كانت هناك زهورٌ غير منظورة. كان يشعرُ المرء بالحرارة. وفي كلِّ مكانٍ هناك سجاجيد. وكان يمكنُ للمرء أن يتجوّل عارياً.

كان غوينبلين ينظرُ من النوافذ. والمنظرُ يتبدّلُ. كان يرى تارةً الحدائقَ، الملأى بنداوات الرّبيع والصبّاح، وتارةً واجهاتٍ جديدةً فيها تماثيلُ أخرى، وتارةً صحونَ دارٍ على النمّط الإسباني، والتي هي عبارةٌ عن باحاتٍ صغيرةٍ مربعةِ الزّوايا بين مبانٍ كبيرة، وهي مبلّطةٌ، ومتعطنةٌ وباردة؛ ويرى في بعض الأحيانَ نهراً كان هو التّايمز؛ وأحياناً برجاً ضخماً كان هو وندسور.

كان يتوقّفُ، وكان يصغي.

كان يقول: "أوه! سوف أذهب، سوف ألتقي ديا. ولن يستبقوني بالقوّة. والويلُ لمن يودّ أن يمنعني من الخروج! فما هذا البرجُ الكبيرُ الذي هناك؟ وإذا كان هناك عملاقٌ، وكلبٌ درواسٌ جحيميٌ، ووحشٌ تاراسك ليسدّ الباب في هذا القصر المسحور، فلسوف أقضي عليه. وإن كان هناك جيشٌ، سوف أفترسه، ديا! ديا!"

فجأةً، سَمع صوتاً صغيراً، وضعيفاً جداً. وكان هذا يشبه الماء الذي يجري.

لقد كان في رواقٍ ضيقٍ ومعتمٍ، ومغلقٍ بستارةٍ مشقوقة، على بعد بضعِ خطواتٍ منه.

ذهب إلى تلك السّتارة، وأزاحها، ودخل.

ولج إلى غير المنتظر.

III
حوّاء

قاعةٌ مثمّنةُ الزوايا، ومقبّبةٌ على شكلِ عروةِ سلّة، وبلا نوافذ، ومضاءةٌ من الأعلى، وكلّها مكسوّةٌ، جداراً، وتبليطاً وقبّة، برخامٍ بلون الدّراقن.

وفي وسط القاعة. قبةُ سريرٍ برجيّة من رخامٍ بغطاءٍ جنازيٍّ، وذات أعمدةٍ معوجّة، بأسلوبٍ لا خفّة فيه وساحرٍ، أسلوبِ إليزابيث، ويغطيّ بالظلّ فسقيّةَ حوض حمّام من الرّخامِ الأسود نفسه، وفي وسط الفسقيّة انبجاسٌ لماءٍ معطرٌ وفاترٍ يملأُ الحوض برقّة وبتؤدة؛ هذا ما كان يراه أمام عينيه.

حمامٌ أسود أعِدّ ليغيِّر البياضَ إلى التماع.

كان ذلك الماءُ هو الذي كان قد سمعه. إنّ تسرّباً معدّاً في المغطس على مستوىً معيّن لم يكن يجعله يفيض. كان الدّخانُ يتصاعدُ من الفسقية، وإنما بمقدارٍ قليلٍ جداً بحيث كان هناك بصعوبة بخارٌ متكاثفٌ على الرّخام، وكانت فوّارةُ الماء النحيلة تشبهُ قضيباً مرناً فولاذياً ينثني عند أقلّ هبّة ريح.

ليس هناك أيّ أثاث. اللهّم إلاّ إحدى تلك الكراسي – الأسرّة ذات الوسائد الطويّلة إلى حدٍّ كافٍ، بقرب المغطس، وذلك لكي تتمكّن امرأةٌ، متمدّدة عليها، أن يكون لديها كلبٌ عند قدميها أو عشيقٌ، ومن هنا كلمة Ca - al - pie التي صنعنا منها كلمة canapé (*)

لقد كانت كرسيّاً طويلةً من إسبانيا، نظراً لأن أسفلّها مصنوعٌ من الفضّة. وكانت الوسائدُ والحشوةُ من الحرير الصقّيل الأبيض.

(*) كنبة، ديوان أو مقعد. (م: ز. ع).

من الجهة الأخرى من المغطس، كان ينتصبُ مستنداً إلى الجدار، رفٌ للتزّين من الفضّة المصمتة مع كلٍّ مواعينه، وفي وسطه ثماني مرايا صغيرةٍ من البندقية مركبّة داخلَ إطارٍ فضّي. ويمثّل نافذة.

في شقّةِ الجدار المنحوتة والأقرب إلى الكنبة، كان هناك ثغرةٌ مربّعةٌ قد جرى شقّها، وكانت تشبهُ طاقةً، وكانت مسدودةً بمأطورةٍ مصنوعةٍ من صفيحة فضيةٍ حمراء. كان لتلك الصّفيحة مفصلاتٌ مثل مصراعِ نافذةٍ.

وعلى الفضّة الحمراء، كان يلتمعُ تاجٌ ملكيٌّ منقوشٌ ومذهبٌ. وفوق المأطورة. كان هناك ناقوسٌ مصنوعٌ من الفضّة المذهبّة إن لم يكن من الذهب، وكان معلّقاً ومثبّتاً بالجدار.

بمواجهةِ مداخلِ تلك القاعة، وقبالةَ غوينبلين الذي كان قد توقّف فجأة، كانت شقّةُ الجدار المنحوتة الرّخامية غير موجودة. كانت قد استُبدلت بها فتحةٌ بالأبعاد نفسها، وتذهبُ حتى القبّة، ويغلقُها نسيجٌ فضيٌّ وعالٍ.

كان هذا النسيج، ذو الدّقة الخلابّة، شفافاً. وكان المرءُ يستطيع الرؤية، من خلاله.

وفي وسط النسيج، وفي الموضع الذي تكون فيه العنكبوتُ عادةً، لمح غوينبلين شيئاً هائلاً، إنه امرأة عارية.

عارية تماماً، لا. كانت تلك المرأةُ ترتدي شيئاً. وترتديه من الرأس إلى القدمين. وكان الرّداءُ قميصاً، طويلاً جداً، مثل أرديةِ الملائكة في لوحاتِ القداسة، غير أنه كان جدّ رقيقٍ بحيث يبدو مبللاً. ومن هنا، نعدّه شيئاً تقريبيّاً لامرأة عارية، أكثر غدراً، وأكثر خطورةً من العري الصّريح. لقد سجّل التاريخُ زيّاحاتِ أميراتٍ وسيداتٍ رفيعاتِ الشأن بين رتلين من الرّهبان حيث كانت الدّوقةُ مونبانسييه، تحت ذريعةِ القدمين الحافيتين والتواضع، كانت تظهر نفسها بهذه الصورة على كلّ باريس، مرتدية قميصاً من الشبيك. وللتلطيف: شمعة في يدها.

أما النّسيجُ الفضيُّ، الشّفافُ مثل لوحٍ زجاجيٍّ، فقد كان ستارةً.لم يكن مثبّتاً إلاّ من الأعلى، ويمكنُه أن ينكشف. كان يفصلُ القاعةَ الرّخاميّةَ، التي

كانت قاعةَ استحمامٍ عن غرفةِ كانت غرفةَ نوم. وتلك الغرفة، الصّغيرة جدّاً، كانت نوعاً من مغارةِ مرايا. وكان في كلّ مكان مرايا من البندقية، متلاصقةٌ ومضبّطةٌ بشكلٍ متعدّد الصّفائح، ومربوطةٌ فيما بينها بقضبان مذهبّة، وكانت تعكسُ السّرير الّذي كان في الوسط. وعلى ذلك السّرير، الفضيّ شأن المزينة والكنبة، كانت تتمدّدُ امرأةٌ. وكانت تنام.

كانت تنام ورأسها مقلوب، وإحدى قدميها تدفع أغطيتها، شأن السّقوبة(*) التي يرفرفُ الحلمُ بجناحيه فوقها.

كانت وسائدُها المصنوعةُ من التّخريم الزّخرفيّ قد وقعت أرضاً على البساط. بين عريها والنظر، كان هناك عائقان، قميصها والسّتارة الشّفافة الفضيّة.

إنهما شفافيّتان. فالغرفةُ التي هي مخدعُ نومٍ أكثر مما هي غرفة، كانت مُنارةً بنوعٍ من التحفظ بلمعانِ غرفةِ الاستحمام. ولربّما لم يكن لدى المرأة احتشام، غير أن الضّوءَ كان لديه خفَرةٌ.

لم يكن للسّرير أعمدة، ولا ظُلّةٌ، ولا قبّةٌ، بحيث أن المرأة، حين تفتح عينيها كان يمكنها أن ترى نفسها ألفَ مرّةٍ عارية في المرايا، فوق رأسها.

كانت أغطيةُ السّرير في فوضى كفوضى النّوم المضطرب. وكان جمالُ الثّنيات يدلّ على نعومة النسيج. وكان ذلك هو العهد الذي تتخيّلُ فيه ملكةٌ، حين يخطر لها أنها ستكون هالكة، تتخيّلُ الجحيمَ على النّحو التالي: سريرٌ وأغطيةٌ ضخمة.

فضلاً عن ذلك؛ فهذا الأسلوبُ من النّوم، والمرءُ عارٍ كان يأتي من إيطاليا، ويرجع إلى زمن الرّومان: 'Sub clara nuda lucerna' كما يقول أورسوس.

كان مبذلٌ من الحرير الفريد المستورد، من الصّين بلا شكّ؛ ففي الثنيات كان المرءُ يستشفُ عظايةً كبيرةً ذهبيّة، كان ملقىً على قائمة السّرير.

فيما وراء السّرير، وفي داخل مخدع النوم، من المحتمل أنه كان هناك بابٌ، تموّهُه وتطبعُه مرآةٌ كبيرةٌ إلى حدّ كافٍ، وقد صورّت عليها طواويسُ

(*) شيطانة يُزعم أنها تضاجع الرّجال أثنا نومهم. (م: ز. ع).

وطيورٌ تمّ. في ذلك الغرفةِ المشكّلة من الظّل. كان كلُّ شيءٍ يلتمع. كانت الفرجاتُ بين البلّوريات، والذهبيّات مدهونةً بتلك المادّة اللاّمعة التي كانوا يسمّونها في البندقية 'مِرّة زجاجيّة'.

عند رأس السرير، كان هناك مقرأ فضّي ذو مساند دوّارة، ومشاعلُ ثابتة، وعليها يمكنُ للمرء أن يرى كتاباً مفتوحاً يحملُ في أعلى صفحاته عنواناً مكتوباً بأحرفٍ كبيرةٍ حمراء.

لم يكن غوينبلين يلتقط أيّاً من تلك التّفاصيل. فكلّ ما كان يراه، هو المرأة. لقد كان مذهولاً ومبلبلاً في آن. وهذا متناقضٌ، ولكنه موجود.

فتلك المرأة، كان يتعرّفها.

وكانت عيناها مغمضتين ووجهُها يستديرُ نحوه.

كانت تلك هي الدّوقة.

هي، ذلك الكائنُ الغامضُ الذي تمتزجُ فيه كلُّ تألّقاتِ المجهول، وتلك التي جعلته يحلمُ بالكثير من الأحلام التي لا يمكن الإقرارُ بها، وتلك التي كانت قد كتبت له رسالةً جدّ غريبة! المرأة الوحيدة في العالم التي أمكنه أن يقول عنها: لقد رأتني وهي ترغبُ بي! لقد طرَدَ الأحلامَ، وأحرقَ الرّسالة.

لقد نحّاها، هي، إلى أبعد ما استطاع، بعيداً عن أحلام يقظته، وعن ذاكرته، ولم يعدْ يفكرّ بها، وكان قد نسيها....

لقد رآها مجدّداً!

رآها مخيفةً.

المرأة العارية، هي المرأة المسلّحة.

لم يعد يتنفّسُ. وكان يشعرُ أنه قد رُفع وكأنّما في هالةٍ مقدّسة، وأُطلِق. كان ينظر. تلك المرأة أمامه! هل كان ذلك ممكناً؟

إنها دوقةٌ في المسرح، وهنا، حوريةٌ بحر، وعروسُ ماء، وجنّية، وهي دائماً تجلّ.

حاول أن يهرب وأحسّ بأن ذلك غير ممكن. وغدت نظراتُه سلسلتين، وهما توثقانه بتلك الرّؤيا.

هل كانت فتاة؟ هل كانت عذراء؟ الاثنتين معاً. كان على ميسّالينا، الموجودة في اللاّمرئي ربمّا، أن تبتسم، وكان على ديانا أن تراقب. كان على تلك الحسناءِ ضياءٌ ما يتعذّر نيلة. وما من صفاء يماثلُ ذلك الشكلَ الحشيمَ والشامخ. إن بعضَ هطولاتِ الثلج التي لم تُمسّ قطّ يمكن تعرُّفها. فبياضاتُ اليونغفراو المقدّسة كانت لتلك المرأة. إن ما كان يخرج من ذلك الجبين غير الواعي، ومن ذلك الشّعر العقيقيّ المبعثر، ومن ذلك الرّموش المخفضة، ومن تلك العروق الزّرقاء، التي تُرى بشكلٍ غير واضح، ومن تلك الاستدارات الجديرةِ بالنحّت، استداراتِ الثديين، والوركين والركبتين التي تُقولبُ استواءاتِ القميص الورديّة، هو ألوهيّة نومٍ مهيب. كان عدمُ الحياء هذا ينحلُ إلى إشعاع. كانت تلك المخلوقةُ على درجةٍ من الهدوء في عريها وكأن لها الحقّ في وقاحةٍ سماويّة، كان لديها اطمئنانُ إلهةٍ أولمبيّة تجعل من نفسها ابنة للجّة، ويمكنها أن تقول للمحيط: يا أبي! أو تعرضُ نفسها، وهي حصينةٌ ومتعجرفةٌ، على كلّ ما يعبر، على النظرات، والرّغبات، وعلى ضروبِ الجنون، والأحلام، وهي مرنّقةُ العينين باعتدادٍ على سريرٍ مخدعِ الاعتزال، شأن فينوس على مساحاتِ الزّبد الشاسعة.

كانت نائمةً أثناء الليل، وتطيلُ نومها إلى رأد الضحّى؛ اطمئنانٌ مبدوء به في العتمة، ومتواصلٌ في النّور.

كان غوينبلين يرتعدُ، كان يتأمّل بإعجاب.

إنه إعجابٌ غيرُ صحيٌ، ومفرطٌ في إغرائه.

كان خائفاً.

إن علبةَ مفاجآت القدر لا تنفد إطلاقاً. وكان غوينبلين قد ظنّ أنه قد وصل إلى النهاية. فبدأ من جديد. فما كانت كلُ تلك البروق التي تنقضُ على رأسه بلا هوادة. وأخيراً فإن صعقاً أعظم يرميه، هو الرّجلُ المرتعدُ، بإلهةٍ نائمة؟ ما كانت كلّ تلك الفتحات المتعاقبة في السّماء التي كان ينتهي الأمرُ

بأن يخرج منها حلمهُ المشتهى والمخيف. وما كانت كلُّ تلك الكياسات، كياساتِ المغوي المجهول الذي حمل إليه ضروبَ ذوقه الغامضة، وألوانَ ضعفِ إرادته المشوّشة، واحدة بعد الأخرى، وصولاً إلى أفكاره السيّئة التي غدت لحماً حياً، وأبهضته بسلسلة تبعثُ على النّشوةِ من الوقائعِ المستمدّة من المستحيل؟ فهل كان هناك تآمرٌ من جانب الخفاء كلّه ضدّ الشقي؟ وما الذي سيصبحُ عليه مع كلّ تلك الابتسامات، ابتساماتِ القدر المشؤوم حوله؟

وماذا كان هذا الدُّوارُ المرتّبُ عمداً؟ وهذه المرأة! هناك! لماذا؟ وكيف؟ ليس هناك أيُّ تفسير. ولمَ هو؟ ولمَ هي؟ هل أصبح عيناً من أعيان إنكلترا عن قصدٍ من أجل تلك الدّوقة؟ من الذي كان يجلبُ أحدهما إلى الآخر هكذا؟

من الذي كان المخدوع؟ من كان الضّحيّة؟ من الذي جرى استغلالُ طيبةِ قلبه؟ هل كان الرّبُّ هو الذي كانوا يخدعون؟ إن كلّ هذه الأمور،لم يكن يستجليها بدقة، كان يستشفّها من خلالِ تتابعٍ لغيوم سوداء في دماغه.

إن هذا المسكنَ السّحريّ والسّيئ النوايا، هذا القّصر الغريب والعنيد مثل سجن، هل كان مكيدةً؟ كان غوينبلين يعاني من نوعٍ من الابتلاع. كانت قوى غامضةٌ توثقه بشكلٍ خفيّ. وكانت جاذبيّةٌ معينةٌ تقيّده، أما إرادته، التي شُلت منه، فقد كانت تغادرُه. فبمَ يتمسّك؟ لقد كان زائغَ النّظرة ومسحوراً. وتلك المرّة، كان يحسُّ بأنه أخرق على نحوٍ لا يُعوّض. إن السّقوط العموديّ القائم في هوّةِ الانبهار كان يتواصل.

كانت المرأةُ تنام.

أما هو، وإذْ ازدادت لديه حالةُ الاضطراب تفاقماً؛ فلم تعدْ هي الليدي حتى، ولا الدّوقة، لقد كانت المرأة.

إن الضّلالات موجودةٌ في الإنسان في الحالة الكامنة. وللرّذائل في عضويتنا رسمٌ غير مرئيّ ومعدٌّ تماماً. وحتى لو كنا بريئين، وطاهرين ظاهريّاً، فإن ذلك موجودٌ فينا. فأن يكون المرءُ بلا شائبة، ليس هذا معناه أنه بلا نقيصة. إن الحبّ قانونٌ، واللّذة فخّ. هناك النّشوةُ، وهناك إدمانُ الخمرة؛ فالنّشوةُ هي الرّغبةُ في امرأة، وإن إدمانَ الخمرة هي الرّغبة في المرأة.

أمّا غوينبلين، الخارج عن طوره، فقد كان يرتجف.

ماذا يعمل ضدّ هذا اللقاء؟ فما من تجعّداتِ أقمشة، وما من توسّعاتٍ حريريّة، وما من تزيّنٍ مفرطٍ وغنج، ما من مبالغةٍ مستهترةٍ تُخفي وتُظهِر، ما من غمامة. إنه العريُّ في اقتضابه المخيف. إنه نوعٌ من إخطارٍ غامضٍ فردوسيٌّ بشكلٍ ماجن. إن كلّ الجانبِ القاتم من الإنسان في حالةِ إخطار. حواء أسوأ من الشيطان. إنه اندماجٌ بين البشري والفائق على البشريّ. انجذابٌ مقلقٌ يُفضي إلى انتصارٍ فظٍّ للغريزةِ على الواجب. إن النطاق السّامي للجمال قهريّ. وحين يخرج من المثاليّ، وحين يتنازلُ ليصبح واقعياً، يغدو بالنسبة للإنسان اقتراباً مشؤوماً.

كانت الدّوقةُ أحياناً تغيّر مكانها على السرّير بفتور، وتتحرّكُ بمثل حركاتِ البخار المبهمة في زرقة السّماء، فتبدّلُ وضعيّتها كما تبدّلُ السّحابةُ شكلها. كانت تتماوجُ مشكّلةً ومفكّكةً منحنياتٍ ساحرة. إن لدى المرأة ليوناتِ الماء كافّة. وكالماء، كان لدى الدّوقة شيءٌ غير محدّد يتعذّر إمساكه. إنه لأمرٌ غيرُ مألوف أن تقول إنها كانت موجودةً هناك، جسداً مرئياً، وقد ظلّت خياليّة. إنها ملموسةٌ، وتبدو أنها بعيدة. أما غوينبلين، المذعورُ والشاحبُ الوجه، فقد كان يتأمّل. كان يصغي إلى ذلك الصّدر الذي يختلجُ ويظنُّ أنه يسمعُ تنفسَ شبح. لقد كان منجذباً، وكان يتخبّط. فما الذي يعمله ضدّها؟ ما الذي يفعله ضدّ نفسه؟

قد كان يتوقّع كلّ شيء ما عدا ذلك. حارساً شرساً يعترضُ الباب، وسجاناً وحشاً ومسعوراً ينبغي قتاله، هذا هو الذي كان يحسبُ حسابه. كان يتوقع سيربير(*)، فوجد إيبيه(242).

وامرأةً عاريةً، هي امرأة نائمة.

يا لها من معركةٍ قاتمة!

(*) هو الكلب الذي يحرسُ الجحيم في أساطير الإغريق. (ك: ز.ع).

كان يغمضُ جفونه. إن الفجرَ المفرط في العين عذاب. غير أنه أخذ يبصرها مجدداً في الحال، من خلال أجفانه المغمضة، يراها على ما هي عليه من الجمال، مع أنها أكثر غموضاً.

إن الهروبَ ليس سهلاً. وقد حاوله ولم يستطع. كان متجذّراً وكأنه في حلم. حين نريد أن نتقهقر؛ فإن الإغراء يُسمّر أقدامنا إلى البلاط. إن التقدُّم يبقى ممكناً، أما التراجعُ فلا. إن أذرعَ الخطيئة غير المرئية تخرجُ من الأرض وتسحبنا إلى الانزلاق.

إن هناك أمراً مبتذلاً يقبَلُه كلُّ الناس هو أن الانفعال يُنهكُ. وما من شيء أكثر خطأً. وهذا كما لو كنّا نقول إنه تحت تأثير حمض الآزوت الذي يسقط قطرةً قطرة، يسكنُ الجرحُ ويهدأ وأن الفسخَ يضجرُ داميان(*).

الحقيقة أنه عند كلّ ازدياد، يصبحُ الإحساسُ أكثرَ حدّة.

ومن اندهاشٍ إلى اندهاش، وصل غوينبلين إلى ذروة الشّدة. إن هذا الإناء الذي هو عقلُه كان يتخطّىً حدوده، تحت تأثير ذلك الذهول الجديد، فكان يحسُّ في ذاته يقظةً مرعبة.

لم تعد لديه بوصلة. وكان أمامه يقينٌ واحد هو تلك المرأة. إن سعادةً غير محدّودة، ولا دواء لها كانت تتفرجُ أمامه، وهي تشبه غرقاً. لم يعد هناك اتّجاه ممكن. بل تيار لا يمكن مقاومته ومكسرٌ صخريّ. والمكسرُ الصّخري ليس الصخرة، إنه جنيّة بحر. إن مغناطيساً موجودٌ في أعماق اللّجة. وكان غوينبلين يرغبُ في أن ينتزع نفسه من ذلك الانجذاب. ولكن ما العمل؟ لم يعد يُحسّ بنقطة ملتقى. إن التقلّب البشريّ لا نهاية له. والإنسانُ يمكن أن يصبح حائراً مثل سفينة، فالمرساةُ هي الوعي. وإنه لأمرٌ محزنٌ أن يتحطمَّ الوعي.

لم يكن لديه تلك الوسيلة حتى: 'فأنا مشوّهٌ ومخيف. ولسوف تصدقني' وكانت هذه المرأة قد كتبت إليه أنها تحبّه.

(*) داميان: طعن لويس الخامس عشر بمدية، فحكم عليه بالفسخ. (م: ز.ع).

إن في الأزمات لحظةَ ارتباك. وحين نشتطُّ باتجاه الشرّ أكثر مما نستدّ على الخير، فإن هذا القدْر من ذاتنا والمعلّق على الخطيئة ينتهي به الأمرُ إلى الغلبة، ويدفعُنا إلى الهاوية؛ فهل أتت هذه اللحظةُ الحزينةُ بالنسبة لغوينبلين؟

كيف يُفلتُ من الأمر؟

وهكذا فقد كانت هذه هي! الدّوقة! تلك المرأة! كانت أمامه، في تلك الغرفة، في ذلك المكان الخالي، نائمةً، مستسلمةً، ووحيدة. كانت تحت طلبه، وكان تحت سلطانها!

الدّوقة.

إذا لمح المرء نجمةً في أعماق الفضاءات، أبدى إعجابه بها. إنّها جدُّ بعيدة! فما الذي يخشاه من نجمةٍ ثابتة؟ وذات يوم - ذات ليلة - يراها وهي تبدّلُ مكانها. ويميّز ارتعاشةَ ضوءٍ حولها. إن ذلك الكوكبَ الذي كان المرءُ يظنّه عديمَ التأثرّ يتحرّك. ليس النجمة، بل المذنّب. إنه مُشعلُ الحرائق الهائل في السمّاء. إن الكوكب يسيرٌ، ويكبرُ، ويهزّ شعراً أرجوانياً، ويغدو هائلاً. إنه يتوجّه إلى ناحيتك. يا للرّعب، إنه يأتي إليك! فالمذنّبُ يعرفُك، والمذنب يشتهيك، والمذنبُ يريدك. إنه اقترابٌ سماويّ يثيرُ الذّعر.

إن ما يحلّ عليك هو قدرٌ زائدٌ من الضياء، هو العمى. إنه إفراطٌ في الحياة، فهو الموتُ. إنه هذه التقدمة التي يقدّمُها إليك السّمتُ، أنت ترفضُها. وعرضُ الحبِّ هذا الذي تعرضُه الهوّةُ، أنت تردُّه. إنك تضع يديك على جفونك، وتختبئ، إنك تتهرب، وتظنّ أنك قد أُنقذت. وتفتحُ عينيك مجدّداً...

- إن النجمةَ المرهوبةَ موجودةٌ. إنها لم تعد نجمةً، إنها عالمٌ، عالمٌ مجهول.

عالمٌ من الطفح البركاني والحجر. شيء خارقٌ مفترسٌ للأعماق. إنها تملأ السّماء. ولم يعدْ هناك سواها. عقيقُ أعماقِ اللاّنهاية الأحمر، والماسةُ من بعيد، والأتون من قريب. إنك داخلٌ لهبها.

وأنت تحسّ بأن احتراقَك يبدأ بحرارةٍ فردوسيّة.

I V
شيطان

فجأة، استيقظت النّائمة، واستوت جالسةً بأبّهةٍ مفاجئةٍ وموزونة، وانتثر شعرُها الحريريّ الأشقرُ المحلولُ بصخبٍ رقيقٍ علَى صلبها، وكان قميصُها المنسدلُ يبرزُ كتفها من موضعٍ جدّ خفيض. لقد لمست بيدها المرهفة إصبعَ قدمها الوردي، ونظرت بضعَ لحظات إلى قدمها العارية، والتي تستحقُ أن يعشقها بيريكليس(*)، وينسجها فيدياس، ثم تمطتّ وتثاءبت مثل نمرةٍ في الشمس الطّالعة.

من المرجّح أن يكون غوينبلين قد أخذ يتنفّس بجهدٍ مثلما يفعلُ المرءُ حين يحبسُ نَفَسه.

فقالت: "هل هناك أحدٌ؟"

قالت ذلك وهي تتثاءبُ، وكان ذلك مفعماً باللطّافة.

سمع غوينبلين ذلك الصّوت الذي لم يكن يعرفه. إنه صوتُ فاتنة، وفيه نبرةٌ متعالية بشكلٍ عذب، ونغميّةُ مداعبته تُلطّفُ فيه اعتيادَه على أن يأمر.

وفي الوقت نفسه، وإذْ انتصبتَ على ركبتيها، وثمّة تمثالٌ قديم يجثو على ذلك النحّو داخل ألف ثنيةٍ شفّافة، فقد سحبت إليها مبذلها، وارتمت على أسفل السّرير، وهي عاريةٌ وواقفةٌ للوقت الذي يقتضيه سهمٌ ليمرّ، ولفّت نفسها بعد ذلك على الفور. فغطّاها المبذلُ بلمحِ البصر.

(*) على التوالي، رجل دولة أثيني مجدّد ومطوّر كبير، والثّاني منهما نحات ذائع الصيت أسهم في بناء وزخرفة البارثينون في عهد الأول. (م: ز.ع).

كان الكُمّان الطويّلان جداً يُخفيان يديها. ولم يعد المرءُ يرى إلاّ رأسَ أصابع قدميها البيضاوين، بأظافرهما الصّغيرة. كقدميّ طفل.

رفعت عن ظهرها خصلةً متموّجةً من شعرها ألقت بها على مبذلها، ثمّ هرعت إلى وراء السرّير، داخل مخدعِ نومها، وطبّقت أذنها على المرآة المدهونة والتي كانت تخفي باباً على الأرجح.

طرقت على الزّجاج بالعقفةِ الصّغيرة التي تصنعُها السبّابةُ المثنيّة.

'هل هناك أحد؟ اللورد دافيد! هل كان ذلك أنت قبل قليل؟ كم السّاعة الآن إذن؟ هل هذا هو أنت يا باركيلفيدرو؟'

واستدارت.

'ولكن لا. ليس من هذه الناحية. هل هناك أحدٌ في غرفة الاستحمام؟ ولكن أجيبوني إذن! في حقيقة الأمر، لا، لا يمكن لأحد أن يأتي من هذهِ الجهة.'

مضت إلى ستارِ النسّيج الفضّي، وفتحته بطرفِ قدمها، وأبعدته بحركةٍ من كتفها، ودخلت إلى الغرفة الرّخاميّة.

أحسّ غوينبلين بمثلِ بردِ الاحتضار. ولم يعدّ لديه ملجأ. لقد فات أوان الهرب. زدْ على هذا أنه لم يكن يقوى على ذلك. وكان يودّ لو أن البلاط ينشقّ، وأن يهوي إلى ما تحت الأرض. فما من وسيلةٍ لكي لا يُرى.

لقد رأته.

نظرت إليه وقد اعترتها دهشةٌ هائلة، ولكن من دون أيّ ارتعاد، وكانت هذه الدهشة تحمل ظلاً خفيفاً من السّعادة والاحتقار.

وقالت:

'عجباً، غوينبلين! '

ثم ألقت بنفسها فجأة إلى عنقه. بقفزةٍ عنيفة؛ فقد كانت تلك القطّةُ نمرةً. طوّقت رأسه بشدّة بين ذراعيها العاريتين واللتين تشمّر كمّا هما، من خلال هذا الاندماج.

وإذْ دفعت غوينبلين فجأة، وحَطّت على كتفيه يديها الصّغيرتين، وكأنّهما برثنين، وهي واقفةٌ أمامه، وهو واقفٌ أمامها، فقد أخذت تنظرُ إليه بغرابة.

نظرت إليه بشكلٍ لا يقاوم بعينيها، عينيّ النيباران (243)، والذي هو شعاعٌ بصري مختلطٌ، فيه شيء مريبٌ وفلكيٌ غير محدّد. وكان غوينبلين يتأمّل تلك الحدقةَ الزرقاء، وتلك الحدقة السوداء، وقد اضطرب بتأثير التحديق المضاعف لهذه النظرة، نظرةِ السمّاء، ونظرة الجحيم. وكانت تلك المرأة وذلك الرّجل يرسلُ كلٌّ منهما إلى الآخر إبهاراً مشؤوماً. كان كلٌّ منهما يفتنُ الآخر، أحدُهما بالتشوّه، والأخرى بالجمال، وكلاهما تفتنهُ الفظاعة.

كان ساكتاً، وكأنه تحت ثقلٍ يتعذّرُ رفعهُ. وقد هتفت:

"إنك نبيه، وقد أتيت. وعرفتَ أنني كنت مجبرةً على الذهاب من لندن. وقد تبعتني. فأحسنت صنعاً. إنك رجلٌ فائقٌ للمعتاد لأنك هنا".

إنه خضوعٌ لاستحواذٍ متبادل، وهو يُحدِثُ نوعاً من حبٍّ فجائي. إن غوينبلين، الذي حذرَتْه بشكلٍ مبهم خشيةٌ وحشيةٌ ونزيهةٌ، قد تراجع، غير أن الأظافر الورديّة المتقلّصة على كتفه كانت تمسك به. كان ثمة شيء لا يرحم قد بدأ يُرسمُ. لقد كان في عرين المرأة المتوحشّة، وهو نفسهُ رجلٌ متوحش.

واستأنفت قائلة:

"إن آنّا، هذه الحمقاء - هل تعلم هذا؟ الملكة - قد جعلتني آتي إلى وندسور من غير أن أدري لماذا. وحين وصلتُ، انفردت بكبير وزرائها الأبله. ولكن ماذا فعلتَ لكي تستطيعَ الولوجَ إليّ؟ هذا ما يعني أن يكون المرءُ بالنسبة لي رجلاً؛ فلا وجودَ للعوائق أمامه. فما إن يُدعى حتى يأتي مسرعاً. هل استعلمتَ عن الأمر؟ إن اسمي هو الدّوقة جوزيان، وأظنّ أنك كنت تعلمُ ذلك. فمن الذي أدخلك؟ إنه البّحارُ الصبيّ بلا شكّ. إنه ذكيٌ. ولسوف أعطيه مئة جنيه "فكيف تصرّفت في ذلك؟ قلْ لي هذا. لا، لا تقلهُ لي. لا أريدُ أن أعرفه. إن الشرّح ينتقصُ من الأمر. وإنّي أفضّلك مدهشاً. وأنت على درجةٍ كافية من القباحة بحيث لا يمكن أن تكون رائعاً. إنّك تسقطُ من موطن الآلهة. هذا هو الأمر، أو تصعدُ من الدّرك الأسفل الثّالث، من خلال الإيريب (244).

فما من شيء أكثر سهولة، فلقد تباعد السّقف، أو انفتحت الأرضيّة. نزولٌ من السّحب، أو صعودٌ ضمن توهجٍ كبريتيّ، فعلى هذه الصّورة إنما تصل. إنك تستحقّ أن تدخل كالآلهة. لقد تمّ الأمرُ، أنت عشيقي".

كان غوينبلين التائهُ يصغي، ويحسُّ بأن تفكيره يهتزُّ أكثر فأكثر. لقد انتهى الأمر، وصار الشكُّ مستحيلاً. لقد كانت تلك المرأةُ تؤكّدُ رسالةَ الليل. أما هو، غوينبلين، فقد أصبح عشيقاً لدوقة، وعشيقاً محبوباً! لقد تحرك الغرورُ الهائلُ ذو الرؤوس القاتمة الألف في ذلك القلب المنكود.

إن الخيلاءَ، تلك القوّة الهائلة الموجودة فينا، هي ضدنا.

وواصلت الدّوقة تقول:

"بما أنك هنا؛ فهذا يعني أنّك تريدُ ذلك. وأنا لا أطلبُ أكثر من هذا. هناك أحدٌ في الأعلى أو في الأسفل - يرمي بكلّ واحدٍ منا إلى الآخر. إنّها خطوبةُ السّتيكس والفجر[*]. وهي خطوبةٌ جامحةٌ خارجٌ كلّ الشرائع! في اليوم الذي رأيتك فيه، قلت: "هذا هو. إني أتعرّفه. إنه مسخُ أحلامي. ولسوف يكون لي" يجب مساعدةُ القدر. ولهذا فقد كتبتُ إليك. وهناك سؤال. يا غوينبلين؟ هل تؤمن بالقضاء والقدر؟ أنا مؤمنةٌ به. منذ أن قرأتُ حلمَ سيبيون عند شيشرون. عجباً، لم أكن ألاحظُ الأمر. ملابس نبيل. لقد ارتديت ثيابَ سيّدٍ إقطاعيّ ولم لا؟ إنك بهلوان، وهذا سببٌ إضافي.

إن مشعبذاً يضاهي لورداً. ومن جهةٍ أخرى، فما هم اللوردات؟ إنهم مهرّجون. إن لك قامةً نبيلةً، وأنت حسنُ القوام. إنه لأمرٌ خارقٌ أن تكون هنا! فمتى وصلت؟ ومنذ كم من الوقت أنت هنا؟ هل رأيتني عارية؟ إني جميلة، أليس كذلك؟ كنت سأستحمّ. أوه! إني أحبّك. لقد قرأتَ رسالتي! هل قرأتها بنفسك؟ هل قرؤوها لك؟ فلا بدّ أنك جاهل. إني أطرحُ عليك أسئلة، ولكن لا تجبْ عليها. فأنا لا أحبُّ نبرةَ صوتك. إنه رقيقٌ. إن كائنا فريداً، مثلك لا ينبغي أن يتكلمّ، بل أن يصرف. إنك تغنّي، وهذا مطربٌ، وأنا أكره هذا. وهذا

(*) هو نهرُ الجحيم الذي يدورُ حولها سبعَ دورات ويجعلُ، في الأسطورة ما يغطسُ فيه غير قابلٍ للانجراح، (م: ز.ع).

هو الشيء الوحيد الذي لا يروقُ لي فيك. أما الباقي كلّه فعظيم. كلّ ما تبقّى رائعٌ. وقد تصبحُ إلهاً في الهند. فهل وُلدت بهذه الضحْكة المرعبة على وجهك؟ كلاّ، أليس كذلك؟ إن هذا تشويه عقابيّ بلا شكّ.

وآمل فعلاً أن تكون قد ارتكبتَ جريمةً ما. تعال إلى ذراعيّ".

تركت نفسها تهوي على الكنبة، وجعلته يهوي بقربها. وألفيا نفسيهما متجاورين الواحد بجانب الآخر، من دون أن يدركا كيف. كان ما كانت تقوله يمرّ على غوينبلين مثل ريحٍ عاصفة. وكان لا يكادُ يدركُ معنى ذلك الإعصار من الكلمات المهتاجة. كان الإعجابُ يملأ عينيها، وكانت تتحدثُ بصخب، وعلى نحوٍ مهووس، وبصوتٍ مستهامٍ ورقيق. وكان كلامُها موسيقا، غير أن غوينبلين كان يسمعُ هذه الموسيقا وكأنها عاصفة.

ثبّتت مجدّداً عليه نظرتها المحدّقة.

"أحسّ أنني قد حططتُ من مكانتي بقربك، فيا لها من سعادة! فأن يكون المرءُ صاحبَ سموّ، أيّ أمرٍ باهتٍ هذا! إنني عظيمةُ الشأن، وما من شيء أكثر إثارةً للتّعب من هذا. إن الانحطاطَ يُريح. إني مشبعةٌ بالاحترام إلى درجةٍ أحتاجُ معها إلى الاحتقار. نحن جميعاً مشتطّاتٌ قليلاً، بدءاً بفينوس، وكليوباترا، والسيدات دوشيفروز، ودولونغفيل، وانتهاءً بي، إني أتباهى بك، وأعلن ذلك. فهذا حبٌّ عابرٌ سوف يصيبُ أسرةَ ستيوارت الملكيّة التي أنا منها بصدمة. آه! إني أتنفسّ. وقد وجدتُ المخرج. إنني خارج الجلالة. وحين أفقدُ طبقتي، معناه أن أتحرّر. إن قطعَ كلّ شيء، والاجتراءَ على كلّ شيء، وصنعَ كلّ شيء، وتفكيكَ كلّ شيء، معناه أن المرء يحيا. اسمع. إني أحبّك".

قطعت كلامها، وابتسمت ابتسامةً مرعبة.

"أحبّك ليس لأنّك مشوّه فحسب، بل لأنك خسيسٌ. إني أحبّ المسخَ وأحبُّ المشعبذَ. إن لعشيقٍ مُذلّ، ومُهانٍ، وسخريّ، ومقزّز، وعرضة للضحكات على عمود التشهير هذا الذي يُسمّى المسرح، إن له مذاقاً خارقاً للمعتاد. إنه قرضٌ لفاكهة الهوّة. إن عشيقاً شائناً هو أمرٌ شهيٌ. وألاّ تكون تحت ضرصِ المرءِ تفاحةُ الجنّة، بل تفّاحةُ الجحيم، هذا هو الأمر الذي

يستهويني؛ فلديّ هذا الجوعُ وهذا العطش. وأنا تلك الحوّاء، حوّاء الهاوية. إنك شيطانٌ على الأرجح، ومن دون أن تدري. ولقد احترستُ من قناع الحلم. إنك مهرّجٌ مضحكٌ يمسكُ شبحٌ بخيوطه. أنت رؤيا الضّحكِ الجحيميّ الكبير، أنت السّيد الذي كنت أنتظره. وكان يلزمني حبٌّ مثل ذلك الذي لدى الميديّات والكانيديّات (245). وكنت واثقةً من أنه ستحدث لي إحدى تلك المغامرات الهائلة، مغامرات الليل. أنت ما كنتُ أرغبُ فيه. إني أقول لك هنا عدداً كبيراً من الأشياء، التي لا يُفترض أن تفهمها. يا غوينبلين، لم يمتلكني أحد، وإني أمنحك نفسي. نقيّةً كالجمر المستعر. أنت لا تصدّقني بطبيعةِ الحال. ولكن لو كنت تعلمُ كم هذا الأمر سيّان لدي! '.

كان لكلماتها اختلاطُ الثّوران. إن قرصةً في جنب جبل إتنا قد تعطي فكرةً عن قذف اللهب هذا.

وتمتم غوينبلين:

'سيّدتي..'

فوضعت يدها على فمه، وقالت:

'صمتاً! إني أتأمّلك. فأنا الجامحةُ الصّرفة، يا غوينبلين. أنا العذراء الباخوسيّة. لم يعرفْني أيّ رجل. وبوسعي أن أكون نبيّةَ معبد ديلفِ، وأن تكون تحت عقبي العاري أثفيّةٌ برونزيّة ثلاثيّةُ القوائم حيث يهمسُ الكهنةُ المتكؤون على جلد الأصلّة، بأسئلةٍ للإله غير المنظور. إن قلبي حجريّ، غير أنه يشبه تلك الحصى الخفيّة التي يدحرجُها البحرُ إلى أسفل صخرةِ هنتلي ناب، عند مصبّ نهر التّس، وهي الحصى التي يجدُ فيها المرءُ، إذا ما كسرها، حيّة.

وهذه الحيّة هي حبّي. وهو حبٌّ كليّ القدرة، لأنه قد جعلك تأتي. كانت المسافة المستحيلة قائمة بيننا. لقد كنتُ في سيريوس، وكنتَ أنت في أليوث (246).

لقد قمتَ بعبورٍ هائل، وها أنت ذا. حسناً. اسكت. وخذْني.'

توقّفت. وكانت ترتعش وأخذت تبتسم من جديد، وقالت:

"أترى، يا غوينبلين، إن الحلم معناه الخلق، وإن الأمنيّة نداءٌ. وبناءُ وهمٍ يعني تحدّي الواقع. إن الظلّ الكليّ القدرة والرّهيب لا يستسلمُ للتحدّي. إنه يرضينا. فها أنت ذا. فهل أجرؤ على الضّلال؟ أجل. هل أجرؤ على أن أكون عشيقتك، وخليلتك، وعبدتك؟ بفرح. يا غوينبلين، إني المرأة. والمرأة مصنوعةٌ من الطيّن الذي يرغبُ في أن يكون وحلاً. وأنا بحاجةٍ إلى احتقار نفسي. فهذا يتبّلُ مذاقَ الغرور. إن خليطةَ العظمة هي الخسّة. فما من شيء يتركّبُ بصورةٍ أفضل منهما. فلتزدرني، أنت يا من يزدرونه.

فيا لها من لذّةٍ أن يَذِلّ المرءُ وهو في حالةِ إذلال! وإني أقطفُ زهرةَ الخزيِ المزدوجة! فلتطأني بقدميك. ولسوف تحبّني أكثر من جرّاء ذلك. فأنا أعرفُ ذلك. وهل تدري لماذا أعشقُك؟ لأني أزدريك. إنك أخفضُ مني بكثير بحيث أضعُك على مذبح. إن مزجَ الأعلى والأسفل، هو التّشوّش، والتشوّشُ يروق لي. إن كلّ شيء يبدأ وينتهي بالتشوّش. فما هو التّشوّش، إنه دنسٌ هائلٌ. ومن هذا الدّنس، صنع الرّبّ النّورَ، ومن هذه الحمأة، صنع الرّبُّ العالم. أنت لا تدري إلى أيّةِ درجةٍ أنا منحرفة، فلتعجنْ كوكباً بالوحل، يكنْ ذلك أنا."

هكذا كانت تتكلمُ تلك المرأة المخيفة، والتي تُظهِر، من خلال فستانها المحلول، جذعها، جذعَ العذراء.

وتابعت تقول:

"ذئبةٌ بالنّسبة للجميع، وكلبةٌ بالنسبة لك. فكم سيدهشون! إن دهشةَ البُلهاء لطيفةٌ. أما أنا فأفهمُ نفسي. فهل أنا إلهة؟ لقد أعطت أمفيتريت نفسها للسيكلوب Fluctivoma Amphitrite، فهل أنا جنّية؟ لقد سلّمت أورجيل نفسها لبوغريكس، الرّجلِ الطائر. ذي الأيدي الثماني الرّاحيّة. هل أنا أميرة؟ لقد كان لدى ماري ستيوارت ريزيو، وكان لثلاث حسناواتٍ، ثلاثةُ مسوخ. وأنا أعظمُ منهن، لأنك أسوأ منهم. يا غوينبلين، لقد خُلق كلٌ منا من أجل الآخر، والمسخُ الذي أنت هو من الخارج، أنا هو من الدّاخل، ومن هنا ينشأ حبّي. أهو نزوة؟ فليكنْ. فما هو الإعصار؟ إنه نزوة. إن بيننا تلاؤماً فلكياً: فالواحدُ

منا كما الآخر، كلانا من الظّلام، أنت من حيث الوجه، وأنا من حيثُ العقل. إنك تخلقُني بدورك. فها أنت تصل، وتصبحُ روحي خارجاً. لم أكن أعرفها. فهي مذهلةٌ. إن اقترابك يخرجُ الأفعوان مني، أنا الإلهة. إنك تكشفُ طبيعتي الحقيقيّة. أنت تجعلني أكتشفُ نفسي، فانظرْ كم أشبهُك. انظرْ في داخلي كما تنظرُ في مرآة. إن وجهك هو روحي. ولم أكن أعلم إلى أيّ حدٍّ أنا مرعبة. فأنا مسخٌ إذن، أنا أيضاً! أوه يا غوينبلين، إنك تزيلُ عني الضجَر.

صدرت عنها ضحكةٌ طفوليّةٌ غريبة، واقتربت من أذنه وقالت بصوتٍ جدّ خفيض:

'أتريد أن ترى امرأة مجنونة؟ إنها أنا.'

كانت نظرتُها تلج إلى داخل غوينبلين. فنظرةٌ ما هي شرابُ محبّة. أمّا فستانُها فكان قد اضطرب ترتيبُه اضطراباً مخيفاً. وأخذ الانجذابُ الأعمى والحيوانيّ يجتاحُ غوينبلين. انجذابٌ كان يحملُ احتضاراً.

وفي حين كانت تلك المرأة تتكلمّ، كان يحسُّ ما يشبه رشّاتٍ ناريّة.

وكان يحسّ بانبثاق ما لا يمكن إصلاحُه. لم يكن يقوى على أن يقول كلمة. فقطعت كلامها، وأخذت تتأمّله، وهي تهمسُ قائلة: 'آه، أيها المسخ!'. لقد كانت مرعبة.

وفجأة أمسكت يديه، وقالت:

'يا غوينبلين، أنا العرش، وأنت المنصبة، فلنصبحْ على مستوى واحد. آه! أنا سعيدة، فها أنا قد سقطت. وأودّ أن يكون بمقدور كلّ العالم أن يعرف درجة الانحطاط التي وصلت إليها. ولعلّهم يسجدون لذلك أكثر، لأنه بقدر ما يزدادُ البغض، بقدر ما يزدادُ الزّحف. لقد خُلق الجنسُ البشريُّ هكذا. إنه عدائيّ، ولكنه زاحفٌ. وتنّينٌ ولكنه دودة. أوه! إنيّ فاسدة كالآلهة. ولا يمكن أبداً أن يُنتزَعَ مني ذلك لكوني ابنة ملك غير شرعيّة. إني أتصرّفُ كملكة. فماذا كانت رودوب (248)؟ إنها ملكةٌ قد أحبّت فتيح، الرّجل ذا رأس التّمساح. وقد بنت إكراماً له هرماً ثالثاً. وقد أحبّت بانتيسيليه القنطور الذي يُدعى ساجيتير، والذي هو كوكبةٌ نجميّة. وماذا تقول عن آنّا النمّساويّة؟ هل

كان مازاران قبيحاً بما يكفي! أنت لست قبيحاً، أنت مشوّه. إن القبيحَ صغير، أما المشوّهُ فعظيم. القبيحُ هو تكشيرةُ الشّيطان خلف الجميل. أمّا المشوّه فهو عكس السّامي، إنه الجهة الأخرى. إن للأولمب (موطن الآلهة). منحدرين: أحدهما في النور، يعطي أبولون، والآخر، في الليل يعطي بوليفيم(*).

أما أنت فجبّار. ولعلّك تكون بيهيموت (249) في الغابة، وليفياتان(**) في المحيط، وتيفون(***) في الماء الآسن. إنّك رفيعُ الشأن؛ ففي تشوّهِك، ثمةَ صاعقة. ولقد أفسدتَ وجهكَ قصفةُ رعد.

وما هو على وجهك هو الليُّ الحانقُ لقبضةِ اللهب الكبرى. لقد عجنتك، ومضت. إن الغضَب الواسعَ القاتم قد دبق روحكَ في هذه السّحنة المرعبة الفائقة على البشر، من خلالِ سورة غيظٍ شديد. إن الجحيم موقدٌ عقابي يُسخن عليه ذلك الميسمُ الأحمر الذي نسمّيه القَدر؛ إنك موسومٌ بهذا الميسم. فأن أحبكَ هو أن أفهم ما هو عظيم وقد حصلتُ على هذا الظّفر. فياله من سعيٍ جميلٍ أن أكون مغرمةً بأبولون! إنّ المجدَ يُقاسُ بالدّهشة. إني أحبك. لقد حلمتُ بك ليالي وليالي! وههنا قصرٌ لي. ولسوف ترى حدائقي. ثمة ينابيع تحت الأوراق، ومغائر يمكن أن نتبادل فيها القبل. ومجموعاتٌ رخاميّةٌ جميلة جدًا للنحّات لوكافالبية برنان. فهل قلتُ لك إن الملكة شقيقتي؟ فاصنع مني ما شاء. لقد خُلقتُ لكي يقبّل جوبيتر قدميّ، ولكي يبصقَ الشيطانُ في وجهي. وهل لك دين؟ أنا بابويّة. ووالدي جاك الثاني قد مات في فرنسا مع عددٍ كبير من اليسوعيّين إلى جانبه. ولم أشعر قطّ بما أحسّه بقربك! أوه! أودّ أن أكون معك في المساء، في حين يعزفون الموسيقا، وكلانا متكئان على الوسادة نفسها، تحت الوقاءات (250) الأرجوانية لسفينةِ حربٍ شراعيّة ذهبيّة، في وسطِ عذوبات البحر اللانهائية. فاشتمْني. واضربني. وتعرّضْ لي بالسوء. وعاملني وكأنني صنيعتك. إني أعشقكَ.

(*) هو اسم السّيكلوب الذي واجهه أوليس في ملحمة: "الأوديسّة" (م: ز.ع).

(**) مسخٌ في الأساطير الفينيقيّة، وقد ذكره الكتاب المقدس.

(***) إعصار مدمّر.

يمكن للمداعبات أن تزمجر. فهل تشكّون بذلك؟ فلتدخلوا على الأسود. كانت الفظاعةُ موجودةً لدى تلك المرأة، وتأتلف مع اللّطافة. وما من شيء أكثرَ مأسويةً من هذا. فقد كانٍ المرءُ يحسّ بالمخلب، وكان يحسُّ بالمخمل. إنه الهجومُ السّوريّ، المختلط بالتّراجع. لقد كان في ذلك الذّهاب والغياب لعبٌ وقتل. لقد كانت تعشقُ بوقاحة. والنتيجةُ هي الاختلالُ العقليّ المتفشّي. إنها لغةٌ قاتلة، وعنيفةٌ ورقيقةٌ على نحوٍ يتعذّرُ بيانه. إن ما كان يُهينُ لم يكن يهين. وما كان يعشقُ كان يُحقّرُ، وما كان يصفعُ كان يؤلّه. كانت لهجتها تطبعُ على كلماتها الغاضبة والمغرمة عظمةً بروميثيوسية غير محدّدة. إن احتفالاتِ الآلهة العظيمة، التي كان إسخيلوس ينشدها، كانت تعطي النسّاءَ الباحثاتِ عن السّتيرات الشّهوانية تحت النجوم، ذلك الهوسَ القاتمَ الملحميّ. كانتَ تلك النّوباتُ الشّديدةُ تعقّد ضروبَ الرّقصِ الغامضة تحت أغصان دودون[*]. وكأن تلك المرأة كانت قد تغيّرت هيئتها، إن كان ممكناً أن يتغيّر المرءُ من الجهةِ المعاكسةِ للسّماء.كان في شعرها ارتعاشاتٌ لُبدة، وكان فستانُها ينغلقُ من جديد، ثم ينفتح ثانية؛ فما من شيءٍ فاتن كذلك الثّدي المليء بصرخاتٍ وحشيّة، وكانت إشعاعاتُ عينها الزرقاء تختلط بالتماعاتِ عينها السّوداء، لقدْ كانت خارقةً للطبيعة. أما غوينبلين، الذي كان خائرَ القوى، فقد كان يحسُّ بأن التّوغّلَ العميقَ لمثل ذلك الاقتراب قد غلبه. وصاحت قائلة: "أحبُّك!.

وعضّته بقبلة.

كانت لدى هوميروس غيومٌ ربمّا ستصبح ضروريةً فوق غوينبلين وجوزيان، كما فوق جوبيتير وجونون. وبالنسبة لغوينبلين، كان شيئاً لذيذاً وصاعقاً أن تحبّه امرأةٌ تمتلك نظراً وتراه، وأن يكون على فمه المشوّه شدُّ شفتين إلهيّتين. كان يحسّ أمام تلك المرأة المفعمة بالألغاز بأن كلّ شيءٍ يتلاشى في نفسه. وكانت ذكرى ديا تتخبّطُ في تلك الظّلمة وهي تصرخُ صرخاتٍ صغيرة.

ثمّة نقيشةٌ قديمةٌ تمثّل أبا الهول وهو يلتهم إله حبّ، كانت أجنحةُ الكائنِ الرقيق السّماويّ تنزفُ دماً بين تلك الأسنان الضاريّة والمبتسمة.

(*) مدينة قديمة كان يُزعم أن أصوات الآلهة تصدر منها (م: ز.ع).

هل كان غوينبلين يحبُّ تلك المرأة؟ وهل للرّجل، كما للكوكب، قطبان؟ هل نحن، على محورنا الذي لا ينثني، الكرة الدّوارة، التي هي كوكبٌ من بعيد، وطينٌ من قريب، وحيث يتناوبُ النّهار والّليل؟ هل للقلب جانبان، فأحدُهما يحبُّ النّور، والآخر يحبّ الظّلمات؟ فهنا المرأة الشّعاعُ، وهناك المرأةُ الوحل. إن الملاكَ ضروريٌ. فهل يكون ممكناً أن يكون الشّيطان ضرورة أيضاً، هو كذلك؟ هل للروّح جناحُ خفّاش؟ وهل تدقّ ساعةُ الغسق للجميع بشكلٍ محتوم؟ وهل تشكّلُ الخطيئةُ جزءاً لا يتجزأ من مصيرنا الذي لا يمكن رفضُهُ؟ وهل يتوجّبُ، في طبيعتنا، أن يؤخذَ الشرُّ دفعةً واحدةً مع الباقي؟ وهل الخطيئةُ دينٌ يتوجّبُ دفعهُ؟ إنها ارتعاداتٌ عميقة.

مع ذلك، فإن صوتاً يقول لنا إن الضّعفَ جريمة؛ فما كان غوينبلين يحسُّ به لا يوصفُ. إنه الجسدُ، والحياةُ، والذعرُ، واللّذةُ، والنشوةُ المرهقة، وكلّ حجمِ الخزي الموجود في الغرور. هل سيسقط؟

وردّدت: 'أحبك!'

وبصورةٍ محمومة، ضمّته إلى صدرها.

وكان غوينبلين يلهث.

فجأة، اهتزّ قريباً منهما جرسٌ صغيرٌ شديدٌ وواضح. وكان ذلك هو النّاقوس المثبّت بالجدار والذي كان يرنّ. فأدارت الدّوقةُ رأسها، وقالت:

'ماذا تريدُ مني؟'

وبغتة، بصوتِ بابٍ قلاّبٍ ذي نابض، انفتحت المأطورةُ الفضيّةُ المغشّاةُ بإكليلٍ ملكيّ.

ظهر داخلُ صندوقٍ مفروشٌ بالمخمل الأزرقِ الأميريّ، مع رسالةٍ على صحنٍ ذهبيّ. كانت تلك الرسالةُ سميكةً ومربّعةً.وموضوعةً بحيث تُظهر الدّمغة التي كانت طبعةً على شمعٍ فضّي مذهّب. واستمرّ الجرسُ يدقّ.

كانت المأطورةُ المفتوحةُ تصلُ تقريباً إلى الكنبة التي كان يجلسُ عليها كلاهما.

أما الدّوقةُ، التي كانت منحنيةً، وتتمسّك بإحدى ذراعيها بعنق غوينبلين، فقد مدّت ذراعها الأخرى، وأخذت الرّسالة من على الصحّن، ودفعت المأطورة، فانغلق الصّندوقُ، وصمت الجرس.

كسرت الدّوقةُ الشّمعَ بين أصابعها، وفضّت الغلافَ، وسحبت منه الظّرفين اللذين كان يحتويهما، ورمت المغلّفَ إلى الأرض بين قدمي غوينبلين.

بقي ختمُ الشمعِ المكسور مقروءَ الرّموز، وأمكن لغوينبلين أن يميّز فيه تاجاً ملكيًّا، وتحته الحرف أ ' A'.

كان المغلّف الممزّقُ يبسطُ جانبيه بحيث كان بوسع المرء في الوقت نفسه أن يقرأ الإمضاء: إلى سمّوها الدّوقة جوزيان.

كان الظرفان اللذان يحتويهما المغلّف رقًّا، وورقاً قضيماً. كان الرّقُّ كبيراً، والورقُ القضيمُ صغيراً. وعلى الرّقّ كانت مطبوعةً دمغةُ المستشاريّة بهذا الشمع الأخضر المسمّى شمعُ السّيادة الإقطاعيّة. أما الدّوقةُ، المختلجةُ بكليّتها، والتي كانت عيناها غارقتين بالنّشوة، فقد كشّرت تكشيرةَ ضجرٍ غير محسوسة.

وقالت: 'ما الذي ترسلهُ إليّ هنا؟ أوراق قديمة! أيّةُ معكرِّةِ صفاءٍ هي هذه المرأة!'.

وإذْ تركت الرّقّ جانباً، فقد فتحت الورقَ القضيمَ جزئياً.

'إن هذا هو خطّها، هذا خطُّ أختي. إن ذلك يتعبُني. يا غوينبلين، سألتك إن كنت تحسنُ القراءةَ، هل تُحسنُ القراءة؟'

هزّ غوينبلين رأسه بالإيجاب.

تمدّدت على الكنبة، وكأنها امرأةٌ نائمةٌ تقريباً، وأخفت بعنايةٍ قدميها تحت فستانها، وذراعيها تحت كميّها، وبحشمةٍ غريبةٍ، تاركةً ثديها يظهر، ومغطيّةً غوينبلين بنظرةٍ مشغوفة، ومدّت الورقَ القضيم إليه، وقالت:

'حسناً، يا غوينبلين، أنت لي. فابدأ خدمتك. يا حبيبي، اقرأ لي ما تكتبُه إليّ الملكة'.

أمسك غوينبلين بالورق القضيم، وفضّ المغلّف، وبصوتٍ كانت فيه كلُّ ضروبِ الارتجاف، راح يقرأ قائلاً:

"سيّدتي،

نرسل إليك بلطفٍ النّسخةَ المرفقة لمحضرٍ، مصدّقٍ وموقّعٌ من خادمنا وليام كوبر، اللّورد المستشار لمملكة إنكلترا هذه، والذي ينتجُ عنه هذا الظّرفُ الخطيرُ الذي مفاده أن الابن الشرّعيّ للورد لينيوس كلانشارلي قد جرى التحقّقُ منه، والعثورُ عليه تحت اسم غوينبلين، في حالةٍ زريّةٍ لمعيشة متجوّلة ومتشرّدة، وبين مشعبذين وبهلوانات. إن هذا الإلغاءَ لوضعه يرجعُ إلى سنّ حداثته. وبناء على قوانين المملكة، وبمقتضى حقّه الوراثي، فإن اللورد فيرمان كلانشارلي، ابن اللورد لينيوس، سوف يُقبل، في هذا اليوم بالذات، ويعادُ إلى منصبه في مجلس اللّوردات. ولهذا السّبب، فإننا إذْ نرغبُ في أن نُحسن معاملتكِ. وأن نحفظ لكِ انتقالَ ثرواتٍ وأملاك أسرة اللّورد كلانشارلي هنكرفيل، ونُحلُّه في رعايتكِ محلَّ اللورد دافيد ديّري - موار. لقد عملنا على إحضار اللّورد فيرمان إلى قصر ضيافتكِ في كورليون - لودج.

وإننا نأمرُ ونريد، باعتبارنا ملكة وشقيقة، أن يكون المدعوّ فيرمان كلانشارلي، المسمّي حتى الآن بغوينبلين، أن يكون زوجَكِ، ولسوف تتزوّجين به، وهذه هي رغبتنا الملكيّة".

في حين كان غوينبلين يقرأ، بنبراتٍ تهتزّ عند كلّ كلمةٍ تقريباً، كانت الدّوقةُ، التي نهضت عن وسادةِ الكنبة، تصغي، وعينُها محدّقةٌ. وحين انتهى غوينبلين، انتزعت منه الرّسالة.

وقالت، وهي تقرأ التوقيع بنبرةٍ حالمة:

"آنّا، الملكة"

ثم التقطت عن الأرض الرّقّ الذي كانت قد رمته، وأجالت نظرها فيه. كان ذلك هو تصريح غرقى سفينة الماتوتينا، المنسوخ على محضرٍ موقّعٍ من عمدة ساوثويرك، ومن اللوّرد المستشار.

ما إن قرأت المحضر، حتى أعادت قراءةَ رسالةِ الملكة، ثم قالت:

"فليكن"

وإذْ أشارت لغوينبلين بحركة من إصبعها نحو سجف الرّواق الذي أتى منه، محافظة على هدوئها، فقد قالت له: "أخرجْ"

مكث غوينبلين الذي أصابه الذّهولُ بلا حراك.

فردّت ببرود جليديّ:

"بما أنك زوجي، فلتخرجْ".

أما غوينبلين الذي كان ساكناً فلم يكن يتحرّك، وقد أخفض عينيه وكأنه مذنب.

وأضافت تقول:

"لا يحقّ لك أن تكون هنا، فهذا هو مكانُ عشيقي.

أصبح غوينبلين وكأنه مسمّرٌ في مكانه.

وقالت:

"حسناً، سأكون أنا التي أذهب. آه! أنت زوجي! لا شيء أحسن من هذا! إنيّ أكرهُك."

وإذْ نهضت، وألقت في الفضاء بحركة وداعٍ متعجرفةٍ لشخصٍ غير محدّد، فقد خرجت.

وانغلق سَجِفُ الرّواق وراءها ثانية.

V
يتمّ التّعرّف
ولا تجري المعرفة

بقي غوينبلين بمفرده.

بقي بمفرده أمام تلك المقصورة الفاترة، وذلك السّرير غير المرتّب.

كان تَفتّتُ الأفكار في ذهنه على أوجه. ولم يكن ما يفكرّ فيه يشبهُ التّفكير. كان ذلك تناثُراً، وتبعثُراً، وكان ذلك هو القلق حين يكون المرءُ في المبهم.

كان في نفسه شيءٌ أشبه ما يكون بالهروب من حلم.

إن الدّخولَ إلى العوالم المجهولة ليس أمراً سهلاً.

اعتباراً من رسالةِ الدّوقة التي حملها البحّارُ الحَدثُ، كانت قد بدأت سلسلةٌ من السّاعات المدهشة بالنسبة لغوينبلين، والتي أخذت تصبحُ مفهومةً على نحوٍ متناقص. فحتّى تلك اللحظة، كان في نطاق الحلم، غير أنه كان يبصرُ فيها طريقةً بوضوح. أما الآن، فقد كان يتلمّسُه تلمُّساً.

لم يكن يفكر، ولم يعد يحلم حتى. كان يعاني.

بقي جالساً على الكنبة، في الموضع الذي كانت الدّوقةُ قد تركته فيه.

فجأة، سُمع في تلك العتمة صوتُ أقدام. وكانت خطى رجل. وكانت تلك الخطى تأتي من الجهة المعاكسة للرّواق الذي أخرجت منه الدّوقة. كانت تقترب، وكانت مسموعةً بشكلٍ مكتوم، ولكن بوضوح. أما غوينبلين، فأيّاً كان انشغالُه، فقد أصاخ السّمع.

بغتةً، وفيما وراء ستارةِ النّسيج الفضّي التي كانت الدّوقة قد تركتها مشقوقةً، خلف السّرير، انفتح البابُ الذي كان من اليسير أن يشكَّ المرء بوجوده تحت المرآة المدهونة، انفتح على عرضه، وألقى صوتٌ ذكوريٌّ وفرحٌ، يغنّي بملء حنجرته، ألقى في الغرفة ذات المرايا هذه اللاّزمة لأغنيةٍ فرنسيّة قديمة:

ثلاثة خنّوصات صغيرة على مزبلتها

كانت تصيحُ مثل حاملي الكراسي

دخل رجل.

وكان ذلك الرّجل يحمل سيفاً على جنبه، وبيده قبعّةٌ ذات ريش، ولها بريمٌ وشعار، وكان يرتدي رداءً بحرياً رائعاً، ومزيّناً بشرائط.

انتصب غوينبلين وكأن نابضاً قد جعله يقف.

تعرّف ذلك الرّجلَ، وقد تعرَّفَهُ ذلك الرّجلُ.

ومن فميهما المهولين أفلتت في الوقت نفسه هذه الصّرخةُ المزدوجةُ:

"غوينبلين!

- توم - جيم - جاك!"

سار الرّجل ذو القبعة المزينة بالرّيش باتّجاه غوينبلين الذي تكتّف، وقال:

"لمَ أنت هنا، يا غوينبلين؟

- وأنت، يا توم - جيم - جاك، كيف تأتي إلى هنا؟

- آه! إني أفهم الأمر. إنها جوزيان! إحدى النزوات. إن بهلواناً هو مسخٌ هو على درجةٍ فائقةٍ من الجمال بحيث لا يمكن مقاومته. لقد تنكرّت لكي تأتي إلى هنا يا غوينبلين.

- وأنت أيضاً، يا توم، - جيم - جاك.

- يا غوينبلين ما معنى لباسِ السّيد الإقطاعي هذا؟

– يا توم – جيم – جاك، ما معنى لباس الضّابط هذا؟

– يا غوينبلين، أنا لا أجيبُ على الأسئلة.

– ولا أنا، يا توم – جيم – جاك.

– يا غوينبلين – أنا لا أُدعى توم – جيم – جاك.

– يا توم – جيم – جاك، أنا لا أُدعى غوينبلين.

– يا غوينبلين، أنا هنا في منزلي.

– أنا هنا في منزلي، يا توم – جيم – جاك.

– أمنعُك من أن تردّد كلامي. إن لديك السُّخرية، أما أنا فلديّ العصا.

فدعْ محاكياتك السّاخرة، أيّها المضحك البائس.

غدا غوينبلين شاحبَ الوجه، فقال:

"إنمّا أنت المضحك! ولسوف تقدّم لي تسويغاً لهذه الإهانة.

– في كوخك الحقير، بقدر ما تشاء. وباللّكمات.

– هنا، وبضربات السّيف.

– أيّها الصّديق غوينبلين، إن السّيفَ هو شأنٌ من شؤون النبلاء. وأنا لا أقاتلُ إلاّ أقراني. إننا متساويان أمام القبضة، وغير متساويين أمام السّيف. وفي نزل تادكاستر، يمكن لتوم – جيم – جاك أن يلاكم غوينبلين"

وفي ويندسور، الأمرُ مختلف. ولتعلمْ ما يلي: إنني عميدٌ بحريّ.

– وأنا أحدُ لورداتِ إنكلترا ".

فقهقه الرّجلُ الذي كان غوينبلين يرى فيه توم – جيم – جاك، وقال:

"ولماذا لست ملكاً؟ إنك على حقّ، في حقيقة الأمر. إن فالمشعبذُ يلعبُ كلّ أدواره. قلْ لي إنك تيسيوس، دوق أثينا.

– إني أحد لوردات إنكلترا، ولسوف نتقاتل.

– يا غوينبلين، لقد طال الأمر. فلا تلعب مع شخصٍ يمكنه أن يجعلك تُجلَد.

إني أُدعى اللوّرد دافيد ديرّي – موار.

– وأنا أدعى اللّورد كلانشارلي.'

فقهقه اللّورد دافيد مرّةً ثانية، وقال:

'إنها فكرةٌ موفّقةٌ تماماً أن يكون غوينبلين هو اللورد كلانشارلي. وهذا في الحقيقة هو الاسم الذي ينبغي أن يكون للمرء لي كي يحصل على جوزيان. اسمعْ. إني أسامحك. وهل تدري لماذا؟ هذا لأننا عشيقاها.'

انفرج سِجفُ الرّواق، وقال صوت:

– أنتما الزّوجان، أيها السّيدان.

فاستدار كلاهما.

وهتف اللورد دافيد:

'باركيلفيدروّ!'

كان ذلك باركيلفيدرو في حقيقة الأمر.

وكان يحيّي اللّوردين بانحناءٍ وهو يبتسم.

وراءه، وعلى بُعدِ بضعِ خطوات، كان المرءُ يلمحُ نبيلاً ذا وجهٍ موقرٌ وهو يحملُ بيده عصا سوداء.

تقدّم ذلك النبيل، وانحنى ثلاث مرّات لغوينبلين، وقال له:

'يا ميلورد، إني المحضرُ ذو القضيب الأسود. وقد أتيت في طلب سيادتك، بناءً على أوامر جلالتها'.

الكتاب الثامن

الكابيتول

وجواره (251)

I

تشريح

الأشياء الجليلة

إن الصّعودَ المرعبَ الذي كان يُنوّع إبهاراته لغوينبلين، منذ ساعاتٍ عديدة، والذي حمله إلى وندسور، قد حمله إلى لندن.

تتابعت الوقائعُ الرّؤيويّةُ أمامه دون انقطاع.

ما من سبيلٍ إلى التملّص منها، وحين كانت واقعةٌ منها تتركُه، كانت الأخرى تستولي عليه.

لم يكن لديه متّسعٌ من الوقت ليتنفّس.

إن من شاهد مشعبذاً قد شاهد القدر. وهذه القذائف السّاقطة، والتي تصعد وتهبط، هي الناس في يد القدر.

إنّها قذائفُ ودمى.

في مساء ذلك اليوم نفسه، كان غوينبلين في مكانٍ خارقٍ للمعتاد.

كان جالساً على مقعد مزخرف بزهر الزّنبق. وكان يرتدي فوق ملابسه الحريريّة رداءاً مخملياً أرجوانياً مبّطناً بالتّفتة البيضاء، إضافة إلى كتّونةٍ (252) من فروِ القاقم، وعلى كتفيه شريطيتين من فرو القاقم مطرّزتين بالذّهب.

كان حوله رجالٌ من كلّ الأعمار، شبانٌ وشيوخٌ جالسون مثله على زهور الزّنبق، ويرتدون مثله فرو القاقم، والأُرجوان.

كان يلاحظُ أمامه، رجالاً آخرين جاثين. وكان هؤلاء الرّجال يرتدون ملابسَ حريريّة سوداء. وكان بعضُ هؤلاء الرّجال جاثين وهم يكتبون.

كان يلاحظ، قبالته، وعلى مسافة معينة، درجات سلمٍ، ومنصةً، وسرادقاً، وشعارَ شرفٍ عريضاً يلتمعُ بين أسدٍ وقارن(*)، وتحت ذلك السّرداق، وعلى ارتفاع تلك الدّرجات، مقعداً مريحاً مُذهّباً ومكلّلاً.

كان ذلك عرشاً.

إنه عرشُ بريطانيا.

كان غوينبلين بما أنه لوردٌ هو أيضاً، في مجلس لوردات إنكلترا.

فبأيّةِ وسيلةٍ جرى هذا الإدخال لغوينبلين إلى مجلس اللوردات؟ لنقلْ ذلك.

كان النهارُ بطوله، من الصبّاح حتى المساء، ومن ويندسور حتى لندن، ومن كورليون – لودج حتى ويستمنستر – هول، كان صعوداً من درجةٍ إلى درجة، وعند كلّ درجة، كان هناك انذهالٌ جديد.

كان قد اصطُحبَ من ويندسور في عربات الملكة، مع مرافقةٍ مستحقّة لعضوٍ في مجلسِ الأعيان. إن حرسَ التشريفات يشبه كثيراً الحرسَ الذي يحرس.

في ذلك اليوم، رأى السّكان المحاذون للطريّق من ويندسور إلى لندن موكبَ فرسانٍ نبلاء مكلّفين بمهمةٍ من جلالة الملكة يعدون على خيولهم، وهم يُرافقون عربتَين باذختَين بواسطة النقل الملكي. في العربة الأولى، كان يجلس ضابطُ مأمورِ العصا السوداء، وكُفّره(**) بيده. وفي العربة الثانية، كان المرء يميّز قبعةً عريضةً ذات ريشٍ أبيض تعطي بالظلّ وجهاً لم يكن مرئياً. فمن الذي كان يمرّ من هناك؟ هل كان أميراً؟ هل كان سجيناً؟

لقد كان غوينبلين.

كانت تبدو عليه هيئةُ شخصٍ يجري اقتيادُه إلى برجِ لندن، إلاّ إذا كان شخصاً يجري إيصالهُ إلى مجلس الأعيان.

(*) حيوان أسطوريٌّ بجسم حصان، كان الأقدمون يضعون له قرناً. (م: ز.ع).

(**) الكفرُ هو العصا القصيرة. (م: ز.ع).

كانت الملكةُ قد أحسنت ترتيب الأمور، وبما أنّ المسألة تتعلّقُ بزوجِ شقيقتها المقبل، فقد أعطت مرافقةً تعملُ في إطارِ خدمتها الخاصّة.

كان ضابطُ مأمور العصا السّوداء يمتطي جواداً على رأس الموكب.

وكان لمأمورِ العصا السّوداء في كرسيّه القائمة على مقعدٍ متحرك، وسادةٌ من الجوخ الفضيّ. وعلى تلك الوسادة كانت قد وُضعت حقيبةٌ سوداء مدموغةٌ بالتاج الملكي.

توقفت العربتان ومرافقتهما في برنتفورد، وهي آخر محطةِ أبدالٍ قبل لندن.

كانت هناك عربةٌ فاخرةٌ من قشرِ الخشب مكدونةٌ بأربعة خيولٍ تنتظر، مع أربعة خدم وراءها، وحوذيين مساعدين أمامها، وحوذي بشعرٍ مستعار. أما العجلات، والمرقايات، وحجراتُ السّلم، ومجرّ العجلة، وكلّ قافلةِ هذه العربة الفاخرة فكانت مذهّبة.

أما الخيول فقد كانت مسرجةً بالفضّة.

كانت عربةُ الخيل الاحتفالية ذات تصميم راقٍ ومذهل، وكان يمكن أن يرد بشكلٍ رائعٍ بين العرباتِ الفاخرة الشهيرة الإحدى والخمسين والتي ترك لنا روبو صوراً لها (253).

ترجّل مأمورُ العصا السّوداء، وكذلك ضابطُه.

سحب ضابطُ المأمور من مقعدِ عربةِ البريد المتحرك وسادةَ الجوخ الفضيّة التي كانت حقيبة التاج موضوعةً عليها، وحملها بين يديه، ومكث واقفاً خلف المأمور.

فتح مأمورُ العصا السوداء بابَ العربة الفاخرة التي كانت خالية، ثم باب العربة التي كان غوينبلين فيها، ودعا غوينبلين باحترام، وهو يخفض عينيه، ليأخذ مكانه في العربة الفاخرة.

نزل غوينبلين من العربة، وصعدَ إلى العربة الفاخرة.

دخل المأمورُ حاملاً العصا، والضّابطُ الذي يحملُ الوسادة بعده، وشغلا فيها المقعدَ المنخفضَ المخصّصَ للغلمان في عربات الاحتفالات.

كانت العربةُ الفاخرة مبّطنةً من الدّاخل بالسّاتان الأبيض المجهّزِ بتغليفِ بينوش الذي يحتوي رؤوساً وشرّاباتٍ فضية. وكان السّقفُ مزيّناً بالشعارات.

كان الحوذيان المساعدان، حوذيّا العربتين اللتين تركناهما للتوّ يرتديان سترةَ المحاربين الملكيّة. أما الحوذّي والحوذيان المساعدان وخدمُ العربة الفاخرة التي جرى الدّخول إليها فكانوا يرتدون خلعةً أخرى رائعةً جداً.

أما غوينبلين، من خلالِ حالةِ الدّوام التي كان فيها، فقد كان كالمضنى؛ وقد لاحظ جماعةَ الخدم المزهوّة هذه، وسأل مأمور العصا السّوداء:

'ما هذه الخلعة؟'

فأجاب مأمورُ العصا السّوداء قائلاً:

'خلعتك، يا ميلورد'.

في ذلك اليوم، كان يتعيّن على مجلسِ الأعيان أن ينعقد مساءً.

(254) Curia erat serena. كما تقول المحاضرُ القديمة. إن الحياةَ البرلمانية، في إنكلترا، ليليّة. ونحن نعلم أنه قد حدث لشيريدان(*)، ذات مرّة، أن بدأ عند منتصف الليل خطاباً وأن أنهاه عند شروق الشمّس.

عادت عربتا البريد خاليتين إلى وندسور، وتوجّهت العربةُ الفاخرةُ التي كان غوينبلين فيها نحو لندن.

أما عربةُ قشرِ الخشب الفاخرة ذات الخيول الأربعة، فقد مضت بخطوةٍ وئيدةٍ من برينتفورد إلى لندن. إنّ وقارَ شعرِ الحوذيّ المستعار كان يقتضي ذلك.

تحت سحنةِ ذلك الحوذيّ الارستاميّة، أخذ التقليدُ الاحتفاليُّ يسيطرُ على غوينبلين.

(*) أديب وسياسي انكليزي (١٧٥١ - ١٨١٦).

كانت تلك التأخيراتُ، فضلاً عن ذلك، محسوبةً، على الأرجح. ولسوف نرى، فيما بعد، سببها المحتمل.

لم يكن الليلُ قد حلّ بعد، إنما كان ينبغي الانتظارُ قليلاً عندما توقّفت عربةُ قشرِ الخشبِ الفاخرة أمام كنغز غيت (بوابة الملك)، وهي بابٌ ثقيل مخفضٌ بين بُريجين يتّصلان من وايت هول إلى ويسمنستر.

تجمهرَ موكبُ الفرسانِ النّبلاء المكلّفين بمهماتٍ حول العربة الفاخرة.

وثبَ أحدُ خدمِ مقصورةِ الخلف على الأرضيّة، وفتح الباب.

أما مأمورُ العصا السّوداء، الذي يتبعه ضابطهُ الذي يحملُ الوسادةَ، فقد خرج من العربة الفاخرة، وقال لغوينبلين:

"يا ميلورد، تفضّل بالنزول. ولتحتفظْ سيادتُك بقبعتها على رأسها."

كان غوينبلين يلبسُ، تحتَ معطف سفره، رداءً حريريّاً لم يكن قد خلعه منذ اليوم السّابق. ولم يكن لديه سيف.

لقد ترك معطفَه في العربةِ الفاخرة.

تحت قبّة العربات، قبة كنغز غيت، كان هناك بابٌ جانبي صغير جرت تعليتُه ببضع درجات.

يتمثّل الاحترامُ في السّبق، في أمور الأبّهة.

لقد كان مأمورُ العصا السّوداء يسيرُ في المقدمة، ووراءه ضابطُه، وكان غوينبلين يتبعُهما.

صعدوا الدّرج، ودخلوا تحت الباب الجانبي.

بعد بضع لحظات، كانوا في غرفة دائرية وعريضة، وفي وسطها دعامة، هي سافلةُ بُريج، وقاعةُ قبو، تنيرُها أقواسٌ قوطيّة ضيّقة وكأنها أقواسٌ محربّة لصدر كنيسة، ولا بُد أن تكون معتمةً حتى في عزّ الظهيرة. إن القليلَ من الضوء يسهمُ أحياناً في الجوّ الاحتفاليّ. إن المعتمَ جليلٌ.

في تلك الغرفة، كان ثلاثة عشر رجلاً يقفون. ثلاثة في الأمام، وستة في الصفّ الثاني، وأربعة في الخلف.

كان واحدٌ من الرّجال الثّلاثة يرتدي بدلةً من المخمل القرمزيّ، ويرتدي الرّجلان الآخران، بذلة عقيقيّةً أيضاً، ولكنها من السّاتان، وكان ثلاثتُهم يتنكبّون أسلحة إنكلترا الموشّاة.

أما رّجالُ الصفّ الثاني السّتة فكانوا يرتدون سترات خاصة بالأباطرة ومن نسيجٍ متموّجٍ أبيض، وكلّ واحدٍ منهم يضعُ شعاراً مختلفاً على صدره.

أما الرّجالُ الآخرون الأربعة، الذين يرتدون لباساً متموّجاً أسود، فكانوا متميّزين بعضهم عن البعض الآخر، فأوّلهم من خلال دثارٍ أزرق، والثاني من خلالِ صورةِ القديس جاورجيوس الأرجوانية على البطن، والثالث من خلال صليبين قرمزيّين على صدره وعلى ظهره، والرابع من خلال ياقةٍ من الفراء الأسود تسمّى بجلد السّابليّن (255)، وكانوا جميعاً يعتمرون شعراً مستعاراً، وهم حاسرو الرأس، ويحملون سيفاً على جنبهم.

كان المرءُ لا يكادُ يميّزُ وجوههم في الظّليل. ولم يكن بمقدورهم أن يروا وجه غوينبلين.

رفع مأمورُ العصا السّوداء كفّره وقال:

"أيّها الميلورد فيرمان كلانشارلي، بارون كلانشارلي وهنكرفيل، أنا مأمورُ العصا السوداء، والضّابطُ الأوّل في غرفة المثول، أعهدُ بسيادتك إلى جارّوتير، مسؤولِ أسلحة إنكلترا."

حيّا الشّخصُ ذو البذلة المخمليّة غوينبلين بانحناءٍ حتى الأرض، تاركاً الآخرين وراءه، وقال:

"أيها الميلورد فيرمان كلانشارلي، أنا جارّوتيير، المسؤول الأوّل عن أسلحة إنكلترا. أنا الضّابط الذي نصبّه، وتوّجه سمو الدّوق دونورفولك، الكونت – الماريشال بالوراثة. لقد أقسمتُ يمينَ الطّاعة للملك، وللأعيانِ، ولفرسانِ لاجاروتيير. وفي يومِ تتويجي الذي سكبَ الكونت – ماريشال إنكلترا طاساً من النبيذ على رأسي فيه، وعدتُ بشكلٍ احتفالي أن أكونَ شبهَ رسميّ مع النبلاء، وأن أتجنّب صحبة الأشخاص السّيئيي السّمعة، وأن أعذر ذوي المنزلة الرّفيعة بدلاً من أن ألومهم، وأن أساعدَ الأراملَ والعذارى. فأنا

المكلّفُ بتنظيم طقوسِ محافلِ دفنِ الأعيان، ومن يُعنى بشعاراتهم وحراستها. وإني أضعُ نفسي تحت أوامر سيادتكم".

إن أحد هذين الرّجلين الآخرين اللذين يرتديان لباساً مزرّداً من الساتان قد قام بانحناءة، وقال:

"أيّها الميلورد، أنا كلارانس، المسؤول الثاني عن أسلحة إنكلترا. أنا الضّابط الذي ينظمّ دفنَ النبلاء الذي هم أخفضُ منزلة من اللوردات. وأنا أضعُ نفسي تحت أوامر سيادتكم".

حيّا الرّجلُ الآخرُ ذو اللباس المزرّد السّاتاني، وقال:

"أيها الميلورد، أنا نوروا، المسؤول الثالث عن أسلحةِ إنكلترا، وأضعُ نفسي تحت أوامر سيادتكم"

أمّا الرّجالُ الستّةُ في الصف الثاني والذين كانوا لا يتحرّكون، فقد تقدمّوا خطوةَ، من دون أن يؤدّوا التّحيّة.

قال الأول منهم الذي كان على يمين غوينبلين:

"أيّها الميلورد، نحن الأدواق الستّة لأسلحة إنكلترا. أنا يورك".

ثم تكلم كلّ واحدٍ من نذُرِ الحرب وأدواق الأسلحة بدوره، وسمّى نفسه:

- أنا لانكاستر.

- أنا ريشمون.

- أنا شيستر.

- أنا سوميرست.

- أنا ويندسور.

كانت شعاراتُ النُسب التي يضعونها على صدورهم هي شعاراتُ الكونتيّات والمدن التي يحملون أسماءها.

أما الأربعةُ الذين كانوا يرتدون ملابسَ سوداء، خلفَ نُذُر الحرب، فقد كانوا يلتزمون الصّمت.

دلّ مسؤولُ الأسلحةِ جارّوتيير غوينبلين عليهم بإصبعه قائلاً:

"أيها الميلورد، هؤلاء هم تابعو المنادي الحربي. مانتو - بلو."

أدى الرّجل ذو الدّثار الأزرق التّحيّةَ برأسه، وقال:

"دراغون - روج".

وأدّى الرّجل الذي يضع شعارَ القديس جاروجيوس التحيّةَ وقال:

"روج - كروا"

وأدّى الرّجل ذو الصّلبان الأرجوانية التحيّة، وقال:

"بورت - كوليس"

وأدى الرّجل ذو فراء الزّيبلين (سمّور سيبيريا) التّحيّة.

وبإشارةٍ من مسؤول الأسلحة، تقدّم أولُ تابعي المنادي الحربي، مانتو - بلو، وأخذ من يديّ ضابطِ المأمور وسادةَ الجوخ الفضيّ والحقيبة ذات التّاج.

وقال مأمورُ العصا السّوداء:

"فليكنْ. إني أسلمُ سيادته إليك يا صاحب التبجيل."

كانت ممارساتُ اللياقة هذه وغيرها التي ستليها هي المراسيم الاحتفاليّة القديمة التي سبقت هنري الثّامن، والتي حاولت آنّا، لزمنٍ معين، أن تحييها مجدّداً.

لم يعدْ يجري شيء من كلّ هذا اليوم. ومع ذلك، فإن مجلس اللّوردات يظنّ أنه ثابتٌ لا يتغيّر؛ فإذا كان الممعنُ في القدم موجوداً في مكانٍ ما، فهو هناك.

إنه يتغير مع ذلك E pur simuove (*).

فما الذي صارَ عليه: May pole، صاري أيار هذا الذي كانت تغرزُه مدينةُ لندن على معبرِ الأعيان الذي يمتدّ إلى البرلمان؟ إن الصّاري الأخير

(*) ومع ذلك فهي تدور: جملة لغاليله بعد محاكمته عن دوران الأرض (م: ز.ع).

الذي ظهر قد نُصِب في عام ١٧١٣. ومنذ ذلك الحين، اختفى الـ'May pole' لقد أُبطل.

إن المظهرَ هو عدمُ الحركة؛ والواقعُ هو التغيّر. وهكذا، فلتأخذوا هذا العنوان: ألبيمارل. إنه يبدو أبدياً. فتحت هذا اللّقب قد مرّت ستُّ أسر هي: أودو، وماندفيل، وبيتون، وبلانتاجونية، وبوشان، ومونك. وتحت هذا اللّقب: لسيستر، تعاقبت خمسةُ أسماء مختلفة هي: بومون، وبريوز، ودادلي، وسيدني، وكوك، وتحت لقب لينكولن، ستة. وتحت لقبِ بيمبروك، سبعة إلخ. إن الأسر تغيّر تحت الألقاب ما لا يتحرّك. والمؤرّخُ السّطحي يؤمن بالثبات. وفي الواقع، ما من ديمومةٍ لشيء. ولا يمكن للإنسان إلاّ أن يكون موجة. فالموجُ هو البشريّة.

إن الأرستقراطيين يغترّون بما تجده النساء إذلالاً وهو الشّيخوخة؛ غير أنه لدى النّساء والأرستقراطيين الوهم نفسة وهو: المحافظة على النفس.

من المحتمل ألاّ يتعرّف مجلسُ اللوّردات نفسَه في ما قرأناه للتوّ وما سوف نقرؤه، إلى حدّ ما، كالمرأة الجميلة قديماً، والتي لا تريدُ أن تصابَ بالتجاعيد. والمرآة هي متهمةٌ قديمة، فتذعنُ لها.

أن يحقق التاريخ المشابهة، إن في ذلك يكمن كلُّ واجبه.

توجّه مسؤولُ الأسلحة إلى غوينبلين قائلاً:

- تفضّل بأن تتبعني، أيها الميلورد'.

وأضاف:

'سوف يحيّونك، ولسوف ترفعُ فقط حافّة قبعتك'.

وتوجهوا بمواكبٍ نحو بابٍ يقعُ في صدرِ قاعةٍ مستديرة.

كان مأمورُ العصا السّوداء يفتحُ المرقاة.

وأتى بعده، مانتو - بلو، حاملاً الوسادة، ثم مسؤولُ الأسلحة، وخلف مسؤولِ الأسلحة، كان هناك غوينبلين الذي يعتمر قبّعته.

مكث بقيةُ مسؤولي الأسلحة، ونذيرا الحرب، وتابعو منادي الحرب، في القاعة المستديرة.

أما غوينبلين الذي يسبقُه مأمورُ العصا السّوداء، وتحت قيادةِ، مسؤول الأسلحة، فقد سلك من قاعةٍ إلى قاعةٍ مساراً قد يتعذّر اليوم العثورُ عليه، لأنَّ المقرَّ القديم لبرلمان إنكلترا قد هُدم.

اجتاز في عدادِ غرفٍ أخرى، تلك الغرفةَ القوطيّةَ الحكومية التي كان قد جرى فيها اللّقاءُ السّامي بين جاك الثاني ومونموث، والتي شهدت الرّكوعَ الذي لا طائل منه لابنِ الأخِ الجبان أمام العمِّ الشرسّ. وكان حول تلك الغرفة، قد جرى صفُّ تسعةِ شعارات نسبٍ بالطول الكامل لأعيان سابقين، على الجدار، حسب ترتيبِ تواريخهم، ومعَ أسمائهم وشعارات نسبهم. وهم: اللورد نانسلادرون، ١٣٠٥، واللورد باليول، ١٣٠٦، واللورد مونتبيرغون، ١٣٥٧، واللورد تيبوتو،١٣٧٢، واللورد زوك أوف كوندور، ١٦٥٠، واللورد بيلاّ - أكوا، بلا تاريخ. واللورد هارين أندسوريّ، كونت بلوا، بلا تاريخ.

حين حلّ الظّلام، كانت هناك مصابيحُ من مسافةٍ إلى أخرى في الأروقة. وثريّاتٌ نحاسيةٌ ذات شموع كانت مضاءةً في القاعات التي كانت منارةً تقريباً مثل أروقةٍ جانبيةٍ لكنيسة.

لم يكن المرءُ يلتقي فيها إلاّ شخصيّات ضرورية.

في الغرفة التي اجتازها الموكبُ. كان يقفُ كتبةُ الدّلاّلةِ الأربعة، وكاتبُ أوراقِ الدّولة، ورؤوسُهم منحنيةٌ باحترام.

وفي غرفةٍ أخرى، كان هناك المبجّل فيليب سيدينهام، الفارسُ المتقدّم، وسيّد بريمبتون في سوميرست. إن الفارس المتقدّم هو الفارس الذي يعلنُه الملكُ في الحرب تحت الرّايةِ الملكيّة المبسوطة.

وفي غرفةٍ أخرى، كان هناك أقدم بارونيت في إنكلترا، وهو السّير إدموند باكون دوسوفولك، وريث السّير نيكولاس والذي يوصفُ بأنه Primus baronetorum Anglia (البارونيت الأول لإنكلترا). وكان يسيرُ وراء السّير إدموند قوّاسُه الذي يحمل قربينته، وحاملُ عتاده الذي يحمل أسلحةَ أولسيتر، لأن البارونتات هم المدافعون بالولادة عن كونتيّة أولسيتر في ايرلندا.

وفي غرفةٍ أخرى، كان هناك وزير الماليّة الذي يرافقُه رؤساءُ محاسبته الأربعة، ومندوباً اللّورد حاجب الملك المكلّفون بفرضِ الضرائب. إضافةً إلى محاسب الأموال الذي يحملُ في يده المفتوحة ليرةً إسترلينيّة مصنوعة، بالدّوارة، كما هو أمرٌ معمولٌ به في الجنيهات. لقد قدّمت هذه الشخصيات الثماني تحيّة التبجيل للّورد الجديد.

عند مدخل المعبر المفروش بحصير، والذي كان الاتصالَ بين الغرفة المنخفضة والغرفة العالية، قدّم التحيّة لغوينبلين السيّر توماس ما نسيل دومارغام، مراقبُ منزلِ الملكة، وعضوُ البرلمان عن غلامورغان، وعند مخرجه، حيّاهُ وفدٌ من "واحدٌ من أصل اثنين" من بارونات الموانئ الخمسة (سان – بور) مصطفّون على يمينه وعلى شماله، أربعة فأربعة، فقد كان سان – بور مؤلفاً من ثمانية. وقد حيّاه وليام أشبورنام عن هاستينغز، وماتيو إيلمور عن دوفر، وجوزياس بورشيت عن ساندويش، والسّير فيليب بوتيلر عن هاييث، وجون بريوور عن نيورومي، وإدوارد ساوتويل عن مدينة راي، وميس هاييس عن مدينة وينكيلسيا، وجورج نيلر عن مدينة سيفورد.

وإذْ كان غوينبلين بصدد ردّ التحية، فقد ذكرّه مسؤولُ الأسلحة بصوتٍ منخفضٍ بالطقسِ الرّسميّ قائلاً:

"فقط حافّة القبعة، يا ميلورد"

ففعل غوينبلين مثلما أُشير إليه.

وصل إلى الغرفة المدهونة، والتي لم يكن فيها رسمٌ، اللّهم إلاّ بعض صور القدّيسين، والقديس إدوار في عدادِ صور أخرى، تحت تحدّبات النّوافذ الطّويلة المقوسّة التي تقطعها الأرضيّة إلى قسمين، وتشغل ويستمنستر أسفلها، والغرفةُ المدهونة أعلاها.

وفيما قبل الحاجز الخشبّي الذي كان يجتازُ من جهةٍ لأخرى الغرفةَ المدهونةَ، كان يقفُ أمناءُ سّر الدولة الثلاثة، وهم رجالٌ منْ ذوي الاعتبار. كان الأوّلُ من هؤلاء الضبّاط ذا صلاحيّات في جنوبِ إنكلترا، وإيرلندا والمستعمرات، إضافةً إلى فرنسا، وسويسرا، وإيطاليا، وإسبانيا، والبرتغال

وتركيا. وكان الثاني يديرُ شمالي إنكلترا، إضافة إلى رقابةٍ على هولندا، وألمانيا، والدّانمرك، والسّويد، وبولونيا، وموسكوفيا. أما الثّالثُ الإيقوسيّ (الإسكوتلندي)، فقد كانت له اسكوتلندا. أما الاثنان الأوّلان فقد كانا انكليزيّين. كان أحدُهما هو المبجّل روبيرت هارلي، عضو البرلمان عن مدينة نيو - رادنور. وكان حاضراً مندوبُ اسكوتلندا، هو مونغوغراهام، المحترم، قريبُ الدّوق دومونتروز. وقد ألقوا جميعاً التحيّة على غوينبيلين بصمت.

ولمس غوينبلين حافّة قبعته.

رفع حارسُ الحاجز الذراع الخشبية القائمة على مفصّلة والتي تؤمنُ مدخلاً إلى خلفيّة الغرفة المدهونة، والتي كانت فيها المنضدةُ الطويلةُ الخضراء المغطاة بالجوخ، والمخصّصةُ للّوردات فقط.

وكان على المنضدة شمعدانٌ مضاء.

أمّا غوينبلين الذي يسبقُه مأمورُ العصا السّوداء، ومانتو - بلو، وجارّوتيير، فقد ولج إلى تلك المقصورة المميّزة.

أعاد حارسُ الحاجز إغلاقَ المدخل خلفَ غوينبلين.

أمّا مسؤولُ الأسلحة، فما إن اجتاز الحاجز حتى توقّف.

وكانت الغرفةُ المدهونةُ فسيحةً.

كان المرء يلاحظ في صدر الغرفة، تحت شعار الشّرف الملكي الذي كان بين النافذتين عجوزين واقفين، ويلبسان ردائين من المخمل الأحمر، إضافةً إلى شريطين من فرو القاقم مغبونين بشارتين ذهبيّتين على كتفيهما، وقبعتين لهما ريشٌ أبيض على شعريهما المستعارين. وكان المرءُ يرى لباسيهما الحريريين، وقبضتي سيفيهما، من فرجة ثيابهما.

خلفهما، كان يقفُ بلا حراك رجلٌ يرتدي لباساً متموجاً أسود يحملُ في أعلاه كتلةً كبيرة ذهبيّة يعلوها أسدٌ ذهبيّ.

كان ذلك هو حامل العصا الفضيّة الرأس لأعيان إنكلترا.

إن الأسدَ هو شعارُهم "والأسودُ هم البارونات والأعيان"، كما تقول مجموعة الأخبار المخطوطة لبيرتران دوغيسكلان.

دلّ مسؤولُ الأسلحة غوينبلين على الشّخصيتين اللتين تلبسان رداءين مخمليّين وقال له في أذنه:

– أيها الميلورد، هذان هما نظيراك. ولسوف تردّ التحيّة بمثل ما أُديت لك. إن صاحبي السّيادة هذين والحاضرين هنا هما بارونان، وهما عرّاباك اللذان عيّنهما وزيرُ الماليّة. إنهما جدّ عجوزين، وضريران تقريباً. وهما اللذان سوف يدخلان إلى مجلس اللّوردات؛ فالأوّلُ منهما هو شارل ميلدماي، اللورد فيتزفالتر، السّيد السّادس في مجلس البارونات، أمّا الثاني فهو أوغسطوس أروندل، لورد أروندل دوتريريس، وهو السّيد الثامن والثلاثون في مجلس البارونات.

أمّا مسؤول الأسلحة الذي تقدّم خطوةً نحو العجوزين، فقد رفع صوته قائلاً:

"يا فيرمان كلانشارلي، بارون كلانشارلي، وبارون هنكرفيل، ومركيز كورليون في صقلية، حيّي أصحاب السّيادة."

رفع اللوردان قبعتيهما فوق رأسيهما على طول ذراعيهما، ثم اعتمراهما ثانية. ردّ غوينبلين التّحيّة بالصّورة نفسها.

تقدّم مأمورُ العصا السوداء، ثم مانتو، بلو، ثم جارّوتيير.

أتى حاملُ العصا ذات الرأس الفضيّ ليجلس أمام غوينبلين، واللوردان على جانبيه، اللورد فيتزرفالتر على يمينه، واللورد أروندل دولا تريريس على شماله. كان اللورد أروندل جدّ متعباً، وهو أكثر الاثنين شيخوخة.

وقد مات في السّنة التالية، تاركاً لحفيده جون، القاصر، لقب نبالته الذي قد قُدّر له مع ذلك، أن يزول في عام ١٧٦٨.

خرج هذا الموكب من الغرفة المدهونة، وتلفَ إلى رواقٍ ذي ركائز يتناوبُ فيها بشكلٍ مترصّدٍ، من ركيزة إلى ركيزة، حملةُ حرابٍ إنكلترا، وحملةُ أطبارٍ اسكوتلنديين.

كان حملةُ الأطبار الإسكتلنديّون هم تلك الجماعةُ الرّائعة من الجند ذات السيقان العارية الجديرة بمواجهة الخيّالة الفرنسيّة، فيما بعد، في فونتونوا، وبمواجهة وهؤلاء الفرسان المدرعين، فرسان الملك الذين كان عقيدُهم يقول لهم:

"أيها السّادة، ضباط الصّف، ركّزوا قبّعاتكم، فسوف يكون لنا الشرفُ في أن نحمل على العدوّ"

أدى قائدُ حملة الحراب وقائدُ حملة الأطبار لغوينبلين وللّوردين العّرابين تحيّةَ السّيف. لقد أدى الجنودُ التحيّة. والآخرون بالطبّر.

في صدر الرّواق، كان يلتمعُ بابٌ كبير، ورائعٌ إلى الحدّ الذي كان مصراعا الباب يبدوان فيه مثل رقاقتين ذهبيّتين.

ومن جانبيّ الباب، كان هناك رجلان لا يُبديان حراكاً. ومن خلال زيّهما كان يمكن أن يتعرّف المرء الــ Door Keepers (حارسي الأبواب).

قبل الوصول إلى ذلك الباب بقليل، كان الرّواقُ يتوسعُ، وكانت هناك مستديرةٌ مزججّة.

في تلك المستديرة، كان يجلس على كرسيٍّ ذي مسندٍ مفرطِ الاتّساع شخصٌ مهيبٌ من خلالِ ضخامةِ ردائه، وشعره المستعار. وكان هو وليام كوبر، وزيرُ ماليّة إنكلترا. إنها لميزةٌ أن يكون المرء ذا عاهةٍ أكثر من الملكة؛ إن ذلك النُّظر الخفيض لوليام كوبر قد راق لقصرِ بصرِ جلالتها، وجعل الملكة تختارُه وزيراً للماليّة، وحارساً للضمير الملكيّ.

وكانت شفةُ وليام كوبر العليا رقيقةً، والشّفة السّفلى ثخينةً، وهذه علامةٌ على طيبةٍ جزئية.

كانت المستديرةُ المزجّجة مضاءةً بمصباحٍ في السّقف.

كان على يمينِ وزير المالية، الوقور في مقعده العالي، منضدةٌ يجلسُ عليها كاتبُ التّاج، وعلى شماله منضدةٌ يجلس عليها كاتبُ البرلمان.

كان أمام كلّ واحدٍ من الكاتبين سجلٌ مفتوحٌ وظرفٌ أدواتٍ للكتابة.

خلف كرسيّ وزير الماليّة، كان يقفُ قواسٌ يحمل دبوساً ذا تاج. إضافةً إلى حامل ذيلِ الرداء وحاملِ كيس النقود، وهم يعتمرون شعراً مستعاراً عالياً. وكلّ تلك الوظائف كانت لا تزال موجودةً.

وعلى خوانٍ قريبٍ من الكرسي، كان هناك سيفٌ ذو قبضةٍ ذهبيّة، إضافةً إلى غمدٍ وحزامٍ من المخمل الأحمر النّاريّ.

خلف كاتبِ البرلمان، كان يقفُ ضابطٌ يسندُ رداءً مفتوحاً تماماً بيديه، وهو رداءُ التاج.

وخلف كاتبِ البرلمان كان ضابطٌ آخر يمسكُ بِرداءٍ آخر مبسوط، وقد كان رداءَ البرلمان.

إن هذين الرّدائين اللّذين هما كلاهما من المخملِ القرمزيّ والمبطّنين بنسيجٍ حريري (تفّته) أبيض، مع شرائط من فروِ القاقم المضفورة بالذّهب على الكتف، كانت متماثلة، باستثناء أن رداءَ التّاج قد كان له كتونةٌ واسعةٌ من فرو القاقم.

أما الضّابطُ الثالثُ الذي هو "الكتبيّ"، فقد كان يحملُ على لوحٍ مربّع من جلد الفلاندر الكتاب الأحمر، وهو كتابٌ صغيرٌ مجلّدٌ بالسختيان(*) الأحمر، ويتضمّن قائمةً بأسماء أعيان البلدات، إضافة إلى صفحاتٍ بيض وقلمٍ رصاص، كان ثمة عرفٌ بتسليمه إلى كلّ عضوٍ جديد يدخل إلى البرلمان.

توقف المسيرُ في موكب، والذي كان يغلقه غوينبلين بين اللّوردين عرّابيه أمام كرسيّ وزيرِ الماليّة.

نزع اللوردان العرّابان قبعتيهما، وفعل غوينبلين مثلهما.

تلقى مسؤولُ الأسلحة من يديّ مانتو - بلوس وسادة الجوخ الفضيّة، وجثا، وقدّم الحقيبة السوداء على الوسادة إلى وزير الماليّة.

أخذ وزيرُ الماليّة الحقيبة ومدّها إلى كاتبِ البرلمان، وأتى الكاتبُ ليستلمها بشكلٍ احتفاليّ، ثم مضى ليجلس.

(*) جلد الماعز المدبوغ. (م: ز. ع).

فتح كاتبُ البرلمان الحقيبة ووقف.

كانت الحقيبةُ تحتوي الرّسالتين المتداولتين، البراءةَ الملكيّةَ الموجّهةَ إلى مجلس اللوردات، والإبلاغَ بالجلوس(*) الموجه إلى اللورد الجديد.

أما الكاتبُ، الذي كان واقفاً، فقد قرأ بصوتٍ جدّ عالٍ الرّسالتين ببطءٍ مفعمٍ بالاحترام.

كان الإبلاغُ بالجلوس الذي أُمرَ به اللورد كلانشارلي ينتهي بالعبارات المعتادة: ((... إننا نلزّمكم إلزاماً دقيقاً(**) بالقسم والولاء اللذين تدينون بهما لنا، بأن تأتوا شخصياً لتأخذوا مكانكم بين الأساقفة واللوردات الذين يجلسون في برلماننا في ويستمنستر، لكي تعطوا رأيكم بكلِّ نزاهةٍ وضميرٍ في مسائلِ المملكة والكنيسة)).

ما إن انتهت قراءةُ الرّسائل حتى رفع وزيرُ المالية صوته قائلاً:

يُحالُ القرارُ إلى التاج. أيها اللّورد فيرمان كلانشارلي، هل تتخلّى سيادتُك عن تحوّل الخمرة والخبز، وعن عبادةِ القدّيسين، وعن القدّاس؟

فانحنى غوينبلين.

وقال وزيرُ الماليّة:

'لقد أُحيل القرار'

وسارع كاتبُ البرلمان يقول:

'لقد أخذت سيادتهُ الاختبار'

وأضافَ وزيرُ الماليّة قائلاً:

'أيّها الميلورد فيرمان كلانشارلي، يمكنُك الجلوس.

فقال العرّابان:

– فليكنِ الأمر كذلك'

(*) Write OF summ ons. (بالإنكليزية في الهامش).

(**) Strictly enjoin you (بالإنكليزية في النصّ).

نهضَ مسؤولُ الأسلحة مجدّداً، وأخذ السيْفَ من على مائدة القربان، وشبك الحزامَ حول قامة غوينبلين.

وتقول المواثيقُ النورمنديّة القديمة:

"ما إن يحدثُ ذلك، حتى يأخذُ اللورد سيفَه ويصعدَ إلى المقاعد العليا، ويحضرُ الجلسة".

سمع غوينبلين شخصاً خلفه يقولُ له:

"إني أُلبس سيادتَك رداءَ البرلمان"

وفي الوقت نفسه سلمّه الضّابطُ الذي كان يكلّمه الرّداء الذي كان يحمله، وعقد له على عنقه الشّريط الأسودَ، شريطَ كتّونةِ فروِ القاقم.

أصبح غوينبلين آنذاك وهو يلبسُ رداءً أرجوانياً على ظهره، وسيفاً مذهبًا على جنبه، أصبح شبيهاً باللوّردين اللذين كانا على يمينه وعلى شماله.

قدّم إليه الكُتُبيّ الكتابَ الأحمر، ووضعه له في جيبِ سترته.

همس مسؤولُ الأسلحة في أذنه قائلاً:

"أيها المليورد، سوف تحييّ عند دخولك، الكرسيَّ الملكيّ."

أما الكرسيّ الملكيّ، فهي العرش.

مع ذلك، فقد كان الكاتبان يكتبان، وكلٌّ منهما على طاولته، فأحدُهما على سجلّ التّاج، والآخر على سجلّ البرلمان.

وكلاهما، أحدُهُما بعد الآخر، وكاتبُ التاج أوّلاً، قد جلبا كتابهما إلى وزير الماليّة الذي وقّع.

بعد أن وقّعَ وزيرُ الماليّة السّجلين، نهض وقال:

"أيّها اللورد فيرمان كلانشارلي، بارون كلانشارلي، بارون هنذكرفيل، مركيز دوكورليون في إيطاليا، أهلاً بك بين لورداتك، اللوردات الرّوحيين والزّمنيين لبريطانيا العظمى".

لمس العرّابان كتفَ غوينبلين، فاستدار.

وانفتح البابُ الكبيرُ المذهّبُ على مصراعيه في صدرِ الرُّواق.

كان ذلك هو باب غرفة لوردات إنكلترا.

لم تكن قد مرّت ستٌّ وثلاثون ساعة منذ أن شهد غوينبلين، المحاطُ بموكبٍ آخر، بابَ سجن ساوثويرك الحديديّ ينفتحُ أمامه.

إنها سرعةٌ رهيبةٌ لكلِّ تلك الغيوم على رأسه، غيومٌ كانت أحداثاً، وسرعةٌ كانت اقتحاماً.

I I
حياد

كان خلقُ مساواةٍ مع الملك اسمُه النّبالة(*) في عهودِ الهمجيّة تخيُّلاً مفيداً. وفي فرنسا وفي إنكلترا، أحدثت هذه الوسيلةُ السّياسيّةُ البدائيةُ نتائجَ مختلفة.

ففي فرنسا، كان النبيّل ملكاً زائفاً. وفي إنكلترا، كان أميراً حقيقياً. إنه أصغرُ مما هو في فرنسا، ولكنه حقيقيٌ أكثر. وربمّا يمكن القول: إنّه أصغرُ شأناً ولكنه أسوأ.

لقد وُلدت النبّالةُ في فرنسا. والعهدُ الذي نشأت فيه غير مؤكدٌ؛ في عهد شارلمان، حسب الأسطورة. وفي عهد روبير لوساج، حسب التاريخ. وليس التاريخُ موثوقاً أكثر مما تقولُه الأسطورة. ويكتب فاڤان: "أراد ملكُ فرنسا أن يجتذبَ كبارَ دولته بهذا اللّقب الرائع، لقبِ النبلاء(**)، وكأنهم أندادُه".

سرعان ما تشعّب لقبُ النبالة، ومن فرنسا انتقل إلى إنكلترا.

كانت النبالةُ الإنكليزية واقعةً كبرى، وشيئاً عظيماً تقريباً. وكان اللّقبُ السّابق لها هو: Wittnagemot(***)، وهو اللقبُ السّكسوني. إن لقب الثان thane ولقب الـ: Vavasseur (تابع المُقطَع) النوّر منديٌ قد انصهر في لقب البارون. إن كلمة بارون هي كلمة Vir نفسها التي تترجمُ إلى الإسبانية بكلمة

(*) طبقة النبلاء والأشراف وأصحاب الإقطاعات إلخ.... (م: ز.ع).

(**) pair: أي نظير ومعادل وندّ (م: ز.ع).

(***) عضو مجلس شورى الملك. (م: ز.ع).

varon والتي تعني، بامتياز، كلمة رجل. واعتباراً من عام ١٠٧٥. وهؤلاء البارونات يعرفهم الملك. وأيّ ملك! غليوم الظافر. وفي عام ١٠٨٦. يشكّلون أساسَ النِّظام الإقطاعي، وهذا الأساسُ هو الــ Dooms day -book (كتاب الحساب (256) الأخير). وفي عهد جان سان تير. كان هناك نزاع. والسِّيادةُ الإقطاعيةُ الفرنسية تردّ بتعجرفٍ على بريطانيا العظمى، ونبالةُ فرنسا تستدعي إلى محكمتها ملكَ إنكلترا. وهذا ما أغضب البارونات الإنكليز. وكان ملكُ إنكلترا يحمل، عند تتويج فيليب – أوغست، شأنَ دوق نورمانديا، الرّايةَ المربّعةَ الأولى، ويحملُ دوق غويِّين الرّاية الثانية. وتندلعُ 'حربُ السّادة الإقطاعيين' ضد هذا الملك المُقطّع من الخارج. إن البارونات يفرضون على الملك جان الشقيّ الميثاق الكبير الذي يخرج منهُ اللوردات. ويدافعُ البابا عن الملك، ويُلقي الحرْم على اللوردات. إن التاريخ هو عام ١٢١٥، والبابا هو إينّوسان الثّالث الذي كان يكتب الــ:

VENI SANCTI SPIRITUS (يوحي من الروّح القدس)، والذي كان يبعث لجان سان – تير بالفضائل الأربع الرئيسية تحت شكل أربعِ حلقاتٍ ذهبيّة. ويثبت اللّوردات، ويستمرّ نزالٌ طويلٌ سيدومُ بضعةَ أجيال. ويناضلُ بيمبروك. إن عام ١٢٤٨ سيكون سنة 'مساندداتِ أوكسفورد'. إن أربعة وعشرين باروناً يقيّدون الملك، ويناقشونه، ويدعون إلى أن يسهم في الخصومة الموسّعة فارسٌ عن كلّ كونتيّة. إنه فجرُ مجالس العموم.

فيما بعد، ضمّ اللوردات إليهم مواطنين عن كلّ مدينة، ومدنيِّين (بورجوازيِّين) عن كلّ دسكرة. وهذا ما جعل النبلاء يصبحون حكّاماً على صلاحية انتخابات البلدات، حتى عهد إليزابيت. ومن سلطتهم القضائية ولدَ القولُ المأثور: 'يجب أن يُعيِّن النوابُ الباءات الثلاث 'p' وهي: ' (257) Sine prece، Sine pretio، Sine poculo وهذا ما لم يُعق سلوكَ الدُّساكر – الفاسدة (258). وفي عام ١٢٩٣. كان لا يزالُ بلاطُ نبلاء فرنسا يتخذ ملكَ إنكلترا محكَماً. وقد استدعى فيليب لوبيل إدوار الأول للمثول أمامه. وكان إدوار الأوّل هو ذلك الملك الذي أمر ابنه بأن يسلقه بعد موته، وأن يحمل عظامَه إلى الحرب. وبتأثير الحماقات الملكيّة الجنونيّة يحسُّ اللوردات بالحاجة إلى

تقوية البرلمان؛ فيقسمونه إلى مجلسين. مجلس عالٍ ومجلس منخفض. ويحتفظُ اللّوردات بالسّيطرة على نحوٍ متعجرفٍ. فإذا حدثَ أن كان أحدُ رجال البلدات شديدَ الجرأة بحيث يتكلّم بشكلٍ مجحفٍ بحقّ مجلس اللّوردات، فإننا نستدعيه إلى حاجز المحامين (إلى المحكمة) لكي يتلقّى التأديب، ونرسله أحياناً إلى البرج[*]. والتمييز نفسُه يجري في التصّويت؛ ففي مجلس اللوردات، يتمّ التصويتُ فرداً فرداً، ابتداءً بالبارون الأخير الذي يسمّونه "ثاني البكر". إن كلَّ نبيلٍ يُنادى عليه يجيبُ بـــ راضٍ أو غير راضٍ. أما في مجالس العموم، فيصوّتُ الجميعُ بنعم أو لا، بشكل جماعيّ. إن مجالسَ العموم تتهِمُ، والنّبلاء يحاكمون. والنّبلاءُ، ازدراءً منهم للأرقام، يفوّضون مجالسَ العموم بالرّقابة على رقعة الشطرنج (أي الماليّة) التي سوف يفيدون منها، وقد سمّيت كذلك، حسب رأي البعض، انطلاقاً من بساط المنضدة التي كانت تمثّلُ رقعةَ شطرنج، وحسب رأي آخرين، جوارير الخزانة القديمة التي كان كنزُ ملوك إنكلترا فيها، وراء شبكةٍ حديدية. ويعودُ تاريخُ السّجلِ السّنويّ "year-book" إلى نهايةِ القرن الثالث عشر. وفي حرب الوردتين، يُحسُّ بوزن اللوردات، تارةً من جهة جون دوغونت، دوق لانكاستر، وتارةً من جهةِ إدموند، دوق يورك. إن وات - تيلر، وآل لولار، وفارفيك، صانع الملوك، وكلّ هذه الفوضى - الأمّ التي سيخرج منها الانعتاقُ تساندُها الإقطاعيةُ الإنكليزية، سواء اعترِفَ بها أو ظلّت خفيّة.

إن اللوردات يحسدون العرشَ بشكلٍ مفيد. والحسدُ يعني الرقابة؛ فهم يحصرون المبادرة الملكيّة، ويسجّلون حالاتِ الخيانة العظمى، ويحرّضون رجالاً زائفين من أمثال ريشار ضدّ هنري الرابع. ويصنعون من أنفسهم محكمين، ويفصلون في مسألة التيجان الثلاثة بين دوق يوركٍ مارغريب دانجو، وعند الاقتضاء، يجنّدون الجيوش، ويخوضون معاركهم، معارك شروزبوري، وتويكسبوري، وسانت - ألبان التي يكسبونها تارةً، ويخسرونها تارة. وقبل ذلك، في القرن الثالث عشر، كانوا قد أحرزوا انتصار ليويس،

(*) مقاتلٌ من أجل الملك، وهو أدنى مرتبة من الفارس (م: ز.ع).

وكانون قد طردوا من المملكة إخوة الملك الأربعة، وهم الأولادُ غيرُ الشرّعيين لإيزابيل، وللكونت دولامارش، وهم الأربعة جميعاً مرابون، ويستغلّون المسيحيّين عن طريق اليهود ؛ فهم أمراءٌ من جهة، ومن الجهةِ الأخرى نصّابون.

وهذا أمرٌ سوف نراه فيما بعد، غير أنه قلمّا كان يُقدّر تقديراً حسناً في ذلك الزمن.

وحتى القرن الخامس عشر، يظلّ الذّوق النورمانديّ ملحوظاً في شخصِ ملك إنكلترا، وتجري محاضرُ البرلمانِ بالفرنسيّة.واعتباراً من عهد هنري السّابع، تجري بالإنكليزية، برغبةٍ من اللّوردات. إن إنكلترا، البروتانية، في عهدِ أوتير باندراغون، والرّومانية في عهد قيصر، والسّكسّونية في عهد الحكومة السّباعيّة، والدّانمركية في عهد هارولد، والنّورمانديّة بعد غليوم، تغدو انكليزيةً، بفضل اللوردات. ثمّ تصبح أنغليكانيّة. فأن يكون دينُ المرء في بلده، يُعتبرُ قوّةً كبرى. فالبابا الخارجي يختلسُ الحياةَ الوطنية. إن مدينةً دينية مركزية هي دولة إخطبوطيّة. وفي عام ١٥٣٤، تصرفُ لندن روما، وتتبنّى النبالةُ الإصلاحَ، ويقبل اللوردات لوثر. وهذا ردٌّ على الحرْم الكنسيّ في عام ١٢١٥. وكان هذا يلائمُ هنري الثّامن، غير أن اللوردات يعيقون ذلك من أوجهٍ أخرى. كلبٌ دُرواسٍ يقفُ أمام دبّ، هذا هو مجلس اللوردات أمام هنري الثّامن. وحين يسرقُ ويلسي وايت - هول من الأمّة، وحين يسرقُ هنري الثّامن وايت - هول من ويلسي، من الذي يتذمر؟ أربعة لوردات هم: دارسيس دوشيشستر، وسان - جون دوبلسّو، و(اسمان نورمنديان) مونتيجوي ومونتيغل. إن الملك يغتصبُ. والنبالةُ تتطاولُ. إن الوراثة تتضمن اللافساد، ومن هنا يأتي عدمُ خضوع اللوردات. وحتى أمام إليزابيت، يتحرّكُ البارونات. وينتج عن ذلك أعمال التنكيل بدور هام.

إن تلك التّورة المستبدّة مصطبغةٌ بالدم. تحت نافخ التّورة، هناك نطعٌ، وفيه إليزابيت. إن إليزابيت تجمعُ البرلمانَ بأقلّ عددٍ من المرات يمكنها ذلك. وتقلّصُ مجلسَ اللوردات إلى خمسة وستين عضواً، وبينهم مركيزٌ واحد هو

ويستمنستر، وما من دوقٍ واحد فضلاً عن ذلك؛ فقد كان لديهم الحسدُ نفسه، ويقومون بالاستبعاد ذاته.

ففي عهد هنري الثالث، لم يعد هناك إلاّ ثمانية دوقيّات - ذات إقطاعات، وكان يزعجُ الملكَ أن يكون بارون دومانت، وبارون دوكوسي، وبارون دو كولومبيه، وبارون دوشاتونوف - أن - تيموريه، وبارون شاتونوف - أن - تاردونوا، وبارونِ دومورتانيي، وعددٌ من الرّجالِ الآخرين أيضاً، أن يبقوا بارونات، وأعياناً لفرنسا. وفي إنكلترا، كان التّاجُ يدعُ إقطاعات النبلاء تضعفُ بطيبة خاطر. وفي عهد آنّا، إذا ما اكتفينا بإيراد مثالٍ واحد، انتهت أفولات إقطاعات النبلاء منذ القرن الثاني عشر لتشكّل مجموعاً قدرُه خمس وستين إقطاعة ملغاة. كانت حربُ الورود قد بدأت باستئصالِ الأدواق، والتي أنجزتها ماري - تودور بإعداماتٍ بالبلطةِ. فكان ذلك قطعاً لرأس طبقة النبلاء. إن بترَ الدّوق هو قطعٌ لرأسه، وهذه سياسةٌ جيدة بلا شكٍّ غير أن الإفساد يفضلُ قطع الرأس. وهذا ما شعر به جاك الأوّل. لقد قام بإحياءِ الدّوقيّة. فقد صنع من محظيّه فيلبيه دوقاً، الذي كان قد صنع منه خنزيراً[*]. إنه تحوّلُ الدّوقِ الإقطاعيّ إلى دوقٍ جليسٍ للأمراء. ولسوف يتكاثرُ ذلك؛ فيصنعُ شارل الثاني دوقتين من اثنتين من عشيقاته وهما بارب دوساوثمبتون، ولويزدوكيرويل. وفي عهد آنّا، سيكون هناك خمسةٌ وعشرون دوقاً، ثلاثة منهم أجانب، وهم كومبرلاند، وكامبريدج، وشونبرغ. فهذه الوسائلُ التي يستخدمُها البلاط، والتي ابتكرها جاك الأول، هل تنجح؟ ويشعرُ مجلسُ اللوردات بأنه يجري التّلاعبُ به بواسطة الدّسيسة، فيغتاظ. إنه يغتاظُ من شارل الأوّل، الذي، ولنقلْ ذلك دون إلحاح، ربمّا يكون قد قتل والده بعضِ الشّيء، كما قتلت ماري دوميدتشي ربمّا زوجها بعضَ الشيء. إن قطيعةً تحدثُ بين شارل الأوّل. ونبلاء الإقطاعيّة، واللوّردات الذين كانوا، في عهد جاك الأوّل، قد حاكموا الاختلاس في شخصٍ بيكون، يقيمون دعوى الخيانة في شخص ستافورد؛ فالأوّل منهما قد فقد شرفَه والآخرُ

(*) كان فيلبيه يسمى جاك الأوّل: تذارتك (الخنزيرية).

حياته. لقد قُطع رأسُ شارل الأول للمرّة الأولى في شخص ستافورد. إن اللوردات يسندون بقوّةٍ مجالسَ العموم. والملكُ يدعو المجلسَ للانعقاد في أوكسفورد، والثورةُ تدعوه في لندن؛ فيذهبُ ثلاثة وأربعون لورداً مع الملك، واثنان وعشرون مع الجمهورية. ومن قبول اللوردات هذا للشّعب يخرجُ إعلان الحقوق والذي هو خطوطٌ أوليّة لوثيقتنا حقوق الإنسان، وهو الظل المبهمُ الذي تعكسهُ من أعماق المستقبل ثورةٌ فرنسا على ثورة إنكلترا.

تلك هي الخدماتُ التي كانت غير متعمّدة، فليكن! وقد كلّفت غالياً، فهذه النبّالة طفيليّة هائلة، ولكنها خدماتٌ ضخمة. فالعمل الاستبداديّ للويس الحادي عشر، وريشيليو، ولويس الرابع عشر، وصُنعُ سلطان، والتسطيحُ الذي اعتُبر مساواة، والقرعُ بالعصا الذي ينفّذه الصولجان، والحشودُ المسوّاة عن طريق الإذلال، إن هذا العملَ التركيّ الذي يجري في فرنسا، قد منعه اللّوردات في إنكلترا. لقد صنعوا من الأرستقراطية جداراً، فعرقلوا اندفاعَ الملك من ناحية، وحموا الشعب من الناحية الأخرى. إنهم يفتدون تعاظُمَهم على الشعب بوقاحتهم تجاه الملك. لقد كان سيمون، كونت ليسستر، يقول لهنري لثالث: أيها الملك، لقد كذبتَ. إن اللوردات يفرضون عبوديّات على التاج؛ فهم يهينون الملكَ في الموضعِ الحسّاس، في صيد الوحوش. فكلّ لورد يمرّ في بستانٍ ملكيّ، يحق له أن يقتل فيه أيّلاً. وفي منزل الملك، يكون اللورد في منزله. والملك المنتظرُ في برج لندن، مع تعرفته التي لا تزيدُ عن تعرفةِ نبيلٍ، وهي اثنتا عشرة ليرة إسترلينيّة أسبوعياً، هذا أمرٌ يعودُ الفضلُ فيه إلى مجلس اللوردات. وأكثر من ذلك أيضاً، فخلْعُ الملك يرجعُ إليه. لقد أقال اللوردات جان سان – تير، وعزلوا إدوار الثاني،وجعلوا مجيء كرومويل ممكناً. فأيّ لويس الرابع عشر كان موجوداً في شخص شارل الأول! لقد بقي مستتراً بفضلِ كرومويل. فضلاً عن هذا، ولنقل ذلك دون إلحاح، فإن كرومويل نفسه، ولم يبدِ أيّ مؤرخٍ حذراً تجاه هذه الحقيقة، قد كان يطمحُ إلى النبالة؛ وهذا ما جعله يتزوّجُ إليزابيت بورشييه، المتحدرّة والوريثة لواحدٍ من آل كرومويل، اللورد بورشييه، والذي زالت نبالتهُ الإقطاعية في عام ١٤٧١، والوريثة لبورشييه آخر، هو اللورد روبيزار، الذي زالت نبالته عام ١٤٢٩.

وإذْ كان مشاركاً في صعودِ الأحداث المرعب، فقد وجد أن إزالةَ الملك هي الطريق الأقصر للوصول إلى السيطرة مما هي طريق النبالة.

إن طقسَ اللّوردات الاحتفاليّ، المشؤوم أحياناً، كان يصل إلى الملك. إنّ حاملي سيوف البرج (لاتور). الواقفين، والبلطة على كتفيهما، على يمين وشمال النبيّل المتهّم والماثل أمام قوس المحكمة، قد كانا موجهّين إلى الملك، كما هما موجهّان إلى أيّ نبيلٍ آخر.

خلال خمسة قرون، كان لدى مجلس اللّوردات القديم خطّة؛ وقد تابعها بثبات. أما أيّام غفلته وضعفه فهي معدودة، كما هي، على سبيل المثال، حالُ تلك اللحظة الغريبة التي استسلم فيها لإغراء السّفينة الغليونية (529) المحملة بالأجبان، ولحوم فخذ الخنزير (جانبون)، والخمور اليونانية التي أرسلها إليه البابا جول الثاني. كانت الأرستقراطيةُ الإنكليزية قلقةً، ومتعاليةً، ويتعذّر قهرُها، ويقظةً، ومرتابةً ارتياباً وطنياً. وهي التي نزعت من بلدة ستوكبريدج، في ساوثمبتون، الحقّ في أن تُمثّل نيابيًا في البرلمان، وأجبرت مجالسَ العموم على إبطالِ الانتخاب في هذه البلدة، والملطّخ بالتّزوير البابويّ، وذلك عند نهايةِ القرنِ السّابع عشر، بالقرار العاشر لعام ١٦٩٤.

وكانت قد فرضت الامتحان على جاك، دوق يورك، وبناءً على رفضه له استبعدته من العرش. ومع ذلك، فقد حَكَمَ، غير أن اللّوردات انتهوا إلى إعادته إلى تحت سلطتهم، وإلى طرده. كان لتلك الأرستقراطية بعضُ الميلِ الغريزيّ إلى التّقدّم، خلال مدّة بقائها الطّويلة، وطالما كان قدرٌ كبيرٌ من النّور قد صدرَ عنها على الدّوام، باستثناء ما كان منها في النهاية، والذي هي عليه الآن. وفي عهد جاك الثاني، كانت تُبقي في المجلس الأدنى على نسبةِ ثلاث مئة وستة وأربعين بورجوازياً (من الطبقة الوسطى)، مقابل اثنين وتسعين فارساً، لأن البارونات الستة عشر من أصحاب اللّطافة، بارونات الموانئ الخمسة (سان – بور) هم أكثر من متعادلين مع المواطنين الخمسين، مواطني المدن الخمس وعشرين. ومع أن هذه الأرستقراطيّة جدّ مفسدة وجدّ أنانية، فقد كانت، في بعض الحالات، تتخذ عدم انحيازٍ فريداً من نوعه. وقد حُكم عليها بقسوة. وكانت أوصافُ التاريخ الجيدّة تأتي لصالح مجالس العموم؛ وهذه

مسألةٌ مطروحةٌ للجدل. إننا نظنُّ بأن دور اللّوردات كبيرٌ جداً. إن حكمَ الأقليّة هو الاستقلاليّة في الحالة الهمجيّة، ولكنه استقلاليّة. فانظروا إلى بولونيا، تلك المملكة اسميّاً، والجمهوريّة واقعياً.

إن لوردات إنكلترا قد كانوا يضعون العرشَ موضعَ ريبةٍ ورقابة. وفي مناسباتٍ كثيرة، كان اللوردات يعرفون كيف يُزعجون أكثرَ مما تعرف مجالسُ العموم. كانوا يفشِلون الملك. وهكذا، ففي عام ١٦٩٤، تلك السّنة الجديرة بالملاحظة، فإن البرلمانات الثلاثية السّنوات والتي استبعدتها مجالسُ العموم، لأن غليوم الثّالث لم يكن يريدها، قد صوّت عليها اللّوردات. أمّا غليوم الثّالث، الذي اغتاظ، فقد انتزع من الكونت دوبات قصرَ باندوني، وكافّة مهام الفيكونت موردواونت.

لقد كان مجلسُ اللّوردات هو جمهوريّة البندقيّة في قلبِ ملكيّة إنكلترا. أمّا تحويلُ الملك إلى قاضٍ أول[*]، فقد كان ذلك هو هدفه. وقد عمل على تكبيرِ الأمّة بكلّ ما فعله لتصغير شأن الملك.

كانت الملكيّة تدرك ذلك وتكرّه النّبالة الإقطاعية. وكان كلٌّ منهما من الجانبين يسعى إلى تقليل شأن الآخر. وكانت تلك التصغيرات تُفيدُ الشّعب في أن يزداد تأثيراً. كانت القوّتان العمياوان النظامُ الملكيّ وسلطةُ الأقلية لا تتبيّنان أنهما كانتا تعملان لمصلحة طرفٍ ثالث، هو الديمقراطيّة. فأيُّ سرورٍ كان، بالنسبة للبلاط، في القرن الماضي أن يتمكن من شنق نبيل، هو اللورد فيرير!

فضلاً عن ذلك، فقد شنق بحبلٍ حريريّ. فياللتهّذيب.

لم يكن ممكناً شنقُ نبيلٍ فرنسيّ. وهذه ملاحظةٌ متعاليةٌ أبداها الدوّق دو ريشيليو. نوافق على هذا. كان يمكن أن يُقطع رأسه. وهذا تهذيبٌ أكبر. لقد كان مونمورنسي - تانكارفيل يوقّع: نبيل فرنسا وإنكلترا، راداًّ النبالة الإنكليزية بهذا إلى المرتبة الثانية. كان النبلاءُ الفرنسيّون أعلى شأناً وأقلّ

(*) الدوق هو: القاضي الأول في البندقية قديماً. (م: ز.ع).

اقتداراً، وحريصين على المرتبة أكثر مما هم حريصون على السّلطة، وعلى حقّ التصدّر أكثر من حرصهم على السّيطرة. كان بينهم وبين اللّوردات الفارقُ الطفيف الذي يفصلُ بين التّباهي والغرور. فبالنسبة لنبلاء فرنسا، أن يتقدّموا على الأمراء الأجانب، وأن يسبقوا عظماء إسبانيا، وأن يتصدّروا على بطارقة البندقية، وأن يُجلسوا على مقاعد البرلمان المنخفضة مارشالات فرنسا، والقائد العام للجيش، وأميرالَ فرنسا، حتى وإن كان كونت تولوز، وابن لويس الرابع عشر، وأن يفرّقوا بين الدّوقيّات الذّكورية والدّوقيات الأنثويّة، وأن يثّقوا على الفاصل بين كونتيّة بسيطة من مثل أرمانياك أو ألبريت وكونتيةٍ - نبيلةٍ من مثل إيفروا، وأن يرتدوا قانونياً، في بعض الحالات، الشريطَ الأزرقَ أو الجزّة الذهبيّةَ، وهم في الخامسة والعشرين من عمرهم، وأن يعادلوا دوق دولاتريموال، أقدم نبيلٍ لدى الملك، بالدّوق ديزيس، أقدم نبيلٍ في البرلمان، وأن يطمحوا إلى عددٍ من الغلمان، وخيولِ العربات بقدر ما يطمحُ إليه مندوبٌ عن الناخبين، وأن يجعلوا أوّل رئيسٍ يقول لهم يا سيّدنا وأن يناقشوا مسألة امتلاك الدّوق دومين لمرتبة نبيل، باعتباره كونت دو، اعتباراً من عام ١٤٥٨، وأن يجتازوا المجلس الكبير بشكلٍ مائل، أو من الجوانب، كانت تلك هي القضيّةُ الجسيمة.

فالقضية الجسيمةُ بالنسبة للّوردات، قد كانت قرارَ الملاحة، والاختبارَ، وتجنيد أوروبا في خدمة إنكلترا، والسّيطرة على البحار، وطردَ آل ستيوارت، والحربَ على فرنسا. فهنا، أصولُ التصرّف قبل كلّ شيء، وهناك، قبل كلّ شيء الإمبراطوريّة. فقد كانت الطرّيدةُ لنبلاء إنكلترا، أما نبلاء فرنسا فلهم ظلّها.

لقد كان مجلسُ لوردات إنكلترا نقطةَ انطلاق إجمالاً. وهذا أمرٌ هائل في الحضارة. وكان له الشرفُ في البدء بإنشاء أمّة. لقد كان التجسيدَ الأوّل لوحدة شعب. إن المقاومة الإنكليزية، هذه القوّة الخفيّة والكليّة الاقتدار قد وُلدت في مجلس اللوردات. لقد أعدّ البارونات بشكلٍ أوليّ العزلَ النهائيّ عن العرش، بسلسلةٍ من وسائل العنف. وقد أصابت الدهشةُ والحزنُ اليوم بعضَ

الشيّء مجلسَ اللّوردات بسبب ما فعله من دون إرادةٍ منه، ومن دون أن يدري. لا سيّما وأن ذلك قد غدا غير قابل للتغيير.

وما هي التنازلات؟ إنها استعادات. والأمم لا تجهل ذلك. يقول الملك إني أمنح. ويقول الشعب إني أسترجع. لقد ظن مجلسُ اللّوردات أنه يخلقُ حقوقَ النبلاء، وقد أنشأ حقّ المواطنين. إن الأرستقراطيّة، هذا العقاب، قد حضن بيضةَ النسّر، التي هي الحريّة.

كُسرت البيضةُ الآن، فالنسّرُ يحلقّ، والعقابُ يموت.

إن الأرستقراطيةَ تحتضرُ، وإنكلترا تكبرُ.

إنمّا لنكنْ منصفين تجاه الأرستقراطية. لقد حقّقت التّوازنَ مع الملكيّة، وكانت الثقلَ المعاوضَ لها. وأعاقت الاستبداد، وحالت دونه.

فلنشكرْها، ولندفنْها.

III
القاعة القديمة

بقرب دير ويستمنستر، كان هناك قصرٌ عتيقٌ نورمنديٌ قد جرى إحراقُه في عهد هنري الثّامن. وبقي منه جناحان. وقد وضع إدوار السّادس في أحدهما مجلسَ اللوردات، وفي الآخر مجلس العموم.

أما الآن فلم يعدْ الجناحان موجودين، ولا القاعتان؛ ولقد تمّ تجديدُ بناءِ كلّ ذلك.

لقد قلنا، وينبغي أن نؤكّد على ذلك، إنه ما من تشابهٍ على الإطلاق بين مجلس لوردات اليوم ومجلس لوردات الماضي. لقد تم هدمُ القصر السّابق، وهذا ما دمرّ إلى حدٍّ ما الأعرافَ القديمة. إن لضرباتِ المعول في الأوابد ارتداداتُها في العادات والمواثيق. إن حجراً قديماً لا يسقط من دون أن يجرّ معه شرعةً قديمة. فلتقيموا في قاعة مستديرة مجلسَ شيوخٍ لقاعةٍ مربعة، ولسوف يصبحُ هذا المجلسُ مجلساً آخر. إن القوقعةَ التي تتغيّرُ تُبدّلُ شكلَ الحيوان الرّخوي.

إذا شئتم المحافظة على شيءٍ قديم، بشريٍّ أو إلهيّ، هو مدونةٌ أو عقيدةٌ جامدة، أو رتبةُ أشراف أو كهنوت، فلا تعيدوا تشكيله من جديد، ولا حتى غلافه. بل أضيفوا قطعاً على الأكثر. فاليسوعيّةُ، مثلاً، هي قطعةٌ تُضافُ إلى الكاثوليكيّة. ولتتعاملوا مع العمارات، كما تتعاملون مع المؤسّسات.

ينبغي للظلمات أن تسكن في الخرائب. إن القوى المتداعية تحسّ بالضيق في المساكن الصغيرة المزخرفة حديثاً. والمؤسسات البالية يلزمُها قصورٌ حقيرة. إن إظهار مجلس لوردات اليوم من داخله، هو إظهارٌ مجهول.

إن التّاريخ هو الظّلمة. وفي التاريخ، ما من مستوىً ثان. إن التناقصَ والعدَمة يستوليان فوراً على ما لم يعدْ في مقدّمة المسرح. فما إن يُنزعَ الزُّخرفُ (الدّيكور)، حتى يحدث الامّحاء، والنّسيان. إن للماضي مرادفاً هو: المجهول.

كان نبلاءُ إنكلترا يجتمعون، باعتبارهم محكمةً قضائيةً، في قاعة ويستمنستر، وباعتبارهم مجلساً تشريعياً أعلى، في قاعةٍ خاصةٍ تُدعى 'منزلَ اللوردات' House of the lords.

فضلاً عن محكمة نبلاء إنكلترا الذين لا يجتمعون إلاّ إذا دعاهم التّاجُ للانعقاد، فالمحكمتان الكبيرتان الإنكليزيتان، اللتان هما أدنى من محكمة النبلاء، ولكنهما الأعلى من أيّةِ سلطةٍ قضائيةٍ أخرى، كانتا تُعقدان في قاعة ويستمنستر الكبرى. وفي أعلى طرفٍ من أطراف هذه القاعة، كانتا تشغلان مقصورتين متجاورتين. كانت المحكمةُ الأولى هي محكمة مقعد الملك، والتي كان يُفترضُ أن يرئسها الملك، والمحكمةُ الثانية كانت محكمةَ وزارة العدل التي يرئسها وزير العدل، وقد كانت الأولى منهما محكمة قضاء، والأخرى محكمة استرحام، وكان وزيرُ العدل هو الذي ينصحُ الملك بأحكام العفو، وبصورةٍ نادرة. إن هاتين المحكمتين اللتين لا تزالان موجودتين، كانتا تجتهدان في التشريع، وتعيدان صياغته بعض الشيء. إن فنّ القاضي هو في تنجير التشريع في أحكام القضاء. إنه صناعةٌ يخرجُ منها الإنصافُ بقدر الإمكان. لقد كان التشريعُ يُصنعُ ويطبّق في هذا المكان الصّارم. والذي هو قاعةُ ويستمنستر. وكان لتلك القاعة قبّةٌ من خشبِ الكستناء لا يمكن لشبكاتِ العنكبوت أن تُنصَب فيها؛ ويكفي فعلاً أن تُنصب في القوانين.

إن انعقاد الجلسات للمحكمة، وانعقادها للمجلس هما أمران مختلفان. وهذه الثّنائية تشكّلُ السّلطة العليا. إن البرلمان الذي دام طويلاً، فبدأ في الثالث من تشرين الثاني للعام ١٦٤٠، قد شعر بالحاجة الثورية لذلك السّيف المزدوج.

وهكذا فقد ظهر، باعتباره مجلساً للّوردات، سلطةً قضائيّة في الوقت نفسه الذي هو فيه سلطةٌ تشريعية.

لقد كانت تلك السلطة المزدوجةُ عريقةً في مجلس اللوردات. ولقد قلنا للتوّ إن اللوردات، باعتبارهم قضاة، كانوا يشغلون قاعة ويستمنستر، وكانت لهم قاعةٌ أخرى، باعتبارهم مشرّعين.

كانت تلك القاعة الأخرى، التي هي بحصر المعنى مجلسُ اللوردات، مستطيلةَ الشّكل، وضيقة، وكانت لها أربعُ نوافذ تمّ شقّها بعمق في تخشيبةِ السّقف، كإنارةٍ وحيدة، وتتلقّى الضوءَ عبر السّطح، إضافة إلى كوةٍ مستديرةٍ ذات ستة ألواحٍ زجاجية مع ستائرها، فوق السّرير الملكي. وفي المساء، ما من نورٍ آخر سوى اثني عشر نصفِ شمعدان مثبتةٍ على الجدار العالي. لقد كانت قاعةُ مجلسِ شيوخ البندقية أقلَّ إنارةً أيضاً. إن بعضَ العتمة يروقُ لتلك الأبوام، أبوام الاقتدار الكليّ.

فوق القاعة التي كان يجتمع فيها اللّوردات، تستديرُ قبّةٌ عاليةٌ ذات تجاويفَ زخرفيةٍ مذهبة مع سطوحٍ متعددة الصفحات. أما مجالسُ العموم فلم يكن لها إلاّ سقفٌ مسطحٌ؛ فلكلِّ شيء معناهُ في مباني النظام الملكي. في أحد طرفي قاعة اللوردات الطّويلة كان هناك الباب، وفي الطرَف الآخر بمواجهتهما، كان هناك العرشُ. وعلى بضع خطوات من الباب، كان هناك الحاجزُ الذي هو قطعٌ عرضاني، وضربٌ من تخمٍ يحدّدُ الموضعَ الذي ينتهي فيه الشعبُ، وتبدأُ فيه طبقةُ السّادة.

وعلى يمينِ العرش، كان ثمة موقد رُسمت شعاراتٌ في ذروته، ويعرضُ للعيان نقشين بارزين من الرّخام، ويصوّر أحدُهما انتصار كثوورث على البروتانيين في عام ٥٧٢، ويصوّر الآخر المخطط الهندسي البحت لبلدةَ دانستابل، والتي ليس فيها إلاّ أربعة شوارع متوازية مع أجزاء العالم الأربعة. كانت ثلاثُ درجاتٍ ترفعُ العرش. وكان العرشُ يسميّ بـــ "الكرسيّ الملكيّ". وعلى الجدارين اللّذين صُنعا متقابلين، كانت تنبسطُ، على شكلِ لوحات متعاقبة، نجودٌ منحتها إليزابيت للوردات وتمثّل كلَّ مغامرةِ الأرمادا منذ انطلاقه من إسبانيا حتى غرقهِ قبالةَ إنكلترا. وكانت الأجزاءُ العليا للسّفن خارجَ الماء مصنوعةً من خيوطَ ذهبيّة وفضيّة. وكانت قد اسودّت مع مرور الزّمن. وكانت تستند إلى تلك النجّود، التي تقطعها من مسافةٍ إلى مسافة

أخرى مصابيحُ جداريّة، كانت تستند على يمين العرش ثلاثةُ صفوفٍ من المقاعد من أجل المطارنة، وعلى اليسار ثلاثة صفوف من المقاعد من أجل الأدواق، والمراكيز، والكونتات، على دكّات تفصلُ مرقاياتٌ فيما بينهما. وعلى المقاعد الثلاثة من القسم الأوّل كان يجلسُ الأدواق، وعلى المقاعد الثلاثة من القسم الثاني المراكيز، وعلى المقاعد الثلاثة من القسم الثالث. الكونتات. وكان مقعدُ الفيكونتات، المثلّث الشّكل، يقابلُ العرش، وخلفه، بين الفيكونتات وحرم المحكمة، كان هناك مقعدان من أجل البارونات، وعلى المقعد العالي، كان هناك بطريركا كانتوربيري ويورك؛ وعلى المقعد الوسيط، ثلاثةُ مطارنة، مطران لندن، ودورهام، ووينشستر، أما المطارنةُ الآخرون فكانوا على المقعد الأدنى، وكان بين بطريرك كانتوربيري والمطارنة الآخرين فارقٌ عظيم الأهميّة، من حيث أنّه، هو، مطرانٌ "من قبل العناية الإلهيّة" بينما ليس الآخرون كذلك إلاّ من "قبل جوازٍ إلهيّ". وعلى يمينِ العرش، كانت تُرى كرسيٌ من أجل أمير ويلز، وعلى اليسار، ثمّة كراسٍ تُطوى من أجل الأدواق الملكيّين، وخلف هذه الكراسي القابلة للطيّ مرقاةٌ من أجل النبلاء الفتيان القاصرين الذين لم يصبحْ لهم الحقُ بعد في الاجتماع في المجلس. كان هناك الكثيرُ من زهور الزّنبق في كلّ مكان، وكان شعارُ شرف إنكلترا الكبير على الجدران الأربعة، فوق النبلاء، كما فوق الملك. وكان أبناءُ النبلاء، وورثةُ النبالة الإقطاعيّة يحضرون المداولات، وهم واقفون خلف العرش، بين السّرادق والجدار. فالعرشُ في الصدْر؛ ومن جهات القاعة الثّلاث، كانت صفوفُ مقاعدِ النبلاء الثّلاثة تترك مساحةً عريضةً مربّعةً فارغة. وفي ذلك المربّع الّذي كان يغطيّه بساطٌ دولةِ إنكلترا المزّين بالشعارات، كانت هناك أربعةُ أكياسٍ صوفيّة، أحدُهم أمام العرش حيث كان يجلسُ قاضي القضاة، بين الصّولجان والختم، وواحدٌ أمام المطارنة حيث يجلسُ القضاة مستشارو الدّولة، والذين يحضرون الجلسة ولا يصوّتون، وواحدٌ أمام الأدْواق والمراكيز والكونتات حيث يجلسُ أمناء سرّ الدّولة، وواحدٌ أمام الفيكونتات والبارونات، وحيث كان يجلسُ كاتبُ التّاج وكاتب البرلمان، وكان يكتبُ عليه معاونا الكاتب وهما جاثيان. وفي وسط المربّع

كانت تُرى طاولةٌ عريضةٌ مغطاةٌ بالجوخ. ومحمّلةٌ بالملفّات، والسّجلاّت، والسّجلاّت الكبيرة، إضافة إلى محابرَ ضخمةٍ ثمينة الصّياغة، ومشاعلَ عاليّة في الزّوايا الأربع.

وكان النّبلاء يجلسون حسب تسلسلٍ زمنيّ وكلٌّ منهم حسب تاريخ إنشاء نبالته الإقطاعية. لقد كان صفهّم يُحدَّد تبعاً للقبهم، وضمن اللّقب، حسب الأقدميّة. وعند حاجز المحكمة، كان يمكثُ مأمورُ العصا السّوداء واقفاً، وعصاه بيده.

وعند الباب من الداخل، كان هناك ضابطُ المأمور، ومن الخارج صيّاحُ العصا السّوداء والذي تتمثّل وظيفتُه بافتتاح جلسات القضاء بالصّيحة التالية: اسمعوا! بالفرنسية، والتي تُطلق ثلاثَ مرّات، مع التّشديد بشكل احتفاليّ على المقطع الأوّل، وبقرب الصّياح، كان هناك الرّقيبُ حاملُ صولجانِ قاضي القضاة.

في الاحتفالات الملكيّة، كان النبلاء الزمنيّون يضعون التاج على رؤوسهم، أمّا النبلاءُ الرّوحيّون فيعتمرون تاجَ الأسقفيّة ذا الإكليل الدّوقي، والمطارنةُ الذين تقع رتبتهم بعد الفيكونتات فيضعون التّاجَ الأسقفيَّ المجوهرَ على نمطِ تاج البارون.

ثمة ملاحظةٌ غريبةٌ تُعتبرُ معلومةً معيّنة، فإن ذلك المربّع الذي يشكله العرشُ، والمطارنة والبارونات، والذي فيه مأمورون قضائيون جاثون، قد كان هو برلمان فرنسا القديم في عهدِ السّلالتين الأوليين. ومظهر السّلطة هو نفسه في فرنسا وفي إنكلترا. إن هينكمار (260) في كتابة **De ordinatione sacri palatii**، يصف في عام ٨٥٣ مجلسَ اللوردات المنعقدَ في ويستمنستر في القرن الثّامن عشر.

إن ذلك نوعٌ من محضرٍ غريبٍ قد تمّ إعداده بشكلٍ مسبقٍ قبل تسع مئة عام.

فما التاريخ؟ إنه صدى الماضي في المستقبل، وظلُّ المستقبل على الماضي.

لم يكن اجتماعُ البرلمان إجباريّاً إلاّ في كلِّ ستّة أعوام.

كان اللوردات يتداولون بصورةٍ سّريةٍ، والأبواب مغلقة.

وكانت جلساتُ مجالسِ العموم علنية؛ فقد كانت الشّعبيةُ تبدو إنقاصاً من الشأن.

كان عددُ اللوردات غيرَ محدّد، وكانت تسميةُ اللّوردات هي التّهديدَ الذي تسلّطُه الملكيّة. وهي وسيلةٌ من وسائل الحكم.

في بداية القرن الثّامن عشر، كان لا يزالُ يصلُ تعدادُ مجلس اللوردات إلى رقمٍ جدّ كبير. وقد تضخّم أيضاً منذ ذلك الحين. وكانت إذابةُ الأرستقراطيّة سياسةً. ولعلّ إليزابيت قد ارتكبت خطأً بأن اختصرت النّبالةَ الإقطاعيّة إلى خمسة وستين لورداً. إن السّيادة الإقطاعيّة الأقلّ عدداً هي أقوى تأثيراً؛ ففي المجالس، بقدر ما يزدادُ عددُ الأعضاء، بقدر ما ينقصُ عددُ الرؤوس.

وكان جاك الثاني قد أحسّ بذلك حين رفع المجلسَ الأعلى إلى مئةٍ وثمانية وثمانين لورداً؛ أي مئة وستة وثمانون، إذا ما حذفنا من تلك النبالاتِ الإقطاعية دوقتي المخدع الملكيّ. بورتسموث وكليفلاند. وفي عهدِ آنا، كان عددُ اللوردات الكليّ مئتين وسبعة، بما في ذلك المطارنة.

بصرف النظر عن الدّوق دوكامبرلاند، زوج الملكة، فقد كان هناك خمسة وعشرون دوقاً لا يجتمعون، وأولهم نورفولك، لأنه كاثوليكي، وآخرهم كامبريدج، أمير هانوفر الانتخابي، وقد كان يجتمعُ، مع أنّه أجنبي، أمّا وينشستر الذي يوصفُ بأنه أوّلُ مركيز، والمركيز الوحيد في إنكلترا، شأنه شأن أستورغا المركيز الوحيد في إسبانيا الذي يتغيّب، نظراً لأنه كان يعقوبياً، فقد كان هناك خمسة مراكيز، وكان أوّلُهم ليندسي، وآخرهم لوتيان؛ وتسعة وسبعون كونتاً، أوّلهم ديربي، وآخرهم إيسلي؛ وتسعة فيكونتات، أوّلهم هيرفورد، وآخرهم لونسديل، واثنان وستوّن بارونا، كان أوّلهم أوبرغافنيه، وآخرهم هيرفيه. وكان اللورد هيرفيه، باعتباره البارون الأخير، ما كان يُدعى بــ "ثاني البكر" في المجلس. أما ديربي، فلأنه كان يرئسُه أوكسفورد، وشروسبوري وكِنْت، فلم يكن إلاّ الرابع في عهد جاك الثاني، وقد أصبح أوّل

الكونتات في عهد آنا. وكان قد غاب عن قائمة البارونات، فيرولام الذي يعثُر التاريخ في عهده على بيكون، وفيم الذي يعثر التاريخُ في عهده على جيفريه، وهي أسماءٌ قائمةٌ على نحوٍ متنوع. وفي عام ١٧٠٥، لم يكن المطارنة الستّةٌ والعشرون إلاّ خمسة وعشرين، بما أن مقعد شستر قد أصبح شاغراً، وبين المطارنة كان بعضهم أسياداً إقطاعيين كباراً جداً: وهكذا فإن وليام تالبوت، مطران أوكسفورد، قد كان رئيس الفرع البروتستانتي في عائلته. وكان آخرون علماء بارزين، من أمثال جون شارب، رئيس أساقفة يورك، والعميد السّابق لنورفيك، والشاعر توماس سبرات، مطران روشستر، وهو رجلٌ طيبٌ ومهيأٌ للسّكتة، ومطران لينكولن ذلك الذي كان مقدراً له أن يموت رئيسَ أساقفة كانتربوري، وويك، خصم بوسّوييه.

في المناسبات الهامّة، وحين كان هناك مجالٌ لتلقيّ إبلاغٍ من التّاج إلى المجلس الأعلى، فإن كلّ هذا الحشد العظيم الشأن من رجالِ القضاء، بشعرهم المستعار، وعمراتهم الحبريّة، أو قبّعاتهم ذات الرّيش، كان يُراصفُ وينضدُّ صفوفَ رؤوسه في قاعةِ النبّالة، على طولِ الجدران التي كانت تُرى فيها بصورةٍ مبهمةٍ عاصفةُ إبادةِ الأرمادا. أي ضمناً: عاصفة بإمرة إنكلترا.

IV

المجلس القديم

إن احتفالَ تقليدِ غوينبلين منصبه بكامله، منذ دخوله من تحت بوّابة الملك (كنغزغيت) وحتى إجراء الامتحان في المستدير المزجّج، كان قد جرى في نوعٍ من الغبش.

لم يكن اللورد وليامِ كوبر قد سمح إطلاقاً بأن يُعطى، هو قاضي قضاة إنكلترا، تفاصيلَ موضحّةً أكثر من اللاّزم حول تشوُّه وجهِ اللّورد الشّاب فيرمان كلانشارلي، معتبراً أن معرفته بأن نبيلاً ليس وسيماً هو أمرٌ يحطُّ من كرامته، وشاعراً بأنه يصغرُ من جرّاء الجسارة التي يمكنُ لأحد مرؤوسيه أن يحمل إليه معلوماتٍ من هذا النّوع. من المؤكّد أن رجلاً من عامّة الناس يقولُ بطيبة خاطر: هذا الأميرُ أحدب. وعليه، فأن يكون المرءُ مشوّهاً، في نظر لورد، يُعتبرُ أمراً مهيناً. وعلى الكلمات القليلة التي كانت الملكةُ قد قالتها له عن ذلك، كان اللورد – قاضي القضاة قد اكتفى بأن يردّ قائلاً: إن وجه السّيد الإقطاعي هو سيادته الإقطاعية. باختصار، وحول المحاضر التي كان لا بدّ له أن يتحقّق منها ويثبتها، كان قد تفهّم الأمر. ومن هنا اتُّخذت احتياطات.

كان وجه اللورد الجديد يمكنهُ، لدى وصوله إلى المجلس، أن يُحدثَ إثارةً معينة. وكان من المهمّ تداركُ ذلك. كان اللورد – قاضي القضاة قد اتّخذ تدابيره. إن إحداث أقلّ حدثٍ ممكن هو الفكرةُ الثابتة، وقاعدةُ سلوكِ الشّخصيات الرّصينة، فكراهيةُ الإشكالات تُشكلّ جزءاً من الجدّية. وقد كان من المهمّ أن يجري العملُ بحيث يمرّ قبولُ غوينبلين بلا عوائق، شأنها شأن قبولِ أيّ وريثٍ لنبالةٍ إقطاعية.

هذا هو السّبب في أن اللورّد - قاضي القضاة كان قد حدّد استقبالَ اللورد فيرمان كلانشارلي في جلسة المساء. وبما أن قاضي القضاة حاجب: quodammodo ostiarius، كما تقول المواثيق النورمنديّة، وهو: Januarum cancellorumque potesta، كما يقول تيرتوليان، فيمكنه أن يقيمَ الاحتفالَ خارجَ المجلس، على العتبة، وكان اللورد وليام كوبر قد استخدم حقّه بأن يتمّ في المستديرِ المزجّج شكليات تقليد اللورد فيرمان كلانشارلي لمنصبه. إضافةً إلى هذا، فكان قد قدّم السّاعة لكي يُدخلَ النبيلُ الجديدُ إلى المجلس قبل أن تبدأ الجلسة.

أما عن تقليد نبيلٍ لمنصبه على العتبة، وخارج المجلس نفسه، فقد كانت هناك سوابق لذلك. إن البارون الأول بالوراثة والذي عُيّن بصكّ، وهو جون دوبوشان، والذي هو من هولكاستل، وصنع منه ريشار الثاني، في عام ١٣٨٧، بارون كيدرمينستر، قد استُقبل بهذه الطّريقة.

فضلاً عن ذلك، فإن اللّورد - قاضي القضاة، بتجديده لتلك السّابقة، كان يصنعُ لنفسه إحراجاً قد شهدَ نتيجته الخطرة بعد ذلك بأقلّ من عامين، أثناء دخول الفيكونت نيوهافن إلى مجلس اللوردات.

ولئن كان اللّورد وليام كوبر الذي كان قصيرَ البصر، كما قلنا، قد تبيّن بصعوبةٍ تشوُّهَ غوينبلين، فإن اللّوردين العرّابين لم يتبيّنا ذلك إطلاقاً. فقد كانا شيخين ضريرين تقريباً.

وكان اللورد - قاضي القضاة قد اختارهما عمداً.

وهناك أكثر من هذا، وهو أن اللّورد - قاضي القضاة. الذي لم يكن قد شاهد إلاّ قامة غوينبلين ووقاره، فقد كان يجدُ أن له "وجهاً جدّ بشوش".

وفي اللحظة التي كان فيها حرّاسُ الأبواب قد فتحوا أمام غوينبلين البابَ الكبير ذا المصراعين، لم يكد يكون في القاعة إلاّ بضعة لوردات. وكان هؤلاء اللّوردات طاعنين في السّن جميعُهم تقريباً. إن الشّيوخ في المجالس هم سديدو الرأي، مثلما هم المواظبون لدى النساء. ولم يكن يُرى في مقعد الأدواق إلاّ دوقين، أحدُهما شاحبُ الوجه تماماً، والآخرُ شائبٌ، وهما توماس

أوسبورن، دوق دوليدز، وشونبرغ، ابن شونبرغ هذا، الألماني بالولادة، والفرنسيّ من حيث عصا الماريشاليّة، والإنكليزيّ من حيثُ النّبالة الإقطاعية، وهو الذي، طرد بموجب مرسوم نانت، بعد أن خاضَ الحربَ ضدّ إنكلترا. باعتباره فرنسياً، وحارب فرنسا، باعتباره انكليزياً. وعلى مقعد اللّوردات الرّوحيين، لم يكن هناك إلاّ رئيسُ أساقفةِ كانتوربوري، جثليق إنكلترا، في أعلى مكان، وفي الأسفل الدّكتور سيمون باتريك، مطران إيلي، والذي يتحدّثُ مع إيفلين بيبربون، مركيز دورشيستر، الذي كان يشرحُ له الفارقَ بين متراسٍ وجدار بين استحكامين، وبين حظائر القصب والتّضليعات المثقّبة، باعتبار أن حظائر القصب هي صفٌ من الأعمدة أمام الخيام، وهي مخصّصةٌ لحمايةِ التّخييم، والتضليعات المثقّبة هي طوقٌ من الأوتاد المدبّبة تحت حاجزٍ معقّلٍ يمنعُ تسلّقَ المحاصِرين وهروبَ المحاصَرين، وكان المركيزُ يعلّمُ المطرانَ الطّريقةَ التي يوسّعُ بها المرءُ فتحةَ متْرسٍ، وذلك بأن يضعَ نصفَ الأوتاد في الأرض، ونصفها في الخارج. وكان توماس تين، فيكونت فايموث، قد اقترب من شمعدان، وأخذ يعاين مخطّطاً لمعماره من أجل أن يصنعَ في حديقته، حديقة لونغ - بيت في ولتشاير، مرجةً يسمونها 'خضيرةً مقصوصة'. باستخدام مربّعاتٍ من الرّمل الأصفر، والرّمل الأحمرِ، والقواقع النّهريّة، ومن مسحوقٍ ناعمٍ من فحمِ الأرض.

وعلى مقعد الفيكونتات، كان هناك خليطٌ لا نظامَ فيه من اللّوردات الشّيوخ، من أمثال إيسيكس، وأوسولستون، وبيريغرين، وأوسبورن، ووليام زوليتشتاين، كونت دوروشفور، وبينهم بعض الشّبان من الزمّرة التي لا تعتمرُ شعراً مستعاراً، وتحيطُ برايس نيفيرو، فيكونت هاريفورد، وهم يناقشون مسألة أن يعرفوا إن كان نقيعُ بهشيّة المقيّئات يعتبرُ نوعاً من الشاي.

وكان أوسبورن يقول: 'تقريباً'، وإيسيكس يقول: 'تماماً'. وهذا ما كان يصغي إليه بانتباه بوليتس دوسان - جون ابن عمّ بولينغبروك الذي كان فولتير فيما بعد تلميذاً له بعض الشّيء، لأن فولتير الذي بُدء بتكوينه على يدِ لوبير بوريه، قد اكتمل على يد بولينغبروك. وعلى مقعد المراكيز، كان توماس دو غراي، مركيز كِنْت، واللورد حاجب ملكةِ إنكلترا، يؤكد لروبير بيرتي،

مركيزدو ليندسيه، اللورد حاجب إنكلترا، أن فرنسيّن لاجئين هما السّيد لوكوك، الذي كان قديماً مستشاراً في برلمان باريس، والسّيد رافينيل، النّبيل البروتانيّ هما اللذان ربحا جائزة اليانصيب الكبرى الإنكليزية في عام ١٦١٤.

كانت الكونت دو ويمز يقرأُ كتاباً عنوانه: الممارسةَ المثيرة لنبوءات العرّافات.

أما الكونت كامبل، كونت غريذويش، المشهور بذقنه الطويلة، وسنوات عمره السّبع والثمانين، فقد كان يكتب لعشيقته. وكان اللّورد شاندوس يقلّمُ أظافره، وإذْ كانت الجلسةُ التي ستعقبُ ذلك يفترضُ أن تكون جلسةً ملكيّة يُمثّل فيها التاجُ بمفوضيّن، فقد أخذ مساعدان يحرسان الأبواب يرتّبان أمام العرش مقعداً أحمر من المخمل. وعلى المقعد الصّوفي الثاني كان يجلس المسؤولُ عن أوراقِ الجلسة Sacrorum scriniorum magister والذي كان يسكنِ منزلَ اليهود المهتدين القديم. وعلى الكيسِ الرابع، كان معاونا الكاتب يتصفّحان السّجلات جاثيين.

ومع ذلك، فإن اللورد - قاضي القضاة كان يتخّذُ له مكاناً على الكيس الصّوفيّ الأول، وكان ضباطُ المجلس يأخذون مواضعهم، بعضُهم جالسٌ، والآخرون واقفون، وكان رئيسُ أساقفة كانتربوري يقفُ ويتلو الصلاّة، فتبدأ الجلسة. كان غوينبلين قد سبق له أن دخل منذ بعضِ الوقت، من غير أن ينتبه إليه أحد. ولم يكن يتعيّن عليه إلاّ أن يقوم ببضع خطوات، لأن مكانه الذي كان فيه، في مقعد البارونات الثاني، كان ملاصقاً لحاجز المجلس. وكان اللوردان عرّاباه قد جلسا على يمينه، وعلى يساره، وهذا ما كان يموّه تقريباً حضورَ الوافد الجديد. وإذْ لم يكن أحدٌ مخطراً بذلك، فإن كاتبَ البرلمان كان قد قرأ بصوتٍ خفيضٍ الأوراقَ المختلفة المتعلقة باللّورد الجديد، وهمس بها همساً تقريباً، وكان اللّورد - قاضي القضاة قد أعلنٍ قبوله في وسط ما يدعونه في البيانات بـــ 'عدم الانتباه العام'. لقد كان كلُّ شخصٍ يتكلمّ. وكان في المجلس ذلك الهرجُ والمرج الذي تصنعُ فيه المجالسُ كلَّ ضروبِ الأشياء الغسقيّة. والتي تدهشهُم أحياناً فيما بعد.

كان غوينبلين يجلسُ صامتاً، حاسرَ الرأس، بين النّبيلين العجوزين، اللورد فيتز فالتر، واللورد أروندِيل.

لنضفْ أن باركيلفيدرو، الذي كان على إطلاّع كاملٍ بالأمر، باعتباره جاسوساً، وبما أنه عازمٌ على النجاح في مؤامرته، فقد خفّف، من خلال أقواله الرسميّة، بحضورِ اللورد - قاضي القضاة، من تشوّه اللورد فيرمان كلانشارلي إلى حدّ معيّن، مؤكداً على ذلك التفّصيل الذي مفاده أن غوينبلين كان يمكنهُ حسب إرادته أن يلغي أثر الضحك، ويُرجع وجهه المشوّه إلى جدّيته. وكان باركيلفيدرو قد بالغ ربمّا بتلك الملكة حتى. زدْ على ذلك أنه من وجهةِ النظر الأرستقراطيّة، ماذا كان لذلك من تأثير؟ ألم يكن اللورد وليام كوبر هو المشرّع الذي صاغَ الحقيقة العامّة التالية: "إن إرجاعَ نبيلٍ إلى منصبه في إنكلترا أكثر أهميةً من إعادة تنصيب ملك"؟

لا شكّ أن الجمالَ والمنصبَ ينبغي ألا يكونا منفصلين، ومن المزعج أن يكون لوردٌ مشوهاً؛ ففي ذلك إهانةٌ من إهانات المصادفة، ولكن ولنؤكدْ على هذا، بمَ يُنقصنْ ذلك من الحق؟ كان اللورد - قاضي القضاة يتخذ الاحتياطات، وهو محقٌ في اتخاذها، غير أنه، إجمالاً، مع الاحتياطات أو بدونها، من كان يمكنه والحالة هذه أن يمنع نبيلاً من الدّخول إلى مجلس النبلاء؟ أليست النبالةُ الإقطاعيةُ والملكيّةُ أعلى شأناً من التّشوّه أو العجز؟ ألم تكن صيحةُ الحيوان الوحشيّ وراثية شأنها شأن النبالةِ الإقطاعية نفسها في السّلالة العتيقة المنقرضة في عام ١٣٤٧، وهي سلاسة الكومان، كونتات بوشان، بحيث كان يمكن تعرّف نبيلٍ اسكوتلنديّ من صرخةِ نمر؟ وهل منعت بقعُ الدّم المقززّة في وجه سيزار بورجيا من أن يكون دوقَ الفالنسيّين؟ وهل منعَ العمى جان دو لوكسمبور من أن يكون ملكَ بوهيميا؟ وهل منعت حدبةُ ريشار الثالث من أن يكون ملكَ إنكلترا؟ إذا ما نظر المرءُ جيداً إلى عمقِ الأشياء، فإن التّشوّهَ والقباحةَ المقبولين بعدم اكتراث متعالٍ، ومن دون أن يعارضا العظمة، هما يؤكّدانها، ويثبتانها. إن للنبالة الإقطاعيةِ مهابةً كبيرةَ إلى درجةِ أن التشوّه لا يعكّرها. وهذا هو الجانبُ الآخرُ من المسألة، وليس الجانبَ الأقلّ شأناً، فكما نرى، لم يكن هناك ما يمكنُه أن يُعيقَ قبولَ غوينبلين،

والاحتياطات الحصيفة للّورد - قاضي القضاة، والمفيدة من وجهةِ نظرِ التّكتيك الدّنيا قد كانت ترفاً من وجهةِ النظر العليا للمبدأ الأرستقراطي.

أثناء دخوله، وحسب التوصية التي كان قد قدّمها إليه مسؤولٌ الأسلحة، والتي جدّدها له اللّوردان العرّابان، فقد حيّا "الكرسيّ الملكيّ".

والحال، فقد انتهى الأمر، وأصبحَ لورداً.

إن هذه الرّفعةَ التي رأى مُعلّمهُ أورسوس، طولَ حياته، يخضعُ تحت لمعانها بذعر، هذه القمّة الخارقة، كان يراها تحت قدميه.

كان في المكان السّاطع والقاتم في إنكلترا.

إنّها هالةٌ مرعبةٌ لعالمٍ من الظّلمات.

لقد حدثَ دخولهُ إلى تلك الهالة. وهو دخولٌ لا رجوعَ فيه.

وأصبح هنا في منزله.

لقد أصبح فيه، وما من شيء من الآن وصاعداً يمكنه أن يجعله غير موجودٍ فيه.

وهذا التاجُ الملكيّ الذي كان يراه تحت ذلك السّرادق كان أخاً لتاجه الخاصّ به. لقد كان نظيراً(*) لهذا العرش.

قبالة الجلالة، كان النّبالةَ الإقطاعيّة، الأقلّ شأناً، ولكن المشابهة.

بالأمس، ماذا كان؟ مشعبذاً، والآن، ماذا أصبح؟ أميراً.

بالأمس، لا شيء، واليوم، كلّ شيء.

إنها مجابهةٌ مفاجئةٌ بين البؤسِ والاقتدار اللّذين يتصادمان مواجهةً في أعماق ذهنٍ معيّن، وفي مصيرٍ معيّن، ويغدوان فجأة نصفي وجدان معيّن.

طيفان، الحظّ العاثر، والازدهار، يستحوذان على الرّوح نفسها، وكلٌ منهما يشدّها إليه. إنه انشطارٌ مؤثّرٌ لعقلٍ معيّن، ولإرادةٍ معيّنة، ولدفاعٍ معين، بين هذين الأخوين العدوّين، الشبّح الفقير والشبح الغنيّ، هابيل وقابين في الرّجل ذاته.

(*) pair: نظير، ندّ، معادل، وهي تعني في سياق الرّواية "نبيل"، وعيّن إلخ... ' خصوصاً (م: ز.ع)

V
أحاديث متكبرّة

امتلأت مقاعدُ المجلس شيئاً فشيئاً. وبدأ اللّوردات يصلون. وكان جدولُ الأعمال هو التصّويت على مشروعِ قانونٍ يزيدُ مبلغ مئةِ ألفِ ليرةٍ إسترلينية على المخصّصات السّنوية لجورج دو دانمارك، دوق كامبرلاند، وزوج الملكة فضلاً عن هذا، فقد أُعلِن أن مشاريع قوانين مختلفة قد وافقت عليها جلالتُها سوف يجلبُها إلى المَجلس منتدبو التّاج الذين لديهم سلطةٌ وتكليفٌ بالتصّديقِ عليها، وهذا ما كان يجعلُ الجلسة جلسةً ملكيّة. لقد كان النبلاءُ جميعاً يلبسون رداءَ البرلمان فوق لباسِ المحكمة أو المدينة. وهذا الرّداءُ الذي يشبه الرّداء الذي يلبسُه غوينبلين، كان هو ذاته بالنسبة للجميع، غير أن الأدواقَ كانوا يضعون خمسَ شرائط من فرو القاقم بالإضافة إلى حواشٍ مذهبّة، والمراكيز أربعاً، والكونتات والفيكونتات ثلاثاً، والبارونات شريطتين. كان اللوردات يدخلون جماعات. وكان يجري التّلاقي في الممّرات، وتستمرُ الحواراتُ التي بُدءت. كان البعضُ يأتون بمفردهم. وكانت البزّاتُ رسميّةً، أما الوقفاتُ فلم تكن كذلك، ولا الكلمات. كان الجميع، أثناء دخولهم، يحيّون العرش.

كان النبلاءُ يتوافدون. وكان تتابعُ الأسماء المهيبة هذا يجري تقريباً من غير طقسٍ احتفاليٍّ، بما أن الجمهورَ كان غائباً. وكان ليسستر يدخل ويصافحُ ليشفيلد؛ ثم شارل موردون كونت دوبيتربورو ومونموث، صديق لوك، الذي كان قد اقترحَ بناءً على مبادرته إعادة سبك النقود؛ ثم شارل كامبل، كونت لودون الذي يصغي إلى فولك غريفيل، لورد بروك، ثم دورم، كونت دو كابيرنارفون، ثم روبيرسودون، بارون ليكسنغتون، ابن ليكسنغتون، الذي

نصح شارل الثاني بطرد غريغوريوليتي، المؤرّخ الرّسمي الذي ليس لديه ما يكفي من الحصافة ليبتغي أن يكون مؤرخاً، ثم توماس بيلاسيز، فيكونت فالكومبرغ، هذا العجوز الوسيم، ثم أبناء العمّ الثلاثة معاً هوارد، هوارد كونت بيدون، وبوير - هوارد، كونت بركشاير، وستافورد - هوارد، كونت ستافورد؛ ثم جونس لوفلاس (261)، بارون لوفلاس، والذي أتاحت نبالته الإقطاعية الزائلة في عام ١٧٣٦ لريتشارسون أن يدخل لوفلاس في كتابه، وأن يودعَ نموذجاً تحت هذا الاسم. إن كلّ هذه الشّخصيات المتباينة في شهرتها في السّياسة أو الحرب، والتي يشرّفُ بعضُها إنكلترا، كانت تضحكُ وتتحدثُ. كان ذلك كالتاريخ الذي يُنظرُ إليه بابتذال.

وفي أقلِّ من نصف ساعة، امتلأت القاعة بكاملها تقريباً. وكان ذلك مألوفاً تماماً.

فقد كانت الجلسة ملكيّةً، والذي كان مألوفاً أقلّ هو حيويّةُ الأحاديث؛ فالقاعةُ التي كانت قبل قليلٍ ناعسةً، قد أصبحت الآن غارقةً في الضّوضاء مثل قفيرِ نحلٍ مضطرب. والأمر الذي أيقظها كان وصولُ اللّوردات متأخرين. لقد كانوا يأتون بشيء جديد. إن هذا غريب! فالنبلاءُ الذي كانوا في القاعة لم يكونوا يعرفون ماذا كان يجري فيها، وأولئك الذين لم يكونوا فيها يعلمون.

كان عددٌ من اللّوردات قد وصل من وندسور.

منذ بضع ساعات، كانت مغامرةُ غوينبلين قد شاعت؛ إن السّرُّ شبكة، ما إن تنقطع منها حلقةٌ، حتى يتمزّق كلّ شيء. ومنذ الصّباح، وعلى إثر الحوادث التي رويناها أعلاه، قد افتضحت تلك القصّة، قصّةُ نبالةٍ إقطاعيةٍ ثمّ العثورُ عليها على خشبةِ مسرح، وقصّة بهلوانٍ تمّ الاعترافُ به لورداً، افتُضحت في ويندسور، في الخصوصيّات الملكيّة. كان الأمراءُ قد تحدّثوا عنها، ثم الخدم.

ومن البلاط انتشرَ الحدثُ إلى المدينة. إن للأحداث ثقلها، وقانونُ مربّع السّرعة يُطبّق عليها. إنها تسقط على الجمهور، ويتوغّلّ فيه بسرعةٍ خارقة. وعند السّاعة السّابعة، لم يكن هناك علمٌ بتلك القصّة في لندن. وعند السّاعة

الثامنة كان غوينبلين هو خبزُ المدينة. إن بعض اللوردات الدقيقين في مواعيدهم وحدهم، والذين سبقوا افتتاح الجلسة، كانوا يجهلون الأمر، لأنهم لم يكونوا يتبيّنون فيها شيئاً. وعلى ذلك، وإذْ كانوا هانئين في مقاعدهم، فقد كان الواصلون يهتفون بهم فجأة وقد سيطر عليهم الانفعال.

كان فرانسيس براون، فيكونت ما ونتاكوت، يقول للمركيز دودور شيستر:

"وإذن؟"

"ماذا؟"

- هل هذا ممكن؟

- ماذا؟

- الرّجل الضّاحك!

- وماذا يكونُ الرّجلُ الضّاحك؟

- ألا تعرفُ الرّجل الضاحك.

- لا.

- إنه مهرّجٌ. وصبيٌّ معرض. ووجهٌ غير معقول وكان الناسُ يذهبون لرؤيته مقابل فلسين. إنه مشعوذ.

- وبعد ذلك؟

- لقد استقبلتموه للتوّ كأحد نبلاء إنكلترا.

- الرّجل الضّاحك هو أنت أيّها الميلورد ماونتاكوت.

- أنا لا أضحك، أيّها المليورد دورشيستر."

وكان الفيكونت ماونتاكوت يعطي إشارةً لكاتب البرلمان الذي كان يقفُ عن كيسهِ الصّوفي، ويؤكد لأصحاب السيّادة حقيقةَ قبولِ النبيل الجديد. ثم تفاصيلَ ذلك.

وكان اللورد دورشيستر يقول:

"عجباً، عجباً، لقد كنت أتحدّثُ مع مطران إيلي".

كان كونت أديّسليه الشابّ يدنو من لورد أور العجوز، والذي لم يبقَ له إلاّ عامان ليعيشهما: فقد قدّر له أن يموت في عام /١٧٠٧/.

'ميلورد أور؟

'ميلورد أنيسليه؟

– هل عرفت اللورد لينيوس كلانشارلي؟

– رجلٌ من رجالِ الماضي، أجل.

– والذي مات في سويسرا؟

– أجل، لقد كنّا أقرباء.

– والذي كان جمهورياً في عهد كرومويل، والذي بقي جمهورياً في عهدِ شارل الثاني؟

– جمهورياً؟ على الإطلاق. لقد كان يحرد. وكانت هناك خصومةٌ شخصيّةٌ بين الملك وبينه. وإني أستقي من مصدرٍ موثوقٍ أن اللّورد كلانشارلي كان يمكن أن ينضمّ إلى الملك، لو أنه قد أعطي منصبَ كبيرِ القضاة الذي حصلَ عليه اللورد هايد.

– إنك تدهشني، أيّها الميلورد أور. لقد قيل لي إن ذلك اللورد كلانشارلي قد كان رجلاً نزيهاً.

– رجلاً نزيهاً! هل هذا موجود؟ أيّها الشابّ، ما من رجلٍ نزيه.

– وكاتون إذن؟

– أنت تؤمن بكاتون، أنت؟

– وأريستيد إذن؟

– لقد أحسنوا صنعاً بنفيه.

– وتوماس موروس؟

– لقد أحسنوا صنعاً بقطعِ عنقه.

– وبرأيك، اللورد كلانشارلي؟....

- قد كان من هذه الشاكلة. زدّ على ذلك أن رجلاً يبقى في المنفى شيءٌ مضحك.
- وقد مات فيه.
- إنه طمّاعٌ خائب. آه! كم كنت أعرفه! أظنّ ذلك حقاً. لقد كنت أفضلَ صديقٍ له.
- هل تعلم، أيّها الميلورد أور، أنه كان قد تزوّج في سويسرا؟
- أعرف ذلك تقريباً.
- وأنه قد رُزق بابنٍ شرعي من هذا الزّواج؟
- أجل، وقد مات.
- وهو حيّ.
- حيّ؟
- حيٌ.
- غير ممكن.
- هذا حقيقي. وتمّ إثباتُه. والتحقُّقُ منه، ومماثلتهُ وتسجيلُه رسميّاً.
- ولكن هذا الابن سيرثُ نبالةَ كلانشارلي الإقطاعية؟
- لن يكون وارثاً لها.
- لماذا؟
- لأنه قد أصبح وارثاً لها. لقد تمّ الأمر.
- تمّ الأمر؟
- أدرْ رأسك، أيّها الميلورد أور. إنه جالسٌ وراءك على مقعد البارونات".

كان اللورد أور يستدير، غير أن وجه غوينبلين كان يتوارى تحت غابةِ شعره.

كان العجوز يقول وهو يرى شعره "عجباً! وقد اتبّع الدُّرجة الجديدة، فهو لا يعتمرُ شعراً مستعاراً".

كان غرانثام يدنو من كليبير، ويقول:

"هذا واحدٌ قد وقع في الفخ!

– ومن يكون؟

– دافيد ديري – موار.

– ولماذا؟

– لم يعدْ نبيلاً.

– وكيف ذلك؟"

وأخذ هنري أوفركيرك، كونت غرانثام يروي لجون "بارون كليبيير، كلَّ الحكاية"، حكاية زجاجةِ الحطام المتبقية، والتي جُلبت إلى الإمارة البحريّة، ورقّ الكومبرا شيكوس، وأمر الملك(*) الذي صُدّقَ عليه باسم جيفريه، والمجابهة التي جرت في قبو ساوثويرك الجزائي، والموافقةِ التي أعطاها اللورد كبير القضاة والملكة على كلّ تلك الوقائع، وإجراءِ الاختبار في المستديرة المزجّجة، وأخيراً، قبولِ اللّورد فيرمان كلانشارلي في بداية الجلسة، وكان كلاهما يبذلُ جهداً ليميّزَ بين اللورد فريتز فالتر واللّورد أرونديل الوجه الذي كان يجري الكلامُ عليه كثيراً، وجه اللّورد الجديد، من غير أن ينجحا في ذلك أكثر مما نجح اللورد أور واللورد أنيسليه.

أما غوينبلين، فسواء كان ذلك بالمصادفة، أو بترتيب من عرّابيه اللذين أخطرهما بالأمر اللورد – كبيرُ القضاة، فقد كان جالساً في مكانٍ فيه ما يكفي من الظلّ بحيث يفلت من الفضول.

"أين هذا؟ أين هو؟"

كانت تلك هي صيحة الجميع عند وصولهم، إلاّ أنه لم يتوصّل أحدٌ إلى رؤيته جيداً، والبعضُ منهم، والذي كان قد رأى غوينبلين في الصّندوق الأخضر، كان جدّ فضولي، ولكن جهدهم كان بلا طائل. وكما يحدثُ أحياناً أن تُحبسَ

(*) باللاّتينية في النّص. (م: ز.ع).

بحرصٍ فتاةٌ في جماعةٍ من وارثاتِ صداقٍ مسنّات، فقد كان غوينبلين مطوّقاً ببضع طبقاتٍ من اللّورداتِ الشيّوخَ العاجزين أو غير المكترثين. إن رجالاً سانجين مصابين بالنقرس قلما يشعرون بقصصِ الآخرين.

كان يجري من يدٍ إلى أخرى تداولٌ نسخٍ من رسالةٍ مكوّنةٍ من ثلاثة أسطر كانت الدّوقة جوزيان، كما يؤكّدون، قد كتبتها إلى الملكة شقيقتها ردّاً على الإيعاز الذي كانت جلالتها قد وجّهته إليها للزّواج بالنبيل الجديد، الوريثِ الشرعيّ لأسرةِ كلانشارلي، اللّورد فيرمان، وكانت هذه الرّسالة قد صيغت على النحو التّالي:

"سيّدتي،

إنني أرغبُ كثيراً في هذا، ولسوف يمكّنني أن أتخّذ اللّورد دافيد عشيقاً لي".

التوقيع جوزيان. وقد لاقت هذه الرسالةُ الموجزة، سواء كانت حقيقيّة أم زائفة، نجاحاً مرحّباً بها.

كان يقرؤها لوردٌ شابٌ هو شارل دوكهامبدون، بارون موهون، من الزّمرة التي لا تعتمرُ شعراً مستعاراً، ويعيدُ قراءتها بسعادة، أما ليويس دو دورا، كونت فيفرشام، الإنكليزي الذي له مزاجٌ فرنسي، فقد كان ينظر إلى موهون ويبتسم.

كان اللورد موهون يهتف: "عجباً، هذه هي المرأة التي أودّ أن أتزوّجها!"

وكان جيرانُ اللّوردين يسمعون هذا الحوار بين دورا وموهون.

"أن يتزوج الدّوقة جوزيان، اللّورد موهون!"

- ولِمَ لا؟

- يا للطّاعون!

- سيكونان سعيدين!

- سيكونون متعدّدين.

– أليس ثمة تعدُّدٌ دائماً؟

أيّها اللورد موهون. إنك على حقّ. ففي موضوع النّساء، يحصل كلٌّ منّا على ما يبقى عن الآخرين. فمن الذي كانت له البداية؟

– آدم، ربّما.

– ولا حتى آدم.

– الشّيطان، في الحقيقة!

اختتم ليويس دو دورا كلامه بالقول:

– يا عزيزي، إن آدم ليسَ أكثر من مسخَّر. فيا لهِ من مخدوعٍ مسكين. لقد تحمّل عبءَ الجنسِ البشريّ. وقد صنع الشيطان الرّجل لخدمةِ المرأة.

لقد سُئل هيغو شو لمليه، كونت دوشولمليه، المشرّعُ القانونيّ الجيد من ناثائيل كرو، الجالس في مقعد الأساقفة، والذي كان نبيلاً من ناحيتين، نبيلاً زمنياً، باعتباره بارون كرو، ونبيلاً روحياً، باعتباره أسقفاً لدور هام.

وكان كرو يقول:

هل هذا ممكن؟

وكان شولمليه يقول:

وهل هذا قانوني؟

أستأنف الأسقف يقول:

– إن تقليدَ هذا الوافد الجديد لمنصبه قد جرى من خارج المجلس، غير أن هناك تأكيداً بأن لهذا التقّليد سوابق.

أجل، اللورد بوشان في عهد ريشار الثّاني، واللورد شونيه في عهد إليزابيت.

– واللّورد بروغيل في عهد كرومويل.

– كرومويل ليس له حساب.

– ما رأيك بكلّ هذا؟

– أشياء شتّى.

– أيهًا الميلورد الكونت دوشولمليه، ماذا ستكونُ مرتبةُ هذا الفتى فيرمان كلانشارلي في المجلس؟

– أيّها الميلورد الأسقف، بعد أن بدّلَ الانقطاعُ الجمهوريُّ المراتبَ السّابقة، أصبح كلانشارلي اليوم يشغلُ مرتبةً في النبالة الإقطاعيّة بين بيرنار وسومير، وهذا ما يعني، في حالةِ تسلسلِ دورِ إبداءِ الآراء، أن اللوردَ فيرمان كلانشارلي سيتكلم في الدّور الثّامن.

– في الحقيقة! مشعوذٌ من مشعوذي السّاحة العامّة!

– إن الحادثَ بحدّ ذاته لا يدهشُني إطلاقاً، أيّها الميلورد الأسقف؛ فهذه الأمورُ تحدث. ويحدثُ منها ما هو أكثر إدهاشاً. ألم يجرِ إعلانُ حربِ الوردتين بسبب الجفاف المفاجئ لنهر أوز في بيدفورد، في الأوّل من كانون الثاني للعام ١٣٩٩؟

والحال، فإذا كان يمكن لنهرٍ أن يصيبه الجفاف، فإن سيّداً إقطاعياً يمكن أن يقع في وضعٍ عبوديّ. إن أوليس، ملك إيتاكا، قد مارسَ كافة المهن. وبقي فيرمانِ كلانشارلي لورداً تحت مظهره كممثّل فاشل. إن وضاعة اللّباس لا تمسّ نبلَ الدّم. غير أن إجراء الاختبار، وتقليدَ المنصب خارج الجلسة، مع أنه شرعي عند الاقتضاء، فيمكن أن يثير اعتراضات. وفي رأيي أنه ينبغي التّفاهم على مسألة أن يُعرّفَ إن كان لا يزالُ ثمّةَ مجالٌ فيما بعد لطرحِ السّؤال على اللورد كبير القضاة في حديثٍ حكوميّ. ولسوف نرى بعد بضعة أسابيع ما سيكون فعلُه ممكناً.

وكان الأسقفُ يضيف:

هذا سيّان. إنّها مغامرةٌ لم نرَ مثلها منذ الكونت غيسبودوس.

غوينبلين، الرّجل الضاحك، ونزل تادكاستر، والعلبة الخضراء، والعماء المهزوم، وسويسرا، وشيون، والكومبرا شيكوس، والمنفى، والبتر، والجمهوريّة، وجيفرية، وجاك الثاني، وبأمر الملك، والزجاجة المفتوحة في إمارة البحر، والأب، واللورد لينيوس، والابن الشّرعيّ، واللّورد فيرمان، والابن غير

الشرّعي، واللّورد دافيد، والنزاعات المحتملة، والدّوقة جوزيان، واللورد كبير القضاة، كلّ ذلك كان يسري من مقعدٍ إلى مقعد، إنه نثارٌ بارود، إنه الوشوشة. لقد كان الناسُ يجترّون تفاصيلَ الموضوع. وكانت تلك المغامرةُ هي تمتمة المجلس الهائلة. أما غوينبلين، وبصورةٍ مبهمةٍ، من أعماقِ بئر أحلام يقظته التي كان غارقاً فيها، فقد كان يسمعُ تلك الهينمة من دون أن يعرف أنها من أجله.

مع ذلك، كان منتبهاً بشكلٍ غريب، ولكنّه منتبة للأعماق، وليس للسّطح.

إن الإفراطَ في الانتباه يتحوّل إلى انعزال.

إن الضّوضاء في مجلسٍ معيّن لا تمنعُ الجلسةَ من أن تأخذ مجراها، وليس أكثر من أن يمنع غبارٌ قطيعاً من السّير. أما القضاةُ الذين ليسوا في المجلس الأعلى إلاّ مجرّد مساعدين لا يمكنُهم الكلام إلاّ إذا سئلوا، فقد كانوا يتّخذون لهم مكاناً على كيس الصّوف الثاني، وأمناء سرّ الدّولة على الكيس الثالث. كان ورثةُ النبالةِ الإقطاعيّة يتوافدون إلى مقصورتهم من خارجها ومن داخلها في آن، والتي كانت خلف العرش. كان النبلاءُ القاصرون على مقعدهم الخاص. وفي عام ١٧٠٥، لم يكن عددُ هؤلاء اللّورادت الصّغار يقلّ عن اثني عشر، هينتنغدون، ولينكولن، دورسيت، وفارفيك، وباث، وبورلينغتون، ودورفينتووتر، الذي كان قدرُه أن يموت بشكلٍ مأسويّ، ولونغوفيل، ولونسدال، وداولي ووارد، وكارتوريه، وهذا ما كان يشكلّ جماعةَ أطفالٍ من ثمانية كونتات، ومن فيكونتين وبارونين.

داخل حرم المحكمة، وعلى طوابق المقاعد الثلاثة، كان كلُّ لوردٍ قد رجع إلى مكانه.

وكان كلُّ الأساقفة تقريباً موجودين هناك.كان الأدواق عديدين، بدءاً من شارل سيمور، دوق سوميرست، وانتهاءً بجورج أوغسطوس، أمير هانوفر الانتخابيّ، ودوق كامبريدج،و هو الأخير من حيث الأسبقيّة، والأخير من حيث المرتبة نتيجة لذلك. كانوا جميعاً على التسلسل، حسبَ حقوق التّصدّر:

كافندش، دوق دو دوفونشير، والذي كان جدّه قد أوى في هاردفيك الأعوامَ الاثنينَ والتسعين لهوبز، ولونوكس، دوق ريشمون، وآل فريتز – رويْ الثلاثة، الدّوق أورموند، وسومرست، دوق بوفور، وبوكليرك، دوق دوسانت – ألبان؛ وباوليت، دوق دوبولتون، وأوسبورن، دوق دوليدز، وريونسلي راسل، دوق بيدفورد الذي له صيحةٌ قتاليةٌ وشعارٌ هما:

`Che sara sara` أي القبول بالأحداث، وشيفيلد، دوق دوبوكنهام ومادرز، دوق دوروتلاند، والآخرون. ولم يكن هوارد، دوق دونورفولك، ولا تالبوت، دوق دوشروسبوري يحضران الجلسة، لأنهما كاثوليكيّان؛ ولا تشرشل، دوق مارلبورو – ما نسميّها مالبروك – الذي كان في الحرب، وهو يتغلّب على فرنسا في تلك اللّحظة. ولم يكن هناك حينئذ دوق اسكتلنديّ، بما أن كوينز بيرّي، مونروز، وروكسبورغ لم يكونوا قد قُبِلوا إلاّ في عام ١٧٠٧.

V I

الأعلى والأدنى

فجأة، شعَّ في المجلس ضوءٌ ساطع. لقد جلبَ أربعةُ حجّاب، ووضعوا من ناحيتي العرش أربعةَ مشعالات - شمعدانات عالية محمّلة بالشمّوع. أما العرشُ الذي أنير على هذا النحّو، فقد تراءى للناظر في نوعٍ من الأرجوان المضيء. كان خالياً، ولكنه مهيبٌ. ولم يكن للملكة وهي في داخله أن تضيف عليه شيئاً يُذكر.

دخل مأمورٌ تنفيذِ العصا السّوداء، رافعاً القضيب، وقال:

'أصحاب السّيادة مفوضو جلالتها'.

فهدأت كلّ الهمهمات.

ظهر كاتبٌ يعتمرُ شعراً مستعاراً ويرتدي لباساً فضفاضاً عند الباب الكبير وهو يحملُ وسادة عليها شعارٌ مزنبقٌ ويرى المرءُ عليها رقوقاً. وكانت هذه الرّقوقُ مشاريعَ قوانين. وبكلّ واحد منها كان يُعلّق بضفيرةٍ حريريّة الكرة أو الختمَ الذّهبيُّ أحياناً، وهذا ما يجعل القوانين تسمّى Bills في إنكلترا وBulles في روما.

في إثر الكاتب، كان يسيرُ ثلاثةُ رجالٍ بأرديةِ النبلاء، وقبعّة الرّيش على رؤوسهم.

كان هؤلاء الرّجال هم المفوّضون الملكيّون. وكان الأولُ منهم لورداً هو رئيسُ الخزانة الأعلى في إنكلترا، غودولفان، وكان الثاني منهم هو اللّورد رئيسُ المجلس، بمبروك، وكان الثالثُ هو لورد الختم الخاصّ، نيوكاسل.

كانوا يسيرون أحدهم خلف الآخر، حسب حقّ التّصدر، وليس بناءً على لقبهم، بل على مهمّتهم، غودولفان في المقدّمة، ونيوكاسل في المؤخرّة، مع أنه دوق.

وصلوا إلى المقعد الذي هو أمام العرش، وانحنوا إجلالاً للكرسيّ الملكيّ، ونزعوا قبعّاتهم ثم اعتمروها مجدداً، وجلسوا على المقعد.

نظر اللورد كبيرُ القضاة إلى مأمورِ العصا السّوداء وقال:

"استدعوا مجالس العامّة إلى حرم المحكمة".

فخرج مأمورُ العصا السّوداء".

أما الكاتبُ، الذي كان كاتباً لمجلس اللورد، فوضع على المنضدة، في مربّعٍ أكياس الصّوف، الوسادةَ التي كانت مشاريعُ القوانين عليها.

كان هناك انقطاعٌ دام بضعَ دقائق. ووضع حاجبان أمام حرم المحكمة مرقاةً من ثلاثِ درجات. وهذه المرقاةُ كانت مصنوعةً من المخمل القرمزيّ الذي ترسمُ عليه مساميرُ مذهّبة زهورَ زنبق.

انفتح مجدّداً البابُ الكبيرُ الذي كان قد أُغلقَ ثانية، وصاحَ صوتٌ قائلاً:

"أعضاء مجلس العموم المخلصون لإنكلترا".

كان مأمورُ العصا السّوداء هو الذي يعلنُ عن حضورِ النّصف الثّاني من البرلمان، واعتمر اللورداتُ قبّعاتهم.

دخل أعضاءُ مجلسِ العموم يسبقُهم رئيس المجلس، وجميعُهم حاسرو الرأس.

توّقفوا عند حرم المحكمة، وكانوا يرتدون ملابسَ المدينة، ومعظمهم متّشحون بالأسود، ومتمنطقون بالسّيف.

صعد رئيسُ المجلس، الجزيلُ الاحترام جون سميث، حاملُ السّلاح، والعضو عن بلدة أندوفر، صعد إلى المرقاة التي كانت في وسط حرم المحكمة. وكان خطيبُ مجلس العموم يرتدي ثوباً فضفاضاً طويلاً من السّاتان الأسود، وله أكمامٌ عريضةٌ ذاتُ شقوقٍ مزيّنةٍ بشرائط زخارفِ العرى المذهّبة

من الخلف ومن الأمام، ويعتمرُ شعراً مستعاراً أقلّ من اللورد كبير القضاة، لقد كان مهيباً ولكنه من مرتبةٍ أدنى.

بقي كلّ أولئك الذين هم أعضاءٌ في مجلس العموم ينتظرون، وهم واقفون وحاسرو الرّؤوس، أمام النبلاء الجالسين والمحتفظين بغطاء رؤوسهم.

كان المرءُ يلاحظُ بين أعضاء مجلس العموم، رئيسَ محكمةِ شيستر، جوزيف جيكيل، إضافةً إلى ثلاثة رقباء قانونييّن لجلالتها، هم هوبر، وبوييز وباركر، وجيمس مونتاغو، الضّابط القانونيّ العام، والمدّعي العام، سيمون، هاركور، وباستثناء بعض البارونيات والفرسان، وتسعة لوردات من ذوي التأدّب وهم هارتينغتون، ووينِدسور، وودستوك، وموراداونت، وغرامبي، وسكودامور، وفيتزهاردينغ، وهايد، وبيركلي، أبناء نبلاء وورثة نبالاتٍ، فإن الباقي كلّه كان من الشّعب. وهو ضربٌ من حشدٍ صامت.

حين توقّف صوتٌ خطى ذلك الدّخول، قال منادي العصا السّوداء:

"اسمعوا!"

نهض كاتبُ التّاج، وأمسكَ بأوّل الرّقوقِ الموضوعة على الوسادة وبسطه وقرأه. لقد كان ذلك بلاغاً من الملكة تُعيّن فيه، لتمثيلها في برلمانه، مع سلطةٍ لتصديقِ مشاريع القوانين، ثلاثةَ مفوضين هم الآتية أسماؤهم....

وهنا رفع الكاتبُ صوته، وقال:

"سدني، كونت دغودولفان."

حيّا الكاتبُ اللورد غودولفان؛ فرفع اللورد غودولفان قبّعته، وتابع الكاتب يقول:

"..... توماس هيربرت، كونت بمبْروك ومونتيغومري"

حيّا الكاتبُ بمبروك، فلمس اللورد بمبْروك قبعته. وتابع الكاتب يقول:

"..... جون هوليس، دوق نيوكاسل".

حيّا الكاتبُ اللورد نيوكاسل. فأومأ اللورد نيوكاسل بإشارةٍ من رأسه.

عاد كاتبُ التاجِ إلى الجلوس، ووقف كاتبُ البرلمان(*)، ووقف معاونُ الكاتب الذي كان جاثياً وراءه. وكانا كلاهما يواجهان العرش. ويديران الظهرَ لأعضاء مجلس العموم.

كان على الوسادة خمسةُ مشاريع قوانين، وكانت مشاريعُ القوانين الخمسة التي صوّت عليها أعضاءُ مجلس العموم، ووافق عليها اللوردات تنتظرُ التّصديقَ الملكي.

قرأ كاتبُ البرلمان مشروعَ القانون الأوّل.

لقد كان قراراً صادراً عن مجلسِ العموم، وكان يضعُ على عاتق الدّولة التحسينات التي أجرتها الملكةُ على مقرّ إقامتها في هامبتون - كورت، والذي تصلُ إلى مليون جنيه إسترلينيّ.

بعد أن جرت القراءة، حيّا الكاتبُ العرش بانحناء، وكرّر معاونُ الكاتب التحيّةَ بانحناءٍ أكبر أيضاً، ثم أدار رأسه جزئياً نحو أعضاء مجلس العموم، وقال:

"تقبل الملكة تبّرعاتكم الإلزامية، وهي تريدها على هذا النحو".

قرأ الكاتبُ مشروعَ القانون الثّاني.

وكان قانوناً يحكم بالسّجن وبالغرامة على أيّ شخصٍ يتملّصُ من العصائب المدرّبة.

والعصائب المدرّبة (هي مجموعةٌ من الجند الذين يمكن جرُّهم إلى المكان المرغوب)، وهم ميليشيا بورجوازية تخدمُ مجّاناً، وكانت قد قدّمت، في عهد إليزابيت، لدى اقتراب الأرمادا مئةً وخمسة وثمانين ألف جنديّ مشاة، وأربعين ألفاً من جنود الخيّالة.

قدّم الكاتبان تحيّةَ احترامٍ جديدةَ للكرسيّ الملكيّ، بعد ذلك، قال معاونُ الكاتب لمجلسِ العموم جانبيّاً.

"إنّ الملكة تريد ذلك".

(*) أوضحنا في غير موضع أن البرلمان في انكلترا قديماً هو المحكمة العليا (م: ز.ع).

كان مشروعُ القانون الثالث يزيدُ ضرائب العُشر، وتعويضات كهنة أبرشيّة ليشفيلد وكوفنتري، والتي هي إحدى أغنى حبريّات إنكلترا، وكان يخصّص ريعاً للكاتدرائية، ويزيدُ عددَ الكهنة القانونيّين، ويضخّم عمادة مجلس الكهنة والوظائف ذات الدّخل. "من أجل سدِّ حاجاتِ بيتنا المقدّس، كما كانت تقول المقدمة". وكان مشروعُ القانون الرّابع يضيفُ إلى الموازنة ضرائبَ جديدة، ضريبةً على الورق المرخّم، وضريبةً على عربات الأجرة محدّدةً عدديّاً بثمان مئة في لندن، ومرسّمة باثنتين وخمسين ليرة إسترلينية في العام على كلّ عربة، وضريبة على المحامين والنّواب العامين ووكلاء الدّعاوى، بمعدل ثماني وأربعين ليرة على كلّ فردٍ في العام، وضريبة على الجلود المدبوغة، "برغم تظلّمات صانعي الجلود، كما كانت تقولُ المقدِّمة". وضريبة على الصّابون،" برغم احتجاجات مدينةِ إكسيتر، وديفونشاير حيث يجري تصنيعُ كمّية من الصّرّج[*] والجوخ"، وضريبة على الخمر، بمعدّل أربعة شلنات على البرميل الكبير، وضريبة على الطحّين، وضريبة على الشّعير، وضريبة على حشيشة الدّينار، وتجدّد لأربعة أعوام "احتياجات الدّولة"، كما تقول المقدّمة، "وينبغي أن تمّر قبل اعتراضات التجارة" ضريبة الحمولة التي تتراوح بين ستّ ليرات توريّة عن كلّ برميل بالنسبة للمراكب الآتية من الغرب، وألف وثمانمئة ليرة بالنسبة للمراكب الآتية من الشّرق. وأخيراً، فإن مشروع القانون الذي يعلن عدم كفاية ضريبة الأعماق المعتادة التي تجبى في السّنة الجارية تنتهي إلى فرض ضريبةٍ إضافيّة عامّة على المملكة كلّها مقدارُها أربعة شلنات أو ثمانية وأربعون فلساً توريّاً عن كلّ فردٍ من الرّعيّة، مع الإشارة إلى أن أولئك الذين يرفضون أن يقسموا يمين الولاء الجديد للحكومة يدفعون ضعفَ الرّسوم. أمّا مشروعُ القانون الخامس فيمنع قبول أيّ مريض في المشفى إذا لم يودع عند الدّخول ليرةً إسترلينيةً لكي تُدفع، أجرةَ لدفنه، في حال موته. وكانت مشاريعُ القوانين الثلاثة الأخيرة شأنها شأن المشروعين الأوّلين قد صُدِّق عليها واحداً بعد الآخر، وأصبحت قوانين

(*) الصّرّج: نسيج صوفيّ متين (م: ز.ع).

بترحيبٍ من العرش، ومن كلماتِ معاونِ الكاتب القانوني الأربع: "إن الملكة تريد ذلك" والتي تُقال بإزدراء لمجالس العموم.

ثم جثا معاونُ الكاتب القانوني أمام الكيسِ الصّوفي الرابع، وقال اللورد رئيس القضاء:

"ليكن الأمرُ مثلما هو مرغوبٌ فيه".

وكان ذلك هو ختام الجلسة الملكيّة.

أما المتكلّم الذي انحنى بشدةٍ أمام رئيس القضاء، فقد نزل القهقرى عن المرقاة، وهو يرتّبُ رداءَه خلفهُ؛ وانحنى أعضاءُ مجالس العموم حتى الأرض. وفيما كان المجلسُ العالي يستأنفُ جدولَ عمله الذي انقطع، من غير أن يولي كلّ تلك الانحناءات اهتماماً، خرج المجلس الأدنى.

VII

عواصف الرّجال أسوأ من عواصف المحيطات

انغلقت الأبواب مجدّداً ودخل مأمورُ العصا السّوداء ثانية، وغادر المفوّضون مقعدَ الدّولة وأتوا ليجلسوا في مقدّمةِ مقعدِ الأدواق، في أماكن وظائفهم، فأخذ اللّورد رئيسُ القضاء يتكلّم:

"أيّها الميلوراندت، بما أن مداولة المجلس تدورُ منذ بضعة أيّام على مشروعِ القانون الذي يقترح زيادةً قدرُها مئة ألف ليرة إسترلينية على المخصصات السّنوية لصاحبِ السّمّو الملكي. الأمير زوج جلالتها، وبما أن المناقشة قد استوفيت وأُغلقت، فلسوف يُباشرُ التصويت، ولسوف يجري التّصويتُ، تبعاً لما هو معمولٌ به، بدءاً من ثاني البكر على مقعدِ البارونات.

ولسوف يقفُ كلّ لورد، عند مناداته باسمه، ويجيبُ بـ راضٍ أو غير راضٍ.

ويكون حرّاً في طرح دواعي تصويته، إذا ما ارتأى ذلك مناسباً. أيّها الكاتب القانوني، ادعُ إلى التصويت".

أما كاتبُ المجلسِ النيابي الذي كان واقفاً، فقد فتح دفتراً عريضاً رباعيّ الصّفحات مرفوعاً على قمطرٍ مذهّب، وهو دفتر النبالة.

كان ثاني البكر لمجلس ذلك العهد هو اللورد جون هيرفيه الذي نُصّب باروناً ونبيلاً في عام ١٧٠٣ والذي تحذّرَ منه مراكيزُ بريستول.

نادى الكاتبُ القانونيّ:

'الميلورد جون، بارون هيرفيه'.

نهض رجلٌ مسنّ يعتمرُ شعراً مستعاراً أشقرَ اللّون وقال:

'راضٍ'.

ثم عاد إلى الجلوس.

سجّل معاون الكاتب القانونيّ التصويتَ.

وتابع الكاتبُ القانونيّ:

'الميلورد فرانسيس سيمور، بارون كونواي دوكيلولتاغ.

فهمس وهو ينهضُ جزئياً فتى أنيقٌ له سحنة غلام، ولم يكن يخطر بباله أنّه جدُّ مراكيز إيرتفور:

- 'راضٍ'

وواصل الكاتب القانونيّ:

'الميلورد جون لوفيزون، بارون غوير'

نهض هذا البارون الذي لا بدّ أنه قد تحدّر منه أدواقٌ ساثرلاند، وقال وهو يجلس مجدّداً:

'راضٍ'

وتابع الكاتب القانوني:

' الميلورد هينيج فينش، بارون غير نيزيه'.

أما جدُّ كونتات إسفورد الذي ليس أقلّ شباباً، وليس أقلّ أناقة من سَلَف مراكيز هيرتفورد، فقد سوّغ شعاره: (262) Aperto vivere voto

بارتفاع صوتِ موافقته، فصاح:

'راضٍ'

وفيما كان يعودُ إلى الجلوس، كان الكاتبُ القانونيّ ينادي البارون الخامس:

"الميلورد جون، بارون غرانفيل"

فأجاب اللورد غرانفيل دوبورنريدج الذي وقف فوراً وعاد إلى الجلوس، والذي قُدّر لإقطاعته النبيلة التي لم يكن لها مستقبلٌ أن تندثر في عام ١٧٠٩:

"راضٍ"

انتقل الكاتبُ القانونيّ إلى السّادس:

" الميلورد شارل ماونتاغ، بارون هاليفاكس".

فقال لورد هاليفاكس، حامل لقب كان قد اندثر تحته اسم سافيل، وكان مقدراً أن يندثر اسمُ ماونتاغ؛ وماونتاغ مختلفٌ عن مونتاغو وعن مونتاكت:

"راضٍ"

وأضاف اللورد هاليفاكس:

"للأمير جورج مخصّصاتٌ باعتباره زوجُ جلالتها، وله مخصّصاتٌ أخرى باعتباره أمير الدانمرك. ومخصّصات أخرى كدوق دوكامبرلاند، وأخرى باعتباره اللورد القائد الأعلى (الأميرال) لبحريّة إنكلترا وايرلندا، وإنما ليس له مخصّصات باعتباره قائداً عاماً. فهذا يعدّ ظلماً. وينبغي العمل على إيقاف هذه الفوضى، في مصلحة الشّعب الإنكليزي".

ثمّ أن اللورد هاليفاكس قد امتدح الدّين المسيحيّ، ولام البابويّة وصوّت على الإعانة الماليّة.

وما إن عاد اللورد إلى الجلوس حتى عاود نداءَه سريعاً.

"الميلورد كريستوف، بارون بارنار".

إن اللورد بارنار الذي قُيّض أن ينحدّر منه أدواق كليفلاند، قد نهض عند المناداة باسمه.

"راضٍ"

وتباطأ بعضَ الشّيء حين عاد إلى الجلوس، وهو يرتدي ياقةً من الشّبيك (الدانتيلاّ) جديرةً بأن يلاحظها المرء. لقد كان هذا اللورد بارنار نبيلاً وقوراً، وضابطاً مقداماً. فضلاً عن ذلك.

وفيما كان اللورد بارنار يجلس مجدّداً، تردّد الكاتبُ القانوني بعض الشيء وهو يقرأ بصورةٍ اعتياديّة. لقد ثبّت نظارته وانحنى على السّجل باهتمامٍ زائد، ثم رفع رأسه وقال:

"الميلورد فيرمان كلانشارلي، بارون كلانشارلي وهذكرفيل".

فنهض غوينبلين، وقال:

"غير راضٍ"

استدارت الرّؤوسُ جميعاً. وكان غوينبلين واقفاً. وكانت مجموعاتُ الشّموع الموضوعةُ على جانبي العرش تضيء وجهه بشكلٍ ساطع، وتجعله يبرز في القاعة المعتمة الواسعة بمثل النفور الذي يمكن أن يكون لقناعٍ على أساسٍ من الدّخان.

كان غوينبلين قد حمّل نفسه هذا المجهودَ الذي كان ممكناً بالنسبة إليه عند الاقتضاء، كما نتذكرّ. وبتركيزٍ للإرادة يعادلُ التركيز الذي يقتضيه الأمرُ لترويضِ نمر.كان قد نجح في أن يجعل تكشيرة وجهه المشؤومة جديّةً لوقتٍ قصير. لم يكن يضحكُ في تلك اللحظة. ولم يكن لذلك أن يدوم طويلاً؛ إنّ تمرّداتنا على ما هو شرعتنا أو قدرُنا قصيرة؛ فماءُ البحر يقاومُ الجاذبية أحياناً، وينفتح إعصاراً ويصنع جبلاً، ولكن بشرط أن يعود إلى الهبوط إن هذا الصّراع هو صراعُ غوينبلين؛ فلدقيقةٍ من الزمّن كان يحسُّ بأنها ارتساميّة، وبتشديدٍ خارق للإرادة، وإنما بوقتٍ ليس أطول بكثير من التماعة برق، كان قد ألقى على جبينه نقابَ روحه القاتم؛ فقد كان يدعُ ضحكه الذي لا شفاء له معلّقاً. ومن ذلك الوجه الذي كان قد جرى نحتُه له، كان قد سحبَ الفرح. ولم يعدْ يتعدّى أن يكون مرعباً. وانطلقت الصّرخةُ: "ما هذا الرّجل؟"

سرى ارتعاشٌ لا يوصفُ على كافة المقاعد. إن هذا الشّعر المتلبّد، وهذه التجاويف السّوداء تحت الحاجبين، وتلك النظرة العميقة لعينٍ لا يراها المرء، والنموذجُ المجسّمُ المرعبُ لذلك الرأسِ الذي يخلطُ بشكلٍ مقزّز العتمة والنّور. كانت شيئاً مذهلاً. وكان يتخطىّ كلّ شيء. ومهما كان الكلامُ على غوينبلين، فإن رؤيته رهيبة. وحتى أولئك الذين كانوا يتوقّعون الأمر، لم

يتوقّعوه كذلك. فلنتصورْ على الجبل المخصصّ للآلهة، في احتفال أمسيةٍ صافية، اجتماعَ جماعةِ ذوي القدرة الكليّة، جميعاً، حيث يظهرُ فجأةً وجهُ بروميثيوس الذي تفتتُ به ضرباتُ منقارِ النسّر، وكأنه قمرٌ يقطرُ دماً عند الأفق. والأولمب يتطلّع إلى القوقاز، فأيّةُ رؤيا هذه! لقد نظر الشيوخُ والشبّان إلى غوينبلين، فاغري الأفواه.

إن رجلاً مسناًّ مقدّراً من المجلس كلهُ، وكان قد رأى العديد من الرّجال والكثير من الأشياء، وسمّي ليكون دوقاً، وهو توماس، كونت دوواردتون قد وقف مذعوراً.

وصاح:

"ما معنى هذا؟، من الذي أدخل هذا الرّجلَ إلى المجلس؟ ليطردْ هذا الرجل إلى الخارج".

وأخذ يؤنّبُ غوينبلين بتعالٍ:

"من أنت؟ ومن أين تخرج؟"

فأجاب غوينبلين:

"من الهوّة"

وإذْ تكتّفَ فقد نظر إلى اللّوردات، وقال:

"من أكون؟ أنا البؤس. أيّها اللوردات، علي أن أكلّمكم".

حدثت رعدةٌ، ثم هيمن صمتٌ، فتابع غوينبلين يقول:

"أيّها الميلوردات، أنتم في الأعلى. هذا حسن. ولا بدّ من الظنّ بأن لدى الرّب أسباباً لذلك. لديكم السّلطة، والثّراء، والفرح، والشمسُ الثابتة في سمتِ رأسكم، والسّطوة التي لا حدّ لها، والتمتّعُ الذي لا يشاركُكم فيه أحدٌ، ونسيانُ الآخرين الهائل. غير أن تحتكم شيئاً ما.

وربمّا فوقكم. أيّها الميلوردات، لقد أتيتُ لأنبئكم بخبر. إن الجنسَ البشريّ موجودٌ".

إن المجالسَ كالأطفال؛ والحوادث العارضة هي صندوق مفاجأتهم، وهي تخشاها وتستحسنُها ويبدو أحياناً أن محرّكاً يلعبُ دوره، فنشهدُ شيطاناً يبرزُ من النّقب. وهكذا فإن ميرابو قد كان هو أيضاً رجلاً مشوّهاً في فرنسا.

لقد كان غوينبلين في تلك اللحظة يُحسُّ في ذاته كبراً غريباً. إن جماعةً من الرّجال يتكلّم معها المرءُ هي مسندٌ ثلاثيّ القوائم. فيكون المرءُ تقريباً واقفاً على ذروةٍ من النفوس، فيحسُّ بأنّ ارتعاشاً لأحشاءٍ بشريّة تحت عقبه. إن غوينبلين لم يعدْ الرّجلَ الذي كان في الليْلة السّابقة للحظةٍ من الزّمن. صغيراً تقريباً. إن أدخنة تلك الرّقعة المفاجئة التي أشعرته بالاضطراب، كانت قد خفّت، واعتراها شيءٌ من الشّفافية، وفي ذلك المكان الذي كان غوينبلين قد أغراه فيه غرورٌ معيّن، كان يرى الآن وظيفةً معينة.

إن ما كان قد صغّره في البداية، يرفعُ حالياً من شأنه. لقد كان مستنيراً بإحدى تلك الومضاتِ العظيمة التي تأتي من الواجب.

وحول غوينبلين، كان يتعالى صياحٌ من كلّ جهةٍ قائلاً:

"أصغوا! اصغوا!"

أمّا هو الذي كان مع ذلك متشنجاً وفائقاً، فقد نجح في أن يُبقي على وجهه التّشنّجَ القاسي والحداديّ والذي كانت تكشيرتُه تشبُّ تحته، مثل حصانٍ برّي على أهبةِ الهروب؛ فاستأنف يقول:

"أنا ذلك الذي يأتي من الأعماق. أيها الميلوردات، فأنتم الكبار والأغنياء. وهذا محفوفٌ بالخطر. وأنتم تفيدون من الليل. ولكن حاذروا، فهناك قوةٌ كبرى، هي الفجرُ. والفجرُ لا يمكن أن يُهزم. ولسوف يأتي. إنه يصلُ. فهو يحمل في ذاته دفقَ النّهار الذي لا يقاوم. ومن الذي سيمنعُ ذلك المقلاع من أن يقذفَ بالشمس إلى السّماء؟ إن الشمْسَ هي الحقّ. أما أنتم فالامتياز. فلتخافوا. إن سيّد البيتِ الحقيقيّ سيطرقُ الباب. ومن هو أبو الامتياز. إنه المصادفة. ومن هو ابنه؟ إنه سوءُ الاستخدام. فلا المصادفةُ ولا سوء الاستخدام متينان. إن لأحدهما كما للآخر مستقبلاً سيّئاً. لقد أتيتُ لكي أحذّركم. أتيت لكي أشهرّ بسعادتكم. إنها مصنوعةٌ من شقاءِ الآخرين. إن

لديكم كلّ شيء، وهذا الكلّ شيء يتكون من لا شيء الآخرين. أيّها الميلوردات، إني المحامي القانط، وأترافعُ عن القضيةِ الخاسرةَ. وهذه القضيةُ سوف يكسبُها الربّ؛ فانا لستُ شيئاً، لست إلاّ صوتاً. إن الجنسَ البشريُّ فمٌ، وأنا صيحتهُ. ولسوف تسمعونني. لقد أتيتُ لأفتح أمامكم، يا لوردات إنكلترا، قواعدَ الشّعب، هذا السّيد الذي هو المعذّب، هذا المحكوم الذي هو القاضي. إني أرزحُ تحت ما يتعيّن علي قولُه. فمن أين أبدأ؟ لا أدري. لقد جمعتُ مرافعتي الهائلة المتناثرة من انتشار العذابات الواسع. فماذا أصنعُ بها الآن؟ إنها ترهقني، وأنا ألقي بها أمامي بلا نظام. فهل كنتُ أتوقّع هذا؟ لا. إنكم مصابون بالدّهشة، وأنا أيضاً. بالأمس، كنت مشعوذاً، واليوم، أنا لورد. إنها تلاعباتٌ غامضةٌ. ممن؟ من المجهول. فلنرتجفْ جميعاً. أيها الميلوردات، فكلّ اللاّزود إلى جانبكم. ومن هذا الكون الشّاسع، لا ترون إلاّ الاحتفالَ. فلتعلموا أن هناك عتمةً.

إني أدعى اللورد فيرمان كلانشارلي بينكم، غير أن اسمي الحقيقي هو اسم إنسانٍ فقير هو غوينبلين. إني بائسٌ جرى تفصيلهُ من قماشِ الكبار على يدِ ملكٍ كانت تلك هي رغبته. هذه هي قصّتي. إن عدداً من بينكم قد عرف والدي. وأنا لم أعرفه. ومن هذه الناحية الإقطاعية إنما يقربكم، وأنا أنتمي إليه من ناحية كونه مبعداً. إن ما صنعه الرّبُّ حسن، فقد ألقي بي إلى الهاوية. وبأيّ هدف؟ لكي أرى قعرها. إني غوّاصٌ، وآتي باللؤلؤ، الذي هو الحقيقة، إني أتكلّم لأني أعلم. ولسوف تسمعونني.

أيّها الميلوردات. لقد كابدتُ ورأيتُ. لا، إن العذابَ ليس كلمةً، أيّها السّادة السّعيدون. والفقرُ قد ترعرتُ فيه، وشتاءً، قد ارتعدتُ فيه، والجوعُ، قد ذقتُه، والاحتقار، قد عانيتهُ، والطّاعون قد أُصبتُ به، والعارُ قد تجرّعته. ولسوف أتقيّؤهُ ثانية أمامكم، ولسوف يلطّخُ هذا التقيؤ، تقيؤ كلِّ ضروبِ البؤس أقدامكم، وسوف يتوهّج. لقد ترددّتُ قبل أن أدعهم يأتون بي إلى هذه السّاحة التي أنا فيها. فلديّ واجباتٌ أخرى في أمكنة أخرى. وقلبي ليس في هذا المكان. إن ما حدثَ في داخلي لا يعنيكم؛ وحينما أتى الرّجل الذي تدعونه بمأمور العصا السّوداء ليبحث عني من قبل السّيدة التي تسمّونها الملكة،

خطرت لي للحظةٍ من الزّمن فكرةُ الرّقص. إلاّ أنه قد بدا لي أن يدَ الرّب الخفيّة كانت تدفعني من تلك النّاحية. وقد امتثلتُ. وشعرتُ بأنه كان يتعيّن عليّ أن آتي لأصبح في عدادكم. لماذا؟ بسبب أسمالي السّابقة. ولكي أتكلّم في وسط الشّبعانين الذين كان الرّب قد خلطهم لي بالجائعين. أوه! فلتكن لديكم الرأفة! أوه! إن هذا العالم المشؤوم الذي تظنون أنكم منه، أنتم لا تعرفونه. وبما أنكم في مقامٍ عالٍ جداً، فأنتم خارجه. ولسوف أقولُ لكم أنا ما هو ثقلكم؟. أنتم أيّها السّادة، هل تعلمون ماذا تكونون؟ وهل ترون ما تصنعونه؟ كلاّ. آه! إن كلّ شيء مخيف. فذاتَ ليلة، ذات ليلةٍ عاصفة، وقد كنتُ صغيراً جداً، ومتروكاً، ويتيماً، ووحيداً في الكون الشّاسع، دخلتُ إلى تلك العتمة التي تسمّونها المجتمع. والشّيء الأوّل الذي رأيته هو القانون تحت شكلِ مشنقة، والشّيء الثاني هو الغنى، هو غناكم، تحت شكل امرأةٍ قد ماتت من البرد والجوع، والشيء الثالث هو المستقبل، تحت شكلِ طفلٍ محتضر، والرابع هو الطيّب، والحقيقي، والصّالح، تحت صورة متشرّدٍ ليس له رفيقٌ وصديق إلاّ ذئب".

في تلك اللحظة، أحسّ غوينبلين وقد أصابه انفعالٌ ممضّ بأن الزّفرات قد صعدت إلى حنجرته. والمرعبُ في الأمر، أن ذلك قد جعله يقهقه.

وكانت عدوى الضحك فوريّةً. ومرت سحابةٌ فوق المجلس، وكان يمكنُها أن تتساقط ذعراً، فتساقطت فرحاً. لقد أخذ الضّحك، ذلك الجنونُ المتفتّح قاعةَ المجلس بكاملها. إن منتديات الرّجال السّادة لا ترغبُ في شيء أكثر مما ترغب في الهزل. إنها تثأرُ لجدّيتّها (263).

يشبه ضحكُ الملوك ضحكَ الآلهة؛ ففيه دوماً لذعةٌ قاسية. لقد أخذ اللوردات يلهون. وشحذ الهزءُ الضّحكَ. لقد صفقوا بأيديهم حول ذلك الذي كان يتكلّم، وأهانوه. وانقضّ عليه خليطٌ من أصواتِ التعجّب المرحة، مثل وابل مرح ومجرِّح.

"مرحى، يا غوينبلين! – مرحى للرّجل الضّاحك! – مرحى لخطمِ العلبة الخضراء! مرحى لرأس تارينزو – فيلد المنبوح! – قدّمتَ لنا عرضاً للتوّ.

وهذا حسن! ثرثرٌ! - هذا شخصٌ يضحكُني! - ولكنه يضحكُ جيّداً، هذا الحيوان! - صباح الخير، أيها المهرّج الدّمية! - تحيّةٌ إلى اللورد البهلوان! - اخطبْ، هيّا! - أهذا هو عينٌ من أعيان إنكلترا، هذا! - تابع! - لا! لا - أجل! أجل! '.

وكان اللورد رئيس القضاة متضايقاً.

وكان لوردٌ أصمّ، هو جيمس بتلر، دوق أورمون يسألُ شارل بوكليرك، دوق سانت - ألبان، وهو يصنعُ أمامَ أذنه بوقاً صوتياً: 'كيف صوّت؟'

وكان سانت ألبان يجيبه:

'غير راضٍ'

فقال أورمون:

- تباً. إني أظنُّ ذلك حقّاً. مع هذا الوجه! '

إنه حشدٌ منفلت - والمجالسُ حشود - فاقبضوا عليه إذن. إن الفصاحة لجام؛ وإذا ما انكسرَ اللجّامُ، فإن المستمعَ يصيرُ جامحاً، ويهجمُ حتى يطرحَ الخطيبَ عن سرجه. إن المستمع يكرهُ الخطيب. وهذا أمرٌ ليس معروفاً بشكلٍ كافٍ. وأن يشدَّ المرء قبضتَه على العنان يبدو حيلةً يلجأ إليها. وهي ليست كذلك. وكلُّ خطيب يجرّبها. فهذا أمرٌ غريزيّ. وقد جرّبها غوينبلين.

لقد تأمّل للحظةٍ هؤلاء الرّجال الذين كانوا يضحكون. فصاح:

'أنتم تهينون البؤس. إذن. فصمتاً، يا أعيان إنكلترا! أيّها القضاة، اسمعوا الدّفاع. أوه إني أرجوكم بحرارةٍ أن ترأفوا! أن ترأفوا بمن؟ أن ترأفوا بأنفسكم. فمن هو الذي في خطر؟ إنه أنتم. ألا ترون أنكم في ميزان، وأن اقتداركم في كفّة ومسؤوليتكم في الكفّة الأخرى؟ إن الله يزنكم. أوه! لا تضحكوا. بل تأمّلوا. إن ترجُّحَ ميزانِ الرّب هذا هو ارتجافُ ضميركم. أنتم لستم أشراراً. إنكم رجالٌ كالآخرين، لا أفضل منهم ولا أسوأ. تظنّون أنفسكم آلهة، فلتمرضوا غداً. وانظروا إلى ألوهيتكم وهي ترتعدُ في الحمّى. إننا جميعاً نساويكم قيمةً. وأنا أتوجهُ إلى النفوس النزيهة؛ فثمّة نفوسٌ منها هنا؛

وأتوجّه إلى العقول الراقية، فهناك عقولٌ منها؛ وأتوجّه إلى الأرواح النّبيلة، فهناك أرواحٌ منها هنا، أنتم آباءٌ وأبناءٌ وإخوة، فغالباً ما تشعرون بالحنان إذن. إن ذلك الذي من بينكم قد نظر هذا الصّباح إلى استيقاظ ابنه الصّغير طيّبُ القلب. فالقلوبُ متماثلةٌ. وليست الإنسانيةُ شيئاً آخرَ سوى قلب.

وبين أولئك الذين يضطهِدون، وأولئك الذين يُضطهَدون ما من فارقٍ إلاّ في المكان الذي يتوضّعون فيه. إن أقدامكم تمشي على الرّؤوس، وليس هذا ذنبكم. إنه ذنبُ بابل الاجتماعية. ذلك المبنى المخفق الذي يميل عن سمت الرّؤوس. إن طابقاً يبهظُ الآخر. فاصغوا إليّ، أريد أن أكلّمكم. أوه! بما أنكم مقتدرون، فلتكونوا متآخين. بما أنكم كبار، فلتكونوا رقيقين. لو تعرفون ما رأيت وأسفاه! هنا في الأسفل، أيّ عذاب! إن الجنسَ البشريّ في الزنزانة. فما أكثر المعذّبين الذين هم بريئون. إنهم يفتقرون إلى الضّوء، ويفتقرون إلى الهواء، ويفتقرون إلى الفضيلة. ولا يرجون شيئاً. والأمرُ المرعبُ هو أنهم ينتظرون. ولتدركوا هذه الكروب. إن هناك كائناتٍ تعيش في الموت. وهناك فتياتٌ صغيراتٌ يبدأن بالدّعارة في الثامنة من أعمارهن، وينتهين بالشّيخوخة في العشرين. أمّا عن ضروبِ القسوة الجزائية، فهي فظيعةٌ. إني أتكلّمُ دون رويّةٍ بعض الشيء، ولا أختار، وأقول ما يخطرُ على ذهني. وفي وقتٍ ليس أبعدَ من الأمس، أنا الموجود هنا، قد رأيتُ رجلاً مصفّداً وعارياً، والحجارةُ على بطنه، وهو يقضي تحت التّعذيب. هل تعلمون هذا؟ لا. لو كنتم تعلمون ما يجري، لما تجرأ أحدٌ منكم على أن يكون سعيداً. فمن الذي ذهبَ إلى نيو - كاسل - أون - تاين؟ هناك في المناجم رجالٌ يمضغون الفحم لكي يملؤوا معدتهم، ويخادعوا الجوع. ولتعرفوا أنه في كونتيّةِ لانكاستر، قد تحوّلت ريبلينشستر من مدينةٍ إلى قريةٍ من فرط العوز. وأنا لا أقدّر أن الأميرَ جورج أمير الدّانمرك قد احتاج إلى مئةِ ألف جنيه زيادة.

وأفضل أن أستقبل في المشفى المريضَ المعوزَ من دون أن أجعله يدفع مسبقاً تكاليفَ دفنه. ففي سايبرنارفون، في تريريث، مور، كما في تريث - بيشان، مرعبٌ هو إرهاقُ الفقراء، وفي ستراتفورد، لا يمكن تجفيفُ المستنقع لعدم وجود المال. وقد أغلقت معاملُ الجوخ في لانكشاير بكاملها. إن البطالة

في كلّ مكان. هل تعلمون أن صيادي الرّكة في هارليش يأكلون العشب حين لا يتوفرّ الصيّد؟ هل تعلمون أنه لا يزال هناك مجذومون مطارَدون في بوردّون - لازيرز، وتُطلقُ عليهم نارُ البنادق إذا ما خرجوا من محاجرهم؟ وفي إيلسبوري، المدينة التي هناك لوردٌ من بينكم عنها، لا يزالُ القحطُ مستمراً. وفي بذكريدج في كوفنتري التي وقفتم فيها مالاً للكاتدرائية، وأغنيتم أسقفها، ليس هناك أسرّة في البيوت الحقيرة، ويجري حفرُ فجواتٍ في التّرابِ لإضجاعِ الأطفال الصّغار بحيث أنهم يبدؤون بالقبر بدلاً من أن يبدؤوا بالمهد.

لقد رأيتُ هذه الأشياء. إن الضرائبَ التي تصوّتون عليها، أيّها الميلوراندت، هل تعلمون من الذي يدفعُها؟ أولئك الذين يقضون.

فوا أسفاه! إنكم مخطئون. وأنتم تضلّون الطريّق. إنكم تزيدون فقرَ الفقير لكي تزيدوا غنى الغنيّ. والعكسُ هو الذي ينبغي أن يُصنع. فماذا، أيؤخذُ من الشغيّل ما يُعطى للبّطال، ويؤخذُ من رثيثِ الثياب ما يُعطى للشبعان، ويُؤخذ من المعوز ليعطى للأمير! أوه أجل، إن لدي دماً جمهورياً قديماً في عروقي. وإني أستفظعُ تلك الأمور. أما هؤلاء الملوك، فأنا أمقُتهم! وما أشدّ تهتّك النسّاء! لقد رُويت لي قصّةٌ محزنة. أوه! إني أكره شارل الثاني! إن امرأةً كان والدي قد أحبّها قد أعطت نفسها، تلك الدّاعرة، للملك، في حين كان والدي يموت في المنفى. ولشارلُ الثاني، ولجاك الثاني، فبعد خسيسٍ، يأتي أثيم! فماذا في شخصِ الملك؟ إنه رجلٌ، عرضةً للرّغبات والعاهات، وضعيف وهزيل.

فبأيّ شيء يفيدُ الملك؟ إن هذه الملكية الطّفيليّة، أنتم تلقمونها. دودة الأرض هذه، أنتم تصنعون منها ثعبانَ بوا. وهذه الدّودة الشريطية، أنتم تصنعون منها تنّيناً. فالرحمةُ للفقراء! إنكم تثقلون الضّريبة لمصلحة العرش. واحذروا من القوانين التي تسنّنونها. احذروا من التّجمهر الأليم الذي تسحقّونه. اخفضوا عيونك. وانظروا إلى أقدامكم. أيّها الكبار، إن هناك صغاراً! فترفّقوا. أجل، ترّفقوا بأنفسكم! لأن الحشود تحتضرُ. والأدنى أثناء موته يجعلُ الأعلى يموت. إن الموتَ انقطاعٌ لا يستثني أيّ عضو .

وحين يحلُّ الليلُ لا يحافظُ أحدٌ على زاويته المضيئة. فهل أنتم أنانيّون؟

أنقذوا الآخرين. إن هلاكَ السّفينة ليس أمراً عديم الأهميّة بالنسبة لأيِّ مسافر. فليس هناك غرقٌ لهؤلاء من دون أن يكون هناك ابتلاعٌ لأولئك. أوه! فلتعملوا ذلك، إن اللجّة للجميع".

تضاعفَ الضحكُ بشكلٍ لا يقاوم. وفوق ذلك، فقد كان يكفي لإبهاجِ مجلسٍ معيّن، ما تتضمنه تلك الكلمات من مبالغة.

ما من عذابٍ أكثر إذلالاً، وما من غضبٍ أشدّ من أن يكون المرءُ مضحكاً من الخارج، ومأسوياً من الداخل. كان ذلك حاضراً لدى غوينبلين، وكانت كلماتهُ تريدُ أن تعمل في اتجاه، ووجهُه يعملُ في الاتجاه الآخر. إنه وضعٌ مريع. وانطلقت من صوته فجأةً صيحاتٌ ثاقبة.

"إنهم فرحون، هؤلاء الرّجال! هذا حسن. إن السّخريةَ تجابهُ الاحتضار. والهزءَ يهينُ الحشرجة. إنهم كلّيّو القدرة! هذا ممكن، فليكن. وسنرى. إني واحدٌ منهم. وأنا أيضاً واحدٌ منكم، أنتم، أيّها الفقراء! إنّ ملكاً قد باعني، وفقيراً قد التقطني. ومن الذي شوّهني؟ إنه أميرٌ، ومن الذي شفاني وأطعمني؟ متضوّرٌ جوعاً. أنا اللّورد كلانشارلي، ولكني أبقى غوينبلين. إني مرتبطٌ بالكبار، وأنتمي إلى الصّغار. أنا في عدادِ أولئك الذين يستمتعون، ومع أولئك الذي يتألموّن. آه، إن هذا المجتمع زائف.

وذات يوم سيأتي المجتمعُ الحقيقيّ. وحينذاك، لن يكون هناك سادةٌ، وسيكون هناك آباء.

هذا هو المستقبلُ. لن يكون هناك إذلالٌ، ولن تكون هناك خسّةٌ، ولن يكون هناك جهلٌ، ولن يكون هناك أناسٌ دوابّ، ولا متملّقون للسّلطة، ولا خدم، ولا ملوك، بل النّور! وبانتظار ذلك، ها أنذا. لي حقّ، وأنا أستخدمُه. فهل هو حقّ؟ لا، إذا استخدمتهُ لنفسي. ونعم، إذا استخدمتهُ من أجل الجميع. سوف أتكلّم مع اللّوردات، باعتباري واحداً منهم. آه، يا إخوتي الذين تحت، سوف أحدثّهم عن عوزكم. سأنتصب. وفي يدي حفنةٌ من أسمالِ الشّعب، وسأهزّ على السّادة بؤسَ العبيد، ولن يكون باستطاعتهم، هم المحظوظين،

والمتكبّرين، أن يتخلّصوا من ذكرى المنكوبين، وأن يتملّصوا، هم الأمراء، من اكتواء الفقراء، وتبّاً لهم إن كانت تلك الحفنةُ حفنةً من الأوباش، ونعماً لهم إن وقعت على الأسود.'

وهنا، استدار غوينبلين نحو معاوني الكتبة القانونيين الجاثين الذي كانوا يكتبون على كيسِ الصّوف الرابع.

'من همّ هؤلاء الناس الرّاكعون؟ ماذا تصنعون هنا؟ انهضوا، أنتم بشر'.

إن هذا النّداءَ المفاجئ لتابعين لا ينبغي للّورد حتى أن يلحظهم، قد زاد من ضروب المرح إلى الحدّ الأقصى، فكانوا يصيحون مرحى، وانطلقت صرخةٌ هورّا! وانتقلوا من التصفيق بالأيدي إلى العرقصة. حتى ليظنّ المرءُ نفسه عند العلبة الخضراء. إلاّ أن الضحك، عند العلبة الخضراء، كان يحتفي بغوينبلين، أما هنا، فقد كان يقضي عليه. إن القتل هو ما يسعى إليه الاستهزاءُ. إن ضحكَ الناس يصنعُ أحياناً كل ما يستطيعُه للاغتيال.

لقد أصبح الضّحكُ وسيلةَ عنف. كانت المزاحاتُ تتهمرُ. إن حماقةَ المجالس هي في أن تكون ذات نباهة؛ فهزؤها الحاذقُ والأبلهُ يستبعدُ الوقائعَ بدلاً من دراستها، ويدينُ المسائل بدلاً من حلّها، إن حادثاً عارضاً هو إشارةَ استفهام أما الضّحكُ، فهو ضحكٌ من اللغز. وأبو الهول الذي لا يضحك، هو وراء ذلك.

كانت تُسمع ضروبٌ متناقضة من الصّخب:

'كفى! كفى! - أيضاً - أيضاً'

كان وليام فارمر، بارون ليمبستر يقذف غوينبلين بالشّتيمة التي قذف بها ريكِ - كيني شكسبير:

'Histrio, mima' (264)

وكان اللورد فوغان، الرّجل الصموت، الجالس على مقعد البارونات التاسع والعشرين يهتف:

'ها نحن مجدّداً في العصر الذي تخطبُ فيه الحيواناتُ بأطناب. ويوكل الكلام إلى فكٍّ حيوانيٍّ بين الأفواه البشريّة.

وكان اللورد يارموث يضيف:

"لنصغِ إلى حمار بلعام.

كانت للورد يارموث هيئة رجلٍ لبيبٍ يُضفيها عليه أنفٌ مستديرٌ وفمٌ منحرف.

وكان جون هوغ، أسقف ليشفيلد وكوفنتري والذي كان غوينبلين قد تعرّض لتعويضاته قليلاً. كان يقول:

"يتمّ الاقتصاصُ من المتمرّد لينيوس في قبره؛ فالابنُ عقابٌ للوالد.

وكان اللورد شولملي، المشرّعُ القانونيّ يؤكّد:

"إنه يكذبُ. فما يسميّه تعذيباً، إنما هو العقابُ القويّ والقاسي، وهو العقاب الجيّد جداً. فالتعذيبُ غيرُ موجود في إنكلترا".

وكان توماس وينتوورث، بارون رابي، يصيحُ برئيس القضاة:

– أيّها الميلورد رئيس القضاة، ارفعوا الجلسة.

– لا! لا! لا! فليتابعْ كلامه، إنه يسلّينا! هورّا، هيب! هيب! هيب! ".

هكذا كان يصيحُ اللّوردات الشّبان، وكان مرحهُم هيجاناً. وكان أربعةٌ منهم خصوصاً في أوج اشتداد المرح والكراهية. وكانوا لورنس هايد، كونت دوروشستر، وتوماس توفتون، كونت دوتانيت، والفيكونت دون هاتون، والدّوق دومونتاغو.

وكان روشيستر يقول:

"إلى حجرةِ الكلب، يا غوينبلين! "

وكان تانيت يقول:

– يسقط! يسقط! "

وكان الفيكونت هاتون يُخرج من جيبه بنساً ويُلقي به إلى غوينبلين.

وكان جون كامبل، كونت غرينويتش، وسافيج، كونت ريفرز، وثومبسون، بارون هافيرشيم، وورنغتون، وإيسكريك، ورولستون، وروكنغهام، وكارتريت،

ولا نغديل، وبانيستر مينارد، وهندسون، وسايرثافون، وغافنديش، وبورليغتون، وروبيرت دارسي، كونت دوهولدرنس، وأذر ويندسور كونت دو بلايموث، كانوا يصفقون، إنه صخبٌ عاصمة الجحيم، أو مجمع الأرباب الذي كانت تضيع فيه كلماتٌ غوينبلين.

ولم يكن المرءُ يميّز فيها إلاّ هذه الكلمة: احترس!

أما رالف، دوق دومونتاغو، الذي خرج مؤخراً من أوكسفورد، والذي لم يحلق بعد أوّل شاربٍ له، فقد نزل من مقعد الدّوقات الذي كان يجلس فيه على الترتيب التّاسع عشر، ومضى ليقف متكتّفاً بمواجهة غوينبلين.

إن في نصلٍ معين الموضعَ الذي يقطعُ أكثر من غيره، وفي صوتٍ معين النبرة التي تهين أكبر من سواها. وقد اتخذ مونتاغو تلك النبرة، وصاح بغوينبلين، وهو يهزأ به مواجهة:

'ماذا تقول؟'

فأجاب غوينبلين:

- إني أتنبّأ'

فانفجر الضّحكُ من جديد. وتحت ذلك الضّحك، كان يزمجرُ الغضبُ بجهيرٍ متواصل. ونهض أحدُ الأعيان القاصرين، وهو ليونيل كرانسيلد ساكفيل، وكونت دورسيه وميدلسكس، نهض واقفاً على مقعده، غير ضاحك، ورزيناً كما يليق بمشرِّعٍ مقبل، ومن دون أن يقول كلمة. نظر إلى غوينبلين بوجهه النضر، وجه فتى في الثامنة عشرة وهو يهزّ كتفيه. وهذا ما جعل الأسقف سانت - آساف ينحني على أذن أسقف سانت دافيد الجالس بجانبه، ويقول له، وهو يشير إلى غوينبلين: 'هذا هو المجنون'، ويقول له وهو يدلّ على الطفل: 'هذا هو العاقل!'.

كانت تنطلقُ من بلبلة الاستهزاءات هتافاتٌ مشوّشة، 'يا وجه المسخ الإخطبوطي! - ما معنى هذه المغامرة؟ - إهانة للمجلس! - أيّ استثناء هو رجلٌ كهذا! - العار! العار! - فلترفع الجلسة - لا! فليُنه كلامه! - تكلّم، أيها البهلول! '.

كان اللورد ليويس دوديرا يصيحُ، وهو يضعُ يديه على وركيه: "آه! ما أحسن الضحك! إن الضّحك يفرحني. وإني اقترحُ تصويتاً على أعمالِ عفوٍ تُصاغُ على النحو التالي: إن مجلس اللوردات يشكرُ العلبة الخضراء".

أما غوينبلين فقد كان يحلم باستقبالٍ آخر، كما نتذكرّ.

إن ذلك الذي تسلّق في الرمّل منحدراً عموديّاً، وقابلاً للتّفتّت فوق عمقٍ مدوّخ، والذي شعر تحت يديه، وتحت أظافره، وتحت مرفقيه، وتحت ركبتيه، وتحت قدميه بنقطة الاستناد تهربُ وتتوارى، ويتراجع بدلاً من أن يتقدّم على ذلك الانحدار المنكسر، وهو فريسة لقلق الانزلاق، والذي يغوص بدلاً من أن يتقدّم، وينزل بدلاً من أن يصعد، ويزيد من اليقين بالغرق من جراءِ السّعي نحو القمّة، والذي يهلكُ نفسَه أكثر بقليلٍ لدى كلّ حركةٍ يفعلها ليتخلّص من الخطر، قد شعر باقترابِ الهوة المرعب، وأحسّ في عظامه ببردِ السّقوط القائم، وذلك الشدّق المفتوح تحتك، إن هذا الشخص قد شعر بما كان يشعر به غوينبلين.

كان يحس بأن صعوده ينهار تحته، وبأنّ مستمعيه هوّة.

هناك دوماً شخصٌ معيّن يقول الكلمة التي يُختصر بها كلُّ شيء.

وقد عبّر اللورد سكارسدال بصيحةٍ عن شعورِ المجلس:

"ما الذي أتى ليفعله هنا هذا المسخُ؟"

انتصب غوينبلين مهتاجاً وغاضباً، بنوعٍ من التشنجّ الفائق، وحدّق بهم جميعاً.

"ما أتيت لأفعله هنا؟ أتيتُ لأكون مخيفاً. فأنا مسخٌ، كما تقولون. كلاّ، أنا الشّعب. هل أنا استثناء؟ كلا، إني كلّ الناس. أما الاستثناءُ فهو أنتم. أنتم الخيمر(*)، وأنا الواقع. أنا الإنسان، أنا الإنسان المرعبُ الضّاحك. والذي يضحك ممَّ؟ منكم. من نفسه، ومن كلّ شيء.

وما هو ضحكُه؟ إنه جريمتكم وعذابه. وهذه الجريمةُ، يُلقي بها في وجهكم، وعذابه هذا، يبصقُه في وجهكم. إني أضحك، وهذا معناه: إني أبكي".

(*) كائن خرافيٌّ له رأسُ أسد، وجسمُ شاة، وذنبُ حيّة. (م: ز.ع).

توقّف، وساد السّكوت. وأخذت الضحّكاتُ تتواصلُ، ولكن بصوتٍ خفيض، وأمكنه الظنّ باستئنافٍ معين للانتباه، وتنفسٌ. ثم واصل يقول:

"هذا الضّحك الذي على جبيني، إن ملكاً هو الذي وضعه عليه. إن هذا الضّحكَ يعبّر عن الأسى الشّامل. هذا الضحك يعني الكراهية، والصّمتَ القهريّ، والغضبَ، والقنوطَ. إن هذا الضحك نتاجٌ لضروبِ التعذيب. هذا الضّحكُ ضحكُ الإكراه. لو كان الضحكُ لدى الشّيطان، لأدان هذا الضحكَ الرّبُّ. غير أن الأزليّ لا يشبه الكائنات البائدة. وبما أنه المطلق، فهو الصّالح، والرّبُّ يكرهُ ما يفعله الملوك. آه! إنكم تعتبرونني استثناءً! وأنا رمزٌ. فيا! أيّها المعتوهون الكليّو القدرة، افتحوا عيونكم. إني أجسّدُ كلّ شيء. إني أمثّل البشريّة كما صنعها سادتُها. إن الإنسان مشوّهٌ. وما فعلوه بي. قد فعلوه بالجنسِ البشريّ. فقد شوّهوا له الحقّ، والعدالةَ، والحقيقةَ، والعقلَ، والذكاء، كما شوّهوا لي عينيَّ، ومنخريَّ وأذنيَّ. وكما فعلوا معي، وضعوا في قلبه بالوعةً من الغضب والألم، وعلى وجهه قناعاً من الرّضى. وحيثما وضعَ الرّبُّ إصبعه، ارتكز مخلبُ الملك. إنّه تراكبٌ وحشيّ. أيّها الأساقفة، والأعيان والأمراء، إن الشّعب هو المتوجّعُ البعيد الذي يضحك على السّطح.

فيا أيّها الميلوردات، إني أقول لكم إن الشّعب هو أنا. وأنتم اليوم تضطهدونه، وأنتم اليوم تصيحون بي ساخرين. ولكن المستقبل هو ذوبانُ الثّلج القادم. إن ما كان حجراً يغدو سيلاً. والظّاهرُ الصّلبُ يتحوّل إلى انغمار. فرقعةٌ واحدة، وينتهي كلّ شيء. سوف تأتي ساعةٌ يحطّم فيها انتفاضٌ معيّن اضطهادكم، ويردُّ فيها زئيرٌ على صيحاتكم الهازئة. وقد سبق لهذه السّاعة أن أتت – وكنتَ من صانعيها، آه، يا والدي! – إن ساعة الرّبّ هذه قد أتت، ودُعيت بالجمهوريّة، وقد طردوها، ولكنها ستعودُ. وبانتظار ذلك الحين، تذكرّوا أن سلسلةَ الملوك المسلّحين بالسّيف قد قطعها كرومويل المسلّحُ بالبلطة. فلترتعدوا. إن الحلول التي لا فسادَ لها تقتربُ، والأظافرُ المقلّمةُ تنمو مجدّداً، وتتطايرُ الألسنُ المقتلعة، وتصبحُ ألسنةً ناريّةً منتشرةً في ريح الظلمات، وهي تصيحُ معولةً في اللاّنهاية. إن أولئك الجائعين يبرزونَ أسنانهم المعطّلة، وتترنحُ الفراديسُ المبنيّة فوقَ الجحيم، والناس يتألّمون ويتألمون،

ويتألمون. ومن هو في الأعلى ينحني، ومن هو في الأسفل ينفرج، والظلُّ يرغبُ في أن يصبح نوراً. والهالكُ يعترضُ على المصطفى المختار. إنه الشعْبُ الذي يأتي، كما قلت لكم، إنّه الإنسانُ الذي يصعدُ، والنهايةُ التي تبدأ، إنه فجرُ الكارثةِ الأحمر. ذلك ما هو موجودٌ في هذا الضّحك الذي تضحكون منه! إن لندن احتفالٌ دائمٌ. فليكنْ. إن إنكلترا تهليلٌ من أوّلها إلى آخرها. أجل. ولكن اسمعوا: إن كلّ ما ترونه هو أنا. إن لديكم احتفالات، وهذا هو ضحكي. ولديكم مباهجُ عامّة، وهذا هو ضحكي. لديكم حفلاتٌ زواج، وتكريساتٌ وتتويجات، وهذا هو ضحكي. ولديكم احتفالاتٌ بولادةِ أمراء، وهذا هو ضحكي. وفوقكم الرّعد، وهذا هو ضحكي".

أيةُ وسيلة للصمّود في وجه أمور كهذه؟ لقد بدأ الضّحكُ من جديد، وكان تلك المرّة مُضنياً. ومن بين كلّ الحممِ التي يقذفُها الفمُ البشري، فإن تلك الفوهة الأكثر تسبباً في التآكل هي المرح. إن إلحاقَ الأذى بصورةٍ مرحةٍ هو أمرٌ لا يقاومُ عدواه أيُّ حشد. إن كافّة أعمال الإعدام لا تجري على منصّات الإعدام، والنّاس، ما إن يجتمعوا، سواء كانوا حشداً أم مجلساً حتى يكون لديهم على الدّوام جلاّدٌ في وسطهم جاهزٌ دائماً، وهو التّهكمّ. وما من عذابٍ يماثل عذابَ المثير للضّحك البائس. وهذا العذاب، كان غوينبلين يعانيه. وكان الجذلُ يقعُ عليه رجماً وقذفاً. لقد كان خشخيشةً وتمثال أزياء، وهُزأة، ودريئة. كان الناسُ يقفزون، ويصيحون طالبين الإعادة، وكانوا يتدحرجون، ويخبطون بأقدامهم. ويتماسكون بياقاتهم. ولم تكن هيبةُ المكان، وأرجوان الأردية، واحتشام معاطف القاقم، ونصف طلحيّة الشعر المستعار تفعلُ شيئاً حيال ذلك. كان اللوردات يضحكون، والأساقفةُ يضحكون، والقضاةُ يضحكون. وكان مقعدُ الشائخين تدفرجُ

أساريره، ومقعدُ الأطفال يتلوّى من الضّحك. وكان بطريركُ كانتربيري يلكز بمرفقه بطريرك يورك. وكان هنري كونتون، مطران لندن، وشقيق الكونت دونورثامبتون يسرفُ في الضحك. ويخفض اللورد - رئيسُ القضاة عينيه ليخفي ضحكه المحتمل.

وعند حاجز المحكمة، كان تمثالُ الاحترام، مأمورُ العصا السّوداء يضحك.

وكان غوينبلين الشاحب الوجه، قد تكثّف. وإذْ كان محاطاً بكلّ تلك الوجوه، الشابّة منها والشائخة، والتي كان يتألّقُ فيها الابتهاجُ الهوميروسيّ وفي تلك الدّوامة من التصفيق، والعرقصةِ وصيحاتِ القتال، وفي ذلك السُّعار الهزليّ الذي كان مركزاً له، وفي تلك التّدفّقِ الرائعِ للمرح الصّاخِب، وفي وسط ذلك الجذل، الهائل، كانت في داخله قتامةُ القبر. كان كلُّ شيء قد انتهى. ولم يعدْ بإمكانه التحكّم بوجهه الذي كان يخونُه، ولا بمستمعيه الذين كانوا يشتمونه.

لم ينفجْر بفظاعة أكبر قطّ الناموسُ الأبديّ المشؤوم، والسّخريُّ المتشبّثُ بالسامي، والضّحكُ الذي يردّدُ رجْعَ الزمجرة، والمحاكاةُ السّاخرة التي تردفُ اليأس، وانعدامُ المنطق بين ما يبدو عليه المرءُ وما هو عليه. ولم يُنرْ ضوءٌ أكثرَ شؤماً الليلَ البشريَّ العميق.

كان غوينبلين يشهد التحطيمَ النّهائيَّ لمصيره عن طريق القهقهة. لقد كان الذي يتعذّرُ إصلاحُه حاضراً هناك. ينهضُ المرءُ من سقطتِه إذا وقع، ولا ينهضُ إذا سُحق. كانت تلك السّخرية الخرقاء الكليّة تحيلهُ إلى غبار.

فما من شيءٍ ممكنٍ من الآن وصاعداً. فكلُّ شيء يكون تبعاً للمحيط. وما كان نجاحاً باهراً في العلبة - الخضراء كان سقوطاً وكارثةً في مجلس اللوردات. وكان التّصفيقُ هناك لعنةً هنا. كان يحسُّ بشيءٍ يشبه ظاهر قناعه. فمن إحدى جهتي هذا القناع، كان هناك تعاطفُ الشّعب الذي يقبل غوينبلين، ومن الجهة الأخرى، كراهيةُ الكبار الذين رفضوا اللورد فيرمان كلانشارلي. فالجانّبية من جهة، والنّفورُ من الجهة الأخرى، وكلتاهما تفضيان به إلى العتمة.

كان يشعرُ وكأنه قد ضُرِبَ من الخلف؛ فللقدرِ ضرباتُه الغادرة. وكل شيء سوف يجدُ تفسيراً له فيما بعد، ولكن المصير فخّ، بانتظار ذلك، ويسقط الإنسانُ في المكائد. كان يظنّ أنه يرتقي، وكان ذلك الضّحك يستقبله. إن للتمجيدات مآلاتٍ كئيبة. وهناك كلمةٌ قاتمة، وهي زوالُ الوهم. إن الحكمة المأسوية هي التّي تولد من الثّمالة. إن غوينبلين الذي تلفعّ بتلك العاصفة المرحة والضّارية، قد كان يتفكرّ.

كان الضّحكُ الجنونّي يجري مع التيّار. إن مجلساً في حالةِ مرح هو بوصلةٌ ضائعة.لم يعد يدري إلى أين يمضي، وكان لا بدَّ من رفع الجلسة.

أما اللوّرد - رئيسُ القضاء "فنظراً للحادث العرضيّ" فقد أرجأ التصّويتَ إلى اليوم التالي. وانفضَّ المجلسُ. وانحنى اللوردات باحترامٍ للكرسيِّ الملكيّة ومضوا. وسُمعت الضّحكات التي يطول أمدها، وتتلاشى في الممرّات. إن للمجالس، فضلاً عن أبوابها الرّسمية، لها في النجّود، وفي النقوش البارزة، والنّواتئ، كلٌّ ضروبِ الأبوابِ الخفيّة التي تتفرّغ المجالس من خلالها، مثل أصيصٍ عبر شقوقه. وفي وقتٍ وجيز، كانت القاعةُ خاليةً. وقد جرى ذلك بصورةٍ سريعة جدًّا، ومن غيرِ مرحلةٍ انتقاليةٍ تقريباً. وعادَ الصّمتُ ليسيطر على هذه الأماكن الصّاخبة حالاً.

إن الاستغراقَ في أحلامِ اليقظة يأخذ المرءَ بعيداً. وينتهي به الأمرُ، لفرط ما يحلم، ليكون كما لو أنّه في كوكب آخر. لقد أحسَّ غوينبلين فجأةً بنوعٍ من الصحّوة. كان وحيداً. والقاعةُ خاليةً. ولم يكن قد لاحظ حتى أن الجلسة قد رُفعت. كان كلُّ الأعيان قد تواروا، وحتى عرّاباه. ولم يعدْ هناك، في هذا المكان أو ذاك إلاّ بضعة ضباطِ صغار للمجلس ينتظرون، لكي يضعوا وقاءات الأثاث، ويطفئوا المصابيح، أن تكون "سيادته" قد مضت. لقد وضع قبعته على رأسه بصورةٍ آليّة. وخرج من مقعده، وتوجّه نحو الباب الكبيرِ المفتوح على الرّواق. وفي اللحظةِ التي اجتاز فيها مكان انقطاع حاجزِ المحكمة، أراحه أحدُ حرّاسِ الأبواب من ردائه، رداء العين. ولم يكد يلحظُ ذلك. وما هي إلاّ لحظة من الزّمن، حتى كان في الرّواق.

لاحظ رجالُ الخدمة الذين كانوا هناك بدهشةٍ أن ذلك اللّورد قد خرج من غير أن يحيّي العرش.

VIII

لو لم يكن ابناً طيباً
لكان أخاً طيّباً

لم يعدْ هناك أحدٌ في الرّواق. فاجتازَ غوينبلين مُستديرَ التّقاطع الذي كانت قد رُفعت منه الكرسيّ والمناضد، والذي لم يبقَ منه أثرٌ لنتصيبه.

وكانت شمعداناتٌ كبيرةٌ وثريّات تدلٌّ منه، بين مسافةٍ وأخرى، على مسار الخروج. وقد أمكنه، بفضلِ ذلك الشّريط من الضّوء أن يعثر بيسرٍ على الطريّق التي كان قد سلكها لدى وصوله برفقةِ مسؤولِ الأسلحة ومأمور العصا السّوداء، بين تشابكِ القاعات والأروقة. ولم يلتقِ أحداً باستثناء لوردٍ عجوزٍ يدبُّ ببطء (265) في هذا المكان أو ذاك، سائراً بتثاقلٍ مولياً ظهره.

فجأة، وفي صمتِ تلك القاعاتِ الكبيرة الخالية كلّها، وصلت نتفٌ من كلماتٍ غيرِ واضحةٍ إليه، هي نوعٌ من صخبٍ ليليٍّ فريدٍ في مكان كهذا المكان.

فتوجّه إلى الناحية التي كان يسمعُ فيها تلك الجلبة. وألفى نفسه فجأةً في ممرٍّ واسعٍ ضعيفِ الإنارة، وهو أحدُ مخارج المجلس. كان المرءُ يلحظُ باباً عريضاً مفتوحاً ومزجّجاً، ودرجَ مدخل، وخدماً ومشاعل، وكانت تُرى ساحةٌ في الخارج، وبضعُ عرباتٍ فاخرة تنتظرُ عند مدخلِ الدّرج.

فمن هناك إنمّا كانت تأتي الجلبةُ التي سمعها.

داخل الباب، وتحت مصباح الممرّ، كانت هناك زمرةٌ صاخبةٌ وعاصفةٌ من الحركات والأصوات. واقترب غوينبلين في الغبش.

كانت هناك مشاجرةٌ. فمن جهة، هناك عشرةٌ لوردات أو اثنا عشر يريدون أن يخرجوا، ومن الجهة الأخرى، هناك رجلٌ، يعتمرُ قبّعةً مثلهم، منتصبَ القامة، وعاليَ الجبين، ويسدُّ عليهم ممرَّ العبور.

فمن كان ذلك الرّجل؟ إنه توم – جيم – جاك.

كان لا يزال عددٌ من هؤلاء اللوردات يلبسُ رداءَ العين. وآخرون قد خلعوا رداءَ مجلس النوّاب، وارتدوا لباسَ المدينة.

كان توم – جيم – جاك يعتمرُ قبّعةً ذات ريش، ليس أبيض اللون، كالأعيان، بل أخضر ومجعّد على شكل البرتقالة، وكانت مطرّزةً ومزيّنةً بضفائر من الرأس إلى القدمين، إضافة إلى سيلٍ من الشرائط والشّبيكات المحزّمة عند الأكمام والعنق، وكان يلاعبُ بقبضة يده اليمنى وبسرعةٍ شديدة مقبضَ سيفٍ كان يحمله بشراعٍ صارٍ مائل (266) وله حمّالةٌ وغمدٌ مزركشان بقيطاني مثبتةٌ بمواسير أميراليّة.

كان هو الذي يتكلم، وكان يؤنّب كلَّ هؤلاء اللّوردات الشّبان، وقد سمع غوينبلين ما يلي:

"قلتُ لكم إنكم كنتم جبناء، وتريدون أن أسحبَ كلماتي. فليكنْ. أنتم لستم جبناء. أنتم حمقى. لقد وقفتم جميعكم ضدّ شخصٍ واحد. ليس هذا نذالة. حسناً، إنه بلاهةٌ. لقد كلّمكم أحدُهم. ولم تفهموا. إن الشّيوخ مصابون بالصّمم في آذانهم. وأنتم، الشبان، مصابون بالصممّ في عقلكم. وأنا إلى حدّ كافٍ واحدٌ منكم لكي أقول لكم حقائقكم. إن هذا القادمَ الجديد غريبٌ، وقد روى قدراً كبيراً من الحماقات. وأنا متّفقٌ معكم في ذلك، ولكن في هذه الحماقات كان هناك أشياء صحيحة. لقد كان كلامُه مشوشاً، ومختلطاً، وقيل بطريقةٍ سيّئة. فليكن، وغالباً ما كرّر على حدٍّ مفرط: أتعلمون، أتعلمون؛ غير أن رجلاً قد كان بالأمس يغيّر تكشيراتِ وجهه في المعرض ليس ملزماً بأن يتحدّث مثل أرسطو ومثل الدكتور جيلبير بورنيه أسقف ساروم.

إن كلمات الأوباشِ القذرين، والسّباع، وتوبيخ معاون كاتبِ المحكمة، كان كلّ ذلك في نطاق الذّوق الفاسد. تبّاً لهذا! من يقولُ عكسَ ذلك؟ لقد كانت

خطبتُه خرقاءَ ومفككةً، وتسيرُ بشكلٍ منحرفٍ كلّها، بيد أنه كانت تخرجُ منها حقائقُ واقعيّة في هذا المكان أو ذاك. ويُعتَبر أمراً ذا أهمية كبيرة أن يتكلّم المرءُ على ذلك النحو حين لا يكون قد احترف مهنة الكلام. وأودّ أن أعرف إن كنتم تفعلون أفضل منه في موقفٍ كموقفه، أنتم! إن ما رواه عن مجذومي بوردون - لازير لا جدال عليه ؛ فضلاً عن أنه قد لا يكون الوحيد الذي يمكن أن يكون قد قال حماقات؛ وأخيراً، أيّها الميلوردات، لا أحبّ أن تكون هناك شراسةٌ يمارسُها بضعةُ أشخاص ضدّ شخصٍ واحد، هذا هو طبعي، وإني أطلب من سياداتكم الإذن في أن أشعر بالإهانة. لقد أغظتموني، وأنا منزعجٌ لذلك. لستُ مؤمناً إلى حدٍّ كبيرٍ بالرّبّ. غير أن الذي يجعلني ربما مؤمناً به هو عندما يصنعُ أفعالاً طيّبة. وهذا ما لا يحدثُ له كلّ يوم.

لذلك، فأنا ممتنٌّ له، لهذا الإله الرّحيم، إذا كان موجوداً، ولأنه قد انتشلَ من أعماقِ تلك الحياة الحقيرة تلك العين من أعيان إنكلترا، ولأنه قد أعاد إلى هذا الوريثَ ميراثه، من دون أن يقلقنيَ إنْ كان هذا يناسبُ مصالحي أم لا، وأستحسنُ أن أرى فجأةً حمار القبّان يتحوّلُ إلى نسر، وغوينبلين إلى كلانشارلي. أيها الميلوردات، إني أمنعكم من أن يكون لكم رأيٌ آخر غير رأيي. ويؤسفُني ألاّ يكون ليويس دودوراس موجوداً هنا. إذن لكنتُ أهنتُه بكلّ سرور. أيّها الميلوردات، لقد كان فيرمان كلانشارلي لورداً، وكنتم بهلوانات. أمّا عن ضحكه، فالذنبُ ليس ذنبه. ولقد ضحكتم من ذلك الضّحك. والمرءُ لا يضحكُ من الشّقاء. إنكم حمقى. وحمقى قساة.

فإذا كنتم تظنّون أنه لا يمكن أن يضحكوا منكم أيضاً، فأنتم مخطئون. إنكم قبيحون، وعديمو الذّوق في ملابسكم. أيّها اللورد هافرشام، لقد رأيت في ذلك اليوم عشيقتك، إنها مقزّزة. إنها دوقة، ولكنها قردةٌ قبيحة.

أيّها السّادة الضّاحكون. أكررّ بأنني أودّ أن أراكم تحاولون قولَ أربع كلمات متتالية. إن العديدَ من الناس يثرثرون، والقليل جدّاً منهم يتكلّمون. أنتم تتصوّرون أنكم تعلمون شيئاً لأنكم قد جرجرتم سراويلكم الخاملة في أوكسفورد أو في كامبريدج، ولأنكم قبل أن تكونوا أعياناً لإنكلترا على مقاعد ويستمنستر

– هول، كنتم حميراً على مقاعد مدرسة غونويل وكايوس الثانونيتين! أما أنا، فموجودٌ هنا، وأحرصُ على أن أنظر إليكم مواجهةً.

لقد كنتم للتوّ سفيهين إزاء هذا اللوّرد الجديد. إنه مسخٌ، فليكن. ولكنه قد أُسلم إلى الوحوش. وأفضّل أن أكونَ هو على أن أكون أنتم. لقد كنت حاضراً في الجلسة، باعتباري وريثاً محتملاً للنبالة. غير أنه يحقّ لي أن أكون نبيلاً. وقد أزعجتني مظاهرُكم الفرحة. وحين لا أكون مسروراً، أمضي إلى مون باندلهيل لكي أقطف عشب السّحب المنذرة، الـ clowdesbery الذي يُنزلُ الصّاعقةَ على من يقتلعُه. وهذا هو السّبب في أنني قد أتيت لأنتظركم عند المخرج. إن الحديثَ لا فائدة منه. ولدينا ترتيباتٌ علينا اتخاذُها. هل كنتم تدركون بأني أنا نفسي مشتاقٌ إليكم قليلاً؟ أيّها الميلوردات، إني عازمٌ بشكلٍ راسخٍ على قتلِ عددٍ منكم. أنتم الموجودين هنا جميعاً، توماس توفتون كونت دوتانيت، وسافج، كونت ريفرز، وشارل سبنسر، كونت دوساندرلاند، ولورنس هايد، كونت دوروشيستر، وأنتم، يا بارونات، غراي دورولستون، وكاري هندسون، وإسكريك، وروكنغهام، وأنت يا كارتوريه الصّغير، وأنت ياروبير دارسي، كونت دوهولدرنيس، وأنتِ يا وليام، فيكونت هالتون، وأنت يا رالف، دوق دومونتاغو، وكلّ الآخرين الذين يشاؤون ذلك، أنا دافيد ديّري – موار، أحد جنود الأسطول، أنذركم، وأناديكم، وآمُركم بأن تتجهّزوا على عجل بمعاونين وكفلاء، وأنتظرُكم وجهاً لوجه، وصدراً لصدر، هذا المساء، في الحال، أو غداً، في النهار، وفي الليل، في عزّ الشمس، على ضوءِ المشاعل حيثما وعندما وكما يبدو لكم ذلك مناسباً، وفي كلّ مكان يكون ثمّة متّسع كافٍ لطوليْ سيفين، ولسوفَ تحسنون صنعاً إذا ما عاينتم أجهزةَ إصلاءِ مسدّساتكم وشفرة سيوفكم الطوّيلة، نظراً لأني أنوي أن أجعل مناصبَ نبالتكم شاغرة.

يا أوغل كافنديش، اتخذ احتياطاتك وفكرّ بشعارك (267) cavendo tutus ويا مارمدوك لانغدال، سوف تحسنُ صنعاً، شأن سلفك غندولد، بأن تُستتبعَ بتابوت. ويا جورج بوث، كونت دووارنغتون، لن ترى ثانية كونتيّة شيستر البلاطيّة، ومتاهتك التي هي على نمط كريت، وتُبريجات دونهام ماسّي العالية. أما اللورد فوغان، فهو فتيّ بما يكفي ليقول وقاحات، وكبيرٌ

بالسّن أكثر من اللاّزم ليؤكدّ عليها، ولسوف أطالبُ ابنَ عمّه ريشار فوغان، عضوَ مجلس العموم عن بلدة ميريونيث، بتسوية الحساب عن كلماته. وأنت، ياجون كامبل، كونت غرينويش، لسوف أُقتلك كما قتل أشون ماتاس، ولكن بضربةٍ صريحةٍ، وليس من الخلف، فقد اعتدت على تعريضِ قلبي وليس ظهري لرأسِ السّيف العريض. لقد قلت هذا، أيّها اللوردات، وعلى ذلك استخدموا الرّقى المؤنية، إن يبدو ذلك لكم حسناً. واستشيروا المتنبّئات بالورق، وادهنوا جلدكم بالمراهمِ والعقاقير التي تجعلُ المرءَ غير قابلٍ للانجراح. وعلّقوا في أعناقهم كييسات للشيطان، أو للعذراء، فلسوف أقاتلكم مباركين كنتم أم ملعونين، ولن أجعلكم تتلمّسون أنفسكم لتعرفوا إن كان عليكم رقى من السحر. وماشياً أو ممتطياً جواداً. وفي وسطِ مفترق الطرّق، وإذا شئتم، في بيكاديليّ أو في شارينغ – كروس، ولسوف يجري قلعُ بلاطِ الشارع من أجل لقائنا، كما جرى قلعُ بلاط باحة اللوفر من أجل بيزوبا سومبيير. جميعكم. هل تسمعون؟ أريدكم جميعاً. فيادورم كونت كائيرنارفوم، سوف أجعلك تبتلعُ شفرةَ سيفي حتى صدَفته(*)، كما فعل مارول بليل – ماريفو؛ وسوف نرى بعد ذلك، أيها الميلورد إن كنت ستضحك. وأنت يابيرلنغتون، الذي لك مظهرُ فتاةٍ بأعوامك السّبعة عشر، سوف يكون لك الخيار بين أرضِ منزلك الخضراء في ميدلسيكس، وحديقتك الجميلة في لندسبورغ. في يوركشارير لكي تدفنَ فيها. إني أُعلمكم، يا أصحابَ السّيادة بأنه لا يناسبني أن يكون المرء وقحاً أمامي. ولسوف أقتصُّ منكم، أيُّها الميلوردات. وأستقبحُ أن تكونوا قد هزئتم باللورد فيرمان كلانشارلي. إنه أكبرُ قدراً منكم. فباعتباره كلانشارلي، لديه النبّالة التي لديكم، وباعتباره غوينبلين، لديه النباهةُ التي ليست لديكم. وإني أجعل قضيّته قضيّةً لي، ومن إهانته إهانةً لي، وأغضبُ من هزئكم به. ولسوف نرى من سيخرجُ حيّاً من هذه القضيّة. فأنا أتحدّاكم إلى أبعد حدّ. فهل تسمعون ذلك جيّداً. فاختاروا الميتةَ التي تروقكم بأيِّ سلاح. وبأيّة صورة. وبما أنكم أفظاظٌ كما أنتم نبلاء، فلسوف أجعلُ التحدّي مناسباً لصفاتكم. وأعرضُ عليكم كلَّ الطرّق التي يمتلكها الناس

(*) جزء ناتئ من قبضة السّيف لحماية اليد. (م: ز.ع).

ليُقتلوا اعتباراً من السّيف كما هو شأن الأمراء، حتى الملاكمة التي هي شأن الأوغاد!'

على ذلك الدّفق الغاضب من الكلام، ردّت زمرةُ اللّوردات الشّبان بابتسامة، وقالوا: 'اتّفقنا'

قال بيرلنغتون:

- أنا اختار المسدّس.

وقال إسكريك:

- أنا أختارُ معركةَ الميدان المغلق باستخدام المقمعة والخنجر.

وقال هولدرنيس:

- وأنا أختارُ المبارزةَ بالسّكينين، الطّويلة منهما والقصيرة، والجذعُ عارٍ، ومجابهةً.

وقال الكونت دوتانيت:

- أيّها اللورد دافيد، أنت اسكتلنديّ، فأنا آخذُ سيف الكليمور (*).

وقال روكنغهام:

- وأنا، السّيف.

وقال الدّوق رالف:

- وأنا أؤثر الملاكمة. إنها أنبل'.

وخرج غوينبلين من الظّلّ.

توجّه نحو ذلك المسمّى توم - جيم - جاك - والذي بدأ في ذلك الوقت يستشفُّ شيئاً آخر.

وقال:

'أشكرك، ولكن هذا أمرٌ يخصنّي'.

(*) سيف اسكتلنديّ ذو حدّين، ويؤخذ باليدين. (م: ز. ع).

فاستدارت الرؤوسُ كلّها.

تقدّم غوينبلين. وكان يشعرُ بأنه مدفوعٌ نحو ذلك الرّجل الذي كان يسمعُ أنهم يدعونه اللورد دافيد، والذي كان المدافعَ عنه. وربما أكثر من ذلك.

فتراجع اللّورد دافيد.

فقال اللورد دافيد:

"عجباً! هذا أنت! ها أنت ذا! إن هذا يبعثُ على السّرور. كانت لديّ كلمةٌ أقولها لك. لقد تحدثتَ للتوّ عن امرأةً قد أحبّت الملك شارل الثاني، بعد أن كانت قد أحبّت اللّورد لينيوس كلانشارلي.

– هذا صحيح.

– يا سيّدي لقد أهنت والدتي.

فصاح غوينبلين:

– والدتك؟ في هذه الحالة، لقد كنت أخمّن أننّا...

فردّ اللّورد دافيد قائلاً:

– أخوان.

وصفع غوينبلين.

وتابع يقول:

"نحن أخوان. وهذا ما يجعل بمقدورنا أن نتقابل. فلا يتقاتلُ المرءُ إلاّ مع أنداده. ومن هو أكثر ندّية لنا من أخينا؟ سوف أرسلُ إليك كفلائي وغداً، سوف نتقاتل".

الكتاب التاسع

في حالة دمار

I

من خلال الإفراط في العظمة، إنّما يصلُ المرءُ إلى الإفراط في الشقاء

عندما دقّت ساعةُ منتصف الليل في كنيسة سان - بول، كان رجلٌ قد اجتاز لتوّه جسر لندن، يدخلُ إلى أزقّة ساوثويرك. ولم تكن هناك مصابيحُ مضاءة، فقد كانت العادةُ حينذاك، في لندن كما في باريس، أن يجري إطفاءُ الإنارة العامّة في السّاعة الحادية عشرة، أي إلغاء القناديل في الوقت الذي تغدو فيه ضروريّةً (268) كانت الشوارعُ المعتمةُ مقفرةً. وإذْ لا تكون هناك مصابيح، يكون هناك عددٌ قليل من المارّة.

كان الرّجل يسيرُ بخطىً مسرعة، ويرتدي ملابسَ غريبة ليسيرَ في الشارع في مثل تلك السّاعة. كان يلبسُ رداءً من الحرير المطرّز، وسيفه بجانبه، ويعتمر قبّعةً من الريش الأبيض، ولا يرتدي معطفاً. وكان الحرّاسُ الذين يرونه يقولون: "هذا سيّدٌ يقومُ بمراهنةٍ". وكانوا يبتعدون بالاحترامِ المتوجّب للّورد ولمراهنةٍ معيّنة.

كان ذلك الرّجل هو غوينبلين.

وكان هارباً.

فأين كان؟ لم يكن يدري. إن للرّوح، كما قلنا، أعاصيرَها، ودوّاماتها المرعبةَ التي يختلطُ فيها كلُّ شيء، السماءُ والبحرُ والنّهارُ، والليلُ، والحياةُ، والموتُ، بنوعٍ من الرعُب غير المفهوم. ويكفُّ الواقعُ عن أن يكون صالحاً

للتنفسُ. وتسحقُ المرءَ أشياءٌ لا يؤمنُ بها. لقد تحوّلَ العدمُ إلى عاصفةٍ هوجاء، وأصبحتَ القبّةُ الزرقاءُ داكنةً. واللاّنهائي خالياً. لقد صارَ المرءُ إلى غياب، وهو يشعرُ بأنه يموتُ، فيرغبُ في كوكب. فما الذي كان يحسُّه غوينبلين؟ إنه عطشٌ، إنه رؤيةُ ديا.

لم يكن يشعر إلاّ بذلك. أن يعود إلى العلبة - الخضراء، وإلى نزل تادكاستر، الذي يعجّ بالأصوات والأضواء، والمفعم بذلك الضحك الطيّب الودّي، ضحكِ الشعّب، وأن يلتقي أورسوس وأومو، وأن يرى ديا مجدداً، وأن يرجع ثانية إلى الحياة!

إن ضروبَ زوال الوهم تتراخى كالسّهم، بقوةٍ مشؤومة، وتُلقي بالإنسان، ذلك السّهم، باتجاه الحقيقيّ. كان غوينبلين على عجلةٍ من أمره. وكان يقترب من تارينزو - فيلد. ولم يكن يمشي. كان يركضُ. وكانت عيناه تغرقان في العتمة أمامه. وكان يجعلُ نظرته تسبقه: إنه بحثٌ متلهّفٌ عن ميناء في الأفق، فأيّة لحظةٍ تلك التي سيلمحُ فيها نوافذَ نزلِ تادكاستر المضاءة!

لقد نفذ إلى مرج البولينغ. ودارَ حول إحدى زوايا الجدار، فوجد، بمواجهته، وفي الطرّف الآخر من المرج، وعلى مسافةٍ معينة، النّزل الذي كان، كما يتذكر، المنزلُ الوحيد في حقلِ المعرض.

نظر، فلم يرَ ضوءاً، بل كتلةً سوداء.

ارتعش. ثم قال في نفسه إن الوقتَ قد تأخّر، وإن الحانّةَ مغلقةٌ، فالأمرُ جدُّ بسيط فقد كان الناسُ نياماً، ولا يتعيّن إلاّ إيقاظ نيكليس أو غوفيكوم، وينبغي الذهاب إلى النزل والطرّق على الباب، فمضى إلى هناك. ولم يركضْ إليه ركضاً، بل اندفع إليه اندفاعاً.

وصل إلى النزل وقد انقطع نفسُه. فأن يكون المرء في قلب الزّوبعة، ويتخبّطُ في تشنّجات الرّوح غير المنظورة، وألاّ يعودُ يعرف إن كان ميتاً أو حياً، وأن يحملَ كلَّ ضروبِ الرّقة تجاه أولئك الذين يحبّهم، من ذلك تُعرّفُ القلوبُ الحقيقية. وحين ينطوي كلُّ شيء في اللجّة، يعوم الحنان وينجو. لقد كان همُّ غوينبلين في الحال هو ألاّ يوقظَ ديا فجأة.

اقترب من النّزل وهو يُحدث أقلّ ضجّة ممكنة. وكان يعرفُ الكوخَ الحقير، حجرةَ كلبِ الحراسة القديمة تلك، والتي كان يرقدُ فيها غوفيكوم؛ كان لذلك الكوخِ المجاورِ للقاعة الخفيضة، قنديلٌ يُطلُّ على السّاحة، فنقرَ غوينبلين على الزّجاج برقّة. فقد كان إيقاظُ غوفيكوم كافياً.

لم تصدرْ أيّةُ حركةٍ عن حجرة نوم غوفيكوم، فقال غوينبلين في نفسه:

"في مثل هذه السّن، يكون النّومُ عميقاً" ودقّ بقفا يده دقّةً خفيفةً على الطاقة. فلم يتحرّك شيء.

فضربَ بشكلٍ أقوى ضربتين، فلم تصدرْ حركةٌ عن شيء في الكوخ الحقير. حينئذٍ، مضى، وهو يرتعشُ بعضَ الشّيء، إلى باب النزل وخبط بيده.

فلم يجبْ أحد.

وفكرّ، وليس من دون أن يستشعرَ بدايةَ برودةٍ عميقة: "إن صاحبَ النّزل نيكليس عجوز، والأولاد ينامون نوماً عميقاً، والشّيوخُ ينامون نوماً ثقيلاً. هيّا! فلندقّ بقوّةٍ أكبر!"

كان ينقرُ، ويقرعُ، ويخبطُ. ويصدمُ. وقد أعاد ذلك إلى ذهنه ذكرى بعيدة، في ويماوث، حين كان صغيراً جدّاً. ويحمل ديا الصّغيرة جدًّا بين ذراعيه.

لقد صدمَ البابَ بعنفٍ مثلما يخبطُه اللّورد الذي كانه. ويا للأسف!

بقي المنزل غارقاً في الصّمت.

وشعر غوينبلين بأنه قد بدأ يصبحُ مضطرباً.

ولم يعدْ يُبدي تحرّزاً؛ فنادى: نيكليس! غوفيكوم!

وفي الوقت نفسه، كان ينظرُ إلى النّوافذ ليرى إن كانت هناك شمعة مضاءة. ما من شيء في النزل. وما من صوت، ما من جلبةٍ، وما من شعاع ضوء.

مضى إلى باب العربات واصطدم به، ودفعه، وهزّه بشكلٍ مسعور وهو يصيحُ: أورسوس! أومو!.

فلم ينبح الذّئب.

فأخذ عرقٌ باردٌ يقطرُ على جبينه.

جال بنظره حواليه؛ فقد كان الليل بهيماً، بيد أنّه كان هناك ما يكفي من النّجوم لكي يصبح حقلُ المعرضِ واضحاً. لقد رأى شيئاً مغمّاً، وهو تلاشي كلّ شيء. لم تكن هناك تخشيبةٌ واحدةٌ في مرجِ البولينغ. ولم يعدْ المدرجُ موجودا فيه. وما من خيمةٍ، ولا مسرح، ولا عجّالة.

إن ذلك التّطوافَ الصّخاب بألفِ لون، والذي كان يزدحمُ كالنّملِ هناكَ كان قد أخلى المكانِ لسوادٍ مخيفٍ فارغٍ لا ندري ما هو. فقد ذهبَ كلُّ شيء أدراجَ الرّياح.

انتابه جنونُ القلق. فماذا كان يعني ذلك؟ وماذا حدث؟ ألم يعدْ هناك أحد؟ هل انهارت حياتهُ وراءه؟ وماذا صنعوا بهم جميعاً؟ آه، يا إلهي! لقد هجم على المنزل كالعاصفة.ودقّ على الباب الهجين، وعلى باب العربات، وعلى النّوافذ، وعلى المصاريع، وعلى الجدران، بقبضتيه وقدميه،وهو مهتاجٌ من الرّعب والقلق. لقد نادى نيكليس وغوفيكوم، وفيبي وفينوس، وأورسوس، وأومو. لقد ألقى على ذلك السّور بكلّ ضروب الصخبِ وكلّ ألوان الضجّيج. وعلى فترات، كان يقطعُ محاولاته ويصغي، وكان المنزلُ يبقى صامتاً وميتاً. حينئذٍ، يحتدم غضبُهُ، ويعاودُ الكرّةَ بصدماتٍ وخبطاتٍ وصرخاتٍ، وتوالي ضرباتٍ يرتدُّ صداها في كلّ كان. حتى ليخيلُّ للمرء أنّ هناك رعداً يحاول إيقاظَ مقبرة.

عند حدٍّ معيّن من الذّعر، يصبحُ المرءُ مخيفاً، فمن يخشى كلّ شيء، لا يعودُ يخشى شيئاً. إنه يركلُ اللّغزَ الغامضَ، ويعنف المجهول. ويجدّدُ الصّخب تحت كافّة الأشكال الممكنة، متوقّفاً، ومستأنفاً ما يُحدِثه، وهو يصرخُ وينادي بلا كللٍ، ومهاجماً ذلك الصّمت المأسويّ.

نادى مئةَ مرّةَ أولئك الذين كان يمكنُ أن يكونوا هناك، وصاحَ بكلّ الأسماء، باستثناء ديا. وهذا احتياطٌ غامضٌ بالنسبة إليه، ولا يزال يمتلكه غريزيّاً من خلال التيه الذي هو فيه.

ما إن نفدت الصيّحاتُ والنّداءات، حتى بقي التّسلُّق. وقد قال في نفسه: ينبغي الدّخولُ إلى المنزلْ. ولكن كيف؟ لقد كسرَ لوحاً زجاجياً في كوخ

غوفيكوم، ودسَّ فيه قبضته ممزّقاً لحمه، وسحب مزلاجَ الإطار وفتحَ الطّاقة. وتبيّن له أن سيفه كان يعيقُه؛ فانتزعه بعنف، بغمدِه، ونصله، وحزامه، وألقى به على الأرضيّة. ثم ارتقى على بروزاتِ السّور، ومع أنَّ الطّاقةَ قد كانت ضيّقةً، فقد أمكنه أن يمرَّ منها. وولج إلى النزل.

كان سريرُ غوفيكوم، المرئيُّ بصورةٍ مبهمة، موجوداً في الكوخ، إلاّ أن غوفيكوم لم يكن فيه. ولكي لا يكون غوفيكوم في سريره، كان لا بدَّ بطبيعةِ الحال ألاّ يكون نيكليس في سريره، كان المنزلُ معتماً بكليّته. كان يحسُّ في ذلك الدّاخل المظلم بجمودِ الفراغ الغامض، وبذلك الرّعب المبهمِ الذي يعني: ما من أحدٍ هنا. لقد اجتاز غوينبلين وهو يختلجُ القاعةَ الخفيضة، واصطدم بالمناضد، وداسَ على الصحّون، وقلبَ المقاعدَ، وأوقعَ الأباريقَ أرضاً، ومرَّ فوق الأثاث، ومضى إلى الباب الذي يُطلُّ على الباحة، وبعجه بضربةٍ من ركبته والتي جعلت المزلاجَ ينكسر. لقد دار البابُ على مفصّلاته. نظر إلى الباحة، فلم تكن العلبةُ الخضراءُ فيها.

I I
بقـيـة

خرج غوينبلين من المنزل، وأخذ يستكشفُ تارينزو - فيلد في كافة الاتّجاهات؛ فذهب إلى كلّ مكان كان يُرى فيه، في يومٍ سابق، مسرحٌ وخيمة وكوخٌ صغير. لم يعدْ هناك شيء. لقد دقّ على الحوانيت الصّغيرة. مع أنه يعلمُ جيّداً جداً بأنها مهجورة. كان يخبطُ على كلّ ما يشبه نافذة، أو باباً. فلم يخرج صوتٌ من تلك العتمة. إن شيئاً كالموت كان قد أتى إلى هناك.

كان التجمّعُ البشريّ قد سُحق. ومن الجليّ أنّه قد اتُخذَ تدبيرٌ ضدّه من الشرطة. كان هناك ما نسميّه في أيّامنا غزوة. وكانت تارينزو - فيلد أكثر من خالية، لقد كانت موحشة. ويشعر المرء في كلّ زواياها الخفيّة بحكّ مخلب مفترس. لقد قُلبت تقريباً جيوبُ ذلك الحقل البائس، حقل المعرض، وأُفرغ كلُّ شيء. وبعد أن نبشَ غوينبلين كلَّ شيء، غادر مرجَ البولينغ، ودخل إلى الشوارع المتعرّجة، شوارع طرف الحقل التي يدعونها النّقطة الشرقيّة، وتوجّه نحو نهر التاميز.

اجتازَ بعضَ تعرُّجات تلك الشّبكة من الأزقّة التي لم يكن فيها إلاّ جدرانٌ وأسيجة، ثم أحسّ برطوبة الماء في الجّو، وسمع انسيابَ النهّر المكتوم.

وألقى نفسه فجأةً أمام درابزين. لقد كان ذلك هو درابزين إفروك - ستون.

كان ذلك الدرابزين يحاذي جزءاً من الرّصيف جدّ قصير وجدّ ضيّق. وكان السّورُ العالي إفروك - ستون يغرق عمودياً، تحت الدّرابزين، في مياه معتمة.

توقّف غوينبلين عند ذلك الدّرابزين، واتّكأ عليه، وأمسك برأسه بين يديه،وأخذ يفكّر، وتلك المياه تحته.

هل كان ينظرُ إلى الماء؟ لا. إلامَ كان ينظر؟ إلى العتمة. وليس العتمة خارجاً عنه، بل العتمة في داخله.

في المشهدِ الليليِّ المثيرِ للكآبة الذي لم يكن ينتبه إليه، وفي ذلك العمق الخارجي الذي لم تكن نظرتهُ تلجُ إليه، كان يمكن للمرء أن يميّز خيالاتِ دواقلَ وصواري. وتحت الفروك - ستون، لم يكن هناك إلاّ الماء، غير أن الرصيف النّازل كان ينخفضُ على شكلِ منحدرٍ غير ملحوظ، ويُفضي، على مسافةٍ معيّنة، إلى حافة نهر، يسير بمحاذاته عددٌ من الزّوارق، بعضها في طريقِ الوصول، وبعضُها الآخر في طريقِ السّفر، وتتصلُ مع اليابسة برعون(*) الرّسوّ الصّغيرة، والمبنيّة عمداً من الحجر أو من الخشب، أو بجُسيراتٍ من الألواح الخشبية. إن تلك البواخر التي كان بعضُها مربوطاً بقلس، وبعضُها الآخرُ مثبتاً بمرساة، كانت جميعُها لا تتحرّك. ولم يكن يُسمعُ فيها أحدٌ يمشي أو يتكلمٌ. فقد كانت عادةُ البّحارة الجيّدة هي في أن يناموا أكثر ما يمكنهم، وألا ينهضوا إلاّ لقضاء عمل. وإن تعيّنَ على إحدى تلك السّفن البحريّة أن تنطلقَ ليلاً في ساعةِ حركةِ البحر، فإن البّحارة لا يكونون قد استيقظوا فيها بعد. ويكادُ المرءُ لا يرى هياكلها، التي هي قواريُر ضخمةٌ سوداء، وأعتدتُها، التي حبالٌ مختلطةٌ بالسلالم. لقد كان ذلك داكناً ومشوشاً. وكان فانوسٌ أحمر يخترقُ الضّبابَ، في هذا المكان أو ذاك.

لم يكن غوينبلين يلتقطُ شيئاً من كلّ ذلك. إن ما كان يعاينهُ هو المصير.

كان يتفكرُ كرؤيويٍ مضطربٍ أمام الواقع الذي لا يرحم.

كان يبدو له أنه يسمعُ خلفه شيئاً أشبه ما يكون بهزّةٍ أرضيةٍ وكان ذلك هو ضحك اللوّردات.

لقد خرج للتوّ من ذلك الضّحك. كان قد خرج منه مصفوعاً.

- على يدِ أخيه.

وحين خرج من ذلك الضحك، مع تلك الصّفعة، ولجأ، كعصفورٍ جريح، إلى عشّه، هارباً من الكراهية، وباحثاً عن الحبّ، ماذا وجد؟

(*) الرّعن هو أنفُ الجبل الدّاخل في البحر. (م: ز.ع).

العتمة.

لا أحد.

كلّ شي قد اختفى.

وهذه العتمة. كان يشبّهها بالحلم الذي رآه.

فأيٌّ انهيار!

كان غوينبلين قد وصل لتوّه إلى تلك الحافّة المشؤومة، الفراغ. فحين مضت العلبة الخضراء، كان ذلك هو الكونُ الذي يتلاشى.

وللتوّ حدث انغلاقٌ روحه.

كان يتفكرّ.

فما الذي أمكن أن يحدث؟ وأين كانوا؟ من الجليّ أنهم قد اختُطفوا. كان مصيرُه بالنسبة إليه هو غوينبلين، صدمةً، هي العظمة، وبالنسبة إليهم صدمة معاكسة هي الإفناء. كان من الواضح أنه لن يراهم قطّ. فقد اتُّخذت احتياطاتٌ من أجل ذلك. وكان قد جرى في الوقت نفسه نهبُ كلّ من كان يقيمُ في حفل المعرض، بدءاً من نيكليس وغوفيكوم، لئلا يمكن لأي إخبارٍ أن يُقدَّم. إنه تشتيتٌ لا رحمة فيه. إن هذه القوّة الاجتماعية المخيفة، في الوقت نفسه الذي كانت تسحقُه، هو فيه، في مجلس اللوردات، قد دمرّتهم هم، في كوخهم الفقير. لقد ضاعوا، وضاعت ديا. ضاعت بالنسبة إليه إلى الأبد. يا لملائكة السّماء! أين كانت؟ إنه لم يكن موجوداً هناك لكي يدافعَ عنها!

أن يضع المرءُ تخميناتٍ حول غائبين يحبُّهم هو أن يعذّب نفسه. لقد كان ينْزلُ بنفسه ذلك التعذيب. وفي كلِّ زاويةٍ كان يتوغّل فيها، وعند كلِّ افتراضٍ يخطرُ له، كان يحسُّ بزمجرةٍ قاتمةٍ داخلية.

ومن خلال تعاقب للأفكار الموجعة، كان يتذكرّ الرّجلَ المشؤومَ بشكلٍ جليٍّ والذي قال له إنه يُدعى باركيلفيدرو. كان ذلك الرّجل قد كتب في دماغه شيئاً قاتماً عادَ اليوم إلى الظهّور، وكان ذلك قد كُتب بحبرٍ مخيف إلى درجةٍ كبيرةٍ أصبحت حروفُ ذلك الشيء ناريّةً الآن. وكان غوينبلين يرى هذه

الكلمات الملغزة تتوهجُ في أعماقِ تفكيره، وتجدُ اليومَ تفسيراً لها: "لا يفتح القدر باباً من دون أن يغلق باباً آخر".

كان كلُّ شيء ناجزاً. وكانت آخرُ الظلال تُسدل عليه. فيمكنُ لكلِّ إنسان أن تكون له في مصيره نهايةٌ للعالم بالنسبة إليه وحده. وهذا ما يُسمّى باليأس. إن الرّوح ملأى بالنجوم السّاقطة.

هذا إذن هو المكانُ الذي وصل إليه!

كانت سحابةُ دخُان قد عبرت، وقد اختلطَ بتلك السّحابة، فأخذت تصبحُ أشدَّ كثافةً أمام ناظره، وقد دخلت إلى دماغه. وكان مغشيَّ البصر من الخارج، ومنتشياً من الدّاخل. ودام ذلك للفترة التي يستغرقُها عبورُ سحابةٍ من الدّخان. ثم تبدّد كلُّ شيءٍ، الدّخانُ وحياتُه. وحين أفاقَ من حلم اليقظة هذا، ألفى نفسَه وحيداً من جديد (269).

تلاشى كلّ شيء، ومضى كلُّ شيء. هناك العتمةُ. لا شيء. كان ذلك هو أفقه.

كان وحيداً.

لكلمة وحيد مرادفٌ هو: ميت.

إن اليأس عدّاد. ويحرصُ على إعداد حاصله. ولا يفلتُ منه شيء. فهو يجمعُ كلّ شيء. ولا يسامحُ على السنتيمات. ويلوم الرّبَّ على قصفات الرّعد ووخزات الدّبوس. ويريد أن يعرفَ اعتماداً على ماذا يبني اتّكاله على القدر. إنّه يحاكمُ الأمورَ. ويزنُها ويحسبُها.

إنّه تبرّدٌ خارجيٌّ قاتم تواصلُ الحممُ المستعرةُ سيلانها تحته.

عاينَ غوينبلين نفسه، وعاين المصير.

نظرةٌ إلى الخلف، هي خلاصةٌ مرعبة.

حين يكون المرءُ في أعلى الجبل، ينظرُ إلى الهوّة. وحين يكون في أعماق السّقوط ينظر إلى السّماء.

ويقول في نفسه: "كنتُ هناك!"

كان غوينبلين في الدَّرك الأدنى من التَّعاسة. وكم حصل ذلك بسرعة! إنها عجالةٌ سوءِ الحظّ المقزّزة. وهي على درجةٍ كبيرة من الثقل بحيث يظنّها المرءُ بطيئةً. إطلاقاً. فيبدو أن للثلج شللَ الشتاء، حين يكون بارداً، وحين يكون أبيض، جمود الكفن. وكلّ ذلك يكذّبه الجرفُ الثلجي!

إن الجرف الثلجي هو الثّلج الذي يغدو أتوناً. إنه يبقى متجمداً، ويفترسُ. كان الجرفُ الثلجيُّ قد لفَّ غوينبلين، فانتزع مثل سمل، واقتُلع مثل شجرة، واندفع مثل حجر.

لقد أجمل سقطته. وطرح على نفسه أسئلةً بإجابات. إن الألم استجواب. وما من قاضٍ مدقّقٍ كالضمّير الذي يُجري تحقيقاً في قضيّته الخاصّة به.

أيّ قدْرٍ من تبكيتِ الضمّير كان في يأسه؟

أراد أن يتبيّن ذلك، فشرّح ضميره؛ إنه تشريحٌ حيّ مؤلم.

كان غيابُه قد أحدث كارثةً؛ فهل كان ذلك الغيابُ مرتبطاً به؟

وفي كلّ ما حدث قبل قليل، هل كان حرّاً؟ إطلاقاً. كان يحسُّ بأنه أسير.

وما كان قد أوقفه واحتجزه، ماذا كان؟ سجن؟ لا. قيدٌ؟ لا. ماذا كان ذلك إذن؟ فخٌ دبق. كان قد تورّط في وحلِ العظمة.

فمن الذي لم يحدث له ذلك، فيكون حرّاً في الظّاهر ويشعرُ بأن أجنحته معرقلة؟

كان هناك شيءٌ أشبه ما يكون بمأطورةٍ مبسوطة؛ فما هو إغراءٌ في البدء ينتهي بأن يكون أسراً.

ومع ذلك، فإن ضميره كان يضغط عليه في هذه النقطة. فما كان قد عَرَض له، هل احتمله بكلّ بساطة؟

كلاّ، لقد قبله.

وأن يكون قد غُصبَ على هذا الأمر، وبوغت به إلى حدّ معيّن، فهذا صحيح. أما هو، ومن جهته. وبقدرٍ معيّن، فقد استسلم للأمر.

أما أن يكون قد استسلم للاختطاف؛ فلم يكن ذلك ذنبَه، وأن يكون قد استسلم للنشوة، فقد كان ذلك هو خوره. لقد كانت هناك لحظةٌ، وهي لحظةٌ حاسمة، قد طُرحت فيها المسألةُ. كان باركيلفيدرو قد وضعه بمواجهةِ معضلةِ اختيار، وأتاح لغوينبلين بوضوح الفرصةَ ليحلَّ مسألةَ مصيره بكلمة. وكان يمكن لغوينبلين أن يقول لا، وقد قال نعم.

كان كلُّ شيء قد انساب مع هذه الـ: نعم التي نُطقت في خضم الذّهول المدوِّخ، وكان غوينبلين يدركُ ذلك، وكأنه خُلْفةٌ مريرةٌ لموافقة.

ومع ذلك، وبما أنه كان يتخبّط، فهل كان خطأً كبيراً إذن أن يستردَّ حقَّه، وإرثه، وميراثه، ومنزله، وباعتباره من الأشراف، أن يستعيد مرتبةَ أسلافه، وباعتباره يتيماً، أن يستعيدَ اسمَ والده؟ فما الذي قبله؟ إنه ردٌّ لحقٍ سابق. ومن الذي أنجزه؟ العنايةُ الإلهيّة.

كان يحسّ حينذاك بثورةٍ. فيا له من قبولٍ غبيّ! وأيّة صفقة قد أبرم! أيّ تبادلٍ أخرق قدره مليونان، ومقابل سبع أو ثماني إقطاعات، ومقابل عشرةَ أو اثني عشر قصراً، ومقابل داراتٍ في المدينة، وقصورٍ في الريف، ومقابل مئةِ خادم، ومقابل أرهاطٍ من الكلاب، وعرباتٍ فاخرة، وشعاراتِ نبالةٍ، ومقابل أن يصبح قاضياً ومشرّعاً، مقابل أن يتوّج، برداء أرجواني، مثل ملك، ومقابل أن يكون بارونا ومركيزاً، وأن يكون من أعيان إنكلترا، قد أعطى تخشيبةَ أورسوس وابتسامة ديا! ومقابل اتساعٍ شاسعٍ متحركٍ يُبتلعُ المرءُ فيه ويغرق، قد أعطى السّعادةَ. ومقابل المحيط، قد أعطى اللؤلؤة. أيّها الأحمق! أيها الأبله! أيّها المغفّل!.

ومع ذلك، كان الاعتراضُ هنا يتولدّ من جديد على أرضيّةٍ صلبة، في تلك الحميّ، حمّى الثروة الطائلة التي أصابته، ولم يكن كلُّ شيء غير سليم، فلربما كانت هناك أنانيةٌ في التخلّي، وربما كان هناك واجبٌ في القبول. فماذا كان عليه أن يصنع، حين تحوّل فجأة إلى لورد؟ إن تعقّد الحدث يؤدّي إلى ارتباك الفكر. وهذا ما حدث له. وحين أصدر الواجبُ أوامر باتجاه معاكس، الواجبُ الذي يأتي من كلّ جانبٍ في آن، الواجب المتعدّد، والمتناقض تقريباً،

أصابه ذلك الفزع. وكان ذلك الفراغ هو الذي أصابه بالشلل، خصوصاً في المسافة التي قطعها من كورليون – لودج، إلى مجلس اللوردات والتي لم يقاومها. إن ما نسميّه في الحياة صعوداً، إنما هو الانتقالُ من المسار البسيط إلى المسار المقلق. فأين هو الخطُّ المستقيمُ، اعتباراً من الآن؟ وتجاه من هو الواجب الأوّل؟ هل هو تجاه أقاربه؟ هل هو تجاه الجنس البشريّ؟ ألا يمرّ المرء من الأسرة الصّغيرة إلى الكبيرة؟ إن المرء يصعد، ويشعر بأن ثقلاً يتزايدُ فوق نزاهته. وكلّما صعد إلى أعلى، يشعر بأنه مدينٌ أكثر. إن توسّعَ الواجب يضخّم الواجب. يصابُ المرءُ بالاستحواذ، وربمّا بالوهم، وتعرضُ له بضعةُ طرق في وقتٍ واحد، وفي مدخلِ كلٍّ واحد منها، يظنّ المرء أنه يرى إصبع الضّمير التي تؤشرّ. فإلى أين يذهب. هل يخرج؟ هل يبقى. هل يتقدّمُ؟ هل يتراجعُ؟ ما العمل. وكم هو أمرٌ غريب أن تكون للواجب مفترقاتُ طرق؟ إن المسؤولية يمكنُ أن تكون متاهة.

عندما يستوعبُ رجلٌ فكرةً معيّنة، وحين يكونُ تجسيداً لواقعيةٍ معيّنة، وحين يكون رجلاً رمزاً في الوقت عينه الذي يكونُ فيه إنساناً من لحمٍ ودم، ألا تكون المسؤوليةُ أكثرَ إثارةً للاضطراب أيضاً؟ ومن هنا يتأتىّ الانقيادُ المهمومُ والقلقُ الصّامت لغوينبلين. ومن هنا تتأتى طاعتهُ للإنذار بالمكوث. غالباً ما يكون الإنسانُ المتفكرُ هو الإنسان السّلبيّ. لقد كان يبدو له أنّه يسمعُ أمرَ الواجب نفسَه... وذلك الدُّخولُ إلى مكانٍ يمكنُ أن يُناقشَ فيه الاضطهادُ وأن يكافحَ، ألم يكن قطّ تحقيقاً لإحدى تلك المبتغيات الأكثر عمقاً؟ وحين أُعطيَ الكلامُ إليه، إليه هو العينة الاجتماعيّة الهائلة، إليه هو النمّوذج الحيّ للرّغبة التي يحشرجُ تحتها الجنسُ البشريّ منذ ستّة آلاف عام، هل كان لديه الحقُّ في أن يرفض؟ هل كان له الحقُّ في أن ينتزع رأسه من تحت اللّسان النّاري السّاقط من الأعلى والآتي ليحطّ عليه؟

في نزاع الضّمير القاتم والمدوّخ، ماذا كان يقول لنفسه؟ ما يلي: "الشعّبُ صمت. وسأكون المحامي الهائل لهذا الصمّت. سوف أتكلمّ من أجل الخُرس سوف أتكلمّ عن الصّغار مع الكبار، وعن الضّعفاء مع المقتدرين. إن في ذلك هدفاً مصيريّاً. إن الله يشاء ما يشاء، ويصنع ما يشاء. ومن المؤكدّ

أنه لأمرٌ مدهشٌ أن تكون تلك المطرةُ، مطرةُ كاردكوانون التي جرى فيها تحوُّلُ غوينبلين إلى اللورد كلانشارلي، أن تكون قد طفت خمسة عشر عاماً في البحرِ، في الأمواج الصّاخبة، وفي ارتداداتها، وفي عصفاتِ الرّيح، وألاّ يكون كلُّ ذلك الغضب قد سبّب لها أيَّ أذى. وأنا أدركُ لماذا. إن هناك مصائر لها سرُّها. أمّا أنا، فلديَّ مفتاحُ مصيري. وأنا أفتحُ لغزي. إني مختارٌ منذ البدء! ولديَّ مهمّة. فلسوف أكون لوردَ الفقراء. ولسوف أتكلّمُ من أجل كلِّ السّاكتين القانطين. سوف أعبرُ عن التّمتمات. سأعبرُ عن التذمّرات، وضروبِ العويل، والهمسات وضوضاء الحشود، وعن ضروب الشكوى التي أُسيء التلفُّظ بها، وعن الأصواتِ غير المفهومة. وعن كلِّ تلك الصّرخات، صرخاتِ الحيوانات التي يُجعل النّاسُ يطلقونها لشدّة جهلهم وعذابهم. إنَّ ضجّة البشر مجمجمةٌ مثلَ صوتِ الرّيح ؛ فهم يصرخون.

غير أنه لا أحدَ يفهمهم؛ وهكذا فالصياحُ يعادلُ السّكوت، والسّكوتُ هو تجريدهم من السّلاح. وهو تجريدٌ قسريٌ من السّلاح يستدعي العون؛ وسأكون أنا العون. وسأكون أنا التّشهير. سأكون كلمة الشّعب. وبفضلي سوف يفهمون. سأكون الفم الدّامي الذي نُزعت عنه الكمّامةُ، سأقول كلَّ شيءٍ. وسيكون ذلك عظيماً".

أجل، إن التكلُّمَ باسم الخُرس جميلٌ، غير أن التكلّم مع الصُّمّ أمرٌ محزن. وكان ذلك هو القسم الثاني من مغامرته.

واأسفاه! لقد أخفق.

لقد أخفقَ بصورةٍ لا تُعوّض.

إن ذلك السّموَّ الذي آمن به، وذلك الحظَّ الفائقَ، وذلك الظّاهرَ قد انهار تحته.

فأيةُ سقطةٍ! أن يسقط المرءُ في زَبَد الضّحك.

كان يظنُّ أنه قوي، هو الذي كان لسنواتٍ طويلة قد عام، روحاً متيقظة، في انتشارٍ للعذابات واسع، هو الذي كان يأتي من كلِّ تلك العتمة بصرخةٍ تثيرُ الرأفة. لقد أتى ليسقُطَ عند تلك العثرة الكأداء الهائلة، والتي هي

تفاهةُ السّعداء. كان يظنّ أنه منتقمٌ، فكان مهرجاً. وكان يظنّ أنه ينزلُ الصّواعق، فأخذ يدغدغ. وبدلاً من التّأثير العاطفيّ، حَصَدَ السّخرية. كان ينتحبُ، فولجوا إلى الفرح. وقد غرق تحت ذلك الفرح. إنه ابتلاعٌ مأتميٌّ.

وممّ كانوا يضحكون؟ من ضحكه.

وهكذا، فإن ذلك الاعتداءَ المقيتَ الذي لا يزال يحتفظُ بأثره على الدّوام، وذلك التّشويهَ الذي غدا مرحاً مؤبّداً، وتلك التكشيرة الوصمة، وصورةَ انشراحِ الأمم المفترض تحت نير المضطهدين، وقناعَ الفرح هذا الذي صنعه التعذيبُ، ولجّة الهزءِ تلك التي كان يحملُها على وجهه، وتلك النّدبة التي تعني: بناء على أمر الملك(*) هذا الإثباتُ للجريمة التي ارتكبها الملكُ ضدّه، ورمز الجريمة التي ارتكبتها الملكيّةُ ضدّ الشّعب بكامله، كان ذلك هو الذي انتصر عليه، وكان ذلك هو الذي أرهقه، وكان ذلك هو الاتّهام ضدّ الجلاّد الذي كان يتحوّل إلى حكمٍ ضد الضحيّة! إنه إنكارٌ عجيبٌ للعدالة. إن الملكيّة، بعد أن تغلّبَت على والده، قد تغلّبت عليه. كان الشرُّ الذي عملوه يُستخدَم ذريعةً وباعثاً للشرّ الذي بقي عليهم فعله. فعلى من كان اللوردات ساخطين؟ أعلى المعذَّب؟ لا، على المعذِّب. فهنا العرشُ، وهناك الشّعبُ؛ هنا جاك الثاني، وهناك، غوينبلين. ومن المؤكدّ أن هذه المجابهة كانت تظهر للعيان اعتداءً معيناً وجريمةً معينة.

وماذا كان ذلك الاعتداء؟ هو الشّكوى. وماذا كانت تلك الجريمة؟ هي المعاناة. فليختبئ البؤسُ وليسكتْ، وإلاّ فهو قدحٌ في الذات الملكيّة. وهؤلاء الرّجال الذين جرّوا غوينبلين على حصيرةِ التهكّم، هل كانوا شرّيرين؟ لا. بل كان لهم أيضاً قدرُهم المحتوم، فلقد كانوا سعداءَ. كانوا جلاّدين من دون أي يدروا. وكانوا مبتهجين. كانوا قد وجدوا غوينبلين غير مفيد. وكان قد فتحَ بطنَه، واقتلعَ كبدَه، وأظهر أحشاءَه، فصاحوا به: "مثّل ملهاتك!" وهذا أمرٌ محزن؛ قد كان هو نفسُه يضحك. والقيدُ الشنّيعُ يقيّد روحه ويحولُ دون أن يصعد تفكيرُه حتى وجهه. كان التشويهُ يصل إلى فكره، وفي حين كان وعيه

(*) باللاتينية في النّص. (م: ز.ع).

يسخط، كان وجهُه يقدّم تكذيباً لذلك ويهزأ. لقد انتهى الأمر، فقد أصبح الرّجل الضاحك والذي هو كارياتيد(*) عالمٍ يبكي. لقد كان قلقاً متحجّراً على مرحٍ صاخبٍ، ويحملُ ثقل عالمٍ كارثيٍّ محصورٍ علي الدّوام في الجذل، وفي السّخرية، وفي تسليةٍ الآخرين. لقد كان يشاطرُ كل هؤلاء المضطهدين، الذين كان تجسيداً لهم، ذلك القدرَ المحتومَ البغيضَ في أن يكون خيبةً ليست مأخوذةً على محمل الجدّ. وكانت الشّدةُ التي يمرّ بها موضوعَ مزاح عابث. لقد كان بهلولاً هائلاً لا ندري ما هو، وخارجاً من تكثيفٍ مرعبٍ لسوء الحظّ، وهارباً من سجنه، وصائراً إلى إله، وصاعداً من أعماقِ جموعِ الدّهماء إلى حضرةِ العرش، ومختلطاً بكوكباتِ النجوم، وبعد أن أبهجَ المرذولين، قد أخذ يُبهجُ المختارين! وكلّ ما كان لديه من أريحيّةٍ، وحماسةٍ وفصاحةٍ، ومروءةٍ، ونبلٍ، وهياجٍ، وغضبٍ، وحبٍّ، وألمٍ يفوقُ الوصف، كان يُفضي إلى ما يلي، إلى قهقهة! وكان يتبيّن له، كما كان قد قال للوردات، أن ذلك لم يكن استثناء، وأنه الحدثُ الطبيعيّ، والعاديّ، والعامّ، الحدثُ الواسعُ الأعلى الذي يندمجُ بنمطِ الحياة إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيث لم يعدْ أحدٌ يلحظه. إن المتضورَ جوعاً يضحكُ، والمتسوّل يضحك، وسجينَ الأشغال الشّاقة يضحك، والعاهرةُ تضحك، واليتيمُ، من أجل لقمة عيشه، يضحكُ، والعبدُ يضحكُ، والجنديّ يضحكُ، والشّعبَ يضحك؛ فالمجتمعُ البشريُّ قد صنع بحيث تتحوّل كافةُ ضروب الهلاك، وكلّ ألوان الفاقة، وكافة الكوارث، وكلّ أنواع الحمّى، وكلّ التقرّحات، وكلُّ ضروب الألم المبرّح تتحولُ فوق اللّجة إلى تكشيرةِ فرحٍ مرعبة. لقد كان هو تلكَ التكشيرةَ الكليّة. وكانت هي هو.

إن الشرعةَ الآتيةَ من علٍ، والقوّةَ غيرَ المعروفة التي تحكم قد شاءت أن يختصرَ شبحٌ منظورٌ شبحٌ من لحمٍ ودم، المحاكاةَ السّاخرةَ المسيخةَ التي ندعوها بالعالم؛ وكان هو ذلك الشبّح.

إنه مصيرٌ لا شفاء له.

وكان قد صاح: "الرّحمة للمتألمين!". بلا جدوى.

(*) تمثال امرأة على شكل عمود في بناء. (م: ز.ع).

كان يريدُ أن يوقظَ الرأفة، فأيقظَ الفظاعة، هذه هي شرعةُ ظهور الأشباح. وفي الوقت نفسه الذي كان فيه شبحاً، كان إنساناً. ومن هنا يتأتىّ تعقّده الموجع، فهو شبحٌ من الخارج، وإنسانٌ من الدّاخل. إنه إنسانٌ أكثر ربّما من أيِّ إنسانٍ آخر، فقد كان مصيرُه يختصرُ الإنسانية كلّها. وفي الوقت عينه الذي يحملُ فيه الإنسانية في ذاته، كان يحسُّ بها خارجَ ذاته.

كان في وجوده شيءٌ يتعذّر عبورُه. فماذا كان؟ محروماً من الإرث؟ لا. فقد كان لورداً. وماذا كان؟ لورداً؟ لا. فقد كان متمرّداً. كان جالبَ النوّر؟ ومعكّرَ الصّفاء المرعب. لم يكن الشيطان، بالتأكيد، ولكنه كان إبليساً. كان يصلُ شرّيراً والمشعلُ بيده.

شريرٌ بالنسبة لمن؟ بالنسبة للشّريرين. ومخيفٌ بالنسبة لمن؟ بالنّسبة للمرعبين. وهكذا فقد كانوا يرفضونه؛ فهل يدخل بينهم؟ هل يُقبل؟ إطلاقاً.

إن العائقَ الذي كان على وجهه كان قبيحاً. أمّا العائقُ الذي كان يعيقُه في أفكاره، فقد كان يصعبُ تذليلهُ أكثر.

كان كلامُه قد بدا أكثر تشوّهاً من سحنته. لم يكن يفكّر تفكيراً ممكناً في عالمِ الكبار والأقوياء هذا، والذي جعله قدرٌ معين يولدُ فيه، وجعله قدرٌ معينٌ آخر يخرجُ منه. كان هناك قناعٌ بين الناس ووجهه، وبين المجتمع وفكره، كانٍ ثمة سور. وحين اختلطَ مذ الطّفولة، كبهلوانٍ مترحّل في ذلك الوسط الشّديد الحيوية، والصّلب والذي يسمّونه العامّة، وحين أُشبعَ بذلك الانجذاب المغناطيسيّ إلى الحشود، وحين تشرّبَ الرّوحَ الإنسانيّةَ الهائلة، فقد في الحسّ المشترك لكلّ الناس، الحسَّ الخاص بالطبّقات المالكة. لقد كان في الأعلى لا يُطاق. وكان يصل مبلّلاً تماماً بماء بئر الحقيقة. وكان يحمل نتانةَ الهوّة. وكان ينفرُ من هؤلاء الأمراء المعطرّين بالأكاذيب. إن الحقيقة عفنةٌ بالنسبة لمن يعيش على الوهم. ومن يتعطّشُ إلى التملقّ يتقيأ الحقيقيّ ثانية، إذا ما شربه على حين غرّة. إن ما كان يجلبه، هو غوينبلين، لم يكن أهلاً للتقديم. لقد كان ماذا؟ العقل والحكمة والعدالة. فلفظوه بتقزّز.

كان هناك أساقفة، وكان يأتي إليهم بالرّبّ. فمن كان ذلك الدّخيلُ؟

إن الأطرافَ تتنابذ. وما من اندماجٍ ممكنٍ فيما بينها. إن المرحلة الوسطى مفقودة.

لقد شوهدت، من غير أن تكون هناك نتيجةٌ أخرى سوى صرخة غضب، مجابهةٌ هائلةٌ: إنها كلُّ الشّقاء المتركّز في رجلٍ يواجه كلَّ العجرفةِ المتركزّة في طبقةٍ مغلقة.

لا فائدة من الاتهام. ويكفي تبيانُ الأمور. كان غوينبلين يتبيّن الاتساع الهائل لسعيه، من خلال ذلك التأمّل الذي يقوم به على حافّة قنوطه. كان يتبيّن صممَ الأعيان. إن ذوي الامتيازات لا يسمعون من جهة المحرومين، فهل هذا هو ذنب أصحاب الامتيازات؟ لا. إنها شرعتهم، للأسف، فلتغفروا لهم. إن التأثّرَ قد يكون معناه التخلّي عن الحقوق. فأين هم السّادة الإقطاعيّون والأمراء؟ لا ينبغي أن ينتظرَ المرءُ شيئاً، إن المكتفي هو الذي لا يرحم. وبالنسبة للشّبعان، ليس الجائعُ موجوداً. إن السّعداء لا يقدّرون وهم يعزلون أنفسهم. وعلى عتبة جنّتهم، كما على عتبة الجحيم، يجب أن يُكتب: تخلوّا عن كلّ رجاء٭.

لقد استُقبل غوينبلين لتّوه استقبالَ شبحٍ يدخلُ إلى مكان إقامةِ الآلهة.

وهناك أخذ ينتفضُ كلُّ ما كان في داخله. لا، لم يكن شبحاً، كان رجلاً. قد قال لهم ذلك، وصاح لهم بذلك، لقد كان الرّجل.

لم يكن شبحاً، كان لحماً مختلفاً. كان له دماغٌ، وكان يفكّرُ، وكان له قلبٌ، وكان يحبُّ. كانت له روحٌ، وكان يأملُ. أمّا أن يكون قد أَمِل أكثر مما ينبغي، فقد كان في ذلك بالذّات كلُّ ذنبه.

كان، وأأسفاه! قد بالغَ في الأمل وصولاً إلى الإيمان بذلك الشيءِ الباهر والغامض. والذي هو المجتمع. والذي كان خارجه، وقد عاد إلى الدّخول إليه.

لقد قدّم إليه المجتمع فوراً، ودفعةً واحدة، وفي آنٍ واحد، عروضَه الثلاثة، وأعطاه هباته الثلاث، الزّواج، والأسرة، والطبقة المغلقة. أما الزّواج، فقد رآه على عتبة الدّعارة. أما الأسرة، فقد صفعه شقيقُه، وكان ينتظره في اليوم التّالي، والسّيفُ بيده. أما الطبقةُ المنغلقة، فقد كانت دقّهقه

منذ قليل في وجهه، هو أحدُ الأشراف، هو البائس. لقد رُفِض تقريباً قبل أن يُقبل حتى. وفتحت خطواتُه الثلاثُ الأولى في تلك العتمة الاجتماعية العميقة ثلاث هُوى تحته.

بتشويهٍ غادر إنّما كانت مصيبتُه قد بدأت. وكانت تلك الكارثةُ قد اقتربت منه تحت سيماء التمجيد! أما اصعَد! فكانت تعني: انزل!

كان ضرباً من أيّوبٍ معاكس، فمن خلال الازدهار، إنمّا أتاه الحظُّ العاثر.

يا للّغز البشريّ المأسوي! هذه هي إذن الأحابيلُ! حين كان طفلاً، كافحَ ضدَّ العتمة،وكان أقوى منها. وحين صارَ رجلاً كافح ضدَّ القدر، وصرعه. وقد تحوّل من مشوّهٍ إلى متألّق، ومن منكودٍ إلى سعيد. وجعل من منفاه ملجأ. وإذْ كان مشرّداً، فقدْ كافح ضدَّ المكان. ومثلُ طيور السّماء، وجد فيه ما يقتاتُ به. وإذ كانَ بهلوانا، فقد قاوم ذلك الأسد الذي هو الشّعب، وقد روّضه. وإذْ كان معوزاً فقد كافح الفاقة. وجابه صعوبةَ العيش القاتمة. ولفرط ما دمج بالبؤس كلَّ أفراح القلب، فقد صنع من الفقر غنىً. لقد كان يمكنه أن يظنّ نفسه قاهراً للحياة، فقد وصلت قوىً جديدة ضدّه من أعماق المجهول، ولم تعد تحملُ التهديدَ والوعيدَ بل الملاطفات والابتسامات. وقد تبدّى الحبُّ الجائرُ والمادّي له، هو المشبعُ بالحبِّ الملاكي.

لقد أمسك به الحبُّ الجسديّ، هو الذي كان يعيش بما هو مثاليّ. كان قد سمع كلاماً شهوانياً شبيهاً بصيحاتِ السُّعار، وأحسَّ باحتضاناتِ أذرعٍ نسائيّة تعطي انطباعاً بأنها عقدةُ ثعابين الحفث، وأخذ يعقبُ إشراقَ الحق إغراءُ الزّيف. فالواقعُ ليس الجسد، بل الرّوح. إن الجسد رمادٌ، والرّوحُ شعلة. لقد استُبدل بتلك المجموعةِ المرتبطة معه بقرابةِ الفقر والعمل، والتي كانت أسرتَه الحقيقيّة الطبيعيّة، الأسرة الاجتماعية، أسرة الدّم، ولكنه الدّم المشوب، وحتى قبل أن يدخل إليها، كان يلقى نفسه بمواجهةِ تحضيرٍ لجريمة قتل الأخ. واأسفاه! ورضخ لترتيبٍ جديدٍ يصنفّه في ذلك المجتمع الذي كان يقول عنه برانتوم الذي لم يقرأه غوينبلين: "يمكن للابن بحقّ أن يدعو والده إلى المبارزة".

كان الحظّ المشؤوم قد صاح به: أنتَ لستَ من عامّة الناس، أنت من النّخبة! وفتح فوق رأسه السّقفَ الاجتماعيّ، وكأنه فخٌ في السّماء، وقذفَ به من تلك الفتحة، وجعله يظهرُ بغتة، من غير انتظار، ومخيفاً، في وسط الأمراء، والسّادة فجأة، حواليه، وبدلاً من الشعْب الذي كان يصفقُ له، رأى السّادة الإقطاعيين، الذين كانوا يلعنونه، إنه تحوّلٌ محزن. وتضخّمٌ شائن. واختلاسٌ مباغتٌ لكلّ ما كان يشكّلُ اغتباطه! نهبٌ لحياته على يدِ الصيّحات السّاخرة! واقتلاعٌ لغوينبلين، لكلانشارلي، للّورد، وللبهللوان، ولقدرهِ الدّاخلي، ولقدرهِ الجيد بضرباتِ مناقير كلّ تلك النّسور!

ما الفائدة من أن يكون قد بدأ حياته بانتصار على العائق؟ ما الفائدة من أن يكون قد انتصر أوّلاً؟ واأسفاه! لا بدّ أن يكون قد دُفع إلى الهاوية، فالمصيرُ لا يكتمل من غير ذلك.

وهكذا، فكرْهاً أو طوعاً مناصفةً، لأنه كان عليه أن يواجه باركيلفيدرو، بعد المأمور القضائي، وكانت ثمة موافقة لديه على خطفه؛ تركَ الواقعَ من أجل الوهميّ، والحقيقيّ من أجل الزائف، وديا من أجل جوزيان، والحبَّ من أجل الغرور، والحريّةَ من أجل الاقتدار، والعملَ الفخورَ والفقيرَ من أجل الثراء المليء بالمسؤوليّة المبهمة، والظلّ الذي فيه الله من أجل التّلألؤ الذي فيه الشّياطين، والجنّة من أجل الأولمب (موطن الآلهة)!

كان قد قرضَ التّفاحة الذّهبيّة، فبصقَ لقمةً من الرّماد.

إنها نتيجةٌ تدعو إلى الرثّاء. اندحارٌ وإفلاسٌ، وسقوطٌ في الدّمار. وإبعادٌ وقحٌ لكلّ آماله التي يجلدُها الضّحكُ الهازئ، وزوالٌ للوهم يتجاوزُ الحدّ. فما العملُ من الآن فصاعداً. وإذا ما نظر إلى الغد، ماذا سيلمحُ؟ سيفاً مجرّداً رأسُه أمام صدره، وقبضتُه في يد أخيه. لم يكن يرى إلاّ الالتماع المقزّز لذلك السّيف.

أما البقيّةُ، جوزيان، ومجلسُ اللوردات، فقد كانت وراءه، في ضوءٍ خافتٍ مليءٍ بالأخيلة المأسويّة.

وتلك الأخُ، كان يتبدّى له وكأنه فروسيٌ ومقدام! فوأسفاه! إن توم - جيم - جاك الذي كان يدافع عن اللورد كلانشارلي، كان قد لمحه بصعوبة، ولم يتسنّ له إلاّ الوقتُ لكي يُصفع على يده، وأن يحبّه.

فيا لها من ضروبٍ من الإرهاق المضني!

أما الآن، فإن المضيّ بعيداً غيرُ ممكن. كان الانهيارُ من كلِّ الجهات. فضلاً عن ذلك فما الفائدة؟ إن كافّة ضروبِ التعَب ماثلةٌ في أعماق اليأس.

كان الامتحانُ قد جرى، ولمَ تعدْ المسألة في أن يبدأ من جديد.

إن لاعباً قد لعبَ كلَّ أوراقه الرّابحة، واحدةً بعد الأخرى، إنمّا هو غوينبلين.

وقد استسلم للإنجرار إلى المقمرةِ الرّهيبة. ومن دون أن يدركَ بالضبّط ما يفعلهُ، لأن هذا هو تسميمُ الوهمِ الحاذق، فكان قد قامر بديا مقابل جوزيان فحصل على شيطان، وكان قد قامر بأورسوس مقابلَ أسرة، فحصل على الإهانة. وقامرَ بمنصّةِ مسرحيةٍ كبهلوان مقابل مقعدِ لورد، وقوبل بالهتاف، وحصل على اللّعنات. وسقطت آخرُ بطاقةٍ على ذلك البساط الأخضر المشؤوم، بساط مرجِ البولينغ المقفر. كان غوينبلين قد خسر. ولم يعدْ له إلاّ أن يدفع الثّمن. فلتدفعْ، أيها الشّقيّ!

قلما يتحرّك المصعوقون، وكان غوينبلين جامداً. ومن كان يمكن أن يراه في ذلك الظلّ من بعيد، منتصباً وبلا حركة، على حافةِ الدّرابزين، يمكنه الظّنّ بأنه يرى حجراً واقفاً.

إن الجحيمَ والثعبانَ وحلمَ اليقظة يلتفُّ بعضها على بعض. وكان غوينبلين ينزلُ اللوالب الرّمسيّة، لوالبَ التعمّق المتفكرّ.

إن ذلك العالم الذي كان يلمحه منذ قليل، كان يتأمّله بتلك النّظرة الباردة التي هي النظرةُ النّهائية. الزّواج، ولكن ليس زواجَ الحبّ والأسرة، ولكن ليست أسرة الأخوّة، والغنى، ولكن ليس غنى الوجدان، والجمال، ولكن الذي ليس جمال الحشمة، والعدالة، ولكن ليس عدالة الإنصاف،

والنظام، ولكن ليس نظام التوازن، والاقتدار، ولكن ليس بهاء النّور. إنها نتيجةٌ ختاميّة لا ترحم.

إنه يستعرضُ هذه الرّؤيا السّامية التي كان تفكيرهُ غارقاً فيها، ويعاينُ على التوّالي، المصيرَ، والموقفَ، والمجتمعَ، ونفسَه. فماذا كان المصيرُ؟ كان فخاً. والموقفُ؟ كان يأساً، والمجتمعُ؟ كان كراهيةً. ونفسُه، وكانت مهزومةً. وفي أعماق روحه، صاح: إن المجتمعَ هو الأمُّ الشرسة. فالطبيّعة هي الأم.

والمجتمعُ هو عالمُ الجسد؛ والطبيعةُ هي عالمُ الرّوح. أولهما يُفضي إلى التابوت، إلى علبةِ خشبِ التدوّب في الحفرة، وإلى دودِ الأرض، وينتهي هناك. والأخرى تفضي إلى الأجنحة المفتوحة، وإلى تحوّل الصّورةِ في الفجر، وإلى الصّعود إلى السّموات، وإلى البدء مجدداً من هناك.

أخذ اشتدادُ البُرحاء يستولي عليه. إنّه تدويمٌ مشؤوم. والأشياءَ التي تنتهي تحملُ وميضاً أخيراً حيث يرى المرء كلَّ شيء من جديد.

من يحاكمُ الأمور، يقابلُ فيما بينها. لقد قابل غوينبلين بين ما كان المجتمعُ قد صنعه له، وما صنعته له الطبيّعة. فكيف كانت الطبيّعةُ طيّبةً معه! كم أنجدته، هي الرّوح! كان كلُّ شيء قد أُخذ منه. كلُّ شيء، حتى الوجه. لأن في العالم الأرضي، ثمة عمياء سماويّة، خُلقت خصيّصاً من أجله، ولم تكن ترى قباحته، وكانت ترى جماله.

وعن هذا إنّما انساق إلى الافتراق! عن هذا الكائن الرائع، عن هذا القلب، عن ذلك التبنيّ، وعن ذلك الحنان، وعن تلك النظرةِ الإلهيّة العمياء، والوحيدةِ التي رأته على الأرض، إنمّا ابتعد! لقد كانت ديا هي شقيقته، فقد كان يحسُّ إخاءَ اللاّزورد العظيم منها إليه، وذلك السّرُّ الذي يحتوي كلَّ السماء. وحين كان صغيراً، كانت ديا عذراءَه؛ فلكلِّ طفلٍ عذراؤه. وللحياة دوماً زواجُ أرواحٍ تتممّهُ ببراءةٍ كاملة كبداية، عذريتان صغيرتان جاهلتان، كان ديا هي زوجته، لأنه قد كان لهما العشُّ نفسُه على أعلى غصنٍ من أغصان شجرةِ الزفاف الكثيفة.

كانت ديا أكثر من ذلك أيضاً. كانت ضياءه، ومن دونها، كان كلُّ شيء هو العدم والفراغ، وكان يرى لها شعوراً من الأشعّة. فما الذي يصبحُ عليه من دون ديا؟ وماذا يصنعُ بكلّ ما كان عليه هو؟ ما من شيء منه كان يحيا من دونها. فكيف إذن كان بمقدوره أن يجعلَها تغيبُ عن ناظره للحظةٍ من الزّمن؟ آه، أيّها المنكود الحظّ! لقد ترك الابتعاد يجري بين كوكبه وبينه، وفي تلك الجاذبيّات المرعبة المجهولة، يصبح الابتعادُ هوّةً حالاً! فأين كانت، تلك النجمة؟ ديا! ديا! ديا! وأسفاه! لقد أضاعٍ نوره. فماذا تكون السّماء إذا نزعتم منها الكوكب؟ سواداً. فلماذا إذن ذهبَ كلٌّ ذلك؟ آه! كم كان سعيداً! كان الرّبّ قد صنعَ عدن ثانية من أجله - وبشكلٍ أكثر من المطلوب، وللأسف! وصولاً إلى جعل الحية تدخلُ إليها مجدداً! غير أن الذي تعرّض للإغراء هذه المرّة هو الإنسان. فقد اجتُذب إلى الخارج، وهناك، ويا لها من مكيدةٍ شنيعة، وقع في بلبلةِ الضّحكاتِ السّوداء التي هي الجحيم! فالويل! الويل! كم كان كلّ ما فتنه مرعباً! فما كانت جوزيان تلك؟ أوه! إنها المرأة الفظيعة، الحيوان إلى حدٍّ ما، والإلهة إلى حدّ ما! كان غوينبلين في الوقت الحالي على الجانب العكسيّ من ارتقائه، وكان يرى الجهة الأخرى من انبهاره. لقد كان ذلك مثيراً للحزن. كانت جماعةُ الأسياد هذه مشوّهة، وكان التّاجُ شنيعاً، وكان ذلك الرّداء الأرجوانيّ حداداياً، وكانت تلك القصورُ سامّةً، وكانت تلك النّصبُ، وتلك التماثيلُ، وشعاراتُ النبالة تلك مريبةً، والهواءُ غير الصّحّي والغادرُ الذي يتنفسّونه هناك كانت تجعلُ المرءَ مجنوناً. أوه! إن أسمالَ البهلوان غوينبلين قد كانت بهيّةً! أوه! أين أصبحت العلبةُ الخضراء، والفقرُ، والفرحُ، والحياةُ العذبةَ المترحّلة الجماعيّة كأسراب السّنونو؟ لم يكن هناك افتراق، وكلُّ واحد يرى الآخر في كلِّ دقيقةٍ، في المساء، والصّباح، ولم يكن أحدٌ يدفعُ الآخر بمرفقهِ على المائدة، بل كانوا يتلامسون بالرّكبة، ويشربون من القدح نفسه، وكانت الشمس تدخلُ من الطاقة، ولكنها لم تكن سوى الشمّس. وكانت ديا هي الحبّ. وفي الليل، كانوا يشعرونِ أنهم يغفون بعضهم ليس بعيداً عن البعض الآخر. وكان حلمُ ديا يأتي ليحطُّ على غوينبلين، وكان حلمُ غوينبلين

يأتي بشكلٍ خفيٍّ ليتفتّح فوق ديا! ولم يكونوا متأكدين، عند الاستيقاظ، بأنهم لم يتبادلوا قبلاتٍ في سحابةِ الحلم الزّرقاء. كانت البراءةُ كلُّها لدى ديّا، وكانت الحكمةُ كلّها لدى أورسوس.

كانوا يجولون من مدينةٍ إلى مدينة. وكان لديهم كزادٍ، وكقوةٍ مقويةٍ، مرحُ الشّعبِ السّليمِ القلب والودود. لقد كانوا ملائكةً جوّالين، ولديهم ما يكفي من الإنسانيةِ لكي يسيروا في العالمِ الأرضي، وليسٍ ما يكفي من الأجنحة لكي يطيروا. أما الآن، فهل هو الأفول! أين أصبح كلُّ ذلك؟ وهل كانٍ ممكناً أن يتلاشى كلُّ شيءٍ! أيّةُ ريح قد هّبت من القبر؟ لقد احتجب إذن كلُّ شيء! لقد ضاع إذن كلُّ شيء!

وا أسفاه، إن القوّةَ الكليّة الخفيّةَ التي تضغطُ على الصّغار، تسيطرُ على العتمة بكاملها، وهي قادرةٌ على كلِّ شيء! فما الذي فعلوه بهم؟ إنه لم يكن موجوداً هناك، بنفسه، لكي يحميهم، لكي يقف معترضاً، ويدافع عنهم، باعتباره لورداً وبلقبه، وولايته الإقطاعية وسيفه، وباعتباره مهرّجاً، بقبضتيه وأظافره! وهنا أخذ يظهرُ فجأة تفكيرٌ مرير. ولعلّه أكثر ضروبِ التفكير مرارةً. حسناً، لا، لم يكن بإمكانه أن يدافع عنهم! فقد كان هو بالتحديد من أودى بهم. ومن أجل أن تقيه منهم، هو اللّورد كلانشارلي، ومن أجل أن تعزل منصبه العالي عن التّماس معهم، إنّما أناخت كليّةُ القدرة الشّائنة الاجتماعيّة بثقلها عليهم. إن أفضل طريقةٍ بالنسبة إليه لحمايتهم قد تكون في أن يتوارى، فلا يكون هناك مسوّغٌ لاضطهادهم. وقد يدعونهم وشأنهم. إذا كان هو غير موجود. إنها نافذةٌ مرعبة كان تفكيرهُ يدخلُ إليها. آه! لماذا قَبِلَ بأن يفترق عن ديا؟ ألم يكن أوّلُ واجبٍ لديه هو نحو ديا؟ وخدمة الشعب والدّفاع عنه؟ غير أن ديا كانت هي الشّعب. كانت ديا هي اليتيمة، وكانت العمياء، وكانت الإنسانية! أوه! ماذا صنعوا بهم؟ اكتواءٌ قاسٍ بالنّدم! كان غيابُه قد ترك السّاحةَ خاليةً للكارثة. كان يمكنُه أن يشاطرَهم مصيرَهم. وكان يمكنه إمّا أن يأخذهم ويحملّهم معه، وإما أن يغرق وإياهم. فما الذي سيصبحُ عليه الآن من دونهم؟ فغوينبلين من غير ديا، هل كان أمراً ممكناً! وإذا نقصته

ديا، فقد نقصه كلُّ شيء! آه! لقد انتهى كلّ شيء. كانت تلك الجماعةُ العزيزة قد غرقت إلى الأبد في تلاشٍ لا يمكن تعويضُه. لقد استُنفِد كلُّ شيء.

فضلاً عن ذلك، فبما أن غوينبلين مدانٌ ومرذولٌ، فما الفائدةُ من النّضال فترةً أطول؟ لم يعدْ هناك شيء يُنتظرُ من النّاس أو من السّماء. يا ديا! يا ديا! أين ديا؟ ضائعة! ماذا، ضائعة! لم يعدْ لدى من أضاعَ روحَه إلاّ الموت للعثور عليها.

وضع غوينبلين، التّائهُ والمأسويُّ، وضع يده بحزمٍ على الدّرابزين وكأنّه يضعها على حلّ، ونظر إلى النّهر.

كانت تلك هي الليلة الثالثة التي لم ينم فيها. كانت أفكارُه التي يظنُّها صافية، مضطربةً. وكان يحسّ بحاجةٍ قهريّة إلى النّوم. ومكث على هذه الحال بضعَ لحظاتٍ منحنياً على ذلك الماء؛ وكان الظّلُّ يقدّم له السّريرَ الكبيرَ الهادئ. الذي هو لا نهائية الظلّمات. إنها تجربةٌ مشؤومة.

خلع رداءه، وطواه ووضعه على الدّرابزين. ثم فكّ أزرار صدرته. وبينما كان يشرعُ في خلعها، صدمت يدُه شيئاً في جيبه. كان ذلك هو الكتاب الأحمر الذي سلّمه إياه قيّمُ مكتبةِ مجلسِ اللوردات. سحبَ ذلك الكرّاسَ من تلك الجيب، وتفحّصه في ضوء الليل المنتشر، ورأى فيه قلم رصاص، فأمسك بهذا القلم، وكتب على الصّفحة الأولى البيضاء التي انفتحت هذين السّطرين:

"أنا ذاهبٌ. وليحلّ أخي دافيد محلّيّ، وليكن سعيداً".

ووقّع: "فيرمان كلانشارلي، أحدُ أعيان إنكلترا".

ثم خلع الصّدرةَ ووضعها على الرّداء، ونزعَ قبّعتَه ووضعها على الصّدرة. ووضع على القبعة الكتابَ الأحمرَ المفتوحَ على الصّفحة التي كان يكتب عليها. ولمح حجراً على الأرض، فأخذه ووضعه على القبعة.

بعد أن تمّ هذا، نظر إلى الظّلّ اللانهائي فوق جبينه.

ثم انخفض رأسُه ببطء وكأن خيطَ اللُّجج غير المنظور يسحبُه.

كانت هناك فجوةٌ في أحجارِ قاعدةِ بناء الدّرابزين، فوضع قدمه فيها بحيث أن ركبته كانت تتجاوزُ إلى أعلى الدّرابزين، وبحيث لم يعدْ عليه أن يفعلَ شيئاً تقريباً لكي يتخطاه.

شبك يديه خلفَ ظهره وانحنى وهو يقول:

"فليكنْ"

وحدّق بالماء العميق. في تلك اللحظة، أحسَّ بلسانٍ يلحسُ يديه.

فارتعش واستدار. كان ذلك هو أومو الذي يقف وراءه.

خاتمة

البحر و اللّيل

I

كلبُ حراسة
يمكن أن يكون ملاكاً حارساً

صرخ غوينبلين قائلاً:

((هذا أنت، أيّها الذّئب!))

هزّ أومو نيله. وكانت عيناه تلتمعان في العتمة، وكان ينظر إلى غوينبلين.

ثم عاد إلى لحس يديه. فمكث غوينبلين للحظة من الزّمن وكأنه ثمل. لقد رجع الأملُ بشكلٍ هائل، فأحسّ بتلك الرّعشة. إنه أومو، فأيّ ظهورٍ هذا!

منذ ثمان وأربعين ساعة، كان قد استنفد ما يمكن أن نسميه تنوّعاتِ الضربة المفاجئة، وقد بقي عليه أن يتلقّى ضربةَ الفرح الصّاعقة. فتلك هي الضّربة التي هوت عليه منذ قليل. إنه اليقينُ الذي يقبضُ عليه مجدّداً، أو على الأقل، الضّياء الذي يؤدّي إليه، والتّدخُّلُ المفاجئ لرأفةٍ غامضة غير محدّدة وموجودة ربّما في القدر، فتقول الحياة: ها أنذا! في أكثرِ لحظاتِ القبر سواداً، حيث لم يعد المرء ينتظرُ شيئاً، يرسمُ فجأةً معالمَ الشّفاء والخلاص، شيئاً هو مثل نقطةِ استنادٍ يُعثرُ عليها في لحظةِ الانهيار الأكثر حرجاً، كان أومو هو كلّ ذلك. وكان غوينبلين يرى الذئب في شيء من النّور.

ومع ذلك؛ فقد استدار أومو. وخطا بضع خطوات، ونظر إلى الخلف وكأنما ليرى إن كان غوينبلين يتبعُه.

أخذ غوينبلين يسيرُ على إثره، فحرّك أومو ذيله وواصل طريقَه.

وهذا الطّريق الذي سار فيه الذّئبُ، كان منعطفَ رصيف إفروك – ستون. وكان هذا المنعطفُ يُفضي إلى حافّةِ نهرِ التّايمز. أما غوينبلين الذي كان يقوّده أومو، فقد نزل ذلك المنعطف.

من وقتٍ لوقتٍ، كان أومو يديرُ رأسه ليتأكّد من أن غوينبلين وراءه.

في بعض المواقف الهامّة، لاشيءَ يشبهُ ذكاءً يتضمّن كلّ شيء كالغريزة البسيطة للحيوان الودود. فالحيوانُ مسرنمٌ[*] ذو ذهنٍ صافٍ.

ثمّة حالاتٌ يحسّ فيها الكلبُ بالحاجةِ إلى أن يتبع صاحبه، وحالاتٌ أخرى يحسّ فيها بالحاجة إلى أن يسبقه. حينذاك يتّخذُ الحيوانُ جهةَ الحسّ. إن حاسّة الشمّ الرّصينة تبصرُ بشكلٍ مشوّش في غسقنا. ويتبدّى الانقيادُ بصورةٍ مبهمةٍ للحيوان باعتباره ضرورةً. فهل يدري إن كانت هناك خطوةٌ خاطئة، وإن كانَ ينبغي مساعدةُ الإنسان على عبورها؟ لا. على الأرجح. ونعم. ربّما. وفي كلّ الحالات، فإن أحداً يعلمُ ذلك عنه. لقد سبق لنا أن قلنا ذلك غالباً في الحياة، فإن معوناتٍ عظيمة الشأن يظنّ المرءُ أنها آتية من العالم الأرضي تأتي من العالم العلوي. والمرء لا يعرفُ كلَّ الأشكال التي يمكن للرّب أن يتّخذها. فما هو هذا الحيوانُ؟ إنّه العنايةُ الإلهيّة.

حين وصل الذئبُ إلى حافة النهر، تقدّمَ نحو سافلته على لسان الأرض الضيّق الذي يحاذي نهر التّايمز.

لم يطلقْ أيّةَ صرخة، ولم ينبحْ، كان يسير صامتاً. كان أومو، في كلّ مناسبةٍ، يتبع غريزته، ويقوم بواجبه، إنما كان لديه تحفّظُ المُبعدِ المتفكّر.

توقّف، بعد خمسين خطوة. وكان يعرض له مأصرٌ[**] على اليمين. وعند طرف ذلك المأصر، الذي هو ضربٌ من رصيفِ ركوبٍ على موثّدة، كانت تُلمحُ كتلةٌ عاتمةٌ هي سفينةٌ ضخمةٌ إلى حدٍّ كافٍ. وعلى ظهر السفينة،

(*) المسرنم هو من يسيرُ أثناء نومه (م: ز.ع).

(**) المأصر: حاجز في الماء. (م: ز.ع).

قريباً من مقّدمتها، كان ثمة إضاءة غير واضحة تقريباً، وتشبه قنديلاً على وشك الانطفاء.

تأكّد الذئبُ مرّةً أخيرةً من أن غوينبلين كان موجوداً، ثم قفز إلى المأصر الذي هو معبرٌ طويل مدفّفٌ ومقطرن، ويحمله حاجزٌ شبكيٌّ، ويسيلُ تحته ماءُ النّهر.

وفي غضونِ بعض لحظات، وصل أومو وغوينبلين إلى اللّسان الأرضي.

كانت السّفينةُ المقلّسةُ إلى طرف المأصر إحدى تلك المواعين الهولنديّة ذات السّطح المزدوج المنزوعِ الصّواري، فأحدُهما في المقدّمة، والآخرُ في المؤخّرة، وفيهما على الطريقة اليابانية، بين السطحين، حجرةٌ عميقةٌ مكشوفةُ السّقف يجري النّزولُ إليها عن طريقِ سلّمٍ عمودي، وكانوا يملؤونه برزمِ الحمولة. فكان للسّفينة طرفان، أحدُهما في مقّدمها، والآخر في مؤخّرها،كما كان الأمر في سفن خفرِ الأنهارِ القديمة التي كانت لدينا، والتي فيها تقعّرٌ في الوسط.

كان التحميلُ يملأ تلك الفجوةَ باكتظاظ. إن المراكبَ الورقيّة التي يصنعُها الأطفال لها تلك الشكل. تحت السّطحين، كانت هناك قمرتان تتّصلان بأبوابٍ بالحجرة المركزية، ومنارتان بكوى متقوبة في تأزير السفينة. وحين يتمّ تحزيمُ الحمولة، كانوا يتركون معابرَ بين الرّزم. كان صاريا تلك المواعين مغروزين في السّطحين. وكان صاري المقدّم يسمى بولص، وصاري المؤخرة يسمى بطرس، فالسّفينةُ يقودُها هذان الصّاريان كما يقودُ الكنيسةَ رسولاها.

وكان جُسيرُ النزول، الذي يشكّلُ سلّمَ السّفينة يمتدّ، مثل جسرٍ صينيٍّ، من سطحٍ إلى آخر فوق حجرة المركز. وفي أوقات الطّقس الرّديء، كان ينخفضُ حاجزا جُسيرِ النّزول إلى اليمين وإلى اليسار بواسطة آليّة معيّنة، وهذا ما كان يشكّلُ سقفاً فوق الحجرةِ المقعّرة، بحيث تصبحُ السّفينةُ مغلقةً إغلاقاً محكماً، عندما يهيجُ البحر. إن تلك المراكب الشّديدة الضخامة، لها رافدةٌ خشبية بمثابة مقبضِ توجيه، بما أن قوّة الدّفة ينبغي أن تتناسب مع ثقل قالب السّفينة. إن ثلاثة رجالٍ، قائدِ المركب، وملاّحيه، إضافة إلى طفل، هو

البحّارُ الحذق، كانوا كافين لتشغيل هذه الآلات الثقيلة في البحر. كان السّطحان الأماميّ والخلفي للماعون، كما سبق أن قلنا، من دون حاجز. لقد كان ذلك الماعون هيكلاً عريضاً لسفينةٍ مستديرةٍ وسوداء اللّون تماماً، وكان يُقرأ عليها بحروفٍ بيضاء، مرئية في اللّيل:

VoGraat.Rotterdam

في ذلك العهد، كانت حوادثُ بحريّةٌ مختلفةٌ، ومؤخراً جداً، كارثةُ مراكبِ البارون بوانتي[*] الثمانية في رأس كارنيرو، التي أجبرت كلّ الأسطول الفرنسيّ على الانسحاب إلى جبل طارق، كانت قد كسحت المانش، وطهّرت من كلّ سفينةٍ بحريّة معبرَ المرور بين لندن وروتردام، وأتاحت للعمارات البحريّة التجاريّة أن تذهب وتجيء من دون مرافقة.

إن المركبَ الذي كان يُقرأ عليه VoGraat، والذي وصل غوينبلين إلى مقربة منه، كان يلامسُ المأصرَ من جهة يسار سطح السّفينة الخلفيّ الذي هو على سويّته تقريباً. كان ذلك مثل درجةٍ ينبغي نزولها. لقد أصبح أومو بقفزةٍ منه، وغوينبلين بفشخةٍ منه في السّفينة. وألفى كلّ منهما نفسه على السّطح الخلفيّ. كان السّطحُ خالياً، ولم تكن تُرى فيه أيّةُ حركة. أما المسافرون، إن كان هناك مسافرون، وهذا محتملٌ، فقد كانوا على السّفينة، نظراً لأن العمارة كانت تتهيّأ للرحيل، ولأن التحميلَ قد أنجز، وهذا ما كان يدلّ على امتلاءِ الحجرة المقعّرة المزدحمة بالطّرود المحزومة والصّناديق. غير أنّهم كانوا بالتّأكيد راقدين أو نائمين على الأرجح في غرفٍ ما بين الجسرين تحت السّطوح. لأنه ينبغي أن تجري الرّحلةُ البحريّةُ ليلاً. ففي حالاتٍ مماثلة، لا يظهرُ المسافرون على السّطح إلاّ في اليوم التّالي صباحاً، عند الاستيقاظ. أما طاقمُ السّفينة فقد كان يتناولُ العشاءَ بوجه الاحتمال، بانتظار لحظةِ الرّحيل القريبةِ جدّاً، في الخلوة الصّغيرة التي كانوا يسمّونها حينئذٍ "الحجرة الملاحيّة". ومن هنا تأتي عزلةُ نقطتي المؤخرة والمقدّمة اللّتين يصلُ بينهما جُسيرُ عبور.

(*) في ٢١ نيسان العام ١٧٠٥.

كان الذئبُ على المأصر قد سار عدواً تقريباً؛ وعلى السّفينة، أخذ يسيرُ ببطء، وكأنّما بفطنة. كان يحرّك ذيله، ليس بفرح أيضاً، بل بتردُّدٍ ضعيفٍ وحزينٍ لكلب قلق. لقد اجتاز السّطح الخلفيّ سابقاً غوينبلين دائماً، وقطع ممرّ العبور.

أما غوينبلين فقد لمح ضوءاً أمامه، وهو يدخل إلى جُسير العبور. كان ذلك هو الضّوء الذي رآه من حافّة النّهر. كان هناك فانوسٌ موضوعٌ على الأرض، عند أسفل الصّاري الأمامي: وكان انعكاسُ ذلك الفانوس يُبرزُ بالأسود على خلفيةِ الظّلام المعتمة ظلاًّ له أربع عجلات. فتعرّفَ غوينبلين كوخ أورسوس القديم.

كان ذلك المسكنُ المتداعي الفقير، بعجلةِ جرّه وكوخه، والذي درجت طفولته فيه، كان محزّماً إلى أسفل الصّاري بحبالٍ ثخينة كانت عُقدُها تُرى في العجلات. فبعد أن خدمَ لفترةٍ طويلة، أصبح متهافتاً تماماً؛ فما من شيء يُتلف النّاسَ والأشياء كالبطالة؛ وقد كان للكوخ انحناءةٌ بائسة.

وقد جعله بُطْلانُ استخدامه مشلولاً، إضافةً إلى هذا، فقد أُصيب بذلك المرض الذي لا دواء له وهو: الشّيخوخة. كان منظرهُ الجانبيّ الذي لا شكلَ له والمنخورُ يلتوي بوضعيةِ شيءٍ منهار. وكلّ ما كان مصنوعاً منه كان يُبدي مظهراً تالفاً. كانت حدائدُه صدئة، وجُلوده متشقّقة، وأخشابهُ مسوّسة. كانت التّصدّعاتُ تحزُّ الألواحَ الزّجاجيّة الأماميّة التي كان يجتازُها شعاعٌ من أشعّة الفانوس. كانت العجلاتُ قفداء.

وكان يبدو أن الحيطانَ والأرضيةَ الخشبيّة، والمحاورَ قد أنهكها التّعب.

وكان للمجموع مظهرُ شيءٍ مضنىً ومتوسّلٍ غيرُ محدّد. وكان يبدو أن لرأسي المحمل المنتصبين هيئة ذراعين مرفوعتين إلى السّماء. كانت التخشيبةُ كلّها مخلّعة. وتحتها، كان المرء يميّز سلسلةَ أومو المتدلّية.

أن يستعيد المرءُ حياته، واغتباطه، وحبّه، وأن يهرعَ إليها بشغف، يبدو أن ذلك هو القانونُ، وأن الطبيعة تريد ذلك أيضاً. أجل، باستثناء حالة

الاهتزاز الشّديد. إن من يخرجُ، مزعزعاً تماماً، من سلسلة من الكوارث الشّبيهة بالخيانات، يغدو حذراً، حتّى في الفرح، ويتهيّبُ من أن يحمل قدَره إلى أولئك الذين يحبّهم، ويحسُّ أنه معدٍ بشكلٍ محزن، ولا يتقدّمُ في السّعادة إلا بحذر؛ فالجنّةُ تتفتحُ مجدّداً، وقبلَ الدّخول إليها، يلاحظها.

كان غوينبلين الذي يترنّحُ تحت الانفعالات، ينظر.

أما الذئبُ فقد مضى بصمتٍ ليرقدَ قريباً من سلسلته.

II

صوّبَ باركيلفيدرو على النّسر فأصاب الحمامة

كانت مرقاةُ الكوخ الصّغيرِ مُخفضةً؛ وكان البابُ مشقوقاً، ولم يكن هناك أحدٌ في الداخل. وكان النّورُ القليلُ الذي يدخلُ عبر زجاجِ النافذة الأماميّة يشكّل داخل التّخشيبة على نحوٍ غير واضح، مثلَ ضوءٍ خافتٍ باعثٍ على الكآبة. كانت كتاباتُ أورسوس التي تمجّد عظمة اللّوردات واضحةً على الألواح الخشبية المتهدّمة التي كانت، في آن، الجدارَ في الخارج، وتكسيةَ الخشب في الداخل. وعلى مسمار بقرب الباب، رأى غوينبلين إسكلافينته(*) ومعطفه المقلنس معلّقين كما تُعلّقُ في مشرحةٍ ملابسُ شخصٍ ميت.

وفي ذلك الحين، لم يكن لديه صُدرةٌ أو رداء. كانت التّخشيبةُ تموّه شيئاً ممدّداً على سطحِ السّفينة، عند أسفل الصّاري وينيرُه الفانوس. كان ذلك فراشاً يلمحُ المرءُ زاويتَه. وعلى ذلك الفراش، كان هناك شخصٌ راقدٌ على الأرجح. وكان يُرى فيه ظلٌ يتحرّك.

كان هناك من يتكلّم، فأصغى غوينبلين الذي يحجبُه توسّطُ التّخشيبة.

إن ذلك الصّوت الشّديدَ الخشونة من السّطح، والشّديدَ الرّقة من الدّاخل، والذي كان كثيراً ما يقسو على غوينبلين ويقودُ خطاه بشكل جيد منذ طفولته. لم يعدْ فيه ذلك الطّابع الثّاقب والنّابضُ بالحياة. كان صوتاً مبهماً وخفيضاً، ويتبدّدُ إلى آهاتٍ في نهايةِ كلّ جملة. لم يكن يشبه إلاّ بصورةٍ غامضةٍ صوتَ

(*) رداء مشقوق من الأمام أو من الجوانب، وقد مرّ أعلاه في موضع آخر. (م: ز.ع).

أورسوس القديمَ البسيطَ والحازم. كانٍ أشبهَ ما يكون بصوتِ شخصٍ ماتت سعادتُه. فالصّوتُ يمكن أن يصبح ظلاً.

كان يبدو أن غوينبلين يناجي نفسه أكثر ممّا يحاورُ أحداً. فضلاً عن هذا، فقد كانت المناجاةُ عادةً لديه، كما نعلم. وكان يُعرَفُ بأنه مهووسٌ بسبب ذلك.

حبس غوينبلين نَفَسه لكي لا تضيعَ منه كلمةٌ مما كان يقوله أورسوس، وإليكم ما كان يسمعه:

((هذا النّوعُ من المراكب خطرٌ جدّاً؛ فليس له حافّة. وإذا ما تدحرج إلى البحر، لا يوقفه شيء. وإن كان الجوُّ عاصفاً، فينبغي إنزالُه إلى ما تحت السّطح، وهذا ما قد يكون مخيفاً. فما إن تصدرُ حركةٌ خرقاء، أو خوف، حتى يحدث تمزّقٌ لانتفاخٍ شرياني. وقد رأيتُ أمثلةً على ذلك. آه! يا إلهي، ما الذي سنصير عليه))؟

هل هي نائمة؟ أجل إنها نائمة. أظن أنّها نائمة. هل هي غائبةٌ عن الوعي؟ لا.

إن نبضها قويٌ بما فيه الكفاية. من المؤكّد أنّها نائمة. إنّ النّوم هدنةٌ. إنه العمى الجيّد. وما العمل لكي لا يأتي أحدٌ ليخبط هنا بقدميه؟ أيّها السّادة، إن كان هناك أحدٌ على سطح السّفينة، فأنا أرجوكم ألاّ تُحدثوا ضجّة. لا تقتربوا، إن كان هذا الأمر بالنسبة إليكم سيّان. أنتم تعلمون أنه لا بدّ من إيلاء شخصٍ ضعيفِ الصّحة عنايةً نخصّه بها. إنها محمومةٌ، كما ترون، وهي جدُّ فتيّة. إنها فتاةٌ صغيرةٌ مصابةٌ بالحمى. وقد وضعتُ لها هذا الفراشَ في الخارج لكي تحصلَ على قليلٍ من الهواء.

إني أوضحُ هذا لكي تكون هناك مراعاةٌ لذلك. وقد ارتمت من الإرهاق على الفراش وكأنها فاقدةٌ للوعي. غير أنها نائمة. وأودّ ألاّ يجريَ إيقاظُها. إني أتوجّه إلى النّساء، إن كانت هناك سيّداتٌ راقيات. إن فتاةً شابّةً تثيرُ الرأفة لدينا.

وما نحن إلاّ مهرجون مساكين. وأنا اطلبُ أن يكون هناك قليلٌ من الطيّبة. ثم أنه إذا كان هناك شيءٌ ينبغي دفعُه لكي لا يُحدث أحدٌ ضجّةً، فأنا أدفع.

إني أشكركم، أيها السيّداتُ والسّادة، فهل هناك أحد؟ لا. أظنُّ أنه ليس هناك أحد. إني أتكلّم سدىً. نعمَ الأمر، أيّها السّادة، إني أشكركم إذا كنتم تفهمون الأمر، وأشكركم إن كنتم لا تفهمونه - إن جبينها ينضحُ عرقاً - هيا، لندخل إلى سجننا، ولنستأنف عملنا. لقد رجع الشّقاء. وها نحن مجدّداً سائرون مع التيار. إن يداً معيّنة، هي اليدُ الفظيعةُ التي لا نراها، والتي نحسُّ بها دوماً علينا، قد أدارتنا فجأةً نحو جهةِ القدر السّوداء. فليكنْ. سوف تتوفّر لنا الشجاعةُ. إلاّ أنه لا ينبغي أن تمرض. إني أبدو غبياً إذْ أتكلّم بصوتٍ عالٍ وحدي على هذا النحوّ. ولكن ينبغي فعلاً أن تحسّ بأن لديها أحداً بقربها، إذا ما استيقظت، المهمّ ألاّ يوقظها أحدٌ لي بصورةٍ مفاجئة! فلا تُحدثوا ضجّةً، وحقّ السماء! إن هزّةً تجعلُها تنهضُ مذعورةً تُضرُّبها. وقد يكون من المزعج أن يأتي أحدٌ ليسيرَ من هذه النّاحية. أظن أن الناس نائمون في المركب. إني أشكرُ العنايةَ الإلهيّةَ على هذا التنازل. حسناً! أومو! أين هو إذن؟ في كلّ ذلك الاضطراب، نسيتُ أن أستلحقه بي، لم أعدْ أدري ماذا أصنع. ها قد مرّت أكثر من ساعةٍ لم أره فيها؛ لا بدّ أنه قد ذهب لتناول عشائه في الخارج المهمّ ألاّ يحدث له مكروه! أومو! أومو! '.

خبط أومو ذيله بأرضيّة سطح السّفينة برفق.

'أنت هنا! آه! أنت هنا. فليتبارك الرّب! كان يمكن أن يكون أمراً زائداً عن الحدّ أن يضيع أومو. إنّها تضايقُ ذراعها. ولربّما تستيقظ. اسكتْ، يا أومو. إنّ البحر في حالةِ جزر. ولسوف نسافرُ في الحال. وأظنّ أن الطّقس سيكون صحواً هذه الليلة. فليسَ هناك ريحٌ شماليّة. إن الرّاية الصّغيرة تتدلىّ على طول الصّاري، وستكون لنا رحلةٌ بحريّة جيّدة. لم أعد أدري أين نحن عن القمر. غير أن الغيومَ تكادُ لا تتحرّك. لن تكون هناك حركةٌ في البحر. وسيكون الطقسُ صحواً. إنها شاحبة، وهذا بسبب الضّعف بل هي محمرّةٌ، وهذا بسبب الحمىّ. بل هي متوردّة، وصحّتها جيّدة. لم أعدْ أرى الأمرَ

بوضوح. والحال، فينبغي أن نبدأ الحياةَ من جديد. سوف نعودُ إلى العمل. ولم يعدْ هناك إلاّ نحن الاثنين. كما ترى. سوف نشتغل من أجلها، أنت وأنا. إنها ابنتُنا آه! إن المركبَ يتحرّك. ونحن ننطلق. وداعاً، يا لندن! عمت مساءً، وليلةً طيّبة، إلى الشيّطان! آه! يا للندن الفظيعة!'

كانت السّفينةُ ترتجُّ ارتجاجَ الانزلاقِ المكتوم، في الحقيقة. وكان الانزياحُ يتمُّ بين المأصر والمؤخرة. وكان المرءُ يلمحُ في الطّرف الآخر من العمارة البحريّة، عند الكوثل[*]، رجلاً واقفاً، هو ربانُ السّفينة، بلا شك، والذي كان قد خرج لتوّه من داخل السفينة، وقد حلّ القلس، وهو يديرُ عصا القيادة. إن ذلك الرّجل الذي يركز انتباهه على الممرّ المائي وحسب، كما يليقُ بالمرء حين يكون طبعُه مزيجاً من رباطةِ جأشٍ مزدوجة لهولندي وبّحار، فلا يسمعُ شيئاً ولا يرى شيئاً سوى الماء والهواء، ومنحنياً على طرفِ مقبضِ الدّفة، ومختلطاً بالعتمة، وكان هذا الرّجلُ يسيرُ ببطء على سطحِ السّفينة الخلفيّ، رائحاً وراجعاً من الميمنة إلى الميسرة، مثل ضربٍ من شبحٍ يحملُ عارضةً على كتفه. لقد كان وحدهَ على سطح السّفينة. فما دام المركبُ في قناة العبور، ليس من الضروريّ أن يكون هناك بحّارٌ آخر. كان ينزلُ بلا تموّر ولا ترنحٍ. أما التّايمز الذي قلما كان الجزرُ يعكرّه، فقد كان هادئاً. وحين سحبَ التيارُ السّفينة، أخذت تبتعدُ بسرعة. وخلفها، كان إطارُ لندن الأسود يهبطُ في الضّباب.

واصل أورسوس يقول:

'الأمرُ سيّان، سوف أجعلها تتناول القمعيّة؛ فأنا أخشى أن يحدثَ هنيانٌ مفاجئ. إن راحة يدها تتعرّقُ. ولكن ما الذي صنعناه للإله الرّحيم إذن؟ كم حلّ بنا كلّ هذا الشّقاء بسرعة! إنها سرعةُ الشرّ الشّنيعة. إن حجراً يسقط، فتكون له مخالب، إنه البازيّ ينقضّ على القبّرة. هذا هو القدر. وها أنت راقدة، يا ابنتي الرّقيقة! إنهم يأتون إلى لندن، ويقولون: 'هذه مدينة كبيرة فيها أوابد جميلة'.

(*) الكوثل: مؤخّر السّفينة (م: ز.ع).

"إن ساوذويرك ضاحيةٌ رائعة ويقيمُ المرءُ فيها. أما الآن فتلك أوطانٌ ممقوتة. وماذا تريدون أن أفعل فيها؟ يسرُّني أن أرحلَ عنها. نحن في الثّلاثين من نيسان، ولطالما تحرّرْتُ من شهر نيسان. ليس في شهر نيسان إلاّ يومان سعيدان هما الخامسُ والسابعُ والعشرون منه، وأربعة أيام منكودة هي العاشرُ، والعشرون، والتاسع والعشرون والثلاثون منه. وقد جلت الشّكُّ في ذلك حساباتُ الكاردان المتحوّل. وأودّ أن يمضي هذا اليوم. ولسوف يخفّفُ عنا السّفر. وسنكون عند طلوع الشمسِ في غرافسند، وفي روتردام غداً مساءً. تباً لهذا، سوف أبدأ مجدّداً الحياة السّابقة في التخشيبة، ولسوف نصطحبُها معنا، أليس كذلك، يا أومو؟".

أعلن خبطٌ خفيفٌ عن موافقةِ الذّئب.

وتابع أورسوس قائلاً:

"حبذا لو أن المرء يخرجُ من ألمٍ معيّن كما يخرج من مدينة! يا أومو، قد يكون باستطاعتنا أن نعيش أيضاً بسعادة. وأأسفاه! سوف يكونُ هناك دوماً من لن يكون موجوداً. إن شبحاً معيناً سوف يبقى مخيمّاً على أولئك الذين يستمرّون في العيش بعده. أنت تعرفُ من أعني، يا أومو. لقد كنّا أربعةً، ولم نعدْ إلاّ ثلاثة. ما الحياة إلاّ فقدٌ طويلٌ لكلّ ما نحبّ. إن المرءَ يتركُ وراءه خطاً طويلاً من الآلام. إن القدر يذهلُنا بكثرةٍ من العذابات التي لا تُحتمل. وبعد ذلك، فإننا ندهشُ من أن الشيوخ يثرثرون بلا فائدة. إن القنوط هو الذي يصنعُ بلداء الذهن. يا عزيزي الشجاع أومو، إن الرّيح الخلفيّة مستمّرة. ولم نعد نرى إطلاقاً قبّة سان - بول. ولسوفَ نمرّ بعد قليل من أمام غرينيتش، ونكون قد قطعنا ستةَ أميالٍ كاملة. آه! إني أديرُ ظهري إلى الأبد لهذه العواصم البغيضة الملأى بالكهنةِ والقضاة والرّعاع. وأفضّل رؤيةَ الأوراق تهتزّ في الغابات - إن جبينها يقطر عرقاً باستمرار! ولديها أوردةٌ ثخينةٌ بنفسجيّة لا أحبّها على ساعدها. إنها دليلٌ على الحمىّ في داخلها. آه! إن ذلك يقتلني. نامي، يا طفلتي. أوه أجل، إنها نائمة".

هنا ارتفع صوتٌ، هو صوتٌ لا يوصف، وكان يبدو بعيداً، ويظهرُ كأنّه آتٍ في آنٍ من الأعالي ومن الأعماق، ومثيرٌ للشؤم على نحوٍ رائع، وهو صوت ديا.

لم يعدْ كلُّ ما أحسَّ به غوينبلين حتى تلك اللحظة شيئاً يُذكر. كان ملاكةٌ يتكلّم. كان يبدو له أنه يسمعُ كلاماً يُقال من خارج الحياة ضمن تلاشٍ مفعمٍ بالسّماء.

كان الصّوت يقول:

"لقد أحسن صُنعاً بذهابه، فهذا العالمُ ليس العالمَ الذي يلزمه. غير أنني ينبغي أن أذهب معه. يا أبي، لستُ مريضة. وكنت أسْمعك تتكلم منذ قليل. أنا في حالةٍ جيّدة جداً. وبصحّةٍ جيدة، وكنت نائمة. يا أبي، سأكون سعيدة.

فسأل أورسوس بلهجةٍ قلقة: "

- يا ابنتي، ماذا تقصدين بذلك؟"

وكان الجواب:

"يا أبي، لا تغتمّ ".

كانت هناك فترةُ توقّف، وكأنها فترةُ استراحة، ثم وصلت إلى غوينبلين هذه الكلماتُ المعدودةُ التي جرى التّلفّظُ بها ببطء:

"لم يعدْ غوينبلين هنا؛ فإنما صرتُ الآن عمياء. ولم أكنْ أعرفُ الظلاّم. إن الظّلام، هو الغياب".

توقّف الصوتُ أيضاً، ثم واصل يقول:

"لطالما كان لديّ قلقٌ من أن يطير محلّقاً؛ فقد كنتُ أحسُّ به سماوياً. ولقد طار فجأة. وكان لا بدَّ أن ينتهي الأمرُ على ذلك. إن روحاً معينة تطيرُ مثل عصفور. غير أن عشَّ الرّوح كامنٌ في عمقٍ يمكث فيه جانبٌ يجتذبُ كلَّ شيء. وأنا أعلم جيداً أين أجدُ غوينبلين. ولستُ متردّدة في دربي، هيّا يا أبي، هناك، فيما بعد، سوف تلتحقُ بنا، وأومو أيضاً".

أما أومو الذي سمع أسمهُ يُلفَظ، فقد خبطَ خبطةً صغيرة على سطح السّفينة.

وتابع الصّوت يقول:

"أنت تدركُ أنه من اللحظة التي لم يعد غوينبلين فيها هنا. أصبح الأمرُ منتهياً. أودّ أن أبقى، فلا يمكنني ذلك، لأن الإنسان مجبرٌ على التنفسّ. لا ينبغي أن يطلبَ المرءُ ما ليس ممكناً. لقد كنتَ مع غوينبلين، وكان ذلك بسيطاً تماماً، كنتُ أحيا. أما الآن، فغوينبلين لم يعدْ هنا، وأنا أموت. الأمر سيّان.

فينبغي إما أن يرجع أو أن أن أمضي. وما دام لا يمكنُه الرّجوع، فأنا ذاهبة. إن الموتَ أمرٌ حسنٌ حقاً. وليس صعباً إطلاقاً. يا أبي، إن ما ينطفئ هنا يعودُ إلى التوقّد في موضعٍ آخر. إن العيشُ على هذه الأرض التي نحن عليها إنمّا هو انقباضٌ للصّدر. وليس من الممكن أن يكون المرء تعساً على الدّوام. وإذن، نمضي إلى ما تسمّونه بالنجوم، ونتزوّج هناك، ولا يترك أحدُنا الآخر من بعد قطّ.

نتحابّ، ونتحابّ، ونتحابّ، وهذا هو الإله الرّحيم.

فقال أورسوس:

- ولا تغتاظي، هناك".

وتابع الصّوت:

"على سبيل المثال، حسناً، في العام الفائت، في ربيع العام الفائت، كنّا معاً، وكنا سعداء. أما الآن فهناك فارقٌ حقّاً. ولم أعدْ أتذكّر في أيّةِ مدينةٍ كنّا، كانت هناك أشجار، وكنت أسمعُ غناءَ الدُّخَلات. لقد أتينا إلى لندن. وتغيرٌ الأمرُ. وهذا ليس لوماً من جانبي. إننا نأتي إلى بلدٍ معيّن، ولا يمكننا أن نعلم ذلك. يا أبي، هل تتذكر؟ ذات مساء، كان في شرفة المسرح الكبرى امرأة، وقد قلت إنها دوقة! وكنتُ حزينة. فأظنّ أنه كان من الأفضل أن نبقى في المدن الصغيرة. بعد ذلك. لقد أحسن غوينبلين صنعاً، وأصبح الدّور دوري الآن. وطالما أنت نفسك الذي حكيت لي أنني كنت جدّ صغيرة، وأن أميّ قد ماتت، وأنني كنتُ على الأرض، في الليل والثلجُ يتساقط عليّ وأنه هو، الذي

كان أيضاً صغيراً، ووحيداً تماماً كذلك، قد التقطني، فبقيت على قيد الحياة بهذه الصّورة، فلا يمكنك أن تدهشَ من أنني اليوم أحتاج إلى الرّحيل حتماً، وأنني أريدُ الذّهابَ لرؤية غوينبلين في القبر إن كان فيه. لأن الشيء الوحيدَ الموجودَ في الحياة، إنما هو القلب، وبعد الحياة إنما هي الرّوح.

أنت تدرك جيداً ماذا أقول يا أبي، أليس كذلك؟ وما الذي يهتزّ إذن؟ يبدو لي أنني في منزلٍ يتحرّك. ومع ذلك، فأنا لا أسمعُ صوتَ العجلات".

بعد انقطاع، أضافَ الصّوتُ يقول:

"أنا لا أميّز كثيراً بين الأمس واليوم، وأنا لا أشكو، وأجهلُ ما حدث، ولكن لا بدّ أن تكون هناك أمورٌ معينة".

كانت هذه الكلماتُ قد قيلت برقّةٍ عميقة لا يعزّيها شيء، وانتهت حسرةٌ سمعها غوينبلين على النّحو التالي:

((يجب أن أمضي، إذا لم يرجع)).

أما أورسوس المغتمّ فقد دمدم بصوتٍ خفيض:

((لا أؤمن بالأشباح.))

وتابع يقول:

"هذا مركبٌ. وأنتِ تسألين لماذا يهتزّ المنزل، فذلك لأننا داخل مركب. فاهدئي، لا ينبغي أن تتكلمي أكثر من اللازم. يا ابنتي، إن كنت تحملين لي بعض المحبّة، لا تضطربي، ولا تسبّبي الحمّى لنفسك. وبما أنني عجوز، فقد لا يمكنني احتمالُ مرضٍ قد يصيبك. فلتراعني، ولا تمرضي".

عاد الصّوت يقول مجدّداً:

((ما الفائدة من البحث على الأرض؟ ما دمنا لن نجد شيئاً إلاّ في السّماء.))

ردّ أورسوس محاولاً أن يفرضَ سلطته تقريباً:

((اهدئي. ثمة لحظات لا تكونين عاقلةً فيها إطلاقاً. إني آمرك بأن تبقي هادئة. وبعد كلّ شيء، فلست مضطرّةً لأن تعرفي ما هو الوريدُ الغائر.

سأكون مرتاحاً حين تكونين مرتاحة. يا ابنتي، اصنعي شيئاً من أجلي. لقد التقطّك، ولكني تلقّفتك. إنك تجعلين نفسك مريضة. وهذا أمرٌ سيء. ينبغي أن تهدئي وتنامي، وسيكون كلُّ شيء على ما يرام. إني أُقسم لك بشرفي بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. فضلاً عن أن الطقسَ سيكون جيداً جداً. وكأنّها ليلةٌ تناسبُ الوضعَ عمداً. سوف نكون غداً في روتردام التي هي مدينةٌ في هولندا، عند مصبِّ نهر الموز)) (*).

فقال الصّوت:

– يا أبي، أترى، لمّا كان كلٌّ منا مع الآخر منذ الطّفولة على الدّوام، فلا ينبغي أن يضطربَ هذا، لأنه لا بدّ من الموت، وما من وسيلةٍ حتى سوى ذلك. فأنا أحبّك مع هذا حقاً، غير أني لا أحسّ بأنني تماماً معك، ومع أني لست معه بعد.

فألحّ أورسوس عليها قائلاً:

– هيّا، حاولي أن تنامي مجدّداً.

فأجابه الصّوت:

– ليس هذا ما ينقصني.

فأجاب أورسوس بسرعة، وبنغمةٍ جدّ مرتجفة:

"أقول لك إننا ذاهبون إلى هولندا، إلى روتردام، والتي هي مدينة".

فتابع الصّوت يقول:

– يا أبي، أنا لستُ مريضة: وإذا كان هذا ما يقلقك، فيمكنك أن تطمئن، فأنا لستُ مصابة بالحمّى، إني أشعر بقليلٍ من الحرارة، هذا كلُّ شيء".

فدمدم أورسوس قائلاً:

" عند مصبِّ نهر الموز.

– إني بصحّةٍ جيدة، يا أبي، ولكن كما ترى أحسّ بأنّني أموت.

(*) نهرٌ في هولندا، غير النهر الذي يحمل التسمية نفسها في فرنسا. (م: ز.ع).

فقال أورسوس:

- لا يخطرنّ على بالك شيءٌ كهذا.

وأضاف:

"على ألاّ تصاب على الخصوص بصدمة، يا إلهي!".

وهيمنت فترة صمْت.

وفجأة، صاح أورسوس:

"ماذا تفعلين؟ لماذا تنهضين؟ أتوسّل إليك، ابقي راقدة!"

ارتعد غوينبلين، وأبان رأسه.

III
الفردوس المستعاد على الأرض

لمح نيا. وكانت قد اعتدلت في جلستها بشكلٍ مستقيم على الفراش. كانت ترتدي فستاناً طويلاً مغلقاً بعناية، وأبيضَ اللون ولا يدعُ المرءَ يرى إلاّ أوّل الكتفين ومفصلَ عنقها المرهف. كان الكُمّان يُخفيان ذراعيها، والثّنيات تغطّي قدميها. كان يرى يديها حيث تنتفخ بتفرّعاتٍ مزرقةٍ شبكةُ أوردتها التي سخّنتها الحمّى. لقد كانت مرتعدة، وتهتزّ أكثر مما تترنّح مثل قصبة. كان الفانوسُ يلقي عليها الضوءَ من الأسفل. وكان وجهُها الجميلُ يدقّ عن الوصف. وكان شعرُها المحلول يتطاير. وما من دمعةٍ تسيلُ على خدّيها. كان في حدقتيها توهّجٌ ناريٌّ وعتمة. لقد كانت شاحبةً ذلك الشحوب الذي يشبه شفافيّةَ الحياةِ الإلهيةِ على وجهٍ أرضيّ. كان جسمُها الرّهيفُ والنحيّل وكأنه مختلطٌ وذائبٌ في تثنّي ثوبها. كانت تتماوجُ بكليّتها مثلَ ارتعاشةِ شعلة. وفي الوقت عينه، كان المرءُ يحسُّ أنها تبدأ في أن تصبحَ ليس أكثرَ من شبح.

كانت عيناها المفتوحتان على ملئهما، تلمعان. حتى ليخيّل للمرء أن ذلك خروجٌ من القبر، وأنه روحٌ واقفةٌ ضمن فجر.

أما أورسوس الذي لم يكن غوينبلين يرى إلاّ ظهره، فقد كان يرفعُ ذراعين مذعورتين:

"يا ابنتي! آه! يا إلهي، هذا هو الهذيانُ الذي يسيطرُ عليها! الهذيانُ! هذا ما كنت أخشاه. فلا ينبغي أن تحدثَ لها هزّة، فيمكنُ لذلك أن يقتلها، ويلزمُ هزّةٌ واحدةٌ لتمنعها من أن تصبحَ مجنونةً. ميتةٌ أو مجنونة! "

أيُّ وضعٍ هذا! ما العمل، يا إلهي؟ يا ابنتي، عودي إلى النّوم!"

ومع ذلك، فقد كانت ديا تتكلم، وكان صوتُها غيرَ واضح تقريباً، وكأن كثافةً سماويةً كانت قد توسّطت بينها وبين الأرض.

'يا أبي، إنك مخطئ؛ فليس لدي أيُّ هذيان، وأنا أفهمُ جيداً جدّاً ما تقوله لي. أنت تقول لي إن هناك الكثيرَ من الناس، وإنهم ينتظرون، وإنني ينبغي أن أمثّل في هذا المساء. أنا موافقة. وأنت ترى أنني أمتلك عقلي ولكنّي أدري ماذا أفعل، مادمتُ قدمتُ وما دام غوينبلين قد مات. أما أنا، فآتيةٌ في الحال مع ذلك، وموافقةٌ على التمثيل. ها أنا ذي؛ ولكن غوينبلين لم يعدْ موجوداً.

فكرّر أورسوس:

– يا ابنتي، هيا، أطيعيني، واجلسي على سريرك.

– إنه لم يعدْ موجوداً! لم يعدْ موجوداً! أوه! كم العتمةُ شديدة!

فدمدم أورسوس:

– عتمة! هذه هي المرّة الأولى التي تقولُ فيها هذه الكلمة!'.

أما غوينبلين فقد صعد مرقاةَ التخشيبة، دون أن يُحدثَ ضجّةً أكثر مما يحدثُه انزلاق. ودخل إليها، وأنزل إسكلافينته ورداءَه المقلنس، فلبس الرداء. وضع إسكلافينته على عنقه، ونزل ثانية من التخشيبة، وقد أخفاه باستمرار هذا الضّرب من الازدحام الذي كانت تصنعه التخشيبةُ وعدّةُ السّفينة والصّاري.

استمرت ديا في تمتمتها، وكانت تحرّكُ شفتيها،وأصبحت تلك التمتمة رويداً رويداً لحناً. وباشرت تؤدّي، من خلال تقطّعات الهذيان وثغراته، النداءَ الغامض الذي طالما وجهته مرّاتٍ عديدة لغوينبلين في تمثيلية العماء المهزوم. وأخذت تنشدُ، وكان ذلك النشيدُ مبهماً وضعيفاً مثل طنين النحلة:

Noche ,quit ate de alli

EL alba canta ... (*)

وقطعت غناءها. وقالت:

(*) 'أيها الليل، امضِ   فالفجر يغني'.

"لا، ليس هذا صحيحاً. أنا لم أمت. فما الذي كنتُ أقوله إذن؟ وأسفيّ إنني حيّة. إني حيّة، وهو ميت. أنا في عالم الأرض، وهو في الأعلى. لقد مضى، وأنا باقية. ولن أسمعه يتكلمّ ويمشي. كان الربّ قد منحنا قليلاً من الجنّة على الأرض، وقد انتزعه منا. غوينبلين! انتهى الأمر. ولن أحسّ به بقربي، أبداً. أمّا صوته، فلن أسمع صوته".

وأنشدت:

" ES Meneter acielo ir ...(*)

....Dexa , quiero

A tu negro

Caparazon "

ومدّت يدها وكأنها تبحثُ عن موضعٍ تتكئ عليه في اللاّنهاية.

أما غوينبلين الذي ظهر بغتةً بجانب أورسوس الذي ذُهل فجأة، فجثا أمامها.

وقال ديا:

" أبداً! أبداً! لن أسمعه!

وأخذت تنشدُ ثانية، وهي شاردة:

" Dexa, quiero (**)

A tu negro

Caparazon "

(*) ينبغي الذهاب إلى السّماء

.... فاتركَ، وأنا أريد ذلك

غطاءك الأسود

(**) ينبغي الذهاب إلى السّماء

... فاتركَ، وأنا أريد ذلك

غطاءك الأسود

حينذاك، سمعت صوتاً هو صوت الحبيب الذي كان يردّ:

'O Ven! ama! [*]

Eres alma

Soy Corazon '

وفي الوقت نفسه، أحسّت ديا برأس غوينبلين تحت يدها. فأطلقت صرخةً تفوقُ الوصف: 'غوينبلين!'

ظهر على وجهها الشّاحب ضياءُ كوكب، وترنّحت.

فتلقّاها غوينبلين بين ذراعيه.

وصاح أورسوس: 'حيّ!'.

وردّدت ديا: 'غوينبلين!'

وانثنى رأسُها على خدّ غوينبلين.

وقالت بصوتٍ خفيض:

'أنت تنزلُ ثانية، شكراً'.

وإذْ رفعت جبينها، وهي جالسةٌ على ركبةِ غوينبلين، ومُحتَضَنَةٌ في ضمّته، فقد أدارت نحوه وجهها الرّقيقَ، وثبّتت على عينيّ غوينبلين عينيها المليئتين بالظلمات والأشعة، وكأنها تنظرُ إليه.

وقالت: 'هذا أنت!'

كان غوينبلين يغمرُ ثوبها بالقبلات، هناك ضروبٌ من الكلام هي في آنٍ كلماتٌ وصيحاتٌ وانتحابات. إن كلّ النشوة وكلّ الألم تذوبُ فيها وتتفجرُ دون نظام. وليس لذلك أيّ معنى، وهو يقول كلّ شيء.

(*) 'أوه ! تعالي ! وأحبّي !
أنت الرّوح !
وأنا القلب '

"أجل، أنا! هذا أنا! أنا غوينبلين! ذلك الذي أنت روحُه. هل تسمعين؟ أنا الذي أنتِ طفلتهُ، وزوجتهُ، ونجمتهُ، ونَفَسه! أنا الذي أنت أبديّتهُ، هذا أنا! إني هنا، وأمسكُ بك بين ذراعيّ. أنا حيّ، أنا لكِ، آه! حين أفكّر أنني كنتُ في تلك اللحظة التي أنهي الأمر فيها! بعد دقيقة! من دون أومو! ولسوف أقول لك هذا. ما أقربَ اليأس من الفرح! ديا! فلنحيَ! ديا، سامحيني! أجل! لكِ إلى الأبد! أنت على حق، المسي جبيني، وتأكدّي من أن هذا هو أنا. لو كنت تعلمين! ولكن لا شيء يمكنه من بعد أن يفرّقنا. إني أخرجُ من الجحيم وأصعدُ إلى السّماء. أنت تقولين إنني أنزلُ ثانيةً، لا، إني أصعدُ ثانية. ها أنا مجدّداً معك. إلى الأبد، كما أقول لك! معاً! نحن معاً! من كان يمكنُه أن يقول بذلك؟ إننا نلتقي من جديد. لقد انتهى الشرّ كلّه.لم يبقَ أمامنا إلاّ الابتهاجُ. سوف نبدأ مجدّداً حياتنا السّعيدة، ونغلقُ الباب جيّداً بحيث لا يمكن للحظّ السّيء أن يدخل إليها ثانية. وسوف أروي لك كلّ هذا. وستدهشين. لقد مضى المركبُ. ولا يمكن لأحد أن يحولَ دونَ انطلاقِ المركب. نحن على الطريق، ونحن أحرار. سنذهبُ إلى هولندا، وسنتزوّج، ولن أحار في كسبِ معيشتي، فمن الذي يمكنه أن يمنع ذلك؟ لم يعدْ هناك ما أخشاه. إني أعبدك.

فتمتم أورسوس: "ليس بهذه السّرعة!"

أما ديا، المرتجفة، فقد كانت تمرّ بيدها على مجلى وجه غوينبلين، بارتعاشةِ لمسةٍ سماويّة. وسمعها وهي تقول لنفسها:

"على هذه الصّورة قد صنَع الرّب"

ثم لمست ثيابه.

"الإسكلافينة، والرداء المقلنس. لم يتغيرّ شيء. كلّ شيء كما في السّابق."

أما أورسوس، الذّهش، والمنشرح، والضّاحك، والمبلّل الوجه بالدّموع، فقد كان ينظرُ إليهما، ويوجّه إلى نفسه هذه المناجاة:

"أنا لا أفهم إطلاقاً. إني أحمق بليد. أنا من رأيته يُحملُ إلى القبر! إني أبكي وأضحك. هذا كلّ ما أعرفه. إني غبيّ وكأنني كنتُ مغرماً، أنا أيضاً.

ولكن لأنني أنا كذلك؛ فأنا مغرمٌ بكليهما. أيها البهيمة العجوز، اذهبْ! انفعالاتٌ زائدة. انفعالاتٌ زائدة. هذا ما كنت أخشاه. لا، هذا لا يعنيني. سوف أشهدُ الحادثة. إن ما أحسُّ به طريفٌ؛ فأنا المتطفِّلُ على سعادتهما، فآخذ منها نصيبي. ولا علاقة لي بذلك في شيء. ويبدو لي أن لي علاقة بذلك في أمرٍ ما. يا ابنيّ، إني أبارككما".

وفيما كان أورسوس يناجي نفسه، كان غوينبلين يهتف:

"يا ديا، إنك جميلة إلى حدّ مفرط. ولا أدري أين كان عقلي في تلك الأيام. فما من أحد سواك إطلاقاً على الأرض. إني أراك ثانية، ولا أزال غير مصدّقٍ لذلك على هذا القارب! ولكن قولي لي، ما الذي حدث؟. وهذه هي الحالة التي وضعوكم فيها! فأين العلبة الخضراء إذن؟ لقد سرقوكم، وطردوكم. وهذا أمرٌ مشين. آه! سوف أنتقم لكم! سوف أنتقم لكِ، يا ديا! سوف تكون مواجهتُهم معي. فأنا عينٌ من أعيان إنكلترا".

أما أورسوس، وكأنّ كوكباً قد صدمه في وسط صدره، فقد تراجعَ وتأمّلَ غوينبلين باهتمام.

"إنه ليسَ ميتاً، هذا واضح، ولكن هل يكون مجنوناً؟"

وأرهفَ السّمعَ بارتياب.

فتابع غوينبلين قائلاً:

"كوني مطمئنة، يا ديا، سوف أقدّمُ شكواي إلى مجلس اللّوردات."

تفحّصه أورسوس أيضاً، ونقرَ وسطَ جبهته برأسِ إصبعه.

ثم همس وقد اتّخذَ قراره:

"هذا سيّان لدي. ولسوف تسيرُ الأمورُ مع ذلك. فلتكنْ مجنوناً، إذا شئت، يا غوينبلين. هذا حقّ للإنسان. أما أنا فسعيدٌ. ولكن ما كلّ هذا؟ ".

واصلت السّفينةُ هروبها برخاوةٍ وسرعة، وكان الليلُ يصبحُ معتماً أكثر فأكثر، وكانت أفواجٌ من الضّباب آتيةٌ من المحيط تجتاحُ سمتَ الرأس الذي لا تكتسحُها منه أيّةُ ريح، وبعضُ النجوم الضّخمة التي لا تكاد تُرى تمّحي واحدةً

بعد الأخرى، وبعد بعض الوقت، لم يبقَ منها أيّةُ نجمة، وصارت السّماءُ حالكةً، ولا نهائيةً ورقيقة. كان النّهر يتّسعُ، ولم تعدْ ضفّتاه على اليمين وعلى اليسار إلاّ خطيّن رقيقين بنيّين مندغمين بالليل تقريباً، وهو يحتضنُ ديا. كانا يتكلمّان، ويصيحان ويثرثران، ويتهامسان. إنه حوارٌ مشغوف. فكيف أصفُك، أيّها الفرح؟

"حياتي!

– سمائي!

– حبّي!

– كلّ سعادتي!

– غوينبلين!

– ديا! إني نشوان. فدعيني أقبّل قدميك.

– هذا أنت إذن!

– في هذه اللحظة، لديّ أشياء كثيرة أودّ قولها، ولا أعرف من أين أبدأ.

– قبلة!

– آه. يا امرأتي!

– يا غوينبلين، لا تقلْ لي إنّي جميلة، أنت الجميل.

– إني أعثر عليك. أنت على صدري. إن هذا يحدثُ. أنتِ لي. وأنا لا أحلم. هذا أنت حقّاً. هل هذا ممكن؟ أجل. إني أمتلكُ الحياة مجدّداً. لو كنتِ تعلمين. لقد جرت أحداثٌ من مختلف الأشكال، يا ديا!

– غوينبلين!

– أحبّك!"

وكان أورسوس يتمتم:

"ينتابني فرحُ جَدّ."

كان أومو قد خرج من تحت التّخشيبة، وأخذ ينتقلُ من أحدهم إلى الآخر سرّاً، ولا يطلب أن ينتبه أحدٌ إليه، ويلحسُ بلسانه بلا تمييز، حذاء أورسوس الضّخم حيناً، ورداءَ غوينبلين المقلنس، حيناً، وفستانَ ديا حيناً، والفراشَ حيناً. كانت تلك هي طريقتُه الخاصّة في مباركتهم.

كانوا قد تجاوزا شاثام ومصبَّ الميدواي. ويقتربون من البحر. وكان صفاءُ المدى المعتم كبيراً بحيث كان يتمّ نزولٌ نهرِ التّايمز بلا صعوبة. ولم تكن أيّةُ مناورة ضروريّةً، ولم يُستدعَ أيُّ بحار إلى سطحِ المركب. وفي الطّرف الآخر من السّفينة، كان ربّانُ السّفينة يقودُها، وهو واقفٌ دوماً بمفرده أمام عصا القيادة. وفي الخلف، لم يكن هناك إلاّ ذلك الرّجل، وفي المقدّمة، كان الفانوسُ يُنيرُ الجماعةَ السّعيدةَ، جماعةَ تلك الكائنات التي صنعت لتوّها ذلك اللقاءَ غيرَ المأمول، من أعماق الشّقاء الذي تحوّل فجأةً إلى غبطة.

IV
لا، في الأعالي

فجأة، نهضت ديا، ما إن تملّصت من احتضان غوينبلين لها. وكانت تسندُ يديها على قلبها، وكأنّما لتمنعه من الاضطراب.

وقالت: "ماذا بي. إن بي شيئاً ما، هو الفرحُ، ويسببُ لي الاختناق. لا شيء في هذا. إنه حسن. حين ظهرتَ ثانية، يا عزيزي غوينبلين، أعطيتني صدمةً. إنها صدمةُ سعادة. إن كلّ السّماء التي دخلت قلبك هي نشوة. وحين كنتَ غائباً، كنت أحسُ بأنني أقضي. إن الحياةَ الحقيقيّة التي كانت تمضي. قد أعدتها إليّ. وكان في داخلي تمزّق، هو تمزُّقُ الظلّمات. وقد أحسستُ بتصاعدِ الحياة، الحياةِ المضطربة، حياةُ الحمّى والملذّات. إن هذه الحياة التي أعطيتني إياها للتوّ هي حياة خارقة. إنها سماويةٌ إلى درجةٍ تُشعرنا بالقليل من العذاب. وكأن الرّوح تكبرُ وتجدُ صعوبةً في أن تبقى في جسدنا.

إن حياةَ ملائكة السّيرافيم، هذا الاكتمال، تردُّدُ حتى رأسي، وتتغلّلُ بي. إن في صدري ما هو أشبهُ بخفقِ الأجنحة. أحسُ بأنني غريبة، ولكني سعيدة فعلاً. يا غوينبلين، لقد أحييتني."

احمرَّ وجهُها ثم شحب، ثم احمرّ ثانية، وهوت.

فقال أورسوس:

"وا أسفاه! لقد قتلتها."

مدّ غوينبلين ذراعيه نحو ديا، أيّةَ صدمةٍ هي صدمةُ القلقِ العظيم الذي ينبثقُ فجأةً من النّشوة العظمى! كان يمكن له نفسُه أن يهوي، لو أنه لم يكن عليه أن يسندها.

صاح وهو يرتعشُ:

"ديا، ماذا بك؟

فقالت:

- لا شيء. أنا أحبك".

كانت بين ذراعي غوينبلين مثل قطعة بياضٍ نلتقطُها. وكانت يداها متدليَتين.

أرقد غوينبلين وأورسوس ديا على الفراش. فقالت بصوتٍ ضعيف:

"لا أتنفّسُ وأنا ممّددة".

فأجلساها.

وقال أورسوس:

"وسادة!"

فأجابت:

"ولماذا؟ لدي غوينبلين".

ووضعت رأسها على كتف غوينبلين الجالس وراءها وهو يسندُها، ونظرتُها مملوءةٌ بشرودٍ تعس.

وقالت:

"آه! كم أنا مرتاحة!"

كان أورسوس قد أمسك بقبضتها، وهو يعدُّ نبضاتِ شريانها. لم يكن يهزّ جبينه، ولم يكن يقولُ شيئاً، ولم يكن من الممكن أن يخمنّ المرء ما يفكرّ به إلاّ من خلال حركاتِ أجفانه السّريعة والتي تنفتحُ وتنغلقُ بشكلٍ متشنّج وكأنما ليمنع انهمارَ سيلٍ من الدّموع.

وسأل غوينبلين:

"ماذا بها؟"

أسند أورسوس أذنَه إلى جنب ديا الأيسر.

كرّر غوينبلين سؤاله بحرارةٍ وهو يرتجفُ بحيث لم يجبه أورسوس.

نظر أورسوس إلى غوينبلين، ثم إلى ديا. وكان وجهه كابياً.

"لا بدّ أننا على مستوى ارتفاع كانتربوري. إن المسافةَ من هنا إلى غرافسند ليست كبيرةً جدًّا. وسوف يكون لنا طقسٌ حسنٌ طولَ الليل. وليس هناك ما نخشاه من هجومٍ في البحر، لأن الأساطيلَ الحربيّةَ موجودةٌ على ساحل إسبانيا. ولسوف نعبرُ عبوراً مأموناً".

أما ديا التي التوى جسدها وغدت شاحبةً أكثر فأكثر، فقد كانت تعجنُ بين أصابعها المتشنجة نسيج فستانها. وصدرت عنها تنهيدةٌ متفكرةٌ بشكلٍ لا يوصف، وهمست:

"أنا أدركُ ما هذا، إني أموت."

نهض غوينبلين بشكلٍ مرعب، وأسند أورسوس ديا.

"تموتين! أنتِ تموتين، لا، هذا لن يكون. لا يمكنُكِ أن تموتي. أن تموتي الآن! أن تموتي حالاً! هذا غيرُ ممكن. ليس الرّبُّ شرساً. أن يعيدَكِ ويستعيدَكِ في اللحظة نفسها! لا، هذه الأشياء لا تحدثُ. وهذا إذن أن الرّبَّ يودّ أن نشك به. ويكون إذن كلّ شيء فخّاً، الأرضُ، والسمّاءُ، ومهدُ الأطفال، وإرضاعُ الأمّهات، والقلبُ البشريُّ، والحبُّ، والنجومُ! فيكون الرّب غادراً، والإنسان مخدوعاً! ولا يكون هناك شيء! وينبغي شتمُ الخليقة! وذلك أن كلّ شيء لجّة! أنت لا تعرفين ما تقولين، يا ديا! سوف تعيشين. إني أطالبُ بأن تعيشي. ويجب أن تطيعيني. إني زوجك وسيّدك. وأمنعُكِ من تركي. آه! أيتها السّماء! أيّها البشرُ الأشقياء! لا، هذا لن يكون ممكناً. وأبقى على هذه الأرض بعدَكِ! إن هذا مخيفٌ إلى الدّرجةِ التي لا يعودُ فيها وجودٌ للشمّس. ديا، يا ديا، انهضي. إنها لحظةُ قلقٍ صغيرة سوف تمرُّ. إن المرءَ يصابُ بارتعاشات أحياناً، ثم لا يعودُ يفكرُ بها. إني بحاجةٍ ماسّة إلى أن تتعافي، وإلى ألاّ تتألمي، بعد الآن. أنت تموتين! ماذا فعلتُ لكِ؟ إن عقلي يذهب إذا ما فكّرتُ في ذلك. إن كلاًّ منا للآخر، ونحن متحابّان. وليس لديك عذرٌ للذهاب. وسيكون ذلك جائراً. فهل ارتكبتُ جرائم؟ لقد غفرتِ لي فضلاً عن ذلك. أوه! أنتِ لا

تريدين أن أصبحَ يائساً، وأثيماً، ومهتاجاً، ومرذولاً! يا ديا! أرجوك، وأتضرّعُ إليك، وأتوسّلُ بابتهال إليك، ألاّ تموتي".

ارتمى على قدميها، وهو يشنّج قبضتيه داخل شعره، ويبرّحُه الألمُ من الرّعب، وتخنقُه العبرات.

فقالت ديا:

"يا عزيزي غوينبلين، ليس الذّنب ذنبي".

أتى إلى شفتيها قليلٌ من الزّبد الورديّ فمسحه أورسوس بهدبِ الفستان من دون أن يراه غوينبلين الجاثي. وكان غوينبلين يمسك بقدميّ ديا في حضنه، ويتضرّع إليها بكلّ ألوانِ الكلمات المشوّشة.

"أقول لك إنني لا أريدُ ذلك. أنت تموتين! لا أقوى على تحمّل ذلك. أن نموتَ نعم، ولكن معاً. وليس سوى ذلك. أما أن تموتي أنت، يا ديا! فما من وسيلةٍ لأقبل ذلك. يا معبودتي! يا حبّي! فلتفهمي إذن أنني هنا. أقسم لك أنك ستعيشين. أن تموتي! ولكن هذا هو أنك لا تتصوّرين إذن ما الذي سأصبحُ عليه بعد موتك. لو كانت لديك فكرةٌ عن الحاجة التي لدي لكي لا أفقدك، لرأيت بأن هذا مستحيل يقيناً.

يا ديا! أنت ترين أنه ليس لي سواك. إن ما حدث لي خارقٌ للمعتاد. وأنت لا تتخيلّين أنني قد عبرتُ الحياةَ كلّها للتوّ في بضع ساعات، وقد تحققّتُ من أمرٍ واحد، وهو أنه ليس فيها شيء إطلاقاً. أما أنتِ، فموجودة. لو لم تكوني موجودة فيها، لما عاد للكون معنى. ابقي. وارأفي بي. وما دمت تحبينني، فعيشي. لقد عثرتُ عليك منذ قليل، وذلك لأحافظ عليك. انتظري قليلاً. فلا يذهبُ الناسُ هكذا، حين لا يكاد يكون قد مضى على اجتماعهم معاً إلاّ بضع دقائق. فلا يفرغنّ صبْرك. آه! يا إلهي، كم أتعذّب! أنت لستِ غاضبةً عليّ، أليس كذلك؟ أنت تدركين جيّداً أني لم أقدرْ أن أفعل خلافَ ما فعلت، بما أن المأمورَ القضائيّ قد أتى ليبحثَ عني. سترين أنك ستتنفسّين بصورةٍ أفضل في الحال. يا ديا، لقد انتظم كلُّ شيء للتوّ. ولسوف نكون سعداء لا تجعليني في حالةٍ بائسة. يا ديا! لم أصنع لك شيئاً!".

لم ينطقْ غوينبلين بهذا الكلام قولاً، بل وهو ينتحبُ. وكان المرءُ يشعر فيه بمزيجٍ من الضنى والتمرّد. كان يخرجُ من صدرِ غوينبلين أنينٌ جديرٌ بأن يجتذبَ اليمامَ وزمجرةٌ جديرةٌ بأن تجعلَ الأسودَ تتقهقر.

ردّت عليه ديا بصوتٍ يتناقصُ في وضوحه، وهي تتوقّفُ تقريباً عند كلّ كلمة:

"واأسفاه! لا فائدةَ من هذا. يا حبيبي، أرى جيداً أنك تفعلُ ما بوسعك. فمنذ ساعة، كنت أريد أن أموت، والآن، لم أعدْ أرغبُ في ذلك. يا غوينبلين، يا عزيزي المعبود غوينبلين، كم كنا سعداء. لقد وضعك الرّبُّ في حياتي، وهو ينتزعُني من حياتك. وها أنا أمضي. سوف تتذكرّ العلبة الخضراء، أليس كذلك؟ وتتذكر صغيرتَك المسكينة العمياء ديا؟ ولسوف تتذكّر أغنيتي. فلا تنسَ نغمةَ صوتي، والطّريقةَ التي كنتُ أقول لك بها: أحبّك. وسأعود لأقول لك ذلك في الليل، حين تنام. لقد تلاقينا، غير أن هذا قد كان فرحاً مفرطاً. وكان لابدّ له أن ينتهي في الحال. ومن المؤكّد أنني أنا من سيرحلُ أوّلاً. إني أحبّ والدي أورسوس وأخانا أومو. إنكم طيّبون. لا هواء هنا، افتحوا النافذة. يا عزيزي غوينبلين، لم أقلْ لك هذا، ولكن بما أن امرأةً قد أتت ذات مرّة، فقد كنتُ غيورةً. أنت لا تعلم حتى عمّن أريد أن أتحدّث. أليس هذا صحيحاً؟ غطّ ذراعي، فأنا أشعرُ بقليل من البرد. وفيبي؟ وفينوس؟ أين هما؟ لقد انتهى الأمرِ بك إلى محبّة كلّ الناس، فترتبطُ بالمودّة مع الأشخاص الذين رؤوك سعيداً. وتصبح ممتنّاً لهم لأنّهم كانوا موجودين عندما كنت مسروراً. فلماذا حدثَ كلّ ذلك؟ ولم أفهم جيّداً ما جرى منذ يومين. أمّا الآن، فأنا أموت. ولسوف تتركونني مرتديةً فستاني. ومنذ قليل كنتُ أفكرّ حقّاً وأنا أرتديه بأنه سيكون كفناً لي. وأريد الاحتفاظ به؛ فثمّة قبلاتٌ عليه من غوينبلين. أوه! لقد كان بودّي مع ذلك أن أعيشَ أكثر. أيّة حياةٍ ساحرة قد كانت لنا في تخشيبتنا الفقيرة التي كانت تتدحرجُ! كنا نغنيّ. وكنتُ أصغي إلى تصفيق الأيدي! كم كانٍ حسناً ألا نفترقَ قطّ! كان يبدو لي أنني في غيمةٍ معكم، وكنت أدركُ حقّاً كلّ شيء، وأميّزُ يوماً عن يومٍ آخر، مع أني عمياء، وكنتُ أتعرّف أن الظلام قد حلّ، لأني كنت أحلم بغوينبلين. كنت أحسّ حولي بغلافٍ هو روحُه. لقد

شغفَ كلٌّ منا بالآخر برقّة. إن كلّ هذا يمضي، ولن تكون هناك أغنيات. واأسفاه! ليس ممكناً أن أعيش أيضاً! سوف تفكرّ بي، يا حبيبي".

كان صوتُها يزداد ضعفاً. وكان تناقصُ الاحتضار الكئيب ينتزعُ منها تنفُّسها. وكانت تثني إبهامها تحت أصابعها، علامةً على أن الدقيقة الأخيرة تقترب. وكانت تمتمةُ الملاك التي ابتدأت ترتسمُ على حشرجةِ العذراء الرّقيقة.

همست:

"سوف تتذكرّون، أليس كذلك، لأنه سيكونُ من المحزن حقّاً أن أموت إذا لم تتذكرّوني. لقد كنتُ شريرة أحياناً. وإني أطلبُ المغفرةَ منكم جميعاً. أنا متأكدةٌ فعلاً بأنه لو كان الرّبُّ يشاء، ما دمنا لا نشغلُ مكاناً كبيراً، لكنّا لا زلنا سعداء، يا عزيزي غوينبلين، بما أننا كان يمكن أن نكسب عيشنا وأن نكون معاً في بلد آخر، غير أن الإله الرحيم لم يشأْ ذلك. أنا لا أعرفُ إطلاقاً لماذا أموت. إذ أنني لم أكن أشكو من أنني عمياء. ولم أكن أهين أحداً. ولم يكن لي أن أطلبَ أكثر من أن أبقى عمياء دائماً بجانبك. أوه! كم هو محزنٌ أن أمضي!"

كانت كلماتُها لاهثة، وهي تنطفئ الواحدة بعد الأخرى، وكأنما قد نُفِخ عليها. ولم يعد صوتُها يُسمعُ تقريباً.

وردّدت:

"يا غوينبلين، سوف تفكرّ بي، أليس كذلك؟ فأنا أحتاج لهذا حين أموت".

وأضافت:

"أوه! استبقوني!"

ثم قالت بعد فترةِ صمت:

"انضمّ إلي في أقربِ وقتٍ ممكن. سوف أكونٍ تعيسةً حقّاً من دونك، حتى مع الرّب. لا تتركْني وحدي لوقتٍ أكثر من اللاّزم، يا عزيزي الرّقيق غوينبلين! فقد كانت الجنةُ هنا. أما في الأعلى، فليس هناك إلاّ السّماء. آه! إنني أختنق! يا حبيبي، يا حبيبي، يا حبيبي!

وصاح غوينبلين:

- الرّحمة!

فقالت:

- وداعاً!

وردّد غوينبلين:

- الرّحمة!

وأطبق فمه على يديّ ديا الجميلتين الجليديتّين.

ومرّت لحظةٌ وكأنها لم تعدْ تتنفسّ.

ثم ارتفعت على مرفقيها، واجتاز عينيها وميضٌ عميق، وابتسمت ابتسامةً لا توصف، وانفجر صوتُها مفعماً بالحياة.

وصاحت:

'النّور! إنني أرى'

وقضت.

سقطت مستلقيةً وبلا حراك على الفراش.

فقال أورسوس:

'ماتت'

وعفرّ العجوزٌ الطيّبُ المسكين، وكأنه قد انهار تحت اليأس، عفّر رأسَه الأصلع، ودفن وجهه المنتحبَ في ثنايا الفستان عند قدمي ديا، ومكثَ هناك، مغشيّاً عليه.

حينئذٍ أصبح غوينبلين مرعباً.

انتصب واقفاً، ورفع جبهته، وتأمّل اللّيل الهائلَ فوق رأسه. ثم بسط ذراعية نحو الأعماق العليا، دون أن يراه أحد، وربّما أن أحداً غير منظور ينظر إليه مع ذلك في تلك الظلمات، وقال:

'أنا آتٍ'

وأخذ يسيرُ باتجاه الحافّة، على سطح السفينة، وكأنّ رؤيا معيّنة تجتذبهُ على بعدِ خطوات، كانت هناك اللجّة.

كان يسيرُ ببطء، ولم يكن ينظر إلى قدميه.

كان يبتسمُ الابتسامةَ عينها التي كانت لديا منذ قليل.

كان يسيرُ على خطٍ مستقيم إلى الأمام. ويبدو كأنه يرى شيئاً. وكان في حدقته ضوءٌ أشبه ما يكون بانعكاس روحٍ يُلاحظ من بعيد.

وصاح: "نعم".

كان يقترب من الحافّة عند كلّ خطوة.

كان يسيرُ قطعةً واحدة، وذراعاه مرفوعتان، ورأسه منقلبٌ إلى الخلف، ونظرته محدّقة، بحركةِ شبح.

كان يتقدّم دون تعجّل ودون تردُّد، وبدقّةٍ قاتلة، وكأن اللجّةَ الفاغرةَ والقبرَ المفتوح لم يكونا جدّ قريبين منه.

كان يهمس قائلاً:

"كوني مطمئنة، إني أتبعُك، وأنا أُميّزُ جيداً الإشارة التي تشيرين بها إليّ".

لم تكن تغيبُ عن عينيه نقطةٌ في السماء، في أعلى العتمة، وكان يبتسم.

كانت السمّاء حالكة تماماً، ولم تعدْ فيها نجومٌ، غير أنه كان يرى نجمةً واحدة منها بطبيعةِ الحال.

اجتازَ سطح السفينة.

وبعد بضع خطوات متصلبةٍ ومشؤومة، وصل إلى الحافّة القصوى فقال:

"إني أصلُ، يا ديا، هاأنذا."

وواصل سيره، ولم يكن هناك حاجزٌ. وكان الفراغُ أمامه. فخطا فيه.

وهوى

كان الليلُ بهيماً ولا التماعَ فيه، وكان الماءُ عميقاً. فانطوى في جوفه، وكان ذلك تواريًا هادئاً وقاتماً. وما من أحد قد رأى أو سمع شيئاً، وواصلت السفينةُ اندفاعَها والنّهرُ جريانَه.

بعد قليل، دخلت السفينة إلى المحيط.

وحين عاد أورسوس إلى وعيه، ولم يعدْ يرى غوينبلين، ولمح قريباً من حافة السفينة أومو الذي كان يعوي في العتمة وهو ينظرُ إلى البحر(٢٧٠).

ملفّ

موجز حياة فيكتور هيغو

(١٨٠٢ - ١٨٨٥)

١٨٠٢-٢٦ شباط: ولادة فيكتور - ماري هيغو، الابن الثالث للمقدّم هيغو، ولصوفيا تريبوشيه.

١٨٠٣ - ولادة آديل فوشيه، زوجة فيكتور هيغو المقبلة.

١٨٠٦ - ولادة جولييت غوفان (جولييت درويّه).

١٨١١ - العميد هيغو يطلبُ الطلاّق على إثر توقيف الجنرال لاوري، المتآمر، وعشيقِ السّيدة هيغو، في منزل العميد.

١٨١٢ - أوّلُ نصٍّ معروف لفيكتور هيغو: الجحيم على الأرض.

١٨١٥ - فيكتور هيغو يوضع في مدرسةٍ داخلية عند كورديية، في شارع غوزلان الحاليّ. ويؤلّف قصائده الأولى.

١٨١٦ - 'أريد أن أكون شاتوبريان أو لا شيء' (صحّةُ هذا القول مشكوكٌ بها). وينهي 'إيرامين'، وهي مأساة.

١٨١٧ - يحصلُ على تنويهٍ من الأكاديميّة الفرنسية، ويبدأ بكتابة مأساة.

١٨١٨ - الطلاّق القانوني للزّوجين هيغو. وفيكتور يتابع دروساً في معهد لوي - لو - غران، ويحصلُ على الدرجة الخامسة في الفيزياء في المسابقة العامّة، ويُنهي A.Q.C.H.E.B، وهي أوبرا هزليّة. ويكتبُ النّصُّ الأول من بوغ - جارغال في خمسة عشر يوماً، على إثر مراهنة.

١٨١٩ - حبٌّ بريء مع آديل فوشيه. وجائزة ألعاب عيد الزّهور في تولوز عن قصيدتين غنائيتين ملكيّتي الإيحاء. يؤسّس شقيقا هيغو 'المحافظ الأدبي' (دوريّة أدبيّة)، وهيغو يكتب ميلودراما بعنوان إينيس دوكاسترو.

١٨٢٠ – موت صوفيا هيغو – تريبوشيه. وخطوبة سرّيّة مع آديل فوشيه.

١٨٢١ – قصائدُ غنائيّة وأشعار مختلفة، تَصدُر. هيغو يتزوّج آديل فوشيه. ويغدو شقيقُه أوجين هيغو مجنوناً. الحكم بالإعدام، وتنفيذ الحكم في ساحة غريف بحقّ رقباء لاروشيل الأربعة، وهذه حادثةٌ سوف يستحضرُها هيغو في قصّته: اليوم الأخير لمحكوم بالإعدام.

١٨٢٣ – رواية هان الإيسلنديّ. صدورها. ولويس الثالث عشر يجدّد المنحة الممنوحة في عام: ١٨٢٢.

١٨٢٢– ولادة وموت أوّل ابن لهيغو، وهو ليوبولد – فيكتور.

١٨٢٤ – القصائد الغنائية الجديدة. ولادة ليوبولدين.

١٨٢٥ – النّص الثاني من بوغ – جارغال. قصائد غنائية وموشّحات. ولادة شارل.

١٨٢٧ – هيغو ينهي مسرحيته كرومويل، ويرتبط بسانت – بوف. ويكتب مقدّمة كرومويل التي يتحدّد فيها تعريفُ المسرحية (الدّراما) الرّومنسية. ويظهر على أنه رئيسُ مدرسةٍ أدبيّة.

١٨٢٨ – فيكتور هيغو وداڤيد دانجيه يشهدان تغليلَ المحكومين بالأشغال الشّاقة في بيسّيتر. ويجري وصفُ المشهد في قصّة: اليوم الأخير لمحكومٍ بالإعدام. التي كُتبت في السّنة نفسها، ويوقّع هيغو عقداً للنشر مع غوسّلان الذي يعيدُ طباعةَ كلِّ مؤلّفاته. ولادة فرانسو – فيكتور.

١٨٢٩ – ديوان: الشّرقيّات. يُنْشَر. ويكتب هيغو 'ماريون دولورم' و'إيرناني'.

١٨٣٠ – 'معركة' إيرناني في مسرح الكوميدي – فرانسيز. ويبدأ هيغو كتابة رواية: نوتردام باريس، ولادة آديل التي يصبح سانت – بوف عراباً لها.

١٨٣١– رواية: نوتردام باريس، وديوان: أوراق الخريف. يُنشران. ويجري تمثيلُ مسرحية: 'ماريون دولورم'.

١٨٣٢ – هيغو يكتب مسرحية: 'الملك يتلهّى'؛ 'ولوكريس بورجيا' ويقيم في بلاس روايّال (حالياً متحف فيكتور هيغو ساحة (بلا س دي فوج). ويُمنعُ عرض: الملك يتلهّى.

١٨٣٣ - هيغو يلتقي جولييت درووِّيه، الممثّلة، ويصبح عشيقها، ويجري تمثيلُ لوكريس بورجيا. (بالاشتراك مع. ج. دروويه في دورٍ صغير) ماري تودور تُمثَّل وتُنشر.

١٨٣٤ - نشر. دراسة عن ميرابو و: الأدب والفلسفة مختلطان. و: كلود غو. والقطيعة مع سانت - بوف.

١٩٣٥ - نشر: أنجيلو و: أناشيد الغسق، وتمثيل: أنجيلو.

١٩٣٦ - إخفاق في الأكاديمية لمرّتين.

١٩٣٧ - شقيق هيغو، أوجين، يموتُ في مشفى المجانين في شارنتون، والذي كان قد أُدخِل إليه. نشر: 'الأصوات الداخلية'. رحلة إلى بلجيكا برفقة جولييت درووِيه.

١٨٣٨ - نشر مسرحية: روي بلاس.

١٨٣٩ - رحلة إلى الشرق، وإلى ريتانيا وبروفانس برفقة جولييت درووِيّه.

١٨٤٠ - هيغو يصبح رئيساً لجمعية أصحاب الأقلام، خلفاً لبلزاك. إخفاق جديد في الأكاديميّة. نشر ديوان: 'الأشعة والظلال' رحلةً برفقةِ جولييت درووِيه إلى ضفاف الرين.

١٨٤١ - انتخاب هيغو في الأكاديميّة.

١٨٤٢ - نشر كتاب: الرّين.

١٨٤٣ - تمثيل ونشر مسرحية. البورغراف (حماة القلاع). رحلة إلى إسبانيا برفقة جولييت درووِّيه. زواج ليوبولدين بشارل فاكري. وبعد بضعةِ أشهر، يغرقان في فيلوكييه.

١٨٤٤ - علاقة مع مدام بيار.

١٨٤٥ - هيغو يستقبل سانت - بوف في الأكاديمية. ويُسمى عضواً في مجلس أعيان فرنسا. وليوني، بيار وهيغو يُباغَتان بالجرمِ المشهود في حالة زنا.

١٨٤٦ - علاقة مع أليس أوزي.

١٨٥٠ – يتم إبعاده بعد الانقلاب، ويتجّه إلى بروكسل حيث يبدأ كتابة: 'تاريخ جريمة'.

١٨٥٢ – هيغو يُنهي في بروكسيل: 'تاريخَ جريمة' ويكتب: نابوليون – الصّغير، ثم يتجه إلى جرسيه، ويقيم في مارين – تيرّاس.

١٨٥٣ – جلساتٌ نقل أرواح في جيرسيه ٢٣-٢٤ تشرين الثاني، هيغو ينشرُ ديوان: 'القصاص'.

١٨٥٤ – هيغو يكتب 'نهاية الشّيطان'.

١٨٥٥ – موت آبيل، شقيق هيغو البكر. وإذ يُبعد هيغو من جيرسيه، فهو يتجّه إلى غيرنيزيه.

١٨٥٦ – نشر ديوان 'التأمّلات'. وهيغو يقيم في أوتفيل – هاوس.

١٨٥٧ – نشر: 'أسطورة القرون' (السّلسلة الأول).

١٨٦٠ – هيغو يتجه إلى بروكسيل. ويُنهي البؤساء، ويرجع إلى غير نيزيه.

١٨٦١– نشر 'البؤساء'. رحلة إلى ضفاف الرّين، ويقوم بها مجدّداً في السّنوات ١٨٦٣ و ١٨٦٤ و ١٨٦٥.

١٨٦٤ – نشر: 'ولْيام شكسيبر'.

١٨٦٥ – هيغو يبقى وحيداً في غيرنيزيه برفقة جولْيت درووِيّة. ويسافر إلى بلجيكا وإلى ضفاف الرّين. نشر: 'أغاني الشوارع والغابات'.

١٨٦٦ – نشر: 'عمّال البحر'

نيسان – أيار: يبدأ هيغو في جمع ملاحظات من أجل رواية سوف تصبح: 'الرجل الضّاحك'

٢٦ حزيران: زيارة إلى مكتبة بروكسيل. يستعيرُ منها هيغو كتباً حول الأرستقراطيّة الإنكليزية. ويطالع فيها كتباً سوف تغذّي التّوثيقَ الضّخم الذي يجمعُه وهو يفكرُ بروايته المقبلة.

١٤ تموز: يسجّل هيغو على دفتر ملاحظاته: "إني أنتقلُ اليومَ إلى المنزل الصغير الواقع في آخر الباحة – الحديقة. وسوف أنام فيه هذا المساء، فقد بدأتُ هذا الصبّاح كتابة": "الرّجل الضّاحك".

٢٩ آب: هيغو يقرأ "في نطاق العائلة" بداية روايته الجديدة "الرّجل الضاحك". والتي لا يزال يعطيها في ذلك العهد العنوان: "لورد كلانشارلي" وفي ٣ و ٤ تشرين الأول، سيتابع قراءته المخصّصة في تلك المرّة لباخرة النقل "الأوركه" المبحرة. وفي التاسع من الشهر نفسه، يشتري خارطة بورتلاند من عند مكتبيٍّ في وايموث، وفي الخامس والعشرين منه يكتب إلى زوجته: "أشكُّ في أن كتابي يمكنه أن ينتهي في الوقت المناسب بحيث يصدرُ في عام ١٨٦٧. إني أعملُ بجهدٍ كبير".

تشرين الثاني: هيغو يسجّل في دفاتر ملاحظاته: "إن جوليا [والمقصودة هي السيّدة جوليا شونيه، أخت زوجته] قد بدأت بنسخ غوينبلين". وهذا هو أحدُ العناوين الأخرى المقترحة لرواية: "الرّجل الضّاحك") وتعيقُ عملَ هيغو صعوباتُ إعداد الكتاب الجماعيّ: باريس – الدّليل، والذي وعد بمشاركته فيه ناشرُه لا كروا. وفي الرابع والعشرين منه، أنهى مع ذلك القسمَ الأوّل من روايته، وقطع حينها عمله لكي يصوغ كتابةَ المدخل إلى باريس – الدّليل.

كانون الأوّل: يكتب هيغو إلى لاكروا " في الوقت الذي أُنهي فيه عملي من أجل باريسك، أعدُّ الصفحات، فألاحظ أنها عملٌ أدبيٌّ تقريباً، وأكثر من ذلك، أوسع بكثير مما كنت أظنّ"

١٨٦٧ – ١٨ كانون الثاني: هيغو يبدأ بكتابه: "هل سيأكلون؟" و"صوت غيرنيزيه".

وفي الثاني والعشرين منه، تتبادلُ جولييت دروويه وآديل هيغو الزيارات للمرّة الأولى. وإذْ ينشغل هيغو بإنهاء مدخله للكتاب الذي يدورُ على باريس، وبمسرحيته، وبمداخلاتٍ سياسية مختلفة، فهو لن يستأنف كتابة "الرّجل الضّاحك" إلاّ في أيّار.

تموز: قطعٌ جديد للعمل وتحضيراتٌ لرحلةٍ إلى لندن، وبروكسيل، ثم إلى زيلاندا.

تشرين الأوّل: استئناف كتابةَ "الرّجل الضّاحك".

١٨٦٨ - شباط: مشروع مقدّمة لرواية 'الرّجل الضّاحك'. وهيغو يدوّن في دفتر ملاحظاته: استأنفت جوليا اليوم نسخ 'الرّجل الضّاحك'.

أيّار، حزيران، تموز: مشاريعُ مقدمةٍ جديدة.

الأوّل من آب: هيغو يبدأ في بروكسيل خاتمة 'الرّجل الضّاحك'. وينهي الرّواية في٢٣ آب. ويفكرّ حينذاك بإعطائها العنوان: 'بأمر الملك' وهذا العنوانُ سوف يُعطى أخيراً للقسم الأخير من الكتاب.

٢٧ آب: موت آديل هيغو، زوجته، في بروكسيل.

٢٢ تشرين الثاني: هيغو ينهي مراجعة: 'الرّجل الضّاحك'.

١٨٦٩ - نيسان: يعطي هيغو القسم - الأخير الصّالح للطبّاعة من الرّواية، ويشكو لدى ناشره لاكروا من شروط نشر المجلدّ الأوّل. وطوال الصيف، يدوّن في دفتر ملاحظاته: يهمّني أن أتبيّنَ عدمَ نجاحِ 'الرّجل الضّاحك'.

١٨٧٠ - أيلول: يرجع هيغو إلى فرنسا بعد تسعة عشر عاماً من النّفي. وتُعرض الطّبعةُ الفرنسيةُ الأولى من القصاص للبيع. وتُقدّم قراءةٌ علنيةٌ لها على مسرح بورت - سان - مارتان.

١٨٧١ - يُنتخب هيغو مندوباً إلى الجمعيّةِ التّأسيسيّة، وينضمّ إلى الحكومة في بوردو. ويقدّم استقالته في ٨ آذار.

٢١ آذار: يذهبُ هيغو إلى بروكسيل لكي يسوّي تركةَ ابنه شارل الذي مات منذ قليل.

١٨٧٢ - ابنته آديل تُصاب بالجنون، ويجري احتجازُها. وهيغو ينشر: 'السّنة الرّهيبة'. علاقة مع وصيفة جولييت درويه.

١٨٧٣ - هيغو ينهي رواية 'عام ٩٣' وكتاب 'أبنائي'.

١٨٧٥ - ينشر كتاب: 'قبل المنفى وخلال المنفى' ويصوغُ هيغو وصيّته الأدبيّة.

١٨٧٦ - هيغو يُنتخَب عضواً في مجلس الشيوخ، ويُلقي خطاباً من أجل العفو عن الكومّونيّين (ثوّار العاميّة). ويكتبُ التقريضَ المأتميّ ل: ج صاند، وينشر: 'منذ المنفى'.

١٨٧٧ - نشر: 'أسطورة القرون' (السّلسلة الثانية)، وكتاب: 'الفنّ في أن يكون المرء جَدّاً'. وكتاب: 'تاريخ جريمة'.

١٨٧٨ - ٢٧ حزيران: احتقان دماغي: لن يكونَ هيغو قادراً على الكتابة إلاّ بصعوبة.

١٨٨٠ - خطابٌ جديد لصالحِ العفو عن الكومّونيين. نشر كتاب: 'أديانٌ ودين' وكتاب: 'الحمار'

١٨٨١ - تحيّة إلى هيغو، تظاهرةٌ شعبيّة. وجلسةٌ في مجلس الشيوخ، ونشر كتاب: 'رياح الفكر الأربعة'.

١٨٨٢ - نشر كتاب: 'توركيمادا' تقريضٌ جنائزيٌّ للوي بلان.

١٨٨٣ - موت جولييت درويه. نشر: 'أسطورة القرون' (السلسلة الثالثة) وكتاب: 'أرخبيل المانش'.

١٨٨٥ - ٥ أيار: احتقان رئوي. ٢٢ أيار السّاعة: ٢٣ و٢٧ دقيقة، موت فيكتور هيغو في منزله، ١٣٠، جادّة إيلو.

الأول من حزيران مأتمٌ وطني، ودفنٌ في البانتيون.

تقريرٌ موجزٌ عن الرّواية

ينبغي أن يكون لكلٍّ شيء معنىً بالنسبة لفيكتور هيغو. ولن يشكّلَ بدءُ تأليف "الرّجل الضّاحك" استثناءً لهذه القاعدة. إنه يدوّن في دفتر ملاحظات أنه قد بدأ يكتب هذا الكتاب في ١٤ تموز للعام ١٨٦٦. ولكنه، يكتب في الأسبوع الثاني، أنه قد بدأه في بروكسيل، في بلا سدي بارّيكاد، في ٢١ تموز، يوم عيدي". ومقابل ما يبدو أنه لا يتعدّى كونه تفاوتاً في الوقت لا قيمة له، لدينا الحق، والحالة هذه، بأربعة أسطر، في العيد الوطني، وفي البارّيكاد (المتاريس) وفي سان - فيكتور (القديس فيكتور).

إن هيغو، في الحقيقة، يعلّق أكبر الأهمية على هذه الرّواية التي يبدأ بتدوين ملاحظاتٍ من أجلها اعتباراً من ربيع عام ١٨٦٦. والتي لن تصدر إلاّ بعد ثلاثة أعوام، في شهر نيسان للعام ١٨٦٩. وفي كتابنا "موجز حياة فيكتور هيغو"، نوهنا بتلك الفترة، وأشرنا إلى الانقطاعات العديدة، واستئنافات العمل، والتصّحيحات لصياغةٍ يوليها هيغو اهتماماً شديدَ التّدقيق. ولقد عزّز النّفيُ الطويلُ الأمد الذي كان نفيَه ميله الطبّيعي إلى التأمّل، والتّفكير النقديّ. وحتى وإن كان قد كرّس فترات انقطاعه عن كتابة كتابهِ إلى أعمال أخرى أو إلى أسفار، فقلما هناك شكٌّ بأنه قد استخدم تلك الأوقات المعترضة ليبتعدَ مسافةً عن ذلك المؤلّف الذي يعمل فيه، وليعطيه، شهراً بعد شهر، أبعاداً أوسع. ويكفي لكي يقتنعَ المرءُ بذلك أن نستعرضَ عدداً من الخانات الممكنة التي كان قد فكرّ فيها.

ينتهي الكتابُ، في إحدى الحالات، بخيباتِ باركيلفيدرو الذي من خلال استهدافه لجوزيان قد أصاب ديا. ويحتفظُ اللّورد فيرمان كلانشارلي بلقبه كلورد وكذلك بميراثه الهائل. إنه كتابٌ آخر.

وفي مشروعٍ آخر. يتخيّل أن باركيلفيدرو يتحدّى غوينبلين في مبارزة. غير أن اللورد سيروس مانمور هو الذي يتقاتلُ مع باركيلفيدرو، لأن "غوينبلين لم يحمل قطّ سلاحاً"، ويقتله. وفي هذه الحالة، تنتهي الرّجلُ الضّاحك لأن تكون رواية تهريجٍ بطولية - هزلية. وهذا ما لعلّه يعيدنا أيضاً إلى رابليه ولكن بأفضل الطرّق.

لن نقدّم إلاّ مثالاً ثالثاً وأخيراً. إن هيغو ينظر في أن يختم ملحمته على النحْو التالي: "لا ندري ما الذي صار إليه غوينبلين. فقد عُثر على ردائه وقبّعته على حافة نهر التاميز، ولاغازيت دولوندر (صحيفة لندن) (؟) تعلن أن اللورد كلانشارلي الذي قضى بموتٍ طوعيٍّ، قد أعاد ديرّي - موار إلى موقعه، وهو الذي تزوّج بالدّوقة جوزيان، ما إن انقضت فترة الحداد. وهكذا فإن باركيلفيدرو قد استهدف جوزيان فقتل (أصاب) ديا".

إن المرء ليبقى دَهشاً في البداية حين يفكرّ بأن هيغو قد خطر له أن ينهي عملاً أدبياً على تلك الدّرجة من الأهمية بصورةٍ مسطحّةٍ إلى ذلك الحدّ. غير أن هذا يبيّن لنا أن العبقرية صبرٌ طويل. لقد عرف هيغو كيف ينتظر ليأتيه الإلهامُ المطلوبُ لكي يكتب الصّفحات الرائعة الأخيرة، والتي تبدأ بتلك اللّقيةُ، لقية أومو الذي يأتي ليلحس أصابع غوينبلين، فينقذه من الانتحار، ويرشدُه إلى ديا، وبتبدّل وجه البطل الذي يصعد إلى السّماء، بمقدار ما يتوغّل في أعماق المياه.

يصدرُ الكتابُ في نيسان للعام ١٨٦٩، في ظروفٍ جدّ سيئّة. فالناشرُ لاكروا الذي عهد إليه هيغو بالاهتمام بنشره، قد تصوّر تدبيراً فيه مخاطرةٌ لبيع الكتاب تعيقُ انتشار المؤلّف. ولسوف نجد في الوثائق التي نعرضها رسائلَ من هيغو تحملُ إيضاحاتٍ حول الخلاف الذي يقوم بينه وبين ناشره. إن مقالتين لباربي دورفيلي ومنشورتين في لونان جون (القزم الأصفر) لا تشجعان أيضاً مصير الكتاب "إن هيغو، ذلك المقامر المحظوظ بالشهّرة، والذي كان يضاعفُ مبلغَ رهانه منذ عشرين عاماً، قد خسر منذ قليل اللعبةَ

الأخيرة. كان يُدعى فيكتور، وكان هذا الاسم يناسبه! ومن الآن فصاعداً سوف ندعوه 'Victus[*]'. إنها حقاً لبطةُ الحمار للأسد الذي بدأ يشيخ. (إن هيغو يذكر بنفسه في ذلك العهد، في دفاتر ملاحظاته، أو في رسائله، حالاتٍ من التعّب أو العياء والتي يعزوها إلى سنّه). أما سوينبورن، في مقالةٍ مترجمةٍ في لوكورييه دولوروب، فسوف يمتدحُ الكتاب، غير أن الضّرر قد وقع. زدّ على ذلك أن نبرة الكتاب ليست معدّة لتكون جذابة. ومن عمّالِ البحر إلى الرّجل الضّاحك، انتقل هيغو من السّخرية إلى الدّعابة السّوداء، ومن الالتماعِ إلى الضراوة التهكميّة. فلنفكرّ بهذا المقطع الذي يدورُ على الأطفال الذين يُربّون في الصيّن داخل أوانٍ معيّنة: ' إن هذا النّمو في زجاجةٍ يدومُ بضع سنوات. وفي لحظةٍ محدّدة، يغدو إصلاحُه متعذراً. وحين يحكمون أن ذلك قد نجح، وأن المسخ قد صُنع، يكسرون الإناء، ويخرجُ منه الطّفل، فيحصلون على إنسانٍ له شكلُ الإناء.

'هذا أمرٌ يسيرٌ، يمكن للمرء أن يوصي لنفسه على قزمه مسبقاً بالشكل الذي يشاء'.

لا بدّ فعلاً أن يكون هناك قرّاء يفكرّون قائلين إنّه 'ما من مزاح مع فظاعات مماثلة'. والحال، فإن هيغو لا يمزح، إنه يُغيظ بقريحةٍ مبدعة. غير أن ذلك ربمّا لم يُفهم.

ثم أن هناك شيئاً أعمقَ أيضاً وهو يفسّرُ إخفاقَ الرّواية الشّعبي. فلم يعدْ هناك شخصٌ يأملُ بسقوط الإمبراطوريّة الثانية التي ستنهار مع ذلك بعد بضعة أشهر. لقد أخذ هيغو يصبحُ أسطورة. ولم يعد يجسّد رجاءً معيناً.

فليست تلك هي اللّحظة الفضلى لنشر عملٍ متطلّبٍ بمواجهة جمهوره. وهو يعي ذلك جيداً.

'من المهمّ بالنسبة إليّ أن أتبيّنَ عدم نجاحِ 'الرّجل الضّاحك'.

(*) المهزوم (باللاتينية) (م: ز.ع).

إن عدمَ النجاح هذا يتكوّن من عنصرين: أوّلهما: ناشري، وثانيهما أنا.

ناشري – مضاربةٌ غير معقولة، ومُهلٌ لا تفسيرَ لها، وضياعُ اللحظة الملائمة، والنّشر المجزّأ، وفترات تأخرٍ وكأنما لانتظارِ لحظةِ غرق الكتاب في ضوضاء الانتخابات.

أما أنا – فقد أردتُ أن أسيء استخدام الرّواية، أردتُ أن أجعل منها ملحمة. أردت أن أُجبر القارئ على التفكير عند كلّ سطر، ومن هنا أتى نوعٌ من غضبٍ من جهة الجمهور نحوي.

ونذكر هنا بلا إلحاح أن تاريخَ الانتخابات كان قد دخل، في ذلك العهد، في نطاق استراتيجيّات النشر، وبشكلٍ أكثر جدّية، فالصّحيحُ هو أن الطّابع الملحمي لهذا العمل الأدبي الشّامل لم يلاقِ رضاً في نظر الجمهور. ويكتب هيغو، في رسالةٍ إلى أوغست فاكري، مؤرخة في ٢٧ كانون الثاني للعام ١٨٦٩، أي قبل ثلاثة أشهر من نشر الكتاب، من دون أن يعرفَ المصيرَ الذي سيلاقيه:

'ينتقل هذا الكتاب من الدراما في الوقائع إلى الدّراما في الأفكار، ويخصّصُ المجلدَ الثّاني بأكمله لذلك: تاريخاً، وفلسفة، وقلباً إنسانياً. ثم ترجعُ الدّراما بحصر المعنى إلى المجلد الثّالث بعنفٍ حتى النهاية. إن الإجماليّ، كما أظنّ سوف يرضي فكرك الواسع. وأظن، في الحقيقة، أني لم أصنع شيئاً أفضل من 'الرّجل الضّاحك'. ويعلن حينذاك عن ثلاثيّة روائية سوف يؤكدّ مشروعها في التمهيد الموجز الوارد في الطبعة الأصلية. إن فكرته هي أن الأرستقراطيّة (التي يُعدّ أعلى تعبير لها موجوداً في إنكلترا). والنّظام الملكيّ (الذي سيجد الحكمُ المطلق نموذجه في فرنسا) هي تنظيماتٌ اجتماعية سوف تُفضي إلى الديمقراطية، من خلال صفاتها ومفاسدها. ويُنهي رسالته بأن يكتب قائلاً: 'وسأكون قد أظهرت الثورة. وستكون هذه الرّوايةُ نظيرةً للبؤساء'.

غير أن الكتاب الثاني لن يأتي قط. وحين ينقصُ أحدُ الكتب من ثلاثيةٍ معيّنة، فإن المجلّد الثالث هو المقصودُ عموماً. وهنا، فإن الكتاب الثاني هو الذي لن يكتبه هيغو. إن الملاحظات التي أُخذت في سبيل إعداد

كتاب عن الملكية سوف ينتهي بها الأمر إلى إغناء رواية عام ٩٣. ولا شكّ أن هيغو لم يشأ أن يجدّد مع الحكم الملكي مشروعاً لم ينجحْ كثيراً مع الأرستقراطيّة". ولكي "يبرهن على الثورة" سوف ينتقلُ من البؤس إلى منصّةِ الإعدام مباشرة.

حتى أيّامنا لم يرتّب القراء للرّجل الضّاحك المستقبلَ الذي يستحقّه. ولم يباشر النقدُ بإعادة اعتبارٍ له، ملتبسةٍ أحياناً من ناحية أخرى، إلاّ مؤخّراً.

وتوضحُ مقدمةُ بيير ألبوي أسباب ذلك بحججٍ لا يمكن إلاّ أن تكون مقنعة.

وقد ظنّ لسانٌ قارضٌ بأن باستطاعته أن يقول عن مالرو، أثناء نشره لكتابه أشجار جوز ألتنبرغ "إنه يمتلك نواقصه تمامَ الامتلاك". وهذا بالضّبط ما أخذوه على هيغو أثناء نشر الرّجل الضّاحك، فحتّى ذلك الحين، كانوا يعتبرون أنه قد كانت لديه نواقص كثيرة، أما هذه المرّة، فقد كان لديه من هذه النّواقص أكثر مما ينبغي. عددٌ مفرط من الشخصيات، والكثيرُ من الأطر، والكثيرُ من التّجاسُرات التي التقُطت من الواقع التاريخي، والكثير من المفاجآت، والكثير من النصوص البارعة الأسلوب، والكثير من الكلام المنمّق لدى أورسوس، والكثير المصادفات العجائبيّة، والكثير من أقوال المؤلّف، والكثير من الكلام فحسب.

في هذه التربة ذات الغنى المفرط كما يبدو، إنّما سيزرعُ هيغو تحديداً حدوساً فائقةً للمعتاد ويجعلنا بعضُها نفكّر بفرويد. إن النّزعة الرومانسيّةَ المحتدمة لدى الرّمزيين تدين بشيء ما للرؤى التي تجتاز الرّواية. وليس مصوّراً من مثل أرنولد بوكلين والذي تجعل لوحاته العديدة المرءَ يفكرّ برسومات هيغو "الوحشيّة" هو الذي كان يمكنُ أن يقولَ العكس. ولم ينكر السّورياليّون ما كانوا يدينون به إلى أرخبيل هيغو في موضوع "الرؤيا" الشعريّة، حتى وإن كانوا يؤثرون عليه رامبو النيزك. لقد كان بودلير أحدَ أوائلِ الذين فهموا ضخامةَ هيغو: "إن المفرطَ، والشّاسعَ، هما الميدانُ الطبيعيّ

لفيكتور هيغو. إنه يتحرّك فيه ضمن جوّه المولديّ. إن العبقرية التي طالما أظهرها باستمرار في تصوير الفظاعة الكليّة التي تلفّ الإنسانَ هي أمرٌ خارقٌ حقاً.

غير أنه في تلك السّنوات الأخيرة خصوصاً إنمّا كابد التأثيرَ الميتافيزيقي الذي يفوحُ من تلك الأشياء وهي فضولُ أوديبٍ تستحوذُ عليه ألغازٌ لا تحصى.

لقد صنع هيغو برواية الرّجل الضّاحك هيغو الذي لم يصنعه قطّ من قبل. إنه ليس في أيّةِ كتابةٍ من كتاباته يشبهُ نفسه بهذا القدر، ويشبه أفكاره المبدعةَ التي دافعَ عنها منذ شبابه. إن هذا الكتاب يتبدّى كأنه رمزٌ الإبداع الهيغولي.

إن السّنة التي تتلو صدوره يذيعُ صيتها بإخفاقٍ ذي مدىً آخر ويمسّ عدوّ هيغو، الرّمزي هو أيضاً، وهو نابليون الثالث. إنه كارثةُ سيدان.

فنابوليون يستسلمُ في الثاني من أيلول للعام ١٨٧٠، وتُعلن الجمهوريةُ في الرابع منه.

ويرجع هيغو إلى فرنسا (حين تعودُ الحرّية، أعود). ويُستقبَلُ بانتصارٍ في باريس، بعد تسعة عشر عاماً من النفّي. ويُنتخبُ في الجمعية التأسيسيّة التي يقدّمُ استقالته منها بعد شهر. ويسأله أحدُهم حينئذٍ إن كان قد ترك السّياسة. ويجيبُ بأنه يترك كلّ شيء. ولسوف يعود غالباً إلى أوتفيل - هاوس ويتابع عمله بعزمٍ مألوفٍ ومخيفٍ في آن. إن المنفى بالنسبة إليه قد غدا مملكة.

سوف نجد في الوثائق التي جمعناها، فضلاً عن رسائل هيغو إلى أوغست فاكري، ورسالةٍ من سوينبورن إلى هيغو، كتاباتٍ جزئيةً من المقدمة التي كان هيغو قد أعدّها، ومجموعةً من الملاحظات التي كان قد دوّنها عندما كان يصوغُ الكتاب. ونقدّم أيضاً "جون بورتلاند"، وهو نصٌ مستبعدٌ من

النسّخةِ النّهائية، والذي كان من المفترض أن يكون الفصلَ الأولَ من الكتاب حين عكفَ هيغو على العمل فيه، في ١٤ تموز للعام ١٨٦٦. ويُعتبرُ هذا النّصُّ على العموم أساسيّاً في نظر النقّاد.

وأخيراً، فهناك على الصفحة ٧٩٩ و٨٠٠ (*) خريطتان تتيحان للقارئ أن يقدّر كيف أن هيغو قد عرف كيف يرفعُ إلى مرتبةِ رؤيةٍ عظيمة ما ليس في بادئ الأمر أكثرَ من واقعٍ جغرافي.

(*) في الأصل الفرنسي طبعاً (م: ز.ع).

وثائق

رسائل من فيكتور هيغو

من ف. هـ، إلى أوغست فاكري، في ٧ كانون الثاني للعام ١٨٦٩

هـ..هـ.(*). ٧ كانون الثاني

عزيزي أوغست، أنت طيّبٌ بشكلٍ رائع وصاحبُ نخوة. فإلى أيِّ صاحب مطبعة قد أسلمني السيِّد لاكروا إذن؟ فلدى كلايٍ، كانت تجاربي المطبعيَّة بأمانٍ. أما لدى السيِّد بوبار – دافيل – فهي مبعثرة تحت الطاولات، وتصلُ نتفٌ منها إلى الصحُف. فهل تعرف بقَّةً تسمى فرانسيس مانيار؟ إن هذه البقَّة يفوح النتن منها وتلسعُ لا أدري أين؟ وأعلم اليوم، من خلال هجمةٍ لهذه الحشرة أن قطعةً من الرّجل الضّاحك قد نُشرتْ في الصحف. فلتخدمني بأن ترى السيِّد لاكروا، وتنبهّه إلى هذا الخطأ الجسيم. فينبغي أن يصل كتابي كاملاً إلى الجمهور. وبهذه الصّورة سوف يدافعُ عن نفسه، وأكون مرتاحاً. أما أن يُسلِم ناشري تجاربَ طبع كتابي، فهذا صعب! – فلتوبخْ بقوة السَّيد لاكروا، أرجوك، باسمي ؛ فليس لديِّ الوقتُ الآن لأكتب إليه، ولا أودُّ أن يجري الأمر من غير تحذيرٍ جدّي. ولتكن طيِّباً أيضاً. وتحرص على ألاّ تتكررَّ ضروبُ التسيُّب لدى ناشري (وهي التي تقارب الخيانة). إني أسحبُ كلمة خيانة، وأحلُّ محلها كلمة حماقة. وأخيراً، فكما هي الحال دائماً. اصنعْ أكثر ما بوسعك [......]

أوه! أعلم جيداً أنني لا أشيخُ، وأني على العكس من ذلك أكبرُ، وأحُسّ من هذا باقترابِ الموت. فأيَّة محنةٍ هي للرّوح! إن جسدي يضعفُ، وفكري

(*) هـ هـ هوتفيل – هاوس (م: ز.ع).

ينمو؛ وتحتَ شيخوختي هناك تفتّحٌ. إني أشعرُ بأني أصعدُ إلى الفجرِ المجهول. إني يافعٌ بالنسبة للانهاية، وقد أصبحت روحي في تلك الفتوة، التي هي القبر.

فما أشدّ عماهم أولئك الذين يقولون إن الفكرَ هو نتاجُ الجسد! إن جسدي يمضي، وعقلي يزداد. اعذرْني على هذه الميتافيزيقا. وأحبّني.

من فيكتور هيغو إلى ألبير لاكروا، في ١٠ كانون الثاني للعام ١٨٦٩. هونتفيل – هاوس، ١٠ كانون الثاني.

عزيزي السّيد لاكروا، لا بدّ أن السّيد أوغست فاكري قد حكى لك عن تضايقي الشّديد جداً في الأسبوع الماضي. ولن أعود إليه. غير أنك تلاحظُ أهميّة الاحتياطات التي ينبغي اتخاذُها. كان السّيد كلاي شديدَ التكتم، كما تعلم. ويتعين على السيد بوبار – دافيل أن يقلده، وأن يدرك أنه ما من شيء من كتابٍ لي يجب أن يصلَ إلى الخارج قبل يوم النشر. لقد رأيتُ العدائيّة الفورية. إن كتابيَ المنشور، وهو بكليّته تحت أنظار الجميع، يدافعُ عن نفسه بمفرده، وأنا مرتاحٌ لهذا. ويقودني ذلك إلى الإجابة على أحد أسئلتك:

١ – أفضل شخصياً نشرَ المجلدات الأربعة معاً، للسّبب الذي قلتُه منذ قليل. والمجلد الثاني الذي يفتتح القسم الثّاني من "بأمر الملك"، الذي هو قيدُ الإعداد تماماً (تاريخاً، وعاداتٍ وتصويرَ طباع، وإخراجاً للشخصيّات) يفيدُ من أن ينشر بين الدّراما الحادّةِ جداً: اللّيل والبحر، والدرّاما التي ليست أقلّ حدّةً، والتي تملأ دون انقطاع المجلّدين الأخيرين. وفي تفكيري، أهدي المجلد الثاني إلى النّخبة، والمجلّد الأول والثالث والرّابع إلى كلّ الناس. فهناك نخبةٌ، بين كل النّاس، وكذلك فأنا إنمّا أشتغلُ خصوصاً من أجل كلّ الناس، كما ترى ضمن نسبة ثلاثة إلى واحد.

٢ – بالنسبة للناشر يبدو لي أن النّشرَ الكاملَ للأربعة مجلّدات دفعةً واحدة أفضلُ له، حيث يحصلُ على مبلغٍ مدفوعٍ جسيم إلى حدّ كافٍ عشيّة يوم البيع، فيجدُ تسديداً عاجلاً للثمن على أساس ٢٤ فرنكاً (مقابل الأربعة مجلّدات) أكثر من ٦ فرنكات (مقابل مجلدٌ واحد). ففكرّ بالأمر.

ليس في حلّ هذه المسألة من جهة أخرى أيُّ أمرٍ ملحّ فوريّ، بما أنه ينبغي في البداية، وقبل كلّ شيء أن تُطبع المجلّداتُ الأربعة، وأن تكون معدّة للصّدور.

نظراً لأنه لا يلزم، في كافة الحالات، أكثر من ثمانية أيّام كفترةٍ فاصلة بين الإصداراتِ المتعاقبة، وحين تصبحُ هذه المجلّدات الأربعة قد طُبعت تماماً، وصارت كاملةً بين أيدينا، يكون هناك مجالٌ لنقرّر إن كنا نقومُ بالنّشر دفعة واحدة، أو إذا كنّا نقسّمه إلى قسمين.

١ - البحر والليل (القسم الأول) مجلّد واحد.

٢- بأمر الملك (القسم الثاني) ٣ مجلّدات (من المستحيل، ولنقلْ ذلك سريعاً، أن تجري تجزئةُ هذه المجلدات الثلاثة). ولسوف يعطي أصدقاؤنا، الكفوؤن جداً، والمستشارون الرائعون، فاكري وموريس رأيهما [......].

أما عن اتسّاع وعدد صفحات كلِّ مجلّد، فإليك ما سيعيّن لك ذلك، فلنأخذْ كأساس للرقم ورقةَ النّسخ المزدوجة (والتي بين يديك ٦٩ ورقة منها).

المجلد الأول يحتوي ٦٩ ورقة مزدوجة.

المجلدُ الثاني يحتوي ٦٥.

المجلد الثالث يحتوي ٦٢.

المجلد الرابع يحتوي ٧٤.

أما المجلّدُ الرابع المفيدُ والضّروري لحجم المجموع فهو أحدُ تلك المجلّدات التي أفضّلها؛ ولكنه يتناولُ الطبّاعَ والتاريخَ، وهو دراسةٌ للقلب الإنسانيِّ أكثر مما هو دراما [.....]

سوف أرسلُ إليك المجلّدَ الثّاني، ما إن تتخذ قرارك.

أتمنى لك الحظّ الجيد والنجاح، وأُرسلُ إليك ألفَ أمنيةٍ وألفَ ثناء.

ف. هـ

من. ڤ. هـــ إلى أوغست فاكري، في ٢٤ آذار للعام ١٨٦٩.

الأربعاء ٢٤ آذار. هـــ. هـــ (هوتفل - هاوس).

في هذا اليوم، ٢٤ آذار، لم أتلقَ بعدُ شيئاً من السّيد لاكروا والذي قال لك إنه قد كتب لي في الرابع عشر منه. إن رسالته على الطريّق منذ عشرة أيام وهذا زمنٌ طويل. فيا عزيزي أوغست. إن السّيد لاكروا لا يكتب لي إذن. ومن جهةٍ أخرى فأنا أفتحُ صحيفة لوغالوا وأرى فيها ما يلي:

شائعة أخرى مكتبيّة

إن المجلّدين الأوّلين من رواية فيكتور هيغو اللذين سيصدران في الأسبوع القادم لن تسلّمهما دارُ النشر لاكروا إلاّ إلى المكتبيّن الذين يأخذون مجلدّات بمئة فرنك تنشرها دار النشر المعينة. فلاحظوا أننا لا نؤكدُ شيئاً، مع أننا نأخذُ هذا التفصيل من مكتبيٍّ مهمّ. أما فيكتور هيغو، عدوُّ التحكمُّ، فلسوف يحتجُّ بلا شكّ ضدّ هذه الطّريقة الجديدة في إطلاقِ كتابه.

من نافل القول أنني لن آخذ هذه المبالغة على محمل الجدّ. ومع ذلك، فإن صمتَ السّيد لاكروا الذي لا تفسيرَ له يدفعني إلى التفكّر. فهل تتفضل بأن تنقل إليه هذه الرّسالة، ولتتكرّم إلى حدّ كافٍ بحيث لا تسلّمه المقدمة، وأن تحتفظ بها إلى أن يكون قد كتبَ لي، وأكونَ قد رددتُ عليه. ولسوف يَعبرُ جوابي على يديك. فيا صديقي العزيز والمقتدر. إني أستخدمك، وأسيء ذلك، وأنت أهلٌ لتغفرَ لي، ولئلاً ينتقص ذلك من حبّك لي.

EXIMO إليك

من ڤ. هــــ إلى ألبير لاكروا، ١٤ نيسان ١٨٦٩.

سيّدي.

لقاء مبلغ أربعين ألف فرنكاً عن كلّ مجلّد، وليس خمسين ألفاً، كما جرى طبْعه خطأً، اكتسبتَ مني حقّ الطبْع والترجمة، لمدّة اثنتي عشرة سنة (لرواية) "الرّجل الضّاحك" ولكتابٍ آخر سيكون عليّ أن أسلّمك إياه فيما بعد.

أنت تنشرُ اليوم "الرّجل الضّاحك" بشروطِ نشرٍ ليست في الحسبان وغير مستعملة،وهي للإنصاف تتجاوزُ حقّك بشكلٍ جليّ.

لقد كانت الإنذاراتُ بلا طائل. فقد أصررتَ على موقفك، وأنت تصرُّ عليه. ولن أتوجّه إلى المحاكم. فإن خسارةَ دعواي ضدّ المسرح الإيطاليّ، وهي الدّعوى التي تمّ كسبُها بعد ذلك على يدِ السّيدة سكريب، قد أثبتت ليّ، أنه في مثل وضعي، حين يكون المرءُ خارج فرنسا، معناه أنّه خارج على القانون، وهذا الوضعُ أنا أقبلُه.

فضلاً عن ذلك، فبوجودِ الواقعة المخالفة للمألوف، والتي تتيحُ لها الفرصةُ عمليةَ بيع "الرّجل الضاحك"، فإني انتحائيّ جانباً يكفيني. إن أسلوبَ النّشر غير المنتظر الذي تبنيّته لهذا الكتاب يدهشني، وإني أعلنُ ذلك، فأنا لستُ متضامناً معه، وأحرصُ على أن أقوله بصوتٍ عالٍ.

وتقبّلْ التأكيدَ على مشاعري المتميّزة.

فيكتور هيغو

من. ف. هــ. إلى أوغست فاكري، في ٨ نيسان ١٨٦٩.

هــ. هــ. ٨ نيسان.

عزيزي أوغست، لدي أخيراً اتصالٌ من السيد لاكروا، وقد قلتُ لك إنني سأجعل جوابي يمُّر من خلالك؛ وهذا هو. فهل تتفضّل بأن تسلمه إياه في أقربِ وقتٍ ممكن (بعد أن تكون قد أوصلته إلى بول موريس). ولعلّك ترى أنه يكفي، بمثابة كلّ احتجاج، أن تنشر هذه الرسالة (المؤرخة في ٨ نيسان). ومع ذلك، فقد كنتُ أجد من المفيد أن أصحّح السعرَ الخاطئ (50000 فرنكاً) وأن أؤكد على ازدرائي للمحاكم. ومن جهةٍ أخرى، فقد كان ذلك قاسياً بعض الشيء، بالنسبة للاكروا؛ فهذه الرسالة، الأكثر رقةً، قد تصل ربّما إلى هدفها بشكلٍ جيد. فاصنعا كلاكما ما يُعتبر الأفضل، وإني أعتمد عليكما.

شكراً. وبصداقة حميمة، Detodo Corazon (*)

تكرّم بأن تكتب لي في أي يومٍ يمكنني أن أسحبَ من حسابِ السيِّد لاكروا الـــ 100000 فرنكاً (اليوم السابق للبيع)، فقد أخطرته، أليسَ كذلك؟ إني انتظر أيضاً تجربة طبعِ المقدّمة، فلم يعد هناك إلاّ أن تصدر.

من ف. هـــ . إلى ألبير لاكروا، في ٨ نيسان ١٨٦٩

هوتفيل – هاوس، ٨ نيسان ١٨٦٩.

وصلتني رسالتك المؤرخة في١٤ آذار ورسالتك المؤرخة في ٣ نيسان معاً، وذلك مساء الأمس، في ٧ نيسان، وضمن المغلف نفسه.

كنتَ قد علمتَ من الصحف بتدبيرك الذي لم ترتئي من المناسب أن تستشيرني فيه.

وإذْ لم أتلق منك أيّ اتصال بهذا الموضوع، فقد رجوتُ أصدقائي بأن يروك، وقد عرفتَ منهم دهشتي واستهجاني.

لقد أردتُ للرّجل الضاحك، كما أردت للبؤساء وعمال البحر، نشراً بلا شرط وبلا تعقيد، ومع تخفيضاتٍ في السعر متعاقبة تُتيحُ لي، كما حدثَ بالنسبة للبؤساء، الوصولَ إلى طبعاتٍ تصلُ إلى مئتي ألف نسخة.

إن تدبيرك، بعكسِ تعميم الكتاب، والذي تجيزني به أخيراً، يخلق له صعوباتٍ في الترويج.

إذا ما أصررتَ على هذا التدّبير الذي يتجاوزُ، في نهاية الأمر، حقّك، بمواجهتي، أنا المؤلف، فلسوف أكون مضطراً لنشر خلافنا. وسيكون هذا بالنسبة إليّ أمراً مؤسفاً حقيقياً.

وتقبّل التأكيدَ الجديدَ على مشاعري المتميزة.

فيكتور هيغو

(*) من كلّ قلبي (بالإسبانية في النصّ). (م: ز.ع).

من ف. هـ. إلى مدير الدَيلي – تيليغراف، في ٢٦ نيسان ١٨٦٩.

هوتفيل – هاوس، ٢٦ نيسان ١٨٦٩.

أسارعُ يا سيدي، إلى الإجابة على رسالتك. أنت تريد أن تنسبَ إلى نشر "الرّجل الضّاحك" أهميةً تجعلك تتمنى بضعة أسطرٍ مني، خصوصاً حول إنكلترا. إن لديّ شيئاً قليلاً أضيفه على مقدمة الرّجل الضاحك.

إنه ليس كتاباً انكليزياً، إنه كتابٌ إنسانيٌ. وهو انكليزيٌ مع ذلك بمعنى أن جانباً منه مجهولاً تقريباً من تاريخ إنكلترا، قد وُضع فيه صراحةً، وعُرض للنّور، وهذا ما سيبدو لإنكلترا مفاجئاً ربّما، ولكنه متّفقٌ بالتأكيد. إن بقايا الطبّاع الإسبانية والبابويّة والتي تشخّصها الدّوقةُ جوزيان، سوف تُدهش بالتأكيد الاتضاعَ الإنكليزيَّ الحالي، بيد أنه ينبغي إلقاءُ التّبعة على السّتيوارتيّة والكاثوليكية. فأنا لستُ سوى مؤرّخٍ وفيلسوف. ولا أعرفُ الإنكليزية، ومع ذلك، فبرجوعي إلى الحكم الإجماعيّ، أرغبُ في أن تكون التّرجمةُ المنشورةُ شبيهة بترجمة كتابي وليام شكسبير والتي هي ترجمةٌ ممتازة، وليس بترجمة البؤساء التي هي ترجمةٌ بغيضة، وينبغي إعادةُ صياغتها. إن الرّجل الضاحك، وأنا أكرر ذلك، كتابٌ إنساني خاصة، وتُصوّرُ فيه الارستقراطيةُ الإنكليزيةَ بدون تحيّز. وقد أخذ مؤرخُ الرّجل الضّاحك باعتباره كلّ ما هنالك من عظمةٍ حقيقيّةٍ في سيطرة اللوردات الوطنية غالباً.

إن الرّواية، كما أفهمها، وكما أحاولُ صنعَها، هي دراما من جهة، وتاريخ من الجهة الأخرى. إن ما ستراه إنكلترا في هذا الكتاب: الرّجل الضّاحك، هو تعاطفي العميق مع تقدّمها ومع حريّتها. إن التحاسُدات القديمة العرقيّة غير موجودة بالنسبة لي. فأنا من كل الأعراق. وبما أني إنسان، فإن العالم مدينتي. وأنا في وطني في إنكلترا، كما أن انكليزيّاً يكون في وطنه في فرنسا. فلنمحُ كلمة ضيافة، مهما كانت ساحرة، ولنستبدل بها كلمة حق "المتشددة ولكن المنصفة". إني أحبُّ إنكلترا، وكتابي يثبتُ لها ذلك أنتم تريدون أن أقول لها هذا، لقد تم ذلك. انشروا رسالتي إذا رأيتم ذلك مناسباً.

وتقبلوا، يا سيدي، تأكيدَ مودّتي مجدداً.

فيكتور هيغو

من ف. هـ. إلى سينيبورن، في ١٤ تموز ١٨٦٩

هـ. هـ، ١٤ تموز

التاريخ الكبير.

عزيزي الشّاعر والودود. لقد تأثّرتُ عظيمَ التأثّر برسالتك، وبمقالتك. أنت على حق، أنت وبايرون وشيلي، أنتم الأرستقراطيين الثلاثة، والجمهوريّين الثلاثة. وأنا بالذات، إنما صعدتُ من الأرستقراطية إلى الديمقراطية. ومن النبالة، إنّما وصلتُ إلى الجمهورية، كما يجري الانتقالُ من النهر إلى المحيط. فتلك ظواهرُ جميلة. وما من شيء ذي دلالةٍ مثل انتصاراتِ الحقيقة هذه.

شكراً، من كلّ قلبي، على عملك الرائع عن كتابي. فأيّة فلسفةٍ رفيعة، وأيّ حدسٍ عميق تمتلك! من خلال الناقد العظيم، نحسُّ بالشّاعر العظيم.

من ف. هـ. إلى ناقدٍ غير معروف الهويّة، في ١٦ تموز ١٨٦٩.

هـ. هـ. ١٦ تموز

إنك تشرفني، يا سيّدي، بأنٍ تعاملني، كما عامل فولتير شكسبير، ولا أدري، إن كان لديّ الكثيرُ من الشطط، مثل شكسبير، ولكني أعلمُ أن لديك، مثل فولتير، الكثير من الفكر. اسمح لي أن أشكرك.

فيكتور هيغو

ملاحظات تحضيريّة

و

مشاريع مقدمّة

إهداء

ما من قارئ إلاّ القارئ المتفكّر

فإليه إنّما أهدي مؤلفاتي

فأياً كنتَ، إذا كنت تتفكّرْ وأنت تقرأ، فإليك

إنمّا أُهدي مؤلفاتي

*

مقدّمة (ممكنة)

لغوينبلين

شعرتُ بالحاجة إلى إثباتِ الرّوح

شاء البعضُ ان يرى في الأنانكيه (القّدَر) جهراً معيناً بالرّأي، وقد أعلن أن مؤلِّف نوتردام باريس، والبؤساء، وعمال البحر، قدريّ النزعة. والعكسُ هو الصّحيح. إنه يفكّر من جهته، أن سلسلة مؤلفاته هي سلسلةُ إثباتات للرّوح. وهو يضيفُ اليوم هذا الكتاب إلى هذه السّلسلة.

لدى الإنسان سلاحان ضدّ القدر، الضّميرُ والحريّة، الضّمير الذي يدلّه على الواجب، والحريّة التي تعيّن له الحقّ.

* * *

كما أن كتاب البؤساء يرتبط بفكرة القدر بكتابٍ سابق هو ن. د. ب (نوتردام باريس) وكتاب لاحق هو ع. ب (عمال البحر)، فإن كتاب عام ٩٣ سوف يكون مسبوقاً بكتابيين موازيين، أحدهما يدور على إنكلترا لما بعد عام ١٦٨٨ والذي سنقرؤه، والآخر على فرنسا لما قبل عام ١٧٨٩، والذي سوف يُنشَر قريباً.

كانت فكرةُ المؤلَّفات الثّلاثة السّابقة المشتركة هي الأنانكية (القدر)، والفكرة التي سوف تستخلص من هذه الكتب الجديدة الثلاثة ستكون:

الرّجـــاء

الحـــرّية

التقـــدّم

*　　*　　*

هناك نوعان من الدّراما: الدّراما التي يمكن تمثيلُها، والدراما التي لا يمكن تمثيلُها. وهذه الأخيرة هي من نوعُ الملحمة؛ فهي تمزجُ بالشخصيات البشرية، شأن الطبيّعة نفسها، شخصياتٍ أخرى. والقوى، والعناصر، واللانهاية، والمجهول.

إن ذلك الذي يكتبُ هذه السّطور قد ألّف في هذين النّوعين من الدّراما. ودرامات النوع الأول لديه هي: هيرناني وروي بلا. والبورغراف (حماة القلاع)، إلخ. ودرامات النوع الثاني لديه هي: اليوم الأخير لمحكوم بالإعدام، وكلودغو، ون - د. ب (نوترتردام باريس)، والبؤساء، وعمال البحر، وهذا الكتاب، الرّجل الضاحك. وقد منعوا المسرح عن الأول منها، ولا يمكنُهم أن يمنعوه عن الأخرى.

أما هذه الدّراما، فلا يُقفل المسرح دونها، وهي تُفلت من ضروبِ الرّقابة ودوائر الشرطة.

وبما أنها أرفعُ، فهي أكثرُ حريّة.

ويمكنها أن تؤكد الرّوح البشريّةَ بشكلٍ أكثر اقتداراً من الدّراما المحصورة في صراعِ الناس القصير الأمد. إنها تضيفُ إلى صراع الناس صراعَ الأشياء.

إن هدفَ الفنّ هو تأكيدُ الرّوح البشريّة.

يمكن للعالم أن يكون ماديّاً، فهذا شأنه، أما الفنُّ فلن يكون ذلك قطّ.

لكل منهما دائرته، فالمادّةُ للعلم، والجوهر للفنّ.

Esse[*]. كل الرّوح موجودة فيه.

الرّوح موجودة، فالباقي يكون موجوداً.

إن الله والرّوح حقيقة متطابقة، ويمكن حتى أن نقول متراكزة (متحدة في المركز). إن المبضعَ ينقب على طريقته، والشعاعَ ينقبُ على طريقته؛ فلا تطلبوا منهما أن يعثرا على الشيء ذاته. إن الشّعاع يعثرُ على الرّوح: Lux[**] Vocat lucem وإنه لأمرٌ يبدو متناقضاً وهو جلّي؛ فكلاهما على حقّ. والماديّ لا يقول إنه ليس هناك إلاّ المادّة، والرّوحاني لا يقول إنّه ليس هناك إلاّ الفكر.

كلٌّ منهما يؤكّدُ ما يراه. فما الذي يعرفانه عن الأمر؟

في العهود الارتيابيّة، إن، الرّوحَ هو إثباتُ الضميّر، والإرادة، والحريّة، الضميّر الذي هو حدقةُ عيوننا، والإرادة التي هي ذراعنا، والحريّة التي هي جناحنا.

* * *

٢٢ أيّار ١٨٦٨

إذا ما سئلَ مؤلّفُ هذا الكتاب لماذا كَتَب 'الرّجل الضّاحك'، فلسوف يجيبُ بأنه أراد، كفيسلوف، أن يثبتَ الرّوحَ والضمير، وكمؤرّخٍ، أراد أن

(*) Esse: هي الوجود والماهية (باللاتينية، م: ز.ع).

(**) (باللاتينية في النص: م: ز.ع).

يكشفَ حقائق ملكيّة قلمّا هي معروفة، وأن يزودّ الديمقراطية بالمعلومات، وأنه، كشاعر أراد أن يصنع دراما.

* * *

إن هذا الكتاب دراما، كما قصد المؤلِّف. إنه دراما الرّوح؛ فمن جهةٍ هناك تلك المسخ الذي هو المادّة، والجسد، والوحل، والزّبد، والإملاق، والجوع، والعطش، والثراء، والاقتدار، والقوّة، والعجز، والتشويه، والعبوديّة، والعار، والقيد، والتنكيل، والعذاب، والمتعة، والثقالة، والجاذبيّة، والتّطور الاجتماعي والبشري، ومن الجهة الأخرى، الرّوح.

وهذا الكتابُ تاريخٌ أيضاً؛ فالشّاعرُ الدّرامي، من دون المؤرّخ ومن دون الفيلسوف غير موجود.

إن هذا الكتاب، إذا ما نُظر إليه من وجهةِ نظرٍ معيّنة أكثر ضيقاً بكثير في حقيقة الأمر من الكتاب الأوّل المذكور أعلاه، يمكن أن يكون عنوانُه: إنكلترا بعد ثورتها وقبل ثورتنا.

* * *

لا يمكن أن يقولَ التّاريخُ كلَّ شيء. وإذْ يعييه الازدحام، يتوجّبُ عليه أن يختار. وتقوم الرّوايةُ بما لا يقومُ به التّاريخ؛ فالرّوايةُ دراما من جهة، وتاريخٌ من الجهة الأخرى. إنها تكملُ القصّة بالتّصوير والحكاية بالحياة. أما نحن، فيبدو لنا من المفيد، بالدرجة نفسها على الأقل، أن نروي العادات مثلما نقصّ الحوادث.

* * *

هـ. هـ ٣١ أيار ١٨٦٨

ما من قارئ سوى القارئ المتفكّر.

ولسوف يفهم ذلك القارئ لماذا اعتقد مؤلِّف الرّجل الضّاحك أنه من المفيد نشر هذا الكتاب الذي يجري فيه تصويرٌ إنكلترا القديمة قبل الكتاب

الذي ستصوّر فيه فرنسا القديمة، والذي ستكون خاتمته هي الثورة وسيحمل عنوان: عام ٩٣.

إنكلترا بعد عام ١٦٨٨ وفرنسا قبل عام ١٧٨٩، ها هما قطبا الحدث الأوروبيّ الهائل الذي أنتج الثورة، التي لا تزال اليوم فرنسيّة، قبل أن تصبح عالميةً بعد قليل.

* * *

إن المسخ الذي شكلّته نزوةٌ ملكية ويدٌ بشريّةٌ، هو واقعةٌ تُعدُّ الأكثر إثارة للرعب ربّما من كلّ الوقائع التي تسمُ العالمَ القديم. ويمسُّها التاريخ مسّاً ولا يكادُ يدّل عليها. وقد بدا لنا من المفيد أن نلقي ضوءاً كاملاً على هذا الجانب من الماضي، قبل أن نقدم إلى الجمهور الكتاب الذي سيلي هذا وهو: عام ٩٣.

إن الحكمَ الملكيّ المفرطَ قد أنتج الثورة.

تجري المرافعةُ في قضيةٍ كبرى هي: قضيةُ المستقبل ضدُّ الماضي. والحاضرُ فيها مقرّرٌ، والإنسانيّةُ شاهد.

إن التاريخَ يجمع بتؤدةٍ ملفَّ كلّ تلك الجريمة التي تُدعى بالحكم الملكي. وقد كانت الأرستقراطيّةُ تارة قاضياً لها، وشريكاً تارة. فإذا كانت شريكاً، فينبغي أن تُدانَ، وإن كانت قاضياً فينبغي أن تقدَّر.

إنه تصريحٌ بالحبّ لإنكلترا.

غير أن الحقيقةَ يجب أن تقال.

إن حادثةً رهيبة من حوادث المشيئة الملكية قد تُركت في الظلّ زمناً طويلاً. إنها حادثةُ تشويهٍ تبدأ من عند البابا ولا تنتهي عند السّلطان. وقد ألقى الكاتبُ الضّوء على هذه الحادثة. من الضروري أن كلّ ما أدى، سواء في فرنسا، أو في إنكلترا، إلى عام ٩٣، أن يجري تعميقُه.

وهذا الواجبُ، قد أراد المؤلفُ أن ينهض به.

* * *

إن الثورةَ الفرنسيّةَ هي الثورةُ الإنكليزية، من وجوه عديدة. وقد فعلت ثورةُ ١٧٨٩ فعلها في إنكلترا بقدر ما فعلت فعلها في فرنسا تقريباً.

* * *

من المجتمعات الشائخة تنتجُ دولةٌ مشوّهةٌ معينة. فكلُّ شيء ينتهي فيها ليكون مسخاً، الحكومةُ، والحضارةُ، والثروةُ، والبؤس، والقانون. فالملك حالةٌ مسخيّة، والسّيدُ الإقطاعي زائدةٌ فطرية. إن الكاهنَ طفيليّ، وكل العقائد الجامدة، الملكية، والتشريع، والتوراة تتقشّر إلى أوهام. إن أهواء القدرة الكليّة يصل بها الأمر إلى خلقِ مسوخٍ ماديّة هي ضحايا المسوخ الأخلاقية. وتأخذ الأجناس الرذائل بعضها من البعض الآخر. إن الرّجل يتأنث، والمرأة تترجّل. فأحدُهما يفقد الخجل، والأخرى الاحتشام. إن الأخلاقَ العميقةَ تعكسُ كلَّ ذلك، والتي هي بمحاذاتهم. إن الملذّات تزدهر أكثر فأكثر، وتتعمّقُ العذابات، وتصيرُ ضروبُ عدم الاكتراث شرسةً. ويتكاره الناس. وكلٌّ واحد يهيّئ عاصفته. إن المادّةَ تضطهد، وتتخبّط الرّوح، ومن هنا يأتي الشّواش.

وعلى الشّواش تحومُ الرّوح.

إن هذه الدّولة العديمة الشكل والمشوّهة والتي يختصرها المسخُ، تقدّمها كلُّ الشعوب في لحظةٍ معينة. وهي متميزةٌ خصوصاً عند شعبين، في إنكلترا. لما بعد ١٦٨٨، التي هي الثّورة الخاطئة، وفي فرنسا لما قبل ١٧٨٩، والتي هي الثّورة الصّحيحة، ويختمها عهدُ عام ٩٣.

* * *

هل تتضمن حضارتُنا، تلك التي نُعدُّ نحن على الأقلّ نتاجاً لها مباشراً، تحت أشكالٍ أخرى، الخطوطَ الكبرى المشؤومةَ والإجراميّةَ للعهد الهوميريّ والدّوارتّي؟ هل يمكن أن يكون لها، هي أيضاً، أمثال إيكسيون

وسيزيف[*] دواليبُها التي تدور باستمرار، وصخورُها التي تسقط مجدّداً دون توقّف؟

هل لدينا في عصورنا الحديثة، بوجهةِ نظر التاريخ والفنّ المزدوجة، معادلٌ للقديم المصعوق؟ هل يمكن أن نضيف تسجيل بؤسٍ كبيرٍ إضافيٍّ إلى ملفّ الماضي الكئيب ذاك، والذي تثيرُ الديمقراطية اليوم قضيته بشكلٍ مفيدٍ جداً.

فمثلاً، من الحقّ القديم "الحقّ الملكيّ في التشويه". من تلك الجريمة، الأكثر شناعةً من كلّ الجرائم التي ارتكبتها الملكية ضدّ الإنسان، والتي نُفّذت في كلّ مكانٍ في أوروبا، وعلى نطاقٍ واسعٍ جدًّا، قبل الثورة الفرنسيّة، تارةً بصورةٍ علنيّة، بواسطة الأحكامَ الانتقاميّة الشرعية والجزائيّة، وتارةً بصورةٍ غير معترف بها وخفيّة، من أجل احتياجات السّياسة، وإرضاء السّادة، من ذلك الاعتداء الذي يوصف بأنه حقّ، هل خرج شيءٌ من مثل بروميثيوس أو أيّوب، والذي ينتصبُ في لحظةٍ معيّنة، ويلقي ليس في وجه الإله، بل في وجه الملك احتجاجَه المأسويّ؟ لقد فكرّ الكاتب بذلك. ومن هنا هذا الكتاب، الذي هو شأن كلّ رواياته الأخرى، محاولةٌ دراميّة تخرج عن المقاييس المعتادة.

إن هذا الكتاب، كما سيقرّ المرءُ وهو يقرؤه، ليس، بأيّة صورةٍ من الصوّر، موجّهاً ضدّ النّبالة الإنكليزية. فالخدماتُ الكبيرة جداً التي أدّاها اللوردات لإنكلترا قد أُحصيت على الخصوص وتمّ تبيُّنها، إلخ.

إن هذا الكتاب غيرُ منحازٍ قبل كلّ شيء.

إن الأرستقراطية في إسبارطة، والأرستقراطية في البندقية، والأرستقراطيّة في إنكلترا غالباً ما اشتهرت بالدّيمقراطيّة والتقدّم. غير أن الأرستقراطية كظاهرة تتطلّب أن تُدرس، وبما أن إنكلترا هي مركزها الرئيسي، فقد تعينّ على المؤلّف أن يركّز نظره على إنكلترا.

(*) إيكسيون هو ملك اللابيّثيين الذي ألجأه زوس إلى الأولمب،وقد عوقب بأن يُربط إلى دولابٍ ملتهب يدورُ باستمرار لأنه لم يحترم هيرا، وسيزيف هو الذي عاقبته الآلهة بعد موته بدفع صخرةٍ على جبل منحدر، فتسقط من جديد كلما رفعها إلى الأعلى، وذلك بسبب أعماله اللصوصية في حياته، في الأساطير الإغريقية. (م: ز.ع).

جوّن بورتلاند

إن جوّن بورتلاند لافتٌ للنظر بجدارهِ ذي الصخّور المشرّمة بتناسق. إن الزّوايا المنفرجة والزّوايا البارزة فيه ذات نتوءات حادّة؛ ولا يكاد الموج يثلمها فتحافظ على:

- صحتها الهندسيّة.

- مظهرها المتعدّد السّطوح برغم البحر. إن إنكلترا - ألبيون - قطعة من الحوّار. وهذا الحوّارُ لا يُرى في أيٍّ مكانٍ آخر أكثر مما هو في جون بورتلاند، إن السّاحل كلّه، باتجاه الرأس حيث تقعُ المنارة، عبارةٌ عن تصدُّعٍ طويلٍ أبيض في قمتّه بعضُ التجّويفات الخضراء التي هي تعفّنات، أي عشب أخضر. وما من شيءٍ أكثر بشاشةً منه في الصيّف، وأكثر منه تجهماً في الشّتاء. إن البحر يُخصبُ دوماً باتجاه الفصل، ففي الصيف يمتلئُ بالفجر، وبالأشعة والنجوم، ويعرض مرآة، وفي الشتاء، يضيفُ العاصفة. في حزيران، تزخرُ أعشابُ الشواطئ الصخريّة في بورتلاند بالزهور. وفي كانون الأوّل، يمدُّ ذلك الشاطئ الذي يشرّحه المدُّ والجزرُ، والذي يُستشف بشكلٍ مبهمٍ تحت البخار البحريّ، يمدّ في الزّبد فقراته الدّاكنة التي يسقط عليها كفنٌ مطريّ.

في فصل الضباب، وحين تستولي الضّبابةُ على خليج بورتلاند، يكون ذلك موضعاً حقيقياً للمكتئبين. ويكون الحزنُ فيه حسب المراد. إن الرّطوبة الباردة تبقى هناك لزمنٍ طويل. أما الضّبابة، التي هي نتحُ الشتاء، فهي عنيدةٌ في تلك الجون، ويبدو أنه يروق لها: فهي تلتصق بالشواطئ الصخرية التي تواصلُ كمدتها الرّخوة. إنها سأمٌ ذائب يطفو. إن المشهدَ كلّه بكّاء. ويؤثرُ

المرءُ الإعصارَ عليه. فالعاصفةُ غضبٌ. أما الضّبابةُ فحَرَد. إن المتجهّمَ أكثر حزناً من الكئيب.

لقد حافظ جنوبُ إنكلترا البحريّ لزمنٍ طويل، وحتى في أوجِ الحضارة، على السّمة الشّكسة والمنفّرة للأزمنة البروتانيّة القديمة. لقد ظلّت بورتلاندِ مكاناً معتماً، ومكاناً مجهولاً تقريباً، حتى ذلك اليوم الذي أعطت فيه تسميةَ كونت لوليام بينتينيك، النّبيلِ الأوّل لمجلس الملك غليوم الثالث، والسّفيرَ فوق العادة بعد صلح ريسفِّيك. غير أن بورتلاند قد ظلّت منطقةً منعزلةً، مع أنها قد أصبحت إقطاعةً نبيلة. وقد كانت تلك العزلةُ شيئاً مخيفاً في القرن السّابع عشر. وفي ضيعِ السّاحل الصغيرة النادرة، في بيرت بورت مثلاً، وهي قريةُ غزّالي قنّب، وصانعي حبال، كان لا يزال يجري الكلامُ على تلك اللّغةِ الضائعةِ التي تنتمي إليها هاتان الكلمتان اللّتان تعنيان سكان ديكو، واللّتان صنعتا منهما، من خلال لغةِ قيصر اللاّتينية "التّيروتريج". وفي الجوار، وإذْ ينسحبُ المحيطُ شيئاً فشيئاً، هنا، وهناك، من بعض نقاط السّاحل، كانت هناك مرافئ قديمةٌ تموت بسبب ذلك الانسحاب للبحر، ومن بين مرافئ أخرى، فارشام. المدينة التي صكّت النقود في عهدِ غليوم القاهر، والتي تحتضرُ اليوم، مع أنها مغمورةٌ بنهرين، نهر الفروم في الجنوب، والبيدل في الشمال. كانت دور شيستر مدمرّة، وكان يظن أن ميدن – كاستل (قلعتها) كانت تتردّدُ عليها الجنيّات والسّيدّاتُ البيضاوات، أما عن طريقها الرّومانية، فلم يكن قصر لولوورث موجوداً. ولا مروجها الخضر التي تعدو فيها الأيائلُ والضّباءُ، ولا بستانها المليء بالطرّائد. كان المرءُ يصادفُ أحياناً مخلّفاتٍ من العصور القديمة تعودُ إلى السّكسونيّين الذين كانوا متوحشيّن، وإلى الدانمركيين الذين كانوا همجيين.

في داخل الأراضي، كانت تنتصبُ، بين أشواك الغابات، وكأنّها بروزاتٌ صخريّة، مهدّمات الكائير – تلك المدن الغامضة البدائية، وهي كتلٌ غير عائيّة أحياناً، شأن مدن سيلسستر، والتّرس الجذعيّ البروتانيّ الذي كان محيطُه فرسخاً. وكانت التقاليدُ متوفّرةً بكثرة، فلكلّ تقوّسٍ حرشفةٍ أو قشرةٍ أو

حكٌّ صخريٌ تاريخُه. وكانت طاولةُ أرثر موجودةً في وينشستر، والتي هي ويلز القديمة.

بجوار باكووتر، كان يعيقُ نموُّ القمح مربّعاتٌ عريضةٌ من الصّوان والتي كانت هي الشّوارعُ القديمة المبلّطة، شوارع الملك كينلويلش؛ وكان يجري العثورُ على تفرّعاتها. وكان يمكن للمرء أن يرى في حقلٍ شقّةً مبنىً قد تشوّه شكلهُ وهو الذي كان لامونّيه (مصرفاً) ذا ست دكاكين لملوك فيست - سيكس، وكان هناك أثرٌ للطريق الضيّقة التي كان قد عبر منها التابوت الزائف، تابوت الإمبراطورة ماهود التي شنّت الحرب على الملك إيتيين، وكما هي الحال اليوم في أمريكا الشمالية المستصلحة، فإن ريفاً أجرد كان يحمل تسمية غابةٍ، كما كانت تُسمّى أشجارُ مُرّان 'بوكنِ: Bucken'، سهلاً، وهي كلمةٌ سكسونيّة خشنة ومتميّزة أيضاً في بوكولت. وكانت جذور أشجار سنديان فاندوغلادنا الضخمة موجودةً في ردمٍ لكتلٍ منحوتةٍ. كانت الملكة كونتبارغ راجعةً وهي محجبةً إلى دير فينبوينمنستر الذي لا قبه له.

بالأساطير السّحيقة في قدمها كانت تقترنُ الأساطيرُ الحديثةُ العهد. ففي حزيران من العام ١٦٥٣، في بول، وهي ضيعةٌ صغيرة لصيادي أسماك، ويحدثُ في مينائها المدُّ والجزرُ أربع مرّات في اليوم، كان قد هطل مطرٌ من دم، وكان ذلك الدّمُ ساخناً، ويتصاعدُ منه الدخان. ومن ذلك أتت تطيرُاتٌ، وجملةٌ من ضروبِ الرّعب الصغيرة المحلية؛ فهنا الخوفُ من حجرٍ منتصبٍ في سياج بائس؛ وهناك الذّعرُ من جرسٍ لا تُرى منه إلاّ قبّة الجرس. وكانت تلك المخاوفُ تصنع العزلة.

كانت بوربيك، شبهُ الجزيرة الرّخامية غيرَ مأهولة. ومن بوربيك إلى بورتلاند، كانت كلُّ المنطقة التي تكسحُها، ويمكن أن نقول تكشطُها ريحُ البحر، كانت براحاً مقفراً. وكانت تلك المنطقةُ الوحشية رائعة.

كان للتكوين الجيولوجي لبورتلاند، التي هي طميٌ واسعٌ خلّف فيه الطّوفانُ أبراجاً وحصوناً بارزة تماماً، كان له في عددٍ من المواضع مظهرٌ

قلعةٍ ومعقلٌ أضاف جنودُ اليوم الذي يقيمون حراسة في تلك الذّرى، أضافوا إليه فتحاتِ رمايةٍ، لكي يكملوا الخداعَ البصريّ.

إن العمارةَ الكبيرةَ الطبيعيّة والتي نسميّها جبلاً في السّهل، ومرتفعاً ساحليّاً في البحر خارقةٌ للعادة في إنكلترا. فالمرتفعُ السّاحلي هو سورٌ من الأرض بناه المحيط من الصّوان كمادّةٍ أوليّة ومن الماء كأداة بناء. فإنكلترا تبدو مقصودةً من الأزل لفرطِ ما هي مبنيةٌ جيّداً في البحر، وعلى يد البحر.

تتنوّعُ هذه العمارةُ، حسب الصّخر. إن إحدى عيّنات البناء المحيطيّ الأكثر إثارةً للفضول هي ذلك الجون، جون بورتلاند. إن الحجرَ الذي صُنِع منه هذا الخليجُ العميق ليس بالنسبة للبحر حجراً يسهل تدبُّر أمره. إن الأمواجَ تفعلُ فعلها فيه بلا توقّف، غير أن هذا الحجر يقاومُها ولا يستسلمُ للتكوين. وما من شيءٍ مثابرٍ كالموجِ الصّاخب، وما شيءٍ ثابتٍ كالصخر. ومن هنا تتولدُ هذه الرّوائعُ المفعمةُ باللانهاية، حيث ينفقُ المحيط أمواجه والأبديةُ قرونها.

غالباً ما يكون الصّوان غير قابل للنقصان، ولا ينبغي الاعتقادُ بأن المحيط يتغلّب عليه دوماً ؛ إن صخراً كهذا، مغموراً في عرض البحر وتحت الزبد منذ ملايين السنيّن لازال يحتفظ في هذه السّاعة بشكله الأولي، وهو يحافظ عليه، أيّاً كان اقتدارُ قطرة الماء.

إن الزّاوية القائمة مسيطرةٌ في جون بورتلاند. وشاطئ بورتلاند الصّخري عجيبٌ، لفرط ما هو مضبوط. ففي المحيط، يكون المنتظمُ فريداً. إن هذا الشاطئ الصّخريّ لا يدعُ أيَّ موجٍ يفرضُ عليه شكلاً متقلّباً. إن له في ذاته هندسةً يُبرزها البحر، ولكنه لا يُعدّ لها. إن ضرباتِ الاعتداءات الفصليّة، والأمواجَ البحريّة الضخمة يمكنها أن تتآكل هذه الصخور، وليس أن تنحتها. إن الأمواج تأتي مع منشارها، والموج يأتي مع مطرقته؛ إنه عملٌ بلا طائل. إن حجارة بورتلاند تُسلِمُ كتلها وتحتفظ بمنحنياتها. أما الموجُ، فبتفتيته لما هو هشٌ في الحجارة، لا يعدو أن يكون قد أبرز ما فيها من سرمديّ. إنه يخلص تلك المستطيلات المستترة وتلك التوازيّات الخفيّة من غلافها. إنه يجوّف

المباني المسبقة التصميم والمجهولة، والمحتواة في تلك الكتلة. فما هو عجينةٌ يذوبُ، وما هو هيكلٌ يبقى على حاله.

وبفضلِ قطرة الماء التي تعود إلى الإمساك بحبّة الرّمل، وبفضل ماء الموج الذي يمنع التحجّر، فإن تلك المصافي الثابتة والمدفونة تخرج من إناء الطّوفان المتصلب، فتغدو من جديد طيناً في المحيط. إنها سليمةٌ وعذراء، ولها جديدُ الأبدية. وهذه المباني كلُّها من النوع نفسه؛ وحسابُها رصين، ويحسُّ المرء فيها بمثلث غير معروف؛ فهناك يُلاحظ تقريباً ميزانُ البناء الذي تمسكُ به اليدُ الخفيّة. أمّا الالتواءات، وثمة عددٌ منها، فتكشفُ عن الكوارث؛ فكان لا بدّ من هزة أرضيةٍ لتُحدث أصغر انحناء. وفي كلّ البحار، وعلى كلّ نقاط الطّواف البحريّ، يجدُ المرءُ عدداً من تلك العمارات الدّقيقة، والتي هي عملٌ كبيرٌ قام به الموجُ؛ فإذا كان ثمّة بيرونيز في المحيط، فهناك أيضاً فينيول[*]. إلاّ أنه فينيول هائل، إتروري أكثر مما هو إيطاليّ، وبيلاجيّ أكثر مما هو إتروريّ، ومصريّ أكثر منه بيلاجيّ. إن تلك الصّفوف من الأعمدة، وتلك الجبهيّات، وتلك السّطوح المعمّدة التي يشكّلها الزّبد، تُثير الدهشة. إن كاتدرائيةً قوطيّةً خارجةً من البحر تفاجئ المرءَ أكثر ممّا يفاجئه معبدٌ إغريقيّ. إن جوّن دوارنونيز، بجبهاتِ جملونه، وقمم قبابه، وأقواسه القوطيّة، أقلّ غرابة من جون بورتلاند، بصدورِ سفنه، وسنادات مراكبه.

لقد زال العديدُ من الرّوائع الكلسيّة في بورتلاند، ما إن استُثمر الجونُ باستخدام الملاط المسمّى بالرّوماني، ولكن كلّما يجري هدمُ هذه الرّوائع، فإن البحر يُعيدُ بناءها.

إن ميزة المحيط هي أنه لا يقطع عمله. إن الموج يكرّر في كلّ مكان على السّاحل الحتّ نفسه والبناء نفسه. إن إعادة العمل سهلةٌ عليه، غير أن

(*) بيرونيز معمار ونقّاش إيطالي في القرن الثامن عشر، وقد صنع أكثر من ألفي رسم بماء الفضة، وفينيول معمارٌ إيطالي من القرن السادس عشر وقد نشر دراسة في أنماط العمارة الخمسة. (م: ز.ع).

تنويعها متعذّر. إن ذلك الصّخر متمرّدٌ، وقد قلنا ذلك منذ قليل حتى ليظنّ المرء أنه يمتلك إرادته.

ومهما يبذل المدُّ والجزرُ جهده، ومهما يكن الموجُ متنوّعاً، ومهما يشأ ماءُ البحر، معمارُ المتاهةِ هذا، أن يحفر، في أسفل جدار الخليج، فجواتٍ مفيدةً للحيوانات، وملاجئَ معدّة لوقت الحاجة لكلاب البحر القطبية المسكينة التي تتيهُ أحياناً باتجاه الجنوب أكثر مما ينبغي، مهما يفعل المحيطُ، فلن ينجح في أن يحفر في قاعدة الشواطئ الصخرية ضروباً من الحجراتِ المستقيمة الزّوايا، والسّقوف التي لا عيب فيها، والدّعائم المربّعة أو المستديرة، والتي هي أقبيةٌ موتى طبيبيّة أكثر مما هي كهوف بحريّة، والتي هي مغائر أقلّ مما هي قصور، والتي تشبه مقابرَ الملوك أكثر مما تشبه أوجرةَ الوحوش.

فضلاً عن هذا، فأياً كان أسلوبُ عمارةِ المحيط، وسواء كانت هذه العمارةُ منتظمةً أم غريبةً، وسواء بدا أن لها قانوناً، أو بدا أنها تخرقُها جميعاً، فهي تخيفُ في الوقت نفسه الذي تبعثُ فيه على الدهشة؛ وهي تحيّر المرءَ خصوصاً. ولسوف يخطئُ المرءُ إذا ما انتظر من تردّده على البحر شيئاً آخر سوى نوعٍ من لذّةٍ مخيفة. إن غير المنتظر في الشيء المكتمل يصدم؛ فها هنا البحر كلّه.

ما من اكتفاءٍ وما من اعتدال. فأيّ شخصٍ لا يحبُ المبالغةَ يجب أن يتحاشى المحيط، والمخيّلات المتوسطّة ترهقُها هذه اللّجة. فالمحيط يفتقر تماماً إلى المعيار، وإلى ما نسميّه بالذوق. إن جنوناً معيناً يختلطُ بمشاهد البحر العظيمة. فهذا هو الوعرُ ضمن المتقلّب. وربما تكون هذه المشاهد رائعةً، غير أنها ليست متعقّلة. إن المحيطَ يلمسُ أرخبيلاً أو رعناً(*) كما يلمس ميكيل أنجلو تمثالاً. فهذا اللمسُ هزةٌ أكثر مما هو تماسٌ. إن قبلته تعضُّ عضاً. ففي كلّ مكان هو ضربةٌ من مخلب الأسد، وفي كلّ مكان، هو دفعةٌ من إبهام عملاق. ولا يدري المرء أيّ شيء مرير متناثر. إنها أشياء جميلة تسبّب التقيؤ. فالمحيطُ يعكرّ كلّ الخطوط، ويفكك كلّ التناظرات، ويعقّد كلّ مستويات

(*) الأرخبيل مجموعةُ جزر، والرّعن جبلٌ داخل في البحر. (م: ز.ع).

التمرّد والتفكيك، ويستبدلُ بالفروق اللونية، والإيقاعات وبسلالم الأنغام الوادعة، وألوان الموسيقا الخفيّة، تناغماً خاصاً به يتألف من الشّواش. إن ترتيله الكنسيّ المخيف يمحو ويُغرق كلّ ضجّة أخرى. إنه دفقٌ سامٍ ومخيف، وكثرةٌ مفرطةٌ في الغيوم وفي هبوب الرّياح، وفي الزّبد، وفي النزوة، وفي الحرّيّة؛ وعدم احترامٍ مستمرٌ للنظام. إن البحرَ يحطّم تناسبَ كلّ شيء؛ فلو كان ممكناً أن يبلغ التهوّر بتيرامين أن يعهد إليه بمسخه لصنع المحيطُ شيئاً غير مستحبٍ إلى حدٍّ كبير. إن سهلاً يستولى عليه المحيطُ ينبغي أن يتخلى عن كونه مستوياً، إنه يصبح الزويدرزيه(*) إن تموّر العاصفة يهيّجه باستمرار. والبحرُ يتصرّفُ بلا تعقل. ومن هذه الفظاظة يخرج ما يسميه البعض بالسّامي، وما يسميه البعضُ الآخر بالشّطط.

في شاطئ بورتلاند الصخّريِ هذا، والذي تفعل فعلها فيه بلا توقف حركاتُ المدّ والجزر، والعواصف، تقطع ألفُ ثلمةٍ المراسي التي هي تصغيراتٌ ضيّقة للخليج، وهذه المراسي، التي هي مناطقُ مسورة بالإنحدارات الوعرة، مغويةٌ وغادرة. إن لها شكلاً نخروبيّاً، ويبدو السّاحلُ الكلسيّ أنه قد تعرض لقرض فكِ عملاقٍ ذي أسنان مربّعة في هذا المكان أو ذاك، وقد خلفت تلك الأسنان فرضتها؛ فكلُّ فرضةٍ خليجٌ صغير.

إنها خلجانٌ صغيرة للجوء الأسماك أكثر مما هي من أجل القوارب. كما أن الأسماكَ تكون فيها غيرَ مرتاحة بدرجةٍ كبيرة حين تأتي الرّيح لتضع فمها في المضيق، وتهبّ. وحين يندفعُ الموجُ الصّاخب إلى الصدّع الضيّق، فإن الزوبعة تهبّ بمثابرة، ويتسارعُ انتفاخُ الموج، وينقضّ الماءُ على الصّخر، ولا يعودُ الخليجُ الصغير أكثر من سطلٍ من اللّعاب؛ فالويلُ لمن يتسكّعُ هناك! أما عند الهدوء، فتكون تلك المراسي ساحرة.

ولا يؤتى إليها من الأرض؛ فالشّعاب غير موجوده، ومع ذلك، فإن الباحثين عن البيض، والمعّازين، وعابري السّبيل المغامرين، ينتهي بهم الأمر دائماً إلى أن يجدوا في الصخر معثراً متعرجاً يقودهم إلى تلك الزوايا المخبأة.

(*) بحيرة في هولندا اتصلت بالبحر. (م: ز.ع).

إن من يأتيها من البحر يظن أنه داخل إلى شارع، ويلقى نفسه في ردب. إن الصّخر عموديٌ من الجانبين، وفي الأسفل. إنّ بعضاً من هذه الأجوان ليس لها شاطئ. أما الصّخر، العموديّ من كلّ الجهات، والمغطى بالفوقس على ارتفاع المدّ، فيغطسُ فوراً في الماء، من غير فترة انتقالية، ومن دون مراعاة. فلتكنْ طيراً أو سمكة. إن هذه الصخرة، العموديّة تماماً، والمنتصبة، والبيضاء، والملساء، مثقوبةٌ بثقوبٍ تشبه الكوى التي تعشّشُ فيها طيورُ زمّج الماء، وهي مخططةٌ بحزوزٍ أفقيةٍ يبدو وكأنها تعيّنُ الطّوابق. فما من مكانٍ قفرٍ أكثر. ويظنّ المرءُ أنها منازل. تلك هي الطرّقُ المسدودة الغريبة، طرق البحر.

ما إن يحلُّ أيار، وما إن يبدأ بالبزوغ الرّبيعُ الانكليزيُّ المتأخّر، حتى يمتلئَ جونُ بورتلاند ذاك، والمفتوحُ على هبوب رياح الجنوب، حتى يمتلئ بالسّنونو، وطيور الخُطّف، والمدوّق. وفي الوقت نفسه، في الجوينات المنعزلة للخليج، تنتصبُ بين شقّوقِ الصّخورِ العاليةُ، والمناضدِ الكلسيّة العريضة والمنحنيةُ والمصدّعة، تنتصبُ بينها برشاقة كلُّ ألوانِ العليّق المجنونة، ناثرةً عطورها على البحر عند كلّ اهتزازٍ للرّيح، ليست أكثر من أشواك، ولكن ما هو أجمل من شوكة في الرّبيع! إن الشوكة، كالفتاة، تحظى بجمال الشيطان. الصّبا، كلّ شيء في هذه الكلمة، والفجر، كلّ شيء في هذا الشّعاع. في وسط هذه التهدّمات وهذه الكتل، ينفجرُ فجورُ الإنباتِ المرح بصورةٍ وحشية. باقاتٌ في كل مكان. إن كلُّ واجهاتِ مكاسر الموج تُظهرُ فرحاً كبيراً. وتتبدىّ براعمُ الشجيرات، وأوراقُ السّرخس، واستداراتُ الطّحالب المخملية، وأوراقُ البوصير الجوخيّة، والملعقيات، والقمعيّات، والزّعروريات، والمدقّات، والبتلات، والأسدية، وتشابكات الأغصان، تتبدى بشكلٍ غامضٍ مختلطةً بالشّمس على شرفات الشوّاطئ الصخرية التي يتعذّر بلوغها. فما من تغضنٍ حجريٍ ليس له شجرتُه الصغيرة؛ وما من شقٍ في جدار ليس له باقته المتلبّدة، وكأن ذلك ضربٌ من غابةٍ قزمة.

من تجوف إلى آخر، يتدلّى فننٌ صغير، وتصعدُ أغصانُ شجرة، وتتعلّقُ ورقةٌ ملتفّة، وتبدأ عقدةٌ بالتشكّل، ويُعقد زواج، وتبحثُ البراعمُ الجديدة بعضها عن البعض الآخر، وتتعاضد المعترشات، وتداعبُ تفتحاتُ الزهور بعضها

بعضاً، وتتبادلُ الإزدهارات التهنئة، وتتآخى النباتات. إن كلَّ ارتعاش العالم الصغير هذا يتبادلُ التحيَّة في الرِّيح. والشقوق تغصنُّ بالخضرة، وتتشكلَّ كثافةٌ سعيدة؛ إن كلَّ أنواع التّشابك المرتعشة، تشابك التقشّرات، والتفرّعات، وأوراق الأشجار تحافظُ على نضارتها، وتحتفظ بالظلّ تحت شفافيات متراكبة. ما من تسلقٍ يخشى منه؛ وما من معكرِ صفاءٍ محتمل. إن التعرُّجَ ينقذ الحديقة، والهوة تدافع عن الواحة؛ وتضعُ الصخّورُ العديمةُ التناسق، والأشناخ العالية، والمكاسرُ الصخّرية الواسعة، وكلُّ أشياء البحر المفرطة الحجم، تضع ضخامتها في خدمة تلك اللّطافة؛ فالرّبيعُ المُطمأنُ يتفتّح في هوتّها، وتتوُّعٌ من النباتات والأعشاب تصلحُ لملءِ معجمٍ في علم النبات، ينبتُ بلا نظامٍ في الصخّور المسخيّة، وينمو، ويخضوضرُ، ويتذهّبُ، ويتأرجنُ، ويضحكُ، ويعطر، ويصنعُ هذا، تحت حمايةِ هذه الجبابرة الجليلة، ملاجئ من الزّهر، وأماكن للحلم، وخلوات، ومخابئَ، ومساكنَ مستأمنةً ومرتجفة، ومغائرَ من الورد، وركامات ساحرةٌ صغيرة تصلحُ للسكن وحيث يبدو أنه لابدَّ للملائكة أن تأتي لتكمن فيها، حين تبيت الطّيورُ خارجها.

حتّى بداية هذا القرن، كان ثمة تعقدٌ يختلط بذلك المشهد؛ فقد رأى الإنسان من المناسب أن يزيد المشانق على هذه الطبيعة.

من مسافةٍ إلى مسافة أخرى، وعلى طول السّاحل، كانت تنتصبُ. سوداء في السماء، أعمدةٌ ارتفاعها أربعون قدماً، وفي قمتّها رافدةٌ مستعرضة تشبهُ ذراعاً ممدودة. وكانت تلك الذراعُ الممدودة تحمل سلسلة يتدلّىَ منها مهرّبٌ مغطى بالقار، في وسط تحويمٍ للغربان.

أي شيء أسهلُ من ذلك، فالتّاجرُ يريدُ أن يبيع، وهو يبيعُ خصوصاً لأن الشّاري مجبرٌ على الشراء، والشّاري مجبرٌ خصوصاً وأنه ليس لديه خيار؛ ولكي يُنتزع منه هذا الخيار، يُسدُّ العبورُ على بضائع الآخرين؛ وإذا ما مرّت خلسةً، سُميَّ ذلك تهريباً، فيتمُّ تحضيرُ أنشوطة، ومع ذلك، فإن الخلجانَ الكبيرةَ المقفرةَ تعرضُ للمغامرين الجائعين أحياناً، والذين يحتاجون هم أيضاً إلى إطعام نسائهم وأطفالهم، ثمة مراسٍ سرّية يمكن أن يجري المرءُ تنزيلَ طرودِ بضائع فيها من دون أن يُرى. إن تلك المناطق المنعزلة تحثُّ على

المخاطرة، ويفعلُ الإغراءُ فعلَه، ويخاطرُ المهرّبُ، والقانونُ يلتقفه. وهكذا فإن الخليقةَ الكبيرةَ الغامضة، والكثبانَ، وصخورَ الشاطئ، والرؤوسَ البحرية المغطاةَ بالسّحب الجشاء، والتتابعَ الدائم لسماطاتِ الزّبد على الشواطئ، وضروبَ صخبَ البحر الرائعة، وهواءَ البحر، والأمواجَ، والليالي الملأى بالنجوم، تفضي إلى مشنوقين.

إنها آليّةٌ ماهرة.

استخلاصُ المشنقة من كلّ شيء. في ذلك تكمنُ إحدى مواهبِ الإنسان الذي يعيش في مجتمع.

أما عن القطران الذي على الهيكل العظمي، فهو من باب الإنسانية، فالمشنوقُ يأتكلُ، فيجري دهنهُ لكي لا يتعيّن تبديلُه غالباً جداً.

فضلاً عن ذلك، فإن هذا المثال الذي تقدمّه إنكلترا قد أصبح يُحتذى، ففي أرخبيل المانش، كانت الجزرُ الصّغيرةُ تنسخُ (تقلّدُ) الجزيرةَ الكبيرة، فكان لغيرنيزيه صخرتُها المشنقية (Roque-patibulaire) ولجيرسيه جبل المشنوقين (Mont-aux -pendus)، فيريدُ كلُّ ماركيز أن تكون له صفحاتٌ ينسخها.

على الصفحة 799 (الأصل الفرنسي):

خريطة تُمثِّل:

الأوركة(*) في البحر

وفي أسفل الصفحة:

خط سير الأوركة (١، ٢)

على الصفحة: 800 (الأصل الفرنسي):

خريطة صغيرة تمثل:

تفاصيل الصخور الشاطئية (الأرصفة البحرية)

في أورينيي

(*)الأوركة: هي السفينة الهولندية القديمة التي انتقل فيها الكومبراتشيكوس (م: ز.ع)

توجّه مرجعيّ

المؤلّفات

المؤلّفات الكاملة، طبعة متسلسلة تاريخية نشرت تحت إدارة جان ماسان، في ١٨ مجلدًا. نادي الكتاب الفرنسيّ ١٩٦٧ - ١٩٧٠.

المؤلّفات الكاملة، الرّوايات، المجلّد الثّالث (الذي يحتوي الرّجل الضّاحك) الملخصّ والهوامش لبيرتران لويّو، روبير لافون. مجموعة بوكان، ١٩٨٥.

دراسات

ألبوي (بيير): الإبداع الميثولوجي عند فيكتور هيغو، جوزيه كورتي، ١٩٧٦.

ألبوي (بيير): ميثولوجيات، جوزية كورتي، ١٩٧٦.

بارير (جان - برتران): الخيال المبدع عند فيكتور هيغو، جوزيةّ كورتي ١٩٤٩، كلينكشيك: ١٩٧٢.

بارير (جان - برتران): هيغو، الإنسان والمؤلفات، بوافان، ١٩٥٢.

بودوان (شارل): تحليل فيكتور هيغو النفسي، طبعة مون - بلان، جينيف، ١٩٤٣، طبعة جديدة، أرمان كولان، ١٩٧٢.

بوتور (ميشيل): 'فيكتور هيغو روائياً' في ريبيرتوار (فهرس) II، طبعة مينوي ١٩٦٤.

سيلييه (ليون): استعراض إطلاعي، لابراكونيير، نوشاتيل والطبعات الجامعية في غرونويل، ١٩٧٧

سيلييه (ليون): 'العماء المهزوم'. فيكتور هيغو والرّواية المساريّة 'في' تحية إلى فيكتور هيغو. ستراسبور، ١٩٦٢.

إيغليدينغر (مارك) وشافر (جيرالد): 'الاستبصار قبل رامبو' في آرثر رامبو، ورسائل مستبصر. دروز، جينيف وميناز، باريس ١٩٧٥.

غيومان (هنري): 'هيغو والحلم'، ميركور دوفرانس، أيار ١٩٥١.

ميشونيك (هنري): كتابة هيغو، غاليمار، ١٩٧٧.

بيرومويه (جورج): فيكتور هيغو الروائي أو وجوه المجهول،

دونوويل، ١٩٦٤ (إعادة طباعة، ١٩٨٤).

فيلييه (شارل): عالم فيكتور هيغو الميتافيزيقي، فران، ١٩٧٠.

لارك، العدد ٥٧. 'فيكتور هيغو' إكس - أن - بروفانس، ١٩٦٤.

هوامش وإيضاحات

1 - أورسوس وأومو: كان الحيوان، في صياغة أولى يُدعى lupus (ذئب) بصورة أكثر ابتذالاً، غير أننا نعرف المثل اللاتيني السائر: Homo Homini lupus (الإنسان ذئبُ الإنسان) والذي يرجعُ مصدره إلى فكرةٍ، عند بلوت (أسيناريا ٤، ٢، ٨٨) قد علق عليها إيراسموس في أقواله المأثورة: ١، ١، ٧٠، ثم تناولها مجدّداً وتوسّع فيها بيكون وهوبز. ومن الجلّي أن فيكتور هيغو قد استوحى هنا خطاب بانورج المبغض للبشر (الكتاب الثالث، الفصل الثالث): "سيكون البشر ذئاباً للبشر، وغيلانَ ذئبيّة"، وعفاريت، كما كان ليكاون، وبيلروفون، ونبوخذنصّر؛ سيكونون قاطعي طرق، وقتلة ومسمّمين، ومؤذين، وسيئي التفكير، وعدوانيّين، وحاملين للحقد، كلّ واحد منهم ضدّ الجميع، والحقّ أنني أكرههم فعلاً " إن ذكريات قراءة رابليه حاضرةٌ في كلّ موضعٍ من مواضع "الرجل الضاحك".

2 - النساء الفاغرات: "فاغر هو الذي يفغر فمه، والذي ينظر بدهشة" (ليتريه).

3 - متكلّم من معدته: Engastrimythe هي مرادفٌ متحذلقٌ لـ مقماق ventriloque (متكلّم من بطنه) ونجد هنا أيضاً هذه المفردة عند رابليه، في عنوان الفصل ٥٨ من الكتاب الرابع: "كيف، في بلاط السّيد البارع، مقت بانتاغرويل المتكلمين من معدتهم، والمتكلمين من بطونهم" : Les ENGASTRIMYThES و Les GASTROLATRES

4 - المطريّة هي إناءٌ زجاجي يستخدم في العمليات الكيميائية والصيدلانية.

5 - بيدلام (تحريف لبيت لحم)، وهي ملجأ للمجانين بقرب لندن.

6 - الفيبوس هو كلامٌ مفعم بالادعاء مثل ذلك الذي كان يمكن أن يستعمله رينيه رابان (١٦٢١- ١٦٨٧) اللاهوتي والأديبُ الفرنسي، ومارك - جيروم فيدا (١٤٨٥- ١٥٦٦) المطران الإيطالي، والشّاعر اللاتيني.

7 - أمفيماكر. إن أورسوس 'كمتعالم' يستخدمُ مجازاتٍ غير معقولة ومستمدةً من علم العروض ليدلَّ على مجموعات أشخاص. فالداكّتيل Dactile تتألف من مقطع ٍطويل ومقطعين قصيرين، والأنابيست Anapeste يتضمن مقطعين قصيرين ومقطعاً طويلاً، والأمفيماكر Amphimacre تحتوي مقطعاً قصيراً بين مقطعين طويلين. فمقارنتهٌ إذن تتضمّن خلطاً في استخدام المصطلحين الأوّلين.

8 - هو نوعٌ من تعجبٍ صامتٍ تنتهي به قصة ما.

9 - في تعدادِ المصطلحات العلمية هذا (التي هي رابليزية بشكل نموذجيٍّ، هي أيضاً). يحمّل هيغو أورسوس مسؤوليةَ تأنيثِ كلمةَ Sepale (كأسيّة)، بصورةٍ متعسّفة.

10 - بيير دولانكر: باحث شهير في الإبليسيّات، ولد في بوردو (في تاريخ مجهول) ومات في باريس في عام ١٦٣٠. مستشار الملك في مجلس نواب المدينة. وكان عضواً في لجنةٍ مكلفةٍ بملاحقة جرائم السِّحر المزعومة. وقد أرسل إلى المحرقة أكثر من ست مئة منكود لم يكن بالإمكان استجوابُ معظمهم إلاّ بواسطةِ مترجمٍ يعرفُ اللّغةَ الباسكيّة. وقد دامت مهمّته أربعةَ أشهر، وعُيِّنَ مكافأةً له مستشاراً للدولة.

11 - أي الضباب.

12 - من يحتذي خفاً لا أرضية له (ولا تقال هذه الكلمة Deschaux) إلاّ عن الكرمليين).

13 - جيروم كاردان (١٥٠١ - ١٥٧٦) عالمٌ فريدٌ، وطبيب وفيلسوف إيطالي. إنه ينشر عشراتِ الأبحاثَ الأصليّة، ويبتكرُ نوعاً من معلّق يحمل اسمه، ويجد صيغةَ حلِّ معادلاتٍ من الدرجة الثالثة، ويتنبأ بتاريخ موته بحساباتٍ فلكية. إن ج. سكاليجير، ودوتو يزعمان انه قد ترك نفسه يموت جوعاً لكي يسوّغ تنبؤه.

14 – وردت: Vieux homme (يقال عادة: Vieil homme): 'إن كلمة Vieux (عجوز) تقال أحياناً بدلاً من Vieil، أمام اسم مبدوء بحرف صوتي؛ وفي معظم الحالات، فهي تحدث جلاء أكبر مما تحدثه Vieil (التي تنزع إلى الالتصاق بالاسم، فاقدةً، بذلك جزءاً من قوتها الدّلالية) وفكرة الشيخوخة والقدم:

Le vieux usurier polichinelle (المرابي العجوز بوليشينيل) (موليير: 'مريضٌ بالوهم'١، ٨) (غريفيس).

15 – 'كان ذلك يجري منذ مئةٍ وثمانين عاماً.' ففي تتمة القصة، يتحدّدُ تاريخُ بدايةِ هذه المغامرات (٢٩ كانون الثاني١٦٩٠) في ظروفٍ قد يكون من السّابق لأوانه استحضارُها هنا.

16 – السّمْع والــ Culpeu ثدييان شبيهان بالكلب والذئب في آن.

17 – اللورد جورج جيفرية (١٦٤٥ – ١٦٨٩تقريباً)، مستشار إنكلترا الذي اشتهر بسياسةٍ قمعيةٍ قصوى، وقد وضعت ثورة ١٦٨٨ نهايةً لنجاحه الشائن.

18 – الحجرُ المحاريّ والمرقّط والأزرق القاتم والبصليّ هي تنوعاتٌ رخامية، أما الرّخامُ المسنّن فهو حجرٌ تزييني. (زخرفي).

19 – Morisque هي مرادفٌ قليلُ الاستعمال لكلمة: Mauresque (مغاربي).

20 – Acrotere (قاعدة التمثال) هو مصطلحٌ في العمارة. وهو قاعدةٌ مخصصة لأطرافِ أو قمةِ واجهة، وكانت تستخدمُ كقاعدةٍ للتماثيل أو لزخارف أخرى.

21 – الشجاعة أقوى من الكبش (آله الحرب أو المنجنيق). وأورسوس يترجمها بنفسه في١١،٢،٢ (ص: ٤٠٠).

22 – إن تعبير 'مسحوق الوراثة' قد عُثر عليه بصورةٍ ظريفةٍ للدّلالة على السموم التي كانت إدارةُ حصر التركات المحسوبة جيداً تسرع بها التركات في فرنسا، بين السنوات ١٦٧٠– ١٦٨٠. وكانت مهمّةُ 'الغرفة المستعرة' هي أن تضع نهاية لتلك القضية 'قضية السّموم'.

23 – تورلوبان هو اسمُ ممثّلٍ في تمثيلياتنا التهريجية القديمة، إنه بهلولُ الشّعب، وتريبوليه هو بهلولُ الملك. ونجد تريبوليه، مهرجَ لويس الثاني عشر

وفرانسوا الأول، في مسرحية: الملك يتلّهى لفيكتور هيغو، ولكنا نجده أولاً في بانتاغروييل الذي ينعته رابليه بـــ 'موروزوف' (محبّ الكآبة) وبالمجنون الحكيم (العاقل).

24 - إن كلمة Bini تعني باللاتينية (مثّنىً مثّنى أي شيئين يشكلان زوجاً. وفيما بعد، استخدمت الكلمة للدلالة على ثنائيّ من الثائيين، وليس للثاني منهما دورٌ غير مرافقة الأول).

25 - لقد روى فيكتور هيغور ذاته قصة بيركو في كتابه الرّين (١٨٤٢) الرسالة xxv111 (٢٨)

26 - مونماوث: الابن غير الشرعي لشارل الثاني ملك إنكلترا (١٦٤٩- ١٦٨٥)، والقائد العام للجيش الملكيّ، وقد غدا شعبياً جداً بانتصاره على أعضاء المؤتمر السّكوتلاندي المعارض للأنغليكانية. وقد طالبَ الحزبُ البروتستانتيّ بفصله كوريثٍ محتمل. وإذْ تورّط في مؤامرةٍ ضدّ شارل الثاني، فقد نفى نفسه إلى هولندا. وبعد تولّيّ جاك الثاني العرشَ بقليل، حاول عبثاً أن يقلبه، فأسر وأُعدم.

27 - غليوم بين: هو صاحبيٌّ (مسالم)، قد أسس مستعمرةً في الولايات المتحدة، بعد أن هرب من إنكلترا. وولاية بنسيلفانيا تدين له باسمها.

28 - هو قاطع طريق اسباني من (Trabuc: لصّ).

29 - لم تكن هذه الجملةُ الأخيرةُ واردةً في طبعة لاكروا. وكان أوغست فاكري قد نصح هيغو بحذفها لكي لا يكدر أنصار المدرسة الراسينية. وقد وافق هيغو على ذلك وهو يحدّد بدقةٍ بأن الجملة سوف تثبت في الطبعات التالية، وسوف لن تكون الحال كذلك دوماً. ولنشر أنه في تحليله لكلمة Meconnaitre (أنكر، تجاهل) يذكر ليتريه بالتحديد على سبيل المثال هذا البيت لراسين من غير أن يبالي بالالتباس الذي يتضمنه.

30 - الإنسان التائه أسوأ من الحيوان المتوحش الشارد.

31 - عن المؤلف الموسيقي الإيطالي أليغري (١٥٨٢-١٦٥٢) هو على الخصوص مؤلف شكوى تتضمن تسجيلاً للخصي. وفي ملاحظات هيغو حول كتابه.

وليام شكسبير. يكتب: 'إن مجمعاً لمغنّي الـــ شكوى Miserere لأليغري المنعقد في مصلى سيكستين يحاكمُ القضيب الذكريَّ وهذه هي 'الشكوى' التي كانوا يحافظون على دفترها الموسيقي سراً، والتي نجح موزار وهو طفلٌ في نسخها بعد أن سمعها مرتين فقط'.

32 – التستر على جرم: في القانون الإنكليزي لذلك العصر، إن جريمة التستر تتوافق مع الجنحة الحالية لدينا، جنحة عدم الإبلاغ.

33 – بورتلاند: إن النصَّ الابتدائي لهذا الفصل، الذي وضعه هيغو أخيراً جانباً، يعتبرُه بعض النقاد وكأنه أحدُ النصوص الأكثر أهميةً لدى المؤلف، ونحن نوردُه في وثائق ملفنا.

34 – هي سجلاتُ دخولِ خورنيةٍ، أو أبرشيةٍ، أو مقاطعةٍ، وتقدم أحياناً دلالاتٍ على دخولِ سكان الخورنيات.

35 – أجزاء السفينة هي مجموعُ أبعاد هيكل سفينة معينة.

36 – Pasages :Pasajes، هي مدينة إسبانية بقرب سان – سيباستيان، على شاطئ جونٍ واسع.

37 – نوعٌ من حذاءٍ غير متقن لدى الفلاّحين الإسبان، ومصنوع من الأسل، والحبال المجدولة.

38 – ورقة من الشبه المطروق والملون، والمخصصة لزيادة لمعان الملابس.

39 – عند اليونان الأورثوذكس، باناجيا هو اسم يعطي للعذراء.

40 – إن اسمَ المركب ماتوتينا هو إشارةٌ إلى ستيلا ماتوتينا التي كانت بالنسبة للقدماء نجمة الصبح (لوسيفر) بالتعارض مع نجمة المساء (فيسبر). وفي الحالين، فالأمر يتعلقُ بالكوكب نفسه، فينوس، كما كان يمكن أن يحدده فيثاغورث، وهو أيضاً نجمةُ مريم في طقوس مريم.

41 – بالإنكليزية: stockfish هو سمك الغادس المملح. ورابليه، في الكتاب الرابع. يقول عن كاريسميبرونان إنه 'Declaice breneicx hallebre et stocFise' أي جاف مثل سمك الحذّوق.

42 - aque qudan هنا تبقى آذانُ تجار الأطفال، وصررُ سارقي الأطفال الذين يذهبون إلى سجون الأشغال الشاقة.

43 - Compelle intrare: 'حثّهم على الدخول' وهي ذكرى المثل السائر، مثل المدعوين. (لوقا. ١٤، ٢٣).

44 - على هامش هذا، الوصف، يدون هيغو على المخطوطة: 'أكتب هذا في١١ آب [١٨٦٦] في اللحظة نفسها التي يشنقون فيها رجلا في جيرسيه، وهو برادلي، والذي كتبتُ لأجله دون طائل (انظر: أعمال وأقوال ٢،١٨٦٦) ونعلم أيضاً أن جسد كرومويل قد نُبش في عام ١٦٦٠ لكي يشنق'.

45 - 'Lemures' هي أشباح الموتى في الديانة الرّومانية. ويقرّ ليتّريه بصدد هذه الكلمة بأن الأكاديمية تستخدم الليمور بالمؤنث 'ويضيف' ولكن، باللاتينية هي مذكرة، وما من مبرر لتغيير نوعها بالفرنسية Lemures.

46 -'الأوركة في البحر'. إن كلّ الكتاب الثاني في 'الرّجل الضّاحك' مخصّصٌ لمصير الأوركة التي حاصرتها العاصفةُ. والعاصفةُ البحريّة هي إحدى القطعِ الأدبية البارعة في كلّ ملحمة. إن رابليه يكرّسُ فصلين من كتابه الرابع لوصف المعركة بين بانتاغرويل والأمواج الهائجة. ولن نصل إلى النهاية إذا ما أوردنا التماثلات بين قصة فيكتور هيغو وقصة رابليه: تعداد المصطلحات البحرية بهدف إمتاع القارئ، والوصف العظيم للظواهر البحريّة، وتصرف المسافرين بمواجهة الخطر، واختفاء الكواكب التي تُفيدُ كنقاط تحديد المكان، وحتى فكرة الرجوع إلى الخواء البدائي، غير أن تفصيلاً واحداً يقولُ كلّ شيء وهو: أن السّفينة التي يجلس بانتاغرويل على متنها هي: أوركة.

47 - EFFLUVE (الدفق المغناطيسي): 'تؤنث هذه الكلمة غالباً، وهذا خطأ، فهي مذكرة (ليتريه).

48 - تكونات وتفكّكات القوى: في الفلسفة الحديثة. إن ليبنيتز هو الذي جدّد في الميتافيزيقا فكرة القوة. وقد قاده نقدُه للنظرية الذرية إلى اعتبار أن الكونَ مكوّنٌ من قوى بسيطة وروحيّة، سماها: 'الجوهر الفرد'.

49 – 'Ports- sec' (المرافئ الجافة) بالإحالة إلى الكلمة الأوكسيتانية port التي تعني 'مضيقاً جبلياً' في البيرينية، وبالتعارض مع المرافئ البحرية أو النهرية.

50 – الـ arriero هو بغّال.

51 – passequilles (والتي سنجد كتابتها المضبوطة 'passe-quille'، ص ٢٧٨) ليست مثبتة في المعاجم. إن الأمر يتعلق بلا شك في الحالتين بـ: pasquedille، وهي تطريزٌ ذهبي وفضي قديم على الدُّرجة إلى حدٍّ كبير في القرن السابع عشر.

52 – olla podrida، pudhero (السّلاقة والسّلامة المتبّلة) هما طبختان اسبانيتان تدخل في تحضيرهما لحومٌ مختلفة، وخضار، وتوابل – وخصوصاً الفلفل.

53 – كلير دي غارد هي النجمة الأكثر التماعاً في مربّع الدّبّ الأصغر، وأنتاريس هي نجمةٌ من الدرّجة الأولى في ضخامتها. وهما تستخدمان كنقطتي استدلالٍ للبحارة. وعند هيغو يدمدم الدكتورُ العجوز: 'ما من نجمةٍ يمكنْ تمييزها'، وفي عاصفةِ الكتاب الرابعِ يذكر رابليه أيضاً أن نقاط الاستدلال الكوكبية قد كانت محجوبةً.

54 – kraken أو Craken هي نوعٌ من إخطبوط خياليّ في بحار النّرويج، وهو قادرٌ، حسب الأسطورة، على إيقاف البواخر. وفي: 'عمّال البحر'، كرس هيغو للأخطبوط صفحاتٍ مؤثرة. وهذا المسخ هو الذي يسميه البحارة بالأخطبوط، والذي يسميه العلم رأسيّ الأرجل، وتسميّه الأسطورة بـ كراكن. ويسميه البحارة الإنكليز ديفيل – فيش السمكة الشيطان. ويسمونه أيضاً بلاد سوكر، مصّاص الدّماء. وفي جزر المانش، يسمّونه 'الجشع' وفي رواية عشرون ألف فرسخاً تحت البحار، يصف جول فيرن المعركة التي يتواجه فيها مسافرو ناوتيلوس مع أحد هؤلاء المسوخ.

55 – سوف يشار إلى أن العجوز يُوصفُ دورياً بالمجنون وبالحكيم.

59– olofee (والتي يمكن أن تكتب أيضاً aulofee أو auloffee): هي عملٌ بحري يتمثّل في تقريبِ العمارة البحرية من سرير الرّيح. وبصدد الميل الذي يظهره هيغو للمصطلحات البحرية، سوف نتذكّر بالتأكيد 'عمال البحر'

وخصوصاً المقطع الذي عنوانه "لغة البحر القديمة" والتي نجد فيها كلمة olofee: "فقد كان تورفيل يكتب لهاكنكور. لقد أفردنا. وبدلاً من: ' La ragale (هبة الريح)، le raffal، وبدلاً من: ' bossoir (محرك المرساة)'، بوسوار Boussoir. وبدلاً من: drosse (حبل الدولاب): Drousse. وبدلاً من: loffer (اقترب من مهبٍّ الريح).

Faire une olofee (قام باقترابٍ من مهب الريح). وبدلاً من: Elonge (سار بمحاذاة الشاطئ): alonger. وبدلاً من forte Brise (نسمة بحرية قوية):survent. وبدلاً من: ' jouail (ساعد المرساة) جاي: jas وبدلاً من: soute (عنبر الفحم) fosse. تلك كانت، في بداية ذلك القرن لغة متن السفينة لجزر المانش.

إن أفضل تعليقٍ على مؤلفات هيغو قد قام به هيغو نفسه. وتشكّلُ أعمالُه الكاملة تشابكاً بين الأسئلة والأجوبة.

60 - CHOUO~UET (معبر الصواري): هي قطعة من الخشب او الحديد تُستخدم كمعبرٍ أو كنقطةِ ارتكازٍ للصواري العليا.

61 - كان قدماء الإغريق يخشون قسوةَ الإيرينيات (آلهة الانتقام) الأسطورية، وهي آلهةٌ جحيميةٌ ترمزُ إلى شرائع العالم الأخلاقي، وتقتصُّ ممن يخرقُها، وهي تُمثَّلُ وكأنها مسوخٌ ذاتُ نظرةٍ متوعدة، وأجنحةٌ مفردة، وأسواطٌ، وحياتٌ ملتفة حول أيادٍ وشعور، وكانوا غالباً ما يسمونها بالأومينيدات ('العطوفات') ليس من قبيل التّهكم، بل كما يتّقي المرءُ شيطاناً. وهي عنوانٌ لمسرحيةٍ لإسخيلوس.

62 - جامع الغيوم هو أحدُ الأسماء التي تُعطى زيوس في نَسَب الآلهة لإيزيود، وخصوصاً في أثناء حادثة المعركة مع الجبابرة (التيتان).

63 - NixetNox هما: الثلج والليل.

64 - كانت اليرقاتُ. لدى الرومان، أشباحاً لبشرٍ ملوّثين بجريمةٍ ما أو مائتين موتاً مأسوياً. وكانوا يصورونهم ككائناتٍ شاحبة ذات سحنة مرعبة.

65 – إن الحكاية التي يقدّمها فيكتور هيغو عن المسار الدرامي للمادونينا بين مكاسرِ الصخور، مكاسر كاسكيه، وأورتاش وأوريني مطبوعةٌ بذعرٍ رؤيويٍّ تماماً. بالمقابل، فإن الوصف الجغرافيّ للمواقع هو وصفٌ واقعي تماماً، كما يمكننا أن نتثبت من ذلك بمعاينة الخريطة التي أوردناها في ملفنا.

66 – pax in bello: السّلام في الحرب. إن فيكتور هيغو قد صوّر منارة إديستون. ويمثّلُ رسمٌ هذه المنارة في: ملذات بريطانيا العظمى. لبيفريل (١٧٠٧)، وتظهرُ الكتابةُ: 'مرفأ في الإعصار' في هذا الرسم.

67 – لابلانش – نيف: هنري الأول قد فقد ابنه في حادث الغرق (١١٢٠).

68 – أورتاش: 'نسافر هذا الصباح. رياح جنوبية وضباب. بحر هادئ. نمرّ في الساعة الحادية عشرة بين أوريني والكاسكية. أنا أرسمُ صخرة أورتاش. (ف. هـ. كرّاسات، ٢٨ حزيران ١٨٦٥).

69 – PORTENTOSUM MARE: البحر المعجز، غير أن معجزات البحر هنا وحشية.

70 – Captal 'تعني: زعيم' (٢، ٥، ١).

71 – Funin: اسم نوعي لحبالٍ بيضاء أو مصنوعة من خطوطٍ غير مقطرنة.

72 – ? Bist du bei mir هذه هي الكلمات الأولى للحنٍ عثر عليه ج. س. باخ من أجل آنا ماغدالينا باخ في الكتاب الثاني من كلافيير بوشليين. (BWV،508 1725) والنص ل- ج. هـ. ستوزيل.

73 – Trap وهو صخورٌ قاعدية تنتمي إلى زمرة السمّاقيات.

74 – أي التي تحطّمُ العظام وتسحقُها.

75 – هي طيورٌ بحريةٌ من كفيّات القدم

76 – طائرٌ من بحار الشمال، وهو نوعٌ من طائر النّوء.

77 – Neitse: بالإنكليزية: neit – soak اسم عاميٌّ لنقمة الأطلسي.

78 – Machelieres: أسنان طاحنة.

79 – أرخبيلٌ صغير على بعدِ أربعين كيلو متراً من غربي الساحل.

80 – ما يمتلكُ الكثير من البروزات المدببّة.

81 – عُصيّة الرامي: هي إحدى العصيات الخشبيّة أو العظميّة التي يُلعبُ بها برميها بلا نظام على طاولةٍ لكي تُسحب ثانيةً واحدة فواحدة بملقطٍ من غيرِ أن تتحرك العصيّ الأخرى.

82 – إن عشتروت السّوريين هي على شاكلة الصورةِ الميثولوجية التي هي العشتاريه الإغريق. ولسوف يدورُ الكلام بصورةٍ مسهبةٍ أكثر على هذه الأخيرة في الصّفحة (٢٧٧، النصّ الفرنسي بالطبع).

83 – تحبيب الشمع: تحويله إلى حبّات صغيرة.

84 – الفارذينغ: عملةٌ انكليزية نحاسية، تعادلُ ربعَ بيني.

85 – هو انحرافٌ للأجفان التي تنمو من الداخل، من جهة ِالكرة العينية. وتهيج القرنية.

86 – فيلوكسينس: شاعرٌ إغريقيٌ ولد في سيثير عام ٤٣٥ ق.م. وقد كسبَ ودّ الطاغية دينيس لانسيان (القديم)، وكان عليه بعد ذلك أن يهرب لأنه قد انتقد موهبة هذا الطاغية الشعرية.

87 – أناكزاغوراس: فيلسوف إغريقي (٥٠٠- ٤٢٨ ق.م) وكان معلماً لبيريكليس، ولأوريبيد ولسقراط حسب رأي بعضهم. وقد كان يعيدُ المادة إلى عددٍ لا متناه من الذرات المتماثلة والتي إذا خُلطت تولدُ الأجسام المختلفة، وكان يقول: 'كلّ شيء في كلّ شيء'.

88 – الدينيريل: وحدةُ وزنٍ نقديّة.

89 – الإبهار: هو حالة الشيء المبهم والمعتم.

90 – ضبابي ومعتم: ما طبيعتُه ضبابيّة.

91 – مصباح صامت: مصباح مصنوعٌ بحيث يمكن للشخص الذي يحمله أن يرى دون أن يُرى، ويمكن أن يخفي الضوء حسب الرّغبة.

92 – في أولئك الذين قطعت أنوفهم.

93 - من Bucca fissa... إلى semper: 'الفم المشقوق حتى الأذنين'. واللثتان المكشوفتان، والأنف الأفطس، ستكون قناعاً وستُضحك باستمرار.

94 - بونيفار: فرانسوا. بونيفار: (١٤٩٣-١٥٧٠) كان بطلاً متحمّساً للاستقلال الجونيفي بمواجهة شارل الثالث دوسافوا، وقد ظل اسمُه شهيراً بسبب الأسر القاسي الذي جعله هذا الأخير يعانيه في قصر شيون. وغالباً ما صوّره مصوّرون مُقيداً إلى دعاماتِ زنزانته. وقد خلد بايرون آلامَه في قصيدة هي: سجين شيون.

95 - لودلوف: برلماني انكليزي جمهوري (١٦١٧- ١٦٩٢). كان أحد قضاة شارل الأول، وقد حُكم عليه بالموت بجريمةِ قتل الملك بعد إعادة إقامة الملكيّة، وقد نجح في العبور إلى سويسرا. 'ولسوف يخلّف رفاته وشاهدة قبره في لوزان' (مقدمة كرومويل). وإذْ عبر هيغو إلى فيفيه (وليس إلى لوزان) فقد انحنى أمام قبره.

96 - جورج مونك (١٦٠٨- ١٦٧٠) جنرال إنكليزي، كان في البداية ضابطاً في الجيش، الملكيّ. ثم حليفاً للبرلمانيين ولكرومويل، وقد أمنّ أخيراً إعادة الملكية إلى آل ستيوارت. ورفعه شارل الثاني إلى عضوية مجلس اللوردات. وفي وضعٍ آخر (الصفحة ٢٦٢) يتّخذه هيغو مثالاً على رجل البلاط ذي الولاءات المتعاقبة والانتهازية.

97 - ريغولوس: جنرالٌ روماني مشهورٌ بإخلاصه واستقامتِه، وإذْ أسَرَه القرطاجيون فقد أرسلوه إلى روما لكي يتفاوض في السّلام، وفي افتداء الأسرى، بناء على الوعدِ الذي قطعه بالرجوع إليهم في حال الفشل. أما هو فقد ثنى مواطنيه عن التّفاوض، ووفاءً لوعده، رجع إلى قرطاجة حيث قضى تحت العذابات الفظيعة.

98 - مازانييلو (إدغام لكلمتي توماسو، وأنييلو): خطيبٌ شعبي نابوليتاني، وهو أحدُ زعماء المعارضة للسيطرة الإسبانية (١٦٢٨ - ١٦٤٧).

99 - مارتان هابيرتس تروب: لقد قهر هذا الأميرالُ الهولنّدي فعلاً الأسطولَ الإسباني، وكذلك الأسطول الإنكليزي، أمام كاتويك. ولئن أمكن لهيغو

أن يكتب 'أنه قد دُمِّر على يد الأسطول الإنكليزي'، فلأنه قد لاقى حتفه خلال المعركة.

100 - سوميز: فقيه لغوي فرنسي (١٥٨٨- ١٦٥٣) واسعُ المعرفة إلى حدٍّ كبير. اعتنق الدِّين الإصلاحي. واستقرَّ في هولندا. حاضر في جامعة ليد، وحاز فيها على المجد الشامل. إن ملوك فرنسا وإنكلترا. وكريستين السويدية قد سعوا لاجتذابه دون طائل. وقد ترك ثمانين مؤلفاً مطبوعاً (باللاتينية) بأسلوب مهمل، وتأليفٍ عسيرِ الفهم.

101 - 'أرثي لأولئك الذين يظنّون ذلك': إن خصوماً سياسيِّين قد أشاعوا أن فيكتور هيغو كان يمكن أن يرجع من المنفى بطيبة خاطر بشرط أن يجعله نابوليون الثالث وزيراً. ولسوف يتذكّر هيغو بمرارةٍ دائماً هذا الافتراء. وفي كومةٍ حجارة 'يكتب'. إن الافتراء يجول. وعليه، ليس لدي إلا كلمة أجيب بها: لم يجرِ حديثٌ قطُّ في علاقاتي مع السيد لويس بونابرت، لا بينه وبيني، ولا مع أيِّ أحدٍ يتكلم باسمه. عن أيِّ شيء يمكن أن تكون له علاقةٌ قريبة أو بعيدة بانفتاحٍ من هذا النوع. وإني أتحدّى أياً كان أن يقدم ظلاً لدليلٍ معاكس.'

102 - إيفيلين: مؤلف مذكّرات ومصنّفات متعددة إنكليزي (١٦٢٠ - ١٧٠٦). وهو أحد مؤسسي الجمعية الملكيّة في عهد شارل الثاني. ندين له بمؤلفاتٍ عديدة في موضوعات جدّ مختلفة، وقد ترك أيضاً يومياتٍ مثيرةً للاهتمام (DIARY) تابعها من عام١٦٤١حتى ١٧٠٦ وهي تُعطي فكرةً شديدة الوضوح عن الحياة الإنكليزية في عهودِ آخر سلالة ستيوارت وغليوم الثالث.

103 - كيرك: جنرالٌ انكليزي (١٦٤٦- ١٦٩١)، وقد قمع رجالة تمردُ مونماوث بشراسةٍ بالغة.

104 - ماري ألاكوك: راهبة من راهبات الزيارة (١٦٤٧-١٦٩٠)، ومكلّفة بإدارة المترهبنات في باري - لور مونيال. وهي معروفةٌ خصوصاً بالرؤى التي أعلنت بأنه قد تلقتها من ساكريه - كور (القلب المقدس) والتي أسهمت بها في نشر التقوى (عند موتها، وجدوا على صدرها اسم يسوع محفوراً برأس

سكيّن). وقد تمّ تطويبُها على يد بيوس التاسع في عام ١٨٦٤. وأُعيد نشر أعمالها في باريس (١٨٦٧).

105 - هاريسون (١٨٣١- ١٩٢٣): كاتبٌ انكليزي، ومؤرخ وناقد أدبي وكاتبٌ لسيرة كرومويل. وبرايد هو: كاتبُ سيرةٍ آخر لكرومويل.

106 - 'Male proe cinctum لا تركن إلى الفتى ذي الحزام غير المربوط جيِّداً، اقتباس عن جملة لسويتون بصدد يوليوس قصير حول إهمال المشتبه به.

107 - .Non deficit، صورة للغصن الذهبي الذي ينمو مجدداً في كل مرةٍ يُقطعُ فيها (فيرجيل، الإنياده،٦، ١٤٣) كلمات سيبيل دوكوم لإينياس الراغب في النزول إلى الجحيم.

108 - Besant: هي عملة بيزنطيّة ذهبية أو فضية انتشرت في أوربا في زمن الحروب الصليبية.

109 -Alleux: أراضٍ لرجل حرّ، تملؤها الممتلكات.

110 - Dameret: مثل كلمة: Damoiseau وهي الفتى الغَزِل والمبادر بقرب النساء.

111 - نينون وماريون: نينون دولانكلو (١٦١٦-١٧٠٥) وماريون دولورم (١٦١١-١٦٥٠)

112 - كاليبان: عفريتٌ شيطاني وأرييل: شبحٌ هوائي. وهما شخصيتان في مسرحية 'العاصفة' لشكسبير.

113 - أستارتيه: آلهة للشعوب السّامية. وهي فينوس والقمر في آن. إنها دورياً إلهةٌ عذراء وإلهةٌ والدةٌ. ومن هنا تأتي، في عبادتها، احتفالات، وأعمال رمزيّة غالباً ما تتحوّل إلى مشاهد فحشٍ تؤدي إلى إفراطات دمويّة.

114 - Desine inpiscem، تنتهي لأن تكون سمكة.

115 - على شكل تنين.

116 - ungran cervello diprincipessa: أميرةٌ ذاتُ ذكاءٍ كبير

117 - Regina Sabaa.... ملكة سبأ قد كشفت عن ساقيها أمام الملك.

118 - جون ويسلي: لا هوتي وكاهن بروتستانتي (١٧٠٣- ١٧٩). أسس مع أخيه وبعض الأصدقاء جمعيةً نصفُها علمّي ونصفُها دينيّ، والتي أطلق عليها رفاقُهم، بسببِ بعضِ ممارساتها، اسم الميثوديّة، تهكماً. لقد كانوا يبشّرون بالإنجيل في الهواء الطلق. وقد لقي ويسلي لدى الحشود نجاحاً فائقاً.

119 - CRON: سيء التكوين، أحدب، إن معجم لاروس القرن التاسع عشر يقدم كلمة CRONT (من اللغة الفلمنكمية: krom، انحناء) ويضربُ بالتحديد مثالاً على الإملاء الخاطئة استخدامَ ف. هــ لهذه الكلمة في جملته عن ماري ستيوارت وريزيو.

120 - جين غراي (١٥٣٧- ١٥٥٤) ابنة بنت أخ هنري الثامن، وابنة عم ادوار السادس. إن العالم إيلمير كان قد علمها اليونانية والعبرية، وكانت تفضّل قراءة فيدون على نزهات الصيّد.

121 - غروتيوس (١٥٨٣- ١٦٤٥) فقيه في التشريع، وديبلوماسيّ هولندي. لقد وجد وسيلة في خضم الأعمال الأدبية الأكثر تنوعاً، ليتدخّل في الأحداث الكبرى في عصره. وأشهرُ مؤلفاته De jure pacis et belli (١٦٢٥) والذي يناهضُ فيه العبودية ويدرسُ الوسيلة لاتقّاء الحرب وتعقيدها، قد جعله يُلقّب بـــ 'أبو حقوق الناس'.

122 - بولينغبروك (١٦٧٨-١٧٥١)، رجل دولة، وأديب وفيلسوف انكليزي، في عام١٧١٠، عهدت إليه الملكة آنا بمنصب وزير الشؤون الخارجية. وقد عقد صلحَ أوتريشت (١٧١٣)، وأخذ عليه خصومُه (ومنهم هوراس فالبول) هذا الصّلح باعتباره خيانة لإنكلترا. وحين عاد أولئك إلى السلطة عند ارتقاء جورج الأول إلى العرش، طلبوا من الملك تنحية وزيره، وطلبوا من مجلس اللوردات قراراً بالإبعاد. هرب بولينغبروك إلى فرنسا، وحين سمح له جورج الأول أن يعود إلى إنكلترا عام ١٧٢٣، خاض حرباً شرسةً ضد الوزير فالبول الذي ندد بفساده في ملاحظاته حول تاريخ إنكلترا. لقد أثّر على فولتير وروسو بنزعته التأليهيّة، وفلسفة التاريخ لديه.

123 – ميناللك: شخصية من شخصيات (الطبائع) لدى لابروييْر. أما ريليس: فاسمٌ قد أعطاه فيرجيل لراعيةٍ في قصائده الريفية.

124 – بيليسّون (أو أبوليسون): أديب فرنسي (١٦٢٤- ١٦٩٣). كانت بداياته في القضاء، غير أن الجدري الذي شوهه جعله يتخلّى عن تلك المهنة. وقد صوّرته مدموازيل دوسكوديري باسم أكانت.

125 – البوزية: مذهب طائفةٍ أنغليكانية أسسها الدكتور بوزاي (١٨٠٠- ١٨٨٢) الذي حاول التقارب مع الكاثوليكية.

126 – Magister eleganti arum : حكم الأناقات.

127 – ...Tunc Venus: 'حينذاك كانت فينوس في الغابات تقترب من أجساد العشاق' (لوكريس DenatuRA RERUM، في أمور الطبيعة،V، ٩٦٢).

128 – performance تحمل المعنى الإنكليزي تصوّر وتمثيل.

129 – أي الجولات (Rounds).

130 – ضربات الرأس.

131 – تارتاغليا وباسكان، خادمان في الملهاة المرتجلة.

132 – سارا جينينغز: دوقة مارلبورو (١٦٦٠-١٧٤٤) تقلدت منصباً وهي لا تزالُ جدّ شابة في منزل يورك، وقد حازت على ودّ الأميرة آنا. وتألقت في البلاط بجمالها وذباهتها. أصبحت وصيفة آنا عام ١٦٦٨، وتبعت نصائحها بأن تهجر والدها جاك الثاني. وأصبحت بعد ذلك مراقبة، ولكنها ظهرت متحكّمة بحيث انتهت الملكة إلى الضجر من سفاهاتها.

133 – غير ملائمة، ترجمة لكلمة Improper

134 – كان فيكتور هيغو قد أشار من قبل إلى المركيزه دومايي في مقدمته الحوارية لقصة: اليوم الأخير لمحكوم بالإعدام. أما روا فهو شاعرٌ مسرحيٌ فرنسي (١٦٨٣- ١٧٦٤) ويعتبر هيغو في كتابه: وليام شكسبير روا نموذجاً للمدعي الأحمق.

135 – تمشيط الحصان البرونزي: هذه هي مهمة أرلوكان في ملهاة رينيار. ويستخدمها هيغو في كتابه: نابوليون الصغير.

136 – Baraterie هي كلمةٌ متوسطيّة، في بادئ الأمر، وذاتُ أصلٍ غامض، وهي مشتقةٌ من الفرنسية القديمة 'barater' والتي كانت تعني 'خدع، غشّ' والتي استخدمت فيما بعد خصوصاً في القانون البحري لتدلّ على السّرقة أو الاحتيال.

137 – inferi 'اولئك الذين تحت' أو 'الجحيم'.

138 – ألبيروني:' كاردينال إيطالي ووزير في إسبانيا (١٦٦٤- ١٧٥٢). عرف كيف يكسبُ ودَّ دوق دوفاندوم، والذي كان يقود الجيوش الفرنسية في إيطاليا، والذي اصطحبه معه إلى إسبانيا.كان في البداية وزيراً لبارما في مدريد، وأصبح رئيس وزراء إسبانيا 'إن قبعة الكاردينال دالبيروني تخرج من كرسي دوق دوفاندوم المثقوبة' (ملاحظات عمل من أجل كتاب وليام شكسبير).

139 – إن نارفاييز وأودونيل الذين كانا من رجال الدّولة، ومار شالين في عهد إيزابيلا الثّانية الملكي، قد أسهما كثيراً في سقوطها. كانت إيزابيلا طيبة. ولكنها قليلةُ الثقافة. وقد قبلت الزواج بأميرٍ لا قيمة له. وهو فرانسوا داسيز، والذي منح ثقته لرجلٍ صوفيّ هو لوبير كلاريه، ولصاحبةِ دسائس هي: سور(الأخت) باتروسينيو. وانتهى الأمرُ بالملكة أن فقدت ثقة الشّعب. وقد أطاحت بها مؤامرةٌ عسكريةٌ في عام ١٨٦٨، فعاشت بعد ذلك في فرنسا.

140 – هنري فرانسوا دوق دولافيرتيه: كان لويس الرابع عشر يرتبطُ بصداقةٍ حقيقيّة معه، لأنه قد ظلّ مخلصاً له إبان حرب لافروند. غير أنه لم يستطع أن يصلحه من فسقه. لقد كان شديد النباهة، ولكن 'الخمرةَ والفجور' قد أهلكاه.

141 – روكلور: مارشال فرنسا. وإذا ما أخذنا برأي سان – سيمون، فهو يدينُ بأمجاده إلى أعماله الهزلية، وإلى دسائسه السّفيهة، وإلى حُظوة زوجته،

الآنسة دولافال التي كان لويس الرابع عشر مغرماً بها. وكان عدمُ كفاءته قد ظهر إبان حملة الفلاندر (١٧٠٥)، وكان زوال حظوته يمكن أن يكون مؤكداً لولا تدخّل زوجته. أما بروميل فهو. متأنّق انكليزي (١٧٧٨-١٨٤٠) وهو محظيّ الأمير دوغال (أمير ويلز).

142 - omnis res scibilis: كلُّ شيء يمكن أن يُعلَم.

143 - زويل (القرن الرابع ق.م) هو سفسطائيٌ إغريقيٌ، ومؤلِّفُ دراسةٍ من تسعة كتب كشف فيها تناقضات القصائد الهوميريّة، ومنافاتها للعقل. وقد غدت قسوتُه غير المنصفة في نقدِه مضربَ المثل. لقد ذهب اسمُه في اللغة للدّلالة على الناقد السّيء، وخصوصاً الناقد الحاسد والشرّير. ويضع هيغو عنواناً لأحد فصول كتابه: شكسبير هو: "زويل الخالد مثل هوميروس" لكي يدلل على أن الوضيع يمكن أن يصنع له شهرة من خلال الطّعن على العملاق.

144 - غريمو: هو رجلٌ من أصلٍ وضيع، ليس له آداب سلوك، ويزدريه الناس.

145 - سفسطائي ما.....: ملاحظة لـ ف.هـ على هامش المخطوطة: "هكذا هو السيد برودون".

146 - ماكنة (آلة) مارلي هي آلة هيدروليكيّة بُنيت في عهد لويس الرابع عشر، لكي تغذّي مياه فيرساي.

147 - في الدين الإسلامي: سالومون (سليمان) هو قبل كلّ شيء ملك الجنّ.

148 - شيريدان هو مؤلّفٌ مسرحي ورجلٌ سياسيٌّ إنكليزي (١٧٥١-١٨١٦)، وكان بايرون يقول عنه إنه "قد كتب أفضلَ ملهاة" (مدرسة الاغتياب)، وأفضل أوبرا (المربّية العجوز)، وأفضلَ تمثيليّة تهريج (النّقد)، وأفضلَ مناجاة (غارك)، وقد ألقى أفضلَ خطابٍ برلمانيٍّ (خطاب بيغوم سيتش الشهير). وإذْ أفاد من شهرته، فقد اندفع إلى الميدان السياسي.

149 - الكالموك: هو شعبٌ منغوليٌّ ذو صدغين نافرين، وعينين مائلتين وأنف يبدو غائراً في الوجنتين.

150 - تريبوليه: الملك يتسلّى (مسرحية لهيغو، الفصل الثاني، المشهد الأول: 'أنا الرّجل الذي يضحك').

151 - إن الذئابَ التي تعيشُ ثمانين عاماً والتي يذكرُها مولان تأتي هنا لتسوّغ بصورةٍ بارعة حياةَ أومو الطّويلة وغير المعهودة؟

152 - ' et videk،oculos non Habet (باللاتينية: ترجمتها: ليس لها عينان، وهي ترى - وهذه بصورة مقلوبة، جملةَ الإنجيل التي تقول: لهم عيون ولا يبصرون' (مرقص٨، ١٨).

153 - Nares habens mutilas 'المبتور المنخرين'.

154 - كانت كلمة أوتايتي تستخدم بدلاً من تاهيتي. وأركاديا وأوتايتي: بلدان يقطنهما متوحشّون طيبّون.

155 - 'Brehaignes' كلمةٌ من أصلٍ 'سلتيّ'، وكانت تدلُّ في البداية على أرضٍ جدباء، ثم أصبحت من باب الاستعارة امرأةً عاقراً. ومنذ زمنٍ طويلٍ، لم تعد الكلمة تُستخدم - إلاّ للدّلالة على الأنثى العاقر لحيوان أهليّ.

156 - ' Hackneys' مصطلح انكليزي معناه: 'الرّهوانات'.

157 - Scrobait: عن الإنكليزية: to scrub، فرك، حكّ، نظفّ.

158 - ملابس خشنةٌ من الصوّف يستخدمها البّحارة.

159 - إسكلافينة مشتقة من إسكلافي وهو أحد سكان إسكلافونيا أو سلافونيا، وهو رداءٌ كان يرتديه البحّارةُ، والحجّاجُ، إلخ. وقد كان يستخدمُ في القرن الثاني عشر والثالث عشر. وهو فستانٌ قصيرٌ بما يكفي، ومشقوقٌ من الأمام أو من الجانبين، وله غطاءٌ للرأس.

160 - سولون: هو أحد الحكماء السّبعة في اليونان. وتبسيس: هو مؤلّف مسرحيٌ مأسويٌ؛ وبحسبِ التقاليدِ الأثينية، كان مبدعَ المسرحية المأسوية، وذلك بإدخاله في المشاهد الدّيونيزية قصصَ ومغامراتِ الأبطال. وكان يُنسَبُ إليه ابتكارُ الاستهلال والحكاياتُ، وإبداعُ الممثل وإبداعُ القناع.

161 - Rit أي Rite - طقس.

162 – ursus Rursus: رجوع أورسوس، أو خروجه الخاطئ (الزائف).

163 – حول دلالة العنوان الذي اختاره هيغو – Chaos Vaincu – يمكننا أن نقرأ كلمات هيغو (الطّبعات الاجتماعية، ١٩٨٥) لآنا أوبرسفيلد، والتي عثرت على العبارة (Victum est chaos) – مهزومٌ هو العماء، في مأساة سينيك: هرقل على الإيتا، وكذلك نصّ ليون سيلييه 'العماء المهزوم، وف. هـ. والرّواية المساريّة في: الذكرى المئوية لرواية 'البؤساء' تحية إلى ف. هـ، ستزابور، ١٩٦٢.

164 – quine (خُماسة): في اليانصيب، سلسلةٌ من خمسة أرقام ينبغي أن تظهر الأرقام الخمسة لكي يربحَ اللاعبَ، وتعميماً، امتيازٌ كبير جداً، ولكنه يصعب كثيراً الحصولُ عليه.

165 – كلمةٌ عبرية تعني سنبلة ونهر، وقد استخدمها أهالي جلعاد ليتعرفوا أناسَ إفرايم الذي كانوا يلفظونها شيبوليت والذين ذبحوهم في الحال. وبصورةٍ مألوفة هي اختبار يقرِّر قدرة شخص أو عدم قدرته.

166 – انظر بومارشية في زواج فيغارو (الفصل الخامس، المشهد الثالث) حيث يقول فيغارو: 'لقد تجشّمتم عناءَ الولادة، ولا شيء أكثر'.

167 – سان تيليسفور: بابا وشهيد (توفي عام ١٣٦).

168 – الموانئ الخمسة: اتحاد بحريٌ قد تشكّل في الجنوب الشرقي من إنكلترا، في العصر الوسيط (ساندويش، ودوفر، وهيث، وروني، وهاستينغز) وكان موجوداً بامتيازاته حتى قبل الاحتلال النورماندي، وقد توسّع بعد ذلك توسّعاً كبيراً فشمل كلّ الموانئ في جنوب شرقي إنكلترا على با – دو- كاليه وفي المناطق المحيطة.

169 – قبل اكتشاف المجهر، كانت العثّةُ تعتبرُ أصغر حيوانٍ موجود. ويعدّها باسكال مثالاً على الوجود المتناهي في الصّغر (الأفكار،١،٨٤). والفولغوس هو طحلب أخضر مجهريّ.

170 - رسوم الإنتاج: ضريبة استهلاك غير مباشرة تفرضُ خصوصاً على المشروبات وخصوصاً في إنكلترا. أما ضريبةُ الوزن: فهي رسمٌ وُضع قديماً في إنكلترا على السفن التجارية.

171 - أنت لا تراعين لائحة المراجع. إن فيكتور هيغو يتذكّر هنا المجابهةَ التي تقوم بينه وبين مدموازيل مارس، أثناء عروض مسرحية هيرناني، في عام ١٨٣٠، ولم توفّق مدموازيل مارس في أن تقول: 'أنت سبعي الرائع والكريم'. فقد كانت تجدُ العبارةَ مضحكةً. وقد اقترحت: 'أنت سيّدي الرائع والكريم'. ولم يتراجع هيغو، وحتّى أنه هدّد مدموازيل مارس بأن يأخذ منها دور دونياسول، ولكن مدموازيل مارس لم تتراجعْ هي الأخرى، وفي مساء العرض الأول، لم تتمالك نفسها من أن تقول 'أنت سيّدي....' وهذه القصة قد رواها ألكسندر دوما في مذكراته.

172 - المرضُ القديمُ: هو الصّرَع.

173 - الالتهاباتُ الداخلية.

174 - ألدرمان: مشرّعٌ بلديٌ في إنكلترا، وفيما بعد، في الولايات المتحدة.

175 - الترينوبانت: شعبٌ كان يعيشُ على أراضي الكونتيات الإنكليزية في هيرتفورد، وإيسّيكس، وميدل - سيكس، عاصمة لوندونديوم (لندن).

176 - هورتنسيّة: نسبة إلى هورتنسيوس، خصم شيشرون فيما يخصّ الفصاحة.

177 - 'يجري تحريضُ الجمهور، ثم تجري مناشدةُ الحاكم' إن هيغو يعرف عما يتكلّم، فبعد النجاح الشعبيّ لمسرحية هيرناني، وفشل المؤامرة. كان هناك أكاديميون قد طلبوا من شارل العاشر أن يمنع المسرحيةَ الرومانسيّة في المسرح الفرنسي (تياتر فرانسيه).

178 - بعل: في التوراة، هو غالباً الاسم الجماعيّ للآلهة الزائفة.

179 - المأمور القضائي: على هامش هذا المقطع، يسجّل هيغو على المخطوط: 'يصل الخبر أن ماكسيميليان قد أعدم بالرصاص'، وكان قد كتب إلى

جواريز ليطلبَ منه العفو عن ماكسيميليان، ولن تصل الرّسالة إلى جواريز إلاّ بعد تنفيذ الإعدام.

180 - جوب Jube: هي لبدة الأسد.

181 - Ceps هي أداة تمسك بقدميّ أسيرٍ وبيديه وأحياناً برأسه.

182 - Ipsum، te ، sana، Garrule - أيها الثرثار اعتنِ بذاتك بنفسك.

و garrulous: هو اسمٌ علميّ لطيورٍ من نوع أبي زريق.

183 - مينوس وإياكوي ورادامانت: أصبحوا بعد موتهم قضاة الجحيم الثلاثة.

184 - Tres Faciunt Capitulum ثلاثة (أشخاص) يصنعون مجلس كهنة قانونيين.

185 - هي التهاب الحنجرة: Esquinancie.

186 - أيتيوس: وُلد في بلاد ما بين النهرين، وكان مسيحيّاً وطبيباً في بلاط القسطنطينية، في القرن الخامس الميلادي.

187 - Proeses: هو ذلك الذي يقود.

188 - ....Turdus sibi 'طائرُ السّمنة يتغوّطُ تعاسته الخاصة. (كان ذرقُه يشجّع تكاثر الهدال الذي يُصنعُ منه الدّبق... الذي يفيد في إيقاع طيور السّمنة في الفخّ).

189 - الأربعة أضعاف: هي قطعة ذهبية.

190 - Abyssus abyssum vocat: الهوة تجلب (تستدعي) الهوّة (مزامير،٤٢، ٨).

191 - هامش مدوّن في المخطوط: يصلني الخبر بأن مسرحية روي بلا قد مُنِعت منذ قليل (٧ كانون الأول ١٨٦٧).

192 - La mob: هي مصطلحٌ انكليزيٌ معناه: الدّهماء.

193 - غنافرون: شريك غينيول في الدّمى الليونيّة.

194 - من المسليّ إلى المتشدّد: 'انتقل من الرّصين إلى المرهف، ومن المسلّي إلى المتشدّد...' (بوالو، فن الشعر ١، ٦٥).

195 - Muta Themis: تيميس الخرساء. إن تيميس هي التّسمية المجازيّة للعدالة.

196 - السّجلات: كانت مصنفات تحتوي كتابة محاضر تثبتُ تاريخَ وسندات الملكيات. وكانت تُصاغُ بلغةٍ لاتينيةٍ محرّفة وكلمة chartularium تنتمي نفسها إلى لاتينية العصرِ الوسيط.

197 - Lex, Rex, vex : القانون، الملك، الغائط.

198 - تأنيب: في القانون القديم، كان عقاباً يتمثّلُ في أن يتلقّى المرء، وهو واقفٌ أمام المحكمة، تحذيراً من الرئيس بعدمِ ارتكاب الخطأ الذي أدين به.

199- المنفّذ: مأمورٌ مولج بتنفيذ أوامر القضاء.

200 - أكمام علويّة: نوعٌ من الأكمام التي كانت تغطيّ الذراع من الكتف إلى المرفق. وسادة كانت تُحشى بها هذه الأكمام

201 - Roads . rows، lanes: طرق، وصفوف، ودروب.

202 - Archegayes: أنواع من المقاذف.

203 - إيثيلوولف: ملك ويسيكس وكنتْ، توفي عام ٨٥٨.

204 - جون هاوارد: رجلٌ إنسانيٌ انكليزيٌ (١٧٢٦- ١٧٩٠) وقد كرّس حياته وثروته لتحسين نظام السّجون.

205 - الحقّ في أن يحملَ المرءُ مجناً، وأن يمتلكَ أسلحةً.

206 - Cusos Turris: حارس البرج

207 - A silentiariis... يقودهم حرّاسُ الباب الصّامت.

208 - القوس الزاحفة: هي قوسٌ تكون منابتها على ارتفاعاتٍ متفاوتة. ورجلُ العقد Imposte هي: حجرٌ بارزٌ ترتكزُ عليه قنطرةٌ رواقٍ مقنطر.

209 - العظمة هي: منصب المعظمٌ، والإمبراطور الرّوماني.

210 - الفينيان: هو اسم أطلقه أعضاءُ جمعيّةٍ ثوريّةٍ ايرلنديّة على أنفسهم، وكان هدفُها هو تحرير ايرلندا من السّيطرة الإنكليزية. لقد حُكم على الجنرال بيرك بالموت في نيسان للعام ١٨٦٧ مع عددٍ آخر من الفينيان في دبلن. وقد أعفي عنهم في ٢٥ أيار في الوقت نفسه الذي نشرت فيه رسالةٌ فيكتور هيغو: إلى

إنكلترا. إن قصيدة بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني للعام ١٨٦٧ تلوم الملكة على إعدام ثلاثة فينيان آخرين. (حبل البرونز، القيثارة كلّها رقم: ١٨).

211 - Formaliis Verbis pressus: في المقطع التالي، إن الصّياغات باللاتينيةَ الخليطةَ التي ينغمها الرّقيبُ برتابةٍ صادرة عن معجم glossarium الذي أعدّه دوكانج. وترجمتها لا تقدّمُ بطبيعةِ الحال أيّة فائدةٍ لأن كلّ ما تفعلُه هو أنها تعرضُ الحدثَ أثناء حدوثه. وغالباً ما لجأ رابليه إلى هذه الوسيلة لكي يُظهر غباءَ بعضِ قواعد التصرّف الشرّطية والقضائية.

212 - Scotrum ante mortem : عاهرة قبل الموت.

213 - فيرمان: ليس هذا الاسم شائع الاستعمال، وهو ناتجٌ بالبداهة عن اسم فيرمان - بيه، وهو مكانٌ قريبٌ من أوتفيل - هاوس التي كان هيغو يتردّد إليها.

214 - Jussu regis: بأمرٍ من الملك.

215 - Con Feives: نوعٌ من الطحالب (من اللاتّينية: Confervere: لحَمَ) كان القدماء يعزون إليها فائدة لأم الجروح.

216 - نتذكرّ أن الدكتور في بادئ الأمر قد طلب حبلاً غير مزفّت ثم غمرَ عنقَ المطرة في الزّفت الغالي.

217 - في: مشاهدات: (المجلد الثاني، الصفحة: ٥٠١) يذكر هيغو في ٢٢ آب للعام ١٨٦٧، أثناء رحلته إلى زيلنده، وعلى بروير شافن، أنهم دلوّه من بعيدٍ على الكثيب الذي وُجد فيه منذ مئةِ عام أحدُ سكان الإسكيمو الغارق في زورقه الجذعيّ [....] وكان المحيطُ قد جلب هذا الرّجل من القطب. إن هذا الانسياق. الفريد قد أوحى لهيغو بمصيرِ مطرةِ هاردكوانون غير المعتاد.

218 - بيدلو: إن هذا الهولندي هو الذي عهد إليه بطرس الأكبر مسؤوليةَ الغوسبيتال في موسكو والذي كان أيضاً مدرسةً هامةً للطّب. ولسوف يؤمنّ بيدلو القيام بمهمتّهِ بحماسة وكفاءة حتّى وفاته عام ١٧٣٥.

219 – Et se cupit ante videre: 'ولكنها قبلاً تُريد أن تُرى '(فيرجيل، الرعّويات رقم III، ٦٥، 'إن غالاتيا تقذفني بتفاحة، الحمقاء، وتهربُ نحو أشجار الحور، ولكنها قبل ذلك، ترغبُ في أن تُرى') .

220 – موناليشي: سيّدٌ إقطاعيٌ إيطاليٌ، محظيٌ كريستين دوسويد. وحين أصبح لكريستين محظيٌ جديد، سانتينيليّ. كتب موناليشي عن كريستين رسائل مهينة، مقلداً بذلك قصرَ سانتينيليّ. وفي ١٠ تشرين الثاني ١٦٥٧، في قصر فونتينبلو، مكان الإقامة المخصّص لكريستين، في أروقة ديستير، تمّ خنقُ موناليشي بناءً على أمر الملكة، وتقريباً تحت نظرها على يد سانتينيلي. وهي جريمةٌ أثارت في البلاط، في باريس، أشدّ الاستفظاع.

221 – سيمانكا: قصر في مدينة سيمانكا يحتوي مستودعاً لمحفوظاتٍ هو الأغنى في أوروبا كلّها.

222 – ما يتصل بالبلاط (من اللاتينية: Aula: بلاط).

223 – تنتزعه من السيادة الإقطاعية ليسقط بين العامّة.

224 – S'enquérir (تحرّى): قد أُضيفت بناءً على اقتراح أوغست فاكيري: 'هل كانت الملكةُ تعرفُ تشوّهَ غوينبلين... ولعلّ المرء يدهش حينئذٍ من أن تكون قد دفعت بالانتقام إلى أن جعلت مجلس لورداتها مضحكاً بنفسها'.

225 – Nil Mirari: لا يدهش من شيء.

226 – Mane thecel phares: معدودة، موزونة، ومقسمة (دانييل /V /) إعلان خراب بابل الذي يظهرُ بحروفٍ من نار على جدران القصر الملكي.

227 – Tombeau - Tumbon (قبر). حين ذهبت جوزيان لحضور العرض كانت عربتها الفاخرةُ بذلك الشكل المسمّى في إسبانيا عربة - القبر، وهي تنوّعٌ رائعٌ له غطاءُ قبر (II، III، V).

228 – دافعو الضرائب: هم تابعون ومزارعون يدفعون ضريبة.

229 – تبعيّات: Mouvances هي أملاكٌ تدخلُ في نطاقِ إقطاعةٍ معينة.

230 - Taratantara: كلمةٌ صوتيّةٌ مخصّصة لمحاكاةِ صوتِ البوق (ونجد هذه الكلمة في حوليّات إينيوس).

231 - Turpe seniles amor: حبُّ العجوز المخجل. ('حبُّ الشّيوخ أمرٌ مخجل' أوفيد - الغراميات، ١، ٩، ٤).

232 - plebs, Fex urbis - الدهماء، حثالة المدينة.

233 - Silvae sint consule dignae: فلتكن الغاباتُ جديرةً. بقنصل (فيرجيل، الرّعويات، ٤، ٣)

234 - Garrula pericula - الخطر المهذار.

235 - Plaudite cives - صفقوا أيّها المواطنون.

236 - Roan - كلمة انكليزية تعني: أنين.

237 - (باللاتينية: للجدران الصّماء، جرسٌ أخرس).

238 - Post hoc non proter hoc: على إثر هذا وليس بسبب ذاك

Post hoc ergo propter hoc: على إثر هذا، إذن بسبب ذاك: إنها عبارة كان يُدلُّ بها، في علم الكلام، على الخطأ المتمثّل في اعتبار السّبب فيما هو ليس إلاّ سابقة في الزمن.

239 - ERROR CIRCUMFLEXUS locus implicitus gyris التجوال الدائري، ومكان الانعطافات المعقّد.

240 - ماب: الملكة ماب، شخصيّة من شخصيّات عالم الجنّ الإنكليزي. ويصفُها شكسبير في روميو وجولييت (١،٤) والملكة ماب هي أيضاً عنوانٌ قصيدةٍ فلسفية لشلي. وجيو، أوأغايا أوجيه: هي الأرض - الأم، ثم زوجة أورانوس (ماب وجيو، هما استمرارٌ للتّضاد بين مجهريّات هائلات، بين مرهفات - وضخمات، بين صغير ناعم - وجبّار).

241 - عارية تحت نور المصباح (أوراس، هجائيات، ٢، ٧، ٤٨) لقد زوّد الاستشهاد العنوان برسمٍ هو: رسومات لافي، (١، ٣٥٠).

242 - إيبيه كانت ابنة زوس وهيرا، وكانت تجسّدُ الفتوّةَ الأنثوية، وحين قُبِل هيراكليس في الأولمب، أصبحت إيبيه امرأته.

243 - ألديباران: أو عينُ الثور، نجمةٌ من الحجم الأكبر في كوكبه الدّب، وذاتُ لونٍ جميل مائل للبرتقالي.

244 - الإيريب هو ابن الخواء والليل، والذي غالباً ما يُطابق الشعّراءُ بينه وبين الظّلمات الجحيميّة.

245 - كانيديا هي: عاهرةٌ وساحرةٌ يفضحُها أوراس في قصائدهِ وأُهجياتِه. أما ميديا فساحرةٌ تهربُ مع جازون، في الأسطورة، وحين يتركها، تخنقُ أبناءَها انتقاماً منه.

246 - أليوت هي: نجمةُ الدّب الأكبر، وتعني الذّيل بالعربية. أما سيريوس فهي نجمةُ العظمةِ السّاطعة.

247 - الجنيّة أورجيل هي جنيّةٌ محسنة جعلتها أوبرا هزليّة لفافار شعبيّة (وقد قدّمت في عام ١٧٦٥ مع موسيقا لدوني). ويذكرها هيغو في أحد موشّحاته.

248 - رودوب هو من بين الأسماء التي يؤثّرها هيغو. ويدورُ الكلامُ هنا على ملكة مصر التي عشقت فتّيح (أوبتاح) والذي بُني من أجله معبدُ ممفيس. وقبلاً، في مجموعة: أغاني الشوارع والغابات (لهيغو: الأرقام (I) و (II) و(IX) و٣، كان يذكر 'رودوب، ملكة مصر' غير أن مجموعة (ألبوم) عام ١٨٦٥ تبيّن أنه كان متردّداً: 'رودوب، محظيّة طيبة' وكان، من جهةٍ أخرى، قد تخلّى عن مقطعٍ مثيرٍ للتساؤل وهو: 'متوسلاً قضيبَ أسلٍ من الإيريب/ مُقدّماً' إلى رودوب ذات الثديين العاريين/ وعلى يد أو. نيور، قوّاس طيبة/ ذلك الخادم الذي كان يحلّ رباط فينوس'.

249 - بيهيموت: حيواناتٌ هائلة وخارقة للعادة في: أيوب الفصل الأربعون - ١٥ - ٢٤، في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس (١٠- ١٩). وفي عدد من الأبحاث الخاصة بالشياطين يُذكر اسم بيهيموت بين أسماء أرواح الشّر.

250 – وقاء: قطعة من القماش كانت تغطي مؤخّرة السّفن الشراعية الحربية ضدّ تقلّبات الجو.

251 – 'جوار' الكابيتول هو بطبيعة الحال الصّخرةُ التّاريخيةُ التي كانوا يدفعون بالمجرمين منها. وتجاورُ هذين المكانين اللّذين يمثّلُ أحدُهما المجدَ والآخرُ السّقوطَ قد أوحى بالمثل الشهير.

252 – الكاتونة هو: معطفٌ احتفاليٌ لأعيان إنكلترا.

253 – أندريه – جاكوب روبو (١٧٣٩– ١٧٩١) نجارُ أثاث، ابن عاملٍ متواضع، وقد لاحظه المعمارُ بلونديل. وقد أصبحَ رياضياً، ورسّاماً وميكانيكياً.

254 – Curia erat serena: كان الاجتماعُ يجري مساءً.

255 – السّابلين: من اللاتينية: زيبلين - سمورٌ سيبيريا.

256 – Dooms day - book: يوم الحساب الأخير. وDoomsday - book هو سجل المساحة.

257 – بلا إغراء، بلا مال، بلا رشوة.

258 – لقد سُمّيت في إنكلترا، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بتعبير: البلدان – الفاسدة، الجهات التي تتمتع مبدئياً بتمثيلٍ برلمانيٌ من دون أن تتمكّن فعلاً من ممارسته لعدم تمتّعها بسلطةٍ حقيقية على الأرض. وقد وضعت وثيقةُ الإصلاح نهايةً لسوء الاستخدام هذا.

259 – La galeasse سفينةٌ ذاتُ مجاذيف وأشرعة، أكبر بكثير وأثقل من قادس، كان يتمّ بناؤها في البندقية من أواسط القرن السادس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر.

260 – هينكمار هو: رئيس أساقفة ريمس (٨٠٦–٨٨٢). ومؤلّفُ أبحاثٍ دينية، وأبحاث سياسية ورسائل.

261 – لوفلاس: نموذج المغوي السّفيه في رواية كلاريس هارلو (١٧٦٨) لريشاردسون.

262 – يتلاعبُ هيغو لفظياً على المعنى المضاعف للكلمات اللاتينية، فيصبح التعبير: ' Apertovivere voto' يعني 'يعيشُ مقرّاً برغبته' و'يعيش مظهراً تصويته'.

263 – حين يصف ف. هـ. القهقهةَ التي تهزُّ مجلس اللوردات، فهو يتذكرّ بدهياً الحادثة المزعجة التي هي من النوع نفسه والتي كان ضحيّةً لها أثناء مداخلةٍ في المجلس.

264 – Histrio، mima!: 'حوالي نهاية القرن، كان غنياً بما فيه الكفاية إلى الدّرجة التي طلب إليه بها ريك – كيني مساعدةً يتضمن عنوانُها: إلى صديقي اللّطيف ومواطني السّيد وليام شكسبير. فرفض المعونة على ما يبدو وأرجع الرّسالة التي عُثرَ عليها بعد ذلك في أوراق فلتشر، وعلى ظهرها كان ذلك المدعو ريك – كيني نفسه قد كتب Histrio، mima! ' (ف. هيغو، وليام شكسبير). والمعنى هو: أيّها المشعوذ المقلّد! (الترجمةُ هنا لنا. م: ز. ع).

265 – Tardigrade: مشتقة من كلمة Tardus اللاّتينية التي تعني: بطيء، و gradi – سار. وهو حيوانٌ فقريٌ صغير القامة جدّاً، وله أربعةُ زوائد ذات مخالب، وهو يكثر في الطحالب والأشنّيات البحريّة. واشتقاقٌ هذه الكلمة هو الذي يوحي لهيغو بهذه الاستعارة.

266 – Civadiere: هي شراع مربّع لصارٍ مائل (مشتقٌ من اللغة البروفانسيّة Civada، وهي الشّوفان، لأن ذلك الشرّاع له شكلٌ كيسٍ من الشوفان).

267 – Cavendo Tutus: بأمانٍ وباستعداد.

268 – إلغاء القناديل في الوقت الذي تغدو فيه ضروريّةً: هذه إشارةٌ دون شكٍّ إلى مصادرةِ الأسبوعية لا لانتيرن (القنديل) (في ٢٠ تموز ١٨٦٨)، وإلى الملاحقات التي جرت ضدّ مديرها هنري روشفور. وهذا الأخير، الذي حكم في الخامس من آب بالسّجن لأربعةِ أشهر، قد لجأ إلى بلجيكا، وقد عرضَ عليه هيغو أن يؤويه.

269 – إن مصير غوينبلين الذي ينتقل فجأة من واقع إلى آخر يجعلُ المرءَ بطبيعةِ الحال يفكّر بمصير سيغيسمون في 'الحياة حلم' لكالديرون.

270 – ليست نهاية غوينبلين 'انتحاراً' (قد أنقذه منه أومو للتوّ) بل تضحيةٌ سعيدة يرضى أن يقوم بها ليلحق بديا. إن فيكتور هيغو، الذي تردّد بشأن هذه النهاية، قد اختار في نهايةِ الأمر أن يمضي للبحث في أعماق نفسه عن ذكرى الألم الذي عاناه أثناء غرق ابنته ليوبولدين وصهره جاك فاكيري. إننا نعلم أن جاك سبّاحٌ ممتاز، وحين لم يستطع أن ينقذ ليوبولدين، فقد ترك نفسه ينجرفُ معها. وفي رسالةٍ إلى بول موريس، بتاريخ ٢٢ آذار للعام ١٨٧٠، يروي هيغو حادثةَ غرقِ سفينة نورماندي، فيكتب:

'في سفينة نورماندي البخاريّة التي غرقت في عرض البحر، منذ أربعة أيام، كان هناك نجار مسكين وزوجته... ولم يبق إلاّ زورق إنقاذ (فليكة) قد امتلأ بالناس الذين كانوا يحطمون قلسَ المركب ويهربون. فيصيحُ الزوج:

' انتظرونا، سوف ننزل.' فأجابوه من الزّورق'لم يعد هناك مكانٌ إلاّ لامرأة. فلتنزلْ امرأتُك.

فقال الزوج:

– اذهبي، يا زوجتي'

وأجابت المرأة:

' Nenni[*]، لن أذهب، ليس هناك مكانٌ لك. فلنمتْ معاً' إن هذه الـــ Nenni رائعة. وهذه البطولة التي تتكلم لهجةً إقليميةً تقبضُ القلب. إنها Nenni رقيقة مع ابتسامةٍ رقيقةٍ أمام القبر.

وطوّقت المرأة المسكينة بذراعيها عنق زوجها، وماتا كلاهما.

إني أبكي وأنا أكتبُ لك هذا، وأفكرُ بصهري الرائع شارل فاكري......'

فيكتور هيغو

(*) لا، لا، أبداً (م: ز. ع).

الفهرس

الكتاب الثاني
غوينلين وديا

الكتاب الثالث
بداية التصدّع

الكتاب الرابع
القبو العقابي

الكتاب التاسع

في حالةَ دمار

خاتمةَ

البحر والليل

ملف

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

«الرّجل الضاحك» هو الرواية الرابعة التي تصدرها الهيئة العامة السورية للكتاب، مترجمةً عن الفرنسية لمؤلّفها فيكتور هوغو. وهي تتصدى للنظام الملكي الإنكليزي بكلّ ما فيه، ما له وما عليه، فقد شهدت انكلترا، قبل فرنسا بمئة وأربعين عاماً، ثورةً، ومجلساً حاكماً قاتلاً للملوك، وجمهورية، وإعادة للنظام الملكي غنيّاً بتسويات الحسابات.

وقد اختار فيكتور هوغو هذه الفترة الأخيرة ليرسم لوحة ملحميّة للأرستقراطية الإنكليزية من خلال المصير الاستثنائي لغوينبلين، الرجل الضاحك.

إنها في آن واحد، روايةُ مغامرات، وعرضٌ تاريخيّ واجتماعيّ، ومأساةٌ (دراما) لا يمكن تمثيلها، وقصيدةٌ رؤيوية، وهي أكثر روايات هوغو جنوناً، وهي أيضاً الأغنى بكل استحواذات مؤلّفها. وكان هناك اعتقاد بإمكان إيراد فرويد والحركة السّوريالية بصدده.

إن المركب الذي تلفّه العاصفة، ورؤيا المشنوق التي تستخدم كمرقب، والكوخ - مسرح البهلوانات، والمقاطع الفلسفية الطويلة، مقاطع أورسوس، ومكائد الغادر بالكيفيدرو، وجراحة هاركوانون الشيطانية الماسخة، وصورة الأميرة المنحرفة، وذهب القصور، وفضيحة مجلس اللوردات هي مقطوعات أدبية منتقاة أكثر مما هي قطعٌ بارعة الأسلوب.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٥٤٠ ل.س أو ما يعادلها